



عالم الفكر

الملاحم والسير الشعبية

- الواقع والأسطورة في القصص الشعبي
- الآداب الشعبية والتحويلات التاريخية
- مفهوم الشر في الأدب الشعبي
- الضوكلور والتراث

"مجلة عالم الفكر" قواعد النشر بالمجلة

- (١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .
- (٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقاً للقواعد التالية :
 - (أ) أن يكون البحث مبتكراً أصيلاً ولم يسبق نشره
 - (ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والفرائط والرسوم اللازمة .
 - (ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢.٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦.٠٠٠ ألف كلمة .
 - (د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة المطابعة ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
 - (هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري .
 - (و) البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اقصاءات فيها تجاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .
- (٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل النشر ، وذلك وفقاً لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحة والرعاية

وزارة الاعلام - الكويت - ص.ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * أبريل - مايو - يونيو ١٩٨٦
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الإعلام - الكويت : ص. ب ١٩٣

المحتويات

الملاحم والسير الشعبية

- | | | |
|----|---------------------------------|---|
| ١ | بقلم مستشار التحرير | التمهيد : الواقع والأسطورة في النص الشعبي |
| ٩ | الدكتور عبد الرحمن أبو ب | الآداب الشعبية والتمولات التاريخية |
| | | الاجتماعية مثال سيرة بني هلال |
| ٧ | الدكتور عبد الحميد يونس | السيرة الملاحية |
| ٣ | الدكتور أحمد مرس | ملحوم الشر في الأدب الشعبي |
| ١ | الدكتورة هيام أبو الحسين | ملحمة في قالب حكاية |
| ٣ | الدكتور عبد الطيف الرخوئي | القول والكاور والقرارات |
| ٢٣ | الدكتورة زاشاخود الصباح | العدو بالناسم في ملاحم عصر النهضة الأوروبية . |

...

شخصيات وآراء

- | | | |
|----|-------------------------------|--------------|
| ٣٣ | السيد / مصطفى عبد القوي | البحر والقرب |
|----|-------------------------------|--------------|

...

مطالعات

- | | | |
|----|---------------------------|---|
| ١٧ | الدكتور حسن الزواكل | الأدب المغربي الحديث في اللغة الأسبانية |
|----|---------------------------|---|

...

من الشرق والغرب

- | | | |
|---|---------------------------|--------------------------------|
| ٨ | السيد / خاتر الطاهر | الفن والحداثة بين الأسى واليوم |
| ١ | الدكتورة لطيفة حليم | التغير الاجتماعي |

...

صدر حديثا

- | | | |
|-------|-------------------------------------|--------------------|
| | عرض وتعليق السيد / عبد المهدى | كتوز الفن الاسلامي |
|-------|-------------------------------------|--------------------|

مجلس الادارة

- حمد يوسف الرومي (رئيسا)
- د. أحمد أبو زيد
- د. رشاحمود الصباح
- د. عبد المالك التميمي
- د. علي المشووط
- د. نورية الرومي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تنقلها للنشر .

تمهيد

من المشكلات التي تواجه الباحث الأنثروبولوجي في دراسته للأدب الشعبي بمعناه الواسع الذي يشمل الأساطير والحكايات الشعبية والخرافات والسير والملاحم وما إليها مشكلة الحدود الفاصلة بين الأحداث الواقعية وإبداعات الخيال ، ونوع التفاعل القائم بينهما وتداخلهما معا في بناء الأسطورة أو السيرة أو الملحمة . وهذا موضوع صعب وشائك وشيق ويؤلف جانباً هاماً من مجال أكثر اتساعاً وتعقداً هو مشكلة العلاقة بين التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة والقصص الخيالي بوجه عام ، ومحددات وعناصر ومكونات كل منهما والملاصق التي تفصل بينهما على الرغم من أنهما يعبران - ولكن كل بطريقة الخاصة - عن الوجود الإنساني ، كما يسهمان معاً في وصف الوضع التاريخي للإنسان . فالمشكلة التي تشغل بال الكثيرين من المفكرين وبوجه خاص بعض المفكرين وعلماء الأنثروبولوجيا البنائيين في السنوات الأخيرة وفي هذا المجال بالذات هي تحديد ذلك القدر من الواقع التاريخي ومن الخيال القصصي على السواء في كل من السرد التاريخي والسرد القصصي ومعرفة أين ينتهي التاريخ ويبدأ القصص الخيالي . ومن الواضح أنه كثيراً ما يمتزج القصص التاريخي بالحكي الخيالي في هذه (الأعمال) الأدبية الشعبية ويرتبطان معاً في وحدة عضوية يصعب التمييز فيها بشكل قاطع بين مختلف المكونات الواقعية والخيالية - أو حتى الأسطورية . وكما يقول بول ريكير إنه إذا كان التاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة والسرد القصصي أو الروائي الخيالي يشتركان معا فيها فيسميه بعض المفكرين البنائيين « فعل القص » ، فإنه يتعين علينا تحديد وتعين ملامح هذا

الواقع والأسطورة في القص الشعبي

« القمل » في كل من نوعي « الخطاب » : الواقعي والخيالي ، ووظيفة هذا « الفعل » في كل منها .^(١) والمهم هو وجود هذين المنصيرين وإرتباطهما دائما على كل مستويات « القص » وإن يكن ذلك بنسب مختلفة ، كما يقوم كل منها بوظائف معينة بالذات حاول بعض الكتاب للمفكرين تجديدها وتحليلها^(٢) . ولكن هذه الجهود رغم أهميتها وطرانها كثيرا ما توقع القاريء وبخاصة القاريء غير المتخصص في الحيرة . والمسألة على أي حال تحتاج إلى شرح وتوضيح وتقريب إلى القاريء العربي ، على اعتبار أن هذه الجهود تمثل مداخل جديدة لدراسة الأدب الشعبي خليفة بأن يلتفت إليها ويهتم بها الدارسون عندنا وأن يعمل البعض منهم على تطبيقها في مجالات القص الشعبي العربي ، لأن مثل هذه الدراسات من شأنها أن تثرى وتعمق فهمنا لتراثنا العربي وبخاصة التراث الشعبي الذي يلقي الآن كثيرا جدا من الاهتمام .

وحين يتكلم علماء الأنثروبولوجيا والمفكرون البنائيون الذين توليهم هنا عناية خاصة - عن الواقع والأسطورة في الأدب الشعبي فانهم لا يقصدون التمييز بين الوقائع التاريخية المحددة والأحداث الخيالية المفردة رغم أهمية ذلك ؛ وإنما هم يقصدون في المحل الأول معرفة الخصائص والمميزات العامة لمختلف المكونات التي تدخل في بناء العمل الأدبي الشعبي . بل الأكثر من ذلك أنهم قلما يهتمون بالتركيز على عمل أدبي واحد معين بالذات كان يقتصر على دراسة أسطورة واحدة فقط أو حكاية شعبية واحدة فحسب ويهتمون بها لذاتها ، وإنما هم يتخلون من ذلك العمل - في حالة الاتصال عليه - مثالا يتعرفون منه ملامح القص الشعبي بوجه عام ، وذلك على اعتبار أن هناك احتمالا بوجود مباديء أساسية تكمن وراء كل هذه الأشكال من الأدب الشعبي ، مثل إمكان وجود حكايات plots معينة بالذات في لون معين من ألوان ذلك « الأدب الشعبي » كالأساطير مثلا أو السر أو الحكايات الخرافية في مناطق ثقافية واسعة من العالم . مثال ذلك أن عميد البنائيين الفرنسيين الأستاذ كلود ليفي ستروس Claude Levi- Strauss يرى أن الثقافة الانسانية يمكن التمييز فيها بين عدد من الوحدات الكلية أو الثقافات المختلفة ولا يستثنى من ذلك ثقافة الشعوب البدائية ، كما أنه في غالبية تحليلاته للأساطير ، وربما باستثناء دراسته لقصة أزدیوال Asdiwal كان يهتم بمشكلات المقارنة عبر الثقافات المختلفة . فالمنهج البنائي له في نظره قدرة عجيبة على اضاءة الطريق أمام الباحث لأنه يكشف له عن وجود أبنية ذات غمط موحد في « المنتجات الثقافية » التي تبدها « الثقافات » المتباينة^(٣) .

ولقد بذلت في المجال كثير من الجهود الجادة في السنوات الأخيرة لتبيين الأساليب والوسائل التي ترتبط بها « الإمكانيات المنطقية » التي تسبق عناصر ومكونات القصة أو الرواية لتكوين « الخطاب » الخيالي أو الأسطوري . ومعظم هذه المحاولات الحديثة تتبع أحد مدخليين : للمدخل الأول يهتم بإبراز وتوكيد الجوانب الدلالية semantic « للعلامة » الأدبية ، بينما يهتم المدخل الثاني بإبراز وتوكيد « النظام العام » وذلك على حساب العناصر المكونة ، مثل « الوظائف » التي يهتم بها المفكرون الصوريون أو التشكيليون الروس من أمثال فلاديمير بروب Vladimir Propp

Paul Ricoeur, *Hermeneutics and Human Sciences*, C.U.P., London 1981, p. 274.

(١)

Gregory L. Lucente; *The Narrative of Realism and Myth*, Johns Hopkins University Press, London 1981, p. 41.

(٢)

Edmund Leach, "Introduction" in Edmund Leach and D. Alan Aycock; *Structuralist Interpretations of Biblical Myth*; Royal Anthropological Institute, C.U.P., London 1983, p. 1.

(٣)

أو مشكلة التماثل والتحويلات أو التحويرات التي اهتم بإبرازها ليفي ستروس في دراسته القيمة للأساطير التي ظهرت في كتابه الضخم ذي الأربعة أجزاء بعنوان « أسطوريات Mythologiques » حيث كان يهتم بتتبع (تحولات) الأسطورة الواحدة في أنماط معينة داخل مساحة ثقافية واسعة جدا من الأمريكتين . وواضح أن كلا المدخلين متأثر بالدراسة اللغوية البنائية التي وضع أسسها فرديناند دوسوسير والتي أصبحت تمثل أحد المعالم الأساسية في الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي والأدبي المعاصر . وهذا المدخل الأخير ، أعني المدخل البنائي ، هو الذي سوف يتأثر معظم اهتمامنا هنا ، وإن كنا بالضرورة ونظرا لطبيعة الموضوع سوف نعرض للمدخل الأول حيثما اقتضى الأمر ذلك ، كما أن معالجة الموضوع سوف تتم في المحل الأول من زاوية ووجهة نظر البحث الأنثروبولوجي البنائي .

فالعناصر والمكونات الواقعية والأسطورية على السواء تسبق « السرد » بالضرورة وإن كانت لا تكتسب قائلتها كعناصر مكونة إلا عن طريق إعادة صياغتها أثناء عملية السرد . ولا يتعارض ذلك مع فكرة العلاقة القوية والفريدة بين « الخطاب » الأدبي والحياة الاجتماعية . وارتباط هذين النوعين من العناصر المكونة - أعني العناصر والمكونات الواقعية والأسطورية - ببعضها ببعض بطرق وأشكال ونسب مختلفة يؤدي إلى ظهور مختلف أنواع القصص الخيالي التي تنطلق عليها اسم الحكاية الشعبية أو الأسطورة أو الخرافة أو السيرة الشعبية أو الملحمة⁽¹⁾ . وربما كان أهم ما يميز المكونات والعناصر في الأسطورة هو خاصية التكرار ، فهي تظهر وتكرر في مختلف الروايات وإن كانت تتخفى تحت صور وأشكال وعلاقات متنوعة لا يلبث أن يكشف التحليل عنها . وقد انتبه ليفي ستروس إلى تلك الخاصة واعتمد عليها في تحليله لذلك العدد الضخم من الأساطير التي يضمها كتابه « أسطوريات » والذي بلغ ثمانمائة وثلاث عشرة أسطورة ، كما انتبه إليها أحد كبار المتخصصين في دراسة الفكر الديني وهو ميرسيا إلياده Mircea Eliade في كثير من كتاباته⁽²⁾ . وإلى جانب هذه الخاصة الهامة التي يعتبرها البعض الخاصة الأساسية يشير بعض الكتاب إلى ما يسمونه « خاصة التعالي » ، ويقصدون بها الارتفاع أو التخلص والإفلات من قيود الزمان والمكان والتجربة اليومية الواقعية وتحدداتها ؛ وذلك فضلا عن التشابه والتماثل بين شخصيات القصص الأسطورية وهي شخصيات « مثالية » أو « نموذجية » في الأغلب . وهذه كل خواص تختلف كل الاختلاف عن مميزات مكونات « الواقعية » والقصص الواقعي ؛ فهي عناصر ومكونات تتمتع بدرجة من الوضوح والتحديد في الزمان والمكان وتضم شخصا غير مثالية ولها علاقات قوية بالتجربة اليومية العادية ، كما أنه يمكن إخضاع هذه المكونات كلها للتحليل بعكس المكونات والعناصر الأسطورية التي تخضع لمبادئ العقيدة والإيمان - بالمعنى الواسع - والتسليم المباشر بها .⁽³⁾

وفي ضوء هذه المحركات تصبح المسألة المهمة التي تواجه الباحث السنائي بالذات في دراسته لأنواع القصص الشعبية من سير وملاحم وأساطير وغيرها هي تعرف العلاقات المشتركة أو « الانتهايات المتبادلة » - حسب تعبير ريكير - بين

Gregory L. Lucente, op. cit., p. 42.

(1)

(2) انظر على سبيل المثال كتابه الشهير :

Mircea Eliade, Le Mythe de l'éternel retour, Gallimard 1949; Le Sacré et le profane, Gallimard 1965.

وكذلك سطر كتبه الأخرى التي قد تكون أقل شهرة وانتشارا ولكنها لا تقل حداثة زواجا وخاصة كتابه الضخم (في ثلاثة أجزاء)

Histoires des croyances et des idées religieuses, Payot, 1976-83.

Lucente, op. cit., p. 42 and pp. 47-8.

(3)

« النزعة القصصية » أو السردية *narrativity* والنزعة التاريخية *historicity* بكل ما تتميزان به من خصائص وملامح . وليس هذا بالأمر السهل حتى بعد كل ما قلناه عن اختلاف خصائص المكونات الأسطورية والواقعية . بل إن مفهوم « السرد » نفسه يثير كثيرا من الصعوبات سواء فيما يتعلق بالتاريخ أو العمل الخيالي . فعلى الرغم من أن « السرد » يعتبر مظهرا مشتركا في نوعي « الخطاب » فإن بعض المفكرين ينكرون أن التاريخ هو مجرد عملية سرد ورواية تدور حول شخصيات وأحداث متجسدة وبجسمة ومحددة بالذات ؛ بينما نجد من الناحية الأخرى من ينكر أن البعد الزمني في العمل الخيالي بعد أساسي لا يمكن الاستغناء عنه ؛ أو حسب التعبير الشائع في الكتابات البنائية « غير قابل للتقليص » .^(٧) ولتوضيح ذلك فإن الأمر يقتضي النظر في كل من السرد التاريخي الخيالي لكي نحدد جوانب التقائهما أو اختلافهما .

فمن ناحية نجد أنه لكي تعتبر « الواقعة » تاريخية بالمعنى الدقيق للكلمة كما يفهمها بعض البنائيين فإنه يجب أن تكون أكثر من مجرد حدث عرضي مفرد ، كما يجب تعريفها بالإشارة إلى الدور الذي قامت به في تطوير « الحبكة *plot* » . وهذا الفهم هو الذي يقوم بحلقه الوصل بين « تاريخ المؤرخين » و « النص الخيالي »^(٨) .

ولكن ما المقصود بالحبكة *plot* ؟

تقول دائرة المعارف البريطانية عن الحبكة إنها :

« في القصص الخيالي هي بناء الأفعال التي يقوم بينها علاقات متبادلة والتي يتولى المؤلف اختيارها وترتيبها عمدا وعن قصد . وتتضمن الحبكة مستوى من الترتيب « السردى » أعلى مما يوجد عادة في القصة أو الخرافة . وعلى ما يقول E. M. Forster فإن القصة هي « حكي لأحداث مرتبة حسب تتابعها الزمني ، بينما الحبكة تنظم الأحداث تبعا لإدراك ما بينها من أسباب وعمل » .

« وفي تاريخ النقد الأدبي خضعت الحبكة لعدد من التفسيرات المختلفة . ففي كتابه « فن الشعر » يعطي أرسطو أهمية قصوى للحبكة *mythos* ويعتبرها « روح » التراجيديا . ولكن النقاد المتأخرين كانوا يميلون إلى رد الحبكة وتقليصها إلى مجرد وظيفة أكثر آلية ، حتى جاء العصر الرومانتيكي حيث بهط المصطلح نظريا إلى مجرد إطار تخطيطي موجز يمكن تعليق محتوى القصة الخيالية عليه . وكان الاعتقاد السائد هو أن مثل هذه المخططات الموجزة توجد منفصلة عن أي عمل معين بالذات ، وأنها قابلة للاستعمال أكثر من مرة ، كما أنه يمكن التبديل بينها ، وأن المؤلف يمكنه إسباغ الحياة عليها عن طريق تطوير الشخصيات والحوار وغير ذلك من العناصر »^(٩) .

ولا يكاد يجدي وهبة يخرج عن ذلك في تعريفه للحبكة في كتابه « معجم مصطلحات الأدب » حيث يقول : -
« ينص أرسطو في كتابه (فن الشعر) على أن الحبكة هي قلب التراجيديا . فقد ذكر الحبكة في الفصل السادس

Paul Ricoeur, op. cit., p. 275.

Ibid, p. 277.

Encyclopaedia Britannica "Plot", in Micropaedia, vol. VIII, P. 47.

(٧)

(٨)

(٩)

من كتابه بقوله : « فالقصة (أي الحكاية) إنذ هي نواة التراجيديا والتي تنزل منها منزلة الروح ، . . . ثم يبدأ أرسطو فصله السابع قائلا : « فلبحت كيف ينبغي أن يكون نَظْم الأعمال (أي الحكاية) . إذ كان ذلك أول شيء وأعظم شيء في التراجيديا . وقد سبق لنا القول إن التراجيديا هي عاكسة فعل كامل تام له عَظَم ما . . . ، فوحدة الحكاية في نظره نتيجة لملازمة الضرورة والسببية بين أحداث المسرحية . ولا تعتبر وحده الشخصية الأساس في الترابط . وقد ورث نقاد الأدب في عصر النهضة بإيطاليا وفي الفرد السابع عشر بفرنسا نظرية أرسطو في ضرورة الحكاية . وقد أدت هذه النظرية إلى فكرة الوحدات الثلاث التي شاعت في كتابة المسرحيات منذ القرن السابع عشر ، كما يمكن اعتبار نشأة الرواية الثرية بأوروبا راجعة إلى تطبيق فكرة الحكاية على القصص الثري . وفي الوقت الحاضر نجد الرواية والمسرحية تتراوحان بين التزام الحكاية وعدم التزامها لأغراض جمالية »^(١١) .

فالقصة - أي كان - يصف تتابع الأحداث وتسلسل أعمال وتجارب عدد من الشخصيات الحقيقية أو التخيلية . وقد تظهر هذه الشخصيات في مواقف مختلفة ونستجيب للتغيرات التي تطرأ على هذه المواقف . كما أن هذه التغيرات تكشف بدورها عن بعض الجوانب الجديدة أو الخفية في تلك الشخصيات وتساعد على ظهور مواقف جديدة تستدعي التفكير أو الفعل أو الاثنين معا .^(١٢) فكان تتبع القصة أو الحكاية يتطلب إذن فهم الأفكار والأفعال والمشاعر المتتابعة التي تتكشف أثناء السرد والتي يفترض أنها تعبر عن اتجاه معين . ومن هنا تعتبر خاتمة القصة أو نهايتها بمثابة « القطب » الذي تجذب نحوه العملية كلها وتوجه إليه ، وإن كان يصعب مع ذلك التنبؤ بتلك الخاتمة أو النهاية التي يهدف إليها السرد . وهذه مسألة على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ لن يكون هناك قص أو حكي بالمعنى الدقيق للكلمة إلا إذا ظل انتباه السامع أو القاري مشدودا ومرتبطة بكثير من الاحتمالات والمفاجآت التي تظهر أثناء السرد والتي تساعد على الاستمرار في تتبع الحكاية حتى نهايتها . ولعل خير مثال لذلك هو ما يحدث أثناء سرد الملاحم العربية الشهيرة وبوجه خاص سيرة أبو زيد الهلالي من استنارة الراوي أو المُنشد لتوقعات الجمهور . وعلى أي حال فإننا لو نظرنا إلى الخاتمة وعدنا بالذاكرة إلى الرواء واسترجعنا أحداث القصة أو الحكاية بالتراد وانتظام إلى الخلف حتى البداية فسوف نجد أن تلك الأحداث كانت أحداثا ضرورية ولا غنى عنها للوصول إلى تلك النهاية . فكان تلك النهاية المعينة بالذات كانت تتطلب تلك الأحداث وتلك الأفعال المعينة بالذات أيضا .^(١٣)

وكل هذا يدفعنا إلى القول إن القصة أو الحكاية ، أي كان نوعه ، يعكس بعدين متعارضين ولكنها متكاملان . البعد الأول بعد تاريخي أو زمني يعبر عن نفسه ليس فقط في سرد الأحداث التي وقعت بالفعل أو التي يتخيل (المؤلف) أو الراوي حدوثها ، وإنما أيضا في توقع ظهور أحداث طارئة أو مفاجئة تؤثر في سير الحكاية وتطورها . ويظهر هذا التوقع بوضوح في تلك اللهفة التي يحس بها القاري ، والتي يلمسها المستمع أثناء عملية السرد لمعرفة سير الأحداث التالية ، والتي كثيرا ما تترجم عن نفسها في بعض التسؤلات لاستكمال معرفة النتيجة التي أدت إليها هذه الأحداث : (وماذا حدث بعد ذلك ؟ وما النتيجة ؟ وبعدين ؟ .. الخ) .

Magdi Wahhab; "Plot", in a Dictionary of Literary Terms, Librairie du Liban, Beirut 1974, pp. 411-12.

(١٠)

Ricoeur, op. cit., p. 277.

(١١)

Loc. cit.

(١٢)

ولكن « نشاط الحكيم » أو « النشاط القصصي » - حسب تعبير بول ويكير - لا يتوقف عند حد السرد البسيط الذي يقوم على إضافة الأحداث بعضها إلى بعض ، وإنما هو يرمي في آخر الأمر إلى تكوين « وحدات كلية ذات معنى » من تلك الأحداث المفردة المتفرقة . وهذا هو ما يفعله القاريء أو المستمع في حقيقة الأمر أثناء متابعتها الرواية أو عملية السرد ، إذ يجاهد في سبيل إدراك الوحدة الكامنة وراء هذه الأحداث . ففن الحكيم ومتابعته أثناء رواية القصة أو الحكاية وسرد أحداثها يتطلبان إذن القدرة على الاستنباط وتكوين صيغة عامة كلية من ذلك التابع . وتكوين هذه الصيغة العامة الكلية هو الذي يؤلف البعد الثاني لنشاط الحكيم أو النشاط القصصي ، وهو بعد « لازمي » وليست له علاقة بالوقت أو التاريخ أو الأحداث المفردة من حيث هي كذلك . ولكن الملاحظ هو أنه على الرغم من أهمية هذا البعد فإنه لا يكاد يلقى ما يستحقه من عناية واهتمام ، لأن الكثيرين لا يؤمنون بقدرة الحكيم أو القصص على ربط الأحداث بعضها ببعض والخروج منها بمثل تلك الصيغة وبخاصة حين يكون الأمر متعلقاً بالأدب الأدب الشفاهية في الثقافات (البداية) . وهو الأمر الذي كان يرفضه لبني ستروس وأفلح في تفنيده في دراسته للأساطير . وعلى أي حال فإن قبول هذين البعدين معاً يعني أن بناء القصص بناء معقد بل ولا يتخلو من التناقض ؛ لأن كل قصص يمكن تصوره في حدود وأنفاظ التعارض بين البعد الزمني المتعلق بالأحداث والوقائع المشخصة العينية والبعد اللازمي المتعلق بالصيغ العامة الكلية . وبذلك فإن أبسط أنواع القصص يعلمو بكثير عن أن يكون مجرد سرد عدد من الأحداث الجزئية التي يتتابع حدوثها في الزمن . ومع ذلك فإن البعد اللازمي الخاص بالصيغ الكلية لا يستطيع من الناحية الأخرى أن يغطي على ذلك البعد الزمني أو التاريخي المتعلق بالأحداث والوقائع العينية أو أن يلغي دور هذه الأحداث ، لأن هذا معناه القضاء على « البناء القصصي » ذاته^(١٧) .

كذلك من الخطأ أن ننصّر أن الحكاية تلزم القاريء أو المستمع بالمنظورات والأبعاد التي تنظر منها شخصيات تلك الحكاية إلى أفعالهم وتصرفاتهم وآرائهم ومواقفهم . بل الأمر على العكس من ذلك تماماً ، إذ تكون لديه أثناء متابعتها للسرد وجهة نظر خاصة به عما يجري في القصص من أمور وأحداث . وهي وجهة نظر مستقلة إلى حد كبير عن تلك التي يعبر عنها المؤلف أو الراوي أو المنشئ والتي ترد أثناء السرد على ألسنة تلك الشخصيات ، بل وقد يختلف حكم القاريء أو المستمع وتقويمه لتلك الأفعال بحيث يصدر عليها وعلى أصحابها أحكاماً متعارض مع ما تعتقده تلك الشخصيات في أنفسهم وفي تصرفاتهم أو إنجازاتهم . فالجمهور لا يقبل إذن كل ما يسرد عليه دون تفكير أو تأمل كما أنه لا يقف من السرد موقف للتلقي السلبي فحسب . ونحن لا نتقبل مثلاً بالضرورة كل أحداث السير الشعبية العربية وكل ما يرد فيها من تمجيد لأعمال الأبطال أو السخرية من خصومهم حتى وإن كنا نعجب بهذه الأعمال ونتعجبسها أثناء السرد أو الرواية أو الإنشاء^(١٨) ، وإنما نحن نخضع كل هذه الأحداث والروايات للتفكير والتأمل والتقييم وتنخذ

(١٧)

Ibid, pp. 278-80

(١٤) يكفي لتبين ما نريد أن نقول أن نقتل هنا بعض العبارات من كتاب الدكتور محمد رجب النجار : « أبو زيد المفلح ، الرمز والقصيدة » - دار الفرس الكويت ١٩٧٩ - يقول الدكتور النجار : « ... لا غرو أن نحفل للخدمة المخلابة بالقوى الخارقة أو القسرية (غير المنظورة) ، وأن يخف ... انحصار على السلام إلى جانب أبي زيد ... ومن ثم لن نقفي بالحصر بعد ذلك مراراً لاقتضائي زيد وعلاصه من القائل إنما يقصده مباشرة . وإنما يربطه أحد أبنائه . ومن التبريد أن يكون تحديداً ردياً لأن البطل ينجح في اجتياز إذا ما تلا اسم الله الأعظم ويتبدل بصورة القارئ يرد وسلاماً وكأنا ورواية من ريفائس الجنة » (صفحة ٩٥ - ٩٥) .
تلك باتكر في مجال أن أبا زيد بنهم ويطو جسدته غير حادثة ترملة للبطولة الخفية . فكان الأمير أبو زيد من الجبابرة الممدودين في الحرب والقتال والطنين والفرار ، وكان جمهوري الصوت ، وصيحت مثل صوت الرعد الخالص ولأن صرخته في الميدان عند الجبال الرواسي وتزفرل جيش الأعداء ، (صفحة ٩٧) كما أنه قرأه الجندية المخللة كانت ، تنجح له أحياناً مواجهة كتيبة أو قتيلا أو جيش - فوجه عشرة آلاف فارس - وفرداه أو في نفر قليل من أبطاله المخلصين » (صفحة ٩٨) وهكذا .

منها مواقف تختلف باختلاف المقومات الشخصية لكل منا وتتفق مع حسن إدراكنا للأمور . وهذا هو ما يطلق عليه مينك *Mink* تعبير «الحكم التأملي»^(١٥) . وليس من السهل على أي حال دراسة هذه المواقف وجهات النظر والأحكام التأملية . فمثل هذه الدراسة تحتاج إلى طرق وأساليب ومناهج ليس هنا موضع الحديث عنها وإن كانت تستحق الاهتمام .

ومن الطبيعي أن تسقط البنائية من اعتبارها عنصر التسلسل الزمني الذي يتعارض تماماً مع المنهج البنائي اللاتاريخي . فالبنائية هي في آخر الأمر «دراسة الأنماط» سواء في الحياة الثقافية أو الاجتماعية أو حتى الحياة الاقتصادية والسياسية ، كما أنها تهتم بالعلاقات بين الظواهر أكثر من اهتمامها بطبيعة تلك الظواهر . ويُعني المنهج البنائي عبارة خاصة بفحص الأبنية «التحتية» واللاشمورية الكامنة وراء تلك الظواهر . ومن هنا كانت البنائية تهبط بالمجربة إلى مستوى الأبنية السطحية الظاهرة ، وهي بذلك تسلب الحبكة دورها في القصص أو الحكيم وتجعل منها مجرد وظيفة ثانوية للصيغة العامة الكلية بحيث لا يمكن مقارنتها بالأبنية المنطقية الكامنة وراء الأحداث وتحولات هذه الأبنية . وربما كان من أهم ما يميز التحليل البنائي استخدام الطريقة الاستدلالية بدلاً من المنهج الاستقرائي ، وذلك على أساس النماذج التي يتم تكوينها مسبقاً وبطريقة شبه بديهية . فالتنوعات الماثلة في وسائل التعبير السردية من شغوية وكتابية ورسوم وأشكال وإشارات أو إيماءات ، وكذلك التنوع في أشكال الحكيم أو القصص (من أساطير وفولكلور وحكايات وروايات وملاحم وتراجمياد وغيرها) كلها تجعل الالتجاء إلى المنهج الاستقرائي مسألة غير عملية . وقد مهدت اللغويات الطريق بغير شك للطريقة الاستدلالية حين أعطت الأولوية للغة *Langue* من حيث هي نسق على الكلام *parole* الذي يعتبر بمثابة الحدث ، كما أعطت الأولوية للدلال *signifiant* على الدلول *signifie* . وهذه كلها أمور معروفة وسبق لنا أن تعرضنا لها كما تعرض لها غيرنا ولذا فليس ثمة ما يدعو إلى الدخول في تفاصيلها هنا مرة أخرى^(١٦) . يكفي أن نقول أن اتباع نموذج العلامات والدلالات أو النموذج السيميولوجي في مجال الحكيم والقصص هو مصدر ذلك الميل العلم الذي نجده في التحليل البنائي إلى التهنين من شأن التسلسل الزمني أو التاريخي للأحداث وإخضاع المظهر الزمني في عملية السرد إلى الخصائص الصورية الكامنة في القصص أو الحكيم .

وهذه كلها أمور تختلف تماماً عما تشير إليه الحبكة ، كما تخرج في الأغلب عن مجال اهتمام الكثيرين من الدارسين العرب في دراساتهم (لأحداث) الملاحم والسير وإغفال الأبنية التحتية العميقة الكامنة وراء تلك الأحداث (أو الظواهر) . وهذا لا يمنع طبيعة الحال من وجود بعض دراسات قليلة ومتفرقة اتبعت منهج التحليل البنائي في دراسة بعض صور الأدب الشعبي . ويحضرني على سبيل المثال تلك الدراسة الجادة التي قامت بها منذ سنوات الدكتور فريال جبوري غزول لكتاب ألف ليلة وليلة ونشرتها بالإنجليزية في القاهرة^(١٧) . وقد يكون من الطريف والمفيد مما أن يقارن القاري بين المنهج الذي اتبعته الأستاذة الدكتور سهر القلماي في دراستها الرائدة لليال في ومنهج التحليل البنائي الذي

Ricoeur, op. cit., p. 279.

(١٥)

(١٦) يمكن للقاري الرجوع في ذلك إلى مقالنا من : «التقصير والاشغالات : قراءة في فكر رولان بارت» ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس عشر العدد الثاني ، يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٠ ، صفحات ٣٣٥ - ٣٥٤ .

Perla Jabouri Ghazoul; The Arabian Nights: A Structural Analysis; National Commission for UNESCO, Cairo 1980. (١٧)

طبخته الدكتور فريال غزول . ولأزلا على أي حال في حاجة إلى مزيد من مثل هذه الدراسات التي تطبق للمفكر البنائي على الملاحم والسير الشعبية وغيرها من ألوان التراث والمأثورات الشعبية .

والذي نهدف إليه من هذا كله هو أن نبين أن المفكر البنائي في تحليله لألوان (الأدب الشعبي) الذي يدخل تحته السير والملاحم لا يعطي كثيرا من الاهتمام للأحداث المفردة الجزئية ولا لتسلسلها التاريخي وإنما يهتم بدلا من ذلك بمبادئ الفكر الأساسية الكامنة وراء تلك الأحداث (أو الظواهر) وذلك على اعتبار أن تتابع الأحداث مسألة ثانوية بحسب النسبة للبناء . ولذا فإن نفس البناء يمكن اكتشافه في أساطير أو في ملاحم أو في عدد من السير التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة . فمعاصر الملحمة أو السيرة الشعبية الواحدة تتحول وبالتالي تتحول للملحمة أو السيرة الشعبية ذاتها إلى ملحمة أخرى أو إلى سيرة أخرى وهكذا ، بحيث ينتج في آخر الأمر مجموعة أو منظومة تتميز بشبهاً بنائها وأطراده رغم اختلاف وضع عناصرها المكونة وترتيب هذه العناصر ، أي الأحداث ذاتها . وعلى هذا الأساس تكون الوسيلة الوحيدة لفهم الخصائص الأساسية للملحمة أو للسيرة الشعبية هي تفكيكها إلى أدق أجزائها وأصغر عناصرها المكونة . وقد أتبع لبني ستروس هذا الأسلوب في دراسته للأساطير وأطلق على هذه الأجزاء أو العناصر الصغرى كلمة « ميثيمات mythemes » أي أصغر وحدة أسطورية . والنتيجة الأخيرة للمطغية التي انتهى إليها لبني ستروس من ذلك هي أن كل ما يمكن للأساطير أن تكشفه لنا عن المجتمع الذي وجدت فيه أقل بكثير جداً مما تكشفه عن أعمال الفعل ، وأن ما معنى عقلياً أكثر منه اجتماعياً لأنها تصدر عن المنطق العقلي الذي هو طبيعي ولا شعوري . ويمكن أن يصدق هذا على الملاحم وعلى السير الشعبية إذا نحن اتبعنا مثل هذا المفكر في دراستها . ولم تبدأ دراسة لبني ستروس على أي حال من فراغ وإنما سبقتها بعض الجهود الهامة التي مهدت الطريق لها . وقد تكون هذه الجهود - على عمقها - أقل تعقيداً أو أكثر بساطة مما توصل إليه لبني ستروس . ولذا فقد يحسن بنا أن نشير إلى بعض هذه الجهود ، وبوجه خاص إلى أحد الأعمال الذي قلباً يمجد ما يستحقه من عناية واهتمام في علمنا العربي رغم أهميته ، ونعني به دراسة المفكر الروسي فلاديمير بروب للحكاية الشعبية في روسيا .



كان الشكليون أو الصوريون Formalists الروس أول من أثار مشكلة بناء العمل الأدبي في العشرينات . ويعتبر كتاب فلاديمير بروب عن « مورفولوجيا الحكاية الشعبية »^(١٨) كتاباً رائداً ونقطة انطلاق في مجال « سيميوطيقا القص » . وقد نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٢٨ بالروسية ثم نقل إلى الإنجليزية بعد ذلك بثلاثين عاماً (١٩٥٨) ، وبعدها بخمسة عشر سنة أخرى ، أي في عام ١٩٧٣ تمت ترجمته إلى الفرنسية . وهذا في حد ذاته دليل كاف على مدى أهمية الكتاب وكيف أنه ظل مؤثراً طيلة ما يقرب من نصف قرن هي التي تفصل بين ظهوره في الروسية ونقله إلى الفرنسية . والواقع أنه لا يزال يعتبر حتى الآن أحد المعالم الرئيسية للاتجاه البنائي في دراسة الحكاية الشعبية بوجه خاص وبقية أشكال الأدب الشعبي بعامة . لقد كان بروب - حسب ما يقول بول ريكير في كتابه الذي أشرنا إليه من قبل (صفحة ٢٨٢) أول من زعم إمكان رد الروايات المختلفة للحكايات الشعبية الروسية إلى تنوعات على أصل قصصي واحد وفريد .

وتقوم دراسة بروب على تحليل مائة حكاية من الحكايات الشعبية أو على الأصح الحكايات الخرافية التي تدور حول الجنيات . ولم يعط بروب كثيرا من الاهتمام لمحتوى هذه الحكايات أو مصمومتها وإن لم يغفل ذلك تماما ، ولكنه كان يهتم في المحل الأول بالبحث عن الموضوعات المحورية الأساسية أو « الثيمات » المشتركة التي يتكرر ظهورها في تلك الحكايات بأشكال وصور مختلفة ، أي أنه كان يسترشد في دراسته وتحليله ببدئي التماثل والتكرار ، وهما الميدان اللذان استعان بهما ليفي ستروس بعد ذلك بسنين طويلة في دراسته لأساطير الهندو الحمر في الأمريكيتين ومعركة العمليات العقلية اللاشعورية التي توجه الفكر الإنساني . ويكفي أن نشيرها إلى مثال واحد هذه « الثيمات » التي لاحظها بروب والتي تتكرر بأشكال مختلفة في عدد كبير من تلك الحكايات : -

أ - الملك يهدي البطل نسرا - النسرا يُخطف البطل وينقله إلى مملكة أخرى .

ب - رجل متقدم في السن يهدي سوسنكو حصانا - الحصان يحمل سوسنكو إلى مملكة أخرى .

جـ - الساحرة تعطي إيفان قاربا - القارب يحمل إيفان إلى بلد آخر .

د - الأميرة تهدي إيفان خاتما - الخاتم يخرج منه أناس صفار الحجم يحملون إيفان إلى مملكة أخرى ... وهكذا (١٩) .

فعل الرغم من اختلاف الأشخاص وأسمائهم وخصائصهم ومراكزهم الاجتماعية وغير ذلك من المقومات الشخصية فإن هناك نوعا من التماثل والتشابه بين أفعالهم وتصرفاتهم مما يعني وجود وظائف معينة تؤلف عناصر ثابتة ولا تتغير في تلك المجموعة المعنية من الحكايات . أما الأحداث التي تتضمنها الحكاية ، أي مضمون الحكاية ومحتواها ، وكذلك الظروف المحيطة بها فهي كلها متغيرات ثانوية إذا هي قورنت بالوظائف الثابتة . وقد اقترح بروب نتيجة لذلك إقامة نظام نموذجي للحكايات الروسية يرتكز على عدد من الوظائف الأولية التي تكفي لتبين الطريقة التي تعمل بها كل الحكايات الخرافية ويحت تغطي هذه الوظائف كل الحكايات ، سواء تلك التي درسها أو التي لم يتطرق إليها .

ولقد كان من الطبيعي أن تنتهي معالجة بروب للحكايات الخرافية واستناده في هذه المعالجة على التحليل الشامل لكل ذلك العدد الهائل من الحكايات إلى الكشف عن عدد معين من تلك (الوظائف) ، كما بينت له أن الحكاية الخرافية الواحدة كثيرا ما تنسب أنفالا متشابهة أو حتى متماثلة إلى شخصيات متعددة ومتنوعة ، وأن الشخصية الواحدة كثيرا ما تقوم بأداء فعلين مختلفين أو أكثر باختلاف المواقف أو العلاقات . وقد ساعد ذلك الاختلاف والتنوع بغير شك على تحليل الحكايات في ضوء الوظائف المتعددة المتنوعة التي تقوم بها شخصيات الحكاية ، ولكنه أدى به في آخر الأمر إلى أن يكتشف أنه على الرغم من تلك الوفرة الظاهرية في التفاصيل وفي الأعمال والممارسات فإن عدد الوظائف التي تكشف عنها هذه الممارسات والأعمال والعلاقات أقل بكثير جدا من عدد الشخصيات ؛ وأن هناك نوعا من المبالغة والمغلاة في

Pierre Ginzburg, Semiology, R.K.P., London 1975, pp. 77-8.

(١٩)

وقد طهر الكتاب في الأصل في الفرنسية بعنوان

La Semiotique Que Sait-Je, P.U.F., Paris 1974.

الحكايات الشعبية الروسية فيما يتعلق بتعدد الشخصيات وعددها رغم أنها تقوم بأدوار متشابهة وتؤدي وظائف معدودة للمغاية^(٢٠) . ومع ذلك فقد استطاع بروب أن يميز بين إحدى و ثلاثين وظيفة مختلفة يمكن أن ترد إليها أعمال ونشاطات وعلاقات الشخصيات الكثيرة التي تضمنتها تلك الحكايات وتكشف عن « طريقة عملها » .

ولعل أهم هذه الوظائف التي يحرص كل الذين كتبوا عن بروب على أن يذكرها ويميزوها عن بقية الوظائف هي الوظائف السبع التالية :-

- أ - الغياب أو الاختفاء (أي غياب واختفاء أحد أفراد العائلة) .
 - ب - الخطر أو التحريم (وهو يفرض على البطل نفسه) .
 - ج - الانتهاك (أي انتهاك الخطر وخرق التحريم المفروض على البطل) .
 - د - البحث عن المعلومات (ويقصد بها محاولة الشخصية الشريرة في الحكاية الحصول على معلومات معينة) .
 - هـ - الحصول على المعلومات .
 - و - الخديعة (محاولة الشخصية الشريرة خداع البطل أو أي ضحية أخرى والتغريب به) .
 - ز - المشاركة في الجريمة بغير قصد (حيث تتورط الضحية وتقع في الشرك وتساعد عدوها) .
- وتكفي هذه (الستة) من الوظائف لتبين الطريقة التي يعمل بها ذهن بروب ونظرتة إلى الحكاية الخرافية والأسلوب الذي اتبعه في التحليل ووضع النموذج العام الذي يمكن في ضوءه دراسة الحكاية الخرافية .
- ومع ذلك فقد ذهب بروب إلى خطوة أبعد من ذلك حين عمد إلى تيوب هذه الوظائف الإحدى والثلاثين ووزعها بين سبعة مجالات للفعل « تناظر سبعة أنماط من الشخصيات (أو الممارسين كما يسميهم) ، ونجم عن ذلك (مجالات الفعل) التالية :-

- (١) الشرير .
- (٢) الواهب المعطى .
- (٣) المساعد أو المعاون (أو الخادم) .
- (٤) الأميرة وأبوها .
- (٥) المرسل .
- (٦) البطل .
- (٧) البطل الزائف .

ولعل هذا يبين ما سبق أن فكرناه من أن الشخصية الواحدة في الحكاية الواحدة يمكن أن تشترك في أكثر من مجال واحد من مجالات الفعل ، وأن عددا من الشخصيات المختلفة قد تشترك في مجال واحد معين بالذات . ولكن المهم هو أن عدد مجالات الفعل التي توجد في الحكايات الخرافية عدد محدود تماما كما هو الحال بالنسبة للوظائف الذي تؤلف هذه

Vladimir Propp., The Morphology of the Folktale, pp. 20-1; according to Terence Hawkes, Structuralism and Semiotics; Methuen, London 1977, p. 68..

المجالات ، وهذا معناه أننا إنما نعالج أبنية متكررة يمكن التعرف عليها وتحديدتها وإدراك المبادئ الأساسية التي تكمن تحتها^(٢١) .

وفي ضوء هذه التفاصيل التي يذكرها بروب عن الوظائف ومجالات الفعل وبالتالي (شخصيات) الحكايات الخرافية وما يتمثل في هذه الحكايات كلها من عامل التماثل التكرار يمكن لنا تلخيص موقف بروب من « الوظيفة » التي يعطيها أهمية كبرى في التحليل في النقاط الأربع التالية التي تكاد تكون مبادئ أساسية تتعلق بالتجانس القائم بين هذه الحكايات من الناحية البنائية :-

(١) المبدأ الأول هو أن عدد وظائف الحكايات الشعبية أو الخرافية محدود (إحدى وثلاثون وظيفة) . وقد قام بروب بتحليل كل وظيفة من هذه الوظائف بدقة ، وليس هنا على أي حال مجال لمرورها بالتفصيل .

(٢) المبدأ الثاني هو أن تابع الوظائف وتسلسلها متماثل دائماً في كل الحكايات على الرغم من اختلاف الأحداث والشخصيات والظروف بل وأحياناً الهيكل العام لهذه الحكايات .

(٣) المبدأ الثالث هو أن هذه الوظائف التي ترتبط بشخصيات الحكاية تؤلف العناصر الثابتة في الحكاية وذلك بصرف النظر عن الطريقة التي تتحقق بها هذه الوظائف ، وكذلك دون أي اعتبار للأشخاص أو الشخصيات التي تتحقق هذه الوظائف من خلالها ، وذلك على اعتبار أن هؤلاء الأشخاص يختلفون من حكاية لأخرى كما أن الأفعال والتصرفات التي تتحقق بها تلك الوظائف متغيرة هي أيضاً .

(٤) أما المبدأ الرابع والأخير فهو أن كل الحكايات الخرافية تؤلف غطاءً واحداً من حيث البناء^(٢٢) .

وقد يختلف الكتاب في ترتيب هذه المبادئ ولكنها كلها تؤلف على أية حالة وحدة متكاملة كما تلخص نظرة بروب إلى الدور الذي تلعبه الوظيفة في تحليل الحكاية الشعبية . واهتمام بروب بالوظيفة يبرظه بغير شك بالبنائية والتحليل البنائي الذي اتخذ هذا الاسم بعد ذلك على أيدي ليفي ستروس وأتباعه . وقد لعبت هذه الوظائف إحدى والثلاثون دوراً هاماً في كل تفكيره ، إذ أنه يتخذ منها أساساً لتصنيف الحكايات بالإشارة إلى وجود هذه الوظائف أو عدم وجودها وبحيث كان يرى أنه يمكن تكوين أربع (فئات) من الحكايات هي : الحكايات التي تقوم على الصراع والغزو ؛ والحكايات التي تدور حول الاضطهاد بجهام صعبة أو خطيرة وإنجاز هذه المهام ؛ والحكايات التي تركز على هاتين المجموعتين من النشاط والأعمال والوظائف ؛ ثم أخيراً الحكايات التي تقوم دون حاجة إلى الانجذاب لأي من هاتين المجموعتين من الوظائف^(٢٣) .

وقد يكون من الصعب تعريف الوظيفة بعيداً عن السياق الذي تدخل فيه ويعيداً عن (الوضع) أو (المكان) الذي تشغله في عملية السرد ، خاصة وأن الأفعال التماثلة يمكن أن يكون لها وظائف ومعاني مختلفة في موقعين مختلفين أو

Hawkes, loc. cit.

(٢١)

Ibid, p. 69.

(٢٢)

Vladimir Propp, op. cit., p. 92, according to Jonathan Culler; Structuralist Poetics; R.K.P., London 1975, p. 208. (٢٣)

حكايتين مختلفتين مما يوجب تصنيف هذه الأفعال والأحداث تحت وظائف مختلفة . فالبلبل قد يبني قلعة أو حصنا إما لإنجاز مهمة صعبة كان مقدراً له أن يضطلع بها ويعمل عبثها ، وإما لكي يحمي نفسه من الشخصية الشريرة التي تقف له بالمصاد وتريد أن توقع به الشر ؛ وإما للاحتفال بزواجه من الأميرة ، وهكذا . وبذلك نرى أنه في كل حالة من الحالات يمكن أن يُستبدل بأي فعل لأفعال أخرى مختلفة وبحيث تكون لهذا الفعل الجديد علاقات جديدة بتلك الأفعال السابقة له والأفعال اللاحقة به . وبذلك تختلف وظيفة ذلك الفعل في كل حالة بحسب السياق الذي يدخل فيه . فكأن الذي يحدد وظيفة أي عنصر بل وأي جزئية من الجزئيات هو علاقتها ببقية السياق . فالوظائف ليست مجرد أفعال ، وإنما هي الإسهام الذي تسهم به هذه الأفعال في الحكاية ككل . ودور التحليل البثائي في هذا الصدد هو الكشف عن هذه الوظائف حتى يمكن فهم أهمية كل عنصر في النسق العام الذي يتخذ شكل الحكاية أو القصة أو الملحمة أو غير ذلك .



ونكتفي بهذا القدر عن فلاذير بروب ومعالجة للحكايات الشعبية وأسلوبه في التحليل (البثائي) الذي يقوم على افتراض إمكان رد (أو تقليص) النص - أيا كان - إلى عناصر تستمد معناها من نسق العلاقات التي تدخل هذه العناصر ذاتها أطرافاً فيها ، وبذلك فإن هذه العناصر لا تستمد معناها من المحتوى أو المضمون التاريخي . ولم يكن هدفنا هنا الحديث بالتفصيل عن آراء بروب كما عرضها في كتابه « مورفولوجيا الحكايات الشعبية » ، وإلا كان الحديث اتخذ مساراً آخر مختلفاً وتعرض لكثير من آرائه التي أغفلناها عمدًا صلت رأيه في نوعي التنظيم البثائي : الأثافي أو التوزيعي والراسمي أو الاستبدالي والأسس اللغوية التي أثرت في معالجته هذه الأمور . فهذه كلها مسائل مهمة ولكنها تخرج عن المجال الذي نتحرك فيه هنا ولكنا نحتاج بغير شك إلى معالجة أدق وأشمل وأعمق وقد نمود إليها في وقت لاحق وفي موضع آخر . ومع ذلك فلا بد لنا من أن نشير إلى قوة تأثير آرائه ومنهجه وأسلوبه في التحليل وكيف ظهر ذلك لدى عدد من المفكرين والكتّاب الفرنسيين الذين اهتموا بدراسة « القصص » أو الحكيم ووظيفة الحكيم كما هو الشأن بالنسبة لجرميس Greimas ، أو حتى لدى رجل مثل ليفي ستروس في دراسته للأساطير .

وقد خضعت آراء بروب بطبيعة الحال إلى كثير من النقد والاعتراض حتى من الذين قبلوها في مجملها وتأثروا بها وتأبوا السري في الطريق نفسه . وربما كان رأيه في الوظيفة وتجديده لعدد الوظائف من أكثر الموضوعات تعرضاً للنقد حيث اعتبر الكثيرون ذلك العدد نوعاً من التصفيف ، وأن الفكرة كانت خلية بأن تكون أكثر إقناعاً للباحث الذي يهتم بالتحليل البثائي لو أن بروب اعتبر كل هذه الوظائف مجرد محولات أو تحويلات لثلاثة أو أربعة عناصر أساسية فحسب وعمل على رد كل هذه الوظائف إلى تلك العناصر الأساسية ، أو على الأصح - تقليص هذه الوظائف إلى ذلك العدد القليل المحدود . وليفي ستروس في مقاله عن « التحليل المورفولوجي للحكايات الروسية - L'Analyse morpho-logique des contes russes » استطاع أن يقلص عدد الوظائف عن طريق تجميع تلك الوظائف التي تقوم بينها علاقات منطقية ، وبذلك اعتبر « الانتهاك » مثلاً هو عكس « المنع » أو الخطر والتحريم ، واعتبر الخطر والمنع والتحريم « تحولاً » سلبياً للتنصيح أو الأمر أو التروية وهكذا^(٢٤) . كذلك نحن نعرف أن ليفي ستروس استعان بتحليل بروب في

دراسته للأساطير كما ذكرنا أكثر من مرة ، فتحليل بروب يعتمد على إرجاع ورد القص أو الحكى أيا كان إلى عناصر أساسية وهذا هو ما فعله ليفي ستروس بالضغط في محاولته التذليل على أن المعنى لا يكمن في « الحكبة التاريخية » ولا يوجد فيها ولكنه يوجد في بناء العناصر الصورية الثابتة ، أو ما يمكن تسميته « الثوابت الصورية » التي يطلق عليها كلمة « ميثيمات mythemes » (أي الوحدات الأسطورية) وهذا واضح بجلاء في تحليله لأسطورة أوديبوس^(٢٥) التي يستشهد بها معظم الذين كتبوا عن ليفي ستروس .



ولكن ربما يكون جرماس قد تفوق على ليفي ستروس في هذا المجال . فقد عمد مثله إلى تقليل عدد الوظائف التي قال بها بروب عن طريق الربط بينها بعضها وبعض ، ويخرج من ذلك بعشرين وظيفة فقط ذكرها في كتابه عن « السيماتيكيا البنائية La Sémantique Structurale » أو (علم الدلالة البنائي) . ولقد كانت معظم جهود جرماس موجهة نحو تحديد أو إيجاد (أجرومية) للقص يمكن فيها لعدد محدد من العناصر أن تؤدي - عن طريق ترتيبها في عدد محدد من الأشكال - إلى قيام الأبنية التي نصفها بأنها ألوان من القص أو الحكى . ولكن جرماس يختلف عن بروب في أنه يرى القص بناء سيماتيكيا أو دلاليا يماثل الجملة ويخضع لنوع ملائم من التحليل^(٢٦) . لذلك عمل جرماس على تقليص « مجالات الفعل » السبعة التي قال بها بروب واختصرها في ثلاثة (أزواج) متقابلة مما أطلق عليه اسم « للمعاملين actants » . وكان هدفه من ذلك التركيز على العلاقات الثنائية بين هذه « الأزواج » بدلا من الاهتمام بالجزيئات المفردة . وتقدم على هذا الأساس بتيوب جديد يضم ثلاث فئات جديدة قد تبدو غامضة ومعقدة لأول وهلة ولكنها تستحق عناية بذل الجهد في متابعتها ، على الأقل لكي نتبين كيف يهتم العلماء بأفكار بعضهم بعضا ويعملون على تطويرها عن طريق تقديمها ثم الإفادة منها بعد ذلك في دراسات جديدة أكثر عمقا وجدية . وهذه الفئات الثلاث هي :

(١) الشخص بإزاء الهدف أو القصد أو الموضوع . وهذا يفترض وجود الفئات التالية في تصنيف بروب الذي سبق الإشارة إليه : البطل (الشخص أو الفاعل) ثم الشخص المطلوب البحث عنه مثل الأميرة (الهدف أو القصد أو الموضوع) . وينتج عن ذلك التبع كل أنواع القص الذي يدور حول مشكلات البحث عن شيء ما أو الرغبة في الحصول على شيء ما .

(٢) المرسل بإزاء المرسل إليه أو المتلقي والمستلم . وهذه الثنائية تكشف لنا - حسب رأي جرماس - عن سداجة بعض مقولات بروب أو المجموعات التي تظهر في تصنيفه ، لأننا في هذه الفئات نجد أن للمعامل actant الأساسي - وهو « المرسل » لا يلبث أن يظهر على أنه يلعب دوراً مزدوجاً . فهو من ناحية يقوم بدور الأب (كما يبدو في المجموعة رقم ٤ عند بروب) . ويختلط هذا الدور بموضوع الرغبة أو بالشخص المرغوب فيه أو الذي يتم البحث عنه (ولكنه من الناحية الثانية يظهر في المجموعة رقم ب (المرسل) . والواقع أن الدورين هما مظهران لمعامل واحد هو المرسل في فئة ينتج عنها في إحدى الفئات قصص يدور في عمومها حول الاتصال أو التواصل على ما يقول جيرو (صفيحتا ٩١ - ٩٢) .

Golraud, op. cit., p. 79.

Hawkes op. cit., p. 91.

(٢٥)

(٢٦)

(٣) المساعد أو للعاون بإزاء الممرض أو المناوىء . وهذه الفئة تفترض المجموعتين ٢ ، ٣ في تصنيف بروب بحيث نجد المعطي أو الوهاب أو المساعد (أو الخادم) من ناحية ، ثم الفئة رقم ١ (الشرير) من الناحية الأخرى . كذلك فإن من المفروض أن الفئة رقم ٧ عند بروب (وهي فئة البطل الزائف) تقف موقف المعارض أو المناوىء من البطل الحقيقي وتلعب دوره ، ولو أن جرياس لم يشر إلى ذلك^(٢٧).

وهذا نفسه هو ما فعله في الحقيقة حين حاول تقليص الوظائف الإحدى والثلاثين التي قال بها بروب ليخرج علينا بقائمة التي تضم عشرين وظيفة فقط ، فقد تم ذلك الدمج بأن أخذ في الاعتبار إمكانات التقابل الثنائي بين الوظائف أو ما يطلق عليه كلمة *couplage* . وعلى ذلك ، فبينما يتكلم بروب عن « الحظر أو التحريم » و « الحرق أو الانتهاك » على أنها وظائفان منفصلتان يربط جرياس بين الاثنين ويدمجها معا في وظيفة واحدة مزدوجة هي « التحريم بإزاء الانتهاك » وذلك على أساس أن هذين الطرفين يفترضان أحدهما الآخر ، كما أن فعل الحرق أو الانتهاك يتطلب أولا وجود تحريم أو حظر حتى يمكن تحديد ذلك الحرق أو الانتهاك (هو كس صفحة ٩٣) .

وعلى ذلك ، فالتقابل بين الحظر والحرق أو بين التحريم والانتهاك يمكن اعتباره جزءا من نمط للتقابلات أوسع نطاقا وأكثر شمولاً بحيث لا يقتصر على تلك الوظائف العشرين فقط وإنما يتعداها .

وليس من شك في أن إصرار جرياس على الاهتمام « بالمعلاقات » بين الوحدات الكلية *entities* بدلا من الاهتمام بالعناصر أو الجزئيات يضعه في صف البنائين ، كما أن منهجه في التحليل السيمانيكي يذكرنا بما يمكن اعتباره التزاما بتأليا أساسيا بتوضيح كل فكرة أو تصور أو طرف يبدو أنه مستاتيكي عن طريق ربطه إلى ذلك التقابل الثنائي الذي يؤلف أساس قبول وفهم تلك الفكرة أو ذلك التصور . وهذا في حد ذاته أيضا دليل وعلامة على بنائية جرياس على ما يقول هو كس (صفحة ٩٣) .

ولم يحاول جرياس أن يضع قائمة كاملة شاملة ولكنه حرص مع ذلك على أن يفرق ويفصل بين مختلف الأبنية المتمايزة التي يعتقد أنه يمكن التمييز بينها في القصة الشعبي . واستطاع بذلك أن يميز بين ثلاثة أنواع من تلك (الأبنية) أو مجالات التوزيع *Syntagmes* كما يسميها :

أ - النوع الأول هو الأبنية أو مجالات التوزيع التعاقدية *Contractuels* . وفيها يجد أن الموقف له صلة عامة بعقد الانفعالات والتعاقدات أو الخروج منها أو نقضها ، كما يدخل في هذا النوع عمليات الاقتراب والعودة إلى الانتهاء والاندماج وما إلى ذلك . فهنا نجد أن صدور التكليف وقبول ذلك التكليف معناه بالضرورة عقد اتفاق ، أو أنه إحدى صور الاتفاق والتعاقد ، بينما الخروج على قواعد التحريم أو خرقه هو فسخ أو نقض لذلك العقد أو الاتفاق والتعاقد .

ب - النوع الثاني هو الأبنية أو مجالات التوزيع الأدائية أو التنفيذية *Performanciels* ويندرج تحت هذا النوع كل صور وأشكال المحاكمات والصراعات والاضطلاع بالمهام وما إلى ذلك .

ج - وأخيرا فإن النوع الثالث من الأبنية هو محاولات التوزيع الانفصالية *disjonctionnels* ويدخل فيها كل أشكال الحركة والانتقال والسفر والرحيل والوصول وما إليها (هو كس ، صفحتا ٩٣ ، ٩٤) .

(٢٧) أحيانا ما يشكل لاسي على العرض الطيب الذي قدمه هو كس *Hawkes* في كتابه السابق الذكر صفحات ٩١-٩٢ وكذلك على ما أورده جيرد *Girard* في كتابه وكلا العريين يميزان بدرجة عالية من الوضوح وبالسلاسة الفتيق تفتقر إليها منظم الكليات حول هذا الموضوع .

ومن الصعب على أي حال أن نعطي صورة كاملة وتفصيلية لأراء جرياس ومعالجته لهذا الموضوع ، بل إنه ليس ثمة ما يدعو إلى مثل هذه التفاصيل . وما سبق يكفي لتبيين المنهج الذي اتبعه في التحليل ، لأن المهم هو أن ذلك الموقف الذي يتخله يمثل درجة من التقدم والارتقاء بأراء بروب وأفكاره الأصلية ، كما أن ذلك الموقف عيّد في آخر الأمر إلى نفس الهدف الذي كان بروب يرمي إليه وهو إقامة مجالات استبدال Paradigmes أساسية للحبكة والكشف عن إمكانيات الترابط بين هذه المجالات الاستبدالية ، أي إقامة وتكوين ما قد يمكن للبينائيين أن يطلقوا عليه تعبير « مركب combinatoire » قصصي ، أي ميكانيزم لإنتاج وتوليد القصص والحكايات واللوان السرد المختلفة .

ولقد صدر هذا الموقف الذي اتخذته كل من ليفي ستروس وجرياس من الاعتقاد بأن فلاديمير بروب كان يضع الشكل أو الصورة على مستوى قريب من مستوى للملاحظة الأمبيريقية ، كما كانا يريان أنه بدلا من الانتقال مباشرة من « أفعال » الحكايات المفردة إلى تحديد الوظائف الإحدى والثلاثين التي قال بها فإنه كان من الأجدر به أن يعطى بعض العناية والاهتمام إلى الظروف والشروط والملايسات البنائية العامة التي يجب أن تحفّقها القصة أو الحكاية أو اللوان القصص الأخرى كاللاحم والسير وإن لم يذكر هذين اللونين بالذات ، وأن يجدد بعد ذلك وظائفه باعتبارها مجرد مظاهر وتحولات لأبنية أخرى أكثر أهمية وروسوخا وثباتا^(٢٨) كما فعل ليفي ستروس في معالجته ودراسته للأساطير .

ومن الطريف أن الأستاذ جوناثان كلر ينتقد جرياس فيما يذهب إليه ويتهمة بأنه كان يضع تحت مقولة واحدة أي مجموعة من الوظائف إذا رأى أن باستطاعته أن يبتزع لها مصطلحا أو اسما يطلقه عليها دون أن يتعمق كثيرا بأن يشرح لنا على أي أساس أقام هذا التصنيف أو التجميع والتبويب ، وأنه استطاع بهذه الطريقة أن يقرر وجود ثلاثة أنواع من التسلسل أو السباق ، أو ثلاثة أنواع من « مجالات توزيع » القصص أو الحكى دون أن يقدم لنا ما يبرر هذا التمييز أو يعمل على البرهنة والتدليل على صحة ما يذهب إليه أو يبين لنا لماذا يمكن تحقيقه من هذا التمييز . والذي يقضده كلر هنا هو « الأبنية » الثلاثة التي أشرنا إليها والتي يسميها جرياس مجال التوزيع الأدائي الذي يرتبط ويتعلق بالاضطلاع بالمهام والأفعال وأدائها ، ومجال التوزيع التماثلي الذي يوجه الموقف أو الوضع إزاء هدف معين كان يقبل شخص ما أداء عمل ما أو يرفض القيام به ، ثم مجال التوزيع الانفصالي الذي يتضمن الحركة والانتقال بأنواعها المختلفة . وهذا النمط الأخير يعتبر في رأي كلر نمطا هشا وغير محدد تلمحا (نفس المرجع والمصححة) .

وواضح من هذا كله تأثر هذا الاتجاه بالدرسة اللغوية البنائية التي وضع فريديان دوسوسير أسسها والتي أثرت تأثيرا كبيرا في الفكر الفرنسي البنائي الذي يتبعه جرياس وليفي ستروس وغيرهما ممن تعرضوا للدراسة القصص والحكي بأشكاله المختلفة وإن كان سبقها إلى ذلك بروب والمدرسة الصورية الروسية على ما ذكرنا . فهذه كلها اتجاهات تتبع ما قد يمكن تسميته « علم الحكى والقص » (Narratology وأجرومية القص . والمقصود بذلك المدخل محاولة الكشف عن « لغة parole » القص أو نسق القواعد والإمكانات الكلمة التي عن طريقها يمكن تحقيق « كلام parole » القص أو « كلام » الحكى ، أي النص ذاته^(٢٩) .

Culler, op. cit., p. 213

(٢٨)

David Lodge, Working with Structuralism; R.K.P., London 1981, p. 18.

(٢٩)

وكما سبق أن ذكرنا أكثر من مرة فإن معظم الجهود في هذا المضمار جاءت على أيدي المفكرين الفرنسيين البنائيين بعد غلادير برروب . وأن أهم ما يميز هذا الاتجاه أو المدخل هو فكرة الوظيفة من ناحية ، وفكرة التحول من الناحية الأخرى .

من ذلك ما يذهب إليه جرياس حين يقول إن الحكيم أو القصة يتألف في المحل الأول من تحول موضوع أو قيمة من معامل معين إلى معامل آخر . فللمعامل عمارس أو يؤدي وظيفة معينة في القصة أو الحكاية ، وهذه الوظيفة يمكن تصنيفها على أنها شخص أو فاعل من ناحية أو على أنها شيء أو هدف أو موضوع من الناحية الأخرى ؛ كما قد يمكن تصنيفها على أنها مرسل أو مرسل إليه ؛ أو على أنها « مساعد » أو « منأوى » . كذلك فإن هذا المعامل actant الذي يقوم بوظيفة معينة يشارك في أداء أمور وأشياء يمكن تصنيفها هي ذاتها على أنها أعمال أدائية مثل الخضوع للمحن والاختبارات والدخول في صراعات وما إلى ذلك ؛ أو على أنها أعمال تعاقدية مثل الدخول في اتفاقيات وإتمامها ونقض هذه الاتفاقات ، أو على أنها أعمال انفصالية مثل الرحيل أو العودة . وكل هذه أمور سبقت الإشارة إليها . ولكن الملاحظ هو أن هذه الوظائف يصعب تحنيدها من مجرد النظر إلى البناء السطحي الخارجي للنص القصصي أيأ كان ذلك النص . ويزيد من صعوبة ذلك أن أكثر من شخصية واحدة قد تقوم بأداء وظيفة معمل واحد ، أو قد تجمع الشخصية الواحدة بين وظائف أكثر من معامل واحد على ما ذكرنا . وقد يمكن تحديد كل هذه الأفكار وتعريفها دلالاتها على طريق علاقة ثنائية binary تتخذ إما شكل التقابل والتضاد (الحياة / الموت) أو قد تتخذ شكل العلاقة السلبية (حياة / لا حياة) مما ينتج عنه في آخر الأمر ظهور نموذج سيميوطيقي يمكن تمثيلة على الشكل التالي :

الحياة : الموت :: لا حياة : لا موت

وبحيث أن كل أشكال القصة أو الحكيم يمكن أن نعتبرها تحولات معاملة وأعمالا تدخل في علاقة مماثلة ذات أربعة أطراف في معالجة الموضوعات الرئيسية على ما يقول ديفيد لودج (نفس للمرجع ونفس الصفحة) .

والرأي الشائع هو أن هذا المدخل - رغم كل ما قد يقوم عليه من اعتراضات وانتقادات - يصلح للتطبيق على القصص التقليدية الصورية التي تنتقل عن طريق الحكيم الشفاهي أكثر مما يصلح للنصوص الأدبية الأكثر تطوراً ورقياً . والواقع أن أنصار « علم القصة » أنفسهم كثيراً ما يذكروننا بأن هدفهم ليس هو تفسير النص بقدر ما هو الكشف عن النظام - أو النسق - الذي يؤدي إلى ظهور وتولد النصوص القائمة على الحكيم ، كما أنه يتيح الفرصة لإدراك كنه هذه النصوص وفهمها . وليس من شك أن هذه الدراسة العلمية تظهر للنقاد الأدبي بعض العوامل المهمة التي تدخل في قراءة مختلف ألوان الأدب الشعبي - والتي - رغم أهميتها ووضوحها - أربما بسبب هذا الوضوح - كثيراً ما يغفلها القارئ أو على الأقل لا يعطيها ما تستحقه من اهتمام بل وقد لا ينتبه إليها على الإطلاق .

وما قصدنا من هذا الحديث إلا التنبيه على أمل أن نتاح لنا فرصة لتطبيق هذا المنهج على إحدى الملاحم العربية في وقت آخر .

د . أحمد أبو زيد

١ - النص المتيّ: سيرة بني هلال

- مقدمة منهجية :

١ - ١ - أن الناظر في الأدب الشعبية العربية ، منذ أول اثبات شغاهي لها الى عيناتها الخاصة ، يقف عند حقيقة لا مفر من الاعتراف بها وهي أن الأدب الشعبية حدث مستمر يواكب مسيرة البيئة التي ولدته ويعيش بين أعضائها . ولم تقطع حبل وصلاته فاصلة تاريخية أو حادثة اجتماعية مهما كانت ظرفية . واستمرارية الأدب الشعبية شبيهة بالثبات المتحول / المتطور للغة العربية (وصلة الرحم إن صح التعبير ، بينها بدنية لا تحتاج لبرهان) التي هي كما قال الدكتور منصف المرزوقي : « لغة فريدة من نوعها ، لم يعرف ولن يعرف لها التاريخ مثيلا . قل لي أي لغة في العالم تحافظ على نفسها وتتطور بدون ادنى انقطاع منذ خمسة عشر قرنا كالعربية . نحن نقرأ ونفهم ما كتبه علي بن أبي طالب ، حتى الشنفرى ، وهم (اللاتينيون) عاجزون عن فهم ما كتب بلغتهم لأربعة قرون خلت »^(١).

١ - ٢ - ومنها يليو هذا الحكم متسا بالتعميم المفرط إلا أن معاناة الانحطاط الادبية المختلفة ، كل على حدة ، من شعرونثر ، تخفف من حدة الافراط وتقيم الدليل على صديق التعميم . فعند قراءة الأدب الشعبي العربي منذ أول اثباتاته - يفترض أن يقع التمييز بين شيئين ، في حد ذاتها مكملين لبعضهما ، وأعني التمييز بين :

أ - أشكال تعابير - ما يطلق عليه بصفة عامة -
المأثورات (الشفاهية / المروية) الشعبية .

ب - مضامين هذه التعابير .

الأدب الشعبي والتحولات التاريخية الاجتماعية مثال : سيرة بني هلال

عبد الرحمن أيوب

(١) و (٢) سبط الأندلس العربية لرضي الخليل ٢ : منشورات دار الرابي ، د . ت . تريبس ، ص ٤٧

جـ - الحشيات « المحركة » للتعبير الشعبية ، من جهة ، والقائمة بدور « الطعام » لمضامينها من جهة ثانية : أي : التحولات التاريخية والاجتماعية . . . الأساسية التي عاشتها المجموعات العربية ولا تزال تواجها .

١ - ٣ - وقد يكون من اليسير على الباحث أن يقيم الدليل على أن أجزاء من « أيام العرب » (وقائع البطولة) قد صُهرت في السير الشعبية على أنواعها التي لا تزال تنتقلها الأفواه : وبعض الدراسات سمعت لذلك فأنشئت - وقد لا يحسر على الباحث أيضا أن يثبت أن أقاصيص « ألف ليلة وليلة » قد اندجبت في القصص الشعبي السائر اليوم^(١) بل وأن بعض المحاولات الإبداعية الحديثة قد اعتمدت هذه « الليالي » لتبني إنتاجا أدبيا (في ميادين : القصة القصيرة والرواية والمسرح والسينما) يبدو في شكله حديثا وقديما في مضمونه وذلك بقصد اثبات استمرارية الصلة القائمة بين قدينا وحديثنا^(٢) .

أما الشاعر الحديث فما انفك يردد اليوم صرخة الشاعر القديم : « هل غادر الشعراء من مترد » . وليست الاشكالية المطروحة علنا أو في طيات « التجديد الأدبي القائم على الاستئثار بالموروث من الأدب العربي » مسألة تكرار المعاصرة للتراث ، شكلا ومضمونا ، بقدر ما هي الاعتراف ، ضمنا أو علنا ، بأن المخيلة الشعبية « مخيلة صاهرة » - استطاعت أن تكتسب الماضي الطويل ، وأن تبقى - رغم أحداثات الزمن الظرفية - على الأسس الثابتة لاستمرارية (الأمة) الناقلة لتراثها (أي لذاتها) .

١ - ٤ - و « حركية » التاريخ لا ترد سوى « المحنطات » في المتاحف . ولما « الحي » فقدره غير ذلك : فالشعر الملحون (أي المقول باللهجات الدارجة) لم يخرج بصفة قطعية عن موازين الشعر القديم : ولقد كان هذا الشعر شاعرا^(٣) وموازينه اعتمدت على « الحس الإيقاعي » عند الشاعر ؛ ولم يطرُق الشاعر الحديث بابا إيقاعيا غير هذا ؛ ولكن شتان بين ما تضمنته ذلك الشعر والشعر السائر اليوم . وعلى سبيل المثال : هل عالجت القصيدة العربية إلى أواخر القرن الماضي « مأساة العمال في المناجم » (الشعر النجمي) أو في مصانع تكرير الصلب وهل نجد بين تلك القصائد ما يطلق عليه « شعر الفلاحين » إلى غير ذلك .

١ - ٥ - ويستشف من هذه الأمثلة طرحا للموضوع الذي سنتناوله هذه الورقة . وتعتبر آخر : هناك تحولات تاريخية - اجتماعية وسياسية أفرزتها المجموعة العربية من ذاتها أو نتيجة الاحتكاك بغيرها من المجموعات البشرية (ضمن جدلية الأخذ والعطاء ، والصراع من أجل التفوق ، وللهيبن وللهيبن عليه ، الخ . . .) وهذه التحولات أفرزت بدورها مضامين جديدة أودعتها أشكال التعبير الشعبي في شكله الشعري والنثري .

(١) راجع : محمود طرشونة ، مائة ليلة وليلة ٢ ، الدار العربية للكتاب ، تونس - ليبيا ، ١٩٧٩ .

(٢) تنظر على سبيل المثال : محمود السعدي ، حدث أبو هريرة قال . . . (تونس ١٩٧٣) وحز القمين الحلي ، خرافات (١٩٦٨) ، وآبورة الرزنج (١٩٧٠) . إلخ .

(٣) (١٩٧٢) . . .

(٤) انظر

Abu-Deeb, K. "towards a Structural Analysis of Pre-Islamic

Poetry (I): the Key Poem "International Journal of Middle East Studies, 6 (1975): 148-84; (II) the Eros vision", Edebiyat 1 (1976): 3-69

Michael Zwether, The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry, its Character and Implications, Ohio State University Press, Columbus 1978.

وإذا كان حدوث التحولات أمراً بديها لا يحتاج إلى اطالة في الأليات فإن ما نتج ملاحظته هو أن أشكال التعبير ، بصفة عامة ، بقيت ثابتة . أي أن البنى المستوعبة للمضامين التعبيرية « المتجددة » استمرت على ماهي عليه منذ القديم ، وأن هذه تقوم أساساً على ثنائية تقابلية ثابتة - في حيز بدايتها - (أي أنها هي نفسها خاضعة لسنة التطور) وأن هذه الثنائية تتمحور حول عنصر - ولعله هو بالذات « أس الثبات » أو « الأسمى الثابت » - ثابت لم يتغير (بل ولا ضرورة لتغيره إذ أنه من طبيعة الانسان أو على حد قول ابن خلدون من طبيعة العمران البشري) الا وهو : « الصراع » .

١ - ٦ - ومفاد القول هو : أن جميع أشكال التعبير الشعبي (ويميز هنا التعميم على « غير الشعبي ») تلقي في شكل أساسي واحد ، تطلق عليه « البنية التحتية للتعبير » وهذه البنية ثلاثية التركيب :

عامل - أ - / صراع / عامل - ب -

والثابت فيها العنصر الثلاثة من جهة ، وعور « الصراع » (بين العاملين) بصفة أولية من جهة ثانية . والمستمر فيها - على مدى الزمن : أي منذ الاثبات الأولى للمأثورات الشعبية إلى ما نعاينه اليوم هما العاملان « المتغيران » (أ - ب) (في حالة الصراع المستمر) . وأما المحرك للبنية التحتية التي تتخذ اشكالا تعبيرية تبدو متمايزة ، على مستوى السطح ، وهي متماثلة على المستوى التحتي - فيتمثل في التحولات الاجتماعية - السياسية (وباختصار التاريخي) التي تولدها البيئة البشرية (ضمن العلاقة الجدلية المشار إليها أعلاه) .

١ - ٧ - وقد لا نبالغ إذا قلنا أن الأدب الشعبي تبرز بشكل واضح - إلى حد ما - الطرح الذي تتناوله اليوم بحوث عديدة في مجالات مختلفة من المعارف الإنسانية المتعلقة بالتراث العربي والممثل في اشكالية : الثابت - المستمر والمتغير - الظرفي / الدخيل^(٥) . وبإضافة هذه المساهمة قد لا نكون أننا بالجديد وليست النية أيضاً تقديم القول الفصل فيما لا تزال تتعثر في بحثه الاقلام وفيما نعتبره من الطروحات الأساسية - على ساحة الفكر العربي - لاثبات الذات وإنما غايتها من هذا الاسهام الاجتهاد في طرح المسألة من زاوية قد تبدو هامشية لأنها مغايرة لما نحت عليه للبحوث عامة وقد تضيف شعاع نور لبقية الفوائس المسلسلة على « التراث العربي بين الأصالة والمعاصرة » .

١ - ٨ - أما المنهج المعتمد في هذه المحاولة فسياطع بعين الاعتبار :

أ - بالدرجة الأولى : نتائج البحوث الميدانية التي باشرتها في بعض الأقطار العربية (تونس ، وليبيا والأردن) .

ب - بالدرجة الثانية : الطريقة الاستنباطية للمضامين (الاجتماعية وغيرها) التحتية ، وهي طريقة تقوم على ما يطلق عليه من السانديات الحديثة بالطريقة التوليدية : وذلك قصد اثبات التلاحق المحاصل بين افرازات البيئة وأشكال التعبير في السير الشعبية العربية من جهة والاستمرارية في البنى التعبيرية الحاملة للمضامين للتحولة من جهة أخرى .

(٥) وبماثلها : التراث والمعاصرة ، القوة العربية والذاتية المحلية والشخصية (المحلية) والشخصية (العربية / القومية) وغيرها من المقامح المطروحة في نطاق التشالول والمعارضات ...

جـ - بالدرجة الثالثة : تجريد المعطيات الناتجة الى وحدات « هيكلية » من شأنها أن تساعد على تبسيط تراكيب العناصر المكونة للأثر والتي تكون أحيانا في علاقات معقدة .

د - بالدرجة الرابعة : تفسير المضامين بناء على ثلاثة « عوامل تحليلية » ولديها المعانية الميدانية وهي :

(١) حالة المماثلة ، (٢) القابلية الابدالية للعناصر المتحولة في الأثر المنقول ، (٣) المقدرة الابداعية لناقل الأثر . وسوف يكون السؤال : « لماذا تواصل الشعوب العربية نقل بعض السير وبالأخص سيرة بني هلال » بمثابة الأرضية لمدار تفكيرنا في اشكالية (استمرارية الأدب الشعبي العربية ومراكبتها للتحويلات التاريخية في البيئة العربية)^(١) .

١ - ٩ - وكما اسلفنا يقوم اختيارنا في دراسة هذه الاشكالية على السيرة الهلالية لأنها :

أ - تبرز بشكل أوضح عملية التفاعل بين الثابت (الشكلي / البنائي) للتعبير الأدبي الشعبي والمتحول التاريخي في البيئة الناقلة للأثر الأدبي الشعبي .

ب - تقوم على مفهوم « البطل الجمعي » وبعبارة أخرى المجتمع - ككل - وليس على مفهوم « البطل الفرد » (مثل سيرة عترة بن شداد ، وسيف بن ذي يزن ، والامام علي ، وغيرها) فينجر عنه أن يفرج الطرح من محيط « الفرد الواحد » الى محيط : القبيلة ، الطبقة الاجتماعية بأسرها ... المجتمع ...

جـ - لأن الذاكرة الشعبية مازالت تتناقل هذه السيرة أكثر من غيرها ، فتصبح بذلك « عينة حاضرة » وهي في الآن « عينة ماضية » .

وسيشمل العرض قسماً أولاً يقدم فيه لسيرة بني هلال من حيث مادتها وحضورها ، وفي الزمان والمكان ، ثم قسماً ثانياً يسعى الى ابراز دور الذاكرة الجماعية (المخيلة الصاهرة) من حيث انها الأداة الأساسية لاستمرارية السيرة من جهة ولاستيعاب التحويلات التاريخية في اطار السير من جهة ثانية ، ثم قسماً ثالثاً يتناول فيه دور الناقل الشعبي في جعل السيرة تتواصل (أو - ان صح التعبير - « تحتفظ ») وذلك بناء على الاختيارات - الشعورية أو اللاشعورية - التي يقوم بها بين ما يعتبره (هو وجمهورة) من « أحداث تاريخية » وما يعتبره « خارجاً عنه » . ولعل في عملية « القياس » التي سيقوم بها القارئ المختص بين ما سيرد في شأن سيرة بني هلال وغيرها من نماذج الانتاج الأدبي الشعبي ما يجعلنا نقتصد في ضرب الأمثلة الخاصة ببقية السيرة الشعبية العربية .

الجزء الأول

٢ - سيرة بني هلال : مادتها وحضورها في الزمان والمكان

٢ - ١ - سيرة بني هلال أنشودة قبيلة بني هلال العربية التي استوطنت منذ العصر الجاهلي الجزيرة العربية ؛ وتروي هذه السيرة رحلة القبيلة من نجد الى تخوم الأندلس .

(١) انظر أحمد مر ، دراسات هيكلية في قصة الصراع ، الفكر العربية للكتاب ، تونس ١٩٨٨

أو كما قال ابن خلدون : « انتشرت القبيلة بعد الإسلام مثل سحابة من الجراد » في المنطقة التي يطلق عليها اليوم العالم العربي الإسلامي . فتج من هذا الانتشار أن تداخلت قبيلة بني هلال مع غيرها من القبائل العربية وغير العربية التي تركت أثرها في السيرة الهلالية^(١).

٢ - ٢ : تروي السيرة الهلالية سبب رحلة قبيلة بني هلال وتنقلها : كانت نجد قد اضنتكتها سبع سنوات من القحط والجفاف ، ولأن حياة القبيلة عمادها للرعي فاضطرت إلى الرحيل حيث يوجد الماء والمرعى .

٢ - ٣ : وتقص كل مرحلة من مراحل السيرة لقاء بني هلال مع أحد الأمراء أو الملوك أو إحدى القبائل الأخرى ، وكل هذه الأطراف تعمل على منع بني هلال من تحقيق غايتهم في الرحيل . وتفيد السيرة بأن الصراع لا يقوم بين القبيلة ومعتزها لأن القبيلة تستهلك إنتاج الأرض التي تنزل فيها فحسب ، بل وكذلك لأن إحدى النساء الهلالية « تُتيم » قلب أحد الأمراء أو الملوك^(٢) ، فيمتزج الصراع بأمور العاطفة ويزداد حدة لأن المرأة التي « سقط في غرامها الأجنبي عن القبيلة . . . » كانت قد تيمت أحد الهلاليين أو أحد حلفاء بني هلال^(٣) . وهكذا تكون رواية هذه الصراعات وهذه الزبادات العاطفية للآدمية لسيرة بني هلال .

٢ - ٤ : وتشكل الأجزاء الثلاثة التي تتركب منها السيرة الهلالية للراحل الثلاث التي مرت بها القبيلة : ١ - الجزء الذي يطلق عليه : « سيرة بني هلال في بلاد السرو وعبادة » : يشتمل على البنية العرقية للقبيلة وتوزيعها في المكان والزمان^(٤) .

(١) وأسيرة الهلالية جائل الفهر الجبل في القرن والكان غيلة عشرة قرون وحتى يوم الناس هذا ما اعتك كتبها يرونها ويشبهونها في الأسواق والمقاهي المغنية والفرجة ، في البيوت وحيث يجتمع الناس . ولكن هلال سيرة يحمل منه مواء جديدة من البلاغ التي برحها .
انظر حول أثر الاحتكاك بالروايات الشعبية (الألفية) الروايات التي جمعها :

J.R. Patterson, *Stories of Abu Zeid, the Hiliat, in shawa Arabic* (London: Kegan, French, Turbner, 1930).

Bridge: Connely, "the structure of four Bani Hilal tales: Prolegomena:

وتلك

To the study of Sira literature," *Journal of Arabic Literature* 4 (1973), 18-47

وعن التأثير البربري فيها ، انظر :

Cl. Bretean, M. Gailey "Reflexions sur deux versions algeriennes de Dyaub le Hiliat," *Actes I er du Congres d'Etudes des Cultures mediterranneennes et d'influence Arabe-Barbare*, 3-6 Avril, 1962 (Alger) (1973), 358-364;

انظر أيضا :

G. Canora, "Gli studi sull'epica popolare araba," *Oriente Moderno*, 57:

ونفس الكتاب

n° 5-6 (1977), 211-226.

« السيرة وللأحلام الشعبية في الأدب العربي : مجلة التراث الشعبي ، ١١ عدد ٦ ١٩٨٠ وتجد يالجغرافيا رواية عن سيرة بني هلال في :

Cl. Bretean, M. Gailey, A. Roth, "Temoignages de la "longue marche Hiliatienne," *Actes du Ier Congres International des Etudes des Cultures Meditteranneennes*, (Alger, S.N. ED, 1978).

(٢) حول تحليل قصة عامر الجاهلي ، راجع :

S7 Slyomovics, "Characters as Puns: an Oral-Poetic Structuring Device in Sirat Beni Hilal" (J. AL; In press).

A. Abnoudy, *La Geste Hiliatienne*, Trus. T. Guiga (Caire: l'Organisation: Egyptienne Generale du Livre, 1987).

عبد الحميد بولس ، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ط ٢ (القاهرة : دار الفكر ، ١٩٦٨) ،

محمد الرزوقي ، الجبازة الهلالية ، (تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٩)

(٣) وهذا العنصر يمكن تفسيره فصول فهاب الهلال أزد حيلة الزرق من حله الزرقية .

(٤) حول البناء الشعبي راجع :

A. Ayoub, "A propos des manuscrits de la geste des Bani Hilal conserves a Berlin," *Actes du Ier Congres International des Etudes des Cultures meditteranneennes*, (Alger, S.N.E.D 1978)

الجزء الثاني

٣ - سيرة بني هلال والتصور الشعبي للتاريخ

- ٣ - ١ - تعتبر سيرة بني هلال أنشودة (بالمعنى الملحمي) قبيلة عربية مثبته تاريخيا . والآيات التاريخية يحدد - الى حد - قيمة السيرة . و انتهاء سيرة بني هلال الى مجموعة اجتماعية معترف بها جعلها تتمتع « بالمصدقية التاريخية » (ويعترف المؤرخين) . ويعتبرها أنشودة منطقة (جغرافية) بل مجموعة من المناطق الجغرافية - فان التصور الفضائي الذي تنطوي عليه تجاوز القطر الواحد الى متباعد عليه بالاقليم العربي الاسلامي - فالسيرة تنتقل بنا من نجد (الجزيرة) الى شواطئ البحر المتوسطي ، ومن شواطئ بلاد الشام الى آسيا الصغرى ، وغربا الى المحيط الاطلسي وتصلد شمالا الى جنوب اسبانيا - بلاد الأندلس - وكانت قد مرت بجنوب الصحراء الافريقية سواء من جنوب مصر أو من جنوب ليبيا أو من جنوب افريقية أو من جنوب أية دولة من شمال افريقيا .
- ٣ - ٢ - لقد حصلت السيرة الحلالية ولا زالت على مصداقية التاريخ والمؤرخين لأن نصوصها (= منها corpus) تحوي أحداثا تاريخية عاشتها القبيلة الحلالية^(١٣) . ولكنها لم تحظ بنفس المصدقية من قبل الجغرافيين (الرحالة) فهناك مواقع ذكرتها السيرة لا تعترف بها « الجغرافيا التاريخية » وكم من موقع يستحيل العثور على ذكره في « معاجم البلدان » معها كانت قديمة .. وأغلب هذه المواقع غير المبوية من بنات التصور الأسطوري لنقله السيرة ، وقد تم إقصاها من قبلهم لأسباب لا يتسع المقام لذكرها .
- ٣ - ٣ - ولقد رفض المؤرخون أيضا أجزاء من مادة السيرة الحلالية ، وبالمخصوص الأحداث التي لا تنتمي - في نظرهم - الى التاريخ : أي الأحداث المتعلقة : بالسحر و « العين الحاسدة » و « المحدثات الحارقة للعادة » (الحرافية) (كالقول ، والتعبان في الرؤوس العشرة) ... الخ وهي - كما نعلم أحداث لا تنتمي لسجل التاريخ (الرسمي) وإنما لسجل التاريخ الميثولوجي الشعبي .

لهرست الكتب العربية الموجودة بدار الكتب (القاهرة : ١٩٧١) ، علي أبو حنين ، فهرست خطوطات البحرين (بيروت ، ١٩٧٧) ، ج ١ : ٢٥٣ - ٢٥٥ .

K. Petracek, "Die Poesie al Kriterium des Arabischen Volksromans," *orientis*, 23/24 (1970-71).

K. Kramm, "Der erste Teil des Arabischen Romanyklus von des Banu Hilal," *Diss Universität an Munster*, 1973.

R. Basset, "une episode d'une chanson de Geste arabe," *Bulletin de correspondance africaine*, (1885), PP. 136-148.

M. Hartmann, "Die Beni Hilal-Geschichten," *Festschrift für afrikanische und oceanische Sprachen*, (Berlin: IV Jahrgang).

A. Baker, "the Hilali Saga in the Tunisian south," *Diss. Indian University*, 1978.

L. Saada, "Documents sonores tunisiens concernant la geste des Banu Hilal," *Proceedings of the II International congress of Studies on Cultures of the Western Mediterranean*, (Algiers: S.N.E.D. 1978);

L. Saada, "Mission en Tunisie", and "A Propos du colloque inter national sur la Sixieme centenaire de L'Ecriture des prolegomenes per ibe Khaldoun," *Groupe linguistique d'Etudes chamito-semitiques*, 1823, (1973-79), 417-424 and 425-428

(١٣) راجع :

J. Schleifer, "the saga of the banu hilel," *encyclopedia of Islam*, II, P. 387.

ولا زالت الآراء متطرفة حول الدور التاريخي الذي قام به بني هلال : راجع :

J. Berque, "Du nouveau sur les Beni Hilal?" *Studia Islamica*, 36 (1972), 99-111.

محمد الشامي ، و عارلة في إعادة تمجيد تاريخ الزوارة الحلالية الافريقية ، (العدد الخامس من ترانس من مجلة تاريخ العرب والعالم ، ١٩٨٧ ، ص ٥٨ - ٩٩)

٣ - ٤ - ومفاد ما سبق أن المتن الهلالي (والتعميم جائز على متون السير الشعبية) يطرح إشكالية ثانية في شكل ثنائية تقابلية بين التاريخ « الرسمي » والتاريخ الشعبي (أو البدائي حسب اصطلاح بعض الأنثروبولوجيين والمؤرخين للفكر^(١٤)) كما يطرح إشكالية موازية تتمثل في الثنائية : الجغرافيا الرسمية / والتصور الجغرافي الشعبي .

ولعلنا لا نحتاج إلى التأكيد على أن « المواقع الأسطورية » و « الظواهر الميثولوجية » تمثل في دراسة التصور الشعبي للتاريخ من خلال النصوص الملحمة عناصر ذات دلالة إشارية تفوق تلك التي تحظى بمصدقية المؤرخ والجغرافي . وكان نصوص السير الشعبية تتيح المجال لقراءتين مختلفتين - على الأقل - قراءة تركز على المعطى الرسمي وأخرى على ما يعتبره نقلتها « الحقيقي في تاريخهم » .

٣ - ٥ - فالتاريخ الرسمي قد أبرز الدور الهام الذي لعبه بنو هلال في مرحلة متأزمة خلال القرن الرابع الهجري وذلك بالشق الغربي من الامبراطورية الإسلامية عندما تحول « الخطاب » العقائدي - الديني (أو السياسي الديني) إلى صراع بين مجموعتين تنتميان إلى نظام واحد ، وكان من بوادر تفكك الامبراطورية الإسلامية . ولعل في ذكر هذا الحدث والتأكيد عليه من قبل المؤرخين تأكيد على وجود القبيلة الهلالية وجودا و سياسيا و أهمية دورها في المسار التاريخي للمجموعة العربية الإسلامية . أما نقلة السيرة الهلالية فلم يدنووا هذا الخبر وإنما - كما سنستيه أسفله - صبروا عنه بطريقهم الخاصة التي تبرز مشاغلهم الحياتية الأساسية .

٣ - ٦ - بيد أن التاريخ والتمن الهلالي اتفقا - ولو اتفاقا نسبيا - حول أن قبيلة بني هلال^(١٥) وجدت قبل الاسلام وخلال المرحلة الأولى منه ثم « كظاهرة تاريخية مثبتة » منذ القرن الثالث الهجري (القرن التاسع / العاشر الميلادي)^(١٦) . وكلاهما سرد بطريقته الخاصة ما يعتبر بمثابة تأسيس مجموعة برية في أرضية الزمن ، وأقصود الأحداث الثلاثة التالية : التركيبة النسبية للقبيلة والأحداث التي تألفت بها عند ميلاد الاسلام وموقفها من الديانة الجديدة ، وخاصيات بني هلال الحربية^(١٧) .

٣ - ٧ - وخلال مرحلة الصراع السياسي (القرن الثالث / الرابع للهجرة) نشأت سيرة بني هلال أو على الأقل براعمها الأولى والتي أطلق عليها ابن خلدون « الشعر البدوي الهلالي »^(١٨) . وبينما يسوق التاريخ أحداث هذه المرحلة بطريقته الخاصة تسوق السيرة الشعبية - هي الأخرى - الأحداث بطريقته الخاصة : فيينا يقدم التاريخ الرسمي حديثا مثل « تخريب المغرب »^(١٩) على أنه تم على أيدي بني هلال تلهب السيرة الهلالية إلى تعليل ظاهرة

(١٤) راجع .

C. Levi-Strauss, *Tristes Tropiques*, (Paris: 1955); *La pensée sauvage* (Paris: n° 91-92) (1975)
1962), *Anthropologie Structurale* (Paris: 1958)

(١٥) راجع .

R. Daghfous, "Des Banu Hilal et des Banu sulaym", *Cahiers de Tunisie*, 23, n° 91/92 (1975)

(١٦) شلغر : المرجع السابق

(١٧) الزينة للتصنيف : راجع عبد الشافي . ج . ص

(١٨) اللقمة : فصل من أشعار العرب وأهل الأندلس إلى ملا المجدد ص ٧٧ وما يليها من طبعة الدار التونسية للنشر : تونس ١٩٨١)

(١٩) راجع بلاضافة للمصادر المذكورة .

CH. A. Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 2 ed.: (Paris: 1952)

« التحزيب » على أنها تصرف شرعي اضطرت اليه القبيلة لمجابهة « المجاعة » التي حلت بها ولأن السلط السياسية الحاكمة رفضت ملها بالقوت الضروري .

٣ - ٨ - ولذا لجأ ابن خلدون وحل غراره عدد من المؤرخين ، الى تقديم « عملية التخريب الهلالية » بطريقة « سياسية مشحونة » وكأنه - وهو أول مؤرخ يذكر الشعر الهلالي ويورد مقطوعات منه وذلك في مجرى حديثه حول قبيلتي بني هلال وبني سليم - يعتمد بريشة قلم وتحت تأثير كتابة طبقية - الى شطب التاريخ الذي عاشته مجموعة اجتماعية . ورغم ذكر ابن خلدون لمقطوعات شعرية على لسان بني هلال كانت تتداوله بين البطون البدوية في الفريقة الا أنه لم يشر ولو إشارة عابرة الى الحياة الاجتماعية والسياسية للمجموعة الهلالية^(٢٠) ومهما كان الأمر فان المقطوعات الشعرية المذكورة (والتي تصرف فيها أيدي الناشرين بالخلف أو التعويض على مر السنين) تقدم لنا صورة من القرن العاشر الميلادي عن التركيبة الاجتماعية لقبيلة بني هلال وعن دوافعها ومطامعها ، وعن طريقها في الحياة وعن علاقاتها بغيرها من المجموعات الاجتماعية سواء كانت متقلدة للسلطة أو مستغلة من طرف السلطة^(٢١) .

٣ - ٩ - والاحالات الى التاريخ (الرسمي) التي يعثر عليها في نصوص السير (المخطوطة والمطبوعة والشفاهية / الروية) نقودنا الى معانية التاريخ معانية نوعية أو بعبارة أخرى الى قراءة التاريخ قراءة مشروطة .

وتتطلب هذه القراءة - باديء ذي بدء - أن نولي اهتماما خاصا بالصياغة النصية *formulation* للأحداث : أي أن نتم (أولا) بكيفية النظر للأحداث الملحمة على مستوى المخيلة الشعبية ، و (ثانيا) بكيفية إيصال الأحداث من قبل الرواة الشعبيين للسيرة الشعبية .

اذ القراءة النقدية للسيرة القائمة على المعطيات التاريخية التي سجلها التاريخ الرسمي والمؤرخون « الرسميون » من شأنها أن تهمل إبراز الرسالة التي ترمي رواية السيرة الى ايصالها ، وفي هذا تتفق القراءة التاريخية مع التحليل الشكلي للسير والقصص الذي تتبناه كل من المدرسة الشكلية المبينة على النظرية الصيفية *formulaire* التي وضعها ب. لورد^(٢٢) والنظرية التركيبية الوظيفية لفلاڤيير يروب^(٢٣) .

وكلاما لا يولي اهتماما كافيا بالدوافع الحقيقية التي تدفع الراوي الى اعادة رواية أنعاج فهي ينتمي الى الماضي . وبعبارة أخرى لا تطرح هذه النظرية وتلك المدرسة السؤال الأساسي الذي يفيد عن سبب تواتر السير الى اليوم : « لماذا يقص الراوي الشعبي الماضي »^(٢٤) .

(٢٠) راجع عبد الرحمن أيوب ، « مهبية م . س .

(٢١) راجع :

A. Ayoub & M. Galley, *Images de Djazayr: A propos d'une peinture sous verre de Tunisie*, (C. NR... Paris, 1977)

A.B. Lord, *The singer of tales*, (Cambridge: Harvard University press, 1981).

V. Propp *Morphology of the Folktale*, 2nd ed. (1877; rpt. Austin: University of Texas press, 1968) P. 87

(٢٤) في الواقع يطرح لورد هذا السؤال في الفصل الثاني بالفرض (الفصل الثاني) ولكنه لا يجيب عنه إجابة كافية .

٤ - إشكالية الاستيعاب : الثابت والتغير (التحول)

٤ - ١ - ليست غاية الفولكلوري في دراسته لمضامين المأثورات الشعبية المروية أن يبالغ في دلالة مؤشرات التاريخ الشعبي المتضمنة في النصوص . ولكنه في تعامله مع نصوص ملحمية مثل سيرة بني هلال أو سيرة عنترة بن شداد أو سيف بن ذي يزن أو الألياذة والأوديسة أو أنشودة رولان أو جلجامش أو الكلفيلا . . . ينظر لها على أنها أولا وبالذات سير للشعوب وأن هذه الشعوب الناقلة لها جزء من التاريخ . وبالتالي فإن النصوص المنقولة تصبح بدورها تاريخيا ولكن ليس بالتاريخ الرسمي المتعارف عليه .

٤ - ٢ - ومن وجهة النظر هذه يبدو لنا أن الإشارة الهامة للنصوص الشعبي للتاريخ في سيرة بني هلال تكمن في العلاقة القائمة بين المجموعة الهلالية وغيرها من المجموعات الاجتماعية وصفة خاصة المجموعة الاجتماعية القائمة على « السلطة » في المواطن التي مرت بها القبيلة في سعيها وراء القوة . والثن الهلالي corpus يؤكد على هذه العلاقات ولذا فلنستمع للروايات الهلالية أو القارئة لها تواجه باستمرار الثنائية الثابتة المثلثة من جهة للعلاقات القائمة بين بني هلال والسلطة وتحول هذه العلاقة نفسها من جهة أخرى^(٢٤) . ونصطلح على هذا المحور « تحولية العلاقة مع السلطة » . أما الثنائية الثابتة (والتي تعتبر إلى حدّ البنية التحتية للسيرة) فهي = البندو (بنو هلال) // الحضرة (أهل المدينة) السلطة

٤ - ٣ - والمتخصص للنص الهلالي انطلاقا من هذه المقابلة - مهما كان السياق الروائي لها - بإمكانه أن يتتبع كيفية ادراك نقلة السيرة الهلالية (أي الرواة ومجهورهم) (وقس على ذلك بقية السير) للصراع من أجل النفوذ والسلطة بين مجموعتين اجتماعيتين : أحدهما تحتل المنطقة الزراعية (البادية) والأخرى للمدينة . أما الأولى فيربط مصيرها بالأرض وما تنتجه ، وأما الثانية فيربط مصيرها بسلطتها على الأرض وما تنتجه . وبينما تنصرف الأولى - وهي المجموعة التي ينتمي إليها الراوي الشعبي في غالب الأحيان - حسب ما يحليه ضمير القبيلة ومصطلحتها تنصرف الثانية حسب ما يحليه ضمير المجموعة القائمة على السلطة ومصطلحتها . . . الخ .

٤ - ٤ - وعمل مستوى « الحكم » في السيرة الهلالية يبدو جليا استعمال الثنائية (بندو // حضر) ؛ وهو ما يدفعنا إلى اعتبار هذه الثنائية عمائة البنية الروائية الأساسية للنص الهلالي . ولو تمكنا من وضع أنفسنا في زمن الثن الهلالي ومكانه لوجدنا أن هذه الثنائية تحتل محور التحولات الحقيقية والممكنة للنص الهلالي . والمقصود بالزمن هنا « الزمنية » التي يسير النص فيها - وهي زمنية حقيقية تنطلق من أول إثبات للسيرة (النص الذي أورده ابن خلدون) حتى الإثباتات الشفاهية (أي الروايات الشفاهية) التي يتناقلها الرواة اليوم . وأما المكان فيشأر به إلى الجغرافيا المحلية أو بعبارة أخرى إلى العديد من المواقع في الرقعة العربية الإسلامية حيث لازالت تقص روايات السيرة . وأما التحولات فيقصد بها « الترميزات » الفعلية المحتملة التي تخضع لها الثنائية التقابلية : البندو // حضر .

(٢٤) هذه الثنائية نفسها بجميع تنويعاتها - توجد في نصوص قبيلة الرواة ، راجع :

M.E. Mecker, *Literature and Violence in North Arabia*, (Cambridge: Cambridge University press, 1979).

وبعض التوضيحات الفعلية والمحتملة ذات الطبيعة التاريخية والاجتماعية قد تكون :

« الطبقة الفلاحية »	// الطبقة البرجوازية
« الطبقة » الشعبية	// الطبقة المستغلة (رؤوس الأموال)
المستعمر	// المستعمر
« الطبقة » المستغلة	// الطبقة المسيطرة . . الخ . .

٤ - ٥ - وهذه التحويلات ، التوضيحات حقيقة لارتباطها الحتمي بعنصري الطبيعة : الزمان والمكان . ودون التحويلات المحتملة - وبعض التحويلات أصبحت فعلية - يصبح النص الروائي (السير) نصاً مختطاً أو بعبارة أخرى تكون اثباتات السير الشعبية في شكل غطوطات يرجع لها الباحث عند الضرورة وهو ما قد وقع فعلاً لبعض السير الشعبية العربية وغير العربية التي تمحورت بالخصوص حول البطل الفرد ، أو المضمون الدني (عشرة بن شداد ، سيف بن ذي يزن ، سيرة الامام علي . . ، أنشودة رولان ، بيولف ، الخ) .

٥ - حالة التماثل خلال عملية رواية السير الشعبية :

٥ - ١ - بيد أنه كما رأينا في الجزء الأول (راجع ٢ : ٢ - ٦) من هذا العرض فإن عملية « التحنيط » لم تحدث بعد . وبعبارة أخرى ، عندما يعمد الباحث - المدرك للتحويلات التي خضع لها متن السيرة الملالية بصفة خاصة ومتون السير الشعبية بصفة عامة - الى معابنتها في مدار الزمن - أي خلال القرون العشرة التي استمرت فيها - وفي الأمانك المنتشرة فيها - سيدرك أن هذه التحويلات قد حدثت فعلاً أو أن حدوثها محتمل وذلك نتيجة التفاعل المعقد للأسباب الثلاثة التالية : ١ - « حالة التماثل » .

١ - « حالة التماثل »

٢ - الذاكرة

٣ - المقدرة الإبداعية لنقل السير

وان معاناة النصوص الأدبية الشعبية بالاعتماد على الأسباب الثلاثة المذكورة متفضي بالباحث الى ادراك تصرف ما أطلقت عليه « بالضمير الشعبي الجماعي » وبالتالي الى الاجابة على السؤال المطروح : « لماذا يقص الراوي الشعبي الماضي » .

٥ - ٢ - « حالة التماثل » :

التماثل عملية طبيعية في التصرف الانساني . وهو رد الفعل الفردي أو الجماعي الناتج عن حدوث ظاهرة ما . وفي رواية السير يكون التماثل رد فعل نقلة السير ازاء الرسالة التي تتضمنها السير وتسوقها لثقلتها .

وحق تحدث حالة التماثل ينبغي أن تتوفر العناصر الثلاثة التالية :

أ - الموضوع .

ب - العامل - ١ -

ج - العامل - ٢ -

وينبغي أن تكون الموضوع متنسبا « للمحيط » الذهني للعاملين وهما : الطرف المعبر (وهو هنا : ناقل السير ، الراوي) والطرف المتقبل (المتلقي) : السامع (وهو هنا : الجمهور)^(٢٦) . وينقل العامل ١ - الموضوع قراءة أو انشادا للعامل - ٢ - التي يكون في وضعية استقبالية . وما أن يتقبل العامل - ٢ - بدوره الموضوع الذي يصحح - عن طريق عملية النقل - موضوعا مشتركا بين العاملين حتى يتحول العامل - ٢ - بدوره الى وضعية فاعلة . وهذا التحول من وضعية الى أخرى - من متقبل الى فاعل - ينتج عن رد فعل العامل - ٢ - ازاء الرسالة المتقبلة . ويكون رد الفعل إما « الاهتمام » (الاكتراث) أو « عدم الاهتمام » (عدم الاكتراث) ويعتبر آخر يتقبل الموضوع أو يرفضه .

٥ - ٣ - مثال توضيحي :

٥ - ٣ - ١ - لو اختار العامل - ١ - موضوع روايته « رحلة المكوك الفضائي » لاستجاب العامل - ٢ - (المستمع له) اما بالاهتمام او عدم الاكتراث . وبالنسبة : فاما أن يجمع الانصات أولا ينصت مطلقا . ويمكن تحليل رد فعل العامل - ٢ - كالآتي : لقد اهتم بموضوع الرواية لأنه يذكره بمشاهد مماثلة قد شاهدها من قبل وتخص قيادة السفينة الفضائية (المكوك) . ورو الفعل هذا من شأنه أن يفضي بالعامل - ٢ - الى مماثلة نفسه - أي أن يجعل نفسه محل (ب) الشخص الروائي الذي أفرزه الاستماع للرواية . وأطلق على هذا الصنف من « التماثل » : « التماثل الفعلي » حيث ينطلق العامل - ٢ - من الاستحضار المشهدي « المتقبل » الى انشاء « خطاب » (رواية) تضال اليه تجرته الشخصية .

وعلى هذا التماثل الفعلي تقوم رواية « للثور الشفاهي » أي فن اعادة الرواية ، أو قل « فن نقل الخطاب » .

٥ - ٣ - ٢ - وإذا اعتبرنا بوضع العامل - ١ - في المثلث : الموضوع - العامل - ٢ - العامل - ١ - ، لوجدنا أنه قد تماثل بالموضوع الذي اختار نقله إذ أنه لن يروى ما ليست نفسه رغبة فيه . وهو بدوره أيضا يكون قد « شجن » الموضوع المنقول بعدد من العناصر التي تمت بصلة بتجربته الشخصية أي برؤيته للعالم . والنتيجة هي كالآتي : العامل - ١ - يتماثل مع مضامين الخطاب الذي هو بصدده نقله ، فانه ينقله للعامل - ٢ - بطريقته الخاصة مشريا اياه بطابعه الشخصي ثم يتماثل العامل - ٢ - بدوره مع الموضوع المستقبل ، ويدوره مرة أخرى يحوله الى خطاب حامل لما هو مهتم به . وبالنسبة تكون الرواية المنقولة حاملة للطابع الشخصي للراوي الشعبي .

٥ - ٣ - ٣ - ولأن العامل - ٢ - أصبح بدوره العامل - ١ - (أي ناقلًا للرواية) فانه يصبح من السير تصور المرحلة التالية : أولا ، نتيجة عملية التماثل يكون الخطاب المنقول - من جيل لآخر وعمل لسان أو يد : ان كانت الحالة متعلقة بالخطوط (عدد من نقل التراث وفي سياقات مختلفة - حاملا لسمات التحول وهذا التحول ناتج عن طرق متنوعة لشحن الخطاب المستقبل بحصيلة التصور الفردي والجماعي) (شكل من الأشكال) من ناحية ، وبحصيلة التجربة الفعلية للمستخلصة من حوادث خارجة عن النص من ناحية أخرى .

(٢٦) وبطبيعة الحال يمكن أن يكون النص المنقول هو العامل - ١ - ويكون باقي الأجزاء العامل - ٢ - هناك تنبيه بين ما أحقق عليه « حالة التماثل » وما يطلق عليه كينيث بوروك : Identification : راجع :

Kenneth Burke, A Rhetoric of Motives, (Berkeley: University of California press, 1969).

ونظر بعامة خمسة الفصل الخاص بحالة التماثل : ص ٥٥ - ٦٥

٥ - ٤ - ٥ « الحالة » المتبادل « و » التحول « في السيرة الهلالية :

٥ - ٤ - ١ - وكما ظهر من المثال التوضيحي السابق يبدو أن مفهوم « المتبادل » و « التحول » يتضمنان سبب استمرارية نقل السيرة الهلالية عبر هذا التاريخ الطويل . وتعليل ذلك كالآتي :

باعتبار أن الثنائية التقابلية : بدو / حضر تمثل أرضية البنية الروائية للسيرة الهلالية وأنها تتمحور حول « المحور المضموني » (الصراع للمستمر بين البدو والحضر « أصحاب السلطة ») فاننا لا نستغرب أن يكون للنسج الهلالي نقلاً للثنائية المذكورة بأشكالها المختلفة .

مثال عدد ١ :

عندما غادرت قبيلة بني هلال نجد ، بعد سبع سنوات من الجفاف ، بادرت بتهديد الشريف بن هاشم (والتهديد شكل من الصراع) الذي كان قائماً على المدينة وصاحب الأرض . وكان التهديد بالنسبة للشريف بن هاشم أن تخرب القبيلة أرضه (أي بعبارة أخرى أن تفك منه الأرض فيفقد بالتالي سلطانه) . أما بالنسبة لبني هلال « فالتخريب » - أن حدث تخريب - اقما هو « استهلاك انتاج الأرض » « فحسب . فالراوي لهذا الجزء من السيرة وجوهه المستمع - وكلهم يتمنون للبيئة الفلاحية - أو بيئة نمائنة لها اقتصاديا - ويتشكون الفقر والاستغلال - وهم يصعد الاستماع للمحنة التي مرت بها قبيلة بني هلال من أجل الحصول على المرعى لكسب القوت لهم ولماشيتهم ، انما ينصتون في واقع الأمر لرواية وضمينهم الخاصة . ويكون المتبادل قد وقع . وموضوع « اللقدان » لأمر مصيري (القوت اليومي - البحث عن أحد أفراد القبيلة الحنين للأرض - الخ . .) الذي من أجله ينتقل المرء (القبيلة) من موطن لأخر موضوع يتواجد في جميع « مراحل » السيرة الهلالية . ويمكن تعميم القول بأنه الموضوع الرئيسي الذي تتمحور حوله بقية المصامين للمحكمة في السيرة وهو الذي ينمي حركية السيرة وتطور سردها .

مثال عدد ٢

٥ - ٤ - ٢ - ويتعلق بشخصية الجازية : وهي المرأة الهلالية ذات الحسان والتي يبدو ظهورها في النص الروائي بمثابة الوظيفة (بالمعنى البروي للكلمة) التي تنمي التطور المرحلي للرواية ، فكلما ظهرت الجازية صار حدث ينتمي الى ثنائية البدو // الحضر . وهذا الحدث قد يبقى على المحور المضموني : أي الحرب ، وقد يعوضه ببديله : السلم . وتصرف الجازية يقدم صورة جديدة عن طبيعة العلاقة القائمة بين أهل البداوة التي تنتمي اليهم وأهل الحضر الذين ترغب فيهم (للمصلحة) وفي الآن تحاربهم (مع قبيلتها) . ففي إحدى الروايات الهلالية يقبل الشريف بن هاشم بتقديم المرعى للقبيلة اذا وافقت الجازية على الزواج منه^(٢٧) ، ولا تمنع الجازية وتحصل المعاهدة (السلم بين الطرفين) . الا أن هذا التصرف في نظر الجازية لا يبدو « الزواج الاستراتيجي » ان صح التعبير . إذ أنها ترفض الانتباه لوسط الحضر ولذا فلها تلجأ للحيلولة حتى تحرر نفسها . فيحدث ما عطلت العزم عليه ويظل المشاق (الحرب من جديد بين الطرفين) .

وهذا الأخذ والرد الذي تتمتع به الجازية في تصرفها يرد كثيراً في السيرة الهلالية ، ويبدو أنه بمثابة المرأة العاكسة لموضوع آخر هام تعالجه السيرة الشعبية وله أهمية من حيث تصوير عناصر « الضمير الجماعي الشعبي » وهو « الانتباه لمجموعة اجتماعية » .

(٢٧) رابع محمد الرزوقي ، « الجازية الهلالية (تونس : دار التونسية للنشر ، ١٩٧٩)

٥ - ٤ - ٣ - ففي سياق النص التلحمي لسيرة بني هلال - تبدو الرغبة (بل الحاجة) في الانتهاء قوية . وفي القصيد المطول الذي ينشد على لسان الجازية (والأمثلة الماثلة عديدة) (٢٨) يوجه الخطاب حول هذه المسألة بصيغة مباشرة : « أن لا تعود الجازية الى قبيلتها حتى لا تشتمل الحرب من جديد » . ولكن الجازية - تضرب الوعود عرض الحائط وتعود . والظاهر أن أهل الحضرة (أصحاب السلطة) يفضلون إقامة ميثاق (من خلال الجازية) مع بني هلال ليتمكنوا من المحافظة على سلطتهم على الأرض والبقاء على بني هلال قيد المجموعة المستهدفة (٢٩) . وفي التاريخ الرسمي ما يؤيد هذا الاستنتاج (٣٠) .

٥ - ٤ - ٤ - ولعل في تعدد ورود هذا المضمون (الانتهاء الى المجموعة الاجتماعية) (هنا القبيلة) ما يدل على أن بني هلال قد أدركوا أن السلطة السياسية لم تكن ترغب في عقد معاهدة معهم الا بغرض استغلالهم - ولعله ليس من باب الصدفة أيضا أن يتخلو النص الملالي من حادثة تمثل خروج أحد أفراد القبيلة عنها : ولذا نجد أن « ذياب الملالي » الذي يترك القبيلة كليا تعارض مع أحد أفرادها سرعانا ما يعود إليها اذا هددها الخطر . والأمثلة المؤيدة لهذا كثيرة (٣١) .

٦ - المفلول السياسي للسيرة

٦ - ١ - ومن جهة أخرى لا تمثل الثانية : بدو // حضر - في واقع الأمر - تقريبا اجتماعيا يقوم على تصنيف جغرافي فحسب وإنما هي ثانية تقوم أيضا على تقسيم سياسي تتحكم فيه بالدرجة الأولى مصلحة المجموعة . ولذا نجد المضامين الاجتماعية والسياسية التي تنطوي عليها السيرة الملالية متجلية وبالحصوص في الروايات المتناقلة في الوقت الحاضر .

٦ - ٢ - وعلى هذا الصعيد تبدو الثانية بدو // حضر ثنائية ثابتة في تزامنية النص . فلعل إثبات للسيرة الملالية والمتمثل في النص الذي أورده ابن خلدون يبرز هذه الثنائية بصفة واضحة خاصة وأن الصراع بين أهل البداوة والحضر كان ظاهرة اجتماعية قد كرسها الوضع الاجتماعي السياسي .

وفي الواقع استمر هذا الصراع بين المجموعتين طيلة قرون ولم ينته الا عندما شرعت القبائل « البدوية » في الاستقرار . بل إن هذا الاستقرار - كما هو معروف - لم يحدث بمحض ارادة القبائل الرحل وإنما عملت السلطة المدنية الحاكمة (وكذلك الشأن مع السلطة الاستعمارية) على فرض الاستقرار « المكاني » عليها .

٦ - ٣ - وما أن استقرت هذه القبائل الرحل حتى أصبحت تتعاطى مهنة الفلاحة او الأخرى عمل الأرض فائتلة مالكي الأرض : وهو ما نطلق عليه - في تونس - عمل « الخماسة » .

وهذا التحول الاجتماعي يؤدى بدوره الى ادخال تعديلات معجمية على طرفي الثانية التي بعد أن كانت بدو // حضر تصبح : فلاحون // اقطاعيون (حضر) . ولا يفيد هذا التعديل المعجمي بالضرورة أن المضمون الثنائي قد تمعدل هو الآخر بل إن الصراع بين الطرفين ثابت ومستمر .

(٢٨)

A. Bel, "La Djazya, chanson arabe précédée d'observations sur quelques legendes arabes et sur la geste des Banu Hilal," Journal Alastique, 1902-3).

(٢٩) وتجدد مثلا هذا التصرف الاستراتيجي لي. خطوط تونس. عدد ٢٠١٢ : راجع : فهرست خطوط المكتبة الأندلسية بونس الفصل ١١ (بيروت : دار التنقيح ، ١٩٦٩)

(٣٠) راجع دائرة المعارف الإسلامية مقال : Saga:

(٣١) راجع عبد الرحمان لوب ، قصيدة ليلية حول ذياب الملالي « (بالفرنسية) ، مجلة كلية الحقوق (طرابلس ، ١٩٨٠) .

ولذا فإن النقل التزامني للسيرة الهلالية لم يكن في حاجة لإبدال لفظي الثنائية بغيرها ، فحالة التماثل كافية لجمل الناقل (الراوي والمستمع) يعوض بنفسه لفظ : « البدو // العرب » بلفظ « فلاح // عامل // / / خدم . . » وبالمثل فيما يتعلق باللفظ الثاني للثنائية الذي سيقتى معجميا ثابتا مهما كانت التحويلات التي سيخضع لها مضمون النص الهلالي .

ولعله من المفيد أن نعين « تحول العلاقة مع السلطة » في سياق التزامن النصي لأن النص المذكور هو عبارة عن « مجموع » نصوص تم نقلها خلال قرون طويلة ولم تتخذ شكلا مكتوبا إلا في مطلع القرن الثامن عشر مع أنها لا زالت تنقل شفاهيا حتى يوم الناس هذا .

٦ - ٤ - ويبدو من جهة أخرى أن الأدب يتطور نتيجة عملية ديالكتيكية تتمثل في شكل التداخل بين المعطيات الاجتماعية والانتاج الأدبي . ولذا فليس من الانصاف أن يعمد الباحث إلى التعامل مع النص الهلالي - وقس على ذلك بقية نصوص السير - وكأنها وكم ثابت ، أو نهر واكد لا يتبدل ألوان مائه إلا بتغير وضعية الشمس وانعكاس أشعتها عليه . وكم من باحث في مجال الآثار الشعبية (الشفاهية منها بالخصوص) لا تحمده اليوم سوى فكرة جمع نص موحد ومتكامل للسير ، وكأن الباحث هنا - ولعل ذلك تحت التأثير السطحي لعملية طباعة النصوص الملحمية^(٣٢) - يبحث عن إقامة الدليل على عدم وجود « التنوع » في النص المتواتر مما يثبت أن نفلة السير على مر التاريخ هم حفظة لضمير أمة واحدة غير متنوعة . وكان التاريخ بطل عن أحداثاته ، وكان المجتمع ثابت غير متغير بطبقاته وتقسيماته الاجتماعية ؛ وكان النص المروي اليوم ليس سوى ترديد لماضي الحاضر^(٣٣) .

٦ - ٥ وفي الواقع لم ينتج الميدان رواية لأية سيرة منها كانت ممثلة مثل النهر الجارف . والباحثون المتأثرون بالمدرسة الشكلية^(٣٤) يميلون الطروحات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي تنطوي عليها مضامين الأدب الشعبي . فالدراسات الأوروبية التي تعلق اهتماما كبيرا على « ألف ليلة وليلة » مثلا لا يعمها إلا تطبيق المنهجية البروبرية (دراسة التراكمات الصغينة) لنصوص القصص^(٣٥) . ونفس التصرف ظاهر اليوم فيما يتعلق بدراسة نصوص السير العربية على يد الباحثين العرب وغير العرب . ولذا يبقى السؤال المطروح أعلاه دون جواب : « لماذا رأت النور قصص ألف ليلة وليلة ؟ » « لماذا رأت النور سيرة بني هلال ؟ » وبالأحرى : « لماذا تواصل الشعوب العربية نقل بعض السير ويلخصونها سيرة بني هلال ؟ » .

والأجدي في اعتقادنا أن تكون هذه الأسئلة نقطة الانطلاق لأي بحث في مجال الآثار الشفاهية (الأدب الشعبي) .

(٣٢) وهذا ما حاوله هندا لوسيان سمعة أثار

L. Saada, "Mission en Tunisie", G.L.E.C.S., 18-23 (1973-79)

وكذلك ما يجاراه عبد الرحمن الأيوبي أثار :

La gest Hiliannne

(٣٣) راجع بيوري سوكولوف ، الفولكلور ، فلهلم وناريت ، ترجمة حلمي شرابي وعبد الحميد حواس (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب والشرق : ١٩٧١) ، الفصل الثاني : ص ٥٩ - ١٥٥

(٣٤) راجع سيرة بني هلال أصناف النكتة المالية بالحملة (١٩٨٠) (تونس : الدفتر التونسي للشرق للفتح)

(٣٥) انظر على سبيل المثال

A. Miquel, Un conte des Mille et une nuits, Ajlil et Gharib, (Paris: Flammarion, 1977)

H.T. Norris, The Adventures of Antar, "Approaches to Arabic" (England: 1980)

والمحاولة الإيجابية للباحث البريطاني .

٧ - التواصل في التغير : التنوع في الوحدة

٧ - ١ - وتعتبر بعض العناصر الروائية - مثل حالة التماثل - مسؤولة عن ظاهرة « التواصل في التغير » التي تنصف بها نصوص السير العربية ومن بينها السيرة الهلالية . وإذا اعتمد الباحث الثنائية الأساسية (بدو // حضر أو المجموعة الفلاحية // السلطة المدنية) بمثابة فرضية للبحث فانه سيلاحظ أن نقلة السير الشعبية - (الرواة) ويكاد جميعهم يتمون الى الوسط الفلاحي (البدوي) ويجهلون القراءة والكتابة أو يكونون - يتمثلون برسالة النص المروي : كيف تمكنت قبيلة بني هلال - أو أحد أباطها - من تحقيق الانتصار على خصمها ؟

وعلى هذا المضمون - كما نعلم - الاهتمام الأولي عند المجموعات المستقلة (فلاحين وغيرهم) : ما هو السبيل للخروج من الوضعية الاجتماعية التي يكابدها المستغل ؟ ومن هذا المنظار يبدو أن النص الهلالي يقدم طريقة تمكن « للمستغل » (المضطهد) من السيطرة على الأرض التي هو في حاجة لها .

٧ - ٢ - وبالنسبة تصبح المعادلة التالية : نص ينقل موضوعا معتادا (ينجر عنه) مجموعة مستقلة تتماثل ومضامين النص المنقول . وعلى مستوى التماثل المضموني يمكن أن نرى تماثلا جزئيا في شكل تمثيل مجموعة اجتماعية مع شخصية ملحمة تعود تصرفاتها بالفائدة لصالح المجموعة : ففي مصر مثلا - يعتبر أبو زيد الهلالي شخصية شعبية . وهو شجاع ومحمك ويمس في كل الظروف استعمال الخطاب (السياسي) وحمل السيف وتحرك للحصول على المرحى الذي يحتاجه قبيلته وعادة ما يحصل عليه لا بسيفه وإنما بحكته^(٣٦) .

وفي بلاد المغرب العربي تحتل الجازية الهلالية الصدارة في الروايات المتناقلة وقد يعود تفوق هذه الشخصية المعروفة بشجاعتها وحميتها وتضحياتها من أجل قبيلتها الى الدور الذي تلعبه في الضمير الشعبي الجماعي الأرضية البربرية في المساعدة على اقامة حالة التماثل بين البطلة الملحمة (الأسطورية الجازية) والبطلة البربرية التاريخية الكاهنة^(٣٧) . والروايات الهلالية البربرية التي سجلت في الجزائر تعتمد أثباتا لهذا الافتراض^(٣٨) .

٧ - ٣ - وباختصار إذا لم تتماثل المجموعة الفلاحية (البدوية) بشكل أو آخر مع الطرف الأول من الثنائية (بدو // رحل) فلا نرى موجبا عندها لتواصل اليوم نقل « السيرة » . وقد يكون من المفيد أن ننظر الباحث للسيرة الهلالية في السياق الشامل للأدب الشعبي حتى يتمكن من ادراك « التماثل » الذي يحدث بين (موتيفات) السيرة (الملحمة) ونقلتها .

والقصص الشعبي التي تدور حول الفلاحين تصور جيدا كيفية توظيف « حالة التماثل » . ولقد جمع لين^(٣٩) مدة اقامته بمصر عددا من القصص التي يواجه الفلاح فيها السلطة التركية . وهذه الأفاصيص التي سجلها لين ومن بعده حسن الشامي^(٤٠) تصور رفض المصريين لحاكم جعل من الفلاح عبدا واقتل كاهله بفرض الجباية عليه^(٤١) .

(٣٦) ولعله من المفيد مواصلة البحث في هذا الاتجاه للتأكد فيما إذا كانت نقلة الهلالية - في الوسط الفلاحي المصري - لا تقوم موازاة بين أبي زيد الهلالي وجمال عبد الناصر خاصة في فترة ما يطلق عليه بالأصلاخ القرواعي .

(٣٧) راجع : مادية الكاهنة دائرة المعارف الإسلامية (ط ١ - الثانية)

(٣٨) انظر : م . س .

Breteaun, Galley, "Reflexions".

(٣٩) راجع : م . س

E. Lane, "An Account."

Hasan M. El-shamy, Folktales of Egypt, (Chicago: University of Chicago press, 1980).

(٤٠)

(٤١) راجع القزويني ، كتاب الحطوط القزوينية ؟ (القاهرة : مكتبة احياء العلوم ، ١٩٥٩ م) ص ٨٧ وما يليها

٧ - ٣ - ١ - وخلال هذين القرنين استقر الاستعمار في العالم العربي وما الاستعمار الفرنسي أو الإيطالي أو الانجليزي إلا البديل للسلطة التركية التي في بعض الأحيان لم تترك الساحة السياسية إلا في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين^(٤٢). وخلال هذه المدة ارتقت السيرة الحلالية خصوصاً ذروة مجدها، والرصيد المخطوط منها يثبت ذلك^(٤٣). وتمثل هذه الوضعية نفس التداخل الذي نامسه اليوم بين الحدث السياسي والحدث الأدبي إن صح التعبير. ولذا عندما نطرح السؤال على الراوي الشعبي - لماذا تروي السيرة الحلالية ؟ ولا نغالب بما أصبحت إجابة معتادة : لا ي أرى فيها أجداد الأولين^(٤٤). فهل يحتاج المرء أن ينشد أجداد الأوائل لو كان هو نفسه عبيداً ؟ أو كما قال طريقة ابن العبد : إن القتي من قال أنا ليس القتي من قال كان أبي .

٧ - ٣ - ٢ - وليست السيرة الحلالية وحدها التي انتشرت بكثافة خلال القرنين المذكورين . فقد بقي الكثير من السير والقصص نفس المصدر ، وعدا السير الدينية نذكر على سبيل المثال لا الحصر : سيرة عترة بن شداد^(٤٥) سيرة سيف بن ذي يزن^(٤٦) وألف ليلة وليلة^(٤٧). وقد يجلو بنا الرأي على فرار ما ذهب إليه البعض أن أنابت القصص الشعبي بصفة عامة إنما كان نتيجة تحلف ثقافي (انحدار ثقافي) عاشه العرب وأقول ادبهم الكلاسيكي (أي الأدب القصص)^(٤٨). بيد أن أنابت الأدب الشعبي كان قد واكب بعض الأحداث التاريخية . والسيرة الحلالية قامت هي نفسها على أحداث تاريخية ثابتة^(٤٩). وكان لسان الحال يقول أن هذه السيرة كانت ملائمة لأن تكون أرضية متقبلة لعملية التماثل التي تتساق إليها مجموعة مستقلة . فحبر حالة التماثل هذه تعبر المجموعات المستقلة عن ودائعها لرفض كل سلطة تفرض عليها . ولعلنا نجد في الأمثلة الثلاثة المدرجة أسفله والمتخبة من أرضيات عربية متميزة وهي - تونس وليبيا والأردن ، ما يعاضد هذا الطرح .

٧ - ٤ - النموذج التونسي

٧ - ٤ - ١ - في الجنوب التونسي ، حيث هناك أكثر من اثبات على الحضور الحلالي ، تم في أواخر القرن الماضي تسجيل رواية حلالية تطلق عليها رواية تشين^(٥٠). وتلور أساساً حول أحداث الجازية لاتفاق بين قبيلتها والسلطة السياسية القائمة في شمال القطر التونسي (برافريقية) . ويتطور السرد في هذه الرواية بصفة عادية - يترك

(٤٢) ارجع عبد الرحمن أيوب ، ص ١ ، وكذلك المخطوطات ٩١٨٨ الى ٩٣١ في ١

W. von Ahlwardt, Die Verzeichnis de Koniglichen Bibliothek zu Berlin, 19

(٤٣) المرجع السابق

(٤٤) راجع مقدمة عبد الرحمن أيوب للسيرة الحلالية La gest Humilaine

(٤٥) م. س. Norra

R. Parer, Sirat Saif B. dhi yznan, ein arabischer volkreman, (Hanover, 1924).

E. W. Lane, Arabian Nights, New York, F.S. Holby, 1913.

(٤٦)

(٤٧)

(٤٨) وهي وجهة نظر معروفة لدى المستشرقين ومن تلمذ منهم من أهل هذا العصر ،

(٤٩) نذكر من بينها تحالف الحلاطين مع القرمان ، والتحالف الحلاطي الألباني (جولي تقوسو) على الحكم العثماني بالهيد (القرن الخامس للهجرة) .

(٥٠) راجع ميشلين خالي وعبد الرحمن أيوب ، رواية تشين في :

Histoire des Beni Hilal et de ce qui leur arriva dans leur marche vers l'ouest, (classiques Africains, Armand colin, Paris 1983)

بنو هلال نجد بحثنا عن المرعى ، وتشق القبيلة أرض مصر ثم أرض برقة وطرابلس دون أن يحدث ما يوقفها عن سعيها وما أن تصل إلى إفريقيا حتى تدخل في صراع مع حاكم تونس (خليفة الزناني) . لم تكن القبيلة ترغب إلا في الحصول على القوت لها ولماشيتها ولم يكن حاكم تونس يسمح للقبيلة بذلك إلا إذا وافقت الجازية على الزواج منه . وتوافق الجازية ويحدث الزواج . ثم تلجأ إلى حيلة (وهي شكل من أشكال الصراع الاستراتيجي) للعودة إلى قبيلتها وما أن تعود الجازية إلى قبيلتها حتى « يعوضها » الراوي بشخصية غير هلالية . وليست هذه الشخصية الجبلية سوى « عزيزة عثمانة » أي عزيزة بنت عثمان باي التي عاشت في أواخر القرن السادس عشر (١٥٦٠ - ١٦١٠)^(٥١) وعرفت بأعمالها الخيرية لفائدة الطبقة الكادحة .

٧ - ٤ - ٢ . وليس هذا الانتقال المفاجئ كما يذهب الظن ببعض نتيجة خلط في ذاكرة الراوي وإنما هو دليل على عملية التماثل التي أحدثها شعوريا أو لا شعوريا - الراوي بين عزيزة عثمانة و « الجازية » إذ أنه في نقله للرسالة الهلالية كان كما يبدو قد أحل نفسه في تاريخ مجموعته الاجتماعية وبالتالي كان ينقل وقائع تاريخه المعاش . وقد يفسر هذا « التعويض » على أنه ترجمة للاحاساس الاجتماعي عند الراوي ومجموعه والمتمثل في الشكوى من غياب « الإصلاحات الاجتماعية » التي من شأنها أن تساعد سكان الجنوب التونسي وهي في أغلبهم من العمال الزراعيين أو الرعاة .

٧ - ٤ - ٣ . وقد يكون من المفيد أن نقرأ هذه الرواية بطريقة تراجعية (من آخرها إلى مطلعها) حتى ندرك دلالة الرسالة المنطوية عليها والتي تأخذ كامل مصداقيتها إذا ما قورنت ببعض دلالات الأمثال الشعبية التي كانت سائرة آنذاك^(٥٢) . ولقد لتجأ راوي السيرة بصنيعة إلى ادخال عزيزة عثمانة في المأثور الشعبي ، ولكنه احتياط لذلك حتى لا يحدث تناقض وحتى يحلها في استمرارية المأثور - بأن كساها لباس الهلاليين القدامى .

٧ - ٥ - النموذج الليبي :

٧ - ٥ - ١ . المثال أسفله مستخرج من بحث ميداني أجرته في منطقة طرابلس (ليبيا)^(٥٣) . ولا نقل المادة المسجلة عن ٨١ ساعة من الروايات المتنوعة للسيرة الهلالية على لسان نقلتها الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤ سنة و ٨٥ سنة . وهم يمثلون عينة متكاملة من التنوع الاجتماعي الليبي وينتمون إلى وسطين متميزين ، الوسط الفلاحي والوسط الجبلي ، ويعود استقرارهم في مدينة طرابلس إلى السنوات الأخيرة (بعد ١٩٦٩) .

وتتفق هذه الروايات حول « ذياب الهلالي » بمثابة البطل الرئيسي : فله من الخصال ما يسوّه الصدارة مثل : الأقدام والشجاعة ، والأخذ بالثأر ونجدة القبيلة كلما هدمها الخطر^(٥٤) .

٧ - ٥ - ٢ . وكنت بعد حصّة التسجيل أطرح السؤال التالي : « ماذا يمثل ذياب بالنسبة لك » فكانت أغلب الاجابات القوية : « ذياب هو نموذج وفي مسيرته منقمة . وهناك درس يستخلص من تصرفه ومن السيرة ... لمواجهة الثقلات السياسية التي جعلت العالم العربي والإسلامي على ماهو عليه اليوم » .

وفي هذه الاجابة ما يدل على أن اختيار « ذياب الهلالي » بطلا كان اختيارا مدركا وفي الواقع لا يختلف ذياب (رجل الحركة الدلابة الذي لا يريح فرسه و « راعي الابل ») عن أي انسان ليبي من الصنف الذي

(٥١) راجع حسن حسبي عبد الوهاب ، شهرات التونسيات (تونس : مطبعة الفكر ، ١٩٦٨)

(٥٢) يهبط هذه الأمثال في : الظاهر الجسري ، مغربات من الأمثال الدلابة التونسية (تونس . دار التونسية للنشر ، ١٩٧٧)

(٥٣) مجموع هذه التسجيلات عتبط به ما كان يطلق عليه ٢ « مركز الجهاد الليبي » « مركز دراسات التاريخ الليبي » أبري العمل للبحر لجلال (١٩٧٨ - ١٩٧٩) .

(٥٤) راجع عبد الرحمان أروبو ، « قصيدة ليبية

حدده عينة البحث الميداني . فهذا الإنسان نفسه يقوم كذلك بالوظائف الثلاث المذكورة . وبالتالي فهذا الاختيار المدرك قد نتج عن « حالة التماثل » التي سطرها الراوي على بطل روايته .

٧ - ٥ - ٣ - ويقوم جزء من المادة المسجلة بمائلة بين الشخصية المحلية (ذياب) وجهين من وجوه الساحة السياسية الليبية المعاصرة . أما الوجه الأول الذي يشير إليه الرواة المتقدمون في السن فهو عمر المختار^(٥٥) . وأما الوجه الثاني الذي يشير إليه الرواة الأقل سنا فهو معمر القذافي . وإذا كانت حالة التماثل مع الوجه الثاني أقل وضوحاً فأغلب الظن أنها مستصحب أكثر تحلياً في الروايات الشعبية (البطولية) التي سبقتم تسجيلها في السنوات المقبلة .

٧ - ٥ - ٤ - وتتجلى حالة التماثل مع عمر المختار في النصوص المسجلة ، فلبعض منها صور « ذياب المحلي » - في مدينة غدامس - مشهراً مسلحاً على قبائل نازحة من سواحل ليبيا ، والواقع أن ذياب هذا ليس إلا عمر المختار ضارباً بسلاحه جنود المستعمر الإيطالي . ولا غرابة في مثل « حالة التماثل » هذه خاصة إذا علمنا وأن راوي هذه « الأحداث » كان في فترة ما من تاريخ ليبيا المعاصرة من بين أولئك الذين يطلق عليهم « المجاهدين » ولا غرابة فيها أيضاً إذا وجدنا بعض الرواة لا يقلد ذياب « البوردة » أو « السيف » وإنما « الرشاش » (البندقية) « و » المدفع « . وقد يتبادر للذهن أن هذا « التبديل المعجمي » ضرب من المقارعة الزمنية anachronism ولكن المقارعة الزمنية قد لا تتجاوز السطح من النص .

٧ - ٥ - ٥ - ويبدو أن ناقل السيرة هنا « يماثل » - أو قل : يمزج - بين شخصيتين . فالتفسير بالنسبة إليه قد أصبحت بمثابة الشبكة التي تحاك عليها « لغائف » التاريخ المحلي . ولقد ناقش ب. لورد عملية التمازج في السرد القصصي لسباق مماثل قائلاً : « إن الحماس الوطني الذي تألق خلال القرن التاسع عشر قد أدى إلى استعمال السير الشعبية لأغراض الدعاية الوطنية : فالقائد تمجد الأبطال القدماء وتصف صراع الوطن مع الأعداء الأجانب »^(٥٦) . ومنها وافق قول لورد بعضاً من الأدب الشعبي العربي الذي جند لغرض الدعاية فإن السير الشعبية - والمحالية بالخصوص - منزوعة من ذلك وعمل كل فالروايات المحلية الليبية المذكورة قد غيرت بعض العناصر واستبدلتها بغيرها التي تطبع الشخصية بالطابع المحلي : فاللباس الذي يكتسبه ذياب هو « اللحاف » المحل والطعام الذي يقتاته مكون من الأكلات الشعبية الليبية . . . الخ . وباختصار جعلت الروايات المحلية من ذياب المحلي ذياباً ليبيا : وما هذا الأخير سوى عمر المختار^(٥٧) .

٧ - ٦ - النموذج الأردني :

٧ - ٦ - ١ - تقوم الاستنتاجات التي سأسوقها فيما يلي على المادة المجمعة خلال العمل الميداني الذي أجرته : أ - مع المجموعة الأردنية في المنطقة الفلاحية من الأردن .

ب - ومع المجموعة الفلسطينية القيمة في مخيمات الشمال الغربي من الأردن^(٥٨) .

وفي الروايات المحلية التي تنقلها المجموعتان الأردنية والفلسطينية - والتي يطلق عليها عادة سيرة أبي زيد المحلي - يقوم أبو زيد المحلي بدور البطل وهو على غرار ما في الروايات المصرية وروايات شمال أفريقيا وأفريقيا ما تحت الصحراء قد عتق نفسه بذلكه (ودهله) وسلامة أبيه .

(٥٥) أحد الوجوه السياسية الملامية في التاريخ الليبي المعاصر وكان قائد الحرب الليبية الإيطالية في مطلع هذا القرن .

(٥٦) لورد . ص ٧

(٥٧) وقد تسامد عن ذياب عمر المختار من الأدب الشعبي الليبي بقصة عامة ورغم هذا الأدب . ولكن لأنه هذا على التحولات التي مر بها التاريخ الشعبي : وبالسيرة المحلية جزء هام من الأدب الشعبي الليبي

(٥٨) أجريت هذا العمل الميداني خلال الصيف بمدينة فريد (شمال غربي صفاق) ما بين سنتي ١٩٧٩ - ١٩٨١ .

٦ - ٧ - وفي بعض الروايات المسجلة في المنطقة الفلاحية من الأردن يكتسي أبو زيد لباس الفلاح ، ويستغل الأرض ويعبّس آخر اليوم حول « المَنَقَل » ليحتسي مع الفلاحين « القهوة السادة » وليتخاور معهم في شؤون القبيلة^(٩٩).

ويتواصل السرد : أبو زيد الفلاح يعرف السبيل لمقاومة - « البدو » - النازحين من الجنوب للمسوط على الفلاحين ولافتكك « المحصول الزراعي » .

وتظهر هذه الصورة كما نرى حالة من القلب الجندري : فأبو زيد - كما هو شائع في الروايات الهلالية - ينتمي للمجموعة البدوية التي عهاجم « الحضر » للمحصول على الرعى . وهذا القلب الجندري هو - في الحقيقة - عملية تحويلية تكتسب مدلولاً هاماً إذا وضعت في سياقها التاريخي . وهناك عدة مصادر تاريخية تثبت أن بدو جنوبي الأردن كانوا يقومون بغارات شبه منتظمة على المناطق الفلاحية الشمالية^(١٠٠) لانتزاع المحصول الزراعي من الفلاحين .

فلروايات الهلالية في المنطقة الفلاحية من الأردن بذكرها لأحداث مماثلة لما يورده التاريخ إنما تسجل أحداثاً تاريخية . وما « عملية التحويل » التي أجريت على مستوى شخصية أبي زيد الهلالي سوى إشارة غير مباشرة إلى أن المجموعة الفلاحية كانت - ولعلها لا تزال - تفتقد « لشخصية » بطل « باسمها أن تحتل وظيفة أبي زيد كما يجدها والضمير الجماعي » في روايات السيرة الهلالية .

٦ - ٧ - ٣ - وفي القصص الشعبي عند فلاحي الأردن أكثر من دليل على هذه الرغبة في « أحداث » البطل الحامي . فأغلبها يروي « الحيل » التي يلجأ إليها الفلاح لاختفاء المحصول الزراعي^(١٠١) . فهل يحتاج الفلاحون إلى اختفاء المحصول الزراعي لو كان بينهم « أبو زيد » يثني عزائم السلاطين ويمعد البدو إلى صحرانهم ؟ وكان الراوي (الفلاح) يلجأ إلى عملية « التبطين الدلالي » عندما يستعمل عبارة « اختفاء المحصول الزراعي » . ولغرض ما تشير العبارة إلى اختفاء الدلالة الحقيقية للقصة المتقولة . وما هو ثابت تاريخياً أن السلطة العثمانية (ثم التركية) هي التي كانت « تأخذ » من الفلاح « محصوله الزراعي » . وعبارة « تأخذ المحصول الزراعي » في الروايات الهلالية الأردنية بديل لعبارة « تسلب » ولقد كانت هذه السلطة تعتمد إلى السلب وذلك في شكل فرض الضرائب المشطة أو في شكل مصادرة المنتوج الفلاحي إذا لم يتمكن الفلاح من دفع الضريبة .

٦ - ٤ - ٥ - و « الجلبية » قائمة إلى اليوم في ظل الحكم الراهن وكذلك يتواصل نقل الروايات الهلالية اليوم . وعبارة أخرى كان الراوي الشعبي - الفلاح - يعتمد في نقله للمثاور الشفاهي إلى « الوظيفة السردية » التي تطلق عليها « بالتركيبية المزدوجة للخطاب » و تتمثل التركيبية المزدوجة (أولاً) في عملية التحويل التي تطرأ على شخصية أبي زيد الهلالي ويجعل منه شخصية « محلية » (فلاحاً) (وثانياً) في عملية اختفاء الدلالة الاجتماعية الحقيقية للخطاب المتقول وتعويضها بسرد أحداث اجتماعية تنتمي للماضي (ولو أن هذا الماضي يعكس الحاضر) .

(٩٩) محمد الأندلسي بأن الفكر القبلي لم يسهل بعد عنه الشعب الأردني

(١٠٠) راجع :

M. Guichon, *La Jordanie réelle*, (Paris, Massonneuve, 1970)

(١٠١) تتصل إحدى الحيل في « اختفاء الحبوب في « الإبر » ؟ الخاصة بذلك . راجع :

A. Ayoub, "Habitations en milieu rural du Nord-ouest de la Jordanie", *Bulletin des Etudes Orientales*, (Damas 1982)

و « التركيبة المزودة » التي هي من العناصر البنية للصنف الروائي ظاهرة دلالية (وشكلية ، دون شك) تساعد على عملية « التماثل » . وهي في النهاية تبرز المستوى التحتي للخطاب المتمثل في الثنائية التقابلية : الوسط الفلاحي // السلطة (المدنية) ولا تختلف هذه الثنائية في جوهرها عن الثنائية الأساسية : بدو // حضر . بل ليست الثنائية السابقة سوى « تحول » لها^(٦٧).

٧ - ٧ - النموذج الفلسطيني :

٧ - ٧ - ١ - وتقدم لنا البيئة الفلسطينية (في الأردن) طرحا مغايرا لما تقدم . ففي أفواه الرواة الفلسطينيين لم تعد السيرة الهلالية ذلك النهر الجارف فحسبها رائفا يكاد يكون جافا . ولا يكاد الراوي يستعمل سرده حتى يتوقف عنه قائلا : « سيرة أبي زيد الهلالي مرجعها الماضي ، ولنا اليوم سيرنا » . وفي هذا الحكم على السير القديمة اقرار ضمني للدور الذي يمكن أن تقوم به « حالة التماثل » في استمرارية نقل المأثور الشعبي . وبيان ذلك كما يلي : في الروايات القصيرة « (جدا) التي تم تسجيلها على لسان رواة من المخيمات الفلسطينية يلاحظ أن شخصية أبي زيد لا تنتمي - في ظاهرها على الأقل - الى الماضي ، وإنما الى الحاضر المباشر : فهو المحارب الدائب الحركة والمتنقل داخل رقعة جغرافية جميع مواقعها - مدنا وقرى - فلسطينية . وهو يحمل سلاحا حديثا وينتصب في أعالي الجبال لمحاربة العدو (هكذا السرد) . واختصار فابر زيد (الفلسطيني) ليس الا الاسم الملحمي لشخصية : الفدائي . والباحث الذي يمين الاستماع للروايات الهلالية التي ينقلها الرواة الفلسطينيون قد يفسر عليه أن يصدق أن ما يستمع اليه هو جزء من السيرة الهلالية . وإذا ما فاتح الراوي في أمر شكه - وأن أبا زيد الهلالي شخصية تختلف عن الشخصية المذكورة في الرواية ، تكون اجابته كالآتي : « كم من أبي زيد بيننا الآن . . . وشوهدنا في الآخر »^(٦٨).

٧ - ٧ - ٢ - واطلق على هذا النوع من « التماثل » التماثل المنترك : فالراوي الذي لم يعد يرغب في نقل السيرة الهلالية يعتمد - بطريقة شعورية - الى ادخال الحاضر في « سرده » وهو ينحو لهذا التصرف لأنه هو نفسه ينتمي لمجموعة تخوض صراعا ينعت الراوي نفسه بأنه ملحمي .

ويستمر الراوي الفلسطيني في تذكر السيرة الهلالية لأنها جزء من إرثه الثقافي الذي يحفظ له وقائع من البطولة يمتد بها . ولما رفضه للسيرة الهلالية فيفسر على أن هذه السيرة تمثل شكلا من المنافسة - ضمن السجل الروائي للناقل - للملحمة الناشئة أي بين تلك التي تخلد الماضي وهذه التي تسجل الحاضر .

٧ - ٧ - ٣ - ولعل في كيفية تكَوّن الملحمة الفلسطينية (حسب ما يطلق عليها رواتها) ما يفيد عن تَكَوّن الملاحم عند الشعوب . ولعل - من جهة أخرى - في موقف الراوي الفلسطيني ازاء السيرة الهلالية^(٦٩) ما يدل على أن « حالة التماثل » من حيث انها عنصر يبرز التحويلات التي تخضع لها نصوص الأدب الشعبي - إنما هي ذات أبعاد متعددة ، وأنها « تصهر » في النصوص الملحمية (السير) عناصر من التاريخ الشعبي « الحديث » .

(٦٧) راجع

A. Ayoub, "Aspects évolutifs dans Les versions hilaliennes de Jordanie" (avec Corpus) (tunis: M.T.E, sous presse).

(٦٨) بلهجة الفاروي . وهو دليل على انحرافه لصرده في رواية سيرة تنسى الماضي .

(٦٩) بلمحة الفاروي بأن الرواة نفس المواقف لرواة كبرى السير مثل : سيرة عترة ، وسيف بن ذي يزن ، وقتل الحدة وغيرها .

٨ - ٥ - السير بين المحلية والقومية :

ومن جهة أخرى ، هناك أسباب عدة لأقامة الدليل على أنه توجد « سير » مختلفة وليست سيرة هلالية

واحدة ومن بينها :

٨ - ٥ - ١ السبب الجغرافي : ان البقاع المذكورة في رواية هلالية تحدد المجموعة الاجتماعية التي نقلت - وتنقل = هذه الرواية ، فالروايات الاردنية والفلسطينية تورد : عكة ، القدس ، الزرقاء ، حيفا ، ام الجمل وغيرها . . بينما تذهب الروايات الحلالية اللبية الى ذكر : طرابلس ، وينغازي ، فساطو ، غلداس ، نالوت ، وغيرها . . وتذكر الروايات التونسية : قابس ، البياض ، وكلقبروان ، تونس وغيرها من المدن والقرى ، وكذلك تصنع الروايات المصرية والسورية والعراقية . . بيد ان جميع هذه الروايات تتفق جميعا حول ذكرها لعدد من الاماكن « التابعة » ولبنية الثابتة للسير وهي - على سبيل المثال لا الحصر - نجد ، تونس الخضراء ، او (افريقية) البحر (= نهر النيل) الشام ، الخ . .

٨ - ٥ - ٢ السبب المعجمي واللساني : ان أغلب الألفاظ المستعملة في الروايات الحلالية تدل على بيتائها ، وليس من العسير التمييز بين رواية مصرية : من الصعيد او من الفلتا ، وبين أخرى من تونس او العراق ، الخ . . ويتم هذا التمييز على المستويين المعجمي والصرفي - التركيبي (الصنفي) . ولعل في التسويع اللساني لروايات السير ما يدفع بالباحث الى وضع « معاجم » لسانية لهجية لها حتى يعيد كل جزء منها لمورد (وهو ما نحن بصده مع مخطوطات تونس لسيرة بني هلال) .

٨ - ٥ - ٣ السبب التاريخي : ان الروايات التي نسجلها اليوم مطبوعة بطابع التاريخي المحلي . فالروايات المغربية تحوي احداث تاريخية وقعت في المغرب العربي والروايات التشادية تحوي احداث وقعت في التشاد ، الخ^(١٧)

٨ - ٥ - ٤ - وما الانطباع الذي يحصل عند المتقبل للسير الحلالية بتوحد متنها فمأثها ان الروايات التي تكونه تشتمل جميعها على بنية اساسية واحدة : ولكنها في الحقيقة متباينة - ولو جزئيا - وذلك بما تحويه من خاصيات محلية . وهي لهذا السبب قد تعتبر ارضية مطواعة لدراسة العمليات « المحلية » (ان صح التعبير) بصفة عامة ، او لدراسة ما اطلقت عليه « بالتصور الشعبي للتاريخ » بصفة خاصة .

٨ - ٦ - وبما أنها وثائق شفاهية تتطلب منهاجا تحليليا مطابقا ، فان النصوص الحلالية - على غرار بقية نصوص الادب الشعبي العربي ، مثل وثائق (ارشيفا) هامة للتاريخ المروي ، وهذه الوثائق التي رصدت في الذاكرة الشعبية نتيجة فعل « التماثل » في مقدرة الراوي على « النقل والتخزين » (= التذكر) بإمكانها ان « تحجر » بطريقة اجدى عما يقوم به التاريخ الرسمي . وهي تفيدنا بما يسكت عنه الاعلام المتزمت : كالانطباع الذي يتركه في نفوس الشعوب الصراع القبلي ، او الكوارث الطبيعية مثل المجاعة ، والزلازل وغيرها .

٨ - ٧ - وحتى تحصل الفائدة ينبغي ان نعين نصوص السير عامة والنص الحلال بصفة خاصة على مستوى التعاقب الزمني ، لأن التعاقب الزمني يبرز دور الذاكرة والتذكر . والذاكرة الشعبية ذات طبيعة انتقائية ولذا فهي على مدى التعاقب الزمني المحكم للمراحل تظهر (من خلال ظاهرة التذكر / النسيان) (= الرفض) عددا من

الاحداث التي واجهتها المجموعة الناقلة اولا تزال تواجهها وبقيت على سطح الذاكرة (الانتقائية) . ولأن الأدب الشعبي (الشفاهي) هو بمثابة « الوعاء » الذي « تخزن » فيه الشعوب « ذاكرتها » « ذاكراتها » وتصنفها فيه تصنيفا خاصا ، فانه بالامكان اعتبار هذا الأدب اهم رصيد يمثل « للذاكرة الجماعية » . وفي هذا السياق يجدر تحديد « الذاكرة » ودورها من جهة ، ومهمة « المقدرة الابداعية لنقله السير » من جهة اخرى . وهذا التحديد بالإضافة الى ادراكه افضل لعملية « للمثالة » - يساعد على التصرف على « مقومات الذاكرة الجماعية » .

الجزء الثالث :

٩ - الذاكرة الشعبية / الجماعية :

٩١ - ١ - يجدر روبرت الذاكرة كالآتي : « انما الملكة التي تجمع وتحفظ المذكرات الماضية وما يرتبط بها » . ويضيف « وهي في الواقع » الفكر « الذي يخزن ذاكرة الماضي » ^(٩٨) . ففكر الراوي الشعبي ينطلق من حاضره ويتدرج تراجيعا في مدار التعاقب الزمني . وخلال عملية التدرج يتذكر الراوي المادة الروائية وينسج « الحديث » .

٩٢ - ٢ - وعندما ناقش « لورد » التصرف الروائي لنقله التراث اليوغسلافيين اقترح ان الراوي يقوم بعملية انتقائية ضمن سلسلة من مراحل التذكر ^(٩٩) . وكان شغله الشاغل ان يحدد ضمن تولقاته سلسلة المراحل التي يمر بها « المتعلم » لفن الرواية حتى يصبح راويا محترفا . لذا زعم ان الناقل للمأثور خلال مراحل تعلمه - يعمد اولا الى محاولة التحكم (= خلق) في البنية الاساسية للرواية ، ثم يلجأ الى اثارها بالعناصر الملحمية . وفي نظر لورد تكون البنية الاساسية مكونة من « الصيغ » الجاهزة (أوشبه الجاهزة) وان تطعيمها بالعناصر الملحمية - خلال عملية التعلم لفن الرواية - يعكس المقدرة الابداعية للراوي ^(١٠٠) .

٩٣ - ٣ - وقراءة لورد تحمل على الاعتقاد بان وظيفة الراوي الشعبي تنحصر في « الاعادة » بل وان وظيفته تتمثل في :

أ - محاولة تجميع وتذكر البنية الاساسية (الصيغ) للرواية (السيرة) الملحمية (الانشودة البطولية) .

ب - تذكر مختلف العناصر التي تتكون منها الرواية .

ج - السعي الدؤوب لتذكر المنتج الملحمي بأكمله وذلك بواسطة « الاعادة » (التكرار) .

وكان المساهمة الابداعية للراوي الشعبي - حسب لورد - تتمثل فقط في أسلوبه الشخصي في تقديم (نقل) نفس العناصر الملحمية التي « حفظها » عن ظهر قلب .

(٩٨) راجع :

Paul Robert, le Robert, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, 4 (Paris: 1970), 351

(٩٩) راجع ، لورد م . ص ص ٢٣ - ٢٥ والفصل بالصيغ ص ، ٣٠ - ٦٧

(١٠٠) راجع المصدر السابق : ص ١٣ - ٢٩ :

٩ - ٤ - وقد تكون النظرية اللوردية مقنعة إذا ما تم تطبيقها في حدود « تواتية » أما إذا سعينا إلى تطبيقها ضمن « تزامنية » محددة - كما هو الشأن بالنسبة للنصوص الهلالية - فإنا نذكر ضرورة التحفظ من نتائجنا ! إذ التزامن من شأنه أن يجعل الراوي يواجه على الأقل حالتين أساسيتين خارجيتين عن النص وهما :

أ - مقدرة الراوي على التذكر .

ب - الوجود - الضروري - للتحويلات الاجتماعية السياسية في المكان والزمان .

٩ - ٥ - ويبدو من البديهي أن الراوي بالأمس ليس هو الراوي اليوم أو غدا لأن المقدرة « التذكيرية » للسان تتأثر (وتصل) بإدراكه لأهمية المادة التي ينبغي أن يتذكرها ويرغبه في تذكر حصيلة من الأحداث أو جزء من حدث دون بقية . وذاكرة « حافظة » الراوي تتأثر - من جهة أخرى - بتمدد المجد من الأحداث الاجتماعية التي تندرج شعوريا أو لاشعوريا - بذاكرة الإنسان .

٩ - ٦ - ولتذكر جانباً - ولو إلى حين - كلا من عملية قراءة الانتاج للمحمي انطلاقاً من الوثيقة المكتوبة (فالكتابة قد تحفظ النص من التبدلات الفردية)^(٧١) وعمية « تلاوة » الانتاج الأدبي ولو كان نصاً شفاهياً (مثل قصيدة الشعر ، أو الخطب ، أو النكتة أو أغاني المهد - أي النصوص التي تحلت شكلاً ثابتاً واعتمدت كما هي) (لأن القراءة النصية و « التلاوة » للثابت شكلاً مثلاً تعامل يفق حالاً دون أي جهد إبداعي للمقاريء ودون إمكانات تدخل عناصر خارجية - عن - النص في الانتاج الأدبي) فلو تركنا جانباً هاتين الحالتين لاحظنا أن « الشفاهية » - في العملية الروائية - ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعملية « الأداء » سواء كان ذلك الأداء فردياً أم جماعياً .

ونقصد بالأداء هنا « المجهود الروائي » الإنشائي « الذي يقوم به ناقل الأثر ليقدم لجمهوره إنتاجاً أدبياً (شفاهياً) مقبولا (أي - لا يفر منه الجمهور) . فالغرد المتقبل - وكذلك الجمهور المتقبل - لن يستجيب (يتجاوب مع) لرواية اغراض لا تحمه من قريب أو بعيد . وسيكون حكم الجمهور على « الأداء » المتقول له بناء على معانيته لمقدرة الراوي في « تمويض » (إبدال) بعض العناصر المروية بغيرها التي يطرب لها الجمهور أو يتم بها .

٩ - ٧ - فلو عمد الراوي (وهو ما يمكن تجريبه ميدانياً) إلى نقل موضوع « الجفاف » - المجاعة لمجموعتين اجتماعيتين تنتمي الأولى ، مثلاً ، إلى الطبقة البرجوازية والثانية إلى الطبقة العمالية ، للاحظنا أن التبدلين من الطبقة الثانية يولونه اهتماماً « وشاجياً » (ضرب من الطرب) يتلفهم بالانتصار الذي حققه الهلاليون في صراعهم ضد « السلطة » للحصول على المرعى وإنهاء حالة المجاعة التي يملونها . وعلى العكس من هذا يكون موقف المتقبل من الطبقة البرجوازية (أو الأرستقراطية . .) الذي إن لم يرفض الخبر المتقول سيعبر قليل اهتمام به (ضرب من طرب الخبر من الذاكرة) .

(٧١) بعض التبدلات الخارجية من النص المطبوع أو للمنطوق : الراوي المسيحي يثقف الصيغ الأسطورية ذات المضمون الديني المسيحي أو المقاطع التي فيها إشارات سلبية حول للمسيحين : راجع : م : ص

A. Ayoub, "Sirat Beni Hilal..."

٩ - ٨ - ونجد مثال هذه الحالة في خطوط السيرة الهلالية الذي تحتفظ به المكتبة الوطنية التونسية (٧٢) . وهذا المخطوط الذي يروي أيضا حادثة « الجفاف - المجاعة » التي لحقت بقبيلة بني هلال قد طالب بوضعه باي تونس احمد باشا . الا ان الرواية فيه سرعان ما تصبح على يد ناقله (الراوي) مجموعة من القصائد « الايباحية » المرسفة التي لا ترتبط عضوا - ان صح التعبير - مع الموضوع المحدد في مطلع الرواية اي « الجفاف - المجاعة » (٧٣) والظاهر ان التناسخ قد ابدل الموضوع الاصلي بالموضوع الايباحي اذ انه كما يبدو - يطيب اكثر للمتلقي له - المطالب بوضعه : باي تونس وطبقته .

ولو افترضنا ان الرواة التونسيين المتأخرين قد اعتمدوا هذا المخطوط لسرد مراحل سيرة بني هلال لوجدنا في الروايات الحديثة لها مقاطع ايباحية . بيد ان الواقع عكس ذلك فالبنية الاساسية للروايات الهلالية المسجلة منذ ما يزيد عن اربعين سنة جميعها - مثرأة بعناصر تشير للاهتمامات الاجتماعية للجمهور التونسي المتقبل .

٩ - ٨ - ١ - ولعله يصدق القول بأن القصائد الايباحية التي توسطت - بكثافة - خطوط تونس لم تثر الروايات الشعبية لسيرة بني هلال : فالأخلاقية الشعبية - تحولت كما يبدو - دون هذا الصنف من الآثار . ومن جهة أخرى ان استمرت البنية الاساسية للسيرة كما كانت عليه منذ اول اثبات لها (زمنا) في الذاكرة الشعبية الجماعية وخلال التعاقب الزمني فانها تعكس وضعا اجتماعيا (ثباتا) استمر رغم التحولات السياسية والاجتماعية . . التي مرت بها المجموعات العربية في الوطن العربي . ومنه فتفسير ظاهرة التقلب عند الجمهور (طرب الجمهور) لما ينقل له تكمن في انه « يحس بذاته » في « دلالة » الخطاب المروي .

٩ - ٨ - ٢ - ان استمرارية البنية الاساسية ضمن مدار التعاقب الزمني تقوم دليلا على وجود عدد من السير الهلالية في الوقت الذي ينتظر فيه وجود سيرة واحدة :

وان الروايات المتعددة لها تشكل في النهاية ما نطلق عليه بالمتن الهلالي corpus فمثلا : الرواية التي تنقل اليوم في احدى واحات الجنوب التونسي ، نقطة ، قد تكون في الاصل رواية مصرية . ولكن - مهما كان دور راويها المصري في اثرائها وطبعها بطابعه . . الا انها في رحلتها من مصر الى تونس عابرة القطر الليبي - وفي نقلها من فيه لآخر - أصبحت رواية ثانية (او روايات متعددة) للسيرة الهلالية . ولعله من نافلة القول ان نشير الى انه يستحيل وجود ثلاث روايات متماثلة في ثلاث دول عربية بل يستحيل ان نجد في حيز جغرافي واحد روايتين متماثلتين . ومع ذلك تبقى البنية الاساسية ثابتة حيثما وجدت رواية هلالية وراو لها وذلك لأن الذاكرة الجماعية التي حافظت على هذه البنية لاسباب اوضحناها في غير هذا المقام (٧٤) عملت في الوقت نفسه على تخليص الرواية « المستوردة » من خصائصها المحلية التي لا تتلائم وخصائص البنية المتقبلة والسياق التاريخي المورّد .

(٧٢) راجع الفصل التاسع من خطوط ٧ تونس عدد ١٠١٢ (تونس : دار الكتب الوطنية)

(٧٣) راجع الفصل العاشر من المخطوط المذكور أعلاه

(٧٤) راجع م . ص .

ولذا نزع بأن الذاكرة قد تصرفت بطريقة ما جعلت الراوي يطعم (يشري) البنية الاساسية

(ضمن حدودها الشكلية) بعناصر تشير الى اهم اهتمامات جمهوره .

٩- ٨- ٣- والذاكرة ذو وية على طرح العناصر التي افرغت - في نظر المذكر - من دلالتها وهي في الان ذو وية على ملء الفراغ بعناصر بليلة مشحونة دلاليا . واما العناصر « المطروحة » فتدخل شيئا فشيئا طي النسيان لانها لم تعد تمثل جزءا من الاهتمامات المباشرة لراوي الحدث « السيري » وجمهوره .

١٠- البنية المحلمية : بنية ذهنية .

١٠- ١- وتمثل هذه الاهتمامات (المباشرة وغير المباشرة) عناصر المحيط الذهني للمجموعة البشرية الناقلة للآثر المروي . والنماذج التي تمت مناقشتها اعلاه والمتعلقة بروايات هلالية من تونس وليبيا والاردن وفلسطين تساعد على اثبات هذا الافتراض .

فالنموذج الفلسطيني يدل - بصفة خاصة - على ان الذاكرة الجماعية قد تصرفت - شعوريا او لاشعوريا - بحيث احتفظت بالبنية الاساسية للمحمية وفي الآن طرحت المضامين « المحمية » التي تكتنفها السيرة الحلالية والمتعلقة بالماضي لتحل محلها « مضامين ملحمية جديدة » الفرزما البنية المحمية .
١٠- ٢- ولا يمكن اعتبار تصرف الذاكرة هنا بمثابة « النسيان الحقيقي » اي « الفعلي » (وعلم النفس يثبت ان المرء لا ينسى مطلقا) وإنما هو - في واقع الأمر - رفض (عمية اختزال) مقصود لمضمون ملحمي محدد لم يعد يمكن مباشرة او بطريقة مرضية اهتمامات الجمهور الناقل .

١٠- ٣- وبالتالي ، فالتحويلات الاجتماعية والسياسية - التي نطلق عليها عادة احداث التاريخ - تحفظ بها الذاكرة - (ولو على مستوى اشاري) في اسمي تعابيرها واقتصد الانتاج الادبي المروي (الأدبي الشعبي) .

وتقوم هذه التحويلات الاجتماعية والسياسية بدورها بمثابة مساعدة على التحويلات التي يخضع لها الانتاج الملحمي ولان هذه التحويلات مدركة من قبل الجماهير الناقلة (= الفلاحين ، العمال ، البدو ، العاطلين) والتي تحدث في غالب الأحيان هذه التحويلات - فانها « تمزج نفسها » في تركيبة البنية الاساسية .

١١ الجزء الرابع : المساهمة الابداعية لنقله السير

١١- ١- ويصبح ضروريا في ضوء هذا السياق الديالكتيكي ان نعيد طرح ما يطلق عليه الفولكلوري - وبصفة خاصة المنسب للمدرسة الشكلية - بالمساهمة الابداعية لتأقل السير . ولو اقتصرنا على ذكر كل من بروب ولورد اللذين سعيا لتحديد المساهمة الابداعية لتأقل السير لاحظنا انهما يجهلان من هذه المساهمة مجرد القدرة الفائقة للراوي على تقديم نص روائي يحكم التركيب ولم تترك منه الذاكرة شاردة . وهذه القدرة الادائية التي انقص من شأنها - ان توفرت فعلا - تبدو في نظري ثانوية اذا ما ربطت بالبيئة الاجتماعية السياسية للراوي باعتبار ان الراوي مضطرب الى « تعديل » ادائه بحيث يوفر العناصر التي تهم جمهوره ويطرب لها .

١١- ٢- وبالتالي تبدو « ابداعية » الناقل للسير في قدرته على التعامل مع العناصر الخارقة عن النص (العناصر السباقية) التي تقدم المادة اللازمة للتحويل الذي يخضع له النص او بعبارة اخرى المادة التي تثرى النص (انظر النماذج التزمنية واللبنية والاردنية والفلسطينية) ومن جهة اخرى نتحدد « ابداعية » الناقل للسير اعتمادا على قدرته في التصرف في العناصر المكونة للآثر المنقول . ويتعبر ادق حتى يكون الناقل روايا - وبالتالي ناقلا

مبدعاً - ينبغي ان يكون قادرا على إضافة عناصر « مثرية » للبنية الاساسية الثابتة للآثر النقول وان يكون قادرا على ابدال عناصر مثرية بغيرها لم تعد ملائمة للسياق الروائي .

١١ - ٣ - وبناء على هذا التحديد يصبح التحول هو مجموع المضامين الملحمة : وهو المحور « المضمون » وهو « لنة » ايضاً . واما المضمون و اللغة « فيتميان للسياقات الحقيقة ، الاجتماعية الميثولوجية ، التي يتفاعل معها نقلة الآثر .

١١ - ٤ - وباختصار تقدر « ابداعية » ناقل الآثر بمقدرته في التصرف في اللغة وذلك بفرض تعليم البنية الاساسية « بمحتولات » ، وبناء على مقدرته في تحويل النص الملحمي واعتباره جزء من تراثه . وتشتمل القدرة الادائية للكتل - الراوي في الموازنة التي يقيمها بين البنية الملحمة الثابتة والمضامين الملحمة المتحولة : الموازنة بين الثابت والمتحول .

الجزء الخامس :

١٢ - الخاتمة

١٢ - ١ - ولقد عسر رسم الخط الفاصل ما بين « الذاكرة الجماعية » وعبارة التحولات الاجتماعية « السياسية » ، فكلاهما يعملان معا في « قرينة معقدة » . وتشحن التحولات الاجتماعية السياسية « لمضمون جديد » كلما اعيد « انتاجها » . وهي تنتج من جديد بطريقة بطيئة ومستمرة وعلى نفس وتيرة نمو الانتاج الملحمي منذ نشأة براعمه الاولى الى وضعه الحالي . وخلال هذه المرحلية ويتحكم عمليتي « التذكر » و « الابدال » تقوم « الذاكرة الجماعية (بلعبة) الطرح (الاختزال) التدريجي للمحتويات الملحمة . ويدون حدوث التحولات الاجتماعية - السياسية لا يمكن للذاكرة ان تكون وظائفية ، ويدون ذاكرة - هذا الوعاء التراكمي - الانتقالي - لا يمكن للتحولات ان تكون ممثلة في الانتاج الملحمي .

١٢ - ٢ - وهكذا نرى ان الراوي الشعبي يتمتع بمسؤولية اجتماعية لم تؤخذ بعين الاعتبار في الدراسات السابقة للادب الشعبي بصفة عامة . فالراوي هو المؤرخ الشعبي وأدواته لتسجيل التاريخ تتمثل في « ذاكرته » ومقدرته الابداعية » ، و « للمادة الاجتماعية » و « حالة التماثل » . ولذا فان المؤرخ الشعبي - الذي هو في الان الراوي الشعبي والجمهور الناقل للتراث ، لا يزعم كتابة التاريخ بقدر ما يعمل على اكتناز الذاكرة الجماعية في شكل للملحمة السائرة .

تعد هذه السيرة من الوثائق البارزة في تصحيح ما استقر في أذهان بعض المفكرين من رأي يخالف الواقع . وهو أن الأدب العربي لم يعرف الملحمة باعتبارها جنساً أدبياً له مرحلته من التاريخ الأدبي للأمم والشعوب . وكل من درس آراء المستشرقين يواجه ما قاله « آرنست رينان » وهو أن العقيدة العربية قاصرة بفطرتها عن إبداع الملحمة ، وذلك لنزوعها إلى التجريد وانصرافها عن التجسيم والتشخيص ، وأن المرحلة الأولى في التاريخ العربي كانت تقوم على الظعن والرحلة ولا تتحول إلى الاستقرار . ومن هنا حكم الدارسون والناقد على غلبة الشعر الغنائي على التراث الأدبي العربي . ومهما يكن من شيء فإن الاعتراف بتعبير الفن المتمثل بالكلمة عن الوجدان الشعبي العربي قد أثبت خطأ ذلك التصور ، وكانت السيرة الملحالية التي لا يزال الراوي الشعبي يرددها في البوادي والحقول والمدن لا تزال راقية من روائع الأدب الملحمي .

السيرة الملحالية ماحة فروسية شعبية

عبد الحميد بنونس

وسيتضح لنا في هذا العرض المركز للسيرة الملحالية أنها تستكمل مفومات الملحمة الشعبية ، ومصطلح « السيرة » يرتبط بحياة شخصية بارزة أو بطل معروف وهو أوسع مجالاً من مصطلح « الملحمة » لأن التعريف العالمي للملحمة هو أنها - لغة - هي الواقعة العظيمة في الحرب والقتال ثم أصبحت تدل على الشعر المطول في واقعة أو مجموعة من الوقائع تقتزن ببطل أو أكثر برز في فنون الحرب وانتصر على عدوه . والملحمة ، اصطلاحاً ، جنس أدبي يقوم على مطولة من الشعر وتمكي عجائب الأحداث التي تتجاوز الواقع إلى الخيال المعن في الغرابة وتتركز حول شخصية البطل أو الأبطال .

ولا يزال الراوي الشعبي يعرف عند الجميع بأنه « الشاعر » أي أن الحاجز بين الإبداع والتوثيق لا وجود له في الحياة الواقعية المعاصرة ، ثم أن بعض الرحالة الأوربيين الذين أقاموا في مصر فترة من الوقت وسجلوا ملاحظاتهم يذكرون هذه الحقيقة ، مثال ذلك أن ادوارد لين الذي أتبع له أن يعيش في القاهرة قد ذكر في كتابه عن عادات المصريين المحدثين وشمالهم أنه لاحظ وجود ضريين من القصص . الأول - يعرف الراوي الذي يردده بالشاعر وسجل لها مثالين هما سيرة عترة وسيرة بني هلال . أما الثاني - فقد كان القصص فيه يعرف بأنه « المحدث » أي الذي يعتمد على الحديث ، واعتمد على التلوين أكثر من اعتماده على التردد المباشر ، وكان المتخصص في هذا الضرب الثاني يقرأ القصة المدونة على الجماهير . وغلبت سيرة الظاهر ببيرس على هذا النوع . وأتيح لي أن أتبع الراوي الشعبي في بعض أحياء القاهرة ، وفي إحدى القرى ووجدت أن الشعر هو الوسيلة الأساسية في سيرة بني هلال ، وأن النثر له في الرواية الشفوية وظيفة ثانوية .

والأبطال في السيرة الملالية هم فحول من الفرسان أي أن المقومات الرئيسية لهذه السيرة هي « الفروسية » . وتسجل كتب التاريخ دائما أن هذه الفروسية نطت من أنماط الحياة ونظام قائم برأسه من نظم المجتمع ، وأدى اهتمامي بالتهج المقارن في الأدب الشعبي إلى أن أؤازر بين الفروسية في أوروبا وبين الفروسية العربية . ذلك لأن الفروسية انما غلبت على أوروبا الغربية في الجزء الثاني من القرون الوسطى - وكانت بواكيرها في القرن الحادي عشر ، وبلغت ذروتها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ثم أخذ نجمها في الأفول تديرا بظهور أساس آخر للحياة عرف به عصر النهضة أو عصر الاحياء . ولكن الفروسية العربية أقدم من هذا عهدا وأوسع قلما ، حتى أننا لا نستطيع أن نتبين بدايتها على التحقيق أو التراجع . . فان الفرس كان عنصرا هاما في الحياة الجاهلية ، تقاس به الثروة والقدرة على السواء . كما نجد الفارس يبرز في المجتمع العربي الجاهلي ، ويصبح المحور الذي تدور عليه حياة القبيلة بأسرها . واستمرت الفروسية طوال التاريخ العربي ولا تزال موجودة ومشهورة في كثير من بيئات العالم العربي . وللفرس العربية شهرتها العالمية إلى الآن ، ولا نبالي إذا قلنا أنها صاغت الحياة يربوع الجزيرة العربية دحرا طويلا ، و « تكاد تكون قديمة قدم الأخبار والروايات العربية . وبلغ من أصالة الفروسية عند العرب أن اللغة العربية زخرت بالألفاظ الدالة على أوصاف الفرس وأجزائها ومراحل عمرها وتناجها . وأجزائها وعرفت ببيئات خاصة بوفرة الأفراس واشتهر آحاد بالخبرة العملية المرتبطة بتربية الأفراس ، وحرص للمعنيون بالفارس على أصالتها وحمايتها من المحنة ، وحفظ هؤلاء المربون أنساب أفراسهم بالضبط . وإذا كانت الخلافات والمعارك قد اشتجرت حول الربوع والمالية وبعض المال ، فانها قد اشتجرت أيضا من أجل التنافس على الأفراس ، ومن الشواهد الدالة على ذلك حرب داحس والغبراء ^(١) . وسنجد كل هذه الخصائص في السيرة الملالية التي جعلت للفرس تشخيصا يقربها من صفات الفارس الذي تكاد تلازمه في السلم والحرب على السواء .

ومن الأسماء المشهورة التي تنطلق على الفرس بصفة عامة الاسم « الجواد » وهو ما يؤكد قيمته في التراث العربي ، ويسمى أيضا الفحل ، وكل فارس يطلق على فرسه اسما خاصا يشتهر به وهو ما يرفع مكانته وما يدل على العلاقة الحميمة بين الفرس والفارس . ولا تزال الحياة في العالم العربي ترى أن الفرس أجل وأنبأ المخلوقات بعد الانسان ،

(١) جباري شوسر : حكايات كثريري ، ترجمة وتقديم وتعليق : د . مجدي وهبة ، د . هدا عبد يوسف من : ٤٠ .

وغتاز بتناسق أعضائها وصفاء لونها وسرعة علوها وطاعتها لراكبها عند الكر والفر ، وهي معروفة بالشجاعة والقوة والذكاء والوفاء ، وهي تعرف صاحبها الذي اعتاد أن يركبها ولا تسمح لسواه بأن يمتطي ظهرها ، وعندما ينأى صاحبها تسهر بجواره ، وعندما تحس باقتراب العدو أو الحيوانات المتوحشة منه توقفه بقرع أقدامه . والسيرة الملحميّة تصوّر هذا الشخص الذي يظن البعض أن فيه قدراً من المبالغة ، ولكنني عندما درست السيرة الملحميّة وقمت بمواجهة واقعية لحياة الفرسان في محافظة الشرقية التي احتفظت ببعض إمارات القروسية أدركت صحة هذا الوصف ، وأدركت اهتمام هذه البيئات بأصالة الأفراس تماماً كالفرخ بأصالة الفرسان ، وكما يعنى المرء بشرفه على أساس التبع الدقيق لنسبه فكذلك يفعل الفارس في الاهتمام بالنسب الخاص بفروسه . وأفضل أنواع الخيل هو (الأصيل العربي) وهو ما تردده السيرة الملحميّة إلى الآن ، وهو حصان الركوب ولا يستخدم في عمل آخر ، ثم إن الحصان العربي يشتهر إلى جانب هذا كله بصفات جمالية تميزه عن الجياد خارج الوطن العربي الكبير^(٢) .

وسيرة بني هلال كغيرها من السبر الشعبيّة تعتمد على المبارزة أو مواجهة الفارس البطل لعدوه ، ولهذا الضرب من المبارزة فن يقوم على الوعي الكامل بالملاحظة والرشاقة والخارقة في الحركة وهي صفات لا بد من وجودها في الفارس والفرس على السواء . ولا يزال التراث الشعبي يحفظ برقص الخيل وهو عريق عراقية التراث الشعبي العربي ، والأعداء الذين يواجهون الأبطال في السيرة الملحميّة لا بد أن يكونوا هم أيضاً من المتنازين في القروسية . وهذا الأسلوب الملحمي يقوم على الاستعراض كما يقوم على التشويق ، ومن أبرز سمات السيرة الملحميّة أنها لا تحكي بطلا واحدا ولكنها تحكي أربعة أبطال لكل منهم مسؤليته في تكامل الحياة تنظيمياً للمجتمع الهلالي ، ولكنهم مع هذا كله فرسان يتفوقون في الكر والفر حتى يمزجون النصر على أعدائهم وتحقيقون إعادة الأصالة العربية على الأقاليم والديار في ملحمتهم الكبرى التي عرفتها بالتغريبية .

وهذه الملحمة الملحميّة الهلاليّة هي التي صورت وقائع العرب القيسية في المدة بين منتصف القرنين الرابع والخامس الهجريين ، أي إبان الدولة الفاطمية ، ولقد سبق أن ذكرنا أنها لا تحكي بطلا واحدا وإن كان أبو زيد الهلالي هو الذي أصبح أكثر شهرة من زملائه ، وهو الذي مهد الملحمة باكتشاف الطريق إلى الغاية وهذا التمهيد هو الذي عرف في الملحمة بالريادة التي كان من أهم أحداثها الحافز على الغزوة الكبرى التي نهض بها الهلاليّة لتخليص الجبل الثاني أي أبناء الأبطال من الأسر على يد خليفة الزناتي حاكم تونس . ونذكر للملحميّة أن أبا زيد استطاع في الريادة أن يفر من الأسر وأن يعود إلى قومه في نجد ، فما كان من الهلاليّة إلا أن قاموا قومة وجبل واحد يستهدفون مدينة تونس لتخليص الأسرى وهم : يحيى ومرعي ويونس .

الفارس الأسير :

وتعهد الملحمة لسراها بموقف درامي فصلت فيه الظروف والملايسات التي خرج فيها أبو زيد للحياة فقد روت الملحمة أن الأمير رزق كان يتلفظ بطبيعته العربية على أن يتجنب ولدا تغاخر القبائل الهلاليّة كلها به . فتزوج إلى عشر نساء ، ولم يكن يجمع . كما يقضي بذلك الشرع الخفيف . إلا بين أربع منهن فقط . وما أكله وحز في نفسه أنه أنجب من

(٢) مجلة الفنون الشعبية ، ٢٤ ، القروسية وركوب الخيل ، ماهر صالح ص ٧١

زوجاته العشر ابنتين ، كما أتت إحدى نسائه بصبي ولدته مشوها ، وقيل هذا الحادث غير السعيد تزوج رزق زوجته الحادية عشرة ، وهي « خضرة » ابنة شريف مكة ، ومن ثم عرفت بالشريفة ، وأثلج صدره ما رآه من امارات الحمل عليها ، إذ كان يتوقع أن تأتي له بسلام سوي يجمع الشرف الهاشمي الى الدم الهلالي ، فبعث الى الأمير غانم رأس بني زغبة يدعوه ورجاله ليشاركوه الحفل بولادة ابنه من بنات الأشراف فاستجابوا لدعوته وأصبحوا ضيوفا ينتظرون وياه الحادث السعيد .

واتفق للسيدة « خضرة » أن تخرج مع الأميرة « شمة » إحدى زوجات سرحان في جمع من العقائل ، فرأت طائرا أسود ينقض على جموع من الطير مختلف الألوان والأنواع فيغلب عليه ويقتل الجانب الأكبر منه ، فأعجبت به ورفعت وجهها الى السماء تدمع الله أن يرزقها غلاما على شاكلته ولو كان فاسم اللون ، واستجاب الله لها . . وغضب الأمير رزق ولم يكن يصلق أن الغلام ولده ، ولكنه أبقى زوجته لكلفه بها ، وأبى على نفسه أن يرى الغلام بعينه ، واكتفى بما سمع من المرأة التي أبلغته النبا ، وحال بين الجميع وبين رؤيته الى أن جاء اليوم السابع فمد السماط وأحضر الغلام الى الضيوف - كما تقتضي بذلك العادة المتبعة - تحمله جارية على عمل من القضة تغطيه غلالة لا تبين منه شيئا وألقى السادة عليه « القوط » من ذهب وقضة ، ورفع أحدهم الغلالة فهاله أن يرى الغلام أسود فاحما . وكان الأمير رزق أثناء هذا كله عند باب خيمته ، فلما دخل أشار عليه معظم أصحابه أن يخلي بينه وبين زوجته هذه ، وشككوه وأعلنوا أن إبقائه عليها يجر العار عليه وعلى قومه جميعا ، فلأذن كارها وأرسلها وابنها الى أبيها في مكة . .

ورأت خضرة أن تنزل واديها في الطريق وألا تعود الى أبيها متهمه في عرضها حتى لقيها الأمير « فضل بن بيسم » رأس قبيلة الزحلان وعرف خبرها فاحترمها وأكرم وفادتها وطلب الى زوجته أن تتلفأها ، وتبي ولدها ونشأ مع ابنه « منعم ونعيم » . ولكن بركت وقد أصبح هذا اسمه ، بز أقرانه في القوة والشجاعة ، حتى إذا بلغ الحادية عشرة من عمره كان قد ثقف معارف الدين والدنيا مما كان يدرس في جزيرة العرب ، بما فيها من علوم اللسان العربي وغير العربي والرياضيات والتنجيم والسحر والكيمياء ، وتحول « بركت » الى ضرب آخر من المعارف لعله أشد لزوما لفرسان ذلك العصر ، فقد استجاب لأشارة معلمه وطلب الى فضل بن بيسم الذي يتصور أنه أبوه ، أن يهدي له جوادا ليتدرب به على القروسية وحمل السلاح .

وتعاقب أحداث هذه المواقف الدرامية ، فتروي الملحمة أن بركت عندما أراد أن يطلب الى الأمير فضل الجواد ليتدرب على القروسية رد عليه بما يريب في بنوته له ، وإن كان يقصد اعزازه وإكرامه ، فأنكفأ الفتى الى أمه يسألها جليلة خبرة ، فزعمت أن الأمير فضل عمه ، وأن أباه قد قتل على يد هلاي يدعى الأمير رزق نايل ، فأثار ذلك حفيظته ليأخذ بالثأر وليقتل هذا الأمير . ولم يكن يدور في خلده أنه أبوه في الحقيقة ، ووهبه الأمير فضل خير جياده وعلمه القروسية والطراد والفكر والفروما الى هذا من فنون الحرب ، وسرعان ما برز في الركوب حتى حسده أبناء القبيلة التي يقيم في كتفها وتوق على الجميع في لعبة « البرجاس » وأصبح « بركت » على الأيام الفارس الذي يجمي الديار والذمار والأموال لبني الزحلان .

وتعود بنا السيرة الى الأمير رزق فتره يعتزل قبيلته بعلماء غادرته وزوجته وعاش في خيمة من الشعر الأسود دلالة على الحزن والأسى واصططحب معه عبدا واحدا يقوم بحوائجه ، واتخذ منزله الى جانب العين التي رأت عندها زوجها « خضرة » تفوق الطائر الأسود على غيره . ولم يمض طويلا وقت حتى اجتلع نجوع « بني هلال » جذب ماحل استمر امدا ، فرأى « سرحان » والأشياخ من الحلالية أن يهاجروا الى نجوع بني الزحلان . بيد أن الجماعرة وبعض الحلالية الآخرين ظلوا مع الأمير رزق - وكان المطاع بينهم - ولما بلغ سرحان وقومه هدفهم تصدى لهم بركات وألحق بهم هزيمة منكرة ، فأرسل سرحان يستنجد بالأمير رزق فأجابته الى سؤاله ، وذكر له اسم بركات في الإطريق وكاد يعرف أنه ولده . وتساءل بينه وبين نفسه اذا صح ما توقعه ، فلماذا سمي بهذا الاسم وقد سماء عند ولادته « أبا زيد » ؟ ولما بلغ موضع الحلالية المندرحين حمل عليه بركات وقد أخلته سورة الغضب عندما عرف اسم منازل ، وذكر أنه واتره في أبيه . وسوف رزق المبارزة ما وسعه التسويف ، وكاد الابن أن يقضي على أبيه لولا أن نته أمه وصارحته بجلبه الأمر ، فأقر الأب ابنه واسترد زوجته واعترف « بنو هلال » جميعا بمكان بركات من أبيه ومنهم .

وتثبت للملحمة الحلالية هذا الفارس الأسمر يقرب بين العروبة والسمره لواقع تاريخي هو مواجهة الشعب العربي بأعدائه من الصليبيين والتتار وذلك تميزا للعروبة بين الشعوب ذوي الوجوه البيضاء من ناحية وذوي الوجوه التي تغلب عليها الصفرة من جانب آخر . وهذه العقدة اللونية التي ترمز الى موقف العرب من أعدائهم نجدها في سرشعية أخرى على رأسها سيرة « عترة بن شداد العسبي » ولكننا نلاحظ فارقا له أهميته بين السيرتين في هذه الظاهرة : أن أبا زيد صريح النسب العربي شريفه أما عترة فهو ابن أمة حبشية وإن كان الشعب قد جعل هذه الأمة من الأميرات . وقد أكد الشعب النزعة الى وحدة الكلمة تأكيدا واضحا فمهد الى عود الابن الى أبيه ، مستغلا هذه الفرقة ليقضم الى الحلالية من دريد وزغبة والجعافرة بني الزحلان^(٣) .

والفارس الثاني الذي له مكان الصدارة في الملحمة الحلالية هو « دياب بن غانم » ولقيلته قصة تين الحافز النفسي المباشر على قوة احساسه بذاته ومناظرته للآخرين حتى ولو كانوا من فرسان قبيلته ، وهو من قبيلة زغبة . وقد مهدت « سيرة بني هلال لمولده بمحادثة ظريفة ، هي أن أباه غانم كان رجلا مزواجا ، وإن ظل أبتر زمانا . ثم بنى بأم دياب ، وكانت امرأة دميعة شوهاء ، لها ناب بارزة قبيلة كتاب الحيوان ، ينفر منها كل من يراها ، فعندما ذلك الى التحجب والازواء وأجل غانم عليها رجاء الانجاب منها ، دون زوجاته الجميلات المقيمت ، وتحقق أمه ، وولدت له ديابا ، فصر على عشرتها أربعين عاما ، اعتزازا بابنه الذي يحفظ له اسمه ومكانه ويصبر دياب بن غانم في سلوكه عن عقدة نفسية تجعله يبالغ في احساسه بذاته وتشبه بالحصول على كل مايرغب فيه دون أن يدخل في حسابها مشاعر الآخرين ، ولو كانوا من أبناء عموته . وقد صورته للملحمة في صورة الجبار الطاغية الذي أراد ابنة الزناتي لنفسه ، ولم يابه لما كان بينها وبين أسيرها من صلات ، وما زال بها يراودها عن نفسها ، فتأى عليه حتى قتلها . وجاء في السيرة أن السلطان حسن بن سرحان تزوج من « نافلة » أخت دياب ، بعد أن وعده بأخته « نوربارق » المشهورة بالجازية . وتصور السيرة المنافسة بين الحسن بن سرحان وبين دياب ، وقد أدت هذه المنافسة الى لون من الموازية جعلها ينتاقضان ، فإذا كان

(٣) نثرات الأساطير ، المجلد الأول ، العدد ١ - ٥ - أبريل سنة ١٩٩٣ .

الحسن كريما مطعاً ، فلا بد وأن يكون دياب شحيحاً مقتصباً ، وإذا كان الحسن سمح النفس ، يعفو عند المقدرة ، أو يطلق سراح دياب ، كلياً شَفَع له أبو زيد ، فان دياباً يجب أن يكون صاحب غدر ، فقد اغتال الحسن عل فراشه ، ووثب بأبي زيد وهو يلعب معه .

وقد صورة المصريون مباحيا بنفسه مغروراً بشجاعته ، متهوراً في إقدامه ، ضيق الصدر عصبي المزاج ، ولذلك يقولون لكل نافذ الصبر « هو أنت زغي ؟ » ، نسبة الى زغبة قبيلة دياب . وكان دياب محباً لرحمه وفيما لغرسه . وتروي السيرة الحلالية أن السلطان حسن استدرج دياباً وألقى به في غياهب السجن ، ولما احتيل لخروجه انتقم لنفسه بأن قتل الحسن ، وفر مغاضباً إلى الحبشة واستتب الأمر لأبي زيد بحكم بلاد المغرب بأسرها تقريباً ، فعاد دياب ، أو أعيد ، وطالب بحقه في الملك ، فرفض أبو زيد وما زال دياب يتنافسه حتى استدرجه وقلته ، كما قتل الحجازية ، وتملك على البلاد ، يستبد بها وحده ، ودانت له قبائل دريد وبني جعفر والزحلان^(٤) .

وكان من المفروض أن نبدأ بالحديث عن « الحسن بن سرحان » لأنه كان يمثل الرياسة على الأمراء والفرسان . ولكننا أترنا أن نساير المحور الأساسي للملحمة وهو الغروسية . ولقب الحسن بن سرحان بالسلطان ، ويرجع ذلك أن استخدام هذا اللقب في العالم العربي كان متأخراً ، ومعناه أمير الأمراء أي الرئيس المعنوي للفرسان . وعمل الحسن بن سرحان بهذه المكانة « الوجاهة » في المظهر وفي السلوك . ومن الواضح أن الوجدان الشعبي لم يكتف بهذه الامارة في القبيلة ، ولكنه أسبع عليه صفات الملك كما تمثلها الشعب في الفترة التي تكاملت فيها السيرة . وهو يصوره معتزاً بمكانته في قومه وتشبه بها ، وكانت المشورة هي القاعدة الأصلية في الحكم ، فلم يكن يستطيع أن يرم أمراً من الأمور المتصلة بالمجتمع الحلال إلا اذا استشار أكابرهم الذين يقومون منه مقام الأمراء يسندون اليه النصيح ويقومون في الوقت نفسه بتنفيذ ما يستقر عليه رأي الجماعة ، وهذا يفسر ولو بطريق غير مباشر ايثار الشورى في الحكم . فلا نجد في السيرة عن الحسن بن سرحان أنه تخيف في أحكامه أو استبد بالامر . وإذا كان قد اضطر الى حبس دياب بن غانم في الخلقات الأخيرة من السيرة ، فان ذلك لم يكن عن انتقام شخصي ، وإنما كان في سبيل المحافظة على الصالح العام ، لأن دياباً أراد أن يستأثر بالنجمة كلها في تونس . وهكذا يتحول النضال الذي أهملته المعصية القبلية القديمة بين الحسن ودياب ، الى نضال من نوع آخر بين ملك وفارس ثائر عليه . وكان من الطبيعي أن يصور الوجدان الشعبي السلطان كريماً . ولقد بالغ الشعب في أسباع هذه الخصلة عليه حتى جعلوه يعطي دائماً ولا يأخذ أبداً ، ويعطي المحتاج وغير المحتاج على السواء ، يعطي والقطح يكتفه كما يكتنف غيره ، يعطي في سرف يفرجه عن التمثل في كثير من الأحيان . ومن الحصول التي تسامر المثالية في السلوك عند الحسن بن سرحان العفو عند القدرة عليه ، وهي تؤكد العدل الذي عرف به والرحمة التي غلبت عليه . ونحن نراه في التفرعية يعفو عن أبناء الملوك الذين حاربوا الحلالية وتملكهم في مكان آباءهم ويسيطر عليهم حماية كما أنه كان يعفو دائماً عن دياب على الرغم من أنانيته وحقدته ، حتى أدى به ذلك الى حنقه . ولقد أبعد الوجدان الشعبي في مصر عن الجو القبلي ، وأحاطوه بحالة من الاجلال وأسبغوا عليه من القوار والاحتشام والحسن في الهيئة والسلم ما يجذب الملوك والسلاطين . ولكي يكسبوه الصفة والواقعية زعموا أنه هو الذي شيد في القاهرة المسجد

(٤) المعجم التاريخي ١ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، مكتبة لبنان ، ط ١٩٨٣ .

المعروف بمسجد السلطان حسن . ولم يدفهمهم الى ذلك مجرد التشابه في التسمية فحسب وما يستتبعه من لبس ، وإنما دفعهم اليه أيضا أن هذا المسجد من آيات العمارة الدالة على السرف والبذخ . ونحن نعلم أن صاحبه الذي سمي به هو الملك الناصر حسن أقامه عام ٧٥٧ هجرية^(٥) وأصبحت هذه الشخصية على الأيام من الأمثال الشعبية المصرية المشهورة يكون بها كل فرد يجمع الى الكرم المسرف حسن السمعت والمهندام ، ويقولون عنه « عامل أبو علي » والمتشبهون يستغلون هذه الحصلة ويبالغون في وصفها اسقاطاً للمستمعين واستداراً لعطفهم^(٦) .

وليس في هذه السيرة الخلالية من الأعلام من يضارع هؤلاء الثلاثة في التخصص والبروز ، على الرغم من الاعتماد على الملاحظة الخارجية في رسم صورهم . وهذا بدير بن فايد ، وهو رابع الأربعة ، ليست له علامة تميزه عن غيره سوى وظيفة القضاء التي لم يبلغها بالفوق في العلم وإنما انتقلت اليه انتقال الارث ، ولكن هذا لم يمنع الوجدان الشعبي من أن يجعلوا هذا القاضي الأمين على إقامة الشرائع والشعائر يسدو في سمة العلاء وكرامتهم وقارهم واحتشامهم ونزاهتهم . وهو يجمع بين الأصالة في المحافظة على الأعراف والتقاليد التي لا تتناقض مع الشريعة . وهو بمثابة الضمير الذي يمتكس اليه في السلوك وفي تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات . وله مكانته في الشورى مثله في ذلك مثل زملائه وهم : أبو زيد والحسن بن سرحان ودياب بن غانم . وهم من الفرسان الذين أسهموا في الملحمة الخلالية . وهذا القاضي بدير بن فايد يشخص للمثل الذي يريده الشعب في الجمع بين الأصالة العربية والشريعة الاسلامية .

أما « الجازية » فهي من أشهر الشخصيات النسائية في السير الشعبية العربية ، ولها مكانتها البارزة في السيرة الخلالية . وتذكر السيرة أن اسمها الأصلي « نوربارق » والجازية لقبها . وهي أخت السلطان حسن بن سرحان . وصورة الجازية مثالية ، اذ توصف بأنها « جميلة المنظر ، لطيفة المحضر ، بديعة الجمال ، عديمة المثال في الحسن والكمال ، والقدر والاعتدال ، وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها بين الخلق ، لا في الغرب ولا في الشرق » . وقد تزوجت من شكر بن أبي الفتوح الهاشمي ، صاحب مكة ، وأنجبت منه ولدا اسمه محمد . وعندما اعتمر بنوهلال الرحلة عن نجد الى أفريقيا أثرت الجازية أن تصحب قومها ، وأن تخضع للمعاطفة القومية ، وتهجر زوجها شكر الذي كانت تحبه ، ولا تعدل به رجلا آخر . ومن أجل تلك المعاطفة هجرت زوجها الذي تؤثر ، وولدها الذي تحب ، وفارقت خفض العيش الى جفرة الحياة القاسية التي تقوم على النقلة والحرب . ومن أهم خصائص هذه الشخصية أنها لم تكن مثل الكثيرات في السير والملاحم عادة بارعة الجمال ، تحفز البطل الى مقارعة الفرسان وركوب الأهوال ، ولكنها كانت امرأة متزوجة أثرت قومها على هاتها العائلي ، وواجهت موقفين ، صدرت فيها عن عاطفتها القومية فحسب ، الأولى أنها عرضت نفسها على أبي زيد الفارس الهلالي المشهور ، ليُنهي بها بدلا من زوجته « غالية » التي علقت مغضبة الى جزيرة العرب ، وذلك ترصبة له وتثبنا به . حتى لا يفارق قومه ، وهم أحوج مايكونون اليه . والثاني - عندما اضطرت الى الزواج من الماضي بن مقرب في مصر والذي لم يستطع أن يستبقها معه ، وظلت ليلتها تشغله بالفتنصص ، كما فعلت شهريار ، حتى اذا غفل عنها تركته ، ولحقت بقومها . وكما كان الأمراء هم الصور الدالة على أقوامهم ، كذلك كانت

(٥) على مبارك ، الخطط الترتيبية ، ج ٣ ص ٦٩ .

(٦) د . جندعلهد يونس ، الخلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

الجازية هي الصورة الدالة على نساء الهلالية جميعا وكانت محاربة ، امتازت بشجاعة نادرة تكاد تقربها من الرجال ، وبلغ من قوة شخصيتها أنها كانت تشارك في تدبير الأمور ، وإقرار الخطط ، حتى قيل أن لها حق المشورة في الديوان^(٧) .

ولا تستكمل السيرة أهم مقوماتها الملحمية الا اذا جعلت الحفصوم يقاتلون الأبطال من بني هلال ، ولذلك برزت صورة « خليفة الزناتي » في تونس الحضراء وقد بلغت السيرة في العناية به . ولم تغفل وجوب التعادل بين الخصمين لأن خليفة الزناتي كان الشخصية الوحيدة البارزة التي تقف أمام أبطال الهلالية الأربعة . ولم يقنع الشعب في تصويره كغيره من الأبطال ، ونحن نذكر أن الأحداث التي أحاطت مولد أبي زيد أو دياب أو غيرهما من أبطال السيرة لم تكن خارقة أو غريبة وإنما كانت للبيان عن مكان هؤلاء من آبائهم وأقوامهم ، وعما تحبته المقادير لهم . أما ولادة خليفة الزناتي فلم تتم بمجرد البالغة والتهويل ، وإنما قامت بمجاوزة الحدود الطبيعية . حتى لتسلق المولود مع الشخصيات الأسطورية . فقد انفرد بأنه من أب إنسي وأم جنية ، وللمخيال الشعبي في التزاوج بين الانس والجن عقائد لاتزال موجودة الى الآن . واستمتع ذلك مغارة حياته للأناس من حيث التعرض للثلف . وما عليه اذا طعن الا أن يسكب على جرحه قطرات من « ماء الحياة » حتى يبرأ لثو . ولئن يلقى حتفه الا اذا حان حينه المقدور . ومن ثم فهو شجاع لا يهاب أحدا من الفرسان كائنا ما يكون الا دياب بن غلام ، وهو بصير بأساليب الحرب عنيد في الزوال صبور على الكر والمفر ، له حرية تقدر الفارس والفرس ، وتقلق الصخر تحتها وتنج عن هذا أن أصبح السيد المطاع في قومه لا يعصى له أمر ولا ترد عليه كلمة . فلما اتحم الهلالية بلاده نفر الهم في جنده وأحلافه واشتدت وطأته عليهم ونازل فرسانهم صبورا عنيدا ، وكان يقهرهم واحدا بعد واحد . لم يقف أمامه الحسن وأبو زيد . وصرع تسعين من شجعانهم ، ولم يقنع بهذا بل كان يحز رؤوسهم عن ألبانهم ويعلقها على أسوار تونس اربابا للمهاجرين . وكاد اليأس يستولي على الهلالية ويميدهم أذراجهم لولا أن استطافوا ديابا وكانوا يعرفون ، كما يعرف خليفة الزناتي ، أنه وحده الذي يصصره ، فلما رآه عرفه لساعته ، ولكنه لم ينزل وظل يجالده ويدأوه الأيام الطوال . وتصل السيرة في هذه المعركة الى غايتها القصوى ، وعلى الرغم من وضوح النتيجة فإن التوازن بين الرجلين يبعدهما عن للمخيلة ، وهنا تتداخل المكيدة في شخص سعدى ابنة الزناتي فترجع كفة دياب عليه . وليست لخليفة الزناتي في السيرة خصلة غير الشجاعة والحزم ، ولولا ماكانت تدبره ابنته ليل ما أفلت الجواسيس في رياتهم ، ولا وفقت جحافل الهلالية في تفريدهم . وليس في المعسكر الزناتي من الرجال سوى هذا البطل^(٨) .

الريادة والتفريغ تاريخي شعبي

ويعد أن عرضنا للشخصيات الأساسية نجد أن من الضروري أن نتابع هذه الملحمة الكبيرة . وهذه السيرة تمهيد يعرف بالريادة ، ومعناها كشف الطريق والتعرف الى الغاية ، وقد انتدب لها ثلاثة من الجنان الأوائل في الجماعة ، كما يقال في العرف الفني الحديث ، أي أهم الجيل الثاني ، وهم يحيى ومرعي ويونس يتزعمهم فارس المقلبة أبو زيد . وكان عمل هؤلاء الرواد أثنى الى التجسس ، فتتكرروا في زري الشعراء الجوالين . ونحن نستخلص من الحوادث الكثيرة

(٧) المصدر السابق .

(٨) المصدر السابق من ٢٠١ - ٢٠٢ .

المتشابكة معالم الطريق الذي سلكوه ، وهو الجانب الأكبر من الوطن العربي لكي يعيش المستعمون للملحمة في ربوعه بلا عائق . فقد توجهوا الى مكة ثم ساروا عبر الفرات الى العراق ، وعرجوا على بلاد الشام فمروا بحلب وحماه وطرابلس والقدس وغزة ، ومنها الى العريش فلبس فمصر فالصعيد وانتهى بهم المطاف الى تونس . وكانوا في كل مرحلة ينزلون فيها يدرسون المسالك والحصون والطرق والمنافذ ويسرون غور قدرتها على الدفاع ، الى ما خبروه بأنفسهم من الأحلاف والخصوم بالنسبة لبني هلال . ولكنهم وقعوا جميعا في قبضة صاحب تونس وهو « خليفة الزناني » ولم يستطع الأفلات الا أبو زيد الذي أكمل دراسة بلاد المغرب ثم عاد أدراجه الى القبيلة في خمسين يوما بالسراحيث للتواصل ليحلب فدية الأسرى كما توهم صاحب تونس ، وليطلب الى القبيلة التغريب لفك الأسرى واستيطان بلاد المغرب كما كان مقروا من قبل .

وأخذت الجماعة كلها تستعد لهذه التفرية الكبيرة التي لم تقم بمثلها من قبل وآثر رجالها أن يستقدموا « نوربارق » ، « الجازية » ، وكان ذلك لاستفزاز الرجال واستنهاض الحمم عند التقاء الجموع ، ثم تحركت العشار والبطون ، وكان ترتيب الركب كما يلي : أبو زيد الذي راد الطريق في المقدمة ومعه رجاله من آل جعفر والزحلان ، يليه كبير أمراءهم الحسن بن سرحان الملقب بالسلطان ومعه رجاله من بني دريد ، وإلى جانبه بدير القاضي ومعه رجاله من الفوايد ، وخلفها دياب بن غانم على رأس بني زغبة ، وفي خاتمة الركب زيدان بن غانم وأخو دياب على رأس الجبال يجمعي الشيوخ والأطفال والنساء والأموال . وكان عدد المقاتلة فيما تزعم السيرة « أربع تسعينات ألف » لكل أمير واحد من هؤلاء الأربعة .

وساروا في الطريق المرسومة في الريانة وعبروا الفرات ووصلوا الى العراق ، ثم حاربوا العجم أو « الأعجام » كما تنتههم السيرة وكانوا سبعة ملوك . وأهم ماوقع لهم في هذه الحرب أسر « مارية » ابنة القاضي بدير واسترجاعها . وما كادوا يواصلون رحلتهم حتى حاربوا التركمان ثم تحولوا الى حلب وحققوا انتصارا في المعارك التي واجهوها . وجدوا في السير فمروا بحماة وحمص وبعليك ، وغلبوا على دمشق وعرجوا على بيت المقدس وزاروا المسجد الأقصى وقبة الصخرة ثم تركوها الى غزة ، واتجهوا بعد ذلك الى العريش . ودخلوا أرض مصر وامتدت منازلهم حتى شملت العساحية والقرين وما حولها ، وترثوا أمدا لأن عزيز مصر يكتب للكتائب للمقاتلة من دمياط الى هواره الجزيرة ، فاحتالوا حتى فروا منه وتحولوا لطريقهم الى صعيد مصر وكان يحكمه « الماضي بن مقرب » . ولم تنس السيرة أن تذكر لنا أنه من أصل عربي وأنه كان في نجد قبل أن يستقر به المقام في مصر . ولكنها لم تذكر على التحقيق أنه من ولد هلال . وكان من الطبيعي أن يلقي الهلالية بالاكرام المتوقع من عربي مثله . ولكنه اشترط عليهم أن يبي بالجازية وأن يأخذ فرس دياب بن غانم . وتابعوا طريقهم . أما الجازية فقد احتالت عليه . كما ذكرنا من قبل - وواصلت الطريق حتى لحقت بقومها ، أما فرس دياب فقد نفرت منه ولم تسمح له بأن يتخطها وعادت الى صاحبها . وتحملت السيرة أسلوب الوصف التفصيلي للوقائع والأحداث ومزجت بين وصف البلدان وذكر العلاقات بين الهلالية والسكان . ولم تتغير طريقته في الانتصار على خصومهم ، فقد كانوا ينزلون بجوار المدينة أو الامارة فيقلب اليهم صاحبها المشور فيستملهوه أو يصانعوه ثم يأخذوا في التغلب عليه بالقتال أو بالحيلة أو بها معا .

ويلج الحلالة هدفهم الذي يقصدون ، وهو تونس الحضراء ، وكان ملكها ، كيا أشرنا ، هو « خليفة الزناني » ويكنى أبا سمدي . ولم تكن ملكته كالمالك التي مروا بها . فقد كان فارسا مقدما ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان يأتمر بأمره أفيال ذوو بأس شديد . والتقى بنو هلال بزناته وكانت مقتلة عظيمة مات فيها عدد كبير من فرسان الطرفين . واستمرت الوقائع سجلا ، والفرسان يسقطون زرافات ووحدا ، وناشت السيوف فتيانا من ولد أبي زيد ودياب ، وغيرها حتى إذا ضج الحلالة ورأوا أن الأمر يكاد يفلت من أيديهم ، وهم الذين قطعوا هذا الطريق المخوف على طوله ، ولغوا المكاره على كثرتها لكي يبلغوا هذا الموضع الحصيب ، استغاثوا بدياب فتأى عليهم أول الأمر ثم استجاب لهم فقتل خليفة الزناني وفتح تونس وفك الأسرى الثلاثة مرعي ويحيى ويونس وتحذنا السيرة أنه جلس على عرشها .

ويأتي بعد ذلك الجبل الثالث الذي يعرف بجبل « الأيتام » إشارة إلى ما فعله دياب الطاغية في آياتهم من قتل ، وهو يفهم كله على محاولة الأخذ بالثأر منه . ويبدأ بوصف ما مر على بني هلال من السنين المعجاف فلم يكتف دياب بطاعتهم ، ولكنه آمن في إذلالهم فمنع عنهم خيرات البلاد التي ملكوها بسيوفهم واستاق أنعامهم وأموالهم وأخذ يعمل السيف في رقاب بينهم خشية أن يشبوا على الانتقام منه . وهذا الختام يعرض خلاصة الفلسفة التي لا بد من أن يذكرها كل إنسان وهي أن الجفونح إلى القتال من أجل النجاة وإثبات تقويض الدور وتشريد السكان المسلمين لا بد أن ينتهي آخر الأمر إلى مكابدة ماعمله في غيرهم . ويردد الشعب مثلا سائرا مشهورا وهو « كأنك يا أبا زيد ما غزوت »^(٩) .

الابداع الشعبي المما يعبر عن وجدان الجماعة .

وأهم مايسجله المتلوق لسيرة بني هلال أن الوجدان القومي لا يفرق في أدبه بين الحياة وبين الفن ، فقد صدرت سيرة بني هلال عن فلسفة واضحة في الفكر وفي الشعور وفي التعبير جميعا ، وذلك لأن الشعب لم يشغل باله بالتفريق - ولوالى لحظة واحدة - بين الشكل وبين المضمون ، فالقطعات المنظومة في الملحمة تكاد تكون واحدة في قالبها ، وطرائق التنقل بين أغراضها وفي وزنها ومطالعها وخواتيمها فهي ترسل على ألسنة الفرسان المتبارزين ، والباديء وهو الذي يختار الوزن والغافية ، ويرد عليه الثاني بنفس الوزن بنفس الغافية ، وكان الأمر لا يعدو أن يكون مبارزة بالشعر وامتدادا لتقاليد المنافرة والمخافرة والتقيضة في الشعر الفصيح . ويستهل الفارس كلامه بذكر اسمه ، لأن السيرة الشعبية لم تكن تمثيلا مشخصا متحركا أمام النظارة ، وإنما كانت حديثا مرسلًا من منشد محترف يتوسل بآلته الموسيقية المعروفة بالربابة ، وهي الآلة التي كانت ذات وتر واحد وأصبحت بفعل التطور ذات وترين ، ونغماتها متواصلة ومتهدجة تسامر الصوت البشري وقتله . ويسبق اسم الفارس إيراد لفظ الفتى تأكيدا للفتوة الحربية المعروفة في الفروسية ، وثاني بعده نسبته إلى قبيلته توضيحا لموقفه النفسي من منزله .

وكانت التقاليد المرعية ، سواء في هذه القطعات أو في استهلال السمر وختامه ، تبدأ بالصلاة على النبي وتقرنه دائما بصفته العربية تذكيرا بأن خاتم النبيين المما اصطفى من أمة العرب . فالقصيدة والسمر يستهلان بالصلاة على النبي

« العربي » أو « القرشي » أو « النهامي » أو « سيد ولد عدنان » . وسجل المنشد المحترف في مطلع سره أو على لسان فارس ما يصاحب هذه الصلوات الخشوع وانهمار الدموع ، مما يبرز الفارق بين حاضري العرب المسلمين وبين ما كانوا عليه وما ينبغي أن يكونوا عليه . أما النثر فانتقل من فارس إلى فارس ، ومن موقف إلى موقف مع التعليق والشرح ولا عبرة بما يجده الدارس في النسخ المطبوعة أو المخطوطة من أمثال هذه العبارات . « قال المؤلف . . . قال المصنف » لأن المعول على « الراوي » الذي يرتفع على يديه الحاجز بين الانشاء والانشاد ، فالذين ألفوا السيرة نجموا من الشعب العربي واندجوا فيه ، والذين ينشدونها كذلك .

وتستوعب سيرة « بني هلال » - بل تستوعب سيرة كل بطل من أبطالها - كأي زيد - القيم الانسانية العليا بأسلوب فطري تلقائي لم تطمسه تقاليد الانشاد . فالحق والخير والجمال وحدة لا تكاد تنفصل ، والمعرفة والخبرة والسلوك وحدة لا تكاد تفرق ، وتحقيق الحياة عمل إيجابي دائب وحركة متصلة لهدف كبير لا يتم الا على أساس من كرامة الفرد والمجموع ، والعرض الغالب على السيرة معروف منذ البداية وهو « النصر » فلا صراع بين الفرد وبين القدر . . ليس الهلالية الذين يشخصون العرب أعداء القدر . وليسوا العويته ، ولذلك فهم على وفاق معه طالما كانوا محتفظين بمزاياهم على الطريق إلى غايتهم ، ومن ثم فهم على موعد أبدا مع النصر ، والتشويق يكمن في التفاصيل غير المعروفة ، وفي سياق الأحداث الكثيرة المتعددة المتعاقبة التي يأخذ بعضها برقاب بعض ، أما الصراع الداخلي بين عناصر الجمع الهلالي فانه يترعرع هذا النصر ، ويعوق بلوغ الغاية إلى حين ، وهو درس مباشر يدعو أيضا إلى الشرط الأساسي لبلوغ الهدف المعروف . وهذا الشرط هو وحدة الكلمة . وليست النزعة القومية التي تجسمها هذه الوحدة عاطفة غامضة ، ولكنها فلسفة حياة تقوم على أن كرامة الفرد من كرامة المجموع ، وتقوم على أن عزة المجموع هي الحصيلة الكاملة لعزة الفرد . ويستطيع الدارس أن يلخص فلسفة الحياة الهلالية أو العربية بأنها فلسفة للرومية التي تنهض على فصائل مقررة تجعلها عبارة « الرومة » التي يدونها خطأ مشتركا بين جميع الأفراد بلا استثناء ، يستوعب في ذلك الأبطال وغير الأبطال ، والرومة تستوعب كرم الأصل العربي ، والملازمة بين شرف الغاية وشرف الوسيلة إلى الحفاظ على الحياة في أفرادها وفي مجتمعاتها ، والحرص على تواصلها محتفظة بالأساس نفسه مع النجدة والجد ومعاونة الضعيف والمحتاج ، وإذا كانت الحرب قوام الأحداث ، فانها تنشب تحقيقا للوجود ، واحتفاظا بكرامة الحياة ، واعتصاما بالخير وتأكيذا للرومية في الوطن الكبير ، وذلك بتزويده بجلد قوي من الفترة والرومة العربية .

ولعل أقوى دليل على اندماج الفن بالحياة في وجدان الشعب وصلوهم عن مزاج واحد هو ما اصطنعت السيرة من وسيلة صريحة ترفع شهية كل حاجز بين الانشاء والانشاد . . . بين الإبداع وبين التلق ، فقد صورت الفتيتان الأوائل الثلاثة ، يحيى ومرعي ويونس ، وعلى رأسهم فارس القليلة أبو زيد ، في القسم المعروف بالريادة « شعراء جائلين » يمسك كل منهم ربابته ، وهذه الصورة هي الذريعة التي تمكنهم من التنقل والتجوال وإزدياد الربوع على اختلافها من بداية وريف وحضر ، وهي في الوقت نفسه ادماج للمنشد المحترف للشخص في انشاد سيرة « بني هلال » ترفعه من مجرد قصاص يروي الوقائع والأحداث إلى ممثل فرد تنغمسه شخصيات الأبطال ، وتزفر الجمهور من ناحية الأذن في التلق والانعقاد . وقد أتاحت هذه الوسيلة الفنية في التصوير اصطناع التمثيل وإن كان فرديا ماذجا ، كما أنها مكنت لسيرة « بني هلال » في نفوس المشدلين وحيتها اليهم وجعلتها عندهم أهم من السير الشعبية الأخرى . ولم يكن

التنكر مضغفا بأي حال من الواقعية النفسية التي التزمناها سيرة « بني هلال » بنوع خاص ، وذلك لأن الصفة الجديدة وهي صفة الشعراء الجاهليين لانهون من شأن الفرسان لاقتزان الشعر بالفروسية في الوجدان العربي من قديم ، كما أن المنشد المحترف يجب أن يؤكد دائما أنه ليس شخصية غريبة عن المجتمع الذي ينشد فيه ملحمة . . انه من المجتمع ، ومكانته . كما يريد أن يجيل لنفسه وللناس - قد ترقى الى مرتبة الأبطال .

والسيرة الهلالية - وإن غلب عليها الطابع الملحمي - تجمع في قوسها عنصرا غنائيا يشير الى نشأتها حتى بلغت التكامل ، وهذا العنصر يشبه في بعض حوافزه وصوره ووظائفه المقطعات الشعرية القصصية في الفخر والحماسة والمجاء ، وهو يقوى في المواقف التي تتطلب التعبير المباشر عن عواطف الشخص باعتبارهم أفرادا . يضاف اليه عنصر تمثيل تنطق به العبارات في نبراتها الخطابية وتدل عليه تقاليد المنشد المحترف التي استقرت في النفس من حيث التقسيم والفواصل والسجع ، فإذا أضفنا الى هذا كله تأثير المنشد المحترف بنبرته ومسايرة صوته للشخص والمواقف أدركنا وجود المحمية والغنائية والتمثيل في هذا العمل الأدبي الواحد بلا تناقض . كل في موضعه . . وكل يصدر عن وحدة المزاج الشعبي . ولا يستطيع الباحث أن يغفل تأثير الموسيقى في النص نفسه . وإذا كان المنشد المحترف يخضع وزن الشعر للآلفاء ويضبط ماقد يكون فيه من خلل ، فإن مصاحبة الغناء والموسيقى قد عملا عملهما في استحداث موسيقى داخلية في تضاعيف النظم ، وهي موسيقى تأثرت بقوالب شعرية مستحدثة كالوشح وما اليه . نجد مصداق ذلك فيما كان من محاوره شعرية بين الجازية وبين الرسول الذي انتدبته القبيلة - «عابها بالخروج معها في التفرية وما كان من حوار آخر بينهما وبين بواب تونس .

والهنا ذلك المثل بين بدر الهلالي وبواب شكر صاحب مكة وزوج الجازية عندما ذهب ليدعوها الى اللحاق بالجمع الهلالي في التفرية . وهذا الشعر لا يتغنى صاحبه بعاطفة خاصة به في الواقع ، ولكنه يتخذ من العناية العاطفية وسيلة لقصدته :

تظله الخماسي له الحج راح
وأشاهد قبوره وتلك النواح
مدحك من نصيبي مسمع صباح
وأنت البشيري بكل الصلاح
عاد الدمع سايع من جفني القراح
من دخله يربح وينال الفلاح
وتسقي وهي أوردت لي نواح
تحظى بالجمال وست الملاح
يمطيك الغنائم كثير السماع
ريي يلهم سمعه ويبقى في انشراح
وربي قدير يمطيه السماع

أنا أول كلامي: مدحت التهامي
ياوب أزوره واتقلا بنبوره . .
وأقول يا حبيبي يا مسكي وطنيبي
لك يوم المجبري غمامة تسييري
من بعد المدايح وقول الملايح
يا بواب الفتح لي الباب المصفح
أيا بنت عمي زاد فيها فمي
أبوها قال حين تحجب المال
قالوا لي اللزائم عليك يابن هاشم
وأنا جيت قاصده يجبرني برفده
وأنا فقير أحتاج مال كثير

ويجبر بخاطرهم بكل الصلاح
وعيره كثير أمير البطاح
تنظله الشمامسي بنى الفلاح

ويدعم نصيره ويعمل في قدره
لأنه أمير ويرضي الفقير..
وأغتم كلامي بمدح الشمامسي

فأجاب البراب بنفس منهجه الشعري ، وبالبنية الغنائية والمضمون العاطفي :

تنظله الشمامسي هو سيد الملاح
أدخل لأهباب يا ابن السمح
ياما قد جرى لي في حب الملاح
ياما القلب داب وكشفت نواح
والسمرة اللثيمة تورث الافتتاح
وصل البيض مغنم مسانح صباح
شاهد الأحباب ملوك النواح
فزاد بي جنوني وكشفت نواح
وأنا من شجوني بالي من راح
وما حد عندي ولا لي رواح
تنظله الشمامسي له الحج راح

أنا أول كلامي مدحت الشمامسي
يقول الجواب أنا أفتح الباب
أدخل الشبالي حالك مثل حالي
وأقول لك صواب أدخل للرحاب
كم بيضة كريمة عيشتهما غنيمة
راعيها مزقم ساكن في جهنم ...
أنا كنت بواب في قصر بمتاب
لكن أبعدوني عنهم وحجبوني
فلا هم يحول تراهم صيولي
أهيم بوجلي ومن نار كبلي
وأغتم كلامي بمدح الشمامسي

ويتضح من هذين الشاهدين ، استغلال المحفوظ لقوالب الشعر الجديد الصالحة للفناء ، كما يتضح منها ميل
المشيد إلى الترويح عن نفوس المستمعين في موقف من مواقف الصراع النفسي .. أما هذا الشاهد الثالث : فهو يصطنع
المنهج نفسه وهو حوار تمثيلي غنائي بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، وقد دار بين الجازية منها العقائل من بنات
هلال ، وقد تنكرن في زي البائعات الجاللات وكان معهن أبو زيد الذي تنكر هو الآخر في زي بالعة جائلة على الرغم
من سمرة بشرته وصرامة وجهه ، وبين حارس مدينة تونس :

الجازية :
افتح
إلى حلة السواره
لما أقتنور خليفة
تقصم الحجارة ..
افتح لي باب السور
وتبيع المطارة
أروح أشور سيدي
في فتحه مشاورة

الجازية :
يا بواب صاره
هنايا مشنور
روحي يا ظريفة
له حربة رهيفة
يا بواب منهور
تدخل بدمستور
المفتاح ماهو بيدي
ذا الباب الحليدي

الجازية : افتتح وكن طابع
وتحت . بدايع
الحارس : لا افتتح . ولا شي
إن كنت عطاشي

جبنا لك بضائع
تصلح للامارة
ولا عقلي بلاشي
اشربوا من البيرة

وتمتاز سيرة بني هلال عن كثير من السير الشعبية العربية وغير العربية بأنها لا تتحدث كثيرا عن عاطفة الحب بين المرأة والرجل خارج نطاق الزواج ، انها تناقض الملحمة الغربية التي عاشت أعقاب القرون الوسطى التي رأت في الحب مثالية أفلاطونية سلبية وان استمتعت بالمظهر الديني ، أما الحب عند بني هلال ، فهو حب الرجل لزوجته ، ووفاء الزوجة لبعولها الذي تمارقه لحسب من أسباب النقلة والحرب . . أنه حب ناضج عاقل لا ينفر اطلاقا من مقاييس الاخلاق . ولم يكن الشعب في هذه الملحمة بحاجة الى جعل الحب الحافظ الأول على بلوغ الغاية كما فعل في سيرة عترة . ولم ينجح الى ما جئح اليه في سيرة الظاهر بيبرس في تصوير عاطفة تتسامى حتى لتغترب من البنية والأمومة ، بل كان الشعب محتصا بالواقعية في اكتشافه بهذا الضرب الانساني المقرر في الحياة ، وقد اعترف ابن خلدون بقوة هذه العاطفة من الناحية الأدبية فقال : ان حب الجازية لزوجها « شكر » يزري بحب ليل للمجنون .

واذا كانت خلايا من هذه السيرة قد استقلت برأسها ، وتمت على الأيام مثل قصة « عزيزة ويونس » فان الأصل قد ظل على حاله محتفظا بتسلسل الحلقات وتناسب الأحداث وسياق الوقائع وملامح الشخص . نعم لقد تطورت سيرة بني هلال ، واختلفت في الزي الخارجي وفي اللهجة اختلافا في زي المنشد ولهجه واصطناعه مساعدا أو أكثر ، بيد أنها ظلت زاد الشعب الفنى ووسيلة الى ترسيب المعرفة والخبرة ، وأغلب الظن أنها ستبقى أمدا بعد أن أحس الشعب العربي وجوده الكامل وارتفعت الحواجز النفسية والجغرافية بين أقطاره ، وستتغير وظائفها بعض الشيء ، فترا من الحرافات والخوارق وتنتخبها القرائح المعبرة بالكلمة الفصيحة العربية وتشكيل المادة والحركة والاشارة ، وتعمل من بعض حلقاتها روائع تقف الى جانب المسرحيات شبه التاريخية لشكسبير وشلر وأضربها^(١) .

مستقبل السيرة الشعبية :

وليست هذه الملحمة مجرد الفناء أو تمثيل يقوم به شاعر محترف يتوسل بالربابة ، ولكنها الجمهور الذي يحفظها والذي يشترك في آدائها التقليدي في موسم ديني أو اجتماعي . ولقد ظلت كذلك مئات السنين في القرى والمدن على اختلاف بيئاتها ولهجاتها ، ولكننا لابد أن نعترف بأننا نعيش الآن في زمن يتطور بخطوات متزايدة السرعة ، ثم اننا نواجه طفرة في وسائل الاتصال بالأفراد والجماعات وكان من نتائج هذا كله ظهور الأجهزة التي تقوم على العرض المركزي عن طريق السمع والبصر . . وتصور الكثيرون أن سيرة بني هلال ستصبح من آثار الماضي ولكن الواقع قد أثبت العكس تماما ، لأن الوجدان الشعبي لا يزال مؤثرا في الأشكال الجديدة المتوسلة بالراديو والتلفزيون وما إليها .

وبدأنا نستمتع الى حلقات من سيرة بني هلال في الدور والنوادي كما أننا شجعنا بعض المعنيين بالتأليف والاعراج التلفزيوني على الافادة من الروائع الشعبية بصفة عامة وعلى تقديم السيرة الهلالية بصفة خاصة . بيد أن هذا الجهد اقتضى بالضرورة ضرباً من التجديد لأن السيرة أثّر فيّ طويلاً ونتج عن هذا الضرب من العمل على مناسبة السيرة الهلالية للمشاهد السمعية البصرية انتخاّب العناصر الأساسية في المشاهد والأحداث والشخص ، بيد أن التواصل الذي عرفت به السيرة الشعبية قد تحول الى ما يخضع للعرض التمثيلي في الاختيار وفي التركيز على المشاهد الأساسية من السيرة الهلالية .

وأول ما ينبغي أن نسجله ونحن نواجه التحول من الفن الشعبي الحر الى الأطر الفنية المعاصرة هو الاعتراف بها في المسرح ، فكان من الطبيعي أن ينتخب المؤلف الدرامي من هذه السيرة ما يكافئ حدود العروض المسرحية . . . ينتخب المهدف الذي يناسب المجتمع المعاصر بحيث يستغل بعض المواقف للفنية التي يريدها . ومنها كانت الدراما في تركيزها وقصرها بالقياس الى السيرة فانها تغيد من شهرة الأثر الشعبي ومن استغلاله في العرض ويبقى عنصر الإبداع ظاهراً في الاقتباس والاعراج والأداء التمثيلي .

وهذا هو الموقف نفسه في اقتباس المشاهد والأحداث في السينما ، ذلك لأن العرض في هذا المجال لا بد أن يتسم بالاختيار كما أنه لا يمكن أن يسائر الملحمة الهلالية التي تستوعب ثلاثة أجيال من الفرسان ، ومن هنا تجذب بعض المواقف المؤلف الذي يريد أن يفيد من الملحمة الهلالية ، وتفقد السيرة بهذا الاقتباس جانباً كبيراً من شعبيتها لأننا كما نعلم - نؤكد امتزاج الإبداع بالعرض في الفن الشعبي ، وجماعه السينما أقل من المستمعين الى الراوي الشعبي العريق في صورته وأدائه والحنان وريابه . أما التلفزيون فهو أوسع مجالاً بكثير من المسرح والسينما ، ولذلك نجد أن المتوسلين به يتمتعون بالطابع الشعبي ، ويعني بعضهم بالسير والقصص التي عاش بها الشعب دهرًا طويلاً . ولكنهم لا يعرضون السيرة الشعبية كما يريدها الراوي في المراسم والأسواق . . . هناك ظاهرتان لا يمكن أن نغفلهما ونحن نعرض للسيرة الهلالية : الأولى . صدور التراث الشعبي من الاختيار . الثانية خضوع الأداء الخاص بالسيرة للإطار الذي يتحكم فيه التلفزيون في الاعراج والعرض لمساية هذه الوسيلة التي تجمع بين الصورة والصوت على الشاشة الصغيرة . ومعنى هذا أن الجماهير لا تواجه الشاعر في أدائه مواجهة مباشرة كما هو الحال في الأدب الشعبي .

وقد نجد الموقف نفسه في توسل السيرة الهلالية بالإذاعة وإن كنا نسجل المرونة التي يفيد منها العاملون على اخراجها لهذا الجهاز الثقافي وهو أوسع أفقاً وأكثر حرية من التلفزيون ، لأن تسجيل السيرة يتسم بالمقومات الطبيعية والشعبية في الأداء من ناحية وفي الاستماع من ناحية أخرى . ومن اليسير أن تخيل صورة الشاعر بربابته ونحن نستمتع اليه . ولكن الأمر بالنسبة الى هذا التراث الشعبي أهم وأعظم من مجرد التلوق غير المباشر لأهم رائحة من روائع أدبنا الشعبي وهي « السيرة الهلالية » .

لقد أصبحنا نعيش في عصر يستطيع الإنسان أن يحتفظ بالروائع الشعبية بوساطة التسجيل السمعي والبصري ، وأنا من ناحيتي أتمنّى أن تخصص يدلفني الى تصحيح مفهوم « التراث » . . ان التراث الشعبي له قيمته التي لا تقل عن الآثار المادية التي نحرس عليها ونعمل على حفظها وصيانتها . وتراثنا الشعبي الذي يحتفظ بكل مقومات حياتنا

أجدر بالعناية والحرص على روايته . ومن أجل ذلك ، أكرر القول إن السيرة الشعبية ليست مجرد وسيلة تسلية ، ولكنها رائعة تستحق المحافظة عليها وعرضها ودراستها . ولم نعد في الزمن الذي كنا نعجز فيه عن الاعتراف بهذا التراث الشعبي . قد نسجل السيرة الهملاية بالصوت والصورة ولكن هذا لا يساير مكانتها من حياتنا وتاريخنا . . لا بد من انشاء مكتبات سمعية وبصرية تستوعب تراثنا الشعبي . ولا بد أن تكون هذه العناية متسعة اتساع الوطن العربي الكبير . . وهذا يقتضي عمل الفريق الذي يمثل كل البيئات والربوع في هذا الوطن الحي التليد . لقد بدأنا الخطوات الأولى في الدراسة ، وشرعنا نجتمع بعض الوثائق الحية من تراثنا الشعبي . وظهر الى الوجود المركز الذي يعمل على الجمع والتصنيف والعرض والدراسة واحتفظنا بالتخطيط والتنفيذ بمشاعف شعبية ، ويبقى أن نستوعب عمل الفريق في هذا المجال جميع المعنيين بالتراث الشعبي العربي ، والافادة من الدارسين المتخصصين في أوروبا وأمريكا . والتعاون الإيجابي في هذا الجهد الكبير يتجاوز مجرد المحافظة على التراث الى استلهامه في الآداب والفنون لكي يعبر عن حياتنا وأصالتنا ولكي يثبت أن فنوننا الشعبية تتخطى حدودنا الجغرافية الى أفلاك أبعد بكثير .



يقول للمثل الشعبي المصري « إن كان بينك وبين الشر رزق انقطعه » ويقول مثل آخر « ابعد عن الشر وغيثي له » وفي نسخة أخرى للمثل « ابعد عن الشر واقني له » أي اجعل بينك وبينه قناسة . ويقول مثل ثالث « اعمل حساب المريسي وإن جت طليق من الله »^(١).

وفي الحكايات الشعبية يعكس تصرف البطل عادة اهتمامات المجتمع بالخير إلى حد بعيد ، بينما يعكس الشرير الذي يقف ضد البطل اهتمامات المجتمع بالشر بنفس الدرجة من القوة والفعالية .

إن الطبيب الكريم الشجاع لابد أن ينال جزاء طيبته وخلفه الحميد ، أما الشرير فإنه لابد من أن يعاقب عقاباً صارماً ، وأن يخضع من الحياة ، ذلك أنه لكي تستطيع للتأثيرات الشعبية التأثير في الأفراد ، فلا بد لها من أن ترضي اللوق العام هؤلاء الأفراد ، ومن ثم يجب أن يصور الشرير في صورة إيجابية توضح شكل الشر الذي يتصف به ، وأثره ، أكثر من مجرد الإشارة إلى أنه لا يتميز بأية صفات خيرة أو حميدة .

ويلي هذا في حقيقة الأمر من أن الشر أمر يلقي انتباهاً كبيراً وتركيزاً شديداً من الجماعة ، يتناسب مع دوره الذي يلعبه في حياة المجتمع ويؤثر به على علاقات الفرد بغيره ، من ناحية ، وبالمجتمع من ناحية أخرى . وتتضمن الحكايات الشعبية نماذج كثيرة للخير والشر الذي يلقي الاهتمام من الناس ، إذ يعكسون من خلال هذه النماذج المفهوم الشعبي للشر والخير^(٢).

إن العقلية الشعبية تؤمن إيماناً عميقاً ، بوجود الشر في الحياة ، وأنه يؤثر في حياة الفرد والجماعة ، ربما أكثر مما

مفهوم الشر في الأدب الشعبي دراسة للشخصيات الشريرة في السيرة الشعبية

أحمد مرسى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

(١) أل.م.مسي : ربح محاسبة للمراكب ذات الشراخ ، والفيلب : ربح مواتية تساعد الركب على الإبحر .

(٢) أحمد علي مرسى - التأثيرات الشغافية الأدبية - دراسة ميدانية في القيم القويم - رسالة دكتوراه - لم تطبع - جامعة القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، وانظر أيضاً الحكايات المجموعة في للنقل الخاص بالحكايات الشعبية في الجزء الخامس بالعمل الميداني .

يؤثر الخير . كما تؤمن بأنه عقبة لابد من تجاوزها ، ومشكلة أساسية لابد من التعامل معها ، وإيجاد حل لها ، ويتمثل هذا الحل عادة في الإيمان المطلق بأن الخير لابد أن ينتصر في النهاية ، مهما كان من أمر الشر ، وقسوته ، وقوته ، وثأيره .

وتختلف الأساليب التي تواجه بها العقلية الشعبية الشر ، إيجابيا أو سلبا ، فالأمثال الشعبية ، كما رأينا في النماذج الثلاثة التي ذكرناها في مقدمة هذه الدراسة تدعو إلى الابتعاد عن الشر وتجنبه ، مهما كان ما يجنيه المرء منه ، حتى لو كان رزقا يحتاجه ، أو خيرا يتوقعه ، ذلك أن الشر لا ينتج خيرا ، كما أن « أول الشر جنون وآخره ندم » . وتدعو الأمثال الشعبية أيضا إلى توقع الشر قبل الخير ، وتعد ذلك من حسن الفطنة ، وكأنها بذلك تمد الإنسان لمواجهة الشر المتوقع دائما ، وتؤكد له في الوقت ذاته أن هذا أمر طبيعي ، لا ينبغي الخوف أو الجزع منه ، أو التناقص في مواجهته ، باعتباره أمرا ملازما للحياة ، لأن الحياة لا يمكن أن تقوم على الخير وحده أو على الشر وحده ، وأنه لا غرابة في أن يواجه الشر الخير محاولا الانتصار عليه ، لأن الخير هو الطبيعي وأنه يمكن أن يوجد دون وجود الشر ، ولكن الشر لا وجود له دون وجود الخير ، ومن ثم تتوقع العقلية الشعبية أن يكون الشر هو البادئ دائما . ولعل ذلك هو السبب في أننا نرى أن الشخصيات الشريرة في الحكايات والسير هي التي تبدأ بالفعل ، ويصبح سلوك الشخصيات الخيرة وكأنه رد فعل لهذه الأفعال الشريرة .

إن العقلية الشعبية بتأكيداتها على وجود الشر وضرورته ، ويدعوها للإنسان أن يتوقع الشر قبل الخير ، لا تصدر في ذلك - في حقيقة الأمر - عن نظرة متشائمة للحياة والكون ، ولكنها تعمل بشكل غير مباشر على استحداث التوازن الإنساني ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة ، بهذا التصور للشر والشرار .

والحقيقة إن الخير والشر هنا ، مفاهيم نسبية ، إذ يكتسب الخير معناه من وجود الشر ، فالخير خير لأنه يوجد شر ، والشر شر أيضا لأنه يوجد خير . وهكذا يعيش الشر إلى جانب الخير ، ويتطور كلفكرة موازية لفكرة الخير ، باعتباره أن الشر رمز لجانب أسامي من جوانب الجيرة الإنسانية كالخير فلهما .

وإذا كان الخير في المأثورات الشعبية يمثل التناغم والاتساق في قوانين الطبيعة والحياة إذ يؤكد القواعد العامة ، ويقف في صف الفرد والجماعة ، ومثلها العليا ، فإن الشر يلعب هو الآخر دورا هاما في الحياة والكون أيضا من طريق ما يجسده من تناقض مادية وأخلاقية ، وما يمثله من أذى وخروج على النظام والقواعد العامة ، واستنارته للنوازع الدنيئة التي تعمق من مشاعر الأثرة والأنانية ، وتوسع الهوة بين الفرد والجماعة .

ويظهر الشر في السير الشعبية رمزا لعدم الرضا عن الواقع الموجود الذي لا يحقق آمال الشخصيات الشريرة ، لأنه يقف ضلعا ، وضد كل ما تمثله من ناحية ، كما يشير هذا الرمز أيضا إلى التناقض والمثالب التي تعمل عملها في بنية المجتمع ، وتعمي الفرد عن معرفة ذاته ورؤيتها روية صحيحة في علاقتها مع اللوات الأخرى ، من ناحية ثانية . وهنا يلعب الشر ، كما تجسده الشخصيات الشريرة دورا هاما لا غنى عنه ، إذ يحفز إلى التغيير ، ويدفع إليه ، كما يؤكد على أهمية الخير وضرورته ، مما تمثله الشخصيات الخيرة ، ودوره في القضاء على المثالب التي يعاني منها الفرد ، والجماعة ، والانتصار على التناقض والعيوب التي تدرك العقلية الشعبية أنها سم يسري في جسد المجتمع ، يؤدي به شيئا فشيئا إلى

التحلل والانهيار . وعلى ذلك فإن الخير في المأثورات الشعبية ، ليس مفهوما مجردا ، وكذلك الشر ، وإنما يكتسب كل من الخير والشر ملامح جسدية وسلوكية وخلقية إنسانية ، تتفق مع المفهوم الشعبي لكل منهما .

إن الخير قوة .. والشر ضعف .. كما أن الخير مع الحياة .. والشر ضدها .. ويمثل الخير الجمال شكلا ومضمونا ، في مقابل الشر الذي يمثل القبح شكلا ومضمونا أيضا ، فالخير قوي شجاع متناسق الملامح ، والشرير ضعيف جبان مشوه الشكل غالبا .. والخير صادق طيب القلب ، كريم الحلق ، عميق الإيمان ، أما الشرير ، فهو مخادع ، قاسي القلب ، سيء الخلق ضعيف الإيمان .

ولقد اخترنا شخصية سعاد الشاعرة أخت التبع حسان اليماني التي عرفت باسم اليسوس في الحياة العربية قبل الاسلام ، واقرن اسمها بحرب ضرورس بين بكر وتغلب ابني وائل ، كانت الموضوع الرئيسي لسيرة من أهم السير الشعبية العربية هي سيرة الزير سالم ، المعروف في تاريخ الأدب العربي باسم « الملهل » ، لتكون أحد نموذجين يوضحان صورة الشر في السير الشعبية عامة . وعلى الرغم من أن وجودها اللذي في السيرة لا يستغرق أكثر من بضعة صفحات قليلة ، إلا أن أثرها يظل فاعلا في السيرة الى نهايتها ، مما يشير الى خطورة دور العنصر الشرير عامة وأثره في حياة الجماعة ، وهي بذلك تختلف الى حد كبير عن بقية الشخصيات الشريرة في السير الشعبية الأخرى كشخصية « جوان » في سيرة الظاهر بيبرس التي تمثل النموذج الثاني ، والتي تظل تواجه الأبطال الخيبرين طوال السيرة حتى يتم النصر للخيري في النهاية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لأنها تمثل عنصرا نراه معها وهو تأثير الشر عندما يأتي الى الجماعة من خارجها ليلتقي مع عناصر شريرة كانت داخلها ، فبهذا الشر الخارجي مجرد مثير أو حافز لعناصر الشر المتراكمة في وجدان الجماعة ، يساعد على بروزها ، وتفجيرها لتتدمر الجماعة كلها .

يبدأ التنزيل بما تحلته سعاد أو اليسوس في ثنابا نبوءات حسان اليماني أثناء احتضاره عندما يقول لكليب :

وَعَلَّمَهُ شَاعِرُهُ نَزَلَ عَلَيْكُمْ
وَأَنْتَ بِرُوحِ جَسَامٍ سَتَنْطَفِئُ
وفي نص آخر :

رَبِّعِي شَاعِرُهُ نَزَلَ عَلَيْكُمْ
وَقَرِيسِي بِالْمَرْبِ إِنَّهُ بِمِيزَةٍ

وفي موقف آخر من النص نفسه ، يقول الراوي :

عَسْجُوزُ الشَّاعِرَةِ قَصَبِيَتْ جَنَافَا
تَأْوِيَا أختَ حُكَّانِ الْيَمَانِي
وَنَزَلَتْ عِنْدَ جَسَامِ بْنِ مُرَّةٍ
وَمَا جَلِيَتْ مَعَاظَا غَيْرَ نَاقَةٍ
وَمَيَّ جَسَامُوسُ مِنْ قَرَمِ طُفَاةٍ
يَطْلُبُ نَارَ أَخْرَافَا مِنْ وَرَاةٍ
وَسَدَّجَتْهُ عَلَى جُودِهِ وَعَطَاةٍ
فَصَارَتْ قَطِيعَ تَسْقِيهِ الرُّعَاةِ

نَقُولُ لِعَبِينَا فِي كُلِّ يَوْمٍ خُشُونُ الْحَيَا وَارْتَمُوا عُفَاةَ
وَيُسَبِّحُونَ الْأَبَاسَ فِي الْجَنِينَةِ وَلَا تَحْشُونُ مِنْ حُكْمِ الْقَضَاةِ

.....

وَصَارَتْ الْعَجُوزُ تَرِيْسِي وَتَسَاوِسُ بَيْنَ جَسَّاسٍ وَكَلِيبِ الْفَتَاةِ
فَشَبَّهَتْ الْقَبِيلَ وَالْهَوَائِثَ وَنَارَ الشَّرِّ عَادَ قَا لُفَاةَ

وقد وصفت سعد الشاعرة في السيرة بأنها عجزوز^(٤١) « من عجائب الزمان وغرائب الآوان ، ذات مكر ودهاء ، وكان لها أربعة أسماء » .. وأنها « كانت مع هذه الأوصاف القبيحة ، جميلة المنظر ، فصيحة الكلام شديدة اليأس ، ولما كبرت وانتشت وصارت بنت عشرين سنة تركب الخيل في الميدان ، وتبارز الأبطال والفرسان ، وشاع صيتها في كل مكان » ثم تذكر السيرة أنها ، تواردت إليها الخطباء من جميع المدن والبلدان فكانت تقول لا أتزوج إلا من يقهرني في الميدان ، فكانت تنهزمهم في القتال ، وتعلم عليهم في ساحة المجال .. فاقصر عنها الخطاب وتباعد عنها الطلاب وكان الأمير سعد (ابن عمها) صاحب نخوة وحمية ومن أشد فرسان الجاهلية ، فحاربها حتى أضعفها ، ثم اقتلعها من بحر سرجها فأقرت له بالخيلة ، وبعد ذلك تزوجها .. وأقامت مع زوجها في أرغد عيش وهناء مدة عشر سنين الى أن عمي وفقد البصر ، فصارت تحكم مكانه ، وأطاعها العرب وعظم أمرها واشتهر ذكرها . ومازالت على تلك الحال وهي في أرغد عيش وأنعم بال ، إلا أن كليب قتل أخاها التبع ، فلما بلغها هذا الخبر أخذها القلق والضجر ، وتنهض عيشها وقرمر ، وقالت لا بد لي من السير الى تلك الديار وأقتل كلبيا الغدار ، فاذا قتلت انطفي ناري وأكون قد اخذت بتاري . فأقامت مكانها وكبلا يحكم بالنيابة عنها ، وركبت هي وزوجها ويناتيا وأخذت معها عبدان . ومازالت تقطع البراري والأكام ، حتى وصلت الى بلاد الشام ، فسألت عن جلة بني مرة فأرشدها اليها ، فلما صارت هناك قصدت الأمير جساس دون باقي الناس ، ودخلت عليه وهو في الديوان وحوله جماعة من الأمراء والأعيان ، فتقدمت اليه وسلمت عليه ودعت وترحت وبافصح لسان تكلمت ، وقالت له أدام الله أيامك ، ورفع على ملوك الأرض قدرك ومكانك ، ويليك أريك ومناك وتصرك على حسادك وأعدائك . فتعجب جساس من فصاحة مقالها فألقى عليها وسألها عن حالها ، فقالت له انني شاعرة أطوف القبائل والمشاير وأمدح السادة والسادات والأكابر ، وقد سمعت بوجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك ، فأتيت الى دارك ، حتى أعيش في جوارك وأكون مشمولة بأنظارك ، وأقامت عنده شهرين وجساس كل يوم يزيد في إكرامها ، وكانت قد رأت اتفاق قوم كليب مع بني مرة وهم في عبة ومؤلفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنها قبيلة واحدة فها هنا عليها ذلك الأمر ، فأخذت تلقي الفتنة والفساد بين الأمراء والقواد حتى وقع الشر والتزاع وكثر القيل والقال . ولما أشد الأمر ، اجتمع كل أكابر الناس عند الأمير ججلس وأخذوا يشكون من بني تغلب وعن سوء معاملتهم وأنهم يعتدون عليهم في أكثر الأوقات بدون سبب ، وهذا كله من يوم ما قتل كليب السبع البعاني ، وانتد ملكا في الاقطار ، فابتدأ يجر ويطغم ولا يحسب حساب ، وهكذا قومه تفعل كفعله . وكان مرادهم بهذا الكلام يحسمو الأمير جساس ويحيوه على قتال كليب ، ولكنه لم يصفى لهم ولم يطاوعهم على مرامهم ،

(٤١) قصة ليزم سائر الكبر ، ص ٤٦ وما بعدها الى ص ٥٧ .

وقال لهم انه من الصواب أن أجتمع أولاً مع ابن عمي كليب ، وأعلمه عن تعديت قومه وجورهم علينا ، فإن وجدت كلامه قاسياً يكون هو السبب في تقويتهم ، وإن أمر بتأديب المفتزين نكون قد نلنا مرادنا .

وما زالت الفتنة بين الفريقين تمتد وتشتد حتى اتصل الخبر إلى مسامع الأمير كليب ، وبلغه أن بني مرّه هم أصل ذلك الخصام ، فضايق صدره وتكرر ، وأرسل من أعلم جساس بذلك الخبر طالباً منه أن يبادر الحال بقصاص اللذين وتوقيف حركات البكرين وإخراج المعجوز من القبيلة التي كانت سبباً لهذه الورطة . فاغتاظ جساس من ذلك ، وتأثر وتأكد عنده كلام قومه ، وعلم أن أصل ذلك كله من كليب ، فلم يجبه بجواب ولا بخطاب . وأخذ جساس من ذلك اليوم يجمع الجميع ويفرق على قومه السلاح ، ويقيمهم بآلات الحرب والكفاح ، فبلغ ذلك الأمير كليب ، فازداد كدره ، واحتار في أمره ، وحس بزوال ملكه .

ويرجع الكلام والسياق إلى حديث سعاد الشاعرة الساحرة الماكورة فإنها لما أثارت الفتنة بين القوم ، وصار لها عند بني مرّه ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول ، أخذت طامسة من القصة ، وملأتها من المسك واللبان والعطر ، وخفقت الجميع في بعضها البعض ، وعملت إلى نافتها الجربانة ، وأخذت تظلي أجانبها وتدهنها بذلك الطيب ، وأمرت بعض العبيد أن يأخذوها إلى المرحى ، ويجريها قرب صيوان جساس في الصباح والمساء ، وأوصته إذا سأله أحد عنها وعن سبب رأتحتها يقول لا أعلم وإنما مولائي تعلم . فأخذ الناقة ومر على ذلك المكان ، فبعثت رائحة الطيب فاستنشق جساس الرائحة وكانت ذكيه جداً فتعجب . وكان قد نظر إلى العبد وتلك الناقة ، فأمر باحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عاقبة منه . ولما حضر وإذا رائحة كريهة جداً ، فسأله عن تلك الرائحة ، فقال من الناقة . فازداد تعجباً وسأله عن سبب ذلك ، فقال لست أعلم يامولائي إنما مولائي سعاد الشاعرة تعلم ذلك . فقال جساس هذا غريب . فاستدعى المعجوز إليه فحضرته ثم سأله عن قضية الناقة ، فتحدثت من فؤاد موجوع ، وقالت لا خفاك أمال الله عموك وأهلك أن هذه الناقة من سلالة ناقة صالح ، وفيها خواص غريب يا ابن الاجواد ، فإن بعروها من المسك ، وعرفوها من الزباد . فتعجب جساس غاية العجب ، وقال في نفسه تبارك الله رب العالمين فلماذا لي من أخذ هذه الناقة فافخر بها على جميع الملوك ، فقال لها هل تبغين إياها يا حرة العرب وأنا أعطيك منها تطلين من القصة واللذبة . فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها ، وقالت والله هذا الحساب الذي كنت أحسبه ، فاني ما هاجرت من بلادى إلا لأجل هذه الناقة ، وكلما نظرها أمير أو ملك يطلبها ، ومادام الأمر كذلك فاني سأرحل من عندك ثم بكت . فلما فرغت أخذ جساس يعطف بخاظرها ، ويقول لها إن كلامي معك هو على سبيل المزاح ، فتأققت مبركة عليك ، وأنت المعزوزة علينا . فقالت من حيث ذلك ، أريد أن تجعل ناقتي دون باقي الثرى والجمال لأنها قد تربت بالدلال ، وأريد مرعى لأنه ألبق بها . فقال أرسلها إلى المراعي مع نوقى وهما . فقالت انها لا تأكل إلا من الرياحين وزهر البساتين . فقال انه ليس لنا كروم ولا بساتين . قالت وهذه الكروم التي بجانب القبيلة ، من هو صاحبها . قال هي لابن عمي كليب زوج أختي الجليلة وهما متزوج أخت ضباب . قالت مادام أنكم أهل وأقارب ، وأنت ملك نظيره فلماذا يكون كليب أعظم منك . فقال أنه من بعد قتله الملك تبع عظم أمره وانتشر ذكره وتملك على البلاد وطاقته العباد . فلما سمعت هذا الكلام قالت والله لقد انحطت ، وبس ما فعلت فاني تركت البحر ورجعت إلى الساقية ، وتعلقت باللذبة وتركت الرأس . فاغتاظ جساس وقال ما معنى هذا الكلام يا حرة العرب ، فانك قد خرجت عن دائرة الصواب وبادبتنا بقلة الأدب ، أهذا جزاء

المعروف والاحسان ! فقالت لا تغضب ولا تفتنظ ، وما قولي هذا الا من سبيل المحبة ، فكيف يكون ابن عمك وصهرك وزوج أختك ويملك على هذه الاراضي العظيمة وأنت ليس لك قدر ولا قيمة ، وهكذا يكون الأهل وأبناء الاعمام أيها الملك الهمام . فقال جساس وضة العرب ، وشهر رجب ، لقد تكلمت بالصواب ، وأنا من الآن وصاعدا لست أحسب له أدنى حساب لأنه قد اغتر* وغرد ، ولا عاد يحسب حساب لأحد ، وأنا لا بد لي ان أطلبه ان يقاسمني على املاك المملكة ، والا الفية في التهلكة ، فرويحي وأطلقني نأظك لكي ترعى في أحسن البساتين والمريعى .

فلما انتهى جساس فرحت المعجوز وانشرح صدرها ، فقبلت يده وخرجت من عنده ، وقالت لعبيدها خلوا هذه الناقة واتركوها ترعى في البستان المعروف بحي كليب ، واجعلوها تهديم المحيطان ونقطع الأشجار وتأكّل الأغصان ، وإذا اعترضكم فاشتموه وسبوه وإذا اقتضى الأمر اقتلوه ولا تخافوا ، فقالوا سمعا وطاعة ثم أخذوا الناقة وساروا بها الى ذلك المكان .

وكان هذا البستان كانه روضة جنان ، كثير الأشجار والفواكه والثمار ، وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من أحسن منتزهات الدنيا ، وكان لا يسمح لأحد أن يدخل اليه سوى هو وعياله فقط ، فلما أخذت العبيد الناقة ، دخلوا بها بعد أن هدموا الحائط وصاروا يقطعوا الزهور ويكسروا اغصان الشجرة . وكانت الناقة تأكّل العرايس وأثمار الكرم ، وكان كليب أقام حارسا يحرسه اسمه ياقوت فلما نظر الحارس تلك العمال ، هجم على العبيد بالعصا وقال لهم اخرجوا ياكلاب من البستان قبل ان يحل بكم الهوان ، فشتموه وسبوه ثم ضربوه ، فهرب من بين أيديهم ، وجاء الى كليب وأعلمه بوقعة الحال ، فاغتاظ غيظا شديدا وجاء الى ذلك المكان ومعه أربعة غلمان ، فرأى العبيدين أحدهما جالس على سريره أي الذي كان يجلس عليه وقت النزعة ، والآخر دائر مع الناقة بين الكروم والزهور وهو يسب الأمير كليب ويشتمه . فعند ذلك تراكضت غلمان كليب على العبيد لتقبض عليها فتركها الناقة وهربا . فأحضرت الغلمان الناقة أمام كليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان . وكانت عبيد المعجوز تراقب عن بعد ما يجري على الناقة ، فلما شاهدوا ما كان من أمرها رجحوا على الاعقاب وأعلموا مولاهم بما جرى وكان ، وكيف ان غلمان كليب ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها خارج البستان . فقالت الآن بلغت مرادي وأخذت ثاري من الاعادي . ثم امرت العبد أن يسلم الناقة ويأتيها بجلدها . فسار العبد وسلمخها وجاء بجلدها اليها وقامت من وقتها ، ووضعت الثراب على رأسها ، وشقت ثيابها مع بناتها وعبيدها وجواربها ، وأخذت جلد الناقة وسارت بها عند الأمير جساس فدخلت عليه وهو في الديوان مع الأكابر والأعيان ، وصارت تندب وتبكي ، وألقت الجلد بين يديه . فقال ملامك أيتها المعجوز وما الذي أصابك ، فحدثني في القصة وقالت له في آخر الكلام لو كنت اعلم بأن ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقي في حله حتى يلبسها ، بل اني اعتمدت على كلامك نظرا لعلمي برفعة مقامك بين اهلك واقوامك حتى جرى ما جرى بسببك .

فلما فرغت المعجوز من كلامها ، استعظم جساس تلك القضية وعصفت في رأسه نخوة الجاهلية ، وقال للمعجوز إنهي بأماني فانا أعرف شغلي . فذهبت الى خيلها ، واستبشرت ببلوغ مرأها . ثم التفت الأمير جساس الى من حوله من الامراء وأكابر الناس وانظروا ما فعله ابن عمنا في حقنا وهو صهرنا فقد أهاننا بهذا العمل ، وأنا لا بد لي أن أستخدم

لنقله في هذا اليوم ، فلما أن أُنزل أو أبلغ الأمل . فقالت له أكابر العشيرة تمهل يا أمير فانهربا للإملح أنها ناقة نزيلك ، ومن الصواب أن ترسل له كتابا على سبيل العتاب ، ويطلب منه ثمن الناقة وتنتظر ما يكون جوابه ، فإن أرسل الثمن واعتذر كان خيرا ، وإن أبى وامتنع فحينئذ تفعل ما تريد . فاستصوب جساس هذا الرأي وكتب كتابا إلى كليب يعلمه بذلك الحال ، ويطلب منه ثمنه الناقة ، وأرسل الكتاب مع عبده أبو يفظان . فأخذ أبو يفظان الكتاب وفي طريقه مر على تلك العجوز وأخبرها بالقصة ، فترجعت به ولاطفته بالكلام وقدمت له الطعام ، ثم أخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب ، فعند ذلك فشنت في ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب ، فقرأته فوجدته كتابا بسيطا خاليا من التهديد والوعد والوعيد ، وأضافت إليه كلاما مغيظا وهي هذه الآيات :

أَمِيرُ كُليبٍ يَا كَلْبَ الْأَعْرَابِ أبا ابنِ النُعمِ لَا تَكْبُرْ عَلَيَّ
فَلَا زِمَ أَتُبْحَكَ فِي حَمْدِ سَيْفِي وَثَتَّ نَيْسِيَّةَ حُرْمَةِ أَتْنَبِيَّةِ

ثم طوت الكتاب ، ووضعته في مكانه . وقام العبد فنبض وربك جواده ، وصار حتى وصل ديوان الأمير كليب ، ودخل عليه وقبل الأرض بين يديه وتلوه الكتاب ، فأخذ يقرأه ولما وقف على معناه اغتاض غيظا شديدا ، وأراد أن يقتل العبد ، ولكنه كان رجلا عاقلا موصوفا بالحلم والحزم فأطرق رأسه إلى الأرض وتفكر قليلا ثم قال في سره لعل الأمير جساس كتب لي هذا الكتاب وهو في حالة السكر غائب عن الصواب ، فمزق الورقة وأمر بضرب العبد فضرب وقال له إذهب يا ابن اللثام إلى عند مولك بسلام ولا سقيتك كأس الحمام ، فقام وهو على آخر رمق وربك حصانه وسار إلى عند جساس وقال له إنه بحال ما قرأ الكتاب مزقه وأمر بضربي وقد شتمك وسبك وهذا الذي تم وجرى .

فلما سمع جساس هذا الكلام صارت الضيا في عينه كالظلام ، فنبض في الحال ودخل إلى خزانة السلاح ، وليس آلة الحرب والكفاح ، وربك ظهر حصانه وانحدف إلى صيوانه ، وصاح على أبطاله وأخوته وفرسانه ، فجاءوا إليه وداروا حواله فاعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجidal ، وقال لهم استعدوا لقتال بني تغلب الألدال .

فلما فرغ جساس وعرف قومه فحوى قصده ومرامه فإأ أحد طلوعه على هذا المرام ، وقالوا له عن فرد لسان بشي هذا الرأي ، وهل يجوز لنا يا أمير لأجل ناقة حقيرة نقاتل ابن عمنا الأمير كليب ونرفع في وجهه السلاح بعد أن صاننا وحمانا بسيفه ، وقتل الملك تبع حسان واستولى على الأقاليم والبلدان ، وجعل لنا ذكرا عظيما في قبائل العربان على طول الزمان ، فإن كان لك عليه دم أو ثار فدونك وإياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجدة .

فلما سمع كلامهم تركهم وقصد بيت العجوز ، ولما اجتمع بها قال لها لقد جئت إليك لأرضيك بالعطايا خوفا من ازدياد المتأيا ووقوع البلايا ، فاطلبي ثمن ثقتك لأعطيك إياه ولو كان مهما كان . قالت أريد واحدا من ثلاثة أشياء . قال وما هي . قالت أريد أما أن تغلا حجري بالنجوم أو تضع جلد الناقة على جثتها تقوم أو رأس كليب بالدماء يعم . فقال لها أما ملو حجرك بالنجوم أو أن الناقة تميش وتقوم فهذا لا يقدر عليه إلا الحي القيوم . أما رأس كليب فابشري به ، ثم قوم السنان وأطلق العنان ، وقصد حي بني قيس . فقالت العجوز لبيدها سعد خذ هذا السكين والمنديل

الابيض واتبع جسامس من وراه ، فاذا رأيته قتل كليب فأسرع اذن والطخ هذا المتبدل من دمه ، فمضى ففعلت ذلك فاتفى أطلقك لوجه الله تعالى فامتثل امرها وتبع آثار جسامس .

واذا بعبد المعجوز اقبل اليه وجذبه من يده فأوقفه وقال والله انك من أحقر الرجال ، ثم علمه بحاله ، وكيف المعجوز أرسلته خلفه لأجل تلك القضية ، فتحمس جسامس ونهض ، ومسك له العبد الركاب فركب ، ثم تقدم نحو كليب وهز في يده الرمح ، وطعنه في صدره خرج يلعب من ظهره ، فوقع على الأرض يختبط بدمه فبكى كليب ملء عينيه ودعاه يسئل على خديبه ، فلما رأى جسامس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل .

والنموذج الثاني للشخصيات الشريرة التي ستوقف عندها ، هو « جوان » في سيرة الظاهر بيبرس ، كما سبق أن أشرنا .

وتأتي أهمية هذه الشخصية - من وجهة نظرنا - أنها تكاد تمثل كل عناصر الشر التي نراها في السير الشعبية الأخرى شكلاً ومضموناً ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لأنها تكاد تكون نموذجاً لما يمكن أن نسميه « الشر للشر » فإذا كانت « سماد » أو « البسوس » قد جاء شرها من رغبتها العارمة في الأخذ بثأر أخيها « التبع حسان » الذي قتله « كليب » ، وإن هذا الشر لم يكن يؤذي ثماره ، أو يؤثر تأثيره المدمر ، لولا أن الجماعة نفسها كانت مهتمة لذلك ، إذ تفاعلت داخلها عوامل هيأت لهذا الشر أن يحقق هدفه ، فإن شر « جوان » غير مبرر ، حيث لا يوجد دافع واضح يدفع اليه ، مهما حاولت السيرة أن تؤكد أن هذا الشر متاصل فيه ، ورثه عن أبيه ، وأنه ابن سفاح ، أو كما يقال في التعبير الشعبي « ابن حرام » ، وأنه كان مدفوعاً بحقد دفن لا نعرف له سبباً ، جعله يناصر الجميع العداء ، أو غير ذلك من أسباب .

ولعله مما يلفت النظر في سيرة الظاهر بيبرس أن التعرف على « جوان » وتقديره ، يتم قبل تقديم « الظاهر بيبرس » والتعريف به ، إذ تحكي السيرة كيف أن « أيبك » قد مرض مرضاً شديداً ، احتار الأطباء في معرفته ، ومداواته منه ، وكاد أن يورده حفرة .

« فبينما هو كذلك ، واذ مر به رجل متشبه بالعلماء الأعلام ، فسلم عليه فرد السلام ، فجلس الى جانبته ، وجعل يماحده حتى أنه احتوى على قلبه ، ثم قال له : يا ملك الزمان ما بك ؟ فقال : كما ترى العيان ، قال : ألم يأتك حكاه يماحلوكم من هذا المرض يتنقلو . فقال : جاعني كثير ، وما زلاني الا تحسير ، فقال له : أنا أداويك ، ومن هذا المرض أشفيك ، قال : جزاك الله كل خير ، فتقدم اليه وجعل يداويه بأدوية يغيرها وأعشاب يعرفها ثلاثة أسابيع حتى شفي وطلب من كل مصاب . فلما شفي من مرضه أقبل على ذلك الشيخ وقبل يده وقال له : ما اسمك يا مولاي ؟ قال له : اسمي الشيخ صلاح الدين ، قال له : من أي أرض ؟ قال له : من العراق ، فظن « أيبك » أنه ولي من أولياء الله ، فاعتقد به وقربه ، ولم يدر من هو ! » .

ومن السهولة بمكان أن ندرك أن هذا الشيخ الصالح ! هو جوان ، وأن لقاءه مع « أيبك » على هذا النحو هو السبيل الذي سيتيح له بعد ذلك أن يلعب دوره المقتدر له في السيرة .

وتعود السيرة الى الوراء ، لكي تعرف تعريفا كاملا بهذا الشيخ ، فتحكي كيف أنه كان هناك راهب يدعى نشوان ، له ابنان أحدهما يدعى « كرسيمول » والآخر « أصفوط » ، وكيف نشأ « كرسيمول » كأبيه ورعا ، تقيا ، أما « أصفوط » فقد أصبح من أهل الشر والفساد ، وتطلق السيرة عليه لقب « أصفوط المفقوت » . وتحكي السيرة أن ملك البرتغال قدم لزيارة الدير الذي يقوم عليه « كرسيمول » بعد وفاة أبيه ، وأنه جاء لوفاء نذر قطعه على نفسه ، وترك الملك ابنته في رعاية « كرسيمول » ، فقد وهبها للرهبنة والتعليم . وتذكر الفتاة وتصبح فتنة للناظرين ، وما أن يراها « أصفوط » حتى يقرر الحصول عليها لنفسه ، ولكن أخاه ينهره . ويحده عنها ، وفاء للأمانة والعهد الذي قطعه مع أبيها ، ولا يبدأ « أصفوط » حتى يتم له اغتصاب الفتاة في غفلة من أخيه ، الذي لا يجد مفرا من اعدائها الى أبيها ، وحكاية ما جرى لها ، وتذكر السيرة أن ملك البرتغال قد انتقم من « أصفوط » لما اقترفه في حق ابنته .

« وأما ما كان من أمر بنت الملك ، فانها حبلت وظهر عليها الحمل ، فوضعت غلام ذكر ، وهو عبرة لكل البشر . ولبية وضعه انكسف القمر ، وأظلمت الدنيا ونزل المطر ، وزادت الرعود وكانت ليلة منحوسة ، وقد خرج رفيع العنق ، كبير الرأس ، شنيع المنظر ، ومن جملة قباحتها أن أمه بعد أن وضعت انقلبت ميتة .

فلما عاين ذلك الملك ، بكى على ابنته وليس ملابس الحزن ، وذم الولد وقال : هذا مشنوم ، ولولا وصية المسيح بالأطفال لكنت قتلت وارتاح قلبي منه . ثم أمر له بمرضعة فأتوا اليه بها فأبى أن يرضع ، فأتوا بغيرها فكانت كمثلها ، ولم يقبل الراضع ، فأتوا له بللمز والذلان فأبى ، فلما عاين ذلك الوزير ، قال للملك : أعلم أن هذا الولد منحوس ، وطالعه معكوس ، فان طاعوني ترسله الى الدير خارج البلد ، فيه كلية ترضع أولادها فاجعله معهم ، فإن عائش فبرقه وإن مات فبأجله ، فقال له : هذا هو الصواب ، ثم انه أمر بحمله الى الدير ، فحملوه ووضعوه في دهليز الدير مع أولاد الكلية ، فمسك ثديها ووضع وقد حنتها الله عليه ، فصارت ترضعه فلما علم الملك تعجب من هذا المولود ، ثم انه جعل يتفقد الكلية بالأكال والمشارب الى أن كبر الولد وانشى ومشى فطلع آفة رقطاه ، ومؤذي لا يطلق ، كثير النفاق ، لا يرى شخصا الا ويضربه ، ولا يجلس مع قوم الا ويفسدهم . وقد زاد ظلمه على العباد ، وعم جوره وشاع أمره بذلك فشكت منه العباد الى الملك فنهاه فلم ينته عن أفعاله ، ولا رجع فشكوا ثانيا الى الملك وثالثا ، فلما أعياه الأمر وتزايد عليه الشكوى والضرر أرسله الى عمه كرسيمول في الدير مع عشرة رجال ، فلما وصلوا به الى الدير ، قبلوا يد كرسيمول ، وقال له : خذ هذا ابن أخيك وهذا كتاب من الملك واذ به الى بين أيادي كرسيمول ، الواصل لك ابن أخيك ، وقد سميت به جوان ، وجرى له من الأمر ما هو كذا ، وكيف أن أمه ماتت عند ولادتها ، وأعاد عليه جميع ما جرى لأخيه أصفوط ورفقاه ، ثم إن كرسيمول أخذ الغلام وجعل يعلمه الأحكام ملنة من الأيام ، وتصاحب بالدير مع بعض أولاد الملوك الذين يقرأون عند كرسيمول ، وكان أكثر صحبته مع ولد يقال له سيف الروم . وكان جوان صاحب مكر وخداع وحيل ولم يزالوا على ذلك حتى قرأوا غوامض العلوم ، أما ما كان من أهل الدير ، فانهم طلعوا في عيد لهم الى جهة البحر ، وركبوا المراكب ، وكانت هذه عرائسهم في كل عام يطلعون الى البحار ، ويستأثرون ما جاء اليهم من المسافرين . فبينما هم كذلك واذ أقبل عليهم مركب حجاج فدار به أهل الدير ، واستأثروا كل من كان فيها . فكان من جملة ما أخذوه رجل عراقي صاحب فضل وعلم يقال له الشيخ صلاح الدين ، وكان يقرأ علوم كثيرة ، ويروي الأحاديث ، ويفسر المعاني ، ويفهم علم الأدب والعروض والمنطق والصرف والفلك والمهندسة والحكمة . وقد نظروا

الى ذلك الشيخ المهلب وهو هذه الشية ، قالوا له : انت رجل كبير وما لك عندنا متعة خذوه الى السجن ، وكان هذا من لطف الله عليه . فلما جلس في السجن ، حمد الله ورضي بالقضاء والقدر ، ثم جعل يقرأ القرآن . وقد تداولت الأيام واذ مر به جوان على باب السجن ، وسمع الاستاذ يقرأ القرآن ، فالتقى أدته وتامل كلام الاستاذ فأعجبه فرجع لرفقائه وقال لهم : ان هذا الرجل الذي في السجن مقيم هو من رهبان المسلمين ، والرأي عندي اننا ننزل اليه ونقبل يديه ونحتال عليه ، ونسلم اسلام باطل ، ونخليه يعلمنا كلام المسلمين ، لنكون بجميع العلوم عارفين . فقالوا له : افعل ما تريد ، فأعظمهم وسار الى السجن ، وفتح الباب ونزل اليه ، فبينما الشيخ جالس ، واذا بجوان مقبل عليه ، وجعل يقبل يديه ، وكذلك من كانوا حواله ، فقال لهم الاستاذ : من انتم ؟ فقالوا له : يامولانا اننا من هذا الدير ، وقد سمعنا منك هذا البيان فأعجبنا الرهبان ، وانا نريد أن تعلمنا فياه . فقال : يا اولادي هذا كلام لا يتعلمه الا المسلمون ، فان شئتم فأسلموا ، فقالوا : ماذا نفعل ، فقال لهم : تقولوا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله حقا وصدا . فأسلموا ولكن اسلاما باطلا ، وقبلوا يدي الاستاذ ظاهرا ، وفكروا عنه الاغلال ، فجعل يعلمهم العلوم ، وأقاموا معه في خندق بأهل الدير ، وصاروا يقدمون له المأكول والمشرب ، ويغسلونه وما زالوا كذلك حتى صار جوان مثل الشيخ صلاح الدين . ثم أن جوان قال لسيف الروم : اني تعلمت جميع ما مع الشيخ من العلوم ، وأريد أن أجازيه على فعله ، فقال له سيف الروم : تطلق سبيله وتدفع له مالا يوصله الى ما يريد ، فقال له : كلا بل مرادي أن أقتله . فقال له : لا شيء يقتله مع أنه فعل معك كل جميل وتعلمت منه جميع العلوم ، فقال له : أنا الذي لا اعترف بجميل ولا بتفضيل ، وليس لي عزيز . ثم انه وضع له البنج في الطعام وقدمه اليه ، وصبر حتى تنبج فنبض وعراه من ثيابه ، وأخذ ما معه من ملابس وكتب وقتله ، فمات شهيدا رحمه الله عليه . ثم أن اللعين جوان قال ادفنه يا سيف الروم لئلا يعلم ذلك كرسيمول فاذا علم بذلك أسفانا شراب المهالك ، فدفنه سيف الروم في جانب الدير ، وقال : اذا سألنا كرسيمول عنه نقول له هرب . فيوم من الأيام استغفد كرسيمول الشيخ ما وجدته ، فسأل جوان وسيف الروم وقال لهم : أين الأسير الذي تعلمت منه كلام المسلمين ، فقالوا له : هرب ، فقال لهم : علمت بأنكم تقتلتموه ، والى جانب الدير دفنتموه ، وانخلتم ما معه من الخواتج فأنخرجوا عني وان أقمتم بهذا الدير قتلتمكم . فعند ذلك خرج جوان وسيف الروم ، وأخذ جوان مصالحي الشيخ صاحب العلوم ، وليس ملابسه وهيا سيف الروم في صفة طالب وسماء منصور ، وصاروا يطلبون لهم أرضا يتركون بها . فبينما هم سائرين اذ بلغهم الخبر بأن ملك الموصل راكب على حلب وأنه طالب أرض مصر يريد أن يملكها ، فاعتراه المرض الشديد ، فقال يا منصور سر بنا الى ذلك الملك حتى ننظر كيف نصنع . وما زالوا الى أن وصلوا الى أرض حلب ، ودخل اللعين على « أليك » كما ذكرنا ، ودلوه كما وصفنا . وقد اعتقد فيه « أليك » وجعله أمامه وعظمه وصار يقبل يديه . فهذا كان سبب غيبة . ولما أراد أليك الرحيل من حلب ، طلب من الشيخ المسير معه فقال له : سرأت الى مصر ، وانا أكون لاحقا بك بعد أن أزور مقامات الأنبياء والأولياء ، وبعد ذلك أتوجه الى مصر . فقال له أليك : مثل ما تريد ، ونسالك الدعاء في جميع الأماكن الطاهرات ، فقال له : ان شاء الله .

وعني « أليك » في طريقه الى مصر ، ولينتح بخدمة « الملك الصالح نجم الدين أيوب » . ثم تحكي السيرة أن « أليك » قد أصبح وزيرا ، وصاحب حظوة لدى « نجم الدين أيوب » ، وكيف استطاع « جوان » عن طريق « أليك » أن يصبح قاضي قضية مصر . .

« فبينما أليك جالسا في السرايا ، واذ بالشيخ صلاح الدين العراقي داخل عليه ، فنهض أليك وتلقاه وسلم عليه وأجلسه الى جانبه وجعل يحديثه ويسأله عن أحواله . فقال له : يا والذي طلعت الى بيت المقدس وزرت نبي الله موسى وابراهيم الخليل وباقي الأنبياء الصالحين ، ودعيت لك وسألت الله أن يعطيك المناصب الجسيمة ، وبعد ذلك أقبلت اليك فقال له أليك مرحبا بك بامولاي عسى أن يكون دعؤك لي مستجابا . ثم أعاد عليه أليك ما جرى له ، فلما سمع الشيخ كلامه فرح بخدمته في الديوان وجلس يتعبد في داره .

أما ما كان من أمر الملك الصالح قال ، يا آغا شاهين أين قاضي الديوان ، فقال له الوزير : انه مريض من مدة ثلاثة أيام . فبينما الملك جالس ، واذ بالأخبار تقول يعيش رأس مولانا السلطان في قاضي الديوان السيد محمد نور الدين . فلما سمع الملك وفاة قاضي الديوان ، قال انا لله واتنا اليه راجعون . ثم أمر الأغا شاهين أن ينزل بأرباب الدولة ويمشي في جنازة القاضي ، ثم بعد أن واروه التراب عادوا راجعين ، قال للملك : يا آغا شاهين انظر لنا رجلا اهل صلاح وديانة ومعرفة يستلم القضاء ، فقال الوزير شاهين : يا سادتنا يا علماء الاسلام ، هل عندكم من يصلح للقضاء بالديوان . فقالوا له : موجود ، فعند ذلك نهض الوزير أليك ووقف في محل الطلب بين يدي السلطان ، وقال : يا أمير المؤمنين عندي رجل ذو صلاح ومعرفة ونجاح ، وقد اجتمع بي وأنا في حلب وكنت مريضا ، فبركته شفاني الله على يده وقد جعلته إمامي ، وهو مقيم في منزلي ، واسمه الشيخ صلاح الدين العراقي . فلما سمع الملك الصالح ذلك قال له : يا أليك اصبر حتى أسأل الأغا شاهين في ذلك . والتفت الى الوزير شاهين ، وقال ما تقول في ذلك ، قال وما أقول يا أمير المؤمنين في أهل العلم والفضل . فقال الملك : انزل يا أليك واتني بالرجل يتولى رتبة القضاء ، فسار أليك الى منزله وقال للشيخ سر معي الى الديوان ، فقد صدر أمر من السلطان أن تكون قاضي القضاة بالديوان . ثم إن العالم لبس جنته وسار الى أن أقبل إلى الديوان ، ودعا للملك بدوام العز والنعم وإزالة البؤس والتقم . فلما فرغ الشيخ صلاح الدين من كلامه ، قال له الملك : أهلا وسهلا بالعالم العراقي ، ثم أجلسه على كرسي القضاء ، فصار قاضيا .

ان أول الملاحظات التي يمكن أن نلاحظها على الشخصيات الشريرة في السير الشعبية أنها في الأغلب الأعم غريبة عن الجماعة ، سواء من ناحية الأصل ، أو المنشأ ، أو من ناحية المقومات الجسدية أو السلوكية أو الخلقية ، وإنها اذا لم تكن غريبة من ناحية الأصل أو المنشأ ، فانها بالضرورة لا بد أن تنحاز الى أعداء الجماعة ، سواء كان هؤلاء الأعداء يصدرن عن عصبية عرقية أو دينية أو قبلية ، وسواء كان ذلك بشكل مباشر ، أو بشكل غير مباشر عن طريق تحقيق هدف الأعداء دون احتيازهم أو تعاون معهم .

« فجوان » في سيرة الظاهر بيبرس ، شخصية متميزة ، تصلح نموذجاً للدراسة التكوينية النفسي والحقلي للشرير ، من ناحية ، والملائع والسلمات الطبيعية من ناحية أخرى ، ويصدق عليه ما يصدق على غيره من الشخصيات الشريرة من أن ميلاده غريب أيضا ، فقد انكسفت الشمس وغاب القمر ، واثه مبشره من أبيليس (*) ليكون التجسيد الحي له وعلى الأرض .

(*) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٥٦ .

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس عنه «ولأن هذه الشخصية هي المدبرة للشرفلنا أن هذه السيرة كان أخرى بها أن تكون سيرة جوان ، لأن حوادث السيرة كلها أو تكاد بتجديده»^(٦).

و « سعاد الشاعرة » - كما أسمتها السيرة - أو البسوس - كما عرفت في أيام العرب ، شخصية دخيلة على بكر وتغلب ، تحركها عوامل التأثير لآخياها الذي كان يفرض سلطانه على القبائل العربية كلها . وهي في سبيل تحقيق غرضها تستخدم كل ما تستطيعه من حيل ومكر ودهاء ، وتتفنن في هذه الخصيصة مع كل الشخصيات الشريرة في السر الشعبية عامة .

و « عمارة الوهاب » - أو الفؤاد - كما أطلق عليه رواية سيرة عنترة ، تحركه أيضا نوازع شخصية وأحقاد دفينة على عنترة ، تجعله ينحاز الى أعداء عنترة - أعداء القبيلة في الوقت ذاته - انطلاقا من عصبية ضيقة لا تضع في اعتبارها مصالح الجماعة .

و « عقبة السلمي » الذي وصفته سيرة الأميرة ذات الهمزة بأنه « شيخ الضلال » رغم نشأته العربية ، وإسلامه الظاهري ، يتحالف مع أعداء العرب والمسلمين من الروم ، ومن ثم يرتد عن الإسلام ، ويتنكر لقومه ، مستخدما ذكائه وقدراته الخارقة لتحطيمهم .

وتؤكد السيرة على ميلاد القريب وسماته الخلقية والجسدية التي ميزته منذ طفولته المبكرة ، لتحديد دوره في صناعة الشر والحث عليه ، فهو « ولد شراني يلقي الفتنة بين الناس » وأن الذي بشر أمه به « إبليس » ليكون خليفة له في الأرض^(٧).

أما قمرية أم الملك سيف في سيرة سيف بن ذي يزن ، فهي ليست عربية وإنما هي جارية حبشية أرسلها ملك الأحباش لقتل ذي يزن ، كما أن إسلامها غير صحيح ، تتخذ منه وسيلة لكي تحقق هدفها وشهوتها الى الحاكم والسلطان ، ولتخدع به إبناها^(٨)، وسقر ديوان وسقر ديوس من سلالة إبليس أيضا^(٩)، والسيرة بذلك تلخص أفعالها وسلوكها ، ومدى الشر الذي يتصفان به ، وأثره .

والوزير بختك وإبنة بختيار في سيرة حمزة البهلوان أو حمزة العرب ، من أصل غير عربي ، وضعها كراهية العرب ، والحقد عليهم ، وهما رأس الفساد بين الفرس والعرب ، لا يدينان بالإسلام ، ومن ثم تحركها عصبية عرقية ، ودينية عميقة الجذور في نفس كل منها ، بل أن بختيار يفوق أباه في عداوته وبغضه^(١٠).

(٦) د. عبد الحميد يونس - الظاهر يونس في الأدب الشعبي - المكتبة الثقافية - وزارة الثقافة - مصر - ص ٧٠ .

(٧) سيرة الأميرة ذات الهمزة م ١ - ج ٧ ص ٨ .

(٨) سيرة سيف بن ذي يزن م ١ - ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٩) سيرة سيف بن ذي يزن ، م ٣ ص ٣٠٠ .

(١٠) سيرة حمزة م ١ ص ٥٢ ، ٦٨ ، م ٣ ص ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨١ .

ومن الملاحظ أيضا أنه عندما ينسب الشر الى شخصيات غير عربية في السير الشعبية العربية ، يصبح الصراع حادا بين عوامل الشر وعوامل الخير ، ويمتلئ كل منها ، وقد يطول هذا الصراع لينسحب على السيرة منذ بدايتها حتى نهايتها ، في حلقات متتالية ، تتلو الواحد منها لتنمي الصراع ، ولكن الانتصار في هذه الحالة سهل ، غير عسير ، رغم ضراوته وشدته . أما حين ينسب الشر الى شخصيات عربية ، فإن الصراع يصبح صعبا عسيرا ، ويكون الانتصار في النهاية انتصارا شكليا ، لا قيمة له ، لأنه لا ينتهي الى وحدة الجماعة وإنما يؤدي الى تفرقتها ، وتشتت شملها ، وذهاب ريحها .

ففي سيرة الزير سالم يلتقي الشر الخارجي المتمثل في سعاد الشاعرة ، مع شر داخلي ، اتخذ ينمورودا وريدا بين ابني العمومة بكر ، وتغلب ، أو بين جساس ، وكليب ، رغم ما بينهما من رحم ، وصلة نسب ، نغذية عصبية ضيقة ، انتهت بأن اتاحت الفرصة لعوامل الشر الخارجية أن تفعل فعلها ، وأن تحقق غرضها ، لتتقلب الذات العامة على نفسها ، في حرب ضروس ، جعلت جماعهم القتل جبلا .

وفي السيرة الملالية لاحظ الأستاذ الدكتور عبدالحمد يونس « أن جموع بني هلال تحركهم عصبية تقوى وتشد اذا تعرضت الجماعة الكبيرة لعدو مشترك أو نزلت بهم جائحة ماحقة ، وعصبية خاصة تستشري كلما اطمأنوا الى الخير »^(١١).

والحقيقة ان السير جميعا ، قد وقفت طويلا أمام المصيبة والتعصب ، باعتبارهما شرا معنويا ، وجعلتهما أكثر أنواع الشر تأثيرا في حياة الفرد ، والجماعة ، فهما من ناحية ضد الدين ، الذي لا يفرق بين الناس تبعا لاصولهم أو جاههم أو ثرواتهم ، وهما من ناحية أخرى ضد النزوع القوي الى الوحدة ، ذلك الاتجاه الذي نراه واضحا جليا في كل السير الشعبية تقريبا .

وربما كانت السيرة الملالية أكثر السير العربية تركيزا على هذا الجانب ، فالصراع في الملالية يقوم على محورين ، محور يجعل جموع الملالية في مواجهة الزناتة ، أو (الذات العامة) في مواجهة (الذات الخاصة) . ويسير موازيا لهذا المحور محور لا يقل أهمية عنه ، بل لعله يفوقه تأثيرا وخطورة ، هو ذلك الصراع الخفي حينما ، للمعلن حينما آخر بين « أبو زيد » ، و « دياب » ، أو على وجه الدقة بين « الحسن بن سرحان » وأبو زيد ، والقاضي بدير بن فايد ، والجزارية « ووين » و « دياب » .

وقد انعكس هذا الصراع بالضرورة على جمهور هذه السيرة الذين شغفوا بها زمنا طويلا ، ومازالوا مشغوفين بها الى الآن ، إذ أن حب الجماعة الشعبية لأبي زيد نابع في حقيقته من أنه كان عنصر التوازن في السيرة ، كما كان عنصر التجميع والتوحيد . أما « دياب » ، فعل الرغم من كونه فارسا لا يشق له غبار ، ولعله كان كبا حدد شخصيته رواية السيرة ، أكثر تعبيراً عن معنى الفروسية والقوة العربية من أبي زيد ، إلا أنه كان عنصر فرقة وانقسام ، أكثر منه عنصر

(١١) د. عبدالحمد يونس : الملالية في التاريخ والأدب القصصي - دار للدراسات - القاهرة - ١٩٧٠ ، ص ١١٦ .

تجميع ووثام . . تحرك عصبية فردية ضيقة ، تعلمي من شأن النزاع الخاصة والأحقاد الصغيرة ، وتكبر من شأن الذات الفردية ، وتقدمها على الذات العامة . ولعل في قتل دياب لأبي زيد اعترافا ألياً باهزام الذات العامة ، وانحياز التوازن بين الذات الخاصة والذات العامة ، إذ يظل النصر ممكنا حيناً ، ومتحققا دائماً ، ما ظل التوازن قائماً ، فإذا اختل هذا التوازن بفعل عوامل الشر الكامنة ، داخل الفرد ، والجماعة كان ذلك وبالا عليها معا .

إن الشر في سيرة الزير سالم - على الرغم من أنه يستلزم بفعل عامل خارجي - وفي السيرة الهلالية ، لا يظهر في شكل شخصيات لها نفس الملامح والسمات الخلقية والجسدية التي نراها في الشخصيات الشريرة في السير الأخرى ، ولكنه يتمثل في مواقف وأخلاق سلوك . . أنه شر جمعي أيضا يقوم على العصبية القبلية بمعناها الضيق ، سواء كانت هذه العصبية ، عصبية عشيرة إزاء عشيرة أخرى ، تنسبان إلى نفس الأرومة ، أو عصبية قبيلة إزاء قبيلة أخرى تنسبان إلى نفس العرق ، ومن هنا تأتي خطورة هذا النوع من الشر ، وقدرته على التدمير للمعنوي والمادي .

إن الجزء الذي اقتطعناه من السيرة المدونة للزير سالم ، وهي لا تختلف كثيرا عن السيرة التي مازالت تروى إلى الآن ، بالإضافة إلى الجزء الذي أوردهنا من سيرة الظاهر بيبرس ، يوضح لنا كيف تتمكن الشخصية الشريرة ، بما تنصف به من صفات ، أن تحدث الشر ، وأن تدفع إليه .

والشر هنا ذو مفهوم محدد ، يتفق مع الثقافة الشعبية ، إذ يعني كل ما يؤدي إلى التناقض مع الحياة ، والعمل ضدها ، ولكنه يدفع في الوقت ذاته إلى استكمال أوجه القصور والنقص فيها ، وإلى تحقيق الكمال ، واستثارة الرغبة في إنجاز الأفضل والأرفع للفرد والجماعة ، وتأكيدهم للتأاليات التي يعمل على هدمها .

ويقودنا هذا إلى ملاحظة أخرى تتعلق بصورة الإنسان الشرير أو الشخصية الشريرة في السير الشعبية . والحقيقة أن هذه الصورة تكاد تكون عالمية ، لا تخص ثقافة بعينها ، أو مجتمعا بعينه ، إلا في بعض التفاصيل الصغيرة التي تؤكد السمات الأساسية ولا تتناقض معها ، وقد تكون ذات قيمة كبيرة في ثقافة ما ، ولكنها لا تكتسب نفس الأهمية في ثقافة أخرى . فعمل سبيل المثال تكاد الشخصيات الشريرة كلها في السير جميعا أن تكون من غير المسلمين ، وهي إذا أمنت بالاسلام ، فأنما يكون ذلك لاستغلال هذا العنصر العميق الجذور في المجتمعات التي احتفت بالسيرة ورويتها ، لتحقيق المآرب والأغراض الشريرة . .

إن حقبة الذي وصفته سيرة الأميرة ذات الهمة ، بأنه شيخ الضلال ، وبأنه غير صحيح الاسلام ، مفسد في الدين ، عاص لرب العالمين ، يبدو زاهدا عابدا وهو مفسد الدين ، شيطان رجيم ، لا يختلف كثيرا في هذه الناحية عن غيره من الأشرار في السيرة ذاتها كعاقبة أم الفتن ، وشو مدرس المحتال ، وزوجه شوما وولدهما ، فالجميع يوصفون بأنهم حزب الشيطان^(١٦) .

(١٦) سيرة ذات الهمة ١ ج ٤ ، ٦ ج ٤ ، ٧ ج ٤ ، ٧٦ ج ٤ .

ويختك وابنه بختيار في سيرة حمزة ، كافران ، وقمرية في سيرة سيف بن ذي يزن تتخذ الإيمان بالاسلام مستارا ووسيلة لتخدع بها الجميع ، ولا تتورع عن اظهار جوسيتها لارضاء ملك الصين طمعا في تحقيق مأربها ، وسفرديوس وسفرديوس أيضا من نسل ابليس ، وهما شيطانان وجيمان^(١٣).

أما جوان في سيرة الظاهر بيبرس فهو « خليفة ابليس النصير » ، وهو من نسل عقبة شيخ الضلال ، وهو يمحكف على الصلاة والصوم ، وإقامة شعائر الدين الاسلامي ، ولكنه في الوقت ذاته عالم من علوم ملة الروم ، سكير عريبد ، لا يتورع عن فعل المنكر والعمل ضد الاسلام والمسلمين ، بل انه يعمل أيضا ضد المسيحيين الذين يتظاهرون بأنه عالم من علماء دينهم ، كما تظاهر بأنه فقيه من فقهاء المسلمين^(١٤).

وهنا تتضح أهم سمات الشخصية الشريرة ، وأكثر ملاحظها خطورة ، ألا وهي النفاق^(١٥) الذي يشخص الضعف الانساني ، ويستغله استغلالا مدمرا على المستوى الفردي والجمعي على السواء .

ان سعاد تدخل على جساس داعية له بطول العمر ، وعلو المكانة ، والنصر ، في الوقت الذي تضمه له ولقومه الشر ، وهي تملح بكرمه وقوته ، وتعمل على استغلال هذا الكرم والاستفادة منه لتبقى أطول فترة ممكنة في حماه حتى تستطيع أن تنفذ ما امرته في نفسها ، ثم بعد أن تتمكن منه تبدأ في بذل بذور الفتنة والفساد بين أمراء بكر وتغلب ، حتى يقع بينهم ما ترجوه ، وتعمل من أجله . وتتجسج سعاد في تأليبهم على بعضهم البعض ، فيبدأ البكريون في الشكوى من معاملة التخليئين لهم ، وينسبون المعاملة السيئة التي يلقونها منهم لجور كليب وظلمه منذ أن قتل حسان اليماني^(١٦) وبذلك يتهيأ جساس لأداء المهمة التي تدفعه اليها سعاد . حتى اذا أحكمت خطتها ، وانطلقت حيلتها على الجميع ، كان هذا ايدانا بنفاذ المقدور ، اذ يقتل جساس كليباً ، وتقلب أبناء العمومة والأصهار على بعضهم البعض ، تحقياً لثأر بغض ، واحياء لعصبية مقيتة ، أكلت الأخضر واليابس ، وأنت على الأبطال وذوي القرى ، وفرت بين الأخوة ، وأورثت الأبناء حقدا دفيناً ، وأهدوت كثيرا من الدماء دونما سبب مقبول .

ولا يختلف « جوان » عن « سعاد » كثيرا ، فهو يمثال على « أيبك » ، ويوحى اليه بأنه ولي من أولياء الله الصالحين ، بعد أن دخل اليه من مدخل لا يمكن لإنسان أن ينسأه . ولا يطول به الوقت حتى يستطيع أن يندع كل من حوله ، وأن يتبوأ مكانة رفيعة في مصر ، خلال المرحلة الأولى من السيرة ، وتصبح مهمته الأولى التي استمرت معه طوال السيرة ، هي القضاء على الظاهر بيبرس ، ورغم تظاهرة بأنه محجب به ، مكبر من شأنه . فعندما تتأزم الأمور ، ويواجه المسلمون بالهزيمة ، لا يترشح « جوان » أحدا غير الظاهر بيبرس ، لكي يفرج الأزمة ، ويحقق النصر ، وهو يصر في قرارة نفسه التخلص منه ، والقضاء عليه ، ولا يتورع في سبيل ذلك عن فعل أي شيء أو التآمر مع أي عدد . والموقف التالي الذي تصوره السيرة ، يتكرر عشرات المرات . .

(١٣) سيرة سيف بن ذي يزن ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ص ٣٠٠ .

(١٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٥٩ ، ٣٤٦ ، ٤١٥ ، ٧ ص ٢٤١ ، ٣١٨ ، ٥ ص ٤٣٣ .

(١٥) انظر الفصل الخامس بالنسبة للشر في : البطل في الملاحم الشعبية العربية ، قديما وحديثا ، رسالة دكتوراه لعماد وجب البيطر - جامعة القاهرة - ١ - طبع - ص ٤٢٠ - ٤٧٩ .

(١٦) راجع الأجزاء التي أوردناها من السيرة ص ١٠ : ١ .

« فقال الملك : ومن يرد عنا هؤلاء اللثام ، فقال القاضي : لا يليق لهذا الأمر يا مولانا الا ولدكم المنصور الأمير بيرس ، فانه مسعود . فبينما هم على مثل ذلك الحال ، واذا بالأمير بيرس طالع الى الديوان ، فلما رآه الملك قال للحاج شاهين : انظر الى هذا التوفيق . ثم أن بيرس بعدما سلم ودعي للملك سلم على الوزير ، فقال له : خذ اقرأ هذا الكتاب فقرأه ، وقال له الملك : يا ولدي ان القاضي قال لنا انه لم يكسر هذه الركبة وينصرنا عليهم باذن الله الا أنت ، واني قد ارسلت اليك فماذا أنت قاتل ، قال الأمير : أنا لما ان اذن لي أمير المؤمنين ، فقال للملك : يا وزير شاهين اجعل ولدي بيرس قائد الجيش والبس الوزير ابيك معاونا له . فتجهزت العساكر والمعاليك وأمر بيرس بجمع الرجال من كل ناحية من مصر وبعد ثلاثة أيام توجه الى الملك ، وطلب منه الدعاء للمسلمين بالنصر فدعا له ، وأمره بالمسير . فخرج من مصر بجيش جرار قاصدا حلب ، أما ما كان من القاضي ، فانه بعد مسيرة الجيش ، سطر كتابا وأعطاه الى غلامه ، وقال له : سر بهذا الكتاب الى العريش وسلمه الى الملك فرنجيل فأخذه وسار الى أن وصل الى قلعة العريش ، فدخل على فرنجيل وسلمه كتاب سيده فحله وقرأه ، واذا به خطابا من جوان الى بين أيادي ولدي الملك فرنجيل اعلم يا ولدي أن بيرس قاتل ولدك ، وهو يجتاز أرضك ، بجيش قاصد حلب ، فاذا وصل اليك كتابي هذا ، فاكمن اليه حتى يجوز عن أرضك ، فحاربه وخذ بثأر ولدك ففرح اللعين ، وأعطاه رد الكتاب وظن أنه بلغ المراد . وكمن بخمسة آلاف فارس وجعل الملك ينتظر قدوم بيرس لاجل أن يأخذ منه البثا ويحلي عنه العار . »

ويتهي الأمر بالطبع بانتصار « بيرس » كل مرة ، ولا تحقق مكائده « جوان » هدفها ، ولكنه مع ذلك لا يئأس ، ولا يصيبه الملل ، ويظل ينصب الفخاخ ، ويجيك المؤامرات . وحتى بعد أن اكتشف أمره ، لم يتوقف عن استشارة العداوة ضد « بيرس » والمسلمين ، وتآليب ملوك الفرنجة ضدهم ، صادرا في ذلك كما سبق أن أشرنا عن حقد وعداوة لا يفرقان لنا أو هواة .

ويرتبط بالتناقض باعتباره رأس الشر ، وأُس الفساد ، كثير من السمات التي تؤكد هذه الصفة المقتية وتعمق من تأثيرها . وتضم السير هذه الشخصيات الشريرة بهذه السمات أحيانا بشكل مباشر ، وأحيانا بشكل غير مباشر ، « فقمريه » « تنوسل بالخداع والتناقض ، تبكي البكاء الشديد وتتمسك بالخداع الذي يلين الحديد » وهي أسكر أهل زمانها عمتالة خائنة لا تدخر وسعا ، ولا تترك وسيلة ، من أجل الوصول الى هدفها ، حتى ولو أدى الأمر بها الى استخدام انوثتها ، والاضطرب في عرضها(١٧) ، وهي تتقن فنون السحر والكهانة .

« وبختك » ، « حرثومة شر وفساد ، كيد وعناد ، يتصف بالدعاء والمكر والحسد ، لا يجب احدا ، يتقن فنون الخداع والاحتيال والغش ، وهو يعتمد أساسا في تنفيذ مآربه على الغدر والخيانة ، ولم يكن ابنه بخيار أقل شرا منه ، بل لعله يفوق آياه في حبه للشر وقدرته عليه .

ولا يختلف جوان عن غيره من الشخصيات الشريرة ، ان لم يزد عنها ، « فهو كما يقول المثل الشعبي يأكل مع

(١٧) سيرة سيف بن ذي يزن ص ١٦٩ ، ٣٤٤ ، ٣٦٠ ، ٣٧٠ .

الديب ويسرح مع الغنم ، ، أناني شديد الأنانية يرغب في دمار الجميع فلا عزيز لديه ، ويمتلك قدرة رهيبة على التنكر واستخدام السحر والكهانة ، وهو صاحب مكر وخداع ، كثير النفاق^(١٨).

وإذا نظرنا إلى الملامح الجسدية التي تميز الشخصيات الشريرة ، فلننا ملاحظ أن المرأة الشريرة لابد أن تكون جميلة جدا إذا كانت مازالت في شرخ الشباب ، وبعد جمالها أحد الوسائل التي تستخدمها لانتفاذ شرها إلى جانب السمات الخلقية الأخرى . أما إذا كانت قد تجاوزت سن الشباب ، فانها تصور كغيرها من الشخصيات الشريرة من الرجال ، قبيحة ، دميعة ، كريمة للنظر مثيرة للاشمئزاز .

« إن عقبة » دميم الخلق ، مشوه الملامح ، و « جوان » قبيح الشكل ، أبطش المنخر ، رفيع العنق ، كبير الرأس ، شنيع المنظر^(١٩).

وتتفق الشخصيات الشريرة في السر الشعبية جميعا في أنها تجسد كل ما هو قبيح وسيء ولا أخلاقي ، وتبعث على الكره والحقد وتسبب الألم والحزن ، وتوقع الحراب والدمار .

ولا يقف الأمر في السر الشعبية عند حد تجسيد الشر معنويا أو خلقيا فحسب ، بل انه يتجاوز ذلك إلى التجسيد المادي ايضا كما رأينا . فالشخصيات الشريرة تقدم بسمات جسمية ومادية متميزة ، بالإضافة إلى أسمائها التي تحمل في طياتها دلالات الشر أيضا ، كأن يكون الاسم أجنيا ، غير عربي ، أو يدل على دين يخالف دين الغالبية العظمى وهو الاسلام ، أو موصولا بصفة أخرى شريرة ، إذا كان الاسم عربيا ، أو اسلاميا .

ويختلف تجسيد الشخصيات الشريرة هنا ، عنه في الحكايات الشعبية ، إذ تبدو هذه الشخصيات في الحكايات غير عديدة الملامح أو السمات الجسدية في أغلب الأحيان ، ولكننا نستطيع أن نتعرف عليها من خلال أسماء أو صفات تحمل في طياتها الإشارة إلى السلوك الشرير الذي تصنف به ، كالغول ، والسعلوه ، والساحر ، وزوجة الأب ، وغير ذلك من الشخصيات التي تحفل بها حكاياتنا الشعبية .

إن العقلية الشعبية في صياغتها لمفاهيم الخير والشر ، وتجسيدها هذه المفاهيم تصدر - في الحقيقة - عن تصور محدد لكل من هذه المفاهيم ، وهي تجسدها في الشكل الذي يتلاءم مع نمط العلاقات السائدة في المجتمع من ناحية ، وبنية الثقافية ، وأنساقه القيمة من ناحية أخرى ، وتجعلها من المضامين ما يتناغم مع هذا كله ، حتى يتم لها إحداث التأثير المطلوب ، وتحقيق الهدف الذي يريده المجتمع . ففي مجتمع يعتقد إلى العدل ، ويستشري فيه النفاق والفساد ، وتهدر فيه القيم الانسانية العليا ، أو يحرم فيه الفرد من تحقيق ذاته ، وتحريير نفسه ، أو يشعر بالهزيمة والانكسار ، وبعوامل الضعف تنخر في عظامه ، يصبح البطل هو الذي يحقق العدل المفقود ، ويحارب الفساد الذي استشرى في جسد المجتمع ، ويقضي على النفاق والمنافقين ، ويميد للمثل العليا احترامها وقيمتها ، وهو الذي يعمل على تحرير الذات الفردية ، وصياغتها من جديد ليتلاءم مع الذات الجمعية ، وهو الذي يستثير عوامل القوة ، ويستنهض الحمم ، ويحقق النصر مع الجماعة وبها ، ويصبح الشرير بالضرورة هو النقيض لهذه المثاليات التي يمثلها أو يجسدها البطل ، ويكون في مواجهة هذه الشخصية الشريرة ، والقضاء عليها ، القضاء على كل عوامل السلب والشر التي تمثلها .

(١٨) - سيرة الظاهر بيبرس ، ج ١ ص ٥٦ ، ج ٢ ص ٣٦٠ ، ج ٣ ص ١٣٣ .

(١٩) - سيرة الظاهر بيبرس ، ج ١ ص ٥٦ .

وتؤمن العقيدة الشعبية أيضا بأنه لا يمكن أن يكون هناك خير كامل ، أو أن الإنسان يمكنه أن يعيش في خير دائم ، ذلك أن هذا لو كان ممكنا حدوثه ، لما كانت هناك حاجة الى بذل أي جهد ، ولما كانت للفضيلة أي قيمة ، ولقد فقدت الحياة معناها .

إن الشر قد ينتصر مرحليا ، سواء في السير الشعبية أو في الحكايات ، فقد ينجح الشرير في أن يأخذ مكان شخصية أخرى ، وأن يتزين بزبه ، وأن يتنكر في صورته ، مما يحقق له جزءا من خطته الشريرة في القضاء على الشخصية الأخرى التي تمثل الخير ، ولكن هذا الانتصار لا يدوم طويلا ، فإما تلبث الحيلة أن تنكشف ، وعندئذ لابد أن يلقى الشرير جزاءه .

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن انتصار الخير هنا ، أمر مقرر منذ البداية ، يعرفه الجميع ، ويتوقعونه ، ولكن هذا لا يقلل من تأثير ما يحكي ، أو الصور المتعددة التي يبدو بها عنصر الخير والشر أو الصراع الدائر بينهما ، ذلك أن هذا الصراع يقوم بوظيفة هامة لا غنى عنها ، وهي وظيفة مؤثرة إلى أبعد حدود التأثير في الوجدان الشعبي ، إذ تجعل المستمع يشارك الشخصية الخيرة - أو البطل - صراعها مع الشر وتدفعه إلى التوحد معها ، مشاركا إياها آلامها ومعاناتها ، ولحظات قلقها وتوترها ، مما ينتج لدى المستمع والمستمعين شعورا غامرا بالسعادة ، ويدفعه إلى السعي إلى تحقيق الأفضل لنفسه وللبطل ، مساعدة هذا البطل ، والقضاء على الألم ، والتخلص من المعاناة ، في حدود الاطار الفني الذي ترسمه هذه الأشكال الأدبية .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإن انتصار الخير في النهاية ، إنما يعني في جوهره هزيمة كل النقااص والعيوب التي يعاني منها الإنسان ، ويحاول جاهدا أن ينتصر عليها وأن يتخلص منها ، فنيا على الأقل ، إذا لم يكن في استطاعته أن ينتصر عليها في الحياة الواقعية ، وهو ما يستحدث دائما هذا التوازن النفسي بين ما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون ، في الثقافة الشعبية .

ومهما يكن من أمر ، فلن تكون هناك - على المستوى الفني - عقدة درامية أو حبكة أو نحو للأحداث أو الشخصيات ، دون وجود الشر والأشرار ، لما يؤديه الشر كمفهوم ، والأشرار كسلوك ، من دور في البنية الفنية للسير . ويبقى أن نشير إلى حقيقة هامة تنبئ عنها السير الشعبية العربية ، هي أن الشر إنما يزدهر ازدهارا كبيرا ، ويعمق تأثيره ، عندما يضعف الفرد ، ويتدهور حال الجماعة .

في ألف ليلة وليلة شعر ونثر ، نظم وسجع ، قول
فصبح وآخر ركيك . فيها شباب غض يؤرقه الحب
فيحطم الأغلال والقيود ، وآخر يتعذب في صمت
فيلوي ويموت . . . فيها الفقراء والبسطاء الذين
يرضون بالكفاف ، وفيها من يرفلون في الثراء ويبلغون
في المتعة والاتقاق . فيها الملائكة الأطهار ، وفيها المردة
الاضرار . . . فيها الحيلة الواقعة بحلوها ومرها ، وفيها
عالم الأحلام وجزر واق الوق . . . فيها عبيد مغلوبون
على أمسهم ، وفيها أمسياد تمتاز الأرض من
جبروتهم . . . وتضم الليالي حكاية فريدة لا تخلو من
هذا وذاك ولكننا نسمع فيها دق الطبول وصباح الغمر
وصهيل الحويل ، ونرى الفرسان يخرج من بغداد ،
مشات وآلاف ، تحف على رموسهم الأعلام وتتلاها
السيوف في أيدهم والرماح . . . انهم جنود الاسلام ،
خرجوا قاصدين بلاد الروم ، تحت أمرة شركان بن
الملك عمر النعمان . . . مائة ليلة وليلتان (حسب طبعة
بولاق)^(١) تخصصها شهر زاد لسيرة عمر النعمان الذي
« قهر الملوك الأكسرة والقياصرة » والذي كان « اذا
غضب يخرج من منخريه لمبا النار » حاكم دانت له كافة
الامصار في المشرق والمغرب ، فاضمع الجبابرة ونشرين
رعته العدل والأمان ، ملك خلف سلالة من الأبطال ،
أولهم شركان الذي قهر الشجعان وفتح الحصون
والبلدان . . . ثم ضمه المكان ، وكان مكان . . . وكل
منهم فارس مغوار متكئون له في الحرب والسلم على
السواء صولات وجولات .

هؤلاء الامراء المرموقون الذين سيلعبون دورا رائعا
خاصا في حياة الامة الاسلامية والعلاقات الودية أو العدائية

ملحمة في قالب حكاية

الملك عمر النعمان وولده شركان وولده ضوه المكان
وما جرى لهم من المجائب والغرائب
دراسة مقارنة مع ملحمة رولان الفرنسية

هيام أبراهيم

رئيس قسم اللغة الفرنسية ،
كلية الآداب - جامعة عين شمس

(١) كتاب ألف ليلة وليلة ، الطبعة الأولى ، مكتبة وصفيح الشيخ محمد لغة الهندوي ، اجادت طبعه مكتبة المكتبة بيشند .

الطبعة ٤٤ الى الطبعة ١٤٥ من بينها ثلاثين ليلة (١٠٧ - ١٣٧) تروي حكاية تابع الملوك والاميرة ضيا ، في طباعت اخرى تشمل هذه الحكاية الليالي من ٥٩ الى ١٧٣ ، مع اختلافات بسيطة لا تؤثر على المقصود العام .

بيننا وبين الدولة البيزنطية هم أبطال تلك الملحمة الاسترقابية أو الطبيعية التي تذكرنا في أكثر من موضع بالابليانة والاولديسة وملحمة رولان الفرنسية . . . « استرقابية » لأن أبطالها من علية القوم ، وعليهم يتوقف مصير قومهم شأنهم في ذلك شأن الآخرين في الابليانة ، « وطبيعية » لأنها تصور « على الطبيعة » العادات والتقاليد والمفاهيم والمشاعر . . . في اسلوب حماسي متلجج .

توحي القصة في بدايتها بمدى الود الذي يسود بين عمر النعمان وحردوب عاهل قيسارية الذي يبعث اليه هدية نفيسة من الدرر والأحجار الكريمة ، وعددا كبيرا من السراري الحسان ، من بينهن جارية رومية تدعى صفية ، أحبها عاهل بغداد الذي لم يكن له حتى ذلك الحين من الاولاد سوى شركان ، فأنجبت له صبيا وثلاثة منها ضوء المكان ونزهة الزمان .

وغير الأعوام ، وشب الصغار ، ولكن رجماً عاصفة تهدد فجأة هذا النعيم المقيم دون أن يتنبه احد لمحبتها أو يتكهن بما يمكن أن تخفيه في طياتها . ففي يوم من الأيام يأتي الى عمر النعمان رسل افريدون صاحب القسطنطينية عميلين بالهدايا ، مستجندين بعظمته ضد حاكم قيسارية . . . ويتشاور ملك بغداد مع وزيره دندان الذي ينصحه بإرسال حملة تأديبية الى قيسارية كي لا تقوى شوكة حاكمها ، ولكي يوقن الشرق والغرب أن عمر النعمان أقوى ملك على ظهر الأرض .

وتخرج الحملة من بغداد . . . وبعد مسيرة دامستواحداً وعشرين يوماً يحيط الجيش الرحال في « واد واسع الجهات كثير الأشجار والنباتات » يقع على مشارف أرض الاعداء . ويرتك شركان قواته في حي دندان ، ويتوغل بمفرده ليلاً في غابة ممتدة الاطراف كي يستكشف المكان . . . وتأخذ الأمير سنة من النوم وهو على ظهر عطيته ، ثم يستيقظ فجأة وقد توقف الجواد وأخذ يذيق الأرض بحافره كي ينبه صاحبه الى خطر يهدده . ويتطلع الفارس حوله فيجد نفسه في « مرج كأنه من مروج الجنة » ، يخترقه نهر ماء ورفراف تنمكس على صفحته الفضية أشعة القمر وظلال الأشجار ، ويحمل اليه النسيم من الشاطئ المقابل رنين اصوات ملائكية « تتحدث بالعربية » . . . ويحدق شركان النظر ، فيقف مشلولها أمام منظر عجيب : حسناء مشوقة تصارع صاحباتها وتلقي بين أرضها الواحدة تلو الأخرى . . . وتكتشف الفتيات وجود هذا الدخيل فتأمرة البطلة بالانصراف والا كان هلاكه على يديها . ولا يملك شركان الا أن يألن لها الكلام ، ويتوسل اليها أن تعطف على المقيم المسكين ، غريب الديار ، كسير القواد . . .

ولم تكن هذه الفتاة سوى ابريزة ، ابنة حردوب ملك الروم ويولوانها أدركت بذكائها اللامع ان هذا « الغريب » رجل على الشان ، فقبلت استضافته ، واكرمت وفادته ، وأفردت له جناحاً خاصاً في الدير الملكي الذي تسكنه . وسرعان ما بدأت يبينها قصة حب « عذري » ولكن على الطريقة الغربية : فالاميرة الرومية لا تعيش مسجنة الخريم ، تحت رحمة الطواشي والعبيد ، بل هي حرة طليقة تستقبل فارسها حين تشاء . . . وشركان ، رغم هيامها بها ، يظل سبعة ايام في ضيافته دون أن يقربها . . . وتكتشف ابريزة حقيقة « أسيرها » فزداد تعلقاً به ، ولكن الواشين يبلغون الملك بوجود شركان لدى ابنته فيرسل حردوب الى الدير مائة بطريق ، بالسلاح مدججين ، للقبض على علو الدين ، فتستقبلهم ابريزة سر استقبال وترفض تسليمهم اياه ، لما في ذلك من تعارض صارخ مع تقاليد الفروسية التي تدعئ لها بالولاء . . . فان شاءوا ان يأخذوه فعليهم أولاً أن يبارزوه . . . ولكن شركان يأبى الا أن ينازلهم عشرة عشرة : « ان يروزمهم الى واحد بعد واحد أجحاف بهم ، فهلا يبرزون في عشرة بعد عشرة . . . » (الميلة ٥٠) .

ويصف الراوي في خمس متابع المعركة المثيرة بين بطارقة الروم والفارس الاسمر ، وكيف « حل عليهم بقلب أقوى من الحجر إلى أن طعنهم طعن الدروس وسلب منهم العقول والنفوس » (الليلة ٥٠) .
وتصبح ابريزة مهللة وتلقي بنفسها بين ذراعي حبيبها ، وتفصح له عن سردين كان يجهل إلى ذلك الحين .
ان استنجد عامل القسطنطينية بالملك عمر النعمان ليس سوى حيلة وخديعة تمت بالاتفاق مع ملك قيسارية ، الغرض منها استدراج جيش المسلمين إلى بيزنطة فيهلك ويملك معه شركان ولي عهد عمر النعمان . وقد اتفق على ذلك الملكان انتقاما للجارية صفية . فهي في الواقع ابنة صاحب القسطنطينية ، اختطفها بعض القراصنة ثم ألتها المفادير في حريم عمر النعمان . . .

وعندما يكتشف شركان ذلك ، يقرر العودة إلى بلاده ، خاصة بعد أن وعدته ابريزة بالملحق به : « قد قلت بطارقة ابي وشاع اني تحزمت مع المسلمين فالرأي السديد انني اترك الإقامة هنا » (الليلة ٥٠) .
ولكن ابريزة لا تريد ان تدخل ببناد قبل ان تعرف ايها القوى في النزاع ، هي ام شركان ، فهي تواجه في الطريق مع رفيقاتها متخفيات في زي « مائة فارس لبوث عوايس وفي الحديد والزرذ غواطس » (الليلة ٥٠) وعندما يقترب شركان ليسد ضربة قاضية للفارس الذي ينازله يلاحظ ان غريمه « لاتبات بعازنيه » ويصبح فيه الافرنجي قاتلا « ياشركان ما هكذا تكون الفرسان ، انما هذا فعل المغلوب بالنسوان » . . . (الليلة ٥٠) .

ويدخل شركان ببناد ومعه هذا الوفد من المحاربات اللائي تذكرنا بالامازونات . ويأتي عمر النعمان لاستقبال الاميرة الجميلة ، ويفرد لها قصر فخيا ، ولكنه لا يكاد يراها حتى يقع في هواها . . . وتضطرب الامور في المملكة . . . وكيف لا وقد اصبح حريمها يضم صفية ابنة ملك القسطنطينية ، وابريزة ابنة عامل قيسارية . . . وتحاول ابريزة ان تصد عمر النعمان برفق ولكنه يتحایل عليها إلى ان ينصبها فتحمل منه . وعندما يجيئها المخاض تفر هاربة من بناد ولكنها تلقي حتفها في البلاء وهي تضع حملها . . . وتسلم جارتها مرجانة ابن سيدتها من عمر النعمان إلى جده حردوب ملك الروم الذي يسميه رومزان ، ويربيه تربية مسيحية ، ويخفي عليه أصله وحسبه .

لقد تورط إذن عمر النعمان أكثر من مرة مع بنات القياصرة وحق عليهم غسل العار ، اما بعد السيف أو بالدعاء . ونظرا لأن الروم لا طاقة لهم بحرب النعمان ، فانهم يحتالون للوصول اليه ، ويقتلونه في عقر داره بالسهم الزعاف .

ويكتشف اهل القصر ان التي اغتالته ليست سوى ام حردوب المدعو شواهي ذات الدواهي ، وانها نجحت في الهروب من الديار مصطحبة معها صفية ابنة عامل القسطنطينية .

هنا يتحول النص إلى ملحمة فعلية لا تربطه بالجو الشائع في ألف ليلة وليلة سوى عودات سريعة إلى الترنم بتأريخ الحوى ، عندما تفرق بين الاحياء مقتضيات الحرب والسياسة والطماع الحكم ، او تلك الحكايات التي يقطع بها القادة لياهم الطويلة اثناء الحصار . فاذا كان شركان قد برز لأول مرة في معارك فردية أو شبه فردية ، فنحن الآن في معمرة حرب شاملة بين الاسلام والمسيحية . لقد أعلن الجهاد بنو النعمان ، وظلوا ثلاثة أشهر يعيشون الجند ويسلحون عساكر ببناد والشام والترك والديلم والكرد بينا استعدت بلاد الروم وبعثت جيوش حردوب وافريدون ومن ورائهم « الافرنج من سائر اطرافها كالفرنسيس والنيسة ودويرنة وبنلق وجنوز وسانر عساكر بني الاصفر » (الليلة ٨٨) .

ويصف لنا الراوي الحمية والعصية التي كانت تلهب الطرفين عندما « تقابل الجيشان والتظم البحران » . . . فلما اخترق شركان الصفوف وهاج في الآلاف استولى الذعر على عساكر النصاري ، عندئذ تقدمت شواهي من ابنها حروب ونصحت مرة أخرى باللجوء الى الغدر في مقابلة الأعداء : « اعلم ايها الملك الكبير والكاهن الخطير اني اشير عليك بأمر يمجز عن تدبيره ابليس ولو استعان عليه بحزبه المتاعيس » (الليلة ٨٩) وبالفعل نرى ان دهاء هذه العجوز اقوى من السيوف ، فبعد معارك طاحنة دارت برًا وبحرا ، وشهدتها « البحر المالح » و « جبل الدخان » . . . استطاعت شواهي ، متكررة في زني عابد زاهد ، ان تدلف الى صفوف المسلمين وتكسب ثقتهم ، ثم اخذت تنقل اخبارهم الى الروم وتحيط بخططهم ، ومع ذلك فقد استمر القتال ، واخذ الموت يحصد الرقاب ، واستشهد من المسلمين المئات ، وسقط من الروم في ساحة الوضى آلاف وآلاف . . .

وأمام هذه الخسائر الفادحة في الأرواح والعتاد اضطر الفريديون ان يقترح على شركان ان يحسبوا النزاع مجازرة فردية ، حقنا للدماء . ويتحالف الفريديون على خصمه فيصاب شركان بجرح خفيف وينقل الى خيمته ، أما غصه المكان فهو يتقم في اليوم التالي لاختيه ويقتل الفريديون ، ولكن شواهي تذبح شركان اثناء نومه بخنجر مسموم ، وتجهز على حراسه ، وتقر هاربة تحت ستر الظلام .

وتستمر المعارك وحصار القسطنطينية سبع سنوات ، وهي نفس المدة التي قضاهما شارلمان في محاربة الملوك العرب في اسبانيا وحصار سراجوسة . وذلك حسب « ملحمة رولان » . ويتسرب التعب والملل الى النفوس ويمن الجميع الى الأهل والأوطان فتعود الحملة الى بغداد ، ويتفانى ضوء المكان في خلمة رعيته غفيا حزنه الدفين على ابيه واختيه ، فتضعف قواه ويؤذى عوده ويختطفه الموت وهو في زهرة العمر ، تاركا ابنه القاصر كان مكان تحت وصاية حاجب ساماني سرعان ما يطيح به وينفرد بالحكم ، وعندما يبلغ كان مكان مبلغ الرجال يعلن الثورة على هذا الحائن وينجح في استرداد ملكه بفضل معاون جند ابيه الاوفياء والوزير دندان . ثم يقرر استئناف الحرب ضد الروم ليثار لجلده وعمه . ويقع كان مكان في الاسر ، ويأمر امبراطور الروم بإعدامه هو ورفاقه . . . وعندئذ تحلث المعجزة ، اذ نرى مرجانة تقتحم القاعة وتصبح في مولاهم مخلدة لياه من أن يسفك دمه بيده . . . حينئذ ينكشف السر : إن هذا الامير الرومي ليس سوى رومزان ابن البريزة وعمر النعمان . . .

ويتعاقب الجميع ، ويأمر رومزان وابن اختيه بإحضار المجرمين الذين تسبوا في الفرقة والشقاق ويعكمان عليهم بالاعدام بما في ذلك شواهي ذات الدواهي ، اما من بقي على قيد الحياة من جماعة الروم فيعتقون الاسلام . ثم يعيش الجميع في سلام ووثام ، كما هو الحال في الف ليلة وليلة ، الى ان يأتيهم هازم اللذات ومفرق الجماعات . . .



هذا هو ملخص الرواية . فنحن إذا استثنينا منها الاستطرادات التي تحدثت عن التقاء واقتراق الاحياء ، والكاء على الغنائين ، ودهاء قطاع الطريق وما الى ذلك نستطيع أن نستخلص من النص ملحمة متكاملة الأجزاء تبدأ بعملية استئراج للقوات خارج الحدود الاقليمية للامبراطورية ، ثم تمر بطور من المبارزات الفردية او شبه الفردية ، ثم تتحول الى حرب جماعية . وبعد ان يطول حصار القسطنطينية يعود الجيش الى بغداد دون ان تنقطع المؤامرات والاستنزافات . . . واخيرا يعقد السلام بفضل الحب والاخاء .

ان هذه الحكاية من الصعب تحميد تاريخها ، غير ان الدكتور نبيلة ابراهيم في دراسة مقارنة شيقة عن « سيرة الاميرة ذات الهمه » التي تدور هي الاخرى حول الحروب العربية البيزنطية رجحت ان تكون هناك علاقة بين الحوادث التي يسردها الراوي عن عمر النعمان واسرته ، وبين هجوم مسلمة بن عبد الملك على قيسارية عام ٧٢٥-٧٢٦م^(٢) . وانطلاقا من هذا الافتراض سوف نقوم بدراستنا للبناء الفني لهذا النص مستدين الى اشهر الملاحم الغربية^(٣) التي نعت من حوادث مشابهة داوت في بلاد البحر المتوسط في تلك الحقبة ، اي في القرن الثامن الميلادي . وهذه الملحة هي « انشودة رولان » التي تروي الحروب التي شنها شارلمان على الملوك العرب في اسبانيا طوال سبع سنوات وحصاره لمدينة سراجوسة ، وانزاع رولان في معركة رونسفال عام ٧٧٨م ، ثم انتقام امبراطور الفرنجة من الاعداء والحقنة .

واهم المحاور التي نغمد الطابع الملحمي لكلا النصين هي : الشخصيات ، ثم اللغة الحماسية وما يرتبط بها من اهداف قومية أو دينية أو تعليمية ، وانخراط الصدام بين حضارتين أو عقليتين وما اثاره ذلك لدى الطرفين . اما بالنسبة للأبطال فبعضهم يظهر في صورة شبه اسطورية بينما يتميز الآخرون بأبعادهم الانسانية ؛ هذا بالإضافة الى بعض الشخصيات المتطعية ، وطائفة قليلة تضم الشخصيات الرمزية ، ونقص بالخصوص شبه الاسطورية تلك التي تبدو وكأنها بمنزلة من الزمن الذي تتابع حلقاته عادة من الميلاد الى الوفاة ؛ فنحن لا نعرف شيئا عن نشأتها وإنما نجد لها ماثلة أمامنا في صورة لا تتغير ، وقد احتلت المكان الذي خصص لكل منها ، واعتمد مسبقا للدور الذي ستؤدي^(٤) . وهذه الشخصيات هي عمر النعمان ، وابنه شركان ، والوزير دندان . أما عمر النعمان فنحن نجده منذ البداية في أوج عظيمته ، ملك مهاب الجناح ، يحظب الروم وه ، ويتقي الجميع شره ، ويخضع له العالم الاسلامي من اقاص الى اقاص . وهذه الشخصية التي يحيط بها هالة من المهابة تذكرنا بالامبراطور شارلمان الذي يتخفى الشاعر بقوته رغم سنه المتقدمة ولحيته البيضاء الكثة التي تنفل الى ما بعد ركبته واذا جلس يضعها على فخذه . . . اما شركان فترتبطه بالكونت رولان الصورة التي كان يكونها الأدب العالمي حينذاك عن البطل العسكري ، بحسناته وعيوبه : شخص عنيد جريء لا يخلو من التهور والقسوة والتعطش للدماء العدو ، كلما رآها تسيل ازداد استبسالا ، واندفع كالثور الهائج يحصد سيفه الرموس كالزهر اليباع . غير ان البطل العربي يختلف عن قرينه الفرنسي ، ففي حين نرى رولان وقد اشتد به الحنين الى بلده « فرنسا الوديعه » ويرح به الشوق الى « اودي » Aude خطيبته الجميلة ، نرى شركان لا يحلم الا بالحرب والضرب ، حتى مغامرة الحب العذري التي تتعلق اثناها بالاميرة ابريزة سرعان ما تمر دون ان تخلف اثرا في نفسه . ولا شك ان الراوي كان مدركا لذلك ، فهو يقدم لنا شركان منذ بداية الحكاية قائلا بأنه « آفة من آفات الزمان » ، ثم يعود فيسميه « بطل الزمان » ، وعندما يشتد بلاؤه في محاربة الكفار يلقبه « اسد الله » و« سيف الرحمن » . ولا غرو ان الراوي كان يحفظ في تخيلته بصورة عترة ، النموذج الأول للبطل الذي لا يستسلم ولا ينهزم والذي لا يفقد صوابه وسيطرته على نفسه الا اذا جرح احد كبرياه وكرامته . . . فما هو شركان يكاد يقتل افرديون ولكن هذا الاخير يباغته بمقولة تزي كيانه : « ان قومك ينسبك الى العيب » (البلية ١٠٢) ويقع هذا الافتراء من نفس شركان

(٢) دكتورة نبيلة ابراهيم : سيرة الاميرة ذات الهمه ، دراسة مقارنة دار النهضة العربية بيروت ، ص ١٢٠ .

(٣) من المقارنات بين قصة عمر النعمان والسير العربية والبيزنطية ، انظر المرجع السابق .

(٤) بالنسبة للمقارنة بين شخصيات الاساطير والملاحم ، انظر

وقع الصاعقة ، وقبل ان يتيق من هول الصدمة يضيف افريدون بأن قوم شركان لا يتقون فيه ، ويطلب منه ان ينظر بنفسه كيف جاءوه مسرعين ليمدوا له يد العون . . . ويستثير شركان غضبا . . . ويستدير ليتحقق من مزاعم خصمه فيسدد اليه افريدون ضربة خاطفة تصيب ذراعه ليس الا ، ولكنها كانت بداية النهاية ، ان شركان لم ينهزم بل انه مات ضحية للغدر والخيانة .

اما الوزير دندان ، العضد اليمين للملك عمر النعمان وموضع ثقته ، فهو محارب ماهر بقدر ماهو سياسي محنك ، يشترك في وضع الخطط العسكرية ، ويقود الجند ، ويحيط المؤامرات . . . الخ ، واذا نظرنا الى ملحمة رولان نجد نفس الصفات لدى البطريق الاكبر الذي يعهد شارلمان اليه بابن اخيه رولان وقرنته ، فيندفع في قتال الاعداء بحماس وشراسة مذهلة ، مما يمدو بشاعر الفرنجة ان يقول عنه مداعبا متعجبا :

« ان يد البطريق الاكبر اقلد على استخدام السيف منها على توزيع البركات » .
 « ويستطرد في مكان آخر قائلا :
 « ان عصا الاسقفية في مكان امين بين يدي البطريق » .

والشاعر يستخدم هنا كلمة crosse التي تعني بالفرنسية عصا الاسقفية وأخص البندقية (المقطوعة ١١٤) . وكما هو الحال بالنسبة لشركان نلاحظ ان شخصية الوزير دندان - رغم هذه الملامح العالية اكثر التصاقا بالبيئة العربية ، فهو يفسر الاحلام ، ويسامر الامراء ويحاول تفريغ كرتهم وقت الشدة ؛ كما انه يتحدث بارع يعرف كيف يسري عن ملكه ويغثار له من الاحاديث والروايات المسلية ما ينتمل في نفس الآن على كثير من العبر والعظات . ويجعل القول ان دندان شخصية جامعة ، أو هو مجموعة من الصفات التي يصعب أن تجتمع في انسان . . . وهذا الحكم لا سب له ولا حدود لطاقته : فهو يماصر ثلاثة أجيال دون أن يسري اليه الوهن ، نراه يرافق شركان في حملته الاولى على قيسارية ، ثم يشترك معه ومع الملك ضوء المكان في الحملة الثانية على الدولة البيزنطية وفي حصار القسطنطينية ، وبعد وفاة عمر النعمان وابناؤه يظل دندان محتفظا بكامل قواه وحيويته ، يرعى شئون الحفيد كان مكان ويعبى الرأي العام ضد الملك ساسان فيخلص البلاد من هذا المنتصب ، ثم يصاحب كان مكان من جنيد في زحفه على بلاد الروم . . . وعندما يتعرف على الملك رومان يفتح له قلبه ويحكي له مآثر اخويه وابيه . فالوزير دندان بمثابة سجل حي لكل الاحداث التي مر بها بنو النعمان ، والتي اختلط فيها تاريخ البلاد بمصر هؤلاء الامراء شأنهم في ذلك شأن الآخرين بالنسبة لبلاد الاغريق (الالفاه) .

أما من جانب الروم فأهم شخصية هي شواهي ذات الدواهي ، تلك الشخصية الخرافية التي تعتبر نموذجاً هذا لفن (البورتريه) الكاريكاتوري . فقد حرص الراوي على ان يثير لها اسبا يتمشى علما مع بشاعة شكلها وقبح خلقها . . . فإلى جانب صفات الخبيث والمكر والغدر التي تتجسد فيها ، تذكرنا هذه العجوز الشمطاء بصورة « الشيطان » كما ترد في الاساطير العالمية القديمة ، وفي كتب الاطفال . فالراوي يصفها لنا على النحو التالي : « كانت هذه الالمنية كاهنة من الكهان ومقتنة للسحر والبهتان ، عاهرة مكارة ، فاجرة غدارة ، لما قم ابخر ، وجفن احمر ، وخل اصفر ، بوجه اغشى ، وطرف اعشى ، وجسم اجرب ، وظهر احب » (الليلة ٩٣) وعندما تتحدث شواهي عن نفسها تعترف بأنها أكثر مهارة من « ابليس وقومه للماعيس » (الليلة ٨٩) .

ومن الجدير بالذكر ان الراوي يربط دائماً في ذهنه بين الشخصيات البغيضة وبين ابليس ، بين دُعامة الوجه وسره الخلق ، فيها هو يقول عن واحد من كبار البطارقة المحاربين وهو للدعولوقا بن شملوطا انه كان : « بشع المنظر ، وجهه وجه حمار وصورته صورة قرد وطلعته طلعة الرقيب وقربه اصعب من فراق الحبيب » (الليلة ٩٠) . ثم يصفه حين يتقدم لمبارزة شركان قائلا : « عليه ثوب احمر وزردي من الذهب المرصع بالجواهر ، وحمل رما له ثلاث حراب كأنه ابليس اللعين يوم الأحزاب » (الليلة ٩٠) .

فالملاحظ ان هذا (التابلوه) يسيطر عليه اللون الاحمر وهو لون الدم الذي يلتصق دائماً في الاساطير بالشخصيات التي تمثل الشر ، او تلك التي كتبت عليها اللعنة أو المحكوم عليها بالموت وبالفعل تنتهي المعركة بقتل لوقا على يد شركان ، فيهنئه اخوه ضوء المكان على ما أبلاه قائلا : « سوف تتحدث الناس جيلا بعد جيل بما صنعت باللعين لوقا عرّف الانجيل » (الليلة ٩١) .

وهذه الانماط التي تتكرر مع بعض التغيرات كلما تحدث الراوي عن « اعداء الله » انما ترتبط بعقلية العصر ، ونحن نجد أمثلة عديدة لذلك في ملحمة رولان . فالراوي العربي حريص على اختيار اسماء معبرة توحي للسامع ببشاعة العدو الذي يحقره ، وهكذا يفعل راوي الفرنجة الذي يذهب الى أبعد من ذلك ويطلق على أعدائه « الشرقيين » أسماء مختلفة لا تمت للواقع بصلة ، وهي تبدأ بمقطع « مال » mal (اي الشر) ، أو كور أو كوربيس corpus (اي البدن) مثال ذلك كورساليس ، مالبراميس ، تلكيان . . . الخ ثم يصف بعد ذلك هذه الشخصيات الكريهة (شكلا وخلقا) ، والعدو « المسلم » في نظره دائماً بحيث لقيم غدار ، أو ساحر شرير (مثل الملك كورساليس) (المقطوعة ٧١) فاذا حدث ان وجد أميراً مسلماً من المشهود لهم بالشجاعة (مثل الأمير بالاجير) لا يستطيع الا أن يتحسر لكونه غير مسيحي (المقطوعة ٧٢) .

فالراوي العربي والافرنجي يلجأان الى نفس الوسيلة ألا وهي التضخيم والتكرار لتثبيت هذه الصورة في الأذهان وإثارة الحماس بل التعصب الديني عن طريقها . ولكن هذه الشخصيات المتطابقة تبدو وكأنها نسخ خرجت من نفس القالب ، فللبالغة هنا تحقق هدف الراوي ، ولكنها تجعل الشخصيات رموزاً أكثر منها بشراً .

والى جانب الشخصيات شبه الأسطورية والنمطية توجد شخصيات أخرى تتميز بأبعادها الإنسانية من أشهرها ضوء المكان . فهذا الملك لا يقل عن اخيه شركان شجاعة ورسالة ، ولكنه خرج من إطار البطل الفريد ليعيش الحياة العادية يحلوها ومراها . ورت ضوء المكان عن أبيه الشجاعة والاقدام ، وورث عن أمه « صفية » الحكمة والاعتزان ، تعلم فن الحرب والصيد والقتص ، وعلوم الدنيا والدين ، نشأ عباً لأهل العلم رفيقاً بالفقرهه والمساكين ، ثم مرّ بتجربة روحية عميقة عندما أدى فريضة الحج وهو بعد في الرابعة عشرة من عمره ، وعاش تجربة الحاجة والفقر عندما مرض في دمشق واختطف الاعراب شقيقته فوجد نفسه غريباً وحيداً معلماً . . . فهذا البطل طهرته الآلام رفعتة الى السمو الروحي الذي يقتضه اخوه شركان . والراوي يضع الآخرين وجها لوجه كي تتضح من المقارنة ملامح كل منها . ونحن اذا انتقلنا الى ملحمة رولان نجد ان الشاعر الفرنسي يضع بدوره الى جوار رولان صديقه وشقيق خفيته أوليفيه ، وهو أيضا فارس مقدم لكنه يمثل صوت العقل الذي يبنه رولان الى مثبته تموره . . . فالراوي ، إذن ، في كلتا الملحمتين

يضع جنباً إلى جنب شخصية تمثل الشجاعة المطلقة التي تصل إلى حد التهور ، وأخرى تجمع بين الشجاعة والاعتزان ، وهو في كلتا الحالتين يعطي الأفضلية للبطل الإنساني الذي يجمع بين الأقدام والروية .



نأتي الآن إلى الشخصيات الرمزية ومعظمها شخصيات أجنبية إما بال ميلاد أو بالنشأة ؛ وأهم من تتضمنه هذه الطائفة : صفية وإيريزة ورومزان .

يقول الراوي عن صفية أنها كانت « احسن الجوارى وأجلهن وجها وأصونهم عرضاً [. . .] ذات عقل وافر وجمال باهر » (الليلة ٤٥) . وهذه الشابة التي تجمع بين الحكمة والجمال ابنة ملك القسطنطينية . ولنا أن نتساءل عما إذا كان الراوي قد اختار لها عمداً هذا الاسم نظراً لمضمونه الرمزي . فمن معالم المسيحية الشهيرة حينذاك كنيسة القديسة صوفيا التي شيدها جوستيان الأول في القسطنطينية عام ٥٣٢م . غير أن جوستيان إنما أقام هذه الكنيسة تمجيداً لمفهوم « الحكمة الأبدية » (la sophia eternelle) وهو مفهوم يوناني يعني « العلم والحكمة » وتعبّر عنه القصص الرمزية التي تصور الحكمة الالهية (ثيوسفيا Theosophie) في صورة فتاة جميلة رزينة ترتفع على العرش الالهي ، يتطلع إليها كل من يشهد الكمال بفضل التعاليم الفلسفية - الدينية .

ونحن بالطبع لا نستطيع أن نجزم بأن راوي هذه القصة كان على علم بذلك ، ولعل هذه الصورة قد انتقلت إلى القصص الرمزية الشرقية والأناشيد ذات الطابع الصوفي .

فمن المحتمل إذن أن تكون بعض هذه القصص قد وصلت إلى مسامع الراوي ، ولكن من الأكيد أنه ربط بين اسم صفية وعامل القسطنطينية واتخذ منها رمزاً للدولة البيزنطية المسيحية ، فالصراع بين عمر النعمان وإيريزة إنما بدأ بعد أن علم أفريدون أن ابنته صفية أرسلت هدية إلى عمر النعمان الذي أصبح بالتالي سيدها ومليكها . ولما تدخلت شواهي ذات الدواهي وأرجعت صفية إلى القسطنطينية تحول الصراع إلى حرب شاملة كما قدمنا ، واستمر النزاع قائماً بصور شتى إلى أن عادت صفية من جديد إلى الديار الإسلامية بعد عقد الصلح بين المسلمين ، واعتناق رومزان وذويه للإسلام . فالأميرة صفية إلى جانب دورها الرمزي الديني ، أصبحت رمزاً قومياً يشبه إلى حد ما دور الأميرة هيلينا في حرب طروادة ومكانتها في الأليفلدة .

أما إيريزة الفتاة المحاربة فهي كثر عظيم يوحى به اسمها المشتق من الأبريز . . . وهي أيضاً ابنة لأحد ملوك الروم ، وهو حاكم قيسارية ، وهي تمثل بلورها معقلاً آخر من معاليل المسيحية ، وإذا كانت صفية قد ألقت بها التقادير بين يدي عمر النعمان ، فالوضع في حالة إيريزة بخلاف ذلك : فهذه الأميرة أعجبت بالفارس شركان وأحبته ، ومن أجله تخلت من دينها وملك آبائها ، وتبعت إلى بغداد بمحض اختيارها . ولكن يبدو أن شركان كان أكثر تمسكاً للحرب منه للحب فلم يتمجبل في الاقتران بها ، وربما أنه أحجم عن ذلك عندما لاحظ ميل أبيه لها . وأياً كان الأمر فالراوي قد جعل عمر النعمان يستولي على صفية وإيريزة وهذا الاستيلاء له دلالة المعنوية والرمزية ؛ وقد أنجب عمر النعمان من صفية ضوء المكان الذي جمع خير مافي الشرق ومافي الغرب ، ومن إيريزة ورومزان^(٩) الذي يفضله مسيود السلام .

ويظهر الأمير ورومزان على مسرح الأحداث في نهاية المطاف بعد أن انتهكت « الحرب النظامية » ثم « الحرب الاستنزائية » العرب والروم على السواء ؛ فهو بمثابة مبعوث العناية الالهية الذي يظهر في المسرح الاعريقي عندما يشتد

(٩) لمرة فغاسيل أكثر من الشخصيات الهائلة لكل من إيريزة ورومزان في السير الشعبية العربية والبيزنطية ، انظر : دكتورة نيلة إبراهيم ، المرجع السابق ذكره .

تعقد الأمور ليجد حلاً خارقاً يرضى عنه الجميع . فالإمبراطور ووزان الذي لم يسبق أن حدثنا الراوي عنه يأتي فجأة ودون سابق إنذار ليقوم بهذه المهمة السامية . وهذا الأمير الذي هو ثمرة الاتحاد العارض الخاطف بين إيريزه وعمر النعمان ، أو بين المسيحية والاسلام ، يعود الى مسقط رأس آبائه وأجداده ويمتدق دينهم ، ويوفق بين بني عمومته وأخواله ، ويؤاخي بين الامبراطورية البيزنطية والأمة الاسلامية لمصلحة الإنسانية .

هذه هي الشخصيات الرئيسية التي يصف الراوي أفعالها ويورد أقوالها في لغة حماسية تعبر عن عقلية العصر والأهداف أو الاصلاح الذي ينشده . فهو يوضح لنا العلاقات التي تسود في الحياة الخاصة والعامة للأمرء والقادة ، ومن أهمها الاحترام المطلق للملك وتنفيذ أوامره ، أيّاً كانت ، في حضوره وغيابه . ويصف لنا طريقة اختيار الجند وتحضيرهم للحرب بشكل يجعلهم « كالمين العدة صابرين على الشدة » (الليلة ٤٦) وإعطاهم الأولوية للمخطط الاستراتيجي على القائد العسكري الذي يجب أن يطيعه « في كل ما يشربه عليه » (الليلة ٤٦) . كما أن وصف المعارك يتضمن دروساً مباشرة في فن الحرب : فالقائد عليه أن يبدأ بمعرفة طبيعة الأرض التي ستدور عليها المعارك ، وكيفية الاستفادة من التضاريس ، واستخدامها كتحصينات طبيعية سواء كان الأمر يتعلق بالمرتفعات أو المنخفضات أو البحار . كما يلح الراوي على ضرورة فهم ميكولوجية العدو ، وحساب التوقعات والاحتمالات ، واستغلال عنصر المباغتة والمفاجأة ، كما يحلّل من الثقة العمياء في عابري الطريق خاصة من يبالغون منهم في إظهار الورع والتقوى والزهد . . . والشاعر لا يترك فرصة دون أن يشيد بالشجاعة والأقدام ، ومواجهة الموت في ثبات ، ومجد الفروسية والشهامة ، والجهاد في سبيل الله .

وإذا كان النص في بعض الأحيان يستخدم الألفاظ أو التراكيب العامة كما هو الحال في « ألف ليلة وليلة » ، إلا أنه في كثير من المناسبات يقتبس الأقوال المأثورة وأبيات الشعر . والآيات القرآنية تتردد على لسان الراوي بصيغة تلقائية . فهو في كل معركة ، فردية كانت أم جماعية ، يحضّ المؤمنين على الاستشهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمة الحق والاسلام ، ويحقر أتباع الصليب ، غيلة الصور والتماثيل . ومن الجدير بالذكر أن ملحمة رولان تشتمل على مفاهيم ، (بل وعبارات) مماثلة : الأشادة بالشجاعة والجلالة ، والتحلير من الفرار ، وتحميد الموت في سبيل « السيدين » وهما إمبراطور الفرنجة والسيد المسيح (عليه السلام) . أما المسلمون فهم في نظر الشاعر الفرنسي « وثنيون » يعبدون الأصنام والبقرة والتنين . . . الخ . ويلهب راوي الفرنجة إلى أبعد من ذلك عندما يلجأ إلى استخدام ما يسمى بالفخاوق المسيحية فيصور الملائكة حين غيبت إلى الأرض لتحمل أرواح المسيحيين إلى الجنة ، بينما يأتي إبليس ليحصد أرواح المسلمين . . .

ويجمل القول إن قانون الحرب ومدونة سلوك المقاتلين تكاد تكون واحدة لدى الطرفين في ذلك العصر ؛ فكل طرف كان يؤمن تماماً بأنه يجارب دفاعاً عن الحق ، وأن « الحق » في جانبه ، بينما « عدوه » وثني كافر ، يتبع الباطل ، فلا بد إذن من أن يكون مصيره « النار ويش القرار » . . .



إلى جانب هذه المفاهيم الدينية والأخلاقية والمعنوية التي يعمل الراوي على تثبيتها في النفوس عن طريق السرد والتكرار المقصود وبلي أسلوب حماسي متلجج هو من سمات الملاحم ، نجد في النص دروساً وعظماً أخرى لا تتعلق

بالطعن والضرب ، وإنما ترد تباها على لسان الراوي عندما ينتقل الأبطال في أطوار حياتهم المختلفة من مكان إلى مكان ، ثم عندما يقارن الشاعر « عن غير قصد » بين الحضارات .

فالأبطال يعيشون جزءا من حياتهم في بغداد وآخر في دمشق الشام ، وهما مركزان هامان من مراكز الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت . والراوي يقدم لنا في دمشق نماذج من أعضاء الطوائف المختلفة ونشاطاتهم اليومية وتصرفاتهم ، ومنهم الوقاد ، وحارس الحمام ، والأعرابي ، وتاجر الرقيق . . . الخ . وأهم ما يبرزه الراوي عندئذ هو أن العمل الطب لا يضيع وأن المكر السوء لا يبيح إلا بأهله . كما يلمح الراوي بطريقة غير مباشرة إلى أن تعرف الأمير أحوال الرعية (تجربة ضوء المكان) عندما يعاينها فجعله أكثر قدرة على فهمها وعلى إرضاء ربه بالعدل فيها . كذلك ينتهز الراوي فرصة زواج شركان ليقدم لنا إلى جانب مياسيم الأفراح غودجا للفتاة الجنيحة المتعلمة التي تليق بالملك . (وهذا أمر سنعود إليه بعد قليل) وعندما ينتقل الراوي مع القوات إلى قيسارية أو القسطنطينية يطلق العنان للملكة الملاحظة ، وهو يتلغى عندئذ « صلعة حضارية » تجذب انتباهه إلى كل غريب ، وتجعله بعيد التفكير في بعض المفاهيم الراسخة في بيئته ، ويقمها من جديد . ومن الأشياء التي جذبت انتباه الراوي مثلا بعض نواحي الضمف لدى الأمراء الشرقيين واستغلال الفرنجة لها للتفريق بهم والتيل منهم . فالملك عمر النعمان راح ضحية تسليقه المقرط بالنساء ، والملك ضوء المكان كان شديد التعلق بأولاده الله والزاعدين القاتنين ، فتكرت شواهي في ظل زاهد وتغلغل في صفوف المسلمين إلى أن هتكت أخاه شركان . وكان الوزير ندان قد نصحه من قبل بعدم الوثوق فيه ، وهو يذكره بذلك قائلا : « ومن جلب هذه الاحزان إلا هذا الزاهد الشيطان فوالله إن قلبي نَفَر منه في الأول والآخر لأنني أعرف أن كل منتفع في الدين خبيث مكر » (الليلة ١٠) .

وفي مكان آخر يروي الشاعر العربي هزيمة القوات المسلحة في إحدى الهجمات لأن المحاربين نسوا الحرب وراحوا يبحثون عن كنز وجارية فاتنة ادعت شواهي (الزاهد) تواجدهما في أحد الأديرة ، فالشاعر العربي يسوق هذه الأمثلة التابعة عن معرفته بالواقع حوله ، أو بالأحرى لمعرفته بميول النفس البشرية ، كي يحلر المسلمين من الاندفاع على السجية ، فهذا شيء لا يليق خاصة بالأمراء . . . وكأنه يقول للسامعين انظروا إلى الفرنجة أنهم لا يفعلون فعلكم . . .

ويستمر الراوي في هذه المقارنات ، ويلجأ تارة إلى الوصف وتارة إلى الحوار لتغطية نواح حضارية شتى تستحوذ على اهتمامه بشكل خاص . فنحن مثلا نراه يصف القصر أو الدبر الذي تسكنه الأميرة إيريزه ، ثم يندلف بنا إلى داخله ليقدم لنا هلته الأميرة ويجري على لسانها حوارا شيقا يعبر عن الصورة التي ترسم في ذهن المرأة الغربية عن عالمنا الشرقي .

أما بالنسبة للقصر فهو ، حسب قول الراوي ، يقع على شاطئ بحر . ونستنتج من قوله أن الأمر يتعلق بقصر محصن من تلك القصور التي خلفتها العصور الوسطى . فما يسميه « النهر » إنما هو « البش » أو الفتاة الدائرية التي كانت تحيط بالقصر عادة كجزء من التحصينات كي تعوق تقدم العدو . أما أهل القصر وضيوهم فيعبرون هذه الفتاة على جسر متحرك . ويبدو أن الراوي كان يشاهد هذا الجسر لأول مرة لأنه يصفه بكثير من الدهشة متقمصا شخصية شركان : « جسر معمول بأخشاب من الخور وفيه بكر بسلاسل من البولاد وعليها أقفال في قلايب [. . .] فسار شركان إلى أن عدى الجسر وقد اندهش عقله عما رأى وقال في نفسه ياليت الوزير ندان كان معي في هذا المكان » (الليلة

٤٧) . وإعجاب الراوي بالمتنسة المعمارية الرومانية التي يمثلها هذا القصر لا يقل عن إعجابه بالأميرة الجميلة المفتحة صاحبة القصر . فهذه الأميرة الرومية تتحدث العربية بطلاقة ، وقد كانت معرفة اللغة والحضارة العربية والإسلامية لدى الأوروبيين في ذلك الوقت سمة من سمات الثقافة الرفيعة .

ويتخصص الراوي شخصية إريزة كي يناقش شركان في أمور تتعلق بالإسلام وتعدد الزوجات ومعاشرته . فعندما يطلب شركان من الأميرة أن تصحبه إلى بلاده ترفض الفكرة في بداية الأمر لأنها لا تود أن تصبح « ملكاً وملكاً » . والراوي إنما يشير هنا إلى قيام البعض بتفسير جزئي مغرض لبعض الآيات الكريمة التي « تجيز » تعدد الزوجات أو معاشرته .

وفي الواقع أن الراوي هنا يلجأ إلى وسيلة أدبية انتقلت إلى أوروبا في القرن الثامن عشر بعد صدور أول ترجمة فرنسية لألف ليلة وليلة (١٧٠٤ - ١٧١١) وهي التخييل وراء شخصيات أجنبية ينقد على لسانها النظام السياسي أو الاجتماعي أو يناقش باسمها بعض القضايا الحساسة . وقد استخدم هذه الوسيلة مونتسكيو في كتابه « رسائل فارسية » ، وقوتلير في قصصه ومسرحياته التي اختار لها أبطالاً شرقيين أو جعلها تدور بين ربوع الشرق . وهكذا تمكن هؤلاء المفكرون الفرنسيون من تحاشي ويلات الرقابة التي كانت تحكم على المؤلفات بالحرق وعلى المؤلفين بالسجن أو النفي إذا تعرضوا بالقدح الصريح لشيء يمس الملكية المطلقة أو الدين ورجاله .

راوي « ألف ليلة وليلة » كان إذن سباقاً في هذا المضمار . . . ولا بد وأن تنوه بأن هذه ليست المرة الوحيدة التي يتناول فيها مسألة حساسة ، خاصة في ذلك الحين ، وهي وضع المرأة في المجتمع الإسلامي . فهو يلح على ضرورة إعطاء الفتاة نفس الحقوق بالنسبة للتربية والتعليم ، كما لو كان يذكر السامعين بأن الإسلام في هذا المجال لم يفرق إطلاقاً بين الفتي والفتاة . فها نحن نرى عمر النعمان يحضر لابنته وابنه على السواء العلماء والفقهاء ، ثم نشاهد بأنفسنا الامتحان الذي يجتازه نزهة الزمان والذي تثبت فيه معرفتها لكل علوم الدنيا والدين . . . (الليلة ٦٠ - ٦٨) . ونظراً لأن هذه المثلحة من النوع الأرسطراطي أي الموجهة إلى الأمراء فالراوي يلقي على لسانها درساً للجمهور في كل فروع المعرفة ، كما أنه يوضح - عن طريق التكرار - نوع الفتاة التي تليق بالأكابر . . . إنها نزهة الزمان ، والجواري الحسان التي أهدتهن شواهي ذات الدواهي إلى الملك عمر النعمان بعد أن أحضرت من العلماء والفقهاء ، واجتازت في حضور الملك نفس الامتحان الذي أجري من قبل للأميرة نزهة الزمان . وجدير بالذكر أن الفتاة الجميلة المتعلمة التي تبرز الرجال في هذا المضمار كانت إحدى الصور التي تلجأ إليها ألف ليلة وليلة لتحقيق أحد أهدافها التعليمية .

هذا وقد أشار البروفسور اندريه ميكيل في دراسة له عن « الجارية تودد » إلى أن هذا النمط من الفتيات المتبحرات في العلوم قد انتقل إلى الأدب الإسباني في صورة فتاة يفصح مجرد سماع اسمها عن الأصل العربي لها ، ألا وهي البطلة « تيودورا la doncella Teodor »^(٦) أما « النموذج الأول » لملح هذه المرأة التي تغر بها بنات جنسها فهي بلا شك شهر زاد ، تلك الأميرة المثقفة الواعية التي أنقذت شهريار من شر نفسه ، وانتقلت الرعية من شره .

ويشيد الراوي أكثر من مرة بالمرأة المتعلمة المفتحة التي تحسن التصح للرجل : إنها صافية ، بنت ملك القسطنطينية ، وإريزة ابنة ملك قيسارية ، ونزهة الزمان ابنة صافية وعمر النعمان ، وقضى مكان ابنة نزهة الزمان . . . إنها الفتاة التي يوصحها للزواج من الأمراء ، لأنه يعلم مدى أهمية المرأة بالنسبة للمجتمع ، ومدى تأثيرها

فيه عن طريق زوجها أو ابنها . ومرة أخرى يعطي الراوي رأيا صريحا في هذا الأمر ، على لسان شخصية أجنبية أو خرافية ، وهي شخصية ملك حكيم يدعى الملك سليمان ، كان يحكم في « سالف الزمان مدينة وراء جبال أصبهان يقال لها المدينة الخفراء » . فهذا الملك يعتبر اختيار الزوجة مهمة يحاسب عليها يوم القيامة لما يترتب على ذلك بالنسبة له ولأولاده من بعده وللرعية بشكل عام عن طريق سلالته :

« اعلم أيها الوزير أن للملك إذا اشترى جارية لا يعلم حبسها ولا يعرف نسبها فهو لا يلوي خسارة أصلها حتى ينجبتها ولا شرف عنصرها حتى يتسرى بها ، فإذا حملت منه يبيء الولد منافقا ظلما سافكا للدعاء ، ويكون مثلهما مثل الأرض السيخة ، إذا زرع فيها زرع فإنه ينجث نباته ولا يحسن ثباته ويكون هذا الولد متعرضا لسخط مولاه ولا يفعل ما أمره به ولا ينجب ما عته نياه . فإنا لا أنسب في ذلك بشراء جارية أبدا » (الليلة ١٠٧) .

أليس في هذا القول تنديد صريح بنظام الاماء ؟

إن دور المرأة في هذه الملحمة لا يمكن أن نفصله عن قضية الحرب والسلام . فالجرب قد قامت منذ البداية بسبب اختلاف صفة التي اعتبرها عمر النعمان « جارية » ، وأنجب منها بهذه الصفة دون أن يتحقق من أصلها ، وكان أجدر به أن يعرف أولاً من هي كي يرداها إلى أهلها معززة مكربة . . . ثم حاولت إبريزة أن تنفي شركان عن القتال ولكن عمر النعمان تصرف معها مرة أخرى تصرفا أهوج ، فدفع حياته ثمنا لتهوره ، وجز البلاء على أولاده من بعده ، وعلت شواهي ذات الدواهي بالمرصاد لسلالة النعمان . . . وكاد حفيده كان مكان أن يلقي حتفه على يد رومزان ، ولكن الراوي جعل المرأة تتدخل في نهاية المطاف تدخلا ترضى عنه السياه ، إذ وقت بين « الاخوان - الاعداء » . . . وهذه المرأة هي مرجانة ، وصيفة إبريزة أو جاريته . . امرأة أحسنت تنشئة رومزان ، وعلمته احترام صلة الدم ، والحكم بالعدل ، فتحقن عن طريقه ، بل عن طريقها ، السلام والوثام . . .



إن هذه الحكاية تضم بين دفتيها ملحمة متكاملة ، على درجة عالية من الثراء مما يجعل من الصعب هضم كل ما فيها في مجرد مقال واحد . وقد حاولنا أن نوضح إلى أي حد تنطبق على هذا النص مواصفات نوع معين من الملاحم ، ألا وهو الملحمة الأروستقراطية أو الطبقية . فالأبطال أمراء وسادة كرام ، وهم بحكم وضعهم هذا لهم مسئولية مزدوجة ، حيال أنفسهم ، وحيال قومهم . . . ولكنهم بشر ، يخطئون ويصيبون . . . فإذا أخطأوا كان الثمن فادحا إذ يخرجون البلاء على بلادهم من بعدهم . . . وإذا أصابوا وجب على الراوي شكرهم والاشادة بهم . والشاعر في تقديمه لهم لا يتبع الأسلوب الروائي أي الواقعي . وإنما هم بين يديه أبطال ملحمة ، كل في غطه يبلغ الذروة ، وعلى اللبيب أن يستقي منهم العبرة . . . والراوي يصاحبهم في كل مكان ، مشجعا ومهللا ومكبرا . . . او واعظا ومخذرا ، يش مع الآخرين ، ويغرب مع الفرحين ، ويسجل مآثر المحاربين في حماس بدائي جميل . . . وهو يسرد حكايتهم في لغة إنشادية حية ، لا تستبعد العامية ، ولكنها تعتمد على الشعر ، والسجع ، وزين اللفظ ، وموسيقى المقاطع والحروف ، كي تستهوي السامع بجمالها فلا يمل من تكرارها . . . وبعد أن تتوقف رخي الحرب تنبئ من قبالة الشاعر الحادئ نعمات حلوة يعلها الحنين إلى السلم . . . يقول للفرقة والدمار وداعا ، ومرحبا بالأخاء والرخاء . . .



أولاً - مدخل :

إن ما قبل عن الصلة الوثيقة بين الإنسان وحضارته ، في قولهم إنه « لا إنسان بلا حضارة ، ولا حضارة بلا إنسان » ، يصدق على الفولكلور ، إذ لا مجتمع بلا فولكلور ، ولا فولكلور بلا مجتمع ، فمادة الفولكلور قديمة قدم الثقافة ، أي منذ أن تطورت لدى الإنسان القدرة على التعلم ، بمعنى الاستفادة من التجربة ، والقدرة على الترميز ، أي منذ ظهور اللغة ، التي مكنت الناس من التفاهم فيما بينهم ، كما مكنتهم من تجميع المعلومات ، وحفظها ، ونقلها من جيل إلى جيل ، وذلك إنجاز يعود إلى زمن يمكن تقديره بما يتراوح بين ثلاثة وخمسة ملايين من السنين^(١) .

وقد دونت مادة الفولكلور ، منذ بدأ عصر التدوين ، ضمن المواد الأخرى ، من مثل المواد المكتوبة على الآثار في مصر ، وفي العراق ، وغيرها وهي مواد اشتملت على الكثير من القصص ، والحرفات ، والمعتقدات ، والعادات والتقاليد ، ومن مثل ما اشتملت عليه كتب الرحالين ، والمغامرين ، والمكتشفين ، والمبشرين ، والتجار الأوربيين ، من فولكلور الأمم غير الأوروبية^(٢) . ويصدق هذا القول على مواد الفولكلور العربي ، فهي كذلك قديمة قدم المجتمعات العربية ، وهي كذلك رويت ضمن ما روى مشافة قبل عصر التدوين بالعربية ، ثم دونت ضمن ما دون من المعارف العربية ، دون أن تفرد لها مصنفات أو مخطوطات خاصة بها .

أما مصطلح « فولكلور » ، المكون من الكلمتين « فولك » بمعنى الناس أو عامة الشعب ، و « لور » بمعنى المعرفة أو الحكمة ، فقد أنشأه ، لأول مرة ، الكاتب الإنجليزي وليام جون تومز ، عندما استعمله في رسالة

الفولكلور والتراث

عبد اللطيف البرغوثي

جامعة بيرزيت

(١) كتابته ، شريف ، ملصق للغة الفولكلورية ، مركز الوثائق والأبحاث ، جامعة بيرزيت ، ص ٣ .

(٢) كتابته ، شريف ، ملصق للغة الفولكلورية ص ٤ ، وعظم ، نيل ، مدخل لدراسة الفولكلور ، جمعية أمثال الأسرة ، ١٩٧٧ ، ص ١ .

ويستدقيق النظر في الفكر الفولكلوري الأوروبي والأمريكي، يمكن أن نلاحظ أن الأوروبيين يركزون فكرهم على المقطع الأول من مصطلح « فولكلور »، وبذلك تدور مفاهيمهم حول الشعب والحياة الشعبية، بينما يركز الأمريكيون فكرهم على المقطع الثاني من ذلك المصطلح، مما يجعل مفاهيمهم تدور حول المعارف الشعبية، وللتوجهات الشعبية، والشرط في الأشياء غير المادية حتى تعتبر فولكلورية، هو أن تكون متوارثة وأن تعبر عن وجدان الشعب، وأن تكون مجهولة المؤلف أو للنشأ، أما الأشياء المادية، فإن ما هو فولكلوري منها - بالإضافة إلى الأفكار والعواطف والسلوك مما يدخل في صنعها وتزيينها واستعمالها كما ذكر قبل قليل - هو شكلها، وهو الأهم، لأنه أكثر دواما وثباتا، وأقل مقروبة للغة الفولكلورية تغيرا، ثم طريقة صنعها التقليدية، وطرق استعمالها المتوارثة^(١).

وفي هذا الخصوص، ينقل د. شريف كناعنة بتصريف عن واحد من أشهر الأنثروبولوجيين - الفولكلوريين الأمريكيين هود. ألن دنديز، قائعة تصلح حية لأهم المواد التي صار يشملها حقل الفولكلور في أيامنا هذه. وفيما يلي تلك القائمة :

حقل الفولكلور يشمل : الأساطير، الخرافات، والقصص الشعبية، والنكات، والأمثال، والحزائيز والالفاظ، والتراثيم والتعاويد، والتبريكات، واللعنات والشتائم والمسببات، والأيمان، والاجابات التقليدية للمقتنة، والمقاومة، والمعابرة، وعبارات

بحث بها إلى صحيفة « نبي أنييم » في أغسطس / آب ١٨٤٦، بتوقيع مستعار هو امبروز ميرتون، واقتراح استعمال هذا المصطلح، كاسم لحقل يشمل دراسة العادات والتقاليد، والممارسات، والخرافات، والملاحم والأمثال^(٢). لكن الاهتمام بالفولكلور كجزء مميز من باقي أجزاء الثقافة، كان قد بدأ بالظهور في الاساطير العلمية الأوروبية، منذ مطلع القرن التاسع عشر مما أدى إلى بلورة معالم الفولكلور بشكل واضح، في النصف الثاني من ذلك القرن، حينما بدأت تظهر جمعيات الفولكلور، والدوريات المتخصصة فيه، في معظم دول أوروبا أولا، ثم في الولايات المتحدة الأمريكية ثانيا. وكان المهتمون بالفولكلور في أوروبا في القرن التاسع عشر، هم قادة الفكر، والمتعلمون، وأفراد الطبقة العليا من المجتمع، وكانوا يقصرون فهمهم لحقل الفولكلور، بشكل عام، على دراسة أجزاء المتخلف من ثقافة الطبقات الجاهلة، من المجتمعات المتحضرة، في البلدان الأوروبية، وبذلك استثنوا ثقافة الطبقات العليا من المجتمعات الأوروبية، كما استثنوا ثقافات الشعوب غير الأوروبية، التي اعتبروها شعوبا متوحشة.

وخلال القرن العشرين، تطور مفهوم مصطلح « فولكلور » في أوروبا وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وفي معظم بلدان العالم الأخرى، بحيث صار يشمل الفنون الفولوية بجميع أشكالها، والموسيقى، والرقص، والمعتقدات، والعادات، والتقاليد، والمعرفة، والأفكار، والعواطف، والسلوك مما يدخل في صنع المنتجات المادية الشعبية وتزيينها واستعمالها.

(٢) الموسوعة البريطانية والموسوعة العربية المبررة، مادة فولكلور. انظر أيضا : كناعنة، ملاحم اللغة الفولكلورية، ص ٤، وملاحم صنم حداد، التراث والفولكلور، في مجلة المواقف، ص ٥٥، ٧، ٨، ٩، آب ١٩٨٥، مطبعة النهضة، القاهرة، ص ٧٥ - ٧٥.

(١) Classic, Henry, Pattern in the Material Folk Culture of the Eastern United States, University of Pennsylvania, Publications in Folklore and Folklife, 1963, pp. 1-8

الشعبية فقط ، وإنما يعني كذلك بالحفاظ على طريقة الحياة الشعبية الأمريكية ، ويعمل على إبرازها ، من منطلق أن الشعب ، والثقافة الشعبية ، لا يمكن فهم أي منها بمعزل عن حكايته ، وأغانيه ، وألحانه ، ورقصاته ، وطقوسه ، ومعتقداته ، ولغاته^(١) . ولشدة شغف كثير من الأمريكيين باكتشاف تراثهم ، فإنهم لم يبالوا كثيرا بما صدر عن المختصين ، من تمييز بين المعرفة الناجمة عن وسائل الاعلام بما فيها الصحافة وغيرها ، مما يطلقون عليه مصطلح « الموزوث العالمي » Popu- lar Lore ، وبين المعرفة التي تتدرج تحت مصطلح الفولكلور ، ولذلك فإن الجماهير الأمريكية المتعلمة ، كانت دائما رغبة في أن تدرج ضمن الفولكلور ، كل تلك المعرفة ، وتلك المواد الشائعة في معظم الولايات المتحدة ، والتي تشير إلى غمو الديمقراطية ، ويمكن أن تعزى بطريقة ما إلى الجماهير بصفة عامة . أما كون كثير من تلك المعرفة ، وتلك المواد ، خاطئا ، أو أنه وضع أصلا للاستهلاك التجاري السريع ، أو لاحداث ردود فعل سياسية معينة ، فتلك قضية لم تكن بذات أهمية لهم .

والسبب في ذلك ، أن الرواج الذي يشهده الفولكلور ، والفولكلور الكاذب ، في الولايات المتحدة ، يتناسب مباشرة مع تزايد إحساس الأمريكيين بالقومية الأمريكية ، والتأكيد على القومية يتناسب مع تنامي النفوذ الأمريكي في الشؤون العالمية ، ولأن الأمريكيين تمكنوا من فرض ثقافتهم ، وتراثهم السياسي ، على كثير من الأمم الأخرى فإنهم أحسوا

التحية ، والوداع ، والمجاملات ، والملابس الشعبية ، والرقص الشعبي ، والمسرح الشعبي ، والفن الشعبي ، والمعتقدات الشعبية ، والطب الشعبي ، والموسيقى الشعبية ، والأشعار والأغاني الشعبية* والمصطلحات ، والنشائية ، والأمثال ، والكنيات ، والألقاب الشعبية ، وأسماء الأماكن والمواقع ، والملاحم الشعبية ، وما يكتب على القبور والسيارات ، والياقظات ، والجدران ، وأغاني العلب الأطفال ، وأغاني الكبار في تلعب الأطفال والأعيان ، والرموز ، والدعاء ، والنكات العملية ، ونداءات الباعة ، وطرق الطبخ ، وأنماط التطريز ، وأنماط البيوت ، والأسوار ، وبيوت الحيوانات ، وما يقال لطرد الحيوانات أو استدعائها ، وما يقال عند العطس ، والسعال والتثؤب ، والاحتفالات الشعبية في المواسم والأعياد والمناسبات المختلفة^(٢) .

وبالطبع فإن علم الفولكلور في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، أخذ في هذا القرن العشرين مكانته إلى جانب العلوم الإنسانية الأخرى في الجامعات ، فهو يدرس كما يدرس علم الإنسان ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلى مستوى الشهادات الجامعية كافة . وليس أدل على مدى تزايد العناية بهذا العلم ، من إنشاء العشرات من الجمعيات ، والمؤسسات ، والمجلات ، المتخصصة بمجالات الفولكلور . ولعل من الجدير بالذكر ، أن أشهر إلى أن الكونغرس الأمريكي أنشأ سنة ١٩٧٦ ضمن مكتبة الكونغرس للشهرة ، مركزا باسم « مركز الحياة الشعبية الأمريكية » American Folklife Center وهو مركز لا يعني بحفظ الفنون

(٢) كتابه ، ملاحم للفولكلور ص ١١ عن :

Dundes, Alan, A Study of Folklore, Prentice Hall, Englewood cliffs N.J. 1965, P. 3

Voice, No. 11, Voice of America, October/ November, 1985, P. 4, Article by Marcia Sartwell under the title:

(١)

"America's Folk Life Alive and Well."

اليومية . ولأن اللغة الأم الفصحى ، ما عادت لغة يومية للشعوب العربية ، فإن تراثها من العصر الجاهلي الى الوقت الحاضر ، هو تراث عربي ، لكنه يقع خارج دائرة الفولكلور ، ليستقر ضمن دائرة التراث الرسمي ، بحكم أن لغته هي لغة القراءة والكتابة ، وليست لغة المشاهدة . وحتى في أيام فصاحتنا الذهبية ، فإن أدبنا ومفكرينا ميزوا بين أدب الخاصة ، المنشأ بهذه اللغة الفصحى ، وأدب العامة ، الذي لم يكن يتنحى لمستوى أدب الخاصة ، لا في لغته ، ولا في محتوياته ، ولذلك فانهم لم يدونوا منه الا القليل القليل ضمن تدوينهم لأدب الفصحى . أما المستويان الثاني والثالث ، فهما الواسطتان اللتان تتعامل بهما الشعوب العربية في مجالاتها الثقافية المختلفة ، ولذلك فهما الوعدان اللذان يحويان الفنون القولية الفولكلورية العربية ، ففي الاول منها نجد أشعارا ملحونة ، كما نجد الازجال والمواليا والقصص البنية ، وسيرة عترة بن شداد ، والزير سالم ، وسيف بن ذي يزن ، وألف ليلة وليلة ، والاميرة ذات الحمة ، وحزرة البهلوان ، والظاهر بيبرس ، وغرور شاه ، وسيرة بني هلال وتغريبهم - وجميعها سير وملاحم شعبية ، كانت الشعوب العربية وما زالت تستمتع لها وتطرب لسماعها . وقد أطلق الجامعيون في مصر على هذه المجموعة اسم الادب العامي ، تفرقة بينها وبين المستوى اللغوي الثالث . أما المستوى الثالث ، مستوى اللغة العامة ، فهو الوعاء الأكبر الذي يحوي الادب الشعبي أي الفنون القولية للشعوب العربية ، ويقع ضمنه الشعر الشعبي ، والاغاني الشعبية بجميع ألوانها وعا يرافقها من ألحان وموسيقى ، والحكايات ، والاساطير ، والامثال ، والاقوال ، والنكت ،

يبدى ضرورة أن يفقوا هم أنفسهم على حقيقة فولكلور أنهم ، الذي وجدوا فيه - سواء كان فولكلورا أصيلا أو زائفا - تديلا لأعمال الجماعات ، ونقطة مركز تلقي فيها ولاياتها ، وأداة مكنت الخليط السكاني الاميركي من الاندماج ، ونهضت بروح العزة القومية ، وعززت روح الحنين في شعوب هذه الأمة الصناعية التي تتميز الحياة فيها بهجرة دائمة من الريف الى المدينة ، وتحل المراكز التجارية الحديثة التي تنشأ باستمرار على مثال أماكن السياحة الشعبية القديمة الصغيرة (١) .

ثانيا - الفولكلور العربي عبر العصور :

عند الحديث عن التراث العربي ، لا بد أن يقوم في الذهن تراث اللغة العربية الفصحى بأسره ، وتراث العاميات العربية ، والشعوب العربية ، أي الفولكلور العربي . والفولكلور العربي ، شأنه شأن فولكلور الشعوب الأخرى يشمل الجانبين المشار اليهما في المدخل السابق ، وهما جانبيا الفنون القولية وما يتعلق بها ويتبعها ، وجانب الفنون الشعبية المأخوذة ، من أدوات وملابس ومسكن وغير ذلك . وإذا ما التفتنا الى الجانب الاول من هذين الجانبين ، فالتنا لا مناص لنا من البدء بالحديث عن اللغة ، التي هي قوام الفنون القولية . وفي هذا الصدد ، فالتنا نجد أنفسنا أمام ثلاثة مستويات من اللغة العربية ، اصططنها أمتنا في عصورها وأقطارها المختلفة ، للتعبير عن ذاتها ، ولصياغة ثقافتها . هذه المستويات هي : اللغة العربية الفصحى للعربية ، واللغة العربية المتوسطة بين الفصحى والعامية ، والتي يمكن وصفها بأنها لغة فصحى مكسرة ، أو لغة عامية محسنة ، واللغة العامية الدارجة في الاستعمالات

(١) Coffin, Tristram P. (ed.), *Folklore in America*, Anchor Books, Doubleday and Company, Inc., Garden City, New York, Anchor Books Edition, 1975, P. XIX.

علمية ذلك المجتمع ، فانه بحكم عفويته ، وبساطته ، ومجاراته لأحداث الساعة ، يكون له النفوذ الطبيعي على جميع طبقات شعبه^(١٠) . وعلى الرغم من ذلك فإن جميع فنون هذا الأدب الشعبي ولا سيما الشعر الشعبي ترتبط بتقاليد الشعر العربي القصصي ، وأغراضه ، وأصاليه ، ومعانيه ، بل ترتبط به أكثر من ذلك في النظرة إلى الحياة ، والموقف من المجتمع والناس . وهذا الارتباط بالأدب القصصي ، أسهم في اقناعه التجانس ، والتشابه ، بين جملة ما أنتج في أدبنا العربي العامي ، على اختلاف البيئات والعصور^(١١) . ولذلك ، أدركت كثير من الأمم ، ما لهذا اللون الأخير من أثر في حياة الشعوب ، وفعالية في توجيهها وقيادتها ، فاعتنت به ، وأنشأت له المؤسسات . ولعل خير شاهد على فعاليته ، هو ذلك الدور الذي لعبه هذا الأدب الشعبي ، وتيارات الفولكلور الأخرى . في توجيه القوميات الأوروبية ، للسير على أفضل السبل التي أوصلتها إلى النهضة ، والاستقلال ، ونجدة الهوية القومية^(١٢) ، ونشر هذا الصدد ، على سبيل المثال لا الحصر ، إلى حكايات الأخوين جرم ، التي ما زالت تحمل حتى اليوم ، الحيوية والجدلة اللتين كانت تتمتع بهما وقت ظهورها ، بل انها لم تزدد خلال المائة والخمسين عاما الماضية الا تأثيرا ، فما تزال فنون الشعر ، والموسيقى ، والفن التشكيلي ، تستمد منها موضوعات آثارها^(١٣) .

والطرائف ، وكل أشكال القول الأخرى . وهذا الأدب الشعبي لم يكون منه الا النزر اليسير عبر العصور التاريخية ، وبقي شفويا في معظمه ، تداوله الناس في بيئاتهم الشعبية وما زالوا يتداولونه كذلك ، ويتوارثونه جيلا عن جيل^(١٤) . ولا عجب انه ظل حيا وحيويا على الرغم من تقلبات الأحوال والعصور ، ذلك لأن دوراته على اللسان والشفاة هو بمثابة دوران الدم في عروق الكائن الحي ، ولذلك فانه يرفض أن يمهد بحكم أنه يتغير ويتنوع ويتطور باستمرار ، لأنه تشكله ذاكرات وأناس في مواقف معينة ، وفقا لمواجههم المبدعة ، وتلبية لاحتياجاتهم الفورية . وعملية التثنية الشفوي هذه هي دم الحياة للفولكلور بعامة ، وللابد الشعبي بخاصة ، فاذا ما أوقفت تلك العملية بالطباعة أو بالتسجيل ، فإن الفولكلور يدخل حالة توقف فيها حركة حياته ، ولا تنبعث فيه الحياة من جديد الا عندما يعود للدوران الشفوي^(١٥) .

وفي الحديث عن أدب القصص وتراثها بما له من خصائص ومميزات ، لا بد من الإشارة إلى أنه يظل فوق مدارك عامة الشعب مما يضعف تفاعلهم معه ويضعف بالتالي تأثيره فيهم ، وإسهامه في تنويرهم ، لأن التنوير لا يمكن أن يحدث دون فهم وإدراك ، بخلاف ما هو الحال مع الأدب الشعبي الذي واسطته في مجتمعه هي

(٨) حلقه العناصر المشتركة في الثقافات العربية في الوطن العربي ، المجلد ١٣ - ٢٠ أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧١ ، إدارة الثقافة ، المنظمة العربية للثقافة والفنون والعلم ، ص ٤٦ - ٤٩ .

Coffin, Folklore in America, P. XIV.

(٩)

(١٠) محبس ، حيدلة ، الأدب الشعبي في جزيرة العرب ، مطبع الرياض ، ١٣٧٨ هـ ، ص ٥ .

(١١) حلقه العناصر المشتركة في الثقافات العربية في الوطن العربي ، كلمة عبدالعزيز الاحمراني ، ص ٥٠ .

(١٢) محبس ، حيدلة ، الأدب الشعبي في جزيرة العرب ، ص ٥ .

(١٣) فريدون فون دير لاين - الحكايات العراقية ، تاليفها ، مطبع خراسان ، قبةها ، ترجمة د . فتيحة إبراهيم ، طر القلم ، بيروت ، ص ٣٦ .

ما بين القرنين الميلاديين الثامن والحادي عشر، عندما انتقل هذا الكتاب إلى مصر باسم « ألف ليلة وليلة ». وراحت هذه المجموعة بعد ذلك تتزايد في مصر وسوريا، وتطور، وتكتمل، حتى اكتسبت خلال القرن الرابع عشر صيغة التأليف الغني بالمغزى، كما أنها أضيفت إليها بعد ذلك نوازل أخرى، وأساطير ومغامرات عجيبة. ولقد أسهم في تكوين « ألف ليلة وليلة » كل من الهند، وفارس، والعراق، وبلاد الشام، ومصر وبلاد الأناضول. وعلى ذلك فإن هذه المجموعة تمثل أثرا فريدا للآداب الشرقي، يتحدث الهند والشرق الاخرى بأسره من خلالها لمن يطالعها. وكثيرا ما يمكن تعديد أثر كل بلد في هذه المجموعة، فإن أصلها هندي الاطار، كما ان الفن الهندي يتمثل في فنها الذي يمزج حكاية بأخرى، ثم يمزجها معا في حكاية ثالثة، وكذلك في أسلوبها الذي يتوقف بالحكاية مرة، ثم يصلها مرة أخرى، وفي مطلع حكاياتها، واطار حكاياتها الطويلة، ويظهر أثر الفن الفارسي في أسماء الحكايات، وفي تصوير عالم الأرواح، والجن. الذين يسيطرون وحدهم على الحياة، معتمدين في ذلك على المسامحة، وغير هذه الشخصيات، مثل الشياطين، والسحرة، والاشراش عباد النار، الذين يقدمون الانسان ضحية لاله النار، ويتضح التأثير الفارسي

ونعترض فيما يلي نبذة موجزة عن « ألف ليلة وليلة »^(١٤). باعتبارها نموذجاً للفولكلور الشرق بعامة، وللغولكلور العربي بخاصة، ولما لها من مكانة على مستوى الفولكلور العالمي. ان أول من أشار إلى « ألف ليلة » من الكتاب العرب. هو علي بن الحسن المسمودي، المتوفى سنة ٣٤٦ هـ في كتابه مروج الذهب، فقال ان قصصها ترجمت أصولها عن أصل بهلوي اسمه « الهزار لسانه »، ومعناها « الألف خرافة »، ولكن الناس يقولون « ألف ليلة وليلة »، وهو يعجز حكايات هندية وفارسية. وأكد ذلك من بعد المسمودي ابن التميمي المتوفى سنة ٣٨٥ هـ، فأورد تلك المعلومات في فهرسته. ولما كان « الهزار لسانه » غير موجود، فإن البحث عن أصل « ألف ليلة وليلة » يزداد غموضاً^(١٥). وكان أول من ترجمها بتصريف كبير إلى لغة أوربية، هو الكاتب الفرنسي أنطوان جالان، عن مخطوط عربي يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أن الحكايات نفسها أقدم من ذلك القرن، لأن أصلها الفارسي « الهزار لسانه » ترجم إلى العربية في بغداد ربما في أيام هارون الرشيد في أواخر القرن الهجري الثاني، أو خلال القرن الهجري الثالث، ثم تمت هذه المجموعة من الحكايات في بغداد مرة أخرى، متخللة من الحكايات الهندية والفارسية سادحة ما، خلال الفترة

(١٤) جاء في المجموعة العربية المسماة تحت مائة « ألف ليلة وليلة » أنها مجموعة متنوعة من القصص الشعبي العربي بلغة بين القصص والقصصية يتخللها شعر مصنوع أكثره مكسور ركيك في نثر ١٢٢ مخطوطة، ونسخها المعروفة هي: كلكتا الأولى ثم يولاق الأولى ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م ثم كلكتا الثانية ثم برسلا، ولم يولاق الثانية ١٢٧٥ هـ / ١٩٠١ م ثم طبعه دار الحلال لخاصة المحلية، البصرة في الطبعة، حديثاً ومكون تاريخ. ونحن نقرأ في مقدمة طبعه دار الحلال ما خلاصته ان الشرقي « ملر » انبرى لبحث تاريخ ألف ليلة وليلة فكان أول من لعن له أنه يتكون من طبقات. وأما الشرقي فولدته بظنيرة الطبقات وصلها فغصلا وضع فيه مقياس للموازنة بين هذه الطبقات فميز كل طبقة عن الأخرى، وقسم قصص الكتاب إلى ثلاث طبقات: الأولى نواة للكتاب وتشكل القصص التي ألفت من كتاب «هزار لسانه»، والثانية القصص التي وضعت في يدها، والثالثة القصص التي أضيفت إلى الكتاب في مصر، وقال ان هناك طبقة رابعة من القصص أضيفت إلى الكتاب في مصادر متفرقة. ومن قصص الطبقة الأولى: قصة الملك شهرزاد وأبيه شه زهان، والملك جرجير، والملك الجاني، والملك المسحور، وسيف الملوك، وقمر الزمان، وأرمشير، وحياة الفرس، ومن قصص الطبقة الثانية تلك التي يرويها اسم هارون الرشيد، وأبي تراب، وأبي دامة، القصص التي تتناول حياة الجبابرة، ويجلس الاندلس والعرب وسكان الحب والدم والقصص التي تصف الحطرات البشعة كقصص المصطفي مع أبي الحسن الحراساني وقصة السليمان البحري. ومن قصص الطبقة الثالثة حكاية القزوين نور الدين وشمس الدين، ومزين بغداد، وحل بابا والأربعين حرام، وعلاء الدين، ومعروف الاسكاف، وأبي تير وأبي صير، والملك الناصر، والرجال الصليبي وزوجته الفرنسية. (في مصر الآن - صيف ١٩٨٥، مجلة بنديا القزوينيون في القرن التاسع تدور حول الكتاب المقدس).

(١٥) المجموعة العربية المسماة: مائة « ألف ليلة وليلة ».

عن الصنّاع ، والطبقة البرجوازية ، ثم عن التجار ، والعبيد ، فانها استطاعت بذلك أن تجذ لها صدى لدى جميع طبقات الشعب المصري طبقة بعد أخرى .

أما لغة ألف ليلة وليلة فتتميل الى النثر المسجوع ، وهي كثيرا ما تلائم بحق أناشيد الحب العاطفية ، التي كان عصر ازدهارها فيها بين القرن الثاني عشر والقرن الرابع عشر للميلاد ، وهو نفس العصر الذي ازدهر فيه التروبادور في الغرب ، وشعراء الحب والأغنيات الشعبية ، ازدهارا كبيرا . وكلها تعمق الانسان في حكايات ألف ليلة وليلة ، ازداد احساسا بالنفاس الروح العربية ، فالطبيعة العربية كلها تأسر قارئه هذه القصص حتى يستسلم لها وحدها عن رغبة وطواحية .

وتبقى بعد ذلك القيمة العربية الخالدة ، التي مكنت العرب من أن يخلقوا ، عن طريق فهم في الرواية ، صورا جديدة كل الجدة ، سواء من خلال الحكايات التي نشأت عندهم ، أو تلك التي أخذوها من الشعوب الأخرى ، تلك الصور التي تأسر من يطلعها بروعتها النابعة من حياة البلخ الناعمة ، وبغتها القمع المغزى ، وفكاهتها المثيرة . وليس من قبيل الصدفة أن الفرنسيين أنفسهم بادروا الى إبراز هذا الفن العربي الشرقي المتمثل في حكايات ألف ليلة وليلة لغيرهم من شعوب أوروبا ، ذلك أنهم أدركوا ما في تلك الحكايات من سحر ورقة ، ودقة مشاعر ، ورواقية مغزى ، وتصاوير غريبة^(١٦) .

ومنذ أن ترجم انتوان جالان « ألف ليلة وليلة » ، ذاعت في أوروبا ، وترجمت منه مرارا الى لغات أوروبية أخرى طوال القرن الثامن عشر . وفي آخر القرن التاسع عشر ، ترجمت عن الاصل ، وما زالت الى اليوم تتصغر لها ترجمات مصورة قاهرة ، وأهم من ترجمها بيرتون ، ولين ، وليتمان . وقد قللت الليالي بصور كثيرة ، واستغذت في تأليف القصص وبخاصة للأطفال ،

بالذات ، في حكاية الأمير أحمد والجنية ، وفي حكاية الاخت الحفود . ويرى ليمان ، أن أثر بابل يتمثل في الشياطين التي يكون نصفها انسانا ونصفها الآخر حيوانا ، وكذلك في محاولة الحصول على ماء الحياة ، وهي فكرة تعود الى ملحمة جلجامش . أما شهرة سليمان ، وخاتمه السحري ، وبساطه الطائر ، وسيطرته على الناس ، وصنوف الحيوان ، والشياطين ، فقد أكدها العرب ، بعد أن انتقلت اليهم عن طريق أثراك وسط آسيا . ويبدأ الأثر العربي يدخل الى هذه الحكايات بعد ظهور الاسلام ، فنلاحظ فيها بعض آثار الشعراء القداسي ، الذين تغشوا بالمعارك القبلية وبالبطولات والحب ، وتنتهي الى هذا العصر - عصر الفرسان البدو - حكايات الصحراء الخرافية عن حاتم الطائي ، ولا سيما قصة الملك الذي نزل عند قبر حاتم وطلب من حاتم القرى في شيء من الاستهزاء . ولم يلبث الملك حتى أغشى هناك ، فرأى حاتم في منامه يرحب به ويديع له الناقة - ناقة الملك - معتبرا بأنه لم يكن عنده غيرها ، وواعدا بأنه سيعوضه عنها ، ويقبى الملك فيجد ناقته توشك أن تموت ، فينحرها ، ويقري نفسه منها ، ثم يفاجأ بعد ذلك بقدوم ابن حاتم الطائي وقد أحضر معه عددا من النياق ، قلمها للملك ، وأبلغه أنه انما يفعل ذلك تنفيذا لطلب أبيه ، الذي أبلغه الحادثة في منامه ، ثم نجد أثر البلاط العباسي في بغداد ، ولا سيما ما يدور منه حول شخصية الخليفة هارون الرشيد ، ولا بد من التنويه بمدينة القاهرة ، وما تركته من أثر في مجموعة حكايات ألف ليلة وليلة ، والتي نلاحظ فيها توافقا مع صور شلل الناس ، الذين كانوا يشنون التسلي في مقاهي القاهرة وغيرها من البلاد المصرية . ولما كانت هذه الحكايات تتحدث أولا عن المعبوس ، والأبطال ، ثم عن الحكام ، والأمراء ، ثم

(١٦) فردريش ديرلن ، الحكايات الخرافية ، نشرها ، مطبع دارسها ، ص ٢١٤ - ٢٢٤ .

العربيات ، وتآليف نوع من القصص ، لا يستوجب أن تخترعه جماعة هو جزء من تقاليدها ، لكن العربة التي يصنعها ، والقصة التي يؤلفها شخص ليست تلك العربة ولا تلك القصة جزءا من تقاليده ، لا يمكن أن تعتبر فولكلورية^(١٩) .

وإذا ما التفتنا الى الموسيقى الشعبية والرقص الشعبي ، فالتنا سنجده أن موسيقانا الشعبية ، ما كان منها مصاحبا لأغانيها الشعبية أو لرقصنا الشعبي ، لم تلق بعد الرعاية العلمية الواجبة في جمعها ، وتسجيلها ، وتصنيفها ، ودراستها ، عل الرغم من أن أرشيفات مراكز الفنون الشعبية ، وما يشابهها من الهيئات والمؤسسات التي تهتم بالموسيقى الشعبية ، تضم الكثير من التسجيلات الصوتية لهذا التعبير الفني . ومع أن الموسيقيين المحدثين في أقطار الوطن العربي ، اهتموا باقتباس نماذج من الجمل والألحان الموسيقية الشعبية ، واستخدموها ، واستلهموها هي وبعض الآلات الموسيقية الشعبية في أعمال حديثة ، الا أن موسيقانا الشعبية هذه ، ما زالت لم توظف ، ولم تستخدم بشكل علمي كامل . وما قبل عن موسيقانا الشعبية ، ينسحب على فنون رقصنا الشعبي ، فعل الرغم من انشاء فرق شعبية في معظم أقطار الوطن العربي ، تقوم بتقديم نماذج من الرقصات والألحان والأزياء الشعبية ، الا أنه ما زالت الجهود في جمع الرقصات الشعبية العربية ، وتسجيلها ، وتحليلها ، جهودا عملية محدودة ، بالإضافة الى أنها في أحيان كثيرة ، جهود ذاتية ، لا تخضع

وكذلك المسرحيات الحديثة ، كما استلهمها الرسامون والموسيقيون . وقد عمل الباحثون على تقسيمها حسب الموطن ، ثم قسمت حسب للوضوعات ، كما فعل ليتمان في مقالته المولودة في آخر الموسوعة الاسلامية^(٢٠) . وتختلف نسخ ألف ليلة وليلة فيما ورد فيها من القصص اختلافا قليلا ويبلغ عددها في حده الأعلى مائتين وأربعا وستين حكاية ، تحكيها شهرزاد لأختها دنيزاد ، في حضرة الملك شهریار ، خلال ألف ليلة وليلة سمر^(٢١) .

أما الشق الثاني من الفولكلور ، أي الشق المادي الذي يتعلق بالأشياء المحسوسة كالثياب الشعبية الطرز ، وأدوات الموسيقى كالثبابة ، والأزفل ، والربابة ، والطبلة ، والأدوات الخاصة بالعمل كالدوات الطبخ والأكل ، وتلف الثمار ، وحصد المحاصيل . . الخ فنحن نقبل في تعريفها ما أوردها بأعلاه (المدخل)، أي أننا نعتبر شكلها وطريقة عملها وطريقة استعمالها ، والسلوك والعواطف والأذكار المرتبطة بذلك كله ، أشياء فولكلورية ، وهذا يقلنا الى القول أن مثل هذه الأشياء التي تعلم الإنسان كيف يصنعها تسمى « الثقافة المادية » . لكن الثقافة أمر عقلي منطقي مجرد ، وهي بذلك لا يمكن أن تكون مادية ، لكن للمادة يمكن أن تكون « ثقافية » بمعنى أنها تتمثل فيها تلك الجوانب من التعلم الإنساني التي تزود الراء بالخطط ، والطرق ، وبالأاسباب اللازمة لإنتاج أشياء يمكن أن ترى وتلمس . وفي ضوء هذا فإن صنع نوع من

(١٩) للموسوعة العربية للسيرة . مادة : ألف ليلة وليلة .

(٢٠) معادل ، فارس . التهدي في اللغة ، ط ٢٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٥ . مادة : ألف ليلة وليلة . انظر أيضا :

Bettelheim, Bruno: The Uses of Enchantment—

The Meaning and Importance of Fairy Tales.

Vintage Books, A Division of Random House, New York, 1976, PP. 83-91.

Glassie, Henry, Pattern in the Material Folk Culture of the Eastern United States, PP. 2-5.

يستطيعوا... بعد... أن ينظروا إلى الأدب على أنه غاية تطلب لنفسها ، وإنما الأدب عندهم وسيلة إلى الدين ... وهذا الأدب الشعبي - وإن فسدت لغته - حي قوي له قيمته المتنازعة ، من حيث أنه مرآة صافية لحياة متنجية^(٢١) .

والحق أن المثقفين العرب ، كما يقول الدكتور عبدالعزيز الاهواني ، كانوا إلى وقت قريب يعرضون عن دراسة الآداب العلمية في الوطن العربي ، ولا يشجعون على جمع هذا التراث الشعبي والعناية به ، بل لعلمهم كانوا أقرب إلى أن يسيؤوا والظن بأية جهود تبذل في هذا السبيل . وكان مصدر إعراضهم أهم يخشون من مداممة هذه العاميات للغة العربية الفصحى ، مداممة ربما تنتهي - في تصورهم - إلى أن تصحح هذه العاميات بتطاول الزمن لغات ثقافية ، إذا عني بها الباحثون ، واهتموا بأسرها ، فتحل محل العربية الفصحى ، لتضيق الفصحى ، والقرآن ، والدين ، وتراث الأمة ، وتفقد الأمة العربية أهم عنصر بين مقومات وحدتها ، وهو عنصر اللغة . ولعل مصير اللاتينية كان يلوح بين حين وآخر ، في أذهان المثقفين العرب ، ويعمل ما يعمل من انذار بالخطر^(٢٢) .

إن ذلك التخوف على اللغة الفصحى ، وبالتالي على القرآن الكريم ، وعلى تراث اللغة العربية الفصحى بأسرها ، أمر عفا عليه الدهر ، ولم يعد ذا بال ، لأن القرآن ولغة القرآن ، أقوى وأرسخ من أن يزورها ، أو يهدمها ، أي اهتمام بلهجة عربية عامية ، هما في واقع الحال المعين الذي تستمد منه حياتها . والذي يجب أن

للمناهج العلمية الخاصة بدراسة الرقص الشعبي^(٢٣) .

وبعد أن رسمنا هذه الصورة الموجزة للفولكلور العربي بشقيه المادي وغير المادي ، يجدر بنا أن نستكمل الصورة بعرض موجز للجهود العربية التي بذلت وتبذل في مجال العناية بالفولكلور . إن الآداب والفولكلورين العرب لاحظوا أن الفولكلورين الغربيين ولا سيما الأوروبيين منهم ، لم يقصروا جهودهم على دراسة فولكلور أممهم ، بل تعلموا إلى دراسة فولكلور الشعوب الأخرى ، واختصوا الوطن العربي بنصيب وافر من جهودهم ، وقد سبقت الإشارة إلى مدى عنايتهم بقصص « ألف ليلة وليلة » وترجمتها ، ومناقشتها ، وتحليلها ، وسرت عذرى هذا الاهتمام بالفولكلور إلى الآداب والفولكلورين العرب ، فيبدووا يقبلون على دراسة فولكلور أقاليمهم ، فالفلبين يسطر مثلاً « معجم العامية في مصر والشام والمغرب » ، وهو معجم طبع في باريس عام ١٨٦٤ ، وفي القاهرة عام ١٨٧٢ ، كما ألف خليل اليازجي كتابه « معجم لغة العرب وتخريج اللغات العامية عليها » ، وقد طبع في القاهرة سنة ١٨٨٦ . ولكن إقبال العلماء والآداب العرب على دراسة فولكلور شعوبهم وآدابها الشعبية ، ظل محدوداً من حيث الحجم ، وبطبيعة حيث سرعة التقدم ، مما حمل الدكتور طه حسين على القول في كتابه « الحياة الأدبية في جزيرة العرب » :

« لسوء الحظ لا يعنى العلماء في الشرق العربي بهذا الأدب الشعبي عناية ما ، لأن لغته بعيدة عن القرآن ، وأجابه المسلمين لم

(٢٠) كمال ، صفوت ، مناهج بحث الفولكلور العربي بين الأصالة والمعاصرة ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، يناير - فبراير - مارس ١٩٧٦ ، ص ١١٠ - ١١٤ .

(٢١) جيس ، جيفال ، الأدب الشعبي في جزيرة العرب ، ص ٦ - ٨ .

(٢٢) حلقه العناصر المشتركة في الثقافات الشعبية في الوطن العربي ، ص ٥ .

الشعوب ، بهدف المحافظة على مقوماتها الفنية والفكرية ، وإبراز قدراتها الانسانية ، حتى لا تطغى « الصنعة » على « الابداع » ، وحتى لا تختفي ملكات الانسان الخلاقة خلف الكم الكبير من الانتاج الآلي . ولما كانت أشكال التعبير الفني في كل مجتمع ، هي التي توضح معالم الثقافة الشعبية ، كان لا بد من توجيه العناية الجادة لعلم الفولكلور ، لأن هذه الاشكال الابداعية ، وما تنطوي عليه من تعبيرات فنية تلافائية ، هي في صلب موضوعات هذا العلم^(٢٥) .

ومن ذلك المنطلق ذاته ، قامت منظمة اليونسكو في أواخر عام ١٩٥١ ، بدعوة جماعة من العلماء ، والخبراء ، للبحث في واقع ثقافات مختلف الأمم ، وفي العلاقات القائمة بينها آنذاك ، وأصدر أولئك الخبراء في نهاية مؤتمراتهم بياناً جاء فيه :

« للبلدان العربية تأثرت تأثراً عميقاً بالتكنولوجيا والحروب والتبدلات السياسية ، فعادات ومعتقدات الشعوب التي كانت تعيش كاسلافها تتغير الآن تغيراً سريعاً تحت تأثير ما يقع في ظروف الحياة المادية من تعديلات وتغيرات نتيجة للتأثيرات القاسمة اليها من خارج حدودها وكلما اقتبست تلك الشعوب مناهج جديدة في ميادين الزراعة والصحة والطب ، وكلما امتدت التربية الأساسية شملت شعوباً جديدة ، وكلما ملكت هذه الشعوب آلات وأساليب تقنية صناعية حديثة ، زادت حاجتها الى أن تختار بين أمرين لا ثالث لهما : فاما أن

يخشى عليه من التغير ، والانقراض ، والانحلال ، والزوال ، في ظل الظروف الراهنة المعادية ، هو ليس القرآن ، ولا لغة القرآن ، وانما هي اللهجة العربية الفلسطينية الدارجة ، التي لا وطن لها ، ولا سند ، سوى من يحملونها من أبنائها ، وهم قوم تكالبت عليهم الايام ، فجلت لهم عضة للضياع والهلاك ، وذلك بدوره يجعل لمجتمعهم عضة لأن تضيق بضيايعهم ، وتهلك هلاكهم ، اذا لم تسارع الى رصدها ، ودرسها ، وتوثيقها ، قبل أن تفوت الفرصة السانحة ، وتضيع الغاية المرموقة^(٢٦) . وبالإضافة الى ذلك ، فإن المراجعة الدقيقة لمشكلة الواقع اللغوي في الوطن العربي ، وللتطور الحضاري في عصرنا الحديث ، ولدور اللغة الثقافية في عالم اليوم - كل ذلك يثبت أن المشكلة في جوهرها ، ليست مشكلة صراع بين فصحي وعامية تقضي احدهما على الأخرى كما كان يحدث قديماً ، وانما هي مشكلة الامية لا العامية^(٢٧) .

وغني عن البيان ان الحضارة العلمية في عصرنا الحاضر ، وما تميزت به من تقدم علمي ، وتطورات تكنولوجية معقدة ، لم يقتصر تأثيرها على مس الحياة الانسانية اليومية مساً مباشراً ، وانما حملت الانسان الى آفاق الفضاء الخارجي ، مباشرة بقرب بداية عصر جديد للسفر بين عوالم النجوم والسيارات ، وفي ذلك كله ما فيه من مؤشرات خطيرة ، تتلذ بتغيرات جذرية في حياة الناس قد تهدد انسانياتهم ، وثقافتهم ، وتقلهم ، الى مرحلة يصبح فيها الانسان أقرب الى الانسان الآلي منه الى الانسان الانسان . وتحت تأثير مثل هذا الاعتبار ، ظهر اهتمام كبير بدراسة مألوفات الشعوب ، والحفاظ على الخصائص المميزة لثقافات

(٢٥) البرفوتي ، جمال الحليف ، دوران الدنيا الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، جامعة بيروت ، تحت الطبع .

(٢٦) حلقة المناصر فلتسركة في لقاوتات الشعبية في الوطن العربي ، ص ٥٥ .

(٢٧) كلمة للمرر ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، ص ٩٣٥ .

فنون الشعر الشعبي ، التي تقدمها مجالس الشعراء الشعبيين المختلفة . ان هذا جميعه يمثل خطوة عمودية في مسيرة أمنا وشعبنا العربية نحو النهوض بالفولكلور العربي ، وهي خطوة تشير الى وعي أمنا بمخاطر العصر الحالي الذي نعيشه ، وباحتمالات المستقبل القريب ، وما يستدعيه ذلك كله من عمل ذوق لا بد من القيام به في هذا المجال ، وهذه قضية عبر عنها الدكتور عبد الحميد يونس تعبيرا واضحا بقوله : « ان مواجهة العصر الحديث تقتضي ان نتصمم بتراثنا ، ولذلك كان من الضروري ان نصمم هذا التراث وأن نضيف اليه التراث الشعبي »^(٢٦) . وانسجاما مع هذا التوجه سوف تعرض هذه الورقة في فقرتها الخامسة موضوعا فولكلوريا محددًا هو جانب الادب الشعبي من الفولكلور العربي الفلسطيني .

ثالثا - الآثار الاخلاقي والجمالي للفن والموسيقى في المجتمعات العربية :

لقد أروع العرب بلغتهم منذ أن بلغت مرحلة النضج في تطورها ، وأصبحت لغة أدبية نظمت بها القصائد والمعلقات ، ودبجت بها الأمثال والحطب ، خلال القرنين اللذين سبقا ظهور الاسلام ، وهما القرنان اللذان نعرفهما باسم العصر الجاهلي الذي نشأ فيه فن « الحدا » للقوافل ، وفن العزف على الآلات الموسيقية والاقباجة البسيطة ، لرافقة الغناء بالقصائد العربية وما يصاحبها من رقص تؤديه الجوارح على أنغام تلك الاغاني والحانها ، كما نعرفه من أخبار امرئ القيس بن حجر الكندي في رحلات شبابه ، منتقلا بين البياض والواحات في شبه الجزيرة العربية خلال النصف الأول من القرن السادس الميلادي ، وكما نلاحظه بعد ذلك في

تناضل لتحافظ على قيمها التقليدية أو تخضع وتقبل القيم الاجنبية الغربية عنها»^(٢٧) .

في ضوء كل هذه المؤثرات ، وكثيرة لكل الجهود المتهمة على المستويين العالمي والعربي ، تزايد وعي شعوب العالم الثالث بعامة ، والعالم العربي بخاصة ، بأهمية الاعتناء بالفولكلور ، وبوجوب الاقبال على دراسة ما شجع الادباء والفولكلوريين العرب ، على التخلي عن خوفهم ، وعن تحفظهم ، تجاه هذا الحقل ، وعلى البدء بجمع موارده وتصنيفها ودراستها . وصارت هذه الحركة تتوسع تدريجيا فيما بين الحرين العالميتين ، ولكنه كان توسعا بطيئا يتسم بطابع الجهد الفردي أكثر منه بطابع الجهد المؤسسي المنظم . لهما منذ منتصف القرن الحالي فقد حدثت نقلة جادة في مجال الاقبال على دراسة علم الفولكلور وتدريبه وعقد الندوات ، والمؤتمرات ، واقامة للمهرجانات الخاصة به على مستوى الوطن العربي بحيث أصبحت نجد هذا العلم ، يدرس في عدد من الجامعات العربية ، وفي مقدمتها جامعة القاهرة ، وأصبحت نجد مراكز الفولكلور المتخصصة ، تنشأ في العواصم العربية الواحد تلو الآخر ، كما أننا صرنا نجد المجالات المتخصصة في هذا العلم تصدر في أكثر من بلد عربي ، كمجلة التراث الشعبي العراقية ، ومجلة « التراث والمجتمع » الفلسطينية ، بالإضافة الى الدراسات الكثيرة التي تصدر في الدوريات والمجلات العربية المختلفة ، وتلك التي تصدر كمؤلفات قائمة بذاتها ، وتلك التي تترجم عن اللغات الاجنبية ، والبرامج التي تسمح في الاناعات أو تسمع وتشاهد بفضل أجهزة التلفزيون ، وفي مقدمة تلك البرامج ما يشاهد على الشاشات الصغيرة في بلدان الخليج من

(٢٦) صالح ، رشدي . فولكلور والتنمية ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، ص ٩٤٣ - ٩٤٤ .

(٢٧) حلة المنصور المشتركة في للتورات الشعبية في الوطن العربي ، ص ١٧ .

خاصا للعود ، والى الفارابي صاحب كتاب الموسيقى الكبير وخترع القانون .

والحق ان المسلمين تركوا في فن العصور الوسطى ارثا هائلا ، مثل الذي تركه لنا العالم القديم ، وكان ارثهم ذلك فنا صليفا جاء مرآة ناصعة عن حضارتهم ، وتعبيرا رائعا عن روح العرب وروح الشعوب غير العربية التي اعتنقت الاسلام في معظم رقة العالم القديم من الهند وحدود الصين في الشرق حتى اسبانيا وجنوب فرنسا في الغرب . ولم يكف المسلمون ، عربا وغير عرب ، بوضع الالحان ودراستها ، بل تعلموا ذلك فأخذوا آلات موسيقية عديدة عن الفرس والهنود واليونان وغيرهم وحسنوها وطوروها واخترعوا جديدا عليها (٢٨) .

وكذلك أسهم فلاسفة المسلمين كالكندي والفارابي وابن سينا وصفي الدين عبدالمؤمن ، صاحب كتاب الادوار ، فوضعوا فكرهم وفلسفتهم في خلية الموسيقى والفن . وأقبلوا على دراسة كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان في الموسيقى ، وأضافوا إليها شروحا جليدة ، حتى ظهر عندهم علم الموسيقى ، وصار ينسب الى المسلمين بحق أنهم هم الذين اخترعوا النوتة الموسيقية أو السلم الموسيقي وأن تلك النوتات (Do, Re, Mi, Fa, Sol, La, Si) أخذت عن الأحرف العربية : (حال ، راه ، ميم ، فاء ، صاد ، لام ، سين) (٢٩) ، أخذها الموسيقي الإيطالي جيد فون أريغزو عام ١٠٢٦ م عن نشيد يوحنا وعن الأحرف العربية المذكورة التي وجدت مع غيرها في مقطوعات من الموسيقى اللاتينية التي ترجع الى القرن الحادي عشر الميلادي (٣٠) . وكان لهذا الدور الذي قام به الفلاسفة ،

أنخبار الثمسانة المتأخرين كالذي نقله حسان بن ثابت ، شاعر الرسول فيها بعد ، في وصف مجلس من مجالس جيلة بن الأحم . يقول حسان :

لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يفتنن بالرومية بالبرابط ، وخمسا يفتنن غناء أهل الحيرة . . وكان يقد اليه من يفتنه من العرب من مكة وغيرها . وكان اذا جلس للمشرب فرش تحت الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف القضة والذهب ، وأنى بللسك الصحيح في صحاف القضة ، وأوقد له العود الهندي إن كان شائتا ، وإن كان صافنا بطن بالثلج وأنى هو وأصحابه بأكسية صيفية ، وفي الشتاء بالفراء الفنك . ولا والله ما جلست معه يوما قط الا خلع علي ثيابه التي عليه في ذلك اليوم (٣١) .

ولا مجال في هذه الورقة للحديث عن هذا الموضوع في العصور الاسلامية ، سوى محاولة تقديم نبذة موجزة للغاية ، نرسم من ورائها الى رسم خط دقيق يربط بين ماضيها وحاضرها فيما يختص بهذا الموضوع . وتحقيقا لهذه الغاية ، نكتفي بالاشارة الى النهضة الغنائية الموسيقية في الحجاز في العصر الأموي ، وما تلقته من رعاية وتشجيع من قبل الأمويين ، وما أوزاها وزعمتها من غناء في البلاط الأموي بدمشق ، وفي بيوت الأمراء والأثرياء في مختلف المدن العربية ، وحتى في منزل عالم ورع من علماء المسلمين هو ابن حم الرسول (ص) ، عبدالله بن عباس . أما بالنسبة للعصر العباسي ، فتكتفي بالاشارة الى كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وإلى مدرسة ابراهيم الموصلي وابنه إسحاق في بغداد ، وهي المدرسة التي تخرج فيها فنانون مثل زرياب الذي أضاف وترا

(٢٨) صيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، ط ٥ ، ص ٤٣ .

(٢٩) بجاد ، عبد القيس ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٥ ، ١٩٧٢ ، الصفحات : ٣٦٨ ، ٣٧١ .

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ آخر لها :

هولكه ، زرياب ، شمس العرب تنطق على الغرب ، أثر الحضارة العربية في أوروبا ، ترجمة فاروق يعضون وكمال صوفي ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٤٩٤ .

أصبل ، وهو الذي أدى الى تنظيم حفول النغم . وكان الفيلسوف العربي الكندي هو اول من وصف ذلك في منتصف القرن التاسع الميلادي (٣٣٣) .

رابعاً- المقامات المشرقية والموشحات والأزجال الاندلسية وأثرها على التروبادور الأوروبيين :

أ- المقامات :

ان الأنواع الأدبية تتطور من عصر الى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض ، فيظهر نوع أدبي جديد لا سابقة له في الظاهر ، لكن التعمق في دراسته يكشف انه قد نشأ عن نوع آخر مغاير له ، كما في نشأة الاقصوصة عن المثل ، وكما نشأت المقامات في العصر العباسي ، على رأي د. شوقي ضيف عن فن الأراجوزة ، وما ابتنى به أصحابها في العصر الأموي عند رؤية ابن الحجاج ونظرائه ، من تعليم الناشئة والموالي ، ألفاظ اللغة العربية الغريبة ، وتراكيبها المعويصة ، فاقتران هذه الغاية التعليمية بالأراجوزة ، يلفت النظر الى نفس الغاية في المقامة عند بديع الزمان الهميري ، وإلى ما بين هذين النوعين من صلات وروابط (٣٤) .

والمقامات ضرب جديد من الكتابة تحدت معلمه على يد بديع الزمان الهمداني (٣٥٨ - ٣٩٨هـ) ، وهذه المقامات هي عبارة عن قصص قصيرة تتميز بالحركة التمثيلية ، وتلدور فيها المحاوراة بين شخصيتين هما عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندري . وتصور لنا المقامات أبا الفتح الاسكندري كواحد من الأبناء السيارين السالطين ، يطوف من مكان الى مكان ، يستجدي الناس بقصافته ويأثروا ، ويتقابل دائما مع

بوصفهم علماء موسيقى ، أثر كبير في تشجيع الموسيقيين على البحث عن أغاني الشعوب القديمة كالفرس والمغرد واليونان ودراستها وتحليلها للإفادة منها ، ومن الدراسات التي تجري عليها لترسيخ الغناء العربي والموسيقى العربية على أسس علمية مدروسة .

ولقد بقي ما كتبه ابن سينا والفارابي مرجعاً للموسيقين حتى القرن السابع عشر ، ومنها تعلم موسيقيو الغرب العلاقة بين النغمة (٥ : ٤) وهي مسافة الثالثة الكبيرة ، و (٦ : ٥) للثالثة الصغيرة ، وتطوروا من ذلك الى النغمة الهرمونية التي تأسس لها الأذان . كما ان الكونت هرنانوس كتراكوس اهتم بؤلفات الكندي الموسيقية ، ونقل عنه كتابة النوتة للموسيقى . وبقي العرب أوفياء لموسيقاهم ، وكان جيههم لموسيقى الغناء أكبر من جيههم للموسيقى الآلية ، ويزعم هذا فان أوروبا مدينة لهم بالكثير من الآلات الموسيقية التي وردت اليها بحكمة الصنع عبر اسبانيا ، حامللة معها أساليبها العربية (٣٦) مثل القانون والطبل والنقارة والقشارة والرياب والعود . ليس ذلك فحسب بل ان الغناء العربي ، والموسيقى العربية ، كان لهما اثرهما الواضح في الغناء العالمي والموسيقى العالمية وهو اثر نلمسه في غناء وموسيقى شعوب اسبانيا ، والكمسيك ، واسريكا الجنوبية ، وحتى شعوب افريقيا وآسيا (٣٧) . والألحان العربية غنية بعممة ، شأنها في ذلك شأن كل فنون الزينة العربية في البناء وفي غيره . وكان الطالع للميز للموسيقى العربية هو الإيقاع المنتظم ، يعكس موسيقى اغاني الرومان والافريق ، ويعكس موسيقى الكنائس المتتابعة في اوائل العصور الوسطى ، فالإيقاع شرقي

(٣١) هوئكة خمس للغرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩٧ - ٤٩٤ .

(٣٢) مابند ، ميدانهم ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص ٣٧٤ .

(٣٣) هوئكة ، زيلارد ، خمس لغرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩١ .

(٣٤) أغاني (ساسي) ١٩/١٤ عن : شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، طر المشرق ، مصر ، ط ٥ ، ص ٤٣ .

راوية له هو عيسى بن هشام ، الذي يروي للناس أخباره^(٣٢).

وفي أخبار بديع الزمان الهمداني ، أنه كان يحتم مقامه أي مجلسه في نيسابور بقصة من هذه القصص ، ولعله من أجل ذلك اختار لها اسم المقامات ، ومع أنه ذكر أنه صنع لربعمائة من تلك المقامات ، إلا أنه لم يصلنا منها غير نيف وخمسين تدور جميعها حول أعمال التسول والكذية* وأن كانت تتفق مع أحاديث أبي بكر محمد بن الحسين ابن دريد المتوفي سنة ٣٢١هـ في أن غايته تعليم الناشئة . والمقامات بمجموعها تصور حياة الأدباء السيارين ، الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو شخص فارسي قديم يقال أن أباه حرمه من الملك ، فقام على وجهه محترفا للكذية . ومن يطالع التهمة للثعالب ، يجد طائفة الساسانيين هذه تحتل حيزا في الحياة الأدبية في القرن المجري الرابع ، كما أنها تشبه تمام الشبه طائفة الأدبانية ، التي اشتهرت في مصر في القرن الماضي ، وتذكر المره بصورة أو بأخرى بحياة المغنين التروبادور في أوروبا حوالي تلك الفترة ذاتها^(٣٣).

وكان الجاحظ قد عرض في كتابه « البخلاء » هذه الطائفة وحيلها ، في التكسب بالأدب ، والشعر ، والفصاحة ، والبلاغة ، كما أن البيهقي (القرن المجري الرابع) تحدث عنها في كتابه « المحاسن والمساوي » . وقد اشتهر من شعراء هذه الطائفة في أيام بديع الزمان الهمداني ، الاحنف العكبري ، وأبو دلف الخرزجي . ويقول الثعالب في التهمة عن الاحنف أنه : « شاعر للكمدن وظرفهم ، ومليح الجملة

والتفصيل منهم » ثم يروي له قصيدة دالية طويلة عرض الشاعر فيها لحرفة الكذية عرضا واسعا . أما عن أبي دلف فإن الثعالب يقول : « هذا شاعر كثير الملح والطرف ، مشحون للدنية بالكذية ، خنق التسعين في الاطراب والاغتراب ، وركوب الاسفار والصعاب وضرب الحراب بالجرب ، في خدمة العلوم والاداب . . . وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده . ولما انحرف بقصيدته التي عارض بها دالية الاحنف العكبري في المناكة ، وذكر المكدين ، والتنبه على فنون حرفهم ، وأنواع رسومهم . . . اهتر ونشط لها ، وتبيح بها ، وتحفظها كلها وأجزل صلته عليها . وهي قصيدة طويلة رواها الثعالب ، وفيها ذكر أبو دلف الالفاظ الاصطلاحية لاهل الكذية ، وما كانوا يتخلونه في مشاكلهم ، أي كلامهم الذي يتكدون به ، من مصطلحات خاصة ، كما ذكر حيلهم وتقنيتهم في هذه الحيل على صور شئ ، تعرض البديع في مقاماته للكثير منها ، ولا سيما في المقامة التي سماها « المقامة الساسانية » نسبة إلى هذه الطائفة ، ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ، ان البديع نفسه كان راوية لأبي دلف ، ولذلك فلا غرابة أن يكون قد تأثر به إلى درجة كبيرة^(٣٤).

والبديع يسوق مقاماته في شكل قصص درامية صغيرة ، يمكن اعتبارها مجتمعة قصة واحدة طويلة تعبر عن أطوار مستقلة من حياة بطلها أبي الفتح الاسكتلدي ، أو عن حوادث مستقلة من أيامه . وقد صاغ البديع تلك القصص في أسلوب قصصي يشع فيه الحوار ، وحرص أن يجمع في كل مقامة طائفة من

(٣٢) ضيف ، شوقي ، العصر الجاهل ، ص ١٢

* كذبة جميعا فتن : الاستطالة وسرقة السائل للملح .

(٣٣) ضيف ، شوقي ، الفن والمقام في الشعر العربي ، طر للتحرف بمصر ، ٢٠٠ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

ومنذ تطوير بديع الزمان المجالس والأمالى إلى مقامة قصصية ، أخذ هذا اللون يقلد : قلده ابن شهيد في الأندلس في « التوايع والزوايع » حيث تقوم المجالس على مساجلة بينه وبين شياطين الشرارة القذاس . وبعد ذلك بشعاني سنوات ، ألف أبو العلاء المعري (١٠٥٧م) رسالة الغفران ، التي ساجل فيها الشعراء أنفسهم في الجنة بجرأة قوية ، وفكر مطلق . وبما أسهم في إحياء فن القلمة ، بما ألفه هو أيضاً من مقالات تجل فيها ذكوره ، وعلمه باللغة ، وملكته الشعرية ، وموهبته في اقتان السجع (٣٩) .

ب - الموشحات والأزجال :

على الرغم من أن الأندلس ظل تابعاً للمشرق العربي في مجال الشعر العربي ، إلا أنه مع ذلك استطاع أن يجلد شيئاً جليداً في الشعر ، يتجاوب إلى حد كبير مع البيئة الأندلسية ، وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم ، وهو هذه الموشحات والأزجال ، التي أحدثت موجة واسعة من الغناء والموسيقى ، وقد نشأت تلك الموجة مع زريب وغيره من مغني المشرق ومغنياته ، من أمثال فضل ، وعلم ، وقمر ، وغيرهم ، فشاع الغناء ، وشاعت الموسيقى ، وكثر اللحنون والمغنيات ، وظهرت الجوقات المختلفة ، واتصل ذلك بالشعب وبأعياده ، بل يظهر أنه اتصل بحياته دائماً في عيد وغير عيد . ونجت تأثير هذه الموجة العنيفة من الغناء ، والموسيقى ، والجوقات ، وتأثيرات مختلفة من البيئة المحلية ، ازدهرت الموشحات ، وكان المطور لها مُقَدِّم بن مَعْنَى القَبْرِي* ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني

الأساليب البلاغية المصنعة ، التي تعتمد على السجع والمحسنات البديعية الأخرى ، وأنه ليسرف في تجميل كل مقامة بأوسع طائفة ممكنة من الزخرف ، والزينة ، والتعقيد ، إلى حد يصرفه عن الموضوع إلى الأسلوب ، الذي يضي في تجميله وترصيمه مفتناً في ذلك إلى حد كان يروغ معاصريه . وقد قال ابن الطقطعي في كتابه « الفخري في الأدب السلطاني » : « إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء ، والوقوف على مذاهب النظم والنثر » . ومن يتابع البديع في مقاماته ، يحس بحق أنه ألفها لغرض التمرين على الكتابة والانشاء ، فانه يعني دائماً بالوصف ، ولا يصف شيئاً إلا راكماً فيه العبارات « ووصها رصاً » ، ليختار منها الكاتب ما يريد . وكان في الوقت ذاته ينظر لكل عبارة كأنها جوهرة ، يريد أن يضمها في عقد المقامة ، حتى تتلأل بقوة أوسع من قوة جاراتها ، وما يزال يجتال على هذه الجواهر يضمها بعضها إلى بعض ، حتى ينال استحسان سامعيه في نيسابور ، موطن الخوارزمي ، وموطن فصاحته ، وما اشتهر به من بلاغة ، وكان البديع يريد أن يصرف تلازم الخوارزمي عنه ، بما يروغهم به من هذه الأساليب المصنعة التي تراكمت في مقاماته تراكماً . وإلى جانب العناية باللفظ الغريب ، نجد البديع يعني بكثرة تضمين الشعر ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، وحشد الأمثال ، وتعقيد الجناس الذي كان أداته في تصنيع مقاماته ، التي بالغ في تصنيعها إلى حد أن الواحدة منها صارت تشبه واجهة أحد المساجد الزخرفية لعهد ، لكثرة ما شغل فيها بالتنميق والتصنيع والترصيع (٣٨) .

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(٣٩) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة الأدب العربي .

* هو في ترجمة تاريخ الشعوب الإسلامية لير وكلمان : لُقِّدِمَ بن مَعْنَى القَبْرِي ، ويقال للمريان في مجلس من ٣٦١ بغوليا : « وقد عطا في كثير من المقامات الحيدة ، بين معارف وهو تصحيح . أما عبد ابن خلدون في المقدمة ص ١١٣٨ فهو مقدم بن معارف القبري ، وهو في الموسوعة العربية الميسرة (مادة موشح) مقدم بن معارف القبري ، ونصن ترجع رواية ابن خلدون .

الأموي (٨٨٨ - ٩١٢) ، وأخذ عنه أبو عبد الله أحمد ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، لكن لم يظهر لها فيه مع المتأخرين ذكر ، بل كسدت موشحاتها ، فكان أول من برع في هذا المجال بعدهما ، عبادة القزاز ، شاعر للمعتصم بن ضمادح صاحب المزيّة (٤٠) .

وتختلف الآراء حول الأصل الذي نشأت عنه الموشحات ، فابن خلدون يرى أن الموشح كان اختراعاً أندلسياً ، فهو يقول :

« أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في تطهرهم وتهذيب مناحية وقنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأهصاناً أهصاناً ، يكثر من منها ، ومن أحاديثها المختلفة . ويسمون التصلد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأهصان وأوزانها متتالياً فيها بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات ... وتحجروا في ذلك إلى الغاية ، واستطرفه الناس جملة ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله ، وقرب طريقه . وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدّم بين معاصري القنبري (٤١) . »

أما الدكتور شوقي فيضيف فيرى أن الموشحات الأندلسية ما هي إلا تطوير لأصول سبقتها في المشرق العربي ، وهو يقول :

« ذكر ابن بسام ، أن الموشحات القديمة ، كان أكثرها على الأعراب المهلهلة غير المستعملة ، وأنهم كانوا يبنونها على مركز من اللفظ العامي

والعجمي . ولعل في هذا ما يشير صراحة ، إلى أن الموشحات فنٌ أندلسي محلي ، وأن كنا لا نؤمن بأنها نشأت من المزاجية بين الشعر العربي وضروب من الأغاني الشعبية الأندلسية ، كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين من المشرقين ، إنما نؤمن بأنها تطورت ، ثم هنالك ، للمسمطات ، والمخمسات ، التي عرفت منذ العصر العباسي الأول (٤٢) . »

والموسوعة العربية الميسرة تأخذ برأي ابن خلدون ، فتذكر أن الموشح في الموسيقى ، ظهر أول ما ظهر في الأندلس ، وأن الذي اخترعه هو مقدّم بين معاصري القنبري سنة ٩١٢ - ٩١٣ (٤٣) . ونقرأ فيها في موقع آخر أن بالإمكان القول إن النضر العربي والنضر الأسباني اللذين عاشا طويلاً يجهل كل منهما الآخر ، قد امتزجا أخيراً فوجدوا الفرصة لأدب عربي جديد كل الجلسة ، ويتجلى ذلك في شعرهم الجديد « الموشحات » . ولكن الموشح في القرن التاسع الميلادي ، هو الشكل الأندلسي الأول في الشعر ، وكان أول أمره مقطوعات متنوعة القافية ، وينتهي بخارجة ، في لغة رومانية ، تمثل ازدواج اللغة في الشعر العربي لأول مرة ، كما تمثل ازدواج الذوقين الفنيين العربي والأسباني . وظل الموشح عربياً فصيهاً ، لكن تنوعت فيه القافية ، وزيلت الخارجة . وعلى الرغم من ذبوع الموشحات وانتشارها ، واستأصاف بعض نقاد المشرق لها ، فقد ظلت نوعاً ثانوياً في الأدب العربي ، بالمقارنة مع بقية الأنواع الأدبية العربية الأخرى ، لكن أهمية هذه الموشحات تزداد لدى المشرقين اليوم ، بسبب علاقة

(٤٠) شبيب ، شوقي ، الفن وعلمه في الشعر العربي ، دار المعارف ، مصر ، ٧٥ ، ص ٥٦٦ .

(٤١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٣٧ - ١١٣٨ .

(٤٢) ابن بسام ، الذخيرة ٢/٢ ، عن شوقي شبيب ، الفن وعلمه في الشعر العربي ، ص ٥٤٧ .

(٤٣) الموسوعة العربية الميسرة ، مقالة موشح .

ينقسم الموشح إلى :

١ - المطلع ويسمى المذهب والعنن ويضم بيتاً أو اثنين .

٢ - الدور أو السط .

٣ - الفقرة أو القفل وعائل قوافي المطلع ، وتتوزع قوافي بقية الأقسام وعدد أبياتها .

والدور قد يكون من شطرين على هيئة بيت من الشعر ، وقد يكون أربعة أشطر أو خمسة أو أكثر ، وأقصى أدوار الموشح سبعة ، وقد يزداد عليها دور يسمونه دور اللديح . فالدور الأول هو مذهب اللحن ، والثاني قد يكون على نظم وقافية الدور الأول فيسمى « سلسلة » ، وقد يختم اللحن بما يلي السلسلة بدور من جنس المذهب يسمى « الفقرة » . وتسميته بالموشح ترجع إلى أن صياغته اللحنية في أواخره ، متصلة النغم والإيقاع في أدوار عظمى ، فيتصل لحن الحانها بلحن المذهب في دور واحد ، أو يتصل لحن السلسلة بالمذهب ثم يختم بالفترة في دور أعظم ، فهو بذلك شبيه بالوشاح الذي يتوشح به فيتصل طرفاه أحدهما بالآخر في دائرة واحدة^(٤٧) . ويرى ابن خلدون أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسهلته وتيسر كلامه ، وترصيع أجزائه ، تسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً . واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، والتزموا بالنظم فيه على مناهجهم فحلوا فيه بالغرالب واتسع فيه لليلة مجال بحسب لغتهم المستجمعة . وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قُرْمان ، وإن كانت قبلت قبلة بالأندلس ، لكن لم يظهر حلالها ، ولا انسكبت

الشعر الشعبي الأسباني بأوليات الشعر الأوروبي عند الشعراء الجوالين « التروبادور »^(٤٨) .

ويرى عدد من المستشرقين ، أن فن الموشحات نشأ في الأندلس ، على أيدي جيل من الشعراء المولدين فيها ، ممن امتزج الدم العربي والأسباني في عروقهم ، وانصهرت الثقافتان العربية والأسبانية في حياتهم ، وأنه عن هؤلاء انتقل هذا الفن إلى أوروبا . وبهذا المعنى نفراً في بروكلمان ، أن نفوذ المولدين الأندلسيين الجدد ، ذوي الأصل الأسباني ، كان عظيمياً ، إلى درجة ساعدتهم على أن يكون لهم تأثيرهم في حقل الأدب أيضاً ، ففي بلاط الأمير عبد الله بن محمد الأسوي (٨٨٨ - ٩١٢) اجترأ الشاعر الأعمى المُقَدِّم بن معلى القُبري ، على تحطيم وحدة الشكل الرتيبة ، التي تمتاز بها القصيدة ، وتحزنتها إلى أسماط متعددة . والحق أنه اصطنع في ذلك اللغة العامية تخلخلها العناصر الأسبانية ، ومن هنا نستطيع أن نفترض أنه قد أسلوب الشعر الأسباني من حيث تعدد الأسماط والأجزاء ، أيضاً . ونجح هذا التجديد لشعبي نجاحاً عظيماً ، حتى لقد فرغ لمحاوسته نفر من جلة العلماء من مثل ابن عبد وبه . . . ومن مثل الرمادي^(٤٩) .

ونقرأ كذلك في كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » أنه عن طريق المغنين الدائمى الرحال ، والسبائيا من نساء الأندلس ، بدأت النظريات العربية الأسبانية تظهر في الموسيقى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما ورت الغرب عن العرب زخرفة إلحان^(٥٠) .

وتصف لنا الموسوعة العربية الميسرة نظام الموشحات على النحو التالي :

(٤٤) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة الآداب العربي .

(٤٥) بروكلمان ، كارل ، تاريخ الشعوب الأسبانية ، ص ٣١١ - ٣١٠ .

(٤٦) هونكه ، زنفريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩٢ .

(٤٧) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة موشح .

معانيها ، واشتهرت رشاقته ، الا في زماته ، وكان لمعهد للمثمين ، وهو أمام الزجلين على الاطلاق . قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب . قال : وسعدت أبا الحسن بن جُحَظَر الأشبيلي ، أمام الزجلين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قُزَمان شيخ الصناعة (٤٨) .

ونقل لنا الدكتور شوقي ضيف الفقرة الهامة التالية من مقدمة ديوان ابن قُزَمان :

ولما اتسع في طريق الزجل باعي ، وانتقلت لشرهيه طباعي ، وصارت الأئمة فيه غَوِيً وتباسي ، وحصلت منه على مقدار لم يحصله معي زجال ، وقويت فيه قوة تغلثها الرجال عن الرجال ، عندها ائمت أصوله ، وتبينت منه فصوله ، وصغيت على الأغلب الطبع وصوبله ، وصفتيه عن المقد التي تشبهه ، وسهلت حتى لأن ملمسه ورق خشينة ، وعريته من الأعراب . . . والاصطلاحات تحريد السيف عن القرباب .

ويتلوم ابن قُزَمان بعد ذلك ، في مواقع أخرى من مقدمته ، على من سبقوه من الزجلين ، مع اعترافه بأن أشهرهم كان الأضطل بن ثَمارة ، وهو يتلوم عليهم لما كان عندهم من « معان ياردة ، وأضرار شاردة ، وألفاظ شياطينية غير ماردة » ثم لما عندهم من أعراب هو أقرب ما يكون في الزجل ، وأنتقل من إتيال الأجل (٤٩) . وإذا ما مضينا مع ابن خلدون في حديثه عن فنون الزجل ، فإنه سيخبرنا بأن الطريقة الزجلية في عصره (القرن الرابع عشر الميلادي) هي فن العاصة بالأندلس من الشعر ، وفيها نظمهم ، حتى انهم

لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر ، لكن بلنظمهم العامة ، ويسمونه الشعر الزجلي . وكان من المجيدين بهذه الطريقة في مطلع القرن الهجري الثامن ، الأديب أبو عبد الله الكوشي ، وله فيها قصيدة مطولة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر . ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر في أعرابى مزدوجة كاللوشح ، نظموا فيه بلنظم الحضرية أيضاً ، وسموه « عروض البلد » ، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس ، اسمه ابن عَمِير ، نزل بغاس ، وغنى فيها ، فاستحسن أهل فاس غناؤه ، وولعوا به ، ونظموا على طريقته ، وتركوا الأعراب الذي ليس من شأنهم ، وكثر سماعه بينهم ، واستحصل فيه كثير منهم ، ونوعوه أصنافاً إلى المزدوج ، والكازي ، والمُلغبة ، والغزل .

وفي المشرق كان لعامة ببغداد أيضاً فن من الشعر يسمىونهُ المَوَالِيَا ، تنضوي تحته فنون كثيرة يسمون منها : القُوما ، وكان وكان ، ومنه مفرد ، ومنه في بيتين ، ويسمونه « دُوَيْت » على الاختلافات المتعبرة عندهم في كل واحد منها ، وغالبها مزدوجة من أربعة أغصان . وتبعهم في ذلك أهل القاهرة ، وأثروا فيها بالغرائب ، وتبحروا فيها في أساليب البلاغة يمتضى لفتهم الحضرية ، فبجاءوا بالمعجائب (٥٠) .

ويتلقى الدكتور شوقي ضيف آراء ابن خلدون بشيء من التحفظ ، فهو يرى أننا ينبغي أن نلقى كلام ابن خلدون في نشأة الزجل ، وتأخر هذه النشأة عن نشأة فن التوشيح ، بشيء من الحذر ، إذ أن من المقول أن

(٤٨) ابن خلدون ، للغة ، ص ١١٥٤ - ١١٥٥ .

(٤٩) ضيف - شوقي ، الفن وبلاده في الشعر العربي ، ص ٤٥٤ .

(٥٠) ابن خلدون ، للغة ، ص ١١٥٧ - ١١٦٦ .

من نظمه . وهنا ، يقول بروكلمان : « تقع في حال من التضييق الكامل على جميع الأغراض الشعرية التي راجت بعدد في الغرب ، في أنثيديد الترويلودور^{٥١} والبرونزالين^{٥٢} وأغاني الجرمان القرامية . . . وأغلب السطن أن فن هؤلاء جميعاً قد خضع للمؤثرات الأندلسية ، وإن يكن متعلناً من غير شك ، تعين السبل التي انتقلت بواسطتها هذه المؤثرات عبر الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الإيبيرية »^(٥٣) .

وحول هذا الموضوع ذاته نجد المستشرق الألماني زيفريد هويك ، تفصل ما لهج إليه مواطنه بروكلمان ، بقولها أن شعر الغزل العربي انتشر ، وخرج من الأندلس عبر الحدود إلى الغرب ، ليصبح فناً عالياً . ولم يكن أحد شعراء الغرب ليبر عن حبه بذلك الأسلوب ، لكنهم بعد تأثرهم بهذا الأسلوب الأندلسي العربي ، وجدوه يغزو كل فرنسا ، وإيطاليا ، وصقلية ، والنمسا ، وألمانيا ، فأصبحت المثة ، التي كانت أقل شأناً من الرجل في ظل تعاليم الكنيسة ، لأول مرة كأنها مقدساً ، يتوسل إليها الرجل كما يتوسل إلى الله . وحتى الأشعار الدينية ، التي كانت قبل ذلك تصف مريم أم المسيح بخاتمة الرب ، وبالفاتنة الدليلة ، قد جعلت منها الآن السيدة الكريمة والحبيبة العزيزة^(٥٤) .

يكون الزجل قد نشأ مع الموشح مباشرة أو ربما سبقه ، ومن الممكن أيضاً القول أنها فن واحد ذو شعبتين : شعبية تغلب عليها الفصاحة ، وشعبية تغلب عليها المعجزة . وبعد ذلك يتوصل الدكتور شوقي ضيف إلى النتيجة التالية التي عبر عنها بقوله : « كان الزجل في نشأته كان أقرب إلى الموشحة منه إلى الصورة العامية الخالصة التي انتهى إليها ابن قزمان . وانتقل هذا الزجل - كما انتقلت الموشحات - إلى المشرق ، واستخدمته الأقاليم في آدابها الشعبية^(٥٥) .

أما بروكلمان فهو يرى أن ابن قزمان لم يخترع فن الزجل ، وإنما أدخل إلى الأدب العربي فناً شعرياً جديداً كان شاعراً في أسبانيا من قبل ، هو الزجل الذي لم يعد يخضع لأوزان الشعر المروقة وإنما للمقاطع . ويضي بروكلمان بعد ذلك إلى القول أن محمد بن داود بن علي ، صنف في شبابه مجموعة من المختارات الشعرية ، جعل الجزء الأول منها وهو « طوق الحمامة في الألفة والألاف » وقفا على الحب ، وشغفه بدراسة تحليلية لمظاهر كما تتجلى في الشعر . وكذلك ألف ابن حزم ، الفقيه الظاهري الأندلسي ، في شبابه كتاباً تناول فيه بالبحث المفصل مختلف رغبات الحب وظواهرها ، مثلاً لذلك كله بطائفة من المقطوعات الشعرية كان معظمها

(٥١) طيف ، شوقي ، الفن وعلومه في الشعر العربي ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .
(٥٢) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣١٢ .

(٥٣) تريبادور (Troubadour) مدحا الشاعر اللغني في أوروبا ، وهي كلمة قد تكون عرقة من كلمة « طرب » أو « طروب » العربية ، في رأي ليني وريانس ، في كتابه « الإسلام في المغرب والأندلس » ترجمة ساطع وحلي ، ص ٢٨٠ وما بعدها ، عن عبد الحميد ماجد ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ص ١٧٤ .

والفريرودور هم جماعة من شعراء المصور الوسطى في جنوب فرنسا ، كانوا في أغلبهم من طبقة النبلاء ، وكانوا ينظمون في هجاء فنون الشعر : أنثيديد ، شعر رموي ، مقطوعات شاعرية ، كما كانوا يتكلمون في السياسة والحرب . لكن الموضوع الذي استهواهم جميعاً هو « الحب » الذي تغلبوا به في آثار قصائدهم . وكان يرافق الترويلودور في أسفارهم ، جماعة من فنانين عرفوا بالهوجين ، كانوا ينظمون أشعار ساعدهم في البلاط الذي يتولون به . بلغ عدد هؤلاء الشعراء الملتصقين بالهوجين ، بين أواخر القرن الحادي عشر وأواخر القرن الثالث عشر ، حوالي أربعين ألفاً ، كان من أشهرهم : رود ، فيدا ، أنو ، كاتيل ، وكاتيل ، وقد انتشروا في أسبانيا ، وإيطاليا ، حيث أثروا في الشعر الأوربي اللاتيني ولي تطوره في القرن الثالث عشر ، (عن الموسوعة القومية الجديدة بخصائص) .

(٥٤) البرونزالين . حجة فرنسية انتشرت في الجنوب الشرقي من فرنسا ، ولها الشعراء الترويلودور الرحالة في القرون الوسطى ، وكانت تصيح اللغة الفرنسية جنوب فرنسا آنذاك . أمثال بعض الشعراء في منتصف القرن التاسع عشر ، إلا أن الفرنسية الرسمية طغت عليها (الموسوعة العربية الجديدة) .

خامساً : من الفولكلور الفلسطيني : الأدب الشعبي العربي الفلسطيني :

لقد سبقنا الإشارة الى أن علماء الغرب وأدباءه ، كانوا السابقين الى دراسة فولكلور شعوبهم أولاً ، ثم فولكلور الشعوب الأخرى فيما بعد ، وأنه كان للوطن العربي نصيب وافر من جهودهم .

وبالنسبة لفلسطين ، فإن مركز الأبحاث الفلسطيني ، كان قد بين ، من خلال أبحاث أولية ، وجود مكتبة كبيرة تعني بأوضاع الشعب العربي الفلسطيني والسوري بعامة ، ودراسة أوضاع الفلاح وثقافته بخاصة ، وأن أوائل تلك الكتب ، تعود الى العقد السابع من القرن التاسع عشر . فقد أسهب الرحالة تومسون في الحديث عن الشعب العربي في جنوب سوريا ، كما اهتم بعض أعضاء صندوق استكشاف فلسطين ، بدراسة العادات الفلاحية ، والمجتمع الفلاحي عامة ، وانطلق هؤلاء بايحاتهم الانثروبولوجية ، من خلال نظريتهم القائلة بتقديم تاريخ الفلاح الفلسطيني ، ورجوع أرومته الى الشعوب غير اليهودية ، التي كانت تقطن فلسطين منذ القدم ، والتي ورد ذكرها في التوراة . وكان الحاجة من المستشرقين الانجليز قد مهدوا لهذا النمط من الدراسات ، من خلال مقالات دورية صندوق استكشاف فلسطين ، (Palestine Exploration Fund Quarterly) وذلك في سياق الاهتمام التثري ، والعلمي ، والديني ، (الدراسة الميدانية للتوراة والانجيل) كتسجيل التوراة من خلال دراسة جغرافية فلسطين ، وأثارها ، وبحثها الفلاحي . غير أن البحث العلمي المنظم في هذا المجال ، تحقق بصورة

أفضل نسبياً ، على أيدي الاختصاصيين الألمان ، الذين اعتمدوا على قواعد أكثر ثباتاً من تلك التي اعتمد عليها الانجليز ، إذ توفرت لهم قدرة على جمع المعلومات ، والتقيب ، نتيجة لوجود المستعمرات الألمانية بفلسطين ، في صورة الجمعيات التابعة لنظام التمبر (Templer) الديني المسيحي ، والتي بدأت الامتيطان في فلسطين في العقد السابع من القرن التاسع عشر ، أي قبل نشوء المستوطنات اليهودية ، ونتيجة لوجود عدد من الاختصاصيين الألمان من رجال الدين والعلمانيين العاملين في فلسطين ، ولجهود المقيم السوري الألماني ، والجمعية الألمانية الفلسطينية ، التي اسهمت منذ انشائها حوالي سنة ١٨٧٦ ، في اصدار مجلة عنيت منذ البداية ، بدراسة أحوال السكان الأصليين ، مما شجع على عجيء عناصر أكثر اختصاصاً من رجال الدين والعلمانيين ، لدراسة التوراة من خلال الفلاح الفلسطيني بخاصة ، ولدراسة الثقافة الشعبية العربية في فلسطين بعامة ، ولا سيما الوضع الاجتماعي ، والنمط الانتاجي ، وبخاصة الزراعي منه ، والأمثال ، والأغاني ، والقصص الشعبية ، واللباس ، والأدوات الخرفية ، والمنزلية . وشجعت هذه الأبحاث بعض الفلسطينيين على التقيب ، وعلى تجميع العادات والتقاليد ، والفنون الشعبية ، ودراستها وتصنيفها ، فبرز الدكتور توفيق كنعان ، الذي كتب باللغتين الألمانية والانجليزية ، وشملت اهتماماته الحرفايات ، والطب الشعبي ، والمواسم ، والأعياد ، ومقامات الأولياء ، والأمثال الشعبية ، والبيت الشعبي الفلسطيني ، وأهتم اسطفان اسطفان بالقصة الفلسطينية الشعبية كما أصدر عارف العارف سنة ١٩٣٤ كتابه « القضاء بين البدو » ، وهو كتبه لقي اهتماماً واسعاً في الأوساط الأجنبية ،

• نشرت معظم كتابات د. كنعان واسطفان اسطفان في مجلة الجمعية الفلسطينية الشرقية (Journal of the Palestine Oriental Society) الموجودة نسخها الأصلية في مكتب روفلر بالقدس وصور عنها في مكتبة جامعة بيرزيت ومكتبة التراث في جمعية انماش الأسرة باليرة .

أبو هديا ، ووليد ربيع وموسى سند . ولا شك أن هنالك أعداداً أخرى من الفلسطينيين للتخصصين في الحقول المذكورة ، والباحثين في مجالات الفولكلور ، عن لا أعرفهم شخصياً .

ومن ناحية أخرى عبر المجتمع العربي الفلسطيني عن اهتمامه بفولكلوره ، وعنايته به ، بلقافة المؤتمرات ، والمهرجانات ، والاحتفالات الفولكلورية ، وإنشاء المراكز ، والمصاحف ، لجمع المواد الفولكلورية ، وتبويبها ، ودراستها ، كما انتشرت فرق الرقص والغناء الشعبي ، وأدخلت مادة الفولكلور ضمن مناهج التدريس في بعض الجامعات الفلسطينية ، فهناك على سبيل المثال مادتان مقررتان في كلية آداب جامعة بير زيت ، وأحدت ضمن دائرة علم الاجتماع وعلم الإنسان باسم « الفولكلور الفلسطيني » ، والثانية ضمن دائرة اللغة العربية باسم « الأدب الشعبي الفلسطيني » . وبالإضافة إلى ذلك كله ، صارت مجلاتها وصحفها تفتح صدرها للمقالات والدراسات والأبحاث الفولكلورية ، وبدأت تظهر مجلات متخصصة ، من أهمها مجلة « التراث والمجتمع » التي تصدر عن لجنة أبحاث جمعية انعاش الأسرة في البيرة بالضفة الغربية . والأدب الشعبي العربي الفلسطيني ، شأنه شأن بقية الأدب الشعبية العربية ، عاش ويعيش عيشة المشافهة ، مروا من جيل إلى جيل بللهجة العربية الفلسطينية الدارجة ، التي هي أبنية اللغة العربية الفصحى ، في مفرداتها * ، وأصايلها ، في ضمائرها واسماؤها ، ومشتقاتها ، وأفعالها ، وإن كانت تختلف عنها في طرق اللفظ وفي بعض الأصوات وفي إسقاطها للأعراب ، مع بقائها قادرة دون مساهلته على أداء

وتترجم إلى عدة لغات ، واهتم المحامي عمر الصالح البرغوثي بالمعادات والتقاليد القروية ، وإن كان لم ينشر من كتاباته إلا القليل (٥٣) .

هذا الاهتمام بالفولكلور الفلسطيني ، ظل يتنامى ويتشعب بين أفراد المجتمع العربي الفلسطيني ، ومؤسسته فيما بين الحريين العاليتين ، لكنه كان اهتماماً فردياً ، يتسم بالجهد الفردي ، وينحصر في نطاق الامكانات الفردية المحدودة ، وتحكم في جمه ، وفي دراسته ، وفي تدوينه ، اجتهادات الأفراد المهتمين به ، على ما بينهم من تفاوت ، ودون وجود طرق ، وأنظمة راسخة ، يسير عليها الجميع ، في التعامل مع مواد هذا العلم الجديد . وبعد انقضاء الحرب العالمية الثانية ، حدثت نفلة كبيرة في مجال هذا الاهتمام بالفولكلور ، ولا سيما في العقود الثلاثة الأخيرة ، عندما انحسرت ، إلى حد كبير ، ظاهرة الاستهزاء بمن يقولون على دراسة الفولكلور ، أو التخصص فيه على مستوى الدراسات العليا ، كما ساهل على الشباب المهتمين بالفولكلور قضية الالتحاق ببرامج الدراسات العليا ، إما في الفولكلور ذاته ، أو في حقل يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، مثل الأنثروبولوجيا ، أو اللغة والأدب أو التاريخ والأثار أذكر من أعرفهم من بين هؤلاء الدارسين الذين حصلوا على درجة الدكتوراه في حقل من الحقول المشار إليها : كاتب هذه الورقة (١٩٦٣) ، والدكتور عيسى المصو ، والدكتور شريف كناعنة ، والدكتور رشدي الأشهب ، والدكتور ناجي عبد الجبار ، والدكتور هاني العماد . وهناك عدد من الباحثين في مجالات الفولكلور ممن يحملون درجات دون الدكتوراه ، أذكر منهم الأساتذة : ثمر سرحان ، وتبيل علقم ، وعمر حمدان ، وعبد العزيز

(٥٣) ملكرة مركز الأبحاث الفلسطيني حول جمع التراث الشعبي الفلسطيني ، حلقة العناصر المشتركة في التيارات الشعبية في الوطن العربي ، ص ٤٢١ - ٤٢٣ .
* أجريت اختصاراً صمراً لأفادت عنه عددية من تدرسي أخفينا الشعبية وأصبحت طرحتها أوجدت ٢٩١٠٩ منها فصحي أو من جابر فصيح والباقي ٨٠١ طرحت معرفة عن الفارسية والتركية والإنجليزية والفرنسية والطليانية .

مهامها بكفاءة ونجاح . واهم المصادر التي تستقي منها مادة حياتها :

- ١ - الموروث الشفوي من الاسرة والمجتمع .
- ٢ - القرآن الكريم مقروءا ومسموعا من الاذاعات ومناظر المساجد وماذنها .
- ٣ - التعليم المدرسي الذي ينمي حصيلة الدارس من مفردات اللغة العربية القصصية وتعبيرها فتصبح ذخيرة له في لهجته العامية .
- ٤ - المطبوعات والصحف والمجلات والكلمة المكتوبة عموما .
- ٥ - الاذاعات المسموعة والمرئية سواء استخدمت اللغة الفصحى او العامية .
- ٦ - الاشتقاق .
- ٧ - الاستمارة من لغات اجنبية وتصريب المفردات المستعارة .

وينقسم أدبنا الشعبي كالأدب القصصي الى منظوم ومثنو ، كما ينقسم المنظوم الى قصائد (تغني بمصاحبة الربابة) ، وأغان تغني دون موسيقى ، او بمصاحبة موسيقى الشبابة ، او الأرزول ، او على ايقاع الطبله ، او الدُرْبُكَّةُ ، وأغانيها الشعبية كثيرة الألوان ، متعددة الفنون ، فمنها العتابا ، والدُّمُونَا ، يا زريف الطُّول ، عَالِيَادِي الْيَادِي الْجُفْرَا ، يا غُرْبُل ، يا هَوْبُلِي ، يشعل ، لِيَا يَلِيَا ، أبو الزُّف ، السحجة او السامر او الملعب ، الزُّفَّة ، الزُّجَل ، الشُّروقي ، الطُّلعات ، اغاني النساء والأطفال ، الشُّومَان او الواو ، اغاني العقد والبناء ، اغاني المواسم والحج ويشحن المطر (الاستسقاء) ، اغاني الحبسية او الجوقية والدُّحِيَّة

والجداه . وقد وجدت بين أوزانها اثني عشر بحرا من البحور المستعملة في شعر اللغة العربية الفصحى .

اما الجانب المنشور من أدبنا الشعبي ، فهو يشمل الحكايات الشعبية بمختلف أنواعها ، والأمثال والأقوال ، والنكت والنوادر ، ونداءات الباعة ، والحزازير والألغاز .

وبالرغم من ضيق المقام ، إلا أنني أراي مشلودا بقوة الى تثبيت نموذجين من منظومنا الشعبي ، أحدهما مثال على لون القصائد الشعبية ، وهو عبارة عن رسالة شعرية ، يبحث بها متعدد اسمه شبيب السروي ، الى صديقه عمر العدوان (توفي سنة ١٣٣٨ هـ) يستغني فيها ، بشأن فتاة كانت تغري بنفسها ، ورد عمر العدوان على تلك القصيدة بقصيدة على نفس البحر وينس القافية^(١) ، والأخر عبارة عن قطعتين من طلعتين مختلفتين أحدهما نشأت في أواخر الأربعينيات والأخرى نشأت خلال السنوات القليلة الماضية :

النموذج الأول :

يا راكِبَ الحُمْرَا لِمَا السُّوَرُ دُنِي
جُرْمِلَ غَرْمَلْ ذَاتُ غُرْمَا وَفُنَا^(٢)
حُد لي سلامي ذو كَلَامٍ يَمْنِي
مَا صَبَّ غَيْرِي يَشْلُ هَذَا وَكُنَا^(٣)
يَا غَمْرِي يَا مَشْكَايَ إِنْ سَلْتُ عَنْيْ
عَمَّتِ الطُّرَيْقُ أَوْ خَالَتِي غَيْرِ أُوْنَا
عَاشَدَتْ يَتَعَبُ أَوْصَالِ الْمُنِي
مَا لَه تَشِيلُ غَيْرِ حُورِ بِنَا
أَقْبَلْ عَلَيَا أَوْ يَمُتْظُورَةُ طَبِي
أَقْبَلْ وَجِبِلُو حَاكْمَاوِ يَرْمَا^(٤)

(١) البرغوثي ، عبدالمطلب ، الاغاني العربية الشعبية في فلسطين والأردن ، مكتب الوقائع والأبحاث ، جامعة بيرزيت ، ط١ ، ١٩٧٩ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) الكور - الرسل . ض : قُرْب حُرْمَل خُشْمَة . غُرْمَلْ : مَنَلَة مصغرة .

(٣) تَنَّا : كَلَمَة . شَبْنَة .

(٤) طَبِي : يَطْظُورَة ، غَمْرِي : بَطْمَرَة .

وإن كان شئت أوصاك فيها كملني
 ما يهزم بالشور من صدعنا
 وإن كان خشمه أهاب فتدي يني
 وأخضر بنه ينقص الفتر هنا^(١)
 وعقد الحضر نوبة طويله معني
 والقرن ينزل لك من البير شنا^(٢)
 أعطي ضياتك فوق فرضك وشي
 وأعطي القرين وأقبل ، ونجيك هنا
 وإن كان قلبك بالضمائر يعني
 البيع ما بين المخلوق شنا
 أو بعد ما ترشفت عسل ذوبي
 تب نوبة النار تنجيك هنا
 واستغفر الله على ما صار يعني
 ينلي ومثلك ينفر الرب هنا

النموذج الثاني :

١ - طلعة راجت في اواخر الاربعينات ولا تزال تغي :

اللازمة :

نالت كل الكونيني
 بأصوات ربائني
 فتنسقط أمة صهيون
 ولتنحيا الغر بيبي
 يا صهيوني امش ودور
 بكرة جاي الفواقجي^(٣)
 بلو يمشي اطنعش يوم
 في دم الصهيونيبي

قلت : الملا ، قلني : فلا بالهني
 قلت : السواقي ، كاذ يضحك بينا
 قلني : يضلني ؟ قلت : صوم يعني
 قلني : تريد أنعام ربك وجنا ؟
 وقلني تباع بخمس حبات يعني
 ليخمس أوقاتك وفرضك وشنا ؟
 أو قلت له تسأل لإنجل المني
 يا يمر يا مرّة طريح الوطنا^(٤)
 فسألك ينجب لي كتاب يعني
 غمك عويط قاري شوار هنا
 فنانن لي قلب عليها يعني
 بعت المعارف باختلاف المظنا
 واشغفر الرمحان عاصار يعني
 والجبل خالي ينفر الرب هنا

ورد عليه ثم بن عدوان بالقصيدة التالية :

حيي الكتاب اللي لقا من يظني
 حيي عدد غيم بدا الغيث هنا
 حيي زليق البعد يشتاق يعني
 وأنا كذلك صيرت مشتاق هنا
 حيي عدد تسبيح وزنا نفسي
 في رؤوس لذات الفصون الممتا^(٥)
 لا يا ركببي أوصل العلم معني
 فسألك في بحر السلاسة تكنا^(٦)
 إن كان مجيد الصبر عن حبهني
 أرض الكريم أطلب الغفو هنا

(١) طريح الوطنا : اللغزب من وطه .

(٢) الملا : المهزوز .

(٣) ركبي : الرسول المراكب . تكنا : تسكن وبدأ .

(٤) خشمه : الله . غياب هندي : شجرة السيف .

(٥) لغز : لغز . رقيقة : القرن . العصر : شه : غرة .

• فوزي القارقي : بلاد جيش الاحتلال تصدر للطلين سنة ١٩٤٨ .

اللازمة :

أمر الضَّعِيفُ بِدَوِّ يَمُونِ
يا عَرَبُ إِذْ هُوَ تَهَابُوا
نَضْرِبُ مَأْكَدَ بَدْوٍ يَكُونُ
اللهُ قَائِلٌ فِي كِتَابِهِ
إِحْتَامِينَ تَلْبِنَا سَيُوفِ
الحَقُّ لَنَا بِئْسَ بُحَيِّ
فَلَتَنْسِفُنَّ أُمَّةً ضَلَّيُونُ
ولتَحْيَا الْمَرَّ بِبَيِّ

اللازمة :

يا عَرَبُ كُونُوا أَهْرَارُ
لا تَرْضُوا الْعَيْشِي بِاللَّذْ
يا بَنْدِيعُ ضَنْبِ الْكُفَّارِ
يا الْحَافِيفَ مِنْ هُونَا يَغْلُ
اللهُ خَالِقُ جَنِّي وَنَارُ
يا مُؤْمِنَ بِالْكَارِكِ حَلْ
فِي السُّنْيَا مَا فِي قَرَارِ
الْأَ بَظَلِ الْحُرِّيَّ

اللازمة :

إِنْ كَانَ تِرْوَمانُ (**) يَدُوَّ يَهُودَ
وَيَبِينُ اسْتِعْدَادُ
خَافِيفَ عَا ثَبَّحَ الْيَهُودَ
حَاسِبِهِمْ مِثْلَ أَوْلَادِ
بِلَادِ وَسِيعَةِ مَالِهَا حُدُودِ
يَسْكُنُهُمْ جَوْأَ بِلَادِ
قَبْلَ نَحْمَلِ الْبَارُودِ
وَنَعْمَلُ جَبْهَةً خَرِبِي

٢ - طلعة نشأت خلال

السنوات القليلة الماضية :

اللازمة :

اسْمَعُوا لِي يَا حُفْصَارُ
الْوَطَنُ نَادَا حُتَاتُ
وَاللِّي يَمَادِي لِلْأَهْرَارِ
اللهُ يَلْعَنُ حَيَاتِ
وَاللِّي يَبْخُونُ الْأَوْطَانُ
مَالُودِينَ مِنَ الْأَدِيَانِ
وَتَبَقَا مَفْرُورَ وَعَلَطَانُ
وَتَغْمِيَّاتِ غُورِيْنَاتُ

اللازمة :

لَا جَلِيكَ يَا أَرْضَ بِلَادِي
أَنَا لِبِرُوحِي هَادِي
وَدُمَائِي وَتَمَّ أَوْلَادِي
وَيَا قَلْبِي وَدَقَاتُ

اللازمة :

وَاللِّي يَدُوَّ يَهُودَ الْمَرْضُ
يَحْمِي بِلَادِ وَيَحْمِي الْأَرْضُ
وَيَجْعَلُ حُبَّ الْوَطَنِ فَرَضُ
مِثْلَ فَرُوشُو بُضَلَاتُ

اللازمة :

وَاللِّي يَمَادِي أَمْنَا
لَا يَبِينُ مِنْ نَقْمَتَا
وَلَا زَمَ يَوْضَلُ دَوْلِينَا
وَانْخَلَعُ شَنْبَاتُ

اللازمة :

نجد السبيل للعودة الى جذورنا القريية والبعيدة ، ما دما نقف في وسط المسافة بين قريب جذورنا وبعيدها ، بالاعتماد على حقيقة ان الثورة العلمية قد خلقت هذه المسافة المتساوية بيننا وبين كل الثقافات التقليدية ؟ ان ما يستطيع ان يبيننا قريبين الى ما فصلنا عنه ، هو بداية تحقنا ، ان من الخطا اعتبار ان العلم والتكنولوجيا هما نفس العلاقة مع الحقيقة ، وهي علاقة يمكن ان تقوم بيننا وبين جميع الاشياء . اننا على أساس النقد من الداخل لنظهر المعرفة الموسوعية بأنها تعادل الحقيقة ، نستطيع اجراء قراءتيم نقدية للبيانات الثقافية التي جرى فحصها في هذا الكتاب . وفي ضوء هذا تصبح للمسافة التي تفصلنا عن ثقافات الماضي مسافة متتجة ، تمكن تلك الثقافات من التحدث الينا عبر الحوة التي تفصل بيننا وبينها . ومهمتنا اليوم هي ان تكشف في ثقافات الماضي ما هو أكثر من مجرد مرحلة ما قبل العلم ، ومن ثم فانه لم تلغه العلمية ، وبإمكانه ان يتحدث الينا من الجانب البعيد ، جانب ثوري جليليو ونيوتن . في ضوء ما تقدم يتضح ان البعد في القرب ، والقرب في البعد ، هو التناقض الذي يحكم كل الجهود الحاضرة ، للتعامل من جديد مع تراث ثقافات الماضي ، لإعادة تنشيط تلك الثقافات ، في ظل شروط الحياة اليومية للمعاصرة . وهذا التناقض ذاته قد لا يحكم فقط علاقة الناس بثقافت الماضي عموما ، وانما ايضا علاقة ثقافة بأخرى . ومن ناحية ثانية لساننا لا نستطيع التمسك بتقليد ما ، دون وعي ناقد لنسبيته للتقاليد الأخرى . ان أي جهد لتناول جديد ، وبروح ناقد ، لأي تراث ماض ، لا بد ان يرافقه اليوم شعور بالاختلاف بينه وبين آراء جليلة أخرى^(٥٥) .

ان أفكار الأستاذ ريكير المذكورة ، تعطي صورة لتخوفت الغرب ، ولعاناته ، في ضوء حضارته العلمية

سادسا : أهمية تدريس الفولكلور على المستويات الجامعية :

١ - خطر الحضارة العلمية التكنولوجية المعاصرة :

ان الحضارة العلمية التكنولوجية المعاصرة ، لا تهدد فقط بفصل علما الى عالين : عالم متقدم يتعامل مع الفضاء الخارجي وآفاق الكون الرحبة ، وعالم متخلف يحاول عبثا اللحاق بالعالم الاول ، بل هي أيضا تهدد مجتمعات العالم الاول ، بأن تسليخها عن ثقافتها الموروثة ، وتخضع انسانا الى درجة تجعله أشبه بالانسان الآلي . لقد بدأت بلدان العالم الاول ، منذ بعض الوقت ، تترك خطر اتساع الحوة بينها وبين بقية بلدان العالم من ناحية ، وخطر قوئية أبنائها ، واتساعهم عن جذورهم ، وثقافتهم الموروثة . ومنذ ان استثمرت هذا الخطر ، بدأت تنفذ برامج متعددة ، غايتها الكشف عن ثقافتها الموروثة ، وإعادة بناء الروابط الوثيقة بين انسانها وتلك الثقافات . ويأتي في مقدمة تلك البرامج ، ما يدرس على نطاق واسع ، وعلى أعلى المستويات الجامعية ، من الانثروبولوجيا والفولكلور . وقد بادرت منظمة اليونسكو من ناحيتها ، فبنت مشروعا لاصدار أربعة مؤلفات تحت عنوان « على مفترق طرق الثقافات » ، كان المؤلف الاول منها بعنوان « الثقافات والزمن » ، واصدوره اليونسكو سنة ١٩٧٦ ، وهو يشتمل على أبحاث أعدها مختصون من بلدان مختلفة ، ووضع مقدمته الأستاذ الفرنسي بول ريكير (Poul Ricœur) أستاذ الفلسفة في جامعة باريز .

اننا اذا طالعنا تلك المقدمة ، متجدد الأستاذ ريكير يطرح أفكارا وأمثلة كهذه : ألم تُفَرِّقنا عصرُنا عن جذورنا ما كان منها قريبا وما كان بعيدا ؟ ألا نستطيع أن

وعلى الرغم من أن بلداننا في العالم الثالث هي جديدة على الصعيد السياسي ، إلا أنها تقليدية جدا في ثقافتها وفي بنائها الاجتماعي ، ومركز الفردي في مجتمعاتها يتحدد بصورة رئيسية ، بالانتساب الى جماعة ما ، كجماعة الاقارب ، أو أبناء اللغة الواحدة ، أو اللهجة الواحدة . وهذه العوامل ، مضافة الى الاساس الاقتصادي الضعيف ، الناتج عن الفقر الزراعي ، تميل الى عزل جماهير الشعب عن عليا القوم في المدن . وفي الوقت ذاته ، فان لدى هذه البلدان رغبة شديدة الحماس للتحويل الى مجتمعات عصرية صناعية ، وتقوم طلائع الطبقة المتفتة فيها دائما بالتعبير عن هذه الطموحات الا أنهم كثيرا ما يختلفون حول القيمة التي يجب ان تعطي للثقافة القومية التقليدية . ولذلك فان الشخص الذي يتلقى تعليما غربيا ، لا بد أن ينفصل في النتيجة عن مواطنه غير المتعلم ، في نظره للحياة ، وفي أسلوب حياته ، لان التعليم الغربي قد عرفه على أساليب جديدة في اللبس ، والحديث ، والسلوك ، والرأي ، أي انه علمه قيمة الثقافة الغربية ، وجعله ، بصورة ضمنية ، يحس بثقافة الحياة القبلية ، والعادات البدائية . وهكذا فان جماعته تميل لان تصبح ، ليس جماعة الاقارب ، أو أبناء الاقليم ، وإنما جماعة المتفوقين الذين صار يعيش وفقا لمعاييرهم ، حسبيا تعلمه . ولذلك فهو في الغالب يميل الى الانقطاع عن تقاليده القومية ، وإلى نقد المصادر التقليدية للسلطة ، ويتجه الى اعتناق الثقافة الغربية ، المتعلقة بالعلمنة ، والصناعة ، والتمدن ، والنظرة العالمية . وبالمقابل ، نجد في البلدان ذاتها ، القوى المضادة لهذا الاتجاه ، والمتمثلة في الاعتزاز بالتراث الثقافي غير الغربي ، وبالقومية الوطنية ، وبالعودة الى الجذور . وهكذا فان التربة الحديثة تؤدي الى توليد صراعات أساسية في

المعاصرة . أما عن موقف البلاد العربية والإسلامية ، فان الاساذ لوس جازوت ، المتخصص في الدراسات الدينية والثقافية المقارنة ، ولا سيما ما يتعلق بالاسلام ، والذي درس في جامعات الرباط والجزائر والقاهرة ، وبيروت ، وزار معظم بلدان الشرق الاوسط ، والبلدان الاسلامية ، فانا نجله يقول في بحثه المعنون « آراء المسلمين حول الزمن والتاريخ Moslem Views of Time and History » :

ليس من المحتمل ان تتداخل الحياة في العالم المعاصر ، سيبلج وعيا جديدا بمعنى الزمن التجريبي ، وعيا هو نفس الوعي السائد في الغرب المتقدم تكنولوجيا ؟ ان ذلك يعتمد بالتأكيد ، ولو بصورة مبدئية على الاقل ، وعلى مستوى سطحي . ان الثقافة الاسلامية قابلة دون شك لاستيعاب المؤثرات المعاصرة ، كما كانت قادرة في سالف الايام على استيعاب الفكر اليوناني ، والفارسي ، والهندي ، ولا حاجة الى القول ان الثقافة التي تكرر ان تنمو في عزلة هي ، لذلك السبب عينه ، ثقافة حيوية ، ذات قابلية عالية لانجاب ثروات خاصة بها^(٥٦) .

فالمشكلة قائمة اذن وعلى مستوى العالم اجمع ، وإذا كان خطرها يوشك ان يدهام بلدان العالم الاول ، فانا في بلدان العالم الثالث مهددون به على المدى البعيد ، وسيزداد تهديده لنا بقليل ما نزداد تقدما في مضامير الحضارة العلمية التكنولوجية المعاصرة ، لكننا نحمل بيننا ، ونحن ما زلنا بعيدين نسبيا عن ذلك الخطر ، ان نستثمر هذه الفرصة فنخطط لمستقبلنا ، بحيث نجتمع فيه بين الاصل والحدثة ، دون أن نضحي بواحدة منهما من أجل الاخرى ، ولكي لانجد أنفسنا في وضع كالوضع الحالي الذي تعاني منه بلدان العالم الاول .

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

جامعات العالم الثالث ، ما زالت مستمرة في السير على الدروب التقليدية المعروفة ، ولم تقحم أنفسها إلى الحد الواجب عليها في مواجهة التحدي ، المتمثل في وجوب تغيير المجتمعات الريفية في بلادها . ان هذا حال لا بد من تغييره ، لا سيما وان الاعتقاد يتنامى بوجوب ان تقوم الجامعات بصورة أكثر مباشرة ، على خدمة قطاع من الواضح انه يمثل معظم الشعب ، ألا وهو القطاع الريفي^(٩٧) بالإضافة إلى مسؤليتها الكبرى في العمل على نقل مجتمعاتها إلى الحداثة ، مع المحافظة على أصالتها وهويتها الثقافية .

ج - تطور القيم الاجتماعية :

ان التنمية العقلية ، والفكرية ، النابعة عن التربية الحديثة بعامة ، والدراسات العليا بخاصة ، والعوامل السياسية ، والاقتصادية ، السائدة في الوطن العربي ، أدت إلى ظهور قيم جديدة شجعت على تطوير التربية كما ونوعا . ويبرز من بين تلك القيم : الديمقراطية ، وما يواكبها من أفكار حول العدالة الاجتماعية ، وتكافؤ الفرص ، وإزالة الفوارق الطبقة ، ثم القيم الانسانية الثقافية الجديدة ، القائمة على أساس الحاجة لوصول تراث الأمة بحضارة العالم المعاصر ، وعلى أساس الشعور الطبيعي بالعزة القومية ، والرغبة في اللحاق بالعالم المتقدم ، ودم فجرة التخلف التي تفصل البلدان العربية عن البلدان المتقدمة ، وقيم التحرر والحرية . ويعد فترة من الصراع بين الأفكار القديمة والجديدة ، بين الثقافة التقليدية والعصرية ، بين الأنطواء على الذات والانفتاح على العالم ، بين تقليد الأساليب الاجنبية وكره الاجانب ، بدأت القيم الجديدة تبرز نجاحا باهرا ، في مضمار أهدافها لتحقيق ثقافة قومية

مسبل البحث عن هوية عصرية للدولة الحديثة كما انها تستجيب لتلك الصراعات وتتأثر بها .

ب - دور الجامعات :

التربية في مؤسسات ما بعد مرحلة اللوراسة الثانوية ، تهدف إلى اعداد المختصين ، ويعتمد المجتمع على تنسيق عمل الافراد ذوى الكفاءة ، في جزء صغير جدا من مجموع الثقافة . ولهذا السبب ، وبسبب التغير السريع في منجزات الحياة المعاصرة ، يجب ان تراجع النظم التعليمية باستمرار ، لكي تظل قادرة على اعداد المدارس لمواجهة الحياة بنجاح ، من خلال اكسابه الاتجاهات السليمة ، ومن خلال شحذ عقلية ، وتنمية قدراته الناقلة ، للتجارب مع المواقف المختلفة . وفي هذا الصدد ، لا يمكن ان نبالغ - مهما بالغنا - في أهمية دور الجامعات ، التي هي قسم الانظمة التعليمية ، فيها يختص بتغيير النظام التعليمي واعادة تنظيمه . ان الجامعة تحتل المرتبة الثانية بعد الحكومة ذاتها ، بوصفها أعظم أداة أساسية لازمة لنقل البلاد إلى اطار العالم العصري ، الا ان البلدان حديثة الاستقلال أضاعت ، مع الاسف ، الفرصة الفريدة التي أتاحت لها لاقامة مؤسسات تعليمية جديدة ، تناسب الظروف الجديدة للاستقلال ، اذ أنها راحت تقيم مؤسساتها التعليمية ، على غرار المؤسسات التعليمية للبلد المستعمر ، وبذلك فان تلك المؤسسات بدأت بدييات تقليدية عفاة ، في مجتمعات كانت أشد احتياجا لمؤسسات مبدعة مبتكرة منها لاي شيء آخر . وهكذا جاءت الجامعات الجديدة متمسكة بالتجاهات فكرية ، ومسايرة على أحكام اجراءات أكاديمية ، أدت إلى عزلها عن بعض أهم الحقائق في بيئتها . ومن الانصاف ، القول ان معظم

ان عالم الآلات هو عالم قوة الانسان ، وهو ضمانه التحرر للانسان من ضغط العالم المادي ، وهو أداتنا وسلاحنا . أما عالم الفن فهو حقيقة أخرى لعالم الانسان : وهو غير موضوع في مواجهة مضادة للانسان كاداة مادية وخارجية لقوته ، وإنما هو نظير للانسان ، بل انعكاس لحياته الداخلية ، التي أصبحت المواد الخام خاضعة لها : الخشب ، والرخام ، والاسمنت المسلح ، والفلوذا ، والكنتقة ، والفضة ، والاصوات ، والكلمات ، والفقر الذي يخلق المواقف ، والاحداث ، وخبرات الناس السيكولوجية .

ان كل هذه الاعتبارات ، التي توضح الاهمية القصوى للدور الذي يلعبه الفن في حياة الانسان تستدعي بالضرورة استخراج نتائج تربوية جديدة عريضة من تلك الاعتبارات ، ففي التربية من أجل المستقبل لن تقف تربية الفنون الجميلة عند حد التوسع والتعمق فقط ، بل انها سوف تتغير جذريا ، لانه لا بد من اعطاء اهتمام خاص جدا للقوى المضاعفة ، التي يكون الفن بها الرجال ، وليس فقط الاهتمام بتنمية اتجاهات الدارسين نحو الفن . ومع امتداد التربية من خلال الفن الى ما بعد الحدود التقليدية الضيقة لما يسمى في العادة بالتربية الجمالية ، فان هذه التربية يجب ان تشمل تربية الانسان من جميع جوانبه ، وتدريبه في نطاق أنواع الاتجاهات والخبرات السيكولوجية التي يدخلها الفن الى عالم الحضارة الانسانية .

ومن خلال تعميم المعرفة بمعظم أشكالها الفنية الهامة ، ومن خلال تنمية الذوق الجمالي ، فان التربية الفنية سوف تميل الى تربية الناس بطريقة تجعل الفن ضرورة يومية في حياتهم ، واحتكاكهم بها سوف يؤثر في

ناضجة ، مرتبطة بعنق قيمها الاصلية ، وخصائصها الذاتية بقدر ما هي مهتمة بإقامة ارتباطات وثيقة بالحضارة عامة وبتجارب الانسان . وقد شجع نجاح هذه القيم الى حد عظيم تطوير التربية كيانا ونوعا ، خلال العقود الاخيرة ، وهو تطوير تمحّل في بروز حركة تربوية تميزت بظهور عدد من رجال التربية العرب ، وبإقامة الكثير من كليات التربية في الجامعات ، وبإقامة مراكز البحث التربوي ، وبشأن حركة التأليف في مجالات التربية ، والأحصاء والأبحاث ، وفي تبادل الكثير من التجارب ، والأفكار التربوية على المستوى الدولي ويظهر فلسفة جديدة للتربية العربية مستقلة عن فلسفي التربية في الغرب والشرق ، ومستفيدة منها في الوقت ذاته . وقد بدأت هذه الفلسفة العربية الجديدة للتربية في السنوات الاخيرة ، تتحكم في الاهداف التربوية ، وفي السياسة التربوية ، وفي خطط التربية واستراتيجياتها . ونستطيع ان نلخص من عيشتها : الالتزام بوحدة الثقافة العربية ، على أساس مبدأ التنوع في اطار الوحدة ، توحيد التراث العربي والتراث الانساني بشكل عام ، التأكيد على أهمية الروح العلمية والطريقة العلمية ، تأسيس التربية على العمل وعلى مبدأ وحدة العمل اليدوي والعقلي ، تنمية روح الاختراع والتجديد ، تعزيز مبدأ العمل الجماعي والتعاوني .

د - الانسان لا يحيا دون فن ودون تربية فنية :

من خلال النشاط الخلاق للفنان ، واستقبال العمل الفني لدى المستهدين به ، تكشف الطبيعة المحددة للحرية الانسانية عن ذاتها ، وهي لكنها غتلفة عن الحرية التي يحصل الانسان عليها بالسيطرة على القوى الجبارة للطبيعة ، من خلال العلم والتكنولوجيا ، وبالسيطرة على القوى العظيمة للظهور الاجتماعي ، من خلال النشاط الاجتماعي الواسع .

ومن الواضح انه ليس في هذه الايام عمل أكثر أهمية من بذل جهود دائمة منتظمة ، للنظر في كل الامكانيات المتاحة من أجل تطوير المجموعات تريبويا وثقافيا . والحقيقة الخاصة بالطبيعة الجديدة للمهام التربوية والثقافية لعصرنا يجب ان توضع على أساس عالمي سليم ، وتلك المهام لا يجوز ان تبقى محصورة - وهو ما عليه الحال الآن - في نطاق دائرة المؤسسات الأكاديمية ، بل يجب ان يكون لها أثرها فيما يتعلق بإعادة تنظيم الحياة برمتها وبطريقة تمكن كل فرد من اشباع حاجاته التربوية ، والثقافية ، في الحياة ذاتها وفي الحياة التي يحياها ، وفي الحياة التي يشارك فيها من حوله^(٥٨) .

عما تقدم نلمس مدى أهمية التربية الفنية بصفة عامة ، وإذا أردنا أن نضرب مثلا فولكلوريا قلنا إن الفولكلور بما ينطوي عليه من موسيقى وغناء وجوانب جمالية متعددة ، هو مجال من مجالات التربية الفنية ، كما ان الادب الشعبي بما ينطوي عليه من فنون قولية شفوية هو مجال من مجالات الفولكلور ، ونفس المنطق فان الحكايات الشعبية هي مجال من مجالات الادب الشعبي ، وحكايات الجان هي مجال من مجالات الحكايات الشعبية . ومن المسلمات في التربية ، أنه من أجل تأمين الخبرات ، للنسبة أكثر من غيرها لتنمية قدرات الطفل على أن يجد معنى لحياته ، ولاضفاء مزيد من المعنى على الحياة بشكل عام ، ليس ثمة أهم من تأثير الوالدين ، والآخرين الذين يتبنون بالطفل ، ويأتي بعد هؤلاء في المرتبة الثانية من الاهمية ، التراث الاجتماعي اذا ما نقل للطفل بالطريقة الصحيحة . وليس ثمة من مقومات التراث الاجتماعي ما هو أكثر اثرأ وافضاء للصغار والكبار على حد سواء من قصص الجان الشعبية ، فقد قامت هذه القصص عبر القرون ، ان لم نقل عبر الوف

شخصيتهم بكليتها ، ويبلور تجاربهم العقلية والروحية .

وبذلك فان التربية من خلال الفن لن تكون ثقافة كمالية ، أو عالم خيال وتسلي متفصلا عن الحياة الواقعية وإنما حقل تربية متصلا بكل الحقل الآخرى ، مما سيؤدى الى اعداد الانسان المرربى عالية شاملة وهذا الحقل سوف تصهر فيه كل خبرات الانسان ، حتى ولو حدث ذلك ضمن نطاق العالم غير الحقيقي للفن .

ان فهم هذه الحقيقة الانسانية العميقة ، التي ربما كانت متناقضة مع ذاتها - ألا وهي ان الانسان الحقيقي يتم تكوينه من خلال الإحتكاك بالعالم غير الحقيقي للفن - هو ما يجب ان يكون بالضبط مبدأ التربية من خلال الفن .

في ضوء ما تقدم ، يتضح ان تربية المستقبل يجب ان تكون كيانا منسقا ، تدمج في بنيتها كل قطاعات المجتمع ، ويجب ان يكون كيانا عالمي الشمول ، متواصل المسيرة . وهذه التربية ، من وجهة نظر كل شعب من الشعوب ، لا بد أن تكون شاملة ومبذعة ، وبالتالي مفردة وموجهة ذاتيا ، وسوف تكون سورا للثقافة ، وقوة دافعة لها ، كما انها ستؤدي الى انجراح النشاط المسلكي . هذه حركة لا تقاوم ، ولا يمكن اعادةها للوراء ، انها الثورة الثقافية لعصرنا هذا .

وإذا سلمنا بأن التربية هي حاجة أساسية لا غنى عنها للفرد ، وسوف تبقى كذلك ، فانه يتحتم علينا ان لا نقف عند حد تطوير المدارس والجامعات واغنائها وتكثيرها ، بل علينا ان نتعدى ذلك بتوسيع وظيفة التربية لتمتد الى جميع أبعاد المجتمع برمته .

(٥٨) المرجع السابق ، الصفحات : ٢١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ .

السنين ينقل المعاني الظاهرة والباطنة لمستويات الشخصية الإنسانية جميعها ، وبأسلوب يصل الى عقل الطفل غير المتعلم ، وإلى عقل الكبير الفيلسوف . والسر في تساوي الصغار والكبار في هذا الشأن ان اللاوعي هو مقرر قوي للسلك فاذا ما ضغط ذلك اللاوعي ، ولم يسمح لمحتوياته بالدخول الى دائرة الوعي فان العقل الواعي لشخص ما ستغلب عليه في النتيجة - مشتقات لعناصر من اللاوعي ، أو انه سيفسطر لوضع رقابة

صارمة قاهرة على تلك المشتقات مما قد يلحق شللاً قاسياً بشخصيته .
ومن المعروف أن معظم قصص الجنان ، نشأت أصولها في مراحل كان الدين فيها بالغ الأهمية في الحياة ، ولذلك فهي تعالج بصورة مباشرة مباشرة أو ضمنية ، موضوعات دينية يشهد بذلك أن قصص « ألف ليلة وليلة » مليئة بالإشارات للدين الإسلامي ، وكذلك الحال بالنسبة للكثير من قصص الجنان في الغرب^(٥٩) .



تخضع عصر النهضة الأوروبية عن كتيبات ومؤلفات
وأوصاف عديدة تتعلق بالمسلمين ، كالتى صدرت عن
أوجير دي بيسك **Ogier de Busbecq** وفيليب دو
فرسنسي كليناي^(١) **Phillipe du**
Fresne-Canaye، ويقت المصنوع الرئيسي لقياس
المواقف الغربية تجاه المسلمين ، ويمكن أن يضاف إلى
هذا كله أيضا الأدب الشعبي بأشكاله وصوره التي تمثل
تعبيرا كلاسيكيا عن عقلية حضارة ما^(٢). إن هذه
الدراسة تهدف إلى أن تقدم صورة مقارنة للمسلم في
أعظم ثلاث ملاحم في القرن السادس عشر وهي :
ملحمة **Orlando furioso** لكتابتها الإيطالي
لودوفيكو أريوستو Ariosto ، والملحمة الإيطالية
Gerusalemme Liberata ، لتاسو Tasso ،

العدو المسالم في ملاحم عصر النهضة الأوروبية أريوستو وتاسو وكاموينيس

رنا محمود إصباح

جامعة الكويت

(١) Ogier Ghiselin de Busbecq, *Turkish Letters* (١٩٦٠)

ترجمة: E.S. Forester (Oxford: Clarendon Press, 1968);

Phillipe du Fresne — Canaye, *le voyage du Levant*.

وتمت: Henri Hauser (Paris, 1897)

تحت مسمى *Türkengedächtnis* سجل كارل فونتوفر ثلاثة عشر عامدا من معانيات القرن السادس عشر في :

Karl Schottenloher, *Bibliographie Zur Deutschen Geschichte im Zeitalter der Glaubens palung*, (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1962);
1517 — 1585 المجلد الرابع، (Stuttgart: Hiersemann, 1957) م. ص 677-683

(٢) مقدمة عن الاتجاهات المسيحية تجاه الإسلام ، انظر :

Paul Coles, *The Ottoman Impact on Europe*, (London: Thames and Hudson, 1968); R.W. Southern *Western Views of Islam in the Middle Ages*, (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1962);
Norman Daniel, *Islam and the West: The Making of an image*, (Edinburgh: The University Press, 1958).

عن الاتجاهات تجاه المسلمين في الأدب الإنجليزي ، انظر :

Samuel C. Chew's *The Crescent and the Rose: Islam and England during the Renaissance*, (Oxford: Oxford University Press, 1937).

وانظر اطروحة دكتوراه في جامعة شيكاغو - ١٩٧٥ :

Henry Y.K. Tom, "The Wonderful Voyage: Chivalric and Moral Asia in the Imagination of Sixteenth Century Italy, Spain and Portugal."

وهي تتناول بالعمق أريوستو Ariosto وكاموينيس Camoens كما تركز على جنوب وشرق آسيا أكثر من تركيزها على المسلمين .

وملحمة *Os Lusíadas* للكاتب البرتغالي كامويس Camoens. وقد حظيت هذه الملحمة الثلاث بشعبية كبيرة، حيث تقدم أبطالاً مسيحيين يجاهدون أعداء مسلمين.

لقد نشر لودوفيكو اريوستو Ludovico Ariosto، أحد رجال قصر فيرارا d'Este Iords of Ferrara، ملحمة *Orlando furioso* لأول مرة عام ١٥١٦، غير أنه استمر يصقلها ويزيد فيها حتى عام ١٥٣٢. وتعد هذه الملحمة المكونة من ٣٨,٨٢٧ سطراً، أطول قصيدة في عصر النهضة الأوروبية - بل وربما في الأدب الغربي - تحظى بمثل هذه الشعبية الواسعة. إنها تصف الدفاع عن باريس بقيادة شارلمان Charlemagne وفرسانه ضد مسلمي الاندلس والمغرب. وهذه مادة تقليدية طورها الملحمة الشعرية في العصور الوسطى، بالإضافة إلى ملحمة *Orlando innamorato* التي كتبها ماتيو ماريا بوياردو Mat-teo Maria Boiardo الذي سبق اريوستو Ariosto بوصفه شاعر القصر في فرارا Ferrara. وقد جاءت نعمتها هائلة، ويتأثر بها مقسماً إلى حلقات متكئة تنفر إلى التراب. ويظهر فيها تأثير اريوستو Ariosto بروايات العصور الوسطى، التي كان قوامها الأسطورة أو الحب الشريف أو للشخصيات الغروسية، أكثر من تأثره بالملحمة الكلاسيكية. وإذا استثنينا الصورة الباهتة للشولان، فإن الشخصيات

والقصبة خيالية تماماً. إن موقف اريوستو العرضي تجاه التاريخ، قد وضع في ملاحظته من أن الدرع السوري في عصر شارلمان Charlemagne، كان على غرار دروع الصليبيين الفرنسيين في الأرض المقدسة^(٢). إن الذين يلعب دوراً صغيراً، حيث أن ملحمة *Orlando furioso* تعج بالسحر والعجائب.

أما ملحمة تاسو Tasso *Gerusalemme liberata*، التي جاءت في ١٥,٧٧٨ سطراً، واكتمل بنؤها عام ١٥٧٥، ونشرت في عام ١٥٨١، فمختلفة تماماً، لأنها مفعلة بالشك الذاتي الأدبي، ويسوس دنيّة، وقد أعاد تاسو صياغتها فيما بعد في ملحمة قائمة كنيّة *Gerusalemme conquistata*: تصف ملحمة تاسو *Gerusalemme liberata* الاستيلاء على القدس على يد الحملة الصليبية الأولى. وإذا كانت بعض الحوادث والشخصيات لها وجود تاريخي فإن معظم الأحداث المتسلسلة تعود إلى فيرجيل Virgil وهوميروس Homer أو تتبع من الخيال الانشائي الروعي لتاسو Tasso أو من اقتناعه الديني. ومهما يكن من أمر فإن كلتا الملحمتين الإيطاليتين لا تتضمن أية دفعة وطنية، غير أن تاسو Tasso، شأنه في ذلك شأن اريوستو Ariosto، يعظم الأسلاف الأسطوريين من أمسياده في أسرة دي إيست d'Este.

أما ملحمة *Os Lusíads* للكاتب البرتغالي لويس دي كامويس Luis de Camoens فإنها أقصر

(٢) يها يتصل بالبرفرابا لورسة من اريوستو Ariosto، وكامويس Camoens نظر التفاعل تحت اسمها في البيلفرابا الدولية MLA وسوف تنحصر العواض من الآن فصاعداً كالآتي:

Of إلى	Orlando furioso
GL إلى	Gerusalemme liberata
L إلى	Os Lusíadas

أرقام المراجع (السطر) تتصل بالانثيد والقطوعات الشعرية (الكتاب)

البردة ، بل أنها تنقل بشكل استقرائي العادات الغربية الى الشرق . وعلى هذا ، فإن نساء المسلمين يتمتعن بالحرية التامة والمكانة الاجتماعية للمثلاثين الغربيات . ان الملاحم الثلاث تصور نساء المسلمين محاربات يقاتلن جنبا الى جنب مع رجالهن ، فمارفيسا Marfisa في Orlando وكلويسندا Gerusalemme وliberata ، تقود أقطاب المسلمين . ويستدعي هذا المفهوم البعيد عن الاسلام تماما أمأزونيات الياياد Iliad وكاميليا الانبياد Aeneid ، كما يضيف من ناحية أخرى عناصر تشويقية الى القصص . وعلى وجه العموم ، فإن كلتا الملاحمتين الايطاليتين تفسلمان المجتمع المسلم والمسيحي على أنهما متشابهان ، رغم أن كلا منهما قد وضع في قالب رومانسي . لذا ، فإن القصيدة لا تكشف عن أي تحامل أو احساس بتفوق الحضارة الغربية على مدينة الشرق . وحقيقة الأمر أن « تكنولوجيا » وسياسات الغرب في القرن السادس عشر لم تكن على المستوى الذي يسمح للأوروبيين بالاحساس بالتفوق الحضاري . ولم تكن عاطفة العداء للإسلام قائمة على المنصرية ، لأنه ليس في هذه الملاحم أثر لأي احساس بتفوق العنصر الأوروبي على الأتراك والعرب ، وعلى ذلك ، فإن أريوستو Ariosto لا يجد فضاضة في أن يقدم العربي روجيرو Ruggiero على أنه مؤسس بيت دي إيست d'Este ، أولياء نعمته^(١) .

ان علم وجود شكل للحضارة الاسلامية في الملاحم الايطالية على الأقل يعود الى الجهل الذريع بها ، كما أن

الملاحم الثلاث ، وأكثرها تماسكا وطنيا وتاريخيا . انها تصف رحلة فاسكودي جاما Vasco da Gama الى كالكت Calicut ، إبان بداية القوة السياسية ، والتجارية ، للبرتغال في المحيط الهندي . ان الشاعر يدخل في هذه القصة تاريخ الصراع البرتغالي من أجل التحرر من فاطمي بلاد الأندلس ، ومن أجل تكوين امبراطورية في آسيا . ومن الجدير بالذكر أن الجزء الأكبر من هذه الملحمة Os Lusíads ، التي نشرت في لشبونة Lisbon عام ١٥٧٢م ، كان قد كتب في آسيا خلال السنوات التي كان فيها المؤلف جنديا مغفرا .

لقد أظهر المؤلفون الثلاثة معرفة جغرافية وتنوع الشعوب المسلمة أكثر من معرفتهم بحضارة المسلمين وديانتهم . ان التقاليد الملحمية ، التي ترجع الى فهرس هوميروس Homer عن السفن ، وملوحة فيرجيل عن الغزال الايطالية ، دفعتهم الى أن يضيفوا الى ذلك أسماء الملوك المسلمين ، الى جانب البلدان والأماكن^(٢) . هذه المعلومات دقيقة الى حد لا بأس به ، ولكنها لم تسلم من الأخطاء ، فعلى سبيل المثال ، يجعل أريوستو Ariosto انتشار مسلمين ، وذلك قبل اعتناقهم الاسلام بقرون^(٣) . ولم تقارن الملاحم الثلاث مطلقا بين الشرق والغرب في اللبس أو في الأكل أو في المعمار أو حتى في الاستراتيجية والمعدات العسكرية . بل انها لا تكشف حتى عن أي اهتمام بتعدد الزوجات عند المسلمين كما أنها لم تتضمن أية إشارة الى الحجاب أو الى

(١) Of 14 : 11-32; Of 18: 4-32; L3: 6-19, 7: 12-22 (٢)

Of 14; 30. (٣)

(٢) ان النقرة تجاه الأفرقة السود تظهر آثارا حصرية . فكلوريندا Clorinda في ملحمة Gerusalemme liberata ، ليست الابنة الملك الابرار وملكته السريفة الحبيبة ، وتصور كلوريندا Clorinda هذه الى امرأة يدها ذن أن الزينة حول عذع الزواج تظهر شدة يدها جبلة . ان تركية ناسو الغربية تعود الى كويتيليان (12: 13-14) ان سيجي أوريا السود ينظر اليهم بصورة ودية (12: 21-26) في حين أن الأفرقة للمسلمين ينظر اليهم على أنهم سود وبيحوا الفخر (17: 32) . ان أقطاب السود في ملحمة Orlando furioso هم الفريون الذين يساعدون للمسيح على مهاجمة بيردة Bizerta (38: 35-64) ويطرد بها جاما Da Goma بدخاؤون في مأوفة مع الأفرقة سود جهنومي ، ظلي ، بالهافة (1.5: 28-36)

أنفسهم العهد للمحمد ، يتضرعون لمساعدته في المعارك ، بل ويقدمونه . وعندما تجاهبهم هزيمة ، فإنهم يدعونه ويقدمون النذور للمعابد ، والأضرحة ، والمذابح^(١٠) . ومع هذا فإن بعض معتقدات المسلمين قد سجلت بشكلها الصحيح مثل الختان ، وتحريم الخمر وتحريم الأصنام . ولكن حين نحاول أن نستخرج أحكاما من هذه القصائد ، فإنا نجد أنها لا تهدف الرئيسية للمساجد عند المسلمين هو أن تعرض فيها الدروع والأنصاب التذكارية التي غنمها المسلمون من الفرسان المسيحيين^(١١) . ومن الجدير بالذكر أن الإشارة الوحيدة إلى عتوى القرآن تؤكد بصورة خاطئة أنه يقر النجس التركي في حمل الشبان النصراني عتوة على أن يكونوا انكشاريين^(١٢) . ورغم أن الملاحم تشير إلى خلافات سياسية بين المسلمين ، وشجارات بين قادتهم ، إلا أنها لا تشير أبدا إلى التقسيمات الدينية داخل الإسلام . ولعل الإشارة الوحيدة إلى « البروتستانتية » قصد بها مقابلة وحدة الإسلام بالتنوع الديني المسيحي (متحدثون دوما)^(١٣) . ويغلب على الظن أن المراد من ملاحظة ، كامويس Camoens هذه أحداث تأثير بلاغي أكثر من كونها جهلا بالجهود الأوروبية المترسمة لتأليب فارس الشيعة ضد تركيا السنية . ويصور أريوستو المسلمين في سلوك بعيد الاحتمال . فميدور Medor في ملحمة Orlando furioso ، الذي قدم بشكل متعاطف ، يصلي للفرس

الحديث عن الدين الإسلامي يشفي مزيدا من الصور القاسية عن الإسلام . فالمسيحية والإسلام دينان مساويان لما عقائدكما التوحيدية والأخلاقية المضمنة في كتابين مقدسين هما الإنجيل والقرآن ، حمل أمانة تبليغها رسولان كريمان . إن كلا الدينين يبحث على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم . كما يكشف القرآن عن احترام عميق لمعنى عليه السلام وأمه مريم .

لكن الملاحم صممت صممتا مطبقا إزاء هذه القضايا ، بل أنها تساوي المسلمين بالوثنيين . ولعل التأثير للتناقض أنها تتبع في مفهومها للإسلام نهج العصور الوسطى القائم على وجود تشابه ضئيل للغاية بين الديانتين في بعض القضايا . ولعل هذا فإن أريوستو Ariosto يبتكر شخصية رجل دين مسلم على غط الكاهن الغربي^(١٤) . وقد ابتدعت الأناشيد البطولية ثلاثية إسلامية لمحمد (صلعم) وترفجات Tervagant^(١٥) وإبوليون Apollin ، وتظهر آثار ذلك عندما يصف أريوستو المسلمين على أنهم عبدة لمحمد ، وترفجات Tervagant وإنا إذ نحجم عن الخوض في افتراءات العصور الوسطى ضد محمد (ص) ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، مزعموه من أنه وقع سكرانا ، وقد افترسته الحنازير . وعلى وجه المصوم ، فقد شبه دور النبي بدمر المسيح . وعلى هذا ، فإن المسلمين - في رأيهم - يأخذون على

Of 38:81-85, 40:13. (٨)

انظر : Jones, "The Conventional Saracen of the Songs of Geste," *Speculum*, 16, 1942, 210. C. Meredith Jones,

Jones, p. 210; Of 12: 60, 38:18. (٩)

انظر رجا الفصح 7، *The Figure of the Arab in Medieval Italian Literature*, Kuwait University, 1983 p.7 (١٠)

Of 18:55, 38: 86, 40:13; GL 20:13, 7; 17—Jones, p. 213. (١١)

Of 42:5, 29:22; GL 2:50, 20:85; Of 18:55. (١٢)

L 7:13. (١٣)

Sacripante تشبه غلاما شجاعا ارجانت Argante وسليمان Solimano، وتيزافيرنو Tisaferno في تاسو Tasso، فاته قد أخذت عليها القسوة والغرور^(١٦). وتعرض الملاحم مشاهد عديدة لقسوة المسلمين لكن هذا يقابل بأثلة من قسوة المسيحيين، كما نجد ذلك في مشهد الاستيلاء على اورشليم^(١٧). وتظهر هذه الملاحم العديد من المسلمين حكما أكفاء أو مستشارين حكاه . ان اريوستو Ariosto على وجه الخصوص يصف المسلمين بالرفاة والاخلاص لقاتلهم والتضحية بالنفس من أجله^(١٨).

ان المسلمين في موزمبيق يستقبلون رجال دي جما da Gama بطريقة ودية الى أن يدركوا أنهم مسيحيون، والملك المسلم المالندي Malindi ورجاله يتجاسون بشكل رائع مع البرتغاليين رغم اختلاف الدين^(١٩). كما تصف هذه الملاحم بعض المسلمين بأنهم مخلصون، بل وورعون في إيمانهم^(٢٠). وليس هناك أي اتهامات ضد المسلمين بالكسل أو الخسبة أو الشقي^(٢١).

ان الفرسان وبحارة هذه الملاحم يعملون عن أوطانهم، ولكنهم نادرا ما يبالون بالنساء اللاتي تركنهم وراهم. ان الحب بين الرجل والمرأة، غير، عادة،

مثلا يفعل الثالث الوثني ديانا Diana^(٢٢). وفي Gerusalemme liberata نجد اسمينو Ismeno الساحر، وعلاء الدين Ala-dine ملك اورشليم، يسرقان أيقونة لمريم العذراء، ويضعانها في المسجد على اعتبار أنها تمويذة^(٢٣).

إن القصائد الثلاث تسم أبطالها المسلمين بخصائص عديدة عجيبة، لأن طبيعة الملحمة تتطلب هذه الأشياء، فشجاعة هكتور Hector تدعم نصر أخيل Achilles، وأقطاب المسلمين شجمان بالمثل في الملاحمات الإيطالية، وأقوياء في إدارة الجيش، ومعظم هؤلاء الأبطال ينقسمون الى فئتين : فئة ادرجت ضمن المرتدين عن الاسلام الى المسيحية، من أمثال روجيرو Ruggiero، وصارفيسا Marfisa، وسوبرينو Sobrino، وكلورندا Clorinda، وهم نماذج لكل فضائل الفرسان. والفئة الأخرى قد قدر لها أن تسقط أمام الجيوش المسيحية. ومع ذلك فهم مستحقون للثناء لشهرتهم وبسالتهم، التي أظهروها بهزيمتهم الفرسان المسيحيين من الطبقة الثانية، غلما مثلا يهزم هكتور Hector باتروكلوس Patraclus. وعلى الرغم من أن شجاعة Rodomonte رودومونت في ملحمة اريوستو Ariosto، وماندريكاردو Mandricardo وساكريباتي

L 7; 9. (١٦)

Of 18:184. (١٧)

GL 2:6-7. (١٨)

Of 18:25; GI 19:26. (١٩)

Of 16:24-25; GL 1:87, 19:29-30, I3; 64. (٢٠)

Of 14:24, 38:65; GL 11; 29; Of 18:170, 19:11; 25, 81. (٢١)

GL 9:86, 17:32. أيضا :

L 1:54-63, 2:71-113, 6:1-5. (٢٢)

Of 41:43; L 7:33-36. (٢٣)

اختلافاً في طبيعة السحر ووظيفته عند كل من المسلم والمسيحي ، وهذا بدوره يضيء على قصيدته مزيداً من الخيال والغربة أما فيما يتعلق بتاسو Tasso فإن الموقف عنده مختلف تماماً ، إذ يبلو السحر سلاحاً مفضلاً لدى المسلمين . وهم يستخدمونه في الشر أكثر مما يتباهون ببراعتهم فيه ، إن كبار السحرة المسلمين من أمثال اسمينو Ismeno وإيدرويت Idraote ، يستعينان بالشياطين^(٢٥) ، وتشاركهما في هذا الساحرة ارميدا Armida ابنة إبح إيدرويت Idraote . ويقابل هذا ، من الجهة الأخرى ، العراف المسيحي الناسك الذي يعمل على إبطال سحر ارميدا Armida ، ويرفض بجلاء المساعدة الشيطانية ، ويمزي سحره إلى الدراسة المدققة للنجوم والقوى الخفية لعناصر الطبيعة . إذن ، فليس من المستغرب أن يجعل تاسو Tasso الشيطان في خدمة القضية الإسلامية^(٢٦) .

إن الارتداد عن المسيحية إلى الإسلام ، في الجهة المقابلة ، قد ازداد زيادة ملحوظة خلال القرن السادس عشر . وقد أخذ أريوستو Ariosto يذكر ، من غير أن يشعر بالمرارة ١٥,٠٠٠ حالة مرتد مسيحي يعيشون في القاهرة^(٢٧) . ويذكر تاسو Tasso ثلاثة مرتدين هم ، اسمينو Ismeno ، ورامبالدو Rambaldo وإمبرينو

عبر خطوط دينية ، وهذا - كما يظهر - تقليد يرجع في بعضه إلى الأنشيد البطولية . وفي معظم الحالات ، فإن الحب يقود إلى الارتداد الديني ، والنساء المسلمات ، في الأعم الأغلب ، هن اللاتي يقعن في حب فرسان مسيحيين ، حيث نجد فيورديليغي Fiordiligi تحب برانديمارتي Brandimarte ، وإيزابيلا Isabela تحب زيرينو Zerbino ، وإيرمينيا Erminia تحب تانكريد Tancred واربيندا Arminda تحب رينالدو Rinaldo ، غير أن هذا يقابل بمواقف مماثلة عند الطرف الآخر ، فبرادامانت Bradamante ، الأمازونية المسيحية ، تتزوج مسلماً مرتداً هو روجيرو Ruggiero ، والولع بارميدا Armida يفقد رامبالدو Rambaldo إلى الارتداد عن المسيحية^(٢٨) .

إن تاسو Tasso وكامويس Camoens يرتكان على إبراز نقائص المسلمين أكثر من أريوستو Ariosto ، وعلى هذا ، فإن الملحمة البرتغالية تصور المسلمين ، مراراً وتكراراً ، على أنهم جبناء في المعارك^(٢٩) . ولعل ما يفوق ذلك ، أن تاسو Tasso ، وكامويس Camoens ، على نحو خاص ، يصفانهم بالخدعية والمكر ، وهي نقائص تتناهى تماماً مع مبادئ الفروسية^(٣٠) . وعمل السحر في كلتا الملحمتين الإيطاليتين مساحة مشتركة فأريوستو Ariosto لا يرى أن هناك

(٢٥) لكن تاسو Tasso يلمح إلى لئالة بين سليمان Solimano وليبيدو Lebbino 9: 81-87.

(٢٦) Jones, p. 220; Of 46:73; Gl 5: 75.

(٢٧) 1: 89-91, 2: 25-28, 3: 67, 3: 50; L 1: 89-91, 2: 25-28, 3: 67, 3: 50.

(٢٨) GL 19:25, 19:89, 19:129; L1: 69-70, 1: 96-101, 2: 61-66.

(٢٩) GL 2: 1-4, 13: 5-12, 4: 20, Jones, p. 218.

(٣٠) GL 14:42; 4: 1, 7: 99-101.

هوى ، رغم أن موضوعه وأسلوبه هما الأقرب الى الأنشيد البطولية ، فمعظم تعامله يبدو مجرد أثر لهذا التقليد . انه لا يأخذ نفسه بجدية كبيرة ، وهمه الامتاع أكثر من التوجيه أو التنقيف . ان الحادثة الافتتاحية التالية تمثل طابع ملحمة *Orlando furioso* : يلتقي كل من المسيحي رينالدو Rinaldo والمسلم فيراو Ferrau صديقة بانجيليكا Angelica أميرة كاثلي Cathay الحسناء . وبينما هما يتقاتلان من أجلها ، تهرب . وعندما يلدكان ذلك ، يقترح فيراو Ferrau المسلم على خصمه أن يركب معه على حصانه ليبحثا عنها . ويعلق أريوستو Ariosto على هذه الحادثة فيقول :

أواه ، بالمظمة الفرسان القدامى !
كانوا متنافسين ، كانوا مختلفي العقائد ،
كانوا لا يزالون مشفقين على أجسامهم من آلام
الحرب المبرح ، ورغم ذلك
فانهم كانوا يلعبون مما عبر الغايات المظلمة
والمصرات المتعرجة ، دون أن يتأهبهم أدنى
ارتياب^(٣٣) .

كان تاسو Tasso وكامويس Camoens أكثر احساساً بالمرارة تجاه المسلمين ، فقد لاحظنا كيف أن كامويس Camoens كان يركز على جبن المسلمين ، كما كان يركز تاسو Tasso على غدرهم . وكان كلا الرجلين يتكئ على الكراهية العنيفة التي يكنها

Emireno^(٣٨) فأما الأول منهم فمكروه على الإطلاق ، وأما الآخران فهما على الأقل بحاربان في بسالة دفاعا عن معتقدهما الجديد . ومن الأمور الجوهرية في هذه الملاحم الثلاث الإشارة الى المسلمين الذين يتحولون الى المسيحية من أمثال روجيرو Ruggiero ، ومارفيسا Marfisa ، وسانسونيتو Sansonetto ، وبرانديمارت Brandimarte ، وسويرينو Sobrino في ملحمة أريوستو Ariosto^(٣٩) ، وكلوريندا Clorinda ، وازميذا Armida في ملحمة تاسو Tasso^(٤٠) . وفي ملحمة Os Lusíads ، نجد المسلم مونكيد Moncaide ، الذي يلتحق فرحاً ببعث دي جاما da Gama في كالكت Calicut ، ويعمل على انقاذها بتخليدها من مؤامرة يديرها المسلمون ضدها ، يرتد بعد ذلك الى المسيحية^(٤١) . كل هؤلاء المرتدين ، باستثناء أزميذا Armide شخصيات عفيفة ومحبة قبل الارتداد ويعده . أما الفرحة التي يعب عنها الشعراء في توكيد الارتداد فانها توحى أيضاً بأساس ديني لموقفهم تجاه المسلمين .

ان هذه الملاحم ، عكس الأنشيد البطولية ، لا تدخل في قلب مسيح ، ولا تضفي على المسلمين سميات سلبية ، ولا تصورهم أسرى شهواتهم ولا تركز على قسوتهم^(٤٢) . ويظهر أريوستو Ariosto أقل

Of 15:64. (٣٨)

GL 2:2, 5:75, 7:33-35, 17:32. (٣٩)

Of 22-36, 41:59, 38:7, 15:95, 41:39, 46:60. (٤٠)

Gl 12:65, 20:136. (٤١)

L 9:15. (٤٢)

Jones, p. 205. (٣٣)

وكاموينس Camoens بممارسة الكتابة . أما السنوات ما بين ١٥٥٩ الى ١٥٦٥ ، فقد وسعت بالتفوق التركي في البحر الأبيض المتوسط ، غير أن هذا التفوق قد تصدع نتيجة الاخفاق التركي في الاستيلاء على مالطة عام ١٥٦٥ . وفي العام التالي ، خرق الأتراك هذنتهم الطويلة مع الابيسورغيين في البحر . وفي عام ١٥٦٩ حاول الأتراك الاستيلاء على كازان واستراخان من الروس في الوقت الذي فيه بدأت ثورة مسلمي غرناطة على فيليب الثاني Philip II الذي سحقهم دون رحمة . وفي تلك الفترة ، استولى ملوك الجزائر المحاربين على تونس الدائرة في الفلك الأسباني . وفي العام التالي هاجم الأتراك البندقية من اتجاهين من البلقان ، ويفوز ناجح من قبرص . وقد ردت البندقية وفيليب الثاني Philip II وبيس الخامس Pius V على ذلك بتشكيل الحملة المقدسة . وفي عام ١٥٧١ دمر أسطول الحملة بقيادة دون جوان Don Juan النمساوي ، الأسطول التركي عند ساحل ليبانتو Lepanto في أكبر معركة سفن شراعية في تاريخ البحرية . وقد حاول السلطان أن يقلل من وقع الخسارة فاعتبرها كما لو كانت « حبة قد سقطت » ، وأعاد بناء أسطوله ، واستمرت الحرب حتى عام ١٥٧٧ غير أن البندقية لم تصمد إزاء الهالك المادي المستمر ، فسقطت . وكان السلطان قلعا يتوجس من الصفويين Sophy فلم يلبث أن صرف اهتمامه المتصاعد الى الجبهة الفارسية في الوقت الذي كان فيه على فيليب الثاني Philip II أن يسهر على الجرح المولندي النازف^(٣٦) . لقد عكست دون شك كل من الـ *Lusiads* ، التي

السلعون تجاه المسيحيين . كما كان كلا الشاعرين يشعر بأنه مطالب بأن يرد الضربة بضربة مثلما كان يفعل ذلك كبارهم ، فمبدأ « أحب عدوك » لم يكن له مكان داخل هذا الإطار . إن المسلم مقيت ، لأنه مكروه دائما من المسيحيين ، وهو يادغم هذه الكراهية . إن الشاعرين يكرهان الاسلام لأنه في رأيها زائف ولأن المسيحية على حق^(٣٧) . ولجليل يمنعها من الدخول في جدال مؤثر ضد معتقدات الاسلام وشعائره . حقا ، إن اتجاهها لتشبيه الاسلام بالمسيحية قد جعل النقد خطيرا ، لأن ذلك قد يقلل من شأن المسيحية . لكن يبدو أن المعاناة الذاتية كانت قد شحلت كراهيتها ، ففي عام ١٥٥٩ ، أغار القراصنة الأتراك على بلدة تاسو Tasso - سورينتو Sorrento - فقتلوا وأمسروا معظم السكان . وكان تاسو Tasso صغير السن مع أبيه في البندقية خلال هجمتهم ، ولكن أخذه كرورنيليا Cornelia التي فقدت قد فرت الى التلال ، واعتبرت في عداد المفقودين^(٣٨) . وقد فقد كاموينس Camoens إحدى عينيه ، حين كان جنديا صغيرا يشارك في معركة ضد المغاربة في مراکش . لقد قضى أجل سنوات حياته ملين عام ١٥٥٣ الى ١٥٧٠ ، في آسيا حيث كان يقاتل على ساحل البحر الأحمر وساحل مالابار Malabar . لقد بنى البرتغاليون إمبراطوريتهم الشرقية رغم المعارضة الاسلامية من أيام دي جاما da Gama الى جيل كاموينس Camoens نفسه .

لقد كان العداء بين المسيحيين والمسلمين يتصاعد حدة ، خلال السنوات التي كان تاسو Tasso

(٣٦) (الترجمة العربية للباحث) Of 1:22.

(٣٧) Of 8:69, 3:112, 3:20, 7:10, 1:93, 2:9, 1:68-70, 16:47, 9-19, 11.

(٣٨) انظر C. p. Brand, Torquato Tasso, (Cambridge: Cambridge University Press, 1965), ص ٨

الجيش البرتغالية في أفريقيا وفيما وراء البحار . انه يمجّد ، مرارا وتكرارا ، الملوك البرتغاليين في المعصور الوسطى الذين هزموا للمسلمين وطردوهم .

لقد استعصر كامويس Camoens ، عندما كانت بعثة دي جاما da Gama على وشك أن تغادر لشبونة Lisbon ، شخصية بطيرونكية تتكلم نيابة عن الشاعر في نقد بناء امبراطورية في الهند ، ونحت على حرب ضد المسلمين في أفريقيا ، وتوجهه الآيات الأخيرة في ملحمة Lusíads الى الملك سبسيان Sebastian في أن يسوي التحصينات في المغرب بالأرض . وأنه ان انجز هذا الأمر ، فإن ربات شعر كامويس Camoens سوف تنفي بمآثره حتى تترك البشرية بأسرها أنه الأسكندر الثاني ، بل على العكس من ذلك تماما ، فإن سبسيان Sebastian لن يكون في حاجة ليهبط اخيل Achilles على تحافه هوميروس Homer خلدا لفعاله^(٣٩) .

ان النتيجة معروفة تماما فسبسيان Sebastian يكافئ كامويس بعماس بسيط ، لكنه ليس بحاجة الى شاعر يحث على حرب صليبية^(٤٠) ، فذلك هو المحدود وخياله الدونكيشوتي يقوده الى القيام بحملة على المغرب ، متجاهلا تحذيرات مستشاريه ، وتحذيرات فيليب الثاني Philip II . وهنا يقوم الملك شريف عبدالمك بالرد على الحملة الصليبية باعلان الجهاد .

نشرت عام ١٥٧٢ ، و Gerusalemme liberata التي اكمل بناؤها عام ١٥٧٥ ، قلق وفورة منطقة ليبانتو Lepanto .

ان الملاحم الثلاث كلها تطالب بمحملات صليبية جديدة ضد المسلمين . وان نظرة اريوستو Ariosto التسمية بالصفاء والقديمة ، اضافة الى الانشغال الايطالي بحروب ايطاليا في وقت ممارسته الكتابة ، يجعل دعوته لحملة صليبية أمرا متبررا للغرابة . ولعل الأمر يكون مناسباً لو اسقطنا دعوته هذه واعتبرناها عاطفة دينية تقليدية ، غير أن اريوستو Ariosto يبدو جادا بشكل مفرغ مع أنه لم يتحدث من قبل - في موضع آخر - الى أبناء جيله ، حديثا مباشرا مفهما بالحماس . ويبدو أن دمار ايطاليا والمذابح المتبادلة فيها بين المسيحيين هي التي دفعته الى اللطافة بتوجيه جيوشهم ناحية الاتراك^(٣٧) . اما دعوة تاسو Tasso الى حروب صليبية جديدة فانها تتخذ مسارا دينيا واضحا ، وتعتمد بصورة اذن على الخطاب المباشر من اعتمادها على معالجة الموضوع برمته^(٣٨) . أما فيما يتصل بكامويس Camoens فان المسلم عنده يظل عدوا لدودا على الدوام لبرتغال . لذا تجده في افتتاحية ملحمة التي اهداها الى الملك سبسيان Sebastian ، يحث فيها على ان يرفع رعبا جديدا في قلوب المسلمين ، وأن يكسب أرضا جديدة للدين الصحيح ، ثم يضيف قائلا : ان العالم كله سيرتد ، وسيحملق المغاربة رعبا في مآثر

(٣٧) انظر : Fernand Braudel, *The Mediterranean and The Mediterranean World in the Age of Philip II*, ترجمة Sian Reynolds, (New York: Harper and Row, 1973), II, pp. 967-1185

(٣٨) OF 17:73-79.

(٣٩) GL 17:93-94.

(٤٠) I. 1:7-8, 1:15, 3:23-118, 4:94-104, 10:156.

عبيدا وأمري مقابل فدية . وموت كامونين
Camoens بعد سنتين . في حين يطالب فيليب الثاني
Philip II بوراثته للبرتغال^(١١) .

لقد أوجت الحملة الصليبية الأخيرة بأن الشعر
العظيم ليس له أحابيل السياسة الحكيمة^(١٢) .

ويتعرض البرتغاليون ، الذين تقودهم قيادة ساذجة ،
وهم يعانون من الجوع والعطش والانهك تحت شمس
الصحراء المحرقة الى هزيمة ساحقة في القصر الكبير في ٤
أغسطس ١٥٧٨ . ويهلك سبستيان Sebastian مع
نصف جيشه في ميدان القتال ، في حين يؤخذ الأحياء



H. H. Hart, Luis de Camoens and the Epic of the Lusitadas, (Norman: University of Oklahoma Press, 1962) p. 195. (١١)

Braudel, II. 1178-1184; E.W. Bovill, The Battle of Alcazar, (London: Batchworth Press, 1952). (١٢)

شخصيات وآراء

تمهيد

إن تركيز الضوء على ظاهرة ما في لحظة متوقفة عبث لا طائل وراءه ، فمن الخطأ أن نتعامل مع هذه الظاهرة أو تلك بشكل (آلي) في لحظة متفردة لتفصل ما قبلها عما بعدها ، أو تقتصر على رؤية الإنسان في التاريخ بوصفه (هيكلًا تصوريًا) للآسان .

وهذا الخطأ الذي يقع فيه كثير من الدراسات المعاصرة لا يمكننا من تفهم دلالات الحاضر في ضوء الماضي ، ووضع قانون مصغر للأشياء نستطيع به تفسير ما سيجري اللحظة المقبلة ، ومن هنا ، فنحن في خلاف دائم مع فلاسفة التاريخ الأمريكيين ، خاصة ، ممن جاهدوا لتصبح النزعة التجريبية الوضعية لها سيادة مطلقة ، كما أننا في خلاف دائم مع أولئك المؤرخين التقليديين أو (كتبة) التاريخ المحلي ممن يحاولون فهم هذه الظاهرة أو تلك بمعزل عن السياق التاريخي ، وهو ما يخالف كثيرا من المراحل للفهم النقدي للتاريخ وطبيعة رسالته .

وهذا الفهم الرتيب الخاص بالمنهج لا يقتصر على تصور الوعي الشخصي فقط ، وإنما يجاوزه في تصور الوعي في فهم العملية التاريخية ، فالظاهرة في إطارها الزمني ليست منبئة الصلة بغيرها في البنى السابقة عليها . ومن هنا ، لا يمكن أن نسرى في محاولات « البنائية » في هذا الصدد فائدة كبيرة لتقصي الدلالة ، فمن الصعب بمكان أن ننظر إلى الحادثة التاريخية في إطار محدد يختلف عن العالم ولا يتماشى مع بقية أفعاله الأخرى ، وإن كنا نتفق معها ، بالضرورة ، في محاولة فهم الظاهرة للقبض على هذا النظام المصغر ودلالاته بغيره ، لتستطيع ، من ثم ، فهم النظام العام وإحكامه .

والأكثر من هذا دلالة أننا وحتى في البحث عن قانون داخلي أو - حتى - شفرة تكشف عن حركة الأبنية

المجرب والغرب في الفكر العربي الحديث

مصطفى عبد الغني

الترتيب الذي يمكن أن يكشف لنا عن الأبنية الداخلية وعلاقتها في السياق العام سوف يظل هنا ثابتا . فلنخرج من إطار المنهج إلى إطار الرؤية والتفسير . إن العلاقة بين الشرق والغرب ، أو بين الجبرتي (كمثل لفكر الشرق) وبين صحف يونانيرت في مصر حثيث (كمثل لفكر الغرب) ، نظل هي العلاقة التي منصل في أطارها إلى مفاهيم مجردة ، وسوف تسبق هذه المرحلة مرحلة أخرى تمهد لها ، وتكشف في التتابع الزمني عن المؤثرات العامة التي أدت إلى تحديد (خصائص) الظاهرة والكشف عنها إذا أمكن ، والافادة من هذا (القانون) للمصغر الذي يمكن من خلاله كشف طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب فيها بعد ، وحتى الآن ، في إطار هذا الفهم . ويشكل آخر ، سيتحدد إطار هذا البحث في خطين :

الأول : دراسة خصائص عصر الجبرتي ، وملاحظ الثقافتين : العربية والفرنسية ، لنخرج ، من ثم ، من التعميم إلى التفصيل .
ثانيا : دراسة موقف الجبرتي الخاص من الفئات الدخيلة على مصر ، وهو ما سيصل بنا من جديد إلى رصد بعض الدوافع التي كانت وراء تكوين الاثر الفكري سواء في الجانب الشرقي أو الغربي .

وسوف نقبض على عدد من خيوط شبكة التحولات من خلال هذين الأثرين :

• عجائب الآثار في التراجم والأخبار : عبدالرحمن الجبرتي ، الجزء الثالث ، (وقد طبع بالقاهرة بدون تاريخ) .

• *Courier de L'Egypte* : وهي الصحيفة التي انشأها نابليون بونابيرت حين جاء إلى القاهرة (١٧٩٨ - ١٨٠١) ، وقد طبعت بالأزبكية بالقاهرة .

الداخلية للحادثة ، فإننا لا نستطيع تجاهل علاقة هذه الشفرة بغيرها ، على افتراض أنها يمكن أن تمثل في لوحة الفسيفساء (زمنيا) جزئية تكرر نفسها في متتالية دائمة مستمرة .

وهنا ، نجاوز حركة (العدسة) المتوقفة إلى حركة (العدسة) الزاخرة بالمعاني والدلالات . وعلى هذا النحو ، نصل إلى الفارق بين رؤية (البنائية) في أطارها اللازمي وبين الرؤية (التاريخية) في دأبها على التقاط الأحداث واستيعابها في إطار زمني يعي ما قبله ويعمل لما بعده .

وليس معنى ذلك أننا نقف على (البنائية) في تصورها الرياضي أو تقترب من (الماركسية) في تطورها الزمني . ففي رأينا أن البنائيين استفادوا كثيرا من المفاهيم الماركسية الأولى وشراسها (من المعروف أن البنائيين الأول وضعوا الماركسية مع ما وضعوه من أهمياتهم ، فمن يقول « وبعون آرون » . فهي جزء لا ينفصل عن فكرهم ، ولذلك فإن التوسير وسارتر ولوفيفر وليفي شتراوس كلهم ادعى لنفسه حق ممارسة الديالكتيك الماركسي - وهو ما اشارت إليه أدبت كيرزويل في كتابها : عصر اليثوية الذي ترجمه أخيرا للعربية د. جابر عصفور .

ومن هنا ، ستظل محاولتنا مقصورة على الافادة من هذه الاجتهادات مجتمعة بأن تتعامل مع الظاهرة وتقبض على دلالاتها بمنظور خاص ، لا يلتزم بالضرورة بالمناهج ، بقدر ما يدخل معها في علاقة نقدية بالمعنى الفلسفي .

ومما سبق ، سوف نحاول أن نعيد الحرم إلى وضعه الطبيعي مقلوباً من الرأس إلى القاعدة ، وبدلاً من أن نحلل (نموذجاً) معينا ، نتم عنه بالوصف فحسب ، نستضيف إلى هذا محاولة سابقة تمهد في وضع هذا (النموذج) في إطار التتابع الزمني وتطوره . . غير أن

إننا يمكن أن نتمثل بني المصور الثلاثة برموز ثلاثة هي : أ ، ب ، ج ، فنرى العصر السابق على عصر الجبري على أنه (أ) ، ثم عصر معاصرة الجبري لبونابرت على أنه (ب) والعصر التالي على أنه (ج) .

وهذا التصور يكشف لنا طبيعة (البنى) دائما في تغييراتها الزمنية ، السابقة أو اللاحقة ، بما يوفر لنا إمكانية التعرف على الخصائص أو العلاقات المتغيرة من هذه البنية أو تلك ، بما يقرب بنا من تكشف طبيعة الخيوط المخبأة في نسج المستقبل .

وسوف نتمثل هذه البنى على النحو الآتي :

إن الرمز الذي سبق مجيء بونابرت إلى مصر يختلط فيه كثير من التصورات التي تحول بعضها ، بنفس النظر عن صنفها ، مع الوقت ، إلى أفكار ثابتة يتفق عليها عدد كبير من كتّاب التاريخ المصري من المصريين والأجانب في آن واحد .

فبينما ذهب البعض - وهم الأغلبية - إلى أن هذه الحقبة هي حقبة تجمد وتدهور ، فإن البعض الآخر ذهب إلى أنها ، على العكس ، حقبة تطرّد وتطور ، وكان يمكن أن تستمر لولا ما طرأ على الواقع المصري من تغيير منذ جلاء الفرنسيون إلى مصر في نهاية القرن الثامن عشر .

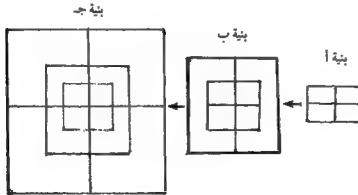
وسوف نتحدد الفترة الزمنية هنا بين عامي ١٧٩٨ - ١٨٠١ على اعتبار أنها الفترة التي تحدد من خلالها دائرة اللقاء الأول بين الشرق والغرب ، على أن تمثل هذه الفترة مركز الدائرة للدائرة الأرحب للعلاقات بين الشرق والغرب قبل هذا ويعدّه ، وخاصة الفترة التي تمتد بين عامي ١٧٦٠ - ١٨٤٠ لاعتبارات سيأتيها البحث أيضا كما سنرى .

وسوف نرى أن هذه الفترة منقسم إلى ثلاثة حروف ، تنوسط الفترة الأولى ١٧٩٨ - ١٨٠١ وهي الفترة (ب) التي تنوسط فترتين أخريين أطلق عليها (أ) و (ج) .

ولا يمكن أن نتعرف على خصائص عصر الجبري دون تفهم العصر الذي سبقه على أساس أن مجموعة الخصائص والتغيرات التي حدثت في هذا العصر - السابق - هي التي أدت إلى بنية زمنية تالية .

وليس من شك أن دراسة هذه البنية الجديدة تصل بنا ، بالتبعية ، مع التغييرات التي تنابع يصل إلى البنية الثالثة ، وهي العصر الذي يعقب فترة وجود بونابرت في مصر .

وعلى هذا النحو ، فإن تمثل البنى الزمنية الثلاث يمكن أن يسهل لنا دلالة التابع وأهميته من منظور مجايد .



وهذا الفهم الخاطئ اختلط فيه الثقافة الاجتماعية بالتحولات الاقتصادية ، فأسهم فيه كثير من الغربيين أنفسهم كي يتم تحديد هذه العلاقة وطبيعتها قبل فترة التدخل الأوروبي ثم بعده بقصد رصد عمليات استيعاب المستحدث من عناصر الثقافة الأوروبية . فلنرجى الدافع السيكولوجي للثقافة الغربية ، ولنتوقف ، أكثر ، حول طبيعة الواقع السياسي والاقتصادي حينئذ .

فلنحاول ، الأجابة عن هذا السؤال :

ماهي طبيعة الفترة التي سبقت مجيء بونابرت إلى مصر ؟

الاجابة لا بد وأن تقضي في اتجاهين .

في اتجاه يرى البعض أن الفترة التي سبقت نابليون كان يشربها التخلف مثل جاكوب لاندائو Jacob Landau الذي راح يولع بحشد للعلوم دون تمثلها خاصة في دراساته عن المسرح ، والرحالة ادوارد لين الذي راح يسقط قصص (الف ليلة وليلة) على حياة المصريين بعد رحيل بونابرت بسنوات ، فضلا عن أن عددا كبيرا آخر لم يستطع تفسير بعض الظواهر الفنية في الشرق وتجتع بعضهم بالحس الخيالي دون الحس الوصفي من أمثال باول كاله Paul Kahle وياكوب Jacob وفولني Volnne ومولييك Moliac وتترالى الاسماء الكثيرة بعد ذلك حتى نصل الى المؤرخ كروتشلي A.E.Crouchley الذي صور مصر على أنها كانت مجرد حطام : « فقد ضرب ربا ، وتدهورت تجارتها ، وضعت صناعتها ، بل وبدأ عدد سكانها في التناقص ، وقد كان المجتمع يحق في حالة من الجرمود وعدم الحركة » ، وقد كان هذا بالطبع يعود الى الفترة المملوكية التي لم تعرف الاستقرار السياسي والاجتماعي واقامة القانون والنظام .

هذا هو الاتجاه الذي يرى أن الحقبة التي شهدت

الحملة الفرنسية هي حقبة تدهور وانحسار ، أما الاتجاه الآخر ، فهو يذهب إلى أن هذه الحقبة كانت فترة تطور وازدهار على العكس مما يذهب إليه الآخرون . وعلى رأس الاتجاه الأول كان د. لويس عوض في كتابه : تاريخ الفكر المصري الحديث ، متخذاً من أعمال ابن خلدون وابن اياس ثم الجبري مرجعا له عن هذه الفترة فضلا عن بعض المراجع الغربية . ثم أهم باحثي هذه الفترة على الاطلاق ، وهو ، بيترجران الذي يقف على رأس هؤلاء ، الذي قال : « إن ثمة تطورا داخليا كان ناميا في مصر فيما بين عامي ١٧٩٠ - ١٨٤٠ نحو الرأسمالية التجارية ، غير أنه قد أصابه بعض الاختلال من جراء الآثار المضادة التي ولدتها أنشطة التجار الأرمن واليونانيين المقيمين آنذاك في وادي النيل حتى كادت هجمة الحملة الفرنسية على مصر تقضي على ذلك التطور » .

والواقع ان دراسة الحقبة التي سبقت مجيء الفرنسيين الى مصر في نهاية القرن الثامن عشر لا تضعنا في حيرة كبيرة .. ففي حين كانت الروح المعنوية لا سيما على مستوى العلماء والمراكز الثقافية مرتفعة ، والعناصر الاقتصادية فيما تمثل في التجار في طريقها الى الارتقاء ، فإن البلاد كانت تعاني من سوء النظام الاستبدادي الذي شجع على سيادة الفكر المحافظ ، وقد ظهر هذا جليا في جود لم يلق معارضة شديدة ، فرغم وجود تراكيب آلية للبداع لم يكن ليخطأها مؤرخ هذه الفترة ، « غير أنها وفرت ادوات لتحكم السلطة الاستبدادية والمعدات والتقاليد . وأحد هذه المبادئ هو الاجتهاد ، وهو بمثابة طريقة لاكتشاف مناجح حكم القرآن أو السنة على موقف معين » (أحمد عبدالرحيم مصطفى ، حركة التجديد الاسلامي ، معهد البحوث والدراسات العربية ص ١٣) . فلذا بنا أمام التقليديين الذين يتجهون الى الحد من حق استعمال الاجتهاد لانه قد يؤدي الى

طبيعة التحالف الذي كان يقوم بين العلماء والماليك حيثئذ ، فإنه يمكن أيضا الجزم بأنهم - العلماء - كثيرا ما قاموا بدور الوسطاء بين الماليك وبين الشعب (انظر احداث سنة ١٢٠٠ من الهجرة : عجائب الآثار ، على سبيل المثال) . أو بين الماليك وبين انفسهم أو بين الماليك وبين الوالي العثماني مما يشير الى ضخامة دور هؤلاء العلماء مما ينتج عنه ادوار ايجابية لرد الظلم عن الناس وخاصة حين تتحدد مواقفهم في حدود تطبيق المعاملات الاسلامية وبشكل نظري .

وهذا لم يمنع وقوع بعض رجال الدين أسرى للخرافة والدجل ومغالاة بعض رجال الطرق الصوفية ، غير أن دور رجال الدين عامة ظل دائما موازيا لقدروتهم التي تمتعوا بها ، ونستطيع أن نزهد في غشوة بعنوان (أخبار أهل القرن الثالث عشر) موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ورمز (طلعت ٢١٤٨ ، ص ٣٤) . . كيف أن محمد بك (ابو الذهب) - في فترة مبكرة - لقي معارضة شديدة من الشيخ الدمنهوري شيخ الجامع الازهر حين رفض ان يكتب له تصديقا للذهاب الى عكا (للحرب) ، وحين كتب هذا الحاكم إلى العلماء مستألفا منهم . فلان بعضهم (اجاب وبعضهم امتنع) ، بما يشير إلى المكانة التي كان يتمتع بها العلماء .

وتؤكد المخطوطة نفسها بعد هذا كيف ان دور العلماء انتقل الى المحصورة واصلاح ذات البين بين الماليك أنفسهم .

ويسهب كتاب بيتر جران في تفضيل دور رجال الازهر من العلماء حيثئذ . . فبعد ان يستعرض النشاط التجاري يعزو هذا الازدهار الى زيادة دور الازهر وزيادة ارتباط علمائه بهذه القوة الاقتصادية والاجتماعية (القومية) السامقة .

ويلاحظ هنا أن جران لا يكاد يصل إلى دور العلماء

شروح تحريرية قد تقضي الى تغيير التعليم والمعادات ، ومن ثم ، فإنه يبنينا بدأ أطراد الازدهار الفكري والاقتصادي من ناحية ، بدأ غلبة المعادات والتقاليد عند عامة الشعب من ناحية أخرى ، وهو ما يشير في السياق الآخر إلى ان الحقبة السابقة على الحملة الفرنسية لم تكن كلها جمودا ، إذ كان من الطبيعي أن يكمن نبض الحضارة الشرقية تحت رماد العزلة والعجز .

ولنتوقف هنا قليلا ، لنحاول تركيز عين العمدسة أكثر على هذا العصر من خلال فئتين اثنتين :

أ - العلماء / المتقنين

ب - التجار / الأعيان

على أن نضع في الاعتبار أن تطور الفئتين يسهم في تأكيد الروح القومية .

وتفصيل هذا اتنا لا يمكن أن نقرأ أو نعود إلى يوميات الجبري أو عديد من مخطوطات القرن الثامن عشر في دار الوثائق المصرية ، أو حتى ، الوثائق التي تقع في اصابير الازهر دون ان نصل إلى حقيقة ناصعة ، هي ، أن علماء الدين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير وعلم غزير ومكانة رفيعة .

لقد كان الازهر ، بشكل ما ، هو الجامعة التي تضم أكبر عدد من العلماء والمتقنين حيثئذ ، والجزءان الأول والثاني من (عجائب الآثار) يزخران بدور علماء الدين الواعين ومواقفهم الايجابية من الحكام الماليك لصالح ابناء الشعب ، فبعد أن كان (القضاء) يعتمد على الماليك قبل كل شيء ، فإن خلافت المماليك وانقسامهم على انفسهم ضخم أكثر من دور العلماء ، إذ وجد كل طرف منهم أنه في حاجة ماسة إلى زعيم يستعين به على الآخر ، وكوسيط بينه وبين الشعب .

لقد بدأ أن النزاع الدينية عند العلماء كانت عاصما للناس من ظلم الماليك ، وفي بعض الأحيان رد الظلم كما زادت المقال ، ومع انه يمكن أن نفق كثيرا عند

الايجابي حتى يربط بينه وبين فشة التجار المصريين ودورهم ، فقد كانت هذه الفشة آخذة في التنامي والازدهار في القرن الثامن عشر خاصة ، أي قبل مجيء نابليون .

ولا شك أن اجتهد جران يصبح حقيقة مؤكدة حين نتوقف عند ثلث القرن السابق لمجيء الحملة الفرنسية حيث شهد نموا متسارعا لطبقة رأسمالية تجارية (مزدهرة) قومية ووطنية ، ذات موقف وطني معاد لسيطرة الاجانب الجراكسة والترك والافرنج .

ويؤكد هذا ما يلاحظ من هذه العلاقة الوطنية بين الاقتصاد ورجال الدين متمثلة في تجديد علم الحديث الذي اقترن حينئذ بالنشاط الواسع للقطاع التجاري في القرن الثامن عشر وصحبه الى حد بعيد .

ويدهي هنا هذا الربط بين التحول الاقتصادي والبلور الاسلامية التي كانت تتمتع على (التحول الاقتصادي / الزراعي / الحرفي) في مصر في القرنين السابقين لمجيء الحملة الفرنسية ، وحصل أساسا ان (الفكر العلماني الاسلامي) ، على حد قول جران ، والذي انتجه شيخ الازهر ، لم يشرع في التبلور ، اللهم إلا ، منذ منتصف هذا القرن - الثامن عشر - وهو الوقت الذي بدأ فيه العمل لاجهاض التحولات الكبرى في المنطقة .

ويصبح من محصيل حاصل أن نقول إن الفترة التي سبقت مجيء حملة الغرب ، انما شهدت ارمصاصات التطور في شتى الميادين مما تمثل في تحالف المماليك / الحكام مع التجار المصريين / ابناء العرب - كما كان يطلق عليهم - وشهدت كذلك تحولات اجتماعية مصرية خالصة حيث ازدهرت أحوال التجار المصريين الذين (نافسوا المماليك انفسهم) وتوازى مع هذا كله ، صعود جماعة (العلماء) في تحالف وطني قومي .

لقد بدا واضحا الآن ، ان هذا التطور المتطرد في الاتجاه الايجابي كان يمكن - كما استنتج جران - أن يؤدي إلى تطور طبيعي آخر لو سارت الامور على النحو الطبيعي عما كان يحول بيننا وبين الصدام غير المؤهل مع الغرب وما عقبه من تفكك في آليات التطور الذاتي في شتى الميادين .

ومها يكن ، فإنه بمجيء الحملة الفرنسية كان على الجبرتي أن يبي طبيعة المرحلة الجديدة ومؤثراتها الطارئة ، ومن ثم ، فإنه راح يدون في اليوم الأول من مجيء هذه الحملة إحساسه الداخلي بالخطر ، واستشرافه لمرحلة جديدة ، تمضي بمصر والمنطقة العربية إلى حيث لا يحمد عقباه .

إن هذا كله بدا واضحا في أحداث السنة (١٧١٣ / ١٧٩٨) ، حيث يقسول في أول الجزء الثالث من (عجائب الآثار) :

« وهي أول سقى للملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل المأثلة وتضاعف الشرور وترادف الامور وتوالي المحن واحتلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأساليب وما كان ريك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (ص : ١) .

وهنا ، يكون لزاما علينا أن ندخل إلى مساحة هذه البنية الجديدة .

فما هي ملامح هذه المرحلة الثالثة . ؟

إن البنية التالية لم تكن منزلة عن سابقتها قط ، ومن ثم ، فإن التشابه هنا يكون موضع تكشف الاختلاف والتراكم وليس الرصد والمتابعة ، فمن الصعب فصل البنى عن بعضها ، بل ويمكن أن نضيف الى آثار البنية الثانية آثار البنية التالية - جـ - مما يمكن معه أن نطلق على

الفرنسيين ، فهم يعرفون ميعاد قيام ثورة القاهرة ، ومع ذلك ، فإنهم لم يبلغوا الفرنسيين .

وهذه الرواية لم يذكرها الفرنسيون فقط ، وإنما ذكرها مصدر يكاد يكون عابدا هو (نيقولا الترك) (ص ٢٨ - ٢٩) .

والأكثر من هذا ، أن نابليون في منشاءه - بسانت هيلانة - راح يستعيد أحداث الحملة بمصر ، فلم يتردد عن الاعتراف بدور رجال الدين والعلماء ، فلم يغفل قط عن كسب رضاهم ولقلمهم « كانوا شيوخا جديرين بالاحترام لفضلهم وعلمهم وراثتهم ، بل ومولدهم . وكانوا عند شروق كل شمس يأتون هم وعلماء الأزهر إلى قصره قبل الصلاة فيلما حرسهم ساحة ميدان الأزبكية ، ويمتطون بأنفسهم المظلمة ومن حولهم أتباعهم وعدد غفير من العدائين المسلحين بالشوم فيحييهم الحرس الفرنسيون التحية العسكرية . . وفي القصر . . يستقبلون بالجللة ، وتقديم لهم الشربات والقهوة . وبعد لحظة يقبل الجنرال فيجلس وسطهم على الأريكة ، ويحاول كسب ثقتهم بالمناقشة في القرآن ، ويطلبه تفسير الآيات الملحة ، ويبادلهم اصحابه العظيم بالرسول (ص) حتى إذا غادروا القصر انصرفوا إلى المساجد التي يجتمع فيها الناس ، فحذوهم بآمالهم ، وهذاؤا من روع الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . كما يؤكد صاحب كتاب (يونابرت في مصر) ج. كروستوف هيرولد (ترجمت إلى العربية ونشرت بالقاهرة ١٩١٧ ص ٢٥١ نقلا عن مراسلات يونابرت) .

أما الأعيان فلم تكن لتخلو مصادر هذه الفترة من ذكر دورهم وأهميتهم ، فـ « عجائب الآثار » ، على سبيل المثال ، تذكر دورهم هم والعلماء في مقاومة الحملة ، فالجبرتي حين يتحدث عن فترة الكفاح ضد قوى الاحتلال كان يذكر دورهما معا ، كما كان يقرن

هذه الفترة المخطيرة من تاريخنا - كما أطلق عليها البعض - بأنها (مفترق الطرق) .

وإذا كانت البنية (أ) هي البنية الأولى التي احتوت على خصائص البنية الطبيعية ونسيجها الأصلي ، فإن البنية (ب) شهدت التغيرات الكثيرة الطلوة والتي تمثلت في آثار الحملة الفرنسية التي احتلت مصر قرابة ثلاث سنوات (١٧٩٨ - ١٨٠١) ، وما تبع هذا من جملة التغيرات الكثيرة التي قدر لها أن تحدث قبل أن يحاول النظام العثماني العودة ثانية كي يجهز على بقايا محمد علي في البنية (جـ) التي وصلت بمصر في نهاية هذا (المفرق) الهام إلى علامة جديدة في طريق العصر الحديث .

وهنا ، يمكن أن نرى في حملة يونابرت حدثا هاما في تاريخ مصر . . خاصة وأن العلماء والأعيان تمتصوا ، سواء بسواء ، بنفس الدور القديم ، هل الأقل في الظاهر . . وهنا ، يمكن أن نشهد الملامح الأولى في تبلور الروح القومية وتوحيها .

لقد ظل العلماء يتمتعون بهذه الأهمية ، وهو ما بدا كثيرا في عديد من مصادر هذه الفترة . . فكثيرا ما كان الجبرتي يذكر دور المشايخ أثناء هجوم الفرنسيين الأول على القاهرة ، فيقول حينئذ (فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك الى ساحل بولاق وحضر الباشا والعلماء . . ص ٦ ، وهو يردد في موضع آخر وفي أكثر من موضع نبهوس (أكابر البلد من المشايخ) ويذكر دورهم في تنظيم علاقات التعامل بين (ساري عسكر / نابليون) حين تمكن الفرنسيون من التغلب على أهل البلد وبين أهل البلد من الشعب . بل إن كتاب (وصف مصر) الذي وضعه الفرنسيون أنفسهم يتحدث كثيرا عن دور العلماء / الأزهر) ، كما لم تتوقف صحف الحملة الفرنسية ومصادرهما عن ذكر دور رجال الدين المتعاملين مع الفرنسيين ، في أنهم - أي العلماء - لم يترددوا في أن يتخلوا موقفًا مناورًا للهجوم على

إلى أي مدى كان يمكن أن تتطور الطبقة الجبلية من العلماء والأعيان لولا هذا الجزر السليبي بمجيء القوى الجبلية الفرنسيين ومحمد علي ؟

إن الاجابة تقتضينا أن نجاوز البنية (أ) والبنية (ب) لنصل منها إلى البنية (ج) حتى نرى تأثير البنيتين السابقتين على البنية الأخيرة .

ورغم أن حدود البحث تقتضينا التوقف عند البنية الثانية لنرى من خلال المنهج النموذجي المقارن طبيعة هذه البنية . فإن القفز إلى البنية الثالثة والعود بسرعة إلى فترة وجود الحملة - البنية الثانية - يتيح عرض الفرضية التي يعرضها البحث ويحاول البرهنة عليها .

إن ملاحظة جران في هذا الشأن لا يمكن تجاهلها قط ، فبمجرد أن جاء عصر محمد علي ، وصار (الوالي) الجبلية سلطته حتى تدهور علم الحديث وما صحبه من علوم التاريخ والمنطق والأدب وفقه اللغة وما إلى ذلك من العلوم التي تنتمي إلى الفهم والعقل أكثر مما تنتمي إلى التبرير والتعليل ، ومن ثم ، كان من الطبيعي أن يزيد الاهتمام في البنيتين السابقتين بعلم الكلام الذي يستخدم عادة لتكريس الوضع القائم ، ووضع العقول في القفاص المحددات المطلقة ، وهذا لا يمنع من الاهتمام بالعلوم التطبيقية ولكن في اتجاه تكريس الدولة (عسكريا) لتحقيق أحلام الوالي العسكرية .

ومن هنا ، فنحن أمام ملاحظات جديدة يمكن حل ضوئها ملاحظة أمر آخر ، يظهر في ضياح دور العلماء ورجال الدين ، وتلاشي مكانة التجار والأعيان من المصريين الأصلاء .

وبمجرد انتهاء حكم محمد علي أو تحطيم ملكه ، فإن علم الحديث يعود من جديد إلى دائرة الاهتمام لكن في وقت يكون فيه التأثير الغربي قد وصل إلى درجة قصوى من درجات التأثير ، فإذا السياسة الاقتصادية والفكرية التي عمل لها الغرب ونفذها تبدأ بعلم الحديث ، فإذا

كثيرا بين (الشيوخ والأعيان) وهو ما فعله معاصر آخر له وهو يقولوا الترك .

ومن أكثر الملاحظات أهمية في هذا الصدد ، أن مشروع الحملة بالشاه ديوان في مصر ، جاء استمرارا لدور العلماء والأعيان في آن واحد ، فقد كان الديوان ينقسم إلى قسمين :

- الديوان الخصوصي ، ويتكون من بعض كبار رجال الدين .

- الديوان العمومي ، ويتكون من كبار رجال الحرف والتجار .

وبين نمود إلى بيتر جران نراه يعود بدوره إلى رصد دور الفرنسيين المباشر ، أو غير المباشر - أثناء الحملة - في اتجاه التطور الاقتصادي ، فقد كان هذا التطور قد بلغ درجة بعيدة من النضج ، إذ تؤكد وثائق هذه الفترة أن (أولاد العرب) ، التجار ، في القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد كانوا يتحالفون مع الصيارفة من الأقباط المصريين ، لكي يحتفظوا بحظهم في جني ثروة بلادهم ، وتحالف الفرنسيين والتجار السوريين والمارونيين من ناحية أخرى .

ونستنتج من هذا كله ، إن دور الأعيان المصريين وصل إلى درجة نافسا معها الممالك ثم بدت في القدرة على التأثير في رموز السلطة العثمانية نفسها .

ومن البديهي أن نذكر أن دور أولئك التجار ظهر أول ما ظهر في تعضيد قوة الأزهر وعلمائه ، ومن ثم ، زيادة ارتباط أولئك العلماء بهذه القوة المساعدة في تجسيد الروح القومية التي كانت تهيأ لتلعب دورا كبيرا في بلادها .

وقد يكون من المفيد الآن أن نجاوز البنية الثانية - فترة اللقاء بين الشرق والغرب - إلى البنية التالية لنسأل سؤالا واحدا :

لعمق الهوية التي يمكن أن تفصل بين الشرق والغرب حين نتحدث عن العادات في وقت ربما تضيق قليلا هذه الهوية حين نتحدث عن ثقافة (الشيوخ) وطقوسهم .

في الشرق لم يكن خائفا للمدى الذي صعدت اليه الثقافة المصرية في عديد من جوانبها أو هبطت اليه فيما بعد .

فمن ناحية ، لم تكن في حاجة لكثير من الفطنة ، لنترك أن العهد السابق لحملة بونابرت عرف مجتدين في مجال التراث الاسلامي ، وأن التيار النقدي المغلي الذي ولده أمثال المعتزلة والاشاعرة والفلاسفة ظهر له مريدون دائما ، كما كان يتدفق على الأزهر ، لمكانته ، المعلمة من شتى انحاء العالم العربي (مثل الزبيدي) ، وقد بدا هذا التيار خاصة في تطوير العلوم الدينية وعلوم اللغة والملاجم وعلوم التاريخ - وإن تشعبت المحاولات في الطرق الصوفية ، أو مجال الأدب - اللذين ضعفا كثيرا في فترة من الفترات . كما زادت المدارس العامة في القاهرة والمدن الرئيسية فضلا عن تعليم الأبناء عند إمام المسجد ، ويتحدث كتّاب (وصف مصر) باستفاضة عن دورات العلم في الأزهر وانقسام المدرسين والطلاب إلى حجرات كثيرة (أروقة) تنقسم بدورها الى فروع كثيرة في العلوم والمعارف .

ويمكن أن نستغيث هنا في ارتقاء الثقافة إلى درجة لا يمكن أن نخفلها قط ، وإن يكن يصحها هبوط آخر في مجموعة التقاليد والعادات التي تتمثل في الملابس والسلوك واللغة ، فضلا عن بعض السليبات التي أشار اليها المؤرخون مثل المسلمات الغيبية كالحسد والطالع والسحر والمحافظة بشكل خاص ، وأيضا سلبية خاصية (التفاف) بين الفرد والحاكم لطبيعة العلاقة بين الفرد والحاكم في البعد الزمني ، وربما أيضا الانفعال أكثر من الفعل نتيجة للكبث والاستبداد الطويلين في واد تهمين

بالاهتمام يعود من جديد إلى علم الكلام ، وتظل الحلقة مفرغة كما هي .

ويعد أن كان التطور الاقتصادي سواء في البنية الأولى ، وإلى حد ما في البنية الثانية نابعا من الروح القومية ومنجزاتها ، فقد أصبح التطور الاقتصادي الآن نابعا من جديد من حاجة الغرب ومتطلباته .

ويعد أن كان التطور الفكري والديني نابعا من البيئة المصرية والمراكز الاسلامية الأخرى في الشرق - كدمشق واسطنبول - فقد أصبح الآن تابعا لثقافة الغرب وتوجهاته ومراكز الثقافة البعيدة فيه .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نصل إلى بداية أخيرة مؤداهما أن الحملة الفرنسية قد أجهضت التطور الاقتصادي والفكري أو كانت مرحلة تمهيدية لهذا فدعت بالبالد إلى إحضار الغرب ، وإن كان يجب الاستدراك بالقول أن الحملة الفرنسية كانت مرحلة التخلخل - لا الإجهاض - وهي مرحلة انقضاء الاستعمار الغربي بدأت من عصر محمد علي حتى وصلت إلى أقصاها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين وضع الغرب يده على مصر ، ثم ليضع يده على بقية أقطار العالم العربي .

غير أن التنوير في البنى السياسية والاجتماعية لم يكن لينفصل كثيرا عن التنوير في البنى الثقافية أيضا ، ومن هنا ، فمن الضروري رصد بعض الملامح الثقافية في هذا الوقت سواء في الشرق أو في الغرب ، ليتسنى لنا ، من ثم ، فهم درجة التباين ودلالته .

ويجب أن نفرق بين هذين اثنين : الثقافة والعادات .

الثقافة عتلة في الغالب في علماء الدين / المتقنين والعادات في عامة الناس ممن مثلوا السواد الأعظم لسكان البلاد .

ورغم أنه لا يوجد تفريق كثير بين الثقافة وتقاليد الناس وعاداتهم ، فإننا هنا سنحتفظ بخيط رفيع بينهما

فيها عن فكره ضد القوانين الرأسمالية السائدة (بونابرت في مصر ، المصدر السابق ص ٧٦/٧٥ .

وباختصار ، ففي الوقت الذي راح الغرب يخرج من ظلمات القرون الوسطى إلى عصر النهضة وما استتبعه من الكشف الجغرافية والإصلاح الديني ونمو الروح القومية والاهتمام بالإدارة وتوحيد القوانين وشق الطرق وتطور المواصلات ونشر التعليم وتطور النظريات السياسية وما إلى ذلك . . في هذا الوقت ، كان الشرق ما زال أسيراً لحقبة بعيدة من الموروث الحضاري .

كانت أصول الحضارة في الغرب تطور تستفيد بكل انجازات الحضارات الأخرى .

وأصول الحضارة العربية تكمن ثابتة متوقدة وراء رماد السنين .

كانت الحضارة الغربية في طور التطلع والازدهار . والحضارة العربية في طور التحنن والانتظار .

وعلى هذا النحو ، يمكن أن نفسر حالة الانهيار التي بدت في سلوك بعض العلماء المصريين وغالبية العامة سواءً ممن أتيحت لهم فرصة الالتحاق بطلاب الحملة أم ممن آثروا مراقبة ما يحدث واستيعابه .

وكثيراً ما أفاض الجبرتي في شرح آلات العلماء الفرنسيين وأدواتهم الفلكية وماكينات التصوير ، وقدرات الرسم والتصميم ، كما وقف الكثيرون مهوولين أمام مظاهر صناعة الحكمة والطب الكيماوي وما إلى ذلك وإن لم يفقدوا روحهم كاملاً .

لقد كانوا يدركون رغم الظواهر المذهشة حولهم ، أنهم ورثة حضارة أخرى لا تنقل من هذه الحضارة ، غير أن الحقيقة الناصعة كانت تشير دائماً إلى أن الحضارتين مختلفتان تماماً .

غير أن هذا الاختلاف والتباين كان يحكمه هنا ناموس آخر ، هو ناموس التكوين الشرقي التقليدي عند مؤرخ مثل الجبرتي ، وسوف ينصب اهتمامنا الآن على موقف هذا المؤرخ المصري ، شاهد العيان ، من الجماعات الدخيلة على مصر ، لتتربط - فيما بعد - من

عليه القوة المركزية . . وما إلى ذلك من السمات التي يمكن ترسيمها في (يوميات) الجبرتي .

وهذا التناقض في العادات خاصة هو الذي دفع بكثير من علماء الحملة الفرنسية وجنودها إلى الاعتقاد بتخلف المصريين وتدني حضارتهم للمعاصرة لهم ، وكتاب الجبرتي (عجائب الآثار) خاصة يزعزح بمثل هذه الخزعبلات التي تتوالى في القرون السابقة لمجيء الحملة .

وباختصار ، فإن الثقافة العربية بدت كجثة عمدة لا حراك فيها ، مظهرها يوحى بالموات ويأطرها يوحى بالنبض الذي لم يتوقف تماماً على امتداد حقبة طويلة من الزمان .

وفي المقابل ، بدت الثقافة الغربية فتية صاعدة . . لقد كانت الحضارة الفرنسية تمتلك في هذه الأثناء قدراً كبيراً من وسائل العلم والتكنولوجيا الحديثة ، كما تملك النتيج العلمي في البحث والتجريب وفي وقت كانت الحضارة الإسلامية قد ورثت من قرون بعيدة ثقافة ثابتة تعز بها وتوارثت تقاليد شاسعا الكثير من الحرفاء ، وإن كانت المسافة بين المثقفين والعامة ، حيثل ، تضيق وتتسع حسب الفترة التي يعيشونها .

لقد حلت الحملة الفرنسية عدداً كبيراً من عقول أوروبا وفنائها وعلمائها : مفكرين ، وكيميائيين وفيزيائيين وفلكيين وجراحين وأقربين ومعماريين . ويستفاد من المصادر الرسمية للحملة أن لجنة العلوم والفنون وحدها فقط كانت مؤلفة من (١٦٧) شخصاً فقط .

ولنضرب مثلاً بسيطاً للفكر الفكري الذي كان يحمله رجال الحملة في جانب واحد ، وهو ، أن الجنرال كفارييلي كان يحمل قدراً كبيراً من الأفكار الاشتراكية الحديثة الجريئة التي لم يكن ليتردد معها من أن يصرح بها في حضرة بونابرت نفسه أثناء مناظرة زميل آخر له مدافماً

مركزية الإمام بشخصه ، وهي مستفاه بدورها من الشريعة ، فالدولة هي شخص الحاكم .

وترتبط قضيتا الحرية والعدالة هنا بشخصية الحاكم أيضاً ، حتى لو تحللت الحرية على أنها حالة ضد العبودية ، بمفهومها الذي ساد العالم الإسلامي فيها بعد وحتى جاءت الحملة الفرنسية ، كما أن العدالة - التي هي من شروط الوالي وواجباته - لا تعني أكثر من التناصف ومنع النظام ، أي ، أن الاتجاه الأخلاقي هو الهدف والغاية من العدالة كما كانت معروفة في هذا الوقت .

إن العصر العثماني شهد انكساراً عملياً لأنكار المواردي ، فالسلطان هو كل شيء ، ولم لا يوهو ظل الله على الأرض ، وقد كانت القيم السياسية ترتبط به في المقام الأول ، وقد كان من الممكن أن يقال أنه مع حضور الحملة الفرنسية على أرض العثمانيين بدأ الجيش العثماني يعرف طريقة إلى الإصلاح السياسي والتغيير في القيم التقليدية ، غير أن هذا تم في مرحلة متأخرة قليلاً ، لم يلحقها الجبروت ، وبالتالي ، شيوخ عصره ، ومن ثم ، فإن الفكر السياسي السائد في هذا الوقت لم يكن ليجاوز الفكر السياسي التقليدي من العود إلى الحاكم ، ورؤية العدالة والحرية من خلاله ، وهو فهم لم يكن ليصل إلى معاني الديمقراطية ومفاهيم الحرية والعدالة الاجتماعية كما عرفها الغرب القادم بواسطة الفرنسيين الذين شهدوا الثورة الفرنسية بمفردها السياسية التي لاحظها رفاعه الطهطاوي ، أكثر ، في فترة تالية .

إننا سنرى موقف الجبروتي يدور حول القيم السياسية التقليدية طيلة وجود الحملة الفرنسية على وجه التقريب ، حتى إذا ما كنا في الفترة الأخيرة منها ، لمنا تغييراً ما في بعض المفاهيم الإسلامية للقيم السياسية ، لكنه تغيير لم يستطع الجبروتي أن يشهد فيه تحولاً ملموساً ويسجله من خلال يومياته .

لقد كان يبعث التناقض بين يوميات الجبروتي وصحيفة بونايرت يعود إلى التغير ، الذي يؤكد بروز (الحرية) واختلافها .

خلال أوراقه أمام طيبة (اللحظة المتوقفة) في البنية الثانية .



لنعد ، أكثر إلى البنية (ب) ، وهي الفترة التي تقع بين عامي (١٧٩٨ - ١٨٠٩) . . الفترة التي يبدو فيها موقف الجبروتي واضحاً أشد الوضوح من القوى الدخيلة على مصر .

كما رأينا ، فإن هذه البنية (ب) دخلت إطاراً ثانياً بفعل مؤثرات البنية (أ) التي لحقتها وأضافت إليها ، كما دخلت ، فيها بعد ، إطاراً ثالثاً بفعل مؤثرات البنية السابقة عليها ، قبل أن تصل إلى مؤثرات البنية التالية لها .

ولنتوقف أكثر ، عند الجبروتي في البنية (ب) ، فهي التي تمهنا هنا في هذه اللحظة (المتوقفة) زمنياً ، لنرى ، إلى أي حد ، تتحدث رؤية الماروخ الشرقي السلفي في الغالب بالنسبة إلى القوى الخارجية التي كانت تمثل قوى شرقية إقليمية مثل المماليك والعثمانيين ، أو قوى غربية احتلالية مثل الفرنسيين .

إن موقف الجبروتي يرتبط ، إلى حد كبير ، بنظرية السياسة عند المسلمين ، وقد تركزت كلها حول الحاكم ، وبالتحديد حول شخصية الحاكم .

ولعل من المفيد أن ننظر في هذا إلى كتاب المواردي (الأحكام السلطانية) ، فهذا الكتاب ، ورغم أن مؤلفه ينتمي إلى القرن الخامس الهجري . والعنوان ذاته يدل على مركزية السلطان في النظرية السياسية الإسلامية ، التي يقال عنها أيضاً بتعبير مساو تماماً (نظرية الإمامة) ، هذا الكتاب كله ، وهو كتاب في السياسة أي في الحكم - كما أشار د . جوزف قرني في كتابه : العدالة والحرية (عالم المعرفة ٣٠ - ص ٣٠٠) - و يدور حول الإمامة وحول العمال السنيين بختمهم الإمام أعواناً له يسيرون أمور الأمة باسمه ، فكل ما يدور في الدولة إنما يصدر عنه هو عن طريق نوابه . فالدولة هنا تستقي مبادئها السياسية من

وفي جميع الحالات ، لم يكن هذا الموقف ليسراً ، قط ، من سمة (التقليد) التي كانت وفقاً على عدد كبير من شيوخ هذا الزمان ومن بينهم الجبرتي .

على أنه ما كاد ينتهي من هذا الكتاب الذي تم تأليفه فيها بيلو ، من الصلح الأعظم ، وهو الرمز العثماني للامام / الحاكم . . حتى بدأ في تسجيل الجزء الثالث من كتابه الآخر : « عجائب الآثار » في نفس الفترة التي شهدت غزو الفرنسيين وتغلغلهم في شتى مناحي الحياة المصرية ، فأضاف إلى مظاهر اللوم للفرنسيين في الكتاب الأول اللوم والاعجاب بهم معاً في الكتاب الآخر ، إذ يلحظ أنه في الوقت الذي كان يهاجم فيه الفرنسيين في منشور نابليون الى المصريين ، على سبيل المثال ، فإنه في الكتاب التالي راح يحذف هذا ، ولا يلبث مع تابع اليوميات والسنوات في « المعجائب » ان بدأ اعجابه الاخلاص بمنجزات الفرنسيين الحضارية في مصر من مثل تنظيم الديوان وايضاً نظام المحاكمة الذي اتبع مع قاتل كليبر (سليمان الحلبي) وما إلى ذلك .

والانحياز العقيدي ، خاصة ، يصيب موقف الجبرتي في وقت لم تكن الثقافة الغربية قد تسلت بمد في وجدانه ، وهو سر التراجع الدائم من موقفه من الفرنسيين .

وتفصيل هذا أنه في الوقت الذي يتحدث فيه عن احتفال الفرنسيين بإحد أعيادهم ، فإنه يذكر قيام الجمهورية ، ولا يلبث أن يستنكر قتل الفرنسيين للمكهم وهو ما يفهم من لغة الجبرتي في أكثر من موضع وذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم ففعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً « (ج ٣ ص ١٧) ، وفي موضع آخر يشير إلى المظاهر الكثيرة احتفلاً بهذا العيد الذي لا يعرفه الشرقيون مشيراً إلى إقامة العسكر من الفرنسيين بأمر الحراسة تحت أحد الأعمدة التي تدل على هذا العيد (لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم في زعمهم) (ص ١٨) . غير أن الامتكار يصل الى اقصاه في كتابه مظهر التقديس ، إذ بيلو استنكره لقتل الفرنسيين سلطاتهم ، فيقول « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطاتهم وظهرت بدعتهم التي ابتكروها وخرجوا بها عن

لقد اربط الشرق هنا كبا اربط الغرب هناك بمجموعة من الوشائج التي ميزت كل جانب فيه عن الجانب الآخر .

وسوف نرى من خلال التقليد والمعادن ، خاصة ، موقف الجبرتي .

أما عن التقليد ، وبالتبعية الانطواء والحرص . . فإن تفسير هذا يعود إلى هذه (الحوية) الشرقية التي تنتمي الى الدين كما تنتمي إلى اللغة وبالمثل تنتمي إلى جملة المعادلات التي تبتان بين تقاليد اجتماعية وثقافية . فمن الملاحظ أن موقف الجبرتي الخارج بين الإعجاب بالغرب والمرارة منه وتقده في آن واحد كان يخفى فلسفة الفكر الشرقي في الفترة التي قدر له فيها أن يلتقي بالفكر الآخر ، فلا تبقى مندوحة من الصدام بين حضارتين - لا إرادتين فحسب - ردود الأفعال السريعة ، والتي تطوي أيضاً طبقات بعيدة الغور في الوجدان .

لقد بدأ هذا الموقف خاصة في تأييد العلماء في وقت كان يظهر فيه المضاء من قوى الاحتلال الغربي ، وهو ما يمكن أن نلاحظه بجلاء ضمن جزئية (مظهر التقديس) ، إذ راح يتحدث عن التقليد الذي يرتدي زي الدين ، ويؤثر الإشادة بالدولة الإسلامية - العثمانية - ليس هذا للحظ من قدر الممالك ثم الهجوم العنيف على الفرنسيين واظهار الفرح بزوالهم .

إننا نرى في هذا الكتاب - مظهر التقديس - وفي أغلبه ، مبعوماً حداً على الفرنسيين الذي سماهم هنا (الكفار) و (كفرة الفرنسي) و (دولة الكفر) و (عصاة الكفار) . . إلى غير ذلك من تسميات تشير إلى إظهار التبعية للعثمانيين ، الذين هم - حيث لا المثلون للدين الاسلامي .

وإذا تغاضينا عن الميل السياسي الظاهر للعثمانيين في هذا الكتاب استمعنا أن نستنتج الدافع وراء الموقف الخاص به فيما يمثل في رؤية الفرنسيين على أنهم قوى غازية يمحلون بلاده ، فضلاً عن تطريز لنة البديع والزخرفة لكاتبه ما تشي بحقة بعيدة طويلة عاشتها مصر بمجزل عن العالم الخارجي .

الى معاملهم ، كما لم يستطع أن يخفي دهشته من نزاهة قوات الاحتلال التي كانت تلغى الثمن نقداً للأهالي لما يقدم لها من خدمات أو بضائع ، ويعجب أيضاً لانفاق الفرنسيين بسخاء على وسائل التسلية .

وقيل أن نفق على صور الإعجاب يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على بعض صور المرارة والاحباط في رؤيته لتصرفات الفرنسيين ومواقفهم .. فمن أهم الصور السلبية التي استجبت نقده تنوقف عند بعضها :

«إن امرأة جاءت تشتري سمناً من رجل فقال لها لم يكن عندي سم ففكرت عليه حتى حتى منها ففصلت له كنت تدخره حتى تبعه على العثماني تريد بذلك السمخية فقال لها نعم رغياً عن أنك واثب الفرنسيين فنقل عنه مقالته غلام كان معها حتى انبره الى قائمقام فأحضره وجسبه ويقول أباه أخاف أن يقتلوه فقال الوكيل لا لا يقتل بمجرد هذا القول ولكن مطمئن فإن الفرنسية لا يظلمون كل هذا الظلم فلما كان في اليوم التالي قتل ذلك الرجل ومعه أربعة لا يدري ذنبهم وذهبوا كيوم مضى » (ج ٣ ص ١٢٨) .

« تبرج النساء وخروج غالبيتهم عن الحشمة والحياء - وهو أنه لما حضر الفرنسيين الى مصر ومع البعض منهم نسائهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات القفطان والمناديل المخرير الملونة ويسلن على مناتكهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركن الخيول والحمر .. » (١٦١) .

« وأما الجوارى السود فأنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأثني ذهن إليهم أفواجاً وفراوى وأزواجاً فتفنن الحيطان وتسلفن إليهم من الطبقات ودلوهم على مخبات أسياحهن وعجايبا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك .. » (١٦٢) .

غير أن أهم الإيجابيات التي غلبت على الصورة ، يرتبط ، كما أسلفنا ، بنظرة الحفاصة لأفعال الفرنسيين من خلال مفهومه الشرقي الخاص ، ومن أهم هذه الإيجابيات :

الطرايق والمثل جعلوا ذلك اليوم عيداً وتاجاً » (مظهر التقديس ص ٦٠) .

ويلاحظ د. صلاح العقاد في بحثه (الجبروتي والفرنسي) بندوة الجمعية التاريخية أن الجبروتي ينمى لبعض الإجراءات الإدارية والقضائية والتجارية التي اتخذها الفرنسيون ، فإنه يقف منها موقفاً عدائياً لأنه « يحكم تكوينه الثقافي واثماته الاجتماعي الى طبقة الملتزمين ، كان يبغض تدخل الإدارة في حياة الناس اليومية عامة والاقتصادية بصفة خاصة ، وهذا ما يجعله معادياً لأية إدارة عصرية » .

والواقع أن هذا الموقف يعود الى تكوينه الشرقي الذي يمتي لمعادن مغايرة تماماً لمعادن الجهة الأخرى التي حاول اتخاذ إجراءات لا تتفق بالضرورة مع الطابع الخاص للشرق والعقيدة ، بل دليل أن هذا الموقف اقرب فيه كثيراً من موقف آخر بعد ذلك بقليل حين عارض موقف محمد علي وإجراءاته التي كانت تعود الى السمات الغربي وتطبعه في بيئة شرقية ، وهو موقف عدد كبير من شيوخ زمانه ومثليه .

على أن الموقف المعادي من قوى الاحتلال الفرنسي لم يمتد عند الجبروتي - وشيوخ عصره - على وتيرة واحدة ، فمن الملاحظ أن التراجع بين الإعجاب بالحضارة الآتية والتمرد عليها ظهر بوضوح بعد مضي فترة من الوقت عاين فيها الأهالي حقيقة الفرنسيين ، بما يشير الى أن مشايخ الأزهر أنفسهم أصبحوا أكثر تقبلاً للإجراءات الفرنسية في فترة تالية ، وعلى سبيل المثال ، فإنه حين طلب أعضاء الديوان تخصيص سجل للوفيات اقترحوا إضافة سجل للمواليد والاعمار أيضاً ، لأن ذلك يساعد على ضبط الموارد والعدة للمطلقات ، بما يتماشى مع عادة البلاد وتقاليدها التي تأتى ترك النساء الأرامل بدون زواج جديد .

وقد راح في هذا كله يبدى إعجاباً لا حد له في كثير من (اليوميات) الأخيرة خاصة بنظم الفرنسيين ومعاملاتهم سوله ما تغل في إبداء عجبه بنظام الاطلاع أو بالتجارب العلمية التي أجريت أمامه ، كما أبدى ارتياحه لصداقة رفيقة حسن المطار للفرنسيين والذهاب

وعمل هذا النحو ، ففي المرحلة الأولى بدأ لومه للفرنسيين بشكل واضح ، وفي المرحلة الثانية تذبذب بين الإعجاب والولم ، أما المرحلة الثالثة ، وبعد أن غادر الفرنسيون مصر فإن موقفه منهم اقتصر على الإعجاب حين توفر له أن يعقد المقارنة مرة بينهم وبين قنوصى العثمانيين والمماليك أو بينهم وبين أطماع الانجليز وترغبهم بالبلاد .

إن الذي يتابع البني الزمنية حتى يصل إلى البنية الثالثة - ج- يتأكد له أن الجبري عاد ، بعد لوم الفرنسيين ومعايسته لنظمهم وعاداتهم إلى الاعجاب بهم .

ومما سبق ، يتأكد لدينا أن التارجح انتهى من وجهة نظر الشيخ الجبري إلى إثارة حضارة الفرنسيين لا الانجليز ، وهو إثار في دلالة يعني إثارة للقيم الإسلامية التي وجد بعضها في مواقف الفرنسيين ليس في جنسهم أو دينهم بالضرورة .

ولهذا ، فإن موقفه بين السلب والإعجاب لم يكن كما زعم البعض يعود إلى انتباهه لهذه الحضارة أو ابتعاده عن تلك ، بل قد ما يعود إلى طبيعة التركيب الشرقي التي إذا أضفنا إليها وعيه وفتحه . . انتهينا إلى خصائص هذا الموقف من القوى الغربية .

ونصل إلى الجزء الآخر من السؤال حول موقف الجبري من بقية القوى الأخرى الدخيلة على البلاد :

العثمانيين والمماليك ؟

وهنا ، يلاحظ ، أن الجبري ، كثيراً ما انتقد الموقف العثماني والمملوكي الذي قصد به الدفاع عن ثغور الاسلام ، وهذه الرؤية خاضعة لطبيعة الرؤية السياسية الخاصة به .

إن درجات غضب الجبري من هذه القوى أو رضاه عنها يرتبط بمفهومه الخاص حسب الموقف الذي عاينه سواء في البنية (ب) أو البنيتين السابقتين والتالية لها . . فيبعد نزول قوى الفرنسيين واجتماع العلماء وأمرام المماليك ليتداولوا في الأمر ، فإن الجبري يسجل غضب العلماء من إهمال الدفاع عن البلاد وحمايتها من الغزو الفرنسي عقب سماعهم بنزول الحملة بالاسكندرية ،

- . . وودعوا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطل وقطعوا أشجار بستان كاتب الهار . . (و) . . وقيدوا بذلك أنفاداً منهم يتعهدون تلك الطرق ويسلمون ما يخرج منها عن قلب الاعتدال بكثرة الدوس وحواقر الخيول والبغال والخمير وفعلوا هذا الشغل الكبير والشغل العظيم في أقرب زمن ولم يسخروا واحداً في العمل بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرهم المعتاد ويصرفونهم من بعد الظهيرة ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات الغربية للمأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل . . (٣٣) .

ساقطوا ثلاثة أنفار من الفرنسيين وشدقوا عليهم بالرصاص باليدان تحت القلعة قبل انهم من المتسلقين على الدور (٣٩) .

- « أرسل ساري عسكر يسأل المشايخ عن الدين يدورون في الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية وتعتقدم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون هذا جائز عندهم في دينكم أو هو محرم فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وستتنا فشكرهم على ذلك وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرويه كذلك فإن كان مجنوناً ربط بالمراستان أو غير مجنون فلما ان يرجع عن حاله أو يخرج من البلد . . (١٤١) .

ولم يكن هذا مبعث دهشة الجبري وحده ، إذ أن العادات « الغربية » كانت من أكثر الأشياء التي راح يسجلها لما تحتويه من تناقض بين الثقافتين ولما توحى به من أمور لم يفهمها كثيراً الشيخ الشرقي وإن كنا نلمح في دلالة ذكرها ميلاً ما يصرح به من مثل « ضبط واحصاء من يموت ومن يولد من المسلمين » - ص ١٤٣ - و « تحرير دفتر الزواج » و « نظام غير قابل للتنفيذ في ضبط الأسلاك والتميز الكامل عمّن ولد ومات من السكان » - ١٤٤ - وما إلى ذلك من أمثال التطعيم والدفن بإذن وتبخير السيوت ونشر الملابس فترة الطاعون ، وهو ما كان يعمل استنكاراً من جهة الناس لعدم فهمها لها أو تفسيرها التفسير الصحيح .

عابن ذلك مراد بك ولي منزهاً وترك ألقابه وجلة من المدافع وتبعه عساكره وكان في عدة ووفرة (مظهر التقديس ٢ ، ٩) ، أما في الكتاب الآخر ، فإنه لاحظ أن المماليك : « صاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون إذن » ، ويعد أن هزم مراد بك « ولي منزهاً وترك الألقاب والمدافع وتبعه عساكره » ، كما يسهب في خوف المماليك وأسرانهم الذي دفعهم إلى التنبه ونقل أمتعتهم (عجائب الآثار ٢ ، ٦) .

وهذه الحال التي عرف بها المماليك ليست في فترة مواجهتهم للفرنسيين وحسب ، بل تمتد إلى الوراء ، الفترة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية ، ويمكن بالعودة إلى الأجزاء الأولى من (عجائب الآثار) أن نرى استعراضاً طويلاً لمساوي المماليك وظلمهم التي تتمثل في المتهودات وقطع الطرق على المسافرين وتخريب المراكب في النهر عما يزيد تعميق موقف الجيبري منهم . والدقق في مصادر الجيبري يتأكد له أن موقفه إما كان موقفاً عدائياً بسبب ظلمهم وانفادهم لقيم العدالة ، ويعددهم عن تفهم دور الحاكم ورسالته . غير أننا يمكن أن نجد في مصادر الجيبري ، أيضاً ، موقفاً آخر من المماليك ، ينبثق من طبيعة حكمهم في الفترة التي حاولوا فيها أن يلتصقوا بالعدالة - في أول حكمهم - ويتمدوا عن الظلم ويدفعوا إلى العمران ، وهذا لم ينكره قط ، فكثيراً ما أشاد بفضلهم ، فهو يذكر في هذا عن المماليك : « لقد كان لهم منن وطرائق في مكارم الأخلاق والأحسان للخاص والعام وتردد على منازلهم العلما والفضلاء وبجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة والتعير وانتفاع الطلبة ولا يكتبون عليها وثيقة ولا يدخلونها في موازينهم ويرغبون فيها ويشترونها بأقل ثمن ويضعونها على الرفوف والخزائن والخزائن وفي مجالسهم جعياً ، فكل من دخل بيته من أهل العلم إلى أي مكان بقصد الإعارة والمراجعة وجد بيقته ومطلوبه في أي علم من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفاً ولا يتحمن من يأخذ الكتاب بتمامه فإن رده إلى مكانه رده وإن لم يرده واختص به أو

وذلك عندما علق على الاجتماع الذي عقد بقصر العيني بالقاهرة ، ودارت فيه مناقشة حامية بين العلما وأمرأه المماليك ، فيقول في مظهر التقديس « فركب إبراهيم بك إلى قصر العيني وحضر عنده مراد بك والأمراء والقاضي والمشايخ وتكلموا في شأن ذلك ، فقال بعض المشايخ كل هذا من تنافل أمر الثغور وإهمال الأمور حتى تمكن العدو وملك نجر الإسلام ، فقال مراد بك وايش تعمل وإذا قمصدنا تعمير ذلك وتحصينه تقولوا مرادهم العصبان على السلطان فهذا هو المانع لنا من ذلك » ، ولم يلبث الجيبري أن علق على هذا بقوله : « أوهي من بيت المنكوب لأن الثغر من أيام علي بك لم يلتفتوا له جملة كاملة بل أخذوا ما كان به من آلات القتال والمدافع ومنعوا عنه المرتبات التي كانت للمرابطين والعسكر التقديس وأكلوا علفانهم وقطعوا عواهدهم ولم يبق به شيء من آلات الحرب إلا بعض مدافع مكسرين لا تنفع ولا تدفع حتى أنهم احتاجوا مرة لضرب مبلغ العبد بارود فلم يجدوا التعميرة بل اشتروها من عند المطار بعد أن كانت اسكنودية وإبراجي في غاية العمارة والتحصين وحولها السور المشقى الذي اعتنت به الأوائل وبه ثلثمائة وستين برجاً على عدد أيام السنة » .

وعند ما صدرت توصية من المجتمعين في قصر العيني بكتابة عرض بحال إلى الحملة العثمانية بخبر الحملة وإرساله إليها ، فإن الجيبري راح يعلق على هذا بأسلوب لاذع ، نجده في مظهر التقديس مطولاً بعض الشيء : « فلما أن المروجع أو المريض المسوس يستمر بحالة حتى يأتيه الترياق من المراق » (مظهر التقديس) ص ١ - ٢ ، بينما نجده في (عجائب الآثار) مركزاً دالاً حين راح يردد معلقات على رسالة المجلس ساعراً « ليأتيه الترياق من المراق » (عجائب الآثار ص ٣) .

وأثار الجيبري بعد ذلك لا تتوقف عن توجيه الانتقاد للمماليك ، فهو يؤكد مرة أن الشعب تنبأ بهزيمة مراد بك عند خروجه للقاء الفرنسيين مستطرداً : « ثم إنهم اتفقوا على خروج عساكر وصاري عسكرهم مراد بك ، فتحدث الناس بأن مراد بك لم ينتج إلى جهة يحصل لها النصر » ، ويعد هزيمة مراد بك بضيف : « .. فلما

جنب ، وبعد أن كانت المقارنة التحليلية تتم بين البني - أفتياً - ، فلما هنا ستم في بنية واحدة - رأسياً - ليتسنى لنا ، من ثم ، فهم العلاقة بين الاختلاف أكثر من الالتلاف والتغاير أكثر من التمايز ، كما يؤكد الاهتمام الذي سوف ينصب على النصوص أن ذلك سيتم في إطار التداعي الزمني (الثابت) كما هي الحال في المادة (الحام) التي بين أيدينا .

وسوف نرتب مفردات (النموذج) على النحو

التالي :

- (أ) الاحتفال بوفاء النيل .
- (ب) الاحتفال بالمولد النبوي .
- (ج) تقليد أمير الحج .
- (د) خطاب شريف مكة .
- (هـ) اجتماع أعضاء الديوان العام .
- (و) ثورة القاهرة الأولى .
- فلتتمهل أكثر عند هبة النماذج ودلالاتها .

الاحتفال بوفاء النيل :

كوريه دي ليجييت ، الطبعة الأصلية ، ص ١ ، رقم ١ ، في ١٢ فركتيدور - السنة السادسة للجمهورية :

القاهرة : وصف الاحتفال بعيد النيل - أول فريكتيدور من السنة السادسة للجمهورية (١٢١٣هـ) .

« في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم توجه القائد العام وصحبته جميع الجنرالات من هيئة أركان حرب الجيش ، والكخيا والباشا وأعضاء مجلس الملا وأغا حرس الباشا إلى مكان مقياس النيل حيث احتشدت جماهير غفيرة على ضفافه وضفة القناة - المراد الخليج المصري - ، وكانت المراكب حاملة الأعلام والزينات ، وقد اصطف بعض جنود الحامية بأسلحتهم ، مما اختلف منه مشهد جميل مترامي الأطراف . ولما وصل مركب القائد العام إلى مكان الاحتفال

باعه لا يسأل عنه وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً ويعتبرون عن الجانب بضرورة الاحتياج ، كما سجل في الجزء الثاني من مجلده (عجائب الآثار ص ٢١٦) .

وهناك فرق كبير بين هؤلاء الممالك بمن يتمون في الغالب إلى القرون السابقة على القرن الثامن عشر ، وأولئك الممالك بمن يتمون إلى القرن الثامن عشر وخاصة في نهايته كما عرفنا في موقعهم من جنود الحملة الفرنسية .

وعلى هذا النحو ، فإن موقف الجبرتي من القوى الدخيلة على عصر سواء ما تمثل منها في الفرنسيين أو للممالك ، فإنه كان ينتمي إلى موقفه من القيم السياسية بمفهومها الإسلامي خلال الفترة التي سبقت مجيء الغزو الغربي إلى الشرق في نهاية القرن الثامن عشر .

هذا الموقف الذي كان يرتدي زي الدين ويتلوع أحياناً بالسياسة أو المصلحة هو الطابع الغالب عليه ، وهو الطابع التقليدي ، إذا بدا هذا الطابع غالباً في الفترة الأولى من البنية (ب) ، ومن ثم ، فانه في نهاية هذه الفترة بدا موقفه في التحول رويداً رويداً .

غير أنه في جميع الحالات ، كان يتطلق من عالم خاص به ويغيره من شيوخ عصره .



وهنا نكون قد وصلنا إلى تصور تحليلي نستبطه من الآخرين (عجائب الآثار / كوريه بونابرت) . . دون أن نغزل أباً منها عن السياق التاريخي أو الجغرافي أو تقضي بالدلالات من أجل التصور التجريبي .

وهنا ، ننهي لفهم الظاهرة بالمقبض على (نظام) مصغر داخلي يمكن بهذا القانون الخاص فهم القساوان العام للعملية التاريخية وأحكامها .

وعلى هذا النحو ، فلن وصولنا الآن إلى (نموذج) معين يكون ضرورة للمرور على بني زمنية سابقة وتالية تعمل على وضعه في سياقه الطبيعي من الحركة الزمنية . وهذا النموذج يجلد في البنية (ب) من خلال وضع الآخرين - يوميات الجبرتي وصحف نابليون - جنباً إلى

مدافع وتقوياً حتى جرى الماء في الخليج وركب
وهم صبحته حتى رجع إلى داره وأما أهل البلد
فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتمتة في المراكب
على العادة سوى النصارى والشوام والقيط
والأروام والأفرنج البلدين ونسائهم وقليل من
الناس البطالين حضروا في صبحها .
وهنا ، نجد عدداً من الملاحظات تؤكد هذا التغير
الحاد بين حضارتين ، وهي ملاحظات لا تغتفر الغاريه
المدقق ، لعل من أهمها : -

- يقول الجبرتي (وفي يوم الجمعة خامسة) . فقد
يتكلم بأسلوب العصر الذي يحيا فيه ولا يحه
ذلك الانضباط الذي تنصف به الروح العربية
والتي تتمثل في قول المنشور (في الساعة السادسة
من صباح ذلك اليوم) . . وفي هذا دلالة كافية
لثنين ، فضلاً عن النظام ، أهمية الوقت وطبيعته
لدى كل من الطرفين ، وما يتبعه ، من تعميق
المفارقة بين حضارتين لكل منهما عله .

- يقول الجبرتي (الموافق الثالث عشر سري القبطي)
ذلك ، لأنه يتكلم عن وفاة النيل وهذا يتعلق بأوقات
الزراعة ، وما يؤكد خلاف العالدين واختلافهما أن
الجبرتي يتعامل زمنياً بشكل مختلف عن غيره .

ان الجبرتي يكتب شهرين (عربي / قبطي) بينما
للمنشور الفرنسي يكتب بتاريخ (الجمهورية) الخاص
بالفرنسيين وظروفهم الخاصة ، في وقت يكتب فيه
العالم بتاريخ (ميلادي / رومي) ، بينما يكتب
المعثانيون بالتاريخ (الهجري / المالي) .

- ويؤكد هذا أنه بينما يقول الجبرتي في تعبيره على يعبر عن
التقاليد الشرقية (كان وفاه النيل المبارك) ، فإن
للمنشور الفرنسي ينطق بتعبير لغوي غربي خالص حين
يقول (وصف الاحتفال بعيد النيل) .

- ويأتي في هذا قول الجبرتي (صارى عسكر) بينما المنشور
الفرنسي يكتب (القائد العام) إلى رتبة الجنرال

اطلقت المدافع عدة طلقات للتحية وعزنت
الموسيقى الفرنسية والعربية بعض المقطوعات
أنشاء العمل في قطع حاجز المياه . وما أن تم قطعه
حتى تدفق الماء إلى القناة وانساب منها بفرارة إلى
الريف حول القاهرة لاختصاب أرضه .

وقد نثر الجنرال القائد العام آلافاً من القطع
النقدية على الجماهير ، كما ألقى قطعاً أخرى
ذهبية على موكب مر به . ثم خلع على الملا عبادة
سوداء كما خلع على نقيب الأشرف عبادة
بيضاء ، ووزع ٢٨ قسطاناً على الضباط . وبعدئذ
عاد الموكب إلى ميدان الأزبكية يتبعه جمهور
ضخم يشهد أناشيد المديح في النبي وفي النشاء على
الجيش الفرنسي ، ويعلن البهوات لمظالمهم
وطغيانهم ، ويهتف بأن جنود فرنسا جاءت
لتخليصهم برحمة الرحمن من الشقاء . وقد
انصرفت . وفاض النيل فيضاً لم تشهد البلاد
أفضل منه منذ قرن من الزمان . وهذه نعمة من
نعم الله .

وفي يوميات الجبرتي (عجائب الآثار . .) ج ٣ ص

١٤ ، ١٥ ج ١

واستهل شهر ربيع الأول يوم الاثنين سنة
١٢١٣هـ .

« وفي يوم الجمعة خامسة) الموافق الثالث
عشر سري القبطي كان وفاه النيل المبارك فأمر
صاري عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة
وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين واندوا على
الناس بالخروج إلى التزهة في النيل والمقياس
والروضة على عادتهم وأرسل صاري عسكر أورفاً
لكتبخدا الباشا والقاضي وأرباب الديوان
وأصحاب المشورة والتولين للمناصب وغيرهم
بالحضور في صبحها وركب صبحتهم بموكبه
وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة
السد وكسر الجسر بحضرتهم وعملوا شباك

له الأمر ، وقد بدا هذا أيضا من لغة الاثريين ، ففي حين ينفي فيه الجبرتي وجود مثل هذا الحماس من الجمهور الضخم في مثل هذا العيد الذي لم يخرج منهم (أحد) ، فإن نابليون يقول من خلال صحيفته انه عاد إلى ميدان الأزبكية بعد الاحتفال ويتبعه (جمهور ضخم) ينشد أناشيد المديح وفي الثناء على الجيش الفرنسي .

عما يشير إلى تباين الدوافع التي تجاوز اللغة ودلالاتها إلى المواقف وطبيعتها .

وثمة ملاحظات أخرى كثيرة يمكن التعرف عليها من السطور أو ما بينها ، خاصة ، عند الجبرتي ، والتي لم يشر إلى تبريرها بشكل مباشر ، وهي كثيرة ، لحل من أهمها أنه لم يذكر كلمة (الجمهور) في كل ما كتبه عن ثورات المصريين ، اللهم إلا ، حين وصل إلى ثورة المصريين علي خورشيد (باشا) فقط ، وهذا كان يسببه تطورات كثيرة نفسه . وهذا لم يحدث حتى ذكرها نابليون .

الاحتفال بالمولد النبوي

الكورية - الطبعة الأصلية ص ٢ - رقم ١

و احتفلت البلاد هذه الأيام احتفالا رائعا بمولد النبي ، فاضيفت منازل القائد العام والجزائري ديبوي Dipee والشيخ البكري بالأنوار الساطعة طول خمسة أيام . وفي الساعة العاشرة من كل ليلة من ليالي العيد سارت مواكب المسلمين في المدينة وهي تنشد أناشيد المديح في النبي كما أقامت حلقات الذكر على أضواء المشاعل . وحوالي الساعة الثامنة من ليلة أمس قام بعض جنود الحماية باستعراض عسكري رائع . ثم توجه لقيف من الضباط الفرنسيين هيئة أركان الحرب يتقدمهم حملة المشاعل ورجال

بالمطوق الغربي في وقت يتبين فيه أن صاري عسكر لفظة فارسية الأصل عرفة الى العربية .

إن لفظة صاري بهذا المفهوم تعني في لغتها الأصلية رأس ، بينما العسكر تعني الجنود وبهذا يستقيم المعنى الذي نوردته هنا .

- النظر أيضا إلى دلالة لفظة (العقبة) وهو مركب الاحتفال بوفاء النبل في الشرق ، وهو يختلف عن لفظة (غلايين) وهي السفينة الكبرى كما لم يعرفها الشرق حينئذ .

- بينما يذكر المنشور الفرنسي كلمة (الملا) ولا نجد ذكر هذا الاسم عند الجبرتي ، فهو ينقل ظاهر حال هذا الوقت ، فالترجم مسيحي شامي إذ ينقل الفاظا شامية غير مألوفة أو دارجة في مصر .

- يضاف إلى ذلك عديد من الألفاظ والمقاطع مثل (كسروا الجسر) بينما المنشور يقول (في قطع حاجز المياه) وأيضا في (عملوا شئك مدافع) ، والشك هنا بحرف عن (الجنك) وهي تعني بالتركية كلمة « حرب » ، كما أن (النقوط) في العربية التي كتب بها الجبرتي يقابلها في (الكورية) عبارة (نشر الجنرال القائد العام) .

وأيضا (حتى جرى الماء في الخليج) وتأتي في المنشور الغربي من خلال لفظة أخرى (القناة) .

- لا يجب إغفال معنى مقطع الجبرتي (الأفرنج البليدين) ، وهو مقطع يقصد به المقيمين في مصر من غير المصريين . كما أن (قليل من الناس البطالين) يقصد بها أولئك الذين يتعاونون مع الفرنسيين فهم في نظره سيئون جدا إلى درجة أنهم أكثر خيانة وسوءاً من أولئك الذين أطلق عليهم في مواضع الاستهجان والاستكار (الحرافيش والحشرات) .

- ولا يجب أن يفوتنا أن نلاحظ أيضا أن لغة نابليون على تأكيد الحماسة الشعبية لا تقل عن طهته في أن يستب

وثمة ألقاف تؤكد الفاصل الحضاري في معنى لغوي ومعنى حضاري أبعد أمرا من كل هؤلاء ، من مثل (جدايم) ، وهي عبارة عن حملة الجنود الضخمة ، كما أن لفظة (الطبلخانة) التي يضيف إليها لفظة (الكبيرة) إنما تعني الفرقة المصرية ، أما (البركة) فقد كانت في الأزبكية ، و(طبيلات النوبة) هي البروجي ، ثم (الفروة) وما إلى ذلك من مظاهر الاحتفال .

كما يلحظ من طبيعة اللغة التي يستخدمها الجبرتي نفسه العامل الداخلي الذي يحدد التباير بين الحضارتين ، فمثل مستوى الشخصيات ، نجد هذا يتمثل عند الجبرتي في السلبية التي لفتت إليه ، وهذا يظهر من ذكر الجبرتي محاولات العديد من الفرنسيين لاسترضاء الشيوخ - وبالنتيجة العامة - بتشجيع الموالد والتبرع لها ، فإن ذلك لم يثر رد فعل حسن في أعمق الجبرتي ، لأنه سلفي النزعة ، وسيبدي إعجابه فيها بعد بالحركة الوهابية ، في حين يستكر الموالد وما يصحبها من بدع وجون وهو ما سيلاحظه د. صلاح العقاد بعد ذلك (بحوث ندوة الجمعية التاريخية ، بحث الجبرتي والفرنسيس ، ص ٣٢١) .

تقليد أمير الحج

الكوريه ، ص ٦ رقم ٣

« عين القائد العام السيد مصطفى أميراً للحج إلى مكة وقد ألبس اليوم امام جميع موظفي الدواوين واشراف البلد معطفا جيلا لونه أخضر لهذه المناسبة وقد أهداه الجنرال بضع جواهر وحصانا عليه سرج جميل وحصانا على بأحسن كسوة .

وعند مغادرته الحفل ودعته ست طلقات أطلقتها مدافع بطارية القلعة .

الموسيقى إلى منزل الشيخ البكري نقيب الأشراف . وقد أطلقت المدافع عدة طلقات لإيذاتها بيده مسيرتهم ، كما أطلقت طلقات أخرى لدى وصولهم إلى منزل النقيب .

ويعد أن تناول القائد العام طعام العشاء في مأدبة فاخرة بمنزل الشيخ البكري عاد إلى مقره . وأجرى عدد من المصريين ألعابا نارية وقاموا بها على أحسن وجه . وفي صباح اليوم التالي قام القائد العام بتقديم عباة من القراء الفاضل إلى الشيخ البكري بوصفه نقيباً للأشراف وهو المنصب الذي كان يشغله عمر أفندي من قبل . قد حضر الاحتفال بتقديم العباة أعضاء الديوان .

وفي يوميات الجبرتي ، ج ٣ ص ١٥ ، ج ٤ :

« (وفيه) سال صاري عسكري عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال لابد من ذلك وأعطى له ثلاثمائة ريال فرانسا معاونة وأمر بتعليق تماثيل وأحبال وقناديل واجتمع الفرنسيون يوم المولد ولعبوا مياديقهم وضربوا طبولهم وديابهم وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري واستمروا بضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت دارة وهي عبارة عن طبيلات كبار مثل طبيلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حرقا نفوط مختلفة وسواربخ تصعد في الهواء .

وكما رأينا سالفا ، فإن وصف الجبرتي لطقوس المولد النبوي يرينا أن المصريين تعاملوا مع الغريبين بسلبية كان أهم مظاهرها هنا إغراضهم عن الاحتفال بأكثر الأعياد إثارة عليهم ، وكان السبب في عدم قيامهم بالاحتفال هي الظروف ، وهو ما لا يظهر - بالطبع - من منشور الكورية ، فالعلمان غنفلان والتفانان متبايتان .

وفي (يوميات) لـ الجبرتي ، السابق ، ص ١٦
جاء :

د في ربيع الاول ١٢١٣

(وفي عشرينه) قلدوا مصطفى بيك كتبخدا الباشا
عل إمارة الحج فحضروا عند المحكمة عند القاضي
وليس هناك الخلفة بحضوره مشايخ الديوان والتزام
بونابرت بتسهيل مهمات الحج وعمل عملا جديدا .
وكما نرى ، فإن هناك ألفاظا تؤكد الواقع مثل كتابة
لفظتي (بونابرت) و (كليبر) وتفسيرها قد يتخذ في
أكثر من نقطة :

أما التقابل من شأن صاحب الاسم في الحديث . .
وأما أن يكون هو أسلوب النطق في هذا الوقت . .
وعما يجدر بالذكر ان هذا النطق (بونابرت) هو أقرب
الى النطق الايطالي ، الذي ينحدر ، بالتبعية ، من لفظة
(بونابرت) ، فالنطق الايطالي هو (بونابرت) نسبة إلى
خصائص الايطالية نفسها ، وهو حيث لا يخرج في
الحالين عما كان قائما .

ويأتي في هذا أيضا قول الجبرتي (خلفة) بينما تكتبها
الكورييه (معطفا) ، والمفارقة بين لفظتي (قلدوا)
و (عين) أن الأولى هي لغة الجبرتي بينما الثانية أسلوب
الغرب ، الأولى تعبر عن حضارة لا تزال تعيش في
التقليد والأخرى حضارة جاوزت إلى مرحلة جديدة من
مراحل التطور .

ويأتي في هذا مقطع مثل (كتبخدا الباشا) الذي
يضيف إليه الجبرتي مقطع آخر هو (مشايخ الديوان)
الذي يستبدل به الكورييه مقطع (موظف الدواوين
وأشراف البلد) .

وتؤكد كل البيانات الأولى التي أطلقها بونابرت حين
هبط إلى ثغر الاسكندرية مثل هذا الرأي الذي نذهب
إليه الآن ، وتكرر كل وجهات النظر الخاصة بالفرنسيين
على معرفتهم بيقم المصريين واحترامهم لدينهم واستمرار

مراسيم هذا الدين كيا هي وقهر المالك اعداء الشعب
المصري في أول بياناتهم ، كما تحدثت عن التماسبات
الدينية التي سبق أن اشيرنا إليها مما يؤكد على ذكاء الغرب
القادم عبر المحيط ، فقد جاء في منشور نابليون ، وهو
يختتم ، عبارة لا تخلو من معنى ، اذ يقول :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، ولا ولد
له ولا شريك له في ملكه) . .

كما أضيفت العبارة التالية في البيان (إنه صادر من
الحكومة الفرنسية المبنية على أساس الحرية والمساواة) ،
مؤكدًا أكثر على ضرورة نصر المصريين على للمالك
مضمنا هذا البيان بعبارة لا تخلو من معنى (وأصلح حال
الأمة المصرية) كما نقل الجبرتي عن المنشور الفرنسي . .
خطب شريف مكة :

الكورييه ، السابق ، رقم ٦

يوم التكملة الثاني - السنة ٦ للجمهورية

ترجمة خطاب موجه الى شريف مكة من مشايخ
وأعيان القاهرة :

وبعد تضرعاتنا الحارة إلى الله التي تلهم بها السنتنا
دائما أبدا ليحفظ مولانا أمير المؤمنين والنتاج الملكي
للذرية الهاشمية وسليل النبي الشريف غالب سلطان
مكة حفظه الله ليرمقه برعايته إلى أعلى مراتب المجد
ويجنه اي سوء تأتي به الأيام في تعاقب الليل والنهار لما
أكتسبه من بركات جده المجيد وهو أقدر الشافعين .
تشرّف بابلاغ مولانا الذي لا يكف أبدا بعقريته
عن رعاية مصالح الدين والمؤمنين والسادة آل عبد
المناف أحد مشاهير أجداد أوليائنا الشرفاء وعلماء
الاسلام في مكة والمقضاة والامامة الخطباء وعموم تجار
وموظفي الحكومة في المدينة المقدسة أن اليوم السابع

إن هذا العدو لم يعد له وجود وقد استراح منه المسلمون برعاية الله العلي القدير .

عندما عاد الحجاج من مكة واقرىوا من القاهرة ذهب القائد العام بنفسه للاقائهم في مديرية الشرقية بعد سماع الأخبار بأن بعض الأعراب اللصوص والمجرمين قد سلبوهم متاعهم وخيراتهم . فاستقبلهم الجنود الفرنسيون وزودوا من بقي منهم على قيد الحياة بالخيول والطعام والزاد واسعفوا الجراح والمعتاش .

وكان القائد العام قبل دخابه إلى الشرقية قد كتب إلى قافلة الحجاج يطلب منها العودة رأسا إلى القاهرة حيث تجد أحسن استقبال ولكن لسلاسل هذه الخطابات لم تصل إلى رجال القافلة الذين لا قوا مصيرهم المحتوم .

اقتنحت قناة مدينة القاهرة - الخليج - هذا العام باحتفالات غير عادية ارضاء لأمراء المؤمنين دون شك وتبليغا لمخاوفهم ومهموم .

أجرى القائد توزيع مبالغ كبيرة من المال على سبيل الصدقة على الفقراء والمعوزين وأقام وليمة تكريما لأعيان البلد . كذلك أنفق القائد أموالا كثيرة احتفاء بمولد النبي وسيد المرسلين وأقيمت احتفالات شيقة بهرت أنظار المؤمنين .

إننا لله وأنا اليه راجعون - يجب ألا ينغى عليكم أن القائد أبدى رغبة صادقة في تعيين أمير الحج واتخاذ جميع الاجراءات التي تسبق رحيل قافلة الحجاج . وكان من رأينا معه أن يستد شرف هذه للمهورية إلى السيد المحترم الأمير مصطفى آغا وهو من رجال صاحب السعادة ابوبكر باشا حاكم القاهرة ، ونحن نرجو أن يلقى هذا الاختيار وقفا حسنا من الباب العالي تأكيدا لحق من أعز الحقوق على قلبه . لذلك

من شهر صفر الذي كان يوافق يوم السبت أقبل الجيش الفرنسي على أراضي الجزيرة على ضفاف النيل الغربية وشن في نفس اليوم هجوما على الممالك . . . (و) . . . وفي صباح اليوم التالي توجه وفد من علماء الشريعة وأعيان القاهرة إلى الجزيرة طالبين الحماية والرعاية للمصريين معادا للمالك واتباعهم واستجاب القائد العام الى طلبهم هذا . ثم طلب الوفد أن تلقى كلمتاد خطبة الجمعة التي تعود الأئمة الخطباء القاءها في المساجد يوم الجمعة عند صلاة الظهر متضمنة الدعاء لصاحب العظمة السلطانية ، فوافق القائد العام على أن تلقى هذه الخطب كما كانت وأضاف أنه من أخلص أصدقاء السلطان العثماني وأنه يجب جمع الموالين له ويعتبر أعداء السلطان أعداء له شخصيا .

وأمر في الحال أن تفتح أبواب الجوامع للمصلين لاداء الشائر الدينية والأذان وتلاوة القرآن بكل حرية في مدينة القاهرة كلمتاد .

وتكرم أيضا بإبلاغ الوفد أنه يسلم في قرارة نفسه بأن الحقيقة التي لازاغ فيها هي أن الله هو الله وحده وأن معظم الفرنسيين يكونون لثنين والقرآن أعظم تبجيل وأكثرهم مقتنون بسيادة الاسلام على جميع الأديان الأخرى ويدلل القائد على قوله هذا باطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين وجدهم في جزيرة مالطة بعد الاستيلاء عليها وهمد الكنائس المسيحية والصلبات في جميع البلاد التي استولى عليها وخاصة في مدينة البندقية ، حيث أحبط كل المكائد التي كان يتعرض لها المسلمون وخلع باباالمسيحيين في روما ، الذي كان يجل قتل المؤمنين ، هذا العدو الازلي للاسلام الذي كان يدخل في روع المسيحيين ان الله يكافئ على إهدار دماء المؤمنين الحقيقيين .

فقد اضفى هذا الاجراء البهجة والسرور وأدخل الطمأنينة على قلوب جميع المسلمين .

يبدى قائد الجيش الفرنسي نشاطا كبيرا واخلاصا عظيما لمصالح الحرمين ويتفقد كل ما يلزم عمله بشأن رحلة غافلة الحجاج .

هذا هو ما أوصينا به لتكونوا على علم ، باعتبارنا شهره عيان بالعناية الفائقة التي تجتص بها هذا الأمر المهم لكي تعملوا ما ترونه مناسبا من جانبكم .

السلام والرف سلام على هذا الرسول للمجيد الذي لن يعلن الحقيقة على العالمين وقد وهبه الله كل الفضائل والشمائل . سلام الله ايضا على أمه وصحبه في رسالته السماوية .

عمل بالقاهرة في ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هجرية وقد ذيل بألفاظ عديدة جدا .

وفي يوميات الجبوتي ، ج ٣ ص ٢١ جاء في نفس الموقف :

« وفيه) كتبوا من المشايخ كتابا ليرسلوه إلى السلطان وآخر إلى شريف مكة ثم أنهم بصموا منه عدة نسخ ولصقوها بالطرق والمقارن وصورته ملخصا بعد الصور ذكر ورودهم وقاتلهم مع الماليك وهرهم وإن جماعة من العلماء ذهبت اليهم بالبر الغربي فأنتمهم وكذلك الرعية دون الماليك وذكروا فيه أنهم من أخصاء السلطان العثماني وأعداء أعدائه وإن السكة والحطبة باسمه وشعائر الاسلام مقامة على ما هي عليه وباقية معنى الكلام السابق من قولهم أنهم مسلمون وإنهم يحترمون القرآن والتي وأنهم أوصلوا الحجاج للمشتين وأكرمهم واركبوا للماني والطعموا الجمعان وسقوا المعطشان واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر وعملوا به شانا وروثنا استجلايا لسرور المؤمنين وأثقفوا أموال يرسم

الصدقة على الفقراء وكذلك اعتنوا بالمولد النبوي وانفقوا أموالا بشأن انتظامه واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجنتاب المحترم مصطفى أغا كتنخدا بكر باشا والي مصر حالا فاستحسننا ذلك لبقاء علقه الدولة العلية وهم ايضا مجتهدون في اتمام مهمات الحرمين وامرنا ان نعلمكم بذلك والسلام .

ويلاحظ هنا أن التباين واضح أشد الوضوح بين الأتريين ، فقد ارتدى زيا وطنيا أودينيا ، غير أن التدقيق فيه يكشف اللثام عن فارق حضاري أبعد أثرا من الدلالة المباشرة . . وهذا يبدو في (بريد) نابليون بالقدر الذي يبدو في (يوميات) الجبوتي .

عند نابليون لا نخطأ قط التوسل باللهجة الدينية وعادة الأئمة منها لدى المسلمين وهو ما يظهر على لسان الخطاب الموجه إلى جهات دينية من مشايخ مصر وأعيانها الكبار ، حين يظهر الشاه على الفرنسيين ثناء عاليا متمثلا في ذكر مآثرهم من فتح المساجد وإقامة الموالد واستقبال الحجاج وما إلى ذلك . . اما عند الجبوتي ، فزنا لا نخطأ موقف للزورخ العربي الفطن ، الذي يتحدث فيقدم الفعل الوحي (كتبوا ، بصموا ، الصقوا . . . الخ) إلى غير ذلك مما يشير إلى أن ما جاء به المشايخ والتجار والكبار إنما هو بناء على طلب الفرنسيين المحتلين وليس عن إرادتهم وحسب .

اجتماع الديوان

ومع معاناة النصوص والتوقف عندها يتأكد لنا زيادة الحوة بين الطرفين ، وهو ما نجده في تضاعيف هذين النصين ايضا :

كوريه رقم ٢١

٢٠ فاتحير - السنة ٧ للجمهورية

« اجتماع الديوان العام في مصر يجتمع الآن في القاهرة تحت إسم الديوان العام

وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن إلا أن دولة الترك شئت في خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس إلا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مخضين تحت حجاب الفقر ونهاية لأنفسهم ومن سوء ظلمهم ثم إن طائفة الفرنسيات بعدما تعهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمر الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه وإراحة أهلها من ثقل هذه الدولة المقعنة جهلاً وشيئاً فقدّموا وحصل لهم النصر ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة وإن عرضهم تنظيم أمور مصر وأجرأه خلجانها التي نثرت وتصير لها طريقان طريق إلى البحر الأبيض وطريق إلى البحر الأحمر فيرداد خصمه ويربها ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك استجلاً لحواظر أهلها وإبقاء للذكر الحسن فلأناس من أهلها ترك الشعب وإخلاص المودة وأن هذه الطوائف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جلية لأهم أهل خبرة وعقل فيسألون عن أمور ضرورية ويحيون عنها فيتجسس لصاري عسكر من ذلك ما يليق صنعه إلى آخر ما سطروه من الكلام قلت ولم يعميني في هذا التركيب إلا قوله المقعنة جهلاً وغباوة بمد قوله اشتاقت أنفسهم ومنها قوله بمد ذلك ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد إلى آخر العبارة ثم قال الترجمان نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون كبيراً ورئيساً عليكم ممثلين أمره فقال بعض الحاضرين الشيخ الشراقي فقال **تُونُونُو** وإنما ذلك يكون بالقرعة فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشعراوي فقال حيثن يكون الشيخ عبد الله الشراقي هو الرئيس قائم هذا الأمر حتى زالت الشمس فاذنوا لهم في الذهب والزموم بالحضور في كل يوم .

نواب من جميع الأقاليم في القطر المصري ، وذلك بناء على أمر القائد العام - وقد عقدوا جلستهم الأولى في ١٦ فاندعير وكان للمواطن مونج وبرتولي يمثلان الفرنسيين في هذه الاجتماعات بصفة مندوبين . وقد زادت من عظمة هذا الاجتماع ، الملابس الإسلامية الجميلة ووزانة وهدوء أصحابها مع من كان يرافقهم من كثرة الأتباع .

لقد اختير الشيخ عبد الله الشراقي رئيساً للاجتماع . وسنحيط قراءنا علماً بما ستقوم به هذه الهيئة سواء في المجال السياسي أو في مجال خدمة العلم والحضارة .

وجه في يوميات الجبري ، ج ٣ ص ٢٢ ، ٢٣

« وفي يوم الجمعة رابع عشرين) نبهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور إلى الديوان العام ومحاكمة النظام بكثرة تاريخه وذلك بيت مرزوق بيك بحارة عابدين فلما أصبح يوم السبت أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قائد أغا بالأزبكية فتوجه المشايخ المصري والذين حضروا من الثغور والبلاد وحضر الوجقات وأعيان التجار ونصارى القبط والشروم ومدبرو السجون من الفرنسيين وغيرهم جمعا موفورا فلما شرع بهم المقام شرع ملطي القبطي الذي عمله قاضي في قراءة فرمان الشروط والمناقشة فأبشّر كبير المخبرين في إخراج طومار آخر وناوله للترجمان فنشره وقرأه وملخصه ومضمونه الأخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد وأنه أنصب البلاد وكان يجلب إليه للتاجر من البلاد البعيدة وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يبرفها الناس في الدنيا أخلت عن أجداد أهل مصر الأول ولكون قطر مصر يملكه الصفات طمعت الأمم في تملكه فملكه أهل بلبل

أن نختار نصين يعبران أكثر منها عن حالة المفارقة بين الحضارتين ، وهما نصان عميلان بلغماني الانياضة التي تؤكد هذا . .
منشور الثورة :

١٠ برومير - الستة السابعة للجمهورية

القاهرة في ٦ برومير سنة ٧

٥ في فجر يوم ٣٠ فالنمبر ظهرت بعض التجمعات في مدينة القاهرة وفي الساعة ٧ صباحا تجمع جمع غفير ، أمام باب القاضي ابراهيم حاتم افندي وهو رجل محترم بأخلاقه وصفاته . ذهب إليه وفد من عشرين شخصا من أبرز الشخصيات وأرغمه على أن يتطلي جواده وصحبهم إلى . . ثم مضوا في طريقهم إلى . . وبينما هم في الطريق وجه رجل عقل رشيد نظر القاضي إلى أن الجميع يضم عددا قليلا وغير منظم من الرجال ، كل ما يريدونه هو تقديم عريضة فبهر القاضي من هذه الملاحظة مقتنعا بها ثم ترجل عن جواده وذهب إلى منزله .

ولكن ذلك لم يرق للمجاهير الغاضبة فانقضت عليه وعلى أهل بيته ووجهتهم بالحجارة وضربتهم بالعصر وسلبت ونهبت مافي المنزل .

ولما ذهب الجنرال ديوي قائد الحماية إلى مكان الحادث في غضون ذلك وجد جميع الشوارع قد سدت أمامه وكان هناك قائد كتية تركي فلما رأى الضوضاء واستحال عليه تهدئتها بالحسن أطلق النار للأرهاب فاستشاطت الجموع غضبا وزاد هياجها فهاجمها الجنرال ديوي بجندته وشتت كل من تصدى له وفتح لنفسه طريقا ولكنه أصيب بضربة ومع تحت إبطه فانقطع شريان أمهله الحياة لمدة ثمان دقائق فقط .

ومع تتابع المقارنة ، كما نرى ، يعمق التباين أكثر ويتأكد . . فبينما نجد لفظة (امر) مشفوعة بالقائد العام نجد الجبرتي يذكر لفظ (نهوا) و (أعادوا التنبيه) ، وهو ما يعيد على الأذهان دلالة الألفاظ في كشف السلوك الذي هو من صور الذات والحساسية الحضارية . كما بلغت النظر هنا ، أيضا ، أن صحيفة نابليون تذكر هذه المظاهر التي تقترب من السلوك الدستوري ، شأن الجبرتي بعد أن يسرد بعضها لا يمجع فيها إلا مقطعا واحدا هو (المقسم جهلا وغباوة) ، وهو ما يشير إلى أن الاحتفاء بالبيان والمجاز في الحضارة العربية هو إحتفاء بفوق النظام والوسائل الدستورية بمتناها السياسي في الحضارة الأوروبية .

ولا يمكن هنا أيضا أن نغفل الوصف البدهي لانتخاب أو اختيار الحاكم هنا ، فبينما تذكر اللغة الفرنسية أن ذلك تم بواسطة الاختيار بالطريقة الدستورية ، فإن الجبرتي لا يعثر في التعبير عن هذا إلا كلمة مثل (فرعة) .

وبين الاختيار وإجراء الفرعة معاني ظاهرية ودلالات أكثر بعدا وعمقا في الحضارتين الشرقية والغربية بالطبع .

وربما أشرنا إلى وعي صحيفة نابليون بالواقع المصري منذ أبعد حقبت التاريخ عما يلح على الدافع القومي ، في وقت ، بأن اندافع الاسلامي مازال هو الدافع الوحيد ، على وجه التعبير ، الذي يرسم الملامح العامة لاقطار الشرق العربي .

ورغم أننا نسلط في نهاية فترة الوجود الفرنسي في مصر وعيا فائقا لدى الجبرتي وعيد من (للشايخ) المصريين في تفهم هذا التباين بين الشرق والغرب ودلالته ، فإننا سوف نلاحظ مراحل هذا التباين تخمسي رويدا رويدا . .

وقبل أن نصل إلى نهاية هذا البحث ، سوف نهجد

وخسائرتنا ١٦ جندياً قتلوا و ١١ مصاباً فيهم واحد خنقه الثوار في الشارع و ٢٠ رجلاً من مختلف الوحدات والرتب .

إن الجيش يشعر بخسارته في فقدان الجنرال دويوي الذي سبق أن أخطئه الموت في مفاجآت الموت مائة مرة .

وعندما ذهب ياورنا سولكوسكي في فجر يوم أول بروميير لاستطلاع الحركات التي كانت تبلى خارج المدينة هاجته بذوره الجماهير في ضاحية من الضواحي ولما انزلت أرجل حصانة انهالت عليه الجماهير ولم تلتئم الجراح التي أصابته في معركة الصاحية فمات .

لقد كان ضابطاً ذا مستقبل عظيم .

أما في (يوميات) الجزيري ، ج ٣ ص ٢٥ - ٢٧ فنقرأ في نفس الحادثة :

« (وفي يوم السبت عاشر جمادي الأول) عملوا الديوان واحضروا قائمة مقررات الاملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة والأوسط ستة والأذن ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معاق وأما الوكائل والحانات والحمامات والمعاصر والسبايج والخوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الحسنة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم والصقوها بالمقارن والطرق وأرسلوا منها نسخاً للأعيان وعينوا المهتمين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا في الضبط والإحصاء وطلبوا بعض الجهات تحرير القوائم وضبط أسماء أربابها ولما أشيع ذلك في الناس كثرت لنظمهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء فانتدب جماعة من العامة وتناجوا في ذلك

وتسلم القيادة من بعده الجنرال بون وقصفت المدافع وتبولدت الثيران في جميع الشوارع وسطت الجماهير على بيوت الأغنياء تسليهاً وتنبهاً .

وفي المساء كانت المدينة قد هدأت كلها تقريباً إلا حي الجامع الأكبر حيث كان يجتمع مجلس الثوار الذين أقاموا المتاريس في الشوارع المؤدية له .

وفي منتصف الليل تمركز الجنرال دومارتان على رابية بين القلعة والقبّة ، التي تقع على بعد حوالي ٣٠٠ متر من الجامع الأكبر معه ٤ مدافع .

كان العرب والفلاحون يسيرون متلهفين لنبذة الثوار فأمر الجنرال لان للجنرال فو بالهجوم على نحو ٤ أو ٥ آلاف فما أن رأوهم حتى فروا بأسرع ما كان متوقعاً وغرق منهم عدد كبير في مياه الفيضان .

وفي صباح اليوم التالي أرسل الجنرال دوماس طلّاع فرقة من الخيالة لاستطلاع الأمور فطرد العرب بعيداً عن القبة .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان كل شيء هادئاً خارج سور المدينة . وعندها تقدم رجال الديوان وكبار المشايخ ورجال الشريعة نحو المتاريس المقامة في حي المسجد الأكبر رفض الثوار السماح لهم بالمرور واستقبلوهم بطلقات البنادق .

وكان الرد في الساعة الرابعة باصلاهم نراً حامية من مدفعية القلعة ومدفعية الجنرال دومارتان وفي أقل من عشرين دقيقة من قصف المدافع رفعت الاستحكامات والمتاريس وانفض المتظاهرون من الحي واستولت قواتنا على المسجد وعاد الهدوء التام إلى كل المنطقة .

وتقدر خسائر الثوار بحوالي ٢,٥٠٠ قتل

ورافقهم على ذلك بعض المتحمسين الذي لم ينظر في عواقب الأمور ولم يفكر أنه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغنواء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحيزين وعلى الجهاد عازمين وبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسنية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام نصر الله دين الاسلام فذهبوا إلى بيت القاضي المسكر وتجمعوا وتبعوا عن عل شاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابيه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الحرب فلم يمكنه الهروب وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الكبير وفي ذلك الوقت حضر دبيري بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع القورية وعطف على خط الصناديق وذهب إلى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الأخطاط بالخلاتق مزحومة فيادروا إليه وضربوه وأخذوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه فعند ذلك أخذ المسلمون حلزهم وخرجوا يهرعون ومن كل حذب ينسلون ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشمرية وجهة البندقيين وما خلفها ولم يتعدوا جهة سواها وهملوا مصاطب الحوانيت وجعلوا أحجارها مترايس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفرغ منهم شازع ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع وكذلك شد عن الوفاق مصر

العتيقة ويولاق وعذرهم الأكبر قرحم من مساكين العسكر ولم نزل طلائفة المحاربين في الأزقة مترسين فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية للثاغلية ويندقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحاميين فقتلواهم حتى أجلوهم عن الثاغلية أزالوهم وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلازل وخرجت العامة عن الحد والنقوا في القضية بالعكس والطرده امتدت ايديهم الى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصرى والشوام والأورام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام وأخذوا الدوائع والأمانات وسبوا النساء والبنات وكذلك هبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المنابى ولم يفكروا في العواقب ويأتوا تلك الليلة سهرائين وعلى هذا الحال مستمرين وأما الأفرنج فلأنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقناير والبنات ووقفوا مستحضرين ولأمر كبير كبيرهم منتظرين وكان كبير الفرنسيين أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ومل من المطاولة هذا والرمي متتابع من الجهتين وتقاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنات على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجروا عليه المدافع والنير وكذلك ما جلوره من أماكن المحاربين سوق القورية والفحاميين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفي الأطلال نجتا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع الرمي من القلعة

والليمان حتى تزعزعت الأركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل وأصمت الأذان بصوتها المائل فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويمتنع عسكريهم من الرمي للتراسل ويكفهم كما كَفَّ المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبتهم في التأثير واتهمهم في التقصير فاعتلوا إليه قبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك وتسلم الناس بذلك فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة وأطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب وانقضى النهار وأقبل الليل وغلب على الظن أن القضية لها ذيل وأما أهل الحسينية والمعلوف البرانية فانهم لم يزلوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن غائبهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اتخنوهم بالرمي المتتابع وبالتناير والمدافع إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرضت من عندهم الأدوات فمجزوا عن ذلك وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا وبعد هجمة من الليل دخل الافرنج للمدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع ولا يجلون لهم مانع كانهم الشياطين أو جند ابليس وهجموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا إلى الغورة وكروا ورجعوا وترددوا وما هجموا باليقين بأن لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا ارسالاً ركباً ورجالاً ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ويهيم المشاة كالوعول وتفوقوا بصحته ومقصورته وريطوا خيولهم بقبلته وعالتوا بالأروقة

والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائين الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبات بالدوابل والخزانات وشتروا الكتب والمصاحف على الأرض طرحوها بارجلهم وتعلم داسوها وأحشوا فيه وتفوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيهم وألقوا بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه عروه ومن ثيابه أخرجه وأصبح يوم الثلاثاء فاصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيفر راجعاً ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك التواشي أفضواً واتخذوا السمي والطواف بها منهجاً وأخطوا بها إحاطة السوار ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش عن التهرب وآلة السلاح والضرب وشجرت سكان تلك الجهة يسرعون للنجاة بأنفسهم طالبين وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كان أشرف البقاع وشرف الناس في سكانها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع والفرنساوية لا يبرون بها إلا في النادر ويعتزمونها عن غيرها في الباطن والظاهر فانقلب بهذه الحركة منها موضوع وانخفض على غير القياس المرفوع ثم ترددا في الأسواق ووقفوا صقراً مثناً وأرغوا فإن مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه وربما قتلوه وورعوا القتل والمطروحين من الإفرنج والمسلمين ووقف جماعة من الفرنسيين ونظفوا مراكز المتاريس وأزالوا ما بها من التربة والأحجار التراكمة ووضعوها في ناحية لتتبرق طرق المرور خالية وتخزيت نصارى الشوام وجماعة أيضاً من الأروام الذين انتهت دورهم بالحارة الجوانية لبشكوا لكثير الفرنسيين ما لحظهم من الرزية واغتموا الفرصة وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين

وضربوا فيهم المضارب وكأنهم شاركوا الإفرنج في التواب وما قصدهم المسلمون ونهبوا ما لديهم الا لكونهم منسوين إليهم مع أن المسلمين الذين جاؤروهم مبهوم الذعر أيضاً وسلبوهم وكذلك خان الملايات المعلوم الذي عند باب حارة الروم وفيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين فسكت المصاب على غصته واستعرض الله في قضيته لأنه إن تكلم لا تسمع دعواه ولا يلتفت إلى شكواه . وانتدب برظلمين للمس على من حمل السلاح واختلس وبت أعوانه في الجهات يتجسسون في الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم وما ينهيه التصاري من إيقاضهم فيحكم فيهم لراده ويعمل برأيه ويقاده ويأخذ منهم الكثير ويركب في موكيه وسير وهم موثوقون بين يديه بالحبال وسحبهم الأعوان بالقهر والنكال فيودعهم السجون ويطلبونهم بالمهريلات ويقرؤهم بالمقاب والضرب ويسألونهم عن السلاح والآلات والحرب ويدل بعضهم على بعض فيضمون على الدلول عليهم أيضاً القبض وكذلك فعل مثل ما فعلوا اللعين الأغا ونحبر في أفعاله وطفى وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم ومات في هذين اليومين وما بعدها أمّا كثيرة لا يحصى عددها إلا الله وطال بالكثرة بينهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم وأصبح يوم الأربع فركب فيه المشايخ اجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخطبوه في العفو والطفوه والتمسوا منه أمناً كافياً وعفوا يتادون به باللنين شافياً لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فودعهم وعداً مشروباً بالتسوية وطالبهم بالتيين والتعريف عن تسبب من التعممين في إثارة

العوام وحرصهم على الخلاف والقيام فثألوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجبلع الأزهر فأجابه لذلك السؤال وأمر بإخراجهم في الحال وأبقوا منهم السبعين أسكنوهم في الحطة كالضابطين ليكونوا للأمرور كالراصدين وبالأحكام متقيدين ثم اتهم فحسوا على المتهمين في إثارة الفتنة وطلبوا الشيخ سليمان الجوسقي والشيخ احمد الشرفاوي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ يوسف الصيفي والشيخ اسماعيل البراوي وحبسوهم ببيت البكري وأما السيد بدر القدسي فإنه تغيب وسافر إلى جهة الشام وفحصوا عليه فلم يجدوه وتردد المشايخ لتخليص الجماعة الموقوفين فغولطوا واتهم أيضاً إبراهيم افندي كاتب البهار بأنه جمع له جمعاً من الشطار وأعطاهم الأسلحة والمساق و كان عنده عدة من الماليك المخفيين والرجال المعدودين وقبضوا عليه وحبسوه ببيت الأغا . وعلى هذا النحو ، نصل إلى شيء هام يلخصه موقف الجبرتي نفسه كاحدى القيادات الدينية المثقفة ، فهو ، كما رأينا ، لم يكن راضياً عن الثورة ، وعدم رضاه يعود الى أسباب كثيرة لعل من أهمها أنه كان محافظاً شديداً المحافظة ، ومن ثم ، تبرمه بالمعص ، فضلاً عن الوعي الذي دفعه ليرى في الثورة عبثاً ما دام أصحابها لم يتخلدوا العدة لمواجهة علو مستمد مدجج بأحدث الأسلحة ، غير أن المحافظة كانت العامل الأول في موقفه . ويمكن أن نشير بعد ذلك إلى أسباب أخرى منها أسلوب الجماهير غير المنظم متمثلاً في الفوضى الضاربة باطنائها والحركة التلقائية دون ما قيادة أو تنظيم . . ويبدو عدم رضاه في لوم القيادات ، أو التمرد لأنهم أثروا العاطفة والفوضىالية وهم من يسميهم

كما يشير إلى أن منهج الجزري في تسجيل التاريخ إنما يعود إلى المنهج الإسلامي - لا الغربي - الذي يمتد إلى ابن أبياس وأحمد شلبي عبد الغني ثم الأسحاقى وابن أبي البرور البكري الصديقي ثم عبد الله الشرقي في عصره .

ويمكن أن نضرب مثلاً لهذا التباين في لفظة (الجمهور) التي ذكرت بمعنى يختلف عن لفظة (جمهور) في موضع آخر ، فلكل موضع استخدام مختلف ، يقترب أو يبتعد من التأثير بالدرسة الإسلامية حسب اقترابه أو ابتعاده من أحداث عصره والمؤثرات التي أسهمت في تحديد المعنى ، وفي جميع الحالات فإن التفسير يرتبط بالعصر .

وقد نسهب أكثر في درجات التباين بين الأثرين . . . ففي حين يلاحظ أن الشرارة التي أوقدت الثورة عند الجزري تمثلت في ضراب (الأسلاك والعقار) ، فإن وثائق الفرنسيين لا تذكر هذا السبب ، وليس معنى هذا أن الضراب هي السبب المباشر وراء الثورة ، ولكنها خريفة لهذا الاختلاف بين الجانبين .

وفي هذا يمكن تأكيد أن أسباب الثورة لا تتجاوز مفهوم الاختلاف بأية حال ، وهو اختلاف بواعث كثيرة بعضها مادي وبعضها معنوي .

أما المادي فهو يمثل في جملة من تعليمات الإدارة الفرنسية التي اضطرت إليها والتي كانت جديدة بالنسبة إلى شعب مغاير من أمثال القروض والبيع والإجارية وأوامر الاستيلاء والغرامات وما إلى ذلك ، أما المعنوي ، فهو ما تمثل في تعليمات أخرى كانت تظهر الباحث المادي لكنها تطوي الباعث المعنوي مثل أمر أصحاب الحوائث بضاعة مصابيح الشوارع طوال الليل أمام الحوائث ، وأمر نابليون بهم عدة بيوت لأنها عاقت الاستحکامات . وإلى غير ذلك من البواعث التي اندعش الشعب لغرابتها بالنسبة إليه ، ولم تكن تستطيع

(للمعممين) ، وقد كان الأولى بهم في رأيه أن يتديروا قبل أن يقدموا على هذه الفعلية الموجهة التي لم يجنوا من ورائها غير القتل .

ويترجم عدم رضاه أيضاً وصفه الغريب لرجال الثورة ، وهو في الوقت نفسه يترجم موقفه منهم حين يصفهم فيقول (الغوغاء أو الحشرات أو الذعر) ، فعل الرغم مما يبدو من القسوة في هذا الرأي ، فإنه لا مفر من قبول رأيه في ضوء عصره ، إنه من العبث التمرد على قوات أقوى مما ينتج عنه خسائر كثيرة منها ما كان يصحب هذا التمرد غير المنظم من حركة سلب ونهب وتخريب ودمار يصل إلى درجة بعيدة .

ونخطر خطوة أخرى لتجاوز مفهوم الجزري للتباين إلى دلالة الفاظة ، نلرى ، من ثم ، عمق هذا التباين بين العالمين ، فبينما نقرأ في أوراق الجزري (للمعممين) الجهاد حشرات الحسنة وذعر الحارات البرانية ، المسلمون ، الكفار ، الشيطان ، ضرموا بالمذابح ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر) فإن الدلالة تختلف في الفاظ صحيفة نابليون حين نقرأ (التجمعات ، قائد كتبية تركي ، الجماعير ، العرب والفلاحين ، للتاريس حول المسجد الأقصى ، المتظاهرون ، خسائر الثوار . . .) مما يشير إلى اختلاف العالمين الشرقي والغربي اختلافاً كبيراً ، فإذا جاوزنا المعنى الظاهر لوصفنا إلى غابات البهان والبديع والمجاز تلك التي تنظّل السمة الغالبة على أسلوب الجزري ، إذ لا نخطأ هذا السجع المتتابع واحتواء تاريخه للتراجم والأخبار في آن واحد وتسجيله للأحداث في شكل (يوميات) أي بشكل مباشر واحتواءه على وثائق وعديد من الروايات المدونة بنصوصها كما عرفت في هذا الزمن سواء بمعجميتها أو عربيتها أو حتى ركائنها وهذه الخواطر التي تنون كلها عن لصاحبها فضلاً عن احتواء الكتاب لبعض التوارد والأشعار والزخارف اللفظية وما إلى ذلك

هذه الأوامر أو التعليمات المغايرة أن تعمل شيئاً في شعب كان فقهاً، يدعون إلى الثورة (خمس مرات في اليوم) على رأي كرسثوفر هيرولد (بونابرت في مصر، ٢٦٢)

وربما لربط بهذا تأرجيح الموقف الجبرتي أيضاً في أكثر من مرة لفرابة أفعال الفرنسيين المختلفين عن شعب أعزل، وهو موقف يتسم، كما أسلفنا، إلى فكره الذي يفهم العدل على أنه إنفاذ الشريعة الإسلامية والرفق بالناموس خاصة إذا كان الحاكم هذه المرة أجنبياً، فهو يعلق على موقف القائد الفرنسي - نابليون - بعد أن أرسل المنشور الأول وقال فيه (انني ما قلمت لكم إلا لكيأخلص حقكم من يد الظالمين) فإن الجبرتي يردد مباشرة في (مظهر التقديس) قتلاً (هذه أول كلمة ابتدأها وقرية ابتكرها) (ص ٢، ٣)، كما أن يوميات (العجائب، ج ٣) زاخرة بضروب ظلم الفرنسيين، فكما نرى في الوصف السابق لأحداث ثورة القاهرة الأولى، فإنه يعلق على أفعال الفرنسيين لإخضاع الثورة، إنهم أي الفرنسيون قد نالوا من المسلمين قصدهم ومصادمهم (ج ٣، ص ٢٧) ويضيف معلداً ما يفعلون من استمرار القبض على الناس وكيس البيوت باض شبهة) وما إلى ذلك حتى لم يسلم من هذا المصير أحد من فئات الشعب.

وعلى أية حال، فإن دراسة الجبرتي في علاقته بالغرب واستيطان البني الزمنية أو الدلالات الفكرية يدلان على شقة الخلاف بين هذين العالمين، في وقت لم يكن المصريون خلال قرون بعيدة إلى الوراء قد اختلفوا في رأيهم بعد عن الصليبيين سواء في قدراتهم الحربية أو الحضارية، حتى إذا ما جاءوا هذه المرة، بدأ الصراع مغايراً نتيجة لأن العالم كان مغايراً.

ومن هنا، فإن (الصلصة) الأولى كانت كافية للسير

في العالم الغربي أو في عصره، لكن بمقومات علمنا نحن وعصرنا أيضاً.

والسؤال يظل هو: ما هي أهم الدوافع وراء دواعي التدوين والتعبير؟ فلنحاول الإجابة عنه..

أن الدافع الأول الذي لا نستطيع التخلص منه قط، يظل إختلاف الشرق عن الغرب، وهو إختلاف تغاير.. وكما أسلفنا، فإن تقليدية الجبرتي، وإن كان مغالياً فيها، لا تحمل بالضرورة تحلقاً حضارياً، كما أن رؤية نابليون، وإن كان طموحاً فيها، تنطوي بالضرورة على هدف حضاري.

ويمكن أن نتابع مع ذلك عدداً من التفرعات وراء هذا التغاير..

لقد كان الجبرتي أثناء الوجود الفرنسي يسجل في كراساتِهِ الخاصة أعمال ومشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه، وراح يسجل أيضاً ما رآه في الغالب رأي العين في أوراق متناثرة يسميها (طيارات) حتى إذا ما خرج الفرنسيون وكان لا بد أن يمضي وقت طويل على هذا عمد أن يبدأ بعد ذلك إلى تسجيل تاريخه بغرض تذكير الناس ما حدث والافادة منه.. أما نابليون، فقد اختلف في صحيفته عن يوميات الجبرتي، إذ سعى إلى طبعها لنشرها بين أفراد جيشه للتعرف على أخطار أوروبا وأخطار البلد التي تواجدوا فيها حتى تحمل هذه الجريدة الأخبار إلى الخارج وتحمل أيضاً أخبار الخارج إلى الداخل لكي يتسنى فهم ما يحدث خارج المستعمرة الجديدة أو في أطرافها.

لقد راح الجبرتي يدون (يومياته) بينه وبين نفسه؛ وراح نابليون يدون الأخبار بينه وبين الآخرين؛ كان الجبرتي يهدف إلى تسجيل ما يرى؛ أما نابليون فكان يهدف إلى إملاء، إرادته من خلال تجربة الاستعمار.

التاريخي للمؤرخين أعمال فردية في وقت تظل فيه هناك علاقة أكيدة قائمة بين الفرد والجماعة .

ومن هنا ، يمكن اعتبار (العجائب) أكثر صدقاً وعفوية من (البريد) ، أو على الأقل أكثر صدقاً في التعبير عن روح الجماعة أكثر من غيره .

وهذا يصل بنا الى دافع آخر . فالمهجة التي كتب بها الجبري (يومياته) إنما كانت ترتدي ، ضمن ما ترتدي ، زي المؤرخين السابقين عليه في العصر العثماني ، يبدأ تاريخه بمقدمة ثم بلمة سريعة بتاريخ مصر - على عادة مؤرخي هذه المهجة - حتى العصر العثماني ، ثم يتنرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة ، وإن يكن تاريخه الفعلي يبدأ عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م إلى غير ذلك حتى يصل الى الحملة الفرنسية فيقسم كتابه الى أجزاء ويخصص الجزء الثالث منه إلى الحملة حتى ينتهي من تدوين هذا الجزء الثالث عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م .

أما نابليون ، فإن اختلاف المنهج والقصد حتم عليه أن يجاوز المنطق التاريخي في إثبات الحوادث وتسجيلها ، بل وراح يمتنع إلى المبالغة ، كما هو الحال في مناسبة مثل (وفاة النيل) ، ففي حين يلاحظ لهفة نابليون - القائد - في تأكيد حماسة الشعب بما يعادل لهفته في تحقيق أحلامه لاستتباب الأمر له بمصر ، فراح يذكر في صحيفته أنه حين عاد إلى الأريكية بعد هذا الاحتفال فقد تبعه جمهور ضخم منشد أناشيد المدح في وقت يذكر فيه الجبري - المؤرخ - أن أهل البلد (لم يخرج معهم أحد تلك الليلة) (ج ٣ من العجائب ص ١٤ - ١٥) .

لقد كانت الدوافع التي كمنت وراء الاختلاف بين نظرة الجبري ونظرة سلفه ، أن الأول جهد لسجيل التاريخ من وجهة نظر مؤرخ وشاهد عيان مسلم أثناء إغارة الفرنسيين على بلاد في وقت شغل فيه بونابرت كل الشغل بتحويل المثل الأعلى للحرية والمساواة وما إلى ذلك من شعارات الثورة الفرنسية قبل ذلك بسنوات

ومن هنا ، عاد الجبري إلى كراسات التي سجل فيها الأحداث حتى بعد خروج الفرنسيين ، أما نابليون ، فقد راح يرسل وقتها أعداداً كبيرة منها إلى كليبر في الاسكندرية لطبع منها ما يستطيع من الكميات ليعيد توزيعها على رجاله .

كان الجبري مؤرخاً وطنياً ينتمي إلى الشرق ، أما نابليون ، فقد كان قائداً حليماً ينتمي إلى الغرب ، غرب القرن الثامن عشر بأحلامه الصاعدة .

وهو ما يفسر احترام نابليون رجال الدين المصريين في القاهرة ، بينما في (بريد) الحملة راح يسجل ما يحل له بقصد تبرير سياسته والتكريس لها .

سبب آخر يحدد دوافع الكتابة عند الإثنين ، فالجبري لم يكن يسعى لفسر تسجيل « اليوميات » ، أما نابليون ، فقد كانت أحلامه (الزاهية) التي استولت عليه دافعاً له ليقول في أخباره غلو كثيراً ، وهو نابليون الذي قال أثناء فترة نفيه حين راح يسترجع فترة وجوده الأول في مصر (في مصر ، وجدت نفسي وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة . كانت الأحلام تملأ رأسي . . . ورايتني أؤسس ديناً ، وأزحف على أسيا وأنا امتطي فيلاً وعلى رأسي عمامة وفي يدي القرآن الجديد الذي كنت سأؤلفه لإلزام حاجبائي . وكنت سأجمع في مشروعاتي بين خبرات العالمين ، وأسخر لمنفعتي مسرح التاريخ كله . . . لقد كانت الفترة التي قضيتها في مصر أجمل فترات حياتي لأنها كانت أحققها بالأحلام) (بونابرت في مصر لكروستوفر هيرولد ص ٩ - ١٠) .

أما الجبري ، فإن الذي راح يسجل (يومياته) ليس أحلامه الخاصة ، وإنما كان صوت مجتمع كامل ، ذلك ، لأنه لا يمكن اعتبار هذه (اليوميات) كتابات فردية أو فضفاضة يفرض إزجاء الوقت أو التكريس لمفد ذاتي بآية حال . فالعروف أن النتاج الفكري أو

فلنلن إلى السبل الذي تستلزمه شهرته للفوز بالقوة والسلطان .

• تعقيب :

يظل الجبرتي ظاهرة متفردة تماماً ، وهذا التفرد يعود أول ما يعود إلى طبيعة المرحلة التي وجد فيها ، فليس من الضروري أن يجد موقف الجبرتي من القوى الدخيلة على مصر حينئذ بحيث أنه ينطلق من (الموقف) وحسب ، وإنما بالبحث عن مبرره في محوري الزمان والمكان .

ذلك ، لأن موقف الجبرتي المحافظ يمكن أن يمثل موقفاً مقبولاً لدينا في الظاهر ، غير أن تفسير هذه القابلية يظل سؤالاً حائراً فإن الأشياء بشكلها الظاهر يمكن أن تنال شرعية قول وجودها كواقع ، أما محاولة فهمها أو تفسيرها ، فقد يصبح أمراً صعب المثل .

وعلى هذا النحو ، حاولنا أن نعيد كشف طبيعة هذه المغايرة التي نجدها هنا بين الجبرتي كمؤرخ سلفي شرقي ونابليون كقائد غربي حالم ، الجبرتي كعالم من علماء الأزهر العزل ، ونابليون كقائد مسلح من أخص قديمه حتى قمة رأسه بالسلاح الغربي ووسائل التقدم العلمية .

فلنخرج من التفضيل إلى الاجمال .

لقد أكد تتابع البنى الثلاث أ ، ب ، ج تصاعد دور رجال الدين والتجار في البنيتين الأوليين ، وهو ما بدا في كتابات بيتر جبران ، بالقدر الذي بدا في (يوميات) الجبرتي ، ففي يومياته الجبرتي ، خاصة ، نلمح أنه لا يكف عن تجسيد دور التجار أو الأعيان من المصريين ، ففي موضع يكتب (قبضوا على الحاج مصطفى البشتلي الزيات من أسيان أهالي بولاق) (ج ٣ ص ٧٧) ، وفي موضع آخر يقول (عمل ساري عسكري وليمة في بيته

ودعا الأعيان والتجار والشيخ) (ج ٣ ص ٨٠) ، مقدماً الطبقة التجارية عن فئة رجال الدين ، وهو ، يعكس الترتيب في صفحة أخرى فيقول (ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر) (ج ٣ ص ٧٩) ، وهذه الاشارات تؤكد على أن دور الأعيان والشيخوخ حتى مجيء الحملة كان مؤكداً ، غير أنه بالوصول إلى البنية لثالثة في عصر محمد علي (جـ) كان قد تدهور وضع الطبقة التجارية أو الرموز الدينية في وقت كان (ولي النعم / الحاكم) مهنياً يتركز كل شيء في يد السلطة المركزية ، ومن ثم تضاهل دور النشاط الفردي والطبقة التي كانت تنهياً لتلعب دوراً حيوياً في الأفق المصري .

ومع أن هذا بدا واضحاً في أعمال الجبرتي دون أن يبرر بالقدر الكافي ، فإن موقف الجبرتي ، العام والخاص ، ترك تداعيات كثيرة . . ففي المستوى الخاص ، كان التراث الإسلامي هو المنطق السياسي للجبرتي في نظره للأمر ، فموقفه من الفرنسيين أو بقية الفئات الدخيلة يتسم بهذا التصور وهو ما يبرر تأرجع موقفه بين السلب والايجاب الذي فهم به موقفه من المماليك أو الحملة الفرنسية أو - حتى - محمد علي .

وهذا في السياق الأخير يعني أمراً واحداً ، هو ، أن موقفه كان يحدده فهمه للمصطلح العدل أو الحرية أو الحاكم وما إلى ذلك من المصطلحات السياسية ، ففي حين أبدى إعجابه بمنجزات المماليك في فترة عاد في فترة أخرى منتقداً لتصرفاتهم ، وهو ما فعله مع الفرنسيين ، وهو موقفه العام ، أيضاً ، من سياسة محمد علي ، ففي حين كان من أكبر المأزقين لأسلوب هذا الحاكم ، فانه لم يستطع أن يخفي إعجابه بإصلاحات (الوالي) ومهمته الكبيرة حين تعلق الأمر بمصلحة الدولة .

أي أن موقفه كان تعبيراً ذاتياً .

مصر ، إذ لم يكن نابهاً من خاصية الذاتية ، ذلك ، لأننا نستطيع أن نرى - كما يذهب البعض - أن الفاعلية في المجتمع ليس هو الفرد ، وإنما « مجموع الأعمال الانسانية لطائفة اجتماعية » ، ومن هنا فإن الفاعلية تظل لجماعة لا لفرد ، ولرد فعل اجتماعي وليس لتأزع ذاتي .

أي ، أن موقفه كان تعبيراً اجتماعياً .

صفوة القول ، أنه يمكن إعتبار موقف عبد الرحمن الجبري (موقفاً) حضارياً في مواجهة موقف حضاري آخر ، مغايراً له في الطبيعة ، مساو له في القدر .

هذا على المستوى الخاص ، أما على المستوى العام ، فإن موقفه السلبي أو الإيجابي ، لم يكن خاصة ذاتية له ، وإنما كان نابهاً من الفكر الذي يمثله ، فهذا الفكر يوجد عادة قبل التعبير عنه أو ممارسته بأي موقف ، ومن هنا ، فإن الواقع الشرقي في فترة الحملة الفرنسية لم يكن نابهاً من رد الفعل إزاء الحضارة الغربية ومنجزاتها ، بقدر ما كان نابهاً من (الأصولية) التي تتعمق يجلدورها في البيئة الشرقية .

أي أن موقفه كان تعبيراً شرقياً .

وهذا يرتبط بموقفه الحضاري من القرى الدخيلة على



بعض المصادر والمراجع :

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، عبد الرحمن الجبيري ، أربعة أجزاء ، طبعة بولاق ، يعقوب تاريخ .
- معطر التنقيص بأعقاب دولة الفرنسيين ، طبعة بناية البيان العربي ، مجلد واحد ، تحقيق حسن جويهر وعصر المصري ، القاهرة ٦٩ .
- إيمانير أهل القرن الثالث عشر (خطوطة) دار الكتب المصرية تحت (طلمت ، أ ٢١٤٨) .
- يونانيرت في مصر ، كرسولوف خيرولد ، ترجمة لقائد اندراوس ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ٦٧ ص ٢٥٦ .
- نظرية البنية ، د. صلاح فضل ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ١٩٨٠ .
- عصر البنية من ليبي ستراوس إلى فوكو . أنب كيرزويل ، ترجمة د . جابر عصفور ، سلسلة (أنال) عن دار أنال عربية ، ١٩٨٥ ، بغداد .
- تاريخ الفكر المصري الحديث ، د. أنيس عريش ، دار الهلال ، القاهرة ط ٣ بدون تاريخ ، حزماني .
- يعقوب لندا البسمية المصرية للدراسات التاريخية ، ٢٣/١٦ أبريل ٧٤ مقر الجمعية بالقاهرة .
- المعدلة والحرة في فجر النهضة العربية ، د. حزن القرني ، عالم لصورة ٣٠ ، يوليو ١٩٨٠ ، الكويت .
- التفاعل الحضاري ، لسان حال الرابطة الدولية لدراسات التفاعل الحضاري ، الصادر عن بروكسل ، يرخوم ١٩٨٠ .
- Courier de L'egypte — موجهة بدار الكتب المصرية تحت الرقم : N. 1-3-6-11-14 .
- A. E. Crouchley, The Economic development of Modern Egypt (London, 1938).
- Brecht in Agypten, Dr. Magdi Youssef, Studienverlag, Dr. J. Brockmeyer, Bacheime 1970.



(١) - تمهيد :

بين المغرب وإسبانيا في عصور تاريخها العربي من العلائق والصلات ما جعلهما شريكين في تراث ادبي ومعرفي لم يعد موضع نقاش وما كان له من أثر بعيد على تطور ثقافة الغرب في مختلف اتجاهاتها ومجالاتها .

ولاشك أن العناية بهذا التراث في العصر الحديث ، نشرا ودرسا ، سواء في المغرب أو في إسبانيا تكشف ، من جهة ، عن شعور المغاربة والإسبان معا بأهمية هذا التراث المشترك بينهما ، وتكشف ، من جهة ثانية ، عن جانب من جوانب التواصل والتفاعل في ميدان الإبداع الوجداني والفكري بين المجتمعين مما يبلور بعض معطيات تلك العلائق والصلات التي ربطت بينهما مدى قرون متوالية ، وهي علائق وصلات ان كان اعتراها شيء من الفتحوحينا طويلا من الدهر ، فانها قد بدأت منذ عقود من السنين ، تسترد قوتها وفعاليتها ، والفضل في ذلك اوبعضه ، على الاقل ، يعود الى فئة من الدارسين الإسبان تمثلت حقيقة تاريخ امتها ووعت الدور العظيم الذي نهض به الأسباني العربي في صنع ذلك التاريخ وصياغة آثاره الثقافية والمعرفية . فعملت على احياء تلك العلائق . وتجديد تلك الصلات بما نذرت له وقتها وجهدها من التصريف بالواقع العربي المعاصر . وقد شارك هؤلاء الدارسين الإسبان في ذلك طائفة من الباحثين العرب ، مشاركة ومغاربة ، معن اتاحت لهم فرصة دراسة اللغة الأسبانية واجادتها فكتبوا بها والفوا .

وفي نطاق هذا التصريف (الأسباني) بالواقع العربي المعاصر في مختلف اناقه وواجهاته ظفر الادب ، يوصفه وعاء وجدان وفكر ، بعناية واهتمام خاصين . فماذا كان حظ الادب المغربي منهما ؟

الادب المغربي الحديث في اللغة الأسبانية

حسن الزاكلي *

(*) أستاذ محاضر ورئيس قسم اللغة العربية وأدبها بكلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة سيدي محمد بن عبد الله - تطوان (المغرب)

ب - المجال الأدبي . كان الإبداع العربي . في مختلف صيغة وقالبه يعرف يومئذ تحولات جذرية كان يستشرف بها آفاق التطور والتجديد وكانت آثار الاعلام من أمثال طه حسين والحكيم وجبران وتعمية قد عرفت طريقها الى بعض اللغات الغربية ونالت اعجاب قرائها وتقديرهم .

وفي هذه الفترة عرفت الاستعراب الاسباني طليعة جيل جديد من رجاله بقدر ما استشعروا على نحو من الإدراك والوعي لم يتح مثله لسلافهم أهمية الحيز الذي يشغله العنصر العربي في رقعة التاريخ الاسباني الأدبي والفكري ، استشعروا الأهمية التي بدأ العالم العربي يكتسبها بفضل مبادراته السياسية وإنجازاته الأدبية . وقد حز في نفوس هؤلاء المستعربين ان يكون الاسباني - وهم الذين ليس يميزهم عن بقية الغربيين ان انتماء هم التاريخي العربي^(١) أبعد الناس في الغرب (عما هو عربي) . وقد كان في هذا وما دعا أفرادا من هذا الجيل الجديد من المستعربين الى الاهتمام بالأدب العربي الحديث والاجتهاد في تصريف القاري الاسباني بأثار هذا الأدب واعلامه .

أما الخالص من تلك الدواعي والبواعث فيمكن اجمالها على النحو التالي :

١ - الشعور بضرورة التعرف على المغرب الذي يؤلف بالنسبة للاسبان عالما بوسمهم تأمله بمجرد الوقوف على شواطئه جنوب اسبانيا او تصفح مدونات التاريخ^(٢) . ومع هذا ، اي مع الغرب

إن الإجابة عن هذا السؤال هوما سيجادل هذا العرض أنجازه والوفاء به ، غير اننا قبل ذلك . اي قبل ان نرصد مظاهر الاهتمام بالأدب المغربي في الاسبانية ، نحب ان ننظر في دواعي هذا الاهتمام وبواعثه .

(٢) - دواعي الاهتمام وبواعثه :

وهي مختلفة ومتنوعة ، غير انه بوسعنا ان نربطها الى نوعين اثنين ، أحدهما عام والآخر خاص .

أما العام فنقصد به الى تلك التي حملت المستعربين الاسبان أوائل العقد الخامس من هذا القرن على الالتفات الى العالم العربي والاهتمام بأثار كتابه ، وأدبائه ، وشعرائه ، وهو اهتمام قد يكون وضع في اعتباره ، بدرجة أولى ، نتاج الاعلام والرواد من المبدعين في مصر والشام والعراق والمهجر لكنه لم يفل بحال اسهامات غير أولئك من أدباء الاقطار العربية الأخرى ، ومن ضمنها المغرب .

ولعل أهم هذه الدواعي والبواعث تمثل في مجالين اثنين : هما :

١ - **المجال السياسي .** ففي تلك الفترة كان صوت العالم العربي بدأ يرتفع مجلجلا مدويا من فوق المنابر الدولية يطالب بحق شعوبه في الحرية ، والاستقلال وتقدير المصير في حين كانت الحركات الوطنية تتأجج في اقطاره والثورات وحروب التحرير تشتعل فوق اراضيها ، كل ذلك لفت اليه انظار الناس في الغرب فتزايد اهتمامهم به واشتدت رغبتهم في معرفته .

(١) انظر

Martínez Montañés, Pedro: *Literatura árabe y España*. p.5(٢) انظر "Cuadernos de la Biblioteca" Martínez Montañés, Pedro: *Notas sobre el tema árabe en la poesía española actual*. espanola de Tetuan" No 3 p.13

نتاج في مجالات الإبداع الأدبي المختلفة . وقد أشار الأستاذ محمد بن عزوز حكيم الى ذلك في مقال له بالاسبانية عن الأدب المغربي . فقال : « إن ما يجعله القاريء الاسباني جهلا يكاد يكون تاماً هو وجود ادباء مغاربة ينشئون ادبهم بلغة عربية ، مبرهنتين اليوم بما يكتبون وينشرون على تقدم مطرد في مجال الاداب والفنون العربية في هذا البلد »^(٧) .

ج - تميز الأدب المغربي عن غيره من آداب الاقطار العربية الاخرى . وهو تميز يكمن ، فيما يرى بعض الدارسين من المستعربين ، في الرؤية التي يصدر عنها الكتاب المغاربة للتاريخ والثقافة المشتركين . إضافة الى اهتمام كثير منهم بالموضوع الاندلسي فيما ينشئون من شعر ويكتبون من قصص . فضلاً عما ينعكس على نتاج بعضهم من تأثير ملحوظ لقرونهم في ديوان الشعر الاسباني المعاصر .

هذه الدواعي جميعها تشافرت لتجعل العناية بالأدب المغربي والاهتمام بترجمته ودرسه من اوليات ما كان الاستعراب الاسباني يستهدفه من تعريف بالعالم العربي في المجالات الادبية بخاصة والثقافية بعامة

٣ - حصيلة الاهتمام ومظاهرها :

ومن المفيد ان نشير هنا ، وقبل ان نستعرض حصيلة الاهتمام في شتى مظاهرها بالأدب المغربي

الجغرافي والتاريخي للمغرب من اسبانيا فانه لم يكن احسن حظاً من حيث معرفة الاسبان به من غيره من بقية البلدان العربية ان لم يكن اسوأها حظاً من ذلك . وهذا هو ما عبر عنه احد المستعربين الاسبان حين قال بان اقرب بلدان العالم العربي الى اسبانيا هو المغرب . فهو على مرمى البصر ، غير انه بالتأكيد . وفي غمار جهلنا بالعالم العربي وخاصة ما يتعلق منه بتظاهراته الثقافية اقل بلدان العالم العربي نصيباً من معرفتنا^(٨) ، ومن هنا فقد كان هؤلاء المستعربون واعين بما يكتنف معالجة اي موضوع يتصل بالمغرب من عسر ، غير ان هذا لم يزل من ايمان فئة منهم بوجود تلك المعالجة لغاية هي معرفة هذا العالم المحجب الينا^(٩) و (الذي ظل موصول العلاقة مع عالمنا ولا يزال على الرغم من الظروف المتقلبة التي تتحكم غالباً في امانتي الرجال الطيبة)^(١٠)

ب - اغفال الدارسين الشرقيين للاسهام المغربي في الادب الحديث فالدراسات التي انجزها هؤلاء تميزت بكونها تركزت جميعها حول ادباء الشرق واثارهم^(١١) ، ومن ثم فقد ظل المستعرب الاسباني - ومثل المستعرب الغربي بعامة - ممن اهلته معرفته بالعربية للاطلاع على تلك الدراسات للإفادة منها فيما يعني به من تعريف بالأدب العربي الحديث في لغته هسيجهل ادباء المغرب وشعره الحديث وما اسهم به هؤلاء واولئك من

(٣) انظر تميم - المارة - لاسلطاف دي كوريدا عن الادب المغربي الحديث ج ١ ص ١٤١

(٤) Fernando de Agreda Barillo, Encuesta sobre la literatura marroquí, marroquí actual. Revista Almenara No 2p. سطر

135

(٥) انظر Martínez Montaner, Notas sobre el tema árabe.. Cuadernos de la Biblioteca española de Tetuan No3 p. 13

(٦) انظر مقدمه استفهام دي كوريدا في المارة ج ٢ ص ١٣٣

(٧) انظر مجله Africa ع ١٣٣ ص ١٤ (يغير ١٩٥٣)

(الشعر العربي المعاصر) Poesia arabe Con-
temporanea اواسط الخمسينات الى اليوم .

فماذا كانت حصيلة هذا الاهتمام على مدى من
الزمن يتبني على ربع قرن ؟

ان يوسع الدارس ان يهدف حصيلة الاهتمام
الاسباني بالادب المغربي من خلال ما أنجز فيه من
ترجمة واستفتاء ودراسة وهو ما سنحاول تفصيل
الحديث عنه في الفقرات التالية .

أولا : الترجمة

إذا تركنا جانبا الترجمة التي أنجزت لرواية (طه)
لاحمد حسن السكوري جاز لنا القول بان النتائج
الشعري الذي بدأ يظهر لبعض الشعراء المغاربة في
بعض المجلات الشعرية الاسبانية أواخر الأربعينات
كان من أوائل ما ترجم من الأدب المغربي الحديث الى
اللغة الاسبانية . وربما تكن قصيدة عبد القادر المقدم
المعنونة ب (قطرات الندى)^(٨) وقصيدة ابراهيم
الافلي بعنوان (مثلجة القريض)^(٩) أول ما ترجم
من ديوان الشعر المغربي الحديث الى الاسبانية .

ولكي نتعرف على شيء من طبيعة هذه الترجمة لابد
لنا من مراجعة لـ :

الجديد في اللغة الاسبانية وإلى ان أول محاولة عكست
ذلك الاهتمام وبلورتها يمكن تأريخها بالترجمة التي
أنجزها كارلوس كيروس لرواية (طه)^(٨) التي كتبها
احمد حسن السكوري سنة ١٩٤٦^(٩) .

ولم نعرف لهذه المحاولة تاليا الا بعد سنوات حين
اصدرت في العرائش الشاعرة طرينيداد شانثت مركادر
مجلة (المعتمد)^(١٠) التي عنيت فيها الى جانب الشعر
والادب الاسباني بترجمة الابداع الشعري المغربي
بخاصة والعربي بعامة مما كان له صداه في الاوساط
الادبية في اسبانيا على ما سنبين في موضع آخر من هذا
البحث .

وقد شاركت (المعتمد) فضل السبق الى التعريف
بالادب المغربي الحديث للقارئ الاسباني مجلة أخرى
هي مجلة (كتامة)^(١١) التي كلن يرأس تحريرها
الشاعر خاينيتو خورخي لوبث . فعمل صفحاتها هي
الأخرى عرف قراء الادب في اللغة الاسبانية الوانا من
الابداع المغربي في الشعر والقصة .

ثم توالى الاهتمام بعد ذلك بالادب المغربي على يد
نخبة من الدارسين الجامعيين في اسبانيا وغير
اسبان ، منذ ان اصدر الدكتور بدروما رتيث كتابه

(٨) هي رواية قصيرة حاز بها صاحبها جائزة مؤسسة الجنرال فرانكو في ليلوانا الجنية التي نالها في غضون بترخيص ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٦ بمكتبة عبد الكتف
العربي - الاسباني . وقد تضمنت الرواية بنصها العربي وترجمتها الاسبانية في نفس السنة بالعرائش .

(٩) هذا مع استثناء الترجمة التي أنجزها لكاتب استلقت عياده كنون ، الشيوخ المغربي في الادب العربي ، الاستاذ محمد تاج الدين بوزيد وخروخيوي كريبو
اوربيث سنة ١٩٣٩ . وهذه الترجمة لا تحفي هذا البحث .

(١٠) انظر : من هذه المجلة مقالاتا لصاحبها تريثا مركادر تلي في العدد الأول من مجلة ، اللجنة الاسبانية للتعرف مع الكونسيكو ، بعنوان ، المعتمد ، واعتاد
تجربة تعاضل لثاني بالمغرب ومقالا للاستاذ فرانثودوي اكريد ، نشر في المجلد التاسع عشر من مجلة (المعهد المصري للدراسات الاسلامية) بمحرير بعنوان :
datos sobre las traducciones al arabe de la Poesia española . La Revista "Al-Motamid" .

(١١) انظر من هذه المجلة مقال للاستاذ فرانثودوي اكريد في La estofeta literaria ع ٦١٥ ص ١٦ (يولي ١٩٧٧) ومقال للاستاذ خاينيتو لوبث خورخي
بعنوان : الشعر العربي والاسباني في رحلة التواصل ، بترجمة احمد مطلوب العلم الثاني ع ٧٠٤ ص ٤ .

(١٢) ترجمها صاحبها بعنوان Los gotas de rocío نشر مجلة ، المعتمد ع ١ ص ٤ (مارس ١٩٧٧) .

(١٣) ترجمها لدريس الديوري بعنوان Conversacion confidencial con la poesia المغربية ، المعتمد ع ٢ ص ٤ (ابريل ١٩٧٧) .

به هذه الأبداعات من استواء وتطور سيعرفهما الشعر المغربي بعد ذلك ببضع سنين .

ومن شاء أن يستبين شيئا مما كان من أصداء لهذا الشعر المترجم في الوسط الأدبي الأسباني فليتنظر فيما كتبه الشاعر الشهير فيشتيبي اليكسندري بعد زيارته للمغرب سنة ١٩٥٢ مهبرا عن إعجابه بالشعراء المغاربة الذين التقى بهم أثناء زيارته وانصت الى بعض نتائجهم مترجما او في لغة الاصلية ^(١٤) وكلهم ممن كانت (المعتمد) تحرص على نشر قصائدهم في جمل اعدادها امثال الصباغ والمقدم والبقالي والبرعناي او فليتنظر الى ما كتبه الشاعرة كرمين كوندري منومة بفضل مجلة (المعتمد) في تعريفها (بهذه المجموعة من الشعراء المغاربة المسلمين) ^(١٥) بل يمكن القول بان ما ظهر اواسط الخمسينات من مقالات بالاسبانية حول الشعر المغربي كان يعتمد اساسا المادة الشعرية التي توفرت المعتمد على ترجمتها ونشرها .

على ان (المعتمد) لم تنفرد بفضل التعريف بالادب المغربي ويشعره خاصة لدى القاريء الأسباني ، فمن الانصاف ان نشير هنا الى مجالات اخرى كائن لها ، بدورها اسهام في هذا التعريف ولو انه ليس يرقى الى مستوى اسهام (المعتمد) من حيث حجم المادة الشعرية وتنوعها وهذه المجالات هي : مجلة (كتالة) التي كانت تصدر في تطوان باللغتين العربية والاسبانية تحت اشراف الشاعر خاينثو خورخي لوبث ، ومجلة « كراكولا » Caracola التي كانت تصدر بمالقة ، ومجلة « إلسلادي لوس رطونيس » Isla de los ratones التي كانت تصدر بجزيرة ميورقة ، ومجلة « إلنديشي » Índice ومجلة « المنارة » Almenara اللتان كننا تصدران بمديري .

١ - المجلات الأدبية :

توضعت بعض المجلات الأسبانية ، سواء منها التي كانت تصدر في المغرب باللغتين العربية والاسبانية او التي كانت تصدر في اسبانيا باللغة الاسبانية وحدها ، بدور ملحوظ في نشر الشعر المغربي والتعريف به بين قرائها .

وكان حلجة (المعتمد) ، كما أسلفنا الاشارة . فضل الريادة والسبق في ذلك . فتمتد ان اصدرتها مؤسستها الشاعرة طرينيداد شانثت مراكدر بمدينة العرائش سنة ١٩٤٧ وهي تعني بنشر نماذج مترجمة من الابداع الشعري المغربي بخاصة والعربي بعامة الى جانب الاسهامات الشعرية والنثرية الاسبانية . وقد قارب عدد ما نشر في (المعتمد) من نصوص شعرية مغربية مترجمة الى الاسبانية الثلاثين نحا او استوفاهما ، وباستثناء عبدالله كنون وابراهيم الافي وادريس الجاني فان بقية الشعراء الذين ترجمت ابداعاتهم على صفحات (المعتمد) وهم : الصباغ والمقدم والبقالي والسكيرج والبرعناي والسلمي كانوا جميعا من الجيل الجديد الذي كان يستشرف لتجربته الشعرية افاقا من التجديد والتطوير سواء في المضامين او في الأشكال متأثرا في ذلك خطوات رواد التجديد من شعراء المشرق والمهجر . وليس من شك في ان هذا التنوع في النصوص المترجمة من نتاج هؤلاء الشعراء سواء من حيث القالب او من حيث المضمون كان يضع تحت انظار القاريء الأسباني صورة للشعر المغربي يرمئذ ان لم تكن تامة الملامح والقسمات فانها لم تكن تعدم ما يدل على وفي وضوح وجلال ، عى ما كانت ترهص

(١٤) نفسه ، ع ٢٦ ص ٣ .

(١٥) نفسه ، ع ٢٧ ص ٤ .

٢ - كتب الاختيارات الشعرية والأدبية :

وقد عرفت المكتبة الأسبانية منها ، إلى الآن ، ثلاثمائة (١٩) إثنان منها اشتملتا على متخبات لشعراء من مختلف الاقطار العربية ومن ضمنها المغرب ومن المهاجر الأمريكية والثالثة خاصة بالأدب المغربي . وفيها يلي نخص كلا بكلمة :

١ - الشعر العربي المعاصر :

تحت هذا العنوان صدرت في مدريد منذ أزيد من ربع قرن هذه الانطولوجية تضم مختارات من نتاج الشعراء العرب المعاصرين . غني بجمعها والتعريف بأصحابها الدكتور بدرومار تينث سونتايث . وقد قدم لهذه الاختيارات شيخ المستعربين الأسبان الدكتور إميليو غوسية غومث مثيرا بتمكن صاحبها من اللغة العربية ومنوها بالاهتمام الذي أصبح الاستعراب الأسباني يولييه للعالم العربي الحديث بعد ان كانت اهتمامات رجاله من قبل لا تكاد تتجاوز العصور الوسيطة (١٧) .

وفي المدخل الذي مهد به المؤلف لاختياراته خص المغرب بفقرة أشار فيها إلى انفتاحه على حركة البعث والتجديد الأدبيين في المشرق معقبا على ذلك بذكر أسماء من شعراء الاتجاه القديم وأخرى من شعراء الاتجاه الجديد في ديوان الشعر المغربي الحديث كجمال الفاسي وعبدالمالك البلغيثي من

الاتجاه الأول ، ومحمد الصباغ واحمد البقالي من الاتجاه الثاني .

ومع أن مؤلف هذه الانطولوجية كان أكثر المستعربين الأسبان يومئذ اطلاعا على الشعر المغربي وأولهم معرفة برجاله فإن هذا الشعر لم يظهر في منتخبه بالحيز الذي كنا نتوقعه ، فعن مجموع واحد وثمانين نصا لسيّد وخمسين شاعرا يمثلون مختلف الاقطار والمهاجر العربية ويمثلون بذات الوقت مختلف الاتجاهات والمدارس الشعرية لا يقع القاريء في المنتخب الا على نصين مغربيين . احدهما لمحمد بن ابراهيم المراكشي . وهو عبارة عن أبيات من احدى قصائده الغزالية . وثانيهما لمحمد الصباغ . وهو قصيدته الثورية (المجنون) . وإذا كان الدكتور موتايث فيما يبدو قد وُهم فيما ساق من معلومات عن ابن ابراهيم في التقديم الذي كتبه للابيات التي ترجمها له (١٨) فإنه في مقدمته لقصيدة الصباغ أبان عن معرفته بروافد الفن الشعري عنده وما افاده في صقل هذا الفن من مقروءه في آثار بواس سلامة وميخائيل نعيمة من شعراء المشرق واليكسندري وميجيل هرنانديس من شعراء اسبانيا (١٩) .

ب - منتخب الشعر العربي المعاصر
de poesia arabe contemporanea

مؤلفة هذه الانطولوجية هي الدكتورة ليونورا مرتينيث مارتين . عرفت في الخمسينات ، فضلا

(١٧) علمنا بعد النّزّ هذا العرض بوجود منتخب رابع من الشعر العربي في اللغة الأسبانية لم يتيسر لنا الاطلاع عليه . الله معروف . ميري . وهو عن دار كولونيال للنشر في بوينس آيريس سنة ١٩٤٤ . انظر .

Teresa Garito, Bibliografía de las obras arabes traducidas al español durante el período 1800-1982.

(نسخة مرافقة في مكتبة العهد الأسباني العربي للثقافة بمدريد)

(١٧) انظر . Martinez Montavez, Pedro, Poesia arabe contemporanea, p.17 .

(١٨) نفسه ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١٩) نفسه ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

جاعت بمعظم جيشها وعتادها
فاستنزفته رجلك استنزافا
وإذا (ليوطي) قد تردى سائلا
متحملا مما جناه إكافا
وحليفه (دي ويفيرا) قد فرلا

يلوي على شيء به يتلأ
أو في قصيدة أبي بكر بناني: وقد ترجمت الدكتور
ليونور نصها كاملا ومنها هذه الأبيات :
يا بني المغرب سيروا لسلام
وارفعوا راية غازينا الهام
فخرنا عبدالكريم ابن الكرام
واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب موتوا شهدا
لا تعيشوا تحت إلال العدا
مزلوا الكفر وأشرك الردي
واسألوا الله انتصار المسلمين
أو في قصيدة محمد الحلوي: يشيد فيها ببطولة
قائد الثورة الريفية وانتصاره على جيوش
الاحتلال الإسبانية في معركة أنوال الخالدة .
والقصيدة تقع في سبعة وثلاثين بيتا ترجمت منها
الدكتورة ليونور تسعة عشر بيتا ، منها :

يا يوم ولعة (أنوال) وقد تركت
أشلائهم عندنا حيا على وضهم
لم يلبسوا قبلها خزيًا كخزيهم
فيها ولم يلبحوا بالسيف كالهنم
إن يذكروا النصر يومًا راضهم
شبح منها فقصوا يذكراهم من الألم
نصر نكست به رأيتهم كعدا
واختال منه بنو الإسلام في شم

عن ترجماتها التي كانت تنشرها في مجلة
(كتامة) للألوان من الإبداع الشعري العربي
بالتorque التي انجزتها لديوان ميخائيل نعيمة
(همس الجفون) - El rumor de los par-
pados^(٢٠) .

وقد اهتم الشعر المغربي في اختيارات
الدكتورة ليونور حيزا مقسما بالقياس الى الحيز
الذي فسحه له الدكتور مونتاث في اختياراته .
فمن بين سبع وعشرين ومائة نص لثلاثين ومائتين
شاعرا يمثلون مختلف الاتجاهات والمدارس
الشعرية في مختلف الاقطار العربية يطالعنا اثنا
عشر نصا لسبعة شعراء مغاربة . خمسة منهم من
اشهر شعراء العصور في الديوان المغربي
الحديث . واثنان من رواد قصيدة النثر . فاما
الخمسة الأول فهم : علال الفاسي ، وعبد الله
كنون ، ومحمد اليميني الناصري ، ومحمد
الحلوي ، وأبو بكر بناني ، واما الاثنان الاخيران
فهما : محمد الصباغ ومحمد عزيز الحبابي .
ولعل اهم ما يلفت النظر في اختيارات الدكتورة
ليونور من نتاج هؤلاء الشعراء ان جلها نو
مضامين وطنية تكشف عن التزام اصحابها
بقضايا الوطن من خلال الاشارة بمواقف الجهاد
والتضحية مقلدة في سيرة الامير محمد بن عبد
الكريم الخطابي . وذلك على حد ما نقرأ في قصيدة
لمحمد اليميني الناصري يصور فيها انتصار زعيم
ثورة الريف على فرنسا واسبانيا . ويقول في بعض
أبياتها ، وهي مما ترجمته منها الدكتورة ليونور في
منتخبها .

انظر لما تلقى فرنسا منه اذ
قصدت بشامخ مجده استخفافا

(٢٠) صبرت هذه الترجمة تحت رقم ١٧٣ من مجلة أدونيس بمرقد (١٩٩٦م) .

ومثل هذه الانتعاش في انطولوجية الدكتور عبد
ليونور لم تات محض صدفة بل قصد اليها قصدا
واختيرت اختيارا لارتباطها الوثيق بمنطق هام
من تاريخ اسبانيا المعاصر . وبها هي ذي صاحبة
الاختيارات تكشف عن ذلك في المقدمة اذ تقول :
(على ان ثمة موضوعا لهم) على نعمون الغزارة
اشد معا نتصور نحن الاسبان الشعراء العرب
مشاركة ومغاربة على مدى الخمسين سنة
الاخيرة . ذلك هو موضع بطولة عبد الكريم الذي
هزم الاسبان والفرنسيين والذي ما فتى الشعراء
الى اليوم ينشئون في الاشادة بمواقفه البطولية
العديد من القصائد . وقد اخترنا في هذه
الانطولوجية بعضا منها نظرا للاهمية التي كانت
تكتسبها هذه الشخصية بالنسبة
لاجدادنا . . . (٢١) .

فاذن تركنا هذه الاختيارات التي دارت كلها
حول شخصية ابن عبد الكريم الخطابي بوصفها
رمز جهاد ومقاومة وتحد للامبريالية والصليبية
وجدنا بقية الاختيارات اوجلتها على الاصمح تعكس
في جملتها هموم شعورنا الوطنية والقومية
والانسانية مثل قصيدة علال الفاسي (كل صعب
على الشباب يهون) (٢٢) التي يستنهض فيها همم
الشباب ويحث على العمل من اجل وطنه . وعلى
حد ما نقرا في قصيدة احمد الحلوي يدين فيها
تخاذل العرب وخلفهم اللذين الحقا بهم عار

الهزيمة في حرب الايام الستة (٢٣) او في قصيدة
لعبدالله كنون (٢٤) واخرى لمحمد عزيز
الحبابي (٢٥) في تمجيد السلام والامن واستنكار
الحرب والظلم .

اما تقديمات الدكتور ليونور لهذه القصائد
فهي في غاية التركيز والتلخيص لكننا لا نعدم في
بعضها ما يدل على ادراك واع برسالة الشعر
ومهمة الشاعر في العالم العربي . ومن ضمنه
المغرب . ومن ذلك ما نقرأه لصاحبة الانطولوجية
في تقديمها لعلال الفاسي : (ان له بوصفه شاعرا
غنائيا أهمية بالغة ، غير ان اشعاره الوطنية
والسياسية أثرت اكثر من غيرها في صورة المغرب
الحديث . والحقيقة انه في عالم كالعالم العربي
حيث لا تزال الكلمة الشعرية تتمتع بمزايا معجزة
قد فقدتها في بقاع اخرى ليس من الغريب
استخدامها كسلاح سياسي) (٢٦) ، او ما نقرأه
لها في تقديمها لعبدالله كنون حيث تقول عن ديوانه
(لوحات شعرية) بانه يصور كيف ارتقت مشاعر
المغاربة على مدى النصف الاول من هذا القرن
وكيف كانوا يرون التطور السياسي العالمي (٢٧) .

ج - الأدب والفكر المعاصران في المغرب - Literaturay Pensamiento Marroquies Contemporaneos.

اذا كان المؤلفان السابقان لم يفسحا للمساهمة
الشعري المغربي في انطولوجيتهما الا حيزا

(٢١) انظر . Martinez, Marín, Leonor, Antología de poesía árabe contemporánea, p. 49.

(٢٢) نفسة ٢٢٨ - ٢٢٩

(٢٣) نفسة ٢٢٢ - ٢٢٣

(٢٤) نفسة ٢٢٦ - ٢٢٧

(٢٥) نفسة ٢٣٠ - ٢٣١

(٢٦) نفسة ٢٢٨

(٢٧) نفسة ٢٢٦

ومن المؤكد أن الاختلاف الذي يلاحظ بين البحوث المترجمة سواء من حيث طبيعة الموضوع المطروح ، أو من حيث أسلوب التناول والمعالجة من شأنه أن يسعف القارئ الإسباني على استجلاء جوانب من اهتمامات الدارسين المغاربة وشواغلهم العلمية والفكرية .

٢ - القصة *Narrativa* :

يطالع القارئ في هذا القسم من الانطولوجية واحدًا وثلاثين نصًا لواحد وثلاثين قاصًا ، القليل منهم يمثل الجيل الذي خرج من معاطف رجاله القصة المغربية في الأربعينات . والكثير يمثل الجيل الذي فتح معاطفه لرياح التجديد التي عرفتها القصة منذ سنوات غير قليلة واسلم لها الزمام .

ويقدر ما عكست النصوص المترجمة تنوعًا في الاتجاه الفكري عكست بالأب عينه تنوعًا في الرؤية والتصور الفكريين . أما من حيث الموضوعات المعالجة في هذه النصوص فيستعزمي نظرنا من بينها الموضوع الوطني على حد ما نقرأ في قصة (أرضنا الحبيبة) لحمد الخضر الريسوني أو (النور الابجواني) لحمد العربي الخطابي .

والى جانب النصوص الكاملة لبعض القصص القصيرة لم يغفل مؤلفوا الانطولوجية ترجمة نصوص جزئية من أعمال روائية مطولة مثل الفصل الثامن من رواية (دفننا الماضي) لعبد الكريم غلاب أو مختارات من (رواد المجهول) لحمد البقالي أو من (شقراء الريف) لعبد العزيز بن عبد الله .

٣ - الشعر *Poesio* :

ضم هذا القسم في الانطولوجية ثلاثة وثلاثين نصًا لستة وعشرين شاعرًا ، أغلبهم من جيل ما بعد

محدودا . وسع في أولهما نصين اثنين وفي ثانيتهما اثنين عشرين نصًا باعتباره ، أي المغرب ، كأي قطر عربي آخر صوبًا من بين أصوات عديدة تؤلف فيما بينها ، على ما بين أصحابها من التفاوت في (سلم الشعر) الطويل ، النظم الذي يبلور واقع الشعر العربي بعامة وهو ما استهدفه الدكتور مونتاث والدكتورة ليونور من اختياراتهما الشعرية . فانه ، مؤلفي هذه الانطولوجية الثالثة افردوها بالمغرب واجتهدوا في أن تكون معرضًا ، ليس فقط للإبداع الشعري خاصة ، ولكن لكافة ألوان النتاج الأدبي والفكري المغربي في العصر الحديث (٢٨) .

ومن هنا فقد جاءت هذه الانطولوجية مؤلفة من أقسام أربعة . نستعرضها فيما يلي :

١ - البحث *Ensayo* :

وقد أدرج مؤلفو الانطولوجية في هذا القسم أربعة وعشرين بحثًا لأربعة وعشرين باحثًا . وإذا صرفنا النظر عن البحوث التي تدور حول الأدب المغربي والتي سنعود للحديث عنها في فقرة أخرى من هذا العرض وجدنا بقيتها ، وهي تؤلف نحو النصف من عدد البحوث المترجمة في الانطولوجية ، تتوزعها موضوعات مختلفة تاريخية حينًا ، من مثل (مراكش أهم المراكز الثقافية بالمغرب في القرن السادس عشر) لحمد حجي (ذكرى معركة الوادي) لعبد المجيد بن جلون ، وفكرية ، حينًا آخر ، من مثل (الأسرة) لعلال الفاسي و (غائبة ابن خلدون غائبة متميزة) لحمد عزيز الحبابي ، ولغوية ، حينًا ثالثًا ، من مثل (أثر اللغة العربية في اللغة السواحلية) لحمد الفاسي و (الأملالة في الأندلس وفي شمال إفريقيا) لحمد بن شريفة .

(٢٨) فغلا عن الأصعار التي ترجمت لهنين الطاهريين في منتخب الدكتور ليونور وفي بعض المجالات الشعرية التي ترجم لإولها وهو عبادة عون كتيبة ، التبوغ المغربي في الأدب العربي ، وترجم لكتيبها كتيبة ، شجرة النخل ، و ، لذا والفقر .

من علائق المجتمعين : المغرب واسبانيا ، تطالعنا في نصوص كهذه التي استلهم فيها اصحابها الاندلس معلغة في رجالاتها^(٢٩) ومدنها^(٣٠) وكهذه التي استوحى فيها اصحابها سير اعلام إسبان في الادب والفن من مثل بيكير^(٣١) ولوركا^(٣٢) وبيكاسو^(٣٣) او كهذه النصوص التي تجسد النضال والثورة ، من خلال اسمين بهيين من أسمائهما المغربية هما اسم عبد الكريم الخطابي^(٣٤) ومعركته الخالدة (أنوال)^(٣٥) .

٤ - المسرح El teatro :

يقدم هذا القسم من الانطولوجية سبعة مؤلفين مسرحيين تناولت الاختيارات من نتاجهم اربعة نصوص واحد منها كامل^(٣٦) والثلاثة عبارة عن مقتطفات من فصول او مشاهد ،^(٣٧) كما تناولت الاختيارات نماذج من آراء بعض المؤلفين المسرحيين ووجهات نظرهم عما تضمنته استجوابات أجريت معهم^(٣٨) او مقدمات كتبها بعضهم لأعماله المسرحية^(٣٩) .

ومع أن هذه الاختيارات تضمنت نماذج لا يرقى الشك الى تمرس اصحابها بالكتابة المسرحية نثرا على حد ما نقرأ عند عبد الكريم برشيد^(٤٠) او شعرا كما عند حسن الطربيق^(٤١) إلا انها اي الانطولوجية في

الاستقلال . وإذا استثنينا كتون والصباغ والطيبان فان الباقي من الشعراء يترجمون لأول مرة الى الاسبانية .

ويمكن القول بان مؤلفي هذه الانطولوجية استطاعوا ان يطلعوا القاريء الاسباني على التنوع الذي يعرفه الشعر المغربي من حيث الشكل والاسلوب والموسيقى حين تعددوا في اختياراتهم أن تكون معلغة ، ينسب متقاوثة ، للمعويدي والتفعليلي والمرمل ، غير انهم حين قصروا او كادوا يقصرون اختياراتهم على فئة من الشعراء ذوي تصوري ايدولوجي معين حرموا القاريء الاسباني من الاطلاع على اسهامات فئة اخرى من الشعراء تمارس عملية الابداع من خلال رؤية عقديّة متميزة وتصور لا شرقي ولا غربي للانسان والمجتمع والحياة والكون من امثال علال الفاسي والامراني والريسوني وابن صمارة والرباوي وغيرهم .

اما من حيث الموضوعات التي تعالجها النصوص المترجمة فانها على اختلافها ليست تعمد ما يربط بينها من حيث الاهتمامات والشواغل التي تلح على الشاعر المغربي فيه أننا نستطيع أن نميز من بين موضوعات النصوص المترجمة موضوعا يمكن وصفه بالموضوع المغربي - الاسباني وهو موضوع نسمتين فيه جوانب

(٢٩) *Literatura y pensamiento marroquinos contemporáneos*, p. 382

(٣٠) نفسه : ٢٥٠

(٣١) نفسه : ٢٢٤

(٣٢) نفسه : ٢٢٣

(٣٣) نفسه : ٤٠٩

(٣٤) نفسه : ٣٨٨

(٣٥) نفسه : ٣٥٧

(٣٦) نفسه : ٥٩

(٣٧) نفسه : ٤٨٨ - ٤٧٩

(٣٨) نفسه : ٣٣٠

(٣٩) نفسه : ٢٨٠

(٤٠) نفسه : ٤٨٦

(٤١) نفسه : ٢٧٩

الأدب المغربي الحديث الكاملة ، وفي مجال الفن الروائي خاصة ، الى الإسبانية ، غير انها لم يكتب لها من الذبوح والانتشار في هذه اللغة بل وحتى في لغتها الأصلية ، ما كتب لأثار أخرى ترجمت بعدها بسنوات وسنوات واشهرها عملان شعريان لمحمد الصباغ ،

هما :

١ - شجرة النار *El arbol de fuego*

وقد صدر بالإسبانية سنة ١٩٥٤ بترجمة المؤلف والشاعرة طرينا مركاتر قبل أن يصدر في لغته الأصلية . ويضم ست عشرة قصيدة نثرية استلهم في بعضها وجدانه ، وفي بعضها وجدان أمته . ولأنك أن معرفة الصباغ بالشعر الإسباني المعاصر وأعجاب بشعراء جيل ٩٨ وجيل^(٤٨) ٩٧ كائن في مقدمة ما دفع به الى الخوض في تجربة كتابه قصيدة النار^(٤٩) . وإذا كان النقد المغربي قد رأى في نثر ديوان (شجرة النار) بالإسبانية قبل نشره بالعربية ما يدل على تهيب الشاعر (من صدم الذوق العربي في المغرب الذي لم يكن قد تعود على قراءة واستساغة القصيدة النثرية)^(٥٠) فإن النقد الإسباني قد رأى في ذلك ما يدل بوضوح على التأثير الذي كان للشعر الإسباني المعاصر في جيل الشعراء الشباب بالمغرب يومئذ^(٥١) .

السوقت الذي قدمت في هذا القسم أسماء ليس لأصحابها حضور متميز في الكتابة للمسرح أغفلت أسماء أخرى ، لبعضها فضل الريادة^(٥٢) وبعضها فضل الاستمرار^(٥٣) وبعضها فضل الحرص على التجديد^(٥٤) .

وعلى ما قد يكون في هذه الانطولوجية من مأخذ نهينا الى بعضها وأشار الى بعضها صديقنا الاستاذ فرناندودي اكريدا في المقدمة التي صدر بها هذه الانطولوجية^(٥٥) فانها أي هذه الأخيرة تعتبر خطوة لها قيمتها في مجال تعريف القاريء الإسباني على ألوان من النتاج الفكري والإبداع الأدبي في المغرب المعاصر .

٥ - الأثر الكلمة :

أن ما نشر في العقود الثلاثة الأخيرة وهي التي شهدت العناية الإسبانية بالأدب المغربي الحديث ومن ضمنه الأدب المغربي ، من آثار أدبائنا في القصة والرواية والمسرحية والشعر والمقالة وآخر يعد بالعشرات^(٥٦) ومع ذلك فإن ما ترجم من هذه الآثار الى الإسبانية قليل للغاية لا يكاد يتجاوز أصابع اليد . وربما تكون رواية (طه) التي كتبها صاحبها أحمد حسن السكوري سنة ١٩٤١^(٥٧) أول ما ترجم من آثار

(٤٧) مثل عبد الحفيظ الطريس

(٤٨) مثل عبد الله شطرون

(٤٩) مثل عبد القادر السبيحي

(٥٠) لظفر من XLVII-XLVIII

(٥١) ننظر حول ذلك ، فهرسة للمجموع النصوصية المغربية ١٩٤٧ - ١٩٧٨ من إعداد مصطفى يعلى مجلة « لاديب » مع ٨ (١٩٧٩) من ص ٣٩١ - ٣٩٢ . و « الأدباء المغاربة المعاصرون » - دراسة بيبيوغرافية إحصائية - تأليف عبد السلام التازي . منشورات الجامعة . ١٩٨٢ . و « بيبيوغرافيا الفن الروائي المغربي » (١٩٣٠ - ١٩٨٤) من إعداد مصطفى يعلى . مجلة « أفلق » ع ٣ - ٤ (ديسمبر ١٩٨٤) من ص ٧٤ - ٨٢ . و « الأدب المغربي الحديث » لعبد الرحمن طهناول . منشورات الجامعة (سبتمبر ١٩٨٤) .

(٥٢) أنظر هلمش

(٥٣) أنظر عن طين الجليلين في ترويج الأدب الإسباني المعاصر دراسات للتقوية بطوان . أطوار على الأدب الإسباني المعاصر ، المحلقات ١ - ٥ . مجلة « دعوة الحق » الإصدار ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ . ٨ .

(٥٤) أنظر : محمد الصباغ . اللهات الجريج : ٦٠ - ٦٣ .

(٥٥) أنظر : عبد الله اللورديري . قراءات في نيب الصباغ : ٤٦ .

(٥٦) أنظر : تقديم مسطعة . أعضاء . للترجمة الإسبانية لـ « شجرة النار » من خلال الثلاثة .

ب - أنا والقمر (La luna y yo)

وهو ديوان من الشعر المنثور يضم ثمانية وعشرين قصيدة عنيت بترجمته الدكتورة بليونور مرتينث مرتين استلاذة اللغة العربية بأدب بريغلسونة ، وصدرت الترجمة بطولان سنة ١٩٥٦ وهي نفس السنة التي ظهرت فيها الطبعة العربية . وإذا كان القاريء الأسباني قد تعرف في (شجرة النار) على الشاعر وهو يمتاح من وجدان أمته كما يمتاح من وجدانه الذاتي فإنه في (أنا والقمر) قد التقى به وهو يخلق بأجواء ذاتية مشبوبة ويطوف بأفلاك رومانسية شفافه .

ومن الحق أن نذكر ، هنا ، بأن (شجرة النار) و (أنا والقمر) لم يلقيا سوى في نفس القاريء المغربي يعمئذ ولم ينالا من إعجابه ما نالت كتب أخرى للصباغ من مثل (العبير الملتهب) أو (اللهات الجريح) ، وجميعها صدر في فترات متقاربة ، في حين نجد هذين الديوانين نفسيهما ، أي (شجرة النار) و (أنا والقمر) كانا هما الأذان أظفرا الصباغ لدى الأوساط الأدبية الراقية في أسبانيا بأعجاب وتقدير بالغين ، عبر عنهما أحد اعلام الشعر الأسباني المصاصر وهو فيننطي اليكسندري حين كتب : (في شعر محمد الصباغ أريج قديم يمتزج بفوح جديد . وإن شيئاً ما يمسنا من قرب في صوت هذا الشاعر العربي الغض الالهاف الذي يرفع صوته وسط أمة بأغان معززة مثلما تبلور عاطفته الملتبته تبلور بذات الوقت مشاعر التضامن والالتحام مع شعبه)^(٥٢) كما عبر عن هذا الإعجاب والتقدير اللذين حظيا بهما أدب الصباغ لدى القاريء الأسباني شاعر آخر ، يعتبر هو كذلك من مرموقي شعراء أسبانيا المحدثين ، وهو خوراردو دييكر

الذي كتب قصيدة سماها (أنت والقمر) (La luna y Tu) أهدها للصباغ ليصدر بها الترجمة الأسبانية لديوانه (أنا والقمر)^(٥٣) .

وعلى الرغم من أن ما عرف طريقه الى الأسبانية من الأدب المغربي الحديث ، سواء ما صدر منه في المجالات الشعرية والأدبية ، أو ضمن كتب الاختيارات الأدبية ومجاميعها ، عامة أو خاصة ، أو ما نشر في آثار كاملة ، كان محدوداً فإنه قد حقق فائدتين اثنتين ، أولاها اطلاع القاريء الأسباني على ألوان من الإبداع الأدبي والشعري في المغرب ، وثانيتهما وضع جملة مسالمة من النصوص الأدبية والشعرية في متناول النقاد والدارسين مما كان له أثره في توجيه هؤلاء وأولئك الى العناية بهذا الأدب على نحو ما سنرى في فقرة أخرى من هذه الدراسة .

ومع ذلك فإن من يستعرض الفقرات المتقدمة يلاحظ أن للترجمة الأسبانية ، على محدوديتها ، أولت اهتمامها لكافة الاشكال والجناس التي عرفها أدبنا الحديث ، فمن القصيدة ، عمودية كانت أو حرة أو مرسلة ، الى القصة القصيرة ، بمختلف اتجاهاتها ومن المسرحية ، نثرية وشعرية ، الى الرواية ، الى المقالة والبحث الأدبيين . كما يلاحظ أن الموضوعات التي انتظمها هذه الترجمة متنوعة ومتعددة ، فيها الذاتي ، وفيها الاجتماعي ، وفيها الوطني ، وفيها القومي ، وفيها الانساني ، وفيها الأدبي ، وفيها التاريخي ، وفيها اللغوي .

وفضلاً عن ذلك فإن هذه الترجمة لم تقتصر عنايتها على جيل دون آخر من أدبائنا بل حرصت على أن تنتقي نماذج من النتاج المتنوع الذي عرفه أدبنا خلال هذا القرن انطلاقاً من شعراء العشرينات الى الفترة

(٥٢) انظر من خلال الثانية من الترجمة الأسبانية لـ ، شجرة النار .

(٥٣) انظر La luna y yo, pp. 9 - 10

حيث نصيبه من الإبداع والابتكار أو التقليد والاجترار. ثم إذا ذكرنا، إلى ذلك، أن الذين تولوا نقل هذه النصوص من العربية إلى الإسبانية يتفاوتون من حيث حظ كل منهم من التمكن في اللغتين: المنقول منها والمنقول إليها، ويتفاوتون من حيث ما كان لدى كل منهم من موهبة فنية، وطاقة إبداعية، وقدرة على تقمص شخصية الأديب الذي ينقله والشعور بشعوره. ثم إذا ذكرنا، إلى هذا، عسر الترجمة الأدبية بعامة والشعرية بخاصة، مما قد حمل البعض، كما هو معروف، على القول باستحالتها^(٤٥). إذا ذكرنا ذلك كله أمكننا، ونحن نتساءل عن حظ هذه الترجمة من الدقة والامانة، ونصيبها من التوفيق والسلامة، أن نتصور ما قد يشهده مثل هذا التساؤل من قضايا واشكاليات تستلزم بحثا خاصا ودرسا مستقلا ليس يسعها المقام هنا.

على أننا، مع ذلك، لن ننهي الحديث عن هذه الترجمة دون أن نشير إلى ما تميّزت به، أو تميز به بعضها، على الأصح، من الدقة والسلامة يرجع، في جانب منه، إلى أن أفرادا ممن قاسوا بها أمثال مونتايب والخطيب اللذين كانت معرفتهما باللغتين بالدرجة التي كانت تتيح لهما إنجاز ترجمة بارعة لم يملك معها مستعرب مثل غرسيه غوث وشاعر مثل فيثلي (الكسنري) إلا التنويه والإشادة بعملها^(٤٦). كما أن ما توافر لبعض هذه الترجمة من الامانة والتوفيق يرجع، في جانب آخر، إلى أن أفرادا من الذين كانوا يشتغلون بها أمثال مركادو والصباغ، كما، إلى معرفتهما باللغتين، على تفاوت بينهما، يملكان من الموهبة الأدبية

الرائدة. وربما يكون هذا الحرص، في جملة دوافع أخرى، هو الذي جعل هذه الترجمة تعني، أحيانا، بنتاج تتقصه شروط (الأدب) وقيمه.

على أنه ينبغي الإشارة إلى أن أوفر الأدباء حظا من عناية هذه الترجمة كان هومحمد الصباغ. قال جانب ديوانية (شجرة النار) و (أنا والقمر) ترجمت له نصوص متعددة نشر بعضها في أشهر مجلات إسبانيا الشعرية والأدبية وأرقاها من مثل مجلة (كراكولا)، ومجلة (إنديفي)، ومجلة (المخارطة) وغيرها، ونشر بعضها الآخر في كتب الاختيارات الشعرية والأدبية ومجاميعها. ولقد كانت لهذه العناية الخاصة التي شملت بها الترجمة الإسبانية أدب الصباغ أسباب، في مقدمتها معرفة بالغة بالإسبانية أتاحت له الاطلاع على الشعر الإسباني المعاصر في دواوين أعلامه الكبار أمثال خمينيث، واليكسنديري، وهرنانديس، كما أتاحت له ربط علاقات صداقة ببعض الأدباء والشعراء الإسبان في المغرب أمثال طرينا مركادو وبيوغوث نيتا وخاينيسولويث خورخي وفي إسبانيا أمثال اليكسنديري وخارادو دييكي وليغونور مرتين مرتينيتا وبلدو مونتايب، كما أتاحت له تلك المعرفة باللغة أن يشارك في ترجمة بعض آثاره كـ (شجرة النار) وتقديم قراءات شعرية في بعض النوادي الأدبية بإسبانيا^(٤٧).

وإذا ذكرنا أن ما تم نقله إلى الإسبانية من نصوص أدبية ما بين شعر ونثر، أزيد من مائة نص، يختلف من حيث الطول والقصر، ومن حيث الشكل والصياغة، ومن حيث الموضوع والمضمون، بل ومن

(٤٥) نفسه: ٥.

(٤٦) يقول الجلال (الشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل) وفي حول تعلق نثمه ويعل وزنه ونصب حسنه وسط موضع التعجب (انظر: الحيوان

٧٥: ١.

Martínez Montañez, Pedro, Poesía árabe contemporánea, p. 17

(٤٧) انظر:

والنثر، مجلة المحدث، ع ٢٦ ص ٣

ما استطاعا به ان ينجزا ترجمة وصفت بأنها (جليلة ، وعظيمة بالأصل)^(٥٧) ، كما كان مما حقق لجملة من هذه الترجمة حظا من السلامة والتوفيق ان بعض من انجزوها ، وفي مجال الشعر خاصة ، من مثل الدكتورة ليونور مرتينيث التي حرصت ، الى جانب عنايتها البالغة بنقل المعاني ، والصور ، والاخيلة ، والمحافظة على روح الأثر المنقول ، ان تصوغ بعض ما ترجمته من شعر ، وهو في لغته مرسل ، لا وزن له ولا قافية ، في موسيقى وأوزان عروض اللغة المنقول إليها مما اظفرها بالتنبؤ^(٥٨) ، واظفر ، لأشك ، الشعر المترجم بالقبول والخطوة لدى بعض قراء الشعر من الأسبان .

ومع هذا وذلك فإن ما يكتنف الترجمة الأدبية في مجال الشعر خاصة من صعوبة وصعوبة يصري جعل حظها مما تحوز من رضى القراء يتفاوت من طبقة الى أخرى . ولعل هذا التفاوت في الرضى بهذه الترجمة أو تلك هو ما دفع بمترجم مثل خوسي فاشكتي الى ان يصف ترجمة ليونور للقصيد عبادته كتيون عن (القبلة الذرية)^(٥٩) بأنها غير دقيقة^(٦٠) ويعيد ترجمتها من جديد^(٦١) . كما ان هذا التفاوت في الرضى بالترجمة المنجزة لهذا العمل أو ذاك هو ما دفع بأديبة مثل كارمن كويندي الى ان تكتب بعد قراءتها لبعض ما ترجم الى اسبانية من نتاج بعض الشعراء المغاربة : (كم أود معرفة لغتهم لاتعرف عليهم جيدا)^(٦٢) .

ثانيا - الاستفتاء

لأشك ان الاستفتاء الأدبي ، خاصة كان أو عاما

يوفر ، بما يسلم من ضوء على السيرة الذاتية للكاتب أو الشاعر وبما يعكسه من حياته الفنية سواء من حيث رواقدما أو توجهاتها ، مادة صالحة ينتفع بها الباحثون فيما يعدون من دراسات وبحوث حول الأدب ، موضوع الاستفتاء ، وظواهره وأعلامه .

ومن هنا فقد عني بعض الدارسين والمستعربين الأسبان ، فضلا عما كانوا ينجزونه من ترجمة لألوان من الإبداع المغربي في الشعر والقصيدة باستكشاف جوانب من حياة الكاتب والشعراء المغاربة واستطلاع آرائهم في الأدب والفكر من خلال ما كانوا يجرونه معهم من استجابات واستفتاءات .

وقد ميزنا فيما عرفته اللغة الأسبانية من ألوان الاستفتاء عن الأدب المغربي الحديث نوعين اثنين . أحدهما خاص وثانيهما عام .

أما أولهما فهو هذا الاستفتاء الذي خص به أديب ما بقصد تعريف القارئ الأسباني بحياة هذا الأديب وأبداعه ، ونكتفي في التمثيل لهذا الاستفتاء بمثالين ، هما :

١ - استفتاء أديب ، وهو محمد الصباغ ، أجرته معه جريدة اسبانيا^(٦٣) ، وقد عكس هذا الاستفتاء تصور الصباغ لواقع الشعر واساطير الخمسينات ومستقبل حركة التجديد من خلال قوله (أما الشعر المغربي وأعني به الشعر الجديد فله رواد من شعراء الشباب الذين استيقظوا عن صرخة التجديد في صدورهم ، وبفضل ثورتهم على القديم سيصلون بفنهم الى ما

Pío Gomez Niza, El árbol de fuego, Revista Al-Mutamid No 28 p. 9. (September, 1954).

(٥٧) انظر تأليف لترجمة الأسبانية لـ : لنا والفكر . ص ٥

Leonor, M.M., Antología de poesia arabe contemporanea, p. 226

Literatura y pensamiento marroquieses contemporaneos, p. 356. 227

(٥٨) انظر

(٥٩) انظر

(٦٠) انظر

(٦١) نفسه ٣٥٦

(٦٢) انظر للمصدر ج ٢٧ ص ٤

(٦٣) انظر مجلة - كلمة - ع ٩ ص ١

عامية (٦٧) أو من حيث البناء كقوله : (عندما كتبت مسرحية « الشطاب » أي الكناس سنة ١٩٥٦ كنت إذ ذاك شابا في بداية عهدي بالمسرح اعتمدت بطريقة عفوية أسلوب اللوحات وهو نوع من المسرح يتحرر من قيود وحدة الزمان والمكان .. واعتمدت أيضا أسلوب الاغنية الشعبية في المواقف الصريحة والغناء الجماعي (٦٨) .

وأما الاستفتاء العام فهو الذي استقطب بسزائه أو بأسنلته الموحدة طائفة من الأدباء ، غالبا ما تكون توجهاتهم واهتماماتهم متباينة مع ما قد يكرن من تواطؤهم على الفن الواحد من فنون القول الذي يوثقونه بالكتابة دون غيره .

وقد أتيح للقارئ الإسباني ان يتعرف على واقع الأدب المغربي الحديث وأفاقه من خلال استفتاءين عامين ، هما :

١ - استفتاء (المعتمد) :

لقد كان من بين مظاهر اهتمام مجلة (المعتمد) بالأدب المغربي الحديث وبالشعر خاصة تنظيمها استفتاء توجهت به إلى عدد من الدارسين والأدباء في صحيفة السؤال التالي : « لماذا نجد الشعبية المغربية (الإسلامية) تتلقى الشعر باهتمام قليل بينما هي تنتمي إلى جنس يحمل بذور الشعر في نفسه ؟ ان المغرب بوصفه شعبا قديما ذا عراقة أدبية يتعين عليه

يهدفون ، وأنا متفائل بهذه الجماعة وبمستقبل الشعر في وطني) ، (٦٩) كما عكس هذا الاستفتاء تصور الصباغ لرسالة الشاعر في مجتمعه حين قال : (ومن الطبيعي ، بل من الواجب على الشاعر الحقيقي ان يشارك في احزان امته وافراحها ، وأن يعمل على ايقاظ الحماس في اصلاابها ان كانت خائرة ، وأن يهديها إلى منابع الجمال ، والحق ، والنور ، فالشاعر هو مزمارة امته في افراحها ، ورددتها وبرقها في اتراحها) (٦٩) .

٢ - استفتاء كاتب مسرحي وهو احمد الطيب الطنج ، وقد تضمن اشارات مفيدة إلى تجربة الكتابة للمسرح في المغرب والتي يؤلف فيها (الاقتباس) مرحلة اولية ، يتحدث عنها الطنج في نطاق تجربته الخاصة ، فيقول : (اما الاقتباس فهو بالنسبة لي مدرستي الاولى في الكتابة للمسرح ، ولكنه لم يكن سوى مرحلة تعليمية في الممارسة فقط ، على اني لم اقتصر على اقتباس مسرحيات مولير وحده بل اقتبست لجل رجال المسرح الافذاذ : شكسبير ، ماي فو ، كوتولين ، لايشيت ، كوكول ، بيكيت ، بريجت ، رونيار ، جيل رومان وغير هؤلاء كثير ..) (٦٩) .

كما يتضمن الاستفتاء اشارات إلى تصور الطنج للتأليف للمسرح من حيث المضمون كقوله : « أنني استلهم واقع الشعب وقضايا الناس في مجتمعي العربي المغربي الافريقي .. لقد دأبت ان اضع في اعتباري انسان العالم الثالث وكل المسحوقين بصفة

(٦٤) نفسه ج ٩ ص ٩

(٦٥) نفسه ج ٩ ص ٩

(٦٦) انظر ١٣٤

والنظر . النص العربي في مجلة : الافلام - العرفانية ج ١١ ص ١٢ من ٢٣

(٦٧) نفسه ٢٤

(٦٨) نفسه ٢٤

على أننا نجد من بين هذه الاجوبة ما يدل على جهل اصحابها بواقع الشعر المغربي وحاضره ، ومن ذلك ما ورد في اجابة خاينيتولوبث خوري : (..... ليست الشبيبة المغربية وحدها التي لا تهتم بالشعر ، بل تشاركها في ذلك الشبيبة الاسبانية ايضا . على ان اسبانيا ، مع ذلك ، تمتلك شعرا وادبا عصريين خاصين بها . اما المغرب فليس يملك ذلك ، والاسباب معروفة لدى اي شخص ومدركة لكل فرد ، فالمغرب بحاجة الى ان يبعث شعره وادبه من جديد ، ولكن : اين الشعراء ؟ اين الادباء ؟) (٧٦) ومثل هذا تكشف عنه اجابة ميغيل فرنانديث (٧٦) والاديسوس (٧٥) .

وقد تصدى الاستاذ محمد بن عزوز حكيم لمثل هذه الاجابات في مقال نشر في (المتمدن) مشيرا في اوله الى ان صيغة سؤال الاستفتاء تتضمن تصورا خاطئا لواقع الشعر في المغرب اي انه يتضمن حكما مسبقا من طرف واضعته ، وهي الشاعرة طرينا مراكدر مديرة المجلة ، بان الشبيبة المغربية لا تولي الشعر اي اهتمام ، ثم مضى ينتقد تلك الاجابات التي ابانت عن جهل اصحابها بعامي الشعر المغربي وحاضره ، وختم مقاله مشيرا الى ان الشباب المغربي يقوم بنشاط ادبي وشعري كتطيره الاسباني مثلا ، غير ان نتاجه الذي يكتبه باللغة العربية لا يطلع عليه الشاعر او القاريء الاسباني ، واذا صح ان الشبيبة المغربية لها هذا

احياء شعره وادبه (٧٦) ، وتحت عنوان : في البحث عن الشعر الفتي في المغرب En busca de la joven poesia en Marruecos في نشر الاجوبة ابتداء من عددها الثامن عشر (٧٦) وقد بلغ مجموع الاجوبة سبعة ، ستة منها لدارسين وادباء اسبان اغلهم كان يقيم بالمغرب ، واجابة واحدة لكاتب مغربي هو عبدالله كنون اما الاسبان فهم طوماس غرسية فيغراس ، وخاينيتولوبث خوري ، ويويغوت نيسا والاديسوس ، وميجيل فرنانديس ، وفرنيشكو سلكيرو .

ولقد كان في بعض ما ادله به هؤلاء الدارسون والادباء من اجوبة على السؤال المطروح ما يدل على معرفة اصحابها بواقع الشعر المغربي من مثل ما نقرأ في اجابة طوماس غرسية فيغراس : (مما لاشك فيه ان الموضوع على جانب كبير من التعقد . انا لا اظن ان تكون الشبيبة المغربية قليلة الاهتمام بالشعر وان ما يمكن ان نذكره من اسماء الشبان المغاربة الذين يتداولون الشعر في الوقت الحاضر لتؤكد ذلك) (٧٦) . او من مثل ما نقرأ في اجابة فرنسيسكو سالكي (الشعر المغربي ذو ثقلانية سليمة واساسية وصلبة مثل ارض المغرب ، وهو الى ذلك متفتح ومتنوع كسمائه ، متحرر من التأثير الاندلسي . ذو شخصية قوية تعبر عنها صيحات الثورة المتهبة) (٧٦) .

(٧٦) انظر المتمدن ١٨ ص ١٦ يوليو ١٩٤٩

(٧٦) نفسه ع ١٨ ص ٦

(٧٦) نفسه ع ١٨ ص ٦

(٧٦) نفسه ع ٢٤ ص ٥

(٧٦) نفسه ع ٢٠ ص ٦

(٧٦) نفسه ع ٢٣ ص ٦

(٧٦) نفسه ع ٢٢ ص ٦

الامباني- قررت ان استطلع رأي المبدعين انفسهم لهذا النتاج الذي هو هدف الدراسة (٧٨).

اما مضمون هذا الاستفتاء فهو يتناول ، حول محور رئيسي هو « القصة القصيرة » ، مظاهر رئيسية ثلاثة للعمل الادبي ، هي : أ- ترجمة حياة الكاتب . ب - شمله الادبي . ج - قضايا ادبية عامة . وقد اجاب عن هذا الاستفتاء طائفة من الادباء (٧٩) تجمعهم الكتابة القصصية وتوزعهم الاهتمامات الادبية الاخرى ما بين شعر ، ونقد ومقالة ، كما تتوزعهم التصورات الفكرية والاتجاهات الادبية ، ومرد هذا التوزع كما تكثف عنه الاجابات . الى التباين في ثقافة المبيين ومقروئهم .

وتتجلى اهمية هذا الاستفتاء ليس فقط في كونه اجرى بعد الاستفتاء الأول بما يقرب من عشرين سنة ، اي في فترة كان الادب المغربي يعرف فيها من الوان الابداع والتطور ما لم يكن له به عهد حين اجرت مجلة (المعتمد) استفتاءها ، ولكن تتجلى في كونه ، اي استفتاء دي اكريدا ، حلق ، بما تضمنت اجاباته من معلومات وبيانات ، للقاريه الإسباني فرصة ، لم يعرف لها مثيلا من قبل ، للتعرف على طائفة يعينها من كتاب المغرب وادبائه هم القصاصون والروائيين من خلال حديثهم عن حياتهم الخاصة وحياتهم الادبية ولاسيما في مجال الفن القصصي .

الموقف من الشعر فانها في ذلك ليست بدعا ، فان الشبيبة الاسبانية بدورها ، كما يقول خايننتولويث خورخي لها مثل هذا الموقف . ومع ذلك فاننا نعرف في صفوف الشباب المغربي حاليا عددا من الشعراء اثبتوا اصالتهم وتفوقهم (٨٠).

ومهما يكن من المأخذ على استفتاء (المعتمد) فقد كان له فضل السبق الى هذا المجال من مجالات استطلاع الرأي . واستجلاء التصور ، لئن فاته فيه تقديم صورة جليلة لواقع الادب والشعر للمغربيين المعاصرين فانه لم يفته ان يلتفت الانظار اليهما ويثير الاهتمام بهما .

ب - استفتاء « دي اكريدا » :

وهو ثاني استفتاء عام عرفته اللغة الاسبانية حول الادب المغربي الحديث ، وقد انجزه الاستاذ فرناندوي اكريدا ، بعد نحو عشرين سنة من الاستفتاء الأول ، ضمن اطروحة جامعية عن (الفن الروائي في الادب المغربي الحديث) (٨١).

وقد تحدث صاحب الاستفتاء عن الدواعي التي حدت به الى انجازه فقال : (ان فكرة هذا الاستفتاء نبتت من اشتغالي باعداد رسالتي للاجازة في الاداب ، ذلك انني لما كنت ارغب في الاطالة بموضوع مثل « الفن الروائي المعاصر في المغرب » وهو موضوع ليس تحسد سمته الا جدته وطرافته بالنسبة للقاريه

(٧٦) نفسه ، ع ٢٥ ص ٦.

(٧٧) اعدا بالتراف المكنو برونوليتث مونتبيث ولم تنشر الى الآن .

(٧٨) انظر

De Agreda Burtillo, Fernando, Encuesta sobre la literatura marroquí actual. Revista "Almenara" No. 2. P. 133.

(٧٩) هذه استفتاء بحسب ترتيبها عند المؤلف في كتابه الذي جمع فيه اجوبته ونشره المعهد الإسباني - العربي للثقافة بصربيد سنة ١٩٧٥ . عبدالله كنون ومحمد القاسم المصعبي وامينة الزاوي وحسن الزواكلي وابراهيم الزاوي وخللة بنونة ومحمد المصعبي ومحمد الامري والمصعبي ومحمد بيري ومحمد ابراهيم بوعلو ومحمد عز الدين النكري ومحمد شكري وهادي ميجات وعبد العزيز بن عبدالله واحمد الجلفي ومحمد عليية الحصري ومحمد الخطافي ومحمد الجرجاوي .

ثالثاً - الدراسة

سواء في مجال الترجمة أو في مجال الاستفتاء فإن الجهود المبذولة ، على نحو ما رأينا في الفقرات السابقة ، ذات قيمة بالغة ليس من سبيل إلى إنكارها ، فاليها ، أي الجهود ، يعود الفضل ليس فقط في اطلاع القاريء الأسباني على اللون من الإبداع الأدبي في الشعر ، والقصة ، والرواية ، والمسرح ، والمقالة مما كتبه الأدباء المغاربة المعاصرون ولكن لأنها وضعت بذلك بين أيدي النقاد والدارسين مادة أدبية لم تكن بعضهم معدوديتها عن إجابة النظر فيها وتساؤلها بالدرس نقداً وتحليلاً مما لا نشك في أنه أعان القاريء الأسباني على تنويع ما قرأه مترجماً من ذلك الأدب إلى لغته .

وإذا ذكرنا أن عدد ما تضمنه نص هذا الاستفتاء من أسئلة سبعة عشر سؤالاً^(٨٠) فيها البسيط والمركب ، وأن عدد المجيبين عنها تسعة عشر قاصداً يختلفون ثقافة ، ومقروءاً ، واتجاهاً أدبياً ، أدركنا مدى أهمية هذا الاستفتاء في استجلاء كثير من العوامل الأدبية والسياسيولوجية التي أثرت ، على نحو لافت ، في أبداعها الأدبي بعمامة ، والفصصي بخاصة . ومن هنا يمكن القول بأن هذا الاستفتاء ، بما كشف من خفيات الأدباء المغاربة الاجتماعية والفكرية ، وإفقاظهم الفنية والجمالية ، وضع بين يدي القاريء الأسباني أداة بالغة الفائدة في فهم وتدقيق ما ترجم إلى لغته من إبداع الكتاب المغاربة الأدبي والفصصي منه خاصة^(٨١) .

(٨٠) هذا نصها الكامل :

(١) الترجمة الشخصية

- الاسم واللقب

- المحيطة الحالي - هل هناك سوابق أدبية ؟

- الدراسة المستوى واللغة

- المهنة الحالية - هل الأدب كالمهنة المعيشية ؟

- القراءة والإصطفا - الكتب المفضلة والبدل

- ما هي اللغات التي تكتبونها ؟

(٢) النشاط الأدبي الشخصي

- هل أي نوع من الأدب تكتبون ؟

- ماذا تكتبون في الكتابة ؟ اللغة التلاصقية أو الدارجة ؟ وكيف تستعملونها في القصة ؟

- هل لديكم اتصال بالعربي الفصلي ؟ والأسباني ؟

- لتتفقدون في استمرار وجود كتاب بالفرنسية والعربية في آن واحد في المغرب ؟

(٣) حول الأدب عامة

- التفتقون أن في المغرب أدباً شبيهاً بما يسمى في المغرب - قصة ؟

- إذا كان كذلك فلهي تظهر بلطرب ؟

- ما رأيكم في الجمهور المغربي للقاريء ؟ ما هي ميوله في الأدب ؟ هل يفضّل الكتاب المغاربة عن سواه ؟

- ما رأيكم في الكتاب المغاربة الصالحين ؟ وما هي المشاكل التي تعترض طريقهم ؟

- اتفقون بوجود حركة نظرية عربية بالمغرب ذات قيمة ؟

- اقولون بوجود حل للتناقض بين العربية الفصلي والدارجة ؟

- ما هي الحلول التي ترونها لمفكرة - لغة عربية لغتهم عربي ؟

(٨١) تتألف مقابلة الدكتور مولايحيث وممثل الاستاذ دي اكريدو الاستفتاء

المغربي كما يعكس ذلك نتاج محمد الصباغ ولاسيما كتابه (شجرة النار)

وعرفنا مما دار حول الفن القصصي والروائي ثلاثة أعمال^(٨٥) أحدها رسالة جامعية للأستاذ فرناندو دي اكريدا ، لم تنشر بعد ، وهي « القصة القصيرة في الأدب المغربي الحديث »^(٨٦) La narrativa breve en la literatura moderna marroquí وأما العملان الآخران فقد كتبهما الدكتور عبد الرحمن شريف الشريفي بالاسبانية افرد بأحدهما رواية « الملعن علي »^(٨٧) ، للغالاب ، وخص بثنائيهما رواية « اكسير الحياة »^(٨٨) للحيابي ، وقد عني في العمل الأول باستجلاء المظاهر السوسيوولوجية والنفسية والابداعية في فن غالب الروائي من خلال « المعلم علي » ، وعني في العمل الثاني باستكشاف ثلاثة أبعاد ، هي البعد النفسي ، والبعد الاجتماعي ، والبعد الميتافيزيقي في رواية « اكسير الحياة » .

أما النوع الثاني ، وهو العلم ، من هذه المقالات والبحوث فقد عرفنا منه ثلاثة أعمال ، أقدمها المقال الذي كتبه الأستاذ محمد بن عزوز حكيم بالاسبانية بعنوان « أدباء المغرب الحديثون »^(٨٩) Literatos modernos de Marruecos وقد قمر فيه حديثه ، خلافا لعتوانه ، عن أدباء شمال المغرب بخاصة من أمثال عبدها كنون ، والتهامي الوزاني ،

وإذا صرنا النظر عن جملة عروض تعريفية ببعض النتاج الشعري والقصصي المغربي^(٩٠) مما كانت تنشره بعض المجلات كـ « المعتمد » وه « النارة » فإننا نقع على مقالات وبحوث أراد بها اصحابها الى رسم صورة عامة للأدب المغربي الحديث من خلال شخصياته وفنونه . ويمكن ان نميز في هذه المقالات والبحوث نوعين اثنين أحدهما خاص بفنون معينة ، وثنائهما عام شامل .

أما النوع الأول فقد عرفنا منه مما دار حول الشعر مقالين اثنين ، أحدهما كتبه مانويل بينيو بعنوان « نحو شعر مغربي »^(٩١) Hacia una poesia de Marruecos افاد فيه مما كانت مجلتا (المعتمد) و(منطيطال) قد نشرته من نتاج لبعض الشعراء المغاربة مترجما لاسبانية . وثنائهما هو المقال الذي كتبه خوسي انخيل فالنطي بعنوان « الشعر العربي المعاصر في المغرب »^(٩٢) Poesia arabe de hoy en Marruecos وهو كسابقه من حيث اقتصاره على ذكر طائفة من أدباء الشمال وشعرائه ممن كانت المجلات الصادرة في هذه المنطقة يوميئذ من مثل المجلتين أنفقي الذكر ومجلة (الانيس) و (الانوار) تنشر لهم نتاجهم الادبي ، لكنه يتميز عن المقال السابق بما سلط من ضوء على نهضة الشعر العربي في المشرق والمغرب وما كان لشعراء هذا وذاك من أثر على الشعر

(٨٦) انظر « المعتمد » ع ٢٨ ص ٩ ، و « المنارة » ع ٣ ص ٢٨٥ ، ع ٤ ص ٢٦ ، ع ٦ ص ٢٠٨ ، ع ٩ ص ٢٨٩ ، ع ١٠ ص ٢٣٦ .

(٨٧) انظر . مجلة Africa ع ١٠٥ ص ٤٠٤ - ٤١٦ (شتنبر ١٩٥٠) .

(٨٨) انظر . مجلة Índice ع ٨٤ ص ٢٨ (شتنبر ١٩٥٥) .

(٨٩) باستثناء ما درس فيه اصحابه الأدب الشعبي مثل ، القصة في الأدب الشفوي بالمغرب ، للدكتور روفيل كريمو وهي دراسة أعدتها لنيل الاجازة في اللغات السامية من ادب مريرد .

(٩٠) أحدها صاحبها بالعرف الدكتور بوموريتوت مونتكيث لنيل الاجازة من ادب هوردي .

(٩١) انظر . مجلة المنارة ع ٣ ص ١٥٢ - ١٦٤ .

(٩٢) انظر . مجلة المنارة ع ٩ ص ١٨٧ - ١٩٩ .

(٩٣) انظر . مجلة Africa ع ١٣٣ ص ١٤ - ١٥ (يناير ١٩٥٣) وقد اعيد نشر المقال في كتاب Literatura y pensamiento marroquíes contenido (يناير ١٩٥٣) ص ٦٤ - ٦٨ .

الامر كذلك حين يكون الموضوع ، او ما تستلزمه معالجته ، شعرا ، غير انه يبدو لأول وهلة مجانيا للمنطق حين يتعلق الامر بظاهرة اجتماعية او موضوع تاريخي اي حين تنصرف العناية بالحاح الى بلورة اوضاع الطبقات التي تعاني من شراسة الكرخ او التهميش ، او حين تجيش المشاعر صراخا يندب غياب مسقط الرأس عن العين . ان الشعر يتفرق في اعطاف هذه الكتابات ، ويهدف في صفاء واحيانا بين جمل وعبارات لم تكن تريد ، في البداية ، ان تكون شاعرية مثلها مثل الارصفة التي لا تريد ، بدورها ان تكون معشوشبة .. لكن العشب يأبى الا ان ينبت بين تشققاتها (٩١) ثم يضي الباحث ، بعد ذلك يلتصم لهذه السمة الشعرية امثلة للتطبيق في نتاج الادباء المغاربة كمقالة « تطوان تفاعلة وعمامة وحديقة » (٩٢) لمحمد العربي الخطابي ورواية (٩٣) الغربة المنفردة La reclusion solitaria لا للطاهر بن جلون ، وكتاب « عندلة » (٩٤) لمحمد الصباغ ، وقصة « الصياد » (٩٥) لابراهيم بركلو ، و « أغاني نساء فلس القديمة » (٩٦) التي جمعها ونشرها محمد الفاسي . وسواء في القسم الأول من هذه الدراسة حيث استعرض الباحث الملابس الفاعلة في الابداع الادبي المغربي ، او في القسم الثاني حيث تتبّع سمة « الشاعرية » في الآثار المتقدمة الذكر . يكشف لنا الدكتور خيل عن معرفة بالإدب المغربي الحديث تعطي آراءه حظها من السداد كراهي في ان تأثر الادب الروائي

وابراهيم الافي ، وعبد القادر المقدم ، وغيرهم . ومع ان التعليقات التعريفية التي نجد الكاتب يعقب بها على بعض الاسماء لا تنم عن معرفة . النتائج الادبي للفترة كما لا تدل على ذائقة ادبية او منظور نقدي عنده الا انه ، اي المقال ، كان ذا فائدة محققة بالنسبة للقارئ الاسباني الذي لم يكن الى عهد قريب من تاريخ نشر المقال المذكور ، يعرف شيئا عن ادباء المغرب وآثارهم .

اما العمل الثاني من هذا النوع العام فهو الذي كتبه الدكتور روبلغويل كريما بعنوان حول الادب المغربي المعاصر (٩٧) En torno a la literatura mar-roqui actual وهو عبارة عن دراسة بنأما صاحبها على مقدمة صور فيها الاوضاع والملابس التي تكتنف الادب المغربي الحديث كالازدواجية اللغوية ، وازمة النشر وغيرهما ، والم فيها يذكر طائفة من الادباء والكتاب الذين تألفت اسمائهم في الشعر ، والقصة ، والرواية ، مشفرا الى الاتجاهات والتيارات الادبية التي يعرفها الادب المغربي والى الموضوعات التي يعني بتناولها ومعالجتها . اما في القسم الثاني فقد حاول الدكتور خيل ان يستكشف احدى السمات الرئيسية التي تكتسب ، برأيه ، النتاج الابداعي المغربي في اكثر من مجال واحد ، وهي سمة « الشاعرية » ، وفي ذلك يقول : (... في الالامس كما في التعبير نفسه نزوع الى ما هو شاعري يتراءى بجلاء . وانه لمن المنطق ان يكون

(٩٠) كتبه سنة ١٩٧٨ ويظهر انه اطلع ضمن البرنامج الاسباني بالاذاعة الوطنية ولم ينشر . وقد نعمل كتبه الصديق الدكتور خيل لاهدائي نسخة منه

محرورية على الاله الكتابية

(٩١) انظر p. 8 En torno a la literatura marroqui actual

(٩٢) نفسه ص ٨ - ١٠

(٩٣) نفسه ص ١٠ - ١٢

(٩٤) نفسه ص ١٢ - ١٣

(٩٥) نفسه ص ١٣

(٩٦) نفسه ص ١٤ - ١٥

التحليلي والنقدي حيث تطلع القاريه نظرات نقدية يقوم بها الباحث بعض الاعمال الادبية وخاصة الروائية منها من مثل رواية « لحننا الماضي »^(٩٨) ورواية « اكسير الحياة »^(٩٩) للحبابي . وغيرهما .

والحق ان هاتين الدراستين تعتبران الى الان بما اشتملتا عليه من معرفة بالمادة الادبية وقدرة على تحليلها اهم ما انجز في الاسبانية ونشر من مقالات وبحوث عن الادب المغربي الحديث .

على انه ينبغي ألا يفوتنا في ختام هذا العرض ان نشير الى انه بجانب هذه المقالات والبحوث المكتوبة اصلا بالاسبانية ترجمت اعمال مما كتبه بعض الدارسين المغاربة عن ادبهم من مثل دراسة الدكتور عباس الجراري في « الشعر المغربي في عصر النهضة »^(١٠٠) ودراسة الدكتور ابراهيم السلاوي عن « وطنية شاعر الحمراء »^(١٠١) ودراسة الاستاذ عبد العلي الودغيري عن ادب الصباغ^(١٠٢) ، ودراسة الاستاذ محمد التازي عن « دور الادب المغربي في المعركة ضد الامبريالية والصهيونية »^(١٠٣) ودراسة الاستاذ احمد الصفيروي عن « الرواية المغربية المكتوبة بالفرنسية »^(١٠٤) لهذه البحوث جميعها ، الى سواها مما كتب اصلا في الاسبانية ، سواء كان مما اعده دارسون اسبان او مغاربة ، اسهمت ، الى جانب الابداع المترجم ، والاستفتاء الادبي ، في تقديم الادب المغربي الحديث للقاريه الاسبانية .

المغربي ينتاج المشاركة والغربيين مما يعوق ظهور شخصية مغربية اصيلة من شأنها ان تسهم بعماء مغربي حق في الادب العربي والعالمي كذلك ، وليس معنى هذا ، في رأي الدكتور خليل ، ان على الابداء المغاربة ان يتركوا جانبا الموضوعات والاشكال التي يبدعون فيها ادبهم ليستلهموا تراثهم الشعبي فقط ، فهذا مما لا يخطر ببال ، ولكن من المؤكد انه يكمن في الذاتية المغربية . وفي نظريتها للحياة ، وفي ادبها الشعبي الخصب ، وفي تاريخها المعقد من الدواعي ، والحوافز ، والشخصيات ، ما لو استغل لعكس ، على نحو رائع ، الموضوعات والمضامين التي يحاول الابداء المغاربة اليوم تقديمها لنا^(١٠٥) .

اما العمل الثالث الذي عرفناه ضمن البحوث العامة حول الادب المغربي الحديث فهو المدخل الذي كتبه الدكتور عبد الرحمن شريف الشركي لكتاب « الادب والفكر المعاصران في المغرب » ولاشك ان الباحث اراد ان يكون هذا المدخل تقويما عاما لمختلف ألوان الابداع المغربي من شعر ، وقصة ، ومسرح ، ورواية ، ومقالة ليكون ، أي التلويح ، عونا للقاريه الاسباني على فهم وتذوق ما تضمنته الانطولوجية من نماذج ذلك الابداع ، لكنه لم يوفق في بنائه حين فسح لحدِيثه عن الفن الروائي والقصصي حيزا لم يفسح مثله لباقي الفنون الاخرى مجتمعة . واذا كان هذا مما ينال من منهجية الباحث فانه لا ينال ، بحال ، من المدخل في جانبته

(٩٧) نفسه ص ٧ - ٨

(٩٨) نائل XXI-XXII Literatura y pensamiento marroquins contemporáneos pp.

(٩٩) نفسه ص XXIV

(١٠٠) نفسه ، ص ١٠٣ - ١٠٩

(١٠١) نفسه ص ١١٢ - ١٢٤

(١٠٢) نفسه ص ١٣٩ - ١٤١

(١٠٣) نفسه ص ٦٩ - ٨٣

(١٠٤) نفسه ، ص ١٦ - ٢٨

المراجع

- Cherif-Chergui Abderrahman : Tres dimensiones de la novela "El exilio de la vida" del Dr. Lahbabi. Revista Almenara No. 7-8 pp. 39-78.
- Cherif-Chergui Abderrahman : Sociología, psicología, literatura en la Última novela de "Abd al-Karim Gallib. Revista Almenara, No. pp. 152-164.
- De Agred Burillo, Fernando : Encuesta sobre la literatura marroquí actual. Ed. Instituto Hispano-Arabe de Cultura. Madrid, 1975.
- Grimaud, Gil Rodolfo : En torno a la literatura marroquí actual. Rabat, 1978.
- Martínez Martín, Leonor : Antología de la poesía árabe contemporánea. Ed. Espasa-Calpe. Col. "Austral". No. 1, 518 pp. Madrid, 1972.
- La poesía actual árabe. Revista de la Universidad Complutense XXIII, 93, Sept-Oct. 1974.
- Martínez Montavez, Pedro : Poesía árabe contemporánea. Ed. Exelcier. Col. 21, No. 17. Madrid, 1958 pp.
- Introducción a la literatura árabe moderna. Ed. Almenara, Madrid, 1974.
- Las relaciones literarias hispano-árabe contemporáneas. Revista estudios de Asia y África. El Colegio de México, num. 43, vol. XV, Enero-marzo (1980) paga 102-123.
- Pinillos, Manuel : Hacia una poesía de Marruecos, África, No. 105 (1950)
- Sabbag, Mohammad : El árbol de fuego, versión del autor y de Irina Mercader Ed. Al-Motamad, (Colección Itimad 1) Tetuan, 1956.
- Seminario de literatura y pensamiento : Literatura y pensamiento marroquíes contemporáneos. Ed. Instituto Hispano-Arabe de Cultura y Facultad de Letras de Rabat, 1981. Serie "Antologías
- Valente, Jose Angel : Poesía árabe de hoy en Marruecos Revista "Índice de Artes y Letras" No. 85. Octubre 1955.

— التومغيري ، عبد المعلى . قراءات في أدب الصباغ ، دار الثقافة - الدار البيضاء (١٩٧٧)



من الشرق والغرب

قضية الحداثة قديمة قدم الزمان . منذ وعي الانسان أنه سيد الكائنات وهو في صراع دائم مع البيئة ، يعمل فيها يد التبديل كيما يخضعها لأرادته واحتياجاته . يصطنع لها الأفكار والأدوات ، ثم يعدل من سلوكه ويحدثه لتكيف معها في ثوبها الجديد ويعاصرها . يدور في حلقة التأثير والتأثر والأخذ والعطاء مما يسفر عن أنماط الحضارات والثقافات التي ينقل التاريخ أنبأها عبر العصور . والثقافة أسلوب الحياة بينا الحضارة بعض مقوماتها المادية والمعنوية . هكذا يكون لدى البشر في كل بقعة من الأرض عصر جديد على الدوام ، عليهم أن يتكيفوا معه ويستحدثوا من أساليب الحياة ما يمينهم على مواجهة المتطلبات الجديدة . فمعنى « العصر » هو أفكاره ومبادئه التي تسوده ، وليس مجرد وجود زمني يقاس بأعوامه وشهوره وقائمه وثوابه وعلى الخلفية الفكرية التي هي : العصر ، نحيى مطالبة الناس بأن يكونوا مبذعين^(١) . أي معاصرين . و « الحداثة » ترتبط بالابداع . أي ابتكار أشكال سلوكية تتكيف مع البيئة الجديدة . والفن من أنماط السلوك الانساني ، تتغير أشكاله بتغير العصور .

الفن والحداثة بين الأوس واليوم

مختار العطار

لعل أقرب الدراسات الى الواقع في تحديد الحقبة الزمنية التي نجتازها ونطلق عليها اصطلاح « العصر الحديث » ، ما جاء به : هـ . و . جانتسون ، من أنها تبدأ مع القرنين الأخيرين . وهو يرى أننا لم نطلق عليها اسماً بعد لأننا ما زلنا في لجة النهر تندفع مع التيار . ويقارن بين عصرنا و « عصر النهضة » الذي اتخذ هوية منذ البداية هي « بحث القدم » . ثم حاول العثور على « مدرك عام » لعصرنا الحديث فوجد أنه يتخذ طابعاً ثورياً . لأنه يتسم بالتغير السريع العنيف ، بلا تجانس في تقدم مختلف الميادين ونموها مُرجعاً هذه الظاهرة الى انه بثورتين جدّ مختلفتين : الأولى صناعية ممثلة في اختراع آلات البخار ، والثانية سياسية في كل من أمريكا وفرنسا تحت راية الديمقراطية - كهدف مطلوب تحقيقه

(١) د . زكي نجيب محمود . ما يكتب وما يستحيل كسبه . مقال بجمعية الأعرام في ١٩٨٥ .

عل نطاق البسيطة ، عن طريق نشر النسق الغربي للعبية ، في كل من العلوم والأيدولوجية السياسية والانتاج الحضاري من طعام وكساء وفن وأدب^(١) . يؤكد الطابع الثوري الذي اقترحه « جانتسون » للمعصر الحديث ، الثورة الروسية التي وقعت سنة ١٩١٧ والثورة الصينية بعدها بثلثين عاماً ، والتقدم التكنولوجي المذهل في اليابان . - وجميعها دول شرقية لها أنساق حياة تختلف اختلافاً بيناً عن النسق الغربي ، تسعى بلورها إلى نشره بين شعوب العالم .

أما « كليمنت جرينبرج »^(٢) ، فله رأي آخر . الحداثة في نظره لا تقتصر على الفن والأدب ، بل تنظم معظم ما هو حيوي في ثقافتنا ، وتشكل معظم اليدع التاريخية . يرى أن الحضارة الغربية ليست الأولى التي أعلنت النظر في الأسس التي قامت عليها . فجميع الحضارات الماضية قد فعلت نفس الشيء . ويعرف « الحداثة » بأنها « تكثيف وتركيز النقد الذاتي » الذي بدأ مع الفيلسوف « كانت » الذي كان أول من انتقد وسيلة النقد نفسها . لذلك فإن « كانت »^(٣) هو أول مفكر حديث في نظري ، وأن جوهر « الحداثة » يكمن في استخدام الوسائل المميزة لنسق من السلوك من أجل نقد هذا النسق ذاته بهدف تحسين ساحته وتنقيتها . فقد استخدم « كانت » المنطق ليقم دعاته المنطق . خلاصه من كثير من الشواهد ودعم ما بقي له من أسباب .

ثم يطبق « جرينبرج » المنطق « الكانتي » على الفن ، فينادي بأن يقرر كل نوع من أنواع الفن العمليات الخاصة به ، دون تدخل فنون أخرى . بذلك يضيّق مجال المنافسة وتؤكد ساحة كل فن على حدة . وينبأ كشعب كلمات الباحثين في « الحداثة » ويكتنفها

الغموض ، يتجه مباشرة في وضوح النهار ليضرب مثلاً بالرسم الملون (التصوير) . يقول : « يستغني الوسيط - أي الخاصات - في كل من الفن الواقعي والأيامي لأنها يستخدمان الفن لاختفاء الفن . بعكس « الحداثة » التي تستخدم الفن لجلب الانتباه إلى الفن . حيث لا يتخفى الوسيط الذي يرسم عليه الفنان ، والذي يتكون من السطح السوي والشكل الذي ترسم عليه اللوحة وخصائص اللون . لم يضع الأساتذة القدماء هذه العوامل في عمل الاعتبار الا قليلاً ، وبطريقة ضمنية . لكن الصورة الحديثة تهتم بتلك الأبعاد بإيجابية وصرامة . ولوحات « مانيه »^(٤) كانت أول صور حديثة بسبب انفصالها عن الأسطح التي ترسم عليها . فقد تحلل « الشاتريون »^(٥) عن البطانات التي وضعها السابقون تحت الألوان والوريش الذي وضعوه فوقها ، حتى يتروكوا للمعين حرية التطلع إلى الألوان بحقيقتها العارية ، كما خرجت من الأنابيب أو الآنية . هكذا فعل « مانيه » بينا ضحى « سيزان »^(٦) بالأوضاع الصحيحة لكي يتفق الرسم والتصميم مع شكل اللوحة المستطيل بوضوح أكثر .

فسر « جرينبرج » بمنطقه الكانتي « الحداثة » في فن الرسم الملون ، على أنها اظهار الحماضات من ألوان وقماش أو ورق أو خشب . ووضع بذلك أيدينا على تفسير لما يجري اليوم في فنون « اللاشكل » التي تغمر الصور والتمائيل ، ولا هم لها سوى اللعب بالخامات واستعراض مهارة الصنعة ، بلا أي علاقة بالقيم الفنية أو بتأصير الطبيعة وموزها وإيجادها . الأمر الذي يفقد الأبداع الفني المعنى والمضمون الانساني . « إدوارد مانيه » هو رائد الحداثة بحق في هذا السياق . اتسمت لوحاته بازدياد أهمية الصنعة على الموضوع . وتميزت

11. W. Jun Sun: A History of Art London Vol 2 - P. 555.

Clement Greenberg, Modern Painting Art & Literature, No. 4, Spring, 1965, P. 193.

(١) مصقول ككت: فيلسوف لكال - ١٨٠٤ / ١٧٢٤ .

(٢) إدوارد مانيه : رسم ملون فرنسي - ١٨٣٣ / ١٨٨٢ .

(٣) الفثريون : جماعة فنية تأسست سنة ١٨٧٤ - من بين أعضائها : مونيه ، بيسلو ، رينوار ، سيزلا .

(٤) بول سيزان : رسم ملون فرنسي - ١٨٣٩ / ١٩٠٦ .

بل أن يرسمه على القماش مفعماً بالحياة كثيف الألوان .
يمكن وجه « الحداثة » لديه في أنه حرر الرسم الملون من
القواعد الأكاديمية الجامدة ، وأولى الألوان مزيداً من
الاهتمام ورفض التظليل .

لكن « ادوار مانيه » لم يقطع علاقته بالموضوع المرسوم
المقروء بالرغم من كل هذه العناية بصناعة الرسم
ونخاماته ، كما توحى كلمات « كليمت جرينج » . لم
يتعد بالقدر الذي ابتعد به خلفاء « التارويون » . فقد كان
مولعاً طوال حياته بالتكوينات التاريخية للمعمية كرامته
الشهيرة « إعدام مكسيميليان » .

ربما يساعدنا على تفهم العلاقة بين الفنان والواقع في
العصر الحديث ، ما جاء به « فيرنر هافتمان »^(٩) . حين
تسأل عن الطبيعة الجدلية بين الواقع ووعي الإنسان
ومشاعره . كيف يؤثر ذلك على فن الرسم الملون ؟ ما
هو دوره العملية في السمو بالصورة المخيلة للواقع ؟
ولكي يجيب « هافتمان » على هذا التساؤل لم طرح تسؤلاً
جديداً عن « المادركت » التي قدمها العلم الحديث عن
الطبيعة . واكتشف ثمة دلائل في التوافق الزمني بين
التغيرات في كل من ميادين العلم والفن . ولاحظ التغير
الجلري الذي شمل الفنون الجميلة بين عامي ١٩٠٠
و ١٩١٠ . وأشار إلى أن السنوات الخمسة هي ١٩٠٥
حين ظهر الانجاء الوحشي ، و ١٩٠٧ حين رسم
« بيكاسو » و « براك » أول صور تكعيبية ، و ١٩١٠ لما
رسم « فاسيلي كاندينسكي »^(١٠) أول لوحة تجريدية .
لاحظ أن هذه السلسلة من التطور تراكب ما حدث في
ميادين العلم ففي ١ٹ٠٠ نادى « بلانك » بالنظرية
الكمية ووضع « فرويد » نظريته في تفسير الأحلام . وفي
سنة ١٩٠٥ اكتشف « البروت اينشتاين » النظرية
النسبية . كما أخرج « ميكوفسكي » نظريته الرياضية
حول الفراغ والزمن .

بالنضارة وحيوية الألوان حتى كأنها مرسومة في التور
واللحظة ، مع أنه لم يكن خلواً كالتأثيرين الذي يعتبر
نبيهم . لم يفرق مرسمه ولم يشاركهم تحليل الألوان
والاهتمام بالخصائص وإعمال الموضوع - كما يظن
« جرينج » - ولم يتوقف عند ابداع اللوحة كعمل فني
شخصية مستقلة . بل إن « المدرسة التأثرية » بأسرها ،
استهدفت « المحاكاة » بدقة تفوق التضاليد السابقة ،
ساعية الى نقل الطبيعة ممثلة في اوانها وأصواتها ، وليس
التجرد منها والانصراف عنها الى الحامات والصنعة ،
حتى أن البعض كانوا يرسمون المنظر الواحد على طول
ساعات النهار ، لإظهار اختلاف الألوان والأضواء على
نفس العناصر المراتية .

رفض « مانيه » التقاليد الأكاديمية المرحية ، وكانت
لوحة « أوليمبيا » التي عرضها في صالون باريس سنة
١٨٦٥ نموذجاً لذلك الرفض . رأى فيها « إميل
زولا »^(١١) امتداداً تشكيمياً لنظريته الأدبية ، وشرع بمزلود
فن جديد واتى الخطوات بعيد عن التردد والتخبط . لم
يقتصر « مانيه » في مخالفته التقاليد على الشكل
فحسب ، بل أيضاً عناصر الموضوع . لذلك انزعج
جمهور المتلقين من ظهور عناصر غير تقليدية في صوره ،
كالقطعة السوداء عند أرجل السرير وباقية الزهور بين
يدي السيدة الزنجية . ولاحظ النقاد مباشرة الأضواء
وخشونة الرسم وانتقاره الى الظلال . إلا أن هذه اللوحة
التي شجبتها النقاد وسبوا صاحبها ، تعتبر الآن نقطة
محول « فن الرسم الملون » الى الحداثة « لأوضاعها
الأصيلة وخطوطها الحارجية الواثقة وصفق تمييزها .
أما مناظرة الطبيعة فلم تحل من الأشخاص أبداً وتحفل
بالأنظمة اللونية المتبكرة من درجات الرمادي والأزرق .
ولم يكن يخفى اللون الأسود ويتجنبه كخلفاته ، بل
أضفى به مزيداً من النصوص على رسمه . كما أنه لم يسم
الى تظليل إبداعه الفني بقدر ما كان يميل خلق ما يراه ،

(٨) الفن المرجع رقم ٤٣ .

Werner Haftmann; Painting in The Twentieth Century-1956, London.

(٩)

(١٠) فاسيلي كاندينسكي : رسام روسي الأصل للفن الألف (١٨٦٦ / ١٩٤٤) .

أشار « هافتمان » إلى أن كثيرين من الفنانين صرحوا بأن الاكتشافات العلمية أوضحت لهم الرؤية ، وألبدت اتجاهاتهم الفنية وفتحت لهم آفاقاً جديدة . وروي عن « فرانز مارك^(١١) » قوله : أن فن الغد سيضي على قناعاتنا (تقاليدنا الفنية) شكلاً (فورم) . كما نقل عن « جيوم أبولينير » - المتحدث الرسمي باسم التكيبية - تصريحه بأن هناك علاقة بين النظرية التكيبية متعددة المنظور ، والمدرک الديناميكي للامنظور في عصر الفضاء ، ثم قدم اصطلاح « البعد الرابع » في علم الجبال الحديث .

هكذا رأى « هافتمان » أن الحدائث في الفن « رؤية للواقع مواكبة للتقدم العلمي » . نتيجة للعملية التبادلية بين الإنسان والبيئة وتغير مدركاته . بينما يفسر « جرينبرج » الحدائث في الفن بأنها صورة من صور النقد الذاتي ، تختلف عما كان في القرن الثامن عشر في حركة التنوير الفلسفية ، حيث كان النقد « من الخارج » . بعكس المنطق « الكسائي » السلي انتقد « من الداخل » . من خلال المتابع التي يقوم عليها موضوع النقد . لقد أنكر « التنوير » الدور الهام للفن والحلقه بالتسلي . ولكي ينقله جرينبرج من هذه المنزلة المتواضعة ، رأى أنه - أي الفن - يقدم للإنسان « تجربة » ذات قيمة في حد ذاتها . ليست لحساب نشاط آخر كالتسلي أو العلاج أو الترفيه أو التفع المادي التطبيقي .

ربما بهذه الكلمات ، يضع « جرينبرج » أيلينا مرة أخرى على بعض ظواهر الحركة الفنية الحديثة . يقدم تفسيراً لما يتعدد على ألسنة فناني العالم الثالث . كلما سألت عما يعرضه أحدهم من أشياء « لا شكلية » غير مقروءة ، أعجاب بأنه يقدم « تجربة » . وهي كلمة غامضة يختلط فيها الجدل بالعبث والظن باللائن . لكن منطق « جرينبرج » يضع النطق على الحروف ويطالب كل فن بآليات وجوده على حدة ، بتعدد ووضوح حتى لا

يؤخذ على غير محمله . عليه أن يجدد مجال تأثيراته حتى لا تنلبس بتأثيرات غيره من الفنون . فلا يتداخل النحت مثلاً بالرسم الملون أو المسرح والموسيقا . . . السخ . ولا يستغل فن مزايا مستقلة من وسائط (خامات) فن آخر . لذلك ينبغي تحديد الوسائط لكل فن بكل دقة . شاع الخلط بين الخامات منذ مطلع القرن . فبعض التماثيل أصبحت أشخاصاً حقيقيين يتخذون أوضاعاً تشكيلية . . أو آلات لا وظيفة لها تتحرك وتطلق أصواتاً . وبعض الصور برزت منها نباتات حقيقية أو أقمعة ملونة أو أشكال بلسازة كالنحت . . قد تصدر أصواتاً موسيقية اذا اقتربت منها . . أو التصقت بها أوراق الصحف كسا فعل التكبييون . وقد بدأ « بابلوكاسو » هذا التيار في كل من النحت والرسم الملون منذ مطلع القرن . لكن هذه « البدع » لا تدخل فيها نسبت اليه من فنون - قياساً على رأي « جرينبرج » - اذا أطلقت عليها الأسماء التقليدية من : نحت ورسم ملون وحفر وزخرفة . لكن لا بأس في أسماء خاصة جديدة كما فعل النقاد المعترف بهم حين أطلقوا أسماء مثل : فن التجميع ، فن البوب ، الفن البيئي .

إلا أن بعض المعينين بالفنون الجميلة من الأكاديميين في العالم الثالث خلطوا بين أنواعها تحت اسم عام هو « فنون تشكيلية » ، بدلاً من إضافة الأنواع الجديدة الى الفنون التقليدية ، مما أدى الى إخطاله جسيمة كالتى حصلت في نينالي الاسكندرية الخامس عشر (١٩٨٤/١٩٨٥) ، لدول حوض البحر الأبيض المتوسط ، حين منحت الجائزة الأولى في النحت لعمل لا يمت الى هذا الفن بصلة .

« هيربرت ريد » عميد نقاد ومؤرخي الفن في أوروبا - يرى أن الوقت لم يحن للتأريخ للفن الحديث ، لأنه لم يبلغ بعد مداه^(١٢) ، خاصة وقد تعاقبت الحركات الفنية بسرعة خلال هذا القرن ، وتعددت بدرجة تجعل

(١١) فرانز مارك : رسام لفي ١٨٨٠/١٩١٦ .

Herbert Read-A Concise History of Modern Painting-London 1974, P. 11, 12, 13.

(١٢)

مشوهاً . ذلك أننا لسنا كالحجوات ننظر من خلال الأجهزة والخرازم بهدف المحافظة على البقاء - ان هدفاً كبشر هو « اكتشاف العالم » أو « بناءً بشكل معقول » - أي أن أسلوب الإدراك يختلف بتغير الثقافة - وبالتالي أسلوب الابداع - لذا كان الفنان يعيش عصره برؤية حضارية .

ثم يقرر « هيربرت ريد » بحزم قاطع « أن ما نسميه الحركة الحديثة في الفن ، بدأ على يدي رسام فرنسي عقد العزم على أن يرى العالم « موضوعياً » يعقله فقط بلا أي غموض . انه : بول سيزان (١٨٣٩/١٩٠٦) . أراد أن يرى الموضوع أو الجزء الذي يتأمله فحسب ، سواء كان منظرًا طبيعيًا أو تفلحة أو انسانًا ، دون أي تدخل من العقل المهذب أو الانفعال الاوجج . أسلافه التائيرون راو العالم من خلال إحاسيسهم ، في مختلف الاوضاع ومن مختلف الزوايا . رؤية « ذاتية » سطحية . استبعد « سيزان » هذا السطح الغامض المرتعش ، ونفذ من خلاله الى الحقيقة الثابتة التي لا تتغير .

نظر كل من « جرينج » و « ريد » الى « الحداثة » من زاويتين مختلفتين لكنها اتفقا في النتيجة . بدأها الأول بتفضيل خامات الرسم واللون ، وبدأها الثاني برسم حقيقة الأشياء بعيداً عن مظهرها الخارجي . حدد كل منهما نقطة تاريخاً لبداية « الحداثة » ، اذا كنا حقاً نستطيع ذلك بلا هامش زمني عريض ، يختلط فيه الحديث بالقديم حتى ثبتت أقدامه وترسخ قواعده .

اتفق كل منهما على أن « الأسلوب » هو مؤشر « الحداثة » . سواء كان طريقة التنفيذ كما في حالة وضع الألوان على القماش عند « ماتيه » ، أو طريقة الإدراك عند « سيزان » التي أوضحها بقوله عن الطبيعة انها تتألف من أشكال « المخروط والأسطوانة والكعب » . لم

حصرها وتبعها أمراً عسيراً . ويفسر « الحداثة » في سياق تبرره اغفال بعض الأسماء الشهيرة من مصنفه « موجز تاريخ الرسم الملون الحديث » ، بدعوى أنهم عاشوا حقاً في هذا العصر لكن أساليبهم ليست حديثة بالرغم من تميزها عما سبقها من أساليب . وتبني كلمات « بول كلي^(١٣) » التي يقول فيها : ان الفن الحديث لا يعكس الشيء المرئي ، انما يجعله مرئياً . اعتبر هذه العبارة « معياراً » يزن به الأعمال الفنية ويحدد مدى حداثةا . وقد استبعد من استبعدهم لأنهم « يعكسون المراتب ويرتبون بأساليب سابقة » ، ضارباً للثل بالرسام الفرنسي : سوريس أوتريلو (١٨٨٣/١٩٥٥) وهو من الفطريين الذين يتسم ابداعهم بصدق الاحساس . اعتبره تقليدياً بالرغم من حداثة الزمنية . وهو يتفق في هذا المنهج مع « زكي نجيب محمود^(١٤) » في « أن جماعة منا تعيش هذا العصر زمنًا ، ولكنها لا تعيش فيه رؤية حضارية وثقافية » . كما يستبعد عمالة المدرسة المكسيكية الثلاثة : ديجو ريفيرا ، جوزيه أوروسكو ، ألفارو سيكيروس - لأنهم في نظره خارج « تطور الأسلوب » الذي هو قياسه الوحيد للحداثة^(١٥) ، الى حد انه يرى « أن تاريخ الفن هو تاريخ الأساليب التي رأى بها الانسان العالم » .

فكرة « الحداثة » عند هيربرت ريد ، مشتقة من انعكاس الثقافة الحديثة (أي أسلوب الحياة الحديثة) على الابداع ، فاذا كان الفنان متوافقاً معها في الرؤية الحضرارية وطريقة الإدراك والتفكير تغير أسلوبه الابداعي بما تقتضيه الظروف المستحدثة واتسم بالحداثة . يؤكد هذا أنه يشير الى أننا نرى من الأشياء ما « تعلمنا » أن نراه . وأن الإبصار « عادة وتقليد » وليس عملية ميكانيكية تنتقي ما نريد أن نراه من مجمل المطروح أمامنا ، أما الباقي فلا نستوعب منه سوى ملخصاً

(١٣) بول كلي : رسام ملون سويسري (١٨٧٩/١٩٤٠) له نظريات في الفن الحديث ، وكان مدرّساً في « الفايهرس » ١٩١٩ .

(١٤) من مقال بجريدة الأهرام في ١/٤/١٩٨٥ .

(١٥) يتبنى أن يخلط حديث « هيربرت ريد » بكوني شخصي ، حيث أن للكسبيين الثلاثة من لثق التي العصر الحديث الذين استطاعوا أن يعمدوا بين الأمثلة والمعاصرة ، كما نقر عدة مراجع أخرى .

رفيع الشعر والأدب والمسرح . لكن «جيرنيكا» تقف شائخة في صف الروائع الخالدة في مختلف الفنون . لأنها جمعت بين «الشكل والمضمون» . الأسلوب والموضوع . «رؤية حضارية» . «لا تعكس الشيء المرئي بل تجعله مرئياً» . تقفز بدور فعال في «الثقافة الانسانية» لأنها تتعدى حدود المكان والزمان . تنتقد العصر بأسلوب العصر .

«تطور الأسلوب» كأساس ومقياس لـ «الحدثة» ، يناهض فكرة الالتزام بالواقع وما يجري فيه من أحداث ، خشية أن يسقط الفن في مصيدة الدعاية - كما يعتقد «هيرت ويد» . وإن كنا نرى - ويرى معنا الكثيرون - أن «الرؤية الحضارية» تشمل الشكل والمضمون معاً ، من حيث أنها وجهان لعملة واحدة . وقصر «الحدثة» على «تطور الأسلوب» ينشط المناقشة حول قضية «الفن للفن» التي بدأت في القرن التاسع عشر ولم تنته حتى الآن . فقد روى : جان برتيليمي^(١٧) عن كاتب فرنسا : جوستاف فلوبر (١٨٢١/١٨٨٠) أنه نعت رواية «البؤساء» - تحفة : فيكتور هوجو (١٨٠٢/١٨٨٥) رائد الرومانسية - نعتها بأعوجاج الأسلوب وانحطاطه للمتعمد ، وبأنها موجهة الى حشرات الكالوليكية الاشتراكية . ثم استطرد قائلاً : إن انحطاطية الفن تنحصر في الجمال ذاته ، وليست له موضوعات جميلة وأخرى قبيحة ما دام «الأسلوب» وحده طريقة مطلقة لرؤية الأشياء (ص ٤٦٠) . يعقب المؤلف على هذه العبارات بقوله «الفن قيمة عليا والفنان يقيم المطلق الذي لا يقبل مساومة لصالح مطلق آخر . وأتت تنكر عالم الفن وحقيقة الفنان اذا فرضت عليه هدفاً آخر مهما كان رفيعاً» . الا أنه يضع النقط على الحروف في عدة صفحات تالية يوضح كيف ارتبط عملاقة الفن والأدب والشعر بموضوعات الحياة دون أن يقلل ذلك من مستواهم الفني الرفيع . «كان القرن الواقع بين عامي ١٨١٥ ، ١٩١٤ هادئاً

يعن الباحثان بالموضوعات المرسومة أو الملقى والمضمون ، حتى أن «ريد» استبعد «الحدثة» من أعمال الثلاثي المكسيكي اللذان الصيت . . والفنانين الروس على الإطلاق ، لجرد أنهم رسموا موضوعات وعناصر مألوفة بما قدر من المحاكاة . مع أن : بابلو بيكاسو (١٨٨١/١٩٧٣) اتخذ مكانته العالمية الفريدة لأنه ابدع لوحة «جيرنيكا» ، التي أجمع النقاد والمؤرخون على أنها رائعة القرن العشرين . «لقد سببت الحرب الأهلية الأسبانية سنة ١٩٣٦ ألماً عميقاً للفنان ، أسفر عن هذه الرائعة التي تضمنت أشكالاً عمودية مطورة من «الأسلوب التكعيبي» . طرحتها لتناسب التعبير عن الغضب وقسوة المشاعر التي اجتاحتها . وهي واحدة من عدة لوحات تنسم بالصراخ والرمزية ، أبدعها أثناء الحرب وكشف فيها عن أهم أسرار القلب الانساني . قضى عدة سنوات يحلل الأشكال ويعد بناءها ، في بحث دالب سبق به الفلاسفة والأدباء . بدأها سنة ١٩٣٧ وعرضها في «كارية جاليري» (بفرنسا) سنة ١٩٤٥ ، وفي صالون الحريف في نفس العام . استقرت بعد ذلك في متحف الفن الحديث بنيويورك بالولايات المتحدة»^(١٨) . ثم عادت الى اسبانيا وعلن الفنان ، تلبية لرغبته ، بعد رحيل الديكتاتور .

«جيرنيكا» هي التي توجت «بيكاسو» على عرش الفن الحديث في القرن العشرين . ليست «فتيات أفينيون» التي اكتشف بها «الأسلوب التكعيبي» سنة ١٩٠٧ . ليس إعادة تركيب مقعد الدراجة ومفودها على هيئة رأس ثور ذي قرنين . ليست الوجوه التي نصفها منظور من أمام والنصف الآخر منظور من الجانب . ليست للمجسمات التي كونها من تجميع حديد الحفرة أو التشكيلات الخزفية الجذابة والمستنسخات الفنية الخشنة .

الأسلوب وحده لا يرقى باللوحة الفنية الى مستوى

(١٧)

Jaques Lassaigue, Picasso, France, 1955-P.XXI111.

(١٨) جان برتيليمي : بحث في علم الجمال - فرجة نور عبد العزيز - ١٩٧٠ .

هكذا ما كان ينبغي أن يثير إليه كل من « جريترج » و« ويد » .

بدأت ارمصاصات الحداثة وتطور الأسلوب مبكرة في القرن السادس عشر ، مع انحرافات أعمال : ميكسلانجلو (١٤٧٥/١٥٦٤) في تصويره « يوم القيامة » في سقف كنيسة مسئين ، حيث نلاحظ البلور الأولى لحركة « المانيزم » التي كانت الانعكاس الفني للأزمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي زلزلت أوروبا في ذلك الزمان^(١٩) . فقد اتسمت « المانيزم » بالمبالغة في الحركات والتناقض عن دقة المنظور والاستجابة للانعكاسات ومناهضة التعاليم الأكاديمية . وتخلت عن عمالة الطبيعة ، وندت بأن الفن لا يخلو فقط من الطبيعة بل يخلو مثلها ، فاقبلت بذلك حل النزعة الطبيعية لمصر النهضة المعروفة بـ « القطعية أو الدجاطيقية الساذجة » - حيث كانت الطبيعة هي مصدر الشكل الفني « يصل إليه الفنان بأسلوب تركيبي يجمع فيه عناصر الجمال المعيشة » (ص ٢٨) . ويبدو أن كلمات « جيوردانو برونو » كانت أول اعلان عن بدء مسيرة الحداثة حين أشار إلى « أن العمل الفني يفتقر إلى المنهجية والتنظيم ، وأن الشعر هو مصدر القواعد ، وهناك من القواعد بقدر ما هناك من الشعراء الحقيقيين »^(٢٠) . هكذا جمع بين فكرة الإلهام .. والعبقرية التي لا تخضع إلا لذاتها ، وفتح الباب لما نراه من أعمال ابداعية لا علاقة لها بالأشكال الطبيعية (المحاكاة) . وربما كانت هذه الفكرة التي ظهرت أول مرة في كتاب منشور سنة ١٨٨٨ ، هي التي تبلورت في نهاية الربع الأول من هذا القرن في عناصر الرسم السويسري « بول كلي » - أحد رواد الحداثة البارزين ومفلسيها .

ألقي « بول كلي » محاضرة سنة ١٩٢٤ حلل فيها « الحداثة في الفن » . كان استناداً حينذاك في

نسبياً يسمح بمداخلة آلهة الشعر والفن والعيش بالقليل وعمارسة السياسة للتسلية . ثم أتت الحرب الأولى والثانية ودخلنا عهد الارهاب وتهديد المستقبل . وجاءت الحركات الاجتماعية واسعة عميقة تخلق مشكلات جديدة للانسانية . تأثر بها أكثر الفنانين هدوءاً فأعلن حياده (الفن للفن) ، لكنه اضطر دائماً لاتخاذ موقف معين وإن يلقي بنفسه وسط المعركة ينجح ويتظاهر وأصبح الفن سلاحه . . وتغلقت فكرة الفن الملتزم » (ص ٧١) .

ضرب « برتيلمي » أمثلة بشاعر عصر النهضة « دانتي » وكيف كانت راعية « الكوميديا الالهية » تعلياً دنيوا ساميا . ولوحات الرسام « هولباين » والحفار « دورر » وحدث مطالب حرب الفلاحين سنة ١٥٢٥ كما اشترك « بيكاسو » في حرب أسبانيا . وداغت رسوم « دوميه » الكاريكاتورية في مجلة « شاريفاري » عن آراء خاصة مع احتفاله بمستواه الفني الرفيع . وكان إيمان الرسام « كوربيه » بالثورة عظيماً ، عبر عنه في لوحات « معطمو الصخور » و « الورشة » و « جنازة أوران » .

وإذا كان « برتيلمي » يعقب على تلك الأمثلة بقوله ان « هذا التوافق بين الهدف والفن شيء نادر » (ص ٧٨) . فذلك « في رأينا - لأن الفن نفسه نادر ، وأن اغفال الموضوع وعدم الالتزام بقضايا الحياة والاقتصار على الابتكار الشكلية والأسلوبية ومهارة الصنعة بلا هدف ، هذا الاغفال فتح الباب لغير الفنانين وتعلم التزييق بين الصادق والذلي . أو كما يقول الناقد فرنسو مولينار : « إذا كان كل شخص هو بطرس ، فان بطرس لا وجود له »^(٢١) . أي أننا إذا اعتبرنا أي نشاط ابداعي بلا موضوع فناً ، فلا وجود للفن اذاً . و « الحداثة » من حيث هي أسلوب لا تستهدف ذاتها إنما تستهدف « التعبير » عن مضمون . سواء كان ذاتياً كما لدى التأثيريين ، أو موضوعياً كما في لوحات سيزان .

(١٨) مقال بعنوان : للشكل الأساسي في الفنون التشكيلية - مجلة فنون عربية (١٩٨١ العدد ٣) - العراق .

(١٩) ترونولد هاووز : الفن والتجمع عبر التاريخ ج ١ - ١٩٧٠ - ترجمة : فواد زكريا .

(٢٠) المرجع السابق .



(١) بول سيزان ، منظر طبيعي - ١٨٨٥ - متحف بروكلين - نيويورك .



(٢) بول كافي، شمس الزهور - ١٩٣٤ - ملتقطات د. فريدريك روبرج

الذي لا ناقة له ولا بعير فيها يكسو أعلاها من جمال وقتته . مجرد قنطرة تمر منها العصارات في طريقها الى أهل ، مقبلة من الجذور التي تجلبها من الأعماق . لا خيار له في أن يوجد حيث هو ، ولا إرادة له فيها يؤديه من عطفية . فهو لا يتجمل ولا يتحكم .

كذلك الفنان ، يوجد في هذه الدنيا دون إرادة أو تطفل . يشق طريقه بحاسة التوجيه ويتبين ثمة نظاماً فيها يعرض من سبل الخيالات والخبرات . هذه هي الجذور التي يستقي منها عصارات فنه . تتدفق فيه حتى تبلغ عينيه فيرى الدنيا كما تبدو في لوحاته . ويبرر « بول كلي » عدم مشابة الفن الحديث للطبيعة بقوله « إن أحداً لا يستطيع أن يطلب من تاج الشجرة أن يكون صورة طبق الأصل لجلوها » . فالعصارة حين تجري الى الخلايا المختلفة تنتج أشكالاً متنوعة . هكذا تتدفق « الخيالات والخبرات » الى الفنان وتتحوّل في عينه الى ما نراه من غرائب الأشكال . يعارض « كلي » بهذا التشبيه فكرة « للمحاكاة » التي نادى بها أرسطو منذ ٢٣٠٠ سنة ، وأحيائها عصر النهضة منذ ٥٠٠ سنة ، وما زالت تدعو اليها بعض فصائل الفن الحديث مثل جماعة « السوير ريباليزم » . أن مفهوم المحاكاة الذي بلوره « كلي » يفرق - شكلاً - بين الأساليب الحديثة والتقليدية في الفن . لكنه يفتح الباب الحلفي للمدعين ، خاصة وأنه يشير ضمناً الى عدم دراية الجمهور الذي يظن بالفنان علم الكفاءة أو التشويه المتعمد للأشكال الفنية . ثم يستطرد - مع أن الفنان لا حيلة له فيها تضعه فرشاته من اللون وملاس وخطوط . انه مجرد « وسيلة نقل » . شأنه شأن جلد الشجرة .

هذه المفاهيم التي عرضها واحد من أكبر فلاسفة ورسامي الفن الحديث ، لا تلقى مزيداً من الضوء على « الشجرة » التي تفصل بين الصادق والكذب في الابداع الفني الحديث ، حتى ليسقط في الخطأ كثيرون من المعتمدين بالفنون الجميلة في أوروبا وأمريكا ، حيث لا يستطيع أن يفرق بين الماس والزجاج الا النقاد الكبار ،

والباهواوس منذ « أربع سنوات فجاءت معالجاته للموضوع نتيجة تأمل طويل . وتعتبر من أعظم ما كتب عن الأسس الاستطيقية (الجمالية) للفن الحديث ، تناول نفس القضية فنانون آخرون ، من بينهم « ماتيس » و « بيكاسو » و « مور » . لكن أحداً منهم لم يبلغ هذا المنطق المحكم الواضح . إذ كان ذا عقلية ميتافيزيقية ، واسع الاطلاع في الفلسفة والعلم ، فضلاً عن خبرته القوية بالموسيقى . بعد تخصصه كرسام ملون^(٢١) .

وقبل أن نعرض أفكار « كلي » عن « المحاكاة » ، نورد تعريف « هيرت ريد » لفن الرسم الملون . يقول انه « لغة » قوامها الشكل واللون يمر بها الفنان عن الهامات معقدة . أما « الرموز » الشكلية التي تظهر في هذا الفن فهي من املاء اللغة الكلامية التي نستخدمها للاتصال فيما بيننا ، وهي غير مناسبة لـ « لغة الشكل واللون » .

يفسر هذا التعريف « الارمز » و « اللامحاكاة » والنزوع الى التجريد اللاشكلي الذي يصل الى حد العبث أحياناً . اختلت الموازين الأكاديمية ولم تتبلور بعد معايير الفن الحديث سوى « ما يتفق عليه جمهرة النقاد المعترف بهم » . كما يرى « ريد » أن شرح الفن يعني اطلاق أسماء على ما ليس له اسم من العمليات والأفعال المرتبطة بحركات غريزية . أما « كلي » فيقول « إن تفسير الفن نوع من التحليل الذاتي » . ويلود عن حق الفنان في خلق تنظيم خاص للحقيقة على أسس من قواعد الابداع الواضحة في النظام الطبيعي . لكن على الفنان أن يفرض الى « منابع قوة الحياة » حتى يستمد الحرية والطلاقة اللازمة للخلق ، علماً بأن المجهود الفردي ليس كافياً ، وأن المجتمع هو منبع قوة الفنان . وفي عام ١٩٢٤ التقى محاضرة شرح فيها « العملية الابداعية » من وجهة نظر « المحاكاة » . ضرب مثال الشجرة الشهير الذي يفسر الأشكال الغريبة التي تسم بها الأعمال الفنية الحديثة . شبه الفنان بجذع الشجرة

الحصيلة المنطقية حينئذ إحياء أشكال خارجية كانت تعبر عن مشاعر داخلية في عصر سابق . وهذا هو سبب شعورنا بالتعاطف والقرابة الروحية نحو البدائيين . لكنه يسارع بتوضيح نوعين من التشابه بين الفنون القديمة والحديثة . أولها خارجي سطحي لا مستقبل له . والثاني داخلي يجعل بلور الغد . ويشير إلى صعوبة احساس المتلقي بالنوع الثاني لما يتضمنه من روحانية غير مادية . ولأنه يتوقع رسوماً الطبيعة على شكل صور شخصية - أو مناظر طبيعية على الطريقة الانثوية ، أو مشاعر داخلية يتخذ لها الفنان رموزاً من الطبيعة . لكن حين تتضمن هذه الصور فناً حقيقياً يغذي الروح ، يشعر المتلقي بنشوة تسري في بدنه . لأن الروح الأساسية (Stimmung) للصورة تعمق وتظهر روح المتلقي ، وتحفظها من الخشونة والجحالة . كأنها المفاتيح التي تضبط أوتار الآلة الموسيقية .

فكرة «كاندينسكي» عن حداثة أسلوب التعبير الفني ، نبتت من ثقافته العصرية . فقد نشأ في عائلة فنية متعلمة متدبنة . عشق الرسم والتلوين في سن الرابعة عشر وأثقت العزف على البيانو والتشيللو . درس القانون والسياسة والاقتصاد وأصبح محاضراً في الجامعة قبل أن يبلغ الثلاثين . وحين شاهد معرض الرسامين التأثيريين في «موسكو» سنة ١٨٨٥ ، تسامد ان كان من المثير زيادة أهمية الرسم والتلوين على الموضوع المرسوم . من هنا تنضج الفكرة البدئية للفن التجريدي الذي ابتكره فيما بعد . نزح في العام التالي إلى ألمانيا ، حيث تعلم الرسم والتلوين وبدأ مسيرته في «تحليل» الفنون الجميلة ، واشترك مع «بول كلي» في التدريس لطلبة «الباهواوس» حتى أغلقها «هنر» سنة ١٩٣٣ .

حين نذكر «الحداثة» عند «فاسيلي كاندينسكي» ، لا نعي بذلك صحة نظريته التي قلبت المفاهيم الفنية في القرن العشرين ، وما زالت الحركة الثقافية تعاني منها حتى اليوم - خاصة في العالم الثالث ، بسبب التفسيرات

أمثال «هيرت ريد» و«كينيث كلارك» . . . وغيرهم من أصحاب الخبرة المتعمسة والثقافة الموسوعية . لم يكن «بول كلي» أول من زلزل عالم الفنون الجميلة في القرن العشرين ، ووضع حجر الأساس للحداثة . هناك هامش عريض - كما أسلفنا - بين الماضي والحاضر ، تلعب فيه «التغيرات الاجتماعية» لعبة حياة أو موت . أما أن تثبت حداثةا وجدارها بتلبية الاحتياجات الجمالية والفكرية لإنسان الثقافة الجديدة ، أو محضي وموت كـ «بدعة» لم يكتب لها التوفيق . ولنا في التاريخ أمثلة كثيرة من تلك «البدع» ، أقرها إل «آرت بوليرا» بمعنى الفن الفقير أو التافه الذي ظهر في الستينات . ومن قبله «حركة الدادا» التي ملأت الدنيا بصخبها سنة ١٩١٦ وقلبت كيان الشعر والنحت والرسم والموسيقى وأعلنت «أن الفن قد مات» .

لكن بعض «التغيرات الفنية» توجد لتبقى وتولد لتعيش . وقد ضرب «هيرت ريد» مثلاً بالفرنسي «بول سيزان» ، الذي لم يترك «مدرسة» كالتأثيرية أو التكعبية ، لكنه ترك الفن الحديث كله الذي نراه من حولنا اليوم . ولعله العامل المؤثر على الرسام الروسي الأصل الألماني الإقسام ، فاسيلي كاندينسكي (١٨٦٦/١٩٤٤) صاحب أول صورة تجريدية . وصاحب أول مؤلف في فلسفة ونظرية الفن الحديث بعنوان «الروحانية في الفن» - ١٩١١ . وكان زميل «بول كلي» في التدريس لطلبة «الباهواوس» حتى أغلقها «هنر» سنة ١٩٣٣ .

أكد «كاندينسكي» حتمية التحديث فقال «إن العمل الفني وليد عصره . فكل فترة ثقافية تسفر عن فن خاص لا يمكن تكراره . وأي جهود تبذل لإحياء مياديه فنية قديمة ، لن تتمخض إلا عن فن جهيضم» (٣٦) . ثم يستطرد شارحاً ومعللاً فيقول : «لكن الفنون - قديماً وحديثاً - بينها تشابه في الحقائق الأساسية . في اتجاه الجبر الداخلي العام للروح والأخلاق والمثل» . «تكون



(٣) أندي وارمول - كلية حساء - ١٩٦٥ - متحف الفن الحديث - نيويورك
(نموذج الفن د الجوب ه كي د الفن إيساميري)



(٤) جاذبية سرى - الرمداء، وللكاف - معصر ١٩٧٦ - مقتنيات الفنان .

الواقع .. وأفسدت الواقع بالتجريد . ثم يلخص « كاندنسنكي » نظريته في مسطور أخيرة تشير إلى أن توافق الفن الجديد يتطلب بناء أشد صلابة . أقل استجابة للعين (محاكاة) وأكثر استجابة للروح (تجريد) . ويقول إن هذا « البناء الخفي » قد يتبدى بمحض الصدفة السعيدة في اختيار الفورمات (الأشكال التجريدية) التي يضعها الفنان على القماش .



منذ مليوني عام .. كشط الإنسان البدائي الزيادات من فروع الشجر وقطع الزلط ، ليستعملها كسلاح يضرب به الأعداء ويصطاد الفرائس ، فاكتشف العلاقة بين « الشكل والوظيفة » . لكن هؤلاء الأجداد البعيدين لم يتركوا أثراً خفية قبل ثلاثين أو أربعين ألف سنة . وحتى هذه الآثار التي عثرنا عليها في كهوف « لاسكو » بفرنسا و « التاميرا » بأسبانيا ، وظيفية بلورها ، لأنها كانت شاعرية طفوسية وسحرية^(٢٣) .

من هنا بدأت علاقة الإنسان بالفن التطبيقي لتيسر سبل الحياة المادية ، وبالفن الجميل للسمو بالحياة الروحية والنفسية ، إذ يرى « كولنجود » أن الصفة السحرية لصيقة بالعمل الفني الأصل^(٢٤) . إلا أن هناك نظرة ثالثة بعيدة عن النفع المادي والمهدف السحري ، هي « الإدراك الاستطقي » للموضوعات - أي التأمل لمجرد التمتع^(٢٥) . ومصطلح « استطيقا » يعني « انسجام » - كما فسره : جيروم ستولتز (ص ٣٨) . يؤكد هذا التفسير اهتمام « فاسيلي كاندنسنكي » بالتوافق والانسجام الروحي وربطه بالأبداع الفني . ويقول عالم النفس « كيت » ، أن التلوق وعي .. وتنبه .. وحسوية .. كما أنه تمتع وتدريب على التخيل والابتكار ، وتنظيم لجهازنا العصبي والعاطفي والانفعالي ، وإذكاء للروح الخلاقة

الظاهرية على كل من أسك فرشاة ألواناً ، وإرجاع الحكم على جودة العمل إلى صدق الفنان . فقد أسقط من اعتباره « محاكاة » الطبيعة ، وعاد بالأمر كله إلى نداه الشعور الداخلي للفنان . وقابل بين الموسيقى ورقص البالية والرسم الملون في خضوعها جميعاً للقيم التجريدية المطلقة ، لأنها وحدها التي تتوافق مع الروح ، بلا تدخل وتشويش من الأشكال الطبيعية (للمحاكاة) . وتحديث بأسبابه عن « التوافق الداخلي للروح » . وأن قوام الرسم الملون هو : اللون والفورم (أي الشكل المطلق) .

استغرق كتابه « عن الروحانية في الفن » ٥٧ صفحة من القطع الصغيرة . صدر بالألمانية سنة ١٩١١ ، ثم بالانجليزية بعد ذلك بثلاث سنوات وما زال يناد طبعه حتى الآن بكل اللغات الحية . أفرد فيه سبع صفحات لـ « النظرية » ، تعتبر ما نشر في هذا القرن حول الفنون الجميلة . استند فيها إلى منطق قوى سليم ، ساعده عليه تعليمه العالي وثقافته الواسعة وإيمانه بما يكتب . واختتم فصله عن النظرية بقوله : « إن عبارة الفن فوق الطبيعة ليست اكتشافاً جديداً . فقد قالها من قبل كل من جوته وأوسكار وايلد ودولاكروا . ذلك أن المبدعي الجديدة لا تسقط من السماء ، بل هي منطقية ترتبط ضمناً بالماضي والمستقبل . والمهم هو الموقف الحالي للمبدع . فإذا استطاع الفنان أن يضبط أوتار روحه على هذه النغمة يصدر الصوت تلقائياً في عمله وينبغي أن تتقدم الحرية على مدى الاحتياج الداخلي . وفي الوقت الراهن قد يقف في طريقها الشكل الخارجي (للمحاكاة) ، لكن بمجرد التخلص من هذه العقبة سيبرز هدف بناء التكوين . أسفر البحث عن شكل بنائي عند التكمية التي أقمحت الشكل الطبيعي (للمحاكاة) على البناء الهندسي - وهي عملية عطلت التجريد بتدخل

سيلفانو» في تحليله للعملية الإبداعية وكيف يتم طرح الأفكار والصور الجديدة^(١٦)، يقول «إن الإبداع ثمرة توافق أو تألف بين مستويين من التفكير الإنساني: الأول مستوى بدائي أدوات التمثيلات التي تسبق مرحلة التفكير باللغة. وموز أولية مبهمة لصور وخبرات معرفية وجدانية معقدة. ولا يتسق هذا المستوى الفكري مع المنطق العام، لأنه ذاتي بلا رموز تواصلية. توجد بشكل طبيعي لدى الأطفال والانس الأول وبعض الحالات النفسية. أما الثاني فمستوى راشد أدوات الرموز اللفظية والرياضية والموسيقية... الخ. وهي مفاهيم تكفي التواصل. والتفكير هنا موضوعي يستند الى علاقات منطقية ورموز مشتركة». ويتابع «سيلفانو» نظريته قائلًا إن الإبداع هو توافق هذين المستويين في التفكير. الأول يتمدد على الحس والخبرة المعرفية الوجدانية المركبة. والثاني يصوغ هذه الرؤية في لغة تواصلية ومنطق مشترك. ويسفر هذا التوافق أو «الولاف» عن شيء ثالث يختلف عن كل منهما هو: نسج جديد أو علاقات حديثة. وتتجسد قيمة هذا «النسج» بقدر ما يثري ويوسع نطاق المنطق الإنساني الواعي. أي بقدر ما يضيفه الى هذا المنطق من «معقوليات» جديدة قابلة للوعي والفهم. فعملية الإبداعية هي: اعادة ترتيب المعطيات اللاعروفة للخبرة الإنسانية عن طريق «رؤية ذاتية» تصل في نتائجها الى «حقائق موضوعية».

هكذا تتم عملية «الحدادة» على هيئة استجابة للمعطيات الجديدة كلما تغيرت الظروف الاجتماعية.



أما الشباب المفكر الذي أشعل أول ثورة من أجل «الحدادة» في القرن العشرين فهم قادة «حركة الدادا»، التي هبت كالعاصفة ما بين عامي ١٩١٦ و ١٩٢٣ لتتوجع الروح الخلاقة وتطرح العديد من

لدينا، واعلاء لانسانيتنا. لأن الانسانية ليست مجرد السير على قدمين والنظر بعينين أماميتين. فقد مضت عصور لم يفرق فيها الإنسان بينه وبين الحيوان. بل كان يظن أن بعض الحيوان أفضل منه درجة. لكنه أحس بانسانيته وبدأ مسيرة الحضارة منذ وقف في صحرائه وهتف: كم هي جميلة تلك الصحراء. فالادراك الاستطقي (يعني الرؤية والادراك الفني)، لا تقتصر على الأعمال الفنية وحدها بل تنسحب على الطبيعة أيضاً. فالشجرة الملتوية والأمواج المتلاطمة فيها طرافة ودرامية. ولا يوجد بين الكائنات ما يمتلك القدرة على الادراك الاستطقي سوى الانسان. ولو أن التجارب التي أجريت على أنواع وراقية من الفردة، أثبتت توفر نوع من التدفق الفني لديها. وإذا سائرنا اتجاهات الفائلين بأن الحدادة تطور في الأسلوب الفني، فهي إذن تتعلق بازدياد ابتعاد الفنان عن التعبير المادي مستهدفاً الانسجام الروحي، أي اتفاق التعبير مع احتياجات الفنان الداخلية (كاندينسكي). لكنه يتحول الى عزلة لا أخلاقية اذا أهمل الاحتياجات الروحية والفكرية للمجتمع (جريتريج)، وأصبح غير خاضع لقياس أحد الا نفسه. وعنى للمجتمع أن يبادل أعمالاً باعمال. إلا أن بعض الحركات الفنية تبنت تلك الأفكار الفردية المتطرفة، ولأقت استجابة واسعة في ظروف عالمية مهية للتمرد. فحين عجزت «الرؤية والادراك الفني» عن تزويد البشر بالقيم الأخلاقية التي تكبح جماح سفك الدماء في الحرب العالمية الأولى (١٩١٨/١٩١٤)، انتفض جماعة من الشباب المفكر وشار على كل أساليب «الادراك الاستطقي المستحدث»، التي وضعتها طليعة الفنانين في فجر القرن - بما فيهم «سيزان» و«بيكاسو وبراك» و«بوتشيني» و«كاندينسكي». ثاروا على «المسلمات» السابقة التي تقوّل التفكير وتحرّمه من إيجاد علاقات جديدة.

لعمل من المناسب الاشارة الى آراء عالم النفس «آرني

(٢٦) مجلة الانسان والتطور. المند ١٥ - مقال الإبداع الفني أو العلمي بطم: مجدي عرق. ١٩٨٣.



(١١) جورج شترهيد - ١٩٥١، برونز / ارتفاع ٦٠ سم - من معرض شبكة نثار للآثار العريقة في ١٩٨٨م -
١٩٨١ - تغيير من أجناع المصغر والتقدم السريع

المرحومين في الأسر واليوم



(٢٢) الرسم الحديث في العراق - ١٩٨٤
(من بينالي القاهرة الأول للفنون العربية) .

«أرب» فهو الذي اكتشف «التكوين العفوي» للصور حين رسم لوحة لم تعجبه فمزقتها وألقاها. ثم رأى في تركيبها العشوائي وهي ممزقة على الأرض جملاً جديداً، فرفعها بعناية ولصق أجزائها كما هي، فصارت مثلاً يحتذى لأسلوب مبتكر لدى بعض الفنانين تحت اسم «كولاج».

ألمحت «الدادا» أي عبارات أخلاقية أو اجتماعية أو تجارية، وشجعهم النقاد فانتقلوا يلتمسون كل المبادئ الفنية السابقة «حتى أن أحدهم اشترى «مبولة» من محل الأدوات الصحية وقع باسمه عليها وعرضها على أنها تمثال أطلق عليه اسم «النافورة». وكان شعراؤهم يملسون إلى ورقة يكتبون عليها كلمات عسوية على التسلسل، تحت اسم «الشعر الأوتوماتيكي». ونذر «مارسيل دي شامب» - وهو من أبرز فلاسفتهم - نفسه لنسف ما يسمى «الاستطيقا» أو «علم الجمال».

أسهنا بعض الشيء في عرضنا لحركة «الدادا» لكننا لم نوفها حقها. لأنها أخطر الأحداث الفنية في العصر الحديث. ما زالت فعالة حتى اليوم خاصة بين فناني العالم الثالث. كما أنها الجذور التي انبثقت منها عدة أساليب وخامات فنية، بالإضافة إلى الكثير من «المدارس» مع أنها كانت ثورة من أجل الثورة وهذا من أجل الهدم. أعلنت سقوط جميع القيم الفنية السابقة ولم تستبدلها قايماً جديدة، مكنتية بالحرية الفوضوية والعشوائية المؤسسة على اللاوعي. إلا أن وجه «الحداثة» يكمن في اتخاذها الخطوة الأولى وهي هدم القديم، ثم تولي بعض فرسانها تشكيل اتجاهات جديدة بديلة كـ «السيرالية» و «الكولاج». فضلاً عن استلهاها المستمر في اتجاهات مثل: «البوب آرت» و «الفن الحركي» و «فن تجميع الأشياء الجاهزة»، ثم أحياءها برمتها في ثوب جديد فيما يسمى الآن «آرت بوفيرا» أو «الفن الفقير» بأقسامه العديدة. ذلك النشاط الإبداعي الذي ظهر في الستينيات وستعرض ر

الأشكال الفنية الجديدة. بدأت في مدينة زيورخ بسويسرا في منتصف فبراير، وما لبثت أن تردد صداها في نيويورك.. برلين.. برشلونه.. هانوفر.. باريس.. روما.. كولونيا.. بودابست.. طوكيو. كل الفنانين الشبان في تلك البلدان، عقدوا الحزم على وضع بداية جديدة لـ «الفن». ومن المدهش أن تلك الحركة تحفظ بحريتها حتى يومنا هذا، وما زالت تتوالد وتتم وتنتشر وتوسع تأثيرها وتزداد إشعاعها. كل ما نراه من غرائب الأساليب الفنية يمكن أرجاعه إلى «حركة الدادا»، التي جمعت بين «الفن واللان» و «الجمال والتبجح» و «القيم الأخلاقية واللاأخلاقية». لم تكن «حركة» بل هي التقليدي، بل إعصاراً اجتاح دنيا الفنون كما اجتاحت الحرب دنيا الأمم^(٢٧). لكنها تركت خلفها يوماً جديداً، تحطمت فيه القيود وانطلقت الطاقات المخزونة كأنها عصفرت خرج من القفص. انتزاع الغطاء عن أشكال مبتكرة وأنواع من الخلفات غير التقليدية.

«حركة الدادا» ليست لها شخصية موحدة محددة المعالم. لكنها مع ذلك ذات شكل أخلاقي مبادئ وخلقا، أسفر عن أساليب تعبيرية غير متوقعة، اختلفت باختلاف البلدان والشعوب. إيجابية تنارة وسلية أخرى. فنية حيناً وضد الفن أحياناً. أخلاقية للغاية أو لا أخلاقية بالمرّة. حتى كلمة «حدا» التي أطلقوها على حركتهم اختاروها خط عشواء من القماموس. لم يقلقهم أن يكون معناها «الحصان الخشبي المزخرف» أو «مربية الأطفال». وأطلقوا على مقرهم اسم «كباريه فولتير» وسخرياً واستهزاء بالأفكار والقيم التقليدية. وسرعان ما استقطبوا الموسيقيين والرسميين والنحاتين، فضم معرضهم الأول أعمال كل من بيكاسو وكاندنسكي وبول كلي وماكس إرنست وهانز أرب، وجميعهم أصبحوا من قادة «الحداثة» فيما بعد. فـ «إرنست» هو طليعة السيررياليين الذين صوروا الأحلام والكوابيس وهم آراء ونظريات. ولما

الإبداع ينتاجها بما يحويه من فروع ولواحق وأزهار وثمار ، وارتباط هذا التاج بالجزور العميقة . أي الواقع وخبرات الفنان . بالرغم من أنه لا يشبه الجذور من حيث الشكل الظاهري . وليس هناك من يستطيع أن يفصل نفسه عن واقعته وبلده وعجمته بما فيه من شكوك وقلق^(٢٠) . لكن الوجه العام للحداثة في الفنون الجميلة يتضمن إقبالها على « مدركات العصر الحديث » عن الفضاء والمادة والطاقة . . أسوة بالفنون الأخرى من أدب وشعر وموسيقى . فقد طرأت أبعاد جديدة للعقل والاحساس وتغيرت المعايير . أن لوحة « جيرنيكا » لبيكاسو - بثورتها وقوتها الأسلوبية - أنهت أي مناقشة حول امكان التحلل بلغة الرسم التقليدية . انها معلم على طريق الفن ونقطة اللاعودة الى الأساليب الكلاسيكية . آية حداثتها توافقها مع المدركات المعاصرة ايدولوجيا وأسلوباً ، أما إبداع « الدادا » فكان ثورة حرة لا منطقية واحتجاجاً على العقل المفكر والقيم التي تسببت في اشعال الحرب العالمية الأولى . كانت حركة سياسية في المقام الأول . آمنت بقوانين الصدفة وتركتها تعيد الحلق التلقائي من أجل تحرير الفن . ظهرت قبلها المحاولات لمحو التراث مع الثقافة الحديثة مثل « الوحشية » التي كانت مجرد غرد وليست مدرسة . والتكعيبية والمستقبلية والتعبيرية والتشكيلية الجديدة والتجريدية والبنائية . . ثم « الدادا » فالسيرالية . كل الأساليب التي جاءت بعد ذلك كانت استطراداً وتتابع رؤية . كان الفن ينتقل من مرحلة استكشاف الاحساس الى مرحلة استكشاف الوعي . فبعد أن كانت مهمة الفنان هي استكشاف الاحساس كها هو الحال مع « التأثيريين » ، أصبح يستكشف الوعي الانساني ويسهم في تشكيل العالم وقسالة « بيكاسو » كلمته الشهيرة : الفن سلاح .

.. فتح « سيزان » الباب وكان البدائي في طريق

بعد قليل . الا أن « الدادا » كانت حركة عالمية منذ البداية ، تسعى الى « الحداثة » دون أن تطرح بدائل للأساليب الفنية القائمة حينذاك . نشر أحد قادتها ملخصاً لأهدافها سنة ١٩٢٠ جاء فيه : « لا ينبغي للفن أن يكون واقعياً أو مثالياً ، ولكن يتحتم أن يكون صادقاً . بمعنى أن أي عاكسة للطبيعة - مهما كانت خفية - عرض افتراء . هكذا تكون « الدادا » دافعاً جديداً للحقيقة . عصلة القوى لجميع الطاقات المجردة ، وتنبع دائم للحركة الفنية العالية »^(٢١) . الواقع أن مؤسسي « الدادا » الذين التقوا في « كاريه فولتير » لم يبنوا أهدافهم . مجرد أفكار بسيطة عن « الحداثة » تجمعت في رؤى صمهم ، هي التي أطلقوا عليها اسم « دادا » .

أهم معالم « الحداثة » في القرن العشرين هي طبيعة العلاقة بين الفنان والواقع المرئي . تغير الموقف على يد « بول سيزان » من السلبية والدهشة والاعجاب بمظاهر الحياة ، الى « موقف جنلي » يتعامل مع البيئة مؤكداً ذات الفنان ومتخللاً الصور وحياة الانسان . عبر الرسام الفرنسي : هنري ماتيس (١٨٦٩-١٩٥٤) عن هذه النظرة بقوله : « ان التعبير ليس في الحركات العنيفة أو فياضاً يضيء الوجه المرسوم من عواطف ، لكنه في التنظيم العام للوحة من حيث وضع الأشخاص والفراغات المحيطة بهم . فكل عنصر له دوره في التعبير » . هكذا لم يعد فن الرسم الملون عملية ميكانيكية (يعكس مظهر المراتب) ، بل يعكس « حالة » الانسان في ظروف معينة ويرتبط بتاريخ الفنان . أصبحت « حرية التعبير عن الموضوع » هي الهدف العام للفن في هذا القرن^(٢٢) . لكن ينبغي أن نتحفظ بحد هذه العبارة ونشير الى أنها لا تلغي « الموضوع » ولا تعني العيشة الفردية . فهناك « ضوابط » أكدها فيلسوف التجريدية : بول كلي ، فيا المحنا اليه من تشبيهه الفنان بجذع الشجرة ، ومقابلة

Herbert Read : Concise History of Modern Painting, P. 117.

H. Read : Contemporary Art. Skirn, 1964.

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠) المرجع السابق .



(٣) الرسم الحديث في الأردن - ١٩٨٤
 (من بينالي القاهرة الأول للفنون العربية) .



(٤) الرسم المجهول في الكويت - ١٩٨٤
(من بينالي القاهرة الأول للفنون العربية)

إنسان القرن العشرين السكولوجية والفسيولوجية ، التي اختلفت عن نظيرتها في القرن السابق .

.. انها « الباوهاوس » - أي مدرسة العمارة والتصميم الفني . أقامها المهندس الشاب : فالتر جروبيوس (المولود ١٨٨٣) . قامها بعد الحرب والدمار بسلام واحد لتفرض بذور الأمل والتفاؤل و « المثل العليا الحديثة » . استدعى للتدريس فيها نخبة من طليعة الفنانين آنذاك ، بينهم « كاندينسكي » و « كلي » اللذين أشرنا الى دورهما في حركة « الدادا » الثورية ، بالرغم من أنها سامين ، بينما « الباوهاوس » مؤسسة للعمارة والتصميم الصناعي والأدوات الفنية . ذلك لأن الهدف كان « تدريب جيل من المعماريين والمصممين ، المتفهمين لمطالب العصر يلون احتياجاته المادية .. والروحية أيضاً » ، معتمدين على معطياته التكنيكية والعلمية والثقافية والاستيطانية . يرمون الى « تحديث » العمارة والسلع الصناعية وما يتعلق بالفنون التطبيقية . تقول « جيليان نايلور » في كتابها عن « الباوهاوس » : انها معلم في تاريخ جهود الانسان مع بيئته الجديدة التي صنعها يديه^(٣١) .

وأوضح « جروبيوس » في فصل الافتتاح دور « الباوهاوس » وأبعاد عملية « التحديث » بقوله : « لا يمكن أن يتشرب وينمو مضمون الثقافة أسرع من المجتمع الذي يسعى الى خدمته » . أي ينبغي لـ « الحداثة » أن تلبي احتياجات حقيقية للناس وتحل مشاكلهم المادية والروحية بالامكانيات المتاحة في الواقع الراهن . فعمل بذلك على « خلق أشكال نموذجية » تحقق هذه الأهداف وانتقل بالحيلة من ثقافة القرن التاسع عشر الى ثقافة القرن العشرين - وهذا بالضبط هو مفهوم الحداثة : الانتقال بأسلوب الحيلة من عصر سابق الى عصر لاحق . وحين استعان برسامين طليعيين أمثال « كاندينسكي » و « كلي » و « صوهولي ناجي » (١٨٩٥/١٩٤٦) استهدف استنفاً « العملية الابداعية » . فكانت مهمتهم : تشكيل ما يتعلق

الحداثة .. كما قال في إحدى رسائله . أسقط « المحاكاة » التقريرية و ألحس مكان الاحساس اللوعي والواقعية . وارتفعت التكنيكية بهذا المفهوم « فعبثت عن الفراغ والزمن وأدخلت على الفن الجميل مدرك « البعد الرابع » المنسجم مع العصر والثقافة الحديثة . وبدأ مشوار الاهتمام بـ « الشكل والأسلوب وإجمال الشيء المرئي المذكور بالخواص » . وأدى اختفاء الشيء (object) من اللوحة المرسومة الى اختفاء الموضوع (subject) ساحياً معه المضمون الاجتماعي وللعني والمغزى^(٣٢) . لقد فقد الفنان الثقة بالمظهر الخارجي للمشريات ، وانفتح الستار عن « كاندينسكي » الذي خلع جلوره من الطبيعة بدهوى مناهضتها للقيم الروحية . أما « كلي » فالتصمت لوجاته بحركة إفعالية وعلاقات سيكولوجية ، أسفرت عن عناصر (motifs) دقيقة ورومانسية ، تتوافق مع قوله بأن العمل الفني هو نقل بعض الصور المخزنة . وأصبح مفهوماً أن « الواقع » موجود داخل الإنسان وليس خارجه . وقال : بيت موندريان (١٨٧٢-١٩٤٤) الذي وصل بالتجريد الى منتهاه : « ان الفن ينتج من احساسنا بأننا أحياء » .



في ابريل سنة ١٩١٩ ، انبثقت في مدينة صغيرة اسمها « فيمار » في ألمانيا ، مؤسسة كتب لها أن تضع بصمة « الحداثة » على القرن العشرين . على العمارة وكل ما يتصل بالتصميم من فنون تطبيقية وصناعية ، كالأثاث وأدوات الاستخدام اليومي من أكراب وملاعق ووحداث وإضاءة وإعلانات وفيكورات .. الخ ، بهدف تحقيق « الجمال والفائدة » على أعل المستويات في تلك الميادين . استطراداً للفكرة القديمة التي اكتشفها الانسان من ملايين السنين . فكرة انسجام « الشكل » مع « الوظيفة » . ثم عملت تلك المؤسسة على عدم حرمان « السلع » الفنية من لذة الجمال الطلق الكامن في القرن الجميلة من لوحات رناتيل ، بهدف سد احتياجات

انتشرت رسالة « الباهواوس » في اتجاه العالم لتصبح ركناً رئيساً من ثقافة القرن العشرين .



« الحداثة » ليست صفة دائمة للشيء . فالحدث اليوم . . قديم جداً . وليس كل « جديد » في الفن يعني « الحداثة » . لأنه لا يلبي بالضرورة احتياجاً فكرياً أو روحياً أو مادياً . كما أنها ليست مفاضلة بين مدرسة فنية وأخرى ، كأن نقول : التجريدية حديثة والواقعية قديمة ، ما دنا نستهدف الإنسان وليس السلعة . كما جاء في كلمات « موهولي-ناجي » . فلهدف دائماً هو الارتقاء الثقافي إلى مستوى مدرجات العصر . هكذا ينبغي لـ « الحداثة » أن تبكر من الأساليب ، ما يساعد الإنسان على التكيف مع الظروف المستحثة . هكذا كانت « التكبكية » و « المستقبالية » و « التجريدية » . ضروب من « الحداثة » كما أشرنا . اتفقت مع المدرجات العلمية في مطلع القرن . وكانت تلبي الاحتياج الفكري والوجداني للإنسان ، حين تغير تذوقه للحياة وأدراكه لها .

نفس الشيء حدث حين صعد أول إنسان إلى القمر . فقد قال أحد الفنانين المعاصرين « أننا نرسم الوجه الآخر للقمر » . أي يرسمون أشياء يدركونها بالفكر والخيال وليس بالحواس الخمس المعتادة . وربما قصدت للؤرخة « دور أشتون » نفس الفكرة في كتابها : « الفن الأمريكي منذ ١٩٤٥ » ، حين قالت « إن السمات الأساسية للعصر الحديث هي الاحساس . بسرعة الزمن ، والتغيرات للضاحكة المتلاحقة نتيجة استخدام التكنولوجيا للتقنية . تغيرات لا تقتصر على الحياة اليومية العملية للناس في جميع أنحاء العالم ، بل تمتد لها إلى النظم السياسية التي تتأثر بصناعة أسلحة مدمرة ذات مظهر بريء للغاية . . كشرائط الكاسيت وما حدث في إيران » . ثم تشير الكاتبة الأمريكية إلى الجوانب التي استحدثها الفن لمواجهة تلك الظواهر التي طرأت على الثقافة الإنسانية ، فتستورد : « لقد ثار الفن

بالقصور واللون والفراغ في أعمال « الباهواوس » فانتسجت تلك الأعمال بـ « الحداثة » - بمعنى مناسبتها للاحتياجات الاجتماعية : الفكرية والمادية والروحية ، التي أشرنا إليها عند « كليمنت جرينبرج » في مطلع حديثنا .

وربما كانت المناسبة مواتية لتوضيح أن اللوحات التجريدية والتماثيل التي تغمر المعارض ، لا تدخل نطاق الفنون الجميلة المنزهة عن الفرض المادي النفقي ، لأنها تعتبر تصميمات مبدئية للتنفيذ في أعمال الديكور وطباعة المنسوجات وفنون الإعلان . . الخ . ولعلنا نلمس صدق هذا المنحى إذا تأملنا كلمات حفل افتتاح « الباهواوس » التي تقول : « دهونا نخلق طائفة من الحرفيين ، دون تفرقة طبقية تقيم حاجزاً متغظراً بينهم وبين الفنانين دعونا نضم العمارة والنحت والرسم الملون إلى وحدة واحدة ، وقد تسمّى في يوم ما بين أيدي مليون عامل نحو السماء ، كأنها رمز بللوري لعهد جديد .

ربطت « الباهواوس » بإحكام بين الفن والتكنولوجيا واستحدثت طرقاً لأعضاء مسحة إنسانية على الانتاج الصناعي . وأكلت على لسان « موهولي ناجي » : أن الهدف هو الإنسان وليس السلعة . هذا هو ممكن « الحداثة » فيها وهديتها للقرن العشرين في كل من « العمارة » و « التصميم » ، اللذين حولتهما إلى فنون اجتماعية . وبينما كان « فالتر جروبيوس » وصحبه يؤدون رسالتهم في ألمانيا ، كان الروسي : لازار ليسيتزكي (١٨٩٠-١٩٤١) ، يقوم بنفس العمل ويحقق نفس المبادئ في الاتحاد السوفيتي . بدأ في مدينة « فابيتسك » ثم في « موسكو » العاصمة . وأرسلته بلاده سنة ١٩٢١ للاتصال بالفنانين الألمان . أما أمريكا فقد وصلتها الرسالة سنة ١٩٣٨ ، حين تزح إليها « موهولي-ناجي » ليؤسس « الباهواوس الجديدة » في مدينة « شيكاغو » ويديرها^(٣٦) ، قبل أن يلحق به لفييف من القادة والحواريين الألمان من بينهم « جروبيوس » نفسه ، بعد أن اشتدت مطاردة النازي لهم . من ثم



(٥) التعت الحديث في البحرين - ١٩٨١

(من بيتي القاهرة الأود للفنون العربية)



(٦) التحت الملوحت في فرنسا - ١٩٨٥
(من بينالي الاسكتندرية لدول البحر الأبيض المتوسط)

ومختلف السلع الاستهلاكية وفترينات المحلات التجارية . . الخ .

مولن « الحداثة » هنا يرجع الى توافقه مع ذبوع الأفكار الديمقراطية ولزدياد الاهتمام بالشعوب . ويعتبر « السور رياليزم » استطراداً وتطويراً وارتقاءً بذلك الأسلوب . انتشر بين الجماهير الأمريكية لأنه التقط الصفات المميزة لبيئة المصنعة . رسموا اعلانات النيون والسيارات المهجورة والواجهات وما الى ذلك من العناصر الملغوفة ، مع ادخال صور الأشخاص على كثير من تكويناتهم . أحربوا في ابداعاتهم عن فقدان الثقة بـ « الفردية » وتجنبوا « التعبير الذاتي » ، وحاولوا رسم لوحات ذات تعبير عايد ، وعلى درجة عالية من المهارة والتقنية تفوق الفوتوغرافيا في أمانتها ودقتها . واتجهوا بمضامينهم الى نقد الحياة الأمريكية من خلال الصورة والتمثال ، عن طريق التقاط زوايا وموضوعات تتم عن وجهة نظرهم الفلسفية .

الا أن « الأسلوب الفني » قد يتسم بالـ « حداثة » في مجتمع معين ، ويكون هو نفسه مجرد « بدعة » بلا جدوى في مجتمع آخر مختلف الثقافة بما تتضمنه من عادات وتقاليد ومعتقدات ولغة وتراث . لأن هذه الأبعاد تفرض ضوابط ومعايير لما يتطلبه المجتمع من « حداثة » ، تساعد على نموه وتطوره حتى يتكيف مع البيئة الحضارية الجديدة . لذلك يرتبط الابداع الفني بالتراث المحلي والا أصبح عبثاً . فما جدوى أن يشغل واحد من قبائل « الايو » أو « اليوروبا » في اواسط غرب أفريقيا بالبحوث الرياضية البحتة ، بينما لا يأمن قومه على أنفسهم من الضواري والأفاعي والحشرات ، فضلاً عن انقراضهم الى لغة مكتوبة ؟ يقول « ريجنالد فولدي » : توجد على أرضنا مجتمعات في مستوى العصر الاسفني ، تعيش تكنولوجيا زراعة العصر الحجري ، بينما مجتمعات أخرى تستخدم الحاسبات الالكترونية

على هذا الاحساس المخلق بسرعة الزمن ، بأن عاوده الحنين القوي للزمن الماضي ، ذلك الزمن الذي كانت خطاه تقارب نبض الانسان^(٣٢) وربما تفسر هذه الكلمات ظهور نزعة « السور رياليزم » في الولايات المتحدة . تلك المدرسة التي أسفرت عن لوحات وتماثيل ملونة أكثر واقعية من الواقع ، وتستند في نفس الوقت الى فلسفة وفكر حديث . ولقد وضع « ادوارد لوسي - سميت » أول كتاب عن هذا الأسلوب الذي ظهر في السبعينيات ، أشار فيه الى « افتقاره الواضح لكل القوميات والحيرت التي علمنا الفن الحديث أن نكن لها تقديرًا عاليًا . الا أنه يصبح منطقيًا اذا تأملناه على هامش عريض ، يتضمن الصور والتماثيل قبل ١٩٠٠ . لكن نظراً لتحد قضية « الحداثة » ، قد يكون من الافضل أن نقارنه بالسلف المباشر في الفن الأمريكي . ويستطرد الكاتب : « هذا السلف الذي ظهر في مطلع الستينيات وأواسطها هو الـ « بوب - آرت » . كان محاولة نصف جادة ونصف ساخرة لخلق فن رفيع ، مستخلص من القيم والمواقف وخصائص الثقافة الجماهيرية في المجتمع الاستهلاكي^(٣٣) . ومن الجدير بالتنويه أن الـ « بوب - آرت » الذي أشار اليه الكاتب كان رداً على الاسفاف التجريدي العيثي الذي أصاب الحركة الفنية في الستينيات ، بعد شيوخ أسلوب : جاكسون يولوك (١٩١٢/١٩٥٦) المسمى « الفن الحركي » . كان يلقي بلوحاته المعلقة على الأرض ويلبس حولها راقصاً يسكب الألوان كبنيا أفق من الألوان والأصماغ . يصعد على السلم المزدوج أحياناً ليلقي بالوانه من أعلى . ثار « البوب - آرت » على هذه الأساليب الذاتية البحتة وهبط بالنن من البرج الماخي الى الجماهير . وكلمة « بوب » اختصار لكلمتي Popular culture الانجليزية ، بمعنى « الثقافة الشعبية أو الجماهيرية » أو « ثقافة رجل الشارع » . وقد اقتبس فنانون هذه المدرسة عناصرهم المرسومة ، من اعلانات الطريق والمعلبات

Dore Ashton : American Art Since 1945-1982-New York.
Edward Lucie-Smith : Super Realism, 1979-New York.

(٣٢)

(٣٣)

ثمة زاوية أخرى يطرحها « إيرد جينكز » في كتابه « الفن والحياة » . يرى أن « الفعل الجمالي : ابتداءً وتلوفاً ، ليس سلوكاً متزلاً عن البيئة ، بل يشكل جانباً من الاستجابة لعناصرها والتكيف معها . فـ « الفعل الجمالي » ليس ترفاً ، بل هو من صلب السلوك الانساني اليومي . لأن الانسان يمارس عملية تكيف مستمرة مع البيئة . و « الحداثة » من هذه الزاوية « أسلوب للتكيف مع البيئة المتغيرة » . ويوضح « جينكز » : أن الانسان أثناء انشاء انطلاقه في عملية التكيف ، يعتمد على التجربة السواسية ، بعكس الكائنات الدنيئة التي تسلك طريق الفعل الشرطي . يعتمد على الذكاء في اكمال رد الفعل الغريزي ، وعلى التأمل في اكمال التلقائية المباشرة . و « الذكاء والتأمل » هما العاصمان المؤديان الى « الحداثة » من أجل التكيف^(٣٥) .

هذا التفسير للعملية الابداعية يلقي ضوءاً كاشفاً على مواصفات « الحداثة » . ثم يعني في تحليل التجربة الانسانية وعلاقتها بالفن ، فيشير الى ان الجهاز العصبي هو المسئول عن « التجربة » . فالانسان يكتسب عن طريقه ادراكاً أوسع للبيئة وقدرة على تمييزها . الأمر الذي يمكنه من اعداد تنوعات من « الاستجابات الملائمة » . فالتجربة هي الوسيلة لابتكار أدوات حل « مشكلة تكيفية » . فهي - أي التجربة - تحتوي على الاحاسيس والادراكات والمواقف الألكار والرغبات والنوايا ، وتتخذ شكلاً ابداعياً على هيئة أدوات وآلات ونظريات وأشعار وصور وواجبات طبيعية أو ذهنية وروحية ، من أجل تعميق « التجارب » بهدف المزيد من التكيف . ويخلص المؤلف من تحليله الى ان هذه « الأدوات » التي تسفر عنها التجربة الانسانية تصدرها اللغة والفن . فالانسان يبدع الفن كما يبدع العلم والاخلاق والنظم والمتجات . . حتى يستطيع أن يكمل تعرفه على العالم .



لمحيط سفن الفضاء على الاجرام السماوية . الأمر الذي يخلق تناقضاً فكرياً يزداد سرعة ومأساوية .

من هنا نرى أن ما يعتبر « حداثة » في فنون مجتمع صناعي متقدم ، لا يعتبر كذلك في فنون للجماعات النامية نظراً لاختلاف نوعية الثقافة . وما نراه من نزعة بعض فناني العالم الثالث الى تقليد فنون الغرب بدعوى الحداثة ، قد يلعب دوراً عكسياً لأنه لا يلبي الاحتياجات المحلية الوجدانية والفكرية ، بل يشبع « الاكتئاب الاجتماعي » الذي تحدث عنه « ريجنالد ج . فولدي » .

ولعل كلمات الفنان المغربي الأصيل الفرنسي الاقامة : فيكتور فازاريلي (المولود ١٩٠٨) توضح المفهوم العملي لـ « الحداثة » . استعرض الحاجة الى تحديد مفاهيم للفن والقنان ووضع مجموعة جديدة من القيم . ثم شرح العلاقة العضوية بين العلم والفن و « أن المختربين والكيميائيين وخبراء التكنولوجيا . . والمصانع والمعامل والبنائين وأصحاب الحرف ، ينبغي أن يظلوا على علاقة مستمرة » . وأعلن « أننا في فجر أسلوب جديد » . أي أننا بصدد أسلوب في حديث يناسب الظروف الثقافية والحضارية الجديدة . ويذكر « ان الجمال لم يعد مقصوراً على فئات تتميز بخصن اللوق باعتباره ثمرة من ثمرات الثقافة . لأن الجمال احساس فطري يولد في الانسان . وهو ككل الاعاجيب الثابتة في الطبيعة . كالبللورات والأزهار والقراش والانسان نفسه » . ثم يحدد وظيفة الفنان في العصر الحديث بأن « عليه أن يتيح الفرصة لمشاهد وشعب أبصارنا من خلال البيئة المصنوعة التي ابتكرها الانسان لتحل محل الطبيعة » . ثم يؤكد ضرورة تنوع القيم الجمالية المستحدثة بتنوع الشعوب واختلاف تراثها فيقول : « انني أحلم بالاستمرار الجليدي بين القيم الجسمالية وريثناشمارها العالمي وتنوعها بين الشعوب »^(٣٦) . - أي أنه يرفض فكرة أن ينقل فنانون شعب ما ، مستحدثات فناني شعب آخر .

(٣٤) مجلة « العلم والجمع » - العدد ٤٠ - ١٩٨٠ - تصدر عن « لونسكو » .

(٣٥) إيرد جينكز : الفن والحياة - ١٩٦٣ .



(٧) التحت الحفريت في يوغسلافيا - ١٩٨٥ .
(من ميثاق لاسكندرية لقول البحر الأبيض المتوسط) .



(٨) الرسم الحديث في تركيا - ١٩٨٥
(من بيتالي الاستكشافية لدول البحر الأبيض المتوسط)

المؤرخون خلال آلاف السنين الماضية . وهي في مفهوم « ايردل جنكتز » ، تنوعات من الحلول لتكيف الانسان مع البيئة المتجددة . انها « أدوات » للتكيف الوجداني والفكري . . نتيجة لـ « تجارب » الفنانين مع المركات الحضارية الحديثة .

في مطلع الستينيات شمت جماعة من فناني أوروبا وأمريكا هذه الدوامة الفنية التي لا تثبت على حال ، فالحقوا بكل القيم الفنية المتعارف عليها - قديمها وحديثها - خلف ظهورهم . وقدموا أعمالاً ابداعية أشد غرابة وأكثر شلوذاً بل جنوباً عما فعله أسلافهم « الداديون » قبلهم بأربعين عاماً . حتى أن أحدهم - وهو « والتر دوماريا » . . من نيويورك - أقام معرضاً في مدينة « ميونخ » الألمانية في قاعة « هير فريدريك » من ٢٨ سبتمبر إلى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٨ . قدم لزواره خلال مدة المعرض كمية من « النفايات » بعنوان (٥٠ متراً مكعباً » ١٦٠٠ قلماً مكعباً » من الفانوسات المستوية)^(٣٦) . أدخلت هذه « البدع » التشكيلية توغل في الإسفاف حتى وجدت طريقها سنة ١٩٧٢ الى أكبر وأهرق للمعارض الفنية الدولية في العالم وهو « بينالي فينيسيا » . ذلك المعرض الذي يقام كل سنتين في المدينة الإيطالية المأمنة ، تتنافس فيه جميع دول العالم شرقاً وغرباً ، بما فيها الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . بلغت تلك « البدع » حداً من الإسفاف والتفني دفع شباب أوروبا الى الثورة وتحطيم واجهة البينالي الأمر الذي دفع المسؤولين الى إيقاف « الدورة » والامتناع عن إقامة الدورة التالية سنة ١٩٧٤ . أصبح هذا النوع من النشاط الابداعي نادراً في أوروبا وأمريكا بعد ذلك ، خاصة بعد ظهور أساليب غاية في « الحدائثة » ، نعتي فنون « الفيديو » و « الكومبيوتر » و « المولودجراني » ، التي أقامت فرنسا عرضاً شائقاً له سنة ١٩٨٤ في القاهرة ، ويعتمد في تشكيله على أشعة الليزر ، وهي من أحدث المكتسبات العلمية في القرن العشرين . أما البدع التي أشرنا اليها فلم تتخذ اسماً الى سنة ١٩٦٩ ،

هكذا رأى « هـ . و . جانتسون » أن العصر الحديث بدأ مع فجر القرن التاسع عشر . ولاحظ صعوبة رسده وتأريخه وتحليله ، لانه حقبة زمنية ما زالت تجهزنا في تيارها وتلاطمنا أمواجها ونشغلنا تضاميلها عن « صومياتها ومتغيراتها عن ثوابتها . ورأى « هيرت ريد » أن الحدائثة تطورت في الأسلوب . وعليه فإن كل ما يعرف باسم « المدارس الفنية الحديثة » ، ليس سوى ابتكار أساليب فنية تتسجم مع التغيرات الإدراكية للكون والحياة والبيئة . تحاول أن توازن الحضارة للمادية في عصر الفضاء والكومبيوتر والتكنولوجيا المتقدمة . تحاول الارتقاء بالنفن الى مستوى الحدائثة العلمية . والا أصبحت الثقافة حرجاء خاوية من القيم الروحية والوجدانية . ان الكشف العلمية والجغرافية والتكنولوجية التي تخضع عنها عصر النهضة الأوروبية ، بالإضافة الى الفلق السياسي والاقتصادي ، أسفرت عن « الماتريزم » ، التي كانت أول انقلابات من نقص الأكاديمية الصارمة . وحين بدأ العصر الحديث - كما أشار جانتسون - مع الثورات الصناعية والسياسية ، ازدادت وتسارعت وتواتت محاولات « الحدائثة » مع تقدم الأعرام حتى أن المؤرخ « هيرت ريد » تبين استحالة متابعتها . اتخذت أحياناً شكل الانجماحات المقتنة ذات البرامج والأهداف ، وظهرت أحياناً أخرى على هيئة تفجرات عصية انفعالية كـ « الوحشية » في خريف ١٩٥٠ . . لو « الدادا » في صيف ١٩١٦ . لا يكاد الفنان يستعملون أسلوباً حتى يتمخض البيئة من حوصم من مدركتك جتيبة لجمل الحديث قديماً وهو لم يستقر بعد . وربما تنسر هذه الظاهرة التقلب للذهل الذي مارسه « بابلويكاسو » خلال حياته الفنية الحديثة . وتلقى ضربة على كلمات المؤرخ الذي قال : لقد أصبح كل فنان مدرسة قائمة بذاتها في النصف الثاني من هذا القرن . والواقع أن عدد الانجماحات الفنية المستجدة خلال العقود الثلاثة التي انقضت من النصف الثاني من القرن ، تفوق في عددها وتنوعها ما رصده

تأثير البنج بعد العمليات الجراحية ، أو للمدمنين لأنواع
القوية من المخدرات .



كل العالم : للتقدم والمتخلف ، يمر بمرحلة انتقال
كبرى لم يسبق لها مثيل . فحشد المعارف الجديدة يفوق
كثيراً درجة التغير الثقافي الذي يواكبه . لم يتحول بعد
المدرسات الجديدة إلى سلوك عوام وتصيح من تعاليد
الحياة اليومية . ومن الجدير بالتنبيه أن هذا « الطابع
الانتقالي » هو سمة الجنس البشري منذ دأب على هذا
الكوكب . فهو في حركة تقدم مستمرة لا تتوقف .
تطبيء أحياناً فتتخذ طابع الاستقرار . وقد وصف :
شارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) حالة الانتقال هذه منذ
قرن من الزمان بقوله : « حقاً لقد راحت التقاليد
العظيمة بينما لم تشكل بعد التقاليد الجديدة » (٣٧) .
واستطرد شاعر فرنسا الذي كان نافذاً أيضاً ، قائلاً :
« وقبل أن تتبين الجانب البطلاني في الحياة الجديدة
(يقصد الحياة سنة ١٨٤٦) ، وقبل أن نستخلص أمثلة
على أن عصرنا لا يقل خصوبة في سمو أهدافه عن
العصور السابقة ، ينبغي أن نؤكد أنه طالما أن جميع
القرون وجميع الشعوب كان لها مجالها الخاص ، فلا ريب
في أن لنا أيضاً مجالنا الخاص » . كما لاحظ صاحب
« ديوان ازهار الشر » : « أن جميع أشكال الجمال تتضمن
عنصراً دائماً وعنصراً انتقالياً - عنصراً مطلقاً وآخر
خاصاً » . ثم شرح الشخصية الجمالية المحلية بقوله :
« حقاً لا يوجد جمال مطلق وخالد . لكننا نقصد بذلك
شيئاً كالزيد .. نستخلصه من سطح عام لمختلف أنواع
الجمال . أما العنصر الخاص في كل ظاهرة جمالية فمرده
إلى المشاعر . وما دامت لنا مشاعرنا الخاصة فلنا مجالنا
الخاص » .

.. وإذا كانت « الحداثة في الفن » أسلوباً وشكلاً
ونوعاً جديداً من الجمال .. فهي ليست مطلقة . إنما
تختلف باختلاف الأمم .. وباختلاف الزمان
والمكان .. والثقافة والتراث ..

حين أطلق عليها النقاد الإيطالي « جرماسنو
سيميلات » اسم : « آرت بوفيرا » .. أي « الفن
الغير » . إلا أن كلمة « بوفيرا » تتضمن مفهوم البساطة
والسطحية والتفاهة والتدني . وقد ظهرت « فلور » هذا
النشاط الإبداعي في القاهرة سنة ١٩٨٢ ، حين عرض
فنان أسباني شاب مجموعة من الحرق المبقعة بالزوان
متناثرة مع حطام أقباص الجريد غير النظيفة ، التي علق
بعضها بخيوط النيلون في سقف قاعة العرض . أما في
عام ١٩٨٤ فقد أقامت مجموعة من فناني برلين الغربية
عرضاً في قاعة كلية الفنون الجميلة بالقاهرة . ثلاثون
فناناً وفنانة قدموا متنوعات من الرسم للون والحفر
والنحت . واحد فقط من بينهم ألقى بعض الرمال على
أرض القاعة (متر مربع تقريباً) ، وأحاطها بأحجار
جمعها من الطريق .. ووضع في وسطها نباتات جلالة
ظل يربو بالزمان طوال فترة الافتتاح . وفي « بينالي
الاسكندرية الخامس عشر للون حوض البحر الأبيض
المتوسط » (١٩٨٤/١٩٨٥) ، ظهر الآرت بوفيرا - كما
أشرنا - واستطاع أن يظفر بالجائزة الأولى « نحت » ،
على تشكيل يتألف من مساحة ٧×٦ متراً مربعاً مفروضة
بمجروش الرخام ، ينبثق منها بارتفاع متر واحد خمسة
أسياخ حديدية تتصل أطرافها العليا بخيوط النايلون .

.. لكن يبدو أن الـ « آرت بوفيرا » يتمخض عن
مجموعة من الأساليب الفنية التي تناسب التغيرات
الأوروبية الثقافية . فهو يجمع في سلته مدارس فرعية
مثل : « الفن المستحيل » .. « الفن الإدراكي » ..
« الفن الفعلي » .. « الفن الأرضي » .. « فن
الحادث » .. الخ . لكن هناك العديد من الممارسات
الإبداعية التي لم تبلور بعد ولم تصادف ناقداً يسميها .
تتشرك جميعاً في أنها « لاشكلية » و « لا أخلاقية »
ومعقدة في « الفردية » . ولو راجعنا تعليقات هؤلاء
الفنانين على ما ينتجون من أعمال ، لتبيننا علاقات وثيقة
بين كلماتهم وما يرد على السنة المرصى الواقعين تحت



(٢٤) وأرت بوليفيا ، أو تالين القليل ، كما عرفت فيرمس - ١٩٨٥
 من التورمى أن هذا المبدأ ، ولهم يكون من شرط من التورمى القليل على الأرض ، وكذا من
 الحبل السيلك في الوسط ، وسطاء ، ولعلهم يحطون من برأة رديئة على لوح أسود في الفراجه ، وبعض
 الأسطرناك الحديثة ، وأخيه العرب .
 (من سجال الاكاديمية لادول البحر الأبيض المتوسط)

الاصلاحيون في القرن ١٩ والاشكالية الثقافية :

كان فكر القرن التاسع عشر في اقلية اجتماعيا سياسيا^(٨) يدعو الى الاصلاح الديني والى تنقية الاسلام مما علق به من خرافات والى التحرر من الاستبداد والى مقولومة الاستعمار والسيطرة الاوربية على البلاد الاسلامية وكان ، فيها يخص هذه النقطة ، قد هز كثيرا من المسلمين هذا عتيفا^(٩) . وكان في اقله يتم بمعاينة الفكر الغربي معانقة تامة^(١٠) ويقدم كتاب البيروقراطي ، الذي درس فيه مؤلفه الفكر العربي في عصر النهضة دراسة شاملة ، مثالا لذلك ، حقا اهتم الساسة في مصر بارسال البعثات ولكنها كانت بعثات تمنح ادخال المعلم العادي الى مصر^(١١) وحتى رفاعة الطهطاوي حين كتب معجبا بالغرب لم يمازف بالدعوة الى ادخال العلوم الانسانية لكنه اكتفى بالحديث عن المرأة ونظام المجتمع الفرنسي وعن فكرة الوطن^(١٢) الخ وهي افكار متصلة كل الاتصال بالتنظيم الاجتماعي ، لقد رأى مفكرو القرن التاسع عشر ان للنهضة اسبابا سياسية واجتماعية فحسوا حياتهم في تبينها والدعوة الى اصلاح الحالة في شأنها .

هل كانت حملة نابليون واحتلاله لمصر سببا في هذه النهضة ؟

هل كانت ظروف لبنان سببا فيها ؟
تلك نقط يختلف في شأنها الباحثون وقد يختلفون الان باعتبار انتمائهم الى هذه البقعة او تلك من بقاع العالم .

للمجتمع العربي ابتداء من عصر النهضة ، وهو مجتمع امتاز بكونه ضحية تردد عميق طبع المجتمع الاسلامي العربي منذ قرون غلت ، هذا التردد هو الذي نلاحظه بارزا منذ العهد الاول ، ويتخذ نارة شكل العقل - النص^(١٣) وتارة اخرى شكل العلوم اليونانية العلوم العربية^(١٤) وتارة ثالثة شكل المصود العربي - التجديد التامامي والتخذ في صدر الاسلام شكل القرآن - الشعر وثقافة الامم الاخرى^(١٥) ، والتخذ في عصور اخرى شكل الفلسفة - الشريعة^(١٦) ، وفي القرن التاسع عشر اتخذ صورة التراث - الغرب ، او المصود - التطور ، واذا كان هذا التردد ترددا يتعلق بالمواقف الفكرية العامة في بداية النهضة عند محمد عبده وجمال الدين الافغاني وتلاميذهما فانه اصبح بعد ذلك ومع مطلع القرن العشرين ترددا تعلق بكل مجالات المعرفة بحيث تجاوز مظاهر الاصلاحيين في القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فلا ينبغي ان ننظم مفكري القرن التاسع عشر عامة سواء كانوا اصلاحيين في اطار الخلافة الاسلامية او كانوا دعاة الى تكسير هيكل الخلافة لأن الفضل يرجع اليهم بثبات طرح التردد الحضاري المشار اليه انفا من جديد . وكان هذا الطرح العام للمشكلة الثقافية العامة بداية للشكوك الثقافية التي سيطرت على اذهان تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم من بعدهم وكانت القضية اللغوية من جملة القضايا التي تناولها الشك الثقافي مع مطلع القرن العشرين كما سنصف^(١٧) .

(٦) قضية التوفيق بين الفلسفة والشريعة . انظر فصل المقال لابن رشد .

(٧) راجع الابيات المتصلة بالفكر الحضاري في كتاب هذه العالم العربي من ٢٩٤ - ٣٣١ .

(٨) راجع فريدة خورتين عن محمد عبده ، واشارت خصوصا الى ان هذا الأخير لم يقدم بيلا مبررا . الاسلام والتجديد ص ١١٠ .

(٩) محمد عبده والافغاني - الاسلام والتجديد فيشتران لفتن وهو كتاب خاص يفكر محمد عبده الاجتماعي .

(١٠) شامي شميل وبنالك - مصفوف المدرسة الادبية ص ٤٩٨ .

(١١) مصر الحديثة لآلوت عبد الملك ص ١٢٠ - ١٢١ بالفرنسية .

(١٢) المصدر السابق ص ٤٠٧ .

أمرهم ، ولكن هذا لا يعني أن هؤلاء المفكرين^(١٤) لم يعتبروا بمشكلة المحتوى أو باللغة ، فقد تغيرت لغة هؤلاء المفكرين واقررت من صورة لغة العرب في القرون الأولى ونفشت عنها غبار البليغ . وكان محمد عبده يشارك بنشر التراث الاصيل القديم ليضعه في مكان التراث المتأخر المظلم وكان تدريسه لمقدمة ابن خلدون^(١٥) ولدلائل العجائب ونشره لبعض النصوص القديمة داخلها في هذا النطاق .

الفكر القومي والمشكلة اللغوية :

يكفي في هذا النطاق أن نشير الى وعي العرب بالمشكلة القومية في القرن التاسع عشر في بلاد الشام ، وكانت هذه الفكرة مرتبطة في ذهن مفكري الشام بقضايا اخرى فهي عند عبد الرحمن الكواكبي^(١٦) متصلة برفضه للاستبداد ، وهي عند كثير من المفكرين العرب النصارى متصلة بالبحث عن كيان يستطيعون الانتماع فيه وهذا الكيان هو الكيان العربي^(١٧) ولم تكن بلاد الشام كلها تسير في هذا الاتجاه فمذكرات شكيب أرسلان^(١٨) المنشورة تبين ان هذا الاخير كان يحمل ما وسمه من جهد لحد التيار القومي والحفاظ على السلطنة العثمانية قائمة باعتبارها الضامن لوجود المسلمين ككيان مستقل ، وقد كانت الدعوة العربية تختلط في كثير من

العربي ، ونظن ان البحث عن الاسباب المتعلقة بموضوعنا غير مجد وخصوصا اذا كانت هذه الاسباب خارجية ومعرضة لان يلهب الناس في شأنا مذاهب شتى لا حصر لها ، ولهذا نكتفي بتوجيه الانتباه الى العوامل التالية :^(١٩)

١ - ضعف السلطنة العثمانية وهو ضعف جعل طوائف من المجتمع الاسلامي في القرن التاسع عشر تتجرا على بعض المسلمين .

٢ - العوامل الخارجية وهي الغرب المجاور ، ولا نقصد به حلة نابليون ولا الحركة الثقافية في لبنان المتصلة بالغرب من قديم ، ولكننا نقصد به وجوده كعامل دائم وقف منه العرب مواقف معينة طيلة تاريخهم ، فقد كان هذا الغرب موجودا في عهد نهضتهم وفي عهد جودهم ثم في عهد انبعاثهم وكانت الاتصالات مستمرة في سائر العهود عن طريق السفارات والمتاجرات^(٢٠) .

٣ - هنالك فئات من المجتمع الاسلامي لم تجد نفعا قريبا او بعيدا من حالة الدولة في القرن التاسع عشر فمالت الى التغيير .

غير ان هذه العوامل الثلاثة ، التي ليست نهائية ولا مقصية لغيرها من العوامل الممكنة والخفية علينا ، هي التي تشرح اهتمام مفكري القرن التاسع عشر ، كما اسلفنا ، بالجانب الاجتماعي عن السياسي في اغلب

(١٤) راجع مقالات البرت حوراني - الفكر القومي في عصر النهضة ٣١٨ - ٣٢٠ .

(١٥) للفكر القومي : بحث من مجموع - جمال الدين المصري - (المرور للثقافة ١٩٧٥) .

(١٦) في سنة ١٨٧٨ ظهر اول كتاب في اللغة الذي في مصر يدعو الناس الى التخلي عن اساليب الاصطلاح الفنية ودعو الى الوسيلة اللاحقة للعلوم العربية و ص ٣٢٩ من د مصر الحديثة و لأثر عبد الملك .

(١٧) كتب محمد عبده مقالته ١٨٧٦ عن د العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم المصرية - الاسلام والعقيدة .

(١٨) له كتاب طبائع الاستبداد وكتاب لم الغري . كان ملين الكتاني اثر في تونس المؤرخين العرب في العالم العربي وفي الغرب الاقصى منه ايضا اميرلي والدكتور احمد الحلوي من كلية الآداب - الرباط ان واهد مولاي الخطيب الملوي احد رواد الحركة الوطنية العربية الاسلامية بالغرب اغيره ان كتب الكواكبي كانت توزع علها بلن في العشرينيات وقبلها وكان يجلبها التجار من اجل ذلك - انظر ايضا كتاب البرحوراني ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(١٩) البرحوراني ص ٣٢٦ - ٣٢٧ (٣٢٨ - ٣٢٩) ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢٠) سيرة فائقة - شكيب أرسلان .

الأذهان بالدعوة الى الوحدة السورية^(٢٠) ولم تكن بلاد الشام وحدها محتضنة الفكرة العربية فقد اترعن ابراهيم باشا بن محمد علي قوله فجعله من اشد دعاة العروبة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر^(٢١) . ولعله نادي بها ليجمعها سلاحا في وجه سلطنة بني عثمان يمكنه من بناء الامبراطورية العربية تحت سلطة أسرته ، ولا ينبغي ان نتابع البيروني الذي يرى ان المسيحيين الكاثوليك كانوا اول من دفع الى هذه الفكرة فالظاهر ان العراك بين الأتراك والعرب قد استحكم شأنه منذ امد بعيد ويكفي ان نرجع الى الترجمة الكبرى للزباني^(٢٢) فنسجد هذا الرحالة المغربي ينقل فصولا من النزاع بين فقهاء العرب وفقهاء الترك وهو شيء يشتم منه ان الكيان العربي في القرن التاسع عشر وحتى قبل التاسع عشر كان شيئا يميحه العرب المسلمون قبل غيرهم وكيف لا يميحه المسلمون من العرب قبل غيرهم وجلهم من اهل السنة الذين دافعوا لاهوتيا منذ القديم عن فكرة « يدة صاحب المصعب الاسمي »^(٢٣) في الدولة الاسلامية . على كل فقد كانت الفكرة القومية العربية موازية في نشوئها لقيام القوميات الاخرى كالارمنية واليونانية وغيرها ، وكان ظهورها جزءا من الحركة العامة الداخلية التي كانت تهرجس الكيان العثماني المريض .

بمعنا ونحن نؤرخ لهذه الحركة لنربطها بالمشكلة اللغوية العربية ان نذكر التواريخ التالية :

١ - حزب اللامركزية العثمانية سنة ١٩١٢ وكان من مطالبه اعتبار العربية لغة رسمية وان تسند الوظائف للعرب في بلادهم وكان اعضاء هذه الهيئة من السوريين المقيمين في الاسكندرية^(٢٤) .

٢ - ظهور الفكر القومي التركي وخصوصا عند جوكليب وهو مفكر اساء الى وحدة الدولة العثمانية وكان له صدهاء حتى عند المتشبهين بالعثمانية من العرب^(٢٥) .

٣ - انشقاق المؤتمر العربي سنة ١٩١٣ وكان فيه « عراقيون » و « سوريون »^(٢٦) .

٤ - اتصال الزعماء العرب بشريف مكة سنة ١٩١١ ودعوته الى القيام لينصب خليفة موعودا بالنصر والتأييد^(٢٧) .

٥ - انشاء الجمعيات السرية بعد ١٩٠٨ وغيرها في سنوات ١٩١١ - ١٩١٤^(٢٨) .

٦ - للمؤتمر السوري في دمشق سنة ١٩٢٠^(٢٩) .

٧ - مؤتمر الخلافة سنة ١٩٢٦ في مكة^(٣٠) .

٨ - مؤتمر القدس سنة ١٩٣١^(٣١) .

(٢٠) لبيروني ص ٣١٨ - ٣٢٩ .

(٢١) لبيروني ص ٣٢٢ - ٣٣٣ .

(٢٢) الترجمة الكبرى للزباني ص ٣٦١ نشر حيد الكريم القليل ١٩٦٧ طرطوط .

(٢٣) البيروني نفسه يظن ان فكرة تحويل السلطة القضائية الى خلافة كان سببا في ظهور القومية العربية ص ٣١٨ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

(٢٥) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

(٢٦) المصدر السابق ٣٣٨ .

(٢٧) المصدر السابق ٣٣٩ .

(٢٨) المصدر السابق ٣٤٠ .

(٢٩) المصدر السابق ٣٤٩ .

(٣٠) المصدر السابق ٣٤٧ .

(٣١) المصدر السابق ٣٤٩ .

التاريخ ان رأي ساطع المصري كان يحكي حقيقة الامر فتوطدت الظروف الى ان امكن تأسيس جامعة الدول العربية .

قصدا من هذا الكلام ان نبين ان البلاد العربية عن طريق الكفاحات المختلفة في الشام والعراق ومصر والحجاز استطاعت التخلص من السيطرة العثمانية ومن حركة التريك ، كما استطاعت رغم ما حل بها بعد انحصار ظل الحكم العثماني ، ان تستمر في دفع حركة الوعي العربي الى الامام وبالطبع فان الشعور بالقومية العربية دفع ولاشك هؤلاء المفكرين الابرلين الى الاهتمام بالقضية اللغوية والقضية العربية على المستوى اللغوي على الخصوص وفي هذا الاطار تنسب كتابات جرجي زيدان عن اللغة كمؤثر يبين ارتباط الوعي القومي بالوعي اللغوي وبجانب هذا المثال نعث على اعمال البستاني واعمال الشدياق في الشام .

لقد اشرنا منذ قليل الى الحالة الخاصة لمصر وارتباط مصر بالحركة القومية على العموم ونظن ان المقاومة التي لقيتها الفكرة العربية في مصر في اوائل القرن لم تكن مقاومة تركز على الواقع المصري بونظن ان افلات الزعامة من يدها في موضوع القومية العربية هو كون هذه الزعامة في يد السويين جعل المصريين يترددون كثيرا قبل التصريح بالانضمام الى فكرة القومية العربية فواقع مصر عربي واسرة محمد علي كانت لها مطامح الى انشاء امبراطورية عربية يكون خليفها امير مكة وسلطانها ملك مصر ومصر احتضنت في الازهر وغيره البقية الباقية من التراث الاسلامي العربي ومصر عرفت محمد عبده والشنقيطي (٣٤) وغيرهما يثرون الامل العربية القديمة. وكانت مطبعة بولاق مكانا متمازا لنشر تلك الوثائق

٩ - مؤتمر بلودان سنة ١٩٣٧ وهو اهم المؤتمرات اذ رأسه عراقي وكان بين نواب رئيسه عضو من مجلس الشيوخ المصري ومطران حماة ، وكان مؤكدا لفكرة الوحدة العربية وملحا على طابع التضامن العربي يضاف الى هذا فكر رجل هو ساطع الحصري (٣٥) الذي دافع عن القومية العربية ودعا المصريين الى الانضمام الى اخوانهم من البلاد الاخرى وقضى حياته غلصا لمصلحة الفكرة ، لقد ولد هذا الرجل في تركيا وكانت العربية لغة اكتسبها كسابا ولكنه كان عربيا غلصا وتقلب في مناصب الدولة العثمانية وبعدها سار في ركاب فيصل وكان يقول على لسان البير حوراني « لقد صرف كثيرا من الوقت محاولا اقناع المصريين بانهم جزء من العالم العربي فراح يكتب في هذا السبيل حتى مطلع الستينات وهذا جدير بالاعتبار ان ذن التيار الرئيسي للقومية المصرية في ذلك الحين كان فرعونيا او متوسطيا عربيا ولكن القوميين العرب من ابنا جيله كانوا يميلون الى التطلع الى بغداد لا الى القاهرة والى الاعتقاد ان الامة العربية انما تنتهي عند صحراء سيناء مع ان الكثير من الجيل الفتى كانوا يحدون عاطفيا بوحدة اوسع فهو يقول سنة ١٩٣٦ لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها ان تقوم بواجب الزعامة والقيادة لانها تقع في مركز البلاد العربية بين القسمين الافريقي والاسيوي منها كما انها تكون اكبر كتلة من الكتل التي انشأ بها العالم العربي بحكم السياسة والظروف ، وهذه الكتلة قد اخذت حظا اوفر من الحضارة العالمية الحديثة (٣٦) ، لقد دخل ساطع الحصري في محاولات عنيفة مع كتاب مصريين كانوا يدافعون في ذلك الحين عن قومية مصرية صرفة مثل لطفي السيد وطه حسين وغيرهم ، فقد اظهر

(٣٢) للسيد السابق ٣٢٩ .

(٣٣) للسيد السابق ٣٣١ - ٣٣٧ . اشهر بكتابه « العروبة اولا » انظر نقلة يكتبه في مؤخره كتابه في القومية والاجتماع بيروت ٩٦٢ .

(٣٤) كان من كبار العقليين

العربية ومنشورات بولاق تدل على ان اهتمام المصريين في القرن التاسع عشر اهتمام عربي وواقعههم العربي واقع لغوي عربي .

ثم ان محمد عبيد في فكره الاجتماعي السياسي كان لا ينسى القضية اللغوية وضرورة اصلاح المناهج لتعليم النحوي العربي^(٣٦) . باختصار لقد كان انفصال مصر وغيرها من البلدان العربية عن الدولة العثمانية كاليا وحده ليسع امام الطبقة المثقفة من البلاد العربية مشكلة اللغة وهكذا نفهم كيفية ارتباط الوعي القومي بالقضية اللغوية ونفهم ايضا سبب ركود الوعي اللغوي قبل ظهور الوعي القومي قبل القرن التاسع عشر .

المشكلة اللغوية التاريخ العثماني :

يجمع الباحثون على ان اللغة العربية بعد استيلاء آل عثمان على الحكم لم تعد لها الميزة التي كانت لها قبل استيلائهم عليه ، وكان السيوطي من اهل القرن العاشر^(٣٧) آخر صوت لغوي قوي يناقش المشكلة اللغوية . وكيفيا كانت الانتقادات التي يمكن ان توجه اليه فانه يبقى مع ذلك فاصلا واضحا بين عهد مضى وعهد مقل اصاب فيه اللغة العربية في البلاد العربية حيف كبير ، ولم يظهر في خلال العهد العثماني شاعر واحد او كاتب او اديب له من الامتياز ما للشعراء الاقدمين^(٣٨) .

لقد كان الشغل الشاغل للمسلمين في عهد الدولة العثمانية هو الحفاظ على الكيان الاسلامي فقط وكان

التنظيم الاجتماعي لا يستجمع الحركات العلمية والثقافية وهذا شيء معروف يرجع اليه في مظاهره من كتب التاريخ واذا كان احمد شوقي اول شاعر فحل ظهر بعد قرون من الغياب الشعري فان نهاية القرن التاسع عشر شاهدت ظهور تجمعات غير رسمية في مصر كانت تحاول خدمة العربية وتريد ان تجعلها كقيلة بالاستجابة الى الظروف الحضارية العلمية التي فرضتها او فرضها الحضور الاوربي في البلاد الاسلامية وبمكثا نشهد قبل نهاية القرن التاسع عشر ظهور المجمع البكري^(٣٩) الذي كان يضم اعضاء كثيرين من الاصلاحيين كالثقفي ومحمد عبيد ، ويظهر ان قضية الترجمة عن اللغات الغربية التي ابتدأت منذ عهد رفاعة الطهطاوي تتعلق خصوصا بنقل العلم المادي الغربي ، ويمكن ان نجد لها امثلة كثيرة في مجلة المقتطف^(٤٠) . نلن ان مشاكل هذه الترجمة جعلت الاهتمام الوحيد هؤلاء الاصلاحيين القدماء يتعلق بمشكل الاصطلاحات التي كثرت في البلاد الغربية وظهرت العربية عاجزة عن التعبير عنها الظاهر الغريب .

وعلى هذا فتكون القضية الاولى التي شغلت هؤلاء الاصلاحيين الاوائل قضية معجمية وليست هنالك دلائل تدعو الى اعتقاد ان هؤلاء الاصلاحيين قد عوا المسألة اللغوية كما كانت مطروحة في ذلك الحين في اوربا ولاشك ان اهتماماتهم اللغوية المعجمية هي اهتمامات املتها ظروف جزئية وعملية ومرتبطة بالنظر العام للمجتمع العربي عامة والمصري خاصة . ان ظهور

(٣٦) ص ٢٣ من الاسلام والتجديد مثلا من مقالات محمد عبيد تتعلق بتفسير صورة العصر وفيه ذلك طبع في مصر سنة ١٩١٠ في مطبعة المثلث .

(٣٧) السيوطي صاحب المصم والمزهر وغيرها ويظهر ان كنه هي صورة نهاية لحاضرته ودرسه . يدل على ذلك مقدمة المصم ، وبذلك مع احتفاظ مصر بالشعر بالبراء العربي الاسلامي ، والمطهر في البلاد المذكورة في ذلك الايمان بطرق خفيفة يظهرها بتدعيم الاوسمة الاحصائية على العربية في الاشارة وفيها .

(٣٨) وراجع كتاب تعريف الادب الهامة باليابس التي فلها بطل عصر السلك العثمانية وتعد احمد شوقي اول شاعر امد للشعراء العربية لشعرها .

(٣٩) المجمع اللغوي لايروم بيرسي مكتوب ص ١٥ .

(٤٠) كانت يتم نقل اللغات واكتشفت العربية .

الحضارة والمدنية الحديثة وانتهت هذه الندوة بالقرار التالي : « يبحث في اللغة العربية عن اسهام للمسميات الحديثة بأي طريق من الطرق الجائزة لغة فاذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الاعجمي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ويستعمل في اللغة الفصحى بعد ان يعتمد المجمع اللغوي الذي سيؤلف لهذا الغرض » .

لقد كانت الحركات الأولى اي حركة البكري وحركة حنفي ناصف هي البذور الأولى للتيار اللغوي المجمع التيسيري وهو تيار لن ندعوه بالجديد ولا بالقديم ولكننا سنكتفي كما سيتضح من بعد باصباحه وجوداً آتية « واصلاحات » جزئية للغة العربية لا يعتمد نظرية سابقة ولكن اغراضه غالية اي تبحث عن اسهل الطرق لتقريب العربية من مقتضيات الحضارة الحديثة ، ويمكن ان تسميهم بالتيار البراكمتي اللغوي . واذا من الآن سنخصص بقية هذا المقال لهذا التيار البراكمتي . وقبل ان ننطلق الى ذلك يجب ان نثير انتباه القارئ الى ارتباط هذا التيار الوثيق بالحركات الاصلاحية في بلاد الشام ومصر على المستوى السياسي والاجتماعي كما اسلفناه لقد كان جل اعضاء ندوة حنفي ناصف وما لحقها من ندوات متأثرين بالروح العامة التي سادت في اواخر القرن التاسع عشر على يد محمد عبده والكواكبي والتليم وغيرهم . لم يفعل هؤلاء التلاميذ الا ان ساروا بالفكرة الاصلاحية الى حدود المنطقة اللغوية بعد ان كانت الفكرة الاصلاحية في اذهان الجيل السابق تتعلق بالمجتمع ككل (٤٣) . على كل فقد سار هذا التيار

المجمع البكري في مصر قبل ظهور مجمع دمشق في الشام سنة ١٩١٩ (٤٠) لدليل على ما قلناه من قبل عن ارتباط قضية انفصال الكيانات السياسية عن الدولة العثمانية بالمشكلة اللغوية وهو دليل ايضا على ان مصر - وان كان بعض مفكرها اسباب مختلفة قد اظهروا ترددا كبيرا على المستوى السياسي في شأن الاندماج في الامة العربية - كانت في حقيقة الامر اي من جهة الظروف الموضوعية مرتبطة بالمشكلة اللغوية العربية وكانت بالتالي مرتبطة رغم التردد المشار اليه بالقضية القومية. ان الاشتغال بالمجمع العربي ظهر في مصر قبل ان يظهر في سوريا وفي المقابل ظهرت الدعوة القومية المعتمدة على اللغة في سوريا قبل مصر وبما يؤكد ما سقناه من قبل ان ندوة خاصة بالمشكلة اللغوية قد عقدت في اوائل القرن العشرين عام ١٩٠٨ في نادي دار العلوم وترأسها حنفي ناصف (٤١) احد الدعاة الى تيسير العربية . وقد القيت في هذه الندوة عدة بحوث عن اللغة تدعو الى التطور ومسايرة العصر دون اختلال بجوهر اللغة العربية وكان من المتحدثين اشخاص كثيرون وكثرتهم تدل على انشغال الطبقة المثقفة بالقضية اللغوية . كان من المتحدثين فتحي زغلول وعبد الحفصي الذي قدم بحثا عن تعريب الاسماء الاعجمية اشار الى ما بذل من جهود في النهضة العربية الحديثة كاعمال الطهطاوي ومحمد عبده وما قام به سعد زغلول من تعريب للتعليم (٤٢) وجعل العربية لغة الكلام وكان من المتحدثين ايضا طنطاوي الجوهري الذي قدم بحثا عن العامية والفصحى ودعا الى ترك العامية وختم الندوة حنفي ناصف يبحث عن الاسماء العربية لمبتدعات

(٤٠) للمجمع العربي ص ١١ .

(٤١) المصدر نفسه ص ١٥ .

(٤٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٤٣) راجع لوله هورتن للكورة قبل في تعلق سجن .

البراكمتي مسيرة قادت الى فكرة انشاء مجمع اللغة الى الظهور سنة ١٩١٠ على يد لطفي السيد .

وفي هذه المرة كان يضم هذا المجمع الأول طائفة من الشيوخ الذين اصبحوا يتزعمون الحركة الاصلاحية اللغوية وسنجد في كتابات مصطفى عبد الرزاق اشارة الى هذا المجمع وتحريحا لهؤلاء الشيوخ ودعوة ملحة الى ان يهتموا بمجمع العربية ومصطلحاتها العلمية وأن يهتموا ايضا بقضية الكتابة العربية^(٤٤) . ولم يطل امد هذا المجمع فقد انقضى سنة ١٩١٩ على اثر الثورة المصرية وحاول ان يلتئم مرة اخرى جمعة سنة ١٩٢٥ لكن الظروف لم تساعد على ذلك الانتهام .

في هذه الظروف انشئ مجمع دمشق سنة ١٩١٩ للنظر في اللغة العربية وأوضاعها المصرية ونشر آدابها واحياء غطوطها وتعريب ما يدخل اليها من اللغات الاوروبية وتلخيص ما يحتاج اليه من الكتب المختلفة وكان ظهور مجمع دمشق^(٤٥) وحركة انشاء المجمع في مصر سنة ١٩٠٨ - ١٩١٧ - ١٩٢٥ موازيا في الزمن للحركة العربية التي قادها الشريف حسين وابناؤه . وهذا يؤكد مرة اخرى ارتباط الوعي اللغوي عند اصحاب التيار البراكمتي بالوعي القومي .

من قبل . وتاريخ جمع اللغة العربية بالقاهرة وتركيبه يساعدان على توضيح الجذور الأولى لهذا التيار المرتبط كما اسلفنا بالحركة السياسية والاجتماعية التي عرفتھا المنطقة وسنعتبر جمع القاهرة ذا مكانة متميزة لا غيره من المجمع لاسباب :

١ - غلبة الطابع اللغوي على اعماله فقد اهتم مجمع دمشق كما يظهر من مجلاته بالعربية لا لغة فحسب ولكن ادبا وتراثا ، ولم يقدم من الاقتراحات والاصلاحات ما قدمه مجمع القاهرة ولعل السبب في ذلك راجع الى طبيعة تكوين المجمعين القاهري والدمشقي .

٢ - جمع مجمع القاهرة في الافواج التي تماقت على الدخول اليه نخبة من المهتمين بالقضية اللغوية وفيهم المصري وغير المصري . نقول (مهتمين) ولا نقول (اختصاصيين) لان الاعضاء المختصين باللغويات كانوا قلة قليلة فيه الا اذا فهم الاختصاص بمعناه القديم وفي هذه الحالة يمكن اعتبار كل اعضائه من المختصين بالعربية وبالتالي باللغة .

٣ - ارتباط فكرة المجمع الذي يهتم بالاصلاح اللغوي بتاريخ يمتد الى عهد النهضة في بعض اقوال الطوطوي وعنده وغيرهما .

واول ما نلاحظه على مجمع القاهرة ان اعضائه^(٤٦) من بدايته الى الان كما اسلفنا ليسوا لغويين بالضرورة بل فيهم الشاعر والأديب واللغوي والسياسي والفقيه ورجل الدين الخ . ويظهر ان الدخول اليه لم يراع فيه دائما الكفاءة والمقدرة اللغوية والثقافية وانما روعي فيه قوة

سنعرف في الصفحات التي تلي من بعد كيف تبلور هذا التيار البراكمتي في كتابات ابراهيم مصطفى والمخزومي ولذلك نرى من الأنسب ان نلم بالظروف التاريخية لهذا التيار قبل تبلوره في الكتابات المشار اليها

(٤٤) من آثار مصطفى عبد الرزاق .

(٤٥) اعمال مجمع دمشق ليست لغوية في اطلاقها فهي تهتم بالأدب والتاريخ كذلك .

(٤٦) راجع للاشارة التي قدمها امير ابراهيم بيومي مذكور في تاريخه للمجمع اللغوي ص ٢٣ - ٢٧ .

نحو التيسير وما اشبهه^(٤٧) من أعمال التشذيب التي لا تنفيذ العربية غير قطع اطرافها دون أن تضيف إلى قضية الشعور اللغوي والتنظير العام شيئاً جديداً. ويظهر من الأهداف التي رسمها المجمع لنفسه رغبته عن الاعراض عن التنظير والاستفادة من الأعمال النظرية الغربية مثلاً وهذه الأهداف هي :

- ١ - تبسيط اللغة متناً وقواعداً وكتابةً ورسم حروف .
- ٢ - توفير المصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية بحيث تصبح اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون وملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر .
- ٣ - تهذيب المعجمات اللغوية ووضع معجم تاريخي شامل يعرض لتطور اللغة العربية في عصورها المختلفة .
- ٤ - تجميع الانتاج الادبي .
- ٥ - احيا التراث القديم واللغة والادب .

يضاف الى هذه الأهداف التي تنهي عن الرغبة في الاهتمام بالمفردات اللغوية المنقضة الى نظرية عامة يضاف اليها ان الاجانب الذين استقدموا الى المجمع اعضاء مراسلين او غير مراسلين لم يكونوا من لضيبي الغرب - وقد كانوا كثيرين في فترة الانشاء والعمل الجمعي - وانما كانوا من المستشرقين المهتمين بالساميات المتأثرين بالروح المقارنية التاريخية للقرن التاسع عشر في اوروبا وربما كان السر في استقدامهم يكمن في رغبة الجيل الأول من الجمعيين في الدرس المقارني التاريخي للعربية . ولاشك ان ذلك الجيل الأول كان متأثراً بافكار المستشرقين الذين استقدموا للتدريس في جامعة الشعب المصرية الأولى وفي الجامعة الاهلية من مثل :

العضو في المجمع المصري اذ ربما روعي فيه ترضية الطوائف الدينية والخزنية . وهذا طبيعي في بلد كمصر يعتبر فيها الدخول الى المجمع شرفاً عالياً واسعاداً مئياً . ويظهر ذلك واضحا حين تدروس قائمة اعضائه الذين دخلوا اليه تباعاً في افواج ، فلم يدخل ابراهيم مصطفى وهو اللغوي الاصيل في اعضاء المجمع جميعاً . الا سنة ١٩٤٩ اي بعد انشائه بحوالي ١٧ سنة . واذا تركنا ابراهيم مصطفى الذي تبين حالته طبيعة تكوين المجمع وظروف انشائه والاسباب التي تزكي الاعضاء للترشيح اليها فاننا نجد امثلة اخرى مثل طه حسين ومصطفى عبد الرزاق والعقاد وهم اشخاص اشتهروا في المجتمع المصري اشتهاراً كبيراً وشهد لهم المجمع بالكفاءة في ميدان الثقافة العربية الاسلامية على الاقل ، ان لم يشهد لهم بالكفاءة اللغوية الصرفة ، هذه الامثلة لم تجد مكانها في المجمع الا بعد سنوات من انشائه . وكان السابقون اشخاصاً لا ذكر لهم كاحد بدوي وحسين والي والحواري وهم اشخاص قد يكون لهم ذكر في مجالات اخرى ، ولكننا لا نعرف لهم ذكراً مشهوراً في مجال اللغة على الاكثر وفي مجال الثقافة الاسلامية العربية على الاقل وهناك حالة ابراهيم أنيس اللغوي وحالة حامد عبدالقادر ، وهما ايضا مثالان يبينان ان المجمع في بدايته لم يراع فيه اختيار العناصر اللغوية الصرفة وانما روعي فيه جمع عناصر تضافت على جمعهم ظروف خارجة عن العامل العلمي اللغوي الصرف . ونحن نعتقد ان هذا التكوين وهذه الظروف التي احاطت بالمجمع كانت سبباً اساسياً في افتقار المجمع الى نظرية لغوية متينة ، وفي اكتفائه بالترجمات وفي مسيرته العجلى

(٤٧) انظر القاموس للرجوع الى المجمع من عمود السران في كتاب علم اللغة ص ٢٩ . ولكننا نفي مع هذا حضور اللويين في فترات من حركة الجمع اجهتوا اجتراحات لغوية متينة وبكفي الرجوع الى مجلة الجمع لاستيفان هذا الامر اما ارم عمود السران فهو لون من اللون الذي يوجهه جعل البصاة الجليدة الى خيرة . والبطانة الجليدة هي نظريات اللويين ولا يخفى ان هذا الامر ينتج الى تدريس حتى تبرزن القيم المرفقة للغويات العربية في تاريخها الطويل ونشرها من اللغويات المسودة واضطر عن اجتماع هذا التصلين من بعض عمليات ولاكتي مسطر للكثرة متا لاته وبلا وجهة نظري التي اقتضت بما يند كتلة لقال المذكور بزمين .

والسيوطي والزعشري . وكانت الحلول تيسرية عند اصحابنا تليخضية عند الاقدمين . (٤٨)

ومع هذا فالظاهر ايضا ان الفرق يسير مرة اخرى بين المحاولتين القديمة والجديدة . فالميسرون يقولون على هيكل النحو العربي وعلى ابرويه ، ولا تكتمل لديهم نظرية في التحليل . ويظهر ان اقصى غايتهم كانت اخراج كتاب في النحو يشبه كتب الانجليز او الفرنسيين التي كانت تدرس في مدارس هؤلاء . للفرق سيران انكار الملل والعوامل ليس كافيا لتغيير هيكل النحو العربي ولان هذا الانكار ليس كافيا للتخلص من « العيوب الاخرى » التي صاحبت نشأة النحو العربي من الناحية المنهجية .

- اين مثلا التفرق بين المستويات اللغوية عند الميسرين ؟
- اين آثار المدارس الغربية في آثارهم ؟

وكان ينبغي لهم ان يظهروا على ما يجري في العالم من بحوث لغوية والظواهر انهم اغفلوا ذلك ويقت تصوراتهم عن اللغة هي تصورات الاقدمين الا انهم يرفضون بعض مبادئ الاقدمين وعلى هذا فيمكن اعتبار المجمعين مدرسة من المدارس النحوية التي تضاف الى المدرسة الكوفية والبغدادية والبصرية باضافة شيء واحد هو انعدام الوعي اللغوي عند المجمعين . فربما كان النحو العربي خلفا طيعيا لآرث نحوي وولد لمنطقة جنوب العراق اعلم فيه النحاة العرب رايعهم بشكل يناسب العربية وهؤلاء المجمعين لا يفعلون شيئا الا انهم يعملون رايعهم النحوي البراهمني في النحو العربي ليتمكن قراءته بسهولة باللغة . فالغاية هي

ليتمكن وبرجستراسر وغيرهم ويمكن ان نجد شيئا من ابحاثهم في كتاب : الجوانية لعثمان امين (٤٩) ويعضا من اسمائهم في كتاب : رمضان عبد التواب عن فقه اللغة (٤٩) .

قضية التيسير :

شهد مطلع القرن العشرين حفي ناصف واصحابه يستنكرون الملل النحوية والفلسفة النحوية التي تطورت الى ان اصبحت عند رجل كجمال الدين بن هشام ضربا من « الترف واللغة العقلية الممتعة والمتعة في آن واحد » .

والواضح ان قضية التيسير مرتبطة بانتشار التعليم العربي في المرحلة الابتدائية والثتوية وحتى العاليية في مصر . وواضح ان كتابات الاقدمين بتعديلاتها لم تكن لضي بحاجة للتلاميذ في الموضوع النحوي لانها اعل من مداركهم في غالب الامر ولانها مرتبطة بجو ثقافي معين قد لا يكون التلميذ عالما به في المراحل الاولى من دراسته ، ومن جهة اخرى فقد ارتبطت قضية التيسير برغبة « الميسرين » الاوائل في ان يفهم الطلاب في النحو لا ان يحفظوه فقط وهذا يظهر الفرق بين اصحاب النهضة في مصر وبين اهل الجمود من قبلهم ، فقد كان هؤلاء يكتبون المنظومات والمتون التي لا تيسر شيئا ولكنها تكثف النصوص الطويلة في نص قصير سهل الحفظ ومع انه لم يكن سهلا الحفظ فان بإمكان الذاكرة ، بقليل من الجهد ، الاحاطة به حفظا . ومثال ذلك : آلفية ابن مالك ، وجمع الجوامع والمفصل ، والاوّل عمل نظمي والثانيان عملا نثريان .

ولكن مع ذلك فان ضخامة التراث^٥ هي التي املت الموقفين على جيل النهضة وعلى جيل ابن مالك

(٤٨) الجوانية ، كتبه صغير عثمان امين .

(٤٩) لعل في لغة لرمضان عبد التواب .

(٥٠) ص ٦٢ من (في اللغة والادب) لايرام يومى مذكور - النشرة ١٩٧٠ .

يقصد منه في غايته أن يفهم وإنما يقصد بها اظهار حقائق الامور سواء خفيت عن البعض واتسحت للبعض الآخر .

اذن ففكرة التيسير فكرة غير علمية لانها تنسى التحليل ومناهجه وتنسى وحدة الموضوع المدروس وتنسى ثلثا تكاملية البناء النحوي العربي القديم ولا يعمها اظهار حقائق الامور ، وعلى ذلك ففي ميدان النحو غايتها . ليست تحليلية تنظرية استقصائية وإنما غايتها براهجية نفعية وإذا شئنا تميرا آخر قلنا ان غايتها تربوية بيد اوجوبية . وواضح ان الغاية البيداغوجية كان يلزمها ان تؤاخذها غاية لغوية علمية تحليلية استقصائية تنظرية وكان هذا اللزوم منعدا الا ان يستعين المجمع بخبراء اللغة الحقيقيين والحقيقيين بالموضوع اللغوي وهذا الذي لم يكن مع بالغ الاسف . في هذه النقطة من عرضنا وصلنا الى وصفين يتصلان اتصالا وثيقا بهذا التيار المتولد عن الحركة العامة للمجتمع العربي الشرقي هما : السراجمانية والبيداغوجية . ويهين الوصفين ننفي عن هذا التيار والمشروعات التي تفرعت عنه صفة اللغوية المحضة . هوبلغة اخرى تيار غير لغوي موضوعه اللغة العربية التي هي كنظام صورة من القدوة اللغوية العامة . هو اتجاه غير لغوي لباسه لغوي .

وما دمتا قد وصفنا التيار المشار اليه بالبيداغوجية فلا بأس ان نرجع الى بعض الوقائع التاريخية التي تبين عن عل ما قلناه ففكرة التيسير وروئها المجمع عن فكر سبق المجمع . هذا الفكر هو فكر حفي ناصف وندوته وهو فكر اعطى في مجال التطبيق كتاب قواعد اللغة العربية لحنفي ، وأعمال الجرام^(٥٦) وصاحبه ، وهو فكر جعل

التسهيل^(٥٦) . ومتى كان التسهيل غاية من غايات التحاليل العلمية ؟ ان التحليل العلمي يفترض جدلية بين النظرية والتطبيق وهذا ما نعرفه عند المحققين في الانسانيات على العموم ولكنه لا يهتم ابدا بأن تكون تعاليله سهلة لان اثار السهولة قد يجعل الباحث يغض الطرف عن كثير من الحقائق التي تكون جزءا من منظومة الحقائق الداخلة في الموضوع للبحوث ولأن الغاية من التحليل العلمي هي اعطاء صورة مطابقة كل المطابقة للموضوع المعين عن طريق اعتماد منهج معين . وما سيفخره صاحب المنهج من حقائق فانه يصنفها حسب اعتبارات معينة ولا يهمل عددها واحصاؤها وارتباطاتها . وهكذا لا يهتم اصحاب القوانين طول قوانينهم وتعقدوا لان هذه القوانين تلي حاجة المجتمع الى التنظيم والسير المعقول . وهناك احوال اجدى من هذه اجدر ان تذكر وهي : احوال الفقيه الذي يستبطن الاحكام ولم يدع احد يوما الى تيسير الفقه الاسلامي وتبسيطه كما لم يدع احد الى تيسير التاريخ وتسهيله سواء كان تاريخا اسلاميا ام يونانيا ام غير ذلك من التواريخ واصول الفقه سواء كان فقه رومانيا او غيره هي هي يبحث فيها الى ان يعثر عليها ثم تعرض عرضا كاملا لا رغبة فيه للتيسير . اما في مجال الدراسات التي قام بها للمحدثون في الغرب فانها قد تبلغ احيانا من التعقيد درجة تفوق ما بلغ اليه من النحو العربي القديم ومع ذلك فان ذلك يعتبر اغناء للبحث واثراء للمعلم الحديث . واقرب مثال البنا مثال اللغويات الحديثة ، فغاية الدراسات الحديثة سواء كانت مادية ام انسانية غاية تحليلية والتحليل قد يصل الى ادق الجزئيات ويشمل اعظم الكليات ولا عيب في ذلك على البحث العلمي الذي لا

(٥٦) انظر مجموعة القرارات العلمية من تأليف عبد الحليم الله محمد وهمد شوقي لعام ١٩٦٣ . ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ . على سبيل المثال .

(٥٧) انظر المجمع اللغوي . في اللغة والأدب لا يرسم بمتكور ص ١٦ ، ٦٢ على الترتيب .

تأكيد الفعل وبيان نوعه ويدخل فيها أبواب المفاعيل الخمسة والحال والتمييز .

٢ - لا داعي للتفرقة بين القاب الاعراب والبناء ويكتفي بالقاب البناء وهي الضم والفتح والكسر والسكون ، ولا داعي ايضا للتفرقة بين علامات الاعراب الاصلية والفرعية ويستغنى عن الاعراب التقديري والمحلي في المفردات والجمل .

٣ - لا داعي لتقدير متعلق للظروف ولا لحروف الاضافة فتحوزد عندك او في الدار . يكتفي المحمول هو « عندك » و « في الدار » .

٤ - يلغى الضمير المستتر جوازا او وجوبا ففي اعراب زيد قلم يكتفي بان « قام » محمول ولا يشار الى ضمير . وفي اعراب « نغم » « اقم » يقال ايضا : ان الفعل محمول والمهزة فيه او النون اشارة الى الموضوع يعتبر الضمير البارز تقوية ان كان منفصلا مثل « قمت انا » و اشارة لا ضميرا على مذهب الماضي في مثل : « قمت » و « قمت » و « قمت » او علامة العدد في مثل « قاموا » و « قمن » .

٥ - تدرس ابواب التعجب والتحضير والاغراء والتخصيص والتفضيل ونعم وش والنداء والاستثناء والاستفهام والتوكيد والقسم على انها اساليب تشرح معانيها .

٦ - يكتفي في الصرف بابواب الفعل ومشتقاته والتثنية والجمع على ان تدمج في النحو وتشرح بالامثلة دون تعرض لاحوال الكلمات ولا للصور المختلفة التي يمكن ان تتحول اليها ولا محل مطلقا لتعرض للاعلال والابدال والقلب .

وزارت اللجنة تحليدا لمقدماتها ان تقدم فهرسا وتكون هيكل كتاب من النحو الميسر وقسمته الى باين :

وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٠ تشكل لجنة من كبار اساتذة النحو والأدب للبحث في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة والتراخ قواعد جديدة^(٥٣) ، على ان لا يحس عمل اللجنة اصلا من اصول اللغة ولا شكلا من اشكال الاعراب والتصريف فلم تحس اللجنة اصلا من الاصول وتجريت من مذاهب القدماء اقربها الى العقل الحديث وايسرها على الناشئين وحاولت ان تخلص النحو من فلسفته التي قامت على التعاليل والافتراض ، ومن قواعده ومصطلحاته الصرفية وان تربطه بالادب والاستعمال اليومي ، ولم ترض مدة لتعلم الصرف على انه علم مستقل ولا تدرس البلاغة بمعزل عن الادب واقرحت اللجنة في مجال النحو مايلي :

١ - تتكون الجملة من جزأين اساسيين هما الموضوع والمحمول وتكتمل بقبال اليها احيانا . والموضوع هو المحللت عنه وهو مضمون دائما الا اذا وقع بعد ان او احلى اختواتها فيفتح ويدخل فيه ابواب الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم ان .

والمحمول هو الخليل ويقسم ان كان اسما الا اذا وقع بعد كان او احلى اختواتها فيفتح ويفتح ايضا ان كان ظرفا . ويحصى فعلا او مع حرف من حروف الاضافة او جملة . ويكتفي في اعرابه ببيان انه محمول وتدخل فيه ابواب خير المبتدأ وخير كان وخير ان ويطلق المحمول الموضوع في التذكير والتانيث وفي العدد ان كان متاخرا عنه والجملة العربية مرتبة في تركيب ركنيتها ، فقد سبق احدهما الاخر ويغلب ان يتأخر الموضوع ان كان نكرة او كان المحمول فعلا والتكملة كل ما يذكر في الجملة غير الموضوع والمحمول وهي مفتوحة دائما الا ان كانت مضافا اليه او مبنية بحرف اضافة فكسر ونحيي « لبيان الزمان او المكان او العلة او للمفعول او الحيلة او النوع او

(٥٣) القرارات العيسية من ١٩٥٠ . للجمع القاري لا يرسم مذكور من ٧٧-٧٨ .

ونقص وفتح وخالف اللجة في مصطلح النكمة فأثر المصطلح النحوي القديم وهو المفعول على مقترح اللجة وهو النكمة وهو مقترح بشكل ترجمة لمقابلته الأفرنجي Complement في نحو اللغات الأوروبية . أما غير هذا من إراء اللجة فأقرها الجمع وأخذ بها فأقر الاستثناء عن الأعراب التقديري والمحل وعن التفرقة بين علامات الأعراب الأصلية والفرعية وعلمًا كلاً مجرد علامات أعراب وصرف النظر عن الضمائر المسترة وجوبا وجولوا وعن الضمائر البارزة المتصلة بحروفها والتي تعود على نوع المسند اليه أو عنده ولم يَر ضرورة للنص على عائد للموصول واعتبر التعجب والتحليل الخ من الأبواب المذكورة من قبل - حين التعرض لراي اللجة - اساليب ، ودعا الى ان لا يوقف عند تفاصيل اعرابها واكتفى من الصرف بتصريف الفعل وصوغ مشتقاته والتثنية والجمع .

وهكذا يظهر ان اصل فكرة التيسير - التي نغينا عنها من قبل صفة العلمية التحليلية - يرجع الى وزارة المعارف ، وهي وزارة تربية ، وإن ما فعله الجمع في بداية امر التيسير ليس شيئا آخر في جوهره الا استمرارا طبيعيا للجنة الأولى لسنة ١٩٣٠ وربما كان أعضاء اللجنة الأولى من المفتشين والإساقفة الذين مارسوا تعليم النحو في المدارس ولم يكونوا من المفرغين للدرس اللغوي المحض باعتباره موضوعا لعلم خاص وربما كان قد سبق لبعض أعضاء الجمع الأوائل ان كانوا أعضاء في اللجنة الأولى ويظهر الموقف البيداغوجي لعمل اللجنة ثم للجمع من خلال الملاحظات التالية :

١ - لم يفعلوا الا ان بدلوا المصطلحات القديمة بمصطلحات جديدة وجعلوا عن طريق اتساع دائرة

أ - قسم الكلمة .

ب - قسم الجملة .

وتحت الباب الأول فصلان ينصب أحدهما على أحكام الاسم من مذكر ومؤنث وصحيح ومعتل ومفرد ومثنى وجمع ومذكر ومعرف ومضمر في الثلاثي والرباعي فقط ومنسوب اليه ومُعرب ومبني ويقتصر في المبني على اسماء الإشارة والموصول والاستفهام والإشراط ؛ وينصب الآخر على أحكام الفعل من ماضٍ ومضارع وامر وصحيح ومعتل ومبني للمجهول وناقص وتام ولازم ومتعد ومبني ومُعرب ، ويدخل في أحكام الفعل اسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان والمكان والآلة من المشتقات ومصدر الثلاثي وغير الثلاثي .

وتحت الباب الثاني فصلان أولهما أجزاء الجملة من موضوع ومحمول ونكمة تدخل فيها التوابع وأحكام العدد وتأتيها في الأساليب وتدخل فيه الجملة الفرعية والجملة الشرطية والقسمية . (٥٤)

هذه هي اقتراحات لجنة وزارة المعارف سنة ١٩٣٠ وقد بقيت هذه الاقتراحات في مجالات وزارة المعارف المصرية مستقرة طيلة سنوات الى ان عرضت على الجمع في سنة ١٩٤٠ في الدورة ١١ (٥٥) فأبدى فيها من الآراء ما يجعله تابعا للجنة فاكثى بتبديل بعض اصطلاحات اللجنة فأثر مصطلح المسند والمسند اليه على مصطلح اللجنة القديم الموضوع والمحمول ، وهي مصطلحات آتية جميعها اما من المنطق او من البلاغة ، ورأى ان يقسم الدرس النحوي الى ثلاثة أقسام : ١ - أحكام الجملة ، ٢ - أحكام الاسم ، ٣ - أحكام الحرف - مخالفا للجنة التي هلمت استقلال الحرف او لم تشر اليه بتاتا ورأى للجمع ايضا استعمال القاب البناء من ضم

(٥٤) انظر القرارات العلمية ص ١٧٥ ومايلها .

(٥٥) الجمع اللغوي ص ٧٩ .

وهو في تعريفاته خاضع بمبادئه اولى وربما كانت تلك التعريفات قبل القاب الاعراب والبناء والاعراب التقديرى والمحلي وتقدير متعلق الظرف وحروف الاضافة وجوب استتار الضمير وجواز الخ اقرب الى الروح العلمية من اعمال اللجنة التي اقرت الغاءها فكثير مما دعت اللجنة الى تبديله في هذا المجال متصل بنظرية لولي هي نظرية العامل وقد دفع النحاة اليها دفعا نظرا لظروف لا داعي للافاضة في الحديث عنها هنا ويرجع اليها في مظاهرها وكانت اللجنة والمجمع سيفعلان خيرا مما فعلا لو حاولا ان يقدموا نظرية عامة تحل النظرية القديمة . ولهذا فان عملية التشذيب هذه تنبئ عن عجز اللجنة وما سبق اللجنة من فكر لغوي وما لحقها من فكر جمعي عن اقامة النظرية البديلة ولذلك كان عملها التشذيري المشار اليه عملا مشوها لجهر التجربة اللغوية النحوية العربية القديمة لانه اهتم بتشذيب النموذج التطبيقي غافلا او جاهلا للخلفيات النظرية وبذلك قدم تجربة نحوية قديمة لها ركايزها النظرية قد يتجه اليها الانتقاد ولكنها تبقى متكاملة قدمها فداها لغاية بيلاجوجية نشك كل الشك في امكان نجاحها فيها لان التلميد الذي يسير على طريق اللجنة والمجمع وما سبقها سيجد نفسه في نهاية المطاف مرغبا على تجاوز هذه الاقتراحات ليمائق التجربة القديمة لسبب واحد هو النقطة التالية :

٣ - هذا الفكر المجمعي وما سبقه ذكر يعترف بالنحو العربي القديم كمطابق اللغة العربية فهو لم يفكر أبدا في النظر الى اللغة العربية من جديد معتمدا على ثقافة العصر وعقليته مستفيدا من جميع ما يمكن ان يستفيد منه لاضافة بناء نحوي مستقل ولكنه نظر الى قضية اللغة

المصطلح الجديد ابوابا عديدة في باب دون ان يحس ذلك الجمع شيئا من تحاليل النحاة القدماء^(٥٦) فاعتبار ابواب الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ واسم كان واسم ان من باب الموضوع الاكبر - على حد تعبير اللجنة - او من باب المسند اليه - على حد تعبير للمجمع - لا يعني الدارس من تحاليل النحاة ومن متابعتها في اطار هذا الباب الاكبر^(٥٧) . وكذلك الامر في ادخال ابواب خبر المبتدأ وخبر كان وخبر ان في باب المحمول فان ذلك الادخال لا يتعارض ابدا مع التحاليل القديمة التي مستجد مكانها في اطار هذا التيوب الجليلد للنحو العربي فالفقضية هنا قضية تيوب جديد فمفهوم ان ندرس كل مفهوم في باب وهي مفاهيم كثيرة في النحو العربي القديم جعلنا الابواب ثلاثة وادخلنا فيها ابواب النحو العربي المتكاثرة كليا فيما يناسب من الابواب الثلاثة المقترحة وفي هذه الحالة لن يكفي ما فعلته اللجنة والمجمع جديدا على المسيرة النحوية العربية القديمة . فكتبت يؤلف على طريقة اللجنة او المجمع سيكون طريقة في تيوب النحو العربي جديدة لا تحس الجوهر ابدا وسيكون عمل اللجنة او المجمع شبيها باعمال النحاة القدماء في طريقة التيوب فحين هشام بوب باعتبار الحرف والجملة والمفصل مثلا باعتبار المنصوبات والمرفوعات الخ وسيبويه بوب باعتبار العاملة وان مالك بوب باعتبار الاسماء والافعال والحروف وسارت على ذلك شروحه واذن فالفقضية قضية تيوب لا اقل ولا اكثر قد يكفي هذا التيوب اسلم من الجهة التعليمية البيداغوجية ولكنه يبقى كما قلنا عاجزا عن ان يحس جوهر التجربة النحوية القديمة .

٤ - عملية التشذيب التي تعرض لها النحو العربي القديم تتجاهل ان هذا النحو نتاج عقلية معينة وثقافة خاصة

(٥٦) راجع للدخل الى علم اللغة الاثر وكليز ووربز وخصوصا الفصول المتعلقة بالنحو فستجد الفرق الاساسية بين النظرية القديمة والنظرية الجديدة ومن المناسب ان نذكر هنا ان النظرية اللغوية العربية المعاصرة امتداد للنظريات العربية القديمة .

(٥٧) بله هذا تقسيم للنحاة القدماء للابواب الى مرفوعات وخبر ورات ومنصوبات .

انصار النحو القديم لانه يشوه نوحهم ويعتدي عليه اعتداء لاسموس له ولا يرضى في الوقت ذاته انصار التجديد الحقيقي لانه ذو غايات تربوية غير لغوية تحليلية علمية .

ابراهيم مصطفى المصلح النظري :

انه كان في امكان المؤرخ ان يفضل اعمال المجمع مرة واحدة لولا ان اعمالا اخرى ادعت لنفسها التغيير والاصلاح والتجديد استقامت في شكل كتب اشتهرت ككتاب احياء النحو لابراهيم مصطفى وخلفه المخلص المهدي المخزومي .

لم يدخل ابراهيم مصطفى الى المجمع السنة ١٩٤٩ لمعنى هذا انه لم يشارك في اقامة الاعمال المشار اليها في الفقرات السابقة ولكن اضافاته الى النحو العربي تسير في الخط ذاته وتستفيد من الفكر الجمعي واسلافه . فاذا كان هؤلاء قد تحدثوا عن المسند والمسد اليه والمفاهيم دون ان يجروا على النبل من الخلفية النظرية داعين الى الاشارة الى الرفع او النصب او الكسر دون تعليل فان ابراهيم مصطفى قدم لهم الادلة النظرية فانكر العامل بانواعه الكثيرة (اللفظية والمعنوية) وباعداده المتكاثرة وحاول ان يفسر الحركات الاعرابية راجعا الى نوع من العوامل المعنوية (مع التجوز) وهي ان الضمة علاقة الاسناد والاضافة علامة الخفض وان الفتح في احوالها في الاسم العربي راجعة الى يسرها وسهولتها في النطق على العربي، وحاول ان يبرهن على نظريته الاعرابية^(٥٨) وتظهر هذه على الاحوال المدروسة في النحو العربي^(٥٩) وتظهر مدى استقامته من اعمال المجمع هو وخلفه المهدي المخزومي في كتابه عن نقد النحو العربي في اهتمامه الخاص بالاعراب الاسمي لانه من الواضح ان نظريته

العربية من خلال النحو العربي . فالابواب الثلاثة مستضم صورة مثبته عن النحو العربي والنحو العربي القديم بابوابه هو الذي اوحى الى اصحاب هذا الفكر بالطريقة التي نهجوا فالمقولات هي المقولات والتحليل في التحليل لان الخلفية النظرية واحدة وهم يوحون بانهم لن يمضوا اصلا من اصول اللغة ، وما هي اصول اللغة ؟ انها ليست الا الاصول التي وضعها النحاة القدماء ونظروا من خلالها الى اللغة العربية وهذا الاعتراف الضمني بالنحو العربي في خلال اقتراحات اللجنة او اذا شئنا هذا الحفاظ على الاصول هو الذي يجعلنا نظن ان عمل الفكر الجمعي وسلفه ليس الا بحثا عن طريقة من الطرق لتعليم النحو العربي اي ليس الا عملية بيلاجوجية قد ترتبط بما يسمى عند علماء التربية بالتربية او البيلاجوجية الخاصة المتعلقة بطرف تدريس المواد .

اننا حين نستند الفكر الجمعي وسلفه اي فكر اللجنة ونقد حفي ناصف والبكري واره الاصلاحيين في القرن التاسع عشر لا نريد ان تدافع عن النحو القديم فقد نحتاج الى ان نرفض النحو القديم كلا وقد نحتاج الى الاستفادة من المناهج الحديثة للعلوم الانسانية ومن بينها علم اللغة لكننا بانتقادنا للمجمع وسلفه او اسلافه نريد ان نكشف عن الصبغة البيلاجوجية لمشاريحه ونريد ان ننفي عنه كل طابع لغوي علمي وتريد بذلك ان نبرهن على فشل وسائله في النبل من النحو القديم ونريد ان نبه الاذنان الى اتباع وسائل اجدى نقيم نحوا جليدا ودرسا لغويا جليدا لا يلتجئ به بالضرورة الى الاعتداء الظالم على التراث النحوي القديم . ويلغة اخرى مستقول ان الفكر البراهمي البيلاجوجي المشار اليه لا يرضى

(٥٨) يظهر مع هذا ان ابراهيم مصطفى استند على المخصوص من كتاب جمع المراجع اللغوي وهو الكتاب النظم على نظرية العدد ونظرية الضلالت انظر من ١/٩٣ من

الشم ونظر تلك ص ١/٢١ ففي ذلك اتراح الاعراب يالنبية الى العدد والضلالت وما يها .

(٥٩) راجع من ١١١ - ١١٢ - ٦٨ - ٦٩ وفيها من احياء النحو لابراهيم مصطفى .

المهدي المخزومي - الخلف المضيف :

لا نعتقد ان في فكر المهدي المخزومي شيئا ليست اصوله عن ابراهيم مصطفى او عند المجمع او اللجنة فمهاجمة فكرة العامل سارت عنده على نهج ابراهيم مصطفى واعتبار ابواب التعجب والاستثناء والاستفهام والتوكيد اساليب مستقلة راجع الى اقتراحات اللجنة والمجمع ولكننا مع ذلك نجد من الواجب الوقوف عنده لانه يملن في مقدمة كتابه عن انفصالة المنهجي عن عملية التيسير فهو يقول « وظهرت محاولة لتيسير النحو في كتب مدرسية الا انها لم تقدم جديدا ولم تفعل شيئا يعيد لهذا الدرس قوته وحيويته لانها لم تصحح وصفا ولم تجدد منهجا ولم تأت بجديد الا اصلاحا في المظهر واتساقا في الاخراج اما القواعد فهي هي واما الموضوعات فكميا ورتبا حتى الامثلة لم يصبها من التجديد الا نصيب ضئيل فالتيسير اذن ليس اختصارا ولا حذفا للشروح والتعليقات ولكنه عرض جديد لموضوعات النحو يسر للناشئين اختلعا واستيعابا ويظهر ان يكون التيسير واقيا بهذا ما لم يسبقه نظير شامل لمنهج هذا الدرس وموضوعاته ^(٢٠) هو يملن هنا عن انفصالة المنهجي عن عملية التيسير كما تمت من قبل ولكنه يقترح متابعا ابراهيم مصطفى كما استنتجنا من قبل الشروع في تغيير الخلفية النظرية حتى يكون التيسير تيسيرا حقيقيا. وهذا بالضبط ما استنتجناه من قبل وهو بالضبط ما يجعلنا نسلك ابراهيم مصطفى والمخزومي في سلك واحد مع الفكر المجمعى واسلافه وعلى هذا الاساس يكون عمل

هذه لا يمكن تطبيقها على الاعراب بالفعل. وواضح مما قدما ان المجمع واسلافه لم يولوا من العناية القدر الكافي للفعل ونحن لاننكر ان رأي ابراهيم مصطفى جدير بالاهتمام ولكننا ننكر ان يكون هذا النحو المقترح او هذه النظرية الاعرابية الاسمية مستقلة كل الاستقلال عن النحو القديم فيبقى عمل ابراهيم مصطفى محاولة اصلاحية على المستوى النظري لا تجاوز اعمال المجمعين ولكنها تبقى محاولة جزئية لا يمكن ان تشمل الموضوع النحوي كله هي تجاوز لاعمال المجمع التشذيبية واستفاد منها ولكنها تقصر عن ان تصبح تحليلا جديدا للغة العربية من منظور آخر مستقل عن المنظار القديم . وهذا يعني ان ابراهيم مصطفى يمكن اعتباره مسلحا للخلفية النظرية التي اغفلتها اعمال المجمع واسلافها وكان حالة للمجمع و ابراهيم مصطفى تكرر حالة تاريخية سابقة فقد كتب النحو اولا ثم ظهرت المحاولات التفسيرية على يد ابن فارس وابن جني والزجاجي وابن الانباري ^(٢١) ثم السيوطي . وفي القرن العشرين وضعت الاقتراحات المجمعية وما قبل المجمع وبعدها ظهرت المحاولات التفسيرية على يد ابراهيم مصطفى . .

ان ابراهيم مصطفى حاول تفسير الظواهر الاعرابية الابجدية بمنهج لا لتردد في وصفه بالعلمية ولكننا نعتقد ان ما فعله بداية لم تمت عن طريق قراءة جديدة للغة العربية لا للنحو العربي واستغلت من الثقافة المعاصرة لكتب لها الاكتمال النظري والتطبيقي ^(٢٢) .

(٢٠) لمع اللغة لا يتركز الاثباتي مازال له مثلا تأثير على المؤلفين محدثين كسيد الافندي صاحب اصول النحو .

(٢١) نأظر في هذا المجال رأي علي التيجاني تصنف في الموضع ص ٩٩ ويخلصه ان ابراهيم مصطفى استفاد من كتاب ورد على النجدة و لاين مضاه ولكن يشوب مع ذلك ان ابراهيم مصطفى استفاد من ابن مضاه ولم يذكره . ولكنها استفادة حسنة لان انكار النوازل لا ي مثل تقديما نظريا واستغلت كل ذلك من السيوطي . انظر ه من لغتنا اللغة والنحو ه لمي التيجاني تصنف الموضع : ١٤٧٧ ونأظر من النوازل رأيا عكسيا في كتاب الظواهر اللغوية في التراث النحوي لملي ابو النكلام فقه نبيد للعملية والمثل ان سبب هذا اهتمام حول النوازل مرده ان لغتنا تأسس ليسوا من نتيجة بالحرفة والقرى ولكنهم كانوا كرموز عن آداب صانداوا اللغة في طريقهم

(٢٢) في النحو العربي لغة وتاريخه ص ١٦ - ١٥

اما النقطة الثانية فيرى فيها ان الدرس النحوي كما ينبغي ان يكون انما يعالج موضوعين مهمين لا ينبغي ان يفرط الدارس في اي واحد منها لانيها شيء واحد ان يعمل بعضه ذهب كله . وهذا الموضوعان هما :

١ - الجملة من حيث تألف اجزائها ، من حيث نظامها ومن حيث ما يطرأ عليها من تقديم وتأخير ومن اظهار واضمار .

٢ - ما يعرض للجملة من ممان عامة تؤديها ادوات التعبير التي تستخدم لهذا الغرض كالتوكيد وادواته والتفي وادواته والاستفهام وادواته والى غير ذلك من المعاني العامة التي يعبر عنها بالادوات والتي عملها على المتكلمين مقتضيات الخطاب ومناسبات القول .

واذا تركنا للمخزومي الى غيره كالاستاذ كمال بشر في كتابه عن علم اللغة وهو كتاب يعني في تعاريفه بالاستفادة من اعمال الغربيين لوجدناه يعتبر النحو هو النظم اي السانطاكس ويقول في تعريفه ان النحو ووظيفته هي البحث في التركيب وما يرتبط بها من خواص ولا يتم النحو في العرف الحديث بالبحث في الاعراب ومشكلاته كما اراد له بعض المتأخرين من النحاة العرب وانما عليه كذلك ان يأخذ في الحساب اشياء اخرى مهمة كالواقعية والارتباط الداخلي بين الوحدات المكونة للجملة او العبارة وما الى ذلك من مسائل لها علاقة بنظم الكلام وتأليفه ولشدة ارتباط الصوت بالنحو جمع اكثر العلماء بينها واطلقوا عليها اسما واحدا هو « الكرامير » اي قواعد اللغة وحقيقتها القول ان الصرف ان هو الا خطوة عمدة للنحو او هو مرحلة اولى منه^(١٤) « واذا تركنا العرب جميعا الى الفرنسيين المعاصرين اصحاب المعجم اللغوي^(١٥) »

المخزومي داخلا في اطار حركة التيسير ومستعملا ادوات منهجية لم يستعملها للمجمعون واسلافهم . وعلى هذا الاساس ايضا اجزنا لانفسنا في الفقرة المتعلقة بابراهيم مصطفى ان ننزع عنه صفة البراجماتية والتربوية لانه ان كان غرضها معا اعني للمخزومي وابراهيم مصطفى هو التيسير فانها حاولا ان يصلا اليه عن طريق علمي منهجي تحليلي فيكون التيسر نتيجة لتحليل لغوي جديد يعتمد على مفاهيم جديدة وفي هذه الحالة ميسرنا لتحليل النحوي استقلاله وهو استقلال يرد به استقصاء حالات الموضوع للدرس فاذا سلم هذا التحليل من النوع غير اللغوي التي اتصلت به عند العرب الاولين واصبح تحليلا لغويا صرفا يعتمد على منهج لغوي متكامل لا يفرض على اللغة من الخارج امكن لاصحاب التيسير ان يستفيدوا وان يسروا وان يفقوا من التحليل الجديد موقفهم التربوي وفي هذه الحالة سيكون موقفهم التربوي هو ايضا مستقلا عن المشروع النحوي المستقل ذي الموضوع المستقل اما ان يقصد اليسرون الى التجربة القديمة بما علق بها من « شواذب غير لغوية » ليستخلصوا صورة سهلة فذلك ما ياباه الدرس اللغوي لان ذلك القصد سيصبح قصدا تشويها ولهذا فان للمخزومي يرى ان الخطوة الاولى هي اصلاح المنهج وذلك يتم في مرحلتين :

١ - تخليص النحو مما علق به من « شواذب » جرها عليه منهج دخیل هو « منهج الفلسفة » الذي حمل معه الى هذا الدرس « فكرة العامل » .

٢ - تجليد موضوع الدرس اللغوي ليكون الدارسون على هدى من امر ما يبحثون فيه^(١٦) .

(١٣) من ١٧ - ١٨ . المرجع السابق . يتطد في الكتاب كل شيء مما استقر عليه القدماء كالتأليف والاعمال . ففقد سهل والهاء صحت وان كان باخرايل .

(١٤) ص ١٣ دراسات في علم اللغة لكمال محمد بشر ١٩٧٣ القاهرة .

(١٥) المعجم اللغوي - لاروس بقترسية باريس ١٩٧٣

لوجدنا هؤلاء يضعون أربعة تصورات للنحو فهو تارة يعني الوصف التام للغة من جميع جهاتها ومستوياتها ويحتوي اذ ذاك على الفنولوجيا والنظم واللكسوكولوجيا وعلم الدلالة النحوي هذه الحالة يكون النحو معادلا لدرس يتعلق بلغة ما تعلقا كاملا ويكون هذا الدرس مصورا لسائر النظم الكبرى والصغرى المتوازية والمتداخلة التي تجعل من المتكلم اللغوي حين تكتب له الاحاطة بها متمكنا من الكفاءة اللغوية . وهو تارة أخرى في رأي مدرسة لغوية أخرى يشمل الموضوعات السالفة باستثناء الفنولوجيا .

وفي هذه الحالة يصبح النحو معادلا لموضوعين : الصرف والنظم او المورفوسنتاكس ، وهو اختيارا في رأي المدرسة التوليدية الجديده يكون معادلا لنموذج الكفاءة الثالثة .

هذا النموذج هو علاقة بين الصفة والمعنى وهكذا فان اي نحو يولد طائفة من الأزواج ويكون لكل زوج جانب صوتي وتفسير دلالي النحوي^(٦٦) وهكذا يفهم ان كمال بشر لم يميز في كلامه بين هذه المدارس وإنما انتقى منها وهو اقرب الى تيار ستدرسه نيا بعد منه الى المخزومي وإنما اتينا على ذكره وعمل ذكر التعاريف المختلفة للموضوع النحوي لنبين ان تحديد الموضوع النحوي عند كمال بشر وبالأولى عند صاحب المعجم اللغوي يستند الى تاريخ لغوي يبدأ في موسوره وتحديد الموضوع النحوي عند الآخرين مرتبط بتحديد الموضوع اللغوي ككل وهو ما قام به دوسوسور^(٦٧) وكان تحديده بداية انطلاق الدرس اللغوي الوصفي في أوروبا وبداية ثورة جديدة في حقل الدراسات اللغوية أما عند المخزومي فأتانا وان كنا نراه

يجعل موضوع النحو هو الجملة ويلج على ذلك في التفتتين اللتين قسم إليها موضوع النحو في نظره ، نظن ان تعاريفه راجعة الى محاولته الاستفادة من اعمال البلاغيين على الخصوص ، فتعاريفه ليست مرتبطة بتحديد الموضوع اللغوي ككل كما قدمنا وإنما هي مرتبطة بمحاولة الاستفادة من التراث البلاغي القديم^(٦٨) بالموضوع الأول يرحي كما عرفه بأنه يعني النظر بالمعنى الحديث . ولكن قراءة كتابه ترجعنا الى كتابات البلاغيين وقد اشار الى بعض ذلك في التعريف ذاته وإما للموضوع الثاني كما عرفه فلا نكاد نفهم منه شيئا بالتحديد ، هل يعني به فكرة الاساليب التي ورثها عن المجمع واللجنة او يعني به المورفولوجيا بالمعنى الحديث ؟ ونحن نميل الى انه يعني به الاساليب لانه غرضها بمصوله في نهاية كتابه ولاننا لا نجد في خلال عرضه النحوي ما يرحي بأنه يحاول ان يدخل تجرته النصوية في اطار التجربة اللغوية العامة المعاصرة وإذا شئنا ان نقول هنا شيئا قبل إخوانه لاننا سترجع اليه من بعد صرحنا بان تجربة المخزومي هي استفادة من اعمال المجمع واللجنة وابراهيم مصطفى واعمال علماء الساميات الذين درسوا بمصر في اوائل القرن واعمال البلاغيين وكانت هذه الاستفادات تكوّن النقد والتوجيه اللذين كانا جوهر محاولته وغرضه من كتابه .

أما النقطة الأولى التي تتعلق بضرورة ابعاد شواثب الفلسفة التي علقت بالدرس النحوي عند العرب فهي قضية قدعية ناقشها الناس من اول القرن^(٦٩) كما قلنا . وليس المخزومي باول قائل بها واللغويون جميعا يجمعون على ضرورة هذا الابعاد ولكهم يختلفون في سبله

(٦٦) انظر الدخول الى النحو التوليدي لروبي بالقرنفة وانظر كتابات شومسكي واصحابها مظهر النظرية التركيبية .

(٦٧) لغوي سويسري صاحب د هروس في علم اللغة العام يورأس للغة العرب القبيبة النظرية الأوروبية .

(٦٨) لآلال الاحجاز والائل السائر للبرجاني وابن الاثير على الترتيب ويشير المخزومي الى اصول ملجبه بلاطية .

(٦٩) انظر على سبل المثال ، اللغة العربية عبر القرون ، والمجمع اللغوي ، وفي اللغة والادب ، تكررت من قبل .

جليد ينحصره ولكن الجليد الذي أضيف الى قديمهم هو اما قديم بذاته كالبلافة وابحاثها واما القديم باعتبار التطور العلمي الحاصل في الامم المتحضرة ومثاله الاعمال المقارنة السامية التي استفاد منها المخزومي كاسماعيل ولفنسون^(٧٠) وغيره ولم ينغم من ذلك الاخطاين البحث الثابت والبحث التطوري التاريخي او المقارن . وهو خلط من جهة اخرى جعل قاريه عمل المخزومي يتبين ان المخزومي لا يبحث عن النظام النحوي او الصوفي او من البنية التي عيكلت العربية على اساسها وانما يبحث عن الشرح لاجل الشرح مستعينا في ذلك بكل ما يقع على يده من جديد او قديم .

وكان بإمكانه حين اراد الاستفادة من السمات المقارنة ان يجعل كتابا مستقلا كما يفعل غيره من الغربيين من زمن بعيد ايضا^(٧١) . ومن ناحية اخرى كان هناك قديم آخر استفاد منه كل الاستفادة وهو النحو الكوفي ولا غربة في ذلك فالمخزومي كآب كتاب عن الكوفة ونحوها^(٧٢) ، وكل هذا القديم والجديد الذي التجا اليه للمخزومي لم يكن ملتجيا اليه في اطار تحليل لغوي متكامل وانما ذهب اليه نهائيا يريد منه الترميم والإصلاح .

ان التيار البراجماتي تيار اصلاحي ترميمي كما قلنا وقد زالت عنه الصفة البراجماتية الصرفة عند ابراهيم مصطفى والمخزومي وزلا غير تام لانها عنيا بوضع الحلفية النظرية، وما قدمناه عن انتقاد في شأنها يعملنا نصف للتيار كله البراجماتية الاصلاحية^(٧٣) .

التيسار الغربي :

اذا كان التيار البراجماتي في رأينا واجعا الى الظروف الاجتماعية التي عاشتها البلاد العربية - ولذلك كان

وطرائقه : ا يكون الابداع يكمن فقط في رفض نظرية العامل ؟ لقد رفضت هذه النظرية من قبل عند ابي مضاد ومع ذلك فقد بقيت في محاولة ابي مضاد شوايب اخرى ، ا يكون هذا الابداع كامنا في رفض التعليل والجدل ؟ ا يكون هذا الابداع متحققا اذا تابعنا المخزومي في استفادته كما اشرنا اليها آنفا ؟ على كل اذا تحقق ابداع شوايب الفلسفة عن طريق رفض هاته المفولات فلان ذلك يبقى على التجربة النحوية قائمة ومشوهة ولان هذا الرفض سيكون بمثابة ردود فعل فقط لا يقف وراءها فهم ومن ناحية اخرى ألا يتجه النقد الى التجربة النحوية القديمة الا في هذه المواطن المشهورة ؟ وما رأى المخزومي واسلافه في ضرورة تحديد الموضوع اللغوي ككل بمجمعه ودلائله ونظمه وتركيبه الخ ؟ وما رأى المخزومي واسلافه في تصور النحو ؟ وما قدمناه من تعاريف له يدل على ان النحو تدخل منهجي في اللغة يقوم به النحو في اطار انظمة لغوية عامة يكون النحو احد اجزائها - ان المخزومي وان حاول وضع علامات يمشي بمقتضاها متأثرا باسلافه كما قلنا فإنه مازال بعيدا عن ان يتصور النحو بمختلف تعاريفه كتدخل منهجي قد تعتمد امثلته واصنافه باختلاف المنطلقات المنهجية - وباختصار فإن المخزومي واسلافه كانوا مازالوا يتصورون النحو العربي مطبقا للغة العربية وعليهم اصلاحه في حدود اتمام المطابقة وعدم تجاوز هذه الدرجة الى الاهتمام بمحاولة الدخول في النطاق العلمي اللغوي العالمي ولو اهتم فعلا لكانوا خير من يقدم لنا صورا مختلفة للنحو العربي كما يفعل الاوروبيون نقول (لكانوا خير . . الخ) لما توفر لديهم من علم بالقديم وهو علم كان سيضاف اليه

(٧٠) في كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٧١) النحو التاريخي لبرون - بقرسية .

(٧٢) لستاه منبج صيدة و قاعل - ودرها - النحو العربي ص ١١٩ النحو الكوفي (مدرسة الكوفة) ص ٢٤ . انظر كتاب الكتفاري من النحو الكوفي .

(٧٣) انيس فرعة ، وكتاب نحو عربية مبصرة - يدخل في هذا النطاق الا ان فيه ولي غيره من كتبه نكهة لغوية دقيقة .

القرن العشرين بل ربما اعتبر عمله عند شلديني الحفاظ
تطاولا على التراث اللغوي العربي بإيراد مبتدعات لا
عهد لهم بها ومع ذلك فيعتبر جرجي زيدان أبا للدروس
اللغوي الغربي الحديث عند العرب وإن كان صاحبه يقع
في موقع تاريخي (قبل دوسوسوري) - pre-
Saussurian. إن حالة جرجي زيدان والمصير الذي
لقيه مشروعه حين يقارن بالرغبة الشديدة في النقل عن
الغرب في خصوص اللغويات بعد الأربعينيات - وهي
رغبة اشتلت مع الزمن إلى أن أصبحت اليوم نوعا من
الخص الفكرية في البلاد العربية - تجعلنا نربط ظهور
التيار الغربي ظهورا بارزا في القرن العشرين بالتطورات
للمجتمعية - الفكرية التي كانت من حظ المجتمع العربي
في هذه الفترة . ومن أهم التطورات المجتمعية ظهور
كليات الآداب ذات التعليم العصري وأرسال البعثات
إلى البلاد الأوروبية لأغراض أخرى غير جلب العلوم
المادية . ولقد كانت بعثة منصور فهمي وإحمد ضيف
والخولي وزكي مبارك وطه حسين النخ وغير هؤلاء من
البلاد العربية الأخرى إلى البلاد الأوروبية تجعل منهم
خير من يلحق الفكر العربي الحديث بالمتاهات الغربية في
جمال الانسانيات وهكذا كتب لهذه البعثات الأولى أن
تحدث الضجة الفكرية في المجتمع المصري لأنها أدخلت
إليه مناهج إنسانية جديدة هزت كيان الضمير العربي .
وما فكر على عبد الرازق وطه حسين الذي هز المجتمع
العربي هذا الإنتاج لتأثير الانسانيات الغربية المباشر على
الفكر العربي. وعلى ما يظهر فإن المدوي الفكرية بين
الدراسات المختلفة تعمل عملها فبعد أن هزت بعض
الأسس الكبرى التي بني عليها المجتمع العربي
الإسلامي مع مطلع القرن أصبح هو الأسس الأخرى
- ومن بينها التراث اللغوي النحوي العربي - ممكنا ولكن

اهتمامه منصبا على قضية النحو وما اقترب منها من شئون
مستحجلة كقضية الكتابة والمصطلحات - فإن دوافع
التيار الغربي لن تكون بالضرورة هي دوافع التيار
البراجماتي إذ دوافع التيار الذي سندرسه الآن مرتبطة
برغبة عارمة أصابت عرب القرن العشرين جوهرها
الاخذ عن الغرب المتقدم وكان هذا الاخذ في أول الأمر
متعلقا بالماديات وكان الباب طيلة حقب مغلقا أمام
الانسانيات والمجتمع العربي يقبل كل ما يتعلق بتطوير
إمكاناته المادية ولكنه يرفض أن يصيب الضمير العربي
قلق عميق تحرجه إليه انسانيات الغرب سواء كانت
اجتماعية أو سيكولوجية أو لغوية أو انثروبولوجية النخ .
ودون أن نبتعد عن الموضوع اللغوي لننزلق في
التفسيرات الاجتماعية لهذه الظاهرة نرى أنه في
خصوص القضية اللغوية يلزم الإشارة إلى أن المهتمين
بهذه الضمير العربي ورفض الانسانيات قوم لا تدفعهم
إلى ذلك دائما دوافع علمية عضوية وان الذين اشرأبت
اعتناهم إلى الغرب يأخذون عنه إنسانته هم أيضا قوم لا
تدفعهم فقط دوافع علمية عضوية ، ذلك أن انسانيات
الغرب - وإن ظنت اقرب إلى العلمية وكانت نتائجها
نهاية مؤقتة لمسار تاريخي - ليست خالية من الخلفيات
المجتمعية^(٧٤) وكذلك الأمر في الانسانيات العربية^(٧٥)
لأنها هي أيضا نتاج فترة معينة من التاريخ ينطبق عليها
ما ينطبق على غيرها من أحكام قديماتها في خصوص
الانسانيات الغربية . ولقد كان جرجي زيدان سباقا
بكتابه (الفلسفة اللغوية) إلى تنبيه العرب إلى هذا
الدروس اللغوي ولكن عمله بقي منسيا لدى الأوساط
اللغوية العربية ولم يزل من الاهتمام ما كان حقيقا به أو
إذا كان قد قريء على نطاق واسع فإنه لم يستفد منه في
خصوص درس القضية اللغوية في النصف الأول من

(٧٤) ترويه وماركس وكراميه للتركيب للجمعية اللغوية

(٧٥) نظر كتابات أحمد مكي صالح عن الجين واليسار في الإسلام وما شابه .

الحلقة العثمانية رغبة في الاستقلال العربي واختها صورة فكرية هي ثورة علي عبد الرازق على مفهوم الخلافة وشرعيتها ثم كان موقف طه حسين من الشعر الجاهلي بعد الثورة العربية مباشرة ثم كانت الثورة على الطرق في المغرب وقبلها الحركة السلفية في المشرق ثم كانت حركة قاسم امين لتحرير المرأة وهي حركة تبلورت في شكل اكاديمي عند منصور فهمي وبعد هذا كله كانت الثورة على الاساليب المروضية القديمة في اواخر الاربعينيات ثم كان استبداد علوم الغرب واستعمالها من لدن فئات من المجتمع العربي الخ حقا لم تكن جميع هذه الثورات فكرية حصة بل لم يكن اي تغيير فكري مغلما في الهواء فلها جميعا ارتباط بالارضية المجتمعية والمواقف الاجتماعية والاقتصادية للمتلدين بها بل ان بعض هذه الحركات كانت فيها يظهر ردا على اسدات معاصرة لها ويكفي ان نذكر مثال طه حسين وثورته الانكارية على الشعر الجاهلي لتربطها بالثورة العربية التي قادها الشريف حسين وابناؤه من اجل تأسيس دولة عربية غير عثمانية وذلك الربط يكمن في ان تحطيم الشعر الجاهلي باتكار صحته في تلك الظروف يعني في بعض ما يعني انكار امكان قيادة الدولة العربية لان هذه الدولة التي كانت في طور الثورة والنشوء لا تمتلك اساسا ماديا ولا تمتلك ايضا اساسا ادبيا ولغويا حقيقيا على كل فقي اطار هذه الحركات تدمج حركة استيراد الجديد اللغوي من اوروبا وتكون على هذا الاساس الحركة التجديدية ذات الاتجاه الغربي حلقة من حلقات الثورة على البالي وحلقة من حلقات التغيير .

هذه الحلقات من التغيير الذي شهد القرن العشرين ليس في حقيقة الامر اأردا على قرون من الجمود . وهما الجمود يتمثل في طبقة من السلطة الثقافية التي امتات في النفس روح البحث والتفتيق مع كل مجال من مجالات المعرفة : كتاب او كتيليت هما المرجع الأول والاخير .

مع ذلك يبقى تفسير هذه الظواهر الفكرية محتاجا الى درس عميق للمجتمع العربي في سيره العام ولحمل الثورة على الماضي الثقافي العربي الاسلامي كانت مرتبطة في الاساس بالرغبة في التغيير وهي رغبة عامة غامضة قد تكون استولت على ذهن فئات معينة من المجتمع العربي الاسلامي في القرن العشرين . ولا نستبعد ذلك فمزال حاضر الفكر العربي المعاصر يقدم لنا الدلائل على ارتباط الحفاظ على المستوى الاجتماعي السياسي بالحفاظ على المستوى الفكري وارتباط الثورة الفكرية والرغبة في نقد التراث بالرغبة في التغيير الاجتماعي السياسي . ولكن هذه التفسيرات الاستطردية لن تشغل بالنا هنا عن الموضوع اللغوي الذي هو مناط كلامنا فيكفي اذن ان نعرف ان الساحة العربية عرفت مفكرين يرفضون في عروضهم اللغوية التراث اللغوي القديم كله وينادون بوجوب الدخول في العلم اللغوي المعاصر وهم في نداءهم هذا لا يفعلون الا ان يوجهوا الازهان الى ضرورة الاندماج في حضارة البحر الابيض المتوسط في حضارة امريكا في حضارة الدول المتقدمة وباختصار الى ضرورة الاندماج في الحضارة المالية المعاصرة بشكل يذهب عن الفكر العربي الاسلامي الانمالية التاريخية .

ان رغبة هؤلاء المجلدين الراديكاليين تكون حلقة واحدة من حلقات الرغبة العامة في التغيرات التي سيطرت على عقل مفكري القرن العشرين العرب الذين اشتغلوا بانماط دراسية وثقافية مختلفة ومثلوا جزءا هاما من ناحية العمد والتصنيف من المهتمين بالثقافة .

ان القرن العشرين يمتاز بخاصية قلبا اعتم بها ويتبع اطوارها الدارسون ولكنهم دأبوا على درس مغايراتها بشكل انفصالي في اطار التقسيمات العلمية المتعارفة les disciplines . هذه الخاصية تتمثل في الصور التي اتخذتها الرغبة التغييرية للشار اليها انفسا ، لقد كانت صورتها الأولى سياسية وهي ثورة العرب بآمالهم على

يكون نقاشا للصورة التجديدية ونختار لها محمود السحران في كتابه عن « علم اللغة » وللصورة المحافظة وسنختار لها صبيحي الصالح وعمد المبارك .

بين فقه اللغة وعلم اللغة :

ان من اوائل الذين استعملوا كلمة فقه اللغة في العصر الحديث علي عبد الواحد وافي^(٧٧)، وقد استعملها لتعين ضربا من الدرس اللغوي المرتبط على الخصوص بالعربية والساميات وتابعه في ذلك صبيحي الصالح في كتابه عن فقه اللغة ومحمد المبارك في كتابه ايضا. وحينما نتسلم عن اصل هذه التسمية أي ترجمة ام استئناس بتسمية قديمة نقف امامنا ثلاثة افتراضات :

١ - ان تكون هذه التسمية مرتبطة بنوع من الدراسات اللغوية السامية المسروسة في مصدر قبل الاربعينيات .^(٧٨)

٢ - ان تكون ترجمة لمقابها الانجليزي Philology .

٣ - ان تكون استئناسا بالتسمية القديمة (فقه اللغة) التي لم تكن وحدها تعين الموضوع اللغوي .

ولمجرهنا ان نشير الى ان اللغويين العرب المحدثين لم يعنونوا كهيم على الدوام بهذا العنوان (فقه اللغة) بل الظاهر ان اغلبهم سار على رأي من يرى ان الموضوع هو لغة فحسب فلم يهتم للعنوان اهتماما كبيرا . وهكذا رأينا كتابا مثل « احياء النحو » و « الاشتقاق » والتعريب (التطور اللغوي التاريخي) ، دراسات بالعربية وتاريخها الشيخ . وهذا هو السبب في خفاء معنى هذه التسمية عند اللبدين في الدرس اللغوي يضاف الى هذا كما قلنا من قبل ان الموضوع اللغوي ملازم لتجاذبه

اذا كان التيار البراجماتي كما قلنا قد اهتم بالمسائل المستعجلة فان التيار التجليدي اهتم بعرض النظرية ولم يتم في يوم من الايام باعطاء النموذج التطبيقي للنظرية التي يرضيها^(٧٩)، فاذا كنا نعرف في مجال الفلسفة شخصا مثل زكي نجيب محمود ممثلا للوضعية داعية اليها وشخصا اخر مثل عبد الرحمن بدوي وجوديا وداعية الى الرجودية كما يفهمها فاننا نعرف في مجال اللغويات عروضه للتراث اللغوي الغربي الحديث وكان المعارضين ما كانوا من اتباع نظرية معينة اذ لو بلغ بهم الالتزام النظري الى هذه الدرجة لتحولت كتابتهم من كتابات عروضه الى كتابات تمحي بالجانب التطبيقي وتفتح امام اللغوي في البلاد العربية افقا جديدة لا غناء البحث اللغوي. ولهذا فلن تيسر لنا المقارنة بين هذا التيار التجليدي والآخر البراجماتي لان الاول يعمل في المستوى النظري دون نموذج تطبيقي، والثاني يعمل في المستوى الفهمي التطبيقي دون نظرية لغوية مترابطة متكاملة. حقا نجد في كلام التجليديين انتقادا لمواضيع يعني بها التيار البراجماتي ولكنه انتقاد لا يصاحب بالنموذج التطبيقي ولذلك يفقد كل قوته .

ان الآثار التي سنعي بها في هذا العرض يجب ان تكون من الجانبين على طبيعة واحدة اي ان تكون نظرية كلها او تطبيقية كلها. واما اعمال التجليديين نظرية كلها فاننا سنختار من الآثار اللغوية المعاصرة الصور المحافظة على المستوى النظري. ولا كائن للمجلدون قد اعتادوا ان يعنونوا اعمالهم باسم « علم اللغة » واعتاد آخر من عتوانا آخر هو « فقه اللغة » فلعل عرضنا هنا ان

(٧٦) هناك كتابات استخدمها عبد الرحمن ابيوب تحت عنوان « دراسات نقدية في الفصح العربي » نظير فقه علم استنباطه بالبنوية والتيها لنظام حسان تحت عنوان « العربية معانها وبنائها » فيه جهد فخر ولكن هو في حروف صاميه من النظريات القوية لتقسيمها لغة وال نظرية العربية القديمة تارة اخرى وهذا شأن الأول كذلك .

(٧٧) اول من قدم عرضا واليا من النظريات القديمة القوية . سبيله تجريجي زيانا وجير هوسا واخرون ولكنه يمتاز عنهم بالعمق والتقييم وحسن العرض .

(٧٨) يظهر ان هذا هو السبب . انظر ص ١٠ من فصول في فقه اللغة العربية لرحضلان عبد الصواب وص ١٢ من « مقدمة لدراسة فقه اللغة » لمحمد احمد ابرو الفرج وانظر ما نقله زكي بديرك في كتابه فقه اللغة ٢/٢٣٧ .

في هذا الباب لم يشعروا في الانحياز هذه التسميات التي لا تدل على علوم معينة او مواضيع محددة ولكنها تشير فقط الى نظريات متباينة متعلقة بموضوع واحد فالقضية اللغوية اذن قضية واحدة ولكن المشارب مختلفة . وينبغي هذه للمشكلة ان تضع في الانحياز ان الفكر اللغوي العربي بلغ حدا من النضج من زمن ما ثم مضى عليه حين من الدهر كان فيه الفكر اللغوي الغربي يتطور الى الامام فلما استغرق العرب المحدثون اصطلاحا بما قدمه اليهم الغرب من منتجات فكرية في مختلف المجالات المادية والنظرية اصطلاحا بترميزاته وكيماياته واستمراره وماله وادبه وفلسفته وعلم اجتماعه وعلم نفسه واصطلاحا في نهاية الامر بعلم لغته . وكانت مواقفهم من هذه المنتجات غير منسجمة ؛ انهمزوا امام علمه المادي فسروا طبيعيات ابن سينا وغيره ؛ وانهمزوا امام علم اجتماعه فاصبح ابن خلدون وغيره في ذمة الدين التاريخي ؛ وانهمزوا امام علم نفسه فسروا علم النفس لايين باجة ولكن جزءا كبيرا منهم لم يتهمز امام علم اللغة الغربي واذا كانت مهمة شرح هذه الظواهر من مجال الفيلسوف او دارس التاريخ الحضاري فان ذلك لن يعقينا من ابداء بعض ما يمكن ان يكون سببا في ظهور للمقاومة على المستوى اللغوي ويظهر ان الاسباب التالية تساعد على توير الالهام في هذا الموضوع :

١ - ضخامة التراث اللغوي العربي وارتباطه في الزمن باللغة العربية فالتخيل عنه تقل عن اللغة العربية هذه وجهة نظر الرافضين ولن تصح الا بعد البرهان على صحة هذا الارتباط .

٢ - سوء تقويم الوافد الغربي وهذه نقطة تكاد تجزيه عن غيرها .

٣ - الحساسيات القومية التي يظهر مفعولها في اللوضوع اللغوي ويتخفي مع الموضوعات الاخرى .

٤ - مساندة السلطات التعليمية للتيار القديم .

نظريات بعضها قديم وبعضها مفرق في الحداثة . وهذا الاخير هو الذي يابى الا ان يظهر نفسه تحت عنوانه البارز المعروف (علم اللغة) . ان هذا الاضطراب في التسميات حضاري في اسامه فالغريون يدسون تلوخي دراساتهم اللغوية تحت عنوان واحد رغم ما يضمه ذلك العنوان من مراحل قطعها الدرس اللغوي عندهم ؛ فكل ما يتعلق باللغة من درس فهو علم اللغة سواء كان قديما او حديثا . والحداثة ليست مؤثرة في الموضوع وانما تأثيرها في المناهج وطرق التداول واتساع وضيق الافاق المدروسة ولهذا فان ما اعتدنا ان نعتبره مقابلا لكلمة الفيلولوجيا عندهم ليس كذلك فالفيلولوجيا هي التاريخ والادب واللغة والماضي الثقافي عموما والفيلولوجي هو رجل يتعم بالادب القديم واذا كان سبويه مثالا لغويا في عرفنا وعرف الاوروبيين فرجل كالاصمعي والضي يعتبر على اصطلاحهم من اعظم الفيلولوجيين-حقا تختلط الفيلولوجيا باللغة في بعض الدراسات كدراسة الاب قليس المعنونة : « دراسة في الفيلولوجيا العربية » وهي متعلقة بمواضع لغوية صرفة ولكنه شلوذ لاحساب له . قلنا ان ما نعرفه من اختلاف في التسميات اضطراب حضاري . فالوافد الجديد لما يندمج في الموروث القديم والذين قلدوا هذا الوافد الجديد للعرب المحدثين لم يقدموه في صورته الحقيقية من ناحية هدفه قدموه كعلم جديد وهوليس علما جديدا انما هو مناهج جديدة.وفي حالات اخرى قلدوا النتائج ولم يقدموا المقدمات وكانت صورة التقديم هذه سببا في اعراض الموروث القديم عن هضم الوافد الجديد ، وكانت صورة التقديم تزداد سوءا كلما تعلحت العنواوين واختلفت من فقه اللغة الى علم اللغة الى اللسانيات الى الفلسفة اللغوية الى فلسفة اللغة .

ما انتجه العرب المحدثون مما يتعلق بهذا الباب قليل اذا قيس بما تشهده عند الغربيين وليت العرب اذا اختلفوا

ولعل النقطة الثالثة والرابعة لا تخرجان عن النقطتين الأساسيتين الأوليين وقد نبهنا على بعضها من قبل وبقي ان نبه على البعض الآخر الآن وهو ارتباط التراث اللغوي بالعربية . ونعتقد في هذا المجال ان هذا الارتباط بالعربية ا شبه بارتباط النظام السياسي الخلفي بالامة الاسلامية فقد كان يظن ان سقوط الخلافة العثمانية مثلا كان كافيا للقضاء على الامة الاسلامية وكيانها ولكن التاريخ دل على ان علاقة بين الامرين فسقطت الخلافة وبقي المسلمون وكذلك الامر فيما يتعلق بالتراث اللغوي والعربية فيمكن ان تبقى العربية وان اضيف الى تراثها القديم التاريخي تراث جديد لاسيا ان هذا التراث الذي يحاول اقامته بعض الناس ليس في جوهره الا تشكيلا جديدا للتراث القديم واللغة العربية يعكس عكسا اضرب في العلمية حقيقتها فقه اللغة ، علم اللغة ، اللسانيات ، الفلسفة اللغوية ، فلسفة التسميات ، إلخ . التسميات ليست دراسات يستقل بعضها عن بعض ولكنها تسميات تتعلق بالمجاهات مختلفة في الموضوع اللغوي الواحد .

اذن الواقع اللغوي عند العرب واقع تباري وليس هادئا متوحدا ، ولهذا ارتأينا ان نتابع حديثنا عن التيارات اللغوية عند العرب المحدثين واضعين في الاعتبار اننا نصف الواقع التواهي لندرس كان الايق به ان يتعد عن الحاسيات الدالة ليستمر متدفقا كما تدفق عند العرب الاقدمين وعند غيرنا من المعاصرين .

لقد شاعت عند العرب الاقدمين تسميات مختلفة للموضوع اللغوي ليس اساسها نزاعا بين تراثين ولكن اساسها الاعتراف بتوحد الموضوع اللغوي كبا ان المحدثين من اللغويين المحدثين الغربيين قد اهتموا بالتمييز بين التسميتين التابعتين اي بين علم اللغة والفيلولوجيا فجاء في معجم علم اللغة ان الفيلولوجيا ليست مرادفا لعلم اللغة . والعلوم المساعدة لكل واحد

منها ليست هي في حالها معا ولكن هذا التمييز ليس الا حديثا لان تطور علم اللغة الحقيقي يؤرخ باواخر القرن التاسع عشر بهذا المعنى نقول ان علم اللغة انفصل عن الفيلولوجيا (كما انفصل الطب والعلوم الطبيعية وعلم النفس عن الفلسفة في ظروف معينة) . ان الفيلولوجيا علما تاريخيا يتم بمعرفة الحضارات القديمة او الماضية بالرجوع الى الوثائق المنتهية اليها وهذه الوثائق تساعدها على فهم ومعرفة المجتمعات القديمة . واذا كان علم الآثار يتعرف على حضارات الماضي عن طريق الآثار المادية فالفيلولوجيا بمنها القرنسي تدرك خصوصا البقايا الكتابية فهي اذن وفي جوهرها علم مساعد للتاريخ شأنها في ذلك شأن علم النقود وعلم الكتابات وغيرها . ان كل علم تاريخي يتم بتوثيق النصوص التي يعتمد عليها وتصحيح صدق واصالة النص عن طريق نقد داخلي وخارجي . والفيلولوجيا نقد للنصوص يتم باقامة النص اعتمادا على معايير داخلية وخارجية يرجع فيها الى تقنيات فيلولوجية صرفة (مقارنة النصوص والمفاريات وتاريخ المخطوطات) ويرجع فيها ايضا الى معطيات خارجية تنتمي الى تقنيات اخرى كالاحصاء اللغوي المقصود به تاريخ الوثائق غير المؤرخة او التاريخ الادبي والاقتصادي والاجتماعي الى آخره . وهكذا فان احتياج المقدم للنص اي الفيلولوجي الى كل هذه المعطيات الجزئية تجعله متة شخصا موصوفا بالاطلاع الواسع فالمعمل الاول للفيلولوجيين هو تحقيق التصور العلمي والنقدي . وبما يلحق بما تقدم ان تقدم التقنية الى حد ابتكار العقول الآلية سيساعد الفيلولوجيا في المستقبل على اختصار الوقت الطويل الذي تتطلبه المقارنات بين النصوص ويساعد النص على ان يتحرر من ثقلية الفيلولوجي التي تصيب هذا النوع من الاعمال التقنية اللغوية في آن واحد لان امكانيات اقامة النص متعددة في الاطار العلمي وهذه العقول الآلية في هذا المجال تندفع عن طريق اشير اليه من قبل الى عقلنة هذا النشاط .

من الصعب إحداث معادل شبه موضوعي بين الابداع التشكيلي والكلمة التي تحاول ان تقلعه ، والاصعب محاولة تقديم نماذج من الابداع التشكيلي لفنون لم تعرف الفاصل التعميقي بين العمل الفني ومتذوقه او ما يمكن ان نسميه ، بمصطلح حسي ، الفاصل بين المنتج والمستهلك .

وقد كانت الفنون الاسلامية نموذجاً متكاملها لهذا اللون من الابداع . والأشد صعوبة بالتالي الحديث عن معرض يقدم نماذج من هذه الابداعات تم انتقاؤها باحكام لا شك انه جاء عكياً بدوره بمدى توفر مادة الابداع ومدى تنوع هذه المادة بحيث ينساب الخيط الحفي في يسر وسهولة وتلقائية داخل قطعة نسج صغيرة تحاول ان توزج وتكتف النسيج الحضاري العام طويلاً وعرضاً . . وما نشأت المعارض بمفهومها الغربي الا كمحاولة طبيعية لتقديم فن او ابداع الفرد وتبدو الصعوبة في محاولتها تقديم فن او ابداع الجماعة .

وقد حاول العنوان العربي للكتاب الذي نحن بصدده عرضه (كنوز الفن الاسلامي) ان يخرج به من التعميم الذي جاء في العنوان الأصلي (كنوز الاسلام) - TRE ASURES OF ISLAM فلاشك ان كنوز الاسلام او بملعبى الدقيق الحضارة الاسلامية أبعد بكثير او هي مجموعة هائلة متألفة فكرت وعمرت وشكلت وكتبت وصاغت وتقلست . . ولكن حتى هذا العنوان (كنوز الفن الاسلامي) لا يتغلب بدوره من تعميم عند التعامل للمقارن المباشر مع قضية لها اتساع جغرافي مكاني يمتد من الصين الى الاندلس واتساع تاريخي زمني يمتد من القرن السابع الميلادي الى القرن التاسع عشر الميلادي . وكان الاجدر ان يحدث ما يشابه المطابقة بين مادة البعد الحضاري وبالتالي مادة الكتاب الأكثر عددية وعنوانه ان يأتي هذا العنوان « من كنوز الفن الاسلامي » .

كنوز الفن الاسلامي

محمد المهدي

وعنوان الكتاب اوفي الحقيقة هذا الكالوج الضخم قد تبع عنوان للمعرض الذي اقيم في جنيف العام الماضي (معرض كنوز الاسلام) - وليس ذلك بعلو - فهذا العنوان يثير قضية اكثر بكثير من مجرد عرض لمجموعة كبيرة اصلية رائعة من فنون الحضارة الاسلامية . . قضية بنية التشكيل الاسلامي - اذا صح استخدام هذا المصطلح المنحوت في تلقائية طبيعية من تاريخ الحضارة الغربية ، ويتردد كثيرا من يستخفهم عندما يحاول ان يعادل بين طبيعة الابداع في الحضارة الاسلامية وبين الكلمات المحدودة بمصطلحات هذا الزمان واسلوه في الابداع .

ونستعرض موضوعات الكتاب ثم نحاول مناقشة بعض ابحاثه التي طمحت لقراءة الباطن . كتاب كنوز الفن الاسلامي اذن ترجمة لكالوج معرض كنوز الاسلام الذي اقيم لعرض المجموعات الخاصة . حقوق الطبع للنسخة الانجليزية تعود لمتحف الفن والتاريخ في جنيف ، والنسخة العربية لدار الآثار الاسلامية (متحف الكويت الوطني) . والناشر فليب ويلسون رامل تشيمبرز (كوفنت جاردن) . لندن Wc 2E 8AA وقعت النسخة العربية وهي التي نقلتها على هذه الصفحات في ٣٩٧ صفحة من القطع الكبير والورق المقفول والطباعة الفاخرة . يقدم الكتاب بالصور ٤٠٠ تحفة فنية ٢٠٠ قطعة نقدية ويتناول الدراسة وشرح القطع تفصيلا بمجموعة من العلماء والمتخصصين في الحضارة او الفن الاسلامي . وجاءت في صفحات الكتاب بالتتابع التالي تأليفا وترجمة . .

- للفتنة بقلم : بروفيسور اوليج جرايبلر (هارفورد / كمبردج) ترجمة غادة حجابوي قديمي ، هيئة دار الآثار الاسلامية .
- نظرية الجمال في الفن الاسلامي بقلم د . ا . م . ميليكيان شرفاني (المركز القومي للبحث

العلمي . باريس) ترجمة حصة صباح السلام ، مديرية دار الآثار الاسلامية .

- المجموعات الخاصة وفنون الكتاب الاسلامية بقلم : مستورات كلوي ولش (متحف فسوج - ومتروپوليتان وجامعة هارفارد) ترجمة حصة صباح السلام .

- فنون الكتاب . بلاد العرب . ايران . افغانستان . وسط اسيا . جامع التواريخ لرشيد الدين بقلم : بروفيسور اتطولي ولش (جامعة فيكتوريا . كولومبيا البريطانية) ترجمة حصة صباح السلام .

- شاهنامة الشاه طهماسب وفالناسمة الشاه طهماسب . تركيا . الهند بقلم مستورات كاري ولش ترجمة غادة حجابوي قديمي .

- اللاكية واللوحات الزيتية الفنية وفنون الكتاب المتأخرة بقلم : ب . روينسون (متحف فيكتوريا والبرت لندن) ترجمة طريف ناجي الحص .

- الخزف بقلم : د . اوليفر واطسون (متحف فيكتوريا والبرت لندن) ترجمة غادة حجابوي قديمي .

- المتحف المعدنية بقلم د . جيمس آلان (متحف اشموليان . اكسفورد) ترجمة غادة حجابوي قديمي .

- الاسلحة والعناد بقلم : دافيد الكسندر (متحف مترو بلتيان) وموراود ريكس ترجمة حصة صباح السلام .

- الطنافس والمنسوجات بقلم . دونالد كينج (متحف فيكتوريا والبرت) ترجمة : حصة صباح السلام .

- العناصر المعمارية والفنون الزخرفية بقلم : د . ملولين جينكنز (متحف مترو بلتيان) ترجمة : غادة حجابوي قديمي .

- فن العملة الاسلامية بقلم : مايكل بيتس (جمعية التعميل الامريكية) وروبرت دارلي - دوران ترجمة ومراجعة د . رمزي جبران بخفازي .

متعددة لهذه العلاقات من خلال تقديم نماذج فنية اختيرت كيفما اتفق . وينطوي مطلقاً من هذه الفكرة عدة امثلة لتأثير الغرب بالفنون الاسلامية في صورة وحدات زخرفية او خطية منذ القرن العاشر الميلادي في فنون بيزنطية ومنذ القرن الثاني عشر الى الخامس عشر في الفن للمسيحي ، منها باب الكاتدرائية المشيدة في القرن ١٢م في مدينة لويوي الواقعة في جبال وسط فرنسا . هذا الباب زين بزخارف بأشرطة من الكتابات العربية . وبالمقابل يعطي امثلة لتأثير الشرق الاسلامي بالغرب ، فهناك مثلاً علاقة بين الضريح الضخم للقائم لوائل القرن ١٤م في مدينة سلطانية شمالي ايران وبين كنيسة القبة في مدينة فلورنسا . ويمكن تبين تبادل المؤثرات بصورة اقوى خلال المائة والحسين عما الاخرية فأحد الغربيين يعني لنفسه بيتا انحلبي الطابع بالغرب من فلورنسا ونصل الى القرن العشرين فترى تأثير مائيس ويكاسوفالفنان الاميريكي المعاصر فرائك ستيلافنون الاسلام .

ولا يبدى الكاتب دهشة لتبادل المؤثرات اللغوية او الفنية على حافة الحضارات ، ولكن ما يدعوه للدهشة ان تتبادل المناطق الجغرافية ومع ذلك نمر على امثلة من تبادل للمؤثرات ويحدد ثلاث نقاط يراها قد اسهمت في احداث الصلات الحضارية ، اولاً النسخ التاريخي ، وثانياً للتجارة الدولية ، وثالثاً الاهواء والاذواق .

● اللمحى التاريخي : ويقصد به الكاتب وجود لغة فنية تقنية كانت اiban القرن ١٧م على درجة عالية من التطور والمرونة جمعت جغرافياً من الاندلس الى الصين وان لهذه اللغة ثوابت فنية عملية مشتركة توفرت ببرغم التنوع العرقي ، منها بناء العقود والقباب او السرد القصصي او الزخارف المتنوعة . وقد بدأت تظهر التوليفة الجديدة في العراق عند نهاية القرن ٨م ثم انتشرت في خراسان

- المعروضات الاضافية ترجمة هناء فريد .

- قام بمراجعة الكتاب الدكتور احمد عبد الرازق احمد (جامعة القاهرة . جامعة الكويت . دار الآثار) وكتب مقدمة الطبعة العربية : حصص صباح السالم .

موضوعات الكتاب - المقدمة

المقدمة كتبها اوليج جرابار دون عنوان وان كان لها مضمون واضح كشف عنه من السطور الأولى ، فهو يقول انه برغم كثرة ما كتب وطبع خلال العقدين او الثلاثة الماضية عن الفنون في العالم الاسلامي ، فان بعض المعلقين قد ذهب الى القول بان نظرية الفن الاسلامي قد عفى عليها الزمن الا ما تناول للمناطق الجغرافية للعالم الاسلامي او ما يقرب من خمسين بلداً في افريقيا واسيا وبعض اوروپا من الناحية العقلانية الباقية . ثم يضيف ان هذا العالم الاسلامي مازالت تجمعه فكرة الامة الواحدة من الناحية الدينية كما انه من ناحية اخرى يشكل في رؤية الجيدين عنه علماً تتقارب وحداته مع بعضها البعض اكثر من تقاربها مع غيره . من هذه العناصر الاهتمام بالزخرفة او البعد عن الايقونية (التصوير او النحت) ويصل الى الجواز فيقول « فمن الواضح اننا اذن لم نعتد الى المصطلحات والمفاهيم المناسبة التي نستطيع معها ومن خلالها القيام بتفسير فنون الحضارة الاسلامية وتقريبها » (ص ١٧) .

ويستطرد بما معناه ان هذا الفن نفسه ايضا لم يقدم لنا رؤية متكاملة ، ولذلك يلجأ الكاتب الى ربط فنون العالم الاسلامي بالعالم الخارج عنه او الدخول به الى منظور الفن العالمي الاكثر شمولاً واتساعاً - على حد قوله - عن طريق جذب الانتباه الى سلسلة من العلاقات التي تربط بين الاعمال الفنية الاسلامية والحضارات الاخرى .

ثم يحدد الكاتب ان هذا للمرص - اي معرض جنيف - يقوم بهله المهمة اي مهمة الكشف عن دروب

ومصر والاندلس وكان المهم فيها هو ابتداع اسلوب المعالجة وليس مجرد ابتداع طراز الاشكال .

ويرغم حديث الكاتب عن دور الحضارات السابقة على الاسلام في المناطق التي انتشر فيها الاسلام في تكوين هذا الاسلوب فانه يعرود ويفصل او يخلط بين المصطلح الديني والمصطلح التاريخي والمصطلح الجغرافي فيقول (وعلى الصعيد الآخر يظهر الاحساس والوعي بفن الشعوب الاخرى (كذا) على المستوى الاسطوري ، حيث يشتمل كل من الملاحم الفارسية والف ليلة وليلة على رؤى الاشياء الجميلة التي صنعت عبر القرون والاثار المعمارية الرائعة التي شيدها ملوك المذنبات الغابرة والتي ائتمرت ولم يبق منها سوى الاطلال لانها اعتبرت بطريقة ما اثارا وثنية تخالف روح الاسلام ، وكثيرا ما ارتبطت الاساطير الخاصة بانشاء الالواند المعجبة بالنبي سليمان الذي استخدم الجن في بناء جميع الالواند الغابرة) ص ١٥ .

والشعوب الاخرى التي يتحدث عنها الكاتب هي التي شكلت او صاغت الرواية الدينية الوثنية وهي نفسها التي اعتنقت العقيدة الاسلامية الجندية وهي نفسها التي تواصلت تاريخيا من القديم الى الجليلد ، وهي نفسها ايضا التي تواصلت جغرافيا على نفس البقعة الواحدة . اذن لا يخفى الحديث عنها كشعوب (اخرى) الا في حالة الفصل التعسفي بين ما كان سابقا على الاسلام وما جاء لاحقا له ، وبما يعادل تعادلا غير منطقي وغير منصف بين مؤثر الشعوب الخارجة عن نطقه بحضارات ذات جذور مختلفة ولها بقعتها الجغرافية المعروفة والشعوب التي تواصلت على ارض واحدة ويتاريخ متواصل واحد .

ويؤكد هذا التعادل غير المنطقي لدى الكاتب حينما يقول : (باختصار فان الظروف التي مرت بها نشأة الفن الاسلامي قد اضطرته بشكل او بآخر الى استخدام لغة

فنية مشتركة مع العديد من الحضارات الاخرى ولذلك كان ولازال التاريخ الاسلامي عاكفا على صلتها بمختلف التطورات التي حصلت في اوربا والشرق الاقصى عن طريق مشاهدة فنونها وتدقيق جمالها بالاضافة الى استمراره في التأمل الدائم في مخلفات المذنبات التي سادت بلادا تحولت فيما بعد الى الاسلام) ص ١٥ .

فصلة الشعوب التي اعتنقت الاسلام بفنونها السابقة على الاسلام لا تحدد عنده التأمل وصلتها بالفنون المجاورة تصل الى حد التدقيق . . وتبين وجهه نظر الكاتب او نراهها متكاملة حينما يتحدث عن وصول المسلمين الى التعبير عن انطباعاتهم بشيء من الثبات والاستمرارية فقط خلال القرنين ١٦ - ١٧ م اي المرحلة التي تطورت فيها طريقة التعبير التشكيلي في الفن الاسلامي بالمفهوم التشخيصي الغربي وبدأت تنبعث عن التعبير للمجرد تأكيدا او توثيقا لفكرته عن التبادل الحضاري .

والغريب ان الكاتب الذي يرى هذه التكاملية النابعة من مصدر خارجي دليلا على الثبات والرسوخ الفني نراه يشكك في المصدر الفني السابق والنابع من بين ظهراني الحضارات السابقة على الحضارة الاسلامية كالمصرية القديمة او الرافدية او الشامية فيقول (ولكن من المرجح ان يكون الفن الاسلامي قد تأثر قبل هذه الفترة بالاثار المصرية القديمة وبكل الاثار الايرانية السامانية والاخينية وكذلك الاثار الرومانية الكلاسيكية غير ان طبيعة هذا التأثير بحاجة الى مزيد من الاستقصاء للفصل) ص ١٥ .

● التجارة الدولية : او العامل الثاني الذي يسوقه الكاتب من عوامل الصلات الحضارية بين العالم الاسلامي والخارج ولقد كان لهذا العامل اثره في الازدهار الاقتصادي في عصر المماليك وبالتالي الانفاق بسخاء على الفنون والعمارة في القرنين الثاني والثالث

الجمال في الفن الاسلامي بقلم : سورين مليكيان شرفاني . وبعد ان يستعرض الكاتب نماذج من القطع الفنية النادرة المعروضة في متحف جنيف نراه يدخل في مناقشة حول المفهوم الخطائي لتحريم التصوير في الاسلام ويعزي هذا التصور الى تعرف الغرب على المنمنمات اي للمصورات الاسلامية بزيارة عن طريق ايران وبالتالي « فان الفنون التشكيلية في الاسلام تسالوت بطريق الخطأ مع فن التصوير الايراني » ص ١٩ .

وتؤكد هذا التصور الخطائي نتيجة لتبين الفرنسيين في شمال افريقيا ، بعد احتلاله في القرن ١٩ ، نفوذ اهل المنطقة الإسلامية من فن التصوير ، وبالتالي تكامل القول بان الاقلية الشيعية هي التي ثبتت او اباحت التصوير دون السنة . ويرد الكاتب على هذا القول بان الواقع التاريخي يعارض ذلك لان الغالبية العظمى في ايران كانت تتبع للمذهب السني حتى ثولى الصغويون الحكم في بداية القرن ١٦م إذ كان معظم الحكماء المشجعين لفن الكتاب في ايران من بين السنيين كما قام العثمانيون بمحاورة الشيعة الايرانية وعدائهما ومع ذلك تمسكوا لفن الكتاب وشجعوا المصورين والخطاطين الايرانيين في العاصمة التركية .

وتتكامل الفكرة على سطور الكاتب بشكل محكم تاريخيا فيجلبنا عن اصول التصوير الاسلامي منذ انتشار الاسلام ولدت سبعة قرون ولكن ما وجد من تصاوير في الشام او مصر كان قليلا او ضاع اكثره بينما بقيت المصورات الايرانية .

وتتكامل ايضا ، تشكيليا او منطقيا ، حينما يربط بين التصوير اي الرسم وفن الخط او الزخرفة والذي قيل انه انتشر كتعويض عن التصوير المحرم فيقول : ان فن الخط كان للتعويض منه خرجت الفنون الاخرى وانه يمكن تبين ذلك في احرام الفنان للسلم عند التصوير او

عشر او من قبل في بغداد خلال القرنين الثامن والتاسع للميلاديين . اما فيما يتعلق بالاثر الفني فلم يعد الامر في رأي الكاتب المؤثر التكنولوجي او العملي في تطور الفنون . والاهم ان التجارة قد هيأت للعالم الاسلامي الاطلاع على فنون الاخرين .

● **البلوق :** او العامل الثالث الذي يتحدث عنه الكاتب ويحذر شلج حيث يصعب تحديد اللوق العام للفن الاسلامي في رايه في مسافة زمنية كبيرة ومساحة جغرافية واسعة . ولكن هناك ميزتين لهذا اللوق يقدمهما اولا طبيعة الفن الاسلامي العملية في عمارة او ادوات استخدام يومي ولبنات الاهتمام بتجميل السطوح بوحداث زخرفية وهو امر في رايه يرتبط بطبيعة الفن العملي او التطبيقي كاستخدام الملابس حيث يكون في الامكان الاستبدال دون حاجة الى تعقيد الاشكال وحاجتها الى التفسير .

وكما نرى ايضا في هذا التفسير تأكيداً لفكرة الكاتب السابقة عن انفصالية الفن الاسلامي عن طبيعة فنون الحضارات السابقة عليه ، والتي ظهرت على نفس الارض واستبعادا لطبيعة فنون هذه الحضارات التي تبنت الرؤية التجريدية حتى عند التشخيص وان التجريد في الفن الاسلامي جاء لذلك تصاعدا وغوا واستكمالا للرؤية السابقة . لقد اراد الكاتب ان يثبت في اختصار ان فنون الاسلام تكاملت - ان تكاملت - من خارجها وليس من توازن ذاتها وهذا طبيعي في حدود منطقة الانتقائي الفاصل بين السابق واللاحق فما بالك بالمعاصر . وفي هذا قصور حضاري لا بد من تعديده ، ان لم نقل انه قصور تاريخي مقصود عدم تعديده وكيف يقسمه لا نقول باحث علمي - متذوق للفنون هذه السواتر التعسفية .

نظرية الجمال في الفن الاسلامي :

والبحث الثاني في الكتاب يأتي تحت عنوان : نظرية

ويتمهي الكتاب في بحثه الى القول بان الفن الاسلامي تميز بالوجوه المتعددة للفنون المتداخلة تماما وان هذا الحكم لا يصدره على الفن الايراني فقط فهو ينطبق ايضا على الفنون العربية الاسلامية حيث ظهر الميل لدى الخلفاء الاوائل نحو تقليد فكرة (الملوكية) التي سادت ايران ودفعت الى تشكيل هذا اللون من الفن .

ولا اريد مناقشة فكرة الملوكية دينيا التي طرحها الكاتب فهذا مبحث عقائدي يحتاج من اهله الى بحثه . ولكن ما يحتاج الى تبيينه هو اخفاك الكاتب للمصدر المباشر لهذا المؤثر لدى الشعوب العربية قبل الاسلام وذلك بافراض ان عقائدها ايضا تبنت نفس الفكر « الملوكي » اي فكرة (ظل الله على الارض) وربما يكون من الافضل العودة تاريخيا الى العصر العباسي الثاني حتى نتبين المؤثرات الايرانية على اسلوب حياة الخلفاء وذلك اذا كانت هناك ضرورة الزامية قدرية تجعل توجيهات الملوك مصدرا لاهام فنون الشعوب .

واذا استطعنا ان نزيل من اذهاننا هذه المقولة لاستطعنا بالتالي ان نكسر هذا الحاجز التقليدي التصفي الذي فصل بين فنون ما قبل الاسلام وفنون ما بعده ، وبالتالي يدعوننا هذا الى توسيع نظرة الكاتب عند مناقشة موضوع جلود التصوير في الاسلام فقد ذكر ان جلود التصوير تبدأ مع بدء انتشار الإسلام في الشام ومصر واعتذر عن الخوض في الموضوع تفصيلا والاكتفاء في بحثه على التصوير الايراني لفريق المساحة . ولكنه اقلل الدائرة عند الحد الاسلامي ولم يلمح مجرد تعليم او يتحفظ - وان كان الامر يحتاج الى تصريح - بجلود التصوير الاسلامي في الفن الفرعوني والرافدي والشامي القديم .

واكتفاء الكاتب في بحثه على المرحلة الاسلامية ادى الى قصور النظر في حدود المساحة الزمنية موضوع البحث دون تعمقها في اصولها وتبلورها بدرجة من

الزخرفة او الخط لقيمة التصميم . بل ان كلمة (نيجار) الفارسية التي فهمت خطأ عند الغرب بانها نقش هي في الحقيقة تعني تصميم .

وتكامل ادبيا حينما يربط ايضا بين التصميم او الشكل الذي اصبح موضع عناية الفنان الشرقي وبين النص الادبي المصدر تصويصره في فن الكتاب او المنمنمات يقول : ان رسم الاشكال ليس لمزاج شخصي ولكن لتصوير الصورة الذهنية التي تحتويها المعاني الاستعارية في النص الشعري او الثري كما ان اختيار الالوان تكامل ايضا مع التمايز للجازية لتعميق الفكرة وتأكيدا .

ثم يقم الكاتب نوعا من الترابط بين الساء والارض فيربط بين استخدام الفنان لنص العناصر حينما يعالج أدوات الاستخدام اليومي من خزفيات ومعدن وبين العناصر المعمارية المائلة خاصة في القباب كالقباب الزرقاء ليست الا قبة الساء يحكم من تحتها (لذلك) الكون الارضي وهي نفسها القباب في الاواني عند قلبها شكلا ولونا ومضمونا .

ويدخل الفنان الى مرحلة تجريدية جديدة حينما يبدأ في تجريد الاشياء والاكتفاء منها برموز ، واتقضى ذلك ادخال الاشعار الى أدوات الاستخدام اليومية الى جوار التجريدات فهي اثناء من القرن ١٥ نجد عليه هذه الكلمات للشاعر حافظ « ان الذي يمسك الكأس في يده فله ملكية - جامشيد الى الابد - ان الله وجد من خلاله خزر الحياة الابدية - ابحت عته في حانة حيث يوجد الكأس - ص ٢٢ . هكذا تحول للكأس الى رمز لسياد يصل الشارب بخالق الكون . وفي اثناء اخر يعود لعام ١٥١٠ نجد هذه الكلمات (وحيث ان المحبوب الأول (الله) يرى وجهه المتورد منعكسا في اثناء الخمر فان انعكاس وجهه يحول الاناء الى ينبوع الشمس . .) ص ٢٢ .

وخلال القرن التاسع عشر اتسعت دائرة الاهتمام بالآثار الاسلامية او الشرقية بشكل عام ولئن ضلعت مجموعة الجناح « وارين هيتش » فقد بقيت لنا مجموعة « ويتشارد جونسون » الى الآن في المتحف البريطاني . وارتفع الحماس بالآثار الشرقية في المرحلة الرومانسية التي اجج الحماس لها الأدياء والفنانون واتنفع منها التجار من الارمن واليهود والصينيين ولذلك جاء عمل البروفسور السويدي ف . ملون في اواخر القرن التاسع عشر رائدا عندما تناول بالبحث والاقتناء وجدية الدراسة مجموعة كبيرة من التحف والاف كتابه (رسم للمنمنمات والمصورون في بلاد فارس والهند وتركيا) ، ونشره عام ١٩١٢ .

وظلت فوضى تجارة الآثار او ما سمي بالعصر الذهبي للجامعين الى ما بعد الحرب العالمية الأولى . كثرت المنشورات والمطبوعات وصارت باريس مركزا للبيع والشراء وانطلقت الاساء بين هواة امثال « جاك دوسيه » والكوتيتيه « دي بيهاج » وبلجين جادين امثال قهرديك زاره وادولف ستوكول وفنانين متأثرين بالوحدات الزخرفية الاسلامية امثال « موكا » ومصممي مجوهرات امثال كارتيه .

وسدأت الاسر الشرية دخول ميدان الاقتناء « مديكي » و « روتشلد » والبارون « دامون » والبارون « موريس » وتخصص تجار الانجليز في المجموعات الهندية بينما تخصص تجار فرنسا في منمنمات ايران وتركيا ثم دخل الميدان ايضا الاسر الهندية الشرية وكرد فعل للحالة الاقتصادية العامة في العالم عام ١٩٢٩ حدث كساد في سوق البيع ورغم قلقة معرض عام ١٩٣١ الا ان الكساد او ضعف السوق ظل سائدا الى الخمسينيات .

ويتحدث الكاتب عن تجربته مع الفن الاسلامي في فترة عمله بمتحف « فوج » ودوره عام ١٩٧٥ في بيع

درجات التصوير شبه التجريدي في الحضارات السابقة على الاسلام ثم استكمال تجريدتها او اهتمامها بالتسطيح او التصميم في المرحلة الاسلامية .

لقد تعامل الكاتب مع النتائج دون الاسباب وادى ذلك بدوره الى قراءة الظاهرة في حدودها الجغرافية التاريخية او للكانية الزمانية دون الحضارية وادى هذا بدوره الى قوله بأسبقية الخط على الرسم ثم اندماجها في النص الادبي ثم للمعماري . وكان الاجدر ان يكون الحديث عن اسبقية الرسم على الخط خاصة وأنه ثبت بشكل قوي ان التصوير لم يكن محرما لا في ايران ولا في المنطقة العربية منذ ظهور الاسلام وانتشاره . ولعل التابع المنطقي هو الحديث عن اسبقية الخط للرسم ثم التجريد اذا تبيننا الظاهرة في الحضارات السابقة على الاسلام ويمكن تبين ذلك بسهولة في جداريات مصر والرافدين ، ويتبين بعد ذلك مرحلة التصوير بروحها شبه التجريدية . ولكن هذه الدائرة لم تدخل في بحث الكاتب ومن هنا ايضا جاءت عاولة التنظير (العنوان نظرية الجمال في الفن الاسلامي) غير محكمة .



المجموعات الخاصة وفنون الكتاب الاسلامية

والبحت الثالث في الكتاب يأتي تحت عنوان (المجموعات الخاصة وفنون الكتاب الاسلامية) بقلم : ستوارت كاري ولش . يبدأ الكاتب بالحديث عن هذه تعرف اوروبا على الفنون الاسلامية في القرن السابع عشر . هن تعرف وميرانت على فن المنمنمات ووصول بعضها الى بلاد النمسا وسان بطرسبرج ثم اثر الاحداث السياسية في نهج او نقل المكتبات او التحف الاسلامية كالاتعمار الانجليزي في الهند او الثورة الروسية او تحويل المكتبة العثمانية الى متحف (طوب قبو سراي) وبالتالي صاب من الصعب على الدارس تبنيها بعد انتشارها في أنحاء العالم .

حكامها بالمعمارة بالدرجة الأولى ، ومنذ القرن ١٣م بدأت المناطق الشرقية من العالم الاسلامي تنتعش ودخلت تحت التأثير الحضاري الايراني .

وعن فن الكتاب في ايران وافغانستان ووسط اسيا ومن خلال عرض ٣٤ مخطوطة ومنمنمة ، يقول الكاتب ان المؤثر العربي يفنه الكتابي كان واضحا على ايران بعد دخول الاسلام فبرغم محاولة اللغة الفارسية للمودة الا ان فن الخط العربي تطور في ايران نفسها الى درجة كبيرة . وبعد سقوط بغداد ١٢٥٨م بدأت المرحلة الاخلائية في ايران ، وحكامها من اصل مغولي مالرشوا ان اعتنقوا الاسلام وتحمسوا لفنونه منذ القرن ١٤م ، وبعد فتحت الدولة الاخلائية وظهر دولة تيمورلنك انتقل مركز الفن الايراني الى « هرا » حيث ظهر فيها الفنان العظيم بهزاد والخطاط المعروف مير علي ويتكوين الشاه اسماعيل الاول ١٥٠١م الدولة الصفوية الشيعية جعل تبريز مركزا سياسيا وفنيا .

وتأتي المرحلة الهامة من رعاية الفنون الصفوية في عهد طهماسب ١٥٢٤/١٥٧٦م الذي قضى فترة طويلة من حياته راعيا للفن والفنانين . وفي عهده كتبت ورسمت الشاهنامة والتي اقتضى تنفيذها عشرين عاما الى ان تحول الشاه عن رعاية الفنون وبدل حياته في عام ١٥٤٥م وفي عهد حفيده الشاه عباس الاول ١٥٨٧/١٦٢٩م عاد الاهتمام بالفنون بشكل واسع ولكن بموته بدأت مرحلة تدهور انتهت بغزو افغاني ١٧٢٢م وفي عهد « الفاجار » في القرن ١٩ استعاد الفن الايراني بعض نهضته ولكن بأسلوب جمع بين الاصول الايرانية والمؤثرات الغربية الواضحة .

وفي حديث الكاتب عن مخطوط جامع التواريخ لرشيد الدين يقول : ان هذه النسخة كتبت باللغة العربية بأمر من الحاكم الاخلائي (اوبلجتيغ) عام ١٣١٤ في تبريز . وكان رشيد الدين وزيرا له اهتم بتشجيع

شاهنامة ورشيد الدين الاسطورية المزودة بالرسوم والتصاوير في عهد الشاه طهماسب ثم دراسته الشاقة لها ونشرها بالتعاون مع مارتن بي ديكسون ثم دور متحف فوج الرائد في مجال العناية والاقتناء وعقد الندوات حول الفن الاسلامي وكيف كان وراء بحث « انسلوني ولش » لمجموعة صدر الدين خاين . وكيف بدأ هذا الأمير المسلم المهتم بالفن الاسلامي مرحلة جديدة يسميها الكاتب ثورية من اهتمام أهل المنطقة العربية والإسلامية بجمع المتحف الإسلامية او تراثهم القديم من انحاء العالم وكيف كان مزله « كولنابي » عام ١٩٧٦ علامة فاصلة في ذلك . ومن هنا ايضا تأتي أهمية معرض جنيف ١٩٨٥ فمعظم المعارضين فيه من اصحاب المجموعات الخاصة من العرب او المسلمين .

فنون الكتاب

ويأتي الموضع الرابع في الكتاب تحت عنوان (فنون الكتاب) بقلم انطوني ولش ، ويشمل بلاد العرب وايران وافغانستان ووسط اسيا وجامع التواريخ لرشيد الدين . ومن خلال عرض الكتاب وشرحه لـ ١٢ مخطوطة عربية متراوحة من القرن ٩ الى القرن ١٤م ، يتحدث عن فن الكتاب او فن الخط في المنطقة الناطقة بالعربية او التي تحولت الى اللغة العربية مع فصولات الازمنة وتقاربها اربط فيها هذا الفن بالقرآن الكريم ، وبذلك ظهر الخطاط والمزخرف والوراق والمجلد ، وكلها فنون وجدت رعاية من المؤسسات الرسمية ومن اصحاب الثراء وظهرت المخطوط الكوفية والنسخ والثلاث ثم المغربي وبينما زينت للمصاحف بالوحدات الزخرفية المجردة صاحبت الكتب العلمانية الرسوم التوضيحية وظهرت المخطوطات المصورة في بداية القرن ١١م ، وكان رعاة الفنون العرب في الاندلس او بغداد . ولكن بعد سقوط الاخيرة في ايدي المغول عام ١٢٥٨ تحول المركز الى مصر المملوكية حيث اعتنى

١٧,٠٢٢٦,٩ سم داخل الموشن المسطرة .
والشاهنامة تحتر بالتالي من اعظم وافخم النسخ الملكية
للمصورة التي تناولت للملحة الايرانية الوطنية .
ويتحدث الكتاب ، مستعينا بـ ٢٢ صورة من
منمنمات الشاهنامة عن بدء العمل فيها بعد استقرار
الدولة الصفوية في تبريز عام ١٥١٤م وارتباط الشاه
اسماعيل بالفنان سلطان محمد الذي رسم اعظم
منمنمات الشاهنامة مع عدد اخر كبير من الفنانين وتميز
اسلوبه بالاهتمام برسم الشياطين والتينيات والزهور
والالوان القوية . وحديث في عام ١٥١٤ ان ارسل الشاه
اسماعيل ابنه طهماسب بعد مرور عامين فقط على مولده
الى « هرا » ليكون واليا اسميا عليها وكان لهذا الحادث
اثره فقد تكون للابن مزاج فني مختلف وفي ظل رؤية
الفنان العظيم بهزاد الذي كان مقره في هرا ، وعند
عودة الابن عام ١٥٢٤ وتولي امر الكتاب بعد ذلك بدأ
ما يشبه الصراع بين الزاجين ولكن الفنان سلطان محمد
كان من البراعة وقوة الابداع الى حد احداث تركيبة فنية
غير مصطنعة تجمع بين مدرسة هرا ومدرسة تبريز بين
التيموري الايق لاستلهام بهزاد وبين التركماني التعبيري
الذي تنبأه الشاه اسماعيل .

ويتحدث الكتاب عن الجهود التي بذلت في تنفيذ
الشاهنامة وكيف قاد رسوما اعظم ثلاثة فنانين انذاك
سلطان محمد وميرصنور واقاميرك وقد جندوا للعمل
معهم العديد من الاسماء منها دوست محمد وميرسيد علي
وميرزا علي ومظفر علي وعبد الصمد وغيرهم الكثير .
وقد خرج العمل لذلك عظيم ليصبح مرجعا فنيا رائعا
للمرحلة الصفوية التي جمعت بين التكوينات والالوان
التركمانية والتيمورية بصرف النظر عن المؤثر او الدفعة
الأولى التي جمعت بين مزاج الاب الشاه اسماعيل وفاته
الفضل سلطان محمد والابن طهماسب وفاته الفضل
بهزاد .

الفكر ونسخ الكتب في الرشيدية دار الرشيد الدين شرف
تبريز . وقام بتكليف منه بكتابة تاريخ الشرق الاقصى
واوروبا وجنوب اسيا منذ بداية الخليفة حتى الفترة
الحاصرة له وقد سجل المؤلف هذه المراحل بعد ان رجع
واستمع الى العديد من المصادر للمقروعة او المروية ،
ووقع الكتاب في اصله في اربعة اجزاء تناولت هذه
المراحل ولم يتبق منها سوى هذه المخطوطة التي تقع في
ثلاث وستين صفحة ، خمس وثلاثون صفحة منها
مصورة بها مائة منمنمة من رسم فنانين مجهولين وقد
تنقلت هذه المخطوطة بالبيع او الاقتناء ونسرف ان
للكتاب نظيرا او نسخة اخرى موجودة الان في جامعة
ادنبرة بانجلترا .

ويتميز كتاب جامع التواريخ بتأثير الطابع الصيني في
رسم الوجوه ، كما صرح فيه برسم للرسول وسلالته
باعتباره من كتب التاريخ والتراجيم وليس من الكتب
الدينية او النصوص القرآنية ويعتبرها الكتاب ليس مجرد
عمل فني ولكن بداية للتقاليد العظيمة للكتاب
الايراني .



الشاهنامة والفالنامة

ويأتي الموضوع الخامس من الكتاب تحت عنوان
شاهنامة الشاه طهماسب ثم فالنامة الشاه طهماسب ثم
فن الكتاب في تركيا ثم الهند بقلم متيوارت كلري
ولش .

وتعرف شاهنامة طهماسب (كتاب الملوك) باسم
شاهنامة هرتن آخر من اقتناها ورغم انها تنسب الى الشاه
طهماسب الذي بدأ حكمه عام ١٥٢٤ فان بدء كتابتها
كان ايسام والسه الشاه اسماعيل الصفوي
١٥٠١/١٥٢٤ . وكانت كما يذكر الكتاب الى عهد
قريب تحتوي على ٧٥٩ صفحة تبلغ ابعادها
٨,٤٤,٩ سم وابعاد مساحة النص



١ - كتاب صمد - رحيم محمود - ليبيا ١٣٦٢ هـ / ١٩٧٦ م - ترصافه ٢٨٨ اسم من مقتنيات دار الآثار الإسلامية (متحف الكويت الوطني)

كتاب: كنوز القصر الاسلامي ،



٢ - زوج القراط ذهب / الأتلسي القرن ١٦م / دار الآثار الإسلامية)

عن منمنمة اربعة اشخاص يقفون تحت شجرة وهي من مقتنيات دار الآثار الاسلامية بالكويت : استطاع الفنان عن طريق مهارته ان يضفي على عمله المبدع شيئا من التوتر والانشراح اثناء هذا اللقاء من خلال التعبير المتقن عن مسحة الحجل المرتسمة على وجه كل فرد في هذا المنظر الخلاب . . (ص ٦٩) . ويتكرر هذا التشريح ، او في الحقيقة ، الوصف الشخصي او التفسير المباشر في العديد من المنمنمات .

ولا ننسى ان القرن الخامس عشر في ايطاليا هو الذي اخرج بوتشيلي ومعه الثلاثة الكبار رافائيل وداغوشي وانجلو بما لهم جميعا من قدرة على تصوير الوجوه من انفعالات دقيقة لا يمكن ان ترقى اليها المنمنمات من هذا الجانب والحقيقة انه من العظم مقارنة المنمنمات باعمال النهضة من الجانب التشخيصي حيث كانت لهذه المنمنمات رؤية مختلفة نابعة من تراث مجردي حتى عند التشخيص . . لقد عملت الى تكرار الوجوه في فروق لا تكاد تذكر ، ومن المبالغة او من المقاييس الحاططة البحث عن الانفعال المؤقت او الدقيق فيها- انها كانت تسعى كقراءة فنية خاصة الى تقديم العام وليس الخاص ، تقديم التصميم وليس التفصيل ، تقديم الهيكل او البنية الداخلية وليس الشحم او الشكل الخارجي . انها كعالية فنون الشرق تسعى الى تقديم الثابت الأزلي وليس التحرك الفاني .

وانطلاقا من هذه الرؤية الخاصة نجد مستوى المنمنمات يسير الى الانخفاض حينما يسمى الى البحث عن رؤية غربية أو رؤية شبه واقعية . وتابع في ذلك سلسلة كبيرة من اعمال رضا عباسي ومعين مصوري في محاولة الواسعة بين الروح الشرقية والروح الغربية انتقلا الى منمنمة (شاب يبدو عليه آثار حروق) من القرن ١٧ ص ١١٥ التي تحاول تثبيت الانفعال المؤقت . وتصل هذه المحاولة الى حد تقليد يطابق مرحلة الاستشراق

اما عن القائلمة وتنسب ايضا للشاه طهماسب وتعرف بـ (كتاب النبوة) فقد امر الشاه طهماسب بتنفيذها عام ١٥٥٠م بعد ان تلبذ حماسه للفنون وبدأ انشغاله بأمور الدولة منذ عام ١٥٣٧ وتحول الى تطرف ديني وصل به الى حد اصدار مرسوم (التوبة الصادقة) الذي حرم فيه التصوير في دولته عام ١٥٥٦م . وجاءت لذلك القائلمة بهدف اعطاء المشوذة وعرض التنكهنات والتبؤات وتنسب بصفة تقليدية للامام الشيعي جعفر الصادق . وتنسب رسوم الخمس عشرة منمنمة الكاملة والثلاث قطع الصغيرة المعروفة لدينا منها الى الفنان اقاميرك ومعاونو عبد العزيز .

وعن فن الكتاب في تركيا يقرن الكاتب بين المنمنمة الايرانية والمنمنمة الشمانية وكيف اهتمت الأولى بالنص الاديبي بينما اهتمت الثانية بتصوير الحياة اليومية او معارك السلاطين . اما في الهند فمذارس ارساء قواعد دولة اسلامية في نهاية القرن الثاني عشر بفعل التراك كانت اللغة التركية هي اللغة القومية والفارسية هي لغة المثقفين بينما كانت اللغة العربية لغة الدين . وتأثر الفن المغولي في الهند كما حدث ايضا في تركيا بالفن الايراني وكان عصر الحاكم المغولي « اكبر » ١٥٥٦/١٦٠٥م يمثل مرحلة ازدهار للفنون وان بدأت تظهر للملامح الأوروبية وازداد الحماس للفن في عصر ابنه « جهانجير » وفي عهد ابنه الشاه « جهان » اتجه الفن وجهه رسمية بهدف استعراض ثراء الدولة وعشق الشاه للمجوهرات المتصاعدة او القنطرة الحس . وصلت محاولة احياء التصوير في عهد ابنه « اورانجير » ولكن الدولة كانت قد انتهكت ووقعت تحت السيطرة الانجليزية في القرن الثامن عشر .

ولعل ما يستحق التعليق ولو بشكل سريع في بحث نظري، ولش عن فن الكتاب والمنمنمات هو استخدامه للمقاييس الغربية في شرح منمنمات القرن ١٥ فيقول

والبيزنطي والبيدادي والغربي ولكنه يعود فيقول إنه فنانان هذه المرحلة شكل منها جميعا اسلوبا متميزا .

ويعد ان يعد اساء بعض الفنانين في هذه المرحلة يكشف عن ميلهم للمسوخ تجاه الفن الغربي تقليدا ساذجا خاصة بعد بعثه الفنان « ابو الحسن الغفاري » للدراسة في اوربا عام ١٨٤٨ وبعد رحلة الشاه ناصر الدين الى اوربا عام ١٨٧٣ .

ولعل اهم ما يمكن الانتباه الى خطورته في هذه الفترة ولا يتبينه الكاتب - وهو تبنيها الى جوار اسلوب لفن الاقتناء في جلود اللوحة او ادوات القصود وهو ما ابعد مزاج الخاصة والعامة بالتدرج عن مفهوم الفن الاسلامي الذي انداح في حياة الفرد استخداما من العمارة الى ادواته الخاصة وثبت التلوق العام عند مرحلة الفن التشخيصي او التسجيلي الحسي المباشر . وهو ما حدث مشابه له في العالم العربي - وما زلنا نشين عنه - وبالتالي جعل فنون الاسلام غريبة على اعلمها .



الحسوف

ولعل فن الحزف من ادوع ما ترك لنا الفنان في العالم الاسلامي القديم بأصالة خاصة وابداع متميز فهو فن خرج من رؤية فنية لها استقلالها ويتناول بحث اوليغر واطسن السامس في الكتاب هذا الموضوع فيتحدث عن بدله استقلالية الفنان في العالم الاسلامي عن فنون الحزف الصينية . ويرغم خروج الحزف الاسلامية اقل صلالة من البورسليان الصيني فانه تميز في التزجيج الفصليدي بنفسه ونوعية في للممس . وتيز في الوان الفخار المزجج بطلاء رصاص بلمعان براق . وتيز في آنية (الفرت) FRIT بلمعان باهت . . . والاهم من كل ذلك تمكن الفنان من وحدته الزخرفية وصياغتها بحكم على كل خلعة استخدمها في ابداع متجدد .

ويقسم الكاتب من خلال عرضه لـ ٥٤ نموذجاً

الغني التسجيلي في منمنمة لوحة « هندي ورع يسير بالقرب من نجم » وتعود لعام ١٦٥٨ ص ١٢٦ . او في المنمنمة « اللوحة » القسوطية (امير شاب يتلقى التعليمات) وتعود لعام ١٦٧٥ ص ١٢٧ او في المنمنمة « اللوحة » التي استحضرت عصر النهضة الايطالية شكلا ومضمونا فتمواتها (جوديث وهولوفيرنس) من عمل محمد زمان وتعود لعام ١٦٨٠ ص ١٢٩ .

والقضية تتعلق بفنون حافة الحضارات والتي تنشأ نتيجة للتداخل الحضاري فيحدث التأثير للتبادل ولكن لا يبرح منه بتولية مبدعة الا القوي . واذا قارنت مثلا بين منمنمة (حزة يصارع الغفاري) من خطوط « حزة نامة » القرن ١٦ ص ١٤٦ وما رسمه الفنان « بيتر بروغل » أيضا من القرن ١٦ من المدونة الفلمنكية مستجد ان الاصالة تتوفر لكل منها برغم وحدة الموضوع ، وهو تصوير عالم الغيب والخرافة . لقد عاش كل منها تراثه في مرحلة قوة ويلدك صدر الابداع اصيلا . ولا يمكن أيضا ان نقارن مثلا ابداع « مائيس » او « هنري روسوا » أو « كلمت » او غيرهم عن استخدموا الوحدة الزخرفية او تنقية الطبيعة على طريقة الشرق . بالمنمنمات المغولية او التركية في مرحلة تقليد المقاييس الغربية . لقد تفوق هنا المستلهم من المستلهم منه لانه تعمق بعض من ذاته في مرحلة القوة او الاصالة .

ونستطيع ان نتين ذلك بوضوح في بحث الكتاب السادس (اللاكيه والرسوم الزيتية وفنون الكتاب المتأخرة) بقلم ب ديبلو رويسون-فبرغم حماسه منذ بدله حديثه دفاعا عن الفن « الزندي » و « الفاجاري » خلال القرنين ١٨ / ١٩ م - وكيف انه ظلم او اختلق فيه الفث بالسمين وان لوحات هذه الفترة ارتفعت اسماعها الان فانه يعترف ان هذا الان جاء خليطا من الايراني والصيني

هو الذكر. لحد السمع علم ، لحد الأذن



١١. صورة الفخار المصنوع في ١١م ودار الآثار الإسلامية م



٥ - الاحتفال بالعيد - متعمدة ساشاي محمد (تبريز) في ١٥٢٦ / ١٥٢٧ م) لاحظ أهمية التصحيح الذي جعل الرجوع دوائر متطابقة متشابهة تعود في دائرة تعاضدية (ك مفاهيم خاصة يستغل بذاته هي الواقع ولا يطار، بل سلوت القصة الإيطالية الشخصية.

تشكيلها بحلول بسيطة حتى تتمتع بقدره المطاوعة لتشكيلاته المجردة .

ويقوم الكاتب ايضا بسياسة تشكيلية تنتقل فيها العين الفاحصة اللامحة بقراءة خيوط النسيج الداخلي لبنية التشكيل في المادة المعدنية الصغيرة والمواد المعمارية الكبيرة وربما الصرحية فكلها تنبع من مصدر الهامي واحد . فالمبخرة المعدنية تتواصل تشكيلية مع المخطوطات بل ان اشربة الحجرية العرضية تشابه الرسوم الجدارية . والمقصود بالرسوم على الحفوة القتالية ليس قوامها في ساعة توتر القتال ولكن المقصود بها التذكير بروح الحضارة . بل ان هذا الماوان الذي صنع لسحق المواد الغذائية له بنائية تشكيلية كضريح بروجي . ويعطي الكاتب امثلة من معروضات المعرض تكشف ايضا عن المؤثر المتبادل بين وحدة النسيج الزخرفية ووحدة القطع المعدنية فهذه الزخارف الهندسية تتصل بحرير الصين والموصل . وهذه الدوائر التي تحتضن الوحدات النباتية او الكائنات الحية او الكتابة مستوحاة من الحرير البوهي او السلجوقي .

ويطرح الكاتب قضية هامة من خلال حديثه عن تسجيل اسماء صناع القطع المعدنية تتمثل في مدى الاهتمام بتسجيل اسم الفنان الصانع ا ومدى اهمية ذلك : لقد حرص سلاطين المالك على تسجيل اسمائهم على القطع المعدنية بينما جاءت القطع من الجزيرة او ايران عليها اسماء الفنانين الصانعين . ولكن لا يجب التوقف كثيرا - هكذا يقول الكاتب بوجي بدور الفن الجمعي - عند قضية تسجيل الاسم فامثلة اغفال اسم الصانع تفوق كثيرا ذكره في تاريخ الفن الاسلامي . لقد صارت صناعة الفن جمعة اسرية تنسب لمجموعات كاسرة الاسطرلابي او النقاش او الصغار او النحاس وهكذا .



الانتاج الخزفي من القرن ٩ الى ١٧م الى ثلاث فترات : الاولى الانتاج الخزفي من القرن التاسع الى الثاني عشر ، وكيف استطاع الفنان ان يخرج في الدولة العباسية من اسرار الخزف الصيني كصناعة بصياغة بالخزف بالبريق المعدني وأعطاه ذلك حوية في التراكيب التي شكلها على الخامة . وانتقل هذا الأسلوب الى مصر الفاطمية ومنها الى سوريا ثم وصل الى الأندلس شرقا وإيران غربا . والفترة الثانية من القرن ١٤ الى ١٧م ، وفيها يمكن تمييز استقلالية الخزف الإيراني في المقاطعات الشرقية او في تركيا بعيدا عن المؤثر الصيني . ولعل الفترة الثالثة التي ظهرت ايضا في القرن الثاني عشر والثالث عشر تمثلت في احياء الفنان الإيراني لتقنية خزفية مصرية قديمة تتركب فيها العجينة الصناعية من مسحوق الكوارتز المضاف اليه خليط مكون من طينة يضافه تعرف بمصينة الفريت FRIT . هذه التقنية اعطت للفنان قدرة تشكيلية اوسع ثم جاء اسلوب الرسم تحت طلاء التزجيج ليعطي بدوره حرية حركة اخرى للفنان الخزفي وذلك مع استمرارية الابداع بالاسلوب القديم من استخدام الرسم فوق التزجيج او البريق المعدني .



التحف المعدنية

البحث السابع من الكتاب يأتي تحت عنوان التحف المعدنية (يقلم : جيمس ديليو آلان ويعود بنا باستعراض ٥١ قطعة معدنية رائعة الى فن من الفنون الاسلامية النادرة . فن من فنون الحياة اليومية فبعد ان يستعرض لنا الكاتب كيف دخلت الادوات المعدنية بيقمها الجمالية المجردة في كافة مناحي الحياة الخاصة والعامة وحتى القتالية يبحث عن كيفية معالجة الفنان لمشكلة ارتضاع سعر المعدن الغالي كالذهب والفضة وكيف استعان بالعدان الاخرى الرخيصة وكيف عاجلها

لآلاف السنين قبل الاسلام يتحدث عن كيف تراكبت الوحدات الزخرفية على مساحة الطنفسة فاخذت شكلا معموريا او شكل المنمنمات .

اما عن اساليب ابداع الطنافس فقد تميز الملوكي بالوحدات الهندسية بينها جاه التركي معنيا برسم الزهور الحرة والمساحات اللونية الواسعة بالاحمر والازرق ، وتميز الايراني ايضا بالوانية بالوحدة الزخرفية النباتية او الحيوانية ولكن بصورة مشحونة . وعن المنسوجات الحريرية يقول انها جاءت متأثرة بالنسيج الايطالي في هذه المرحلة ، وعن المنسوجات يقول ان العرض يقدم نماذج من الهند وتركيا والقوقاز وسمرتند .

ويطرح الكاتب هذا السؤال العملي : لماذا نستحق المنسوجات والطنافس الاسلامية ان تجمع ؟ ويجب عليه ايضا اجابة عملية من حيث الاستخدام الديكوري المعاصر ، اي تعليقه وعرضها وتعليقها . ومن الطبيعي ان يطرح سؤاله التالي : لماذا يجب ان يبحث عنه المرء عند شرائه المنسوجات والطنافس ؟ وتأتي الاجابة ايضا عملية غير جمالية .



العناصر المعمارية والفنون الزخرفية :

الموضوع العاشر من الكتاب يأتي تحت عنوان (العناصر المعمارية والفنون الزخرفية) بقلم مارلين جينكنز . وتتناول فيه عن علم ووعي بطبيعة الفن الاسلامي اربع عشرة قطعة اختيرت من مجموعة الصباح الخاصة الضخمة والتي تتميز بانها أصبحت تشكل الان دار الآثار الاسلامية ومتحف الكويت الوطني) لتعرض في معرض جنيف . ويقول الكاتبة ان الاختيار تم عشوائيا او انه استهدف فقط بلى ندرة القطعة الفنية وجمالها . وكانت الكاتبة قد قدمت قطع الدار في الكتاب الذي صدر عام ١٩٨٣ بمناسبة الاحتفال معتمدا على تقسيم ريعاني للعناصر الفنية . ثم قدمت مجموعة ثانية

الأسلحة والعناد

ويرغم ان الموضوع الشامن من الكتاب - وهو الاسلحة والعناد - يتناوله بالدراسة في المعرض الدارسان دافيد الكسندر وهوارد ريكس فان هذا الموضوع يغلو من محاولة القراءة الجمالية للقطع او على الاقل - اذا كانت المادة جافة مثل هذا التأمل - محاولة الربط مع طبيعة الفن الذي ناسق بين وحدات الحياة جميعا الهادئة والعنفية .

يستعرض الموضوع اسماء الحكام المقاتلين الذين حرصوا في الوقت نفسه على رعاية الفن كالنصير العباسي وعبد الرحمن الاول الاموي (الاندلسي) وتيمور المغولي وشاه عباس الصفوي وعهد الثاني وسليمان العظيم من الدولة العثمانية . ثم يتحدث عن استخدام الاسلحة في غير القتال كالاستعراضات العسكرية او تقدير الرتب او كهدايا للامراء او التابعين او للحكام او الملوك الاجانب . ثم يتحدث عن صناعة السلاح وتجهيزه وسلاح الدولة الطاهرية او المغولية الهندية او المملوكية وكيف انتقلت الاخيرة الى اسطنبول لتصميم نواة لاكبر مجموعة سلاح موجودة الان في متحف قبر صراي . ثم توزع الكثير من هذا السلاح في انحاء العالم ووصله الى العديد من دول اوروبا ومانحها .



الطنافس والمنسوجات

الموضوع التاسع من الكتاب يقدم معروضات الطنافس والمنسوجات بقلم : دونالد كينج مع شرح لتسع عشر صورة تمثل الطنافس (السجاجيد) والمنسوجات والمطرزات التي تتراوح تواريخها من القرن ١٦ الى ١٩ م ، وهي تشمل نماذج من مصر للمملوكية ومنطقة (عشاق) التركية و (قاشان) الايرانية وبعضها من القوقاز او الهند المغولية. وبعد ان يتحدث الكاتب عن اساليب صناعة السجاد وتاريخ هذه الصناعة التي تعود



٦ - د. لاط جيوستريت مصفحة من شاهدة تلماسية من عمل مشاهير محمد و يسر من
واللواط يبيع العناصر الحية من قسار وحيوان وبيت في تاليف (١٥٢٢/١٥٢٣ م)



٧ - صورة لمرءة محمدا علي بن عبد الله بن منصور (أصناف ١٩٨٥م) مرحلة هائلة الولاية في
المنطقة والولاية، بين الأسلوب الشرقي والأسلوب الغربي

في عام ١٩٨٤ معتمدة على فكرتها المتسلسلة من التني
فالتكيف فالخلق .

وجاءت طريقة تقديمها لعشر قطع من معروضات
الدار بجنييف في هذا المقال مبتكرة ولكنها نابعة من وعي
بتنامي وحدات الحضارة والفن الاسلامي وتربطها لقد
قامت بعمل مقارنة بين نموذج القطعة الصغيرة من الحل
او ما تسميه بالفن الخاص مع نموذج من القطعة الكبيرة
من الزخرفة المعمارية او ما تسميه بالفن العام لتؤكد
الطبيعة الجدلية المنطقية بينها .

فالكرة الحجرية الشامية من القرن الثامن الميلادي
تحتضن نفس التصميم والوحدات الزخرفية في زوج من
الاساور تشكلا ايضا في الشام ولكن في القرن ١١م
وتربط روح نسج الدنتيا بين تاج العمود الرخامي
الانديسي من القرن العاشر والخاتم الذهبي ابن الشام
في القرن الحادي عشر . ووحدة التكوين لكائنات حية
تولدت في تلاقح على لوحة خشبية فاطمية من القرن
الحادي عشر ، وعلى سوار ذهبي تركي من القرن الثالث
عشر تتحدى ما كان يمكن ان يكون من خلافا مذهبية
او سياسية . وقد جمع هذا التناوب اللوني والخطي بين
زوج من الاقراط الاندلسية من القرن الثاني عشر ووحدة
الفسيفساء التركية من القرن الثالث عشر الميلادي ،
وهذا الحوار الماهر بين الثابتة والمتغيرة نستمتع اليه في
مدوه على مصراعي الباب التيموري من القرن الخامس
عشر وعلى القلادة المملوكية من القرن الخامس عشر
ايضا .

هكذا يأتي عرض مارلين جينكز متفردا ولا ابالغ اذا
قلت انه للمعالجة الوحيدة في الكتاب رغم قصرها ، لقد
تعمقت فأوجزت



فن العملة الاسلامية

ويأتي الموضوع الحادي عشر او الاخير في الكتاب

تحت عنوان (فن العملة الاسلامية) بقلم مايكل . ل .
بيس . وروبرت داولي - دوران . فيتابع العملة
الاسلامية وكيف تطورت من الاستعانة في المراحل
الاولى بالعملة الساسانية او البيزنطية مع اضافة بعض
الشعائر الاسلامية او تقليد الرسوم البيزنطية مع وضع
خطوط عربية .

ثم كانت الخطوة الهامة على يد الخليفة عبد الملك بن
مروان الذي سعى الى التعريب بشكل عام فشمّل ايضا
العملات . جاء الدينار الذهبي (وله نموذج بالمعرض)
الذي ضرب عام ٧٧هـ ليعتمد شكلا جديدا للعملة
يقوم على الخط بنصوص دينية ويتعد عن الصورة .
وظل هذا الحل الذي نبغ من عفوية موفقة جماليا
واسلاميا الى القرن الثالث عشر الميلادي .

واذا كان الخط الكوفي قد شكل المراحل الاولى من
العملة فان التطور الاول قد حدث ايام المعتصم
العباسي في القرن التاسع الميلادي ، كما ظهرت عملات
حكام الولايات واحتفظت الاندلس بصورة العملة
الاسوية بينما ظل الغرب محافظا على صورة العملة
العباسية الاولى . ومع قيام الدولة الفاطمية شكلت
عملة جديدة بنقوش دائرية بارزة استمرت في شكلها الى
العصر الايوبي وامتدت الى الصليبيين وسلاجقة الروم .

ثم ظهر دينار الموحدين في شمال افريقيا وتميز برسم
المربع في الوسط محاطا بدائرة وانتشر هذا الشكل في
اتحاد عديدة من العالم الاسلامي واحتفظت النقود
المصرية بشكلها الى القرن الرابع عشر عندما ظهر الدينار
الاشرفي الذي انتقل تأثيره الى الدولة العثمانية الى ان
اصدر السلطان محمد الفاتح دينارا عثمانيا اعتمد الخط
الثلاث والمؤثر اجمالي اكثر من وضوح الكلمات . وفي
القرن السابع عشر ظهرت الطغراء اي اسم السلطان
مزخرفا على العملات العثمانية .

وفي ايران ظهرت عملة جديدة صفوية اعتمدت خط

اغفلت التمدرس ولكن لم يكن هناك ما يدفع الى التفكير فيها بحكم معاشة ومشاركة الجميع في صناعة الفن .
وحينما نضطر الآن الى استخدام مصطلح الفن التشكيلي ART PLASTIQUE فيجب علينا ان نضع له حاشية تفسيرية تبدأ بالسؤال تشكيل المادة بأي هدف ؟ .. اهو الاستخدام ام الاقتناء ؟ الاحتضان ام الانفصال ؟ التلبس بمادة الفن ام تأملها ؟ .. هذا هو فارق الرؤية .

ولا يعني ايضا الا تقدير جهد الترجمة الواحية للمتزمة والمراحة العلمية الدقيقة والاخراج المنضبط المسير الاتنيق واستعارة هذه الكلمة التي جاءت في مقدمة الطبعة العربية لمدينة دار الآثار الاسلامية حصبة صباح السالم لمعرفة أهمية هذا المرجع الهام ودوره : « اذ لا جدال في ان اللغة العربية لازالت رغم ما نشر من مؤلفات تعالي من نقص في كتب الفنون الاسلامية وفي مصطلحاتها الفنية لأن اكثر الذين كتبوا في هذا المجال لم يوفوا بالكامل هذه المصطلحات الفنية الدقيقة حقها » .
ومن هنا لا بد وان اذكر انني لم اتطرق الى المناقشة التشكيلية الواجبة لما كتب او عرض في الكتاب خاصة تعليقات الصور ، او شرحها فهي تحتاج الى حديث اكثر اتساعا . كما ان موضوع طرح ومناقشة الجانب الانداعي او بنية التركيب الجمالية ومدى انضباطها او كيفية قراءة نسيج الفن الاسلامي في المتاحف الصغرى والمتاحف الكبرى بمصطلح منحوت من ذاته . مازال هذا الموضوع في خطواته الأولى ويحتاج لاكثر من معاشة وتواصل واستعادة حضارية ودراسة وجهه وترجمة وعرض .

المتعلق في القرن السادس عشر بينما ظلت الهند المغولية محافظة على استعارة العملة المربعة المحاطة بدائرة الى ان ظهرت عملة السلطان « جيهانجير » التي ابتكر عليها صورة الأبراج السماوية كتأريخ وتشكيل . اما العملة العثمانية فقد مالت دائما الى الفضاضة والتأنيق وظلت محافظة عليها .



كلمة اختيرة

ولا يعني في نهاية هذا العرض لهذا الكتاب القيم - الذي حاول بحكم طبيعة موضوعه وهو تقديم معروضات معرض جنيف (كنوز الاسلام) - ان يجمع مساحة مكانية هائلة من الاندلس الى الصين وان يكثف مساحة زمانية مشحونة تقرب من ثلاثة عشر قرنا . لا يعني الا التقدير الصادق لجهد الدراسة المتأنية بخبرة مجموعة من العلماء وعلمهم ، وان جاءت نتيجة لهذه الظروف متفرقة لا تصدر عن رؤية متكاملة ، وكان من الممكن لو نسق المنهج - تحاشي ، على الاقل ، اختلافات تناول من سردي في واحد وعلمي في اخر وتاريخي في ثالث وجغرافي في رابع وادبي في خامس وتشكيلي في سادس وتنظيري في سابع . واعود فاذكر بما جاء في المقدمة عن صعوبة احداث معادل شبه موضوعي بين الكلمة المكتوبة والتشكيل بشكل عام فيا بالنا بالتشكيل الجمعي ، ويكفي اننا ما نزال مضطرين الى استخدام المصطلحات التي نحت من طبيعة حضارة مختلفة سعت الى « التمدرس » بحكم رؤيتها الخاصة لنحاول مطابقتها او تليسيها على حضارة اخرى لا نقول



٨- صندوق بزر و تزئینات من الفضة من الهندستان ١٢ م . الطول ١٧ سم والعرض
١٢ سم . والارتفاع ١٢ سم .

العدد التالي من المجلة
العدد الثاني - المجلد السابع عشر
يوليو - أغسطس - سبتمبر
قسم خاص عن
"الهجرة والهجرة المعاكسة"

طُبِعَ فِي
مَطْبَعَةِ حُكُومَةِ الْكُوَيْتِ

تُرحب المجلة بإسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

- (أ) علوم الصحارى
- (ب) الهجرة والهجرة المعاكسة
- (جـ) الدراسات المستقبلية
- (د) المسرح
- (هـ) الحاسب الآلى
- (و) الأمن الغذائى
- (ز) الثقافات فى العالم الثالث
- (حـ) الجنون فى الادب
- (ط) التجديد فى الشعر

الخليج العربي	٥	دولارات	٣	ليرات
السعودية	٥	دولارات	٢٥٠	مليارات
البحرين	٤٠٠	فلس	٢٥٠	مليارات
اليمن الشمالية	٤٥	دولارات	٢٥	مليارات
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	٤٠٠	مليارات
عمان	٣٠٠	فلس	٥	مليارات
لبنان	٢٥	ليرة	٥٠٠	مليارات
الأردن	٢٥	دولارات	٥	مليارات
موريتانيا	٥	دولارات	٥	مليارات
المتاهرة	٥	دولارات	٥	مليارات
السودان	٤٠٠	فلس	٥	مليارات
ليبيا	٤٥	دولارات	٥	مليارات
مستط	٤٠٠	فلس	٥	مليارات
الجزائر	٣٠٠	فلس	٥	مليارات
تونس	٢٥	ليرة	٥	مليارات
المغرب	٢٥	دولارات	٥	مليارات

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢,٥٠٠ دينار

البلاد الاجنبية ٢,٠٠٠ " "

تحويل قيمة الاشتراك بالريال الكويتي لمسابه وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الكويت

الرمز البريدي 13002

طبع في

مطبعة مطبوعات الكويت

الشمس
٢٥٠ فلساً

عالم الفكر

- الهجرة وأسطورة العودة
- الهجرة وانتقال الأيدي العاملة
- الهجرة بين الماضي والمستقبل
- البيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة

"مجلة عالم الفكر" قواعد النشر بالمجلة

- (١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .
- (٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-
- (أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره
- (ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .
- (ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .
- (د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
- (هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .
- (و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .
- (٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة

وزارة الاعلام - الكويت - ص.ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٦
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الهجرة والهجرة المعاكسة

- التنهيد : الهجرة ود أسطورة العودة ٣
الهجرة وانتقال الأيدي العاملة ١٣
الهجرة والهجرة المعاكسة ٤٣
« نودج دول الخاويج العربية ودول الغرب العربي » ٧٥
الهجرة والهجرة المعاكسة في الكويت ١٠٩
البيانات الاحصائية للهجرة الهجرة الدولية ١٠٩

شخصيات وآراء

- اللغة المحكية في ادب الجبل ١١٣
الدكتور عمر النقال ١١٣

مطالعات

- حجرة الصمت ١٨٧
الدكتور عبد الحميد بن عيسى ١٨٧

من الشرق والغرب

- بداية الكتابة العربية ٢٢٣
مصر والبلاد العربية ٢٢١
السيد محمود حلمي ٢٢٣
الدكتور مصطفى أحمد الصمد ٢٢١

صدر حديثاً

- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ٢٩٩
تأليف الأستاذ : عبد الحكيم السيد عطري ٢٩٩
عرض والمطبع : الدكتور طارق السيد خنيم ٢٩٩
عرض والمطبع : السيد علي محمد ٣١٩
نظام الخطب وراثة العرق ٣١٩

مجلس الإدارة

- حمد يوسف الرومي (رئيساً)
- د. أحمد أبو زيد
- د. رشاد محمد الصباح
- د. عبد المالك التميمي
- د. علي المشووط
- د. نورسية الرومي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تلقاها للنشر .



كانت الهجرات البشرية - ولا تزال - تؤلف واحدة من أهم الظواهر التي ارتبطت بالإنسان منذ ظهوره ، ولهذا فإنها استمرت - ولا تزال تستمرعي انتباه المتخصصين في مختلف مجالات الدراسات الانسانية ويوجه أخص الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، نظرا لما ينشأ عنها من أوضاع ومشكلات تؤثر في المجتمع الذي خرجت منه والمجتمع الذي انتهت إليه على السواء . وعلى الرغم من قدم هذه الظاهرة فإن هذه التحركات البشرية تتم الآن على نطاق أوسع بكثير جدا مما كان يحدث في الماضي ، ربما باستثناء بعض حالات قليلة ، وأصبحت تتملى كل الحدود الوطنية والإقليمية وتشمل فئات متفاوتة ومتباينة من الناس من كل الأعمار والجنسيات والأعراق والسلالات والمستويات الثقافية والاقتصادية والتخصصات المهنية . وساعد على ازدياد هذه التحركات ظهور مناطق جديدة للجذب السكاني تتيح فرصا طيبة للعمل والنجاح وتحقيق الذات والتخلص - ولو الى حين - من قسوة الظروف المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية في الموطن الأصلي كما تتيح الحياة المستقرة - ولو بقدر - في الموطن الجديد رغم كل ما قد يحيط بهذه الحياة من صراع وكفاح وإحباط ونجاح أو فشل وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة أو عجز عن التأقلم والتكيف ، بل ومن رغبة المجتمع الجديد نفسه في استيعاب الوافدين الجدد وامتصاصهم أو تقييد حركتهم ووضع العوائق والعراقيل والقواعد والقوانين التي تحول دون اندماجهم فيه ودون إتمام عملية التثميل مما قد يدفعهم ، أو يدفع بعضهم ، إلى العودة الى مجتمع الأصل والبلدية . وكل هذا يجعل

الرجوع وأسطورة العودة

« الهجرة احتجاج ضد اللامساواة »

(يول هاريسون)

« لا يهزأ احم الأطباء والحسالكون أحدا ، لأن المهاجرين أنفسهم يحتاجون إلى حلاقين وإلى مختلف الخدمات الطبية »

(الفرد سوفي)

من هذه الهجرات البشرية المتواصلة موضوعا متجددا يحتاج إلى دراسات جديدة تناول « الموضوع / الظاهرة » في كل أبعادها الإيكولوجية والاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية في مختلف المجتمعات والثقافات . فكأن تتعد هذه المشكلات وتنوعها واستمرارها وتجدها هي السبب وراء كل ذلك القدر الضخم من البحوث والدراسات التي ظهرت في السنوات الأخيرة يوجه خاص حول الهجرة وآثارها وأسبابها ، وهي بغیر شك أحد الأسباب الرئيسية التي تدفعنا إلى تخصيص هذا العدد لمشكلة الهجرة والهجرة المعاكسة . وقد يكون في ذلك رد مقنع لمن قد يتساءل : لماذا هذا العدد من المجلة ؟ ولماذا هذا الموضوع أو المحور الذي كثر الكلام فيه ؟

ولقد كانت هذه التحركات السكانية التي نطلق عليها هنا اسم « الهجرة » والتي لازمت الإنسان منذ وجوده هي العامل الفعال المؤثر في انتشار الجنس البشري من موطنه الأصلي الأول - إن كان هناك موطن أصل واحد فقط - أو من مواطن ظهوره الأول ، وبالتالي ارتباده لمناطق جديدة وعمران الأرض وظهور المجتمعات والثقافات الإنسانية المختلفة . والأغلب أن هذه الهجرات « البدائية » القديمة كانت تنشأ بفعل عوامل « الدفع » أو « الطرد » التي تتمثل في قسوة قوى الطبيعة المناوئة وضراوة الجماعات المعادية ، وعجز الإنسان عن الصمود في وجه هذه القوى المادية والبشرية وعدم قدرته على التحكم فيها وأخطاؤها وتذليلها وتطويعها لصالحه ، أو على الأقل التعايش معها ، وبذلك لم يكن أمامه سوى الهروب منها والفرار عن موطنه . ولكن الملاحظ في الوقت نفسه أن هذه الهجرات « البدائية » لم تكن هجرات أفراد كما هو الحال في معظم الهجرات الحديثة وإنما هي هجرات « جماعية » تقوم بها جماعات كبيرة أو قسوم وقبائل بأكملها بصرف النظر عن مستواها الحضاري أو الفترة الزمنية التي عاشت فيها . وبذلك يمكننا أن نسلک ضمن هذه الهجرات « البدائية » تحركات جماعات الصيد والقبص في العصور المبكرة من تاريخ الجنس البشري ، ونزوح الجماعات التي تعيش على الزراعة المتقلة والتي تضطر إلى تغيير مكان إقامتها كل بضع سنين بعد أن يتم استنزاف خصوبة الأرض فتنتقل إلى مناطق جديدة وهكذا . بل إنه يمكن أن ندخل في هذا النمط من الهجرة انتقال بعض الجماعات البدائية في أفريقيا الآن حين يموت أحد أفراد القبيلة وتغشى من أذى شبح الميت فتنتقل الجماعة كلها إلى موطن جديد بعيد عن متناول الشبح وهكذا . بل وقد يمكن أيضا أن ندخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » هجرة القبائل الجرمانية بين القرنين الرابع والسادس من منطقة بحر البلطيق جنوبا بحثا عن الأراضي الزراعية ، وهجرات بعض القبائل العربية الشهيرة وبخاصة تلك التي اتجهت نحو شمال إفريقيا والتي سجلتها بعض الملاحم والسير الشعبية ، والتحركات القبلية التي قامت بها بعض القبائل الأفريقية الكبيرة مثل قبائل البانتويين القرنين السابع والثاني عشر من منطقة بحيرة فيكتوريا إلى الغرب نحو الكونغو ثم بعد ذلك ، وفيما بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر نحو الجنوب حتى منطقة نازال وجنوب غربي أفريقيا . فهذه كلها هجرات تاريخية شملت جماعات قبلية كبيرة العدد - على الأقل بمعيار تلك الأزمنة والعصور - وكان لها كلها آثار ونتائج هامة وملحوسة في التاريخ . ولذا فقد يكون أفضل مصطلح يصدق على هذه الهجرات « البدائية » هو المصطلح الألماني *Volkerwanderung* التي تعني الهجرة القبلية أو هجرة الشعوب . بل إن هناك من يدخل في هذا النمط من الهجرة هجرة الأيرلنديين والزراع الألمان الشهيرة بعد أزمة محصول البطاطس عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ ، وهي الهجرات التي حملت عدة ملايين من البشر إلى أمريكا ، وكذلك التحركات السكانية (الاضطرابية) التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية في شبه القارة الهندية بعد قيام دولتي الهند والباكستان وتبادل ملايين السكان بين الدولتين^(١) .

^(١) "Human Migration" in *Encyclopaedia Britannica*, Vol. 12 p. 186.

والأمثلة كثيرة ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لتوضيح ما يروا بالهجرة « البدائية » التي تضم أعدادا كبيرة جدا من البشر الذين يضطرون لتغيير موطنهم الأصلي نتيجة لمعجزهم عن التصدي بنجاح لبعض العوامل والقوى القاهرة ، سواء أكانت هذه القوى طبيعية أو بشرية . ولكن لا تدخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » الحركات السكانية التي تُفرض بالقوة على الناس كما هو الحال مثلا في نفي الأعداد الكبيرة من الروس والذين يقدر عددهم بحوالي مليون نسمة الى سيبيريا في القرن التاسع عشر ، أو نقل ملايين العبيد من أفريقيا الى أمريكا والتي تذهب بعض التقديرات الى تقديرها بعشرين مليون نسمة ، وإن لم تكن كل هذه الأعداد وصلت بالفعل الى الشواطئ الأمريكية نتيجة لموت أعداد كبيرة جدا منهم أثناء الرحلات البحرية القاسية . كذلك يميل بعض العلماء الى التمييز بين هذه الهجرات « البدائية » الجماعية وبين نزوح مئات الآلاف من (اللاجئين) الذين تضطربهم الظروف والأوضاع السياسية ، أو الغزو العسكري ، الى ترك أوطانهم والقرار بحياتهم الى مواطن أخرى . والمثل الواضح أمامنا لذلك هو خروج مئات الآلاف من الفلسطينيين من وطنهم في ظل الظروف التي أدت الى قيام إسرائيل .

ولكن يبقى بعد هذا كله الشرطان الأساسيان اللذان يميزان الهجرات « البدائية » وهما « جماعية » الحركة والانتقال ، والمعجز عن التصدي لموامل الطرد أو الدفع أو التكيف معها . ومن هذه الناحية تختلف الهجرات « البدائية » اختلافا جذريا عن النمط الغالب الآن على الهجرة . فرغم أن ملايين الناس يتحركون ويتحركون أوطانهم وينزحون الى مناطق وأوطان أخرى فإن هذه التحركات تتم في العادة على أساس فردي كما سبق أن ذكرنا . وحتى إذا اتخذت شكلا جماعيا فإنها لا تشمل شعبا بأكمله . وعلى الرغم من أن كثيرا من الهجرات الحديثة تتم تحت ظروف قاسية وعوامل طاردة يصعب تحليلها أو التكيف معها فإن المهاجرين الأفراد يجدون في الأغلب أهدافهم ويتحركون المكان والزمان المناسبين لتنفيذ ما استقر عليه رأيهم . والأغلب أيضا أنهم يعرفون مقدما الشيء الكثير عن المكان الذي سوف يذهبون اليه وأوضاعه وظروفه ومقومات الحياة فيه ويعدون لهذه الهجرة إعدادا كافيا ويجهزون على أمل الإقامة هناك لفترات طويلة أو حتى للعمر كله ، وإن كان البعض يخطط أيضا منذ البداية للعودة الى الوطن الأصلي بعد أن تزول الظروف والعوامل المناوئة أو بعد تحقيق الأهداف التي رسموها لأنفسهم منذ البداية .



وقد يكون من الصعب وضع تعريف دقيق وواضح ومقبول لمفهوم « الهجرة » . ولذا يكفي الكثيرون تعريفها بأنها النقلة « الدائمة » أو الانتقال « الدائم » الى مكان يبعد عن الوطن الأصلي ، بعدا كافيا . ولكن هذا التعريف - إن صح اعتباره تعريفا على الإطلاق - يقتصر الى الدقة والوضوح فيما يتعلق بالبعد الزمني للمتمثل في كلمة « دائم » والبعد المكاني المتمثل في عبارة « بعدا كافيا » . وصحيح أن هيئة الأمم حددت المفهوم بالانتقال الدائم بأنه الانتقال الذي يستمر لمدة سنة واحدة على الأقل ، ولكن تبقى مع ذلك مشكلة تحديد المسافة التي تفصل بين الوطن الأصلي أو موطن النشأة والإرسال الذي بدأت منه الهجرة وموطن الإقامة الجديد أو موطن الاستقبال الذي انتهت الهجرة اليه . وكما يقول ويليام بيترسن William Petersen إن الشخص الذي يترك وطنه إلى وطن آخر ويقيم فيه بقية حياته يعتبر (مهاجرا) بينما الشخص الذي يذهب الى مدينة مجاورة أو قرية وعرضي فيها بضعة ساعات يعتبر مجرد (زائر) . وبين هذين الطرفين

التقيضين يوجد صف طويل جدا من الحالات والأوضاع الوسيطة يصعب التمييز بينها تمجيزا قاطعا . فهي إذن تميزات تتم على وجه التقريب وباستخدام محكات تصفية . فالإقامة في بلد الاستقبال لمدة لا تقل عن شهر ولا تزيد عن عام تعتبر هجرة مؤقتة بينما الإقامة في ذلك البلد لأي فترة تزيد عن العام ولو ببضعة شهور تعتبر هجرة دائمة وتستوي في ذلك مع الإقامة لطول العمر^(١) . لكن هذه المحكات لا تأخذ في الاعتبار نية الشخص المهاجر والظروف التي قد تظهر فجأة وتمنع من تحقيق هذه النية أو القصد . فقد يخرج الشخص من موطنه الأصلي وفي نية أن تكون هجرته لفترة مؤقتة قد تكون بضع سنين يعود بعدها إلى وطنه . فهو ينظر من البداية إلى هجرته على أنها هجرة مؤقتة ولكنها تعتبر بحسب تلك المعايير والمحكات هجرة دائمة . ثم إن الكثيرين ممن يهاجرون هجرة دائمة تمتد لمدة سنين لا يقطعون علاقاتهم تماما بالأهل والوطن بل يظلون مرتبطين بهم وبه عاطفيا ويتمنون لو أتيحت لهم الفرصة للعودة . وكثيرا ما تظل هذه العودة مجرد أسطورة لا تتحقق في عالم الواقع ، ولكنهم يتمسكون بها مع ذلك أشد التمسك ويظلون بذلك موزعين بين ولائهم للموطن الأصلي أو الوطن الأم وولائهم للموطن الجديد أو المجتمع (المضيف) أو مجتمع الاستقبال . كذلك تغفل هذه المحكات والمقاييس نظرة المجتمع المضيف إلى هؤلاء الوافدين ومدى تقبله لهم ومدى السماح لهم بالانتماء مع المجتمع بحيث يتم تملئهم فيه . وإغفال هذه الأمور يمنع من الوصول إلى تعريف أكثر دقة وإحكاما من تلك التعريفات السريعة السطحية التي تقع بالنظر إلى عملية الانتقال والإقامة من حيث المدة التي يمضيها الشخص في الموطن الجديد والمسافة التي تفصل بين الموطنين^(٢) .

ومع ذلك فإن هذه المحكات لها فائلتها في التمييز بين « الهجرة » باعتبارها تغييرا لموطن « الإقامة » وبين بعض

William Petersen: "Migration: Social Aspects"; I.E.S.S., Vol. 10, p. 286.

(٢)

(٣) الواقع أن مفهوم المصطلحات الجينية غير واضح في أعمال الكثيرين من يكونون من الفروع باللغة العربية . وليس أدل على ذلك من أن « لعلوم علم الاجتماع » الذي قام بكتابه للهدف من أسئلة علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية يستخدم كلمة « هجرة خارجية » في مقابل الكلمات الانجليزية الثلاث : Immigration, Emigration, Migration لم يلمد التعريفات التالية لهذه الكلمات :

أ . Emigration : هجرة خارجية : انتقال الأفراد أو الجماعات من موطنهم الأصلي لكي يعطوها موطناً آخر (صفحة ١٥٦) .
 ب . Immigration : هجرة خارجية : زحف أفراد أو جماعات تاركة موطنها الأصلي نحو موطن آخر يحمل منه مكانا جديدا للاثبات الدائمة ، وتعتبر الهجرة الخارجية هجرة دولية لأنها تقوم على هجرة من دولة إلى دولة أخرى (صفحة ٢٣٧) .
 جـ . Migration : هجرة خارجية : حركة دائمة نسبيا يقوم بها شخص أو جماعة بتغيير المكان السياسي نحو منطقة أو مجتمع جديد (صفحة ٢٨٩) .
 (راجع : قاموس علم الاجتماع ، حرره وروايته : الدكتور محمد حلق طيت ، الجزء المصري النسخة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩) .
 كذلك تظهر عدم الدقة في ترجمة هذه المصطلحات الثلاثة في قاموس الأثرولوجيا ، الذي قام بكتابه الدكتور شاكر مصطفى سليم والذي يكتري عام ١٩٨١ حيث نجد التعريفات التالية :

أ . هجرة خارجية Emigration : هجرة أو جماعة إلى موطن آخر خارج موطنها وسندوها الأكاديمية التقليدية بهدف الإقامة الدائمة في الموطن الجديد . وتجعدت الهجرة الخارجية عادة بسبب كوارث طبيعية أو حروب أو هجير من افرة غلاية . أو طلبا لمستوى معيشي أفضل .
 ب . هجرة داخلية Immigration : وتحركات سكانية داخل حدود الدولة أو الأقاليم بحث هجرة بين موطنين يكون (أحدهما) موطنا بالسكان وفيه عوامل مسيئة أو اقتصادية أو اجتماعية مفرقة ، ويكون التالي كلاً لرحلتها بالسكان وفيه عوامل جاذبة (صفحة ٤٨١) .
 جـ . هجرة Migration : وحركة واسعة النطاق لجموع سكانية داخل موطنها أو إلى موطن آخر . وقد تكون الهجرة موسمية طلبا للهد والكلأ . كما قد تكون دائمة بسبب الكوارث الطبيعية أو التغيرات الاجتماعية أو الحروب أو لفساد مستوى معيشي أفضل (صفحة ٢٣٦) .
 وعلى هذا الخط في فهم لدول المصطلحات يوجد في كثير من الكتابات الأخرى التي تقع بالخطى للمعنى للكلمة ولا تنظر إلى الجاه سبر الجهر Immigration معروما باعتبارها حركة سكانية (تخرج من مجتمع معين emigration وتوجه إلى مجتمع آخر حيث تدخل) في Immigration.

أشكال التنقل أو التحركات البشرية الأخرى مثل تحركات البلو الرحل أو تحركات الرعاة من أشباه الرحل بحثا عن الماء والكأ . فهذه تحركات موسمية تختلف كل الاختلاف في طبيعتها عن الهجرة بالمعنى الذي تحلده هيئة الأمم ، لأنها تنفطر إلى عنصر الإقامة والاستقرار لفترة معينة من الزمن . والشئ نفسه يصدق على تحركات وتنقلات « عمال الترحيل » الذين ينتقلون بين مراكز العمل المختلفة وتوقف إقامتهم في أي مركز منها على توفر العمل دون أن يرتبطوا بأي مركز منها ارتباطا (دائما) حتى يمكن اعتباره موطن إقامة لهم . ففي كل هذه الأنماط من التحركات البشرية التي قد تستغرق فترات طويلة لا تقوم علاقة قوية بين الناس والمكان تكفي لنمو الشعور بالانتماء إلى ذلك المكان أو لتمثل المجتمع هؤلاء الوافدين (الطائرين) .

وهذا كله معناه أنه إلى جانب عصري الزمان والمكان أو البعد الزماني والبعد المكاني اللذين يصعب الاكتفاء بهما في تعريف الهجرة توجد عناصر أخرى قد يكون من الصعب قياسها ولكن يحسن أن تؤخذ في الاعتبار ، وهي عناصر ذاتية واجتماعية وثقافية ترتبط بإحساس الفرد نفسه ونظرته إلى عملية انتقاله والهدف منها وتكييفه لهذه العملية وشعوره بالانتماء إلى المجتمع الجديد وتكيفه معه وتقبله لقيم ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده ومثله العليا والانفعالات بها ، أو على الأقل رغبته في أن يستوعب هذا كله حتى يتم اندماجه وتمثله في المجتمع . فالهجرة ليست مجرد نقلة (جسمية) من موطن لآخر ، وإنما هي أيضا موقف عقلي واتجاه ذهني وتوجه نفسي من الشخص ذاته . ودراسة هذا الجانب الهام تتطلب من الباحث الاتصال المباشر والوثيق بالمهاجرين أنفسهم وإقامة تلك العلاقة الحميمة التي يطلق عليها علماء الأنثروبولوجيا كلمة rapport والتي تعتبر مبدأ أساسيا لأي دراسة مركزة متعمقة (٤) .

وبالمثل ليس هناك ما يبرر الانحصار في دراسة الهجرة على إيراد الدور الذي تلعبه الأوضاع الاقتصادية السائدة في الموطن الأصلي في تزوج العناصر المهاجرة وإغفال النظم والأنماط الاجتماعية الأخرى التي قد تتعاون فيها بينها بحيث تجعل من ذلك الموطن الأصلي منطقة دافعة أو طاردة لسكانها . وهذا لا يعني التهمين من شأن الأسباب الاقتصادية ، ولكن الدور الذي تلعبه هذه العوامل يبدو أكثر وضوحا حين تدرس ضمن البناء الاجتماعي الكلي وفي علاقتها ببقية النظم والعلاقات المتشابكة التي تؤلف ذلك البناء . فالأوضاع الاقتصادية ليست وحدها المسؤولة دائما وفي كل الأحوال من الهجرة ، ويستوى في ذلك الهجرات الحارضية التي ينتقل فيها المهاجرون إلى مجتمعات أخرى غريبة تنتمي إلى دول أخرى بعيدة ، أو الهجرات الداخلية التي ينتقل فيها المهاجرون من مجتمع محلي معين إلى مجتمع محلي آخر ضمن حدود الدولة . ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا قليلا ما تكون تحركات السكان أو هجراتهم من منطقة لأخرى أو من

(٤) ورغم ذلك فإنه يمكن القول بشكل عام إن عدد المهاجرين إلى بلد ما يرتبط عكسيا مع طول المسافة التي تفصل بين هذا البلد والموطن الأصلي الذي خرجت منه هذه الهجرات ، بينما يرتبط طرديا مع لرس العمل المتاحة ، وإن كان ذلك يتواءم أيضا على مدى توفر حصة الفرص في المراحل الوسيطة بين موطن (الأرسال) وموطن (الاستقبال) . وقد قامت عدة محاولات لصياغة هذه العلاقة في شكل قديما أو في شكل معادلات يمكن إضمارها للاختيار بإجراء دراسات وبحوث في مجتمعات وثقافات مختلفة ، على أمل أن يؤدي ذلك في آخر الأمر إلى ما يمكن اعتباره (نتائج) أو (ملاحظات) للهجرة . ومع ذلك فقد يكون من الصعب أو حتى من الخطأ ، التصميم من دراسة حالات قليلة للهجرة لأن في ذلك تبسيطا شديدا للأسور والمفاهيم نفسها . وهذا لا يقلل بهل من شأن أو من أهمية الدراسات المركزة المصصاة لحركة معينة للهجرة من بلد معين وإذاعة إلى بلد آخر ، إلا أن مثل هذه الدراسات المصصاة للظاهرة ككل ومعالجتها من كل جوانبها وعلى كل أبعادها سواء من حيث التوقيت أو الأعداد أو الوسائل القائمة إليها أو حصصها وانماها بالإضافة إلى كثير من المسائل المتعلقة ببناء المجتمع الأصلي أو للمجتمع المضيف هي التي تؤلف الأساس الأول الذي تقوم عليه الدراسات المقارنة التي يمكن الوصول منها إلى بعض التعميمات أو إقامة التسامح والأنماط التي نسترشد بها في إجراء مزيد من الدراسات .

ولاية لأخرى متأثرة بعوامل اقتصادية بحث . بل قد يكون العكس هو الصحيح ، بمعنى أن العوامل الاقتصادية تلعب في هذه التحركات دوراً أقل بكثير مما يظن في العادة . وثمة بعض الدراسات المسحية التي يشير إليها بيترسن والتي أجراها مكتب الإحصاء للولايات المتحدة عام ١٩٤٧ وعام ١٩٦٦ ، وقد تبين منها أن حوالي ٢٢,٦٪ من أفراد العينة هاجروا لأسباب اقتصادية بحثاً عن العمل ، بينما تنوزع بقية الإجابات بين عدد كبير من الأسباب الاجتماعية المختلفة بل وبعض الأسباب الصحية أو حتى بطبيعة الطقس السائد في « موطن » الإرسال ، وإن كان بعض الأسباب (الاجتماعية) التي ذكرت لها جانب اقتصادي واضح مثل سوء وسائل المواصلات . وليس من الضروري أبداً أن يكون وراء كل هجرات الزوج من جنوب الولايات المتحدة إلى شمالها وغربها أسباب اقتصادية أو مجرد الرغبة في تغيير حياة الزراعة إلى حياة أفضل تستند إلى ممارسة أعمال أخرى في المدن يكون لها مردود اقتصادي أعلى من فلاحة الأرض . إنما هناك أي جانب ذلك كله الرغبة في الهروب من كل الأوضاع الاجتماعية السائدة في الجنوب بكل ما تنمله من ضغوط ومعاملة اجتماعية ونفسية يقاسيها الأمريكيون السود من جراء التفرقة العنصرية .^(٩) فأسباب الهجرة هنا أوسع وأكثر تعقيداً من الوضع الاقتصادي ، بل إن هذا الوضع الاقتصادي نفسه الذي يجد الأمريكيون السود فيه أنفسهم هو مجرد مظهر واحد من مظاهر التمييز العنصري في الولايات الجنوبية من أمريكا . وقد يكون ذلك مثالا متطرفا ولكن له دلالة بغير شك .

هذه النظرة الشاملة التي تدرس الهجرة في كل أبعادها تؤلف المدخل البنائي الوظيفي الذي يتبعه غالبية علماء الأنثروبولوجيا وعدد كبير من علماء الاجتماع وبخاصة العلماء الذين يحرصون على دراسة الظاهرة في مجتمع معين بالذات ، سواء أكان هذا المجتمع هو الوطن الأصلي - أو مجتمع الإرسال الذي ينزح أعضاؤه متجهين إلى مواطن جديدة مختلفة ومتفرقة - أو كان هو الوطن الجديده أو المجتمع المضيف الذي يستقبل أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين يفلدون إليه من مجتمعات وثقافات مختلفة ومتباينة . ولكن أيما ما يكون المجتمع الذي يركز عليه الباحث فلا بد من أن ينظر في البحث إلى المجتمع الآخر بشكل من الأشكال . فالهجرة « عملية » ذات طرفين ، يؤلف مجتمع الإرسال أحد هذين الطرفين ويؤلف مجتمع الاستقبال الطرف الثاني ، بينما يقوم المهاجرون بدور « حلقة الوصل » بين الطرفين . فالمسألة تتعدى إذن مجرد الاهتمام بتبيين عوامل الطرد أو عوامل الجذب والأثار الناتجة عنها وتحديد أنماط الهجرة للمختلفة الناشئة عن هذه العوامل وإذا ما كانت هي هجرة دائمة أو مؤقتة ، أو هجرة قسرية إجبارية أو إرادية اختيارية ، أو هجرة كاملة أو غير كاملة ، أو هجرة أولية أو ثانوية ، أو هجرة قصيرة الأمد أو طويلة الأمد وغير ذلك من التصنيفات التي يجب بعض علماء الاجتماع إبرازها وتوكيدها . بل إن المدخل البنائي الوظيفي الذي ينظر إلى الهجرة نظرة شاملة كلية لا يكاد يعطي كثيراً من الاهتمام لبعض الجوانب التي يعنى بها أصحاب للنهائج الأخرى في دراسة الهجرة مثل حجم الهجرة واثاث المهاجرين بحسب الجنس أو السن أو المهنة أو الجنسية الأصلية ، وأسباب الهجرة وأثارها على كل من المجتمعين ، والمعادن الاقتصادي من الهجرة سواء بالنسبة للمهاجرين أنفسهم أو المجتمعات التي خرجوا منها ، والحصارة التي تحيق بقرة العمل في بلد المنشأ وأثر ذلك في بعض مجالات الإنتاج ، وظهور أنماط استهلاكية جديدة والاقبال الشديد - مثلاً - على اقتناء الأجهزة الكهربائية الحديثة ، وبجالات استثمار التحويلات التي يرسلها المهاجرون إلى مواطنهم الأصلية وما

إلى ذلك . وعدم الاهتمام بهذه الأمور لا يعني بحال من الأحوال عدم أهميتها أو التهمين من شأنها ، ولكنها تعتبر في نظر الباحثين البنائين الموظفين معلومات أولية تؤلف الخلفية الأساسية التي يركز إليها التحليل البنائي الذي يتم أكثر ما يتم بالعلاقات الاجتماعية . فالإكتفاء بهذه المعلومات الرقمية أو الكمية يعني في آخر الأمر دراسة الظاهرة من (الخارج) فحسب . ومن هنا يتم المدخل البنائي الوظيفي لدراسة التفاعل الاجتماعي المعقد الذي يقوم داخل مجتمع الاستقبال أو الموطن الجديد الذي يستقبل هؤلاء المهاجرين ، بحيث يتناول بالتحليل مثلاً علاقات التعاون والصداقة أو الصراع والعداء بين المهاجرين من مختلف الجنسيات ونظرة بعضهم إلى بعض في ضوء انتماءاتهم العرقية والسلالية والدينية ، بل ونظرتهم إلى أهل المجتمع وسكانه الأصليين ونظرة المجتمع إليهم ومدى تقبله أو رفضه لهم ، والمجهود التي يبذلونها للاندماج في المجتمع أو رغبتهم على العكس من ذلك في التمسك بثقافتهم الأصلية والاحتفاظ بمقوماتهم التقليدية التي تنتمي إلى المجتمع الذي جاءوا منه ، بل ونظرة كل جماعة من هذه الجماعات العرقية إلى نفسها وتقييمها للمكانة التي تحتلها في الموطن الجديد ومقارنة ذلك بالمكانة التي كانت تتمتع بها في موطنها الأصلي مع تعريف آرائهم في ذلك المجتمع القديم بكل نظمهم وأنسابهم وأنماط السلوكية وقيمته الاجتماعية التي تركوها وراءهم .



وقد يحسن أن نشير هنا إلى إحدى الدراسات التي أجريت في الخارج وتناولت بالتحليل الدقيق المشاكل الناجمة عن نزوح أعداد كبيرة من المهاجرين الذين يتمتعون إلى ثقافة تختلف كل الاختلاف عن الثقافة السائدة في بلد المهجر أو بلد « الاستقبال » . والدراسة التي أعنيها قامت بها الدكتورة باتريشيا جيفري Patricia Jeffery الزميلة الباحثة بقسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة أدنبرة على العائلات المهاجرة من باكستان إلى بريطانيا والتي أقامت بعد ذلك في بريستول . وقد ظهرت الدراسة تحت عنوان « مهاجرون ولاجنون : دراسة للعائلات الباكستانية المسلمة والمسيحية في بريستول » . والذي يمتنا في هذه الدراسة إلى جانب المشكلات التي تعرضت لها هو أنها بدلا من أن تدرس هجرة الباكستانيين إلى بريطانيا بشكل عام ركزت على العائلات المتينة في مجتمع محلي محدد هو مدينة بريستول وبذلك جاءت الدراسة على درجة كبيرة من العمق والقدرة على التحليل ، كما أنها بدلا من أن تتبع الأسلوب السوسيولوجي المعتاد في الدراسات المماثلة والذي يعتمد في المحل الأول على جمع المعلومات من عينة مختارة من المهاجرين اتبعت الأسلوب الأنثروبولوجي الذي يعتمد على الإقامة الطويلة في مجتمع البحث وعلى جمع المعلومات عن طريق الملاحظة المباشرة والمعايشة والمشاركة في مختلف أوجه النشاط اليومي ، كما عززت ملاحظاتها بعدد من « دراسات الحالة » المتعمقة فضلا عن ذهابها إلى باكستان لدراسة اللغة الأردية حتى تستطيع أن تستخلصها في الحديث مع النساء الباكستانيات اللاتي لا يعرفن الانجليزية ، وحتى تتعرف أيضا ملامح الثقافة التقليدية في باكستان ومكونات البناء الاجتماعي التقليدي . وهذه كلها أساليب وطرق للبحث تكفل التغلغل في أعماق الظاهرة أو النظام الاجتماعي موضوع الدراسة . وهذه مسألة سوف نعود إليها فيما بعد ، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أن الكتاب لم يشتمل على جدول واحد وإن الأرقام فيه قليلة . وذلك على عكس الدراسات السوسيولوجية حول الموضوع والتي يبلون أن لها ولها كبرا بالأرقام والجداول . وهذا لا يعني الاستهانة بلغة الأرقام ، وكل ما يعنيه هو أن هناك أساليب وطرائق مختلفة لدراسة الموضوع الواحد ، وأن اختيار

المشكلة هو الذي يحدد المنهج والأسلوب وطريقة التحليل اللامثلة . ومعظم الدراسات التي أجريت على المهاجرين من الكومنولث إلى بريطانيا كانت تفترض أن هؤلاء الوافدين القيمين قطعوا علاقاتهم مع وطنهم الأصلي ومع ثقافتهم التقليدية وأنه يمكن بالتالي دراسة وفهم هذه الجماعات فيها حقيقة من خلال ملاحظة وتحليل سلوكهم العادي في حياتهم اليومية في مجتمع الإقامة ، ودراسة الأعمال التي يقومون بها وظروف الحياة التي تحيط بهم مثل المسكن والدخل وغيرها . ولكن هذه الدراسة تعتبر ذلك نظرة ضيقة إلى الموضوع وأن الهجرة عملية معقدة فيها كثير من الأطراف المتشابكة التي يجب تتبعها بدقة وتفصيل ، وأن الفهم الحقيقي لهذه المشكلة لن يتحقق إلا إذا رجع الباحث إلى الثقافة الأصلية التي ينتمي إليها هؤلاء المهاجرون الذين يحتاجهم بذلك نوعان من الانتباه : الانتباه إلى الوطن الأصلي بكل قيمه وتراثه وتقاليد ، والانتباه إلى المجتمع الجديد أو الوطن المضيف ، مع الرغبة الشديدة طيلة الوقت في العودة إلى أرض المنشأ . وهي رغبة قلما تتحقق ، بل وقلما يعمل المهاجرون بإخلاص لاجراجها إلى حيز التنفيذ .

وهجرة الباكستانيين إلى بريطانيا جزء من هجرات أكبر وأوسع وأشمل وتضم أعدادا كبيرة جدا من الملونين والزنوج الذين وفدوا على بريطانيا من شبه القارة الهندية ومن أفريقيا وعدد من المستعمرات البريطانية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية . وقد ظهر حول هذه الهجرات عدد كبير من الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على هؤلاء الوافدين في مواطن إقامتهم الجبلية . وقد نجم عن هذه الهجرات كثير من المشكلات وأثير حولها كثير من التساؤلات كما ظهرت بعض الاتجاهات العدائية السافرة ضد هؤلاء الوافدين ، وهي اتجاهات تعبر عن الرضا الشديد والإحساس بخطر هذه الهجرات على نمط الحياة والقيم والثقافة البريطانية التقليدية وعلى أسلوب الحياة « البريطاني » . ومعظم الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع والتي أدلى علماء الأنثروبولوجيا فيها بنصيب وافر تكشف عن مشكلة هامة بدأ المجتمع البريطاني يعاني منها نتيجة هذه الهجرات ، وهي مشكلة الحاجز اللوني والتمايز السلافي والعنصري وما صاحب ذلك من الانسحاب إلى كثير من أساليب العنف التي لم تكن معروفة في بريطانيا من قبل^(١) .

والواقع أن هجرة الملونين والسود إلى بريطانيا ليست الا مظهرا آخر للتاريخ الإمبريالي البريطاني وامتدادا لهذا التاريخ حتى وإن كان هذا الامتداد قد اتخذ بعد انتهاء عصر الاستعمار اتجاهات مغالفا لما كان عليه من قبل . فأسلوب الحكم البريطاني في المستعمرات ، والاستغلال الاقتصادي لمصادر الثروة الطبيعية وتسخير الأفارقة في المزارع الكبيرة الواسعة وفي المناجم ، وحركات التبشير أدت كلها إلى ظهور تصنيفات سلالية وعرقية تضع الرجل الأبيض على رأس

(١) من الدراسات الهامة التي ظهرت حول هجرة الملونين إلى بريطانيا والملايات الاجتماعية والعرقية الملونة والصراع العنصري التي تبحث كلها من هذه الهجرات الدراسات والبحوث التالية التي صوبت عليها عنايا بشكل مباشر أو غير مباشر :

William W. Daniel; Racial Discrimination in England, Penguin Books, 1968; Nicholas Deakin, Colour, Citizenship and British Society, Panther Books, London 1970; Roland Littlewood and Maurice Lipsey; Aliens and Alienists, Penguin Books 1982; Ivor Moorish, The Background of Immigrant Children, Allen and Unwin 1971; Sheila Patterson, Dark Strangers, A Study of West Indians in London, Penguin Books 1965; Peter Ratcliffe, Racism and Reaction, R.K.P. 1961;

ولكن الكتاب الذي صوف على معظم أبحاثنا عن البحث الأنثروبولوجي الممثل الذي ظهر عام ١٩٦٦ يعرف :

Patricia Jeffery, Migrants and Refugees: Muslim and Christian Families in Bristol, Cambridge University Press 1976.

الجنس البشري . وقد ظهر ذلك واضحا في كل كتابات القرن التاسع عشر وعلى الأخص الكتابات الأنثروبولوجية التي اهتمت بتصنيف البشر وكل الكائنات الحيوانية وتصنيف الثقافات والمجتمعات والنظم والأساق فيما لفلسفة تطورية تقوم على ترتيب الأشياء حسب درجة رقيها وتقدمها أو تخلفها وانحطاطها . والظاهر أن هذه النظرة لا تزال سائدة في بريطانيا إلى حد كبير ويعتقها كثير من الناس وإن كانت لا تطفو على السطح إلا حين تنهيا انظروف لذلك . وعلى أي حال فإن الذي يبعنا هنا هو أن معظم الذين درسوا الحركات الهجرية إلى بريطانيا كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك التاريخ الاستعماري البريطاني الذي كان جزءا من التوسع الأوربي الذي امتد إلى أطراف بعيدة من العالم من أجل السيطرة والتحكم في الأسواق ونقل ثروات تلك المستعمرات إلى أوروبا ، ثم لم يلبث بعد ذلك أن احتكر بعض مناطق العالم لتصرف الصناعات والمنتجات الأوربية فيها . وهذه السياسة الاستعمارية هي التي أدت إلى تقسيم العالم إلى دول ومجتمعات صناعية وأخرى زراعية فقيرة هي التي تؤلف « العالم الثالث » بكل ما يعانيه من فقر وسوء تغذية وجهل ومرض وبطالة . ومعظم المهاجرين الملونين السود الذين يعيشون الآن في بريطانيا جاءوا من دول ومجتمعات تعاني من بعض المشكلات التي لحقتها على أيدي بريطانيا ذاتها . وهذه حقيقة يعترف بها معظم الباحثين في كثير من التجرد والموضوعية^(٧) .

ولقد كانت شبه القارة الهندية قبل تقسيمها إلى دولي الهند والباكستان واحدة من أهم المناطق التي خضعت للحكم البريطاني وكانت تعتبر أجمل وأغلى جوهرة في التاج البريطاني . وقد أفلتت بريطانيا من هذه (العلاقة) إلى أبعد الحدود سواء من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية العسكرية حيث كان (الهند) يحاربون لها حروبا ، بينما لم تكن شبه القارة الهندية تفيد شيئا يذكر من (المدينة) الغربية التي جلبها البريطانيون لهم في مقابل استنزاف خيرات بلادهم وثرواتها . وكما تقول باتريشيا جيفري (صفحة ٢) فإنه لا يمكن الفصل من الناحية التاريخية بين تطور بريطانيا وتقدمها كدولة صناعية وتخلف الهند وفقرها واعتمادها اقتصاديا على الزراعة ، وأن تحكم بريطانيا في أسواق الهند كان من أهم العوامل التي ساعدت على قيام الثورة الصناعية في بريطانيا .

وربما كانت هذه الحقيقة ماثلة في أذهان الكثير من الهنود والباكستانيين الذي اضطرتهم ظروف بلادهم إلى الهجرة إلى بريطانيا بحثا عن العمل ، فقد كانوا يرون أن هذه الهجرة أمر طبيعي وأن من حقهم أن يجودوا في بريطانيا بالعمل الذي يحتاجون إليه . ولم تكن بريطانيا على أي حال تجد في أوائل الخمسينات ما يمنع من قبول تلك الأعداد الكبيرة الوافدة إليها ، إذ كانت تجد فيهم الأيدي العاملة الرخيصة اللازمة لتشغيل مصانعها بعد أن انصرف كثير من العمال البريطانيين عن العمل فيها نظرا لانخفاض الأجور . وهكذا نجد أنه بعد أن أثلحت بريطانيا في استنزاف الموارد الطبيعية من شبه القارة الهندية أيام الاستعمار أخذت تستنزف قواها البشرية بعد أن نالت استقلالها وانقسمت إلى دولتين كبيرتين هما الهند والباكستان . ولقد كان النازحون من هاتين الدولتين يدخلون بريطانيا بغير عوائق أو صعوبات حتى عام ١٩٦٢ حين تغير الوضع وأصبحت بريطانيا تقبل أصحاب المهارات والكفاءات فقط ، أي أنها لم تكن تقبل سوى الفئات التي تحتاج إليهم بلادهم الأصلية ولا تستطيع الاستغناء عنهم بسهولة . وربما كان ذلك وراء ما قالته إحدى

(٧) انظر مل سجل المال :

Patricia Jeffery, op. cit. pp. 7-43; R. Littlewood and M. Lyndage, op. cit. Ch. 4; Ratcliffe, op. cit. pp. 1-18.

السيدات المهاجرات حين سئلت في شيء من العداة عما يدفعها هي وأمثالها إلى المجيء إلى بريطانيا فأجابت بأنها هي وأمثالها إنما يأتين إلى بريطانيا من شبه القارة الهندية لاسترداد ماسة كوهي نور Koh-i-noor الشهيرة . ولكن لا يمكن القول إن كل المهاجرين من شبه القارة الهندية إلى بريطانيا يعرفون ذلك التاريخ ويعرفون تلك الماسة الشهيرة أو يدركون الأبعاد التاريخية والبنائية لهجرتهم ، وإنما هم يرون أنفسهم مجرد أفراد كانوا يعيشون في بلد فقير لا يستطيع أن يوفر لهم ولعائلاتهم العيش الكريم وأنه لا يمكن أمامهم إزاء ذلك إلا أن يحاولوا الأفاذة بقدر الامكان من الفرص التي تتيحها لهم الحياة ، وأن الهجرة إلى بريطانيا كانت إحدى هذه الفرص .^(٨)

ولقد كانت تلك الاعتبارات وراء اختيار باتريشيا جيفري للمنتج الذي اتبعته في دراسة المهاجرين الباكستانيين في بريستول ، وهو منتج يقوم ليس فقط على معاشرة الناس ومشاركتهم كثيرا من أوجه النشاط اليومي والاعتماد على الملاحظة المباشرة التي تتطلب الإقامة الطويلة في المجتمع وعدم الالتجاء إلى صحائف الاستبيان وقوائم الأسئلة القصيرة المباشرة إلا في أضيق الحدود ، ولكنه أيضا منتج يقوم على التعاطف مع الناس ومحاولة فهم وجهة نظرهم والتعبير عنها بأمانة للدرجة قد تصل بالباحث إلى أن ينكر ذاته تماما ويخفي من الصورة بقدر الامكان لكي يترك للناس أنفسهم الفرصة للتعبير عن آرائهم وعرض دقائق حياتهم وشرح تجربتهم الخاصة وتقييم هذه التجربة في ضوء الظروف والأوضاع التي ساندوها ، وبدون تدخل أو توجيه من الباحث إلا في أضيق الحدود . وهذا هو بالضبط ما فعلته باتريشيا جيفري في هذه الدراسة التي نحن بصليها . وربما كان هذا المدخل الذي يقوم على التعاطف والذي يجب بعض علماء الأنثروبولوجيا تسميته بالمدخل المعرفي هو أهم ما يميز هذه الدراسة . والواقع أن الستينات والسبعينات شهدت اتجاهها واضحا في البحوث الأنثروبولوجية في الخارج نحو اتباع هذا المدخل الذي لم يطبق عندها على أي حال إلا في حالات قليلة معدودة وبالدلائل في بعض الرسائل الجامعية التي لم تنشر بعد.

ومع التسليم بتعدد الأسباب وراء الهجرة فإن الهجرة من أجل العمل - أي لاسباب اقتصادية في المحل الأول - تشكل نسبة كبيرة من هجرات البشرية في العالم . وتبدأ هذه الهجرات في العادة على أنها مسألة مؤقتة لا يلبث المهاجر أن يعود بعدها إلى وطنه الأصلي . أو هذا على الأقل هو ما يعتقد الكثيرون في بداية الأمر ، خاصة وأن كثيرا من مجتمعات المستقبل لا تحب إقامة الوافدين من أجل العمل بصفة دائمة فيها ، ولكن ذلك لم يمنع من تزايد حركات الهجرة في كثير من مناطق العالم . فتقارير مكتب العمل الدولي مثلا تشير إلى أنه في عام ١٩٩٩ كان المهاجرون من أجل العمل كله حوالي عشرة ملايين نسمة ولكن في عام ١٩٧٣ كان ٩٪ من القوة العاملة في ألمانيا الغربية يتبنون إلى جنسيات

(٨) كان أبناء دول الكومنولث هم في الغالب والعمد في بريطانيا . بل إن تلك كان يسودها هم أكثر مما كان يفتقد للوافدين من جنوب آسيا ، مثلا الذين كانوا يقيمون بجانب من الناحية الاقتصادية . وبذلك لا يمكن في استطاعتهم العمل هناك بغير حصول على ترخيص . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية هجرت أعداد متزايدة من شبه القارة الهندية ومن بعض دول الكومنولث الجديدة وانجذبت للاقامة في بريطانيا مما أدى إلى ظهور جيل من البريطانيين ، الملغوليين الذين كانوا على أي حال يحملون مكانة أقل من الناحية الاقتصادية من البريطانيين البيض الذين يملكون الثروة والسكان الأصليين . والواقع أنه حتى عام ١٩٦٦ لا تذكر الفترة العصرية في بريطانيا غير مشروعة ، بل إنه حتى عام ١٩٦٨ حين صدرت القوانين المتعلقة للهجرات السالبة كان من المفترض أن تضع أصحاب سجون عمليات تدل على أنهم لا يتجاوزون مكانة من الملغوليين . وحتى بعد صدور القوانين لم يتغير الموقف كثيرا جديا إلا ببطء وبقتصر . وقد عاد الباكستانيون بكميات من تلك الأثر من طهرهم أو فإن يفضل بهم وراء السكان البيض عامل الدين إلى جانب عامل اللون . وقد لاحظ هذه الظاهرة عدد من علماء الذين همروا الهجرة في بريطانيا وديم باتريشيا جيفري . انظر على سبيل المثال كتاب

أجنبية ، كما أن فرنسا تعتمد على العمال المهاجرين من الجزائر والمغرب بحيث أنه في عام ١٩٧٤ كان حوالي ٥٪ من كل القوى العاملة الجزائرية تعمل في فرنسا . وقد سبق أن أشرنا إلى أن بريطانيا كانت في سنوات الازدهار في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تستقبل أعدادا كبيرة من العمال المهاجرين الذين كانوا يقدون إليها من الدول التي أدت السياسة البريطانية الاستعمارية ذاتها إلى تحطيم اقتصادها . ويشير تعداد عام ١٩٧١ إلى أن ١,١٦ مليون نسمة في بريطانيا كانوا من مواليد دول الكومنولث الجديد ويوجه أخص من الهند وباكستان وبنجلاديش . ولكن حين دخل الغرب في مرحلة الكساد في السبعينات بدأت التهرات العنصرية والتفرقة بين السلالات وما يرتبط بها من توتر وصراع عنصري تظهر بعنف وقوة على ما ذكرنا وبشكل لم يكن مألوفاً من قبل^(٩) . وقد دفع ذلك باتريشيا جيفري إلى القول بأن (دعوى) التسامح الذي يفخر به البريطانيون هي في الحقيقة (ادعاء) فيه كثير من الزيف والسطحية والحداد (صفحة ٣) . وهذا الحكم الذي تصدره باتريشيا جيفري يكشف عن نوع التعاطف الذي تبديه مع الباكستانيين الذين ركزت عليهم دراستها في بريستول ، وهو مستمد على أية حال من أقوالهم هم أنفسهم وبعبارة بذلك عن وجهة نظرهم ورأيهم في المجتمع البريطاني بعامة ومجتمع بريستول الذي يعيشون فيه بخاصة ، وإن كانت ملاحظاتها هي الخاصة أثناء البحث تميز من هذا الرأي .

بل إن اختيار باتريشيا جيفري للموضوع يكشف هو أيضاً عن الدور الذي يلعبه التعاطف في الدراسة . ففي البداية كان للموضوع الذي يشغل بالها وتريد التركيز عليه والذي جذب انتباهها بحكم افتقارها في بريستول كطالبة في الجامعة هناك كان هو حياة الفتيات الباكستانيات في ضوء خضوعهن لبعض التقاليد وقواعد العرف الباكستانية ، مثل رغبة الوالدين في أن تحفظ الفتيات بالحجاب أو (البردة) رغم إقامتهن في مجتمع غربي حديث (بريطانيا) ، وكذلك نظام الزواج الذي يتولى الوالدان ترتيبه لأولادهم وبخاصة الفتيات منهم . وعكفت على دراسة التمازج الذي يبلغ أحيانا حد الصراع بين وجهتي نظر الوالدين والفئة الصغيرة ، واسترعى نظرها في ذلك قدرة الباكستانيين على الاحتفاظ بالهوية أو الذاتية الباكستانية عن طريق التمسك بتلك العادات وقواعد السلوك والقيم والنظم التقليدية ، وبذلك تحول اهتمامها إلى دراسة الأساليب والوسائل التي تتم بها المحافظة على تلك العناصر الثقافية الهامة وأسلوب تربية وتنشئة الأطفال في البيت في جو باكستاني تقليدي . وهكذا اتجهت الدراسة نحو العمليات التي يتم عن طريقها (عدم التمثل) - وليس التمثل - والمحافظة على المقومات والأسس والملاح العرقية وليس اختفاء هذه الملاح وانتشارها عن طريق الاحتكاك والتفاعل مع الثقافات الأخرى على ما تفعل كثير من الدراسات الأخرى حول الهجرة . فبينما ينتم معظم الباحثين بتعرف الوسائل والأساليب التي يتم بها تكيف المهاجرين مع المجتمع الجديد وتنظيم الثقافة ، اتجهت باتريشيا جيفري على العكس من ذلك إلى البحث عن عوامل (عدم) التكيف و (عدم) التمثل والاحتفاظ بالخصيصة الاجتماعية والهوية الثقافية الخاصة للمهاجرين الباكستانيين في مجتمع الدراسة .



الهجرة على نطاق واسع من باكستان إلى بريطانيا ظاهرة حديثة نسبياً . فلم يكن يوجد في بريطانيا عام ١٩٥٠

Paul Harrison; Inside the Third World: The Anatomy of Poverty, Harvester Press, London 1979, pp. 139-42.

سوى عدد قليل من الباكستانيين ، وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن العدد قد وصل إلى عشرين ألف مهاجر ، وحتى الآن لا يزال معظم الباكستانيين المهاجرين في بريطانيا وإن كانت هناك نسبة معينة من النساء يلحقن كل عام بأزواجهن ، وهي على أي حال نسبة ضئيلة نظرا للقيود المفروضة على الهجرة والاقامة . والطريف هنا هو أن بعض المهاجرين الباكستانيين إلى بريستول هم من المسيحيين - أي أن الهجرة الباكستانية ليست هجرة إسلامية خالصة . وعلى الرغم من أن المسيحيين في باكستان لم يكونوا حسب إحصاء عام ١٩٦١ يزيدون عن ١,٣٦٪ من مجموع السكان وإن عددهم في بريستول قليل جدا فإن باتريشيا جيفري وجدت أن من المستحسن أن تجري على بعضهم البحوث المركزة المتعمقة فيها بعرف باسم دراسة الحالة ، على أساس أن ثمة فوارق ثقافية هامة تميزهم عن الباكستانيين المسلمين وأن لهم نظرتهم وآراءهم ومواقفهم الخاصة المتميزة من الهجرة .

وكما هو الحال في أغلب حالات الهجرة فإن الهجرة من الباكستان إلى بريطانيا تكمن وراءها في أغلب الحالات دوافع اقتصادية ، ولذا فإن معظم الوافدين يتوجهون أولا إلى المناطق التي تمانى نقصا في الأيدي العاملة حتى يضمنوا لهم عملا يستطيعون الاعتماد عليه ولومؤقتا إلى أن تتاح لهم الفرصة الكافية للتعرف على الموقف بشكل أفضل ويستطيع كل منهم أن يتخير أفضل مكان للعمل والاقامة فيستقر فيه . وعلى ذلك فإن أغلب الباكستانيين المقيمين في بريستول لم يصلوا إليها إلا بعد أن مروا بعدد من مراكز العمل الأخرى في بريطانيا ومارسوا عددا من الأعمال المختلفة . ومع ذلك فإن هناك إلى جانب الدوافع الاقتصادية أسبابا أخرى اجتماعية وراء عدد كبير من حالات الهجرة وبلاصة هجرة المسيحيين . وقد ظهرت هذه الأسباب الاجتماعية نتيجة للدراسة المركزة التفصيلية لحياة بعض الأفراد لمعرفة العوامل الذاتية والشخصية التي تخفي وراء الدوافع الاقتصادية العامة مثل الشكوك التي يجملها المسيحيون إزاء وضعهم ومكانتهم الاجتماعية في الوطن الأصلي ، وهي شكوك تقول باتريشيا جيفري أنه لم يتوفر لديها معلومات كافية تجعلها تطمئن إلى صدق ما يقوله هؤلاء المهاجرون المسيحيون . ولكن ليس المهم هنا أن كان ما يزعمونه صحيحا أو غير صحيح ، وإنما المهم هو أن الشعور بالتمييز والفرقة بين المسيحيين والمسلمين في باكستان والاحساس بالظلم الواقع عليهم شعور واحساس موجودان عند المسيحيين بالفعل ولما دخل كثير في تقييم المسيحيين لوضعهم في المجتمع وفي اتخاذهم القرار بالهجرة من باكستان . وإذا كان المسلمون قد اختاروا الذهاب إلى بريطانيا في المحل الأول نظرا لتوفر امكانيات العمل فيها فإن اختيار المسيحيين لبريطانيا كان ناجما عن شعورهم بأنها أشبه شيء (بالأرض المقدسة) - حسب التعبير الذي استخدمه أحد المسيحيين الذين درست باتريشيا جيفري حالتهم دراسة تفصيلية (صفحة ٥٧) . ولكن الظاهر أن الدين لم يكن شغيا كافيًا للباكستانيين المسيحيين يساعد على قبول المجتمع البريطاني في بريستول لهم أو يشجعهم على البقاء طويلا في بريطانيا ، وإن كان فتح أمامهم أبواب بعض العائلات البريطانية . فعدد من العائلات الباكستانية المسيحية تفكر الآن في الهجرة إلى كندا ، وذلك في الوقت الذي تفكر فيه عدد من العائلات المسلمة في ترك بريطانيا أيضا ولكن عائدا إلى باكستان . وهذا الاختلاف في الاختيار له دلالة . ولكن يمكن القول بوجه عام أنه إذا كان الباكستانيون المسيحيون يشعرون بالتمييز ضدهم على أساس ديني في باكستان فإن هذا الوضع تغير إلى حد كبير في بريطانيا حيث يتقبل المجتمع المهاجرين المسيحيين بسهولة أكثر مما يتقبل المهاجرين المسلمين ، وهذا دليل آخر تسوقه باتريشيا جيفري على التمييز العنصري الديني في بريطانيا إزاء المهاجرين (صفحات ٦٦ - ٦٨) .

وليس معنى هذا أن الفصل العنصري هو سياسة مرسومة من الدولة بقدر ما هو شعور عام بين الناس ينعكس في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع المحلي الذي يضم جماعات عرقية مختلفة . كذلك ليس من الضروري أن يتخذ ذلك الشعور بالتنافر بين الجماعات العرقية شكل العنف كما حدث في بعض المدن في بريطانيا أو في بعض أحياء لندن ، وإنما قد يتخذ شكل التبعاد ووضع الحدود على العلاقات الاجتماعية بحيث لا يتم التفاعل الاجتماعي إلا في أضيق الحدود . وكذلك ليس من الضروري أن يقتصر ذلك التبعاد الذي يعبر عن التمييز العنصري على البريطانيين البيض من ناحية والزنوج والمولودين ككل من الناحية الأخرى ، وإنما يقوم ذلك التمييز بين مختلف الجماعات العرقية على السواء وبغير تفرقة كما تشير إلى ذلك الأوضاع العامة السائدة في بريستول . فالاختلاط بين البريطانيين والباكستانيين الذين يشتركون في عمل واحد لا يتم إلا في أضيق الحدود وأثناء أوقات العمل فقط . ويزيد من ذلك أن الكثيرين من العمال الباكستانيين يأخذون معهم طعامهم ويتناولونه بالتالي على حدة وافراد وبذلك لا تتيح لهم فرصة الاتصال بزملائهم من الجماعات السلالية والعرقية الأخرى - وليس فقط زملاءهم من البريطانيين - أثناء فترة تناول الغذاء . ولقد حرّمهم ذلك من فرصة الحديث باللغة الانجليزية وبالتالي إتقان اللغة التي هي أداة اتصال وتواصل في المجتمع البريطاني والتي بدونها يزيد شعورهم بالوحدة والعزلة والافتراق . وليس من شك في أن طبيعة الطعام (البريطاني) لها دخل كبير في ذلك . فالباكستانيون المسلمون يحرصون على تناول اللحم (الحلال) وهو مالا يتوفر في الطعام البريطاني العامي ، وذلك فضلا عن الفكرة العامة السائدة بينهم ولدى الكثيرين من الأعراب من مختلف الجنسيات والسلالات من أن الطعام البريطاني بوجه عام لا طعم له وغير مستساغ لغير البريطانيين (باتريشيا جيفري ، صفحات ٩٠ - ٩٣) بل إن الباكستانيين يحرصون وقت تناول الطعام في بيوتهم أن يسدلو الستائر حتى لا يراهم المارة في الشارع وهم يأكلون بينما لا يعطي البريطانيون لهذه المسألة أدنى اعتبار . وهذا التبعاد نفسه يقوم حتى بين الجماعات العرقية التي يفترض أن بينها كثيرا من أوجه الشبه والتي تشترك معا في كثير من العناصر الثقافية كما هو الحال مثلا بين الباكستانيين والهنود ، وبخاصة الذين ينتمون في الأصل إلى البنجاب حيث تشابه الفتنان في اللغة والملابس والأوان الطعام (ربما باستثناء اللحم الحلال) . فالاختلافات الدينية والسياسية القائمة في باكستان تنعكس على العلاقات بين الفئتين في بريطانيا وتقف عتبة دون اختلاطهما بشكل أكبر فعالية في الحياة اليومية ، لدرجة أن باتريشيا جيفري التي عينت بتبع هذه العلاقات تقول أنه في بريستول لم تنشأ أي علاقة قوية سوى بين عائلتين اثنتين فقط احدهما باكستانية والأخرى هندية من مدينة أمرتسار ، وحين تتبع الموضوع لمعرفة سر هذه العلاقة اكتشفت أن الرجل الباكستاني جاء في الأصل من أمرتسار نفسها (صفحة ٩٣) ، أي أن رحلة المواطن الأصلي كانت هي العامل الأساسي في التقريب بين هاتين العائلتين اللتين تمثلان بذلك حالة استثنائية وفريدة .

وتعد هذا الانفصال بين الجماعات العرقية المختلفة إلى الأطفال الصغار في المدارس . فالأطفال الباكستانيون يلتحقون بطبيعة الحال بالمدارس البريطانية خاصة وأنه لا توجد مدارس باكستانية تعمل طوال الوقت ويمكنها أن تتولى وحدها مهمة تعليمهم وتربيتهم وتنشئتهم . وصحيح أن هناك بعض المؤسسات والمدارس الدينية الملحقة بالمساجد ولكنها لا تقدم للأطفال سوى التعليم الديني وبعض الوقت فقط . وهذا لا يعني عن الالتحاق بالمدارس البريطانية من أجل التعليم الرسمي المنهجي المنتظم . ومع أنه لا يوجد فصل أو تمييز عنصري داخل المدارس فلا يكاد يوجد اختلاط

بين التلاميذ الباكستانيين والبريطانيين خارج المدارس . وتذكر لنا باتريشيا جيفري (صفحة ٩٣) أنها خلال كل الوقت الذي استغرقته الدراسة الميدانية لم تلتق بأطفال بريطانيين في زيارة بيوت (أصدقائهم) من الأطفال الباكستانيين سوى مرتين اثنتين فقط

وزيد من حلة هذه الانفصال الذي يكاد يصل إلى حد الانفلاق أو التفوق على الذات وجود برامج اذاعية وتليفزيونية باللغة الأردية إلى جانب صدور عدد من الصحف بتلك اللغة أيضا ، وهي صحف تهتم بأخبار الوطن وأحداثه في المحل الأول ولا تكاد تولي الشئون البريطانية أو أحداث الغرب بوجه عام أدنى عناية أو اهتمام . ولكن من الإنصاف مع ذلك أن ما نقر أن ما تعرضه وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري المختلفة وبخاصة التلفزيون من ملامح الحياة في بريطانيا يساعد كثيرا على تكوين فكرة صحيحة عن المجتمع البريطاني ، أو أنه يسهم على الأقل في تصحيح كثير من الأفكار المسبقة التي جاء بها الباكستانيون (وغيرهم من الجنسيات الأخرى) حول العادات والأخلاق والسلوك والعلاقات بين أفراد المجتمع البريطاني وبخاصة فيما يتعلق بسلوك المرأة والتحرر الأخلاقي والجنسي وتعتبر هذه الأفكار المسبقة من أهم عوامل تباعد الباكستانيين بالذات وانصرافهم عن إقامة علاقات مع البريطانيين . ولم تغلح وسائل الاعلام على أي حال رغم ذلك في إزالة كل الشكوك والريب . ولا تزال علاقات الباكستانيين مع البريطانيين علاقات سطحية إلى حد كبير وفي حدود ضيقة للغاية .

والطريف في الأمر هنا هو أن كل جماعة عرقية تُصَب من نفسها حكما على سلوك وقيم الجماعات الأخرى وتخضعها لمحكاتها ومعاييرها ومفاهيمها الخاصة ، وتنتظر إلى هذه الأنماط السلوكية والثقافية من زاوية معينة تحمل في طياتها كثيرا من الشك والريبة وعدم التقدير بل وأحيانا عدم الاحترام . وقد تكون هناك أسس لهذه الريبة والشكوك في بعض الأحيان ، كما هو الحال مثلا في تقييم الباكستانيين للمسلمين لبعض جوانب الحياة العائلية في بريطانيا ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية غير الشرعية والأطفال غير الشرعيين والعلاقات بين الآباء والأبناء وواجبات كل منهما نحو الآخر وما إلى ذلك . وتنعكس هذه الشكوك أحيانا في المفارقات التي يعقدها الباكستانيون بالذات (في بريستول) بين ما يحدث في بريطانيا وبين الأوضاع والعلاقات والروابط العائلية القوية التي عهدوها في بلادهم ، وكثيرا ما يبالغون في أحكامهم حول هذا الموضوع . فمن ذلك ما تذكره باتريشيا جيفري مثلا من أن أحد الاخباريين informant الذين كانت تعتمد عليهم اعتمادا كبيرا لفهم طبيعة علاقاتهم بمجتمعهم الأصلي وبالمجتمع الجديد كان يؤمن بشكل قاطع وحاسم بأن نسبة الطلاق في بريطانيا هي ٧٥٪ من حالات الزواج ، وأن الحياة الزوجية في المجتمع البريطاني هي حياة تعيسة ومبعدة كل البعد عن السعادة الحقيقية التي تعيش فيها العائلة الباكستانية حيث لا تزيد حالات الزواج غير الموفق عن حالة واحدة في كل مليون زوجة (صفحة ٩٥) . وبصرف النظر عن مدى مطابقة ذلك للحقيقة والواقع فالهم هو أن مثل هذه الأحكام إنما تصدر عن موقف معين يحمل نظرة تقويمية معينة ويعبر عن اتجاه معين أبضا إزاء الجماعات العرقية الأخرى . وفي آخر الأمر أحكام ناتجة عن عدم فهم الثقافات الأخرى نتيجة لقلّة .. أو حتى انعدام .. الاتصال والاتصاف بتلك الثقافات والأغراق أو الانحصار كلية في الثقافة الخاصة التي تسود في المواطن الأصلي ، كما تكشف عن مدى الارتباط القوي بتلك الثقافة الأصلية على الرغم من العيش في مجتمع آخر له ثقافته الخاصة ، وعدم القدرة على التحرر من تأثير هذه الثقافة الأصلية . فالعلاقة بين المهاجرين والوطن الأم بكل ثقافته ونظمه وقيمه علاقة قوية ليس من

السهل فقصمها أو التتكررها . والأجيال التي نشأت في الهند أو الباكستان (أو غيرها من المجتمعات التي تخرج منها هجرات كبيرة إلى بريطانيا) إنما تأتي إلى المجتمع المضيف أو الوطن الجديد عملة بكل ذلك التراث الثقافي والاجتماعي السائد في الوطن الأصل . وهذا التراث يؤثر بغير شك في سلوك هؤلاء المهاجرين في المجتمع الجديد ويحدد علاقاتهم بغيرهم من الجماعات العرقية .

من هنا فإن أي دراسة للجماعات المهاجرة التي تعيش في بلد « الاستقبال » أو الوطن الجديد يجب أن تأخذ في الاعتبار تلك العلاقات والروابط التي تظل قائمة بين هؤلاء المهاجرين وبلد « المنشأ » أو بلد « الأرسال » الذي خرجوا منه . وهذا في الواقع هو ما فعله كثير من الباحثين الذين اهتموا بدراسة وضع المهاجرين في أوطانهم الجديدة ، وهذا أيضا هو ما فعلته باتريشيا جيغري في دراستها للعائلات الباكستانية في بريستول ، وذلك على اعتبار أن الوطن الأصلي يعتبر - كما سبق أن ذكرنا - أحد طريقي عملية الهجرة . والواقع أن علماء الأنثروبولوجيا بوجه عام كانوا يرون دائما أن دراسة أي نظام اجتماعي أو أي ظاهرة اجتماعية يجب أن تتخطى حدود المجتمع المحلي الذي يدرسون فيه ذلك النظام أو تلك الظاهرة حتى يمكن التعرف المؤثرات الخارجية التي يخضع لها ذلك النظام أو تلك الظاهرة . وهذا يصدق بطبيعة الحال على دراسة الجماعات الإنسانية التي كثيرا ما تمتد علاقاتهم إلى ما وراء حدود المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه . وهذا هو ما فعله - على سبيل المثال - إيفانز بريشارد في دراسته لقبائل النوير في جنوب السودان ، حيث لم يكتف بدراسة أي قبيلة من تلك القبائل على حدة وإنما درسها في علاقاتها بعضها ببعض ثم تخطى ذلك إلى دراسة علاقاتها بالقبائل الأخرى التي تحيط بها ، والتي ترتبط بها بروابط الصداقة أو العداوة وكيف أن هذه الروابط تحدد نوع البناء الاجتماعي السائد عند قبائل النوير^(١٠) . وهذا مثال تقليدي قديم يسترشد به الباحثون في تبهمهم العلاقات بين المجتمع الذي يركزون على دراسته والمجتمعات الأخرى التي ترتبط به بعلاقات اجتماعية أو سياسية اقتصادية تتدخل في تشكيل بئانه وثقافته .

في ضوء هذه الاعتبارات لم تكتف باتريشيا جيغري بجمع المعلومات من الإخباريين في بريستول أو من الأشخاص الذين اعتبرتهم « حالات » تدرس حياتهم دراسة تفصيلية متممة ، وإنما حملتها الدراسة إلى باكستان نفسها حتى تستكمل دراسة الموضوع في كل أبعاده . وتقول في ذلك :

« لقد كانت هناك بعض مزايا واضحة ترجع إلى كوني امرأة . فقد كانت النساء والفتيات يشعرن بالسعادة للقاء حتى وإن لم يكن في استطاعتهن الكلام بالانجليزية بينما كان الرجال يعاملوني على أنني (رجل شرف) . ولم يكن لخل هذه الأمور أن تحدث بالنسبة للباحث الذكر . ولقد كانت اللغة هي المشكلة الكبرى إذ لم يكن يتكلمها إلا الرجال والنساء المسيحيات ، وكان من الواضح أن اتصالي بالسلطات وبالفتيات اللاتي وصلن حديثا لن يكتب لها النجاح إلا إذا تعلمت أنا اللغة الأردية . . . وكانت أفضل وسيلة لحل مشكلة اللغة هي أن أقيم أنا نفسي في باكستان . وعلى ذلك فإني عشت في لاهور في الفترة من نوفمبر عام ١٩٧٠ إلى إبريل عام ١٩٧١ ، وهناك تلقيت دروسا منتظمة في اللغة الأردية وأقمت علاقات

(١٠) الإشارة هنا إلى كتاب :

R.E. Evans Pritchard, The Nuer, Oxford University Press, 1940.

واتصالات مع أكبر عدد ممكن من أقارب المهاجرين . وبطبيعة الحال فإن معرفتي باللغة الأردية معرفة قاصرة وحين عدت إلى بريستول عملت إلى توطيد علاقتي من جديد مع الأخباريين . وقد أسعدهم - وبخاصة النساء - أن وجدوا أن بإمكانني الآن أن أتكلم الأردية معهم - وأنني أصبحت أهتم اهتماما كافيا ببلدهم لدرجة خلعتني على الذهاب إليها . وقد ساعد ذلك على أن يشعر النساء بالارتياح والأطمئنان ، فقد كن يرينني أنني أصبحت باكستانية وامرأة تعرف عاداتهم وتحمل لهم أختباراً من وطنهم . « (صفحة ٧٢) .

وهذا أسلوب متبع على أية حال في الدراسات الأنثولوجية . والأساتذة الرواد كانوا يشترطون إجادة لغة المجتمع موضوع الدراسة حتى يمكن إجراء البحث دون الاستعانة بالمترجمين نظراً لما قد يضيع من معان أثناء الترجمة . ولكن المسألة تتعلق بمجرد معرفة اللغة في هذه الحالة ، لأن كثيراً من أنماط السلوك التي يتبعها الباكستانيون في بريطانيا لم يكن يتيسر فهمها تماماً إلا بالرجوع إلى الثقافة التقليدية التي نشأوا فيها ومعرفة العلاقات والروابط التي لا تزال تربطهم بتلك الثقافة وبالمجتمع القديم . يظهر هذا إذا نحن قارنا على سبيل المثال أوجه الصوف والافتاق بالنسبة للعامل البريطاني والعامل الباكستاني اللذين يمارسان نفس العمل . فبينما يعتبر دخل العامل البريطاني ملكاً له ولأفراد أسرته ويمكن للباحث أن يتبع بدقة كل تفاصيل أوجه الافتاق والأبواب التي يتم إتفاق الدخل فيها بالنسبة للأسرة ككل وبالنسبة لكل فرد من أفرادها فإن ذلك لا يصدق على العمال المهاجرين لأن جزءاً من ذلك الدخل لا يمكن اعتباره بحال ملكاً للعامل نفسه أو أسرته لأنه يرسل بالفعل خارج البلد إلى الأقارب في باكستان . ولئن يمكن للباحث فهم ذلك إلا عن طريق - تتبع شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة وما يرتبط بها من التزامات ومسؤوليات لا نجد لها مثيلاً في المجتمع البريطاني أو الثقافة الغربية بوجه عام . وتضرب لنا باتريشيا جيفري مثالاً بأحد المهاجرين الذي كان ينفق على أسرته الموجودة معه في بريستول والتي تتألف من زوجة وثمانية أطفال ، ولكنه كان يعمل في الوقت ذاته أبناً آخر له وأختاً أرملة يعيشان في باكستان ، وذلك فضلاً عما كان يرسله من نقود لشراء بيت يمكن أن يأوي إليه حين يعود إلى موطنه الأصلي . فمعظم المهاجرين الباكستانيين يضمعون ذلك اليوم في اعتبارهم ويؤملون في العودة على الرغم من أن الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بهذا الموضوع يرون أن هذه أسطورة كما سبق أن ذكرنا^(١١) . بل إن أولويات الافتاق تختلف عند الباكستانيين عنها عند البريطانيين . فالباكستانيون يسارعون في الأغلب إلى تسديد أقساط البيوت التي يشترونها في بريطانيا بأكثر مما يفعل البريطانيون بحيث يتم تسديد كل الثمن في فترة أقصر بكثير ، لأن ذلك يعني أنهم يصبحون بسرعة ملاكاً فعليين للبيوت . وليس من شك في أن ذلك يعني أنهم يتحملون كثيراً من الشقة ويعانون كثيراً من الحرمان حتى يمكنهم سداد أقساط أكبر حجماً ، ولكن هنا أيضاً تتدخل الاعتبارات الثقافية في تحديد الأولويات لأن ملكية العقار بالذات عنصر مهم في تحديد المكانة الاجتماعية في باكستان (باتريشيا جيفري ، صفحات ٨٠ - ٨١) .



(١١) انظر على سبيل المثال :

وهذا الارتباط القوي بالموطن الأصلي ليس قاصرا في الحقيقة على الباكستانيين وإنما هو أمر لاحظته الكثيرون من العلماء من أمثال أنوار Anwar الذي صاغ عبارة «أسطورة العودة» في كتابه الذي أشرنا إليه ، ويتر راتكليف في دراسته للمهاجرين السود والمولودين من عدد من المستعمرات السابقة الى بريطانيا كما درسه في حي Handsworth في مدينة برمنجهام^(١٧) . وهذا الارتباط القوي دليل واضح ومؤشر هام على أن المهاجرين لم يتم تمثيلهم تماما في المجتمع الجديد ، كما أنهم لم يستوعبوا الثقافة الجديدة كل الاستيعاب ولم يتكيفوا بعد مع الأوضاع الجديدة . ولذا كانت عملية التمثل والاستيعاب والتكيف من أهم الموضوعات التي تنطرق إليها البحوث الأنثروبولوجية حول الهجرة والإقامة في مجتمعات محلية معينة ومحددة ، وبخاصة حين تكون هذه الهجرة هجرة تعددية تشمل أشخاصا وعائلات ينتمون إلى جماعات عرقية وثقافية متفاوتة ومتباينة كما هو الحال في بريستول أو في برمنجهام . وهذا في الحقيقة يمكن أن يصدق على الهجرة في منطقة الخليج بالذات حيث تشمل أشخاصا ينتمون إلى عدد كبير من الجنسيات والسلالات والثقافات ويعيشون معا ، أو على الأصح يتعايشون جنبا إلى جنب ، في مجتمعات صغيرة الحجم وكانت إلى عهد قريب تتميز ببساطة البناء الاجتماعي وتعكس درجة عالية من التجانس الثقافي . وإذا كان علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع يميزون بين التمثل التام والتمثل غير التام أو غير المكتمل ، ويرون أن التمثل التام يتحقق حين يفlech المهاجرون بعد طول إقامة في الوطن الجديد في التحرر تماما من ثقافتهم القديمة الأصلية ويقبلون ثقافة المجتمع الجديد وينأججون تماما في المجتمع وتتشابه علاقاتهم وتنوع وتعمق مع أفراد ذلك المجتمع الأصليين ، فإن كثيرا من الشكوك تنتاب هؤلاء العلماء في مدى إمكان تحقيق ذلك النوع من التمثل بالنسبة للمهاجرين وبخاصة من الجيل الأول^(١٨) .

من ناحية أخرى يذهب بعض العلماء من أمثال جوردون M.M. Gordon في كتابه عن « التمثل في الحياة الأمريكية ، Assimilation in American Life » (وهو كتاب قديم نسبيا حيث نشر منذ أكثر من عشرين سنة - عام ١٩٦٤ - ولكنه لا يزال يحتفظ بأهميته في هذا المجال) - إلى التمييز بين بعدين أساسيين للتمثل هما البعد البنائي والبعد الثقافي . فالبعد الثقافي يترتب عليه تقبل واستيعاب القيم وأنماط السلوك السائدة في المجتمع الجديد ، بينما يتضمن التمثل البنائي إنشاء ثم توليد العلاقات الاجتماعية ، وبالذات العلاقات الاجتماعية الأولية ، مثل روابط القرابة وعلاقات الصداقة مع أعضاء ذلك المجتمع . ويضرب لنا جوردون مثلا على ذلك من الولايات المتحدة حيث يبدو التمثل الثقافي واضحا على نطاق واسع بعكس الحال بالنسبة للتمثل البنائي . وهذا هو السبب في أن المجتمع الأمريكي يتميز بالتعددية البنائية وليس بالتعددية الثقافية . فهناك فئات وجماعات كبيرة متمايزة مثل البروتستانت والكنائليك واليهود والزنج ، وعيل أفراد كل فئة أو جماعة من هذه الفئات أو الجماعات إلى الزواج فيما بينهم وبذلك يقيمون علاقات وروابط قرابية واجتماعية قوية ولكنها خاصة بهم ومتميزة عن غيرها من العلاقات المائلة التي تقيعها الفئات والجماعات الأخرى . فهذه إذن فئات تميز بنائيا على الرغم من أنها كلها تشارك في ثقافة واحدة أو يسودها نوع موحد من الثقافة . وهناك من يوجه بعض الانتقادات إلى جوردون ويرون - مثلا فعل جريبي A.M. Greeley في

London 1979, Peter Raiciff; Racism and Reaction: A Profile of Handsworth, op. cit.

(١٧)

(١٨) يمكن للمرء أن يرجع إلى ذلك إلى الفصل الرابع من « البناء الاجتماعي والثقافة » في كتابنا « البناء الاجتماعي » ، مدخل دراسة المجتمع ، الجزء الأول من المجلدات ، الملة للنسرة العامة للكتاب - القاهرة والإسكندرية .

كتاب نشره عام ١٩٦٩ تحت عنوان طريف هو « لماذا لا يمكن أن يكونوا مثلنا ؟ » ، Why Can't They Be Like ؟ إلى أنه - أي جوردون - بالغ في إبراز عنصر التشابه الثقافي بين تلك الجماعات المتمايزة بناتيا ، وأن ثمة في حقيقة الأمر اختلافات ثقافية كبيرة بينها وبخاصة فيما يتعلق بقواعد ومعايير القرابة ، وأن هذه الاختلافات والفوارق الثقافية توجد لدى الجماعات التي عاشت في أمريكا منذ عدة أجيال ولا يقتصر وجودها على الجماعات التي وفدت حديثا أو منذ عهد قريب .

فكأن التمثل الثقافي عملية صعبة للغاية ولا تتحقق إلا بعد عدة أجيال ، ولكنها مع ذلك أسرع في الحدوث من التمثل البنائي ، وأن العملية كلها على أي حال بالغة التعقيد . وهذا يصدق بغير شك على المهاجرين الباكستانيين إلى بريطانيا . وإذا كان بعض الكتاب يذهبون إلى أن المجتمع البريطاني مجتمع متجانس بناتيا وثقافيا على السواء فإن هناك من يرفض هذه الدعوى ويرى أن ثمة تعقيدات وتنوعات ثقافية هائلة ، كما أن هناك تقسيمات واضحة تتمثل في الاختلافات الاقليمية والتفاوت الطبقي والتمايز بحسب التعليم والاختلافات في الدين وما إلى ذلك ، وهي اختلافات تنعكس في كثير جدا من مظاهر الحياة الاجتماعية مثل الحياة العائلية وأوجه النشاط المختلفة بما في ذلك النشاط الترفيهي وفي التطلعات المهنية والترجيحات السياسية وما إليها . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نتوقع أن يتم تمثيل المهاجرين الباكستانيين سريعا في النمط الثقافي والاجتماعي البريطاني أو يتم تمثيل هؤلاء المهاجرين في الوقت ذاته لهذا النمط مادام لا يوجد نمط واحد معين وعدد واضح المعالم ومادام المجتمع البريطاني التقليدي هو ذاته مجتمعا غير متجانس على عكس الشائع ، وأن فيه اختلافات وفوارق ثقافية وبنائية هائلة ؟ (باتريشيا جيفري ، صفحات ٨٣ ، ٨٤) .

فإذا كانت عملية التمثل الثقافي تعني اختفاء الملامح والعناصر الثقافية الأصلية تماما فإنه يكون إذن من الخطأ الكلام عن استيعاب مجتمع الاستقبال أو الموطنة الجديد للمهاجرين استيعابا كاملا ، أو اندماج المهاجرين في المجتمع اندماجا كاملا ، خاصة وأن التمثل بهذا المعنى يلقي مقاومة من الجانبين : جانب الأهالي الأصليين الذين يضمنون حواجز اجتماعية عالية يعجز المهاجرون عن تخطيها أو القفز فوقها ، وجانب المهاجرين أنفسهم الذين يحتفظون بكثير من ملامح ثقافتهم الأصلية التقليدية التي تميزهم عن غيرهم من الجماعات وتعطيهم هويتهم الثقافية والاجتماعية التي يعتزون بها والتي ياملون أن تكون هي مفتاح عودتهم إلى وطنهم الأصلي في يوم من الأيام . وإذا كانت هناك صعوبات وعوائق تمنع - أو على الأقل تعرقل - تحقيق التمثل الثقافي التام بالنسبة للمهاجرين فإن القيود التي تفرضها الجماعة العرقية على قيام كثير من العلاقات الاجتماعية وبخاصة فيما يتعلق بالزواج وعلاقات القرابة ، والتي تخضع في حالة الباكستانيين المسلمين بالذات لحكام الدين الاسلامي ، تمنع من تحقيق التمثل البنائي . والمحصلة النهائية من كل ذلك هو أن يصبح المجتمع الذي يستقبل المهجرات البشرية مجتمعا متعلجا تتجاور فيه الثقافات والأبوية الاجتماعية المتمثلة في تكوين وتنظيم الجماعات العرقية المختلفة التي يكاد كل منها يؤلف مجتمعا مغلقا ومتحرلا ، أو ما يطلق عليه علماء الانثروبولوجيا تعبير social isolate . وقيام علاقات اجتماعية بين الأفراد الذين ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة لن يؤدي بالضرورة إلى اختفاء هذه الجماعات مهما بلغ من تشابك هذه العلاقات وتنوعها وتقدمها ، لأن هناك دائما قواعد تحكم العلاقات بين الجماعات العرقية والسلالات المختلفة ونضج فواصل في الوقت ذاته بين أشكال معينة من التصرفات بحيث يعتبر تجاوز

هذه الحدود تصرفا معينا يخضع للمساملة والمؤاخلة^(١٤). فالتمسك بهذه الحدود هو طريقة لفرض قيود على العلاقات والاتصالات مع الجماعات الأخرى، ونوع من الدفاع عن الذاتية الثقافية والاجتماعية. فالبريطانيون في بريستول يتمسكون بهذه الحدود وبذلك ينعون الباكستانيين من أن ينفقوا حياتهم الخاصة أو يتغلغلوا فيها. فهناك على سبيل المثال اللامبالاة التي يدونها إزاء جيرانهم من الباكستانيين، وهناك التمييز من جانب سماسرة العقارات الذين قد ينفقون على الباكستانيين البيوت المعروضة للبيع أو الامتياز في مناطق معينة، وغير ذلك من أساليب الابداء التي تكاد تصل إلى حد التنبد، وإن كان الباكستانيون الذين دوستهم باتريشيا جيفري لا ينكلمون في العادة عن هذه الأمور ولا يكادون يشيرون إليها. ولقد سبق أن رأينا على أي حال كيف أن الباكستانيين من جانبهم يتمسكون هم أيضا بتلك الحدود ويأبون على الجماعات الأخرى سواء في ذلك البريطانيين أو الهنود أو الباكستانيين المسيحيين أو غيرهم أن ينفقوا تلك الحواجز ويتغلغلوا في حياتهم الخاصة. (باتريشيا جيفري صفحة ٨٩). وليس للمجتمع البريطاني كما يتمثل في بريستول فريدا في ذلك، وإنما هي ظاهرة عامة وعنصر أساسي يميز سلوك أهل للجمع الأصليين إزاء الغرب - خاصة إذا كان هذا الغرب وافدا من أجل العمل. ولكن المجتمعات تختلف في طريقة التعبير عن هذا الموقف وفي نوع القيود والحدود التي تفرضها على هؤلاء الوافدين والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى حرمانهم من الإقامة الدائمة معها طال مكوناتهم في البلد المضيف. وهذه ظاهرة نجدها في كثير من البلاد العربية التي تستقبل أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة، وفي بعض الدول الأوروبية على السواء. بل إن بعض الدول تحرم على الأيدي العاملة الوافدة اصطحاب عائلاتهم معهم على أساس أن ذلك سوف يدفع بهم إلى عاجلا أو آجلا إلى العودة إلى أوطانهم^(١٥). ولكن هذا الموقف يختلف تماما عن وضع المهاجرين الدائمين الذين يقصودون الوطن الجديد بقصد الإقامة الدائمة ويحاولون الحصول على حق المواطنة، وإن كانت تدعيمهم طيلة الوقت أحلام العودة إلى الوطن.



والذي نريد أن نقوله هنا هو أن نظرة المهاجرين أنفسهم أثناء إقامتهم الفعلية في موطنهم الجديد، وتقويمهم لتلك التجربة التي يمرون بها وبخاصة فيما يتصل بعلاقتهم بالمجتمع الأصل الذي نزحوا منه، ومدى ارتباطهم به، ونوع هذه العلاقات والروابط لا تزال كلها بحاجة إلى مزيد من الدراسة المتعمقة عن طريق الاتصال المباشر وتطبيق مناهج وأساليب البحث الأنثروبولوجي. ومثل هذه الدراسات خلية بأن تكشف لنا عن جوانب إنسانية قلما يعطيها الباحثون ما تستحقه من عناية واهتمام. والدراسات العديدة التي أجريت في الخارج والتي أشرنا إلى بعض منها كلها تكشف عن قوة الرابطة التي تربط بين هؤلاء المهاجرين وأوطانهم الأصلية وعن صدق الرغبة في العودة إلى الوطن، وإن كانت هذه الرغبة لا تتحقق بالفعل في كل الحالات، بل وقلما يندل المهاجرون جهودا حقيقية لاخراجها إلى حيز التنفيذ. وكما يلاحظ اندريه جاك Andre Jacques في كتاب حديث يعرض فيه للمهاجرين واللّاجئين في عدة مناطق من العالم

Frederick Barth, (ed): *Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference, Alien and Un-* (١٤) *win*, London 1969

Annie Phoenix and Robert Miles: *Labour and Racism*, R.K.P. 1980 pp. 10-13. (١٥)

اعتباراً من أمريكا الوسطى إلى أفغانستان إلى اليهود والفلسطينيين إلى نزيف الهجرة في جنوب شرق آسيا إلى منطقة الخليج إلى هجرة الأيدي العاملة في إفريقيا ، فإن كل هذه الجماعات التي « تقطعت جذورها » - حسب التعبير الذي يستخدمه في الكتاب - لا تزال مع ذلك تحمل هاجس العودة إلى الوطن الأصلي مهما طال بها الزمن في الوطن الجديد ، وأن أعداداً كبيرة منهم يفلحون في تحقيق ذلك بعد أن يكونوا قد حققوا أهدافهم من الهجرة أو نتيجة لتغير الظروف في المجتمع الأصلي وزوال الأسباب والعوامل التي دفعتهم في الأصل إلى الهجرة ، أو لعدم رغبة المجتمع المضيف في الاحتفاظ بهم نتيجة لبعض الازمات الاقتصادية التي يعاني منها ، أو بعد أن يكون قد استنفد هو نفسه أغراضه منهم^(١٦) . وعلى أي حال فإن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى مناهج واساليب تختلف تماماً عن الاساليب السوسولوجية والاحصائية المتبعة حالياً في معظم الدراسات التي يأيدونها وتطلب الاتصال المباشر وتوطيد الثقة المتبادلة بين الباحث والأشخاص أو الجماعات الذين يُجرى عليهم دراسته ، كما أنها خليقة بأن تنطرق إلى موضوعات تبدو شائكة في ظاهرها ولكنها تدور دائماً في أذهان المهاجرين واللاجئين بل وإيضاً في أذهان واضعي السياسات واصحاب القرار في المجتمعات المضيفة ، مثل حق المهاجرين الذين اسهموا بقسط وافر في تنمية هذه المجتمعات في الإقامة الدائمة إذا رغبوا في ذلك ، ومثل إزالة الحواجز التي يقيمها المجتمع المضيف بينه وبين هؤلاء الوافدين بحيث يشعرهم طيلة الوقت بالقرابة وبالتالي عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار والامساك عن المطاء كما يجب أن يكون العطاء .

دكتور احمد ابو زيد



Andre Jacques, Les Derachines: Refugies
et migrants dans le monde, Editions La Decouverte, Paris 1985.

القدمة :-

البحث في قضايا الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية يعتبر واحداً من القضايا ذات الارتباط المباشر بالكثير من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها المنطقة العربية خلال الخمس عشرة سنة الماضية . ومن المهم القول أن هذه المعطيات أو « الآثار » أو « الحواقب » - كما يذهب البعض في تسميتها - لم تكن مقتصرة على تلك الدول ذات العلاقة المباشرة بعملية انتقال العمالة - الدول المصدرة والمستوردة للعمل - وإنما امتدت لتشمل النظام الإقليمي العربي كما في بعض دول العالم الثالث ذات العلاقة المباشرة مع دول المنطقة العربية .

الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية عبر في منظومات نظرية أهم إشكالية مجتمعة

وهي - أي عملية الهجرة - لم تكن ظاهرة منعزلة عن مجمل التغيرات المجتمعية الأخرى التي ضربت نسج المجتمع العربي - وعلاقته بل هي في الواقع إحدى أهم إفرازات التشكيل الجديد للنظام الاجتماعي العربي وسبب له .

بإقرسلما لنجاء

أساذ علم الاجتماع المساذ
كلية البحرين الجامعية

وتقامست المدرستان السانطان في الفكر الاجتماعي العربي معالجة هذه الظاهرة : المدرسة الكلاسيكية الجديدة وهي الأسبق من حيث المعالجة والأكثر رواجاً في معالجات قضايا الهجرة ومثلتها بشكل واضح الدراسات التي قادها فريق جامعة درهم ، بيركس وستكلير وكتابات البنك الدولي وبعض الكتابات العربية (١)

(١) انظر في ذلك مثلاً :

J.S. Birks and C.A. Sinclair, Arab Manpower : The Crisis of Development, London, Croom Helm, 1980; J.S Birks and C.A. Sinclair, International Migration and Development in the Region, World employment Programme, Geneva, I.L.O., 1980, The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4, Autumn, 1984;

للمعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية : تدور السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي الكويت ١١ - ١٨ ديسمبر ١٩٧٩ ، الكويت ، ١٩٧٩ ، أمل العربي الصباح ، الهجرة إلى الكويت من عام ١٩٥٧ - ١٩٧٥ ، دراسة في جغرافية السكان - الكويت - جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

ومدرسة الاقتصاد السياسي والتي مثلتها بشكل جلي دراسة فرد هولندي ويبحث الدراسات الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية وبعض الدراسات الحديثة .^(٢)

وتهدف هذه الدراسة لمعالجة طبيعة وخصائص الهجرة في المنطقة العربية والعوامل المؤثرة فيها واختيار مدى مصداقية الأدوات النظرية التي وظفت لمعالجة الظاهرة .

أولا - الهجرة العمالية : مشكل التنظير :-

في البدء لابد من تأكيد حقيقة شاركنا فيها الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية ، وهي ان معظم الدراسات الكلاسيكية ذات النحى الديموجرافي والسوسولوجي والاقتصادي - المعالجة لقضايا الهجرة وانتقال العمالة في الغرب وبعتمادها على متغيرات فردية لم تساعد على تطوير فهمنا لمشكل الهجرة في المنطقة العربية . فليس أسهل من صياغة قوائم لتفسيرات - لا تشك في صحتها طعما - لأفراد غادروا لأسباب متعددة مثل تحسين الأوضاع المعيشية ، تعليم الأطفال ، الالتحاق بالعمالة ، ... الخ كمتغيرات فاعلة في عملية الهجرة . وبدون شك فان الاعتماد على عددية وسكونية بعض هذه المداخل المنهجية في معالجة قضايا الهجرة قد أدى الى صياغة مفهومية Conceptualization خاطئة لمشكل الهجرة .

فالتصورات النظرية الأولى مثلا ، تبنت ما يسمى بمعادلة التوازن السكاني بين الوحدات الجغرافية المختلفة كما صاغها جون ميلز John S. Mills والذي يفترض ان الهجرة ما هي الا مشكل من أشكال إعادة التوازن السكاني بين الوحدات الكونية . أي بمعنى آخر ان الهجرة تساعد على تخفيف الضغط السكاني في مناطق العسر ، مقابل تلبية حاجة الوحدات الجغرافية الأخذة في النمو Growing Units من الأيدي العاملة وبهذا فإن الهجرة تعتبر إحدى العمليات المساعدة على إعادة التوازن بين الحاجة للمصادر البشرية وتوفر رأس المال^(٣) .

ويقدم الاقتصاديون التقليديون Conventional Economists تصورا لعملية الهجرة قائما على فكرة عملية التنظيم الذاتي Self-Regulating Process حيث تتكيف الحاجة للطلب على العمالة مع العرض في الوحدات الجغرافية المختلفة ضمن إطار الاقليم الواحد . فارتفاع الرواتب في المدن وكذا ارتفاع مستوى المعيشة وتوفر الخدمات يساعد على ارتفاع معدلات الهجرة من الريف للمدن^(٤) . من ناحية أخرى تذهب نظرية التجارة الدولية - Interna-tional Trade Theory فتقدم تصورا مشابها للهجرة إذ أن الدولتين غير المتساويتين في الإمكانيات والسعة

(٢) لمزيد من الاطلاع حول هذه الكتابات انظر :

Fred Halliday, Migration and the Labour Force in the oil Producing states of the Middle East, Development and change Vol. 8, No. 3, July 1977;

نادر لرجائي وأندريو ، السعلة الأجنبية في أنظار المخرج العربي ، بحوث وثقافات الشرق الفكرية التي تطلقها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد العربي للتعطيل ، يناير ١٩٨٣ ، بيروت . مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٢ ؛ سعد الدين إبراهيم النظام الاجتماعي العربي الجديد ، دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٢ ، نادر لرجائي ، الهجرة الى النفط ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٣ .

John S. Mills, Principles of Political Economy, London, Longmans, 1909.

Alejandro Portes and John Walton, Labor, Class and the International System, London, Academic Press, 1981, p. 26. (٤)

الإنتاجية بإمكانها التمتع بنوع من التبادل الثنائي، لأمكاناتها المتاحة : السلع الرأسمالية والعمالة . وقد يكون باستطاعة إحدى هاتين الدولتين توظيف رأسمال وقوة عمل الدولة الأخرى بانتاجية أكبر ، أو أن يكون لأحدهما ميزة انتاج بعض السلع على الأخرى . بمعنى آخر فإن التجارة والهجرة سيساهمان في رفع دخول الدولتين أو الدول الداخلة فيها .^(٩)

أما نظرية التحديث Modernization في علم الاجتماع فإنها تقدم شكلاً آخر من نظرية التوازن - equilibrium حيث تفترض هذه النظرية أن الهجرة وانتقال العمال بشئ أشكالها ما هي إلا نتاج لثنائية ما أسمته بالنسق القيمي Value System السائد في دول المنشأ Countries of origin^(١٠) . فالنوازون لدى هذه النظرية يتحقق عن طريق هجرة أفراد المجتمعات المتخلفة الأكثر تعلقاً بالحضارة المتقدمة لدول المركز تاركين وراءهم السكان التقليديين . وتعتقد نظرية التحديث هذه أن التعرض لنمط القيم الغربية ، التفرغ (الوسترنة) ونمط السلوك الاستهلاكي يساهم في خلق الانقسام ضمن سكان الدول المتخلفة . فالأكثر تعلقاً بنمط وحياة الماضي يسمون بالتقليديين Traditionals مقابل المحدثين Moderners ، أي الراغبين في التكيف أو المتكيفين مع نمط الحياة الجديدة في شكلها الغربي . وباستخدام كلمات دانييل ليرنر Daniel Lerner فإن اكتساب ما أسماه « بالحساسية الدينامية » أو التعاطف مع الآخرين empathy يعين أفراد المجتمع على التكيف والعمل بكفاءة في عالم متغير . ويعلق ليرنر على ذلك قائلاً أن سكان المجتمعات المتطورة وبخلاف سكان « الدول النامية » يتميزون بخاصية القدرة العالية على تقبل الجديد والتعاطف مع الآخرين^(١١).

وبشكل عام فإن معظم النظريات السابقة والتي انطلقت أساساً من خبرة الهجرة العمالية في المجتمعات الغربية تدعي أن الهجرة ذات مضمون إيجابي لكلا طرفي الهجرة : الدول المصدرة والمستوردة للعمال . ويخلص لنا رأي رست هذا الرأي بالقول :

« إنه لوضع لا يوجد فيه أي خامس ، فالهاجر في انتقاله لدولة أخرى يتلقى بالإضافة للأجر المالي التدريب الفني والمهني الذي فيما بعد يساهم في عملية التنمية في دول المنشأ . أما دول الاستقبال فإنها باستقبالها لقوة العمل الوافدة فإنها في هذه الحالة تحصل على عمالة لم تتحمل في نشأتها أية تكاليف تذكر »^(١٢).

(٩) Philip L. Martin and Alan Richard, International Migration, Monthly Labour Review, october, 1980, p. 6.

Andrew Webster, Introduction to the Sociology of Development, London, Macmillan, 1984.

Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society : Modernizing the Middle East, N.Y., Free Press, 1965, PP. 49/50. (١٠)

Ray C. Rist, The European Economic Community (E.E.C.) and Manpower Migration Policies and Prospects, Journal of International Affairs, Vol. 33, No. 2, Fall/Winter, 1979, P. 207. (١١)

فلماذا يولدون لعملية الهجرة أو الفئولون بعائدا الايجابي يرون فيها أحد العوامل الرئيسية المساهمة في تخفيف التضخم السكاني في المناطق المزدحمة بالسكان وقيم ذلك عن طريق اتحاد العائلات بأفرادها المهاجرين في دول الاستقبال يساهم في انخفاض عدد سكان الدول الطاردة للعمالة ، ارتفاع معدلات هجرة العزاب أو المتزوجين غير المصحوبين بعائلاتهم ساعد على ارتفاع سن الزواج وبالتالي تقليل الانجاب كما هو في الحالة الأولى أو تقليل الانجاب كما هو في الحالة الثانية ويؤكد هذا أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية .

وذلك من دراسة لبعض الإحصاءات الخاصة بالانجاب في أوساط أسر المهاجرين في الجزائر حيث وجد أن معدل الانجاب في الأسر ذات العائل المهاجر انخفض إلى نحو ٢.٥٪ كما أن معدل انجاب الأطفال انخفض هو الآخر من ٤.٧ إلى ٣.٥^(٩) . إلا أننا نضيف على ذلك فنقول أن الاستقرار النسبي والمؤقت لبعض الأسر المهاجرة في الدول الأوروبية ، من مناطق الاكتظاظ السكاني في العالم الثالث لا يمكن اعتباره بأي شكل من الأشكال عاملا مهما في انخفاض حجم التضخم السكاني في دول مثل الهند وباكستان وتركيا والجزائر ومصر .

بالإضافة لذلك فقد قيمت الهجرة على أنها ذات تأثير إيجابي على أسواق العمل في دول الأرسال . لذا فقد اعتبرت البطالة وعل الدوام من القوى الطاردة للعمالة . من هنا جاء تشجيع الكثير من أصحاب القرار لهجرة الفائض من الأيدي العاملة كمعامل مساهم في تخفيف حدة البطالة في دول المنشأ ، كما أنها من ناحية أخرى وكما قال كنزلي بيركر : « ستساعد على تنشيط عملية النمو بازاحتها للمعوقات في السوق »^(١٠)

وتذهب لوتس Lutz من هذا آخى وذلك بافترضها أن الهجرة العمالية لغرب أوروبا شرط أساسي لأي توسع صناعي لدول جنوب أوروبا المرسله للعمالة . فإزاحة الفائض السكاني هنا يساهم في رفع معدلات الدخل والتي بدورها ستساهم في زيادة الطلب على السلع المصنعة^(١١) .

وعلى العكس من ذلك فإن الشواهد المتاحة أمامنا لم تدعم الادعاء السابق ، حيث أن بعض الدول الأوروبية وجدت نفسها مضطرة أمام تزايد هجرة قوة عملها لوقف هجرة السكان من بعض المناطق وذلك لضمان استمرارية تقديم بعض الخدمات المجتمعية التي أصيبت بالفتور نتيجة هجرة قوة العمل المحلية^(١٢) . بالإضافة لذلك فإن هجرة

(٩) Organization for Economic Co-operation and Development, Migration and Transfer of Technology Case Study : Algeria, Morocco, Tunisia and France, development Centre, Paris, 1975, P. 72.

(١٠) C.F. Kindleberger, European Post-War Growth : The Role of Labour Supply, Cambridge, Harvard University Press, 1967- P. 106.

(١١) V. Lutz, Some Structural aspects of the Southern problem the Complementarity of emigration and industrialization, Banca Nazionale del Lavoro Quarterly Review No. 59, 1961, PP. 367-402, In B. S. AL-NAJJAR, Aspects of Labour Market Behaviour In An Oil Economy, A study of underdevelopment and Immigrant Labour in Kuwait, Ph. D Thesis, University of Durham, 1983, P. 39.

(١٢) Stephen Castles and Godula Kosack, Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe, London, Oxford University Press, 1973, P. 413.

الفائض السكاني من المناطق الفقيرة لدول الشمال الأوروبي يعتبر انتقالاً لبعض عناصر الفائض القيمة لهذه الدول وذلك بافتراض حجم المدخلات المادية التي تم إنفاقها على هؤلاء من سن الطفولة حتى دخولهم سوق العمل ، وكذا يمكن القول أن ما يسمى بالفائض السكاني في دول العالم الثالث لم يكن أبداً هكذا بل إنه نتاج لطبيعة الأنماط التنموية المتبينة وانعدام التكافؤ في توزيع ناتج الفائض القيمة داخلياً من ناحية ومحصلة لولوج هذه الدول منظومة عمل النظام الرأسمالي العالمي من ناحية أخرى وهو ما سنشرحه فيما بعد .

وأخيراً تأتي التحويلات النقدية المرسلة من المهاجرين للدول المنشأ على أنها إحدى أهم ميزات الهجرة لدول الغرب وقد علق أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية على هذه الظاهرة في حالة الجزائر بالقول :

« تعتبر مساهمة العمال المغتربين في ميزان المدفوعات الجزائري من أهم مصادر الدخل فالتحويلات النقدية هؤلاء العمال تعتبر إحدى مصادر تغطية العجز في الميزان التجاري وبالتحديد في الفترة السابقة لارتفاع أسعار النفط (قبل خريف عام ١٩٧٣) : أما في الغرب فإن التحويلات النقدية للمغتربين من المغاربة إحدى أهم مصادر ميزان المدفوعات وكذا في تمويل التنمية » .^(١٣)

أما في حالة التحويلات النقدية للمهاجرين والعمال الأتراك فإن نيرمن أبدان Nermin Abdan تنحو في معالجتها له منحى حثراً إذ تقول :

« قد يكون من الحق القول بأن التحويلات النقدية للمهاجرين من الأتراك ساهمت في رفع المستويات المعيشية لبعض الفئات الفقيرة من المجتمع التركي ، وتخطت العجز في الميزان التجاري ، وأنعشت من قوة التوجهات الاستهلاكية لهذه الجماعات ، إلا أنها نادوا ما ساهمت في الاستثمارات الإنتاجية » .^(١٤)

وبشكل عام ، فلو قبلنا جزئياً فكرة أن التحويلات النقدية قد تساهم في تحسين الأوضاع المعيشية لبعض أسر المهاجرين في دول المنشأ وتغطية العجز في ميزان المدفوعات ، إلا أن كل هذه التغيرات التي اعتبرت على أنها إيجابية ليست ذات علاقة بإنتاجية الاقتصاديات المعنية وإنما بالبقاء المؤقت للعمالة المهاجرة وبطبيعة تطور اقتصاديات دول الاستقبال . بالإضافة لذلك ، فإننا لم نجد من الشواهد العملية ما يؤيد ما ذهب إليه بعض الدراسات من أن

Organization For Economic Co-Operation and Development, Op. Cit, P. 66.

(١٣)

N. Abadan-Unat et al., Migration and Development, Ankara-Ajarnetwerk Press, 1975, P. 380.

(١٤)

التحويلات النقدية للمهاجرين ثم استثمارها إنتاجيا خصوصا إذ ما عرفنا أن الكثير من الأموال النقدية تم تحويلها عن طريق قنوات رسمية وغير رسمية لا تمتلك الجهات الرسمية أية سلطات بخصوص طبيعة ومجالات توظيفها .

باختصار فإن وجهات نظر الجهات المؤيدة لعملية الهجرة قد اعتمدت على محركات اقتصادية غير مدعومة بشواهد أمريقية . أي يعتبر آخر إن هذه الاتجاهات رغم أهميتها في تفسير الظاهرة ، إلا أنها قد اعتمدت على متغيرات فردية منسلخة عن سياقها الاجتماعي والاقتصادي الذي اشتقت منه ، وهذا ما حاول نقاديه الاتجاه الآخر المسمى بالاتجاه النقدي أو اتجاه الاقتصاد السياسي .

أ - اتجاه الاقتصاد السياسي في تفسير الهجرة :

دفعت العواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خبرتها دول الإرسال في العالم الثالث بعض مفكرين من المهتمين بالبنية لمناقشة قضية الهجرة من منظور اجتماعي - اقتصادي أوسع يأخذ في اعتباره ظروف التشكل الاقتصادي والسياسي لدول الإرسال وموقعها ضمن منظومة عمل السوق الاقتصادي العالمي .

وترجع بدايات بروز هذا الاتجاه إلى كونز ميردال Gunner Myrdal والذي بخلاف السابق يرى في هجرة عمال العالم الثالث لأوروبا نوعا من الفقر Impoverishment وإزاحة للمصادر البشرية من سكان العالم الثالث . فالهجرة العمالية لأوروبا في العقدين الخامس والسادس لم تساهم في تنمية دول الإرسال كما نذهب الاتجاهات السابقة بل على العكس من ذلك كرست من واقعها المتخلف وتبعيتها للغرب .^(١٥)

أما إرواد مدرسة التبعية وبالتحديد بول بوران Baul Baran فيؤكد أن العلاقات التجارية بين الدول الفقيرة والدول الغنية وكذا حركة الاستثمارات الأخيرة لم تساهم في تضيق الهوة بين الدول المتقدمة والدول النامية في تكريس خضوع الدول الأضعف . وتقوم فكرة باران هذه على أن تقدم العالم المتطور جاء بعد مصادرة فائض القيمة في الدول النامية التي خضعت في البداية لشروط التجارة الغربية ومن ثمة للاستعمار الغربي . وقد طور أندرو فرانك Andre Frank هذه الافتراضات إلى نظرية في التخلف . ويمكن صياغة الافتراض الرئيسي لاتجاه مدرسة التبعية في التالي :

« أن التخلف لم يكن حالة وجدت عليها اقتصاديات العالم الثالث قبل إخضاعه للنموذج الأوروبي ، بل نشأ وتطور في لحظة تاريخية واحدة مع نشأة وتطور التقدم في المراكز الرأسمالية المتقدمة ، أي أن التخلف والتقدم هما وجهان لعملة تاريخية واحدة بدأت مع ولادة النظام العالمي للرأسمالية منذ القرن السادس عشر »^(١٦) .

أي أن مدرسة التبعية لا تعتبر التخلف نتيجة لصيقة بطبيعة الهيكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث بقدر ما هو نتاج لتلك العلاقات التاريخية التي ربطته بمنظومة الدول الرأسمالية المتقدمة . لذلك فالنظام الرأسمالي العالمي - بالنسبة لأصحاب هذه النظرية - يتكون من منظومتين من الدول ، الأولى وتتكون من عدد صغير من الدول المسيطرة والمتطورة المستغلة - بكسر الغين - التي تشكل المركز Centre أو المتروبول Metropolis ، والثانية ويتكون من عدد كبير من دول العالم الثالث المستغلة - بفتح الغين - تشكل المحيط Prephiry أو التواضع

Gunner Myrdal, Rich Lands and poor, N. Y. Harper Row, 1957.

(١٥) انظر مثلاً :

(١٦) محمد السيد سبيح . نظرية التبعية وتفسير مختلف الاتجاهات العربية ، للنسجل العربي ، العدد ١٢ ، أبريل ١٩٨١ ، ص ٢١ .

Satellite . واستنادا لهذه النظرية ، فالهجرة من دول المحيط إلى دول المركز تمثل استمرارية لواقع الاستغلال ونزوحا لفائض القيمة لصالح الدول المتقدمة^(١٧) وبهذا المعنى جاء اعتبار الهجرة شكلا من اشكال الاستعمار الجديد Neo-Colonialism على أساس أنها جزء من فائض القيمة المنقول لدول المركز والمساهم في تنمية العالم المتطور . وقد علفت دواصة حديثة ، حول هجرة الجزائريين لفرنسا على ذلك بالتالي :-

« تمثل هجرة العمال الجزائريين لفرنسا ودول الرأسمالية المتقدمة (في أوروبا) أحد العوامل الرئيسية في استمرارية تبعية الجزائر لهذه الدول . فحرية انتقال اليد العاملة تمثل أحد المتغيرات الهامة للعلاقة (غير المتكافئة) بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة » .^(١٨)

بشكل عام فإن مدروسة التبعية في تناولها لمشكل الهجرة لا توضح لنا بالقطع مدى إمكانية تغيير الشروط الحالية للعلاقة القائمة بين الشمال والجنوب كما أنها في الوقت ذاته الذي تفسر هجرة عمالة العالم الثالث لأوروبا على أنها نزوح لفائض القيمة واستمرارية لواقع الاستغلال والتخلف لا تقدم تفسيرا واضحا لطبيعة الهجرة من وإلى العالم الثالث .

وحاولت الدراسات الحديثة وخصوصا تلك التي عالجتها في بعضها قضايا الهجرة من وإلى العالم الثالث ، تجاوز هذا المعضل بتبني ما يسمى بمدخل المنظومة العالمية World-System Approach وذلك باعتبار أن الهجرة لا تحدث بين وحدات جغرافية منفصلة وإنما هي جزء من الديناميات الداخلية لنظام متجدد . فالنظام الرأسمالي العالمي نظام دائم التجدد لكن دون تغير أساسي في ديناميات تراكم رأس ماله . وهذا ما سنحاول توضيحه في الصفحات القادمة ولكن من أين نبدا ؟

ب - تمهيد لأسس المسأل :

يعتبر نمط الإنتاج الرأسمالي أول نمط إنتاجي يخضع الكرة الأرضية Globe لشروطه كنظام يقوم النمط الرأسمالي في الإنتاج على خاصية تراكم رأس المال وهي طبيعتها ذاتية التوسع Self-expansion . إلا أن هذه العملية - أي الطبيعية الاضطرابية أو الانتداعية للنظام الرأسمالي ليست بالعملية السهلة فهي قد مرت بمراحل مختلفة اتسمت كل منها بخصائص وديناميات معينة . فالقوى المحركة الخاصة بكل مرحلة من المراحل في تنافسها ثم في اضمحلالها تدفع باتجاه التحول في النظام وبالتالي بروز قوى محركية جديدة وإيدان يده مرحلة أو حقبة جديدة منه . وكحصيلة لذلك فقد تم إخضاع معظم دول العالم - وكما أشرنا سابقا - لشروط عمل النظام الرأسمالي ، لذا فتاريخ الدول النامية هو في الواقع تاريخ اختراق النمط الانتاجي الرأسمالي وتنافسه مع الأنماط الإنتاجية « التقليدية » القائمة والذي قاد ويقود بالتالي إلى تدويل رأس المال .^(١٩)

(١٧) مندان المبري - ملاحظات تلمية حول نظرية التبعية ، مجلة الفكر ، العدد الأول ، ١٩٨٤ ، ص ٣٩

(١٨)

Kader Azzam, et, al., Les Contradictions d'un Développement National, Paris, Maspero, 1974, P. 162, in B.S. AL-NAJJAR Peter Nore and Teresa Turner, Oil and class Struggle, London, Zed Press, 1980, P. 44.

(١٩)

Op. Cit. P. 44.

من هنا جاء اعتبار البعض ، النظام الرأسمالي من خلال هيئته على الكون العامل الأساسي المؤثر في شكل ومسيرة التنمية في العالم الثالث ، فأصحاب الاتجاه البرجوازي الليبرالي يعتقدون أن تحقيق التنمية في الدول النامية يتم عن طريق تضييق الهوة بين الدول المتقدمة والدول للتخلفة والذي بناء عليه سيتاح لدول العالم الثالث التمتع بنفس ثمار التطور الرأسمالي مثل انخفاض معدل النمو السكاني ، زيادة في دخل الفرد ، تراكم في رأس المال المحلي ، وتطور في مستوى التطبيق والصحة والمشاركة . . الخ . أي بتعبير آخر ، فإن في اعتقاد أصحاب نظرية التحديث -Mod-ernization Theory أن تخلف دول العالم الثالث هو ناتج لقلة مصادر الثروة ، وضعف المشاركة في التجارة الدولية كمنتج أو مصدر للغلات والسلع أو كليهما ، . . . وإن الدول النامية حتى تتخطى ما يسمى بهوة التخلف فإن عليها تبني الأسلوب الغربي في التنمية . . . بالإضافة لذلك فإن أصحاب مدرسة التحديث يؤكدون دائماً أن معوقات التنمية في العالم الثالث غير ذات صلة بطبيعة ومنطق النظام الرأسمالي العالمي وإنما هي ذات طيبة علائقية بالانساق القيمية السائدة في هذه الدول وسيادة الشخصية السلطوية وهيمنة العائلة البطركية .

وبالمقابل فإن الاتجاه الراديكالي يرى في النظام الرأسمالي نظاماً مؤسسا لعدم التكافؤ على الصعيد العالمي . لمؤازر العالم الثالث ، وحسب تفسير هذا الاتجاه ، نتاج لسيادة النظام الرأسمالي الذي أسرع من تطور دول المركز على حساب منظومة العالم الثالث ، كما أن ما يسمى « بمشاريع التحديث » المقامة في الأخيرة ، وبإغفال الكم الهائل من المديح الرسمي لها ، ساهمت في زيادة هيمنة الدول الرأسمالية مما عزز بالتالي من اتجاه عدم التكافؤ على الصعيد العالمي الذي من نتاجه تطور كبير في دول الشمال الرأسمالية ركود Stagnation أو اضمحلال في منظومة الدول النامية .

وفي تفسيره لظاهرة التخلف يفترض هذا الاتجاه أن بروز ظاهرة الاحتكار في إطارها الرأسمالي في بعض من مجتمعات العالم الثالث أخضع من أنماطها الانتاجية التقليدية لمنطق إعادة انتاجه - أي الرأسمالية العالمية - ويسجل تاريخ هذه الدول منذ أن برز فيها النمط الرأسمالي في الانتاج ، استمراراً لعمليات الاستعباد السياسي والاقتصادي لرأس المال العالمي ، أي بشكل مقتضب تدويل لرأس المال الغربي :

« فظاهرة التخلف ليست هي مؤشراً للمجمود والتقليدية
فحسب وإنما تمثل هي ايضاً انتاجاً لتطور معين مرتبطاً
أساساً بنشأة النظام الاقتصادي العالمي وعصبلة مباشرة
له . لذا فإن التحليل القادر على تفسير مشكلة النمو
والتخلف في الدول النامية هو ذلك الذي يأخذ في
اعتباره تطور الاقتصادي العالمي » . (٢١)

أما مدرسة التبعية فتعتقد أن تشكل النظام الرأسمالي العالمي وخضوع المنظومات الأخرى له قد عاق من محاولات التصنيع أو غوها في العالم النامي فتبعية الأخيرة للشركات المتعددة الجنسية ، وحاجة هذه الدول للمعونات المالية والفنية الغربية بالإضافة للفوارق الطبيعية الصارخة كلها متغيرات لعبت دوراً رئيسياً في إعاقة قيام تنمية صناعية حديثة في

الدول النامية* . لذا فإن الحل بالنسبة لهذا الاتجاه يتمثل في الانفصال التام عن النظام الرأسمالي أو بما سماه البعض بالتنمية المتخلقة أو المكثفة على ذاتها Blocked Development^(٢١).

إلا أننا مع ذلك نضيف ونقول أن حركة التصنيع التي حدثت في بعض بلدان العالم الثالث وبالتحديد جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية خلال العقدين الماضيين السادس والسابع ، وكذا في انتقال فائض القيمة ضمن المنظومة المحيطة ، قد أضعفت من مصداقية تحليلات مدرسة التبعية . فليس بإمكان اتجاه الانفصال عن السوق العالمي ولا تصور التنمية المتخلقة على الذات تقديم تحليلات مستمدة من فهم تغير ديناميات النظام الرأسمالي العالمي . فالإتجاه الأول يعتقد أن تنمية العالم الثالث مرتبطة أساسا برغبة البرجوازية المحلية والتصنيع والتنمية وفي ضوء تحليلات هذا الاتجاه تعتمد أساسا على رغبة البرجوازية المحلية وليست خاضعة لقوانين موضوعية تخص طبيعة نمط الانتاج الرأسمالي العالمي وبخلال ذلك فإن الإتجاه الآخر القائل بالتنمية المتخلقة على ذات يعتقد أن تحقيق التصنيع والتنمية في العالم الثالث يعتمد أساسا على اتجاه الرأسمالية الغربية . .^(٢٢)

ج - المنظومة العالمية : المدخل البديل ؟

كما ذكرنا سابقا فإن تشكل النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية - اقام نظاما جديدا للتجارة يركز على أسس جديدة ، فالعالم مقسم وفق أسس هذا النظام* إلى منظومتين دول : الأولى دول نامية والثانية دول صناعية متقدمة أما منظومة الدول النامية فتتخصص . بإنتاج وتصدير المواد الخام وتعتبر سوقا أساسيا لبيع مصنعات العالم المتطور من البضائع والسلع الرأسمالية . كما قسم العالم النامي كذلك إلى مجموعتين من الدول ، الأولى وتقوم فيها بعض الصناعات ذات التعميل والارتباط الغربي مثل صناعة السيارات في البرازيل وصناعة المنسوجات في الشمال الإفريقي وجنوب شرق آسيا . . الخ ، أما المجموعة الثانية فتقوم بدور المصدر فقط للمواد الخام كمعظم الدول الإفريقية والكثير من دول آسيا وأمريكا اللاتينية^(٢٣) ، وأما منظومة الدول الصناعية المتقدمة فقد أخضعت الأولى في البدء للسيطرة العسكرية والاقتصادية المباشرة ثم احتوتها مؤخرا ضمن آليات عمل النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي وهي دول مستوردة للمواد الخام ومصنعة ومصنعة له .

فهذه المنظومة الرأسمالية ساهمت في حرية انتقال رأس المال الغربي إلى الدول النامية لإقامة صناعات معتمدة أساسا على وفرة المواد الخام وعلى رخص الأيدي العاملة وكثافتها ثم إعادة مصنفاتها إلى أوروبا أو إلى الأسواق الغربية لبعض دول العالم الثالث ، كالتخليج والشرق الأوسط . أما هجرة الأموال الغربية للعالم النامي في السبعينات فقد جاءت

* قبل النقلة الأخيرة الإتجاه للبحث جدا من مدرسة التبعية والتي أعطى دورا متوقفا للعوامل الداخلية - كهيئة دور تشكيل البرجوازية المحلية ما حسم القوارير المحلية ، قوة الأساق القوية . . الخ - في تخلف العالم الثالث .

علا تقسيم بحرف في أدبيات الاقتصاد السياسي باسم التقسيم الطبقي أو لتقديم للنسب على الصعيد العالمي .

Peter Nore and Oernis Turner Ibid, P. 145.

B.S. AL-NAJJAR, Op. cit. P. 48.

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

E.A. Brett, The World Economy Since The War : The Politics of Uneven Development, London, Macmillan, 1964, PP. 182-192.

متسقة مع عدة متغيرات عاكسة أزمة النظام الاقتصادي الرأسمالي ، (١) عملية الاستثمارات الاقتصادية لرأس المال الغربي في الدول النامية وفي ظل معطيات الاقتصاد الغربي ذات عائد ربحي كبير إذا ما قورن في بعض الحالات بعائد الاستثمارات في أوروبا ذاتها ، (٢) إن توظيف هذه الأموال وفي دول معينة فمن العالم الثالث يلعب دورا مهما في المجال السياسي من حيث دوره المساعد على خلخلة التركيبات الطبقية التقليدية القائمة واضعاف المعارضة السياسية المحلية في هذه الدول ، كما أنه من ناحية أخرى ساعد على تقوية مواقع البرجوازية المحلية وفي تدعيم عملية دمج الدول المحيطة بالنظام الاقتصادي العالمي ، مدخل كهذا لا يساعد فقط على فهم التشكيل الجديد ، الاقتصادي - الاجتماعي للدول النامية وإنما يساعد كذلك على فهم طبيعة عمل النظام الاقتصادي العالمي ومآزقه المعاصر .

فالكثر من الكتاب وخصوصا في الغرب يؤكدون دائما أن المآزق الحالي للنظام الاقتصادي العالمي ما هو في الواقع الاننتاج مباشر لما اسموه حينذاك بأزمة النفط Oil Crisis عام ١٩٧٣ . إلا أننا مع ذلك نؤيد أندرو فرانك Andre Frank من أن مشكل اقتصاديات الدول الأوروبية يعود الى حقبة تاريخية أبعد من ذلك كما أن جذوره أعمق مما يبدو عليه وأن ما اسميناها بالمشكلة البترولية ما هي إلا إحدى النتائج وليست سببا للمآزق العام (٣٣، ٣٤) هذه الأزمة التي يمكن تحديدها بملامحها ، في ازدياد معدلات البطالة في المجتمعات الأوروبية والتي قدرت حتى مطلع الثمانينات بحوالي ٣١ مليون متطفل عن العمل في دول منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي ، كما أن اغلاق الكثير من الوحدات الاقتصادية والصناعية الذي هو مؤشر آخر لم يعد عاملا آخر مساهما في زيادة معدلات البطالة وإنما في فقدان هؤلاء - أي العمال المسرحين - الكثير من مهاراتهم الفنية والحرفية . وكمحصلة لذلك انخفض معدل الاستثمار في هذه الدول مما زاد بالتالي من أعيانها المالية . (٣٥) فارتفاع معدلات البطالة في بريطانيا على سبيل المثال والتي قدرتها بعض الأوساط المطلعة بما يقارب الخمسة أو الستة ملايين نتج عنه زيادة في الإنفاق وقلة في حجم الضرائب المحصلة ، وضع كهذا افترض مجموعة من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي يعاني منها المجتمع البريطاني أو ساهم في خلق مشكلات جديدة مرتبطة أساسا بالمآزق الاقتصادي العام الذي تعيشه المجتمعات الأوروبية . وبسط مثال على ذلك الاشكال الاجتماعي - الاقتصادي الذي تعيشه بريطانيا بسبب طبيعة السياسة التاتشيرية وكذا في تبعيتها المطلقة لأمريكا وفي وجهها المعادي - والذي برز مؤخرا - للنظام الديمقراطي الليبرالي . (٣٦) .

إلا أننا مع ذلك يجب أن نؤكد على أن هذه المشكلات السابقة حصلت في الوقت الذي شهد فيه رأس المال العالمي اعل معدلات دوران وفي الوقت الذي حققت فيه بعض الشركات وبالتحديد الشركات المتعددة الجنسية وذلك عن طريق إعادة مواقع الانتاج معدلات ربحية عالية على الصعيد العالمي . (٣٧)

لقد كان يقال دائما أن الكثير من أزمت المجتمعات الرأسمالية وخصوصا ابان المرحلة الاستعمارية Colonial Period قد تم حلها من خلال اخضاع مجتمعات جديدة Fresh ذات الخاط انتاجية سابقة على النمط الرأسمالي لذا

Ande Frank, Crisis In The World Economy, London, Heinemann Educational Books Ltd., 1980, P. 68. (٣١)

(٣٢)

Folker Froebel, et al. The New International Division of Labour, London, Cambridge University Press, 1980, PP. 3-4. (٣٣)

Philip Armstrong, et al, Capitalism Since World War II, London, Fontana, 1984. (٣٤)

Folker Froebel, et al, Ibid, P. 4. (٣٥)

(٣٦)

فإن ما يميز للمأزق الحالي للنظام الرأسمالي انتشاء يقع جغرافية جديدة غير رأسمالية قابلة للاستعمار . لذا كان على النظام الرأسمالي تجاوز معضلاته بإعادة تشكيل النظام الاقتصادي العالمي . بعض من هذه التغيرات يمكن ملاحظتها في (١) بتبني سياسة الانفتاح الاقتصادي open door Policy في أكثر من قطر في العالم الثالث ، (٢) ارتفاع عدد المراكز التجارية والصناعية الحرة Free Industrialand Trade zone (٣) نزوح بعض من الصناعات الأوروبية - لمواقع إنتاجية أكثر ربحية كما هو في حالة صناعة النسيج في الشمال الأفريقي وجنوب شرق اسيا ، وصناعة الالكترونيات في جنوب شرق اسيا وبعض الصناعات الثقيلة (الحديد والصلب . . الخ) ذات التمويل المحلي والإدارة الغربية في مجتمعات الخليج والجزيرة العربية المنتجة للنفط واخيرا ، (٤) ترشيد آليات الإنتاج في المراكز الصناعية التقليدية . (٢٨)

ويتعبّر أكثر دقة فإن أزمة الاقتصاد الغربي قد دفعت باتجاه تشكيل شروط جديدة لتراكم رأس المال العالمي ، من الغرب يهاجر رأس المال العالمي للبحث عن مصادر جديدة للاستثمار في بعض من مواقع العالم الثالث ، أو من العالم الثالث على وجه التحديد - للمجتمعات النفعلية في الشرق الأوسط تهاجر أموال العالم الثالث لإعادة دورة الحياة للنظام الاقتصادي العالمي . بمعنى آخر إن تغيرا في الشروط التاريخية لتراكم رأس المال في المجتمعات الغربية منذ مطلع السبعينات قد استدعى أساليب وطرقا جديدة أدخلت من خلالها منظومة الدول المتخلفة من جديد في عملية إعادة إنتاج رأس المال الغربي . وبمحصلة لذلك فإن تزايداً في القوة قد طرأ ليس بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة وإنما بين دول الأطراف بعضها ببعض : -

« تقسيم العمل على الصعيد الدولي لم يكن تغيرا في استراتيجيات تنمية لبعض الدول الغربية ، أو خيارات جديدة لما يسمى بالشركات متعددة الجنسيات ، إنما هو في الحقيقة نظام « مؤسسي » مبتدع للنظام الرأسمالي أمّنته طبيعة الظروف المتغيرة ، فهو بهذا محصلة وليس سببا لهذه الشروط التي حتمت على هذه الشركات والدول أن تفقد صياغة تراكم رأس المال الغربي وفقا لهذه الشروط الجديدة » . (٢٩)



ثانيا - الهجرة العمالية ومأزق الاقتصاديات الغربية منذ السبعينات :

يمكن القول أن تبني الدول الغربية لسياسات متشددة على صعيد الهجرة والاستقدام منذ مطلع السبعينات حتى الآن ما هو إلا نتاج للمأزق البنائي للاقتصاديات الغربية وكذا التطور الكبير - سياسيا - الذي لحق بالهجرة العمالية الوافدة في المجتمعات الغربية : هذا على التحديد يمكن ملاحظته في التالي :-

B. S. AL-NAJJAR, Op. Cit, P. 50.
Folter Problem, et al, Ibid, P. 46.

(٢٨)

(٢٩)

١ - عملية التسييس التي خضعت لها قوة العمل الوافدة كنتاج لتردي ظروفها المعيشية وشروط الاستخدام وكذا تردي الأوضاع الاقتصادية والكبت السياسي في بلدان المنشأ فالاضطرابات العمالية التي اجتاحت أوروبا وقادها عمال واندون هي انعكاس واضح لتنامي الوعي السياسي في صفوفها . فمثلا اضراب عمال المغرب العربي في فرنسا في الأول من مايو عام ١٩٧٣ وكذا إضراب العمال المهاجرين في منطقة الدور Ruhr-area في ألمانيا الغربية ، بالإضافة الى الاضطرابات التي اجتاحت بريطانيا في الفترة الممتدة من ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٥ والتي كانت الجاليات الوافدة طرفا رئيسيا فيها وبالتحديد الجاليات الآسيوية وجماعات الوست انديز West Indies كلها أحداث مثلت نقلة نوعية في تاريخ الحركة العمالية الوافدة في أوروبا^(٣٠) . من ناحية أخرى ، فانه لا بد من التأكيد على ان هذه الاضرابات السابقة الذكر كانت أحداثا خاصة بالعمالة الوافدة لأسباب غير تلك المتعلقة بظروف العمل والأجور ، انه تطور في الوعي السياسي الخاص بالفئات العمالية الوافدة وهو نتاج طبيعي لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المعيشية . وضع كهذا زاد من مخاوف حكومات المنشأ ودول الاستقبال الغربية والذي عبر عنه في أكثر من مناسبة وعلى مستويات مختلفة . احد المضطلمين بصناعة القرار في أوروبا عبر عن هذه المخاوف بالتالي : « أصبحت الانكاسات السلبية السياسية والاجتماعية للعمالة الوافدة تفوق في ذلك حالتها الاقتصادي »^(٣١) .

٢ - زيادة معدلات الانفاق الرسمي على قطاع الخدمات بزيادة اعداد الوافدين القادمين مما شكل بالتالي - وحسب تفسير الحكومات الغربية - عبئا على الدولة وضغطا على الخدمات المقدمة مما انعكس سلبا على الخدمات المقدمة كما نوهنا .

٣ - التغيرات الحاصلة في ظروف تراكم رأس المال الغربي وولوج المنظومة المحيطة ضمن اطار النظام الاقتصادي العالمي .

مرة اخرى ، ورغم كل ما قيل وما قد يقال ، فلا بد من تأكيد حقيقة ان حاجة المجتمعات الأوروبية للعمالة المهاجرة ليست هي حاجة مؤقتة أو بانها ظرف فرضه التوسع الذي طرأ على الاقتصاديات الأوروبية عقب الحرب العالمية الثانية . فالعمالة الوافدة هي قوة عمل ضرورية لاستمرارية اداء النظام الاقتصادي الرأسمالي رغم تزايد معدلات البطالة في اوساط الجماعات المحلية . فهم ، أي العمال الوافدون يشكلون بحق ما سمي في بعض الأدبيات الفكرية « بالجيش الاحتياطي » Reserve Army المدعم لاستمرارية وظيفة النظام الرأسمالي . بالإضافة لذلك فان العمالة الوافدة تقوم بتأدية وظيفة اجتماعية - سياسية مهمة للنظام الرأسمالي ، فهي بكثرتها العديدة وتنوعها الإثني والثقافي تزيد من واقع الفقرة بين افراد الطبقة الواحدة ، بين الجماعات الوافدة والسكان المحليين لاعتبارات عرقية وظروف الاستخدام الأفضل الذي تخضع له العمالة المواطنة^(٣٢) . من هنا جاء اعتبار الهجرة العمالية كاحدى السمات البنائية

(٣٠)

Mario Nikolinos, The New Dimension in the Employment of Foreign Workers, Berlin, International Institute For Comparative Social Studies, April, 1975, P. 4.

(٣١)

Ibid. P. 4.

(٣٢)

S. Castle and Kosack Godala, The Function of Labour Immigration in Western European Capitalism, in Theodor Nikos (ed) Capital and Labour, Glasgow, Fontana, 1980, P. 119.

لنمط الانتاج الرأسمالي باعتبار ان اعادة انتاج النمط الرأسمالي لعلاقات الانتاج يعتمد اساسا على استيراد قوة عمل من خارج اطار الحدود الاقليمية .



ثالثا - الهجرة العمالية في المنطقة العربية : سمات وخصائص الظاهرة :

تقدم الدراسات الرائدة لفريق جامعة درهم (١٩٨٠) وكذا دراسة البنك الدولي لعام ١٩٨٣ تقديرات الهجرة والاستخدام في المنطقة العربية حتى منتصف السبعينات حيث قدرتها باكثر من المليون ونصف المليون شكلت الجماعات العربية حوالي الثلثين ، وتشير الدراسات اللاحقة الى تزايد حركة تنقل العمل العربي والاسيوي الى الدول العربية المنتجة للنفط في الفترة الممتدة من منتصف السبعينات حتى مطلع الثمانينات ، ويقدر البنك الدولي ومنظمة العمل الدولية اجمالي العمالة الوافدة بـ ٢,٨ مليون عامل عام ١٩٨٠ ، اما ابراهيم سعد الدين وعمود عبد الفضيل فيقدرانها بحوالي ٣,٤١ مليون عامل لنفس العام . اما محمد ليبب شقير فيقدم تقديرا اكثر معقولة (حوالي ٥,٧ مليون عامل) نظرا لتصحيحه ما ورد في التقديرات السابقة من تقليل لحجم العمالة المصرية واليمنية المهاجرة . واخيرا تشير أحدث التقديرات المتوفرة الى أن اجمالي حجم العمل المستورد الى الأقطار العربية المنتجة للنفط عام ١٩٨٣ قد بلغ ٥,٣ مليون عامل . (٣٣)

وإذا ما صدقت هذه التقديرات فإن هذا يعني انخفاضاً في حجم العمل الوافد بما يقارب ٥٠٠ ألف عامل في الفترة ٨٠ - ١٩٨٣ . كما أن احتمالات انخفاض حجم الهجرة أقرب الى القبول بسبب الركود الاقتصادي الذي تعرضت له الدول النفطية وخصوصاً مع مطلع عام ١٩٨٦ بسبب الانخفاض الشديد في اسعار النفط الذي وصل الى ما دون الخمسة عشر دولاراً . وتعد أسعار النفط إحدى المتغيرات الهامة في صياغة سياسة استخدام العمالة بالمنطقة العربية وذلك لارتباطها الوثيق بالمعادن النفطية في دول الاستقبال نظراً لطبيعة العلاقة بين عائدات النفط وحجم الاستثمارات المحتملة في تلك البلدان من جهة أخرى . (٣٤) وكحصيلة لذلك فإن المؤشرات تشير الى الاستمرار في انخفاض حجم العمل المستورد او في تركيبة المهني والوظيفي خصوصاً في القطاعات التي شهدت توسعاً كبيراً في الفترة السابقة وذات الصفة الاقتصادية المؤقتة .

من ناحية أخرى ، فإن التوقيت الذي تعاطلت فيه عمليات الهجرة في المنطقة العربية (٧٣ - ١٩٨٣) بالإضافة للظروف التي جرت الهجرة في أطوارها وكذلك مصاحبتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الصعيد المحلي (دول الاستقبال ودول الارسال) وعلى الصعيد الاتييمي القومي جعل منها ظاهرة فريدة في نوعها اذا ما قورنت بمثلاتها من عمليات الهجرة الكلاسيكية في مناطق أخرى من العالم . وخصوصاً في المنطقة الأوروبية وأمريكا . بعض هذه الاختلافات يمكن تمحيدها في التالي :

أ - بخلاف عمليات الهجرة الأخرى في العصر الحديث والتي تمت بين تشكيلات اجتماعية - اقتصادية مختلفة جندرياً حيث انتقل العمالة من دول العالم الثالث والدول الأقل تقدماً في جنوب أوروبا ، اليونان ، يوغسلافيا . . الخ

(٣٣) ليل أحمد الخواجة : سياسات استخدام وانتقال الأيدي العاملة العربية من بلدان الأرسال : مراجعة نقدية ، ورقة مقدمة لاجتماع خبراء سياسات استخدام وانتقال العمالة العربية ، نوفمبر ١٩٨٥ ، المعهد العربي للتنظيم ، ص ١٥ - ١٦ .

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٧ .

الى الدول الصناعية الكبرى في اوروبا وامريكا ، تتم الهجرة في المنطقة العربية بين بلدان وان تفاوتت الانماط الانتاجية في كل منها الا انها تنسم جميعا بكونها تشكيلات اقتصادية واجتماعية تابعة ومتخلفة وتحتل مواقع متشابهة في التقسيم العالمي للعمل . (٣٥)

ب - بعكس حركة انتقال الأيدي العاملة الكلاسيكية والتي شملت قوة عمل احتلت الأعمال الدنيا وبسيطة العائد المالي في قطاعات التشغيل ، فان حركة انتقال العمالة في الدول العربية المنتجة للنقط تشمل جميع فئات القوى العاملة المؤهلة وغير المؤهلة ، ذات الحبرات والمهارات أو التي يفتقر إليها وتوزع على كل قطاعات التشغيل في اقتصاديات المنطقة (٣٦) . بمعنى آخر ، إن قوة العمل الوافدة في بلدان الاستقبال المنتجة للنقط في الشرق الأوسط تشكل العمود الفقري الذي تعتمد عليه استمرارية النشاط الاقتصادي في هذه الدول . أحد كبار المسؤولين في المنطقة علق على الاعتماد المطلق لبعض دول المنطقة على العمل المستورد وبالتحديد في النصف الثاني من السبعينات بالقول :

« إذا ما قدر للمصريين أن يذهبوا ،
لأغلقت الكثير من المرافق المدرسية
أبوابها ، وإذا ما أجبر الفلسطينيون على
مغادرة البلاد ، لكثفت وسائل الاعلام عن
القيام بوظيفتها ، وإذا ما جرى تسريح
(رجال الأمن والسداع من بعض
الجنسيات) انهزلت شبكة الدفاع والأمن
الداخلي ، وإذا ما أرسل الإيرانيون
والبلوش والبانتان ، اللذين يشكلون عماد
القوة العاملة ، الى أوطانهم ، لتوقف سير
المشاريع الحيوية التي يتواصل العمل
فيها ، كبناء الطرق والموانئ وشبكات
الري ومشاريع الإسكان والمدارس
والمعاهد الطبية (٣٧) » .

ورغم محاولات بعض دول المنطقة وبالتحديد بعد الانحدار الشديد في أسعار النفط ، إعادة التوازن لتركيبها السكانية وتقليص حجم الاعتماد على العمل المستورد إلا أن طبيعة النشاطات الاقتصادية المقامة وكبر حجم الاعتماد على العمالة الوافدة خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة بالإضافة إلى الطريقة التي تتم بها عملية الإحلال ، حيث يتم استقبال عمالة أجنبية بالمستوى الفني والمهني نفسه ، ومن القطر نفسه - وربما من القرية أو الوحدة القروية ذاتها يجعلها

(٣٥) مكرم صاعد وجهاير روية ، الجدللات الاقتصادية والاجتماعية لتتقل قوة العمل العربية بين البلدان العربية ، ورقة مقدمة لندوة السكان والتنمية في الوطن العربي ، الكويت ، العهد العربي للتخطيط ، ص ٧٠٠ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص ٧٠٠ .

(٣٧) إبراهيم ابراهيم ، أثر الميزتين العرب على التنمية الاجتماعية والسياسية في دول الخليج العربي ، في التطوان زحلان وأخرون ، هجرة الكفاءات العربية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٢ .

رغم ما يقال عن وجودها المؤقت عمالة دائمة وأساسية لاستمرارية النشاط الاقتصادي والتجدي لدول المنطقة ، لا يمكن الاستغناء عنها في المستقبل المنظور (٣٨) .

ولا بد هنا من التأكيد على حقيقة أن طبيعة الأسواق القيمة ذات العلاقة بالنشاط الاقتصادي والمشكلة خلال الحلقة الأخيرة تتيح أي استراتيجية حقيقية لتصحيح المسار / المسارات الاقتصادية ولإدماج أكبر لقوة العمل المحلية في عمليات التنمية .

ويلاحظ أن الهجرة الحديثة لمنطقة الخليج لم تكن وليدة الطفرة النفطية في السبعينات وإنما تذهب حتى مطلع هذا القرن . ومرت الهجرة المعاصرة للمنطقة حتى الآن بأربع مراحل ، المرحلة الأولى وتمتد منذ اكتشاف النفط في الثلاثينات وربما قبل ذلك بقليل في العشرينات مع بدء عملية التحديث الإداري والتشريعي حتى مطلع الخمسينات . وتتميز هذه المرحلة بمحدودية العمل المستورد من حيث الكم والدور ، وشكل الفاعلون من الساحل الإيراني وشبه القارة الهندية غالبية العمل المستورد والذي تركز على وجه التحديد في قطاع النفط . أما المرحلة الثانية فبدأت من العقد الخامس حتى مطلع السبعينات وهي المرحلة التي شهدت بداية بناء الهياكل الأساسية لمجتمعات الخليج العربي - وتميزت هذه المرحلة بالتدفق الكبير نسبياً لقوة العمل العربية وبالتحديد الفلسطينية والمصرية وجزء من قوة العمل الشامية التي تم على عاتقها بناء واستمرارية عمل الكثير من الأجهزة الرسمية الحديثة كما شهدت هذه المرحلة انخفاضاً في نسب مشاركة قوة العمل الآسيوية ، الإيرانية والهندية رغم الارتفاع في أعدادها المطلقة . وترصف المرحلة الثالثة بالحاجة الآسيوية للهجرة وهي الفترة التي تؤرخ منذ ارتفاع أسعار النفط في خريف عام ١٩٧٣ وتنتهي بمطلع عام ١٩٨٣ . وتميزت هذه المرحلة بضخامة حجم الاتفاق الرسمي والذي كمحصلة له ارتفعت معدلات تدفق العمل المستورد وبالتحديد الآسيوية . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد بدأت مع انخفاض أسعار النفط في مطلع عام ١٩٨٣ حتى الآن . وهي المرحلة التي شهدت عودة قطاع كبير من العمل المستورد تقدره بعض الأوساط بقرابة المليون والنصف والمليون نتيجة للتقلص الكبير والمفاجيء في حجم الاتفاق الرسمي بفعل انخفاض الإيرادات النفطية والتي تقلصت خلال الخمس سنوات الأخيرة بما يقارب ٦٠٪ إذ انخفضت إيرادات دول مجلس التعاون من ١٧٠ مليار عام ١٩٨١ إلى أقل من ٦٥ مليار حتى العام الحالي ١٩٨٦ (٣٩) .

ج - عوامل الجذب والطرْد المؤثرة في عمليات الهجرة في المنطقة العربية :

تكاد أن تتفق معظم الدراسات الرائدة التي عالجت قضايا الهجرة وانتقال العمالة بين البلدان العربية على أن الهجرة وعصاً في ذروتها في العقد الثاني من السبعينات - ما هي الإنتاج للعوامل والمتغيرات الاجتماعية والسياسية الفاعلة في خلق الظاهرة . بعض من هذه العوامل تم تحديدها في فروقات الأجور بين الدول المستقبلة والمصدرة للعمالة ، معدلات البطالة والتضخم الوطني في دول الفاتح السكان وأخيراً ندرة القوى العاملة المؤهلة والمدربة في الدول المستوردة للعمالة .

(١) العامل الاقتصادي : يتلخص الاعتقاد السائد لدى الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية وهو بأن الهجرة عبارة عن قرار فردي يقوم بتنفيذه الشخص المهاجر نتيجة لترجي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض الأجور في

(٣٨) يفر التجار ، آثار لعمالة والدة لم حوالت الفرق تنمو ، للتعليم العربي ، العدد ٨٢ ، ديسمبر ١٩٨٥ ، ص ١١٧ .
(٣٩) جريدة أخبار الخليج البحرينية ١٧/٤/١٩٨٦ .

الدول المصدرة للعمالة عنها في الدول المستوردة لها . بمعنى آخر أن الهجرة وانتقال الأيدي العاملة بين الدول العربية . قد حددت في ضوء الاختلافات الاقتصادية بين دول العسر ودول اليسر من المنظومة العربية وفي ضوء طموحات الأفراد لتحسين أحوالهم المعيشية وقد أكد بيركس وستكلير في دراسة لها ذلك بالقول :

« فحجم ومخطط الهجرة الدولية في المنطقة العربية حددت أساساً بالتوزيع اللامتساوي لمصادر الدخل النفطي . كما أن الأوجه التي وظفت فيها العائدات النفطية في هذه الدول أدت إلى المزيد من التنمية » اللامتكافئة وإلى فروقات في الدخل بين الدول العربية . وفروقات الدخل هي العامل الأساسي في حركة التنقلات الدولية للعمل^(٤٠) .

من ناحية أخرى ، وجد من دراسة حديثة أجريت على عينة من أساتذة المدارس والجامعات المصرية العاملين في الدول النفطية أن فروقات الأجور والطموح الشخصي كانا وراء سفر هؤلاء للخارج . فمثلاً وجد أن الحد الأقصى لمرتب أستاذ جامعي هو ١٥٠ جنياً مصرية في الشهر بمصر وأن ما يكسبه (من راتبه) على مدى ثلاثين عاماً من العمل المتواصل سيكون ٨٩٠٠ جنياً . أما الأستاذ المعال للمعمل في إحدى الجامعات الخليجية فيقدر راتبه بـ ٩٠٠ ديناراً في الشهر أي وبمعنى آخر أن الأستاذ الجامعي المصري المعال للتدريس في إحدى الجامعات الخليجية سيكسب خلال سنوات إعارته الأربع ، وهي المسموح له بها من قبل السلطات المصرية ، ما يقارب من ١٢٩,٦٠٠ جنيه مصري ، أي أكثر من ضعف ما سيتقاضاه الأستاذ المصري ثلاثين عاماً من العمل المتواصل في إحدى الجامعات المصرية مع ثبات المتغيرات الأخرى^(٤١) . لذا فالتا نجد أن بعض المعالين للمعمل في هذه الدول يقرون فترات أطول من مدة الإعارة وبعضهم الآخر يهني خدمته في دول المنشأ رغبة منهم بالبقاء مدة أطول في دول الاستقبال .

وبالمثل يتكرر المثال المصري ولكن بصور أخرى في دول الإرسال العربية منها وغير العربية ، دراسة حديثة قام بها البنك الدولي عزت هجرة البنغاليين لدول الشرق الأوسط النفطية إلى الاختناقات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع البنغالي ، كالبطالة ومحدودية السعة الاستيعابية للاقتصاد البنغالي على خلق فرص عمل جديدة بالإضافة لفشل الخطة الخمسية في تحقيق أهدافها وبالتحديد في خلق فرص عمل جديدة لمخرجات التعليم وتاركه والمهاجرين من الريف للمدن . أي بمعنى آخر أن أوضاع الاستخدام المحلي لقوة العمل بالدول المصدرة للعمالة الفقيرة نسبياً قد ساهمت في الاستجابة السريعة بها لهذا الطلب الخارجي المتزايد .

(٤٠)

J. S. Birks and C. A. Sinclair, Economic and Social Implication of Current Development in the Arab Gulf, The Oriental Connection, in Tim Niblock (ed), Social and Economic Development in the Arab Gulf, London, Croom Helm, 1988.

(٤١) محمد الدين إبراهيم ، مصدر سبق ، ص ١١٥ ، علماً وقد طرأت بعض تغييرات حادة على دخل الاساتذة الجامعي في مصر منذ صدور هذه الدراسة .

وفي الدول المستوردة للعمالة فإن الأسباب الاقتصادية قد تغري إلى اتساع فرص العمل التي خلقها الاقتصاد النفطي وخصوصاً في طفرته السبعينية ، وصغر حجم قوة العمل المحلية كما وكيفاً بالإضافة إلى برامج بناء الهياكل الأساسية البالغة الطموح ، وتعزيز وتوسعة الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم والإسكان . . الخ . وأخيراً رغبة هذه الدول في تنوع مصادر الدخل فيها وبناء قاعدة صناعية معتمدة في إدارتها فنياً وتكنولوجياً على الخارج^(٤٢) .

(٢) - العامل الاجتماعي والسياسي : قد تعزي كذلك عملية انتقال العمل من دول العسر والفاقر السكاني لدول اليسر المالي والعسر البشري للغرب الجغرافي والنشابة الثقافي كالثقل والدين المشترك وأحياناً تدخل علاقات القرابة والدم وكذا في طبيعة التوجه الاجتماعي والسياسي لدول الاستقبال حيال الكثير من القضايا القومية المعاصرة في المنطقة العربية ، فكثرة وجود العربي في كل من الكويت وليبيا والعراق وكذا تزايد حجم المهاجرين من العمال المسلمين من أفريقيا والباكستان والهند في المملكة العربية السعودية لا يخرج عن هذا الإطار* .

أما على صعيد الدول المصدرة للعمالة ، فالمهجرة قد تكون أحد أهم العوامل المساعدة على استمرارية شكل معين من الاستقرار السياسي الداخلي وذلك (بتهجير) أو مهجرة المعارضين لهم سياسياً لدول الاستقبال العربية . وبالنظر لمقدار الثروة التي قد يكون فيها بعض هؤلاء ، فإن الكثير منهم قد جذبت حياة رجال الأعمال والمال وقد عالج سعد الدين إبراهيم . هذا الجزء من المشكلة في مناقشته لأثر الهجرة على استقرار النظام السياسي في مصر قائلًا :

« إن وجود عناصر المعارضة المصرية في بلدان النفط المجاورة ، يمثل نعمة ونقمة بالنسبة للنظام السياسي فمن ناحية ، يمثل هياهم عن الساحة المصرية إضعافاً لصنوف المعارضة الداخلية والنظام يرحب بذلك ، اعتقاداً أو أملاً منه أن هؤلاء المعارضين يركزون على « جمع الثروة » بدلاً من « إشعال الثورة » . وقد حدث بالفعل أن بعضهم تحول من مجال السياسة إلى ميدان التجارة والنشاطات المهنية خارج مصر ، إلا أن هناك قلة لا تزال ترفع صوتها بانتقاد (النظام) ، وقد وجدت منفذاً سهلاً لتمير أفكارها من خلال وسائل الإعلام في البلدان المضيفة^(٤٣) . »

* يقدر حجم العمالة العربية في الكويت بحوالي ٢١٠٪ من إجمالي قوة العمل وفي ليبيا ٢٥٪ ، أما في المملكة العربية السعودية فيقدر حجم العمالة الإسلامية العربية وطير العربية بحوالي ٩٠ إلى ٩٥٪ من قوة العمل الزائدة .

B. S. AL-NAJJAR Op. Cit. P. 24.

(٤٢)

(٤٣) سعد الدين إبراهيم ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .

هذا يعني أن الهجرة لبلاد النفط والمال سواه تلك القاعدة من الدول العربية كمصر ، العراق والشام واليمن الشمالي والسودان ، أو من الدول الآسيوية الفقيرة كالمند وباكستان وبنغلادش والفلبين وتايلاند . . الخ قد أزاحت جزءاً من عناصر عدم الاستقرار بتصدير للمشاكل بعيداً عن الحدود الجغرافية لدول المنشأ .

على صعيد الفرد فإن الهجرة لدول النفط تبدو وكأنها المخرج الوحيد لحل الكثير من الصعاب والمشاكل الشخصية كالزواج مثلاً أو شراء مسكن وتأثيثه . . الخ وقد وجد من دراسة أخرى حديثة أجريت على أساتذة الجامعات السودانية أن أحد أسباب الهجرة بالإضافة لتردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وضيق دائرة التعبير السياسي هو محاولة البعض البحث عن المال في الدول العربية المنتجة للنفط ليناء أو لشراء منزل أو شقة وتأثيثها . ويكاد أن ينطبق هذا على معظم المهاجرين من الدول العربية الأخرى وبالتحديد مصر والأردن وسوريا . . الخ^(٤٤) .



رأبماً - الهجرة في المنطقة العربية : في البحث عن التفسير :

كما هو واضح من سياق النقاش السابق أن فكرة « سوق العمل » شكلت محور أدبيات الهجرة في المنطقة العربية . فزعم قناعتنا بأهمية هذا المنحى في تفسير المشكلة ألا أنه لم يفر على تفسير ظواهر ذات علاقة جدلية بظاهرة الهجرة مثل لماذا وفي هذا الوقت بالذات يتم استثمار جزء من رأس المال الغربي في بعض من أجزاء العالم الثالث رغم الفائض من العمالة ومعدلات البطالة العالية في الغرب . . الخ ؟ كما أنه لم يفسر لنا مثلاً لماذا في الغرب لا يهاجر المال النفطية للاستثمار في دول الفائض البشري في آسيا وأفريقيا . . ؟ أو لماذا تقوم الشركات الغربية العاملة في مصر واليمن وغيرها من دول الفائض البشري العربية بتوظيف عمالة آسيوية رغم توفر عمالة مثلها من الناحية الفنية في هذه الدول . . ؟ فهذه التساؤلات وغيرها الكثير يفسر لنا عجز المداخل غير المستندة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفاعلة داخلياً وخارجياً في صناعة المشكلة . .

بالإضافة لذلك فإن مفهوم سوق العمل قد يكون أقرب لتفسير الظواهر المثيلة في المجتمعات المتقدمة - حيث تم اشتقاقه - نظراً لتوفر المقومات الضرورية لعمل آلياته إلا أن توظيفه لتفسير أوضاع التشغيل ومستواه في الدول العربية وربما في الكثير من دول العالم الثالث ، وفي الكثير من حالاتها غير موفق . فمفهوم الاستخدام يختلف جوهرياً في حالة مجموعتي الدول المتقدمة في مقابل المتخلفة . فهو في الأولى ينصرف إلى العمل لدى الغير بأجر نقدي وفي ظل أنظمة مقننة ومعايير يفرض أنها تستند إلى أسس البيروقراطية الحديثة . أما في مجموعة الدول النامية فتبرز أنماط من العمل والمشاركة قد لا تقوم على أسس العمل المألوف أو أن يكون لها صفة الاستمرارية والانتظام وإنما يعتمد أداء العمل فيها على اندماج الفرد ضمن منظومة عمل الأطر القرابية المملوكة لوسائل الإنتاج كالعامل في كنف الأسرة مالكة وسائل الإنتاج في قطاع الزراعة أو الفوص أو الرعي أو الحرف الأسرية الأخرى كالنجارة والحداة . . الخ إذ يتم إنجاز العمل وتلبية احتياجاته من القوى العاملة ضمن أطر الوحدات القرابية دون أن يتم عرضها في سوق العمل^(٤٥) .

B. S. AL-NAJJAR, Ibid, P. 24.

(٤٤) - (٤٥) (لبل إحد الهجرة ، مصدر سابق ، ص ٢-٣ .

وبالمثل يمكن القول بالنسبة لمفهوم العرض والطلب اللذين يقدمهما المدخل الكلاسيكي الجديد ، فمفهوما العرض والطلب لا يتلاءمان مع واقع التشغيل وظروفه في الدول العربية ودول العالم الثالث ذلك أن مفهوم عرض العمل مبني على افتراض الحرية التامة لأفراد قوة العمل في المفاضلة بين العمل والتمتع بأوقات الفراغ في ظل معدل الأجر السائد . أما مفهوم الطلب فهو الآخر يقوم على افتراض حرية الوحدات الاقتصادية القائمة في اختيار الفن الانتاجي المستخدم بها وفقاً للأسعار النسبية لكل من عنصري العمل ورأس المال وافتراض إمكانية إحلال لا نهاية بينها . وفي الواقع فإننا نجد أن عملية المفاضلة غير قائمة في ظل مجتمعات العمر واليسر على السواء في المنطقة العربية حيث أن الحصول على مطلب أساسي لاستمرارية البقاء ، أما من حيث الاختيارات التكنولوجية فالدول العربية كما الدول النامية الأخرى هي مستوردة للفن الانتاجي وغير مبتدعة له . ففتون الانتاج السائدة تكونت وتشكلت في الدول الصناعية المتقدمة وفقاً لظروفها ومواردها المختلفة عن تلك التي في منظومة دول العالم الثالث^(١٦) .

وبعيداً عن مقولات المدرسة الكلاسيكية الجديدة والتي لم تخرج في تفسيرها لعملية الهجرة في المنطقة العربية عن متغيرات الجذب والطرده المتبناة في تفسير ظاهرة الهجرة الكلاسيكية لأوروبا وأمريكا . فمتغيرات مثل الحاجة لبناء مسكن أو تأثيثه ، والرغبة في زيادة الدخل ، أو الالتحاق بالعائلة في دول المهجر ، وارتفاع معدلات البطالة والتضخم السكاني في الدول المرسله للعمالة وضعف المورد البشري في الدول المستقبلية . . . رغم أهميتها النسبية إلا أن مصداقيتها لا تستقيم إلا في إطار السياق التاريخي ، الاجتماعي والاقتصادي للدول ذات العلاقة بالشكل وموقعها في السوق الاقتصادي العالمي .

فحركة الهجرة الكبيرة التي اجتاحت المنطقة العربية خلال العقد السابق ٧٣ - ١٩٨٣ لا يستقيم فهمها إلا في ضوء المعلومات الجديدة التي أفرزها الارتفاع الكبير في أسعار النفط خلال الحقبة السابقة ، أي أن مؤشرات الزيادة المطردة في تنقلات العمل بين وإلى المنطقة العربية لم تعد محكومة بمتغيرات عرضية أو وقتية بل هي أساساً مرتبطة بالتغيرات الجوهرية في أجهزة الإنتاج والأمية النسبية للبلدان المستوردة والمصدرة للعمالة وطبيعة ارتباطها بالسوق الاقتصادي العالمي^(١٧) .

فالأحداث السياسية والاقتصادية التي عاشت المنطقة العربية غمارها وبالتحديد انقسام دول للمنظمة العربية وبفعل عامل النفط إلى دول اليسر مقابل دول العسر وكذا ضمور القوى القومية وقوى الستينات في مقابل بروز القوى التقليدية والمحافظه قد تزامن ولربما ارتبط بالنظام الجديد لتقسيم العمل على الصعيد العالمي ، بعض من شواهد هذا الارتباط المنسج Articulation يمكن تجديدها في طبيعة العلاقة غير العادلة التي تطورت بين دول المجموعة الأوربية وأمريكا والمنطقة العربية . فصادرات أوروبا الغربية للمنطقة العربية ازدادت بشكل كبير خلال العقد المنصرم مقارنة بالعقود السابقة ، حيث ارتفعت صادرات أوروبا الغربية أو المجموعة الاقتصادية الأوربية للمنطقة العربية ، خصوصاً الدول العربية المنتجة للنفط من ٢١٩٥ مليون Ecus (وحدة التعامل التقدي لدول السوق) عام ١٩٥٨ إلى ٣٢٧ مليون Ecus عام ١٩٨٠^(١٨) . بالإضافة إلى ذلك فقد زاد اعتماد المنطقة العربية على الغرب في تلبية

(١٦) نفس المصدر السابق .

(١٧) بقر النجار ، ظروف عمل ومجته المال الأجنبي - في نشر فرجاتي وأخرون - مصدر سابق . ص ٨١ .

(١٨)

الكثير من حاجاتها ، وتبرز خطورة هذا الاعتماد في الانكشاف الغذائي للمنطقة العربية للمخارج ، إذ ارتفع العجز في الميزان الغذائي من ٨٤٤ مليون دولار عام ١٩٧٣ إلى أكثر من ١٨ مليار دولار عام ١٩٨١ . وتشير الأرقام المتوفرة حول هذا الجانب ، إلى أن نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب في الوطن العربي في تدهور متواصل حيث انخفضت من ٦٩٪ خلال الفترة ٧٤ - ١٩٧٩ إلى ٥٠٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٢ . ويكاد يزداد ذلك في بعض السلع الهامة كالقمح ، حيث انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي من القمح من ٤٩٪ خلال الفترة الأولى إلى ٣٥٪ خلال الفترة الثانية . وكذا يمكن القول بالنسبة للاكتفاء الذاتي من اللحم الذي انخفض من ٩٣٪ خلال الفترة الأولى إلى ٦٧٪ خلال الفترة الثانية ، ولو جمعنا حجوم وإمدادات الوطن العربي من السلاح ومن الغذاء وهما أخطر الميادين المؤثرة على الأمن الشامل لوجدنا أن نسبتها من إجمالي واردات المنطقة في عام ١٩٨٠ . تبلغ حوالي ٥٣,٤٪^(٩٩) .

أما السمة الأخرى لهذا الارتباط ، فهي طبيعة وأسلوب تخصيص allocation المائلات النفطية في الدول العربية المنتجة للنفط في تشييد الهياكل الأساسية وفي خطط التنمية الطموحة . هذه المشاريع والتي بضمخاتها استثمارات كماً هائلاً من العمل الوافد للعمل في قطاعات التشغيل « المستجدة » لاقتصاديات هذه الدول* .

هذه المتغيرات وأخرى اقتصادية واجتماعية تمت الإشارة إلى بعضها خلال العرض السابق هي في الواقع مؤشرات فاعلة للأخطار الجديدة لتراكم رأس المال . بشكل محدد ، إنها تتيح له الاستفادة من الفائض العمالي الرخيص في دول الفائض العمالي وكذا توظيف الفائض المالي للدول النفطية ضمن حدودها الجغرافية وبطرق « أكثر انجاذبة » . أي أنه في الوقت الذي تواجه رؤس الأموال الغربية بعض الخطورة في سبل استثماراتها في بعض الدول الآسيوية (شبه القارة الهندية مثلاً) فإن في توظيف الفائض العمالي الآسيوي في مشاريع « التنمية » في الدول العربية النفطية فائدة عظيمة وريحاً عتيماً . فالهجرة للمنطقة العربية تعتبر المعطى الذي تم في ضوئه ربط أو ارتباط المال النفطي بالتقسيم الجديد للعمل وكذلك بالأخطار الجديدة لتراكم رأس المال . وقد لا تكون مبالغين إذا قلنا أن الهجرة العمالية هي الدعامات التي تم عليها تشكل النظام الجديد لتقسيم العمل وكذا الأخطار الجديدة في عملية تدويل رأس المال خلال النصف الثاني من السبعينات ومطلع الثمانينات^(١٠٠) .

وبخلاصة القول ، فإن الهجرة إلى المنطقة العربية وبالتحديد في حقيبتها الآسيوية ، وطبيعة البرامج التنموية المقامة بالإضافة للإخفاق الشديد الذي واجهته برامج التنمية في مصر والشام والشمال الأفريقي فضلاً عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي ضرت بنسيج المجتمع العربي والمتمثل في ضعف المركز التفاوضي العربي قبالة الغرب وضعف قوى التغيير العربية كلها أمور ساعدت على ولوج دول المنظومة العربية بل والكثير من دول العالم الثالث ذات الارتباط المباشر بفعل عامل الهجرة أو غير مباشرة بها بالتقسيم الجديد للعمل على الصعيد العالمي^(١٠١) .

* تمت مناقشة هذه الفرضية في أدبيات سابقة عديدة أهمها مباحثة الفكر / تأخر لوجي لهذا الموضوع في كتابه - الهجرة إلى النفط

(٩٩) - محمد محمد حماد ، التقسيم الدولي لتجديد للنسب وإحتمالات التنمية القروية ، ورقة مقدمة للمؤتمر الوطني الثاني ، الحرب والأزمة الاقتصادية المالية ، المعهد العربي للتنظيم ، فبراير ١٩٨٥ ، ص ٢٧

B. S. AL-NAJJAR, Ibid P.3.

(١٠١) - باقر التيطر - السجل العربي ، مصدر سابق ، ص ١١٥ .

مقدمة :

تعتبر الهجرة من القضايا المهمة في الدراسات السكانية والحضرية بالإضافة إلى استجوابها على حيز كبير من الأدبيات المختلفة وتتم الجغرافيا بشكل خاص في قضية الهجرة كإحدى المحاور الرئيسية في الحيز السكاني ، فالهجرة تعني بمضمونها البسيط حركة سكانية سواء على المستوى الفردي أم الجماعي من مكان إلى آخر وهذا يحدث تفيرا في التوازن الأقليمي في طرفيها ، وفي الأساس فقد تسببت الهجرة في اكتشاف كثير من أجزاء كوكبنا وبالتالي إلى إعمارها وتطويره ، ومثلما كانت الهجرة سببا في إعمار كثير من أجزاء الأرض وتخفيف العبء عن الأرض المهاجرة منها^(١) فانها في وقتنا الحاضر ونتيجة للتزايد المائل في السكان إضافة إلى الفوارق الاقتصادية والفنية والاجتماعية بين بلدان العالم المختلفة أدت إلى بروز مشاكل وتعقيدات نتج عنها صمود قوانين وأنظمة تتعامل مع الهجرة كإحدى القضايا المهمة بجوانبها المختلفة^(٢) . لقد أصبحت الحركة السكانية عملية سهلة من ناحية ، نظرا للتقدم في وسائل المواصلات والطرق وأصبحت معظم أجزاء العالم بين طرفي خطها في متناول الإنسان ولم تعد الحواجز الطبيعية تشكل عائقا أمام تحرك الإنسان من جزء إلى آخر . وقد استطاع التطور التقني أن يجعل كثيرا من المشكلات الصعبة ويتغلب عليها كما ساعد من جهة أخرى على سهولة التحرك السكاني . فترتب على ذلك بروز مشكلات من نوع آخر وهي مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية اعطت للهجرة أبعادا جديدة غفلنا عنها في المراحل السابقة ، إن هذه المشاكل وصلت إلى درجة التشابك في

الهجرة والهجرة العاكسة نموذج دولة الخليج العربية ودول المغرب العربي

عبد الرسول علي لموسى

قسم الجغرافيا جامعة الكويت

Wrong, D. H., "Population and Society", Random Home, New York, 1969, PP. 87-90.

(١) انظر دراسة أقلل هجرة المغرب العربي إلى بلدان الخليج العربي ، إصدار منظمة العمل العربية التي قدمها حافظ شير وجون باركرسون ١٩٨٠ . كذلك دراسة return migration to the Maghreb : People and Policies.

لندن ، ١٩٨٢

العلاقات الدولية واهتمامها بها واصبحت إحدى عناصر العلاقات بين الدول . فقد فرضت طبيعة التعامل بين الدول النظر إلى قضية الهجرة على أنها موضوع رئيسي من منظور سياسي (٣) .

إن من الأمور المتعلقة في عملية الهجرة فقدان الدول لعدد من سكانها يمثلون مستويات عالية في العلم والخبرة وهو ما يطلق عليه بهجرة العقول وتعتبر الدول النامية - والتي هي في أمس الحاجة إلى مثل هؤلاء - أكثر الدول التي تتعرض للخسائر في هذه الكفاءات البشرية . فالهجرة لم تعد مقصورة على الأفراد الذين يريدون تحسين أوضاعهم المادية أو الحصول على عمل بل أصبحت تتعلق بقضايا الحرية والديمقراطية والحياة الاجتماعية التي تشغل بال الإنسان المتعلم ويتمه ولذلك نجد أن نسبة ملحوظة من الذين يواصلون تعليمهم في الدول المتقدمة يفضلون البقاء ومواصلة حياتهم هناك ، كما أن نسبة من المتعلمين أصبحت تسبب قلقاً للدولتين المهاجر منها والمهاجر إليها . إن الأمور بالنسبة للهجرة أصبحت أكثر تعقيداً لأنها - كما قلنا - أصبحت قضية متعددة الأوجه ولذلك فالتأثير في الهجرة في الربع الأخير من القرن العشرين أن التكتلات الإقليمية سواء السياسة منها أو الاقتصادية أخذت تؤثر في الهجرة كما حدث للمهاجرين من المغرب العربي في فرنسا بعدما انضمت إسبانيا والبرتغال إلى منظمة السوق الأوروبية المشتركة وحاولت فرنسا استبدال المهاجرين المغاربة بالمهاجرين من الدول الأعضاء في هذه المنظمة . وكذلك الدول العربية ممثلة في الجامعة العربية ، بدأت تهتم بمناصفة المهاجرين العاملين من آسيا للعمالة العرب . وقد أصدرت قرارات بهذا الشأن (٤) . وإذا كان في عصرنا الحديث قد صدرت تنظيمات تتعلق بالهجرة على أساس عنصري مثل اللون « الهجرة البيضاء في استراليا » وعرقى مثل ما حدث في أمريكا وذلك بتوزيع حصص الهجرة على الدول الأوروبية وفي جنوب أفريقيا حفاظاً على النسيج الاجتماعي فإنه نظراً لتطور دور المنظمات العالمية وبخاصة منظمة حقوق الإنسان ، وكذلك نظراً لتشابك العلاقات السياسية والاقتصادية من ناحية وتطور التخطيط من ناحية أخرى ، وهذا التخطيط يتم بالبنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان . والعلاقة بينهما وبين الانتاجية والتطور الاقتصادي فإن هذا كله أدى إلى الاهتمام بعملية التنمية وبالتالي أصبح الاهتمام بخصائص المهاجرين لا حسب اللون والفرق وإنما من حيث كفاءتهم وخبرتهم وقدرتهم على لعب دور إيجابي في عملية التنمية .

إذا فالبنية السكانية مهمة جداً في سلوكيات المجموعات السكانية تجاه كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (٥) . ومنها بدأ اتجاه جديد من قبل الدول المستقبلة للهجرة للتعامل مع المهاجرين مراعية بذلك خصائصهم الاجتماعية والاقتصادية ولذلك نجد فعلاً في الكويت عندما بدأت الهجرة الآسيوية الصغرى تدخل ضمن قائمة المهاجرين ، بدأت معها التحذيرات من قبل كثير من المنظمات والباحثين نظراً للاختلاف بين اللون هؤلاء المهاجرين والمجتمع الكويتي كمجتمع عربي مسلم وبدأت سلبيات هذه الهجرة تبرز مع قصرها الزمني فعملية التنمية في الكويت تحتاج إلى تمكين للكويتيين من الاستفادة من خبرات المهاجرين في العمل وكذلك إلى التقليل قدر الامكان من التصادم

(٣) زيارة رئيسة وزراء الهند لباريس فغدت إلى دولة الإمارات للبحث في موضوع الاجراءات المتعلقة بالنقل الحدود وكذلك تأثير العلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد صدور القوانين في فرنسا المتعلقة بالمهاجرين وعودة بعض المهاجرين الجزائريين من فرنسا .

(٤) قرارات ووزارة العمل العرب عام ١٩٦٥ ، وعام ١٩٦٨ .

(٥) .

Clark, D. "Urban Geography", Croom Helm, London, 1982 PP.84-86.

الاجتماعي والفكري بين الكويتيين والمهاجرين نظرا لتعدد المائل لجنسيات وثقافات المهاجرين . وعندما جاء الكوريون والفلبينيون فان عامل اللغة اصبح حاجزا يحول دون استفاد العمالة الكويتية من خبراتهم ، كذلك فان الاختلاف العميق في سلوكيات هؤلاء المهاجرين ادى الى عزلة عميقة ليس بين هؤلاء المهاجرين وبين الكويتيين فحسب وانما بينهم وبين بقية المهاجرين وتعاني بريطانيا كذلك من هجرة الآسيويين للسبب نفسه فمثلا وجد أن الحاجز اللغوي ادى الى التقليل من عطاء الاطباء الآسيويين وانخفاض مستوى الاداء عندهم . ولايتنصر هذا السلوك على الدول المستقبلة للهجرة او مجتمعاتها بل انه ينسحب على المهاجرين انفسهم الذين يضعون نصب اعينهم كثيرا من القضايا التي تحدد جهة الهجرة ومعطياتها^(٦) فالمهاجر ايضا يجد جهة هجرته في ضوء معلومات عن هذه الجهة واختيار المهاجر لبلد معين يعتمد على المعلومات التي يحصل عليها عن هذا البلد من خلال ما اذا كان هذا البلد يحقق طموحاته ورغباته ام لا .

ولكن تبرز مشكلة اجتماعية واحدة تقضي على هذا القرار كأن يكون المهاجر ابا لعدد من الاثلاث قد لا تفتح تربيتهم وعاداتهم وتقاليدهم مع ذلك البلد الذى الهجرة اليه وبذلك يقف ذلك حجر عثرة امام تنفيذ قراره .

اذا فالمهجرة قضية متشعبة يحيط بها كثير من العناصر التي تؤثر في طرفي خط الهجرة ومعطياتها ، وهي ليست قضية تهتم بالكم وانما الاهمية تأتي في الكيف واذا كان الكم يسبب في الكيف فان القضية نسبية فهي تتعلق بالمحطات وخطوطها والهجرة وصلت ابعادها الى خط الخطر عندما بدأت الاصوات ترتفع لتطالب باعادة توزيع سكان العالم وحق الانسان في التحرك والى المشاركة في ثروات المجتمعات واذا كانت بعض هذه الاصوات هي باطل اريد به حق فان مآثره من اتفاقات بين كثير من الدول فيما يتعلق بالمهجرة تقرر حرية السكان فيما بينها وقوانين ونظم حقوق هؤلاء المهاجرين كل ذلك يقرر مدى أهمية الهجرة .

وقد تصل خطورة الهجرة ذروها وتنفيداتها عندما تنصف بالمهجرة الظلمة التي هدفها احوال مجموعة من المهاجرين مكان شعب عريق كما حصل في فلسطين او تغير البنية السكانية سواء اكانت بنية عرقية أم ثقافية كما حصل في بعض المناطق اما الخط الثاني للهجرة وهو ما يسمى الهجرة للمعاكسة فهذا موضوع يحيط به كثير من الغموض والصعوبات ولم يحظ بدراسات وبحوث كما حظيت دراسات الهجرة .

وحى المسمى اختلف عليه كثير من الباحثين ، فاحيانا يطلق عليها الهجرة للمعاكسة واحيانا هجرة العودة وهاتان التسميتان تلتقي عندها ما كتب باللغة العربية والانجليزية وهما Return Migration ويختلف هذان التسميان في المفهوم ايضا فقد تكون الهجرة للمعاكسة حركة معاكسة لمحطة الوصول ، متجهة لها او خارجة منها الى اى جهة سواء الى الوطن ام الى جهة اخرى ، وقد تكون تسمى هجرة العودة هي فقط العودة الى الوطن الام .

ومثلا تختلف اهداف ومسببات الهجرة تختلف ايضا اهداف ومسببات الهجرة للمعاكسة او العودة ، فقد تكون هذه الهجرة نتيجة لقرار ترحيل المهاجرين كما حدث في السنوات الاخيرة في اوغندا ونيجيريا والعراق نتيجة لقرارات اقتصادية او تنظيمية وكما حدث في فرنسا وفي الكويت او نتيجة لانخفاض فرص العمل ونفشي البطالة . والهجرة للمعاكسة قد تثير قضايا أكثر من الهجرة في خطها الاول لانها قد تثير قضايا اقتصادية مثل عودة المهاجرين الى بلدانهم وما

(٦) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، أتاق هجرة عمالة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ - ٢٠ .

يترتب على ذلك من بطالة وانخفاض في مستوى المعيشة وانها لك للاقتصاد الوطني كما حدث في تونس نتيجة لعودة مواطنيها من فرنسا وليبيا وقد تسببت الهجرة المعاكسة اي العودة الى الوطن الام في مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية نتيجة للفروقات الاقتصادية التي تحدث بين المجتمع الاصلي والعائدين من مجتمعات تختلف في مستوى المعيشة وسلوكياتها وما اكتسبوا من انماط الاستهلاك والقيم الاجتماعية^(٧) فضلا على انها قد تؤثر على الاقتصاد الوطني في البلد المستقبل لها . فالمهاجرون قد يقبلون بأجور منخفضة ويقبلون على اعمال لا يقبل عليها المواطنون وكذلك يؤثرون في القوة الشرائية وقضايا اخرى مثل الاسكان والمرافق الاخرى . وتواجه قضية الهجرة المعاكسة من الناحية العلمية ومشكلة صعوبة قياسها وتبنيها في محطاتها المختلفة لظروفها المتعددة . فقد تفرض ظروف معينة على الانسان المهاجر من وطنه الى بلد آخر فتتمد الاقامة به مدة طويلة تصل الى عشرين او ثلاثين سنة وهذه المدة كفيلة بان ترسخ جلدورا اجتماعية في هذه الارض الجديدة ، عندما يولد وترعرع ابنائه ويكتسبون عادات وتقاليدهم الجديد ، وتختلف المقاييس النفسية والاجتماعية والسياسية عن بلدهم الاصلي^(٨) . فيصعب التفكير في العودة الى البلد الام ولا يؤدي هذا بالضرورة الى نزاع جلده الاصلي واكتساب جديد وبخاصة اذا كان سكان هذا البلد يختلفون عنه عرقيا وتظل ملاعهم تشكل حاجزا نفسيا بل تؤدي الى تفرقة في التعامل ومع ذلك فان خطط الهجرة المعاكسة يظل مفتوحا ، اذا كان ذلك بالاختيار ، للجيل الاول وكذلك للجيلات التالية عندما يبلغ المهاجر سنا لا تعد فيها العناصر التي ذكرناها قبل قليل فاعلة .

هدف ومنهج الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على الهجرة بخطتها كحركة سكانية مستمرة والتعرف على العوامل التي تلعب دورا فيها حتى يمكننا التعرف على الافرازات المختلفة للهجرة .

ولتحقيق هذه الاهداف ، فان الدراسة ناقشت هذا الموضوع في اطار شمولي للتعرف على الحركات السكانية الرئيسية والتي تركت بصمات واضحة في مناطق جغرافية مختلفة في تاريخنا المعاصر ولقد اختارت الدراسة منطقتين جغرافيتين تمثلان نوعي الهجرة المختارة للدراسة وهي دول الخليج العربية التي تمثل حالتها الهجرة ودول المغرب العربي والتي تمثل حالة الهجرة المعاكسة ثم اختارت الهجرة نموذجها محدودا هجرة نوعية معينة من السكان وهي ما تسمى بهجرة العقول .

ولقد اختارت الدراسة الفترة الزمنية الحديثة في دراسة الحالات ، هذه الهجرة التي مازالت تتفاعل وتعتبر نموذجها لتأثير الحركة السكانية في تشكيل كثير من الملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ففي حالة دول الخليج العربية سوف تكون مجال الدراسة هي الفترة التي حدثت معها هجرة اثرت كثيرا في ملامح مجتمعات هذه الدول وهي الهجرة التي اعتبرت استغلال عوائل النفط في تحديث هذه الدول ، اما حالة المغرب العربي

(٧) سعد أمين ابو ابيهم ، النظام الاجتماعي العربي الحديث - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت . ١٩٨٢ . ١٣٥ - ١٤٦ .

Al-Moosa, A., "Stability of the foreign labour force in Kuwait," The Arab Gulf Journal, London Vol. 6, No. 2, April 1986, P. 55.

فالهجرة المعاكسة بتأثيرها الواضح لم تحدث الا في السنوات الاخيرة وبالفات في اعقاب استغلال دول المغرب العربي عن دول اوروبا المستوردة . للمهاجرين منها . والذي تزامن مع المشكلات الاقتصادية التي واجهتها اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

الهجرة منظور عالمي :

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحركات سكانية غير مقيدة وكانت معظم هذه التحركات باتجاه ارض جديدة مكتشفة بما كان يسمى بالعالم الجديد . وبالطبع نتيجة للعامل الجغرافي ، عامل المساحة الذي كان يلعب دورا حاسما في عملية التحرك نظرا لبساطة وسائل المواصلات وبدائية الطرق ومن ناحية اخرى يرجع الى الحالة السيامية والاقتصادية للمناطق المختلفة في العالم . ففي ذلك الوقت كانت اوروبا تشهد حروبا متواصلة وصراعات بين المجموعات البشرية سواء على اراضيها داخل القارة الاوروبية ام على اراض غيرها عبر المحيطات ولما كان عامل المساحة مهما وكذلك مستوى وسائل النقل ، فقد اتجه الاوروبيون الى القارة الامريكية وحدثت تحركات سكانية وهجرات جماعية ، ولقد وصلت الهجرة الى ذروتها في بداية القرن التاسع عشر فقد توجه ما يقارب من ٥٧ مليون مهاجر الى هذه القارة منهم حوالي ٣٠ مليون توجهوا الى ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الامريكية . ولقد دخل الولايات المتحدة في فترة زمنية قياسية ما بين ١٩٠١ و ١٩١٠ حوالي تسعة ملايين مهاجر ولقد سبق ودخلتها ثاني اكبر هجرة في فترة قصيرة وهي ما بين ١٨٨١ و ١٨٩٠ وكانت حوالي خمسة ملايين مهاجر وكان حوالي ٨٥٪ من هؤلاء قد قدموا من اوروبا^(٩) وتأتي هذه الهجرة الجماعية نتيجة للفرص الاقتصادية الهائلة في الاراضي الجديدة وتطلع الاوروبيين الى نقل الاقتصاد الصناعي الى تلك الاراضي فمن هنا يمكن القول ان هذه الهجرة كانت بفعل عامل الجذب اكثر منها بفعل عامل الطرد^(١٠) مع عدم التقليل من اهميتها ، ونجد ان هذه الهجرة قد اثمرت حيث ان امريكا الشمالية بدولتها الرئيسية الولايات المتحدة الامريكية وبعد الهجرة الاوروبية الكبرى اليها اصبحت تعتبران من الدول المتقدمة ومن قوى الدول اقتصاديا لما تتمتعان به من امكانات اقتصادية اثرت بشكل خاص في الولايات المتحدة كأحدى أكبر قوتين في العالم .

اما البيئة فلها تأثير كبير على تحرك السكان فقد دفع التغير البيئي السكان الى تغيير مكان استقرارهم بل وتغيير نشاطهم الاقتصادي مثلما حدث في ايرلندا في الاربعينات من القرن التاسع عشر وذلك بعد النكسة في محصول البطاطا والذي تسبب في ايجاد بطالة هائلة في ايرلندا مما دفع جزءا من سكانها الى الهجرة وكما حدث - أيضا - في الولايات المتحدة في الثلاثينات من القرن التاسع عشر عندما تعرضت التربة في المناطق العربية الوسطى فيها للجفاف نتيجة لسوء استغلالها من قبل المزارعين وادى ذلك الى تعريضها للنقل بواسطة الرياح وكما تسمى بواء الرمل SAND BAG تلك التي أثرت على مناطق مختلفة نتيجة لسيوب الرياح المحملة بالترية ونتيجة لذلك فقد حدثت هجرة لكثير من تلك المناطق الى مناطق اخرى في الولايات المتحدة^(١١) . ولعب التغير البيئي دورا في هجرة عدد كبير من قرى أهل النوبة التي

Wrong, D. H., 1969, P. 37.

Ibid, P. 89.

Johnes, E., and Eyles, J. "An introduction to Social Geography", Oxford University Press, Oxford, 1977, P. (١١)

كانت تقع بالقرب من بحيرة ناصر نتيجة لتحويل مجرى نهر النيل وإقامة السد العالي في مصر ومع ان هذه الهجرة قد تقع تحت غطاء الهجرة القسرية في أوقات السلم^(١٢) وذلك نتيجة لاتفاق حدث بين السودان ومصر بتهجير هؤلاء السكان إنما كان في الأساس نتيجة لتغير بيئي وحتى لو لم يحدث اتفاق التهجير فإن السكان سوف يهاجرون من تلك المناطق لان تحويل مجرى النهر وإنشاء بحيرة ناصر أدّى الى غمر مناطق هؤلاء السكان بالمياه .

خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية حدث تحرك سكاني ضخم ، فقد انتقل تحت التهديد والقهر والارهاب حوالي ستة ملايين شخص في الحرب العالمية الأولى وكذلك نفس الرقم تقريبا في الحرب العالمية الثانية الى مناطق غير مناطقهم الأصلية وبذلك حدثت هجرة قسرية تغير على اثرها التركيب السكاني اجتماعيا وديمقراطيا في اقاليم مختلفة في أوروبا .^(١٣)

وقد تحدثت هجرة « سياسية » وقد تسمى بحركة الحدود ، وهي تعني تبادل السكان بين الدول في المناطق التي تحدث فيها تغيرات جغرافية سياسية ونتيجة لذلك بقيت اقليات سكانية لتواجه صعوبات سياسية واجتماعية كما حدث هذا في الهند وباكستان عندما تم نقل حوالي ستة ملايين هندي الى الهند ومثل عددهم من المسلمين الى باكستان . وكما حدث بين اليونان وتركيا عندما تبادل السكان بعد حرب ١٩٢١ بين الدولتين فقد انتقل ثلاثمائة الف تركي الى تركيا ومليون ومائتي الف يوناني الى اليونان . ولا يمكن ان نقول انه كان هناك خيار لهؤلاء السكان في البقاء او الانتقال نظرا لانهم قاموا بهذا التحرك نتيجة لاتفاق بين الدول المعنية^(١٤) ولستوات قليلة مضت حدث تحرك سكاني قسري عندما امرت السلطات في اوغندة جميع الاسويين الذين يحملون جوازات بريطانية بمغادرة اوغندة وكذلك من الذين لا يحملون الجنسية الاوغندية وكانت هجرة بالالاف وقد احدث ذلك ردود فعل عالمية .

اما الهجرة البشرية الحديثة التي تعتبر من أبشع انواع القسر هو ما حدث للفلسطينيين في بلدهم قام الكيان الصهيوني على انقراض دولة فلسطين وحلت مجموعات بشرية من مختلف الجنسيات لا يجمعها الا الدين ، محل شعب تجمعه اصالة المواطن وحدث ذلك عام ١٩٤٨ فشرّد حوالي مليون فلسطيني من بلدهم وانتشروا في مناطق مختلفة من العالم مع تركّز جزء كبير منهم في بعض الدول العربية .^(١٥)

وقد تحدثت هجرة خارجية ولكنها تكون نتيجة لعوامل خارجية ، وذلك عندما تتعرض مناطق او مدن حدودية او استراتيجية للاحتلال الاجنبي او اضمحلال الأوضاع الاقتصادية نتيجة للحرب وتأثيرها على المناطق الاقتصادية كما حدث في جمهورية مصر العربية بعد قيام حرب سنة ١٩٦٧ فاحتلت سيناء واغلقت قناة السويس وتعرضت مدنها وموانئها كبورسعيد والسويس لخطر تلك الحرب وادّى ذلك الى حدوث هجرة ضخمة من هذه المناطق الى القاهرة والى مدن أخرى مصرية .

(١٢) اسحق الطيّب وعدد الاداء لير ميس . « الاتفاقيات المصيرية في الدراسات الجغرافية ، وكافة التطورات ١٩٨٠ ، الكويت ، ص ١٩٨ .

(١٣) Johnes, E., and Eyles, J. 1977, P. 187.

(١٤) Ibid, P. 187.

(١٥) اسحق الطيّب وعدد الاداء ، لير ميس ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٨ .

ونتيجة للعنف تحدث هجرة من المناطق التي تتعرض للنصف وقد تأثر دول بالكامل بالهجرة عندما تعرض هذه الدول للعنف مثلما حدث للبنان عندما تعرض لحرب أهلية يصعب حتى الآن إضفاء أية صفة على هذه الحرب لأن عوامل كثيرة تشابكت في النهاية لتغطي صفحة واحدة عامة وهي عنف بلا هوية وقد أدى هذا العنف إلى هجرة اللبنانيين من وطنهم ومن الصعب تحديد اتجاهات الهجرة لأن اللبنانيين انتشروا في جهات متعددة .

وهناك هجرات تحدث نتيجة لازدهار اقتصادي وتوفر فرص عمل في مناطق غثتمة فتحدثت انقلابا اقتصاديا واجتماعيا في هذه المناطق .

ولقد تعرضت منطقة الخليج لهجرة كبيرة في فترة متباعدة من الزمن مقارنة بين حجم الهجرة وعدد السكان الوطنيين وكان دافع هذه الهجرة توفر فرص عمل كبيرة نتيجة لاكتشاف النفط واستغلال عوائله في تحديث دول الخليج العربية ونتيجة للقصور الكمي والنوعي الذي يعانيه السكان في مواجهة المستجدات في الحالات الاقتصادية والعمرائية . ولقد أدت هذه الهجرة إلى قلب الميزان السكاني وتحول السكان الوطنيين في فترة زمنية وجيزة إلى أقلية في بلدانهم ولم تقتصر مصادر هذه الهجرة على مصدر واحد أو عدد قليل وإنما جاءت من مصادر كبيرة العدد وصلت إلى مائة جنسية . وبما أن العمل هو الدافع الرئيسي لهذه الهجرة ، فقد تفوقت العمالة الوافدة على الوطنية إلى أن وصلت العمالة الوطنية في بعض دول الخليج العربية إلى أقل من ١٠٪ ، ولقد وصلت في الكويت عام ١٩٨٥ إلى حوالي ٢٢٪ ، وتغلغلت العمالة الوافدة في كل قطاع من قطاعات العمل وكثيرا ما ترتبط الهجرة بالمستوى الاقتصادي للدول المهاجر منها أي الهجرة من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية . وقد يكون هذا صحيحا بشكل عام ، ولكن عندما نتعامل القضية بتفاصيل أدق نجد أن أهداف الهجرة قد تدخل في تحديد المناطق المهاجر منها إلى والمهاجر إليها .

ولذلك فإن الهجرة من الدول الأوروبية كانت تشكل تقريبا من العنصر السكاني على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت هذه الهجرات تلعب دورا في السيطرة على أراض جديدة وإنشاء مجتمعات أوروبية في تلك الأراضي في الوقت الذي كانت الهجرة من الدول والقارات الأخرى ، نتيجة لضالة نسبتها إلى السكان في تلك الدول لا تشكل تخفيفا على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت تقوم بأدوار ضئيلة في الدول المهاجر لها فالمهاجرون الأوروبيون كما قلنا قاموا بأدوار كبيرة حيث أنهم بالإضافة إلى السيطرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المناطق المهاجر إليها وبخاصة أمريكا وأستراليا وأفريقيا ، أقاموا أنظمة اقتصادية امتدادا للاقتصاد الأوروبي . ولإيمان كما أشرنا قبل قليل إنكار الدور الذي لعبته الهجرة من أوروبا في حل المشكلة السكانية التي برزت عن طريق الزيادة السكانية السريعة وعجز الموارد الاقتصادية المحلية بالمقابل .

في الدول الأخرى كان العامل الإيجابي على المدى القصير هو في التحويلات النقدية التي يرسلها المهاجرون إلى بلدانهم والتي بلا شك لعبت دورا في اقتصادياتها^(١٩) وقد قدرت تحويلات الدول النامية لعام ١٩٨٢ بحوالي ٢٨ مليون دولار وهذا ما جعلها قادرة على زيادة الاستيراد مما وضعها ضمن إطار مشكلة الميزان التجاري لهذه الدول ، هذا على

Burki, S., J., "International Migration Implications for Labour Exporting Countries" The Middle East Journal, (١٦) Vol. 38, No. 4 1984, P. 671.

مستوى الدول اما على مستوى الافراد فان هذا يبدو واضحا في التمايز الجغرافي بين مدن هذه الدول حيث تتميز المدن او المناطق التي تصدر المهاجرين عن المدن او تلك المناطق التي ليس لها مهاجرون من الخارج^(١٧) .

هذه الهجرات بانواعها المختلفة ومسبباتها واجهت اجراءات وسياسات لتنظيمها او لتحجيمها او لوقفها ، فالهجرة سواء اكانت داخلية ام خارجية فان لها آثارا لا يمكن اغفالها وتركها بلا ضوابط وان ما يعانيه العالم اليوم من عملية التحضر ويزور « الكيانات الحضرية » وما تسببه من تعقيد للحياة خلق للانسان مشكلات كلفته ثمنا غاليا وهو حياته النفسية اضافة الى حياته الجسمية فتكون المدن وتوسيعها وسيطرة الحياة الحضرية جاءت لاسباب في مقدمتها الهجرة من الريف الى المدن والتحول نحو الصناعة التي وجد فيها الانسان متسعا للخروج من مشاكله ثم انقلبت عليه وبالا كما ان التحرك المستمر للسكان من منطقة الى اخرى خلق مشكلات اجتماعية واقتصادية رهية عند تأثيرها على المجموعتين المحلية والمهاجرة وتكون النتيجة تغيرات في احلى المجموعتين او ازوداجية او حتى تعددية في المجتمع . فالهجرة ليست قضية ترتبط بالارقام كعدد السكان المهاجرين وعدد المجموعات المهاجرة من المناطق المختلفة ، وكذلك مثل عدد الذكور وعدد الاناث والمجموعة الفاعلة اقتصاديا والصغيرة او الكبيرة وليست ايضا عدد العالدين ولكن الهجرة تتكون من أكبر من هذه العناصر الرقمية انها تدخل في القضايا الاجتماعية والاقتصادية وما يطلق عليه في الجغرافيا بالمشاكل الحضرية والتي تنتج عن تفاعلات اجتماعية واقتصادية في بقعة جغرافية معينة ، وهي المدينة وتلاحظ هنا في هذا الصدد ان الهجرة غالبا ما تحدث في المدن . سواء اكانت الهجرة داخلية يتحرك السكان من الريف الى المدن ام من المناطق الفقيرة الى تلك الغنية او الهجرة الخارجية والتي تصب دائما في المدن حيث المزيد من الحاجة الى الايدي العاملة والى المغريات التي تتميز بها المدينة وحيث القبول الاجتماعي للمهاجر والذي لايجده بسهولة في المناطق الريفية . وبذلك أصبحت المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تأخذ اتجاهاات خطيرة في حياة الانسان . ان تطور الحياة الحضرية جعل السكان يتجهون للمدن ويتركزون بها ، ولتصور تجمع مجموعات مختلفة الاتجاهات اجتماعيا اقتصاديا وسياسيا في بقعة محدودة من الأرض تتنافس هذه المجموعات على الأرض والعمل والخدمات . ان توجه الانسان للحياة الحضرية يسير بسرعة هائلة وهذه السرعة المرتبطة بالحجم الكبير للمجموعات المتحركة لا يمكن ان تعطي فرصة للمنظمات الرسمية والاهلية لمواجهتها فتزداد المشكلات .

يزرى تزايد سكان المناطق الحضرية بالمعدلات العالية الى الهجرة من الريف الى المدن اضافة الى تقدم وتطور العلوم الطبية وتزايد الاهتمام الصحي بالانسان في هذه المناطق وينطبق هذا بشكل واضح على الدول النامية حيث الفروقات بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية والتي تسهل بعوامل الطرد من المناطق الريفية وعوامل الجذب في المناطق الحضرية وتساهم الهجرة من الريف الى المدن بنسبة تتراوح ما بين ٥٠٪ - ٧٦٪ من النمو السكاني في المناطق الحضرية الكبيرة في معظم الدول النامية^(١٨) ويوضح الجدول رقم (١) ان الهجرة من الريف الى المدن ما زالت تلعب دورا مهما في النمو الحضري .

(١٧)

Ibid, PP. 671-675.

(١٨)

Mabogunje, A., "The Development Process" : Hutchison University Library for Africa, London, 1980, P. 177.

نسبة الهجرة من الريف الى الحضر في النمو الحضري ١٩٥٠ - ١٩٩٠

	١٩٥٠ - ١٩٦٠	١٩٧٠ - ١٩٧٥	١٩٨٠ - ١٩٩٠
العالم	٤٨,٧	٣٢,٥	٣٣٠,٠
الدول المتقدمة	٤٨,٨	٤٦,٢	٤٩,٧
الدول النامية	٥٩,٣	٤٢,٠	٤٢,٢

المصدر : MABOGUNJE, A., "THE DEVELOPMENT PROCESS": HUTCHISON UNIVERSITY LIBRARY FOR AFRICA? LONDON, 1980 TABLE NO. 17

ان التزايد السكاني في المناطق الحضرية يعني اضافة الى النمو السكاني الطبيعي والهجرة تلب دورا في تطور المراكز الحضرية ، والنمو الحضري يعني مزيدا من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية . فالمؤسسة الأساسية في التركيبة الاجتماعية هي الأسرة تتعرض للتغير وإعادة تركيب بيتها ، كما ان البيئة الاجتماعية للسكان تتعرض للتغير . كما ان الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان يماذ صياغتها في داخل الاطار الحضري .^(١٩)

وتلعب التقنية والتطور في الأدوات المستخدمة في الانتاجية دورا في هذا المجال ، ففي الولايات المتحدة تطورت الهجرة من الريف الى المدن الى درجة كبيرة نتيجة للتطور في الأساليب التكنولوجية في الزراعة والتي أدت الى أن ١٠٪ من سكان الولايات المتحدة ينتجون غذاء لبقية السكان (٩٠٪) بل ويصدرون الفائض الى الخارج . ولهذا نجد أن المناطق الحضرية اتسعت وتطورت وكان ٥٪ من الأمريكيين يعيشون في المدن عام ١٧٩٠ فقفزت هذه النسبة الى مستوى عال في عام ١٩٦٠ وقد أشارت الاحصاءات الى أن ٧٠٪ من الأمريكيين يعيشون في المناطق الحضرية^(٢٠) .

ولذلك فالمجرة ليست قضية ديمغرافية أو حركة سكانية ترتبط بالسافة أو المساحة المكانية ولكنها أيضا قضية لها مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية فوجود مجموعات سكانية تحمل معها مختلف العادات والتقاليد سواء تجاه العمل أم تجاه السكن أو تجاه العلاقات الانسانية أو في سلوكياتها الاقتصادية والمعيشية سوف يؤدي الى تصادم اجتماعي واقتصادي وسياسي ، وليس بالضرورة أن تكون النتيجة هي عملية الاستيعاب من قبل المجتمع المستقر للمجموعات المهاجرة أو العكس^(٢١) فهذا يعتمد على طبيعة المؤسسات التي تحكم المجتمع المستقبل للهجرة فإذا كانت هذه المؤسسات تعني للمهاجر الاسلوب الذي يبحث عنه ، وتأتي في المقدمة مقارنة لما يتميز به مجتمعه الأصلي ، فتأتي كحل لم كان يراوده .

وقد تكون هناك قضايا فردية ولكنها في تراكماتها الزمنية تصبح انجماء عاما في سلوكيات المهاجر وترتيبه للأفضلية أمور حياته ، فقد يهاجر الانسان الى مجتمع يختلف من مجتمعه اجتماعيا وثقافيا ودنيا ، فإذا كان مثلا في فترة سابقة لم يكون أسرة فقد تستلهم طريقة التربية وتحديد المستقبل مع عادات وانمايات ذلك المجتمع ، ففي فترة لاحقة عندما

Clark, D., H., 1982, PP. 73-67.

Wrang, D., H., 1969, PP. 95-97.

Johnes, E., and Eyles, J., 1977, P. 196.

(١٩)

(٢٠)

(٢١)

تكون أسرة فإن هذا الإنسان يجد أن استمراره يصطدم بتلك القيم والعادات والتقاليد فيبحث عن محطة أخرى تتناسب مع المكونات الاجتماعية والثقافية وغيرها .

ولذلك فإن خطوط الهجرة قد تتقاطع بمحطات ترتبط بعوامل متغيرة ومتجددة هذه العوامل لا ترتبط بطرف معين بل أنها تأتي من أكثر من طرف في قضية الهجرة . فكما قلنا قد تكون هذه العوامل نتيجة لتغيرات في تركيب الأسرة من حيث العدد أو من حيث التركيب النوعي ، فمثلا وجود الأثاث في الأسرة يلعب دورا مختلف عن وجود الذكور وهذا قد يرتبط بالقيم والعادات من مجتمع إلى مجتمع . وقد تكون التغيرات في بلد المهجر إذا استحدثت عوامل مثل سمن تشريعات وأنظمة تتعلق بالمهاجرين تؤثر في بقاء أو تحرك هؤلاء المهاجرين . ولقد شهد التاريخ تغيرات في التعامل مع الهجرة . هذه التغيرات تنطلق من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ففي بعض الدول التي تعرضت لهجرات واسعة تعاملت في مرحلة معينة مع المهاجرين على أساس فخصصت لكل جنسية نسبة معينة من المهاجرين تستقبلهم سنويا وقد استخدمت الولايات المتحدة هذا النظام عام ١٩٢٢ . ولكن في مرحلة أخرى تالية دعت أسباب إلى تغيير هذه السياسة إلى نظام آخر وهو انتقاء الشخص أي حاجة البلاد إلى كفاءات ومهارات وخبرات معينة بغض النظر عن جنسية هذا المهاجر وإن لم يكن هذا بشكل مطلق ، وكانت الأسباب وراء ذلك دراسات وبحوث قادت إلى الانتباه إلى القضايا الاجتماعية المهمة مثل القضايا العنصرية والتغيرات في البيئة الانية للمجتمع حتى لا تطفئ مجموعة معينة على بقية المجموعات . وكان الصراع العنقادي بين بعض الدول وظهور الأيدولوجية الشيوعية و بروز النظام الألماني في عهد هتلر وما أدى إليه من التعصب لعرقية معينة ، كل ذلك انعكس على سياسة الهجرة إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المستقبلية للهجرة بأحجام كبيرة ، أما في المرحلة الحالية فإن الهجرة بشكل عام تحكم فيها فرص العمل وارتفاع الأجور من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الدول المستقبلية للهجرة تفتح المجال للمهاجرين بقصد سد النقص في عمالتها الوطنية وتطوير اقتصادها واعداد أراضيها ورفع مستوى تقيتها .

ولذلك فإن سياسة الهجرة مبنية على نظام يربط بين هجرة وبين حاجة هذه الدول لقوى عاملة معينة .

ومن هنا فقد أصبح موضوع الهجرة يدخل في خطط التنمية للبلدان التي تتعامل معها سواء أكانت باعثة أم مستقبلة . وهذه الخطط لا تقتصر على حجم العمالة وتوزيعها على الأنشطة الاقتصادية المختلفة ، بل أنها تدخل في الأبواب الاقتصادية للخطة من حيث الأخذ بعين الاعتبار الموائد النقدية التي يوردها المهاجرون إلى دولهم . ففي جمهورية مصر العربية قدرت عوائد المهاجرين سنة ١٩٧٨ بما يعادل دخل قناة السويس إضافة إلى عوائد القطن .

وفي لبنان قبل الحرب الأهلية ، كانت هجرة المختبرين تعتبر من المصادر الرئيسية للاقتصاد اللبناني وفي الفلبين تعتبر عوائد العمالة الفلبينية في الخارج مصدرا رئيسيا للدخل القومي للدولة ولهذا فإن نظاما جديدا طرأ على الهجرة من حيث التنظيم وذلك عن طريق الاتفاقيات الرسمية بين الدول « لتصدير » العمالة وما تتضمنه هذه الاتفاقيات من نظم لأجور القوى العاملة وتنظيم تحويل جزء من دخولهم إلى بلدانهم فالهجرة إذا أصبحت تأخذ أبعادا قانونية واجتماعية وسياسية واقتصادية ولم تعد قضية تحرك سكاني ومشاكل ديمغرافية وخصائص تتعلق ببيتهم الاجتماعية فقط .

الهجرة الى دول الخليج العربية :

الهجرة الى دول الخليج العربية تعتبر نموذجاً للهجرات في عالمنا المعاصر وتعتبر مجالاً خصباً للدراسة والبحث . فدول الخليج العربية مع انها جزء من أقدم مناطق الاستقرار في العالم الا أنها تعتبر من حيث التكوين السياسي والاجتماعي والاقتصادي حديثة فالكويت والتي تعتبر من أوائل دول الخليج في تعرضها للهجرة الحديثة ، بدأ كيانها السياسي يدخل التاريخ السياسي العالمي في ١٩٦٥ . (٢٢)

ولقد أصبحت دول الخليج العربية عطف الأنظار من قبل المهاجرين بعد اكتشاف النفط واستغلال عوائده في بناء الدولة الحديثة ، ليس من الناحية الاقتصادية والسياسية فحسب وإنما في بناء دولة حديثة وتأسيس الهيكل التنموي وأرساء دعائم الخدمات الأساسية الاجتماعية وكانت المشكلة التي واجهتها هذه الدول هي أن عملية الهجرة كانت فوق طاقتها السكانية سواء من حيث الكم أو الكيف بشكل ظاهر وكانت الرغبة في القيام بهذه العملية بفترة قصيرة من الوقت سبباً في فتح حدود هذه الدول للهجرة بدون أية قيود ولم تستخدم الطريق والأنظمة والتشريعات التي استخدمتها مختلف الدول على طول مراحل زمنية متعددة .

وكان الافتقار الى المؤسسات الادارية والتشريعية والفنية في بداية الأمر سبباً في تعرض البلاد لتدفق المهاجرين بأعداد كبيرة في فترات زمنية قصيرة . (٢٣)

ولقد تزامنت الهجرة مع تغيرات اجتماعية واقتصادية للسكان الوطنيين مما أضاف فرصاً للحاجة الى المهاجرين كالتحول الاجتماعي الخطير الذي تعرض له السكان المحليون من تغير في البنية الاجتماعية وبخاصة في الأسرة والتركيب السكاني بشكل عام .

كذلك تعرض السكان لما نستطيع أن نطلق عليه عملية التحضر السريعة والمعقدة لمجتمع بسيط قليل العدد كل ذلك أضاف بعداً مهماً للهجرة . (٢٤)

وتمثل الكويت ودول الخليج العربية الأخرى كلها للمهاجرين في بداية الهجرة مثل ما كانت تمثل المناطق المكتشفة في غرب الولايات المتحدة عند اكتشاف الثروات المعدنية . والفارق طبعاً أن دول الخليج العربية ذات كيانات اجتماعية وسياسية ، فقد توفرت فرص للعمل بشكل غير محدود للمهاجرين في كل درجات السلم المهني . بل أكثر من ذلك سيطر المهاجرون على النشاطات الاقتصادية التي كان يمارسها المواطنون بأسلوب بسيط تقليدي وطورها لتتناسب مع كل المعطيات الاجتماعية والاقتصادية لمجموع السكان من محليين ومهاجرين في الوقت الذي وقف فيه المواطنون عاجزين عن أخذ زمام المبادرة نظراً لعدم وجود الخبرة في التعامل مع التنغيمات الجديدة وفي مقدمتها التعامل مع جنسيات متعددة وثقافات هائلة .

ولقد لعبت الجغرافيا دوراً جديراً في هذه القضية فدول الخليج العربية بشكل عام تتميز بيئة طبيعية بسيطة جداً ، إذ أنها تفتقر للتمايز الجغرافي فأرض دول الخليج والتي تؤدي الى ايجاد بنى اجتماعية واقتصادية متباينة داخل الكيان

(٢٢) أحمد ابو حاتم ، تاريخ الكويت الحديث ، ذك الحلال ، ١٩٨٤ ، ص ١٢ .

(٢٣) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كلفة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢٤) عبد الرسول الموسى ، ه أثر التغيرات الجغرافية على التوزيع الاجتماعي للسكان في الكويت ، بحث غير منشور .

السياسي وصغر مساحة الدول والتركز السكاني والاقتصادي والسياسي في بقعة واحدة صغيرة أدى الى قيام ما يسمى بدول المدينة فكل دول الخليج العربية تتكون من مدينة واحدة . وهذه العوامل كلها أدت الى أن الهجرة عمت كل مناطق الدول ، وكان التأثير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على مجموع السكان في هذه الدول . فكل المواطنين يتعاملون مع الهجرة بكل سلباتها وإيجابياتها ولا يمكن لأي مجموعة سكانية عملية تبادلي التعامل مع الهجرة .

هذا التكوين الفريد للعلاقات بين المواطنين والمهاجرين ، أدى الى سن تشريعات وأنظمة تبدو للمراقب البعيد عن حقائق الوضع تمييزاً كبيراً بين المواطنين والمهاجرين . ومثال على ذلك العزلة في مناطق السكن وإنشاء مناطق سكنية للمواطنين وأخرى للمهاجرين ومن قوانين تمنع سكن المهاجرين في المناطق السكنية النموذجية وذلك بمنع التملك وقيد الايجار كما وحددت كثافة البناء وصممت الوحدات السكنية حسباً لمشاكل تماثل الكثافة السكانية وأصبحت هناك تفرقة في الأجور .

ان منطلق التعامل مع الهجرة في دول الخليج العربية هو أن المهاجرين يشكلون الأغلبية في هذه الدول وفي بعضها مثل قطر والإمارات للتحدة وصلت هذه الأغلبية الى نسبة عالية جداً (٨٠ ٪) وهذا المنطلق يدعو الى معالجة دقيقة وحذرة للهجرة . لقد تشابكت قضية الهجرة في هذه الدول مع القضية الأساسية لهذه الدول وهي الارتباط المعقد بين النفط وبين البنية الاقتصادية . (جدول رقم ٢) .

لقد واجهت الهجرة موقفاً يتصف بالخصوصية . فقد كان للفترض أن الهجرة تبدأ في التضؤل ثم تحدث الهجرة المعاكسة مع انتهاء المشاريع الأساسية الكبرى وبخاصة الهياكل الأساسية الرئيسية وبذلك تقل فرص العمل ومن ثم تتحرك الهجرة في خط معاكس أو خط العودة . ولكن ما حدث هو في غير صالح الهجرة وفي غير صالح هذه البلدان في نفس الوقت .

وتتأثر الدول المرسلة للمهاجرين بالمهجرة المعاكسة اذا كانت في خط العودة . وهذا التأثير يصيب كثيراً من المجالات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية ، ولذلك فهذه الدول ، تحاول جاهدة أن تأخذ في الحسبان عودة مواطنيها ، سواء في مجال الاسكان ، أو في توفير فرص العمل ، ولكن الذي حدث في حالة دول الخليج العربية هو أن الذي حدث على المستوى الاقتصادي كان بعيداً عن التوقعات فدول الخليج العربية تعتمد في دخولها على عوائد النفط بنسبة كبيرة جداً . وكان القلق على المستوى الرسمي والشعبي هو نضوب النفط أو اكتشاف مصدر بديل للنفط . ولكن ما تعرضت له هذه الدول في مجالي الأول هو التوقيت ، فقد كان في فترة مبكرة جداً بعيداً عن التوقعات . والثاني في الانخفاض الحاد في سعر النفط والذي انخفض من ٣٦ دولار الى ما يقارب ١٠ دولارات . وما حدث أثر على طرفي خط الهجرة للدول الخليجية المستقبلية للمهاجرين والدول المصدرة لها . فالدول المصدرة للعمالة تعتمد في جزء من دخولها على التحويلات النقدية لمواطنيها في دول المهجر .

وقد تأثرت دخول هذه الدول بشكل بارز فأتى الى تخفيض ميزانياتها وهذا التخفيض أثر على باب الأجور في الميزانية وبالتالي بدأت هذه الدول في تخفيض العاملين في الأجهزة الحكومية وغير الحكومية إضافة الى الركود الاقتصادي الذي أثر على العمالة بشكل عام . وحدث مثل هذا الوضع وسط أزمة اقتصادية عالية أدى الى أن يعيش المهاجرون في قلق حاد وخط العودة أو التحرك المعاكس يواجه مشاكل لأن عامل الطرد يواجهونه في بلدان الخليج العربي نتيجة

للظروف التي شرحتها لا يقابله عوامل جذب لا في البلد الأم ولا في بلدان هجرة أخرى . وهذه قضية الهجرة في دول الخليج العربية والتي تحتاج الى دراسات وبحوث تعطي للهجرة الى هذه الدول خصوصية في الابعاد والمضمون .

ان الهجرة المعاكسة التي بدأت ملاحظتها تشكلت جاءت نتيجة عامل اقتصادي مفاجيء وهو الانخفاض الحاد في اسعار البترول في السوق العالمية وقلة الطلب عليه وتخفيض انتاج البترول كل هذه العوامل جاءت بدون تخطيط مسبق لمواجهة هذه النتيجة لم تكن مفاجئة في حد ذاتها وانما توقيتها جاء مفاجيء وبدون أن تكون هناك أية ترتيبات تخطيطية ففي الكويت وهي من الدول الخليجية القليلة التي تنتهج أسلوب التخطيط تعدد أول من تبنى مبدأ الخطط الخمسية والخطط الهيكلية القومية مع كل ما توجه اليها من انتقادات لهذه الخطط . فالكويت بهذا الوضع المتقدم نسبيا بين دول الخليج العربية صممت قبل شهور قليلة من الانهيار المفاجيء لأسعار النفط والتقيّد الحاد في سوق الخططة الخمسية الثالثة . كانت الخططة تحمل أحد أهدافها الرئيسية وهو هدف الوصول الى التوازن السكاني بين المواطنين والوافدين . وقد واجهت الخططة انتقادات كثيرة أهمها ما ينصب على صعوبة تنفيذ الهدف مع وجود العنصر الكيرى التي تتمثل بوجود أقلية حادة في العمالة الكويتية وهي نسبة تصل الى ٢٠٪ من جملة العمالة في البلاد عام ١٩٨٥ .

لكانت المفاجأة بعد شهور قليلة أن اضطرت الدولة دون الالتفات الى معدلات هذه الخططة الى تخفيض الميزانية بحدود ١٥٪ وكان معظم التخفيض يتركز على اخراج نسبة من العمالة من القطاع الحكومي وقد سبقتها مؤسسات القطاع الخاص بمبادرات واسعة في الاستغناء عن عمالها غير الكويتية .

لقد أشرنا قبل قليل الى أن قضية المردود المادي أصبحت مسألة عامة في المنطقة (الدول العربية اضافة الى ايران والهند وباكستان وبنغلاديش) ففي حالة القطاع الخاص عندما أعطى العاملون خيارا بين البقاء مع تخفيض أجورهم أو ترك العمل وهذا يعني وحسب قانون الإقامة مغادرة البلاد فقد اختارت الغالبية منهم الخيار الأول* .

وقد صاحب هذه الأزمة الاقتصادية انخفاضاً في تدفق العمالة المهاجرة ففي الكويت كان انخفاض في اصدار رخص العمل في الفترة ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٤ بحوالي ٢٩,٨٪ وكان الانخفاض هذا قد بدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٣ ، وبلغ هذا التأثير السلبي في اصدار رخص العمل أوجه في عام ١٩٨٤ ، فكان تغييرا حادا وصل الى ٥٤,٢٪ في اصدار الرخص الجديدة . ولم يقتصر الأمر على انخفاض عدد القادمين الجدد وانما في ترك العمالة المهاجرة للعمل في الكويت ، فقد ازداد عدد الرخص الملغية من ٣,٣٤٨ رخصة عام ١٩٧٧ الى ٥٤,٥٦٧ رخصة ملغية عام ١٩٨٤ (٢٥)

ان الوضع المفاجيء يدل على أن حدوث هجرة معاكسة يحدث خلافا في التوازن الاقتصادي والاجتماعي . وبأجل هذا بعدا أعمق عندما يحدث هذا في بلدان تعتمد فيه المشاريع على السكان المهاجرين وتشكل القوة الشرائية وزنا ملحوظا في القوة الشرائية العامة .

* استطلاع قام به الباحث من طريق زيارة بعض الشركات والمؤسسات .

Secombe, J. I., "Economic Recession and International Labour Migration", The Arab Gulf Journal, Vol. 6, No. 1 (٢٥) April 1986, P. 47.

في منطقة الخليج العربية تشكل الهجرة هماً من هموم الدول فالمهاجرون يشكلون الأغلبية وأصبحوا محركاً رئيسياً في تدوير العجلة الاقتصادية ان الجدول التالي يوضح لنا ذلك ، فالعمالة المهاجرة تشكل أغلبية الدول الخليجية . وهذا يجعل لهم دوراً في ادارة العجلة الاقتصادية ومحركاتها . وتصل هذه النسبة أعلاها في دولة الامارات العربية المتحدة فتصل نسبة المهاجرين الى أكثر من ٧٥٪ وأدناها في سلطنة عمان وكانت النسبة ٣٠٪ عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٢)

السكان في دول الخليج العربية وطينون ومهاجرون

الدولة	السنة	اجمالي السكان	العدد	المهاجرون (نسبة المهاجرين الى اجمالي السكان
الكويت*	١٩٨٥	١,٦٩٥,١٢٨	١٠١٥,٥٢٧	٦٠
البحرين	١٩٨١	٣٥٨,٨٥٧	١١٦,٢٦١	٣٢,٤
قطر	١٩٨٠	٢٦٠,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	٦٧,٣
الامارات العربية المتحدة	١٩٨٠	١,٠٤٣,٢٢٥	٧٨٠,٠٠٠	٧٥,٠
سلطنة عمان	١٩٨٠	٩٠٠,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠	٣٠,٠
الاجمالي		٤,٢٥٧,٢١٠	٢,٣٥٦,٧٨٨	٥٤,٥

المصدر - حسن حياط ، الرصد السكاني لدول الخليج العربية ، مركز الوثائق والدراسات الاسلامية ، جامعة قطر ١٩٨٢ ، جدول رقم ٢٣ .

ان المهاجرين يمثلون تركيبة سكانية تعكس تماماً اهداف الهجرة الى هذه المنطقة ولذلك فان نسبة المجموعة النشطة اقتصادياً عالية جداً بينهم كما ان هذه المجموعة تشكل الأغلبية بين القوى العاملة في الدول الخليجية والجدول رقم (٣) يوضح ذلك ويعطي صورة صادقة للبنية السكانية التي تتميز شكلاً لمضمون الهجرة .

ان دور العمالة المهاجرة لا يقتصر على الكم الاجمالي كما انها لا تقتصر ايضا على الكم الخاص في القطاعات الاقتصادية المختلفة وانما على مدى مساهمة هذه العمالة في النشاط الاقتصادي وايضا على دورها في القطاعات المهنية المختلفة التي تشكل دعائم وطيدة لواقع يقوم بعدم سهولة قيام المواطنين بدور رئيسي في هذه المحاولات في مستقبل قريب . كما يؤكد على الأوضاع الصعبة التي ستعيشها هذه الدول في حالة حدوث هجرة معاكسة على نطاق واسع . فالعمالة المهاجرة تساهم بدور رئيسي في كل قسم من اقسام النشاط الاقتصادي ويشكل اغلبية في قطاعات رئيسية ويشكل اغلبية - ايضاً - في المدن العالية المستوى . ويوضح لنا الجدول رقم (٤) هذا الدور كما ان الجدول رقم (٥) يوضح لنا أهمية دور العمالة المهاجرة في تقديم اداء عال المستوى في المدن العالية والتي تحتاج لها هذه الدول لمدة طويلة على اساس الواقع الحالي .

ان دول الخليج العربية كانت تنتظر بتقؤل غريب ، رغم القلق الذي يسود عامة الناس فيها من جراء الاوضاع الاقتصادية ودور الهجرة ، هذه الدول كانت تنظر بتقؤل على اساس التطور المستقبلي لدور النفط وبخاصة الاحتياطي منه دون التعمق في التعامل مع اللعبة السياسية والاقتصادية العالمية ، فكانت زيادة اسعار البترول القياسية في بداية السبعينات البساط السحري الذي خلق في هذه الدول فوق واقع الحقيقة المرة التي واجهتها في بداية الثمانينات . ان هذا قد ارتبط بالهجرة وباستمراريتها وتزايدها ولذلك نجد مثلا ان عدد المهاجرين مثلا ^(٢١) في الكويت ازداد ما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٥ بحوالي ١٣١٤٨٣ نسمة اي بمعدل ثمسوني يعادل ٥,٩٪ وبين ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، ازداد عدد السكان المهاجرين في الكويت بحوالي ١٣, ١٩١ نسمة اي بمعدل ثمسوني يعادل ٧,٨٪ فبعد الزيادة الكبيرة في اسعار النفط في السبعينات ضخت اموال هائلة في السوق لتمويل المشاريع الكبرى مثل الطرق السريعة والجسور والجمعيات الكبيرة مما ادى الى الحاجة الماثلة للقوى العاملة الجديدة لقد دخلت عمالة مهاجرة في السوق الكويتية ما بين ١٩٧٥ - ١٩٨٠ تقدر بحوالي ١٦٣٨٧٦ عاملا وكذلك دخل في السوق الكويتية حوالي ، ١٠٥٣٢٠ عاملا ما بين ١٩٨٠ - ١٩٨٥ وهذا يؤكد زيادة في اسعار البترول وازدياد عوائد البترول الكويتية .

في الكويت يعتمد المستثمر الكويتي على ما يصفه المهاجرون في السوق الكويتية والتي تقدر بحوالي ٤٨٥,٧٦٠,٠٠٠* .

ان هذا التعامل بين المهاجرين والاقتصاد الكويتي يجعل للمهاجرين دورا كبيرا كما يوضح لنا هذا دور الهجرة في البناء السكاني والاجتماعي .

جدول رقم (٣)

دور السكان النشيطين اقتصاديا في البناء السكاني في دول الخليج العربية (السنة) ١٩٨٠

الدولة	المواطنون (بالآلف)		الوافدون (بالآلف)		اجمالي السكان والعمالة (بالآلف)	
	السكان	العمالة %	السكان	العمالة %	السكان	العمالة %
الكويت	٥٦٢	١٠٩,٢	١٩,٤	٧٩٣,٨	٣٧٨,٧	٤٧,٧
البحرين	٢٤٢,٦	٤٦,٨	١٩,٤	١١٦,٠	٧٠,٢	٦٠,٥
قطر	٨٥,١	٢٠,٢	٢٢,٤	١٧٥,٠	٩٨,٨	٥٥,٣
الإمارات						
العربية المتحدة	٢٢٩,٠	٧٧,١	٢٦,٤	٨١١,٠	٤٦٧,٢	٥٨,٢
سلطنة عمان	٦٣٠,٠	١٢٦,٠	٢٠,١	٢٧٠,٠	١٤٧,١	٥٤,٤
الإجمالي	١,٧٤٨,٦	٣٧٩,٣	٢٠,٩	٢,١٦٥,٨	١,١٦٢,٠	٥٤,٣

المصدر - حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٣٥ .

(٢١) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ - الكويت .

٥ بعد هذا الاستنتاج على نتائج بحث ميزانية الأسرة الذي قامت به وزارة التخطيط ١٩٧٩ والذي اعتمد على عينة بحجم ١١١٣ أسرة غير كويتية . حيث توصل البحث الى ان متوسط ائق الأسرة غير الكويتية الشهري يصل الى حوالي ٣٨ دينار كويتي وقد كان عدد الأسر غير الكويتية حوالي ١١٠,٠٠٠ أسرة .

جدول رقم (٤)

مساهمة العمالة الوالدة في القطاعات الاقتصادية المختلفة في بعض دول الخليج العربية

القطاع	* الكويت ١٩٨٠	البحرين ١٩٧٦	الإمارات ١٩٧٥	قطر ١٩٧٩
الزراعة والصيد	٥٧	٣٠,٢	٥٢,٩	٥٢,٩
التعدين	٦٤	—	٨٦,٤	٨٨,٧
الصناعة	٩٢,٣	٢٩,١	٩٠,٠	—
كهرباء ماء غاز	٧٤,٧	١٢,٥	٩٧,٥	—
البناء والتشييد	٩٨,٧	٤٨,٧	٩٠	٩٧,٥
التجارة	٩٢,٢	٣٨,١	٨٢,٢	٩٠,٠
نقل بحري ومواصلات	٧٤, -	٣٦	٨٦,٥	٨٣,٠
خدمات	٦٦,٤	٣٦,٨	٧٢,٥	٧٥,١
الاجمالي	٧٨,٦	٣٧,٦	٨٦,٩	٨٣,٠

المصدر : حسن خياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٤٤ .

* المجموعه الاحصائية السنوية ، ١٩٨٣ ، جدول ١٠٤

جدول رقم (٥)
العمالة المحلية والمهاجرة في الكويت والبحرين
موزعة حسب المستوى المهني

المجموع	الكويت*				المستوى المهني
	مهاجر	بحريني	مهاجر	كويتي	
١٠٠٪	٨١,٩	١٨,١	٤,٣	١,٢	وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في ميادين العلوم
١٠٠٪	٥٣,٨	٤٦,٢	٢,١	٥,٩	وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في التجارة والآداب
١٠٠٪	٣٥,٥	٦٤,٥	١٢,١	١١,٨	وظائف فنية تتطلب الدراسة الثانوية أو التدريب الفني
١٠٠٪	١٩,٨	٨٠,٢	١٨,١	٢٤,٥	عاملون مهرة وأنصاف مهرة في الوظائف الإدارية
١٠٠٪	٤٠,٠	٦٠,٠	٢٩,٤	١٢,-	عاملون غير مهرة وأنصاف مهرة في الوظائف اليدوية
١٠٠٪	٤٣,٠	٥٧,-	٣٤,-	٤٤,٦	وظائف غير فنية
			١٠٠,٠	١٠٠,٠	المجموع

* نسبة كل مستوى الى الأجمالي .

** نسبة عمالة العمالة المهاجرة والوطنية الى كل مستوى .

المصدر : المجلس القطري ، خصائص النمو الحضري في دول الخليج العربي ، شركة كاتلة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٥ جدول رقم ١٣

فالمهجرة في الكويت كما هي الحال في دول الخليج العربية الأخرى هي حصيلة الحاجة الملحة للقوى العاملة لتقوم بدور اوجدته لهم مشاريع طموحة تعادل طموح شعوب هذه الدول في أن يستفيدوا من عوائد النفط في استثمار خديمي تشابكت فيه مصالحهم مع مصالح المهاجرين ، فأصبحت الهجرة قضية عضوية في بنية هذه الدول اجتماعيا واقتصاديا ، سيكون فض هذا التشابك ليس بالأمر الهين . وبخاصة وأن قضية النفط في هذه الدول امتدت لتتعلق مع قضايا اقتصادية واجتماعية في الدول الام لؤلاء المهاجرين حيث يستخلص الدكتور سعد الدين ابراهيم ان للبتترول دورا سلبيا أكثر مما هو ايجابي على مستوى النسيج الاجتماعي والاقتصادي لمصر حيث يوجد لها أكثر من أربعة ملايين مهاجر اذا أخذنا بعين الاعتبار المهاجرين المصريين في العراق . (٧٧) ومع كل هذا التشابك فالمهجرة الى دول الخليج

العربية تتصف بانها هجرة محطات وليست مناطق استقرار او كما تسعى احيانا بلدان المهجر ولكنهم تطول لبعض المجموعات وتقتصر لآخرى . وبذلك فالمهاجرون في الكويت يطلق عليهم بالوافدين على اساس انهم وفدوا الى هذه الدول لفترة معينة يعودون بعدها الى اوطانهم او الى جهات اخرى ولذلك فإن معظم هؤلاء المهاجرين لم يقطعوا علاقاتهم باوطانهم وتتمثل هذه العلاقة بالتحويلات النقدية والعينية التي يقوم بها المهاجرون ، كما ان مدخراتهم في بلدانهم واستثماراتهم تعد مؤشرا على ذلك ومع ذلك فهناك مؤشرات على سلوكيات المهاجر لا الوافد مثل المطالبة المستمرة بإزالة القوانين والأنظمة التي تميز المواطنين عنهم . مثل الفوارق في الاجور ونظام التملك للعقار وحق الانخراط في المدارس والمعاهد والجامعات بشكل مفتوح والشكوى الدائمة من قانون الإقامة وقانون العمل .

نظام التملك يضع قيودا صارمة على تملك المهاجر للعقار في هذه الدول كما ان قانون الإقامة يحتم وجود كفيل او ضامن من المواطنين للمهاجر وتحدد الإقامة مدة اقصاها خمس سنوات تجدد بموافقة الكفيل وهذا يجعل العلاقة معقدة بين المهاجر وبين المواطن الى درجة ان الإقامة أصبحت مدفوعة بمبلغ يجدد هذا الدفع مع كل تجديد للإقامة مع عدم شرعية هذا التعامل .

كما ان قانون العمل لا يتيح للمهاجر العمل الا في ظل شراكة مع المواطن او في ظل ترخيص تجاري باسم المواطن اما اذا كان المهاجر يعمل بإدارة حكومية فان عمله هو الضمان لحصوله على إقامة . يواجه المهاجر مشاكل عديدة في حالة رفضه التخلي عن عمله او في حالة استغناء الإدارة عنه .

اما التعليم فان نسبة قليلة جدا من أبناء المهاجرين يستطيعون الانخراط في المدارس الحكومية كما ان هناك قانونا حدد تاريخا معيناً لتقديم المهاجرين الى البلاد لا يحق له الحاق ابنائه في المدارس الحكومية .^(٢٨) اذا قدم الى البلاد بعد هذا التاريخ .

اما الفوارق في الاجور فانها محل تلمر من قبل المهاجرين حيث انهم يختلفون عن المواطنين في عناصر معينة مثل علاوة طبيعة العمل وعلاوة الأبناء .

ومع ان هذه المؤشرات تعد من العوامل التي تؤثر في استقرار المهاجرين بشكل عام والعمالة بشكل خاص^(٢٩) الا ان هذه الظروف المحيطة بالمهاجرين الى دول الخليج العربية لم تؤثر في استمرارية الهجرة الى دول الخليج العربية وفي نموها المضطرب ، وهذا يفسر لنا انه مع كل هذه الظروف ان دول الخليج العربية ما زالت تمثل منطقة جذب مقارنة بعوامل الطرد التي تتمثل في بلدانهم الام .

ان الجدول رقم (٦) بين ان نمو المهاجرين تطور باستمرار كذلك فان الزيادة الطبيعية للمهاجرين في دول الخليج العربية مؤشر عسلطون فترة الإقامة .

Al-Moosa, A., and Melachian, K. S., "Immigrant Labour in Kuwait, Croom Helm London, 1985.

(٢٨)

Al-Moosa, A., 1986, Vol. 6.

(٢٩)

جداول رقم (٦)

الدولة	١٩٧٠ - ١٩٧٥ معدل النمو السنوي	١٩٧٥ - ١٩٨٠ معدل النمو السنوي
الكويت	٥,٨	٨,٥
البحرين	٩,٠	١٢,٧
قطر	٩,٩	٨,١
الإمارات العربية المتحدة	٢٢,٨	١٠,٢
سلطنة عمان	٢٠,٩	٥,٩
المعدل الإجمالي	١٣,٠	٨,٠

المصدر : حسن غباط ، ١٩٨٢ جداول ٢٤

وعلى كل فإن مدة الإقامة نظراً للتركيبية المتباينة للمهاجرين وعلى أساس الجنسية أو المهنة أو طبيعة العمل (كالخبراء مثلاً) فإن مدة الإقامة تختلف تبعاً لهذه المجموعات ، فقد تبين من الدراسات والأحصاءات^(٣٠) أن إقامة العمال المصريين غير المهرة والعمال من البلاد العربية الأخرى ليست طويلة وتتراوح بين سنة وثلاث سنوات فمتوسط مدة إقامة المهاجر العربي إذا هي خمس سنوات كما أن متوسط إقامة المهاجر الآسيوي في قطاع البناء والتشييد قصيرة وترتبط بالمشروع حسب نظام عقود المقاولات الجديدة . وهذه الخصائص تحد كثيراً من قياس ومفهوم الهجرة المعاكسة إلى دول الخليج العربية . فهذا الاختلاف في مدة الإقامة مع تطور نمو المهاجرين يعني أن هناك عملية إحلال للمهاجرين وبخاصة في قطاع العمال غير المهرة وقطاع عمال البناء والتشييد وكذلك بالنسبة لقطاع المدرسين واساتذة الجامعة والمعاهد والذين يرتبط عملهم بعقود محددة مبدئية . ولذلك فالمهجرة إلى دول الخليج العربية تسير في طريق ذات علة اتجاهات ويجب أن توضع شيئاً مهماً في قضية الهجرة إلى الدول الخليجية وهي التعامل مع مجموعة من المهاجرين بشكل منفرد وهي المجموعة الفلسطينية ، فالفلسطينيون في هذه الدول كما في دول أخرى لهم أوضاع خاصة بهم نظراً لقضيةهم السياسية وحالتهم الاستثنائية التي تميزهم عن غيرهم من المهاجرين بجميع الخصائص الاجتماعية والاقتصادية .

فالفلسطينيون يختلفون عن المهاجرين بمدة الإقامة ، وكذلك في خصائصهم الاجتماعية مثل متوسط حجم الأسرة والخصوبة والأعالة والزيادة الطبيعية . وتلعب الخصائص الاقتصادية مثل الانفاق والأدخار والتحويلات النقدية دوراً في الاختلاف بين المهاجرين ، ولذلك فإن المهاجرين إلى دول الخليج العربية يتميزون باتجاهات مختلفة بحسب المجموعات الجنسية وهذا من خصائص الهجرة بشكل عام . فكيف هو معروف أن أسباب وعوامل الهجرة متعددة وكذلك سمات الهجرة تعتمد وملازماتها تتمايز من المستوى الفردي إلى المستوى الجماعي ولكن الشيء الذي يميز الهجرة إلى دول

(٣٠) عبد الرسول علي الريس ، قضايا في التنمية ، شركة كاتلمة للنشر والفرجة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ١٠ - ٦١ .

الخليج العربية هو التعدد الهائل لجنسيات المهاجرين والذين يصلون مثلاً في الكويت الى أكثر من مائة جنسية تتعدد مصادرها الجغرافية من المناطق الحدودية مثل العراق وإيران والسعودية الى أقصى مناطق الأرض مثل الفلبين واليابان والولايات المتحدة الأمريكية ويتبع هذه التعددية في الجنسية تعددية في اللغات والثقافات والمعادن والقيم ومستوى الانتماء والتجاهلات تطورها .

أضافة الى التفوق العددي الاجمالي للمهاجرين على عدد السكان المحليين . وهذا بحد ذاته يشكل عاملاً مهماً في عملية التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي مما يفرض على السكان المحليين ان يتعاملوا مع هذه التعددية الهائلة في كل العناصر التي ذكرناها . فلانسان عندما يسير في الشارع في هذه الدول ، يلاحظ بشكل واضح الاقلية في الزي الوطني واللهجة التي يسمعا . ويلفت نظره المحلات التي تعرض أحدث المبتكرات وانواع الضاعة الجديدة قبل ان تصل الى بلدان اقرب لها جغرافياً كما يلاحظ المرء تغيراً سريعاً في دول الخليج العربية ، من المطاعم التي تقدم الوجبات السريعة الى الازياء التي تعرض في ارقى عواصم العوالم .

اما من ناحية المواد الغذائية فإن المحلات في دول الخليج العربية تقدم كل المواد الغذائية التي تخطر على بال الانسان .

كل هذا يجده المرء مرتبطاً بالهجرة والنقط . فدول الخليج العربية لم تفتح ابوابها واسعة على العالم الخارجي الا منذ ما يقارب ثلاثين سنة بمقارنة بما قبله من حياة بسيطة تسيطر عليها تقاليد المجتمع المنغلق على نفسه والذي يعيش على بقعة صغيرة من الأرض تعاني مياه خليج صغير لا يشترك به مع دول اجنبية غير واحدة وهي ايران .

كذلك ادت هذه التعددية الهائلة في كل العناصر المذكورة الى بروز قضايا اجتماعية واقتصادية ، فهناك العزلة الاجتماعية بين السكان المحليين والمهاجرين^(٣١) وعزلة اجتماعية بين المجموعات المختلفة للمهاجرين وقد ادت هذه التعددية في العناصر ايضا الى ممارسات سلبية في العمل يتميز بالتعامل المتأثر بالجنسية^(٣٢) ففي مؤتمر صحفي لوزير الصحة الكويتي اشار الى ان الاطباء يعاملون المهاجرين من جنسيتهم معاملة خاصة وبذلك فقد برزت ظاهرة سلبية من ظواهر الهجرة وهي التمييز الجنسي في التعامل واذا كانت هذه القضية قد طرحت عن طريق مسئول كبير في إحدى دول الخليج العربية فلا يمكن ان نعتبرها قضية فردية او انها تقتصر على التعامل التمييزي بين الاطباء فقط ، ان القضية التي يطرحها المهاجرون بشكل عام في دول الخليج العربية هي التعامل المميز للمواطنين والذي زاد من حوة العزلة الاجتماعية وحتى في ايسر قضايا التعامل مثل اخلاء مبنى استملكته الدولة ، فالجهات الرسمية تعطي المواطن مهلة ثلاثة شهور لاختلاء المبنى بينما المهاجر يحصل على مهلة شهر واحد فقط . وكذلك بالنسبة للحصول على اجازة قيادة سيارة فان هناك قيوداً كثيرة على حصول المهاجر على هذه الاجازة بينما ليست كذلك بالنسبة للمواطن .

لذا فعملية الاستيعاب الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين في هذه الدول غير ممكنة نظراً للاسباب التي ذكرناها قبل قليل كما ان هناك عوامل أخرى تجعل من عملية الاستيعاب غير ممكنة ايضا نظراً لنفس الاسباب فمع ان الغالبية الكبرى من المهاجرين هم من العرب الا ان التأثير المباشر للمهاجرين الاجانب هو أكثر وضوحاً فعندما نعرف ان

(٣١) فيصل السالم واحد الظفر ، العقدة في دول الخليج العربية ، هت السلاسل الكويت ، بدون تاريخ ، ص ١٢٨

(٣٢) في مجلة صحفية لوزير الصحة الكويتي ، نشرت في الصحف المحلية .

متوسط عدد الخدم في الأسرة الكويتية هي ٢,٥ خادماً (٣٣) وإذا ما عرفنا أن الأغلبية المطلقة بين هؤلاء الخدم هم من غير العرب فلنا أن نعرف مدى التأثير الاجتماعي الذي يحدث للمجتمع المحلي وبخاصة على الأطفال. فقد لاحظت دراسة عن المربيان في الكويت على الأطفال أن دور المربية دور سلبي في تأثيره على طريقة التعامل واللغة والعادات، ويكفي أن نعرف أن المربية التي لا تتقن اللغة العربية وتعمل عادات وقبائل مختلفة تماماً عن تلك التي تنتمي للمجتمع المحلي. يكفي أن نعرف أنها تطعم الطفل وتنام معه وتحضنه طوال الوقت لتعرف عمق المشكلة. إذا فخصائص الهجرة إلى هذه الدول لا تسمح إلا لتلويب الملامح المختلفة للمجتمع المحلي وإيجاد خليط من الملامح من الصعب إعطاء مجموعة من المهاجرين دوراً رئيساً فيها وإذا جاز لنا أن نقول هذا فإنه في ضوء جغرافية الكويت الطبيعية فإنها لا تسمح بتشكيل منفرد لشخصية مجتمع (إقليمي) ولنا أن يترك للمستقبل أن يقرر على ضوء المعطيات التي سوف يترسخ في رسم الشخصية المستقبلية لهذا المجتمع. وهذا يعتمد على مدى استمرارية الهجرة وقوة الدفع فيها وخصائصها التي ذكرناها. وإذا كانت للقوانين المختلفة، مثل قانون الجنسية وقانون التملك وقانون الانتخابات النيابية وقانون الانتخابات للمؤسسات الأخرى، أن القدرة على حفظ الهوية القومية للمجتمع المحلي، فإن احتكاك مجموعات متعددة من المهاجرين مع المجموعة المحلية في مجالات متعددة إضافة إلى التعامل اليومي المستمر لا يمكن إلا أن يحدث تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية في كل المجموعات المختلفة. وفي النهاية لا نذكر عملاً آخر في موضوع الهجرة إلى دول الخليج العربية وهو أن ما يشار في الأدبيات التي تتعلق بالتنمية وهو موضوع الساعة في الربع الأخير من القرن العشرين. وهو التركيز على قضية التنمية الذاتية، أي التنمية التي تعتمد على القدرات الذاتية للمجتمع والدولة. ولقد أثار المعهد العربي للتخطيط في الكويت هذا الموضوع في موسمه الثاني ١٩٨٦/٨٥ عندما خصصه لدعوة عن التنمية العربية المعتمدة على الذات والتي أكد فيها الباحثون على هذه الدعوة على هدف واحد وهو أن التنمية المعتمدة على الذات هي الطريق المأمون للوصول إلى تنمية قادرة على الاستمرار بعيدة عن المفزات والتي تأتي في مقدمتها استقرار العمالة وتفاعلها في عملية التنمية.

ودول الخليج العربية تواجه هذا المأزق الذي يتمثل في أن المتوسط (٦٠٪) من قواها العاملة والتي تتحمل عبء عملية التنمية هي من غير المواطنين. وإن الأهمية في عملية التنمية تكمن في استمرارية عناصر التنمية وتطويرها المستمر ورفع أداء العاملين فيها والتطوير المستمر للانتاجية، وهذا مما لا يتوفر في هذه الدول فهي خضعت لعملية التفتش التي تمر بها دول الخليج العربية نتيجة لانخفاض الحداد في أسعار النفط والذي تبعه انخفاض حاد في عوائده وبالتالي أيضاً في مداخيل هذه الدول وقد انتهت أعمال مجموعة من العاملين في أجهزة الدول من المهاجرين الذين أمضوا مدة طويلة، وبالتالي فإن قضية الاستثمار والاستفادة من تطوير الأداء لهذه العمالة غير ممكن في ضوء المفزات التي يتعرض لها سوق العمل في دول الخليج العربية.

وبالخلاصة في هذا القول أن الهجرة إلى دول الخليج العربية تتميز عن غيرها من المفزات بأنها وفي ظل الظروف التي ذكرناها تشكل عموداً رئيسياً في عملية البناء الاقتصادي، وفي استمرارية هذا البناء في مستوى يحفظ لهذه الدول مستوى مستقراً واضعاً قوى الارتباط بينه وبين النفط وعوائده المتزامن للمهاجرين.

كما ان الهجرة الى هذه الدول بزخها وحجمها اشتركت مع المجتمع المحلي في عملية النسيج الاجتماعي والاقتصادي لهذه الدول ولذلك فان قضية الهجرة الى هذه الدول اضافة الى اهميته وجاذبيته للباحث فانه معقد وخطير لهذا المجتمع الصغير .

دول المغرب العربي :

دول المغرب العربي تمثل حالة نقيضة لحالة الدول العربية الخليجية فقد اوضحت الدراسة ان دول الخليج العربية تمثل دولا مستقبلية للهجرة دولا فتحت ابوابها لهجرة معقدة دولا تمثل محطة استقبال للمهاجرين ، سئرى في هذه الدراسة ان دول المغرب العربي تمثل محطة ارسال للمهاجرين فهاتان المنطقتان العربيتان تلعبان في الهجرة دورا كدورها في الجغرافيا فدول الخليج العربية تقع في اقصى جنوب غرب الوطن العربي تطل على خليج ضيق يتصف بقسوة البيئة الطبيعية ، قست عليها البيئة الطبيعية في المناخ والسطح والجيولوجيا ، فكانت فقيرة في السكان ، فقيرة في الموارد الطبيعية في باطن الارض عدا النفط الذي اعلن عن مولده متأخرا - اي في نهاية الثلاثينات - فقيرة ايضا في عطائها النباتي واخيرا فقيرة في مواردها المائية الساقطة والجارية والمخزنة .

اما دول المغرب العربي فهي تقع في اقليم مناخي معتدل وهو مناخ البحر المتوسط تطل على بحر يجمع حضارات وثقافات واقتصاديات غنية مختلفة تتمتع نسبة الى دول الخليج العربية بغطاء نباتي غني وتستغل اطرافها غزيرة تحفظ اخضرار الارض وتحتضن عددا من السكان قاموا بدور اقتصادي نشط على اراضيها او عبر حدودها وتحفظ هذه الارض في باطنها بمصادر اقتصادية تعضد اقتصاديات هذه الدول كالفوسفات في المملكة المغربية والفحم والحديد والنفط في الجزائر .

الا ان كل ما قلناه عن المغرب العربي يدخل في العموميات وليس المجال متاحا للدخول بشكل مفصل في جغرافية هذه المنطقة . ويمكن القول ان فترة الاستعمار الطويلة التي تعرضت لها هذه الدول تسببت بشكل رئيسي في تنمية هذه الدول وتطوير مواردها وتأمين قواها الاقتصادية والبشرية . فتوجيه اقتصاديات هذه الدول لخدمة الدول المستعمرة ادى الى سيطرة قطاع الزراعة على بقية القطاعات وتطورت العلاقة الاستعمارية لتصبح على عكس الخط في كلتا الحالتين لمصلحة الدول المستعمرة فالدول المستعمرة وفي مقدمتها فرنسا التي احتلت الجزائر مائة وثلاثين سنة ، استغلت الموارد البشرية لدول المغرب العربي على ارضها ومن هنا اصحت هناك قضية بين دول المغرب العربي والدول الاوروبية الاستعمارية مثل إيطاليا وفرنسا واسبانيا حتى بعد الاستقلال وهي قضية الهجرة ، فقضية الهجرة في دول المغرب العربي ارتبطت بعامل جغرافي هو عامل تاريخي ، وهنا تبرز لنا المقولة التي تتبدأها الجدول بين الجغرافيين وطلاب التاريخ حيث للجغرافيين دائما مقولة مفادها ان الجغرافيا توجه التاريخ ، فملاقة المغرب العربي بدول جنوب اوروبا علاقة جغرافية وهي التي ادت الى احتلال واستعمار بعض الدول الاوروبية لدول المغرب العربي الى درجة ان فرنسا كانت تعتبر الجزائر جزءا منها ولم تتخلص من ذلك الا بثورة مسلحة شعبية استمرت سبع سنوات .

وهجرة سكان المغرب العربي الى اوروبا هي هجرة وراء فرص العمل بعد ان دفعتهم سيطرة الاوروبيين على الاراضي المحيطة الى الهجرة والى المناطق الفقيرة او الصحراوية وبالتالي بدأوا يبحثون عن الرزق خارج حدود ارضهم ونظرا لطبيعة العلاقة السياسية والاقتصادية مع اوروبا كدول مستعمرة تمكن هؤلاء المهاجرون من الاختلاط بهم واتقان

اللغات الاوروية . وقد دخلت عوامل متعددة في عمل المغاربة في اوربوا قبل ويام الحرب العالمية الأولى والثانية . واهم هذه العوامل حاجة هذه الدول للعمل في سد احتياجات الحرب^(٣٤) في عام ١٩٨٠ كان عدد الملاك من المغرب العربي (تونس .. الجزائر - المملكة المغربية) يقدر بحوالي ملون عامل بينهم ٩١٠.٠٠٠ في فرنسا ، ويقدر عدد المهاجرين من المغرب العربي في فرنسا مليون وخمسمائة الف نسمة (جدول رقم ٧) .

جدول رقم (٧)

المهاجرون من المغرب العربي في اوربوا عام ١٩٨٠

جملة المهاجرين في فرنسا	مجموع العمال في فرنسا	مجموع العمال في اوربوا	
١.٠١٥.٠٠٠	٦٨٠.٠٠٠	٦٩٠.٠٠٠	الحزائريون
٣٠٠.٠٠٠	١٥٠.٠٠٠	٢٣٠.٠٠٠	التونسيون
٢٥٠.٠٠٠	٨٠.٠٠٠	٩٠.٠٠٠	المملكة المغربية
١.٥٢٠.٠٠٠	٩١٠.٠٠٠	١.٠١٠.٠٠٠	جملة

المصدر : Lawless, R., 1982, table no. 1

ويشكل مهاجرو المغرب العربي ٩٨٪ من جملة المهاجرين العرب في فرنسا وخارج فرنسا كما يوجد حوالي ٨٠.٠٠٠ مغربي في بلجيكا و ٥٠.٠٠٠ مغربي ايضا في اسبانيا .

ان الذي يهتما في دراستنا هذه عن المغرب هو الهجرة المعاكسة اي عودة ابناء المغرب الى الدول الثلاث التي ذكرناها الى وطنهم وتشكل هذه الهجرة المعاكسة هما من هموم دول المغرب العربي على اساس ان هؤلاء المهاجرين كانوا يساهمون في نمو بلادهم في الدخل القومي ، واهم من هذا هو الحد من البطالة التي تعانيها هذه الدول والتي تحاول جاهدة خلق فرص عمل وسط صعوبات اقتصادية وان اكثر الدول معاناة من هذه القضية هي تونس حتى ان قضية الهجرة فيها تدخل ضمن اهتمامات الخطط الاثمانية فمثلا في الخطة الخمسية الاثمانية الرابعة ، تضمنت الخطة تشجيع الهجرة الى الخارج ، ويقدر عدد المهاجرين في هذا المشروع بحوالي ٦٠٠.٠٠٠ مهاجر ، وقد انشئت وكالة تونسية لتنظيم هجرة هؤلاء العمال وإيجاد فرص عمل لهم قبل مغادرتهم^(٣٥) . وقد قدر عدد الذين عادوا والمقدر عودتهم حوالي ٢٠.٠٠٠ نسمة . لقد تزامنت عدة عوامل للعمل معا على خلق مشكلة الهجرة المعاكسة ، فهناك الازمة الاقتصادية التي تواجه العالم ومنها اوربوا والتي اضطرتها الى تقلبص عدد العمال وبخاصة في القطاعات المتقدمة في السلم المهني والتي يتركز فيها العمال المغاربة كما ان دخول اسبانيا والبرتغال السوق الاوروية المشتركة احدث توجهها عند الاوروبيين بتشغيل عمالها الاوروية قبل كل شيء . كما ان قبول العمال المغاربة بأجور متدنية عن تلك التي تقبل بها الاوروبيون ادى الى قلاقل ومشاكل بين العمال المغاربة والاوروبيين .

Lawless, R. and others "Return Migration to the Maghrib : People and Policies", Arab Research Centre, London, (٢٠١) Paper No. 10, 1982, P. O.

Ibid, 1982, P. 13.

وقد يمزى وقف الهجرة المغربية الى اوروبا وخاصة فرنسا ، بل والمطالبة بعودة المهاجرين الى زيادة اسعار البطول في منتصف السبعينات ، هذه الزيادة اثرت على الاقتصاد الاوروي وعلى فرص العمل وادت الى خروج عدد من المؤسسات الاقتصادية من السوق وزادت البطالة في اوروبا^(٣٦) . وقد اتخذت فرنسا قرارا بوقف الهجرة عام ١٩٧٤ م . ولذلك تأثرت الهجرة المغربية وبدأت تظهر مجموعة من المشاكل .

ولقد تعرضت العمالة المهاجرة المغربية للبطالة ، فقد تعرض ١٤٪ من العمالة المهاجرة للبطالة في حين كانت النسبة التي تعرضت للبطالة بين الفرنسيين ٤ ، ٨٪ وكانت العمالة الجزائرية من بين العمالة الاجنبية التي تعرضت بشدة للبطالة حيث تعرض ٩ ، ٢١٪ من عمالها للبطالة^(٣٧) .

كل هذا ادى الى اثاره مشكلة المهاجرين المغاربة وبرزت مشكلة الهجرة المعاكسة والتي كانت اول خطوة قامت بها الجزائر هي وقف الهجرة من الجزائر الى اوروبا . وقررت الجزائر منذ ذلك الحين البدء في خطة لاستيعاب المهاجرين الجزائريين في المجتمع الام . واشراكهم في ادارة المعجلة الاقتصادية في الجزائر ، ومع كل المحاولات في معالجة هذا الامر من طريق عقد اتفاقيات بين الجزائر وفرنسا لتنظيم عملية الهجرة الا ان عملية الهجرة المعاكسة أصبحت مستمرة بعد ان صدرت قوانين وانظمة في فرنسا تحد كثيرا من مميزات كان يستفيد منها المهاجر الجزائري . لقد كانت الحملة الموجهة ضد المهاجرين الجزائريين او المغاربة بشكل عام ذات شقين ، الشق الاول هو تضيق الخناق على المهاجرين المغاربة والشق الثاني ترغيب العمال الفرنسيين في الانخراط في المهن التي يشغلها المغاربة والتي كان يرفضها الأوروبيون . ان كل المؤشرات تؤكد على تصميم الدول الاوروبية على وقف الهجرة اليها ونعرض هنا بعض قوانين الإقامة في فرنسا^(٣٨) ففي هذه القوانين شروط تقضي بالطرد الفوري للاجنبي في الحالات التالية :-

١ - عندما يهدد وجوده الامن العام والمالية العمومية .

٢ - عندما يحمل بطاقة اقامة مزورة او مزيفة او مشوهة او موضوعة باسم آخر غير اسمه ، او يملك داخل البلاد بعد رفض السلطات المسئولة تحديد اقامته ، ويشمل مشاريع القوانين هذه تجديد بطاقات العمل للمقيمين بصفة عادية وذلك بعد اجراء اختبار شخصي على ضوء حالته الفردية والتوزيع الجغرافي للمهاجرين والذي يتحدد سنويا تبعا لوضع الاستخدام واخيرا هناك حالاتان تستوجب سحب رخصة العمل من العامل المهاجر ، وهما :

١ - عندما يكون الاجنبي عاطلا عن العمل لفترة تزيد عن ستة اشهر .

٢ - عندما يلغى عقد عمله بسبب رجوعه متأخرا من اجازته

(٣٦) Ibid. 1982, P. 17.

(٣٧) Serggeldin, I., and others, "some issues related to Labour Migration in the Middle East and North Africa", The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4, P. 615

(٣٨) Mered, weekley Magazine, London, February 1986, P. 10.

بل أكثر من ذلك فقد قامت فرنسا بتقديم مشاريع لمساعدة المهاجرين على العودة لأوطانهم وعرضتهم للبطالة حتى يتاح لها فرص تطبيق القوانين الجديدة .

ان هذه الاجراءات وهذا الدافع لهجرة معاكسة عرض دول المغرب العربي لمشكلات اقتصادية في الوقت الذي تعاني من ازدياد البطالة وانخفاض فرص العمل . ان معظم المهاجرين من دول المغرب العربي الى اوروبا والذين غادروا اوروبا او يخططون لذلك يتجهون الى بلدهم الامم وليس الى جهة اخرى . وهذا ما يزيد المشكلة تعقيدا بالنسبة لدول المغرب العربية .

تنصف العمالة المغربية في فرنسا بانها تتكون غالبا من العمالة الثنية (اي العمالة العادية) فهي تشكل طبقتي العمالة المهاجرة وغير المهاجرة . بالنسبة للجزائريين فهي تشكل ٧٣٪ وبين المغاربة حوالي ٧٠٪ وبين التونسيين تشكل ٦٨٪ والعمالة المغربية تعمل في الغالب في قطاع البناء والتشييد والصناعات الثقيلة . اما في قطاع الزراعة فهم يشكلون نسبة قليلة جدا بين العمالة المغربية ككل ، وقد كانت نسبة التونسيين العاملين بالزراعة ٣٠٪ والمغاربة ١٣٪ وهي اعلاها اما نسبة الجزائريين فتشكل اقل نسبة وهي ١٪ (٣٩) .

ويشكل مهاجرو المملكة المغربية العمالة الاقل مهارة يعقبها مهاجرو دول المغرب العربي وهؤلاء يمارسون مهنة تعتبر من ادنى السلم المهني . ويعتبرون اقل عددا من مهاجري تونس والجزائر وبذلك فهم لا يشكلون مشكلة بارزة كما في حالة الدولتين المغربيتين الاخرين . اذا فالهجرة لدول المغرب العربي للمعاكسة من اوروبا حدثت وكانها هجرة قسرية او على الاقل تمحكت فيها عوامل الطرد . وليس لمعامل الجذب اي دور فالصراع بين العمالة الاوروبية والمغربية وصل الى حد استخدام العنف ضد المغاربة واصبح المهاجرون المغاربة غير مرغوب فيهم وتزامن هذا العامل مع تشريع قوانين تحد من الهجرة المغربية بل انها تعمل على التخلص منها .

ان عدد التونسيين في فرنسا - هو كما قلنا في البداية - اقل من المهاجرين الجزائريين ، فقد قدر عدد التونسيين المهاجرين الى فرنسا بحوالي ٥٢٠,٠٠٠ عام ١٩٦٥ وقد ارتفع عددهم الى ٩٧٠,٠٠٠ الف عام ١٩٧٠ واستمروا في التزايد الى ان وصل عددهم الى ١٧٤,٠٠٠ الف مهاجر عام ١٩٧٥ ثم بلغ عددهم حوالي ٢٠٠,٠٠٠ الف عام ١٩٧٩ . هذا التزايد لا يميز الى تزايد حركة الهجرة من تونس الى فرنسا فقط وانما يعزى ايضا الى زيادة طبيعية وانضمام الاسر الى عائلها من جهة اخرى ويختلف المهاجرون التونسيون عن باقي مهاجري دول المغرب العربي بان بقائهم في بلد المهجر لا تستمر مدته طويلا وقد قدر متوسط البقاء ما بين ٣ - ٤ سنوات . وفي دراسة عن المهاجرين التونسيين ابدى ٧٧٪ منهم عدم عزمهم على البقاء بشكل دائم في فرنسا (٤٠)

(٣٩) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، ١٩٨٠ ، ص ٨ .

Maced, 1986, P. 10.

(٤٠)

وقد تبين ان السبب في ذلك يعود الى بساطة الاهداف التي يريد ان يحققها المهاجر التونسي مثل بناء بيت او تأسيس عمل خاص في بلده . ومع ذلك فان الحكومة التونسية تتخذ اجراءات من شأنها تخير مواطنيها في البقاء مدة اطول في بلد المهجر ويمثل هذا في القانون الذي صدر عام ١٩٨٠ والذي يسمح للمهاجر التونسي باستيراد بضائع معينة مثل السيارات والتلاجات وغيرها بشرط ان يمضي اكثر من مستين في بلد المهجر كما ان الدولة تساعد في الحصول على مسكن في نفس الشروط . ولقد قدر حجم الهجرة المعاكسة بحوالي ١٪ سنويا من مجموع المهاجرين في فترة معينة وتمثل هذه النسبة بحوالي ٣,٠٠٠ الى ٤,٠٠٠ آلاف عائد سنوي . الا ان الهجرة التونسية على تواضع حجمها واجهت مشكلات لم تواجهها بقية المجرات في دول المغرب العربي ، فبالاضافة الى مواجهته بشكل مشترك مع المهاجرين الجزائريين لمضايقات واجراءات رسمية من قبل السلطات الفرنسية دفعهم للعودة الى بلدهم . نقول ان الهجرة التونسية واجهت مشكلة العودة القوية من ليبيا في عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٦ . وقد عانت تونس من العودة الجماعية او ربما يسمى بالمجرة المعاكسة ، اجتماعيا واقتصاديا فقد واجهت مشكلة ايجاد فرص عمل هؤلاء العائدين وكذلك مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى .

اما في الجزائر فقد بدأت الهجرة المعاكسة عشية استقلال الجزائر ، وقد عاجلت معاهدة الاستقلال والتي سميت باتفاقية ابيان مشكلة الهجرة الجزائرية في فرنسا ولذلك فقد كانت من ضمن اولويات السياسة الداخلية للجزائر المستقلة مواجهة عودة الجزائريين . ان الجزائر وهي التي كانت تجمع شتات نفسها بعد معركة الاستقلال وبعد ان ترك الفرنسيون الاراضي الزراعية والمصانع بدون خطرات تهديدية مع الوطنية الجزائرية اي انهم تركوا الاقتصاد الجزائري في موقف حرج ففي هذا الوقت واجهت الجزائر مشكلات معقدة نتيجة للهجرة المعاكسة ومن هذه المشكلات ان الصناعة الوطنية كانت في مراحلها الاولى ولذلك فان عودة عمالة جزائرية مدربة تدريبا عاليا في مجالات صناعية رفيعة المستوى بالنسبة للصناعة الوليدة بل اصبحت مشكلة بحد ذاتها اضافة الى مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى والبطالة . ولكن القضية بالنسبة للجزائريين كانت ذات بعدين ، البعد الاول وطني على اساس اهمية استعادة الجزائر كقائمة ابنائها في الخارج وكذلك حفاظا على كرامة مواطنيها الذين يتعرضون لمعاملة سيئة والبعد الثاني يتمثل في اتجاه فرنسا وبقية اوروبا للتخلص من المهاجرين الجزائريين . فبالاضافة الى الاجراءات القسرية كانت هناك اتفاقات مع فرنسا تحتم عودة الجزائريين وذلك عن طريق تقديم من فرنسا المساعدات المادية للعائدين وهذا وقد حددت مدة تلك الاتفاقات بثلاث سنوات انتهت عام ١٩٨٣^(١١) وكان هدف الاتفاقية هو عودة ٣٥,٠٠٠ ألف مهاجر جزائري سنويا ولكن ما تحقق بالعمل هو اقل من ذلك فقد انخفض العدد الى حوالي ٢٠,٠٠٠ ألف بمن فيهم من عاد خارج اطار الاتفاقية .

ان معاناة المهاجرين الجزائريين ربما تكون اقصى من تلك المتعلقة بالمهاجرين من بقية دول المغرب العربي ، فالهاجرون الجزائريون امضوا فترة طويلة في فرنسا وتكونت اسر بالكامل عن طريق الزيادة الطبيعية وترعرع الجزائريون هناك منذ ولادتهم وقد ادى هذا الى مشاكل اجتماعية تتمثل بصعوبة الكيف مع الحياة الاجتماعية في الجزائر وطول مدة

Lawless, R., and others, 1982, P. 22.

(١١)

عملية التفاعل والاندماج الاجتماعي اضافة الى المشاكل الاقتصادية الاخرى مثل العمل والاتفاق والادخار . ومع ذلك فان اجراءات معينة اتخذت في الجزائر حيال المهاجرين تتراوح بين التحفيز مثل تسهيل الاستيراد لبعض البضائع وتوفير السكن وفرص العمل للمهاجر العائد الذي امضى ثلاث سنوات في فرنسا وبين فرض صيرية على الدخول في اوروا وتحويلها في المصارف الجزائرية .

اما في حالة المملكة المغربية فان الهجرة لها مميزات تختلف بعض الشيء عن هجرة التونسيين والجزائريين واول ما تتميز به الهجرة المغربية هي انها في الغالب هجرة في اتجاه واحد لفترة طويلة فمعظم المهاجرين من المغرب يعودون بعد ان يصلوا سن التقاعد^(٤٢) وما يميزها ايضا انه لا توجد خطط او برامج حكومية تتعلق بعودة مهاجرين من اوروا ولذلك فليست هناك اجراءات لتحفيز المهاجرين للعودة واقامة مشاريع لاستيعابهم في مجتمع الام والامر الثالث الذي يميز الهجرة المغربية انها تمارس هجرة موسمية في اوروا للعمل في النشاط الزراعي ويقضي هؤلاء المهاجرون كل سنة فترة تقل قليلا عن ثلاثة اشهر وهي الفترة التي يسمح بها للسائح في اوروا ويتراوح عدد المهاجرين الموسمين بين ٥٠,٠٠٠ آلاف و ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر بين ١٩٧٥ و ١٩٧٩ وعلى العموم فيقدر عدد المهاجرين من المغرب الى اوروا بحوالي ٢٣٠,٠٠٠ ألف في فرنسا وحدها وقد ارتفع عدد المهاجرين من المغرب من ١٤٢,٠٠٠ ألف الى ١٥٢,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٧ وعن الهجرة العاكسة من المهاجرين من المغرب قلنا منذ البداية انها ضعيفة ويعود ذلك الى تدني دخول المغاربة في الهجرة بسبب ممارستهم لمهن متدنية وهذا لا يساعدهم على تحقيق اهدافهم التي هاجروا من اجلها ومع ان المهاجرين من المغرب لا يفكرون في البقاء بشكل دائم بالمهاجر الا ان اقامتهم تطول هناك^(٤٣) لعدة سنوات وليس هنا احصاءات عن عدد العائدين من المهاجر الى وطنهم Lawles^(٤٤) ان هناك تعميم على هذه المعلومات الا انه يقول في مكان آخر ان ربما يكون عدد العائدين سنويا حوالي ١٠,٠٠٠ آلاف مهاجر . ويعتمد المغرب على عوائل المهاجرين ومداخلتهم في اقتصاده الوطني وقد قدرت قيمة التحويلات بحوالي ٤٢٨ مليون جنيه استرليني عام ١٩٧٩ الا ان هذه التحويلات لا تستخدم في تمويل الاستثمارات في الانشطة الانتاجية مع عدم اغفال أهمية التحويلات على المستوى القومي والفردى كذلك وعلى العموم فان المغرب لا يستفيد من خبرة مهاجريه وما اكتسبوه من تدريب لان معظم العائدين كما قلنا يعودون وهم في سن التقاعد .

ان المهاجرين المغاربة في اوروا يمثلون بلا شك مجموعة سكانية تختلف عرقيا وثقافيا عن المجموعة الاوروبية وهذه الخصائص تلعب دورا في مدى تقبل المجتمع المستقبل فجرة المهاجرين ففي اوروا مثلا نجد ان الالماني والبلجيكي يواجه مواقف في فرنسا تختلف كثيرا عما يواجهه المهاجر العربي او الافريقي سواء في التعامل اليومي او على مستوى التعامل الرسمي فالمهاجر المغربي يشعر بان لونه هو جنسيته في فرنسا وكما قال احد المغاربة في فرنسا بوجهي ، ماذا يعني الفرق اذا ما كنت احمل الجنسية الفرنسية ام لا ، فانا اعامل هنا دائما كعربي^(٤٥)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٢)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٣)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٤)

Meed, 1986, P. 10.

(٤٥)

ولهذا فإن قضية هجرة العودة أو الهجرة المعاكسة هي الشيء الحتمي بالنسبة للهجرة المغربية ففي دراسة عن الشباب من شمال أفريقيا (المغرب) أوضحت ٧٠٪ من العينة المتتقاة أنهم يرغبون في البقاء في فرنسا ولكن هناك ٢٥٪ فقط يرغبون بحمل الجنسية الفرنسية^(١٦) . والحقيقة أن أسباب الهجرة تبقى هي العامل الذي يحدد مدة بقاء المهاجر أو عودته فالظروف الاقتصادية الصعبة وانتشار البطالة في المغرب العربي من الأسباب التي تدفع بالمغاربة للهجرة إلى فرنسا أما على الجانب الآخر فإن الظروف التي يعيشها المهاجر المغربي تؤثر أيضاً في بقاءه أو عودته فهناك دراسة^(١٧) عن أحوال المهاجرين المغاربة بينت أن هناك تفرقة بالأجور والحقوق الأخرى مثل السكن وتقلد المناصب كذلك هناك مواجهة اجتماعية بين الفرنسيين والمهاجرين المغاربة وصلت إلى درجة العنف ، وقد أوضحت الدراسة ذاتها أن الأسباب الاقتصادية في المغرب العربي كانت وراء استمرارية بقاء حوالي ٨٠٪ في فرنسا لمدة أكثر من عشر سنوات .

بعد أن بينت الدراسة مفهوم الهجرة والهجرة المعاكسة استخدمت منطقة الخليج العربي كنموذج للمنطقة المستقبلية للهجرة واستخدمت دول المغرب العربي كنموذج للمنطقة المصدرة للهجرة في نفس الوقت التي تستقبل منطقة مستقبلية للهجرة المعاكسة وقد أوضحت الدراسة كذلك عوامل الجذب والطرْد لنوعي الهجرة والمشكلات المحيطة بها .

تنتقل الآن الدراسة لنموذج آخر وهو الهجرة النوعية والتي تتميز بخصائص معينة ونطلق عليها عام هجرة العقول أو الكفاءات العربية إلى الدول المتقدمة ونأخذ بريطانيا كنموذج لهذه الهجرة .

الهجرة العربية إلى المملكة المتحدة * :

ترجع الهجرة العربية إلى المملكة المتحدة إلى أكثر من قرن ولكنها اتخذت أبعاداً مختلفة وتبلورت في السنوات الأخيرة . فقد بدأت الهجرة إلى المملكة المتحدة على مستوى الأفراد أو مجموعات صغيرة جداً ارتبطت بأنشطة محدودة مثل النشاط البحري في القرن التاسع عشر ويمثل اليمنيون والصوماليون الرواد الأوائل للمهاجرين العرب وقد كان نشاط هؤلاء المهاجرين يقوم على العمل على السفن البريطانية التي كانت تقوم بنشاط بحري بين بريطانيا والمنطقة العربية والمحيط الهندي . أما المجموعة الثانية والتي تلت المجموعة الأولى فقد كانت تضم رجال أعمال قاموا بأنشطة تجارية إبان ازدهار صناعة الغزل والنسيج في مدينة مانشستر البريطانية وكان الرواد الأوائل من هؤلاء هم من السوريين واللبنانيين وتلتهم مجموعة ثالثة من اليمن وقد عمل المهاجرون من اليمن في الزراعة وفي المؤسسات الصغيرة في السهل الأوسط البريطاني - كانت هذه الهجرات صغيرة لا يتعدى عدد أفرادها ٦٠ ألف مهاجر ينخفض هذا العدد ويرتفع

Ibid, P. 10.

(١٦)

The Middle East Magazin, London October, 1984, PP. 15-19.

(١٧)

* يستمد هذا الجزء من الدراسة على دراسة من الأيدي الملكية العربية في المملكة المتحدة زويت للباحث بواسطة جامعة لندن ، بدون تاريخ . ومؤلف . كلاًطلاع واضح البحث

بحسب الحالة الاقتصادية في بريطانيا ولقد استقر العدد في نهاية ١٩٤٥ عند ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر عربي معظمهم من اليمن والصومال وسوريا .

لقد بدأت ملامح هذه الهجرة تتبلور ملامحها وخصائصها في بداية السبعينات وأصبحت الهجرة العربية في بريطانيا تشتمل على نوعين رئيسيين من المهاجرين ، يتكون النوع الأول من رجال مال واقتصاد حولوا نشاطهم الاقتصادي إلى بريطانيا نتيجة للأوضاع غير المستقرة في المنطقة العربية والمشكلات التي ترتبت على حرب ١٩٦٧ ولدمار الذي لحق بلبنان نتيجة للحرب الأهلية . أما النوع الثاني فيتكون من الكفاءات العربية من مهندسين وأطباء وأساتذة الجامعات وفي الحقيقة تعتبر هذه النوعية من المهاجرين خسارة كبيرة للقوى العربية في المنطقة البشرية إضافة إلى استنزاف الطاقة المادية فقد قدرت ما أنفقتة الدول النامية ومنها معظم الدول العربية على ما يزيد على ٤٠ بليون دولار خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مقابل تدريب هذه العناصر فقط وهذه العناصر ما زالت تفضل البقاء خارج الوطن كما قدرت الخسارة في الكفاءات العربية وحدها وحتى عام ١٩٧٧ بما يقارب ٢٤,٠٠٠ ألف طبيب بما يماثل ثلث جلة الأطباء العرب و ١٧,٠٠٠ ألف مهندس فيما يعادل حوالي ٩٪ من جلة المهندسين العرب و ٧,٥٠٠ من العاملين في المجالات العلمية ويعادل هذا الرقم ١٢٪ من مجملتهم في العالم العربي أما من الناحية المادية فقد قدرت خسارة العالم العربي السنوية نتيجة لهجرة هذه الكفاءات بما يعادل ٤٠٠ مليون دولار .

يقدر عدد المهاجرين العرب في بريطانيا في الوقت الحاضر بحوالي ربع مليون مهاجر جاءوا من إحدى عشرة دولة عربية هي مصر ، لبنان ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، الجمهورية العربية اليمنية ، جمهورية اليمن الديمقراطية ، الأردن وفلسطين . إذا أردنا أن نعرف مدى الخسارة في الكفاءات العربية نأخذ السودان كمثال عندما نعرف أن السودان خسرها ما بين ١٩٤٤ - ١٩٧٩ حوالي ٦٠٪ من الأطباء و ٥٠٪ من المهندسين و ٢٥٪ من أساتذة الجامعات إن هذه الخسارة في الكفاءات العربية تبين لنا مدى الآثار السلبية للهجرة . تشكل بريطانيا منطقة جذب للمهاجرين العرب لعدة عوامل : وجود الجامعات العديدة التي اكتسبت شهرة لاهتمامها بالدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط والخليج العربي ونتيجة أيضاً للعلاقات التاريخية بين بريطانيا والعالم العربي وتعزز الكفاءات العربية سبب هجرتها إلى بريطانيا إلى الحرية السياسية والاقتصادية وحرية البحث العلمي وإلى ما تتمتع به لندن كأحد المراكز الرئيسية التجارية في العالم وبخاصة في مجال البنوك ومؤسسات الاستثمار وغل كل لا يتطلع معظم المهاجرين العرب في بريطانيا إلى الاستقرار الدائم وإنهاء علاقتهم بوطنهم الأم ، ولكن هناك نسبة منهم تقيم إقامة دائمة في بريطانيا وهي مقارنة بالعدد الكلي للمهاجرين تشكل نسبة ضئيلة . يوضح لنا جدول رقم (٨) أنه في عام ١٩٧٦ و ١٩٧٨ حصل ٣,٣٤٤٠ ألف على إقامة دائمة في بريطانيا ويشكل المصريون نسبة كبيرة من هؤلاء (١٥٣٢) ومن المغرب ٧٤٢ ومن العراق ٧٤٩ أما في عام ١٩٧٩ يشير جدول رقم (٩) إلى أن ١٧٧٥ مهاجراً حصلوا على إقامة في بريطانيا منهم ١٦٦٣ حصلوا على إقامة دائمة وإذا أخذنا مثلاً هجرة الكفاءات العربية في بريطانيا نجد أن ٦٣٥٦ طبيباً عربياً يعمل في بريطانيا ويشكل المصريون أغلبية بين هؤلاء يليهم العراقيون . وخلاصة القول في هذا الجزء من الدراسة أن الهجرة العربية إلى خارج الوطن العربي تشكل استنزافاً للطاقة البشرية العربية وللمال العربي وإضعافاً لعملية التنمية التي تواجه مشكلة نقص العنصر البشري سواء في تحطيطها وإدارتها أم تنفيذها .

جدول رقم (٨)

عدد رعايا بعض الدول العربية الذين منحوا إقامة دائمة

في المملكة المتحدة ١٩٧٨/٧٦
السنة

الدولة	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع
الجزائر	٧٧	٣٧	٨١	١٩٥
مصر	٥٠٢	٤٨٦	٥٤٩	١٥٣٣
العراق	٢٧٦	٢٢٢	٢٤١	٧٤٩
الغرب	٢٤١	١٨١	٣٣٠	٧٥٢
تونس	٥٣	٤٢	١٢٠	٢١٥
المجموع	١١٤٩	٩٧٤	١٣٢١	٣٤٤٤

Source : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmd 7875, April 1980.

جدول رقم (٩)

عدد المواطنين العرب الذين منحوا إقامة دائمة في المملكة المتحدة

عام ١٩٧٩

الدولة	مواطنون عرب منحوا الإقامة الدائمة لدى تقديمهم مباشرة				مواطنون عرب منحوا الإقامة الدائمة بعد انتهاء الإقامة المؤقتة (٤ سنوات)				المجموع الكلي			
	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع
الجزائر	٤	٥	٤	١٣	١٤	١٤	١٤	٧٩	٩٤	٨٣	١٩	١٠٧
مصر	٦	١٦	٢٤	٣٥٤	٢٦	١٢٤	٤٦	١٥٤	٥٢٤	٣٦٠	١٤٠	٥٤٨
العراق	٤	٥	٩	١٤١	٢٨	٦٦	٢٨	١٤١	٢٣٥	٧١	٢٨	٢٤٤
الأردن	٤	٧	٣	١٤	١	٢٤	١	٢٤	١٠١	٨٠	٣١	١١٥
لبنان	٧	١٧	١٥	١٥	٣٥	١٧	١٣٦	١٣٦	٩١	٤٢	١٨	١٥١
ليبيا	-	-	١	١	١٣	٤	٦٧	٨٠	٥٠	١٣	٥	٦٨
الغرب	٥	٩	-	١٤	٧٦	٣٢	٢٤٣	١٤٠	٨٥	٣٢	٢٥٧	
السعودية	-	-	١٢	١	١٨	١	١٢	٥	١٢	١	١٨	
الصومال	-	٢	٥	٧	١	٧	١٣	١٣	٧	٦	٢٠	
السودان	٢	-	-	٢	١٩	٧	٧٩	٥٥	١٩	٧	٨١	
سوريا	-	٤	-	٤	١٥	٧	٧٢	٥٠	١٩	٧	٧٦	
تونس	٣	٤	٩	١٣	١٣	٥	٨١	١١٣	٦٦	١٩	٩٠	
الاجمالي	٣٥	٦١	١٦	١١٢	١١٠٤	٤٠٩	١٥٠	١٦٣٩	١١٣٩	٤٧٠	١٦٦	١٧٧٥

SOURCE : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmd 7875 April 1980.

الخلاصة :

الهجرة ، كحركة سكانية ، ستبقى عنصراً من عناصر الحياة على وجه هذه الأرض . فطبيعة الأشياء في هذه الحياة لا تبقى منطقة جغرافية واحدة تعيش نمطاً بمستوى واحد لا يتغير ، والاسان هو المحرك لعناصر الحياة على وجه هذه الأرض ولذلك فإن تطور أي منطقة جغرافية بمواردها المختلفة يعتمد على الانسان وقد تكون منطقة معينة مكتفية ذاتياً من ناحية البشرية في فترة زمنية معينة ولكنها قد تعاني سلباً أو إيجاباً في فترة أخرى . فاذا أخذنا الكويت كأقرب مثل لنا ، نجد أنها بمواردها المتواضعة قبل اكتشاف النفط كانت تصمم علداً من السكان لا يزيد عن ١٥٠,٠٠٠ ألف نسمة ومع ذلك فإن سكانها كانوا يبحثون عن الرزق في أعماق البحر وفي مناطق أخرى ، وبعد اكتشاف النفط بقي سكانها على أرضها واحتاجوا أيضاً إلى أكثر من ضعفهم حتى يقوموا بمهمة البناء الاقتصادي والاداري والعمراني . فالهجرة في الكويت ارتبطت كما بينت الدراسة بالقضية الاقتصادية ويدل على ذلك ما تواجهه الهجرة (في منتصف الثمانينات) من قيود لمحاولة تقليل عدد المهاجرين فالحركة السكانية على وجه هذه الأرض تمثل معادلة هائلة كما هو الحال في علم الفيزياء فينتجه السكان إلى حيث إعادة التوازن في بقعات من الأرض .

وقد تحدث الهجرة لاعادة التوازن ليس للأرض فقط وإنما للانسان نفسه فالانسان بطبيعته يحيا بعناصر متعددة اقتصادية وسياسية واجتماعية والاهتمام بالحرية في حقول مختلفة فاذا ما حدث اختلال في التوازن في هذه العناصر تحرك الانسان جغرافياً حيث يعيد التوازن لحياته . فالهجرة هي حركة الانسان والأرض هي مسرح هذه الحركة ينتجها الانسان حيث يجد ما فقدته أو يكاد يفقده . إن الهجرة قضية قديمة قدم الانسان على هذه الأرض ، ولنا في دراسة الاجناس البشرية برهان على ذلك يصل الى وقتنا الحاضر وما أعطى الهجرة في وقتنا الحاضر اهتماماً كبيراً هو ما حدث من انتشار للعلاقات الاقتصادية والسياسية بين المجتمعات متمثلة بالمناطق الجغرافية الطبيعية والتي حددت شكل وحضارة الانسان وبذلك صار الارتباط بين الأرض وبين عرق وحضارة معينة . ومن ناحية أخرى هورسم الخطوط على الخرائط وارتبطت المناطق التي تقع بين هذه الخطوط بجنسية معينة أعطى قضية الهجرة مضموناً معيناً هو التزايد السكاني الرهيب داخل هذه المناطق وأدى التزايد الى عجز الموارد المحلية عن الوفاء باحتياجات السكان ونتيجة لذلك انجذبت بعض المجموعات السكانية إلى مناطق أخرى تواجه نقصاً في الموارد البشرية أدى الى عجز السكان عن استغلال مواردها . إن حركة السكان هذه ليست مجردة من عناصر أخرى فهي ليست أرقاماً فقط مع أن كثيراً من المشكلات ترتبط بهذه الأرقام إن هذه المشاكل التي يواجها المهاجر والمجتمع المستقبل له هي مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية فهناك مشاكل الاسكان ومشاكل العمل ومشاكل التعليم والصحة والاستثمار وغيرها . ان تطور الادارة بشكل عام والتي كان من ضمن هذه التطور بروز التخطيط كمنهج ووسيلة ويصبح علماً من العلوم يدرس في المعاهد والجامعات كل هذا أعطى للهجرة اهتماماً كبيراً . إن القضية أصبحت مرتبطة بقضايا متعددة وأصبحت الحلول لا ترتبط بالطرق والآلية ولكنها توجه للمستقبل المنظر أن الهجرة أصبحت تشكل هماً من هموم سياسة الدول ومن هنا لم يعد الانسان حراً في تحركه الجغرافي بسبب التشريعات والقوانين والنظم التي تحدد مساري وحجم الهجرة لقد أصبحت قضية الهجرة من الاهمية إلى درجة أصبحت في بعض الدول أحد المواضيع في البرامج الانتخابية ونخطط التنمية ففي السويد مثلاً يحق للمهاجر الذي

أقصى مدة ثلاث سنوات فأكثر وحتى إذا لم يحصل على الجنسية السودانية يحق له أن يوضح نفسه ويتخبر في المجالس البلدية وما لهذا من أهمية حيث يستطيع هذا المهاجر أن يشارك في تطوير الكثير من أوجه حياة الإنسان في هذه الدول في الولايات المتحدة تتخذ قضايا الهجرة أهمية كبيرة ولذلك فطريق التجنس للمهاجر يمر بمراحل متعددة حيث يستطيع في النهاية وبعد أن يحصل على الجنسية أن يتقلد أعلى المناصب في هذه الدولة . وفي بريطانيا يحق لكل من يوجد على أرضها أن يحصل على الجنسية البريطانية عندما يبلغ السن القانوني . إن قضية الهجرة ترتبط بالنهاية بعملية التنمية والقضايا الاقتصادية بشكل خاص ولذلك تهتم الدول بقضية الهجرة لأنها تعني إضافة سكانية على أرضها وما يتبع ذلك من توفير لكثير من متطلبات الحياة في الكويت نجد أن نصف الحطة القومية والهيكلية موجهة للسكان غير الكويتيين مثل الاسكان والطرق والخدمات الأخرى فمن حيث الاسكان نجد أن الوحدات السكنية للمهاجرين تفوق عدد الوحدات السكنية للكويتيين .

أما الجانب الاجتماعي في موضوع الهجرة فهو أعمق بكثير لأنه يهتم بالإنسان بشكل مباشر ولذلك تحاول الدول الا يغطي عدد المهاجرين على عدد السكان الأصليين لأن ذلك يؤثر في كثير من العناصر مثل الثقافة واللغة والحضارة والمعادن والتقاليد فقضية العزلة الاجتماعية التي تواجهها المجموعات المهاجرة في بلدان المهجر تثير القلق وان محاولات الاستيعاب الاجتماعي تواجه كثيراً من العراقيل لقد عولجت هذه القضايا في هذه الدراسة واتضح لنا ما يتعرض له المجتمعات من مشكلات كثيرة عندما تتعرض للهجرة ومن جانب آخر أوضحت ما يتعرض له المهاجرون في دول المهجر . فالدراسة أوضحت أن الهجرة ليست طريقاً بنهاه واحد وإنما طريقتان بالتجاهين متضادتين هما طريق الهجرة الى بلد المهجر وطريق العودة وطريق آخر ليس أسهل من الطريق الأول وليس مجرداً من المشاكل فعودة المهاجرين الى وطنهم أصبحت تشكل قضية من القضايا التي تحظى باهتمام متزايد فعودة المهاجرين تعني توفير فرص عمل هؤلاء وحل مشكلة البطالة وتوفير المساكن والخدمات الأخرى وإن هذه العناصر تؤثر بعناصر أخرى مثل سعر الأرض ومواد البناء وتوفير المبالغ المطلوبة إما الجانب الآخر فهو بالطبع اجتماعي فعودة المهاجرين من مجتمعات لها خصائص اجتماعية وسياسية مختلفة لها بالتأكيد تأثيرات على المجتمع الأم ولا تقتصر هذه القضية على سلوكيات اجتماعية يكتسبها المهاجر بل تعداها الى سلوكيات اقتصادية مثل اكتساب عادات الاستهلاك والادخار والانفاق فالمهاجر الذي يعود من بلد تتوفر فيه معظم مستلزمات الحياة الضرورية والكفالية ويعتمد على التعامل معها فانه سيتقنها معه الى بلد الأم وقد لا يكون هذا سهلاً عندما لا تتوفر مثل هذه المستلزمات .

الهجرة عملية مستمرة استمرار حياة الإنسان والنمو السكاني والاختلافات بين المناطق الجغرافية المختلفة وإذا كانت الهجرة في وقتنا الراهن تواجه بالنظم والقوانين فان عدم التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين المناطق الجغرافية المختلفة سوف يجد من فعالية هذه الأنظمة والقوانين لتستمر حركة الهجرة .



ملقمة :

بينما وفرت عائدات النفط موارد مالية يمكن استخدامها لتمويل عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، عجز العرض المحلي من العمالة ، بسبب صغر حجم السكان من جهة ونُدرة المهارات من جهة أخرى ، عن تلبية الطلب على العمالة منذ بداية مسيرة التنمية في الكويت في أوائل الخمسينات^(١) .

ومنذ البداية تم سد العجز بين العرض المحلي من العمالة والطلب عليها بعمالة وافدة . وأدى غو عائدات النفط وتزايد وتنوع عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي تزايد وتنوع الطلب على العمالة ، خاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات ، إلى ازدياد عجز العرض المحلي من العمالة وازدياد الاعتماد على العمالة الوافدة لمواجهة احتياجات مختلف القطاعات من مختلف أنواع ومستويات المهارات .

وأدى الانكماش الاقتصادي العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى بالتالي إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتباطؤ غو الطلب على العمالة^(٢) .

وبسبب تراجع أسعار النفط في عام ١٩٨٣ ازداد اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى تدهور الأسعار منذ أواخر ١٩٨٥ إلى تدهور الإيرادات النفطية . وبما أن الإيرادات النفطية كانت ، ولا زالت ، العمود الفقري لإيرادات الحكومة ، اضطرت الحكومة إلى تخفيض ميزانية ١٩٨٥/١٩٨٦ بعد اعتمادها لمواجهة الانخفاض في إيراداتها .

الهجرة والهجرة العاكسة في الكويت دروس الماضي وآفاق المستقبل

محمد صافى

(١) تم تصدير أول دفعة من النفط الخام عام ١٩٤٦ وبدأت الحكومة في بناء المرافق الأساسية وتوسيع الخدمات الاجتماعية خاصة في التعليم والصحة في الفترة التي تلت البدء في إنتاج وتصدير النفط الخام وحصولها على العلاقات النفطية . لذا يمكن اعتبار بداية الخمسينات بداية مسيرة تنمية اقتصادية بشكل واضح .

(٢) تزامن تراجع العائدات النفطية مع الحرب بين العراق وإيران منذ أواخر ١٩٨٠ وأزمة سوق للخام في أواخر ١٩٨٢ . ولدت هذه العوامل عسمة إلى تباطؤ النمو الاقتصادي .

وأدت هذه التطورات الاقتصادية إلى تنامي اهتمام الحكومة باعتماد سياسات واتخاذ إجراءات نحو توازن سكاني، وحظي تعديل التركيبة السكانية باهتمام خاص في الخطة الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ - ١٩٨٩/١٩٩٠ وشكل المحور الرئيسي لتوجهاتها .

واجه القطاع الخاص ، ولا زال يواجه ، تراجع الطلب على العمالة بإجراءات تراوحت بين الاستغناء عن العمالة الوافدة الزائدة وتخفيض الأجور والمرتبات وإلغاء بعض المزايا^(٣) . وقررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين من العاملين في مختلف الوزارات والمؤسسات والهيئات العامة في مطلع صيف هذا العام .

وما لم تتم عملية الاستغناء عن العمالة الوافدة على أساس خطة مدروسة فإنه يصعب تجنب الآثار السلبية التي قد تنجم عنها . لذا نحاول هذه الدراسة المساهمة في إثارة الطريق نحو الخيارات الممكنة لاجتياز المرحلة الراهنة والتقدم بثبات نحو المرحلة المقبلة .

تبدأ الدراسة باستعراض مدى الاعتماد على العمالة الوافدة حسب القطاعات الاقتصادية والمهن . يلي ذلك عرض لنمو السكان والتطورات التي طرأت على مختلف جوانب الهيكل السكاني .

وأخيراً نحاول الدراسة استشراف آفاق المستقبل المنظور بالنسبة لمدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة من جهة وإلقاء الضوء على بعض الأمور التي يستحسن أخذها بعين الاعتبار عند النظر في الخيارات الممكنة لمواجهة المرحلة الانتقالية الحالية والتقدم بثبات نحو المستقبل .

تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة

يبين الجدول (١) حجم ومعدلات النمو السنوية لقوة العمل حسب النوع والجنسية بين سنوات التعدادات . ومن أبرز السمات التي يواجهها هذا الجدول ما يلي :

١ - ارتفاع وتباين معدلات النمو :

بلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل الكويتية ٦,٦٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٢٪ خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ و ٨,٧٪ خلال ١٩٦٥ - ١٩٧٠ . وبلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل غير الكويتية ٨,٨٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٨٪ خلال ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٢,٥٪ خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ . وبلغ معدل النمو السنوي لمجموع قوة العمل ٨,٢٪ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ وتراوح بين ٤,٧٪ خلال ١٩٧٠ - ١٩٧٥ و ١٠,٩٪ خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٥ . وتعتبر معدلات النمو السنوية لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وبمجموع قوة العمل ، على السواء ، مرتفعة ، قياساً على معدلات النمو السنوية السائدة في العالم . فكيف يمكن تفسير ارتفاع معدلات النمو ؟

(٣) لا تتناول بيانات عن مدى تخفيض العمالة وتخفيض المرتبات والأجور وإلغاء المزايا . ولكن من الثابت أن العمالة انخفضت في قطاع التشييد والبناء وأن العديد من الشركات والمؤسسات في القطاع الخاص خفضت تخفيض الرواتب بسبب طفلة وصلت في بعض الحالات إلى ٢٥٪ .

إن حجم السكان ، من جهة ، والهيكلة العمري والهيكلة النوعي ، من جهة أخرى ، تحدد في المقام الأول ، حجم العرض من قوة العمل .

ويمكن تفسير معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، في المقام الأول ، بارتفاع معدلات نمو السكان الكويتيين . ولكن ما الذي أدى إلى ارتفاع معدل نمو السكان الكويتيين ؟ ستحاول إلقاء الضوء على بعض العوامل التي يمكن أن تكشف عن أسبابه عند استعراض نمو السكان . أما معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية فلا يمكن تفسيرها بارتفاع معدلات نمو السكان غير الكويتيين ، إذ أن نمو السكان غير الكويتيين كان نتيجة وليس سبباً لنمو قوة العمل غير الكويتية .

وكما سنبين فيما بعد حدد حجم العمالة الوافدة من جهة ومعدل المرافقة^(٤) لها من جهة أخرى حجم السكان غير الكويتيين ، بمعنى آخر بينما كانت معدلات النمو المرتفعة للسكان الكويتيين السبب الرئيسي في معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، كانت معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية السبب الرئيسي في المعدلات المرتفعة لنمو السكان غير الكويتيين .

٢ - زيادة معدل نمو الأثلاث عن معدل نمو الذكور :

كما يستدل من الجدول (١) ، فقد فاق معدل نمو الأثلاث معدل نمو الذكور بالنسبة لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء بين عام ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

فقد بلغ معدل النمو السنوي للأثلاث ١٧,٠ ٪ و ١٥,٨ ٪ و ١٦,٠ ٪ بينما بلغ معدل النمو السنوي للذكور ٦,١ ٪ و ٨,٣ ٪ و ٧,٧ ٪ في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل ، على التوالي ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وقد فاق معدل نمو الأثلاث معدل نمو الذكور في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وفي جملة قوة العمل في جميع الفترات ، وباستثناء ١٩٨٥ - ١٩٨٠ ، حيث فاق معدل الذكور معدل نمو الأثلاث ، ١٢,٦ ٪ مقابل ١٢,١ ٪ في قوة العمل غير الكويتية .

أدت زيادة معدل نمو الأثلاث عن معدل نمو الذكور إلى ارتفاع نسبة الأثلاث في قوة العمل ، وبالتالي إلى زيادة تأنيث قوة العمل الكويتية وغير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء . فكمما يتضح من الجدول (٢) فقد انجذبت نسبة الأثلاث إلى الارتفاع بينما انجذبت نسبة الذكور إلى الانخفاض باستمرار . فقد تزايدت نسبة الأثلاث في جملة قوة العمل الكويتية باستمرار وارتفعت من ١٦ ٪ عام ١٩٥٧ إلى ١٣,٢ ٪^(٥) ، كما تزايدت نسبة الأثلاث في جملة قوة العمل الكويتية بين عام ١٩٥٧ و ١٩٧٥ حيث ارتفعت من ١٣,٠ ٪ بين نفس العامين ، ولكنها انخفضت قليلاً ، إلى ١٢,٨ ٪ عام ١٩٨٠ . أما نسبة الأثلاث في جملة قوة العمل فقد تزايدت باستمرار وارتفعت من ٢,٦ ٪ عام ١٩٥٧ إلى ١٢,٩ ٪ عام ١٩٨٠ .

(٤) يقدر من التبسيط معدل المرافقة بـ ١٠٠ - معدل المشاركة . بما أن معدل المشاركة يساوي قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان يكون معدل المرافقة للسكان خارج قوة العمل كنسبة مئوية من جملة السكان .

(٥) تشمل قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) :

- المشتغلون

- المشتغلون الجدد

- المشتغلون الذين سبق لهم العمل .

ويشمل ذوي النشاط المشتغلين والمشتغلين الذين سبق لهم العمل .

جدول رقم (٢)
قوة العمل حسب النوع والجنسية
(نسب مئوية)

المجموع		شهر كويتي		كويتي		
اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	
٢ر٦	٩٧ر٤	٢ر٠	٩٧ر٠	١ر٦	٩٨ر٤	١٩٥٧
٤ر٨	٩٥ر٢	٥ر٥	٩٤ر٦	٢ر٥	٩٧ر٥	١٩٦٥
٦ر٩	٩٢ر١	٨ر٢	٩١ر٨	٢ر١	٩٦ر٩	١٩٧٠
١١ر٦	٨٨ر٤	١٢ر٠	٨٧ر٠	٨ر١	٩١ر٩	١٩٧٥
١٢ر٩	٨٧ر١	١٢ر٨	٨٧ر٢	١٢ر٢	٨٦ر٨	١٩٨٠

المصدر : تم احتساب النسب على أساس الجدول (١) .

إن تزايد نسبة الاناث في قوة العمل له تدولات عامة . فهو مؤشر على زيادة عدد الاناث القادرات على والراحيات في العمل من جهة ، وعلى حصول تغير بالنسبة لنظرة المجتمع إلى عمل الاناث ، من جهة أخرى . وكلما ازدادت نسبة مشاركة الاناث في قوة العمل ، كلما ارتفع معدل المشاركة وانخفض بالتالي معدل الاعالة .

٣ - تناقص نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل :

أدى التباين بين معدلات غموة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية بين التعدادات إلى تبين بين نسبة كل منها في جملة قوة العمل كما يتضح من الجدول (٣) .

فيما أن معدل غموة العمل غير الكويتية زاد عن معدل غموة العمل الكويتية ١٢,٣٪ مقابل ٧,٢٪ ، بين ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، فإن نسبة قوة العمل الكويتية انخفضت من ٣٠,٦٪ إلى ٢٣,٣٪ بين العامين . وأدى ارتفاع معدل غموة العمل الكويتية عن معدل غموة العمل غير الكويتية خلال ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، ٨,٧٪ مقابل ٤,٦٪ وخلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، ٧,٠٪ مقابل ٣,٨٪ ، إلى ارتفاع نسبة قوة العمل الكويتية إلى ٢٧,٠٪ و ٣٠,٢٪ ، على التوالي . ولكن معدل غموة العمل غير الكويتية فاق كثيرا معدل غموة العمل الكويتية ١٢,٥٪ مقابل ٣,٢٪ ، خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، وانخفضت بذلك نسبة قوة العمل الكويتية ودرجة كبيرة ، من ٣٠,٢٪ إلى ٢١,٩٪ .

جدول رقم (٣)
قوة العمل حسب الجنسية
(نسب مئوية)

سنة المدة - عدد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٢٠,٦	٦٩,٤	١٠٠
١٩٦٥	٢٢,٢	٧٦,٧	١٠٠
١٩٧٠	٢٧,٠	٧٣,٠	١٠٠
١٩٧٥	٢٠,٢	٦٩,٨	١٠٠
١٩٨٠	٢١,٩	٧٨,١	١٠٠

المصدر : تم احساب الجدول على اساس الجدول رقم (١) .

٤ - تزايد اعتماد مختلف القطاعات على غير الكويتيين :

يتضح من الجدول (٤) ان نسب ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين في مختلف قطاعات النشاط الاقتصادي قد تباينت ، ودرجات متفاوتة ، بين سنوات التعدادات .

باستثناء عام ١٩٥٧ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٧,٥٪ مقابل ٤٢,٥٪ وفي التجارة والمطاعم والفنادق ، ٥٠,٥٪ مقابل ٤٩,٥٪ وعام ١٩٧٥ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٣,٠٪ مقابل ٤٧,٠٪ ، كانت نسبة غير الكويتيين أعلى من نسبة الكويتيين في جميع قطاعات النشاط الاقتصادي وفي جميع سنوات التعدادات . وهذا يعني أن جميع القطاعات اعتمدت وباستمرار ، في المقام الأول ، على العمالة الوافدة .

ويذكر أن نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل انخفضت بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . باستثناء قطاع المناجم والمحاجر حيث ارتفعت فيه نسبة الكويتيين من ٢٢,٤٪ إلى ٣٦,٠٪ بينما انخفضت نسبة الكويتيين في جميع القطاعات ، ودرجات متفاوتة بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . وهذا يعني تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة في جميع القطاعات .

٥ - تركز الكويتيين وغير الكويتيين قطاعياً :

يتضح من الجدول (٥) أن قطاع الخدمات استأثر بأعلى نسبة من جملة ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين ، على السواء ، في جميع سنوات التعدادات . بينما ارتفعت نسبة الكويتيين في هذا القطاع من ٥١,٧٪ عام ١٩٥٧ إلى ٧٥,٦٪ عام ١٩٨٠ كما انخفضت نسبة غير الكويتيين فيه من ٤٨,٠٪ إلى ٢٤,٠٪ بين نفس العامين . واحتلت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع التجارة المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٤,٦٪ عام ١٩٥٧ و ١٢,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٤,٧٪ عام ١٩٧٠ و ٧,٣٪ عام ١٩٧٥ واتحدرت إلى ٤,٤٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والمواصلات ، ٧,٦٪ مكانها عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٤)

ذوي النشاط حسب القطاع والجديدة

(حسب مليون دينار)

النسبة النشاط الاقتصادي	١٩٥٧		١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠	
	ك	م ك	ك	م ك	ك	م ك	ك	م ك	ك	م ك
الزراعة والصيد	٥٧٥	٢٢٩	٢٢٩	٧٧٦	٢٨٩	٧١٩	١٩٨	٨٠٢	٥٣٠	٢٧٠
السياحة والتأجير	٢٢٩	٧٧٦	١٢٩	٧١٩	٢٢٩	٧١٩	٢٢٩	٧١٩	٢٢٩	٢٢٩
الصناعات التحويلية	١٥٦	٨٢٩	١٠٢	٨٩٨	١٩٠	٨٩٨	١٩٠	٨٩٨	١٩٠	٨٩٨
التشييد والبناء	٢٢٩	١١٢	٢٢٩	١١٢	٢٢٩	١١٢	٢٢٩	١١٢	٢٢٩	١١٢
المياه والكهرباء	(١)	(١)	(١)	(١)	(١)	(١)	(١)	(١)	(١)	(١)
تجارة الجملة والتجزئة	٥٠٥	٢٢٩	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦
والطعام والشراب	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦
المعمل والتخزين والمواصلات	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦
التوزيع والتأمين والمعارف	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦
وخدمات الاعمال	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦
خدمات المنتج والخدمات	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)
الاقتصادية والتشخيصية	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦
نشاط غير واضح	٥٧٥	٢٢٩	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦
جملة ذوي النشاط	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦	٢٢٩	٧٧٦

(١) من الصناعات التحويلية

(٢) تشمل جميع الخدمات

المصدر : من الحساب النسبي على أساس المجموع الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ١١١

ص ١٢٠ ، و جدول ١١٢ ، ص ١٢٢ .

وقد احتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في قطاع التشييد والبناء المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٧,٢٪ عام ١٩٥٧ و ١٩,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٨,٠٪ عام ١٩٧٠ ، وانحدرت إلى ١٤,٤٪ ، واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع التجارة ، ١٥,٧٪ مكانها عام ١٩٧٥ ، ولكنها ارتفعت إلى ٢٥,٢٪ وعادت واحتلت المرتبة الثانية عام ١٩٨٠ .

وبينما كانت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع النقل والتخزين والمواصلات في المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٦,٥٪ في ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، على التوالي ، انحدرت هذه النسبة إلى ٤,٠٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في الصناعات التحويلية ، ١٠,٢٪ ، مكانها ، المرتبة الثالثة ، عام ١٩٧٠ ، ولكن عادت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والتخزين والمواصلات إلى المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٧,٦٪ في ١٩٧٥ و ١٩٨٠ على التوالي .

واحتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في الصناعات التحويلية المرتبة الثالثة في السنوات ١٩٥٧ ، ٩,٨٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٩٪ والمرتبة الرابعة في السنوات ١٩٦٥ ، ١١,٦٪ و ١٩٧٥ ، ١٠,٥٪ و ١٩٨٠ ، ١٠,٠٪ ، بينما احتلت نسبتهم في التجارة المرتبة الرابعة في السنوات ١٩٥٧ ، ٧,١٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٧٪ والمرتبة الثالثة في السنوات ١٩٦٥ ، ١٢,٩٪ و ١٩٧٥ ، ١٥,٧٪ و ١٩٨٠ ، ١٤,١٪ .

ويتضح مما سبق أن ذوي النشاط الكويتيين تركزوا في قطاعات الخدمات في المقام الأول وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٧١,٦٪ عام ١٩٥٧ إلى ٨٧,٦٪ عام ١٩٨٠ . وأما ذوي النشاط غير الكويتيين فقد تركزوا في قطاع الخدمات في المقام الأول وفي قطاعات التشييد والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٨٢,١٪ عام ١٩٥٧ إلى ٩٠,٠٪ عام ١٩٨٠ .

٦ - تركيز الكويتيين وغير الكويتيين مهنياً :

وكما كان الكويتيون أقل من غير الكويتيين في مختلف القطاعات كانوا كذلك في مختلف المهن .

فكما يتضح من الجدول (٦) ، باستثناء عام ١٩٧٥ ، حيث كانت نسبة الكويتيين أكبر من نسبة غير الكويتيين ، ٥٠,٦٪ مقابل ٤٩,٤٪ في المهن المتعلقة بالزراعة وتربية الحيوان والصيد ، كانت نسبة غير الكويتيين أكبر من نسبة الكويتيين في جميع أنواع المهن في جميع سنوات التعدادات . وكما تزايد الاعتماد على غير الكويتيين قطاعياً ، تزايد الاعتماد عليهم أيضاً مهنياً ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . فباستثناء المهن العلمية والفنية والتي تزايدت نسبة الكويتيين فيها من ٩,٨٪ إلى ٢٠,٦٪ والأعمال الكتابية التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣٧,٤٪ إلى ٤٠,٩٪ وأعمال الخدمات التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣١,٠٪ إلى ٣٢,٩٪ ، انخفضت نسبة الكويتيين في بقية المهن بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

وكما تركز الكويتيون قطاعياً في الخدمات في المقام الأول ، وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني ، فقد تركز غير الكويتيين في الخدمات في المقام الأول ، وفي التشييد والبناء والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني ، وكما يتضح من الجدول (٧) تركز الكويتيون في أعمال الخدمات في المقام الأول ، ٣٢,٨٪ وفي مجال الانتاج والعمال العاديين في المقام الثاني ، ٢٦,٣٪ وفي المهن الكتابية في المقام الثالث ، ١٥,٤٪ عام ١٩٦٥ .

بينما ارتفعت نسبتهم في أعمال الخدمات إلى ٣٦,٣٪ واستمرت بذلك في المقام الأول ، وانخفضت نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين إلى ١٣,٥٪ وانحدرت إلى المقام الثالث ، ثم ارتفعت نسبتهم في المهن الكتابية إلى ٢٣,٨٪ واحتلت المقام الثاني عام ١٩٨٠ .

وأما بالنسبة لغير الكويتيين ، فكانت نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين في المقام الأول ، ٤٩,٥٪ ، وفي أعمال الخدمات في المقام الثاني ٢١,٩٪ وفي المهن العلمية والفنية في المقام الثالث ٨,٣٪ عام ١٩٦٥ .

وبينما انخفضت نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات إلى ٤٤,٨٪ و ٢٠,١٪ على التوالي ، نرى أنها ارتفعت في المهن العلمية والفنية إلى ١٦,٣٪ ، عام ١٩٨٠ .

ولكن بالرغم من الانخفاض الذي طرأ على نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وارتفاع نسبتهم في المهن العلمية والفنية ، إلا أن نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وفي المهن العلمية والفنية ، بقيت في المقام الأول والثاني والثالث على التوالي عام ١٩٨٠ .

إن نمط التوزيع القطاعي والمهني للكويتيين وغير الكويتيين ودرجة التركيز القطاعي والمهني لكل منهما ، لها مدلولات مهمة بالنسبة المستوى درجة المرونة في إحلال الكويتيين محل غير الكويتيين ، من جهة وبالنسبة لتأهيل وتوجيه الكويتيين نحو مختلف القطاعات والمهن من جهة أخرى .

فكما يتضح من الجدول (٨) ، توجهت معظم الزيادة في قوة العمل الكويتية ، . ٨٣٪ إلى قطاع الخدمات بينما توجه فقط ١٧٪ من الزيادة إلى بقية القطاعات بين ١٩٦٥ و ١٩٨٠ .

ويعود سبب الزيادة في قطاع الخدمات ، في المقام الأول ، إلى توجه الكويتيين إلى العمل بالجهاز الحكومي بسبب سياسات التوظيف التي تكفل لهم الوظائف بالجهاز الحكومي من جهة وبسبب زيادة إقبالهم على العمل بالجهاز الحكومي عن إقبالهم على العمل في القطاع الخاص من جهة أخرى .

أما بالنسبة لغير الكويتيين فقد توجه ٤٠,٤٪ من الزيادة إلى قطاع الخدمات و ٢٨,٢٪ إلى قطاع التشييد والبناء و ١٤,٨٪ إلى قطاع التجارة و ٩,٩٪ إلى قطاع الصناعات التحويلية . وهذا يعني أن الزيادة في غير الكويتيين انتشرت بشكل أكثر توزّاناً من انتشار الزيادة في الكويتيين .

وعما أن ذوي المهن المتعلقة بأعمال الخدمات والأعمال الكتابية والمهن العلمية والفنية يشكلون عادة نسبة كبيرة من جملة ذوي المهن في قطاع الخدمات (في حدود ٨٠٪) من جهة ، فإن معظم الزيادة في الكويتيين توجهت إلى قطاع الخدمات . من جهة أخرى ، تركزت معظم الزيادة في الكويتيين بنسبة (٨٨,٩٪) في المهن المتعلقة بالخدمات بنسبة (٣٧,١٪) وفي الأعمال الكتابية (٢٨,٤٪) وفي المهن العلمية والفنية كانت نسبتهم ٢٣,٤٪ .

ونظراً لأن انتشار الزيادة في غير الكويتيين كان أوسع من انتشار الكويتيين قطاعياً ، كان انتشارهم أيضاً أوسع مهتياً . فقد اتجه ٤١,٣٪ و ٢١,٠٪ و ١٨,٩٪ و ١٠,٢٪ من جملة زياتهم إلى المهن المتعلقة بعمل الانتاج والعمال العاديين والمهن العلمية والفنية وأعمال الخدمات والمهن الكتابية على التوالي .

جدول رقم (٦)

ذوي النشاط حسب المهنة والجنسية

(نسب مئوية)

السنة		١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠	
المهنة		ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك
١ - المهن العلمية والفنية		٩٨	٩٠٢	١٤٦	٨٥٤	٢٢٣	٧٦٧	٢٠٦	٧٩٤
٢ - المديرون والإداريون ومندوبو الأعمال		٢٧٩	٦٢٩	٢٤٢	٦٥٧	٣٦٦	٦٢٤	٦٤٠	٦٦٠
٣ - الأعمال الكتابية		٢٧٤	٦٢٦	٤٠٧	٥٩٢	٤٧٠	٥٢٠	٤٠٩	٥٩١
٤ - أعمال البيع		٢٠٤	٦٩٦	٢١٠	٦٩٠	٢٥٧	٧٤٢	١٦٧	٨٢٢
٥ - أعمال الخدمات		٢١٠	٦٩٠	٤٠٢	٥٩٨	٤٢٠	٥٨٠	٢٢٩	٦٧٧
٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد		٢٠٧	٧٩٢	٢٢٦	٧٧٤	٥٠٦	٤٩٤	٢٩٤	٦٠٦
٧ - عمال الانتاج والعمال العاديين		١٢٩	٨٦١	١٢٩	٨٦١	١٤٥	٨٥٥	٧٦	٩٢٤
٨ - غير مبين المهنة		٦٢٢	٢٦٨	٧٥٦	٢٤٤	١٠٠	-	-	-
الجملة		٢٢٣	٧٦٧	٢٥٩	٧٤١	٢٩١	٧٠٩	٢١٤	٧٨٦

المصدر : تم احتساب الجدول على اساس المجوعة الاحصائية السنوية - ١٩٨٥

الجدول ١٠٩ من ١١٧ و ١١٠ من ١١٨ .

جدول رقم (٧)
فئوي النشاط الاقتصادي حسب المهنة والجنسية
(نسب مئوية)

١٩٨٠		١٩٧٥			١٩٧٠			١٩٦٥			المهنة / الجنسية	
ج	ك	ج	ك	ك	ج	ك	ك	ج	ك	ك		
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١ - المهن العلمية والفنية	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	٢ - المديرون الإداريون ومديرو الأعمال	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	٣ - المهن الكتابية	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	٤ - أعمال البيع	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	٥ - أعمال الخدمات	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	٦ - الزراعة وتربية الحيوانات والصيد	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	٧ - صال الانتاج والصال العاديين	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	٨ - غير مبين المهنة	١٢٠٣
١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	١٢٠٣	جئلة ذوي المهن	١٢٠٣

المصدر : نفس مصدر الجدول (٦)

جدول رقم (٨)
الزيادة في جملة ذوي النشاط ، حسب اقسام
النشاط الاقتصادي والجنسية بين
١٩٦٥ و ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		الاجمعي	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%
١ - الزراعة والصيد	٢٣٨٥	٥ر٢	٢٨٠٢	١ر٦	٧١٦٣	٢ر٣
٢ - المناجم والمحاجر	١٠٤٨	١ر٦	١٣٨١	٠ر٦	٢٤٢٩	٠ر١
٣ - الصناعات التحويلية	١٣٥٤	٢ر١	٢١٩٦٤	٩ر١	٢٣٣١٨	٧ر٦
٤ - التشييد والبناء	٥٨	٠ر١	٦٨٣٠٩	٢٨ر٢	٦٨٣٥١	٢٢ر٣
٥ - المياه والغاز والكهرباء	٤٢٣	٠ر٧	٧٥٣	٠ر٣	١١٧٦	٠ر٤
٦ - تجارة الجملة والتجزئة والطعام والشراب	٥٥٢	٠ر٩	٢٥٩٢٤	١٤ر٨	٢٥٢٧٢	١١ر١
٧ - النقل والتخزين والمواصلات	٥٢١٩	٨ر٢	١٤٩٠٩	٦ر٢	٢٠١٢٨	٦ر٦
٨ - التمويل والتأمين والعقارات وخدمات الاعمال والخدمات الاجتماعية الشخصية	٥٢٧٥٨	٨٢ر٠	٩٧٨٤٧	٤٠ر٤	١٥٠٦٠٥	٤٩ر٣
جملة ذوي النشاط	٦٣٥٥٣	١٠٠	٢٤٢١٢٧	١٠٠	٣٠٥٦٨٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية
السنية ١٩٨٥ ، الجدول ١١١ ص ١٣٠ والجدول ١١٢ ص ١٣٢

جدول رقم (٩)

الزيادة في جملة ذوي النشاط حسب الجنسية
والمهنة بين ١٩٦٥ - ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%
١ - المهن العلمية والفنية	١٤٨٣٥	٢٣٫٤	٥٠٤٩١	٢١٫٠	٦٥٣٢٦	٢١٫٥
٢ - الإداريون ومديرو الأعمال	٦٤٣	١٫٠	١٦٠٨	٠٫٧	٢٢٥١	٠٫٧
٣ - الموظفون التنفيذيون والكتابيون	١٨٠٠٦	٢٨٫٤	٢٤٤٦٢	١٠٫٢	٤٢٤٦٨	١٤٫٠
٤ - أعمال البيع	٥٧٠	٠٫٩	١٥٢٤٦	٦٫٣	١٥٨١٦	٥٫٢
٥ - أعمال الخدمات	٢٢٤٧٤	٣٧٫١	٤٥٦٣١	١٨٫٩	٦٨١٠٥	٢٢٫٧
٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد	٣١١٦	٤٫٩	٣٠٦٩	١٫٢	٦١٨٥	٢٫٠
٧ - عمال الانتاج والعمال العاديون	٣٦٦٤	٤٫٢	١٠٠٤٤٣	٤١٫٧	١٠٣١٠٧	٣٣٫٩
جملة زيادة ذوي المهن	٦٣٣٠٨	١٠٠	٢١٠٩٤٠	١٠٠	٣٠٤٢٤٨	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس المجموعة الإحصائية السنوية
١٩٨٥ الجدول ١٠٩ ص ١١٧ والجدول ١١٠ ص ١١٨ .

تزايد السكان غير الكويتيين والاختلالات الهيكلية السكانية

ان تزايد عدد السكان بمعدلات خارقة للعادة ، من جهة ، وما رافق ذلك من تغيرات بارزة في مختلف جوانب الهيكل السكاني ، من جهة أخرى ، يعدّ من أبرز التطورات غير المقصودة ، التي شهدتها مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الكويت منذ الخمسينات .

١ - سرعة واتجاهات النمو :

ارتفع عدد سكان الكويت من ٢٠٦٤٧٣ عام ١٩٥٧ الى ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ ، أي بمعدل نمو ٧,٨٪ سنوياً .
وكما يتضح من الجدول (٩) تبين معدلات النمو بين سنوات التعدادات بالنسبة لجملة السكان والسكان غير الكويتيين والسكان الكويتيين .

أ - جملة السكان :

شهدت الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ، ١١,٧٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو إلى ٩,٨٪ و ٩,٦٪ و ٩,١٪ خلال الفترات ١٩٦١ - ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ - ١٩٧٠ و ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، على التوالي ، ثم ارتفع إلى ٦,٤٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٤,٥٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ .
وباستثناء الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ فقد كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث بينما كان معدل نمو الإناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ب - السكان غير الكويتيين :

بالرغم من التباين بين معدلات نمو غير الكويتيين وجملة السكان بين سنوات التعدادات ، إلا أن الاتجاه العام لنمو السكان غير الكويتيين اتسق مع الاتجاه العام لنمو جملة السكان .
فكما في حالة جملة السكان ، شهدت الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ١٤,٥٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو إلى ١١,٥٪ و ٩,٦٪ و ٦,٠٪ خلال الفترات ١٩٦١ - ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ - ١٩٧٠ و ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، على التوالي ، ثم ارتفع إلى ٨,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٥,١٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ .

وكما في حالة جملة السكان ، باستثناء الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، حيث كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث ، كان معدل نمو الإناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ج - السكان الكويتيون :

بلغ معدل نمو السكان الكويتيين ٩,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ ، وكان بذلك أقل من معدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان . وخلافاً لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، لم يكن معدل النمو خلال هذه الفترة أعلى من معدلات النمو خلال الفترات التالية .

وكاتجاه نحو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، انخفض معدل نمو السكان الكويتيين الى ٨,٠٪ خلال الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٥ ولكنه ارتفع الى ٩,٦٪ خلال الفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ثم انخفض الى ٦,٣٪ خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ و ١٩٨٠ - ١٩٨٥ . وباستثناء الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ حيث كان معدل نمو الذكور أعلى قليلاً من معدل نمو الإناث ، كان معدل نمو الإناث إما أعلى أو مساوياً لمعدل نمو الذكور خلال بقية الفترات .

د - سرعة نمو السكان الكويتيين والسكان غير الكويتيين :

باستثناء الفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٠ حيث كان معدل نمو جملة السكان الكويتيين ٩,٦٪ سنوياً ، مساوياً لمعدل نمو جملة السكان غير الكويتيين ، والفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، حيث زاد معدل نمو السكان الكويتيين قليلاً عن معدل نمو السكان غير الكويتيين ، ٦,٣٪ مقابل ٦,٠٪ ، كان معدل جملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدل نمو السكان الكويتيين في بقية الفترات .

وكانت معدلات نمو الذكور والإناث وجملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدلات نمو الذكور والإناث وجملة السكان الكويتيين ، ٨,٠٪ مقابل ٦,٤٪ و ١١,٢٪ مقابل ٨,٩٪ و ٦,٦٪ مقابل ٦,٠٪ ، على التوالي ، خلال كامل الفترة ١٩٥٧ - ١٩٨٥ .

٢ - أسباب النمو :

يتأثر نمو السكان بمعدل المواليد ومعدل الوفيات وصافي الهجرة ، وعادة يتغير معدل المواليد ومعدل الوفيات ببطء ، أما صافي الهجرة فأكثر عرضة للتغير بسرعة .

أ - السكان الكويتيون :

تراوح معدل نمو السكان الكويتيين بين ٩,٦٪ سنوياً و ٦,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٧٥ ، واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٥ . بينما يمكن اعتبار معدل نموهم خلال الفترة ، ١٩٧٥ - ١٩٨٥ ، طبيعياً لا يمكن اعتبار معدلات نموهم خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٧٥ طبيعية . إذ بافتراض معدلات وفيات منخفضة جداً ، فمن غير المعقول أن تكون معدلات المواليد كانت مرتفعة للدرجة التي تحقق معدلات نمو غارقة للعادة خلال هذه الفترة .

فكيف يمكن تفسير معدلات النمو غير الاعتيادية ؟ لا تتوفر لنا بيانات ومعلومات تتيح لنا اجابة قاطعة عن ذلك . ولكن من الممكن اقتراح بعض الاسباب بصفة أولية . فمن الممكن تفسير معدلات النمو المرتفعة جزئياً بتحسين ودقة التعدادات السكانية وجزئياً بالتجنيس .

ب - السكان غير الكويتيين :

وأما بالنسبة لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين فكانت في المقام الأول بسبب الهجرة الصافية . فكما ذكرنا سابقاً أدت عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى زيادات مستمرة في الطلب على العمالة أكبر بكثير من العرض منها محلياً وكان لا بد من مواجهة العجز المتزايد بعمالة وافدة ، عربية وغير عربية . وأدى تدفق العمالة الوافدة وما رافقها من أفراد أسرها إلى تزايد عدد السكان غير الكويتيين من جهة وإلى زيادة الطلب على العمالة الوافدة لمواجهة ازدياد الطلب على الخدمات من جهة أخرى .

٣ - التغيرات الهيكلية :

أدت الزيادات غير الطبيعية للسكان غير الكويتيين بسبب الهجرة الصافية ، في المقام الأول ، إلى أحداث تغيرات هامة في مختلف جوانب الهيكل السكاني .

أ - تناقص نسبة السكان الكويتيين :

أدت زيادة سرعة نمو عدد السكان غير الكويتيين عن سرعة نمو السكان الكويتيين إلى انحماض نسبة السكان الكويتيين إلى الانخفاض وانحماض نسبة غير الكويتيين إلى الارتفاع .

فكما يتضح من الجدول (١٠) أن نسبة السكان الكويتيين قد انخفضت من ٥٥٪ عام ١٩٥٧ إلى ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ بعد أن نسبة السكان غير الكويتيين قد ارتفعت من ٤٥,٠٪ إلى ٥٩,٩٪ بين نفس العامين . وبينما كانت نسبة السكان الكويتيين أكبر من نسبة السكان غير الكويتيين ، ٥٥,٠٪ مقابل ٤٥,٠٪ عام ١٩٥٧ ، أصبحت نسبة السكان غير الكويتيين أكبر من نسبة السكان الكويتيين ، ٥٩,٩٪ مقابل ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ .

جدول رقم (١٠)

السكان حسب الجنسية في سنوات

(نسب مئوية)

السنوات التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٥٥,٠	٤٥,٠	١٠٠
١٩٦١	٥٠,٢	٤٩,٧	١٠٠
١٩٦٥	٤٧,١	٥٢,٩	١٠٠
١٩٧٠	٤٧,٠	٥٣,٠	١٠٠
١٩٧٥	٤٧,٥	٥٢,٥	١٠٠
١٩٨٠	٤١,٧	٥٨,٣	١٠٠
١٩٨٥	٤٠,١	٥٩,٩	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على أساس نفس مصدر الجدول (٩) .

ب - الهيكل النوعي :

يتضح من الجدول (١١) أن نسبة الذكور المجهت إلى انخفاض بينما المجهت نسبة الاناث إلى الارتفاع بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين على السواء .

كانت نسبة الذكور ٥٢,١ ٪ ، وكانت نسبة الاناث ٤٧,٩ ٪ من السكان الكويتيين بينما كانت نسبة الذكور ٨٧,٥ ٪ ونسبة الاناث ٢١,٥ ٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٥٧ وأصبحت نسبة الذكور ٤٩,٦ ٪ ونسبة الاناث ٥٠,٤ ٪ في السكان الكويتيين ونسبة الذكور ٦١,٨ ٪ ونسبة الاناث ٣٨,٣ ٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٨٥

وإن كان الاتجاه واحدا بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين ، إلا أن نسب الذكور والاناث بالنسبة للسكان الكويتيين ، وإن تباينت بين سنوات التعداد ، إلا أنها تعتبر طبيعة وتتسق مع الهيكل النوعي الطبيعي للسكان .

أما بالنسبة للسكان غير الكويتيين فقد كان الهيكل غتلاً كثيراً عام ١٩٥٧ . وبالرغم من التحسن الذي طرأ على نسبة الاناث حيث ارتفعت من ٢١,٥ ٪ عام ١٩٥٧ إلى ٣٨,٣ ٪ عام ١٩٨٥ ، إلا أن الهيكل النوعي بقي غتلاً كثيراً . وهذا يعني أن نسبة النوع طبيعية بالنسبة للسكان الكويتيين بينما هي غير طبيعية بالنسبة للسكان غير الكويتيين . فمجتمع غير الكويتيين مجتمع ذكور . ونظراً لأن سرعة تزايد السكان غير الكويتيين كان أعلى من سرعة تزايد السكان الكويتيين ، أصبح هيكل جملة السكان غتلاً بالنسبة للنوع والجنسية .

ويعود الاختلال في الهيكل النوعي للسكان غير الكويتيين إلى أثر الهجرة الصافية . ففي أول الأمر لم تتخذ هجرة العمالة ، وهي من الذكور ، الطابع الأسري على اعتبار أن الهجرة ستكون مؤقتة . وعندما امتدت فترات إقامة العمالة وبدأ اتجاه الطابع الأسري لهجرة العمالة وضعت الحكومة ضوابط لاصطحاب أو إحضار أفراد أسر العمالة الوافدة . وبذلك بقيت نسبة الذكور في السكان غير الكويتيين مرتفعة .

ج - تنوع جنسيات السكان غير الكويتيين :

كما يتضح من الجدول (١٢) تشمل قوة العمل غير الكويتية رعايا من مختلف مجموعات دول العالم . وتأتي نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول ونسبة قوة العمل الآسيوية في المقام الثاني في عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠ . وبالرغم من استمرار نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول إلا أنها انخفضت بشكل بارز بينما ارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية بشكل ملحوظ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

وعما أن قوة العمل غير الكويتية تنتمي إلى مختلف مجموعات دول العالم ، فإن السكان غير الكويتيين - وكما يتضح من الجدول (١٣) - ينتمون إلى مختلف مجموعات دول العالم . وكما أن نسبة قوة العمل العربية تأتي في المقام الأول ويليهما نسبة قوة العمل الآسيوية ، تأتي نسبة السكان العرب في المقام الأول ويليهما السكان الآسيويون . وكما انخفضت نسبة قوة العمل العربية وارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية ، فقد انخفضت - أيضاً - نسبة السكان العرب بينما ارتفعت نسبة السكان الآسيويين بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

جدول رقم (١٢)
قوة العمل غير الكويتية حسب مجموعات الدول
التوزيع النسبي

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربية	٦٨,٩٧	٥٩,٥٥
آسيوية	٢٩,٤٢	٣٧,٩٧
افريقية	٠,٠٥	٠,٢١
امريكية واوروبية	٠,٩٥	١,٤٤
مغتربون جدد	٠,٦١	٠,٨٣
الجملة	١٠٠	١٠٠

المصدر : المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ١٠٠ ص ١١٠ .

جدول رقم (١٣)
السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول
(نسب مئوية)

مجموعات الدول	١٩٧٥	١٩٨٠
عربية	٨٠,١٩	٧٢,٥١
آسيوية	١٨,٧١	٢٥,٧٦
افريقية	٠,٠٨	٠,٢٠
اوروبية	٠,٨٢	١,٢٦
امريكية	٠,١٦	٠,٢٥
اخرى	٠,٠٤	٠,٠٢
الجملة	١٠٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ -
جدول ٣٩ ، ص ٥٥ .

د . الميكل العمري للسكان ومعدل المشاركة :

يستدل من الجدول (١٤) أن نسبة صغار السن (أقل من ١٥ سنة) في السكان الكويتيين قد تذبذبت قليلا حيث انخفضت قليلا عام ١٩٧٠ ثم ارتفعت قليلا عام ١٩٧٥ ثم انخفضت قليلا عام ١٩٨٠ ، بينما اتجهت نسبة صغار السن في السكان غير الكويتيين إلى الارتفاع تدريجياً بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، ثم انخفضت عام ١٩٨٠ . ويعود انخفاض هذه النسبة بين عام ١٩٧٥ - ١٩٨٠ إلى القيود التي فرضت على اصطحاب أفراد أسر العمالة الوافدة . وبسبب اتجاه نسبة صغار السن إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ اتجهت نسبة من هم في سن ١٥ - ٥٩ سنة إلى الانخفاض خلال نفس الفترة ، إذ انخفضت النسبة من ٦٨,٨ ٪ عام ١٩٦٥ إلى ٦٠,٥ ٪ عام ١٩٧٥ و ٥٨,٨ ٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي ، وعلى عكس ما حصل بالنسبة لصغار السن ، ارتفعت هذه النسبة من ٥٨,٨ ٪ عام ١٩٧٥ إلى ٦٥,١ ٪ عام ١٩٨٠ ، حيث أصبح اصطحاب أفراد الأسر أو إحضارهم أقل سهولة من الفترات السابقة .

وأما بالنسبة للسكان الكويتيين فقد كانت تقلبات نسبة صغار السن أقل منها في السكان غير الكويتيين ، فبينما كانت ٤٨,٩ ٪ عام ١٩٦٥ نجد أنها ارتفعت قليلا ووصلت إلى ٤٩,٧ ٪ عام ١٩٨٠ .

وبما أن حجم السكان غير الكويتيين أكبر من حجم السكان الكويتيين فقد تأثر الهيكل العمري لجملة السكان بالهيكل العمري للسكان غير الكويتيين أكثر من تأثره بالهيكل العمري للسكان الكويتيين . لذلك اتجهت نسبة صغار السن في جملة السكان إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، حيث ارتفعت من ٣٨,٠ ٪ عام ١٩٦٥ إلى ٤٣,١ ٪ و ٤٣,٤ ٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي - ثم انخفضت إلى ٤٠,٣ ٪ عام ١٩٨٠ .

ويؤثر الهيكل العمري والهيكل النوعي على معدل المشاركة (قوة العمل كنسبة مئوية من السكان) ، بافترض الهيكل النوعي . فكلما ازدادت نسبة صغار السن كلما انخفض معدل المشاركة . وكما يتضح من الجدول (١٥) ، فقد اتجه معدل المشاركة بالنسبة لغير الكويتيين إلى الانخفاض وذلك بين (١٩٦٥ - ١٩٧٥) نظراً لأن نسبة صغار السن فيهم اتجهت إلى الارتفاع خلال نفس الفترة . وبما أن نسبة صغار السن انخفضت عام ١٩٨٠ ، فقد ارتفع معدل المشاركة .

أما بالنسبة للسكان الكويتيين ، فلا يبدو أثر التغير في نسبة صغار السن على معدل المشاركة واضحاً . إذ أن اتجاهها كان واحداً بين ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، وبالرغم من أن نسبة صغار السن ارتفعت عام ١٩٧٥ كما كانت عليه عام ١٩٧٠ ، إلا أن معدل المشاركة ارتفع بدلاً من أن ينخفض ، كما أن اتجاه نسبة صغار السن ومعدل المشاركة كان واحداً بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

دروس الخبرة وأفاق المستقبل

يمكن استخلاص المعالم الأساسية لنموذج تفاعل العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للمعملة من مختلف دول العالم إلى الكويت والتي أعطت ثماراً يائنة ، من جهة ، وبعض الثمار غير المرغوبة ، من جهة أخرى .

جدول رقم (١٥)

قوة العمل كنسبة مئوية من السكان

١٩٨٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٥٧	
١٩,١	١٩,٥	١٨,٨	١٩,٥	٢١,٧	كويتي
٤,٣٤	٤,٠٧	٤,٥٢	٥,٧١	٦,٠٠	غير كويتي
٢٦,٢	٢٣,٦	٢٣,٨	٢٩,٤	٢٨,٩	المجموع

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ٩
ص ٢٥ - والجدول ١ من هذه الدراسة ،

١ - النموذج :

يبين الشكل - ١ تصوراً مبسطاً لنسيج الترابط بين العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة الوافدة إلى الكويت والآثار التي ترتبت عليها .

بدأت مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بعد أن بدأت عائلات النفط بالتدفق في أوائل الخمسينات . وتأثر مسار وتوجهات التنمية وسرعتها منذ البداية بسرعة نمو عائلات النفط من جهة ، ومفهوم وأهداف التنمية من جهة أخرى . وفي إطار مفهوم التنمية التي تطلعت الحكومة إلى تحقيقها ، حظي الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل وتنوع مصادر الدخل باهتمام خاص .

يعتمد تحقيق أهداف التنمية على الموارد المتاحة من جهة ، وعلى كفاءة تخصيصها واستخدامها من جهة أخرى . وتوفرت ، بفضل العائدات النفطية ، الموارد المالية اللازمة لتمويل مشروعات متزايدة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ونظراً لصغر حجم السكان من جهة ، ونفورة للمهارات من جهة أخرى ، عجز العرض المحلي من العمالة عن تلبية متطلبات عمليات التنمية منذ مستهل المسيرة . وتم سد العجز باستيراد العمالة اللازمة من دول عربية وغير عربية . ولم تقتصر الهجرة على العمالة ، بل وشملت أيضاً أفراد أسر العمال المهاجرين . أي أن حجم السكان غير الكويتيين تأثر بعاملين : حجم العمالة الوافدة ومعدل المرافقة لها . وتأثر معدل المرافقة بسياسات وإجراءات الهجرة التي تبنتها ونفذتها الحكومة ، من جهة ، وبمجنسيات للعمالة الوافدة من جهة أخرى .

وبما أن حجم ونوع السكان ومستوى دخلهم يحدد حجم ونوع طلبهم على السلع والخدمات ، تأثر إجمالي ونوع الطلب على السلع والخدمات بحجم السكان غير الكويتيين وجنسياتهم ومستوى دخلهم . وأصبح السكان غير الكويتيين عاملاً مهماً في الطلب على السلع والخدمات وتلبية الطلب على السواء . بمعنى آخر ، أصبحوا عاملاً مهماً في إنتاج واستهلاك السلع والخدمات على السواء .

وبسبب الزيادة المستمرة في العائدات النفطية ، وخاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات عندما بدأ الكساد العالمي ، أخذ الطلب على العملة الوافدة بالارتفاع باستمرار . وأدى تزايد الاعتماد على العملة الوافدة إلى تناقص نسبة العملة الكويتية في جملة العملة من جهة ، وتزايد نسبة السكان الوافدين في جملة السكان من جهة أخرى . وأصبح الكويتيون يشكلون ١, ٤٠٪ من جملة السكان حسب تعداد ١٩٨٥ ونقط ٢, ٢٣٪ من جملة المشتغلين حسب تقدير ١٩٨٣ .

٢ - الانكماش الاقتصادي وانخفاض الطلب على العملة :

تأثر إنتاج وتصدير النفط بالكساد العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات . وبما أن الاقتصاد الكويتي اعتمد ، ولا زال يعتمد ، في المقام الأول ، على قطاع النفط ، بدأ أيضاً في الانكماش في مطلع الثمانينات .

فقد انخفض إجمالي الناتج المحلي من قيمته ١٧٤٦,٧ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ١٥٧٧,٤ مليون دينار كويتي ، و ١٤٩٤,٠ مليون دينار كويتي ، و ١٤٧٣,٧ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي ^(١) .

ولكن بالرغم من تراجع إجمالي الناتج المحلي بسبب تراجع الناتج المحلي النفطي ، استمر الناتج المحلي غير النفطي بالارتفاع . فقد ارتفع من ١٠٥٠,٨ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ١١٤٤,٢ مليون دينار كويتي و ١١٧٨,٧ مليون دينار كويتي و ١٢٤٢,٣ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي ^(٢) .

وبعود استمرار ارتفاع الناتج المحلي غير النفطي بالرغم من استمرار تراجع الناتج المحلي النفطي وبالتالي استمرار تراجع إجمالي الناتج المحلي ، في المقام الأول ، بين ١٩٧٩ و ١٩٨٢ ، إلى استمرار نمو الاتفاق العام ^(٣) . فمستوى النشاط الاقتصادي خارج قطاع النفط اعتمد ، ولا زال يعتمد ، على مستوى الاتفاق العام . ولكن بسبب اتجاه أسعار النفط إلى الانخفاض منذ مارس ١٩٨٣ وتدهورها منذ أواخر ١٩٨٥ ، وبالتالي تدهور الإيرادات النفطية ، أصبح لزاماً على الحكومة أن تلجأ إلى تخفيض الاتفاق العام ، مما اضطرها إلى تقليص ميزانية عام ١٩٨٥/١٩٨٦ ، بعد اعتمادها .

(١) المجوعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجداول ٢١٣ من ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ارتفعت جملة المبروريات الحكومية من حوالي ٣٧٠٣ مليون دينار عام ١٩٨١/١٩٨٠ إلى ٣٢٤٨ مليون دينار عام ١٩٨٢/١٩٨١ ، ولكنها انخفضت إلى ٣٠٢٤ مليون دينار عام ١٩٨٣/١٩٨٢ . انظر المجوعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجداول ٢١٧ من ٢٤٦ .

وكما يتوقع أدى تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى تراجع الطلب على العمالة وتزامن انخفاض الطلب على العمالة مع أمرين مهمين فيآله علاقة بالعمالة الوافدة . الأمر الأول ، أنه قد تم إقامة معظم ، إن لم يكن جميع الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبما أن مشروعات الهياكل الأساسية أسهمت إسهاماً كبيراً في ازدهار قطاع التشييد والبناء خلال الفترة الماضية من جهة ، ونظراً لأن هذا القطاع اعتمد اعتماداً كلياً تقريباً ، على العمالة الوافدة واستخدم نسبة كبيرة منها ، من جهة أخرى ، أخذ الطلب على العمالة اللازمة لهذا القطاع بالانخفاض . ولما الأمر الآخر فيتعلق بقوة العمل من الكويتيين .

يتوقف حجم قوة العمل على حجم السكان ومعدل المشاركة وتتوقف نوعية قوة العمل على نوعية ومستوى مهاراتها ، أي نوع ومستوى تعليمها . وكما تبين لنا سابقاً فقد تزايد السكان الكويتيون بسرعة عالية خلال الفترة الماضية ، وتزايد عدد الانث في قوة العمل من جهة وتراجعت نسبة الأمية وطراً تحسن ملموس على الحالة التعليمية لقوة العمل وزادت خبرتها من جهة أخرى^(٩) . أي أن العرض المحلي من قوة العمل قد تحسن كثيراً ، كما ونوعاً .

لذا كان النمو الاقتصادي ، الذي ارتبط بنمو عائدات النفط من جهة ، وتزايد عجز العرض المحلي من قوة العمل عن تلبية تزايد الطلب على العمالة من جهة أخرى قد أدبأ إلى ظاهرة الهجرة الواسعة وما ترتب عليها من آثار مقصودة وآثار غير مقصودة في الماضي ، هل يؤدي تباطؤ النمو الاقتصادي بسبب تراجع عائدات النفط وانخفاض الطلب على العمالة من جهة ، وتحسن العرض المحلي من قوة العمل ، كما ونوعاً ، من جهة أخرى ، إلى هجرة معاكسة ؟ .

لقد أدت الهجرة التي تمت على نطاق واسع لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى خلق ترابط وثيق بين تواجد الوافدين وتوقعات استمرار وتزايد تواجدهم والعديد من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تمت فما لم تتم الهجرة للمعاكسة ، إن كان لا بد من أن تتم ، في إطار رؤيا واضحة وخطة مدروسة تنطلق من إدراك واع وتام لأرض الواقع وحكم سليم على احتمالات المستقبل ، فقد يترتب عليها آثار سلبية غير محسوبة يصعب احتواؤها .

٣ - هل مستمر الحاجة إلى العمالة الوافدة في المدى المنظور :

يبين الجدولان ١٦ و ١٧ المشتغلين عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . ويتضح من الجدولين أن مجموع عدد المشتغلين ازداد بمعدل ٠,٦٣ ٪ ، سنوياً بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . بينما ازداد عدد المشتغلين الكويتيين بمعدل ٣,٦٦ ٪ سنوياً وارتفعت نسبتهم من مجموع المشتغلين من ٢١,٢ ٪ إلى ٢٣,٢ ٪ وقد تناقص عدد المشتغلين غير الكويتيين بمعدل ٠,٢١ ٪ وانخفضت نسبتهم من ٧٨,٨ ٪ إلى ٧٦,٨ ٪ خلال هذه الفترة . فما هي احتمالات المستقبل ؟

يتضح من الجدولين أن ثلاث قطاعات ، خدمات التجميع والخدمات الاجتماعية والشخصية والتشييد والبناء والصناعات التحويلية ، استخدمت ٧٤,٣ ٪ من مجموع المشتغلين عام ١٩٨٠ وقد ارتفعت هذه النسبة إلى ٧٥,٨ ٪ عام ١٩٨٣ .

(٩) كان ٢٥١,٦ و ٢٣٩,٠ من حملة البكالوريوس وما فوق و ١٠٦,٤ و ١٠٤,٤ من الثانوية و ٢١,٢ و ٢١,٢ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٨٥ ، وأصبح ٢٢٥,٣ و ٢١٧,٢ عاماً وكب و ١٢٣,٢ و ١٢٠,٦ من الثانوية و ٢٠,٦ و ٢٠,٦ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٨٠ . انظر المجموعة الإحصائية لسنة ١٩٨٥ . الجدول ١٠٧ والجدول ١٠٨ ص ١١٦ .

وبناء على ذلك فإن مدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة ، مرهون ، في المقام الأول ، بما يمكن أن يطرأ على الطلب والعرض بالنسبة للقطاعات الثلاثة .

أ - قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية :

إن نمو المشتغلين في القطاع بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ لا يعني أنه سيستمر بنفس الاتجاه أو نفس السرعة في المستقبل المنظور .

وعلى الرغم من أن نمو جملة المشتغلين في مختلف القطاعات كان بطيئاً جداً ، « ٠,٦٣ ٪ سنوياً » ، بلغ معدل النمو السنوي لجملة المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية ٥ ٪ خلال ١٩٨٠ - ١٩٨٣ . ويعود سبب نمو المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع ، في المقام الأول ، إلى نمو السكان . حيث بلغ معدل النمو السنوي لجملة السكان ٥ ٪ خلال نفس الفترة .

وبما أن الحكومة اعتمدت سياسات ومستخذ إجراءات لتعديل التركيبة السكانية فمن المتوقع أن تنخفض سرعة نمو جملة السكان إلى ٢,٢٢ ٪ ما بين عام بين ١٩٨٥ وعام ٢٠٠٠^(١٠) . وبافتراض استمرار نفس مستوى الخدمات من جهة ونفس مستوى إنتاجية العمالة فيه ، من جهة أخرى ، سيكون نمو جملة العمالة في القطاع في حدود ٢ ٪ سنوياً .

ومن الممكن مواجهة نمو طلب القطاع من النمو المتوقع في عرض العمالة الكويتية . ولكن ليس ذلك بالأمر السهل . فحسب بعض التقديرات يمثل المشتغلون في الخدمات الشخصية والمنزلية حوالي ٢٠ ٪ من جملة المشتغلين في القطاع ، وما لا يقل عن ٩٥ ٪ منهم من غير الكويتيين^(١١) . وقد ازداد الطلب على هذه العمالة بسبب نمو الرخاء من جهة وظهور قيم اجتماعية من جهة أخرى . فعدد المشتغلين في الخدمات المنزلية للعائلة يتغير مؤشراً لحالتها في المجتمع . ومن غير المتوقع أن يتجه الطلب على هذه الفئة إلى الانخفاض .

ويتضح مما سبق أن حاجة القطاع إلى العمالة الوافدة ستستمر ، ولكن بدرجة أقل ، في المدى المنظور .

ب - قطاع التشييد والبناء :

كما يتضح من الجدولين ١٦ و ١٧ « تراجع عدد المشتغلين في القطاع من « ٩٧٠٩٩ إلى ٨١٣٦٢ » وتراجعت نسبة المشتغلين في القطاع من جملة المشتغلين من « ٢٠,١ ٪ إلى « ١٦,٥ ٪ بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ .

لقد تأثر ازدهار القطاع في الفترة الماضية ، في المقام الأول ، بازدهار مشروعات المياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية ومشروعات الاسكان التي نفذتها الحكومة ، كما تأثر ايضا ببناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

وفيما يتعلق بالمياكل الأساسية فقد تم إقامة معظمها ، إن لم يكن جميعها ، ولذلك فإن أي توسع فيها سيكون في حدود بسيطة نسبياً . وكذلك الأمر بالنسبة لبناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

(١٠) بافتراض معدل نمو سنوي مقداره ٣,٧٤ ٪ سيكون عدد السكان الكويتيين ١٦٧٨٨٢٦ عام ٢٠٠٠ . وبافتراض تحقيق التوازن السكاني سيكون جملة السكان

٢٧٠٦١٢ عام ٢٠٠٠ . وبما أن جملة عدد السكان ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ يكون معدل النمو السنوي لجملة السكان ٢٢,٢٢ ٪

(١١) نموذج قشريعي ، العمال الأجانب في البلدان العربي للتربية للقطعة ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١ / رقم ٤ ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٧ - ٣٤ .

جدول رقم - ١٦ -
المتفكرون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٠

الجنس				غير كويتي				كويتي				
النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	
جملة	المتفكرون		جملة	المتفكرون		جملة	المتفكرون		جملة	المتفكرون		
٤٥٧	١٠٠	٢٢٠٤٥٣	٢٨١	٦٥٨	١٤٤٩٩٢	٧٣٦	٢٤٦	٧٥٤٦١				١ - خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية
٢٠١	١٠٠	٩٧٠٩٩	٢٥٣	٩٨٨	٩٥٨٩٣	١٢	١٢	١٢٠٦				٢ - التشييد والبناء
٨٥	١٠٠	٤١٢٦٠	١٠٠	٩٢٦	٢٨٠٨	٢١	٧٧	٣١٧٩				٣ - الصناعات التحويلية
٢٥٧	١٠٠	١٢٢٨٢٩	٢٦٦	٨١٧	١٠١٢٠٥	٢٢١	١٨٣	٢٢٦٢٤				٤ - تقنية القطاعات
١٠٠		٤٨٢٦٤١	١٠٠	٧٨٨	٢٨٠١٧	١٠٠	٢١٢	١٠٢٤٧٠				الجلسة

المصدر : تم إعداد الجدول على أساس التسمية الأصلية السرية ١٩٨٥ - جدول ٩٤ ص ١٠٩ .

ومن المتوقع أن ينشأ طلب على العمالة للقطاع لتشغيل وصيانة مشروعات الاستثمار التي بلغت ذروتها في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات . وسيكون مزيج الطلب على المهارات مختلفاً عن مزيج الطلب في الفترة السابقة . ولكن بالرغم من تراجع طلب القطاع على العمالة ووجود أسباب قوية لتراجعها أكثر إلا أن حاجة القطاع للعمالة الوافدة مستمرة في المدى المنظور . نسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع كانت فقط ١,٢٪ و ١,٣٪ عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ على التوالي . إن ارتفاع النسبة من ١,٢٪ إلى ١,٣٪ لا تعني زيادة في عدد الكويتيين في القطاع . إذ أن عددهم قد انخفض من ١٢٠٦ إلى ١٠٧٣ . ويعود السبب في ارتفاع نسبتهم من ١,٢٪ إلى ١,٣٪ إلى انخفاض عدد غير الكويتيين . ونظراً لأن نسبة كبيرة من المشتغلين في القطاع من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٨٠-٨٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال في القطاع ضعيفة جداً .

ج . قطاع الصناعات التحويلية :

تراجع عدد من المشتغلين في هذا القطاع من ٤١٢٦٠ إلى ٣٩٦٦٤ بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ ، إلا أن عدد المشتغلين الكويتيين ارتفع من ٣١٧٩ إلى ٣١٨٢ .

وبما أن الصناعات التحويلية تشمل المنتجات البترولية والمنتجات غير البترولية يعود تراجع عدد المشتغلين في القطاع إلى تراجع النشاط في قطاع النفط . ومن المعلوم أن تنوع مصادر الدخل من خلال إقامة وتطوير صناعات تحويلية حظي ، ولأزال يحظى ، باهتمام متزايد . وقد اعتمد هذا القطاع ، ولأزال يعتمد ، على العمالة الوافدة بشكل كبير . ففي عام ١٩٨٣ ، كانت نسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع فقط ٨٪ .

وبما أن نسبة كبيرة من المشتغلين في هذا القطاع هم من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٧٠-٧٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال فيه ضعيفة . ولذلك فمن المتوقع أن تستمر حاجة القطاع إلى معظم العمالة الوافدة التي تعمل في القطاع حالياً ، كما من المتوقع أن تنشأ العمالة الوافدة لمواجهة أي نمو في الطلب على العمالة خاصة بالنسبة لعمال الانتاج والعمال العاديين وبعض المهارات النادرة في المستقبل المنظور .

٤ - مواجهة المرحلة الانتقالية :

بينما كان العجز بين إجمالي الطلب على العمالة وعرض العمالة الكويتية يزداد باستمرار ويزداد الاعتماد على العمالة الوافدة باستمرار تسارع النمو الاقتصادي خلال الفترة الماضية وخاصة بعد ١٩٧٣ وإلى أوائل الثمانينات ، أصبحت الزيادة في عرض العمالة الكويتية أكبر من الزيادة في إجمالي الطلب على العمالة بسبب تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ منذ ١٩٨٠ .

فبينما ازداد عدد المشتغلين « ٩٣٣٧ » شخص « ازداد عدد المشتغلين الكويتيين « ١١٦٧٥ » شخص « وانخفض عدد المشتغلين الوافدين « ٢٤٣٨ » شخص « بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . وهذا يعني أن زيادة عدد المشتغلين الكويتيين تمت بزيادة عدد جملة المشتغلين (١٪) (٧٪) وبانخفاض عدد المشتغلين الوافدين (٩,٢٠) وإحلال كويتيين محلهم . ومنذ عام ١٩٨٤ قام العديد من مؤسسات وشركات القطاع الخاص في مختلف القطاعات الاقتصادية بصفة عامة وفي قطاع التشييد والبناء بصفة خاصة ، باتخاذ إجراءات لمواجهة انخفاض مستوى نشاطها وتراجع الطلب على العمالة وقد تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين لديها أو تخفيض مرتباتهم وأجورهم وإلغاء بعض المزايا التي كانت تقدمها لهم في السابق .

وقد قررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين العاملين في الوزارات والمؤسسات العامة والمؤسسات العامة اعتباراً من مطلع صيف هذا العام . وهذا مؤشر على اعتماد الحكومة سياسة تخفيض حجم العمالة الحكومية . وربما كان هذا الاتجاه نابعا من شعور الحكومة بأن حجم العمالة الحكومية قد ازداد أكثر بكثير من الاحتياجات الفعلية خلال الفترة السابقة حيث أدت سهولة تمويل الانفاق العام ، بسبب تزايد العائدات النفطية ، إلى سهولة خلق وظائف جديدة باستمرار . وفي ظل تدهور العائدات النفطية واهتمام الحكومة بترشيد الانفاق العام ، فمن الطبيعي أن يكون تخفيض العمالة الحكومية بين الخيارات المتاحة لها .

وبما أن التوقعات تشير إلى استمرار تباطؤ نمو إجمالي الطلب على العمالة من جهة ، ونظراً لاتجاه زيادة العرض من العمالة الكويتية من جهة أخرى ، خلال الثمانينات على أقل تقدير ، يثور السؤال حول أفضل الخيارات الممكنة لمواجهة هذه المسألة بشكل يكفل الحد من الآثار السلبية التي قد تترتب على ذلك بالنسبة لجميع الأطراف المعنية . ويضرب عن هذا السؤال المركزي سؤال آخران :

الأول : ما هي المعايير التي يتم بموجبها الاستغناء عن العمالة الوافدة ؟ والآخر ما هي السياسات التي ستعتمد بالنسبة لمن سيتم الاستغناء عنهم ؟ .

أ - معايير الاستغناء عن العمالة الوافدة :

يتطلب النظر في معايير الاستغناء التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة في القطاع الخاص وفي الحكومة . إذ أن الاستغناء عن العمالة في القطاع الخاص أقل إثارة للنقاش وأقل تعرضاً لتعدد وجهات النظر . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة في الحكومة فأكبر مجالاً لاثارة النقاش ولتعدد وجهات النظر حوله .

١ - في القطاع الخاص :

ذكرنا أن القطاع الخاص واجه انخفاض حاجته إلى العمالة باعتماد إجراءات تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين أو تخفيض المرتبات والأجور وإلغاء بعض اللزايا . وهذا يعني أن المعيار ينطلق من التكلفة والمنافع . وبصفة عامة يمكن القول أن القطاع الخاص يطبق هذا المعيار على العمالة الكويتية والعمالة الوافدة على السواء في إطار تحقيق مصلحته الخاصة . ومن الطبيعي أنه في حالة تساوي التكلفة والمنافع بين الاستغناء عن عامل وافد آخر كويتي ، إن يحفظ بالعامل الكويتي ويستغنى عن العامل الوافد . فالتوظيف أصلاً في القطاع الخاص يقوم ، في المقام الأول ، على أساس الربح والخسارة وبصفة عامة لا يوظف القطاع الخاص أي شخص ، كويتي أو غير كويتي ، إلا في حدود حاجته . كما أن تحديد الرتب والرزاي ، يتم في المقام الأول ، على أساس الربح والخسارة ، أي على أساس مدى الحاجة من جهة والانتاجية من جهة أخرى .

٢ - في الحكومة :

يلزم أن مسار وتوجهات التنمية الاقتصادية والاجتماعية تأثرت بمفهوم وأهداف التنمية من جهة وبالعائدات النفطية من جهة أخرى . وتأثرت سياسات التوظيف في الحكومة بسياسات الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل . فكفالة الحكومة وظائف عامة للمواطنين أدت ، في كثير من الأحيان ، إلى خلق وظائف للمواطنين دون حاجة فعلية لها . وكادت أن تصبح الوظيفة بالجهاز الحكومي ، في كثير من الأحيان ، وسيلة من وسائل تعميم الفائدة من

عائدات النفط . فترتب الموظف في هذه الحالة بمثابة نصيبه من عائدات النفط ، وربما يتولد شعور لدى البعض أن نصيبه ليس كالمبا مقارنا بشئيره .

ونظرا لسهولة التوسع في الانفاق العام بسبب الارتفاع الكبير في عائدات النفط في السبعينات تم خلق وظائف كثيرة دون حاجة فعلية لها وتم إشغالها بمواطنين (ووافدين ايضا) وأدت هذه الظاهرة إلى سلسلة من الآثار المترابطة لعل من أهمها :

(١) إضعاف العلاقة بين الكسب والعمل المثمر وبالتالي إضعاف قيم الانتاج والانتاجية والحافز الى العمل .
(٢) تضخم بيروقراطي وبالتالي انخفاض مستوى كفاءة الجهاز الحكومي وانخفاض مستوى إنتاجية المجتمع ككل تبعاً لذلك .

(٣) زيادة تدهور التوازن بين العرض من العمالة الكويتية وإجمالي الطلب على العمالة لمختلف القطاعات الاقتصادية وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة .

ويتضح مما سبق أن مسألة اختيار أفضل للمعايير الممكنة للتكيف مع الواقع الجديد أقل سهولة منها في القطاع الخاص . فإذا كان لابد من تخفيض حجم العمالة الحكومية ينبغي أن تتم هذه العملية في إطار خطة واضحة وتوضع على أساس دراسات دقيقة وكافية تعالج المسألة من مختلف جوانبها بقدر كاف من التوازن .

وقبل محاولة إلقاء بعض الضوء على بعض جوانب هذه المسألة للتوصل إلى أفضل الخيارات الممكنة لابد من التوكيد على أن إحلال الكويتيين على الوافدين وتوظيف كويتيين مؤهلين لشغل وظائف جديدة يتم اعتمادها بناء على حاجة فعلية لها هو توجه سليم لتمكين العمالة الكويتية من لعب دور أكبر في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي هذا الإطار ينبغي التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف تزيد عن الحاجات الفعلية وبين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف لازالت الحاجة إليها قائمة . إن إلغاء وظائف لا تدعو الحاجة الفعلية إلى وجودها والاستغناء عن شاغليها مفهوم مقبول وإجراء مألوف في جميع دول العالم لمواجهة الانكماش الاقتصادي . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة بالرغم من أن الحاجة إلى وظائفهم قائمة فامر آخر .

لذا وجد داخل الجهاز كويتي يشغل وظيفة لا لزوم لها وينفس الوقت مؤهل للاضطلاع بمسؤوليات ومهام وظيفية لازمة ويشغلها وافد ، يمكن إلغاء وظيفته وإحلاله محل الوافد .

وينبع التوكيد على هذا الامر لأن وجود عمالة زائدة عن الحاجة لا تقتصر على الوافدين ، بل وتوجد بين الكويتيين بدرجة أكبر . وينفس الوقت من الممكن أن يوجد وافدون يشغلون وظائف في بعض الوزارات والمؤسسات لا حاجة فعلية لها وهم مؤهلون لأشغال وظائف الحاجة إليها قائمة في نفس الوزارات والمؤسسات أو في وزارات ومؤسسات أخرى ولا يوجد كويتيون مؤهلون لأشغالها .

ويتضح من كل ذلك أن الجانب الفني في المسألة متعدد الجوانب ، وما لم تتم العملية في إطار معايير واضحة يتم اختيارها وتحديدها في ضوء مصلحة العمل قد تكون النتيجة الاستغناء عن من تقتضي المصلحة العامة بقاءهم والاحتفاظ بمن تتطلب المصلحة العامة الاستغناء عنهم .

ولكي تأتي هذه العملية بالثمار المرجوة لابد من أن تتكامل مع إعادة النظر في سياسات توظيف الكويتيين التي تم اعتمادها وتنفيذها في إطار التركيز المفرط على الرفاه الاجتماعي وظلة توزيع الدخل من جهة ومراجعة سياسات ومناهج

وبرامج التعليم والتدريب من جهة أخرى ، نحو بناء قوة عمل كويتية بالجهاز الحكومي قادرة على قيادة مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المرحلة القادمة .

وأما الجانب الانساني في مسألة تخفيض العمالة الحكومية لمواجهة تدهور الإيرادات النفطية واضطرار الحكومة إلى تخفيض مستوى الانفاق العام ، فامر آخر وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في اختيار افضل بديل ممكن . فالوافدون العاملون بالجهاز الحكومي وفي المؤسسات والمهنيات العامة ساهموا في مسيرة التنمية ، ومضى على عمل البعض منهم فترات طويلة . وبالرغم من صحة المقولة بأن الوافدين قدموا أصلاً وهم يعرفون أنهم مؤقتون وأن عملهم سينتهي بانتهاء الحاجة اليهم ، الا أن الصحيح ايضاً أنهم شغلوا وظائف دائمة وأصبح وضعهم « مؤقت دائم » .

ومن جهة أخرى ، ينبغي اعتبار الجانب الانساني لاعتبار آخر ، إذ من غير الممكن أن يتم تخفيض حجم العمالة الوافدة بدرجة كبيرة من خلال الزيادات المتوقعة في عرض العمالة الكويتية في المدى المنظور . وهذا يعني ان اعتماد الجهاز الحكومي ، وبدرجة كبيرة على العمالة الوافدة سيستمر في المدى المنظور . ومن الطبيعي أن النيج الذي سيتم بموجبه تخفيض حجم العمالة سيؤثر على المناخ الذي سيتولد لدى الوافدين الذين سيستمررون في الجهاز الحكومي . ويقدر ما يكون النيج على أساس معايير متزنة فيها و إنساني ، بقدر ما يفهم الوافدون الذين لم يأت دورهم للاستغناء عنهم مبررات الاستغناء عن الآخرين وقبولها ، وإلا فإذا كانت المعايير عرضة للظلم يتولد لديهم شعور بضعف الرضى والارتياح ، وقد يؤدي ذلك الى انخفاض معنوياتهم وبالتالي مستوى انتاجيتهم .

ب - الخيارات المتاحة لمن يتم الاستغناء عن خدماتهم :

ترتبط إقامة العامل الوافد بالعمل كما ترتبط إقامة مرافقيه من أفراد أسرته بإقامته . وهذا يعني أن فقدان العمل يؤدي إلى فقدان الإقامة . وما لم يتمكن من يفقد عمله في جهة معينة من إيجاد عمل في جهة أخرى ، في حدود القوانين والضوابط والشروط المعمول بها من جهة وفي خلال الفترة المسموح له البقاء خلالها بعد انتهاء عمله وإلغاء إقامته من جهة أخرى ، وبالتالي نقل إقامته ، لا خيار له العودة إلى بلده .

نظراً للنمو الاقتصادي وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة خلال الفترة الماضية كان من السهل على من تنتهى خدماته في أي جهة أن يجد عملاً آخر في جهة أخرى بسهولة . أما في ظل الانكماش الاقتصادي وتراجع الطلب على العمالة فالأمر مختلف تماماً . لذا قد يكون من مصلحة جميع المعنيين بالأمر النظر في إمكانية اعتماد سياسة بخصوص العمال المهاجرين تأخذ بعين الاعتبار ما يلي :

١ - لا يراعى من يتم الاستغناء عن خدماتهم سواء في القطاع الخاص أو الحكومة نفس الظروف .

فالبعض منهم مضى على إقامتهم في الكويت فترات طويلة نسبياً وتعهدوا على غط الحياة فيها ، وربما أصبحت جذورهم فيها أقوى منها في بلدانهم الأصلية . ليس من الممكن إتاحة قدر من الاختيار بين العودة إلى بلده أو البقاء في الكويت لمن قضى فترات طويلة قد تزيد عن ربع قرن ؟

٢ - تختلف الظروف الاقتصادية السائدة في بلدانهم . فالعامل الاقتصادي كان ، في المقام الاول ، سبب هجرة العمالة الوافدة إلى الكويت . لذلك ستتأثر رغبتهم في العودة إلى بلدانهم أو البقاء في الكويت بالظروف الاقتصادية لبلدانهم .

٣ - كما أدت الهجرة إلى ازدهار الطلب على السلع الاستهلاكية والاسكان بصفة خاصة ستؤدي الهجرة المعاكسة ، إذا ما تمت بسرعة ، إلى تراجع الطلب وبالتالي إلى زيادة حدة الانكماش الاقتصادي .
ولكن قد يقال أن الهجرة للمعاكسة تنسّق مع الرغبة في تخفيف عبء التفكك العامة على الخدمات . هذا صحيح ولكن علينا أن نتذكر أن تخفيض عدد المستفيدين من الخدمات لا يؤدي بالضرورة إلى تخفيض كلفة تقديم الخدمات للفرد بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين . إذ أن هناك تكاليف بغض النظر عن حجم المستفيدين . وفي ظل الإدارة الماهرة للخدمات تنخفض كلفة تقديمها للفرد الواحد بزيادة عدد المستفيدين .
٤ - تراوحت السياسات التي اعتمدتها بعض الدول الأوروبية بخصوص العمال المهاجرين بين العمل على استيعاب من يرغب منهم البقاء على نحو دائم وتقديم حوافز مالية لمن يختار منهم العودة إلى وطنه^(١٦) .

التوجه نحو المستقبل :

ذكرنا سابقاً أن تحقيق التوازن السكاني هو المحور الأساسي لمسار وتوجهات خطة التنمية الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ - ١٩٨٩/١٩٩٠ . بافتراض استمرار نمو السكان الكويتيين بين ١٩٨٥ و ٢٠٠٠ بنفس معدل نموهم بين ١٩٨٠ و ١٩٨٥ ، ٣,٧٤٪ سنوياً ، سيبلغ عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . ويتطلب تحقيق التوازن السكاني أن لا يزيد عدد السكان غير الكويتيين عن عدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ . فإذا افترضنا أن عدد السكان غير الكويتيين سيكون مساوياً لعدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ من المفروض أن لا يتجاوز معدل نمو السكان غير الكويتيين ١٪ خلال الفترة ١٩٨٥ - ٢٠٠٠ .
إن التحكم في نمو السكان غير الكويتيين في حدود معدل ١٪ سنوياً يعني هجرة معاكسة وتوقف حجمها على معدل نموهم الطبيعي . بافتراض ٢ - ٣٪ معدل نمو طبيعي لهم سيتراوح مجموع حجم الهجرة المعاكسة بين ٣٥١٢٣٨ و ٥٦٦٦٣٠ .

ويمكن التحكم في نموهم في حدود ١٪ لتحقيق التوازن السكاني من خلال تلبية الطلب على العمالة من الداخل ووقف استيرادها من الخارج وقصرها على الحالات التي يتعدّل تلبّتها من الداخل من جهة واعتماد سياسات وقوانين وضوابط من شأنها أن ترفع معدل المشاركة وبالتالي تخفض معدل المرافقة من جهة أخرى .

إن التوجه نحو تلبية نمو الطلب على العمالة من العرض المحلي منها من العمالة الكويتية أولاً ومن العمالة الوافدة الموجودة في الكويت ثانياً وقصر استيراد عمالة وافدة جديدة على الحالات الخاصة التي يعجز العرض المحلي عن تلبّتها توجه في الطريق السليم .

أما التحكم في معدل المرافقة للعمالة الوافدة فمسألة أخرى . يختلف معدل المرافقة باختلاف جنسيات العمالة الوافدة . وبصفة عامة ، معدل المرافقة للعمالة العربية أعلى بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية .

كان معدل المرافقة للعمالة العربية ٨,٦٣٪ وللعمالة الآسيوية ٣,٣٥٪ عام ١٩٧٥ . ونتيجة لتعديل الضوابط والشروط لاصطحاب أو إحضار أفراد الأسر انخفض معدل المرافقة للعمالة العربية إلى ٧,٥٩٪ وللعمالة الآسيوية إلى

(١٦) مكتب العمل الدولي ، قيد مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والخمسون ، مارس ١٩٨٦ ص ٩ .

٢٨,٣٪ عام ١٩٨٠. ولكن بالرغم من الانخفاض بقي معدل المرافقة للعمالة العربية أكبر بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية^(١٣).

وجدير بالذكر أن نسبة العمالة العربية انخفضت من ٦٩,٠٪ إلى ٥٩,٦٪ بينما ارتفعت نسبة العمالة الآسيوية من ٢٩,٤٪ إلى ٣٨,٠٪ بين عام ١٩٧٠ و ١٩٨٠. وأدى ذلك إلى انخفاض نسبة السكان العرب من جملة السكان غير الكويتيين من ٨٠,٢٪ إلى ٧٢,٥٪ وارتفاع نسبة السكان الآسيويين من ١٨,٧٪ إلى ٢٥,٨٪ بين نفس العامين. يتضح مما سبق أن استخدام العمالة الآسيوية يتسق أكثر مع هدف تعديل التركيبة السكانية. ولكن يستحسن أن يؤخذ بعين الاعتبار الآثار التي يمكن أن تترتب على تفضيل العمالة ذات معدلات المرافقة المنخفضة، العمالة الآسيوية في هذه الحالة.

يؤدي انخفاض معدل المرافقة للعمالة إلى ارتفاع معدل المشاركة لها، ويتبع ذلك ارتفاع نسبة الذكور وبالتالي انخفاض مستوى النضج السكاني الذي تترتب عليه آثار اجتماعية.

ومن جهة أخرى فإن نمط حياة العامل الذي يعيش في الكويت بمفرده يختلف عن نمط حياة من يعيش وأفراد أسرته. فمجموع ونوع طلب من يعيش بمفرده على السلع الاستهلاكية وعلى السكن يوجه خاص يختلف عن حجم ونوع طلب من يعيش وأفراد أسرته. ويتبع ذلك أن نسبة اتفاق من يعيش بمفرده من دخله ستكون منخفضة جداً بينما ترتفع نسبة تحويله من دخله للمخارج. وهذا يعني أن مساهمة من يعيش بمفرده في تنشيط الدورة الاقتصادية أقل بكثير من مساهمة من يعيش وأفراد أسرته.

ولعل الاهتمام بمسألة معدل المرافقة الوافدة تنبع من الاهتمام المشروع بتخفيض عبء كلفة الخدمات. إن تقديم بعض الخدمات مجاناً أو لقاء رسوم مدروسة ظاهرة عالية ولا تقتصر على الكويت.

إن عبء توفير الخدمات لا ينخفض عادة بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين بل من المفروض أن تنخفض كلفة توفير الخدمات للفرز بازدياد عدد المستفيدين منها في ظل إدارة ماهرة لها.

وطالما أن الحاجة إلى العمالة الوافدة مستمرة في المدى المنظور يكمن التحدي الكبير في خلق مناخ يسهم في تحسين أوضاعهم وزيادة الاستفادة منهم على السواء.

لقد أدى ما قيل وما نشر عن الاستغناء عن خدمات بعضهم مؤخرًا إلى خلق مناخ ساد القلق وضعب الشعور بالاستقرار. إن الميل نحو الاستقرار وزيادة الشعور بالارتياح من شأنه أن يرفع من مستوى استقرارهم النفسي ويرفع بالتالي الرغبة في العمل ودفع الانتاجية، ولعل النظر في إمكانية منح الإقامة شبه الدائمة أو الدائمة خاصة لمن أمضوا فترات طويلة ومن يتضح استمرار الحاجة لهم في المدى المنظور، من جهة، ومساواتهم بالمواطنين في المعاملة والمرتبات والأجور من جهة أخرى، من أهم العوامل التي تسهم في خلق وضع أفضل لهم وللكويت على السواء.



(١٣) للمجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥، الجدول ٣٩ (السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول والفرع حسب الألفية) ص ٥٥.

المراجع

- ١ - أتيام مكتب للعمل الدولي ، العدد الثاني وانضمون ، مارس ١٩٨٦ .
- ٢ - دولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ .
- ٣ - دولة الكويت ، مجلس التخطيط ، إدارة الإحصاء المركزية ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٦٤ .
- ٤ - د. سليمان شهبان القحبي و د. موديس عوض الله جريس ، بعض السمات والآثار الاقتصادية للعملة الزائفة إلى الخليج العربي : حالة الكويت ، المال والصناعة ، العدد السادس ١٩٨٥ ، ص ٧ - ٣٩ .
- ٥ - لعمم القحبي : د الأعمال الأجنبية في البلدان العربية المنتجة للنفط : حل مستعمر الدقة النفاق ؟ ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١ / رقم ٤ ، ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٤ - ٣٧ .
- ٦ - مركز دراسات الوحدة العربية والمعهد العربي للتخطيط ، العملة الأجنبية في إطار الخليج العربي ، بحوث ومناقشات لدرة ، العملة الأجنبية في أنظار الخليج العربي ، الكويت ١٥ - ١٨ يناير ١٩٨٣ .
- ٧ - المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ، تدور السكان والعمالة والمهجرة في دول الخليج العربي ، الكويت ١٦ - ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ .
- ٨ - The Economic Intelligence Unit Ltd., Assessment of John Sector Operations in Kuwait, Volume XVIII, Study - Area 2, Report submitted to the Government, May 1974.



مقدمة

تعد الهجرة الدولية للسكان قديمة قدم الجنس البشري ، إلى جانب أن السجل التاريخي لظاهرة الهجرة كشف عن أن الهجرات الدولية قد تمت وتزايدت ليس في حجمها فقط ، بل في المسافات التي تغطيها من مكان إلى آخر ، وفي مستهل دراستنا لهذه الظاهرة يتبين أن نعلم أن الهجرات - قديما وحديثا - كانت عاملا مهما في تاريخ تطور وتقدم الجنس البشري .

ولقد كانت هناك حركات سكانية كبرى تمت في وقت مبكر - أي منذ العصر الجليدي - وقد اتجهت تلك الحركات من أحد الأقاليم السكانية الكبرى في العالم والمأهولة بأعداد كبيرة بالسكان ، إلى مناطق أخرى سواء بالقرب من شمال غرب الهند أم الهند الصينية ، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك حركات سكانية كبرى حدثت بعد ذلك الوقت ، إلا أنها قديمة أيضا وشملت قلب العالم القديم وفي كلتا الحالتين كان السبب الرئيسي لحدوث تلك الحركات السكانية يتمثل في التغيرات المناخية التي كان من نتائجها تكرار فترات الجفاف النسبية . (انظر شكل رقم ١) .

أما الهجرات الحديثة فتتقسم تاريخيا إلى مرحلتين ، وفي المرحلة الأولى منها والتي امتدت منذ الكشف الجغرافية والاستعمار حتى القرن الثامن عشر ، وفي هذا المدى الزمني الذي يمتد لأكثر من ثلاثة قرون لم تزد جملة المهاجرين طوال هذه الفترة عن بضعة مئات من الألوف ، وهذا يرتبط بكثير من التغيرات مثل وسيلة الانتقال عبر المحيطات والقارات أو المرحلة التكنولوجية بصفة عامة ، ويعد تعمير الأوربين لقارات العالم الأخرى غير قاراتهم من أعظم الهجرات البشرية في التاريخ والتي تمت في تلك الفترة الزمنية حيث بدأت منذ القرن السادس عشر (انظر شكل رقم ٢) .

البيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة الدولية

أمل يوسف إصباح

أستاذة مساعدة بقسم الجغرافيا
كلية الآداب
جامعة الكويت

وبذلك نجد أن الفترة الزمنية السابقة للقرن الثامن عشر لم تشهد إلا القليل من الهجرات السكانية الدولية التي كان يسيطر عليها ويكبلها طغيان عامل المسافة ، إلا أن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، حيث أنه منذ القرن الثامن عشر وما بعده وهذه الفترة تمثل المرحلة الثانية وفيها بدا يظهر بوضوح الخط الفاصل بين مجتمع ساكن مستقر وبين مجتمع كثير الحركة أي منذ الثورة الصناعية التي عمت أوروبا في تلك الفترة ، والتغيرات التكنولوجية التي أهرزتها هذه الثورة والتي ساعدت وبشكل فعال على اتساع حيز المسافة التي تم بها أو فيها بينها الهجرات البشرية ، بحيث أن تلك الظاهرة لم تشمل الدول الأوروبية التي تحقق بها التقدم الصناعي فقط بل وتعدتها إلى الدول البعيدة عن أوروبا ، وقد حدثت هذه التغيرات ولكن في وقت مبكر في كل من بريطانيا ودول غرب أوروبا ، ثم فيها بعد ذلك عمت تلك الظاهرة وبشكل أكثر وضوحا لتشمل بالفعل العالم كله بخاصة وبخاصة في القرن العشرين ، (انظر شكل ٣ ، ٤) .

وقد أشار الباحث هاجيت (Haggett^(١)) وبأسلوب مختصر لكيفية وقابلية السكان على الحركة في القرن العشرين من مكان إلى آخر فذكر « أن التزايد السريع للحركات السكانية بعد احدى الصفات البارزة التي بدت في هذا القرن ، أي القرن العشرين ، بحيث أن المعلومات المتعلقة في كل من المجالات الرئيسية لحركة السكان والبضائع أيضا - قد تمت وتزايدت بثبات أكبر ، نظرا لأثر التقنيات الحديثة التي ساعدت على التقليل من القيمة النسبية للمسافة » ، وهذا يعني أن الحركات السكانية أصبحت في الوقت الحاضر غيابة حركات عامة وشائعة بالنسبة لغالبية الناس ، بعد أن كانت في السابق مجرد حركات قليلة ، ولا تتم إلا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن بين كل منها والأخرى التي تليها (٢)

وتكمن أهمية ظاهرة الهجرة الدولية للسكان سواء أكان منها على المستوى العالمي أم على المستوى المحلي ، في أنها تعد العنصر الأساسي الثالث المؤثر في حجم السكان في أي دولة بالعالم ، حيث نجد أن تأثيرها على الحجم السكاني بدولة الكويت أي على المستوى المحلي يعد واضحا ، وبخاصة أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠ ٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥ ، أما العنصران الأول والثاني فيمثلها كل من المواليد والوفيات ، ولذلك فإن أهمية الهجرة الدولية تكمن في الأثر المباشر على نمو أو تناقص السكان في أي دولة ومن ثم فإن تأثيرها ينسحب أيضا على تلك التغيرات التي تطرأ على الخصائص الديموجرافية المختلفة للسكان في تلك الدولة ، إن كان في البلدان أو المناطق الأصلية للمهاجرين (Ares of origin) أو في البلدان أو المناطق المقصودة أو المستقبلية لهم (Destination of Areas) .

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن أهمية الهجرة تكمن -أيضا- في تأثيرها على كل من النمو السكاني والقرى العاملة في أي منطقة من المناطق المستقبلية لهذه الهجرة ، أو المرسل لها .

ويركز العلماء والمتخصصون عند دراسة موضوع الهجرة الدولية على أحد الجوانب المتعلقة بتلك الظاهرة كل منهم بحسب اختصاصه ، فنجد أن علماء الاجتماع يركزون عند دراسة هذه الظاهرة على التأثيرات الاجتماعية والنفسية لتلك الظاهرة على كل من المهاجرين من جهة ، وعلى سكان المناطق المرسله أو المستقبلية لهذه الهجرة من جهة أخرى ،

Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward Arnold, London, 1965, P. 42.

(١)

Zetlinsky, W. The Hypothesis of The Mobility Transition" Geographical Review, 61, 1971, P. 219 - 49.

(٢)

وكذلك يتناولون بالدراسة والتحليل مدى امتصاص التبادل الثقافي للسكان المهاجرين ، أما الاقتصاديون فيركزون عند تناولهم موضوع الهجرة بالدراسة والتحليل على العلاقة المتبادلة بين الهجرة ودورة العمل ، بالإضافة إلى مدى تأثير الهجرة على سد احتياجات الدولة المستقبلية للعمال المهاجرين المهرة وغير المهرة ، وأيضاً مدى تأثير الهجرة على النمو الصناعي ، وأخيراً يركزون على دراسة الوضع المهني والوظيفي للمهاجر .

أما المشرعون والسياسيون فعنلما يتناولون ظاهرة الهجرة بالدراسة والتحليل فتجدهم يركزون على صياغة القوانين ووضع السياسات ذات العلاقة المباشرة بالمجرة ، ويركزون أيضاً ولكن بدرجة أقل شأنًا على القوانين التي تسن وتتيح تجاه المجرة القادمة وبخاصة فيما يتعلق منها بمنح المهاجرين حق الاقتراع (٣) .

ويقدم هذا البحث دراسة تحليلية لمراسل تطور الأساليب المختلفة التي تنبع عادة عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة المجرة الدولية للسكان على المستويين الدولي والمحلي ، وبخاصة أن تلك الظاهرة أصبحت شائعة عالمياً في وقتنا الحاضر ، بل وتعم جميع أفراد الجنس البشري ، مهما اختلفت مستوياتهم الاقتصادية أو الاجتماعية ، وأصبحت هذه الظاهرة - أيضاً - تحدث في كل لحظة وفي كل مكان وبين أعداد كبيرة من السكان في المجتمع الواحد ، وبناء على ذلك وما لهذه الظاهرة من أهمية وبخاصة في مجالات البحث المعاصر نظراً لما لها من علاقة وطيدة بحياة المجتمعات الحديثة ، فإن الهدف الأساسي إذاً من هذا البحث يتلخص في متابعة التطورات التي حدثت على أساليب جمع المادة العلمية وبخاصة فيما يتعلق منها بالبيانات الاحصائية لظاهرة المجرة على المستويين الدولي والمحلي ، أي داخل دولة الكويت ، من أجل الوصول الى معرفة الوضع الراهن لهذه البيانات ومدى توفرها ، وكيفية الحصول عليها ، وبخاصة أن لهذه الظاهرة أثراً كبيراً على كل من السكان في الدولة المرسله للمهاجرين من جهة والدولة المستقبلة لهم من جهة أخرى ، وتمثل هذه الأهمية في الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة سواء أكان منها الآثار الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية ، التي نعم كافة المجتمع داخل الدولة على المستويين الدولي ، أو المحلي أي بدولة الكويت التي يعد أبرز أثر لهذه الظاهرة على إجمالي السكان أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥م ، كما ذكرنا قبل قليل .

أما بالنسبة ليهكل البحث فهو ينقسم الى خمسة أقسام يتناول الأول منها تعريفاً للهجرة الدولية ، ثم يليه القسم الثاني الذي يقدم من خلاله شرحاً مفصلاً لأسباب حدوث ظاهرة الهجرة والعوامل المؤثرة فيها ، يتبعها القسم الثالث الذي يعرض وبشكل مفصل للأساليب التي تتبع عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بالمجرة الدولية ، يليه القسم الرابع الذي يخصص لعرض وتقييم سجلات المجرة الدولية ، ثم القسم الخامس والأخير الذي يتناول - أيضاً - بالدراسة والتحليل لسجلات المجرة وتطورها على المستوى المحلي .

وقد رأينا استكمالاً لهذه الدراسة إضافة ملحق يحتوي على الجداول الاحصائية الخاصة ببيانات المجرة على المستوى المحلي ، بالإضافة الى ملحق آخر يحتوي على الأشكال البيانية والخرائط الخاصة بالمجرة على المستويين العالمي

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, The Methods and Materials of Demography, Condensed Edition By Edward G. Stockwell, Bowling Green University, Bowling Green, Ohio, New York, 1976, P. 349. (٣)

والمحل ، لتساعد كافة تلك البيانات في إيضاح الرؤية حول كيفية تطور تيارات الهجرة السكانية في الفترات الزمنية المتتالية على المستويين العالمي والمحلي ، وبخاصة من حيث حجمها واتجاهاتها والاسلوب المتبع في جمع بياناتها .

وفي خاتمة هذه المقدمة لابد من ذكر أنه لا ينبغي على الباحثين والمتخصصين أمر صعوبة الحصول على المراجع والمصادر التي عالجت ظاهرة الهجرة ، وربما يكون هذا البحث بمثابة الدراسة الأولى من نوعها التي عالجت بالدراسة والتحليل وبشكل مفصل أسلوب جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة ، ان لم يكن بالطبع على المستوى العالمي ، فهو بالتأكيد على المستوى المحلي ، والله الموفق .

١ - تعريف الهجرة :

الهجرة حسب تعريف قسم السكان ببيتة الأمم المتحدة هي ظاهرة جغرافية يعني بها انتقال السكان من منطقة جغرافية إلى أخرى ، وبالتالي - يجب عن ذلك تغير مكان الاستقرار الإعتيادي للفرد ، أي تغير هذا المكان عبر الوحدات الجغرافية ذات الحدود البلية واضحة ، وهذا النوع من الهجرة أي الهجرة الدولية هي مركز اهتمامنا في هذه الدراسة ، وقد أوردنا ^١ بعد حتى لا يكون هناك نوع من اللبس بينها وبين أنواع أخرى من الهجرات الشبيهة بالظاهرة التي هي مركزنا . وبهذا البحث ، ومثالا على ذلك أن هناك بعض التغيرات التي تطرأ على مكان إقامة الفرد ولكنها في غالب الأحوال لا تدخل ضمن نطاق التعريف السابق للهجرة ، وبخاصة إذا كان التغير مؤقتا وليس له أي تأثير على مكان الإقامة المعتاد (Usual Residence) ، بالرغم من أن أفراد تلك الظاهرة عبروا حدودا دولية ، إلا أنهم في الوقت ذاته من الممكن أن يفسموا إلى أولئك الأفراد الذين يقومون برحلات قصيرة الأمد يكون الغرض منها الزيارة أو قضاء الاجازة أو اتجاز بعض الأعمال ، بالإضافة إلى ذلك فإن هناك نوعا آخر من التغيرات التي تطرأ على مكان الإقامة وتتميز هذه التغيرات بأنها دائمة ، وبالرغم من ذلك فإنها تعد مجرد حركات تمت عبر مسافات قصيرة ، بحيث أن مجال تأثيرها يكون عادة على الهجرات الداخلية فقط ، وبالتالي ليس لها أي أثر على الهجرة الدولية ، وبشكل عام فإن استعمال مصطلح مدة الإقامة يقتصر على التغيرات المستمرة في مكان الإقامة وبخاصة تلك التي تتم بين المناطق ذات التصنيف السياسي المحدد بوضوح أو تلك التي تتم بين المناطق الاحصائية .

وما هو جدير بالذكر أن الدراسات الديموجرافية عادة تتناول بالدراسة والتحليل وبشكل خاص ومركز لتوعين رئيسيين من الهجرة ، هما الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، حيث يعزى السبب المهم والرئيسي في حدوث هذين النوعين من الهجرة إلى حركة السكان عبر الحدود الدولية ، في النوع الأول ، بينما نجد أن النوع الثاني من الهجرة لا تخضع لذلك لأن حركة السكان تتم عبر الحدود الإدارية الداخلية ، اللهم إلا في دول المعسكر الشيوعي الذي تخضع الهجرة الداخلية فيه للسلطات الحكومية . ويتم بعد ذلك تصنيف الهجرة الدولية كهجرة من وجهة نظر كل من الدولة المرسله أو المصدرة للمهاجرين ، وكهجرين من وجهة نظر الدولة المستقبلة أي التي يصل إليها هؤلاء المهاجرون ، إلا أنه عند احتساب مدة الإقامة في حالة الهجرة الداخلية فإنه ينطبق عليها نفس الشروط التي تستعمل في حالة الهجرة التي تتم عبر الحدود الدولية ، ووجه التشابه والاختلاف بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية غير واضح المعايير في بعض الأحوال نتيجة لعدم توفر الحكم الذاتي لبعض الاقاليم ، إلا أن بعضها الآخر يعد مستقلا ، والأمثلة على ذلك

كثيرة واعتمادا على ما تعرضه البيانات الإحصائية الصادرة عن قسم السكان ببيتة الأمم المتحدة والخاصة بالحركات السكانية بين المناطق المحتلة في الفترة الزمنية التالية للحرب الألمانية والتي تمت بين يوروتوريكو والولايات المتحدة الأمريكية ، أو بين فرنسا والجزائر فإن هذه الحركات من الممكن أن تصنف على أساس أنها : إما هجرات دولية أو هجرات داخلية ، حيث أن التطور التاريخي لأي دولة في العالم ربما يشتمل على منطقة غير مستقلة لبعض الوقت ، إلا أن هذه المنطقة تتحول إلى منطقة مستقلة مع مرور الزمن ، وخلال فترة التحول هذه ربما لا يكون هناك أي احتمال لاعادة جدولة الأرقام وتحويلها من هجرة داخلية إلى هجرة دولية ، والمثال الأخير على ذلك أن البيانات الإحصائية الخاصة بالهجرة في المملكة المتحدة كانت تضم إليها الأرقام الخاصة بجمهورية إيرلندا في الفترة الزمنية السابقة لليوم الأول من شهر أبريل عام ١٩٢٣ .

بالإضافة إلى ما سبق فإنه حتى في حالة تعريف الهجرة الدولية نجدتها تشترك في الكثير من التحديدات والاحكام الخاصة بها مع تلك الأحكام الخاصة بالهجرة الداخلية بل وتنطبق معها كلية ، وبخاصة في حالة الحوافز الاقتصادية (٤) .

وعلى الرغم من كل ما سبق ذكره فمزال هناك اختلاف واضح بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، وبخاصة فيما يتعلق منها بمصادر البيانات الإحصائية ونوعيتها وقيمتها ودرجة كفاءتها بالأسلوب المتبع عند الدراسة التحليلية لهذه البيانات في كل منها (٥) .

٢ - أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها :

ذكرنا قبل قليل أن موضوع الهجرة الدولية يعد من المواضيع المهمة جدا ، ولذلك اهتمت به كافة العلوم الاجتماعية ، نظرا لأثر الهجرة الكبير على حجم السكان في أي بقعة بالعالم الناتج عن التقلبات السكانية بنوعها أي تلك الهجرة المتجهة نحو الداخل (In Flew) أو تلك الهجرة إلى الخارج (Out Flew) في كل من الدول أو الاقاليم وبخاصة الآثار الاقتصادية منها ، كذلك تمتد أثر الهجرة على الخصائص السكانية والأنماط الاجتماعية للبنية السكانية ، وبناء على ما سبق فإن الجغرافيين مدركون تماما لأهمية المشكلات الناجمة عن الهجرات السكانية ، ولذلك يتناولونها بالدراسة والتحليل بوسائل متنوعة ومتغيرة (٦) .

وقبل أن نتناول بالدراسة والتحليل أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها لابد من أن نوضح ونميز بين نوعين من الهجرة لكل منها أسبابها وعوامله المؤثرة في حجم واتجاه هذه الهجرة ، النوع الأول من الهجرة الدولية يمثل في الهجرة الاختيارية (Valuntary) التي تتم بالمبادرة الفردية من الأشخاص بأن يتحركوا من مكان لآخر بغرض الهجرة محبا وراء ظروف أفضل ، وهذا النوع هو الذي يمتينا بهله الدراسة ، أما النوع الثاني فنتمثل الهجرة الإجبارية (Compulsory) التي تتم بوساطة قوة خارجية على غير إرادة الأفراد مثل عمليات التهجير التي تحدث في بعض

John T. Clarke, Population Geography, 3rd Edition, England, 1972, P. 140.

(٤)

Henry S. Bryck, Jacob S. Siegel and Association, Op. Cit. P. 340.

(٥)

G.J. Lewis, Human Migration, London, 1962, P. 99.

(٦)

الدول تنفيذاً لسياسات معينة ، وهو ما حدث في الاتحاد السوفيتي مثلاً ، أو حين قام النازيون بتجهيز جماعات مختلفة من بعض الدول الأوروبية إلى دول أخرى ، وقد يفد الناس من دولة ليعيشوا في أخرى هروباً لبيئاتهم أو عقيدتهم ، ومن أقدم الأمثلة الهجرة الإسلامية الأولى إلى الحبشة ، وفي العصر الحديث نجد صوراً كثيرة من هذا النوع مثل اللاجئين الذين فروا من البطش النازي في أوروبا أو من فلسطين بتأثير الإرهاب الصهيوني ، وكثيراً ما تحدث ظاهرة اللاجئين في أثناء الحروب ، مثل ما حدث في ألمانيا بعد التقسيم ، أو حين انشئت الهند وباكستان عام ١٩٤٧ ، أو حين انفصلت بنجلادش عن باكستان في عام ١٩٧٢ (٧) .

وعنصر الهجرة الدولية الاختيارية لا يعد بمثابة عنصر فيسيولوجي كما هو الحال في عنصري الولادة والوفاة كما ذكرنا في السابق ، بل هو عبارة عن استجابة البشر لتسلسل التطور الاقتصادي ، كذلك تتم الهجرة نتيجة للحوافز الاجتماعية والسياسية والثقافية المتوفرة داخل البيئة أو المحيط الاجتماعي ، وهذه الحوافز جميعها سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية أم الثقافية تعطي بدورها أهمية للموقع الجديد والذي تحول بناء على توفر تلك الحوافز أو بعض منها إلى مركز جذب للسكان المهاجرين ، ونتيجة لتلك التغيرات الداخلية للبيئة التي طرأت على هذا الموقع فقد أثر ذلك بدوره على مدى التغير الذي بدأ على مبدأ التقسيم الشخصي لهذا المكان ، حيث تتولد الرغبة الشخصية في الهجرة ، وبخاصة إذا كان هذا الشخص يشعر بعدم الرضا عن المكان الذي يستقر فيه ، ولابد من أن نذكر أن مدى أثر الرغبة الشخصية على الهجرة سواء أتمت أم لم تتم تكون عادة متضادة من شخص إلى آخر وفقاً للاحتياجات الشخصية ، وبالمقابل أيضاً فإن عملية كبح جماح الرغبة الشخصية تجاه الهجرة يعتمد على مدى قوة استياء هذا الشخص أو عدم رضاء من المكان الذي يستقر فيه (٨) . وكما نرى على ذلك ، وفقاً لما ذكره الباحث لورد إيفرسلي (Lord Eversley) (٩) من أن أسباب الهجرة الجماعية الضخمة للعمال . والتي تمت بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية أي تلك الهجرة التي خرجت من الريف وانجذبت إلى المدن في إنجلترا وويلز خلال القرن التاسع عشر ، لا تعزى فقط إلى الازدهار الاقتصادي الكبير الذي ميز تلك الفترة ، أو نتيجة للارتفاع الشامل في الرواتب بالمناطق الصناعية أو مناطق التعدين ، وإنما ترجع أيضاً إلى تنامي الاستياء الذي عم بين العاملين بالمناطق الريفية تجاه العمل بالزراعة ، نتيجة لقلة فرص العمل بالريف بالإضافة إلى ما سبق فإن هؤلاء العمال كان لديهم الرغبة في الحصول على قدر أكبر من الحركة والاستقلالية التي تكون متوفرة عادة في حياة المدن .

ویدخل ضمن العوامل المسببة للهجرة عاملان غير معروفين أو ظاهرين ، إلا أن هذين العاملين أثبتا وجودهما ، وقد تمثل العامل الأول في أن حافز الهجرة يبرز عادة لدى الفرد نتيجة للتغيرات الداخلية التي تحدث في بيئة أو محيط هذا الفرد ، أما العامل الثاني فقد تمثل في أن حافز الهجرة يظهر نتيجة للتغيرات التي تطرأ على الباحث الفردي للهجرة .

(٧) أحمد علي اسماعيل ، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٢ ، ص ٥٤

(٨) Pryor, R.J. The Motivation of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975, P. 10.

(٩) Eversley Lord, "The decline in The number of agricultural Laboures in Great Britain, Journal of The Royal Statistical Society, 10, Englund, 1907, P. 280 - 3.

كما سبق ذكره نجد أن هناك تأكيداً على أن عملية تحليل أسباب الهجرة تمثل عنصراً جديراً بالاعتناء والاهتمام ، حيث أن قرار الهجرة هو قرار شخصي ، يعتمد في الأساس على أن الشخص ذاته هو الذي يقرر - ابن سينتل ، ويغلف قراره هذا بمعايير ، بحيث أن غالبية الأبحاث التي تناولت بالدراسة والتحليل موضوع أسباب الهجرة تؤكد على أن العامل الثاني والذي تمثل في الحافز الفردي يعد السبب الرئيسي لهذه الهجرة (١٠) ، ومع ذلك نجد أنه في الفترة الأخيرة تحول المحيط أو البيئة التي يعيش فيها الفرد ويتخذ بها قراره على الهجرة ، إلى بؤرة الاهتمام كسب رئيسي. للهجرة ، بالإضافة إلى ما سبق نجد أنه على الرغم من أن هناك الكثير من الدراسات العديدة والمتنوعة التي تناولت العوامل المسببة للهجرة بالمناقشة والتحليل ، إلا أن الباحث (Lee) (١١) تناول بالتحليل والتقييم تلك الدراسات وظهر بنتيجة مفادها أنه يجب على المهتمين والمتخصصين بظاهرة الهجرة توخي الحذر عند مناقشة هذه الدراسات وتفسيرها لكل من أسباب الهجرة ونتائجها ، وحتى وقتنا الحاضر لم نستطع أن نتوصل إلى وضع تصنيف ذي صياغة أكثر تحديدا وتركيزا لأسباب الهجرة ، حيث أنه من الممكن اعتبار تلك الأسباب كمعامل مفروضة إلا أنه وبشكل عام نستطيع التركيز أكثر على عدد قليل من العوامل المسببة للهجرة ، وبخاصة تلك التي تأخذ مكانة متميزة لاهميتها (١٢) ، ولكي تكون دراستنا لأسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها أكثر شمولية ودقة ، إلى جانب الأسباب والعوامل السابقة ، سنتعرض بالدراسة التحليلية لعوامل الجذب والدفع السببية للهجرة ونوردتها فيما يلي :

١٣ - عوامل الجذب والدفع (١٣) :

منذ فترة طويلة وبالتحديد منذ عام ١٩٣٨ فسر الباحث هيربرل (Herberle) العوامل المسببة للهجرة وذكر بأنها تكمن أساساً في أن هناك قوى جادة تتفاعل لدى الفرد وتشجعها على مغادرة المكان (الدفع Push) وتغريه على الانتقال إلى مكان آخر (الجذب Pull) ، أو بمعنى آخر ، إذا كانت الاحتياجات الفردية غير متوفرة أو غير مشبعة في المكان الذي يستقر به الفرد - أي في مكان استقراره الأصلي - فحينئذ يساور هذا الفرد التفكير المستمر في الانتقال إلى مكان آخر ، حتى لو كان هذا الفرد على قناعة تامة من موقعه الحالي أي مكان استقراره الأصلي ، إلا أن المعلومات التي تتوفر لدى الفرد ذاته حول إمكانية الحصول على فرص أفضل في مكان آخر مما يساعده على الانتعاش الشخصي بأخذ قرار الانتقال ، وعلى أية حال فمن المتعارف عليه أن لكل هجرة عوامل :ذب ودفع متعددة قد تتفاعل تأثيراتها ، وبناء على ذلك فقرار الانتقال من مكان إلى آخر لا يتخذ نتيجة لعامل أو سبب معين من أسباب الهجرة ، بحيث يمكن تمييزه أو فصله عن غيره من العوامل الأخرى ، وبالرغم من ذلك فمن الدراسة والبحث في العوامل المسببة للتدفقات الضخمة للهجرة ، تبين أن الحوافز المشتركة لعامل الانتقال عند الأفراد أصبحت ثابتة ، وقد استطاع جانريز بيجو (J. Bogue) (١٤) ببراعة تلخيص عوامل الدفع والجذب التي نوردتها فيما يلي :

- | | |
|---|------|
| Cebulak, R.J. The Determinants of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass. 1980. | (١٠) |
| Lee, E. S. A Theory of Migration, Demography, 3, 1966, P. 47 - 57. | (١١) |
| C.J. Lewis, Op. Cit. P. 101. | (١٢) |
| Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration, A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938, P. 932 - 50. | (١٣) |
| Bogue, D.J. Techniques and hypotheses for The Study of differential Migration: Some notes From an experiment with United States data, Proceedings of the International Conference, 2, Session 4, No. 114, 1961. | (١٤) |

١ - عوامل الدفع (Push Factors)

- تراجع أو هبوط الثروة القومية أو الأسعار المدفوعة لها ، ونقص الطلب على الانتاج الفردي أو الخدمات في الصناعات الفردية ، كاستهلاك المناجم والغابات والزراعة .
- فقدان الوظيفة الناتج عن العجز والاعفاءات ، الذي يتولد عن تراجع الطلب على الأنشطة الفردية أو لاستخدام المكتنة أو الآلات الأوتوماتيكية لانجاز الأعمال التي كان يؤديها الأفراد .
- المعاملة التي تتصف بالقمع والظلم الناتجة عن أسباب سياسية أو دينية أو لأصول عرقية أو عضوية .
- عزل الفرد أو إبعاده عن المجموعة نتيجة الى أن هذا الفرد يكون مؤيدا لعقيدة سائدة ، وبخاصة ان كان هذا التأييد مؤثرا على أسلوب تصرفاته داخل عائلته أو مجتمعه .
- الانسحاب من المجموعة لعدم التعاون فيما بينها ، أو نتيجة لعدم توفر الفرص التي تساعد على تنمية الوظائف الفردية أو الجماعية .
- الانسحاب من المجموعة نتيجة لحدوث الكوارث كالفيضانات أو الجفاف أو الحرائق أو الزلازل وغيرها الأوتية .

ب - عوامل الجذب : Pull Factors

- توفر الفرص الأفضل بالنسبة لبعض المهن أو الوظائف أو العمل في مجال يرغب فيه الفرد .
- توفر فرص الكسب كالحصول على دخل أحسن .
- توفر الفرص التي تساعد على تحقيق رغبة الفرد الشخصية في مجال علمي معين أو توفر التدريب فقط في الكليات العلمية .
- الرغبة في المعيشة بأوضاع بيئية أفضل من حيث المناخ والسكن والتعليم والخدمات الاجتماعية الأخرى .
- الانتقال من أجل اللحاق بعائل (أي المرافقة) ومثال على ذلك هجرة الشخص الذي يرتبط بعلاقة عائلية مع شخص آخر ، أو هجرة الاناث من أجل اللحاق بالزوج .
- توفر الأنشطة المتنوعة في المدن الكبيرة ومثال على ذلك تلك الأنشطة التي تجذب قاطني المدن الصغيرة أو القرى ، سواء أكان منها الثقافي أم الفكري أم الترفيهي^(١٥) .
- وبرغم من أن نظريات عوامل الجذب والدفع تناقش آراء وأفكار جيدة ، وبخاصة تلك النظريات أثناء مناقشتها لهذه الآراء والفكر تجرد من العوامل المحددة لنشوء الهجرة ، إلا أن هناك عددا من الأبحاث التي انتقدت هذه النظريات نتيجة إلى أنها أظهرت عملية الهجرة وبشكل مبالغ فيه كعملية معقدة جدا ، ومن هذه الأبحاث ما قدمه بيرنلي توماس (Perinley Thomas) (١٦) في بحثه أثناء مناقشته وتحليله لموضوع الهجرة بطريقة مقنعة جدا ، حين ذكر في هذا

Bogue, D.J. Principle of Deography, Wiley, New York, 1969. P. 753 - 4.

(١٥)

Thomas, B. Migration and Economic Growth, Cambridge University Press, Cambridge, 1959, P. 26.

(١٦)

البحث أن كافة أنواع العوامل المسببة والحفّات على الهجرة ربما تكمن وراء القرار الفردي أو العائلي الذي يحدد على ضوءه مغادرة بلد ما والعيش في بلد آخر ، وليس الهدف من دراسة هذه العوامل وضع قائمة للعوامل المسببة للهجرة فقط ، ولكن الأمل معقود على محاولة فهم ظاهرة أو واقعة الهجرة (Phenomenon of Migration) ، وبشكل أكثر تركيزاً من أجل إمكانية التوصل إلى وصف البواعث أو الحوافز العديدة التي تمثل عامل دفع للناس لشراء ما يحتاجونه من سلع يرغبون بها ، حيث أنه ليس هناك أسهل من عملية وضع صياغة لقائمة هذه العوامل أي عوامل الجذب والدفع من أجل أن تظهر بشكل مميز وواضح ، ثم بعد ذلك تذكر هذه العوامل بشكل وصفي أكثر اسهاباً من أجل أن تبدو هذه العوامل بشكل أكثر تركيزاً وبصورة محددة .

ورداً على الانتقادات والمحظوظات السابقة الذكر والموجهة لنظريات عوامل الجذب والدفع ، أبدى الباحث في (Lee ، ١٩٧٠) اقتراحاً أوضح فيه أن مسببات الهجرة تحتاج لرؤية أو دراسة للعوامل التي تربط بين المنطقة الأصلية أو المصدر من جهة ، والمنطقة المقصودة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى أنه أكد على أن هناك حاجة للدراسة وتحليل العوائق التي تعترض عملية انتماء هذه الهجرة ، حتى وإن كان مصدرها المهاجرين أنفسهم ، ولذلك فقد اقترح الباحث المذكور - أيضاً ، دعوة جميع الباحثين والمتخصصين والمهتمين بظاهرة الهجرة إلى العمل على اكتشاف وإظهار كل من العوامل السلبية والإيجابية الكامنة في كل من المكان الأصلي والمكان المقصود ، وبالتالي إيجاد الاختلافات فيها بينهما ، وما إذا كان القرار الشخصي على الانتقال سوف يعتمد عند تنفيذه على النتائج التي تظهر على تلك الدراسة ، أو بناء على تقييم لكل العوامل الكامنة داخل محيط المجموعة السكانية المتنوعة ، أو داخل نماذج اجتماعية دون تحيز ، وما هو جدير بالذكر أن هناك الكثير من العوائق التي تظهر وتكون ذات فاعلية في اعتراض وتقييد هذه القرارات المتخذة تجاه الهجرة كالقيود القانونية ، أو الحواجز العائلية ، أو القلق النفسي ، وأخيراً عائق تكاليف الانتقال ، إلا أنه من المستطاع تخطي أو اغفال الكثير من هذه العقبات التي ذكرت قبل قليل ، وبالرغم من ذلك فإن بعضها الآخر لا يمكن تخطيه أو اغفاله .

بالإضافة إلى ما سبق فإن هناك عدداً من العوامل المسببة للهجرة منها الحوافز الاقتصادية والعوامل الديموجرافية والعوامل السياسية كما ذكرنا في السابق ، وبالنسبة للحوافز الاقتصادية فقد توصلت الدراسات التي تم إجراؤها على التقلبات السنوية لحجم الهجرة الدولية التي حدثت في القرن التاسع عشر - وبخاصة تلك التي تمت بين قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية - إلى أن هناك علاقة متبادلة وواضحة بين ما جتته الدول المرسلة للمهاجرين من فائدة عمت دورة العمل من جهة ، وتطور التنمية الاقتصادية في الدول المستقبلة للمهاجرين من جهة أخرى ، علاوة على ذلك فإن البيانات الخاصة بالحوافز الاقتصادية كشفت عن أنه في كثير من الأحوال ما تكون تلك الحوافز هي الأمر القاطع والسبب للهجرة ، حيث أن التباين في المستويات المعيشية للسكان في الدول المرسلة من جانب والدول المستقبلة للهجرة من جانب آخر ، تكون هي العامل المشجع على تدفقات الهجرة - كما ذكرنا عند دراستنا لعامل الجذب والدفع قبل قليل ، وكذلك فإن عامل التباين في مساحة الأرض التي تشغلها كل من الدول المرسلة والدول المستقبلة للهجرة يعد ذا أثر مشجع على الهجرة ، إلا أنه في الوقت الحاضر أصبح هذا العامل غير أساسي كمسبب للهجرة^(١٨) .

Lee, Op. Cit.

(١٧)

John I. Clarke, Op. Cit P. 140.

(١٨)

أما العوامل الثانية فهي العوامل الديموجرافية التي تعد ذات أثر في تعميم التحديدات والحوافز الخاصة بالمهجرة ، وفي مقدمتها عامل الضغط السكاني في مناطق معينة في العالم والذي شكل العامل الأساسي المسبب للتوزيعات الرئيسية للهجرات الكبرى في العالم ، وكذلك على ذلك فقد كان للحوافز الديموجرافية المذكورة أثر على الهجرة التي تمت من أيرلندا في القرن التاسع عشر (خلال حادث المجاعة) وكذلك الهجرة التي تمت من إيطاليا وجنوب شرق أوروبا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان للعامل الديموجرافي المذكور أثر كبير حيث أنه شكل حافزا رئيسا للهجرة التي خرجت من الجزر والدول الصغيرة مثل مالطا وكورسيكا ورواندا وبورندي وبوتسوانا وترينيداد ، وهناك دول صغيرة في العالم تخصصت وبشكل ملاحظ بالمهجرة المغادرة ومثالا على ذلك لبنان التي أصبحت حالة مشهورة بين الدول المرسلة للمهاجرين ، وتشغل لبنان مساحة من الأرض قدرها (٤١٠٥) ميل مربع فقط ، يقطنها عدد من السكان مقداره (٢.٦) مليون نسمة ، وقد هاجر منها إلى الخارج ما يقدر بـ (١.٥) مليون لبناني موزعين الآن في جميع أنحاء العالم (منهم ٤٠٠ ألف نسمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، و ٣٥٠ ألف نسمة إلى البرازيل ، و ٢٠٠ ألف نسمة إلى الأرجنتين ، وأخيرا هناك عدد كبير من اللبنانيين الذين غادروا إلى غرب أفريقيا) ، وقد تحمل غالبية هؤلاء المهاجرين عن جنسيتهم اللبنانية ، إلا أنهم ما زالوا يحتفظون بحلقات وصل بينهم وبين وطنهم الأصلي ، نذكر منها على سبيل المثال أنهم ما زالوا مستمرين في إرسال جزء من مكاسبهم الوفيرة - التي حصلوا عليها من أعمالهم بالتجارة والبنوك في بلد المهجر - إلى أقربائهم الذين ما زالوا مستقرين في وطنهم الأصلي .

ومن الواضح أن تأثير العوامل الديموجرافية لا ينحصر في أنها تعدو كعوامل مسببة للهجرة فقط بل يتعداه إلى تأثيرها - أيضا - على السياسات المتبعة تجاه هذه الهجرة ، ويعتبر مدى تأثير هذه العوامل على السياسات المتبعة تجاه الهجرة الخارجية أكبر من تأثيرها على الهجرة الداخلية ، وهناك سياسات متنوعة تتبعها الدول تجاه الهجرة ، فمثلا نجد أن هناك عددا قليلا من الدول الرئيسية المستقبلية للهجرة تتبع فعلا سياسة يكون الغرض منها هو تشجيع الهجرة ، وهذا الأمر متناقض لما هو متبع من سياسة تجاه الهجرة المتجهة إلى بريطانيا وإيطاليا واليابان ، حيث أن هذه الدول الثلاث تعمل على الحد من وفود المهاجرين إليها فتسن الكثير من القوانين التي يكون الغرض منها فرض القيود على هؤلاء المهاجرين ، ومثالا على ذلك تلك الهجرة التي تمت ما بين ألمانيا وإيطاليا ، وكذلك ما بين روسيا ودول شرق أوروبا ، في الفترة الزمنية السابقة للحرب ، وتعد السياسات المتبعة تجاه الهجرة القادمة أكثر أهمية من تلك السياسات المتبعة تجاه الهجرة المغادرة ، وما هو جدير بالذكر أن هناك تساهلا أكبر تجاه دخول المهاجرين إلى أي دولة خلال القرن التاسع عشر عما هي عليه اليوم ، ففي الوقت الحالي أصبحت هذه السياسات أكثر تشددا ، ومثالا على ذلك أن هناك دولا مستقبلية للمهاجرين مثل استراليا التي تضع العقبات أمام الهجرة القادمة ، ومن هذه العقبات أنها منعت المساعدة المالية التي كانت تمنح هؤلاء المهاجرين القادمين إليها مع أنهم يعدون من ضمن الهجرة المتقاه ، إلى جانب ذلك نجد أنه في هذا القرن أي القرن العشرين تمد غالبية الهجرة القادمة مقيدة أثناء عبورها الحدود الدولية ، وهذا الأمر حدث ويحدث في أكبر الدول المستقبلية لهذه الهجرة ، وكذلك فإن هذه الهجرة مقيدة أيضا من حيث الحجم المحدد لها والذي يخضع عادة للخطة التي تحدد السياسة التي تتبناها كل دولة على حدة وتتجهها عند معاملتها لتلك الهجرة ، وبناء على تلك الخطة يصبح من الممكن لأي دولة مستقبلية للهجرة المقدرة على تحديد حجم المهاجرين المصرح لهم بدخول أراضيها ، وتتبع في استراليا السياسة ذاتها التي تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية تجاه دخول المهاجرين إلى أراضيها ، حيث نصت تلك السياسة

على اتباع نظام الحصص النسبية (Quota) ، ويتميز هذا النظام بأنه فعال ومؤثر في إمكانية التحيز تجاه المهاجرين الوافدين إليها من شمال غرب أوروبا ، حيث تظهر تلك السياسة مدى أفضليتهم لدى السلطات في استراليا على المهاجرين القادمين إليها من جنوب أو شرق أوروبا ، والمثال الآخر على تلك النوعية من السياسة التحيزة المتبعة تجاه الهجرة التي توضح أن دول جنوب شرق آسيا تنحصر حصص قليلة للمهاجرين القادمين إليها من الصين ، والمثال الثالث يتمثل في أن هناك قيودا مفروضة على وفود المهاجرين الملونين إلى بريطانيا ، بالإضافة إلى كل الأمثلة السابقة هناك أيضا العديد من الأمثلة الأخرى التي تظهر بجلاء أن هناك تخطيطا مسبقا تضعه الدولة المستقبلية للهجرة وتعامل به مع الهجرة الوافدة إلى أراضيها ، ويعتمد هذا التخطيط وبشكل رئيسي على تطبيق سياسة الاختيار ، ففي نيوزيلندا على سبيل المثال تعبر وجهة نظر الاتحادات المهنية عن مخاوفها من أن الهجرة الوافدة ، وتدعى بأنها تبعد مستوى الأجور التي يتقاضونها ، ولغله الاتحادات سلطة ونفوذ على السياسة المتبعة تجاه الهجرة الوافدة ، بالإضافة إلى ذلك ففي دول أمريكا اللاتينية نجد أن الوضع على خلاف ما سبق من الأمثلة ، حيث يتضح أن القيود المفروضة على وفود المهاجرين لأراضيها تعد أقل تشددا مما هي عليه في الدول التي تناولتها الأمثلة السابقة .

أما العوامل الثلاثة والأخيرة فتتمثلها العوامل السياسية حيث أنه من الملاحظ أن الهجرة الدولية آخذة بالتأثر أكثر فأكثر - مع مرور الزمن - بتلك العوامل ، ما أثر بالتالي على تراجع أهمية عامل الاختيار الفردي ، كمسبب للهجرة ، ويتمثل العامل السياسي في أن هناك عمليات تبادل سكاني واسعة النطاق تمت بين دول عديدة ، ومن أمثلة ذلك العمليات التي تمت بين اليونان وتركيا خلال الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٣٣ ، كذلك تلك العمليات التي تمت بين رومانيا وبلغاريا في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٤٠ ، بالإضافة إلى ما سبق فالعوامل السياسية تتمثل في أن ظاهراً الهجرة السكانية بدأت تأخذ مكانها لمواجهة عمليات الغزو المسلح ، كتلك الهجرة التي تمت بين روسيا والصين ، حيث تم هجرة ملايين الأشخاص وقد تم نقلهم على شكل هجرة عمالية قسرية ، كان الغرض منها هو إحلال هؤلاء العمال محل الأشخاص المسجونين ، ونتيجة لما سبق فقد تم إنشاء الكثير من الهيئات والمنظمات الدولية التي عملت وما زالت تعمل من أجل المساعدة عند حدوث مثل هذه الحركات السكانية ، وبخاصة تلك الحركات التي تتم بين السكان اللاجئين في كثير من أجزاء العالم ، ومن هذه الهيئات والمنظمات على سبيل المثال كل من منظمة العمل الدولية (International Labour Organization) ومنظمة العفو الدولية (U.N. Relief and Rehabilitation Administration) وما هو جدير بالذكر أن عدد اللاجئين السياسيين في أوروبا بلغ عشرات الملايين في الوقت الحاضر ، وكذلك الحال بالنسبة لشبه القارة الهندية ، حيث أن هناك ملايين السكان الذين ينوون الانتقال إلى الجماعات السكانية الأخرى ، تلك التي يشتركون معها بخاصية الدين ، إلا أن ذلك لن يتم إلا برفع الحواجز السياسية ، حيث أن عامل الدين ما زال يعد ذا أثر فعال على بعض المهاجرين^(١٩) .

٣ - أساليب جمع بيانات الهجرة عالمياً^(٢٠) :

عند جمع البيانات الخاصة بالهجرة عالمياً فإنه من الممكن أن تشتق تلك البيانات الإحصائية من مجموعة متنوعة من

John I. Clarke, Op. Cit. P. 141 - 142

(١٩)

Henry S. Shryneck, Jacob S. Stegall and Associates, Op. Cit. P. 398.

(٢٠)

المصادر ، إلا أن هناك مصادر رئيسية تجمع مثل تلك البيانات بحيث أنه من الممكن أيضا تبويبها الى ستة أنواع ، وعادة ما تكون تلك المصادر متشابهة ونوعها فيما يلي :

- جمع البيانات الاحصائية الناتجة عن حركة السكان عبر الحدود الدولية ، وتعتمد هذه البيانات في معظم الأحوال حصيللة ثانوية للعمل التنفلي الحكومي الذي يؤديه رجال مراقبة الحدود .

- البيانات الاحصائية الخاصة بالمسافرين والتي يمكن الحصول عليها من قوائم المسافرين بحرا أو جوا .

- البيانات الاحصائية التي يكون مصدورها ادارة الجوازات والتي تقوم بجمعها من خلال الطلبات المقدمة اليها للحصول على الجوازات وشهادات عدم الممانعة ، وأذونات السفر .

- البيانات الاحصائية التي يمكن جمعها من السجلات السكانية .

- البيانات الاحصائية التي توفرها عادة التعدادات العامة للسكان أو من المسوحات الدورية ، وهذه البيانات تشتمل على الاجابة عن السؤال الذي يتعلق بالمقر السابق للشخص ، ومكان الولادة أو المواطنة .

- البيانات الاحصائية التي تجمع بشكل خاص أو استثنائي ، وهذه البيانات تشتمل من التحقيق والاستقصاء الدوري عن بيانات الهجرة ، كتلك البيانات الخاصة بحمل الإقامة السابق وحمل الإقامة الحالي ، أو المواطنة ، أو تسجيل الأجنبي ، أو عدد المواطنين في الخارج .

بالإضافة الى الأنواع الستة التي تعد كمصادر رئيسية تشتمل منها البيانات الاحصائية عن الهجرة الدولية السابقة الذكر ، فإن الأمر يتطلب - أيضا - اجراء التقديرات لمعرفة الحجم الكلي للهجرة الخام أو الهجرة الصافية الاجمالية ، أو تقدير حجم مجموعات جنسية فقط وبشكل استثنائي .

أما بالنسبة لمصادر الهجرة المبكرة لبياناتها عادة تجمع من المعلومات المتحصلة من الاكتشافات والتنقيبات الأثرية لحركات السكان ومواطنهم عبر التاريخ ، وكذلك بيانات استثمار الأراضي واشغالها وهجرها كمؤشرات على تلك الحركات .

ومن الجدير بالذكر أن وجهة نظر قسم السكان بالأمم المتحدة تفصح عن أن المصادر الاحصائية الأربعة الأولى الخاصة بالهجرة والتي ذكرنا أنها تجمع عادة من نقاط مراقبة الحدود تعد من أكثر البيانات أهمية بمقارنتها مع غيرها من المصادر ، ويرجع ذلك الى أن تلك المصادر الأربعة لو توفرت بصبح من المستطاع اجراء قياس مباشر لحجم الهجرة ، ولذلك تأخذ الأمم المتحدة بعين الاعتبار كل ما ينشر من بيانات صادرة عن مراقبة الحدود ، وبخاصة في حالة توفر هذه البيانات تصبح بيانات التسجيل السكاني أكثر فاعلية عند الاستعانة بها للقياس على ضوئها حجم الهجرة الدولية ، وبناء على ذلك فقد أوصت الأمم المتحدة الحكومات القومية بأن تقوم بجمع وحدولة كافة الأفراد القادمين (Immigrants) والافراد المتأدين (Emigrate) ، ثم يتم بعد ذلك تقسيم هذه البيانات لتشمل مجموعات سكانية أقل لتبدو أكثر وضوحا مثل تقسيمها الى فئة القادمين وفئة المتأدين ، والغرض الاساسي من توفير البيانات الخاصة بهاتين الفئتين يتمثل في المساعدة على ترجمة وتفسير احصاءات الهجرة التي تصدر سنويا عن أي دولة ، وعلى ضوء ذلك يتم اجراء

المقارنات الصحيحة بين بلد وآخر ، أي أنه يصبح بالإمكان استعمال تلك البيانات دولياً بحيث تضاف الى البيانات الديموجرافية الدولية الأخرى^(٢١) .

٤ - سجلات الهجرة عالمياً : (٢٢)

إن طبيعة ونوعية البيانات الاحصائية الخاصة بالمجرة تكون عادة أكثر ضلّالة من تلك البيانات الخاصة بالتركيب أو النمو السكاني ، ويرجع ذلك لأسباب عديدة ، نذكر منها أن البيانات المشتقة من الهجرة تتميز بأنها ذات صيغة مركبة أي أنها تتكون من أجزاء وعناصر عديدة ، ولذلك فإنه ليس من السهل تحديدها وبالتالي يصعب اظهارها بشكل واضح ، إلى جانب أنه من الصعب تصنيفها أو تبويبها ، والتصنيفات الخاصة بظاهرة الهجرة تعتمد أساساً على أمور عديدة منها مدى دوام هذه المجرة ، وعلى طول المسافة التي غطتها أو قطعها هذه المجرة ، وعلى نوعية المجرة هل هي مجرة منظمة أي هل هي مجرة اختيارية أو أنها مجرة قسرية ، وبالإضافة إلى كل ما سبق فإن الهجرة تواجه صعوبات أخرى عند تقصي أية حقائق خاصة بها منها على سبيل المثال أنه في حالة عد المهاجرين ، فإن هذه العملية بحد ذاتها تواجه صعوبات جمة ، وبخاصة عندما لا تتم هجرتهم عبر حدود دولية واضحة .

أما بالنسبة للمجرة فقد كانت المعلومات الخاصة بها تشتت في الفترة السابقة عن مصدرين هما التعرف على الاختلاف فيما بين الزيادة الناتجة عن الزيادة الطبيعية وهذه تعد الخطوة الأولى ، ثم إجراء الدراسات المقارنة ما بين تلك المعلومات من جهة وبين بيانات التعدادات السكانية المتعاقبة (Successive Census) من جهة أخرى وهذه تعد الخطوة الثانية .

وقد لوحظ في السنوات الأخيرة أن هناك بعض التعدادات السكانية التي تتضمن بيانات احصائية هامة ومرغوب فيها عند دراسة موضوع المجرة ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالتغيرات التي تطرأ على مكان الإقامة ، أو مكان الولادة ، وبالرغم من أن البيان الثاني لا يعطي إلا دالة عن الحركة السكانية ، إلا أنه في حالة توفر هذه البيانات تتحول الدراسة التحليلية التي يتم إجراؤها عن الهجرة السكانية من الأمور السهلة .

وقد توفرت البيانات الخاصة بمكان الإقامة المعتاد ومكان العمل بحيث أصبح بالإمكان إجراء دراسة تحليلية مقارنة لتلك البيانات في كل من إنجلترا وويلز منذ تعداد عام ١٩٢١ ، وكذلك في تعدادي عامي ١٩٥١ ، ١٩٦١ ، إلا أن بيانات تعداد عام ١٩٦١ تناولت فقط عينة سكانية تشكل (١٠٪) من إجمالي السكان . ويستفاد من تلك البيانات الاحصائية عند دراسة موضوع رحلة العمل اليومية ، وما هو جدير بالذكر أن تعداد عام ١٩٦١ لكل من إنجلترا وويلز قد أضيف لبياناته سؤال جديد كان الغرض منه يكمن في الحصول على المزيد من المعلومات عن مدى تكرار وحجم واتجاه وخصائص الهجرة الداخلية ، إلا أنه يمكن القول وبشكل عام أن البيانات الخاصة بالمجرة الداخلية عادة ما تكون أقل البيانات الاحصائية دقة بين البيانات الاحصائية الديموجرافية .

op. cit. p. 351.

(٢١)

John I. Clarke, Op. Cit, P. 10 - 11.

(٢٢)

وقد لوحظ وصفت عامة أن البيانات الاحصائية المتوفرة عن الهجرة الداخلية والتي ذكرناها قبل قليل عادة ما تقتصر فقط على عدد قليل من الدول ، علاوة على ذلك ، فإن هذه البيانات عادة ما تتصف برداءتها وبالتالي تصبح غير جديرة بالثقة ، حيث أنه وحتى في حالة قابليتها للمقارنة تصبح ضئيلة ، وبخاصة أن كل دولة من هذه الدول التي تقوم بنشر بيانات عن الهجرة وهي دول قليلة العدد - كما ذكرنا قبل قليل - يكون هدفها الأساسي هو توفير وتجميع البيانات التي تكون بحاجة إليها من أجل أغراض إدارية أو تنفيذية فقط .

أما الهجرة الدولية فتصنف الى نوعين رئيسيين من الهجرة يمثل أحدهما الهجرة طويلة الأمد أو الدائمة (Permanent) ، ويمثل النوع الآخر الهجرة قصيرة الأمد أو المؤقتة (Temporary) .

والبيانات الاحصائية الأكثر تفصيلا عن الهجرة (Detailed Statistics) تعد قليلة الى جانب أنها مبعثرة أو موزعة أثناء نشرها في مجموعة منشورات قومية عديدة ، أو في مجموعة منشورات تصدرها الوكالات المختلفة ، ولذلك تعمل هيئة الأمم على تسهيل عملية استخدام هذه البيانات بأن تقوم بجمعها ونشرها على هيئة بيلوجرافيا عن كل من المسافرين الدوليين (International Travelers) والمهاجرين وتضم هذه البيانات احصاءات تفصيلية عن أربع وعشرين دولة غنارة (٢٣) ، ومن المستحسن أن تعمل كل دولة على اصدار بيانات احصائية عن الهجرة بشكل مستقل كما أوصت بذلك الأمم المتحدة ، لتكون البيانات ذات قيمة أكبر ، بالإضافة الى أن كيفية الحصول عليها تكون أكثر سهولة .

وتعتبر التصنيفات الدولية الخاصة ببيانات الهجرة متاحة وبخاصة فيما يتعلق منها بالتعريفات من أجل أن تكون هناك قاعدة موحدة عالميا عند استعمال هذه التعريفات ، وقد تم ذلك منذ الفترة الزمنية التالية للحرب العالمية الثانية ، حيث بدىء بنشرها ضمن اصدارات عديدة في الأمم المتحدة ، ومثال على هذه الاصدارات الكتاب الديموجرافي السنوي (Demographic Yearbook) الذي ما زال صدوره مستمرا كل سنتين وبشكل دوري ، باستثناء بعض السنوات التي تقع في الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من ذلك فإن البيانات الاحصائية للفترة الزمنية المذكورة قد تم نشرها في اصدارات أخرى للأمم المتحدة (٢٤) ، بالإضافة الى ذلك نشرت الأمم المتحدة بيانات احصائية خاصة بالخصائص الاقتصادية للوافدين عن تعد هجرتهم طويلة الأمد ، ولدول غنارة ضمن اصدار نشر في عام ١٩٥٨ (٢٥) .

تعد الولايات المتحدة الأمريكية خير مثال لتلك الدول التي وفرت البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، بالإضافة الى أنها من أقدم هذه الدول من حيث المبادرة في عملية جمع وجدولة ونشر تلك البيانات ، حيث أصبحت

(٢٣) United Nations.: Analytical Bibliography of Statistics on International Migration statistics, 1925 - 1950, Population Studies, Series A. No. 24, 1955.

(٢٤) United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries, 1918 - 1947, Population Studies, Series A. No. 11, 1953.

(٢٥) United Nations, Economic Characteristics of International Migrants, Statistics for Selected Countries, 1918 - 1954, Population Studies, Series A. No. 12, 1968.

البيانات الاحصائية الخاصة بالمهاجرين القادمين الى الولايات المتحدة الامريكية متاحة وتم نشرها في مصادر عديدة ، وتعتبر ادارة العدل (U. S. Department of Justice) هي الجهة المسؤولة عن جمع وتبويب هذا النوع من البيانات ، بالإضافة الى ادارة خدمات الهجرة ومنع الجنسية ، وكل من هاتين الادارتين تعمل على ترتيب وجدولة هذه البيانات ، وبما هو جدير بالذكر أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية والتي تقوم بجمعها ادارة العدل تشتمل عادة من حصيلة العمليات التنفيذية التي يؤديها رجال مراقبة الحدود ، وتتصف البيانات الاحصائية الخاصة بالأجانب في الولايات المتحدة الامريكية بأنها تجمع على أساس منظم وموثوق به ، بحيث أنه يمكن الاطمئنان إليها ، وكذلك تتميز تلك البيانات بالشمولية وبخاصة أن بياناتها مستقلة من جميع الوثائق الخاصة بالحركات السكانية ، مثل شهادات عدم الجنسية أو الوثائق الرسمية الأخرى ، أما ادارة الهجرة ومنع الجنسية فتعمل أيضا على توفير البيانات الخاصة بالمسافرين جوا وبحرا والتي تجمع بواسطة رجال الحدود التي يعبرها هؤلاء المسافرين ، أو بمساعدة كل من ملاحي السفن أو الطائرات .

بالإضافة الى الادارتين السابقتين ، فإن مكتب التعدادات يعمل على نشر بيانات وتقارير خاصة بظاهرة التدفقات السكانية الى الولايات المتحدة الامريكية ضمن اصداراته ، مثل التعدادات السكانية التي يتم اجرائها كل عشر سنوات ، أو في التقارير والمسوحات السكانية ، الى جانب ذلك يعمل مكتب التعدادات على جمع كل المعلومات المحددة والمباشرة التي تتناول موضوع الهجرة في مجلد واحد ، ليكون بمثابة المصدر الأساسي في حالة القيام بعمل تقديرات للهجرة الصافية ، في الفترات الزمنية التي تتخلل السنوات التي تم بها اجراء التعدادات ، بالإضافة الى الادارات السابقة الذكر والمهتمة بجمع البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة في الولايات المتحدة الامريكية ، هناك أيضا جهات أخرى في الولايات المتحدة مهتمة بجمع تلك البيانات منها على سبيل المثال الوكالات الفيدرالية العديدة التي تعالج هذه البيانات عند قياس حجم الحركات السكانية الدولية ، وأخيرا فإن هناك البيانات الاحصائية المقارنة أو التكميلية للمهاجرين في الولايات المتحدة الامريكية ، إلا أنها محدودة ، وتُنشر عادة في التقارير الخاصة بالهجرة أو في تعدادات دول أجنبية عديدة .

وقد بدأت الولايات المتحدة الامريكية بتدوين السجلات الرسمية للهجرة الوافدة إليها منذ عام ١٨٢٠ بواسطة الوكالة الفدرالية ، أما سجلات الهجرة المغادرة فقد بدأت بتدوينها منذ عام ١٩٠٨ فقط ، بواسطة قسم العمل بالولايات ، ثم تحولت تلك العمليات وأصبحت من اختصاص ادارة العدل منذ عام ١٩٤٤^(٣٧) .

كما سبق عرضه تبين لنا أن هناك عددا محدودا من الدول في العالم عملت على جمع وتبويب ونشر البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة سواء أكان منها الهجرة القادمة أم الهجرة المغادرة ، ولذلك قام قسم السكان ببيئة الأمم المتحدة بمحصنة كافة الهجرات الدولية وبالتالي تم نشرها ضمن اصداراته ، إلا أن ذلك المحصر لم يشمل كافة الهجرات الدولية بمعناها المفهوم والديق ، نتيجة أن إلى هناك بعض الهجرات الدولية التي تمت بين دول يفصل بينها حدود دولية طويلة من جهة ، وغير محكمة المراقبة من جهة أخرى^(٣٨) .

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Op. Cit. P. 351.

John I. Clarke, Op. Cit. P. 10 - 11.

(٣٦)

(٣٧)

٥ - سجلات الهجرة عمليا :

منذ منتصف هذا القرن وبالتحديد منذ عام ١٩٤٦ عندما بدأت الكويت بتصدير أول شحنة من النفط ، بدأت الكويت في نهضتها الحديثة ، وحرصت الدولة على استغلال مواردها من النفط في بناء هيكل اقتصادي واجتماعي في البلاد ، وقد أدى ذلك الوضع الى نتائج عديدة من أهمها اتساع سوق العمل في الكويت وتزايد معدلات الطلب على القوى العاملة ، وبذلك لعبت الهجرة الدولية دورا حاسما في التطور الاقتصادي وبالتالي في نمو الحجم السكاني للدولة الكويت ، وفي الجداول رقم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) والأشكال رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) والتي تشتمل على بيانات خاصة بالتطور العددي والنسبي للسكان الكويتيين من جهة والسكان غير الكويتيين من جهة أخرى ، نستنتج أن نسبة السكان الكويتيين أخذت بالتناقص من تعداد لأخر من إجمالي السكان بدولة الكويت ، حيث تراجعت تلك النسبة من (٥٥,٠ ٪) في عام ١٩٥٧ ، الى (٤٧,١ ٪) في عام ١٩٦٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ولأول مرة نسبة تقل عن نصف السكان داخل الدولة ، واستمرت تلك النسبة في تراجعها حتى وصلت الى أدنى نسبة لها في تعداد عام ١٩٨٥ حيث بلغت (٤٠,١ ٪) من إجمالي السكان بالدولة ، وهذا يعني أن أثر الهجرة الى دولة الكويت واضح في تراجع نسبة السكان الكويتيين من تعداد الى آخر حتى أصبحت نسبتهم تشكل خمس إجمالي السكان بالدولة وذلك بحلول عام ١٩٨٥ ، وبالمقابل فقد تزايدت نسبة السكان المهاجرين من (٤٥ ٪) في عام ١٩٥٧ من إجمالي السكان بالدولة ، الى أن أصبحت نسبتهم تمثل (٥٩,٩ ٪) في عام ١٩٨٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ما يقرب من ثلاثة أخماس إجمالي سكان الدولة .

وقد وفد السكان المهاجرون الى دولة الكويت من مصادر عديدة ، حيث بلغ عدد الجنسيات المتواجدة بالدولة حوالي متين جنسية أو أكثر ، تشكل الجنسيات العربية غير الكويتية غالبية النسبة الخاصة بالسكان المهاجرين ، حيث بلغت تلك النسبة حتى عام ١٩٧٥ ما يقدر به (٨٠ ٪) من إجمالي السكان الوافدين ، إلا أنه بحلول عام ١٩٨٠ طرأ تغير ملحوظ على مصادر المهاجرين ، ونتيجة لذلك فقد تناقصت نسبة الجنسيات العربية من النسبة الاجمالية للسكان الوافدين الى (٧٢,٥ ٪) في عام ١٩٨٠ ثم الى (٦٣,٣ ٪) في عام ١٩٨٥ ، وبالتالي فقد زادت نسبة الجنسيات الآسيوية غير العربية من (٢٢,٠ ٪) من إجمالي السكان الوافدين في عام ١٩٦٥ ، الى (٣٥,٠ ٪) من إجمالي السكان الوافدين ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ثلث النسبة الاجمالية للسكان الوافدين بدولة الكويت .

وقد ساعد على نمو السكان الوافدين في دولة الكويت بالشكل الذي بيناه قبل قليل كل من عنصري صافي الهجرة والزيادة الطبيعية التي كانت تتم بين السكان الوافدين داخل الدولة وفي الجداول رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) حيث تشير بيانات الجداول المذكورة الى أن مكونات النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت أسهبا بدور متفاوت في عملية نمو السكان الوافدين من فترة تعدادية لأخرى ، حيث نلاحظ أنه خلال الفترات التعدادية التي تحلتل التعدادات السكانية السبع من ١٩٥٧ الى ١٩٨٥ ، كان دور صافي الهجرة أكبر في نمو السكان الوافدين في الفترات التعدادية الثلاث الأولى ، بحيث أن دور صافي الهجرة أسهم بضعف الدور الذي أسهم به عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين في المرحلة التعدادية الأولى ، أي خلال المرحلة المتقدمة من بداية وفود السكان الى دولة الكويت ، ويعد هذا الأمر طبيعيا ، وبخاصة أن

الهجرة الى دولة الكويت كانت في بدايتها ، وكانت عملية التنمية في جميع المجالات تعاني من القصور في الايدي العاملة المحلية ، ولذلك فقد كان دور عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين للمواطنين داخل دولة الكويت يأتي في المرتبة الثانية ، واستمر هذا الوضع خلال الفترتين التعداديتين الثانية والثالثة ، إلا أن دور الهجرة الصافية كعامل رئيسي في عملية النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت خلال هاتين الفترتين بدأ يتقلص ويتجه نحو الانخفاض ، ومع ذلك فإن نسبة إسهامه تعد أكبر مما هي عليه دور عامل الزيادة الطبيعية .

وفي الفترة التعدادية الرابعة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، تفوق فيها ولأول مرة نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية في النمو السكاني للوافدين ، بل إن نسبة إسهامه بلغت ضعف ما يقابله من نسبة إسهام عامل الهجرة الصافية في النمو السكاني للوافدين ، حيث بلغت نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية (٦٣,٩ %) .

وبحلول الفترة التعدادية الخامسة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، نجد أن الوضع تغير كلية بمقارنته بنظيره في الفترة التعدادية السابقة ، وكذلك بالفترات التعدادية الثلاث الأولى ، إذ أصبح دور صافي الهجرة أكبر مما كان عليه في تلك الفترات التعدادية في عملية النمو السكاني للوافدين - باستثناء الفترة التعدادية الأولى - حيث بلغت نسبة إسهامه ما يقدر بـ (٦٣,٩ %) من إجمالي نمو السكان الوافدين .

وأخيراً نجد في الفترة التعدادية السادسة والأخيرة والتي تخللت تعدادي ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، أن الوضع في تلك الفترة التعدادية مشابه لما كان عليه الوضع في الفترة التعدادية الثالثة ، فقد تساوى تقريباً كل من دور صافي الهجرة ودور الزيادة الطبيعية في عملية النمو السكاني للوافدين ، نتيجة لتراجع دور الهجرة الصافية تراجعاً واضحاً في هذه الفترة بمقارنتها بما كانت عليه في الفترة التعدادية السابقة ، مسجلة نسبة مقدارها (٤٨,٧ %) في حين أن النسبة المقابلة للزيادة الطبيعية بلغت (٥١,٣ %) .

كما سبق ذكره تبين لنا أن كلاً من عاملي صافي الهجرة والزيادة الطبيعية بين السكان الوافدين والمواطنين في دولة الكويت قد أسهما بدور كبير ولكن بتفاوت في عملية نمو السكان المهاجرين خلال الفترات التعدادية المذكورة مما أدى إلى نمو الحجم الإجمالي للسكان بالدولة من (٢٠٦٤٧٣) نسمة في عام ١٩٥٧ ، إلى (١٦٩٧٣٠١) نسمة في عام ١٩٨٥ ، وقد بلغت نسبة السكان المهاجرين (٦٠ %) من إجمالي السكان بالدولة في العام المذكور ، كما ذكر قبل قليل .

وهناك إلى جانب ما سبق أثر آخر مهم للهجرة إلى دولة الكويت على الخصائص الديموجرافية لإجمالي السكان بالدولة وقد تمثل ذلك الأثر بتطور حجم القوى العاملة بالدولة ، ومن بيانات الجدولين رقمي (٩ و ١٠) واللذين يوضحان التطور العددي والنسبي لقوى العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها في سنوات التعداد ، ومنها نستنتج ما يلي :

- سجل الحجم الكلي للقوى العاملة بدولة الكويت زيادة ملحوظة خلال الفترة الزمنية الممتدة من ١٩٦٥ إلى ١٩٨٥ ، حيث بلغ العدد المطلق حوالى (١٨٤٣٠٤) في عام ١٩٦٥ ، وارتفع هذا العدد إلى (٦٦٥٨٨) في عام ١٩٨٥ ، أي بزيادة مقدارها (٤٧٨٢٨٤) ونسبة مقدارها (٢٥٩,٩٥ %) خلال الفترة الزمنية المذكورة .

١- بلغت نسبة إسهام القوى العاملة الكويتية ما يقدر بـ (٣,٢٣٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، وبالرغم من ذلك فقد تناقصت تلك النسبة من سنة لأخرى حتى بلغت (١٨,٧٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وبذلك نجد أن نسبة إسهام القوى العاملة الكويتية من إجمالي القوى العاملة بالدولة بلغت ما يقل قليلاً عن خمس إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، وهذا الوضع يعطي صورة واضحة عن مدى ضآلة نسبة إسهام القوى العاملة الكويتية في الفترة الزمنية المذكورة من إجمالي القوى العاملة بالدولة من جهة ، وعن مدى أثر الهجرة بما تمثله من حجم له وزنه على الحجم الإجمالي للقوى العاملة بالدولة من جهة أخرى .

٢- مثلت نسبة إسهام القوى العاملة غير الكويتية (٦٧,٧٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تعادل ما يزيد قليلاً عن ثلاثة أرباع الحجم الإجمالي للقوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥ ، ثم تزايدت قليلاً تلك النسبة من سنة لأخرى حتى وصلت إلى نسبة مقدارها (٨١,٣٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥ ، مشكلة بذلك حوالي أربعة أخماس القوى العاملة الإجمالية بالدولة في العام المذكور .

٣- وتعد نسبة إسهام السكان المهاجرين بالقوى العاملة متفاوتة من مجموعة جنسية لأخرى ، إلى جانب أن هذا التفاوت كان متغيراً من تعداد لآخر ، حيث أن نسبة إسهام مجموعة الجنسيات العربية من إجمالي القوى العاملة الوافدة قد سجل أكبر نسبة بين المجموعات الجنسية الأخرى العاملة بدولة الكويت ، إلا أن تلك النسبة سجلت تناقصاً من تعداد لآخر حيث بلغت (٦٨,٢٪) من عام ١٩٦٥ ، ثم انخفضت نحو الارتفاع البطيء ، حتى عام ١٩٧٥ حين بلغت (٦٩,٠٪) ، ولكن منذ عام ١٩٨٠ انخفضت هذه النسبة نحو التناقص الواضح حيث بلغت (٥٩,٦٪) ، ثم تراجعت إلى (٤٦,٢٪) في عام ١٩٨٥ ، وفي التعداد المذكور سجلت مجموعة الجنسيات العربية وللعمرة الأولى نسبة تقل عما يقابلها لدى مجموعات الجنسيات الآسيوية غير العربية ، حيث بلغت النسبة الخاصة بتلك الجنسيات (٥٢,٣٪) من إجمالي القوى العاملة الوافدة في العام المذكور ، مشكلة بذلك ما يزيد قليلاً عن نصف إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، يلي المجموعتين الجنسيين المذكورتين بالمرتبة بقية المجموعات الجنسية غير العربية المتواجدة بدولة الكويت ولكن ينسب قليلة جداً لا تتعدى (١٪) أو ما يقل عن ذلك من إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة ، وتلك الحقيقة تطبق على كافة التعدادات السكانية المذكورة .

عما سبق ذكره تبين لنا أن للهجرة دوراً بارزاً في نمو وتطور حجم القوى العاملة الإجمالية بالدولة ، حيث أن عددها المطلق قد زاد من (١٤١٢٧٩) نسمة في عام ١٩٦٥ إلى (٥٣٩٠٢٨) نسمة في عام ١٩٨٥ ، أي ما يزيد قليلاً عن نصف مليون نسمة .

خلاصة ما سبق ذكره نجد أن ظاهرة الهجرة التي تعرض لها المجتمع الكويتي أسفرت عن تغيرات هائلة سواء أكان بالنسبة للحجم الكلي للسكان وتطور نموه داخل الدولة ، أم بالنسبة لحجم القوى العاملة الإجمالية التي تزايدت بشكل سريع ، والتي كان لعامل الهجرة إلى دولة الكويت الأثر الكبير في هذا التزايد ، وبخاصة أنهم يمثلون غالبية النسبة الخاصة بالقوى العاملة ، إلى جانب ذلك فقد ترتب على ظاهرة الهجرة إلى دولة الكويت آثار جمّة ، سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم الديموغرافية وحتى السياسية على السكان الكويتيين ، وهذا الأمر المهم يدعونا إلى دراسة سجلات الهجرة عملياً للتعرف على الأساليب المختلفة المتبعة في جمع البيانات الإحصائية الخاصة بتلك الظاهرة .

وبخلاف التعدادات العامة للسكان فإنه لا يوجد حتى الوقت الحالي نظام دقيق لجمع بيانات متكاملة عن إحصاءات الهجرة الدولية الوافدة لدولة الكويت بخصائصها الديموجرافية الأساسية وبأسلوبها المعتاد والتي تتم عن طريق إجراء المسوح بالعينة للأسر القاطنة ، أو بأسلوب الإحصاء الجاري للأفراد القادمين والمغادرين بوساطة الاستبيانات التي تصمم لهذا الغرض ، والبيانات المتوفرة حالياً عن الهجرة ما هي الا جداول محدودة مسجل بها حركة القادمين والمغادرين موزعين حسب الجنسية والنوع وطريق السفر ، وتشرف على اتمام تلك العملية وزارة الداخلية بالتعاون مع إدارة الطيران المدني ، وتزود الادارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط بهذه الجداول بصورة شبه دورية ، وتشر هذه الجداول بعد ذلك في المجموعة الاحصائية السنوية ، والبيانات الواردة بتلك الجداول لا تفي بالغرض الأساسي المطلوب من إحصاءات الهجرة والتي تكون كمؤشرات ديموجرافية أساسية ، مثل المهنة والحالة التعليمية والعمر وأسباب القدوم أو المغادرة لكل من القادمين والمغادرين ، وعادة ما تستخدم تلك الجداول كمؤشرات إجمالية لإحصاءات النقل « المواصلات » ، بالإضافة الى أنه يستعان بها عند دراسة وتحليل بيانات تلك الإحصاءات للوقوف على مدى علاقتها بالتغيرات السكانية الأخرى ذات العلاقة بالهجرة الدولية الوافدة الى الكويت أو المغادرة منها ، وبخاصة تلك البيانات التي تتيحها المسوح والاحصاءات السكانية^(٣٢) .

ولم يؤخذ بنظام تسجيل الجداول الخاصة بحركة السفر للسكان الوافدين مصنفة بحسب الجنسية الا منذ عام ١٩٦٤ ، ومع ذلك فما زالت الحاجة تدعو الى ضرورة قيام تنسيق وتعاون إيجابي أكثر بين وزارة الداخلية وإدارة الطيران المدني من جهة ، والادارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط من جهة أخرى ، من أجل أن تتوفر الأرقام الدقيقة عن حجم وخصائص السكان الوافدين الى دولة الكويت بصورة دورية مفصلة . ليتمكن كل من الخبراء والمتخصصين من إجراء تقديرات أقرب الى الواقع لتطور النمو السكاني للوافدين ، للتعرف على التغيرات التي من المحتمل أن تطرأ على خصائصهم في المستقبل القريب والبعيد ، اذ أنه في حالة عدم توفر تلك البيانات يكاد يكون من المستحيل وضع الخطط التنموية والاقتصادية والاجتماعية المستقبلية التي يمكن تنفيذها بنجاح ، وبخاصة أن السكان الوافدين أصبحوا يشكلون حوالي (٦٠ ٪) من إجمالي السكان بحسب نتائج عام ١٩٨٥ ، كما ذكرنا في السابق .

وبالرغم من أنه لا يوجد بدولة الكويت نظام للتسجيل المستمر للسكان ، ذلك النظام الذي يوفر إحصاءات مرضية عن المهاجرين لداخل البلاد والمهاجرين منها ، الا أن هناك عدداً غير قليل من الباحثين والمتخصصين قاموا بإعداد بحوث ودراسات تتعلق بالسكان المهاجرين لدولة الكويت ، وقد تمكنت من تقدير عدد المهاجرين الوافدين الى دولة الكويت في فترة زمنية تقع ما بين تعدادين متتاليين باستخدام اعداد السكان الاجمالية للوافدين في كل من هذين التعدادين ، بالإضافة الى بيانات أخرى توفرها عادة التعدادات أو غيرها من المصادر^(٣٣) .

(٣٢) وزارة التخطيط - الادارة المركزية للإحصاء - دليل نظام الإحصاءات الحضرية بدولة الكويت ، الكويت ، يونيو ١٩٨١ ، ص ٤

(٣٣) من الدراسات والبحوث الحديثة التي تتبع بها الطريقة المذكورة عدد تقدير اعداد السكان المهاجرين الى دولة الكويت في الفترة الصناعية المخططة مالي .

- مساعد حس الميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للإحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨١ ، ص ٧٧ - ٧٩ .

- وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، المربع السابع ، ص ١

- مساعد حسن الميم ، العوامل المحددة لسنويات الاستخدام ومعدلات مختلف توجهات الهجرة ، (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في أغسطس ١٩٨٥

وقد تم حساب صافي الهجرة الى دولة الكويت بتلك البحوث والدراسات وبخاصة في السنوات الأخيرة بالطرق التالية :

أ - حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود : ومن المعروف أن مصدر هذه البيانات وزارة الداخلية ، وقد تم حساب صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود لكل سنة بطرح عدد المغادرين خلال السنة من عدد القادمين خلال نفس السنة ، حيث أنه إذا كانت مثل هذه البيانات على درجة معقولة من الدقة فيمكن استخدامها كأحد مؤشرات صافي الهجرة الى دولة الكويت .

ب - تقديرات صافي الهجرة ما بين التعدادات . وقد أعدت هذه التقديرات بطريقة الإحصاءات الحيوية ، حيث حُيِّب مقدار التغير السكاني ما بين التعداد والتعداد التالي له ، ثم حُيِّب مقدار الزيادة الطبيعية للسكان خلال الفترة ما بين التعدادين وبطرح مقدار الزيادة الطبيعية من الزيادة الإجمالية التي تمت في أعداد السكان نحصل على تقدير صافي الهجرة .

وبالرغم من عدم جواز الاعتماد على صافي الحركة للسكان غير الكويتيين عبر الحدود كمقياس لقيمة صافي الهجرة ، إلا أنه يمكن استخدام قيمة صافي الحركة وكونها سالبة أو موجبة للدلالة على اتجاهات التغير في صافي الهجرة نحو الزيادة أو النقصان ، وبخاصة عند دراسة صافي الهجرة لمجموعة معينة من الجنسيات ، مثل الجنسيات العربية أو الآسيوية أو عند دراسة صافي الهجرة لجنسية معينة ، وتتبع هذه الطريقة في الحالات التي لا يتاح لها بيانات تمكن من تقدير صافي الهجرة بطريقة الإحصاءات الحيوية^(٣٤) .

وبذلك نجد أنه في حالة استخدام الطرق غير المباشرة لتقدير صافي الهجرة الى دولة الكويت فعن الأفضل استخدام الطريقة الثانية التي تعتمد فيها على البيانات التي توفرها التعدادات العامة للسكان وكذلك الإحصاءات الحيوية عن السكان المهاجرين ، أما الطريقة الأولى والتي نتمتع فيها على بيانات حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود ، وكما يوضحها كل من (الجدولين رقم ١١ ، ١٢) ، فلا يمكن الاعتماد على نتائجها وبخاصة أنه عند استعمالها أصفرت بياناتها عن أن حجم صافي الهجرة كان مقداره سالباً في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٦٩ ، وبالتحديد في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٤ ، بالإضافة الى عام ١٩٧٩ ، وأخيراً في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٤^(٣٥) ، وربما تصلح تلك الحقيقة في السنوات الثلاث الأخيرة المذكورة ، إلا أنه لا يمكن حدوثها بالنسبة لفترة لسبعينات وبخاصة أن تلك الفترة الزمنية شهدت حدوث هجرة ذات حجم كبير ، ومن مصادر عديدة ، لم يرد ذكرها في السابق ، منها على سبيل المثال دول جنوب وشرق آسيا ، وبالتحديد تلك الهجرة القادمة الى الكويت لأول مرة من كل من كوريا الجنوبية والفلبين وقد تميزت تلك الهجرة بالإضافة الى ما سبق أن غالبية أفرادها يتركزون في الأعمال الانشائية ، أي في قطاع التشييد والبناء ، الى جانب ما سبق فإن تلك الهجرة تميزت عما شهدته

(٣٤) مساعد المصمم ، المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .

(٣٥) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنية للاعوام ١٩٧٥ - ١٩٧٨ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

الكويت من هجرات في أن مدة الإقامة للوافدين تعد مؤقتة ، حيث أنها تنتهي بمجرد الانتهاء من تنفيذ المشروع الإسكاني الذي قدموا للكويت من أجله .

بالإضافة إلى ما ذكرنا في السابق فإن هناك عدة عوامل تجعل من البيانات الاحصائية الخاصة بحركة القدوم والمغادرة مضللة ولا يمكن الوثوق بها وبالتالي لا يعتمد عليها عند احساب صافي الهجرة ، وفي مقدمة هذه العوامل ، ذلك العامل الذي يتمثل في أن هذه البيانات الاحصائية تغفل تسجيل البدو والمتسولين الذين يخترقون الحدود دون علم سلطات الدولة ، وبخاصة أن الداخلين إلى دولة الكويت بطريقة غير مشروعة عادة ما ينهبون من اختراق الحدود بطريقة رسمية ، ولهذا يغفل تسجيلهم مع القادمين في حين يتم تسجيلهم كمغادرين فقط أثناء خروجهم من البلاد مما يعطي في النهاية أرقاماً مضللة لصافي الهجرة ، خاصة بالنسبة للجنسيات الإيرانية والعراقية والسورية التي عادة ما يكثر بين سكانها دخول البلاد بتلك الطريقة .

بالإضافة إلى ما سبق فإن الطريقة الثانية أيضاً لتقدير حجم صافي الهجرة ما بين التعدادات والتي يعتمد عند استعمالها على كل من بيانات التعدادات العامة للسكان وبيانات الاحصاءات الحيوية يشوبها - أيضاً - نوع من الشك ، نتيجة إلى أن حجم صافي الهجرة يتأثر بالأخطاء التي تحدث في كل من عملية عد السكان وعملية التسجيل الحيوي ، الا أنه يبدو أن عمليات عد السكان في تعدادات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، وكذلك التسجيل الحيوي خلال الفترة ذاتها مكتملة تقريباً ، وهكذا فإن أرقام صافي الهجرة للداخل والمدة باستخدام طريقة الاحصاءات الحيوية لن تكون عرضة لأخطاء خطيرة ، وبخاصة أنه أثناء عملية عد السكان في التعدادات الثلاث المذكورة كان هناك زيادة في التركيز على طلب الالتيام المستندي للجنسية الكويتية ، مما قلل من حالات الادعاء بالجنسية الكويتية^(٣٦)

خلاصة ما سبق ذكره يتضح أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة إلى الكويت نشقت من مصدرين أساسيين هما الادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط وإدارة الجوازات والجنسية والإقامة بوزارة الداخلية ، بما توفره الادارة الأولى من بيانات تتضمنها كل من التعدادات العامة للسكان ، والمجموعة الاحصائية السنوية ، والمجموعة السنوية للإحصاءات الحيوية ، وأخيراً التقارير والمسوحات السكانية ، وما توفره الإدارة الثانية من بيانات خاصة بالقادمين والمغادرين موزعين بحسب مجموعات الدولة التي ينتمون إليها ، وكذلك حركة الركاب في الموانئ البرية والبحرية والجوية ، بالإضافة إلى كل من البيانات التي تتعلق بحالات منح الجنسية الكويتية وحالات منح تصاريح الإقامة للوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها ، وما هو جدير بالذكر أن كافة تلك البيانات تقوم بجمعها وتبويبها الإدارات المختصة بوزارة الداخلية وبخاصة نقاط الحدود البرية والبحرية والادارة العامة للطيران المدني وأخيراً الادارة العامة للجوازات والجنسية والإقامة ، وقد كان هذا النوع من البيانات يصدر عن وزارة الداخلية حتى عام ١٩٦٥ ، إلا أنه بعد ذلك التاريخ أصبح مجلس التخطيط - وزارة التخطيط الحالية - هو الذي يتولى نشر واصدار مثل تلك البيانات معتمداً في ذلك على سجلات وزارة الداخلية

(٣٦) وزارة التخطيط ، خصائص وتغيرات صافي الهجرة لدولة الكويت - الربع الرابع - ص ٥

بالإضافة إلى هذين المصدرين هناك مصدر ثالث للبيانات الإحصائية الخاصة بالهجرة الدولية إلى الكويت وقيل هذا المصدر في مراقبة الاستخدام بإدارة تنظيم القوى العاملة وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في مطلع عام ١٩٨٠ أصبح يطلق على تلك الإدارة إدارة عمل محافظة العاصمة ، بعد صدور القرار رقم (١٩٩) لسنة ١٩٧٩ ، وقد تولت الإدارة إصدار تصاريح العمل على مستوى الدولة (٣٧) ، ويصدر عن الإدارة المذكورة تقريراً سنوياً يختص بنشر بيانات تحليلية وإحصائية عن تصاريح العمل في القطاع الأهلي وقطاع الأعمال النفطية ، ويشمل الهدف الأساسي من نشر تلك البيانات في توضيح كل ما يتعلق بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة ، وتعد تلك البيانات كمؤشر لمعرفة مدى الطلب على هذه القوى ، وما يحدث بها من متغيرات وبخاصة عندما تنشط قطاعات معينة كما حدث في قطاع التشييد والبناء في منتصف السبعينات ، حيث كان الطلب مركزاً على العمالة الوافدة من أجل العمل في القطاع المذكور ، وكذلك تعد تلك البيانات كمؤشر للتعرف على المهن والتخصصات التي تزود بها سوق العمل في الكويت من الدول المختلفة المصدرة للعمالة ، وما إذا كان هناك ثمة علاقة بين مصدر معين وعن بذاتها ، أي الترف على مدى العلاقة ما بين الجنسية والمهنة ، كما حدث في عامي ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ حيث شهدت هاتان السنتان تغيراً جذرياً في خريطة الدول المصدرة للقوى العاملة والوافدة إلى دولة الكويت ، حين أصبحت القوى العاملة غير العربية في مرتف لتحتدي أمام القوى العاملة العربية الوافدة ، وقد بلغت تلك الظاهرة مداها في الثمانينات . (كما أوضحنا فيما سبق) .

خلاصة لكل ما سبق ذكره فإن الهدف الأساسي من عمل الإدارة المذكورة يتلخص في تنظيم عملية استخدام القوى العاملة إلى الكويت من أجل الاستفادة بأفضل الطاقات البشرية المتاحة في أسواق العمل الخارجية ، وكذلك إجراء التقديرات المستقبلية الصحيحة للاحتياجات الفعلية من قوة العمل الوافدة على أسس اقتصادية ، معتمدة في ذلك على حصيلة وفيرة من الحقائق المحيطة بسوق العمل المحلي ، وقد اعتبرت تلك الحقائق بمثابة المؤشرات الأساسية لاتجاهات سوق العمل بالكويت وتطوراتها ومتغيراته لوضع خطة نحو المعنى في إصدار تصاريح جديدة للعمل في اتجاهات اقتصادية معينة .

وتتضمن التقارير السنوية المذكورة بيانات إحصائية ودراسات وتحليلية خاصة بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة - كما ذكرنا في السابق - ، بالإضافة إلى عمل تقديرات للاحتياجات المستقبلية لتلك العمالة ، والبيانات المنشورة في تلك التقارير عن تصاريح العمل توضح أن هناك عدة أنواع من هذه التصاريح هي كما يلي : التصاريح بالدخول للعمل ، التصاريح بالعمل لأول مرة ، تجديد تصاريح العمل ، إلغاء تصاريح العمل أو تحويلها ، وأخيراً إلغائها النهائي لتصاريح العمل ، وجميع تلك الأنواع من تصاريح العمل بجدولة وصنفة بحسب النشاط الاقتصادي والجنسية والمجموعات المهنية والنوع والعمر والحالة الاجتماعية وأخيراً الأجور .

(٣٧) وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، إدارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ ، مقدمة .

وقد اهتمت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بتطوير البيانات التي تتناولها هذه التقارير بالدراسة والتحليل نتيجة إلى أن القوى العاملة المستجدة سنوياً والوافدة إلى الكويت تتزايد من سنة لأخرى ، بحيث أن نتائج تعداد السكان لعام ١٩٨٠ تظهر أن السبب الرئيسي لزيادة السكان الوافدين بدولة الكويت هو المرافقة (مرافقة الأقارب العاملين بالدولة) ونسبة قدرها (٥١,٤ ٪) ، بينما تبلغ نسبة المقيمين للعمل (٤٧,٩ ٪)^(٣٨) . ولذلك فقد ركزت الوزارة المذكورة على تطوير قانون العمل في القطاع الأهلي وتنظيمه ، بحيث صدر قانون في عام ١٩٨٤ أضيف بمقتضاه عمل إجراءات جديدة عند إصدار تصاريح العمل للقوى العاملة الوافدة للعمل في القطاع الأهلي ، منها أن المادة الأولى منه تنص على قصر إصدار تصاريح العمل على قطاعات اقتصادية معينة^(٣٩) .

وفي حالة دراسة الهجرة إلى دولة الكويت هناك بيانات صادرة عن وزارة الداخلية خاصة بحالات منح الإقامة للسكان الوافدين إلى دولة الكويت ، وقد لا تفيد البيانات المذكورة الباحثين والمتخصصين بالدراسات السكانية عند قياس حجم صفاتي الهجرة ، إلا أن هذه البيانات تكون بمثابة مؤشر مهم عند دراسة مظاهر استقرار القوى العاملة الوافدة ، وبخاصة أن دراستنا التحليلية للقوى العاملة بدولة الكويت والتي تناولناها قبل قليل اسفرت عن أن القوى العاملة غير الكويتية تشكل ما يزيد قليلاً عن أربعة أضعاف القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تمثل غالبية القوى العاملة بالدولة حتى عام ١٩٨٥ ، لذلك أخذت الدولة على عاتقها مسئولية إصدار التشريعات الخاصة بالإقامة وما يتعلق بها منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٧٥ ، وتعد جميع القرارات الصادرة بهذا الشأن خاصة ببيان شروط جواز دخول الأجانب لأراضي دولة الكويت والإقامة فيها وملتها وأسبابها .

وفي بيان الجدول رقم (١٣) نستنتج أن نصيب مجموعة الجنسيات العربية غير الكويتية من النسبة الاجمالية لتصاريح الإقامة الصادرة والممنوحة للسكان الوافدين في الفترة الزمنية الممتدة في عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٨٢ ، قد اتجه نحو التناقص وبشكل واضح فبعد أن كانت تلك النسبة تشكل (٦١,٢ ٪) من إجمالي تصاريح الإقامة الممنوحة للوافدين في عام ١٩٧٣ ، أصبحت هذه النسبة تشكل (٣٥,٩ ٪) أي الثلث فقط في عام ١٩٨٢ ، ممثلة بذلك المرتبة الثانية ، وقد احتلت تلك المجموعة لهذه المرتبة منذ عام ١٩٧٩ ، بعد أن كانت ممثلة للمرتبة الأولى في السنوات السابقة للعام المذكور . في حين أن مجموعة الجنسيات الآسيوية غير العربية كانت ممثلة للمرتبة الثانية في عام ١٩٧٣ وبنسبة تقدر بـ (٣٦,١ ٪) ، إلا أن هذه النسبة انخفضت نحو الزيادة من سنة لأخرى حيث أنها فاقت ما يقابلها لدى مجموعة الجنسيات العربية منذ عام ١٩٧٩ ، ممثلة - بذلك - للمرتبة الأولى واستمرت تلك المجموعة ممثلة لهذه المرتبة حتى عام ١٩٨٢ وبنسبة تقدر بـ (٥٣,٥ ٪) أي أن نصيب مجموعة الجنسيات الآسيوية غير العربية من النسبة الاجمالية لتصاريح الإقامة الممنوحة زاد عن النصف بقليل في العام المذكور .

أما نصيب بقية المجموعات الجنسية غير العربية كالأفريقية والأمريكية والأوربية وغيرها فقد كان محدوداً جداً ويقل في معظم الأحوال عن نسبته (١ ٪) في جميع السنوات المذكورة .

(٣٨) مساعد حسن المعجم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، المرحح الثاني ، ص ٨١

(٣٩) وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، تدارك حمل مخالطة العمالة ، دراسة الإستخدام ، تقديم الشري لتسهيل الإستخدام والصفات الأساسية للعمالة الوافدة عام

١٩٨١ - الكويت في فبراير ١٩٨٥ ، ص ٣ - ٤

خلاصة لما سبق ذكره يتضح أن دولة الكويت تعد حديثة العهد بالنسبة لوفود المهاجرين إليها ، حيث بدأت ظاهرة الهجرة الدولية إلى دولة الكويت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، إلا أنها ساهمت بشكل فعال في نمو حجم السكان وبالتالي أثرت وبشكل واضح على كافة الخصائص الديموغرافية السكانية ، ولابد أن الكويت بتدوين أو تسجيل بيانات تلك الظاهرة إلا منذ عام ١٩٥٧ ، حين أجرى التعداد الأول للسكان بالدولة ، ثم تبعه بعد ذلك استمرار هذه العملية كل خمس سنوات وكان آخرها تعداد عام ١٩٨٥ ، وبخاصة أنه كما علمنا في السابق من أن بيانات التعداد العام للسكان تعد المصدر الرئيسي لإحصاءات الهجرة إلى دولة الكويت أو منها ، أما المصدر الثاني فقد مثله البيانات الصادرة عن وزارة الداخلية ، وبخاصة تلك البيانات الوثيقة الصلة بحركة السكان والتي تجمع بواسطة الرجال القائمين على مراقبة نقاط الحدود والمطارات ، بالإضافة إلى تلك البيانات الخاصة بحالات منح الإقامة للوافدين والتي في حالة تحليلها تعد بمثابة مؤشر هام لدى استقرار القوى العاملة ، وأخيراً فإن المصدر الثالث يتمثل في إحصاءات الهجرة التي توفرها وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل والخاصة بتصاريح العمل الممنوحة للقوى العاملة الوافدة في القطاع الأهلي .

خلاصة لما سبق ذكره يتبين لنا أن هناك جهات رسمية عديدة تعمل على جمع وجدولة ونشر البيانات الخاصة بالهجرة الدولية القادمة إلى دولة الكويت أو المغادرة منها ، وقد تمثلت هذه الجهات بثلاث وزارات هي وزارة التخطيط ، ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، وبناء على ذلك نوصي بأن يكون هناك جهة رسمية واحدة فقط تتولى تلك العملية ، ومن الأفضل أن تكون تلك الجهة ممثلة بوزارة التخطيط ، وبخاصة بالنسبة لجمع هذه البيانات والتأكد من صحتها وبالتالي تبويبها ونشرها ، لتكون أكثر فائدة بالنسبة لكافة المهتمين بظاهرة الهجرة الدولية سواء أكان منها القادمة أم المغادرة من دولة الكويت وفي مقدمتهم المسؤولون عن التخطيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، من فهم العاملون في القطاع الحكومي أو القطاع الخاص ، أو الباحثون والدارسون لتلك الظاهرة ، بالإضافة إلى ما سبق نوصي - أيضاً - أن يكون هناك قسم خاص يعنى بشئون الهجرة ويكون تابعاً للإدارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط يعمل على جمع كافة البيانات الإحصائية المتعلقة بالهجرة ، وينشرها ضمن إصدار خاص يكون على هيئة مجلد يحتوي على جميع البيانات الإحصائية للهجرة ، حتى يكون أكثر فائدة وقيمة عند دراسة تلك الظاهرة من قبل جميع المهتمين بهذه الظاهرة ، وحتى يتمكنوا من خلال دراساتهم ومناقشتهم لتلك الظاهرة من حيث تحليل مسبباتها والتغيرات التي تطرأ على حجمها من فترة زمنية إلى أخرى ، والعوامل المؤثرة على حجم الهجرة الدولية إلى الكويت سواء أكان منها الداخلية أم الخارجية ، حتى يستطيع المهتمون بتلك الظاهرة بجمع فئاتهم الوصول إلى فهم أكثر للعوامل المحددة لمختلف نوعيات الهجرة الوافدة إلى دولة الكويت بشكل أكثر سهولة عند استخدام هذه البيانات .

أما التوصية الثالثة التي نختتم بها هذا البحث فتتلخص في أنه على الجهات الرسمية الثلاث المعنية بظاهرة الهجرة في الوقت الحالي والمتمثلة في وزارات التخطيط والداخلية والشؤون الاجتماعية والعمل أن تعطي مزيداً من الاهتمام نحو تسجيل البيانات الإحصائية المتعلقة بتلك الظاهرة ، لتكسب مزيداً من الدقة ، وبخاصة فيما يتعلق منها بشمولية هذه البيانات ، بحيث أنه في حالة تسجيل تلك البيانات لا تغفل أي مجموعة سكانية وافدة إلى البلاد أو مغادرة منها ، نتيجة لما يمثل حجم السكان المهاجرين من إجمالي السكان داخل الدولة ، وكما ذكرنا فيما سبق من أن هؤلاء السكان أصبحوا

يمثلون نسبة تقدر بـ (٦٠٪) من إجمالي السكان بالدولة كما أظهرتها نتائج التعداد الأخير - تعداد عام ١٩٨٥ ، وهذه النسبة ليست كبيرة من حيث حجمها فقط ، بل تتعدى ذلك بكثير لما لها من آثار بالغة وواضحة على الخصائص السكانية داخل الدولة ، سواء أكان منها الاجتماعية أم الاقتصادية بل وحتى السياسية ، وما يتطلبه كل ذلك من زيادة سريعة في الخدمات المختلفة التي تقدمها وتوفرها الجهات المعنية وفي مقدمتها وزارات الدولة المختلفة وبجميع أجهزتها والمؤسسات التابعة لها .



ملحق الجداول

فهرست الجداول

رقسم الصفححة	عنوان الجدول	رقسم الجدول
	١ - التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتين) في سنوات التعداد .	
	٢ - التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها .	
	٣ - التطور العددي والنسبي للسكان الوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها .	
	٤ - صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من (١٩٤٨ - ١٩٨٥) .	
	٥ - الواقعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتين) للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٨٤ .	
	٦ - مكونا النمو السكاني للمهاجرين بدولة الكويت (١٩٥٧ - ١٩٨٥) .	
	٧ - تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (١٩٥٧ - ١٩٨٥) .	
	٨ - تطور معدلات النمو السنوي للسكان موزعة بحسب المجموعات الجنسية بدولة الكويت في الفترات التعدادية الخمسة .	
	٩ - التطور العددي والنسبي لقوة العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد .	
	١٠ - التطور العددي والنسبي لقوة العمل غير الكويتية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات التعداد .	
	١١ - حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (قادمون ومغادرون) وصافي الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات .	
	١٢ - صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود موزعة بحسب مجموعات الدول للسنوات (١٩٧٢ - ١٩٨٤) .	
	١٣ - نسب حالات منح تصاريح الإقامة للوافدين حسب مجموعات الدول في السنوات (١٩٧٣ - ١٩٨٢) .	

الطور المدني والنسبي للسكان بملء الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)
في سنوات التعداد من (١٩٦٥ - ١٩٨٥) (٣٩)

جدول رقم (١)

سنة التعداد والعدد والنسبة		١٩٦٥		١٩٧٥		١٩٨٥	
		العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
كويتيون غير الكويتيين	٢٢٠٠٥٩	٤٧,٢	٣٤٧٢٩٦	٤٧,٠	٤٧٢٠٨٨	٤١,٧	٦٨١٢٥٨
	٢٤٧٢٨٠	٥٢,٩	٣٩١٢٦٦	٥٣,٠	٥٢٧٤٩	٥٨,٣	١٠١٦٠١٣
المجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	١٠٠,٠	٧٣٨٦٦٢	١٠٠,٠	٩٩٩٥٨٤	١٠٠,٠	١٦٩٧٣٠١

(١٠) التعدادات المأداة للسكان في السنوات المذكورة .
• النسب حسب

جدول رقم (٢)
التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول
التي يتبعون إليها في تعدادات ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ (٤٠)

المجملة العمومية	١٠٠,٠	١٦٨٧٣٠١	١٩٨٥		١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥		سنة التعداد العدد	مجموعات الدول
			العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪		
غير مبين	—	—	—	—	١٦٨	—	—	٦٨	—	١	٢٢٠٠٥٩	٤٧,١	كويتية	
أخرى	٣,٠	٥٢٤٤	٣,٠	٩٩٨٤	٣,٠	١٣٠١	٣,٠	٤٨١٦	٨,٠	٣٨٢٩	١١٠١٠١	١١,٧	أوروبية	
أسيوية	٢١,٠	٣٥٩٤٧	١٦,٩	١٧٨١٣	١٧,٠	٧١٩١٧	١٧,٠	٤١٩١٨٧	١١,٧	٥٤٥٠٤	٣١٢٨٤٩	١١,٧	عربية	
١٧,٠	١١٩٠٨	٩٩٨٤	٨,٠	٤٢٨٠٠	٨,٠	٤٨١٦	٨,٠	٣١٢٨٤٩	٨,٠	٣٨٢٩	٣١٢٨٤٩	٨,٠	عربية	
٣٧,٩	٦٤٢٨٤	٥٧٤٩٥	٤٦,٣	٤١٩١٨٧	٤٦,٤	٣١٢٨٤٩	٤٦,٤	٣١٢٨٤٩	٤٦,٤	٣١٢٨٤٩	٣١٢٨٤٩	٤٦,٤	عربية	
٤٠,٠	٦٤٢٨٤	٥٧٤٩٥	٤٦,٣	٤١٩١٨٧	٤٦,٤	٣١٢٨٤٩	٤٦,٤	٣١٢٨٤٩	٤٦,٤	٣١٢٨٤٩	٣١٢٨٤٩	٤٦,٤	عربية	
١٠٠,٠	١٦٨٧٣٠١	١٣٥٧٥٢	١٠٠,٠	٩٩٤٨١٧	١٠٠,٠	٧٣٨١١٢	١٠٠,٠	٧٣٨١١٢	١٠٠,٠	٧٣٨١١٢	١٠٠,٠	٧٣٨١١٢	١٠٠,٠	المجملة العمومية

(٤١) المصدر السابق .
• أخرى وتشمل الجنسيات الأخرى غير العربية والأجنبية والإسرائيلية والفلسطينية .

جدول رقم (٣)
التطور الحدي والسي للسكان الوافدين مؤرخين بحسب مجموعات الدول التي يتسعون إليها
في تملدات ١٩٦٥، ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٥ (٤١)

١٩٨٥	١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥		مجموعات الدول النسبة المئوية العدد
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	
٦٣	٦٤٢٨١٤	٧٢	٥٧٤٤٩٥	٨٠	٤١٩١٨٧	٧٦	٣١٢٨٤٩	١٨٧٩٢٣	عربية
٣٥	٣٥٥٩٤٧	٢٥	٢٠٤١٠٤	١٨	٩٧٨١٣	٢٣	٥٤٥٠٤	٠	اسيوية
١	١١٩٠٠٨	٨	٩٩٨٤	٢	٤٢٨٠	١	٤٨١٦	٢٨٣٩	الروسية
٠	٥٣٤٤	٠	٣٧٥٦	١٣	١٦٠٨	٠	١٠١٧	٠	أخرى
٠	٠	٠	٠	١٦٨	٠	٧٦	٠	٠	غير معين
١٠٠	١٠١٦٠١٣	١٠٠	٧٩٢٣٣٩	١٠٠	٥٢٢٧٤٩	١٠٠	٣٩١٢٦٦	٢٤٧٢٨٠	الجملة العمومية

(١٢) المصدر السابق .

• تشير تملد السكان الوافدين من مجموعات الدول الأربعة في العربية والأمريكية وليس في أفريقيا .

• السب حيت .

صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من
جلول رقم (٤)
(١٩٤٨ - ١٩٨٥)

البلدة	تغير مسن	الدول الأمريكية ودول أخرى		الدول الأوروبية		الدول الآسيوية		الدول العربية		مصادر الهجرة والصعود وسنات الانتماء	نسبة الهجرة إلى التعداد الكلية
		العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪		
١٠٠-١٠٠	—	٦٤٥٠٩	٠.٩	٩٧	٢.٣	٢٠٢٠١	٦٤.٨	٤١٨٨٨	١٩٥٧	١٩٥٧	٤٨
١٠٠-١٠٠	—	٢٠٧٩٨٦	٠.٢	٤٩٢	٢٠.٧	٤٤٤٨٨	٧٣.٤	١٥٨٩١٤	١٩٦٥	١٩٦٥	٥٧
١٠٠-١٠٠	—	٣٢١٤٢١	٠.٤	٩١٦	١.٩	٤٤٨٠٢	٧٤.٣	١٨٦٢٥١	١٩٧٠	١٩٧٠	٦٥
١٠٠-١٠٠	—	٣٢٠٩٨٥	٠.٥	١٠٥٣	٢.٦	٥٠٦١٢	٧٥.٠	١٦٥٥٦٧	١٩٧٥	١٩٧٥	٧٠
١٠٠-١٠٠	—	٣٦٩٥٨٠	٠.٩	٣٢٨٧	١.٦	١٠٦٢٩١	٥٧.٢	١٥٥٣٠٨	١٩٨٠	١٩٨٠	٧٥
١٠٠-١٠٠	—	٣٣٦٦٧٤	٠.٧	١٥٨٨	٠.٨	١٥٦٤٢٣	٣٠.٥	٦٨٣٦١٩	١٩٨٥	١٩٨٥	٨٠

(٤٣) أحد صين إبراهيم ، سكان الكويت ، دراسة بشرية ، مطبوعات مجلة دراسات الخليج والحيرة العربية رقم (١٦) الكويت ١٩٨٥ ، جدول رقم (٣) ص ١٥٤ .

(٤٤) وزارة التخطيط ، المصنوع الإحصائية البشرية لعام ١٩٨٥ وقصود قائم السكان ١٩٨٥

جدول رقم (٥)

الوقائعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)
للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٨٤

الوقائعات الحيوية والموت والمرض والجروح والجمل	المواليد أصحاء		موتون		غير كويتيين		كويتيون		غير كويتيين		كويتيون		الزيادة الطبيعية	
	العدد		العدد		العدد		العدد		العدد		العدد		العدد	
	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل	العدد	المعدل
١٩٦٥	١١٧٩٢	٥٢,٢	١٠١٥٧	٤٠,٤	١٦٠٦	٢,٢	٨٥١	٣,٢	١٠١٩٠	٤٥,٢	٩٣٦٩	٣٧,٠	٣٧,٠	٣٧,٠
١٩٦٦	١٢٤٨٧	٥٠,٩	١١٢٤٩	٤٠,٩	١٧٦٦	٢,٢	٩٠٤٧	٣,٨	١٠٧١٧	٤٢,٧	١٠٢٠٢	٣٧,٢	٣٧,٢	٣٧,٢
١٩٦٧	١٤٦٢٤	٥٤,٥	١٣٦١٠	٤٥,٥	١٨٢٢	٦,٧	١٢٨٩	٤,٢	١٢٨٠٢	٤٧,٧	١٢٤٢٤	٤١,٢	٤١,٢	٤١,٢
١٩٦٨	١٥٧٦٢	٥٣,٢	١٢٦٦٤	٥٢,٣	١٩٢٩	٦,٥	١٤١٧	٤,٢	١٣٨٣٢	٤٧,٠	١٥٨٤٧	٤٨,٠	٤٨,٠	٤٨,٠
١٩٦٩	١٧٩٦٥	٥٥,٨	١٧١٧٠	٤٧,٤	١٨٧٨	٨,٨	١٥٠٠	٤,٨	١٦٠٨٧	٤٩,٩	١٥٦٧٠	٤٣,٢	٤٣,٢	٤٣,٢
١٩٧٠	١٦٢٢٠	٤٦,٢	١٧٦٢٢	٤٤,٥	٢٠١٥	٧,٥	١٧٢٠	٤,٢	١٤٢٠٥	٤٠,٥	١٥٩٠٢	٤٠,٢	٤٠,٢	٤٠,٢
١٩٧١	١٧٦٦٧	٥٣,٥	١٧٨٩١	٤٢,٢	٢٢٢٥	٦,٠	١٦٠٧	٣,٨	١٥٤٤٢	٤٢,٢	١٦٨٢١	٣٨,٥	٣٨,٥	٣٨,٥
١٩٧٢	١٩٢٢٢	٥٠,٢	١٨٤٥٦	٤٠,٢	٢٥٥٧	٦,٢	١٥٩٢	٣,٨	١٦٦٧٥	٤٢,٦	١٧٨٦٤	٣٧,٤	٣٧,٤	٣٧,٤
١٩٧٣	٢١٢٤٠	٥٠,٥	١٨٨٢٥	٤٠,٥	٢٨٤٠	٦,٧	١٧٦١	٣,٧	١٨٥٠٠	٤٢,٦	١٧٠٦٤	٣٦,٢	٣٦,٢	٣٦,٢
١٩٧٤	٢٢٧١٣	٥٠,٥	١٨٣٢٧	٣٦,٨	٢٩٧٨	٦,٨	١٧١٥	٣,٦	١٩٧٣٥	٤٣,٥	١٦٦٣٧	٣٤,٤	٣٤,٤	٣٤,٤
١٩٧٥	٢٤٣٤١	٥١,٢	١٩١٢٠	٣٦,٠	٢٩١٧	٦,٠	١٨٦١	٣,٥	٢١٤١٤	٤١,٤	١٧٢٥٩	٣١,٥	٣١,٥	٣١,٥
١٩٧٦	٢٤٩٣٥	٥٠,٦	٢١١٠٤	٣٦,٦	٢٧٥٧	٥,٦	١٩٠٤	٣,٢	٢٢١٧٨	٤٥,٨	١٩٢٠٠	٢٣,٣	٢٣,٣	٢٣,٣
١٩٧٧	٢٤٧٩٠	٤٨,٥	٢٢٠٧٤	٣٥,٢	٣١٥٠	٦,٢	٢٢١٥	٣,٥	٢١٦٤٠	٤٢,٢	١٩٨٥٩	٢١,٧	٢١,٧	٢١,٧
١٩٧٨	٢٥١٢٨	٤٧,٤	٢٢٨٨٢	٣٢,٢	٢٨٦٨	٤,٨	٢٠٦٨	٣,٠	٢٢٢٦٠	٤١,٠	٢٠٨١٤	٢٠,٦	٢٠,٦	٢٠,٦
١٩٧٩	٢٥٤٩٩	٤٦,٢	٢٢٧٧٤	٣٠,٢	٢٩٢٢	٤,٨	٢٠٨٥	٢,٨	٢٢٥٥٦	٤١,٠	٢٠٦٨٩	٢٧,٩	٢٧,٩	٢٧,٩
١٩٨٠	٢٦١٦٨	٤٧,٢	٢٤١٢٣	٣٠,٢	٢٩٠٢	٤,٨	٢٠١٩	٢,٥	٢٤٠٥٥	٤٢,٢	٢٢١٠٢	٢٧,٩	٢٧,٩	٢٧,٩
١٩٨١	٢٧٩٩٨	٤٧,٤	٢٤٠٤٣	٣٧,٥	٢٨٩٩	٤,٦	١٩٨٩	٢,٢	٢٥٢٠٩	٤٢,٨	٢٣٠٥٤	٢٥,٢	٢٥,٢	٢٥,٢
١٩٨٢	٢٩٠٠٤	٤٧,٤	٢٥٢٥٢	٣٦,٥	٢٨٢٨	٤,٦	٢١٦٤	٢,٢	٢٦١٦٧	٤٢,٨	٢٣٠٨٩	٢٤,٢	٢٤,٢	٢٤,٢
١٩٨٣ (٤٤)	٣٠٠٣٢	٤٧,٢	٢٥٥٨٥	٣٤,٧	٢٦٦٢	٤,٢	١٩٩٦	١,٩	٢٧٦٦٩	٤٣,٢	٢٣٥٩٤	٢٢,٨	٢٢,٨	٢٢,٨
١٩٨٤ (٤٥)	٣٠٤٤٨	٤٦,٨	٢٥٨٠٦	٣٦,٥	٢٥٢٤	٣,٨	١٩٢٢	٢,٠	٢٧٩٢٤	٤٢,٢	٢٣٨١٣	٢٤,٥	٢٤,٥	٢٤,٥

(٤٥) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، النشرة السنوية للإحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٢ ، الكويت ١٩٨٤ ، الجدول رقم (٢) و (٣) ، ص ٢ - ١٤ .

(٤٦) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، النشرة السنوية للإحصاءات الحيوية ، مارس ١٩٨٦ ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ ، جدول رقم (٢) و (٨) ، ص ٨ - ٩ .

© حسب المعدلات

مكونات النمو السكاني المهاجرين بدولة الكويت (١٩٥٧ - ١٩٨٥) (٤٦)

جدول رقم (٦)

[illegible]

• المدلات والتب محسوبة .

جدول رقم (٧)
تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (٥٧ - ١٩٨٥) (٤٧)

السكان	عدد السكان الوافدين	الوافدون الى حمالة السكان	مقدار الزيادة معدل النمو بين التعدادين السنوي من التعدادين	معدل الزيادة النسبية بين التعدادين	معدل الزيادة غير الطبيعية بين التعدادين
سنة التعداد					
١٩٥٧	٩٢٨٥١	٤٥٠	٦٦٨٦١	١٣ ر ٦	١٠ ر ٩
١٩٦١	١٥٩٧١٢	٤٩٦	٨٧٥٥٨	١١ ر ٨	٨ ر ٦
١٩٦٥	٢٤٧٢٨٠	٥٢٩	١٤٣٩٨٦	٩ ر ٦	٥ ر ٥
١٩٧٠	٣٩١٢٦٦	٥٣٠	١٣١٤٨٣	٩ ر ٥	٣ ر ٣
١٩٧٥	٥٢٢٧٤٩	٥٣٥	٢٦٩٥٩٠	٧ ر ٨	١ ر ٥
١٩٨٠	٧٩٢٣٣٩	٥٨٣	٢٢٣٦٧٤	١ ر ٥	٧ ر ٢
١٩٨٥	١٠١٦٠١٣	٥٩٩			

(١٨) المربع السابق

٥ المجلات حيث

الطور المدني والنسبي لقوة العمل الاجالية ببلولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي يتبعون اليها في

جدول رقم (٩)

ستوات التصاد

مجموعات السجلات والنسبية	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ (٥١)		١٩٨٥ (٥٢)	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%
الكويتية	٤٢٠٢٥	٢٣,٣	٦١٦٨٢	٢٥,٩	٨٢٩٧١	٢٩,٠	١٠٢٥٧٤	٢٦,٩	١٢٣٥٦٠	١٨,٧
العربية غير الكويتية	٩٦٣٧٢	٥٢,٣	١٢٠٧٨٤	٥٠,٨	١٤٦٧١٨	٤٩,٠	٢٢٨٥٢٥	٤٦,٩	٢٤٩٠٣١	٣٧,٩
الاسبورية غير العربية	٤٠٣٩٢	٢١,٩	٥٠٨٧٣	٢١,٤	٦٢٥٨٦	٢٠,٩	١٤٥٧٦٦	٢٩,٩	٢٨١٨٠٦	٤٢,٥
الارمنية غير العربية	٣٧٠	٠,٢	٢٠٥	٠,١	١٠٧	—	٨١٠	٠,٢	١٠٢٨	٠,٢
الامريكية والاوربية	١٩٠٧	١,٢	٢٤٨٢	١,٢	٢٠٣٢	٠,٧	٥٥١٩	١,٢	٧٦٦٣	١,١
غير مبين	١٢	—	٤٧	—	—	—	—	—	—	—
منطليون	٢٢٢٦	١,٢	٢٢٢٢	١,٢	١٢٩٤	٠,٤	٢٢٢٧	٠,٢	—	—
جملة غير الكويتيين	١٤١٢٧	٧٦,٧	١٧٣٨٢٧	٧٤,١	٢١٢٢٣٨	٧١,٠	٢٨٢٣٤٩	٧٨,٩	٥٢٩٠٢٨	٨١,٣
الجملة المجموعه	١٨٣٢٠٤	١٠٠,٠	٢٣٨٥٠٩	١٠٠,٠	٢٩٩٧٠٩	١٠٠,٠	٤٨٧٢٢٢	١٠٠,٠	٦٦٢٥٨٨	١٠٠,٠

(٥١) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعه الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الربع الثاني ، جدول ١٠٠٩ ، ص ١١٢ - ١١٨ .

(٥٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المجموعه الاحصائية السنوية ١٩٨٣ ، الفصل الثماني ، الكويت في نوفمبر ١٩٨٣ ، جدول ٩٢ ، ص ٩٢ - ١٠٠ .

(٥٣) وزارة التخطيط ، المندوب العام للشكايا ١٩٨٥ ، الربع الثاني ، جدول رقم (٤٦) .

- قوة العمل ١٦٦ سنة ١٩٨٥ في عامي ١٩٦٥ - ١٩٧٠ .

- قوة العمل (١٥ سنة ١٩٨٥) في عامي ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

* حيث النسبة .

التطور المادي والنسبي لقوة العمل غير الكفائية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات
جلول رقم (١٠)

١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥

سنوات قديمة والجديدة والنسبة	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
	القيمة	٪	القيمة	٪	القيمة	٪	القيمة	٪	القيمة	٪
مجموعات الدول										
الدول العربية	٩١٧٧٢	٦٨	١١٠٧٨٧	٦٨	١٤٧٧١٨	٦٩	٢٢٨٥٢٥	٥٨	٢٤١١٣١	٥٨
الدول الأوروبية	٤٠٢٤٢	٦	٥٠٨٧٣	٦	٦٢٥٨٦٦	٢٩	١٤٥٩١٦	٢٨	١٨١٨٠٦	٢٨
الدول الأمريكية	٢٧٠	٢	٣٠٥	٢	١٠٧	٢	٨١٠	٢	١٠٢٨	٢
الدول الأمريكية والأفريقية	١٩٠٧	٤	٢٤٨٢	٤	٢٠٢٣	١	٥٥١٩	١	٧١٦٣	١
أفريقيا مستقلة	١٢	٠	٤٧	٠	—	—	—	—	—	—
مستقلة	٢٢٢٦	٣	٣٣٢٦	٣	١٢٩٤	٢	٢١٧٩	٢	—	—
المجموع العمومية	١٤١٢٧٩	١٠٠	١٧٨١٢٧	١٠٠	٢١١٧٣٨	١٠٠	٢٨٣٢٤٤	١٠٠	٣٢١٠٢٨	١٠٠

(١٠) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعات الإحصائية للسنة ١٩٨٥ ، المرجع السابق ، جداول رقم ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ص ١٠٦ .

(١١) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، المرجع السابق .

• قرا الفصل (١٢) من كتاب رقم ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ .

• قرا الفصل (١٣) من كتاب رقم ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

• صحت النسب .

جدول رقم (١١)
حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (تأخرون ومغادرون) وصافي
الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات (١٩٦١ - ١٩٨٤)

صافي الهجرة في فترة ما بين تعدادات	حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود			حركة السكان غير كويتيين وصافي هجرة فترة
	صافي الحركة	مغادرون	تأخرون	
٨٢٩٩ -	٨٦٧١ -	٢٢٦٦٤٢	٢١٩٠٧١	١٩٦١
	٢٠٢٠٢ +	١٦٠٧٥٢	١٨١٩٥٠	١٩٦٢
	١٧٨٢٤ -	٢٨٨٦١٢	٣٦٠٧٨٨	١٩٦٤
	٦٣١ +	٥٧٥٣٤١	٥٧٥٩٧٢	١٩٦٥ (٥٥)
٢٩٤٦٥٢ +	٣٠٧٩٠ +	٦١٥٦٤١	٦٤٦٤٢١	١٩٦٦
	١٢٦٦٨٤ +	٤٦٥٥٢٤	٦٠٢٢١٨	١٩٦٧
	١١٩٦٩٥ +	٦٤٣٠٢٨	٧٦٢٧٣٢	١٩٦٨
	٦٨٥٢ +	٦١٣٣١٧	٦٢٠١٦٩	١٩٦٩
٢١١٩٨٢ -	٤١٠١٧ -	٦٥٨٨٧٩	٦١٧٨٦٢	١٩٧٠
	١٧١٠٠ -	٦٧٤٤٩٥	٦٥٧٣١٥	١٩٧١
	١٠١٨٩٦ -	٧٩٠٣٢٩	٦٨٨٤٣٢	١٩٧٢
	٣٨٢٨٨ -	٢٠٨٠١٠	٦٦٩٧٢٢	١٩٧٣
٣٢٠٩٢٧ +	١٣٦٨١ -	٧٧١٢٢٦	٧٥٧٥٤٥	١٩٧٤
	٥٤٢٣٠ +	٨٦٣٩٣٠	٩١٨١٦٠	١٩٧٥
	٧٥٥٦٧ +	٩٧١٧٧٧	١٠٤٧٣٤٤	١٩٧٦
	١٤٤٩٣٩ +	١١٦٢٢٥٢	١٢٠٧١٩٢	١٩٧٧
٦٩٥٨٢ -	٧١٩٧٣ +	١٢٧٣٣٠٦	١٣٤٩٢٧٩	١٩٧٨
	٢٥٧٨٢ -	١٣٨٧٠٠٣	١٣٦١٢٢١	١٩٧٩
	٣٦١ +	١٣٦٥٣٧٠	١٣٦٥٧٣١	١٩٨٠
	٩١٨٤٣ +	١٠٩٥٣٦٦	١١٨٧١٦٩	١٩٨١
٣٢٥٧١٥ +	٥٩٠٤٨ -	٩٦٠٤٦	٩٠١٥٩٨	١٩٨٢
	٧٢٢٠٧ -	٨٢٢٢٣٣	٧٩١٠٥٦	١٩٨٣
	٣٠٤٢٢ -	٩٣٠٢٣٠	٨٩٩٧٩٨	١٩٨٤ (٥٦)
	الاحصائي			

(٥٦) من عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٦٥ الأرقام المتعلقة بالتأخرون والمغادرون مستقاة من المجموعة الإحصائية الشهرية لعام ١٩٦٦ ، جداول ١٨ ، ص ٣٩ .

(٥٧) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء - المجموعة الإحصائية للأعوام ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

٥ الأرقام المتعلقة بصافي الحركة وصافي الهجرة حسبها .

صافي حركة السكان غير الكويتيين غير المبلوذة مرتبة بحسب مجموعات الدول للسنوات
 جدول رقم (١٢)
 (١٩٧٢ - ١٩٨٤)

مجموعات الدول	١٩٨٢		١٩٨١	١٩٨٠	١٩٧٩	١٩٧٨	١٩٧٧	١٩٧٦	١٩٧٥	١٩٧٤	١٩٧٣	{ ٥٧١ }	قسيونات
	١٩٨٢	١٩٨١											
الدول العربية	٣٦٧ +	١٤٠٧٧ -	٢٥٨٠٢ -	٨٧١٣٣ -	٨٥٢٥ +	٩٦٨٤ -	٧١٤٩٥ +	١٣٣٦٥ +	٤٢٠٢٧ +	٧٧٠٠٣ -	٢٢٧ -	٦٥٠٥١ +	٨٩٦٣٣ -
الدول الآسيوية	٩٠٢٢٩ -	١٠٤٤٥ -	٢٤٧٢٢ -	١٣٦٠٨ -	١٥٤١٨ -	٣٣٨٢٦ -	١٢٢٦١ -	٨١٨٠ -	٢٢٢٠٧ +	١٢٢٦٤ -	٥٢٥٥ -	١٥٨٠ -	١٥٨٠ -
الدول الأفريقية	٦٠ -	٥٦٦ -	١٨٢ -	١١٩ -	٢٢ +	٢٢ +	٧٢ +	٢١ -	١٨٦ +	١١٥ +	٧٩ -	١٠ -	١٠ -
الدول الأوروبية	٥١٦٦ -	٥٩٨٢ -	٢٢٢٦٢ +	٢٢٢٦٢ +	٥٢٢٢ +	١٢٥٨ -	٢٢٨٤ -	١٠٩٢٠ -	٩٠٩٢ -	١٦٢٦ -	١٥٠٤ -	١٣٦١ -	١٣٦١ -
الدول الأمريكية	٧٢٩ -	١٠٦٩ -	٧٢٠ -	٢٦٠٢ -	١١٤٦٩ -	٢٢٨ -	٤٤٢٥ -	١٥٥ +	١٥٥٨ -	٢٠٨ -	٢٢٦ +	٢٨١ +	٢٨١ +
دول أخرى	٥ -	٣٧٨ -	٣٥٨ -	٨٨٢ -	٢٢٦ +	٤٥ -	٣٢٢ -	٩٤ -	٢٢٤ +	٢٥ -	٢٨٢ +	٧٦ -	٧٦ -
مجموع غير افريقي	٢٠٤٢٢ -	٢٢٢٠٧ -	٥٩٠٤٨ -	٩١٨٢٢ +	٣٦١ +	٢٥٩٨٢ -	٧٠٩١٣ +	٣٤٤٣٦٩ +	٧٥٥٢٧ +	٥٤٢٢٠ +	٦١٧١٢ +	١٠٠٨٩٦ -	١٠٠٨٩٦ -

(٥٥) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المصنوعات الإحصائية السنوية ، ١٩٨٢ ، الفصل الرابع عشر ، الكويت في ديسمبر ١٩٨٢ ، جدول رقم ١٧٢ ، ١٨٥ .

ص ٢٢٢ .

(٥٦) وزارة التخطيط ، المصنوعات الإحصائية السنوية ١٩٨٢ ، المربع السابع ، جدول رقم ١٨٦ ، ص ٢٦٨ .

(٥٧) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المصنوعات الإحصائية السنوية ١٩٨٢ ، المربع السابع ، جدول رقم ١٨٩ ، ص ٢٢٦ .

نسب حالات منح تصاريح الإقامة للأقارب حسب مجموعات الدول في السنوات ١٩٧٣ - ١٩٨٢
جدول رقم (١٣)

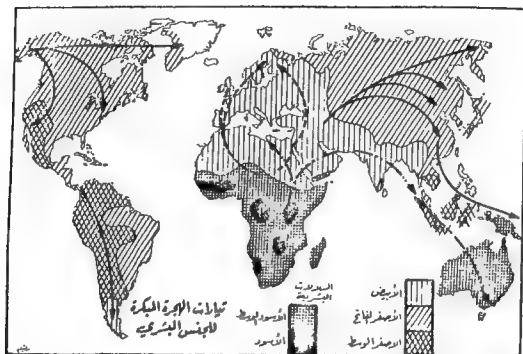
مجموع تصاريح الإقامة (مستند)	التوزيع النسبي لتصاريح الإقامة %						السنة
	العموم	المصريون	أمنهم	أوربي	أفريقي	آسيوي	مربي
٣٤٧٨٢	١٠٠	-	٠	٢	٢	٣٦	٦١
٤٦٤٣٥	١٠٠	٦	٦	٢٠	٠	٢٨	٦٧
٧٣٤٣٥	١٠٠	٦	٦	٢	٤	٢٤	٦٠
٨٠٢٤٠	١٠٠	١	٧	٢	٢	٢٩	٥٥
١٢٨٧١٩	١٠٠	٥	٩	٢	٢	٢٨	٥٦
١٤٠٦٩١	١٠٠	٢	٦	٣	٢	٤٤	٥١
١٠٢١٠٩	١٠٠	٣	٧	٢	-	٤٩	٤٣
٩٩١٦٢	١٠٠	٤	٦	١	-	٤٦	٤٥
٩٤٧٦٧	١٠٠	٧	٦	٣	-	٤٩	٤١
١٤٥٨٤١	١٠٠	٨	٥	١	-	٥٣	٣٥

(١٣) حسب النسب الواردة في الجدول المرفوع إلى المصالح الثاني ...
وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، الجمهورية المصرية ١٩٨٣ ، المربع الثاني - جدول رقم (٣٣) - ص ٤٤٧ .

ملحق الخرائط والأشكال البيانية

فهرست الحركات والاشكال البيانية

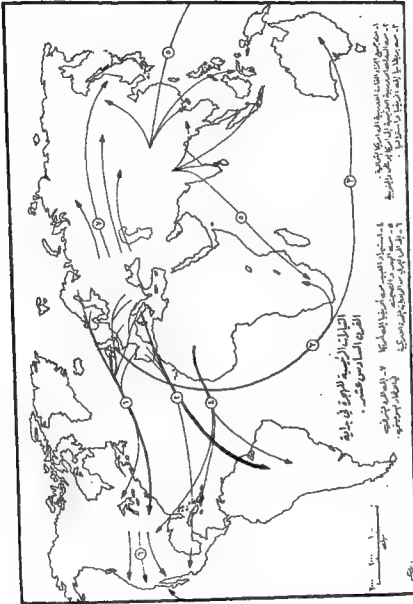
الرقم	العنوان	رقم الصفحة
١ -	تيارات الهجرة المبكرة للجنس البشري .	
٢ -	التيارات الرئيسية للهجرة في بداية القرن السادس عشر .	
٣ -	تيارات الهجرة الدولية في القرن العشرين .	
٤ -	التدفقات الدولية لهجرة القوى العاملة في بداية الثمانينات من هذا القرن .	
٥ -	مصادر الهجرة الرئيسية الى الكويت في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٥٧ .	
٦ -	مصادر الهجرة الرئيسية الى الكويت (٧٠ - ١٩٧٥) .	
٧ -	نسبة صفاتي الهجرة موزعة بحسب المجموعات الجنسية في الفترة الزمنية (١٩٧٥ - ١٩٨٠) .	
٨ -	نسبة صفاتي الهجرة موزعة بحسب المجموعات الجنسية في الفترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥) .	



شكل (١)

الصفحة -

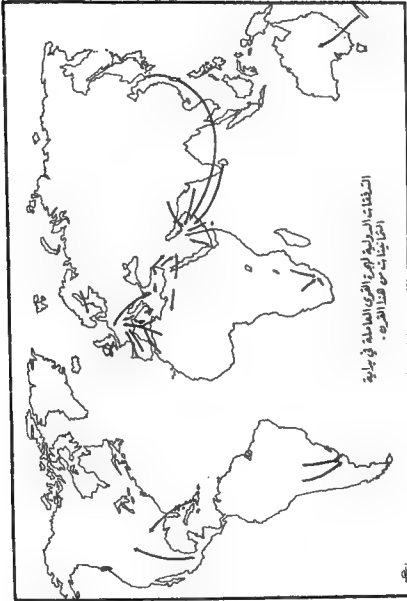
— Samuel N. Dicken, Forrest R. Pitts, Introduction To Cultural Geography, u.s. of America, 1970, Figure 3.2, p. 37.



(b)

المصدر:

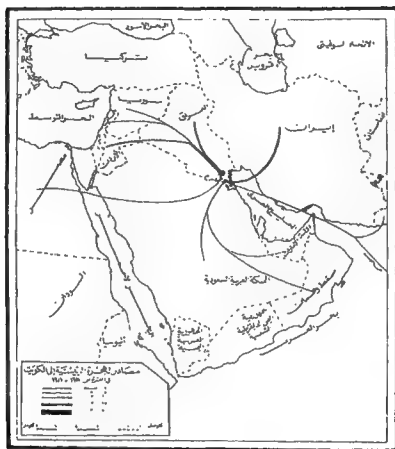
—Op. Cit. Figure 4.1.p.45.



شكل (١)

المصدر :

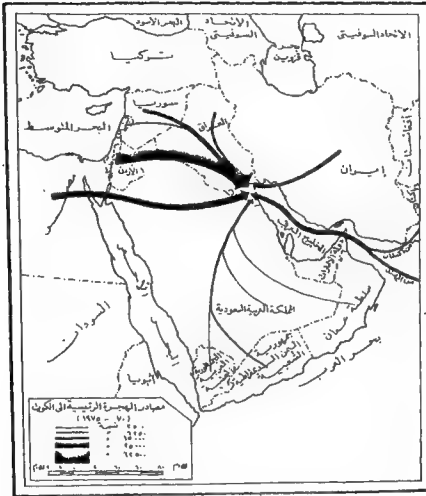
— James L. Newman, Gordon E. mitzke, *Population, Patterns, Dynamics, and Prospects*, U.S. Of America, 1984, Figure 7.13, p.185.



شكل (٥)

مصدر هذه الخريطة :

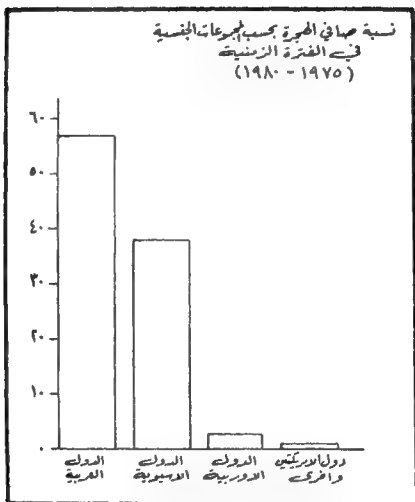
« أحمد حسن إبراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) ، الكويت ١٩٨٥ ، شكل رقم (٦) ، ص ٤٧ .



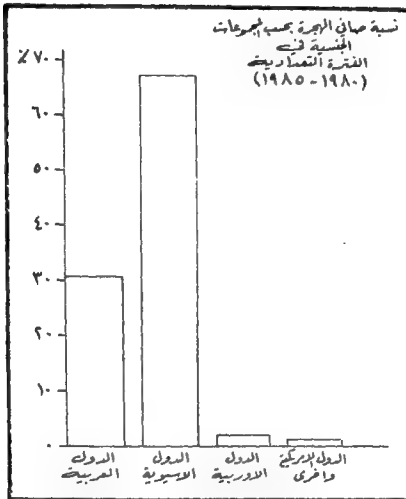
شكل (٦)

مصدر هذه الخريطة -

- أحمد حسن إبراهيم ، المرجع السابق ، شكل رقم ٧ ، ص ٤٩ .



شكل (٣)



سُطِّلَتْ (٨)

المصادر

أولاً : المصادر العربية :

- ١ - أحمد حسن إبراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٦) ، الكويت ١٩٨٥ .
- ٢ - أحمد علي اسماعيل ، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٣ - حسن المقدادي ، الجغسية ومركز الأجانب واستكشافها في الدفوق الكويتي ، الكويت ١٩٧٣ .
- ٤ - محمد فاضل الفريحي ، الجبرول والدفوق الاجتماعي في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٥ .
- ٥ - مساعد حسن الدميم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومدخلات مختلف نزوحات الهجرة - (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في أغسطس ١٩٨٥ .
- ٦ - مساعد حسن الدميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ .
- ٧ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٠ ، تحليل البيانات ، الدراسة الرابعة ، خصائص وتغيرات صفات الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ .
- ٨ - الكويت في يوليو ١٩٨٣ .
- ٩ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، تعدلات السكان بدولة الكويت للأعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .
- ١٠ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعات الإحصائية السنوية للأعوام ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .
- ١١ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، دليل نظام الإحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت في يونيو ١٩٨٤ .
- ١٢ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، النشرة السنوية للإحصاءات الحيوية ، التوافيق والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ .
- ١٣ - وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، إدارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستعانة بالسلات الأجنبية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ .
- ١٤ - وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، إدارة عمل محافظة العاصمة ، مراقبة الاستخدام التبرير السنوي لنشاط الاستعانة بالسلات الأجنبية للعمالة الوافدة للأعوام ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ .

ثانياً : المصادر الأجنبية :

- 1 - Bogue, D.J. Principle of Demography, Wiley, New York, 1969.
- 2 - Bogue, D.J. Techniques and Hypotheses for the study of Differential Migration: Some Notes from an Experiment with United States data, proceedings of the international conference, 2, session 4, No. 114. 1961.
- 3 - Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass, 1980.
- 4 - Charles Zhyne Hammond, Elements of Human Geography, second Edition, London, 1985.
- 5 - Eversley Lord, "The Decline in the Number Agricultural Labourers in Great Britain" Journal of the Royal Statistical Society, 10, Englund, 1907.
- 6 - G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982.
- 7 - Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward Arnold, London, 1965.
- 8 - Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, the Methods and Materials of Demography, condensed Edition by Edward G. Stockwell, Academic Press, Ohio, New York, 1976.
- 9 - Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration: A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938.

- 10 - James L. Newman, Gordon E. Matzke, *Population Pattern, Dynamics, and Prospects*, U.S. of America, 1964.
- 11 - John I. Clarke, *Population Geography*, 2nd Edition, England, 1972.
- 12 - Lee, E.S. *A Theory of Migration*, Demography, 3. 1966.
- 13 - Pryor, R.J. *The Motivation of Migration*, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975.
- 14 - Samuel N. Dicken, Forest R. Potts, *Introduction to Cultural Geography*, U.S. of America, 1970.
- 15 - Thomas, B. *Migration and Economic Growth*, Cambridge University press, Cambridge, 1959.
- 16 - United Nations: *Analytical Bibliography of Statistics on International Migration Statistics, 1925 - 1958*, population studies, series A. No. 24, 1955.
- 17 - United Nations, *Economic Characteristics of International Migrants, statistics for selected countries, 1918 - 1954*, population studies, series A. No. 12, 1958.
- 18 - United Nations, *Sex and Age of International Migrants for Selected Countries, 1918 - 1947*, population studies, series A. No. 11, 1953.
- 19 - Zelinsky, W. "The hypothesis of the mobility transition," *Geographical Review*, 61, 1971.



شخصيات وآراء

قد يكون سائداً في بعض الأذهان أن العرب القدامى . ولا سيما في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام ، كانوا على الاطلاق أرباب فصاحة وبلاغة ، ينظمون الشعر ويرجلون الخطب ، ويتحدثون في حياتهم دون خطأ ولا لحن . هذا الاعتقاد ، إن صح في مجلته ، فإنه غير صحيح على إطلاقه ، وهو ينطوي من بعض وجوهه على نظر .

وفي اعتقادنا أن الرواة الأوائل في مستهل حركة التدوين النشطة عند العرب ، كانوا على قدر من الحيرة تجاه عدد والفر من النصوص التي كانت تنطوي على عبارات تقتصر إلى الاطراد والاتساق من الوجهة اللغوية النحوية . ثم ما لبثت هذه التركة الخائلة أن آلت إلى اللغويين والنحاة وجعلتهم في غمار ركام هائل من كلام العرب ، متظومه ومتنوره . وما كان أشق عليهم أن يلمسوا جنبات هذا الخليط من كلام القبائل ويقايها لمجاتها ، ويشرعوا في تلك المهمة التاريخية المسيرة ، مهمة الجمع ثم التععيد .

ومعلوم في تاريخ التراث العربي أن أبا عمرو الشيباني وحده ، جمع شعر ثمانين قبيلة ، وأن أبا سعيد السكري أيضاً جمع شعر خمس وعشرين قبيلة ، عدا ما جمعه الآخرون مثل الأصمعي وابن الأعرابي .

ومع ذلك ، ومن خلال تلك الجهود العلمية الدأية ، بدا جلياً أن أولئك النحاة واللغويين ، رغم إنجازاتهم الباهرة على ذلك الصعيد ، قد لقوا عتاً في تلك المسيرة العلمية الزعرة . لقد استوعبوا أساليب التعبير عند العرب وأقلحوا في استقائها ، حتى تم لهم نظمها في قواعد مطردة جمّة ، بفضل جنوحهم إلى منهج علمي شديد تجمل باعتمادهم مبدأ القياس . حل حزن استعصت عليهم في الوقت نفسه أساليب قليلة أخرى ، فظلت خارج إطار التععيد ، وكأنها الأطياف التي انشقت

اللفة الحكيمة في أدب الجاهل

عمر الدقان

بلغاتهم . ولهذا كانت قبيلة هذيل التي سكنت في ربوع مكة والطائف - وهي تمت إلى قريش بأقوى نسب - في رأس القبائل التي يوثق بشعرائها ويحتج بأقوالهم في مجال اللغة والنحو والتصريف ، شأنها في ذلك كشأن قريش وقيس وأسد وقيم ، وبعض كنانة وطى . . . على حين امتنع هؤلاء العلماء عن الأخذ بأشعار إيراد وتغلب ، كما أحجموا عن الاستشهاد بشعرهم لحم وغسان لمجاورة المنافرة والغساسنة بلاد الأعاجم من فرس وروم .

كل ذلك يعني أن نظرة النحويين واللغويين إلى أسلافهم العرب لم تكن - يرغم إجلائهم الشديد لهم - نظرة واحدة مطلقة ، وإنما كانت نظرة مفاضلة وتقويم ، أساسها التعليل والتحليل .

ومن الطبيعي في كل مجتمع أن ينطوي أفرادها على تباين في المدارك العقلية ، وفي الطباع النفسية ، والأحوال المعيشية ، وأن يستتبع ذلك أيضا تباين على صعيد التعبير اللغوي والأداء الفني . وقد روى لنا رواد التأليف الأدبي والنحوي عند العرب أن اللحن كان موجودا منذ فجر الإسلام وإلى عهد الفتوح الذي شهد احتكاكا كبيرا بين العرب وصالى الأمم . . حتى أن من الأعراب من كان يتلو بعض آيات التنزيل الحكيم على نحو خاطئ . ينم عن جهل بمضمونها . وقد بلغ مرة مسامع عمر بن الخطاب أن أحد المسلمين كان يؤم المصلين ويلحن في بعض آيات القرآن ، فغضب الخليفة لذلك وأزاحه عن الإمامة .

وفي كتب السالفين أخبار جمة في موضوع اللحن واللاحين ولا سيما ما كان يصدر عن بعض الكبراء في تلك العصور المتقدمة . من ذلك أن زياد بن أبيه - والي الحراق - أوقد ابنه عبيد الله إلى الخليفة معاوية ، فكتب إليه معاوية : « إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوم من

عن سربها ، وانحرفت عن مسارها لتحلق في أجواء مغارة . وقد اترضت جهرة نحا الكوفة هذا الواقع اللغوي المروث ، ولم تجد فيه شلوا ولا انحرافا ، بل جعلته في منزلة تقارب منزلة المطرد . وما من ريب في أن منتطق كثير من قدامى اللغويين في هذا الصدد ، إنما كان حسن الظن المطلق بالعرب السالفين إلى مدى يقارب العصمة ، وأن كلامهم يتسم إطلافا بالصحة والسلامة والكمال ، لأنهم أهل فطرة وذوق سليقة . على حين كان ثمة علماء آخرون ، ولا سيما من أصحاب المذهب البصري أقرب إلى الحقيقة ، إذ عدوا بعض ما كان من هذا القبيل شاذ لا يمتد كثيرا به . وأغلب الظن أن جبهة النحاة ، تحت تأثير مشاعر الاجلال تجاه الأجداد الأقحاح ، لم يشأوا الذهاب إلى أبعد من هذا المدى ، حين كبر عليهم أن ينسبوا إلى بعض العرب الخطأ ويصوموم باللحن ، مع أن مثل ذلك قد يعرض لأي ناسق ، ولا شيء يمنع وقوعه في الغفل ولا في الواقع . والمرء - مها تبلغ منزلته من الدراية - غير معصوم من الزلل ، وما كل القدامى على مستوى عال من سلامة القول ، كما أنهم ليسوا جميعا على قدر رفيع من بلاغة التعبير .

ومن جهة أخرى فإن فقهاء اللغة العرب أنفسهم لم يسسوا ، في مجال الاحتجاج ، بين قبائل العرب ويميلوهم على صعيد واحد . لقد عمدوا إلى تصنيف هذه القبائل في سلم الفصاحة ، فأحلوا بعضها في منزلة عالية ، كما أباحوا الاستشهاد بأشعارها على نحو سلق ، على حين وقفوا تجاه قبائل أخرى موقف الريب ، ونحرجوا من الأخذ بكلامها والاستشهاد بأشعارها . وكان متعلقهم في ذلك كله ركنيا ، فوله دراسة موطن القبيلة على الصعيد الجغرافي ، وملاحظة مدى صفاء لغتها تبعاً لبعدها أو قربها من تحوم الأعاجم ، واحتمال احتكاكها بهم ، وتأثر لغتها

طريقة يرغم فشو العامية بينهم ، وقلة قمرهم بأصول اللغة وقواعد النحو .

ويبدو أن سمة الفصحاة غلغت في عهد مبكر من العصور العربية مطلباً بعيد المثال حتى لقد عز وجود من كانوا يارلين من اللحن بين الفصحاه ، ولا سيما من أهل المدن ، وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال^(١) : « لم أر قرويين أفصح من الحسن البصري والحجاج ، وكان أبو عمرو - على ما زعموا - لا يبرئها من اللحن . وزعم أبو العاصي أنه لم ير قروياً قط لا يلحن في حديثه » .

وما اللغة العربية في هذا المجال - شأنها في ذلك كشأن صائر اللغات - سوى ظاهرة اجتماعية ، ولهذا تمت وازدهرت ونضجت ، كما اعتراها في الوقت نفسه بعض الفساد وشابها شيء من الخلل . كذلك بوسعنا أن نرجح - تبعاً لذلك - أنه كانت هناك في بواكير الوجود العربي لغتان أو لهجتان ، أو بكلمة أدق ، كان هنالك على هذا الصعيد اللغوي مستويان ، إذ لم يكن يتخلو كلام بعض السالفين من الغرابة اللفظية . وهذا كله لا يسمع بالاعتقاد أن لغة العرب القديمة كانت على درجة واحدة من الاطراد والاستواء ولا من السلامة والنقاء .

كان شعر الفرزدق في عصر بني أمية يمثل الطابع الرصين بجزالة ألفاظه ، فتعته النقاد بأنه كمن ينحت من صخر ، على حين كان شعر جرير في الطرف الأسلوبى الآخر . لسهولة لفظه ورقة عبارته ، فتعته النقاد بأنه يخرف من بحر . وكان طبعياً في هذا الصدد أن تروق أشعار الفرزدق صفوة الرواة وخاصة العلماء ،

لسانه^(٢) ، وكانت فيه لكثرة إذ نشأ مع أمه بين أعاجم البصرة . وقد قال عبيد الله مرة لأعوانه : « انتحوا سيوفكم ويريذ : « سلوا . . . »^(٣) .

كذلك سأل معاوية جماعة من أهل العراق عن حال ولده عبيد الله وكان واليهيم ، فقالوا : « ظريف ، على أنه يلحن »^(٤) .

وروي أن بشر بن مروان وإلى الكسوفة وشقيق عبد الملك ، قال مرة لغلامه ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً : « ادع لي صالحا فصالحا » فصالح الخلام : « ياصلحا » ، فقال له بشر مصبحا : « ألق منها ألفا » عندئذ تدخل عمر بن عبد العزيز لدى سماعه الخطأ ، فقال مصبحا : « وأنت فزد في ألفك ألفا » . ونشر أموي قرشي .

وقيل يوما لأبي حنيفة : « ما تقول في رجل أخذ صخرة ، فضرب بها رأس رجل فقتله ، أعتقه ؟ » قال : « لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس » أي بجمل في مكة اسمه أبو قبيس^(٥) . وقد عقد الجاهظ في كتابه « البيان والتبيين » فصلاً أورد خلاله الكثير من أخبار اللاحنين في تلك العهود القديمة .

وقد لاحظ الجاهظ أنه^(٦) : « لأهل المدينة السن ذلقة وألفاظ حسنة ، وصبرة جيدة . واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » . فالجاهظ يميز بين الفصحاة - وهي تكاد تقتصر على أهل البادية لقاء لغتهم - وبين البلاغة ، وهي سمة أمومية قد يتحل بها أهل المدن ، فيبدعون عبارات جميلة وصوراً

(١) البيان والتبيين ، الجاهظ ٢ : ٢١١ ت : عبد السلام حارون . القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢١١ .

(٣) كتاب الأمالي ، ابن جرير الطائى ١ : ٥ دار الكتب المصرية ١٩٥٣ .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢١٢ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٢ .

(٦) البيان والتبيين ١ : ١٨٩ .

يعكس في كلامه آراء كثيرين ممن لم يجدوا أنفسهم في شعر أبي تمام .

وثمة أمثلة متناثرة في كتب المتقدمين تشير إلى هذه الثنائية في الأدب ، ثنائية العسر واليسر ، من مثل قول أحد الأعراب حين استمع إلى أبيات عويصة المعاني لأحد المحدثين فحسر عليه فهمها وتلوقها ، فقال بامتعاض : « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » .

وكانت فئة الرجز في العصر العباسي غثلى أشد الأساط الأدبية عاقلة وأكثرهم تشبهاً بجزالة اللغة وغرابة الفاظها ، وكانهم البداية الذين استعصوا على التخصر ، وهكذا كانوا يعيشون في الظل ، ويحيون على هامش الحياة الأدبية الموراة ، لقلّة احتفال جبهة الجبل بمنظومهم وإشاحة وجهه عنهم . فكانت أراجيزهم أبعد عن أن تكون فناً شعبياً يستهوي جماهير الناس .

أما تيار الشعر المحدث فقد غداً بسماحة عبارته دافقاً ، إذ تجلّى لدى غالبية شعراء ذلك العصر ، مثل بشار وأبي العتاهية ثم البحتري وابن الرومي ، وسائر الشعراء المحدثين الذين سارت أشعارهم على السنة جيل المتأخرين . وقد ذهب بعض هؤلاء الشعراء إلى مدى أبعد حين جنبوا إلى نظم المقطعات ، وزهدوا في نظم الموطولات ، وحين آثروا البحور القصيرة المجزوءة دون أن يقتصروا على البحور الطويلة الناعمة ، وأكثر أولئك المحدثين ولا سيما الذين عاشوا في قلب المدينة وفي صميم الحضارة وأقام نظم مقطعات من خفائف الشعر ، مواكبة منهم لتيار الحداثة ، وكان قوامها إثارة السهولة في اللفظ والتبسّط في التعبير . ومن هذا القبيل قول بشار بن برد في امرأة اسمها « حنى » (٧) .

لما تنطوي عليه من قوة سبك وما تحويه من جزالة لفظ ، على حين كانت جبهة الجبل عهذلة تأتس بشعر جرير لما ينطوي عليه من سلاسة وعذوبة ، ورقة وسهولة ، وهكذا سارت أبياته بين الناس ، وأخذ كل فرد يترنم بها لأنها ألصق بالشاعر ، وأقرب إلى الطبع ، وأجرب على اللسان . وهذا يعني أن لغة الشعر ازدادت قرباً من أذهان العامة ومداركهم ، واشتد اختلاطها بغفوسهم وأذواقهم ...

ثم بلغت هذه الظاهرة أشدها في العصر العباسي ، حين جنب الشعر المحدث إلى مزيد من الرقة واليسر ، كما مالت أوزانه وقوافيه إلى الانقباض والخلقة .

وإن ما لقيه شعر جرير من سعة الذبوع والانتشار في العصر الأموي لقيه بعد ذلك أيضاً شعر البحتري في العصر العباسي ، وذلك بفضل سهولة شعره وملاءمته لغالبية الأذواق . أما شعر معاصره - أبي تمام - الذي قد يشبه من بعض الوجوه شعر الفرزدق ، فكان ينطوي على قدر من غرابة الألفاظ وجزالتها فضلاً عن عمق المعاني وبعد الصور ، وهذا ما حد من سيروية شعره بين جبهة الناس وكاد يقتصره على الصفوة من المثقفين والخاصة من العلماء . وربما كان من مؤشرات ذلك بالنسبة إلى شعر أبي تمام موقف أبي العميل تجاهه ، حين تصدى له خلال إلقاء بعض شعره وقال على ملا من المجلس : « يا أبا تمام لم لا تقول ما يفهم ... ؟ » . وهذه في حقيقة الأمر كلمة حقّ برغم أنه ربما أريد بها باطل . كما ينبغي هنا ألاّ يجرّنا عن هذه الحقيقة ما تنطوي عليه عبارة الشاعر أبي تمام من استهواء ، من خلال جوابه الذي ورد له للسكت حين قال على البداية : « ولكن ، لم تفهم ما يقال ... ؟ » . فأبو العميل برغم ما قد ينطوي عليه من تحامل إلما كان

(٧) ديوان بشار ، ٢ : ٢٧ تحقيق الطاهر بن عبد الله - القاهرة ١٩٥٤ .

شوطا واسعا ، ولا سيما حين كان يقتضيه الحال رواية الكلام منسوبا إلى أهله من أوساط الناس أو من عائلتهم أو من سوقتهم . ولعل أكثر ما يرد على قلمه من هذا القبيل ما كان يندور على ألسنة الناس في لغتهم المحكية عبر حياتهم اليومية . ومما جاء في بخلاء الجاحظ على لسان موسى بن عمران^(١٠) فيما نهضه من لغة الحديث : « طعام الاثنين يكفي الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة » ، ثم يقول : « لولا أنك تزيد أكثر » ، ويقول : « معك رغيف ومعى رغيف » . ويقول : « ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه » .

والهمية العبارة لدى الجاحظ أنها تشف عن طبيعة نفوس أصحابها وتم على وضعهم الاجتماعي^(١١) ، فالثوري مثلا يقول لعياله^(١٢) : « كلوا الباقلا بشوهره » ، فإن الباقي يقول : من أكلي بقشوري فقد أكلي ، ومن أكلي بقشوري فانا الذي أكله ، وكان في هذا الكلام نمطا من الحكمة البسيطة المستمدة من تجربة العيش يسوقها الثوري في إطار تسويفه لظاهرة الجحصر أو البخل لديه محاولا من خلال ذلك إقناع عياله بأن المرء يكون أكلا حقا ومنشعا تمام الانتفاع بطعامه إذا أكل الباقلا مع قشورها ، ولكنه حين يكفي بأكل اللب ويرمي القشر فقد مني بخسران ، وكأنه أصبح مأكولا لأنه بذلك خسر من حر ماله .

وبدأب الجاحظ على إسماعنا كلام أصناف من الناس الذين يسعون إلى رزقهم ويمشون في حاراتهم ويتجادلون في بيوتهم ، كان يقول واحد منهم : « هات شيئا من قلية »^(١٣) ، أو يقول سواه : « تشيت الباربة

قل لحبي قريبيني أنت نفسي وحياي وموسمي حين أضلو وحديثي في صلاي وقول أبي العتاهية في أرجوزته « ذوات الأمثال »^(١٤) :
إن الثناب والفراغ والجمدة

مفسدة للمره أي مفسدة

أو قوله في موضوع الزهد :

أحسن الله بنا أن الحطايلا لا تفوح
كيف إصلاح قلوب إلها من قروح ؟ . .
فهذه أشعار منظومة ولكنها شديدة القرب من لغة الحديث . ولعل أبها العتاهية كان يمثل قمة هذه الظاهرة ، أو ذروة هذا التيار ، حين حاول أن يتخذ في شعره من السهولة والرقّة والوضوح مذهباً ، وحرص على أن يسوق معظم مقطعاته وقصائده في هذا المنحى . والذي يزيد في أهمية ذلك أن هذا الشاعر كان يعي طبيعة النزعة الفنية المحيطة في أدب هذا العصر ولا يفتأ يقول^(١٥) : « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لعلمت » .

مشكلة لغة الحديث في الأدب

وفي مضمار النثر العربي حدث ما يقارب ذلك في العصر العباسي أيضا ، حين تبللت حاله ، فتوارى التجهّم والتفعر ، وساد اليسر والترسل ، كما انزوت الخطابة بقوة نبراتها ، وتألقت الكتابة برقّة جنباتها . ويعد الجاحظ أبرز من يمثلون هذه الظاهرة في النثر العربي ، حتى باتت بفضل كتاباته ولا سيما في نواته عن البخلاء أشبه باللهاء مسانّد وتيسار غالب . وقد خطا الجاحظ في مضمار السهولة واليسر ومجال العقوبة والطبع

(٨) قول إن هذه الأرجوزة بلغت ثلاث آلاف بيت ، غير أن ملين أهدنا بها بعض حشرات من الآيات موجودة في آخر الديوان ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١٤ .

(٩) الديك والنبير ١ : ١١٥ .

(١٠) كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ١٨ - ١٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(١١) البخلاء ١٠٣ .

(١٢) البخلاء ٩٧ .

فأصرف عني وجهك ... »^(١٧)، فعبارة « عينك مألحة » أو « مستعيني بعين » وما إليها ، ليست من صور التعبير عند الشعراء ولا الكتاب ، ولكنها من صور اللغة المحكية لدى جمهور الناس . ومن هذا القبيل قول الثوري لمن معه^(١٨) : « الشحم يفرح القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه » أو قول آخر جلس إلى خوان فأعجبته ما رأى فوقه من خبز شهى : « كل رغيف في بياض الفضة » ... وما إلى ذلك من صور التعبير المجهود في لغة الحياة اليومية .

والجاحظ مراعاة منه لواقع حال شخصه ، وأكثرهم من عامة الناس ، يدير على ألسنتهم الألفاظ قد يبدو للوهلة الأولى عامة وما هي بذلك ، إنه يؤثرها لما تنطوى عليه ، فضلاً عن دلالتها ، من إيحاء ينم على طبيعة المتحدث ، كما أثر كلمة « نшал » على كلمة لص في إلهارده لقول أحدهم^(١٩) : « الفقى لا يكون نشالا ... » أو استخدامه كلمة « قدام » في قول الآخر^(٢٠) : « ... رغيف كل منا قدام صاحبه ... » وأيضاً استعماله عبارة « تملجلل لي سن »^(٢١) ، فلكل من هذه الألفاظ ظلال لا تتوفر في سواها من المترادفات الأخرى .

ومضي الجاحظ في اصطلاح اللغة المحكية مشكلة لحال شخصياته المواردة في نواذيرهم ومواقفهم ، فيبلغ في ذلك مدى بعيداً حين ينطق بعضهم بالألفاظ دارجة على

في البيت^(٢٢) ، أو يطلب غيره حاجة من الآخر : « أعزني ملاكم »^(٢٣) . وقد يجاور رجل جاريته بأبسط الكلام ونحيبه بمثل ذلك ، كشأن يوسف بن كل خير بعد أن تغدى فأنه ضيف فرحب به وقال : « يا جارية هاتي لأبي الحسن غداء » - قالت : « لم يبق عندنا شيء »^(٢٤) .

وعلى هذا الثرار من لغة الحوار الوجيه الذي يدور عادة بين اثنين يقبل خراساني عابر على إبراهيم بن السندي وهو يتغذى في ركن منزول داخل بستان ، فيسأله ابن السندي بدهشة^(٢٥) : - « تريد ماذا ؟ » فيقول : - « أريد أن أتغذى » . إنها عبارات مقتضبة تتوالى سريعاً بين المتحاورين على هذا النحو من السرعة والبساطة . ومن هذا القبيل من اللغة المحكية ببساطتها وعفويتها قول كاتب لكاتب دولة : « اكتب لي خطين ورجيني منه » .

وكثيراً ما تتبين في كلام المتحاورين الذين ينطقهم الجاحظ ملامح لغة خاصة لفئة من المجتمع لها صفاتها وأصاليب عيشها وأنماط سلوكها . فقد ينشب شجار بين رجلين لتباين في المنازع وتعارض في المواقف ، من مثل ما حدث لاثنتين كانتا وحدهما في زورق فشرع البهيشل واسمه رمضان يأكل ويلتهم زاده ، ورفيقه ينظر بشرة لا يستطيع له دفعا ، ثم قال رمضان وقد أحسن بنظراته : « أنا رجل حسن الأكل لا أكل إلا طيب الطعام » . وأنا أخاف أن تكون عينك مألحة وأنتك مستعيني بعين » ،

(١٣) الجلاء ، ٤١ .

(١٤) الجلاء ، ٤٣ .

(١٥) الديار والتبين ١ : ١٢٧ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(١٦) الجلاء ، ٢٥ .

(١٧) الجلاء ، ٩٣ .

(١٨) الجلاء ، ١٠٣ .

(١٩) الجلاء ، ١٧٢ .

(٢٠) الجلاء ، ١٠٣ .

(٢١) في القاموس المحيط : « سحلم من مرقعهم وحركهم لتعلموا » والعبارة في الجلاء ، ١١٦ .

أرغفته بأنها أرغفة صغار أي تتم على بخله ، على حين أنها في زعمه كبار وأن رغيفاً واحداً كفيلاً بأن يملأ الجوف فلا يحتاج معه إلى المزيد ، فقال بانفعال^(٢٣٥) : « يزعمون أن خيزي صغار ؟ أي ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين ؟ » .

والجاحظ ، وقد أوتي ملكة التعبير العذب والبيان المشرق ، غلت اللغة طيبة بين يديه ، فراحت الألفاظ تنثال عليه بشلالة ، والعبارات تندلق عليه بيسر ، وكثيراً ما يكون لديه اللفظ بمفرده موجهاً وينظوي على حالة أو ظل مما يرفقه وحده إلى مقام الصورة . ولعل هذا أبين ما يكون في صدد إبرازه خلال عباراته لجملة من الأفعال أو المصادر فيها أيضاً معنى الحدث . وقد أورد الجاحظ خبر وليمة دعي إليها مع شريحة أبي إسحق النظام وقطرب النحوي وأبي الفتح مؤدب منصور بن زياد ، ولما كان الداعي بخيلاً لم يجدوا أمامهم فوق الخوان سوى الخبز . وحين طال عليهم الانتظار عمدوا إلى ما أمامهم من الأرغفة « فآكل كل إنسان رغيقة إلا كسرة ، ولم يشبعوا فرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشيء ، فتمسوا أكلهم ، والأيدي معلقة ، وإنما هم في تنفير وتنتيف »^(٢٣٦) . ولما أن نتصور القوم وهم بين الجوع والشبع يعمدون إلى تلك الكسرة من الخبز يفتشونها بأناملهم أو يفتفون جزئياتها كما يفعل المصفور بمنقاره أو القط بأظفاره .

وعلى هذا الصمد يقص لنا الجاحظ خبراً مشابهاً يتصل أيضاً بتبصرة أخرى له مع أحد البغلاء حين خرج مع شيخه أبي إسحق النظام إلى ناحية من المدينة ، وتجاوزوا الخندق ، حتى إذا مروا بمنزل الوليد القرشي ،

لسان العامة كقول أحدهم^(٢٣٧) : « يا بنحون . . . إن كثرة الضمخ تقوي الأسنان » .

وقد يستلهم الجاحظ بعض الصور التعبيرية الحلوة المستمدة من حياة الناس في المكان الملائم من سياق الكلام . ففي محاولة بعضهم لاقناع صاحب لم يخيل وهم بمازحونه بأن يدعوهم مرة إلى طعامه ، أرادوا أن يهينوا عليه الأمر بأنها ستكون دعوة وحيدة في العمر ، ولن يتكلف سواها بعد ذلك ، فقالوا له^(٢٣٨) : « اجعلها دعوة ليس لما أخت » . وهذا تعبير لطيف في اللغة اليومية الدارجة .

وحكى الجاحظ خبر رجل لم يأمن العودة ليلاً إلى منزله ، وخاف أن يتهمه أحد فيضربه^(٢٣٩) ، ففكر في أن يثق الباب على صاحبه - أبي مازن - يبيت في أدنى بيته أو في دهليزه ، وحين بصره أبو مازن ، وقف واجهاً لا يحير بكلمة ، كأنما أتاه ملك الموت . فأخذ الرجل يبين ما هو فيه ، وأنه إذا انصدع عمود الصبح خرج من عنده مع أوائل المدجنين . غير أن أبا مازن أراد أن يتظاهر بالخيال وأن وجوهه إنما هو بسبب السكر ، وأنه لا يعني ما حوله ، وحين عاد الطارق إلى الكلام لم يجد من صاحبه سوى عبارة واحدة يرددها على مسمعه : « سكران والله ، أنا والله سكران » . ثم أغلق الباب ودخل . والعبارة الأخيرة أوردتها الجاحظ على نحو ما ينطق بها المخمورون .

وقد يجري الجاحظ على السنة شخصه شيئاً من عبارات السوق التي تنطوي أحياناً على قدر من الألفاظ الصريحة . فقد تحدث يوماً يحيى بن عبد الله بن أسيد مع صبحه ، وأبدى مسخه على الذين شهبوا به وعابوا

(٢٣٥) السخلاء : ١١٦ - ١١٧ .

(٢٣٦) السخلاء : ١٢ .

(٢٣٧) ينظر في كتب السخلاء : ٣٦ .

(٢٣٨) السخلاء : ٥٤ .

(٢٣٩) السخلاء : ٥٤ .

عقب فيها بدر من سورة الغضب المفاجيء ، ونتر اليد المياغث .. وما كان من تكوص القرشي ومفارقة الصبيب .

استملاح المعجمة اللفظية

وعلى صعيد آخر ، وفيها يتصل أيضا بوجه من وجوه اللغة العربية ، بوصنا أن نثنين ظاهرة أخرى لم يكن بوصمها - تبعا لطبيعتها - أن تبلغ قوة التبار ، ولكنها ذات دلالة خاصة في مجال طرافة التعبير وجماليته .

فحين تكاثر الأعاجم وتمازجت ثقافتهم مع ثقافة العرب ، نجم عن ذلك التعايش تأثيرات لغوية وتعبيرية متبادلة ، ولا سيما بين العرب والفرس شطري ،^{٢٧} للمجتمع الاسلامي الجديد . وأصبح من المستحب لدى ذلك الجيل ترصيع الكلام بين الحين والحين بكلمة أو عبارة من لسان الفرس ، باعتبار ذلك مظهرا من مظاهر الحضارة الوافدة التي تجلت أيضا في اصطناع شباب ذلك الجيل لبعض ملابس المعجم ومآكلهم ومشابهم ، ومجاراتهم لهم في كثير من تقاليدهم وعاداتهم وسلوكهم ...

وقد لا يبدو مستغربا بعد ذلك مثلا أن نجد الجاحظ - وهو من هو في نزعة العربية - قد أدخل قدرا غير يسير من الألفاظ والعبارة الفارسية في كتبه ورسائله . وهذا الترخص في التعبير ، الصادر عن رجل هو في قمة الفصاحة وذروة البيان له دلالته الاجتماعية ، وله أيضا دلالة الفنية التي تنطوي عليها طبيعة الأداء وخصوصيته . وقد حفلت كتابات الجاحظ من البخلاء بعدد وافر من الكلمات الاعجمية مثل : البرنكان والسكرجة والجرفقة والقالوذج والجوسق والبرنبد والقلنسوة والشطرنج والقيراط والنرد والقتديل (٢٨) ...

مضى معهم . ثم تشعبت بين المتحاذين أطراف الكلام حول مسائل جمة ، ولم يشعروا إلا وقد انتصف النهار واشتد القيق ، فلابوا قليلا بظل جدار ، ثم وجلوا أنهم في « ساعة تذيب كل شيء » ، فاقترح الجاحظ أن يقلبوا عند صاحبهم القرشي ، يأكلون ما حضر ، ومن ثم يعودون بعد أن يستريحوا ويبردوا . غير أن الاقتراح لم يروق القرشي . فصاح تنو : « هذا لا يكون أبدا » . ثم وصف الجاحظ حال القرشي البخليل ومعه صبحه ، حين مضوا يمشون في الأمر ، فقال يصوره (٢٩) : « فغضب ونتر يده من أيدينا وفارقنا » .

ولسنا الآن بصدد ما قد يذهب إليه الظن للوهلة الأولى تجاه كلمة « نتر » من أنها عامية أو غير فصيحة لكثرة دورانها على ألسنة الناس وندرتها وورودها على أقدام الثائرين ، أو في كلام الشعراء ، ولكن ما يعنينا هو أن الجاحظ نفسه قد عمد إلى تصوير مسلك هذا القرشي البخليل ، من خلال لحظة غضب وانفعال ، بما يوازي تلك الحركة السريعة التي قام بها صاحبها ، وذلك أيضا بكلمة واحدة هي : « ونتر يده » أذ «النتر» في معاجم اللغة هو انتزاع الشيء بقوة أو جلده بشدة . وفحوى ما نودبنيته أن كلمة نتر التي تكاد تتركز في معناها مرحلة النهاية في هذه الأقصوصة ، أو يتجلى فيها حل عقدة الحدث ، تبدو لآثارها بمنزلة الصورة الواضحة لما تنطوي عليه من دلالة ومن إيحاء .

ولعل دلالتها وإيحائها يكتسبان لدينا مزيدا من الثراء والمضام حين نطلق لمخيلتنا العنان ، فنصور كيف كان حال القرشي مع صبحه في وضع من الهدوء والانسجام والانبساط وما كانوا فيه من تلاصق الكف بالكف وتشابك اليد باليد ، ثم انقلاب ذلك الوضع رأسا على

(٢٧) البخلاء ٣٨

(٢٨) يمكن رؤية هذه الألفاظ وغيرها في كتاب البخلاء ونحوها في المصنفات ٣٦ ، ١٢٠ ، ١٧٨ ، ١٠٨ ، ٣١ ، ١٠٦ ، ٢١ . تحقيق طه المحامي ، القاهرة ١٩٥٨

نحو ابن السندي مبادرا إلى تلبية دعوته ، ولما وجد ابن السندي أن الرجل جاد في مشاركته زاده انبرى له بقوله : « مكانك ، فان العجلة من الشيطان » . وانتصب ابن السندي واقفا ، واندفع نحو الرجل محاولا أن يثبته عن عزمه ، ثم راح يعطيه درسا في آداب السلوك وقال له : « الآيين فيما نحن فيه إذا كنت أنا الجالس وأنت للماران تباد أنت فتسلم ، فأقول أنا حيث يجيئك لك : وعليكم السلام ؟ فإن كنت لا أكلا شيئا سكت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت وقعدت على حالي . وإن كنت آكل فهانئا آيين آخر ، وهو أن أبدا أنا فأقول هلم . ونحيب أنت فتقول : هنيئا . فيكون كلام بكلام ، فأما كلام بفعال ، وقول بأكل فهذا ليس من الانصاف ... »^(٣١٠) .

ولعل الجاحظ أثر هذه الكلمة الفارسية الحضارية « الآيين » فيها يبدو لنا ، لأنه وجدناها معبرة عن واقع حال صاحبها ، ولم يشأ أن يورد على لسان صاحبه البخيل كلمة عربية في نحو معناها مثل : البالية ، أو حسن التصرف ، أو أصول التماسل ، أو آداب السلوك ...^(٣١١) لأن لتلك الكلمة الدخيلة هالة وظلالا لا تتورفيا عداها من الكلمات . إنها كلمة عصرية تتم على التقدم الاجتماعي والتطور الحضاري . وسواء أكان صاحبها عربيا يصطنع مظاهر عصره المتمدن أو فارسيا في أصله يحتفظ بخصائص لغته ، كما يشير إلى ذلك اسمه ، فإن الدلالة الموحية باقية في هذا النمط المستحدث من التعبير .

وهذا التسامح لدى الجاحظ في تقبل بعض الكلمات من لغة القرس واعتماده إياها في كتاباته قد يعد بدعا في لسان الضاد ، أو تقريرا يتقلم العربية من وجهة نظر

وإذا جنحنا للوقوف عند بعض نصوص البخله على سبيل التخصيص وجدنا الجاحظ يورد بصدد حكاية العراقي والتاجر المروزي قوله حين تجاهل معرفته بصاحبه العراقي الذي كان يستضيفه ويكرم مثواه : « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » . وقد أثر الجاحظ أن يشفع هذه العبارة لأهميتها ، ولأن حل عقدة أقصوصته يتركز فيها بالعبارة الفارسية الأصلية التي فاه بها المروزي بلسانه عند هذا النحو : « أكرز بوس بارون يباي نشناسم » .

عل أن للألفاظ الدخيلة في أدب الجاحظ ، ولا سيما في كتاب البخله حيزا واسعا ، ونحن واجدون في حكاية إبراهيم بن السندي^(٣١٢) ، عددا من الألفاظ الأعجمية ومعظمها في مجال الأطعمة والأشربة التي لم يكن للعرب عهد بكثير منها ، ثم دخلت حياتهم في إبان التضيغ الاجتماعي والتقدم الحضاري . فابن السندي هذا - كما حدثنا الجاحظ - « كان في غداة كل جمعة ، يحمل معه منديلا فيه جردقتان وقطع لحم سكبايج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح ولخري فيها أشنان ... » فالجردقتان رغيفان من الخبز الغليظ ، والسكبايج مرق يعمل من اللحم والمخل ، والأشنان نوع من الأحماض تنظف به الأيدي .. وكلها ألفاظ أعجمية شاعت على ألسنة ذلك الجيل . عل أن ما يمتنا في هذا الصدد هو ما ذكره الجاحظ أيضا خلال هذه القصة . فقد بسط ابن السندي زاده الذي أعده بعناية في زاوية من البستان بعيدا عن الأنظار . وكان أن عبر بقربه مار ألقى السلام عليه وهو ماض في طريقه ، فوجد ابن السندي أنه من البالية واللفظ أن يقول له : « هلم عافاك الله » . فإما كان من الرجل العابر إلا أن انعطف

(٣١٠) البخله ، تحقيق الجاهري ، ص ٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣١١) البخله ، تحقيق طه الجاهري ، ٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣١٢) ليل كلمة (الأنيكيت) في بعض لغات العرب الحديثة تتلوه في دلائها كلمة (الآيين) .

الناطق . فعل حين كان العرب يعدونها من الأمور التي تنقص من الفصاحة وحسن الأداء . وتعباً على الخطباء والمتكلمين . . . (٣٣) فإنهم كانوا في الوقت نفسه يشون لما لدى الفيان والعلماء ، ويرون فيها زينة تطرف الكلام . وفي شعر أبي نواس أبيات من هذا القبيل يقول في بعضها واصفاً أحد سقاة الخمر من الغلمان في جانة ، وكان الخنخ (٣٤) .

بأي السخ لا ججته
فقال في غنج وإخناث
لما رأى مسي خلالي له
كم لقي الناث من الناث

فقد أثبت الشاعر عبارة « كم لقي الناس من الناس » كما نطق بها الساقى نظرفاً واستملاحاً كذلك تنطوي كتب الأدب على طرائف جمّة وأخبار كثيرة تتصل بهذا الموضوع ، من مثل ما جاء في كتاب « الأمازي » من شعر عذب في وصف مالك بن أسماه بن خارجة كلام إحدى الغواني (٣٥) :

وحديث الله ، هو
تشتيه النفوس يوزن
منطق صائب وتلحن أحيا
نا ، وخير الحديث ما كان لنا

ومما علق به « الغالي » في معنى اللحن قوله عن ابن الأعرابي : « قد لحن الرجل يلحن لحناً فهو لا حين إذا أخطأ . . » . وكان العرب يتقبلون اللحن من الحسنات الاعجميات وينفثرون منها الخطأ ، بل

متمزجة . غير أن ألفاظاً جمّة ، فارسية وإغريقية وهندية وجيشية قد ترغلت في حيلة العرب ، ودارت على ألسنتهم ، وذلك وفق عوامل التأثير والتأثير التي تنتظمها سنن اللغات الجارية وقوانينها السائدة . ونحن نقع على هذه الألفاظ في عهود مبكرة من حياة العرب ، ومن خلال الشعر الجاهلي نفسه . بل إن القرآن الكريم قد انطوى أيضاً في بعض آياته على ألفاظ أعجمية مختلفة الأصول ، مثل : « استبرق وقمرطاس وسلسيل وسرايل وجهنم وفردوس . . . » ونحوها كانت قد دخلت العربية في أوقاف سالفة ، وقد عني بدراستها وحصرها العديد من فقهاء العربية (٣٦) .

الترخص تجاه اللحن في اللغة

ثم شهد المجتمع الإسلامي في العصر العباسي تسرباً ذا شأن لكثير من الألفاظ الأعجمية نتيجة لما تم من تلاحم اجتماعي وقمازج ثقافي بين العرب والفرس ، فبالإضافة إلى ذبوع كثير من اللسميات الحضارية التي دخلت حياة العرب مع أسمائها على صعيد المأكّل والمشارب والملابس وغيرها . . . كانت ألفاظ أخرى تدور أيضاً على ألسنة الناس ، وربما انتمكت في كتاباتهم ، وذلك أيضاً على سبيل المتظرف .

والمتظرف في الكلام قد يبدو باللفظ الخطيء أو المالحون . كما يبدو أحياناً في اللفظ الأعجمي أو الدخيل . والعرب أنفسهم ، على تشدهم المهور في اللغة وفي الأداء ، كانوا يستطيعون من المرة الحسنة والقي الملبح ما كان من هذا القبيل ، كاللثغة في

(٣٣) يمكن الرجوع في ذلك إلى كتاب « العرب » لأبي منصور الجواليقي تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦١ هـ .

(٣٤) يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى ما كتبه المجلد بإسهاب في كتابه : « البيان والبيان » ٧٠ - ٧٤ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٨٨ .

(٣٥) ديوان أبي نواس ، ٢٥ تحقيق أحمد عبدالجديد الغزالي ، القاهرة ١٩٥٣ .

(٣٦) كتاب الأمل ، لابن علي الغزالي ، ١ : طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ وأيضاً : البيان والبيان للمجلد ١ : ١٤٧ .

يحد تلك الظاهرة اللغوية الأسلوبية مسوغاً نظرياً يضفي به عليها صبغة مذهبية . فالجاحظ ، بجنوحه المهود إلى التقصي ، ودأبه على بلوغ الاستنتاج العقلي والنظرية المجردة يمضي في هذا المجال ، معتمداً على أخبار مروية بعينها ، ثم يخلص منها إلى اعتماد الفكرة المنشودة .

قص الجاحظ - في كتابه « الحيوان » - مرافقة مرة لاستاذة أبي إسحق النظم ، أحد أعلام الفكر الاسلامي . وكانا يسيران معا في طريق بظاهر البصرة ، فسلط عليها كلب ، ولزمها مسافة . . . ثم تخلصا منه بعد لأي ، ومضى النظم في حديثه وقد انعطف به نحو الكلب وكأنه يداعبه (٣٨) :

« . . . إن كنت سبع ، فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري والغياض ، وإن كنت بهيمة ، فاسكت هنا سكوت البهائم . . »

والذي يعنينا في هذا الصدد ان الجاحظ لم يعمد الى رواية هذا الخبر لجرد الاطراف فحسب ، بل اتخذ منه منطلقاً لمعالجة قضية فنية ، ومحاولة لاستخلاص نظرية نقدية . فقد بسط رأيه من خلال تعليقه التالي :

« . . . ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قسولي : « إن كنت سبع » ، ولم أقبل : (إن كنت سبعا) . وأنا أقول إن الاعراب يفسد نوازل المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب . لأن سامع الكلام إنما أصبحته تلك الصورة ، وتلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه ، وحولته إلى صورة لفاظ الاعراب الفصحاء وأهل المروءة والتجانية ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صوته » .

يستملحونه . ومن هذا القليل أيضاً قول شاعر كان يستملح كلام جاريته ، وكانت فيها يبدو أصحجية (٣٩) :

أول ما أسمع منها في السحر
تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

ويوضح الجاحظ هذه الظاهرة الاجتماعية للمحنة فيقول (٣٧) : « واللحن من الجوازي الطراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الحذور الغرار أيسر » ، ثم يقول : « وكانوا يستملحون اللثاء إذا كانت حديثة السن ، مقدودة مجودة ، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح »

ويبدوننا من جهة أخرى أن نطلق الترخص في اللغة قد اتسع خلال الحقبة العباسية المذكورة ، ولا سيما في مجال النثر بعد أن نفشت العجمة وضعت السلفية ، فلم يعد الخطأ أو اللحن في الكلام من الأمور الخطيرة التي تشين للمرء كما كان عليه الحال في العصر السالف ، حين كان مثلاً الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لا يفتأ يتعيب الارتجال والخطابة على ملا من الناس ، وهو من هو في الفصاحة واللسن ، ويقول : « شيبني صعود المنابر » .

على أن أبا عثمان الجاحظ ، بما اتسم به من سعة أفق ورحابة فكر ، ينتقل بمفهوم الترخص من نطاق الخير العارض ودلالته للمحدودة إلى مجال أشمل ، ومدى أوسع ، وذلك من جهتين : الأولى أنه ارتقى بمحدول التطرف ليندو من بعد باعثاً فنياً ، يبتغي القاريء أو السامع في التعبير نفسه بهدف جماليته المتفرقة . وقد تم ذلك لأبي عثمان بفضل ما فطر عليه من ميل إلى الدعابة والمرح . ثم حرص الجاحظ - من جهة أخرى - على أن

(٣٦) البيان والبيان للجاحظ : ١ ، ١٦٥ تحقيق مازون ، مصر ، ١٩٦٨

(٣٧) البيان والبيان : ١ ، ١٤٦

(٣٨) كتاب الحيوان : ١ ، ١٣٦

لقد تناول أبو عثمان هذه القضية أيضا في كتاب آخر له ، وهو البخله ، وعمد منذ أن استهل كتابه إلى تنبيه جبهة قرائه بقوله (٣٩) :

« وإن وجلت في هذا الكتاب لحنا ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أننا إنما تركنا ذلك ، لأن الأعراب يبخس هذا الباب ويخرجه من حده . . » .

فالجاحظ يرمي من ذلك إلى ضرورة المحافظة على النص المحكي والكلام المروي برغم خطئه أو انحرافه عن القاعدة ، لأنه بذلك يكون أدل على صاحبه ، وعلى طبيعته وشخصيته وفكره وثقافته ويبيته . . . ولا سيما أن أكثر ما يرد أو يروى في هذا المجال صادر عن فئة عامة الناس عرفت بالبخل ، وكان لها في صدد ذلك طرائف ومواقف وأيضاً طرائق تعبير .

أما حين يكون البخل من فئة مغايرة ، مثل فئة العلماء أو الكتاب أو الشعراء أو نحوهم . . . فالأمر يختلف في نظر الجاحظ ، لأن هؤلاء يمثلون وسطاً ثقافياً خاصاً ، ولغتهم تكون تبعا لذلك مختلفة أيضاً ، وقد اتجه الجاحظ إلى هذا الفارق ، فلم يجعل رأيه مطلقاً ، بل قال مستدركا :

« . . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخله ، وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه . . » .

ولعل هذا الكلام يكتب أهمية خاصة حين نلاحظ أن الجاحظ تناول هذا الموضوع ، موضوع الصحة والخطأ في معرض التعبير الأدبي ، في كتاب : البخله ، وعلى هذا النحو من التجريد والشمول ، وعمد إلى تنبيه قرائه إلى ذلك في خطبة كتابه . فقد رأى الجاحظ أن نظرت هذه أجناس ما تكون بالتطبيق في هذا الموضوع

وأهمية هذا الرأي تنوى في أن الجاحظ ، وهو عمدة الفصاحة ، وقمة البلاغة في لغة العرب ، يكاد يكون متفرداً في مجال النقد الأدبي من خلال هذا المنحى الخاص ، تفردة على صعيد الفكر والأدب واللغة والبيان . إنه لم يشايح اللغويين والنحاة في قصر نظرهم على اللفظ من الوجهة اللغوية ومن حيث صحته وخطئه ، فلم يأنف من الخطأ الأساسي في اللغة ، ولم ينكر الخروج على أصول النحو ، لأن للخطأ أحياناً في اعتقاده وجهاً يحسن قبله ، بل إنه على العكس من ذلك ، استملح هذا اللحن ، كما استملحه النظام شيخه الكبير قبله ، فلم يشأ أن يتعمر أو يتفاسح في كلام يتوجه به إلى حيوان أعجم ، ولي معرض التفكير والطرف ، حين جنح للمباشرة والممازحة مع ذلك الكلب الشارد . . .

ونطلق الجاحظ في رأيه جمالي فني وليس بنحوي لغوي ، إذ البلاغة لديه هي أن تناسب العبارة مقتضى الحال . وأنه لكل مقام مقال .

كان على الجاحظ أن يختار واحداً من أمرين : فلما صحت اللفظ وفصاحته ، فيستهجن تبعا لذلك مقالة شيخه النظام لأنها وردت على ذلك الشكل الخطأ ، وإما بلاغة التعبير وجماله ، فيستحسن كلام النظام ، على ما فيه من خلل . . . ولكن الجاحظ ضحى بسلامة اللفظ في سبيل حسن الأداء ، وأثر جمال الأسلوب على صحة اللغة . وفرض ما ذهب إليه في هذا الصدد ، أن الفصاحة في ذاتها ليست غاية في فن القول وإنما الغاية في البلاغة ، أي في طرافة العبارة ومدى تأثيرها في النفس ومبلغ قدرتها على الإيحاء . وهذا قوام العمل الأدبي .

ولكن هل كان هذا مجرد رأي عارض للجاحظ ساقه بصدد خبر مروى طارئة . . ؟

تغيير يلحق بها من لحن أو تسكين أو ما شاكل ذلك من كلام المولدين يسدها ويزيل رونقها .

أما الشطر الآخر من قول الجاحظ في هذه المسألة فهو منصب على كلام من سمام : (البليدين والعوام والحشوة والطعام) ، ولا بد لنواديرهم وملحهم في رأيه أيضا أن تروى على صورتها ، وكما حكاه أصحابها ، ولو كانت خاطئة أو ملحونة ، إذ أن أي تعديل في منهاها أو تقويم لاجوجها ، من قبيل إعراب كلماتها أو إصلاح ماكان من لحن في لغتها كتفل أيضا بأن يفسد إمتاعها ويلهب بروائها .

وفحوى رأي الجاحظ في الحاليين أن جمال التصير غير مقتصر على فصاحته ، ولا مرتبط بصحة ألفاظه ، إنه قد يوجد في الكلام الصحيح وجوده في الكلام الملحون . وهو يؤكد ما ذهب إليه في موضع آخر إذ يقول أيضا^(٤١) :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ . ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسفيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصح في موضع الافصح ، والكنكية في موضع الكنيائية ، والاسترسال في موضع الاسترسال »

ثم يضي الجاحظ في تعميق فكرته وتوسيع رأيه بقوله : « وإن كان موضوع الحديث على أنه مضحك وملهي ، ودخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الأعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان في لفظه سخف ، وأبليت السخافة بالجزالة ، صار الحديث الذي وضع على أن يسر القفوس ، ويكرها ويأخذ بأكلها .. »

الذي يتصل بظاهرة البخل ، وبكلام البخلاء وطرائقهم ونواديرهم وملحهم . ويتبصر آخر ، أدرك الجاحظ بثاقب فكره ومرهف حسه ، أنه في كتابه البخلاء يتناول موضوعاً خاصاً ينطوي على كثير من الطرافة ، وأن مادة كتابه مستمدة في غالب الأحيان من جماعة شعبية تتحدث غالباً بلغتها غير المعربة ، وألفاظها الملحونة ، فضلاً عن خصوصية تعبيرها وأدائها .

وعلى صعيد آخر من كتاباته الجاحظ نجد هذه القضية ، قضية اللغة المحكية البسيطة والملحونة ، مطروحة أيضاً في كتاب البيان والتبيين ، ألصق كتب أبي عثمان بشؤون الفصاحة والبلاغة ، ولخطأ والحق ، وكل ما يتصل بقضايا اللبني والمعنى والأساليب وطرق الأداء ... إنه يقول في هذا الصدد^(٤٢) :

« ومضى سمعت - حفظك الله - بنادرة من نوادر الأعراب ، فليأكل أن تحكيها إلا مع إعرابها ، وشارج ألفاظها . فذلك ، إن غيرتها ، بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها خرج كلام المولدين والبليدين ... خرجت من تلك الحكاية عليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فليأكل أن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير فيها لفظاً حسناً ، أو مجمل لها من فيك خرجها سرياً . فإن ذلك يفسد الامتناع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويلهب استلانتهم أياها واستملاحهم لها . »

هذا النص ينطوي على شطرين ، أولهما يتعلق بنوادر الأعراب ، وهذه النوادر لا بد لها في رأي الجاحظ أن تبقى معربة فصيحة كما كانت عليه في الأصل ، لأن كل

(٤١) كتاب البيان والتبيين ١ : ١٤٥ - ١٤٦ ، وانظر هذا الرأي أيضاً في كتاب الجيران ١ : ٧٢٢

(٤٢) كتاب الجيران ٣ : ١٢

اللغة - ولا سيما المحكية - لا بد لها أن تحمل سمات متكلما وخصائصه الذاتية .

واقف الأمر ، وعلى حسب معطيات علم الاجتماع وقوانين علم اللغة ، أن هنالك في كل جيل مستويات من اللغة تبعا لوجود مستويات في مقابل ذلك لقطاعات الناس التي تتكلمها . أو لا بد هنالك ، على الأقل وبصورة مجملية ، من وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير داخل مجتمع ، وهذا ما ساد في الأفهام من وجود لغة للخاصة ولغة للعامة ...

ويفضي بنا ذلك إلى أن من مقتضيات الفن التعبيري ، كما ينشده الجاحظ ، أن يحرص الكاتب على إطلاق المتكلم بلفته هو ، بحيث يتكلم المتحدث بهجته الخاصة ، وطريقة أدائه المتفردة ، وعباراته المتميزة . وإلا كان هنالك نوع من القسر الذي ينطوي أيضا على التزييف والافتعال ، وعلى التكلف والتصنع . وحين يطالب الجاحظ بأن تتم رواية الملح والطرائف والنوادر وما إليها كما صدرت عن أصحابها ، أو كما حكاهها أهلها ؛ فلما يرمي إلى احترام تلك الخصوصية التعبيرية في اللغة المحكية ، حتى ولو كانت ملحونة أو عامية ، بحيث يمكن الحفاظ على سماتها الأسلوبية المتفردة ، وملاعها المتميزة في الأداء .

وإذا كان مذهب الجاحظ صحيحاً ، وهو صحيح يؤيده واقع تطور المجتمعات ، وتقدمه معطيات علم اللغة وعلم السكان ، فمعنى ذلك أنه يسرى أيضا على لغة المسرح والتمثيل في عصرنا ، إذ لا بد لهذه اللغة أيضا - على حسب مفهوم الجاحظ - أن يخرج الكلام فيها « خرج كلام المولدين والبليدين ... » . فهناك فئات كثيرة من الناس يشكلون شطرا كبيرا من المجتمع

كذلك عاد الجاحظ إلى إثارة هذه المسألة النقدية حين قال (٤٦) :

« وقبح بالتكلم أن يفترض إلى ألفاظ المتكلمين في غاطية العوام والجار ، أو في غاطية أهله وعيله وأمه ، أو في حديثه إذا حدث ، أو خبره إذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب ... ولكل صناعة شكل » .

مقومات اللغة المحكية

ولعله بوسعنا الآن ، وبعد استقراء كلام الجاحظ وإيراد نصوصه الجلية بصدد هذه القضية المباحثة أو اللغة المحكية ، أن نخلص إلى جملة من الحقائق الأساسية التي تتمحور حول شخصية المتحدث ، وطبيعة المتلقي ، وطابع اللغة المحكية ، وظاهرة التندر ، ثم الواعية اللغوية .

١ - شخصية المتحدثين أو المتحاورين :

من المجهود أن شخصية الأديب التي ينطوي عليها العمل الأدبي ، قصصيا كان أو تمثيليا أو نحو ذلك من فنون القول ، لا تكشف سماتها وتتجلى أبعادها إلا من خلال كلماتها وعباراتها . والجاحظ ، من خلال آرائه في هذا الصدد ، يعتقد أيضا أن حوار المتحدثين هو الذي يثم على طبيعتهم ، ويثري عن شخصيتهم ، ويشي بحال نفوسهم ، أي أن لغة المرء صورة لذاته ، من خلالها تنعكس طباعة ، وتتجلى أفكاره ، كما أنها تكشف عن ملامح بيشته ، وتشف عن شريحته الاجتماعية .

وفي هذا الصدد أيضا يعتقد الجاحظ ، تبعا لذلك ، أن لكل طبقة من الناس ، أو لكل فئة أو جماعة متميزة منهم ، لغتها وعباراتها وأساليبها وطرق أدائها ، وأن

هذا « وذلك حين يحال بينهم وبين تلقي ذلك الأداء بصورته للمحكية .

جـ - لغة التحدث والعبارة المحكية :

والحقيقة الأخرى التي يمكن استخلاصها أيضاً من كلام الجاحظ تتصل بالنص نفسه ، أي بطبيعة اللغة المحكية ، وهي تنطوي على مفهوم بالغ الأهمية على صعيد النقد . فالجاحظ ، بفكره الثاقب ، خرج على المفاهيم السائدة في عصره ، ولا سيما في عرف اللغويين والبلاغيين والنحاة . . . الذين افترضوا التلازم المطلق بين مفهومي الفصحاة والبلاغة ، أي بين صحة اللفظ وجمال التعبير . فكأنوا يطردون من مغراب الأدب كل تعبير ينطوي على اللحن أو الخطأ ، دون النظر إلى ما عدا ذلك من عناصر جمالية أخرى ذات شأن في العمل الأدبي . وقد غلبت هذه النظرة أول الأمر على كثير من النقاد العرب بسبب كون غالبيتهم من النحويين ومن فقهاء اللغة وعلمائها ، فضيقوا الأمر على الأدب ونقله . وربما كان امتداداً لأرائهم تلك ، ازرقواهم بالأدب الشعبي ، بل تنكروا له طوال عصر مدينة ، بدعوى هبوط لغته عن الفصحى .

ويبدو أن ابن النديم صاحب « الفهرست » وهو من علماء القرن الرابع الهجري ، أي بعد عصر الجاحظ بأكثر من قرن ، كان ، على جلال قدره ، ضحية هذا الفهم السائد ، حين وصم كتاب « ألف ليلة وليلة » بأنه (١٣) : « كتاب غث بارد الحديث » .

لقد رفع الجاحظ مفهوم خصوصية التعبير إلى ذروة عناصر العمل الأدبي ، وجعلها عملة في فن القول ، لأن هذه الخصوصية ناجمة من خصوصية طبيعة المرء نفسه . فكأن لكل امرئ ملامح وجهه ، وبصماته يده ، ونبرات صوته ، فإن له أيضاً منحى تفكيره

كالذين دعاهم أبو عثمان « بالبلديين والعرام والحشوة والطعام . . » . وهؤلاء ينبغي خلال رواية شؤونهم والحكاية عنهم ، والمحافظة التامة على خصوصية لغتهم . إذ أن المحادثة أو المحاوراة في مجال القص هي العنصر الأساسي في تحريك الحدث وتطويره ، بالإضافة إلى أنه وثيق الصلة بالشخصية نفسها ، شديد الانتماء بها ، انطلاقاً من أن هذه الشخصية لا تتجلى ملامحها وسماها إلا حين تنطق ، أي من خلال اللغة المحكية نفسها .

ب - الجمهور المتلقي وطبيعة المخاطبين :

وهذه الحقيقة الثانية التي نستمدّها من مذهب الجاحظ في اللغة المحكية تتصل في الوقت نفسه ، ومن جهة أخرى ، بطبيعة المرء المتلقي ، قارئاً أو سامعاً أو مشاهداً . . والجاحظ حين ينطلق من كون اللغة أداة تفاهم ووسيلة تواصل بين المتحدثين والسماعين ، يعتقد أنه من مقومات الأداء الفني قدرة هذا الأداء على أن يبلغ الأسماع والقلوب ، محتفظاً بنكهته ومذاقه وحرارته . وحينئذ يكون للفن تأثيره المنشود في النفوس ، بفضل ذاتيته وتفرده . وهذا هو المهدف البارز الذي حرص الجاحظ على توفره في العبارة المؤداة ، وهو ما سماه « الامتاع » كما سلف من كلامه . فامتاع الجمهور هو الغاية لدى الجاحظ ، كما أنه هو الغاية أصلاً من إنشاء العمل الأدبي ، بل الإبداع الفني جملة وفق أسس النقد وأصوله . ولذلك حذر الجاحظ من مغبة تغيير صورة التعبير ، سواء في الملحة والنادرة أو في معرض الجد من الكلام ، لأن هذا التغيير هو الذي « يفسد الامتاع بها » ، أي أن جمهور المتلقين هم الذين سيصيبهم الغبن في النهاية ، فتفوتهم للمتعة المنشودة . أو أن ذلك وفق تعبير الجاحظ « يذهب استطابهم إياها ، واستملاحهم

(١٣) كتاب الفهرست ، الفن الأول من المقالة الخامسة ، ص ٣٠٤ طبعة ليرفل ، بيروت ١٩٩٦

الأدب . وظاهرة التطرف نشأت من جذور اجتماعية واسعة المدى في عصر الجاحظ ، وغدت من أبرز الظواهر التي خالطت حياة الناس داخل المجتمع الاسلامي خلال الحقبة العباسية ، تبعا لشيوع اللهو وتقشي المجنون . وأنه في طبيعة أسباب سيادة هذه الظاهرة ، ما نعمت به البلاد من استقرار سياسي في ذلك العهد ، وما استتب ذلك من ثراء العلاقات الاجتماعية في إطار اتساع المدن وتوسط المجتمع الحضاري . ويغلب على الظن أن الناس ، في ظل هذه الحياة الجديدة المفتوحة ، قد تجاوزوا ، خلال مجالسهم وأسماهم ، نوادر الأعراب والبداءة ، بما كان معهودا قبل ذلك الحين ، أو ما كان يتداوله الرواة ، ويعني به المؤلفون قبل هذا العصر .

لقد دخلت هذه الملح والنوادر في طور جديد ضمن الأطار الحضاري السائد ، فاشتق مفهوم « التندر » الذي كان مقتصرًا على فئة الأعراب أو البداءة ، وبات يفيد عبر الحياة الاجتماعية الرحبية معنى « التطرف » ، كما غدا من مقومات هذا التطرف اتسامه بقدر من التمدن ورقة الحاشية .

وهذا ما رمى إليه الجاحظ حين قصر كلامه أو كاد على نوادر المولدين وملحهم وأشعارهم ، في مقابل الاهتمام المهود بالأعراب ، إذ المولدون هم الشطر الآخر الرحيب من المجتمع العربي - الاسلامي الذي أوجده تلك الحياة الحضارية الجديدة خلال العهود العباسية ، نتيجة لعوامل التمازج الثقافي ، والاندماج البشري بين عناصر السكان الذين اختلفت أصولهم ، وتباينت مصادرهم . إنهم الجيل المستحدث الذي أخذ يتنامى بإطراد في مقابل الشطر الآخر المتضائل من ذلك المجتمع الضيق وهو مجتمع البادية .

وأسلوب تعبيره ، وطريقة أدائه . ولعل هذا معنى وجود لغة مكتوبة شاملة هي اللغة الرسمية التي تحكمها الأصول ، وتنظمها القواعد ، إنها اللغة المتصلة على صعيد الأدب والفكر والتراث . وإلى جانبها ثمة لغة أخرى عميقة توازيها ، وتنطوي على شيء من حرية الحركة والتغير والامتداد ، وهي ما يسمى باللهجة ، وهذه تبقى متصلة بأصل اللغة ، كما تلتمح الأغصان بجذع الدوحة الوارفة . وواقع الأمر ، وعلى حسب ما يرجع إليه علم اللسانيات ، أن وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير ، هو ظاهرة طبيعية في اللغات كافة . وقد عرف العرب لهجات كثيرة متباعدة ومتقاربة في عهود ما قبل الاسلام ، ثم عرفوا بعده لهجات أخرى متميزة بين العامة في الأمصار ، فكانت هناك عامة الشام ، وعامية العراق ، وعامية مصر ، وعامية المغرب والأندلس . وليس الالتفات إلى وضع علم النحو ، والعرب في عتفان فصاحتهم وتلق بلافتهم ، سوى مؤشر يتلوه ببروز أخرى مزايرة ، كانت تلعب في حياة الناس ، وتوزا في الوقت نفسه اللغة الأصلية .

ومن ذلك خالص الجاحظ إلى أن اللغة ، سواء أكانت فصيحة أم ملحونة ، صادرة عن خاصة الناس أم عامتهم ، ما هي إلا ظاهرة اجتماعية ، تنبثق من الحياة نفسها وتواكبها في مسيرتها ، ولذلك تغدو جدية بالاعتبار ، ولا سيما من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني .

تحديث التعبير

لعلنا نستطيع الآن أن نخلس في هذا المجال إلى أن أفكار الجاحظ التقديمية كانت تدور في مجملها حول محور واحد ، هو جانب التندر أو التطرف أكثر من سواه في

ومرد خطورة هذا الرأي إلى أن ابن قتيبة بمنظقة السليم نزع عن الشعر القديم هالة القداسة وجعله مع الشعر المحدث في كفي الميزان ، إذ لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالجرعة ، وحسبته هذا الفن إلى أنه كانت في حقيقة الأمر لصالح الشعر المحدث ورفع شأنه .

ومضى الجاحظ مع ابن قتيبة في تيار المحدثات إلى شوط أبعد ، ولا سيما على صعيد التطبيق ، من حيث ابتعد ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » نفسه عن كثير مما سبق أن نادى به في مقدمته النقدية الهامة لهذا الكتاب .

فالجاحظ في صدر كتابه البيان والتبيين الذي كاد يقصره على موضوع القصص والبلاغة عند العرب ، ينبثق لرواية نماذج من الشعر ما كان لغيره أن يتقبلها من أمثال أبي عمرو بن العلاء ومن كانوا من طيسته . إنه شعر محدث حفل باللفاظ فارسية ، وما كان ذلك حينها على المشتغلين بلغة العرب وأشعارها ، وهم يرون تلك الألفاظ الدخيلة تقتحم عرابت أعرق فنون القول عند العرب في منحى هازل عابث . فلنستلحنا من مقولة الجاحظ بأنه لكل مقام مقال ، وأنه للجد موضوع وللهمز موضوع قال^(١٦) : « وقد يملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني يمدح الرشيد : »

من يلقه من بطل (مسرند)
في زعفة حكمه بالسرد

هؤلاء المولدون ، لم يعودوا ، بطبيعة الحال ، عربيا فحسب ، بعد أن فقدوا الكثير مما كانوا يتسمون به ، من صفاء المنصر السالف . إنهم الخليطة الاجتماعية الجديدة التي وجد الجاحظ نفسه مدعوا إلى أن يتم بها ويخصها بالقول . وما هذا الاهتمام في واقع الأمر ، إلا وجه آخر من الاهتمام الشامل بالظواهر الجديدة المحدثة منذ مطلع العصر العباسي . وهو يذكر بما كان سائدا قبل حين لدى علماء العربية ورواة أخبارها وأشعارها ، من أجلال لكل قديم وإزراء بكل جديد ، ولا سيما في طور الرواية والتشوين والتقصيد وإرساء الأسس الموروثة . غير أن هذه الحال من التعمامي والتجاهل ما كان يوسعها أن تدوم أكثر عما دامت ، بعد أن حظت رحاب الفكر بكل جديد مبتكر وبديع مستطوف . وهكذا بات العلماء يميلون أنفسهم في موقف غير صحيح ، ويتبينون أن سلبتهم لم تعد تجدى . فليؤوا ويتحزبون عن مواقفهم الملتزمة إزاء طغيان الإبداع المحدث وتألقه . وكان من نتيجة ذلك أن أبا عمرو بن العلاء ، وهو شيخ رواة العربية وزائداهم^(١٧) ، انخدل ينخل عن موقفه للمهود ، وراح يقول بلهجة من اقتنع أخيرا : « لقد كثُر هذا الشعر المحدث وحسن ، حتى لقد حسمت بروايته »^(١٨) . ولكن هذه الرغبة لم تترجم إلى حقيقة علمية مطلقة ألا بعد حين ، وفي عصر نال ، وفي جيل الجاحظ وابن قتيبة وجه التحديد . فقد نظر هذا الناقد الرائد ابن قتيبة « بعين المدل على الفريقتين » ورأى أن « الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم »^(١٩) .

(١٦) أبو عمرو ، هو زهير بن عبد الله . أحد القراء السبعة ومن الأئمة الرواد في البصرة . رواية كثير لأخبار العرب ولهمج ولطرحهم . كان لسيف الخطوط والاصمعي رأي

حيثة . وقد تنسك آخر أيامه فغرق فيه ، حاش بين ٦٥ - ١٥٤ هـ ، ٦٨٤ - ٧٧٠ م

(١٧) كتاب الشعر والشعراء ، ١ ، ٦٣ لابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد عبد شاكور ، ١٩٩٦

(١٨) كتاب الشعر والشعراء ، للقصيدة ، ابن قتيبة ١ : ٦٣

(١٩) البيان والتبيين ١ : ١٤١ - ١٤٢

الأسمار أو يتخفى بها في المحافل . وتعترف بالتمنع
الفرنجي - العربي (فرانكو - آواب) ، وذلك على سبيل
الأطراف أو الأضحك أو بقصد التفكه والتظرف .

لقد اعتنق الجاحظ مفهوم الحداثة في فنون القول
وأغنى تيار التحليل في كتبه ورسائله متجاوبا مع منازع
عصره .

وفي هذا المجال من منحى الحداثة أو التحديث لدى
الجاحظ منى في كتبه ورسائله موليا اهتمامه أدب
المولدين وأخبارهم ، كما خص أيضا بالقول لفتهم
المحكية التي طرأ عليها تبدل مواز لتبدل تلك الخلطة
الاجتماعية نفسها ، والتي كان من أبرز لغتها اهتمامها
لأعراب الكلمات ولتحريك أواخر الألفاظ ، بالإضافة
إلى دوران اللحن والخطأ ، وأيضا المعامي والدخيل على
الاستهتار . كما أضحى لأحاديثها ومجاورتها أو لطرافها
ونواحيها منى خاص أو مذاق طريف غدا جديراً
بالرواية . وذلك كله هو الذي دعا الجاحظ إلى إطلاق
مقولته النقدية : « إن الأعراب يفسد نوازل المولدين » .

أما الجانب الآخر في هذا الموضوع الذي يتصل ببطقة
العوام فهو أن الجاحظ حين خص بالقول أولئك المولدين
وكلامهم ، إنما تناول في الوقت نفسه الوجه الهازل من
حياتهم ، هذا الوجه الذي كان يتجلى في طبيعهم

تجول بين رأسه و (الكرد)
لما هوى بين غياض الأسد
وصار في كف المغزير الورد
آلي يذوق الدهر (آب مرد) (١٨)

كذلك أورد الجاحظ أبياتا غيرها من هذا القبيل
لشاعر آخر قال فيها (١٩) :

لزم الغرام ثوبي
بكسرة في يوم سبت (٢٠)
فتميلت عليهم
ميل زنكي (بمسقي) (٢١) - (٢٢)
قد حسا (الداني) صرفا
أو عقارا (بايغست) (٢٣)
إن جلدي دبخته
أهل صنمعا (بسجفت) (٢٤)

ويبدو أن أمثال هذه الظاهرة الفنية معهودة في أطوار
التمازج الثقافي والازدهار الحضاري حين تبلغ عوامل
التأثر والتأثير بين الشعوب مدى بعيدا . ومن هذا القبيل
ما نجده في عصرنا الحاضر من جنوح بعض الفاعلين إلى
إدخال كلمات أو عبارات أجنبية خلال أحاديثهم
المشتركة ، وذلك على سبيل التعالم أو التفرنج . أو مانقع
عليه أيضا في أحيان أخرى من خصال الأعراف التي
تنطوى على جل أو قواف أجنبية ، تركية أو أرمنية أو
انجليزية أو فرنسية ، عقيمة في سياق النظم لتلقي في

(١٨) المرند في الفارسية : البطال الذي يغلب ويمحو . والمزعة : الدوح الفارسية للحكمة . السرد : سمر الزرد في الفروع . وأما الكرد فاصلاها في الفارسية الكردن أي
المنق ، وما تزال الكلمة شائعة عند العرب المعاصرين في بلاد الشام في قولهم (الكردن وهي تمنى نوما من الحلي الخمين على شكل قتلة مدلا على الصدر تحمل قطعة من القصة
الرمزية بالألوان واللحم . وأما الكلمة الفارسية الأخيرة (آب مرد) في الآيات فهي الله الهلرد .

(١٩) تبيان والتبيين ١ : ١٤١ ، والآيات لشاعر اسمه لسود بن أبي كريمة .

(٢٠) الغرام جمع غريم وهو المقلب بالدين ، وهذا جمع لم يذكره الأوائل .

(٢١) الزنكي : الزنبيقي بالفارسية .

(٢٢) الداني : نبات حق الرافعة مسكر . وبايغست : التبر على الرين ، والكلمة هيما الفارسية .

(٢٣) سبي : بالفارسية تمنى تكررا للسكرو ومعان الشراب .

(٢٤) جفت : فارسية أيضا وتعني ثمر الهلرد ..

التوشيح ، وهي خاتمة الأسطر فيه ، أو قفله الأخير بمثابة عمدة الموشح وبيت القصيد فيه . وقد أوضح ابن سناء للتركيب في كتابه « دار الطراز » هذا الطابع المتميز للمخرجة من حيث صفة وأهميته بقوله (٢٥٥) :

« والشرط فيها أن تكون حجاجية (٢٥٦) من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن (٢٥٧) ، حارة عرقية ، حادة متضجعة . . وهي إبراز للموشح ، وملحه وسكره ، ومسكه وعثره . . »

فالمخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يباح فيه اللحن ويستملح ، بل يشترط فيه أن يكون عاسياً أو أعجمي اللغة (٢٥٨) ، ولذلك يستحق العمل الأدبي أن يدخل في فن التوشيح ، « فإن كانت المخرجة معربة الألفاظ على منوال ما تقدمها ، خرج الموشح - في رأي ابن سناء الملك - من أن يكون موشحاً (٢٥٩) . وهذا الرأي مماثل لما قاله الجاحظ وهو: « أن الأعراب ينفذ هذا الباب ويخرجه من حده » وأنه « إن كان موضوع الحديث على أنه مضحك ومله ، ودخل في باب المزاح والطبيب ، فاستعملت فيه الأعراب القلب عن جهته . . » . وما يراه الجاحظ من منطق في أنه (٢٦٠) قد يحتاج إلى السخف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والقصم من الألفاظ

فإن سناء الملك حين تقبل ورود المخرجة فصيحة معربة فهو إنما فعل ذلك لأنها مسوقة في مقام الجدل ولا

ومزاحهم وفي مجالسهم وأسماهم وفي ملحهم ونواذرهم . وقد استيعب هذا الأمر من الجاحظ أن يبين أهمية ارتباط الكلام غير للعرب بموضوع النواذر ، وأن يحكم أيضاً التلازم بين الشكل أو اللفظ للملحون وبين المضمون أو المعنى المازل .

وحين أثر الجاحظ هذا المنحى في صدد اصطناع اللغة المحكية باعتبارها أداة تعبير ملائمة في مجال الموضوعات المازلة ، فإنه في الواقع قد فتح الباب أمام لون جديد من الطرائف والقصص ، أو غط مستحدث من أنماط الأدب العايب طالما دأب المؤلفون والنقاد من قبل على عدم الاعتراف به ، وحل طرده من محراب الأدب ، لما قد تنطوي عليه لفته أحياناً من الخلل ، وما قد يعثرها من شوائب . وهذه النظرة الفاصلة أو الفكرة المتزمنة قد هيمنت على الأدب العربي في واقع الأمر على أوسع نطاق ، فلم يكن ثمة في رحابه أي حيز ذي شأن لأنماط تعبيرية أخرى مثل القصص الشعبي والزجل . والموشح الأندلسي نفسه ، برغم طرافته ، ظل عدداً من الأجيال يشق طريقة العاثر بصعوبة ، دون أن يعترف به أنصار القريض فنا من فنون القول . حتى أن الوشاحين قابلوا ذلك التجاهل بتجاهل أشد ، حين أخرجوا الموشح القصص من دائرة فهم ، واعتبروه بمشابهة امتداد للقريض ، وأنه لا شخصية له . بل إنهم أمعنوا في التحدى بعد أن تمكنوا من فهم الجليلد ، وثبتوا فيه أقدامهم ، إذ اشترطوا أن تكون (المخرجة) مسوقة باللغة المحكية ، أي باللهجة العامية . والمخرجة في فن

(٢٥٥) دار الطراز في عمل الموشحات ، ابن سناء الملك ، ص ٣٠-٣٣ ، تحقيق الدكتور جودت الركابي ، دمشق ١٩١٩ .

(٢٥٦) حجاجية ، أي نسبة إلى الشاعر ابن حجاج الذي عرف بمجونه ، وقد عاش في بغداد خلال القرن الرابع الهجري .

(٢٥٧) قزمانية ، أي منسوبة إلى ابن قزمان لشهر زجلاني لاكتسب .

(٢٥٨) المراد بالكلام الأعجمي عند ابن سناء الملك هو اللغتي أو غير العربية .

(٢٥٩) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٤

(٢٦٠) البيان والبيان ١ : ١٤٥

والملاحظ أن كلام ابن سناء الملك الذي أوردته بعد أكثر من ثلاثمائة عام من كلام الجاحظ حرص فيه أيضا على طابع التلازم مضمون الحفرجة المنطوي على المزحل والحفنة والمرح أو المجون والسخف ، وبين الشكل اللغوي الذي يتجلى في عبارة الحفرجة ، من حيث كونها عامية هزائة للنفس باعثة على الضحك - حتى أن نعت اللفظ في هذا المجال بالسخف قد ورد بنصه أيضا لدى كلا المؤلفين ، الجاحظ وابن سناء الملك . وفحوى ذلك أن الحفرجة في الموشح ، من جهة ، والنادرة التي عنها الجاحظ من جهة أخرى هما مما مفترقتان من صميم الحياة اليومية ومنحدرتان من واقع لهجتها العامية المتبدلة .

كذلك يمكن القول أن النادرة والحفرجة - من حيث كونها صورتين تعبيري - هما أيضا من طبيعة واحدة قوامها التنظرف . وبعبارة أخرى ، إن الصبغة الكوميديية هي القاسم المشترك لهما . وما التنظرف في حالتي النادرة والحفرجة سوى التعبير الحفيف المازل الذي هو أقرب إلى جنس الكوميديا ، هذا الجنس الذي يرتكز إلى حد كبير على الحوار السمع الدافق الذي يشكل لغة الحديث في حياة الناس .

حين استملح الجاحظ ، بفكره المتفتح وذوقه الرفيع عبارة « إن كنت سبع » برغم خطئها اللغوي البارز ، آخذًا بالجانب الجمالي ومضمونها بمنصهر السلامة اللغوي ، فمعنى ذلك أنه جعل الفن في المقام الأول ، وأنه للضرورة الجمالية أيضا أحكام . لقد قر في نفس الجاحظ أن التعبير المحكي والبسيط في حياة الناس

سما في معرض المديح ، هذا الغرض الرئيسي في الشعر العربي . فهو على غرار الجاحظ أيضا يراعي في الكلام أن يكون مناسبًا لمقتضى الحال ، وأن : « الحفيف للحفيف والجملز للجملز ، والافصح في موضع الافصح^(٦١) » ، « ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل . . . » . ولما كانت الحمرة والطبيعة والمرح والطرب والفتاة والموسيقى . . . هي الجراء المواتية لمضمون الموشحات ، غدا من الطبيعي أن تملب على الحفرجة هذه السمة المرحية وأن تستمد من لغة الحديث ومواقف التبلل ما يضيف عليها الدعابة والطفافة ، وبذلك تكون مسك الختام ؟ فترك أثرها في النفوس وتثير الضحك . وقد تستدعي ارتشاف الكؤوس على نغمات العازلين وإيقاع الراقصين . « إنا - كما قال ابن سناء الملك - العاقبة ، وينبغي أن تكون حميدة » . ولهذا حسن فيها أيضا أن تكون « غزلة جدا هزائة ، سحابة ، خلابة ، بينا وبين الصبابة قرابة . . .^(٦٢) »

وعلى هذا الصعيد المشترك من تلازم اللحن الموسيقي والحفرجة الأعجمية في لغة الموشح قد نجد - كما أسلفنا - شبيها لهذه الظاهرة الموسيقية اللغوية أيضا في بعض أغنيات المرح أو العبث في عصرنا الحاضر .

وما الموشح في حقيقة أمره إلا ظاهرة لغوية أدبية وموسيقية متكاملة أفرزتها حياة المجتمع الأنثلسي الحديثة ، ولغته الجديدة ، ثم انبثق عن هذا المجتمع فن السزجل الشعبي ، المرساة الأخرى لحقيقة الحياة الاجتماعية واللغوية والفنية في الأنثلس .

(٦١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

(٦٢) دار الفرائز في عمل الموشحات ٣٣ ، ابن سناء الملك

في سبيل لغة ثالثة : ملامح نظرية نقدية

ويعد : فإنه إلى أي مدى ، في ضوء ما تقدم ، وعبر
المنحى النقدي للجاحظ يستطيع الباحث أن يتلمس
ملامح نظرية أو مذهب أدبي على صعيد الفكر
الجاحظي ؟

• لعلنا نستطيع استجلاء ملامح هذا المذهب النقدي
الجاحظي ومقوماته من خلال الوقوف عند النقاط
التالية :

أ - إن الجاحظ ، في فكره النقدي ، قد تفهم بمعنى
جدلية الشكل والمضمون ، من حيث تلازمها وتفاعلها
على صعيد التأثير للتبادل والمشارك ، ومن حيث عدم
قيام أحدهما إلا بوجود الآخر ، فهي بمنزلة شفرتي للمقص
لا يتم القطع بأحدهما بل بكتليهما . وكل محاولة لرواية
النادرة على غير صورتها ، كإحراق لغتها المولدة أو
تعديل عبارتها المحكية ، إن هي إلا تشوية لواقع
الحال ، وإسناد خصوصية المقال .

ب - استطاع الجاحظ بحكمه الصادق ونظيره الثاقب
أن يرى في اللغة كائناتاً حياً ، إنها في نظره - ونتيجة
للملاحظة والمعاينة والاستقراء - أداة تعبير غير ثابتة ولا
جامدة ، بل متغيرة متبيلة ، وهي قابلة للتكيف تبعاً
لتفسير أحوال العصر ومعطيات العيش وطبيعة
المجتمع . .

ومن هذا المنطلق الركين الذي صدر عنه الجاحظ ،
وهو أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنبثقت لديه هذه الرؤية
النقدية الهامة التي ترى أيضاً أنه إذا كان فن القول مرتبطاً

اليومية على خطئه أو ابتذاله . . . إنما هو المعول عليه في
هذا الصدد . أما التفاضح أو التشدد في تطبيق قواعد
لغة الكتابة والخطابة والشعر ، وجعلها تسري بقسريتها
أيضاً على الأدب المروية أو النادرة المحكية ، فهذا في
رأي الجاحظ بمثابة وضع الأمور في غير مواضعها ، إذ
يجعل الكلام معدولاً عن جهته ، واللفظ خارجاً من
حدّه .

ويكاد يكون محور كلام الجاحظ بصدد موضوع
التعريف والنوادر المحكية هو أن للموضوعات الجادة
والمضامين الرصينة لغتها الفصحى ، وألفاظها الجزلة ،
وأنه أيضاً للحالات الهازلة والمواقف العابثة كلماتها
الملحونة وعباراتها اللينة . ومعنى ذلك أنه في مجال
الكوميديا ومواطن السخر والاضحاح ينبغي محاكاة واقع
حياة الناس الهازلة ، واعتماد لغتهم للمحكية على
علائها ، لأنها على أية حال لغة الواقع وصورة الحياة .

هذا الفهم المحدد والدقيق لدى الجاحظ لطبيعة اللغة
المحكية في إطار المضامين الهازلة يقارب إلى حد كبير
المفهوم السائد في النقد الحديث حول واقعية اللغة ،
باعتبارها وجهاً بارزاً من واقعية الأدب . إذ أن اعتماد
لغة الحديث أو الحوار الجارية في معرض مسرح
الكوميديا ، وأيضاً اصطناع اللغة الدارجة على الألسن
خلال الحياة اليومية ، برغم ما قد تنطوي عليه من خطأ
أو ابتذال أو سخف . . . كل ذلك منضو داخل مفهوم
مشكلة اللغة للواقع ، ولا سيما في الأدب التمثيلي الهازل
أو الكوميدي ، وذلك على خلاف ما ينبغي أن تكون
عليه هذه اللغة في الوجه الآخر المقابل ، من فصاحة
ورصانة وجزالة ، على صعيد الأدب التمثيلي الجاد أو
الترجيدي .

وتتطوي على هالات . وهذا الفهم الرحيب لأبعاد الكلمة وطلال العبارة هو الذي جعله - برغم حرصه البالغ على صحة الكلام وسلامة التعبير - يتقبل الخطأ واللحن ، بل يحبه ويستملحه ، إذا دعا إليه داع من دواعي الفن .

كل ذلك يعني في مفهوم النقد الحديث ، حرص الجاحظ على سمة الواقعية اللغوية التي ينبغي لها في رأيه أن تبسط ظلها على التكلم والمتلقى معا . وما هذه الواقعية اللغوية في حقيقة الأمر سوى وجه آخر متآلق من ذلك المتحى الواقعي الذي حمل الجاحظ لسواة في الأدب .

د- أطلق الجاحظ مقولة نقدية هامة ، حين ذهب إلى أنه « لكل صناعة شكل »^(١٤) . وفحواها أنه ينبغي أن يكون لكل جنس أدبي شكله الفني الذي يلائمه . إذ الصناعة في مصطلح الأقدمين تعني في مفهوم النقد الحديث الفن بعينه ، أو الجنس الأدبي ، على أساس أن الصناعيتين الأثيريتين عند العرب تتجليان في الشعر والنثر ، وهذان أيضا أبرز فنون القول ، ويمقتضى ذلك ، فإن ما عناه الجاحظ هو أنه لكل جنس أدبي مخصوص خصوصيته الأسلوبية . وهذا المفهوم إنما ينبثق من المنطلق النقدي الشامل الذي أعتمدته الجاحظ أصلا وهو أنه لكل مقام مقال .

هـ- لقد تناول هذا الناقد العربي قضية اللغة المحكية في مجال التندر والتطرف ، على أنها قضية نقدية تتصل بلون أدبي متميز بخاير سائر الأنماط التعبيرية . ثم عمد إلى تحليل طبيعة هذه اللغة وإظهار سميتها الخاصة بها

بالمجتمع وموازي له ، وأن المجتمع متعدد الطبقات ، فإنه من الطبيعي تبعا لذلك أن تتجلى طبيعة التعبير في أشكال متعددة ، ما دام المجتمع نفسه طبقات متعددة . وهذا ما جنح إليه الجاحظ في قوله بأصرح عبارة وأوضحها^(١٥) :

« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام : الجزل والسخيف ، والمليح والחסن ، والقبيح والسبع ، والحنيف والثقل ، وكله عربي »

أما عبارة أبي عثمان الأخيرة التي تفيد أن جميع هذا الكلام برغم تباين مستوياته عربي ، فإن لها بعدا نقديا آخر قوامه أن صحة الكلام وحدها ، أو حتى فصاحته نفسها ليست العنصر الوحيد في تقويم العمل الأدبي ولو كان هذا الكلام في المقياس العام كلاماً عربياً . وهذا مفهوم دأب الجاحظ على تأكيده من خلال آراء عديدة له سلفت على نحو جاني أو أساسي . وهذا ما يفضي بنا إلى بسط الأمر في النقطة التالية .

جـ- ويجمل ما خلص إليه الجاحظ أيضا أن فنية العبارة قضية منفصلة عن صحة اللغة ، وليس بينهما تلازم ولا ترابط . وهذا رأي خطير في مجال النقد الأدبي ، مؤداه أن اللغة الملحونة والعبارات العامية ، شأنها كشأن اللغة الصحيحة والعبارات الفصحى من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني . وهذه السماحة في نظرة الجاحظ إلى اللغة ، مؤداه أنه لم يكن مترمنا في التعامل مع الألفاظ ، يعتبرها مجرد أوعية لحمل المعاني ونقل الأفكار ، بل رأى فيها رموزا ترمي إلى دلالات ،

(١٤) البيان والبيان : ١ : ١١٤

(١٥) كتاب المحرر : ٢ : ١١٤

أديب قبل أن يكون لغويا ، وفنان قبل أن يكون عالما . وآية ذلك موقفه السليبي الجريء تجاه النحاة والرواة ومن إليهم . إذ قال^(١٥) : « ولم أر غاية التحوين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل » . وهذا الموقف الجليي ينم على أن الجاحظ على كونه من أعلام اللغة والرواية لا يعد نفسه في زمرة اللغويين والرواة ، بل إنه يقف في الصف المغاير لهم ، ويتقدمهم ويأخذ عليهم قصور ذوقهم من الوجهة الفنية تجاه مقومات الجمال التي قد تنطوي عليها حلالة الأضمار ، وطرافة الأخبار ، حتى لكأن غايتهم لا تعدى اقناص الشاهد ، والتلماس البرهان . وفي هذا وحده إدانة شديدة لهم .

وعجمل القول أنه ما كان لهذه المواقف التقليدية التي انطوى عليها فكر الجاحظ أن تصدر عن رجل يمشي في وسط علمي محافظ ، لم يكن أصحابه المشددون يتقبلون فيه أي تفريط بالعربية ، لغة الجلود الأوائل ، ولسان الكتاب المئين ، ولولا أن أبا عثمان نفسه كان ينطوي على جملة من الصفات . منها :

١ - المكاتبة الرفيعة التي كان يحظى بها الجاحظ على صعيد الفكر العربي - الإسلامي ، وأيضا في مجال اللغة والأدب .

٢ - انفتاح عقل الجاحظ ونحره الفكري ، وانتماؤه إلى تيار الاعتزال الذي كان أبو عثمان نفسه أحد كبار أعلامه . وقد عرف المعتزلة في الإسلام برحابة آفاقهم ، واتسام عقولهم بقدر واثق من حرية الفكر .

٣ - كون الجاحظ عربي المنزع ، وهذا ما عصمه من أية شبهة ، ومكنه من أن يقول ما لم يجز على مثله سائر

التي تميزها من حيث النطق والأداء عن الأساليب المعتمدة في اللغة الكلاسيكية .

وقد اعتمد الجاحظ في إطلاق آرائه على نماذج تعبيرية محددة ، ونصوص أدبية معينة ، يتصل أكثرها بالمضمون الساخر أو الموقف الضاحك ، من مثل قصص البخلاء ونوادر المولدين ، ثم جنح لشفعها بما تقتضيه من حكم أو تعليق على هذا الصعيد النقدي . . .

عل أن هذه المسألة الأدبية أو القضية التقليدية التي تعالج طبيعة الصورة التعبيرية في معرض الملحة أو الساخرة ، لم تكن - فيها يدو لنا - طارئة في كتابات الجاحظ ، ولا عارضة على فكرة ، بدليل أنه تناول هذا الموضوع عددا من المرات خلال أبرز ثلاثة من كتبه ، وهي : كتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء ، وكتاب البيان والتبيين . وهذا الأمر يعني بجلاء أن الجاحظ كان يولي هذه المسألة اهتمامه ، وأن مسألة اللغة المحكية في معرض السخرية والمزحل كان لها - من منحاهما الأسلوب وأدلاها الفني - حيز واضح في فكر الجاحظ النقدي .

ولعله بوسعنا الآن القول أن هذه الانتماءات التي ومضت في ذهن الجاحظ تشكل أساسا صالحا لمذهب نقدي ، قوامه الترخيص اللغوي لغاية فنية . وهذا في واقع الأمر منحي خطير انتهجه الجاحظ بصدد ظلمة لغوية اجتماعية انبثقت في عصره ، ودارت على لسان جيله . وخطورة هذا المنحى تنوى في أن الجاحظ قد جنح ، من غير تحفظ ، إلى التسامح بصدد اللغة الدارجة على الأفواه ، كما استحسن ، دون حدود ، ما كانت تنطوي عليه تلك الصيغ التعبيرية المولدة من الفاظ دخيلة أو عامية أو خاطئة . وما ذلك أصلا إلا لأنه

الوقت نفسه وضع الجاحظ اللغة في إطارها الحيوي الصحيح ، حين رأى فيها ظاهرة اجتماعية متطورة ، تتمخض عن اللغة المحكية أو المنطوية التي تنبض فيها حياة الناس ، وتتجلى على ألسنتهم من خلال ما تدور به أحاديثهم ومخاوراتهم واسماؤهم . وهذه اللغة المحكية - كما يراها الجاحظ كذلك - إنما تتسم أيضا بما تتسم به اللغة المكتوبة الفصيحة من ألق وطرافة وإبداع .

معاصريه أو سالفيه . لقد كان في منجى من أن تصمه تهمة الشعوبية المستفحلة ، وهو في طليعة خصومها ومناوئي دعايتها .

وهكذا أحل الجاحظ الفن في منزلة أعلى من منزلة اللغة ، واكتفى بجعل اللفظ ، أي لفظ - على الصعيد الأدبي - مجرد وسيلة تعبيرية لغاية أسمى وأجل . وفي

مشروع منهج نقلي :

يعرض الخطيب الروائي « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ سيكولوجيا ، وفلسفة ، ورؤية شخصيات الى العالم ، مزيجاً السار عن وعيها ولا وعيها للتجسد في سلوكها العمل الدال . والرواية بادخالنا ، كقراء ، الى وعن هذه الشخصيات ولاوعيها في علاقتها ، وعلاقتها بالفضاء والزمان ، فهي تكشف في ذات الآن عن سيكولوجيا السارد ، وفلسفة ، ورؤيته للعالم متجلية في أحكامه التقويمية ، وجهات نظره حول جميع الشخصيات سواء الدائمة الحضور أو الكثرة الغياب ، وحل وجهات نظرها المتنوعة حسب الأحوال والظروف اذ من خلال مقول الظروف اذ من خلال مقول السارد يبدو اللامقول .

والاشكالية المطروحة هي كيف يتعامل الناقد مع ثنائية الشخصية والسارد لتحقيق الحداثة في النقد العربي الطامح الى تحديث أدواته الاجرائية ؟ غالباً ما كان النقد القديم يتبع الشخصية ويعمل السارد ويسير النقد البنيوي الجنتيني في نفس الاتجاه مضيافاً الاهتمام بعلاقة الشخصيات ولايعير أي اهتمام للسارد الى أن برز الاتجاه البنيوي بعد الشكليتي فاهتم بالبنية السردية ، وزاوية الرؤية ، والمنظور السردية ، وجهة النظر ، والمكونات الروائية من فضاء وزمان وشخصيات أو ما أسماه الحكاية والمحكمي الا أنه يؤجل الحديث عن السارد والسرود له . وانا لنقترح لتحديث نقدنا العربي رصد علاقة أخرى بنيوية وجعلية هي علاقة السارد بالشخصية . بما أن السارد بصاحب الشخصيات في حركتها عبر طول الرواية ، وبما أنه يشكل الظل بالنسبة الى الشخصية فينبغي أن يكون الاهتمام شاملاً لكل من السارد والشخصية في علاقتها . كيف ؟ أياصرح بأفكار الشخصية ويسكت عن أفكار الراوي ، أياكشف الناقد عن وجهة نظرها ويلتزم الصمت عن وجهة نظر السارد ؟ اذا فعل فهو أحادي البعد ان اختيار احدهما دون الأخرى امر مستحيل لأنه مهما حاول فانه سيجتز لاعمالة لأنها مترابطة ، ومتلازمان ، وكثيراً ماتنصهر هذه في تلك لانها وجهان لعملة واحدة : الخطيب

حضرة المحترم أنسة سردية الايديولوجي

وقال يخاطب به :

- اغفر لي أفكار يارب ، انما قاسية

مثل الحياة ، وهي جزء منها ليس الا . . .

نجيب محفوظ

محمد اسير في

الروائي . ان العلاقة بينها جدلية تتناق وكل أحادية وثنائية .

وهذا المشروع التقليدي غير ثنائي مادام ينسف صرح كل ثنائية في طموحه أن يكون جدليا يتعامل مع كل ثنائية كوحدة كينية جدلية ديناميكية اتنا سندرس ، كنوويت كون ، علاقة السارد بأي شخصية على مستوى الحكاية المحكي . انه منهج جدلي يعرض وجهات نظر السارد من خلال وجهة نظر الشخصية ابتداء من المحكي الابتدائي حتى نهاية الرواية . انه منهج علمي بنيوي جدلي يمكن . اتنا نقترحه في نقد الأعمال الروائية لأنه لا يتناقض والأحادية (تناول الشخصية وحدها) ولا يتزامن والثنائية (تناول الشخصية وحدها ثم تناول السارد وحده) بل هو يزامن بين الشخصية والسارد ابتداء من الشروع في للممارسة النقدية . ان الناقد في واقع الأمر ، لن يخوض في الحديث عن إحدى وجهتي النظر حتى يحدد نفسه يتحدث عن الأخرى . والفصل بين الشخصية والسارد لا يتأتى الا في التنظيم النقدي ، أما في الممارسة النقدية ، فكل فصل بين مكونين هو تشويه لها معا .

ان سارد « حضرة المحترم » يحمل وجهات نظر الشخصية هي الأطروحة ، ووجهة نظر شخصية أخرى أو وجهة نظره هي التقيض في معظم الرواية . ولن يفوتنا ونحن نستجليها أن تبرز المقاطع السردية القليلة التي تتطابق فيها وجهات نظر الشخصيات بوجهة نظر السارد . ولا سيما والحالة هذه الا تشكيل التركيب الأطروحة الجديدة - بينها بجلاء لأن التقيض يتواجد في الخفاء . ان السرد يحمل ضمنا اللامسرد . ومهمة الناقد هي انتاج خطاب نقلي يبرز اللامسرد من خلال المسرد الى أن يقضي له نقد النقد الذي هو التقيض الضروري للتركيب / الأطروحة الجديدة / وتتمظهر الشخصية في الرواية بالذات التي تشكل بصيغها المختلفة سيميائية ايديولوجيتها الرسمية وايديولوجيا السارد

المستقلة كفعل السرد ، والحكي ، والقص ، والرواية ، والمحكي والحكاية ، ووجهات النظر ، وأحكام القيمة والحذف ، والغيب ، والصمت ، وزاوية الرؤية أو المنظور السرد ، والرواية بضمير الغالب التي تشير الى وجود راو ، وشخصية وقارئ ، عكنتين ومحتملين والعلم والمناصر الذي يساعد على استجلاء مظهرات الايديولوجيا هو السيميائية ، والجهاز المفاهيمي ، ومصطلحاته الاجرائية الذي اختزله فليب هامون في مصطلحه النقدي الذي أسماه شعرية المعيار .^(١)

تمظهرات الايديولوجيا :

تتمظهر الايديولوجيا في الخطاب الروائي في عدة صيغ ، وتتجلى آثارها في اشارات متعلدة : في العقيدة الدينية ومتافيزيقاها ، في الاخلاق ، في السلوكات الخاضعة لها بعد تشكيلها للنفس ، والذهن ، والوعي واللاوعي ، وفي تحريف رغبات الذات الطبيعية ولأفكار الناتجة عن الرغبات ، وفي العقلانية ، والمثالية ، والرومانسية ، والفردانية ، والسلفية ، والمثوية ، وإرادة الفرد للقوة والسلطة ، وفي الخرافة ، والأسطورة ، وفي تقديس الذات الفرد والحكومة ، وخطابها فتوحدهما مع الاله المقدسات فتمتزج هذه بتلك ، وتغيم الحدود ، وتتلأشى التخوم ، ويحل خيال المؤلج هذه في تلك فيعند التمييز ، وفي تقسيم الناس الى مستويات ، وأصناف ومراتب وفق معيار التراتبية ، فيقدس تبعا لذلك المال ، والرأسمال ، والعمل والملكية والأشياء ، والبشر ويتشأ الانسان ، ويزده في الراحة والحياة ، والحب والجنس ، والعلم والتحرير والحوية ، والمعرفة والسياسة والفلسفة ، والادب ، والفنون والحقوق في اطار الخوص لمعايير العقل العقل ومقاييس العقلانية القائمة ، والتخلي عن الطوباوية الممكنة للمؤسسة سعيا وراء طوباوية مستحيلة لا أساس لها ، ونسيان الجسد ، وشروط بقائه ، والقلب وعواطفه ،

١ - فليب هامون ، نص وايديولوجيا ، ط ٥ : P.U.F. 1984 وقد كان هذا المرجع القديم احسبا بالنسبة اليانا في لتجلب هذا المجال ، ولهذا لن نشير اليه فيما سياتي نجيبا للكرار

وفقة وكأنها طفل يلعب بمسدس ممبا وكشخص مفتون لا يرى سوى موضوع فنتته . هل بإمكاننا الحديث هنا عن السحر ؟ .

قال الرسول متعجبا يسوما : « ان من البيان لسحرا ! » نعم ، لاسحر في التاريخ لا يستخدم اللغة في سحره أو أثناء عملية السحر واليوم نتساءل : أين يكمن سر السحر ؟ أفي الخطاب أم في المواد الكيميائية ؟ لقد أدرك الرسول أنه كامن في البيان . ان لغة قوة تشبه قوة السحر أو هي ذاتها السحر . ولكي لغة هي تلك السحرة ؟ اما اللغة التي تبحث المتعة ، وتحقق اللذة ، والنشوة في السامع / القارئ ، فيندو وقد أسكرته اللغة بجمالها ، وبيانها وحقيقتها ، وموسيقاها التي تستحوذ على النفس ، فتؤثر في الاحساس وتثيره فيمسى السامع / القارئ كالمسكن الذي يستر ، ويترنح ، ويغني ويردد مآثره أو بعض مقاطعه ، ويتمايل راقعا متشبا ، وعمله اللغة في تفريها الى عالم من الخيالات ، والاحلام ، والرؤى . انه فعل تخدير اللغة الذي يفوق تخدير الحمرية والأفيون ، والحشيش ، والميرون ، والكوكايين ، والمورفين . يمكن أن يكون تخدير هذه المواد أنيا ثم يقضي ، ولكن تخدير اللغة يدم ويستمر مدى الحياة . وكلامها قاتل فالأدمان يقتل في أقصر لحظات العمر . وتناول كمية عدودة تناولا طيبا قد يساعد على الحياة كذلك النص البياني . فهو كالمخدر يصعب علينا تخليد زمن قتلة رغم معرفتنا أن نتيجته الحتمية هي الموت . فالملدة التي سيومت فيها الشخص تحت تأثير سحره وتخديره تتغير من شخص الى آخر ليس كل نص بياني قاتلا . فالقاتل هو الخطاب الايدولوجي الساحر . انه سر سحره كامن في أنه يعحق الخطاب الماضي الموجود في الأذهان . انه ينفذ الى ذهنية الشخصية فيستقر فيها فيندو مكتوبا ، غفورا متوقشا على رخام الذاكرة فتتأدلج الشخصية ، وتتخدر ، فيسرى فيها التخدير سريان السحر في ذات المسحور فتعمل بحسبه فتشخص الايدولوجيا السائلة وتصيح حية تسمى وتلتهم شخصيات أخرى لاعمي بدون شخصية .

والجنون وثورته ، والشغب ارادته في التغيير وتعظيم الانساق ، ورغبته في التحول ، والتموقف بالقول بالقول والفعل المستول . وتتجل الايدولوجيا أيضا في التقويم انطلاقا من قواعد وعصا ، وفي شكل لغة ، وأقوال ، وآراء ، ووجهات نظر ، وأفكار ، ونظرات الشخصية أو السارد ونظريات ، ومعرفة تقنية ، وجالية ، وصناعة وفنية وثقافية ، ومهنية وكتابية ، وإنشائية تخضع للقوانين المسطرة ، وللأعراف ، والأوضاع والمواضعات الاجتماعية ، والأذواق ، والرؤى الى العالم والفلسفات . .

شخصية الشخصية الرئيسية :

في الصفحات الأولى من رواية « حضرة المحترم » يقدم السارد الخطاب الايدولوجي السائد كأنه إشارة Signe مكتوبة على لافتة تلعب هذه الإشارة في الخطاب الروائي وظيفة إشارة مكثفة كما تلعب اللافتة في الحياة الواقعية الوظيفة ذاتها ، فهي تقرأ وتحفظ ، ولتحلل ويسير القارئ المابر وفقها دون مناقشتها . اما تبدو كمثال كحكمه كقانون ، كوثيقة إدارية ، كمذكرة رسمية ، وتتخذ شكل جميع الصيغ التعبيرية القصيرة الثيرة والشعرية ، وإن هذه الإشارة لتشكل في الرواية أفق إنتظار بالنسبة الى القارئ . ونظرا للعلاقة الجدلية بين فن التخيل والواقع ، فإن الايدولوجيا الرسمية تلقي بهذه الإشارة كما يلقي الفلاح بالبلدة أملا في أن تنضج وتؤثر أكلها في أرض وعي الناس حتى تنمو وتصرع وتنضج وتثمر في لا وعيهم لتجني هي بعد ذلك ، وبسهولة ، ثمارها ولا يبعها حيثل مصرير السائرين والماملين وفقه / والسارد الواعي بهذه الإشارة ويخطوهم هو الذي يتكفل تحت ظل الايدولوجيا المستقلة التي يساهم الانتهاء اليها الى جانب الثقافة الواسعة والتراكم المعرفي في تجليها وتغيرها في وعيه الذي يصارع لوعي المؤدجين المشبهين بالايدولوجيا الصنم . - مهمة كشف وفصح أثر - ايدولوجيا سائلة الخطر على حياة ومصير الانسان المؤدلج الذي يؤنس السارد باعطائه صورة شخصية روائية بشكل الخطاب الايدولوجي القاتل بينتها المحكية والحكاكية ، فتتحرك

والموت في أن واحد أو ينقص اللذة باللوت الذي ينتظر الفتاة الجاهلة انه كالغرائز النمنم ذي المنظر الخلاب ولكنه يخفي تحته هوة سحيقة في قعرها افاع سامة تلذغ الساقط فيها ، أو حراب استنتها الى فوق تودي بحياة كل من حاول الجلوس عليه . انه كالقصر الملقوم الملهى .

ان الاشارة التي ذكرناها آنفا تومي من الآن فصاعدا الى ما ستمخض عنه الرواية في خطها الانحداري من وجهة نظر السارد ، والتصاعدي من وجهة نظر الشخصية ذلك الخط الذي يرسم المراحل التي ستقطعها الشخصية المؤدجلة والدائمة الحضور في الخطاب الروائي الذي له أيضا سحره الخاص الا أن هذا السحر يبعث النشاط والحياة في القارئ الممكن كالغذاء والدواء والارتواء الجنسي والفكري ، وهذا القارئ سيهتز سكران منتشيا بكأس الحياة انه النص المضاد لآلما قاله ولكن بمالم يقبله والذي نستشفه من خلال ما قبل . انه النص / الحياة رغم عرضه للايديولوجيا السائدة / الموت ان الشخصية في رحلتها التراجيدية التي تلمح الى السقوط والانهيار ثم الموت لانمي تأدلجها . ان الرحلة الى الحياة تحمل معها الموت العاجل . وكما قال لوكاش ابتدأت الطريق وانتهت الرحلة . انها رواية او سيرة الشخصية الاشكالية الذاتية . ان موت يومي في آخر الرواية ناتج عن الحرمان من مباحيح الحياة ان هذه الشخصية قدمت الايديولوجيا الرسمية قربانا لمعيد الدولة ولقصلتها اللامرئية هروبا من المقصلة المراثية الخاصة بالسياسيين ونوي الرأي التحرري ، المناضلين والفلاسفة والعلماء المناهضين لها .

والاشارة الساحرة المخدرة والقائلة قول السارد راويا عن عثمان بيومي الذي يرددها بهذه الصيغة هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الشائعة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العام هذا هو المثل الاعلى المتاح لابناء الشعب ولامطمح لهم وراء ذلك تلك هي سكرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الالهية والكبرياء البشري . ثامنة .. سابعة سادسة .. خامسة .. رابعة .. ثلاثة .. ثانية .. أولى .. مدير عام .. معجزتها

ان السارد يستقصي عبر النص الروائي جميع التظاهرات الممكنة للايديولوجيا السائدة ويتخذ لها شخصية كمرآة ذات أوجه متعددة مكسورة تعكس صورا متعددة لها . انه يسردن الخطاب الايديولوجي أو يؤنس السردى الايديولوجي من خلال شخصية الشخصية ليفضح الايديولوجيا المخدرة وأثرها القاتل والمبيد للأفراد والمجماعات وتفرقتهم بعد تكتلهم متوسلا بالشخصية / النموذج دون أن يغفل ، كيتوي علاقاتها بالشخصيات الأخرى ، وبالزمان ، والمحيط والظروف والأحوال لتكتمل صورتها وتلتحم بنيتها . ونجيب عفوفا ، ككاتب روائي يخلق شخصية أخرى تتكفل بالسرد وهو السارد وعمل الناقد في ممارسته التقليدية للعمل الروائي أن يربص علاقة الشخصية بالسارد كشخصية فلكل منها ايديولوجيته أو قد يلتقيان ، يوعي أو غير يوعي ، في ايديولوجيا واحدة كما افترقا . وان نجيب عفوفا لسيميائي كبير ان تتبع تحليلات الايديولوجيا السائدة والمستقلة ويسجل راصدا سيميائياتها التي تشكل علما كبيرا يعمر المؤرخين ، ويعرفهم ثيابه ، فيتخطون في أمواجه المضلطة كضفري يصارعونها كل حسب طريقته حيا في النجاة بحياته ، صراعا ينم عن مغامرة فردانية مؤدجلة . والدليل على نهجه المنهج السيميائي ذا الرؤية الشائقة قول السارد في « حضرة المحترم » : « تراءت دنيا من المعاني والمؤثرات » (ص : ٥) . وليست غاية هذا الفضح هو السفيرة فحسب ، بل الغاية هي ادراكه أو وعي حلة مقصلة الخطاب الايديولوجي ومضائه ، وشدة وقعه الذي يشبه وقع الرصاص في الرز وس والصدور ، سواء جاء على شكل كلمة ، أو جملة أو عبارة ، أو نص ، وفي جميع مرافق الحياة : في الشارع في العمل ، في للهي ، في وسائل النشر السمعية والبصرية ، ووسائل الاعلام . وخطورته تكمن في اختزاله حياة المؤرخين الذين يغدون حمة الايديولوجيا السائدة ، والمبشرين بها ، والمناقضين الأوائل عنها رغم سلبيات حقوقهم ، وتجهيلهم ، وحرمانهم من ملذات الحياة . انها تحمل في طيها موتهم العاجل . فخطابها سحر ولكنه كشهريار يمنح اللذة

المتباعدة كالمقاربة والمتجاورة تشكل ثنائيات وترتاتية .
ومن أجل الفئات ، والبقايا ، والفضلات ، والنفائات
تستغرق هذه الدرجات حيلة الإنسان القصيرة
بكمالها ، ويحكم عليها باعدام عاجل قبل الأعدام
المؤجل الذي حكمت به عليه الطبيعة معجزتها تحقق
في اثنين وثلاثين عاما . وربما تحققت في أكثر من ذلك
ولا يفسد السارد أن يدلي بوجهة نظره المضادة
للاتواصلية ، والكاشفة للحقيقة العلوية ، على هذه
الدرجات بصيغة تواصلية : « أما الساقطون في وسط
الطريق فلا حصر لهم » (ص : ١٠) . الموت للمعجل
الذي يعلم الناس قبل الموت للمؤجل - حسب رؤية
السارد الواعية وعيا ممكنا - يتخذ أشكالا متعددة وألقابا
متنوعة ، مجموعة (بالكسر) ، خداعة ، اغوائية تراتبية :
صاحب السماعة - المذير العام . ويكنى عن الأعدام
السابق وانه بلغة الفرقان بكنايات سحرية غادرة لها
مفاهيم في تصور ذهنية المؤدج ميتافيزيقية : الرحمة
الالهية - سكرة المنتهى - حيث تنتهي حيلة الموظف في
الواقع وهو جالس على شوكة الوظيفة وخياله فيما لم يعرفه
ولن يعرفه وانما يتصوره ويرسم له في خياله صورة غائمة
وعائمة وهلامية - والمثل الأعلى - والمعجزة التي ترتبط في
ذاكرة الشعوب بالأنبياء الذين يجعلهم الخطاب المؤدج
فوق البشر . ومفهوم المعجزة في المحكي مفهوم السني
لأسيا إذا نظرنا إلى العلاقة التنضيضية التي وضعت
كلمة « للمعجزة » بعد لفظ « مديح عام » . ومعناها أن
هذه للكائن مكانة الهية ، وخاصة بأنه أوتيها أما الإنسان
فهو عاجز عن بلوغها في زمن الأيديولوجيات السائلة
التي تحت على الاحتمام بها وتشغيل الفكر بحلم الوصول
اليها في زمن الوصولية . أما المفهوم الدلالي المعروف فهو
يعني الفعل الحارق الذي يفوق القدرة البشرية وهو
مفهوم ميتافيزيقي خرافي أسطوري . ولا يخفى من هذه
الألقاب الماكرة ، والمفضلة ، والأحكام التقييمية المطلقة
التي لا تخدعها النسبية الواقعية سوى الفقر والموز والحاجة
الدائمة الملحة والموت للمعجل لأن أجرة العاصل .

تتحقق في اثنين وثلاثين عاما وربما تحققت في أكثر من
ذلك . (ص : ١٠) . ان هذا الخطاب مؤدج يميز
بين رؤيتين إلى العمل / الوظيفة :

١ - رؤية منظور اليها من زاوية الأيديولوجيا السائدة
التي قسمت العمل تقسيما تقنينيا إلى درجات تحفي
وراءها الاستغلال ، والاستلاب وسراب الحياة .

٢ - رؤية منظور اليها من زاوية الأيديولوجيا
العقائدية .

وتبرز الرؤيتان من خلال التقييم الظاهر في النص /
الشعار المؤدج الذي يرسخ أيديولوجيا الطبقة المالكة
لوسائل الإنتاج عن طريق الاعتماد على العقيدة
وتشويهها كما يبدو ذلك من سجل الفرقان ولغته التي
تتخلها كثرة يدير منها الخطاب المؤدج إلى الأذهان دون
مقاومة لأنه حتى العقيدة تأدلجت وانصهرت
الأيديولوجيتان فشكلتا أيديولوجيا واحدة سائلة .
ويتجلج التكوين وأحكامه من خلال النعوت ، والصفات
والأحوال ، والكنايات والألقاب وفق قواعد التثانيات
والمراحل الموجودة بين طرفي الثنائية كالسعادة والشقاء
والتائق والانقطاع ، والمثل الأعلى والأقل والجنة
والنار ، والكبرياء والكبر + الرياء + والدناءة ، والعلي
والخارق ، والتحقق وعلمه ، والقناعة والطموح :
طريق سعيدة - تنتهي متألقة - المثل الأعلى - سكرة
المنتهى - الكبرياء البشري - معجزتها تحقق (١)
والخطاب المؤدج يؤكد بحمره الضامض والخيالي
والميتافيزيقي والأسطوري ، التحقق وينفي الطموح
المختلف بصورة اطلاقية : « ولاطمح لهم وراء ذلك
المؤدجون ، هم الذين يتكبرون هذا الخطاب كبنية
فوقية لا يسطرون من قوانين صارمة على الشعب والحامية
للمسالحم الاقتصادية ومن تشريعات استغلالية إجرامية
وقائلة بتلويز العمل وجعل القيم المضادة مجرد أوهم :
« ثامنة . . . سابعة . . . سادسة . . . خامسة . . . رابعة . .
ثالثة . . . ثمانية . . . أولى . . . مديح عام » . والأرقام

الأوهام ، وتبزرع الاستيهامات فتنمو ، وتنضج ، وتثمر ، فتحصد ، وتستحوذ على الانتاج كله فتجتمع الشخصية المؤدجلة ، كالأقطة ، المشيم لأن الايدولوجيا المؤسطرة أسطرت الذات فأسقطت الذات نفسها على الأسطورة فأعدمت الحاضر والواقع . ولن تزول الأسطورة إلا يزول الايدولوجيا المؤسطرة .

يقول السارد عن عثمان بيومي وعن سيرته الذاتية الدالة على الوضعية الاقتصادية الخاصة العامة في الزمن المؤدجج .

لن تفهم أي سيرة إلا اذا ربطناها بالظروف الاقتصادية لأن السيرة داخل العمل الأبدي ومن ثم ربط هذه البنية السيرية الدالة بالبنية الاقتصادية العامة للمجتمع الذي يعيش فيه . :

« إنه يتفق القرش بغير ضرورة لمحة . وفتح حسابا في دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه . ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه . وهو يؤمن أن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعبية من شعائر دينه ، وأمان ضد الحروف في عالم مخيف » (ص : ٢٩) .

إن النص يوضح أن الشخصية تخضع لايدولوجيا التوفير كإضافة أخرى على ايدولوجيا تقبيل العمل والأجرة ، ومضاعفة الحرمان ، وعدم الاستقرار النفسي والتردد ، والحيرة ، والانتفاء المستمر ، والاختيار الدائم ، والعجز عن الاتفاق والثبات في مكان واحد كياه المستنقع ، والتمسك والافتناع بطعام واحد كالبهزمة إلى حد لا يبغي الغذاء عن الدواء والدواء عن الغذاء لعدم القدرة في اقتناها معا . والمحطاب المؤدجج يصلح / يتفق بالتوفير بنسبة الريح الغامضة والمغربة والفضيلة لتضخيم الرأسمال .

هناك ثلاثة دلائل على مخالفة السارد للشخصية المؤدجلة :

الموظف زهينة ويعوض عنها بالخطاب الوهمي المؤدجج ، والروح المجرد ، المثال ، والرحمة والجنة ، والسعادة المرجأة كتمويض عن الماضي والمحسوس والسعادة المرجوة الواقعية والضرورية وما الفتات المتذوّر سوى البديل الحتمي لهذه الترقية السيزيفية للمهوفة واللاهة من أجل لاشيء والمحترقة شوقا إلى العدم لاحترق الأجور بنار الأسعار واحترق للماجور :

« اني أشتغل ياربي . . . »

النار ترعى روحة من جلورها حتى هامتها المحلقة في الأحلام . وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كموجة من نور باهر ، فاحتراها بقلبة وشد عليها بجنتون ، كان دائما يحلم ويرغب ويريد ولكنه في هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لح معنى الحياة » (ص : ١) . إن السارد يحمل من بيومي - Bio O Vie من بيومي ولكن = Mais أو Moitie O mi وهكذا ينفذ اسم بيومي من حيث التحليل التنجيمي التصحيفي « حياة ، ولكن . . . »

أو نصف حياة « أو حياة ناقصة » - الفراسة التي احترقت لما حاولت المستحيل وهو اقتباس من الشمعة نارها . إنه يحكم عليه بأنّه محلق في الأحلام أي رومانسي طوباوي وأنه منبهز بمحرق سحر الايدولوجيا المحرقة بعدما حلت فيه فحل فيها . إنه الحلول الايدولوجي . وقد شبه السارد هذا السحر وهذه الفتنة بالنار المقدسة . وبيومي المنبهز بالنور يقنص النار كالبديهي والمؤدجج ولكن نورها أعشاه فأرداه أعمى لا يدرك النار البروميتية التي تحمل معنى الحياة الحقيقية وإدراكه خاطيء لأنه يرى معنى الحياة في الموت . والانهار والتقدس يستلزمان التضحية الشيء الذي أفضى به ، في سيرته الطموحة إلى المجد الزائف ، إلى التفتير ، والادخار ، والحرمان القاتل ، والبخل للمتشدد خوفا مما قد تسفر عنه الأيام المؤدجلة المضطربة - وهي دائما تسفر عن شيء غير متوقع - وهي التي تفرس

الحان وغير الحان إلى أن ماتت حواسه فأضحى جثة لا يفنها في شيء ما تبقى لديها من حركة وعي مؤدج زائف .

إن الايدولوجيا السائدة حرياء معكوسة . إنها تلون بلونها كل ما تجر به من ثقافات كالتاريخ ، والحضارة ، والأخلاق ، والعلوم بشق أصنافها ، والفلسفة ، والأدب . إن هذه الثقافات المؤسساتية تتأدج إلى حد يتعلم التعرف عليها كما يتعلم التعرف على الحرياء في الأشياء . لا يدرها من ثم عدا من غيرها ، وخير حرباتها للقلوب . فالتاريخ مثلا يتشكل بتشكيلها ، وتنصهر الأخلاق في بوتقتها إلى حد أنها تجعل الوظيفة فوق كل المهن الأخرى كالتجارة ، والصناعة ، والسياسة ، والجندية ، والبحرية . . . ، وتضرب حالة من التقديس حولها فتبعدنا من الأرض في عيالها بعد أن موقتها في الساء بحيث يستحيل الآن عليها معرفتها ولجلها مزجتها بالاله فلا يكاد المرء يميز أحدهما عن الآخر إلا إذا قبض لها كاتب ساخر يضحك ويضحك من القديسات بعد إزالتها من سماء الوهم إلى أرض الحقيقة والواقع . يقول سارد « حضرة المحترم » : « الوظيفة في تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالعبد » (ص : ١١٣) . وهكذا يعدم التاريخ الحقيقي ، تاريخ الشعوب ، والحضارة التي شهدها ، شقا أو إغتيالا

إن الايدولوجيا السيدة تستمد قوتها ونورها المفضل ، ويريقها الحفاد من العمل المستمر الذي لا ينقطع ولا يتوقف والذي يجعل الراحة ، ولا يفكر فيها ، كما لا يقارن زمنها بزمن العمل الذي يندى فيه جسده عرقا ، ويرهق فيه ذهنه تفكيرا ، ولا يدر هذا العمل على العامل / الموظف سوى التنف ، ولا « يرد عليه » أصحاب وسائل الانتاج المتجين للخطاب المؤدج « رزقه » .

الراحة حق من حقوق كل إنسان .

١ - أن طبيعة الحكاية هنا مزدوجة . إن للمرء عندما يحكى بضمير الغائب عن شخص آخر أو شخصية تخيلية ، ويعرض وجهات نظره ، وسلوكاته ، وأفعاله ، فإنه يقوم بفعل الحكيم كي يستخلص القارئ نقيضها . والرواية بضمير ال « هو » الدالة على الشخصية تتضمن في ذات الوقت ضمير « أنا » السارد ، وضمير « أنت » القارئ ، وكان الراوي يقول للقارئ دون أن يصرح بذلك : « إني لست مع وجهات نظره وسلوكاته وأفعاله ، وإني لأخالفه في كل ذلك فما رأيك أنت ؟ » .

٢ - سمعة الامتداد ، والابصار ، والاضافة ، والنسبة بضمير الغائب لتبره ساحة أنا السارد وأنت القارئ . تقييم السارد للعالم بنمته بصفة « خيف » انطلاقا من معيار الخوف والاطمئنان ، وهي صفة تحمل ضمن ما تحمل من دلالات حافة دلائل تحديدان رؤيتين إلى العالم ،

أ - رؤية الشخصية الحرفية القاموسية الضيقة لوعيا الزائف المؤدج والسلفي : « العزاء الباقي هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلها ضاق بتقشفه قال لنفسه : - هكذا عاش الخلفاء الراشدون » (ص : ٧٧) .

ب - رؤية السارد الواسعة لوعيه المحتمل بحيث أن ما يثيفه هو عالم الايدولوجيا المفرقة والمشتت للناس وبحيث يغدو المخيف هو غياب التضامن التاريخي .

إن يومي يجرم نفسه بل هو مدفوع إلى الحرمان لتأديله ، من كل متعة ، ولذة ، وجمال في الأشياء ، والأجسام ، والأجساد ، والأصوات ، والروائح ، والأطياب ، والأطعمة والألحان ، والمشاهد الخلابة ، والأصناف ، والرحلات ، والاكتشافات ، والاختراعات ، والمناظر الجذابة والمتغيرة حسب الفصول ، والأزمنة والأقطار ، ومن دفعه الشمس ويرد الشتاء ويرودة المياه وتلجها صيفا ، وأنواع الشراب في

إن يناظر المؤرخ عن شيء أمته الأيدولوجيا التعميمية عن رؤيته . فقولها مستعارة من قوته ، ونورها تقتبس من نوره فأصبحت قوته من « قوتها » ونوره من « نورها » . ولأجل هذا ولتنوير الظلامية الكساف في نورها الخادع يدعو السارد الفارسي لدراسة الموظف / العامل دراسة اقتصاد - اجتماع - نفسية كي يتعرف هذا الأخير على واقعه وليغيره ويعمل على تغييره ، وتغيير وضعية العمال التي ستغير وضعيته . لا يزال الموظف لغزا عميرا ، ومستعصيا على الدراسة التي تقتضي تصافر الجهود ليفرد كل دارس بزواياه وحسب اختصاصه .

« وحضرة المحترم » تدرس وفق اختصاصها الإبداعى الروائى وعي الموظف نفسه وهو بنية فوقية صغيرة شكلتها الأيدولوجيا السيدة البنية القوية الكبيرة التي تشكلها معها البنية التحتية المختارة .

لا يمكن للبنية القوية المؤجلة أن تتقدم ذاتها إلا إذا وعت ذاتها ووعت الأيدولوجيا السيدة والبنية التحتية المتوخاة في كل أبعادها ، وقارنتها بالبنيات التحتية المناقضة لها .

لا نريد هنا إعادة القول في العلاقة الجدلية بين المادة والفكر .

لن يغير الفكر الواقع إلا إذا كان واعيا به ، وبالفكر الناتج عن الواقع أي أن يعي الفكر ذاته وأن يعي في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه الذآن يعي في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه .

يقول السارد بأسلوب المحكي الذاتي المطلوب في خطاب تتناقض فيه الأيدولوجيا الحرة والأيدولوجيا السيدة : « وقال لنفسه إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد . والموظف للمصري أقدم موظف في تاريخ الحضارة . إن يكن المثل الأعلى في البلدان الأخرى محوريا أو ميسابيا أو تاجرا أو رجل صناعة أو بحارا فهو في مصر الموظف . وإن أول تعاليم

أخلاقية - حفظها التاريخ كانت وصايا أب موظف متقاعد إلى ابن موظف ناشئ . و فرعون نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الألهة في الساء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية ، ووادينا وادي فلاحين طيبين يحنون المسامات نحو أرض طيبة ولكن رؤسهم ترتفع لدى انتظامهما في سلك الوظائف ، حينئذ يتطلعون إلى فوق إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الألهة في الساء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحى وكبرياء للذات البشرية وعبادة الله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء » (ص ١١٣) إذا كانت الشخصية والفلاحون يقبسون الوظيفة إلى حد عبادة الموظفين « الكبار » ، فإن السارد يحل الفلاحين ويمجد الأرض ويمعظما ويكن لها كل تقدير . ولكل من السارد والشخصية أحكامه التقييمية . فالسارد يحكم على الفلاحين والأرض بالصفة التي ينددها التفت التخصيصى الذى يفضل قيمة من بين القيم الأخرى : الطيبين - الطيبة . أما الشخصية فهي تحكم على الوظيفة بالأحكام التقييمية الأخلاقية ، والتقنية ، والمعرفية ، والنفسية ، والمقاتلية : خدمة للناس - حق للكفاءة - واجب للضمير الحى - كبرياء للذات البشرية - عبادة الله - وفق معايير الخدمة وعدمها ، للناس أو للحيوان والأشياء ، الحق أو غيره ، الكفاءة أو العجز ، الواجب أو غيره ، الضمير وعدم الضمير ، الحى أو لوليت ، الكبرياء أو الدناءة ، العبادة أو الكفر ، الله أو الشيطان . ويسند أيضا أثر - الأيدولوجيا في تاريخ الموظف الذي يحكم عليه حكما قيميا وفق معيار الجدة والقدم ، والواقع والمثال ، وجود التعاليم وانعدامها ، أخلاقية وغير أخلاقية ، والتبيين أو الانتظار ، الإلهى أو الشيطانى ، الإلهى أو الإنسانى ، الطقوس أو غاياتها الدينية أو غير الدينية ، إدارة أو لا

إن الارض إلهة كل الآلهة تحت الشمس .
 ما أحوج الوظيفة إلى عبادة الأرض وتقديسها !
 والضلّاحون في استيهاماتهم المقدمة (بالكسر)
 للوظيفة ولتأديجهم يتوقون إلى المستحيل ، والأسطوري
 في يتوبيا تنسيهم الممكن / الأرض / الواقع / الانسان
 / الجميع ، وتشخص أبصارهم إلى « المناصب العليا »
 كما تشخص إلى إله الخلود . لو كانوا غير مؤدجين
 لعلموا أن أصحاب « المناصب العليا » أقزام لا حول ولا
 قوة لهم إلا قوة الضلالين ، والعمال ، والموظفين ،
 والحرفيين ، والصناع ، والعمالين - بإختصار - كل
 عمل باليد والفكر ، وقوة الأرض ، وثروتها هو الذي
 يحدد المناصب ، وروايتها ، ولزهدنا في هذه المناصب ،
 ولسخروا من الموظفين « الكبار » الذين يعيشون حالة
 على الضلالين وغيرهم .
 إن قوة الشعب هي قوة الحكومة .
 إنها حكومة لم تنع ذاتها .
 إن الشعب هو الدولة في الحقيقة والواقع .
 إذا بخلت الأرض فلتقم على المنصب والوظيفة
 والمآثم .

إذا انتزعت الأرض عنوة أو مراوغة عن طريق
 الضرائب ، والغلاء ، والزيادة في الأسعار وفي ساعات
 العمل ، فالتضال حتى لا يترجمها قورا .

إن الصعود في ذلك المقطع السري مجازي يعني
 صعود الأرواح / النفوس إلى السماء قبل أوانها وقبل
 موت الجسد حسب ثنائية الروح والجسد . وهو أمر
 مستحيل إذا تحطمت هذه الثنائية ، إنه صعود مبكر وغير
 طبيعي ناتج عن عاهة صاحبه من عذاب ولزادة وشقاء
 الجري وراء السراب . إنه بلغة مجازية موت مستعجل
 رغم حركة الأجساد بنية تحقيق الأمال الخادعة ،
 والأماني الضائعة . ووجهة نظر الشخصية المؤدجة
 (المؤدجة خبر لوجهة النظر) تنم عن رؤيتها الأحادية

إدارية ، مالية أو غير مالية ، منظمة أو فوضوية : أقدم
 موظف في تاريخ الحضارة - المثل الأعلى - التعاليم
 الأخلاقية الأولى وصايا موظف - فرعون موظف - معين
 من قبل الآلهة - طقوس دينية - تعاليم إدارية مالية -
 تنظيمية . وأن الفلاحين / الموظفين يتطلعون إلى فوق
 مما يدل على أن هناك (تحت) و (فوق) بل توجد كل
 الثنائيات التي ينبغي تدمير قلاعها وحصونها . والسارد
 يدعو إلى أن تقام البحوث حول الموظف لمعرفة واقع
 الوظيفة ، ولأدراك أنها مقدسة دون سائر الوظائف ،
 وأنها تتبع النظام الوراثي منذ الفراعنة . ولو استحضرننا
 علائق الغياب في ذاكرتنا عن فرعون ، وعن تجبره ،
 وطغيانه وتآله ، واستبداده الذي سكت عنه الخطاب
 المؤدج واكتفى بالإشارة إلى نظامه كالنظام الاقتصادي
 المتدهور الذي يتخذ الدين والأخلاق أيديولوجيا سائدة
 للاستغلال ، لا تكتمل لدينا دلالات علائق الحضور في
 الجملة الخاصة بفرعون ، ولأدركنا أن التاريخ يعيد نفسه
 بصورة أبشع . وتتمظهر أيديولوجيا السارد المستقلة في
 الحذف ، والبياض الذي تركه مفضلا الصمت
 والسكوت . يتجلى الحذف في قوله : « إن أول تعاليم
 أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا » حيث حذف
 « لنا » بين حفظها والتاريخ لأنه يرغب في أن تحفظ لنا .
 ويتجلى صمته وسكوته عما يشبه هذا القول : « كما
 يحدث في مصر الآن » الذي كان بإمكانه أن يأتي بعد
 الجملة التي تحدثت عن فرعون في حذف هذا القول .
 وبقي الصمت مستمرا إلى أن جاء يوسف القعيد فمزق
 الكمامة ليجهر في حرية واستغلال بهذا القول عنوانا
 لرأيته « يحدث في مصر الآن » . أما السارد « حضرة
 المحترم » فهو يقفز على الثغرة التي أحلها في المقطع
 السري إلى وصف الفلاحين الذين ينحنون لتمطي
 الحكومة ظهورهم ، ويركعون لها لتأليههم إياها بذل
 الانحناء وإجلالا وإكبارا للأرض الجديرة به .

مفيدة زواجاً موقفاً من شأنه تمهيد الطريق للتقدم » (ص ١٥) .

يعبر هذا النص عن أن « حضرة المحترم » تقدم بنية ملتزمة ، فعل مستوى الحكاية ، فإن سلوكه الشخصية يتخضع بحرفية بلهاء للمخاطب الايديولوجي الرسمي الذي جاء في صيغة الإشارة التي سبق ذكرها . فهي تسيروقه في تفكيرها ، وتصورها ، ومعرفتها ، ورؤيتها للتاريخ ، والاقتصاد ، والدولة ، والدين ، والعمل / الوظيفة . . . وعلى مستوى المحكي ، فهذا الشعار في العمل والحياة « وكما يتجلى ذلك من بنوده الثمانية التي تطابق عدد الدرجات الثماني المسطرة في الإشارة المؤدجلة والباعثة على التادلج ، تفريع عن الإشارة المؤدجلة منسجم معها كباقي التفرعات التي ستليها في شكل مقاطع سريعة ، وحارات ، ومحركات وأوصاف ، ووجهات نظر السارد والشخصيات التي يوزعها نجيب أيضاً بتقنية هندسية معمارة ورياضية وفق عدد ٨ : فالشخصيات / النساء ثمان :

- ١ - أم حسني .
- ٢ - سيدة .
- ٣ - قدورية .
- ٤ - ست سنية .
- ٥ - أصيلة الناظرة .
- ٦ - أنسية رمضان .
- ٧ - إحسان إبراهيم .
- ٨ - راضية عبد الحفاتي ، والشخصيات / الرجال كذلك ثمان :

- ١ - سفيان يسوي .
- ٢ - حمزة السويدي .
- ٣ - بهجت نور .
- ٤ - حسين جميل .
- ٥ - إسماعيل فائقة .

إلى الوظيفة . إنها تعتبر العمل منفصلاً عن الراحة بكل ما تحمل كلمة « راحة » من شحنات دلالية ، وتعد الراحة منفصلة عن العمل مما يجعل الرؤية موسومة بالتنائية حتى . تتجلى هذه الثنائية في ورقة العمل التي اتخذتها الشخصية دستوراً وشعاراً لها ومشروعاً لسلوكها المستقبلي . إنه نص يقطع بالعلاقات الاستبدالية اللغوية الدالة على البراكسيت إذ يسود فيها جلد العمل وغياب الراحة . لا وجود ولو لإشارة بسيطة إلى الراحة ، والتسلية ، والعث الجاد أو الجدل العاثر ، والاقبال على الحياة والحب . إنه نص تنبثق منه العقلانية المعاشة لتعبيره ، والكاشفة عن حضورها المكثف والمستقر في وعي الشخصية كما تنبجس منه البراجماتية والايديولوجيا الغائلة والبخيلة التي لا « نفع » فيها ولا « منفعة » ترجى منها لأنها تشغل الفرد الذي يقضي عمره في دراسة لثيل شهادة التخرج إلى الشارع أو القبر قسراً لا اختياراً تحليه التضحية والتموقف من أجل الجميع أو في سبيل الإنسان :

- ١ - القيام بالواجب بدقة .
- ٢ - دراسة اللاتحة المالية التي يشار إليها وكأنها كتاب مقدس .
- ٣ - الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم .
- ٤ - دراسة خاصة للفتين الانجليزية والفرنسية بالإضافة الى العربية .
- ٥ - التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .
- ٦ - الاعلان بكل وسيلة مهلبة عن تلبيني وخلقي واجتهادي في عملي .
- ٧ - العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .
- ٨ - الاستفادة من الفرص القليلة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم لذي شأن ، صداقة

ومعيار الربح والخسارة : الحصول - المقيضة -
كسب - الاستفادة - القرص المقيمة - صداقة مقيمة ،
والطابو TABOU الحناضع لمييار المعرفة السفلية
والعليا : الشهادة العليا . وللغاية منها هي الترقية .
والظل الذي ينوب عن الترقية وفئات الترقية هي
الشهادة التي يفوق مجيها مقابلها الذري ، إلى حد
الزهد في الجانب الأساسي وهو الحياة والانساق وراء
التفكير في الذات الفردية المؤجلة وطموحاتها الزائفة ما
دامت بعيدة عن قضايا الناس جميعاً :

« هل ما زال ينصتكم تعليم ؟

- الشهادة العليا .

- لماذا ؟

- مساعدة لأبأس بها للترقي « (ص : ١٨ - ١٩) .
ويتنزل معنى حياة الشخصية في الوظيفة ، في العمل
« المقدس » . فالمعمل في نظرها كوني ، إنه يعني الإله ،
والحكومة وذاها الواحدة والوحيدة المجلدة لروح
الإله .

إن الأيديولوجية الرسمية هي التي تتحدث عبر ذات
الشخصية سواء بصيغة المناجاة أو بصيغة المحكي الذاتي
المجلوب والتلقائي ، أو في حوارها مع باقي
الشخصيات وعرض وجهات نظرها . إن الشخصية
مباشرة بها وتستند ، دون وعي منها ، إليها في كل اتصال
تقيم مع غيرها . وهي نموذج للمؤدجين الذين يتم
التواصل بينهم لتزويدهم وحثهم واتخاذهم اللاوعي
تحت ظل وحدة الخطاب المؤدلج (بالفتح وبالكسر)
بنفاذه إلى ذهنياتهم كما فرق بينهم لدعوتهم الرومانسية
والفردانية والمثالية فلسوا ذواتاً مثلية كل واحدة تسير
في طريقها الخاص كالكواكب المتتابعة محاولة تأكيد
الذات التي ألغتها الأيديولوجيا الرسمية بتأكيد ذاتها
هي . وكل تأكيد للذات ما هو إلا تقليد جديد للذات في
صورة تقليد للفرد / الإله كما حدث ذلك لجولييان

٦ - عبد الله وجدي .

٧ - مهندس .

٨ - طبيب .

وسيلتي عثمان بيومي ، ويتحاور ، ويدلي بوجهات
نظرة وفق وجهات نظر هذه الشخصيات بالتبادل
لتداخل الشخصيات / النساء بالشخصيات الرجال بناء
عليها تنخير فصول الرواية .

إن التأدلج معاش لهذه الورقة ونستشف ذلك من
العقلانية الأخلاقية التي تقصر الفرد على تقديم الواجب
وتؤيخه على إسماله ذلك معياراً يقوم من خلاله :
القيام بالواجب ، ومن خلال معيار معرفة أو جهل
التقنية : بدقة ، ومعيار الأمانة والحياة : بأمانة ،
ومقياس التقديس والتدليس : تقديس الوثيقة المالية ،
وقاعدة الرقاقة واللينة ، وسيلة مهلبة ، وقانون
الأخلاقيات : تدليس - خلقي - الكرامة ، والمعرفة
حسب قاعدة العلمي والأدي : مساعدة أدبية ، وضابط
النجاح والفشل : زواج موفق ، وسنة التقدم
والتخلف : طريق التقدم ، وعكس الثقة وعدم الثقة :
ثقة ، والحلب والكراهية : عيبتهم .

أما قاعدة العمل فهي التي تبين على المشروع .
إن إحدى مقولات سارتر هي أن الإنسان مشروع .
ولكنه يمكن أن يكون مشروعاً لمشروع لم يختره يكامل
الحرية والوعي . وسيمارس حريته ووعيه عندما سينظر
في مشروعه نظرة نافذة تجعله يميز بين مشروعه كإنسان
حر ومشروعه غيره الذي يستعبد .

وبيومي ليس بمشروعه كإنسان مستقل بل هو مشروع
غيره . إنه مستعبد من طرف المشروع الأيديولوجي
السيطر الذي يخضع الناس للمعمل فقط : ورقة عمل -
القيام ب - دراسة (ثلاث صرعات) - التزود - يعملون
من مثازهم - اجتهادي في عملي - العمل على - مساعدة -
تقدم ...

قال بعض الفلاسفة إننا لا نرى الأشياء إلا حسب تجاربنا . وهذا يعني أن العين زجاجة حمية وحامسة عضوية تربطنا بالعالم الخارجي . وإذا كانت التجارب هي التي تشكل ببيتنا الذهنية ، فهذا يعني أننا لا ندرك الأشياء كما هي ، وإنما نخلع عليها من تجاربنا ، من ذهننا ، من ذواتنا . إذن فالذهن هو الذي يرى الأشياء من خلال التجارب التي انطبعت على صفحته . والنسيان الذي يصاحب جديلاً عملية التذكر والتفكير هو الذي ينتخب مرجعاً أو موضوعاً من بين المراجع أو الموضوعات ليفكر بها . وإذا كان الخطاب الأيديولوجي السائد هو الذي يشكل ببيتنا الذهنية في جميع مراحل حياتنا التي لا تتجاوز ربع أو نصف قرن ، فانتنا لن نتعامل مع العالم الخارجي إلا عبر هذه الذهنية ، وعن طريقها التي تقلب عملية الإدراك . كان الخطاب المؤدلج ينفذ إلى الذهن في السنين الأولى ، ستين التعلم التقليدي والمؤسسي ، عبر زجاجة العين فشكل إطاراً « ثقافياً » وتراكباً « معرفياً » فأصبح الذهن في مرحلة « النضج » يرسل الخطاب المؤدلج على العالم الخارجي كما ترسل الكاميرا الأشعة التي تتحول إلى صور على الشاشة ، من خلال زجاجة العين ولكن الصور تعود إليك عبر العين فيعيد لها إلى العالم مؤدجلة وعبر عضو التعبير أيضاً / اللسان في شكل خطاب شفوي أو كتابي مؤدلج يتولد عن الخطاب الأول حاملاً سماته كالوليد الذي يحمل سمات الأب والأم أوهما معاً .

تتجلى سمات هذا الخطاب في خطاب بيومي الذي يعرض السارد وجهة نظره : « إنه يتختر المواقف التي تحدث على الكسل ويعدها تجديداً بذئ الجلال » (ص ٣٧) فليس بيومي هو الذي يتختر المواقف التي تحدث على الكسل / الراحة وإنما الأيديولوجيا السائدة التي شوهت الخطاب العقائدي عندما أذابته فيها ووجهته في اتجاهها . إننا لتصادفها معاً في كل مقطع سردي يصدر

سوريل في رواية استبدال « الأحمر والأسود » : « قال إن حياة الإنسان الحقيقية هي حياته الخاصة ، التي ينض بها قلبه في كل لحظة ، التي تستأجر الجهود والاختلاص والابداع . إنها مقدسة ودينية ، بها تتحقق ذاته في خدمة الجهاز المقتسم المسمى بالحكومة أو الدولة . بها يتحقق جلال الإنسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا » (ص ٢٢) . وهذا مقطع سردي مؤدلج يذعن لمعيار الحياة والموت ، الحياة الخاصة أو العامة ، الخفقان أو الهمود ، الجهد أو الخمول ، الاختلاص أو النش ، الابتكار أو التقليد ، التقديس أو التدنيس ، التدين أو الكفر ، تحقق الذات الجماعية أو الفردية ، الجهاز المقدس أو المندس ، الدولة أو الشعب ، جلال أو انحطاط ، الكلمة العليا أو الدنيا .

وتأكيداً لذات الفردية في الفكر المشالي والوحيي الروماني المؤدلج يفضي بصاحبه إلى جهل الملائق النبوية الاجتماعية التي تحقق تأكيد الذات تأكيداً اجتماعياً وإنسانياً ، ويؤدي به إلى الكدح كالعبد في الاقطاعية والرأسمالية رغم الاختلاف الجذري الموجود بينه وبين العبد الذي كان جسده يلهب بالسياط ، ويكره على العمل ، ويجبر على إنجازها مهما كانت قساوته ، والآلام التي يسببها له ، فينقله مرغماً . أما المؤدلج فانه ينقله « إختيارياً » أي يرغمه الخطاب المؤدلج الذي استقر في ذهنه فندا مسجين هذا الخطاب ، وأسير نسقه والنسق الذي صدر منه الخطاب . إنه يشقى دون ضرب أو جلد وإنما برضى تام بوضعه المزري وهو لا يدرك مصير الشقاء ، والتعب ، والحرقان ، والقلق الوجودي الذي يستشره بين الفينة والفينة . به يفكر ، وبه يشعر ، وحسب قنانيه يسير في عزلة أو مع الآخرين . إنه لا يرى سوى العمل الشاق الذي لا ولن يستريح ما دام يعمل حتى في أماكن الراحة .

عمله . يؤدي عن المتأخرين أعمالهم . فالكلام عن نجلته لا يقل عن الكلام عن قدرته » (ص ٣٧) .
وهنا يشير السارد وفق أحكام قيمة تعتمد معايير القدرة والعجز ، والمعرفة والجهل ، والتقنية والتفنية ، وقواعد السلوك الأخلاقية كالقدوم والتأخر ، والرموخ والتذبذب ، والمواظبة والتقاعد ، والكفاءة والعجز ، والحضور والغياب ، والعمل والراحة ، والاستقامة والشغب ، والانجاز والامهال ، العبادة وتركها : وتقدم في كل شيء - ورسخت قلعة في عمله - الكفاءة - الاستقامة - أول الحاضرين آخر الزاهيين - في أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلح الوزارة - يؤدي عمله - يؤدي من المتأخرين أعمالهم - نجلته - قدرته .

ويدمج في تصوره العمل بالعبادة للألوهية (عبد الله العروي) ، ولو لم يترك له فرصة للعبادة الحق ، بل لا داعي لها إذا كان العمل عبادة حسب الدلالة المعاشة لهذا القول : « - لا يخلو عمل الإنسان من عبادة » (ص ٣٨) .

وعثمان بيومي لا يعدد ولو موظفاً بل يعد خادماً للرؤساء بل عبداً لهم . والطرق المؤدية إلى المناصب « العليا » تنفتح حسب معايير الطول والقصر ، والأهمية والمضاغة ، والشرف والدناءة ، والفائدة والخسارة ، والتقدير والتحقير ، والخلمة والتمرد ، والأذعان والتموقف . والسارد يرفض هذه المعايير وهذا الخنوع المفرط الذي يسلب الشخصية كينونتها . ويشير خطاب بيومي الى ذلك .

لكل كلمة نقيض حتى كلمة نقيض ذاتها . اختر كلمتك ولا تدع الكلمة تتحرك أو تختار من خلا لك .

يمحي السارد عن بيومي قائلاً : « إنه يمتنئ لويكف كل يوم بعمل كهذا ، إن عمله في الإدارة - على ضخامته وتقدير الجميع له - لن يكفي وحده ، فلا أقل من تقديم

عن بيومي المؤدج وإن اختلفت الصيغ مما يمنح الخطاب الروائي تماسكه واتساقه . و (ذي الجلال) كتابة تشير إلى الإله الذي يتجسد في الفرد / الإله . ويجبرنا الراوي عن بيومي بصيغة المحكي الذاتي المجلوب المؤدج الذي يطغى في « حضرة المحترم » على المحكي الذاتي التلقائي المؤدج : « قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصير » (ص ٢٧) . طبعاً فوجهة النظر هذه تنسجم مع الخطاب المؤدج بل هي تفرغ آخر له وهي لا ترغب سوى في العمل المستمر الذي يشبه اللاعمل / البطالة لأن راحته لن تتحقق لا على المدى البعيد ولا على المدى القريب فتبقى الراحة هي اليوتوبيا والأسطورة المعاصرة التي تحتاج الى الطريق الذي يقسم وفق معيار أيديولوجي والذي يستند إلى قاعدة الطول والقصر ، والذي لا نهاية له لأنه ينسب إلى الإرادة الإلهية ، ولأنه يناسب حلم الدولة التي ترغب في أن تطول مدة حكمها ، وتستمر وراثة الحكم إلى ما لا نهاية بابتعاد الفكر والتفكير الذي سيستأمل : من يحكم ؟ في الماورائيات والأساطير ، وهكذا تقسو الشخصية المؤدجة على نفسها لأنها مغتربة عن ذاتها ، ومكونات وعيها ، وحاجاتها ، ولا تدرك العامل الاقتصادي المحدد للخطاب المؤدج والكامن وراء قلقها ، وحررتها . إنها تعمل / تموت في حين يجمعا منتجو الخطاب المؤدج لتبرير كسلهم ، وعدم إنتاجهم ، وراحتهم ، وتسرفهم ، ولذة عيشهم ، وفراغهم ، ومتعتهم ، وإقبالهم على الحياة اعتماداً على قوته المتجسدة في قوة عمله وقوة إنتاجه : « وتقدم في كل شيء ولكن عذابه لم يخف ، ورسخت قلعة في عمله حتى شهد له سفعان بسيروني - رغم إخضاعه معه - بالمواظبة والكفاءة والاستقامة وكان يقول عنه :

- أنه أول الحاضرين وآخر الزاهيين وفي أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلح الوزارة . وهو يؤدي

الخدمات للرؤساء ، وإشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة ، ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس إلى ما يطمح إليه . ولكنه عزاء يتزود به في طريقة الطويل « (ص ٥٩) - لن نتحدث من الآن فصاعدا عن التفرعات لأن كل خطاب هو تفرع لخطاب سابق حتى نهاية الرواية - لا نقف وجهة نظر بيومي عند هذا الحد ، بل نتعداه إلى مستوى اعتبار العمل مرادفاً للبطلية . ما البطلية ؟ .

إنها معيار تتجلى فيه التراتبية بين البطل واللا بطل في عصر الأيديولوجيا اللابطة . إن البطلية التي يقيّمها بقيمة تعود إلى معيار الحق والباطل ، هي التسابق ، والتنافس ، والتناحر على المناصب العمل كي لا نقف عجلة الآلة المنتجة واليد التي تسيروها ، ووسائل الانتاج المنتجة بشكل من الأشكال عن العمل بالأضراب عنه والذي يأتي كاجابة منطقية عن السؤال :

لن نعمل ؟

والذي يؤدي إلى توقف الانتاج ، والمقضي إلى انبهار هرم الربح ، وتقلص القروض ، وانحطاط الجاه ، واضعاف القوة ، وإزالة السلطة ، وأتسنة الآلهة ، وإطفاء الاستتارة ، ويتبدى تفكير الطبقة العاملة في الحركة في اتجاه الوعي الممكن ، ونتاج خطاب أيديولوجي بطل مبادئ للواقع المعيشي . إن الأيديولوجيا اللابطة تدفع بالفرد المؤدلج إلى الزهد في الحياة ، والنظر إليها من خلال الموت العاجل الذي لا يبعه ، ومن خلال الوعود بأن التعويض سيكون في العالم الآخر . والحصيلة هي الخيال للمهي عن المادي والواقعي الذي يحتاجه الفرد في هذا العالم .

حتى وعود العالم الآخر في الحقيقة والواقع هي وعود من أجل هذا العالم هناك علاقة جدلية بين العالمين . يمكن استبدال الإله بالجميع لأنه يثبت في « خطابه » على الاهتمام بالجميع .

وخير تعريف صادق يحدد هوية مثل هذه الشخصية المؤدلجة هو ما قالته عن نفسها كاذبة :

« إن الأيديولوجيا السائدة لا تكون صادقة إلا حينما تكشف عن كذبها الذي تعتبره صادقاً -

« ما أنا إلا نور معصوب العينين يدور في ساقية . . » (ص ٣٩ - ٣٢) .

« - لا خير في هذه هي الحقيقة . . » (ص ١٠٠) .

« - لا يفرك منظري فمضري ليس في القلب أو الصدر ولكنه يعوق تماماً عن الزواج » (ص ١٠٥) . وداعية الأيديولوجيا السليمة هذا يرفض إلى حد الحق واليأس ، بناء على قاعدة الإيمان والكفر الحقيقيين أو الزائفين ، الراحة حتى حينما يحرق به المرض أو يشرف على الهلاك كما يتضح ذلك من حوار مع الطبيب البطل الذي يتحدث نيابة عن السارد البطل معارضاً آراء بيومي المؤدلجة :

« - مادام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست لعباً . إنها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامي يخلق منها شيئاً آخر ، يلزمك راحة تامة ، شهر

على الأقل .

هف :

- شهر !

« - وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف ، لا مناقشة في ذلك البتة ، وسوف أزورك غدا . .

وجمع أدواته في حقيقته الصغيرة ومضى وهو يقول :

- احفظ كلامي عن ظهر قلب . .

وغادر الرجل الحجره وهو يتبعه نظرة مغبطة بالآسة » (ص ١٤٩) (. . .)

« ولكن الطبيب قال له :

- ما يعني هو صحتك لا وظيفتك !

(. . .)

المعجز (. . .) لا يزعم الثقة به - ولا المرض - ولا الموت نفسه - الاصرار على المضي نحوه - وجود النبل والمعنى في الحياة .

وما فعلته الأيديولوجيا السائدة في حربائها المغلوبة بالتاريخ تفعله بالأدب . إنها تجرده من وظيفته المعرفية ، والتعبيرية ، والتحريرية ، والفلسفية ، والعملية ، والاجتماعية ، والانسانية ، ومن مخالفتها لها واختلافه عنها ، ومفارقته ، ومنافضته لها واقتراحه عنها . فالكاتب « في ظل الأيديولوجيا المسيطرة من المكتبة ، من المنشئين ، ووسيلة من وسائل إنتاجها دون أن يعي ذلك أو يشعر به » ، ويصبح نتاجاً في علائق الإنتاج ، ويضعي ما كتبه أداة لترويج خطاها ، وسلعة كاسدة في سوقها الذي يحاول احتضان باقي الفنون غير المؤدجة . ويعرض الراوي هنا مستوى الشخصية المعرفي ، وقدرتها الجمالية في الكتابة وبين التي التأمّلج رؤيتها على هيكل الماضوية ، والسلفية : « واهتم بالشعر خاصة ، وحفظ الكثير ، بل حاول نظمه ولكنه فشل . قال إن الشعر كان وما يزال غير وسيلة للتقرب من الكبرياء ، والتألق في الحفلات الرسمية ، إنه لحسرة فادح أن يفشل في نظمه ، ولكنه على أي حال غير طريق لانتقان النثر ، والخطابة لا تقل عن الشعر في النجاح المنشود ، والأسلوب الجزل مطلوب ، قلبه يحذره بذلك ، واللغات الأجنبية مثله وأكثر . جميع تلك المصروف مفيضة ، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بسوطة المضاربات الديوانية » فليس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف « (ص ٢٣) . إن « معرفة » بيومي لا تنحصر في الشعر فحسب كعمرة ذاكرة كالرواية الذي يرافق الشاعر ، يحفظ عنه ما يقوله ويورده أو كالتنظيم الذي يتعلم عنده حس الإبداع ، والقدرة في الابتكار . ولخلق الشعر في غياب المواطن ، والاحساسات ، والانفعال النفسي المهرف الذي يحرك خوالج النفس

المؤمن الحقيقي لا يسعد بالصحة وحدها . .

— لم أسمع بذلك من قبل . . « (ص ١٥٧) .

إن الأيديولوجيا السائدة ضد العلم الذي يدرس الظاهرة وما يحقق استمرارها ويصارع ما يسعى في انهيارها ، وهي تنظر الى الظاهرة من زاوية عقائدية غير علمية . أما أيديولوجيا السارد المستقلة فهي تقرر العمل بالراحة ولو الراحة التي توافك الزمن الموضوعي ، والزمن الكوني ، والطبيعي ، وأن يفترق بالراتب الموفر والمحقق لراحة العمل ، وراحة الجسد ، وراحة حاجيات المرض ومقتضياته ، وراحة حاجيات العافية ، كما تريد من العمل أن يتوقف ، على الأقل ، وكمرة أولى ، حسب توقف النهار والليل ، والبرودة والحرارة تبعاً لطرفو المناخ التي تسمح بالعمل إن وجد . تعبر هذه الأيديولوجيا المستقلة عن نفسها من خلال وجهة نظر السارد : « إن النظام الفلكي لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفين منهم » (ص ١٠) .

ويومي لا يتناقض مع ذاته عبر طول الرواية . فطموحه كما حدثته له الأيديولوجية السائدة لا يتغير وإن تغير التعبير عنه ولا يتغير الطريق الذي رسمته له . فهو يصبر على المضي فيه : « وظل على أيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهد والعذاب ، بالأمل البعيد المتعالي . وقال إن المعجز أحياناً عن بلوغه لا يزعم الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام الاصرار على المضي نحوه هو المسؤول عن وجود النبل والمعنى في الحياة » (ص ١٥٨) . ويمكن هذا الخطاب المايير الأخلاقية المنحدرة عن تأدّج بيومي للتالي الذي يجهل في طموحاته الفردية طبيعة الجسد وواقعيته في حاجياته عبر مراحل العمر : إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة - الحياة الشاقة المقدسة - الجهد والمذاب - الأمل البعيد المتعالي -

إنساني ، ولا ينفصل في مضمونه عن الحياة ، والحرية
للسؤلة . وهو كلام مقدس كالإنسان وهو الصق به ،
بل هو الذي يميزه عن سائر الكائنات . فهو منه وإليه .
لا يرمي به عند قدم أي صنم أو إله .
لا تفضيل بين الأجناس الأدبية .

كلها تتيح للإنسان فرصة التعبير الحر عن قضايه ،
وحرية إبداع أشكال جديدة .

يتناول السارد عمل يسومي ، ومعرفته وتقنيته
الشكلية ، وركامه المعرفي الضيق . وينظر يسومي إلى كل
ذلك نظرتة إلى الأشياء المطلوبة وفق قواعد نغمية في
غياب المنفعة التي يشير إليها عمال الحجرة الضيق كمجاز
عن ضيق الشخصية النفسية والمعيشي والحياقي : « كان
يعمل بجنون في الوزارة ، ويتجر في المعرفة في حجرته
الصغيرة » (ص ٤٦) . إنه موظف محروم من الفضاء
الكافي سواء في الوزارة أو في منزله حيث يسبقه العمل
إليه ويسخر منه : « وللك راح يترجم للمصحف
والمجلات ليزيد من دخله ويزيد بالتالي من مدخراته .
ونجح في ذلك نجاحاً لا بأس به » (ص ٤٧) ، وعمل
الترجمة يخضع لمعيار يسومي في الزيادة والنقصان ،
والانضاق والإدخار ، والتجاذب والفشل والذي يقوم
بالجديد أو باللابأس به ، وتعتمد أوقلة القدرات وفق
معيار الاستطاعة والمعجز .

« أعتك على نجاحك الذي يقطع بتعدد قدراتك »
(ص ٥٠) لا تطابق بين الجهود البدن والمقابل المادي
للخمول . إن الأيديولوجيا المتحكمة هي العزاء الخيالي
الذي يتمظهر في اللغة . لا يستهلك يسومي كتعويض
عن القدرة الجمالية والأدبية الشكلية سوى الخطاب
المؤدلج منذ بداية حياته إلى نهايتها ، ذلك الخطاب
الذي يتغير أسلوبه ولخته وفق النظام المنسقي الدال على
أحكام القيمة المؤدلجة (بالفتح والكسر) التالية :

لاتصال الشاعر بالعالم وتناقضاته ، وإمساكه بقضايا
الناس ، ويستند ذلك عند يسومي إلى معايير المعرفة
والجهل ، والاهتمام والامهال ، والحفظ وعدم الحفظ ،
والقلة والكثرة ، والشعر والنظم ، والتجاذب والفشل :
أهتم بالشعر - حفظ منه الكثير - حاول نظمته ولكنه
فشل - ، ورؤيته إلى الشعر رؤية تقليدية تحدم
الأيديولوجيا السائدة تأسيساً على معايير الوسيلة أو علم
الوسيلة ، التقرب أو الابتعاد ، الكبرياء أو الصغراء ،
التألق أو عدم التألق ، الاحتفال أو عدمه ، الرسمي أو
العادي : إن الشعر كان وما يزال وسيلة للتقرب من
الكبرياء - التألق في الحفلات الرسمية ، بل عند حتى إلى
النثر . وهو يستفيد من الشعر ليسرع في النثر /
الخطابة . ومعرفته التقنية في الكتابة / الانشاء معرفة
تتأسس على معايير محافظة كالتألق واللون كما يتضح ذلك
من المصطلح التقني التقليدي : الأسلوب الجزل ،
ومعيار معرفة اللغة العربية والأجنبية ، والنغمية
والوصولية : إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب
من الكبرياء - جميع وتلك المعارف مفيدة - ترتفع قيمتها
في بورصة المضاربات الشهوانية . إن عثمان يسومي
امتداد للشاعر القديم البوق ، والداعية والمبشر ،
والمقلد ، والوصولي الذي فقد شخصيته ، وسلبت منه
كينونته وذابت في كينونة المملوح ، ولم يبق منه سوى
المظهر . ذهب الإنسان وبقي اللا إنسان الذي يتحرك
كآلة التي تخضع للتوجيه المسافي . إن الركام المعرفي
الماضوي لدى الشخصية المؤدلجة ينبع من / يصب كله
في الأيديولوجيا المتحكمة في النفسانيات ، فشلت الفكر
كما تشل المنكوب كل حشرة تدخل في مجال نسيجها ،
فنبتلعها . إنها تؤول بهذا الصنيع الوعي للممكن /
الحياة ، وتستعمل الوعي للمستحيل / الموت .

والأدب في مفهوم السارد في التراكم المعرفي الواسع
فن جميع الفنون ويمتصن عدة أجناس أدبية ، وهو

المراجعة يحدث له في إعداد مشروع الميزانية : « أما هو فتركس كل قواه لأعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة . وتجلت مقدرته في توزيع العمل وتنظيمه ، ومتابعة المعلومات المطلوبة من إدارة الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان . . وأعد للمشروع مقفلة مثالية حازت إعجاب المدير بصفة خاصة فتريع على قمة النصير اللين » (ص ٨٠) . إن هذا المقطع السريدي يعرض قلرة بيومي التقنية الادارية ، والتنظيمية ، والمعرفية ، والبيانية ، والكتانية ، في إصدار الفتاوي ، وتقوّه ، وانتصاوه لتجربته ، وخبرته الشفوعة بالعلم والمعرفة في الشؤون الادارية الحكومية وفق معايير النظام والفرض ، والدقة والملاحظة المابرة ، والكمال والنقص ، والخطأ والصواب ، والعلم والجهل ، والمثالية الواقعية ، والإعجاب والظفر ، والقصة والحضيض ، والانحصار والانزمام ، والخفاء والتجلى - ومع ذلك ينجح به الفلق الذي ينخر ما تبقي من قواه لأن الترقية بطيئة تعاكسها سرعة الموت التي يجعل جسده المتهوك بذربها القاتلة أكثر من أجساد غير المزدجن . لاعتبار بيومي وكأنه لا وجود له . إنه مشيا . قوة عمله هي التي تحظى بالاعتبار . يشيا ثم يحمل كشيء لا نفع فيه في مكان غير لائق به : « كل هذا يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة ، مع عمره المتقدم ، أهذا جزاء الجهد الحارق والتضاني الجليل ؟ ألم يعلموا بأنه انسان تلخص في خبرة مؤيدة بالعلم والعمل ؟ وأن مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاوه الرائلة في الادارة والمخازن والمشتريات لو جمعت في كتاب لكانت دائرة معارف في الشؤون الحكومية ؟ خبرة نيرة متزوية في وظيفة وكيل ثان للادارة كأنها مصباح كهربائي قوة خمسمائة شمعة ثبتت في جدار مرحاض زاوية بقرية (ص ١١٣) . والأحكام التقوية هنا تستند الى قاعدة الحارق والمألوف ، والتافه

١ - أبدي إعجابه : أبدي سعادة للمدير إعجابه بأسلوبك في الترجمة (ص ٥٨) .

٢ - عشان : « دعيت لالقاء محاضرة في جمعية الموظفين ، وقد سجلت نقاطها ، فها رأيك في أن تكتبها بأسلوبك الممتاز ؟ » (ص ٥٨ - ٥٩) .

٣ - جيد : « أسلوبك جيد » (ص ٦٤) .

٤ - مما تغبط عليه : « أما أسلوبك فمما تغبط عليه » (ص ٦٦) .

٥ - فذ حقا : يعني أن تراجع الأسلوب : أسلوبك فذ حقا . . (ص ٨١) .

٦ - مجرد ابتسامة يحظى بها : « وحطى - عند كل لقاء - بابتسامة لا يحظى بها القربون » (ص ٨١) . ولاغترار بيومي بالابتسامة كحظوة ، فإنه سيرضخ خائفا ، ذليلا ، قانعا ، مقموعا ، لاستغلال أكثر بشاعة وأكثر تأديبا وأدجلة .

أ - سيعمل على مراجعة أسلوب لا مضمون أو معنوي كتاب فضخم مستغرق في مدة شهر كامل .

ب - سيعزز بل سيعمل على تجديد الأيديولوجيا السائدة من وجهة نظر تاريخية ماضوية :

« هذه أصول ترجمة كتاب عن الحديدي اسماعيل ، ترجمتها في نصف عام ! نظر عثمان الى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

يعني أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقا .

تلقى التكليف بسعادة شاملة . وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة ، وفي شهر واحد أعده الى صاحب السعادة في صورة بيانية كاملة ، بلنك قدم الختمة التي تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة داتنا (ص ٨١) . وهكذا يفترب عنه عمله الذي قرره في ورقة عمل مشروع حياته المؤدج ، بعد أن مارسه وأنجزه ، واغترب هو أيضا عن عمله فضاحت مجهوداته كلها هباء . وما حدث له في

حتى الفلسفة تولونها الايديولوجيا الحبرائية المكمومة بلونها فتشجع فكرا وتهمل آخر ، وتعني بفلسفة وتهمل أخرى مسخرة في ذلك كل قواها المادية والبشرية حتى ولو كان هذا الفكر خاصا بمفكر واحد ، وهذه الفلسفة خاصة بفيلسوف واحد . حتى الكتب السماوية تلحقها انتقالياتها . إنها تشوه في قلبها الفلسفة التنشوية التي تمجد القوى الحقيقية لا القوى الضعيفة المستفيدة من القوى الحقيقية كي تجعل من ضعفها قوة ، وتستبدل عجزها بإرادة وقوة موحدة ، ومتكئة ، ومتضافرة ، ومتراصة ، وجماعية ، ونضالية . إن نيتشه لا يعتبر قوة الفرد قوة بل ضعفا إلى أن تنضم وتتضمن مع قوى الجماعة . يقول السارد عن فردانية بيومي حاصل لواء الايديولوجيا السليمة « انه يؤمن بأن الله خلق الانسان للقوة والمجد . الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لا يبلغ الا بالقوة والنضال » . (ص ٦٥ - ٦٦) . ان بيومي المؤدج يؤمن إيمانا مزدوجا .
أ - إيمانا غيبيا .
ب - إيمانا أسطوريا .

فالإيمان الأسطوري يتجلى في طموحه إلى القوة والمجد الزائفين لأنها فرديان ومستحيلان نظرا لهذه الفردية . فيسومي ليس في يده شيء كي يحافظ عليه سوى الخطاب الايديولوجي الذي ينظر إلى الحياة والمجد ، والمحافظة والاستمرار من معيار القوة والضعف ، والإيمان والكفر ، والفردوس والجحيم ، والنضال والانتهاز الفردي أو الجماعي .

والإيمان الغيبي ينسب إلى الله الخلق من أجل القوة والمجد . وما الحياة سوى جسر إلى الفردوس . وهذه وجهة نظر مؤدجة أيضا ما دامت تدافع عما تدافع عنه الايديولوجيا السليمة من غيبيات وأساطير ، وما تشجعه من ذاتية وأنانية في الفرد المؤدج الذي تغلو القوة في

والجليل ، والعلم والجهل ، والعمل والبطالة أو الكسل ، والعادي والرسمي ، والعامية والخاصة ، والريادة والتقليد ، والنير والمظلم كما يبدو ذلك من الصفات التي حشرها السارد في هذا المقطع .

ان الصورة الأدبية أكثر الأشكال الأدبية أدبية وتعبيرا عن أيديولوجيا السارد المستقلة .

والصورة الأدبية في هذا المقطع الساردية تجسم ، في تعددية وغنى وثرأه دلالاتها الخفية التي نحاول مقاربة بعضها ، ما يلي :

١ - التناقضات التي تسم مجتمع الايديولوجيا السائدة .

٢ - الضوء الذي يمكن أن يترسح فيه الأرجاء يوضع في مكان قد تبرزه شمعة واحدة ، هذا على مستوى المشبه به . أما على مستوى المشبه :

٣ - أن منتجي الايديولوجيا السائدة يستفيدون في صمت من معرفة غيرهم استفادة ناقصة لأن الطائفة المستفاد منها ليست في عملها المناسب لها كي تكون الاستفادة أكثر .

٤ - لا أحد يتلقى مكافأة مادية تناسب مجهوده .

٥ - الضياع مصير كل مؤدج .

وسئل بيومي يوما فاجاب بجليا معرفته وتقومها الدالة على معرفة تختص بسير الشخصيات الجاهزة في فردانياتها التي تنسجم مع فردانيته ، وباللغات كلغات المثلث منها هو الترجمة .

« ماذا نقرا ؟ »

« الأدب ، سير العظماء ، الانجليزية والفرنسية . »

« هل لك قدرة على الترجمة ؟ »

« إني أمضي أوقات فراغي في مطالعة القواميس . »

(ص ٤٥) .

الجنون هو الحرمان من الجنون .

يدل على ذلك المأساة التي تستعمرها الشخصية الاشكالية والتي تنبثق من التساؤلات التي جاءت في صيغة محكي ذاتي تطرح قضية تحديد ما بمصطلحات نقدية أكثر دقة . إذا اعتمدنا الجهاز المفاهيمي لدوريت كون قلنا انها صيغة محكي ذاتي مجلوب لأن الناقصة حددت مظهرها في صيغة « قال لنفسه » أو ما في معناها ولم تول الاهتمام هنا الا الى الشخصية التي ينقل عنها السارد خطابها الى القارئ . إنها قدمت الشخصية عن السارد دون أن تغفل . إنها تجاوزت البنيوية الجنينية برصد علاقة السارد بالشخصية ورصد مواقفها ولم تقتصر مثلها على علاقت الشخصيات وحدها . وقد سجلت أيضا التنافر والتناغم بين السارد والشخصية . وفي المقطع السري الذي منسوخه فلن نجد صيغة « قال لنفسه » التي يعرف بها المحكي الذاتي للمجلوب لأن السارد لا يجب عن الشخصية خطابها بقدر ما يسوق خطابه الذي يعبر عن وجهة نظره هو . إنها صيغة المحكي الذاتي المتنافر أو المونولوج التلقائي للسارد في مقابل المونولوج التلقائي للشخصية ، وهو الذي لم تطلق عليه دوريت هذا المصطلح . « وقال لنفسه إنه لا نجاة له الا بالجنون . الجنون وحده هو الذي يتسع للامان والكفر ، للمجد والحزني ، للحب والخذاع ، للصدق والكذب ، أما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة ؟ كيف يشم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه في الوحل ؟ (ص ١٥٦) . وهذا الجنون ، في نفسه للتناقض ، يشكل مع العقل وحدة والمقلانية المؤجلة أو الأيديولوجيا المعقلنة هي التي تراه بلا عقل في جنونها اللاعقلاني مع أنه جنون عقلاني . وكهيجلي متأخر ، يعتبر بيومي الوظيفة أساسا ودعامة في تشييد صرح الدولة للقدس وهي لا تتميز عن الآلة ، والعمل ، والحياة ، والموت في تصوره المؤجل : « ان

واقع الأمر في تصوره أمرا سهلا مع أنه ضعيف في وحدته وعزله ، ونفرده ، وأنه يخضع لقوة الخطاب الأيديولوجي المهيمن وسلطته . ان بيومي تيولوجي يمجّد العالم الآخر . انه العالم الدائم في نظره . وأن هذا العالم خلق من أجل ذلك . أما في فلسفة نيتشه الجدلّي فالعالم الآخر خلق من أجل هذا العالم . لا يبدل هذه الحياة . فإن كانت هنا حياة كانت هناك حياة . وإن وجد هنا جحيم وجد هناك جحيم .

الموت من أجل هذه الحياة حياة في هذه وفي تلك . تتحقق الحياة بآداة القوة الجماعية .

ان الضعيف المتدمج في قوة الجماعة قوي . والضعيف في عزله مهيا طلب القوة ضعيفا .

ان القوي إذا تحلّت عنه الجماعة ضعيف .

حول ضعفك الى قوة تتحول القوي الى ضعف . في الجماعة يتحول ضعفك الى قوة .

ان السارد يدرك ، كميشال فوكو ، خطورة سلطة الخطاب الأيديولوجي العقلاني على حرية الانسان الشعور الطبيعية ، والبيولوجية والسلوك الناتج عنها . إنها تجعل شخصيته معقدة ، ومضطربة ، وضعيفة الى حد التفسخ والامتلاص والانسانية . أنها تخسر انسانيتها الطبيعية واللاواعية والواقعية ، وتتعدّد نفسيته وتتشريح ، وتتمزق ، وتفقد التوازن والانسجام . وتجبردها هذه السلطة القمعية من بعد الحياة في تعدديتها ، وعذوبتها ، وجنونها ، وشغفها . وأي حياة يحياها السائر في ظلامية التادلج ؟ هل يجلبه الكهانة والحسرة ؟ يرحب السارد أيضا ، من زاوية فوكوية ، بالجنون كمرادف للحياة بكل ملذاتها دون أن تتجاوز ملذات الآخر . فالجنون هو الذي يحب الحياة غرابيتها وحقيقتها ، وجوهرها ، وجمالها ، التي يعجز العقل - في غياب اللاعقل - عن تحقيقها . والجنون هو الذي يلمر صروح ، الأحاديث والتناقضات وقلاعها .

ورمته يدهشة فأدرك أنها لا تدري مدى إيمانه ولا مضمونه .

قالت : إنه لمعنى جليد بالقياس الي ، ولكنني سمعت كثيراً أن روح الشعب من روح الله (ص ١٤٧) .

والموقف اللوكاشي - الماركسي هو موقف السارد الذي يؤمن إيماناً راسخاً في أن وعي الشعب الممكن والواقعي يظروفه المادية والفكرية الواقعية هو الذي سيقره ، من منظور مادي جليدي ، الى تغييرها بالموقف منها .

الشخصية في علاقتها بالشخصيات - الرجال :

إن السياسة لا تعدد ما من هوم بيومي المؤدج . انه لا يعتبرها علماً بل لغوا وسفطة وأولها ضائعة . إنه يتصور نفسه عماداً ، والتأديج أساس هذا التصور . إن الحيات مظهر والانتها كيوننة .

إن الأدلية تعميم للوعي وتعمير للفكر .

إن التأديج قد قلب بيومي . إن فكره فكر جليدي ، لاهوتي ، مثالي ، غير مادي وغير جليدي . في حديثه عن السياسيين يمد الخطاب المؤدج . لا رأي للشخصية المؤدجة . فوجهة نظرها في مجال السياسة هي وجهة نظر ذلك الخطاب انه تصور الخطاب للسياسيين وتصور بيومي فرع من تصور الخطاب . والسارد في سرده للخطاب المؤدج المتفرع عن الايديولوجيا السائدة يتعمق تمامها متناغماً بالشخصية أو يتنافر وإياها كما يتضح ذلك من صيغ الخطاب الثلاث الآتية :

١ - بضمير الغائب .

٢ - بالمؤنولوج التلقائي .

٣ - بالمحكي الذاتي المجلوب .

وهي صيغ متباينة تجعل تمامي السارد بالشخصية في مستويين مختلفين :

الدولة هي معبد الله . ويقدر اجتهدانها فيها تنقرر مكانتنا في الدنيا والآخرة (ص ١٦٩) . إنها الدولة التي تجسد الفكرة المطلقة الله الموجود - في نظره - في السياء اللامرية . إنها الفكرة المجردة من التناقض ، إنها تامة وكاملة ولا تنتظر النقيض . إنها نهاية الجدلية ونهاية الحياة . إنها الموت ما دامت الدولة تمثل روح الله على الأرض ولا يمثلها الشعب المتناضل .

ومن منظور لوكاشي - هيجلي أيضاً فإن بعض أفراد الشعب هم الذين يجسدون روح الله وليست الدولة . فلتفرد بإيمان دقيق وتامل عميق هذا الحوار الذي يمكن اعتباره بنية دالة لأنه يعبر عن الصراع النموذجي الذي تدور رحاه بين أيديولوجيتين يمكن اعتبار الأولى ، حسب المنهج الجدلي ، أطروحة والثانية نقيضها القريب جدا والمرحلي لأن الثانية تبدو كامتداد للاول ويشكلان معا التركيب الذي يستظر أو يسمى الى التحول الى النقيض الجديد . فاعتبار الدولة من روح الله لا يختلف اختلافا جليديا عن اعتبار بعض أفراد الشعب من روح الله . والنقيض الجديد هو أن يكون عدد أفراد الشعب الذين يشخصون « روح الله » كبيراً وفي مستوى تحقيق التغيير والتحويل وتعمير ثنائية الروح والجسد المثالية . ان الاختلاف اللوكاشي الهيجلي اختلاف ضروري ومرحلي ولو أن الهيجلية قائمة في كلا الاعتبارين ويدعمان معا الايديولوجيا المثالية السائدة . انها يعيدان خطباها السلطوي للأوسطر في رومانسية حاملة تقلب الحقائق الى أن يقض لها ماركس فيقيمها على حقيقتها فيتحول ، نتيجة لذلك ، منظور لوكاش الى منظور لوكاشي - ماركسي كنقيض جذري للهيجلية والهيجلين .

« الوظيفة حجر في بناء الدولة ، والدولة نعمة من روح الله مجسدة على الأرض !

وفعله هذا في أنسة الأيديولوجيا السيدة فعل من يأخذ بلورة فيتبع جميع تألقاتها اللاهائية فيسجل منها ما يراه كافيا لتوضيحها والغاء الاضواء على حقيقتها . انه يتبع الشخصية الأيديولوجيا السائدة في جميع مراحل حياتها الواقعية أو التي تروم بالواقع . « قال لنفسه ان الجنون منتشر أكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدعشه ، وهو يصير على عدم الاكتراث بها ، ويؤمن بأن للانسان طريقا واحدة ، وأن عليه أن يشقها وحيدا ومصميا بلا أحزاب ولا مظاهرات ، وأن الانسان الوحيد هو الخلق بالشعور بربه ، وبما يتطلبه في هذه الحياة ، وأن مجده يتحقق في تحبطه الواعي بين الخير والشر ، ومقاومته الموت حتى اللحظة الأخيرة . » (ص ٤٩) . إن يومي يتهم ، في تأدبجه ، ذوي العقول المستقلة والأوعية الحرة بالجنون كما اتهم بذلك الجماعات المشافية التي تخرج عن المألوف ، وتخرق الضوابط ، وتزيغ عن الملائيس وتسف التثاليث كلها . إن هذه الاحادية والثنائية في الرؤية إلى العالم والذات في فردانية مؤدجلة التي اختزلت ركائمه للمعنى وحصرته في نطاقها وفي دائرة فانطوت الذات على نفسها المؤدجلة . وهذه وجهة نظر السارد في الشخصية : « أجل انه منمنس دورا في الداخل ، في افكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز ، في الله ومجده الدنيوي المقدس وصراع الخير والشر والفساد ، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا » (ص ١٤٦) وتتمظهر أيديولوجيا السارد المستقلة نسبيا في أحكامه التقويمية على الشخصية . وترتكز هذه الأحكام على معايير الاتعاس والانثاق ، والداخل والخارج ، والافكار المحدودة والتي لا تخوم لها ، والخيالات الغريزية والمجردة التلمائية ، في الله والشیطان ، والمجد والخزي ، الدنيوي والأخروي ، والمقدس والمندس ، والخير والشر في صراعها وتصلحها ، والفساد والصالح ، والرؤية والعمى .

أ - في الحكي بضمير الغائب وبلونولوج الداخلي المطلوب يتم التناغم بين الشخصية والسارد .

ب - في الحكي ببلونولوج التلقائي الذي يتميز بالتساؤلات تستقل الشخصية بحديتها دون تدخل السارد رغم عدم وضع كلامها بين مزدوجتين . إنه الأسلوب الحر المباشر : « وفي أوقات الفراغ قربه اليه ، وأفضى اليه بخواطره حتى السياسة صارحة فيها برأيه وأحواله . ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الأعراض عن اهتمامه أو معالته بحياته البارد انزاعها (...) عجيبي استغراق الرجل في هذه الشؤون ، وأعجب منه استغراق زملائه النساء فيها . ماذا يشدهم اليها ؟ أليست لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟ ولكن قال لنفسه بأزده غير قليل إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محدد ، وإيمانهم الذي إيمان سطحي ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة ، ولا فيما خلقهم الله من أجله . وهكذا تبيد أفكارهم وأهمارهم في هو ومنسطة ، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل ، تستغلهم الأوهام ، ويمضي الزمان وهم لا يعملون » (ص ٢٥) . إذا كانت الشخصية المؤدجلة ذات الموقف الجليدي تعيد ببخاوية ساخرة الخطاب للودلج الساخر من السياسة والسياسيين تأسيسا على معايير الكفر والإيمان ، والمعرفة والجهل ، والعمق والسطح في الإيمان ، والتفكير وعدم التفكير ، والجند والعبث ، والقول والفسفسطة ، والعمل والكسل ، والحقيقة والوهم ، فإن السارد ، على النقيض من ذلك ، يتموقف هادما أحكام القيمة ، وكل ثنائية . فسا الحزب ، والاضراب ، والتموقف من الأحداث والأيديولوجيا السائدة سوى مفاهيم وعي ممكن وواقعي .

الرواية فعل .

الرواية تموقف .

يمسك نجيب محفوظ في « حضرة المحترم » على واقع الوظيفة العمل في ظل الأيديولوجيا القائمة ، وعلى واقع الفئة الاجتماعية المالكة لوسائل الإنتاج والمتجهة للخطاب الأيديولوجي القائم . والفئة المستغلة (بالفتح) تعتقد أنها منزلة لا تؤثر ولا تتأثر .

كل وجود مؤثر ومتأثر بوجود وعدم .

كل عايد يميني مؤدج .

لا وجود للاستقلال .

العزلة ، التفرد ، الحيد ، أوهم .

إن الفرد يسه النظام الاقتصادي المتوحى كما تمسه الأيديولوجيا المبررة لهذا النظام أو ذاك ولو كان في مغارة لو تحت مياه البحر .

إن المهرب من السياسة سياسة .

إذا لم تكن سياسة مضادة فلقد كانت وما تزال سياسة قائمة .

إن السياسة أيديولوجيا والأيديولوجيا سياسة .

« عرف الثورات ، ولكنه لم بعشها ولم يستجب لها . وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده إلى الميدان (. . .) واليوم يعرف لنفسه هدفاً ذنبوها والهيا في آن واحد لا علاقة له في تصوره بالأحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة » (ص ٢١ - ٢٢) . هذه وجهة نظر السارد في بيومي

الواهم والذي « يعرف » بل يجهل أن غايته لها علاقة بالسياسة والأيديولوجيا السائلة هي التي جعلته ينظر إليها من خلالها . وإيديولوجيا السارد المستقلة والمختلفة وراء هي للمشاركة في النضال ، والوعي بالانتباه ، واختياره ، دون أن يفرض عليه ، بحرية ، والتعوقف من الأحداث لانسانيته التي تمها حقوق الجميع وحرية في ممارسة إمكانياته ، وينوب الأنا في التحن . والحن ليس المالك لوسائل الإنتاج والمشتت للحن العريض الذي تقصده إلى أنوار متفرقة كانوا بيومي المنعزل في

فردانيته التي تقنات من ذاته كقدونية : « الاعتماد على النفس خير من مهاجمة الجميع . الله يأمرنا كأفراد ويمارسنا كأفراد ، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع » (ص ٧٨) . تتردد في هذا الخطاب المؤدج الأقوال المبتلة السائرة cliché :

الاعتماد على النفس - شق طريقك وسط الصخور غير من تسول صدقة من المجتمع - ووجهة نظر بيومي هذه تطفح بالثنائية بين الفرد والمجتمع واللاهوتية ، والفردانية : الله يأمرنا كأفراد ويمارسنا كأفراد الشيء الذي يبعده مسافات ومسافات عن وجهة نظر السارد الجليلية . الشخصية تقول « نعم » للأيديولوجيا السائلة والسارد يقول لها « لا » . ومفهوم السياسة عند الشخصية المؤدجة هو ما يحقق رغبتها الفردية العاجلة ، الجزئية ، والأنية ، والإصلاحية السطحية التي تشمل كل الميادين . وبيومي يريد أن يدرك بلا سياسة ما يدركه غيره لها كللتانصيب العليا : « حيلة الإذاعة الأخيرة ، الأسعار ، صراع الأجيال (. . .) وما يدري إلا وهم يتكلمون في السياسة ! صكت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطربة بمرموزها الرنانة : الحرية . الديمقراطية . الشعب . الجماهير الكادحة . المذاهب الثورية . التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد . .

وقال لنفسه إن الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك ؟ ! ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية ! حسن . . أي ثورة تضمن له الشفاعة وانتجاب الذرية وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدسة ؟ ! » (ص ١٥٤) .

أيمكن لسياسة مؤدجة أن تبحث عن سياسة ؟ أن بيومي يحكم على الصراعات السياسية وفقاً لمعيار الاضطراب والحدود ، والبررة والمهمس . إن الخطاب المؤدج يشوه في حبرانيته المغلوطة كل خطاب . إنه

الترقية أو خيالية « المدير العام » وهو منصب سيمى أو ميس : « لم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو حاد نيتيه بدافع حقيقي من عواطفه ولكن خوفا من أن يتهم بالجنود ، ولذلك كرهه ضميره وورعه الديني . ومضى في طريقه لا يرى شيئا . ورغبا عنه تركز تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام . » (ص ٦٢) . ان هذا الوصف الدقيق لنفسه يومي واحساساته وشعوره . وآماله ، ونوابه ، وسلوكه يكشف هواجس يومي المؤجلة والمؤسسة على معايير أخلاقية . وسلوكية ، وعقلانية ، وذاتية لملمها من خلال اللغة الموظفة في القطع السري ، نية وعدم نية الريبة ، دافع حقيقي أو زائف ، والعاطفة والعقل ، الخوف أو الشجاعة ، الجنود أو الاعتراف حضور أو غياب الضمير والورع الديني . ما الضمير ؟

بلغة يونج هو الأنا الجمعي . يلتفت هو الأنا المؤجل الذي يمارس الرقابة الشديدة على اللاوعي ، وهذه النية النفسية والذهنية التي يظهرها هذا السلوك حدثها البيولوجيا السائدة والوضعية الاقتصادية كما حدثت رغبته الملطخة بالدم : « ورغبا عنه تركز تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام » . إذا كان يومي يلهث وراء الدرجات فإن الغلاء يسبقه درجات . إذا كان يتمنى التقاعد والاحالة على العاش لسفاح الذي يدل لقبه « بنسوي » Pensionne على ذلك ، فإنه يتمنى حمزة الذي ينبغي أن يتجه كما يدل على ذلك لقبه « السويقي » Suivie أو Suivant من فصل suivre ، الموت . والسارد يلح بل أن يصح وتلك إحدى وظائف الأدب الكبرى : « أما في الوزارة فتدور الحديث طويلا حول المريض ومرضه ، قيل إن ضنط الدم تثير خطر ولا علاج ، وقيل إنه ربما اضطر حمزة بك إلى التقاعد أو التنحي على الأقل عن مهامه

يستخدم أيضا لغة الخطاب البيولوجي التقيض الصادر عن الأحزاب السياسية والمعارضة ليحبر بسهولة إلى أذهان المثقفين ليتأدلجوا وليقبلوا ، ولتجملوا ثلاث كوارث دفعة واحدة فوق كرامة التأدلج : الزيادة في الاسعار ، الزيادة في ساعات العمل ، تجميد الأجور . انه يراهن عليهم لا على المؤدلجين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة والذين ، اعتمادا عليهم ، لا تستجيب الدولة لمطالب النقابات المعارضة . ويبدو أيضا تأدلج يومي من تقيمه للصراعات السياسية تبعا لمعايير الأهمية والتفاهة ، والسعادة والشقاء ، والانسان والحيوان ، والأمل والياس ، والحقيقة والحلم ، والقوة والضعف ، والجهل والمعرفة ، والوحدة والاختلاط . « قطع تاله في مراعي التماسية يملقون الأمل على الاحلام لضغف نفوسهم وجهلهم بأن الوحدة عبادة » (ص ١٥٤) .

أناية ! ما الأناية ؟ كثيرا ما نمر بنا هذه البديعية ومع ذلك لا نترك دلائلها الحافة مثل الوحشية ، وإرادة القوة الفردية ، والمتسابق ، والتنافس ، والاجرام ، وإرادة القتل نية أو فعلا . النية تساوي الفعل . وحكم النية هو حكم الفعل . إذا نويت القتل فقد قتلت .

تعبير نية القتل عن ذاتها في الرواية في شكل مناجاة تلقائية بين النفس وذاتها لتأدلجها ، ولا يطلع عليها سوى السارد بحكم « الرؤية مع » التي تحول له التساوي ، والتطابق ، والتناغم مع الشخصية فضلا على تجربته الواسعة التي تسهل عليه التخييل ، والتصور ، والتفاد إلى نفسية الشخصية والتسلل إلى وعيها لاستجلاء خفاياها . إن يومي لأدلجته يتمنى - كي يحقق ملاحظه المستحيلة - الموت لأخيه الموظف ليحل محله ، وكي يعتلي كرسية لمصلحة شخصية تافهة هي

الذي يجعل فيه السارد بيومي في ظرف حرج كي يختار ، ويتخذ موقفا بطوليا ، ويتزوج ، ويحقق نصف حياته أو بعضها منها ، يحدث اللامتناهي إذ يفقد ، لتأديله ، الإرادة ، والحزم ، والإقدام ، واتخاذ القرار ، والشجاعة ، فيضمحل الفعل البطولي ، ويتلاشى موضوع الرغبة ، وتكبت الرغبة . لو اعتمدنا منبج جريجاس البنيوي الوظيفي العاملي لتبين لنا أن في « حضرة المحترم » ذاتا تحمل الأيديولوجيا السائدة فيها فتلمب دور المعاكس داخل الذات التي تغدو مزدوجة ، ويصبح الموضوع هو الجنس / الزواج / حب / علاقة / امرأة ، وهذا الموضوع ثنائي أيضا لانه يلعب دور للموضوع والمساعد في نفس الآن . أو تغدو الأيديولوجيا السائدة هي الذات والموضوع في نفس الوقت ، ذاتا ترغب في ذاتها . وهنا يتعلم بيومي . في عجز بيو-مي يستحوذ على موضوع الرغبة بطل يغيب عنا أن نعتبره في عداد الأبطال أو أن نترف له بالبطولة . هذا هو ما وقع فعلا لبيومي المؤدج مع الجيل الجديد غير المؤدج نسبيا مادام يحقق رغبته ، وإرادته بشجاعة متحدي الظروف ، ومرهبا بإيديولوجيا حرة جادة ، جاءه يوما حسين أفندي جميل وقد علم بعلاقته بأنسية رمضان :

« الحق أنه لولاك لتقلعت لحطبتها .

(.....)

— أنت شاب سيء الظن ، ماذا شاهدت ؟ ماذا شاهدت ؟ لماذا شاهدت يامسكين ؟ ولكن هكذا هم المحبون ، ظلما علمتها كاتبة من صليبي ، علاقة هي البراءة نفسها ، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدري ولا تقصد ! فقال الشاب ببراءة وحزن جليل :

— إني أعرف متى وكيف أكرم أحزاني وأحافظ على سمعة من أحبهم ! فقال وهو يتهد :

.. أحسنت .. أحسنت ..

الرئيسية . سمع تلك الأقوال باهتمام فحقق قلبه بسرور خفي تلقاه بسخط وقلق كالعادة ، ولكنه هيج أحلامه ومطامعه (ص ٦٩ - ٧٠) . وبعد فترة أصبح حمزة السويفي يعاني ولكن عاودته أزمة ضغط دم جديدة فعادت الوسواس ذاتها لتتفش كالجوارح كبذ عثمان بيومي فتقى للمدير أكثر مما تمناه للوكيل الأول : « وتؤكد لديه أن الوكيل والمدير أصغر منه سنا ، وأن الدرجات لن تحمل إلا بمعجزة مجهولة أو بوفاء عاجلة ، أو بمحادث يقع في الطريق » (ص : ١١٠) . ويأمل أن يصاب عبدالله وجدي بمرض الموت : « وجعل يقول لنفسه : عبدالله وجدي في حكم الشباب حقا ولكن عصر المعجزات قد عاد » .

ولكنه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها ! كان يرمق بدالة عبدالله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن بهمة في الطعام والشراب بارتياح خفي ، ويردد فيها بينه وبين نفسه :

— ما أكثر الأمراض التي يتعرض لها أمثاله ! (ص : ١٢٩) .

ثم يقتل نية موظفا مثله وهو حمزة السويفي : « وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للادارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتي إلا عن طريق حمزة السويفي ، بأن يرقى أو يجال على المعاش أو ... يموت !! » (ص / ٦٥) . والعبارة التي أكدناها « ثلاث نقط استثنائية » تسمى إلى أخلاقيات بيومي و « يموت » دالة على طموحه الاناني المجرم .

بطل أو لا بطل ؟

إن البطل في الرواية ليس ذاتيا هو الشخصية الرئيسية ، فالبطل في بعض الروايات شخصية ثانوية كرواية « حضرة المحترم » لتنجيب محفوظ . والبطولة درجات ، وأشكال تتغير بتغير الظروف والمواقف كمظاهر وتبقى البطولة هي هي وككيتونة . في الوقت

وحسن تصرفه وخلقه، ولم يرتع من باده الأمر إلى البكالوريا التي تميز بها وحده في المحفوظات، ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذي سيرفد درجات جليلة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة « الابتدائية » (ص : ٢٥) . إن اللغة هنا تعبير عن طغرس أخلاقية يتغير فيها الخطاب حسب تغير المتحاورين الذين يتضمعون لمعايير تعود إلى الرئيس والمرؤوس، والنشاط والحمل، والرسمي والمؤقت، والاعجاب، والانتكار، والاستقرار والحذر، والعبر والتسرد، والحسن والقبح من التصرف والخلق، والبكالوريا والابتدائية، والساوي والتميز، والمزيد والاكتفاء بالتعلم، والارتفاع والانخفاض، والدرجات الفدوية أو الجليلة، واليتم والأسرة .

وهذه رسالة إيلابية أو طلب يبحث إلى من « فوق » يومي حسب تراتبية السلم الإداري للجدد لتقسيم العمل / الاقتصاد / الأجرة ويمن عن قواعد إدارية صارمة مؤدجلة (بالكسر) تتحكم في رقاب الناس، وتفرض عليهم الأذعان لها صاغرين على مستوى الكتابة : « حضرة صاحب السعادة المدير العام . أتشرف بإيلاغ سعادتكم (.....) مسئلتها المهمة من عبقريه سعادتكم ، في ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه (.....)

وتفضلوا بإصاحب السعادة بقبول فائق الاحترام

عتمان بيومي

« كاتب الوارد بالمحفوظات » (ص : ٤١)

ويومي كما يدل عليه لقبه الإداري المؤلج كاتب الوارد للمحفوظات ، يخضع لمعايير الاحترام الأخلاقية كما تبدو في لغة الرسالة المؤدجلة : حضرة - صاحب السعادة - المدير العام - أتشرف - « كم » - عبقريه ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه - « واو الجماعة » - فائق الاحترام . وتصدر عن معايير الحضرة

ثم موجة من الأمسى يحتاجه :

سلكت سلوكا خليقا بالرجال . .

من شدة رد الفعل ، والشعور غير المتوقع بالنتيجة اضطربت معدته ففزاه إحساس بالغثان ، قال :

مثلك يستحق أن يسعد بمن يجب . (ص : ١٠٣) .

ويبدو التادلج في اللغة الأخلاقية : أسأت إلى سمعتها ، أو في التمييز بين المرأة والرجل : سلكت سلوكا خليقا بالرجال . فشمسية حسين جميل غير مزدوجة ولا معاكس يمترض سبيله . لا يعتبر بيومي معاكسا مادامت رغبته في التخلص من الفتنة .

التراتبية :

تعني التراتبية أن الموظفين / العمال ، وأرباب الوظائف والمعامل وأن العمل مفتت ويستتبع نعتيت العمال ، الموظفين وغيرهم إلى مستويات ، ودرجات ، وملازم ، ومراتب ، ومناصب ، ومكاتب ، وكراسي ، وألقاب تلبد لكل فرد مستواه في عمله / وظيفته أو مهنته أو حرفته لخلق التنافس والتناحر لجلب اليد العاملة وإغرائها . وهذا التقسيم التراتبي توابه اللغة المؤدجلة التي تركز على الثنائيات ، وتخضع التصنيفية للتراتبية في جميع مرافق الحياة . فمند عنوان « حضرة المحترم » نترك أن اللقب الذي يحمله عنوان الرواية دال على أن الناس مصنوفون وفق تراتبية إلى محترمين وغير محترمين حسب معيار « كيار » و « صغار » : « ما عجب اقتتال رجال الدولة الكبار واتباعهم » (ص : ٢١) وتشير هذه العبارة إلى غياب النساء في الدولة . إنها دولة رجال لا دولة نساء ورجال . وتتجل التراتبية أيضا في أن هناك رؤساء واتباعا ولا سبيا في اللقبة / الألقاب ، والشهادات ، والمستويات المعرفية التي يمكن أن تزول بزوال الدولة : « كان سحافان بيسيوني رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمي بإعجاب وحذر . أعجب بجلده

والغبية ، وأصحاب السعادة أو الشقاء ، المدير العام والحخاص ، حصول الشرف وعدم حصوله ، كم وكم ،

العقوبة والبلادة ، الظل والنور ، السيد والعبد ، الملك والفقير ، التنظيم والتحقير الحفظ والضياع ، دوام الملك أو انقضاءه ، ضمير الفرد أو الجماعة ، الاحترام ، والاحتراف ، الفائق أو السافل ، يقول السارد في خطاب آخر يؤكد التراتبية : « وسيلور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يمرض أولاً على رئيسه المباشر سعلان بسيوني ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الادارة حمزة السويفي (. . . .) وبعد ذلك يعرض على حمزة السويفي ليوقع بمرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام (. . . .) ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لاجراء اللازم (ص : ٤١) ، (٤٢) إذا كانت الابتدائية تقابل البكالوريا ، فلن البكالوريا تقابل أيضا التجارة المتوسطة - جميعهم من حملة البكالوريا !

فأجاب حمزة السويفي :

- بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .

- العالم يتقدم ، كل شيء يتغير . ها هي البكالوريا تحل محل الابتدائية . (ص : ٦) .

حتى الاطفال يصنفون حسب تراتبية تتناول قدراتهم العقلية التي لم يختاروها وإنما صنعوا وفقها كما صنعت المدارس :

- « الولد ذكي وربما رأته يوما من رجال الحكومة . عليك بمدارس الأوقاف قريبا قبل بالمجان » (ص : ١٣) .

والأمهات المؤدجات يقلن هذا التصنيف وينسبته للاله ويخبرن طموحن مرتبا :

و وضاعت الأم من نشاطها مؤمنة أن يجعل الله من

بالشارب :

« - تلميذ ١٩ . . ولماذا ترى شاربك ؟

- موظف وتلميذ في مدرسة ليلية » (ص : ٣٩) .
ويتوضح بيومي بين الاغنياء والفقراء ، بين المتنازين والمنحطين ، بين الكبار والصغار ، بين الاحزاب الموالية والمعارضة ، بين الجاد والهازل ، بين المتمتع والقواد ، بين الدولة والشعب ، بين السعادة والتعاسة ، بين السباه والأرض ، بين المسلح والأعزل ، بين الترقب والغافل ، بين الحكمة والجهل ، بين الراغب والزاهد في الشيء ، بين العامل والحامل ، بين المؤمن والملاح ، بين السقوط والارتفاع ، بين الاسرة الكبيرة والصغيرة ، بين المساندة والمعاكسة ، بين قوة والضعف الحزبي :

« إنه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع بامتيازات الاسرة الكبيرة ، ولا قوة حزبية تسند . وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد ، أو القواد ، إنه واحد من أبناء الشعب النعيس الذي عليه أن يتزود بكل سلاح ، ويحتج كل فرصة ، ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الأبدية التي قضت على الانسان بالسقوط في الأرض ليرتفع بمرقه ودمه مرة أخرى إلى السباه » . (ص : ٤٢) ، بين الذين يعتمدون على أنفسهم وبين أصحاب الوسايط « لأهل الوسايط » (ص : ٤٣) . وهذه تراتبية الحكومة والسياسة التي تمر منها الميزانية كعمل خطير في مقابل عمل تافه : « والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة ، ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة ،

القانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ في اللغات» (ص: ١١٠) . إنه ينظر إليهم من زاوية الثقة وعدمها ، الأولى والأخيرة ، والحجة وعدمها ، معرفة أو جهل القانون والاقتصاد ، والثقافة العامة والخاصة ، والضيق (أو علمه) الراسخ أو المتذبذب في اللغات . إن التراتبية كميلا ، تراعي الشهادة والكفاءة فحسب للوصول إلى الوظيفة الحساسة بل أيضا المكانة الاجتماعية حسب الأيدولوجيا الأخلاقية : « - لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عن الاختيار لها ولكن يضاف إليها المكانة الاجتماعية » (ص: ١٦٨) .

هذا أو أكثر هو ما يجلد في مجتمع مؤلج حيث تسود المحسوبية والوصولية والميل بين الناس الذين يتفقون في المساهمة في الاقتصاد بالعمل ، ويتساوون في الحاجيات ، ويختلفون في الحقوق والواجبات ، كما يشيع فيه وجود أحزاب مؤجلة استغلائية : « - أعرف ما يقال ، ولا أنكره ، الوساطة .. الغرابة .. الحزبية كل أولئك وما هو أشنع ، ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك ، حتى أصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجلدون أنفسهم في حاجة إلى من يغطي عجزهم من الأكفاء الحقيقيين » (ص: ١٣٦) . وترقى بيومي ، وهو في فراش الموت ، إلى مدير عام ، حلعه المقدس حيث يتجسد روح الله - في نظره - تبعا للرؤية المثالية المؤجلة الخافضة للتراتبية السائدة والمقررة الناس إلى بشر وغير بشر إلى حد أنه تخيل أنه في نفس مرتبة الفسرد/ الآله وأنه يمارس السلطة . إنه يتعمص الشخصية الأخرى . إنه حرياء . إنه مظهر كينونة . إنه طيف وجود بل علم وجود . يعد نفسه من أصحاب القوة ، وأصحاب السعادة الفائزين ، مالكي الحجر الزرقاء/ السباد/ الآله/ المثل العليا ، ويبدد الحل والعقد ، وأنه من « أولي الأمر » ، وأنه نبي في مقابل البشر العاديين الذين لا يملكون حجرة في لون التراب ،

(ص: ٤٣) . وإذا أراد بيومي تغيير الوظيفة فإنه يخضع لمعاييرها التقنية بين الوظيفة ذات المرتب الثابت والرتب المتحرك ، والأطوار العام والخاص : « ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام فهل فكرت في ذلك ؟ » (ص: ٥٠) . وتقسيم الراتب تابع لتقسيم العمل وقد يشغل الفرد عدة وظائف براتب واحد وذلك لاستغلال الطاقات والحد من التوظيف . وتخضع الترقية لتقسيم الزمن : « تقررت ترفيتك إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيتها . ورغم تضحيتك بعشرة جنيتها إلا أنه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات ، فضلا عن الأهمية التي اقتصص بها بعمله المزدوج » (ص: ٥١) . والأمل ينقسم إلى منشود وغير مرغوب فيه ، والأول والأخير والناس إلى عاصيين واطع ، والمجد والبلادة ، العظيم والمتبذل : « هي أملهم المنشود والأخير وبخاصة الأفاضل منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم » (ص: ٥٢) . إن التراتبية تشمل حتى الوكلاء والمديرين : « في طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل إدارة آخر ثنائية ومدير إدارة أولى » (ص: ٨٢) . وينظر إليهم بيومي بنظرة مؤجلة ومن منظور ينطلق من معيار الصداقة والعداوة ، والظهور والندس ، واللينة والقساوة : « جميعهم أصدقاء - أعداء لما تقتضي به إرادة الحياة الظاهرة القاسية » (ص: ٨٢) ، والمحسوبية مبنية على تراتبية أخرى ترجع إلى قاعدة الانتباه إلى الأسرة وعدم الانتباه ، والقرابة والغرابة : « إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل » (ص: ١١٠) ، « - لا .. لا ، إنه قريب الوزير ! » (ص: ١١٦) . ويحدد التراتبية سلوك بيومي إزاء الآخرين : « وجلس في الإدارة كوكيل ثان ولكنه شعر باستملاء على من حوله ، ويأنه أهل للغة الأولى ، ويأنه الحجة في الإدارة واللوائح والميزانية فضلا عن حراسة

- أريد عروسا من أسرة كريمة .

(.....)

- عندك المعلم حسنة صاحب المطنح البلدي .
فقاطعها بنفاز صبر :

- لا تفكري في حين ، عليك بالامر الكريمة . .
تقصد ... ؟

- الأعيان . كبار الموظفين . . أصحاب السلطة «
(ص : ٦٧ - ٦٨) .

إن يسومي يبحث عن المرأة/ الشيء لا المرأة
الانسان ، المرأة « المناسبة » تحت معيار المناسب وغير
المناسب . والسارد يصدر عن أيديولوجيا رافضة
للإيديولوجيا البراجماتية . والدليل على ذلك وضعه كلمة
- مناسبة - بين مزدوجين دلالة على رفضه الطبقة والميز
والفرقة والتصنيفية وفق تراتبية مصطنعة ، وتشيع
للرأى/ الانسان ذلك أن « تفكير » يومي يخضع لمعيار
الصمود والنزول ، من الطبقة القديمة الى الطبقة
الجديدة ، والثبات والتحول ، والتخلف والتقدم ،
والوضاعة والشرف ، والقشل والنجاح : « وثمة خيبة
أخرى عاناها في تردده على بيت المدير ، فقد حلم بأن
يجد هناك عروسا « مناسبة » ومن يعلم ؟ وحلم أيضا بأن
خلفاته قد تشفع له عند حمزة بك السوفي فيفضي عن
وضاعة أصله ، ويقلبه في طبقة جديدة تمهد السبيل الى
التقدم » (ص : ٥٣) .

إن اللابطولة وليدة التآكل وتبدو في هروب يومي من
السياسة هروبا رومانسيا ويعتبرها ثرثرة في حين تعتبرها
بطلة شابة ذات أيديولوجيا نقبض حياة :

- « لا تحذثني عن الصراعات السياسية . .

- ولكنها الحياة الحقيقية .

- ما هي إلا صخب زائف .

- الدنيا من حولنا . . .

فقاطعها بنفاز صبر :

والمفذين للأوامر ، المطيعين الأشقياء ، والضعفاء ،
القاشلين ، المتصقين بالأرض وفق التراتبية والميز
والفرقة بين الناس : « تلوق في هدوء نجاهه . إنه
صاحب السعادة ، مالك الحجر الزرقاء ، مرجع
الفتاوى والأوامر الادارية ، ملهم التوجيهات الرشيدة
للدارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعيد من عباد
الله القاديين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
(.....) وقال نفسه :

- متم نعمتك علي يارب يوم تمكثني من القيام
بممارسة السلطان وإعلاء شأنك في الأرض » (ص :
١٥٧) . لقد توحد بيومي بالاله ، والسلطان ، والنبي
والملك ، وأولي الأمر . لم يفارقه تأدليه . إذا كان منذ
بداية الرواية يسعى إلى القوة والحكم ، والسلطة تقليدا
للالة/ الفرد فإنه الآن هو الاله الفرد أو الفرد/ الاله .
ولن نعيد الحديث عن قدراته وإمكاناته المصيرية
والتقنية . ماذا صنعت به الأيديولوجيا السائدة ؟ متنبيا
أو نبيا ؟

يومي وعلاقاته بالخصائص/ النساء :

إن الانسان امرأة أو رجلا يصنف ترتيبا بالدرجات ،
والاقسام ، والألقاب ، والسلام ، والمؤهلات :
« - أهلا بك من أي قسم ؟
- المستخدمين .

- عظيم ، وما مؤهلاتك ؟

- ليسانس آداب قسم التاريخ » (ص : ١٣٤) .
ويومي يميز هؤلاته بين حارة وحارة : وحي وحي ،
وأسرة وأخرى من زاوية الفقر والغنى ، بين العامة
والأعيان ، بين كبار الموظفين وصغارهم بين أصحاب
السلطة ومن لا سلطة لهم :

« - ابدي فكرك عن حارتنا ، عن حيثنا كله .

(.....)

وأشكالها ، وألوانها ، وأذواقها ، وأصواتها ، وموادها تبرز في هذه اللغة : انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه - وجه مستدير - لونه قمحي - ملاحظة ملحوظة مغلقة بغموض وأشواق - ساعدها السوية البضة - كأنها هي التي تنفت رائحة التعانق - وتعاني المرأة من هذه الأحكام التقيوية أكثر من الرجل الشيء الذي يدفعها إلى اقتنائها غروب التجميل . ومصر تلك المرأة هو البيت / الظلام الحسي والمعنوي انطلاقاً من معايير أخلاقية بالية في المجتمع الأبوي المؤدلج للقاص والكاتب الذي يشي المرأة ويسلمها فتصنم في الزمان والمكان ، وتحط ، وتحرم حتى من الحركة والابتسام التي تخضر على شفوي بنت سحفاً ، وهي أدنى حركة تولد مع الإنسان ، وتتاح للرجل دون المرأة كالنظر كما يبدو ذلك في هذه الوحدة السردية : وقفت دقيقة ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتساماً كانت تغلت منها حياة وارتباكاً . ثم قول الراوي : وساد صمت كأنه الشعور بالآثم - قال « كان » هذه لا وظيفة لها هنا لأنه فعلاً يوجد الشعور بالآثم الذي يحسه كل رجل دين مؤدلج في كل العصور . وهنا في المقطع السردية فالشخصيات المؤدجة كبيومي ، وسحفاً بيسيوي والبت ، هي التي أحست بالآثم حيناً خرقت المعايير الأخلاقية ، والمواضعات الاجتماعية انصياعاً للطبيعة البشرية ، تعاودهم العقلانية ويستبد بهم الشعور بالذنب ، والحسرة ، والتندم على « ما اجتروحه » . إن عشان بيومي كان ينظر ويميد النظر إلى الفتاة فندم على ما ظفر منه . إنها جريمة جحيمية . وسحفاً الذي يسفنه ويساعده في الزواج لم يطرح هذه القضية على بيومي فبل استغفاته ، ولم يصارحه برغبته في تزويجه فتاته . ولكن معيار الكرامة والذناعة الأخلاقي الذي يميز بين الفاضل والقواد (القواد في مجتمع بيومي المؤدلج مدان كالمعاهرة لجهل أو تجاهل ظروفيها

الدنيا الحقيقية في أعماق القلب » (ص : ١٤٧) . وذات يوم استضاف سحفاً بيسيوي وقدم له ابتسه بطريقة غير مباشرة وهو سلوك جعل الصراحة متعلمة لغلبة الأيديولوجيا الأخلاقية على العلاقات الاجتماعية . وعندما شرع السارد في وصف الفتاة وبيومي والأب من زاوية « السريية مع » تجلت الأيديولوجيا المفرقة بين الناس والاجناس في أحكام القيمة التي ينعت بها الناس بعضهم بعضاً . إن المؤدلج ينظر إلى المرأة من معيار الصورة والشكل ، ومعيار الجمال والقبح كما تفعل به المرأة المؤدجة ، وكما يفعل الإنسان بأخيه . يقول الراوي : « وظهر في مدخل الشرفة شبح . فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاي المنعنع . انعكس الضوء القاصب وراءها ، وجه مستدير ، لونه قمحي ، وثمة ملاحظة ملحوظة مغلقة بغموض وأشواق يساوره قلق . وهو عيل قليلاً ليتناول قذح الشاي رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هي التي تنفت رائحة التعانق . وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتساماً كانت تغلت منها حياة وارتباكاً . وساد صمت كأنه الشعور بالآثم ، وتشيع الجو بروج المؤامرة ، وتضاعف قلقه . قال سحفاً : ابنتي . .

هز رأسه إهرايماً عن الاحترام :

« حصلت على الإبدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة .

« واصل هز رأسه في تقدير وأعجاب ، ترامت إليهما أصوات الجوقة وهي تفي التوشيح . ومضى سحفاً قاتلاً :

« الليث هو المدرسة الحقيقية للبت . .

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح في حياتها الحرة » (ص : ٢٨) .

فالأوصاف النابضة من معيار الجمال والقبح ،

يشكل مرآة تنعكس عليها صورة الآخر . ومن معيار المنوع والمباح ، والجمال والقيح ، والصغر والكبر في السن يحكم على المرأة : « ووثقت الأيام علاقته بفنائه تماثله في السن تسمى نفسها قدرية ، جذبته بسمرة غامقة - مثل سيدة - ولكنها أعمق في زنجيتها ويدايتها ولم تكن مفرقة في البدانة » (ص : ٣٨) وقدرية هي قدر بيومي الذي يؤمن بأل قدر : « سمع المهمة مرة أخرى ، وسمع صوت القدر » (ص ٦) . ولكن لماذا ينظر الى لون الانسان . أهو الميز المنصري ؟ إنه يقيم قدرية اعتمادا على معايير عقلانية ، إن أفكاره المؤجلة تقف حاجزا بينه وبين إدراك أن كليهما في حاجة الى الآخر أو يدركه ولكنها تصده بصورة أو بأخرى عن ممارسة حاجته الطبيعية : « قال لنفسه أنها مجنونة بلا شك ، وللملك فهي بغي . ولكنها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقة ، ووهبته عزاء لا بأس به » (ص : ٤٨) . وتستند عقلانيته الى معايير العقل والجنون ، والزواج والبغي ، والحداب والترفيه ، والقلق والعزاء ، - أنها مجنونة - فهي بغي - كانت الترفيه الوحيد - وهبته عزاء لا بأس به - وما أن الجنس يحرم كباقي الحقوق فإن بيومي يزود قدرية ليلا خشية الرقباء ولا رقباء أحيانا سوى الا يندولوجيا الاخلاقية : ذو دين وحلق - المحافظة على السمعة الطيبة وهي في صيغة القول السائر 3/4 cliché ولكن قدرية من هذه الناحية بطله . أنها لا تخشى أي شيء . أنها غير مؤجلة نسيان لعدم نفاذ الخطاب المؤجل الى فكرها . أنها تمجد الطبيعة في بدايتها ونفالتها . أنها تعيش من جسدها ، وتحقق الاشباع الجنسي للآخرين ولنفسها مع من تحب . تلك مهنتها التي تستحق الاحبار في عالم المصادفة . ولاجل ذلك فهي ثائرة بشكل عفوي على المعايير الاخلاقية في عالم لا أخلاقي في الحقيقة والواقع . إنه عالم منحط ومتدهور في الكينونة والجوهر . وعثمان بيومي الذي

الاقتصادية والاجتماعية والنفسية) أجمعه عن ذلك « حفاظا على سمعته » ولكن الفتاة في حاجة الى عريس ففضل « أن يعرض سلعته » في تكتم وصمت ربما كان لها تأثير ما على الزبون في سوق الكساد : البيت هو المدرسة ، فأحس أنه تأمر على بيومي فاعتراه الشعور بالذنب .

يشي بيومي سيلة : « انها الجوهره الوحيدة في حياتي » (ص : ٣٧) ، وتشبهه هي أيضا . ما كان ينبغي لها أن تنزل عن حجبها لما وتجره لمجرد إدراكها رغبته عن الزواج رغبة في « المذهب السلمي » يقص عنها الراوي قائلا : « ولكنها لاتاق ولن تأتي . قطعت ولملها نسيته . وإذا خطر ببالها لمتها بما يستحق . ويوما مر تحت نافلتها في العاصري فخيّل إليه أن رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء لتتبرد ، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت بانتمتزاز وعجلة (. . .) وصاندها صباح الجمعة في الخيمة بصحبة أمها . تلاقحت عيناها لحظة ثم حولتها عنه في غير مبالاة . لم تلتفت وراءها . تجمل له معنى من معاني الموت (ص : ٣٩) . هذا السلوك الصادر عن سيلة يدل على أنها أرادت أن تمتلكه كشيء . ولشعورها بالضعف وأرادة القوة رغبته في أن يكون عثمان / الرجل / القوة / السلطة / المال بجانبها و عثمان في إرادة القوة الفردية يهرب أيضا من الضعف / المرأة / الفقر رغبة في صاحب السعادة / مدير عام / قوة / سلطة / مال / الله . كانت سيلة لاتعتمد من الرجال ولا تعمد نفسها من النساء انطلاقا من معيار الزواج التي يكون بها الرجل رجلا والمرأة إمراة ، والطلاق أو عدم الزواج الذي يقلب كل شيء الى ضده . ولكن ماذا قدمت له سيلة من مساعدة ؟ هل جعلته يمي وضعه ؟ إنما لاتستطيع ذلك مادامت مؤجلة مثله . والا يندولوجيا السيلة تكسر هذه الثنائيات . أيذل اسم « سيلة » على شيء من ذلك ؟ فكل منها

ماذا نقول ؟ إننا لانفهم شيئا . وقال معتبرا :
 - لا يجوز أن يراني أحد . .
 - هل ترتكب جريمة ؟
 - الناس .
 - أنت الثور الذي يحمل الأرض على قرنه . .
 إنه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها .
 وقالت له بإغراء :
 - ممكن أن تحتكرني ليلة كاملة ، يمكن الاتفاق على ذلك . .
 فسألهما بحذر :
 - والتمن ؟
 - خسون قرشا . .
 وفكر باهتمام . سيهبه ذلك راحة حقيقية ولكن
 الثمن فادح . إنه في حاجة إلى الراحة . قال :
 - فكرة طيبة ولكن مرة في الشهر . . .
 - هل تكفي بكرة واحدة في الشهر . . .
 - ربما أجيء غيرها ولكن بالطريقة العادية . .
 (. . .) وهي تعيش بلا حب ولا مجد ، وكأنها
 نژاخي الشيطان في غضبها . وكم غاظه أن تعترف له
 مرة بأنها اشتركت في مظاهرة فحطف عمتما . .
 - مظاهرة ؟
 - مالك ! نعم مظاهرة . . حتى هذا الدرب أحب
 الوطن يوما . .

قال إن الجنون منتشر أكثر مما تصوّر (ص ٤٨ - ٤٩)
 إنه يحكم على قدرته من معيار الفهم وعلم الفهم .
 وتحكم عليه بمعيار الإنسان والثور . إنها تعرض ذاتها
 للاحتكار (مصطلح اقتصادي وأسماي ليبيرا لي
 تجاري) كسلعة لها ثمن : خسون قرشا . لن يشبع
 رغبته الجنسية سوى مرة في الشهر نظرا لارتفاع السعر .
 ويقيمها وفق معاير الحب والكراهية : والمجد
 والخزي ، والله والشيطان ، المقاومة والاستسلام ،

يغلب عنده زمن العمل على زمن الراحة عاجز عن
 ممارسة الجنس / الزواج أضف إلى ذلك أجرته الضئيلة
 والتي لا تسمح بالاتفاق على قدرية راحته الوحيدة في
 أقصر أوقاتها ولذلك يؤجل رغبته / راحته / حياته /
 معتنه إلى آخر الشهر ، ويكتب نفسه كإيدئولرجيا
 تعبير السارد الذي يصيبه أحيانا رذاذ الإيدئولرجيا
 السيلسة فيسكت عن ذكر الجنس ويكتفي عنه بكلمات
 أخرى فيؤاويه . قدرية لا تعدد الجنس جريمة ، ولكن
 السارد يسيطر على هذه الشخصية فلا يدعها تعبر بحرية
 وجنون عن الجنس كي تكسر قيود التلدج الأخلاقي ،
 وكي تكتمل صورتها وتبلغ حدا من الانسجام بين أفعالها
 وأقوالها التي أوجزها السارد بصرامة منطق وعقلانيته
 المفرطة ، إنها شخصية قد أطفأ الراوي وهجها فجرد
 النص الروائي من معتنه ، ولذته وإقناعه . لا يكفي ما
 ذكره عن تمرداها ، وثورتها ، وماضيتها الضالّي : لقد
 شاركت في مظاهرة وطنية ضد الانجليز . إنها جديرة
 بعناية السارد وتستحق التكريم منه قبل المجتمع . إذا لم
 ينصفها المجتمع فالسارد أحق بأنصافها . ينبغي أن
 تأخذ بطولتها كل أبعادها النفسية . إنها قميئة بأن تجري
 عليها الدولة راتبا شهريا وأن يضرب لها تمثال في شارع
 كبير . إنها غير مشوشة عن جهلها ونسكها ببعض
 الحرافات .

يتهم بالجنون ، والسحر ، والشغب ، كل بطل
 استشعر عن وعي أو الوعي ضرورة ممارسة حرته ،
 ويلقب بالشيطان .

لنقرأ هذا الحوول الدال الذي يمتزج بالمونولوج
 الداخلي التلقائي .

ألا تحب أن تمضي صبح الجمعة معا في نزهة ؟
 فدهش وقال :

- إن أجبك كاللص متخفيا في الظلام . .

- مم تخاف ؟

والعمل والجنون ، حتى الزواج ينظر اليه بيومي من أخلاقية : الزواج نصف الدين ويفاضل بينه وبين المنشود ، أو من منظار الأقوال السائرة : إنجاب الذرية . إن الرؤية إلى العالم ميتغرافية .

إنه يشيء المرأة ويتخذ منها يرقى به إلى ما يصبو اليه من منظار يرا جاني نفعي طويلاوي : « متى يكمل نصف دينه ؟ قبل بلوغ الأمل أم بعده ؟ يجب أن يكون أسرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة . فأما العروس التي ترفع إلى العلا الذي يحظى بالعروس الباهر (ص : ٥٣) . لن تحظى المرأة بالعلا بالقدر العلا بها . وليس بيومي هو الذي سيحظى بالعروس أو تحظى هي به . وهكذا يعلم بيومي حظين في سبيل المستحيل الذي لا وجود له سوى في الخطأب الايديولوجي السراب .

مفهوم المرأة عند المؤلدج أنها وسيلة إلى غاية .

« ولكن أي فائسة كان يرجوها من الزواج من كرمته ؟ لا شيء إلا الذرية والمتاع والفقر ، ولا حب أيضا (ص : ٥٣) . المرأة ليست إنسانا في نظره بل « سفالة » للصعود : « ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين يريد » « مصعبدا » « فما العمل ؟ » (ص : ٧٥) . وشيا كذلك السكرتيرة واعتبرها شيئا يقيه من النار التي تالفحه ألتتها كل يوم منذ أن اشتعل :

« لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق . وقال لنفسه أيضا : - إنني بحاجة إلى مظلة في هذا الجحيم » (ص : ١٣٤ / ١٣٥) .

إن وضع بيومي وضع مأساوي إشكالي : فهو يرجع بين الأشباع الجنسي والمجد الزائف المستحيل التحقق في عالم متناهي . فالإيديولوجيا السائلة تكبت وتعد ولا تقي . فالحس الجسدي مبتور لأنه يعمل وحده دون إحساس إنساني . فلقد مات في قلوية بسبب الواقع

اللزوم ومات في بيومي تحت تأثير التباديل الاخلاقي : « قدرية تلعب دورا ملطفا في حياته المتوترة ولكنها لا تبني رحمة أو حننا أو مودة إنسانية ، فضلا عن مضاعفتها مشاعر الأثم . » (ص : ٧٧) . إن بيومي إيديولوجيا تسير على قلعين . لقد أعمته عن إدراك مآثره أنسية كمشروع بطلنة ثالثة من حيوية ، واختزال الطريق بلوغ الغاية من أقصر الطرق مكسرة أغلال التادلج أو بعضها . إنها شابة تستجيب لنداء الجسد والقلب الصارخ . إن أنسية تحب التجديد وكأنها من بيئة متقدمة خالقة لبيتها المحافظة : « لم يعرف ذلك التقليد . ولم تعرفه حارته العتيدة . ها هي أنسية تمشي بتقاليد جديدة ، وجديدة أيضا مناوئتها الظاهرة في التوادد وقدرتها البارة في فتح أبواب الرحمة » (ص : ٨٦) . فالسارد يحكم على الحارة والتقاليد من معيار التجديد والتقليد وقد حدث في أسلوبه ما يسمى بالتناقض الظاهر L'oximoron لبقوله : المناورة الظاهرة المحطمة للثباتية . ويحكم على قدرتها بالبراعة في فتح أبواب الرحمة وهي استعادة جاءت في صيغة عنوان لشيء لم يكتب بعد . ولغته الصوفية تتم عن إيديولوجيته المستقلة التي تحكم وفق معيار الوعي وعدم الوعي ، والرضى والنفور ، والتشجيع والتثبيط في قوله : « وقد ضغط على يدها فخلعت ذلك بائسة ماعية راضية ومشجعة أيضا (. . .) وسارت إلى جانبها تسيل عينها بنظرة حائلة وظافرة ، مرفوعة الرأس مسددة التهدين ، يوحي منظرها بأنها مندفعة في مجرى من المطالب لاأفق له ، وأنها تلتهم في نفسها أجل أسرار الحياة » (ص : ٨٧ - ٨٨) . الأوصاف التي توحي بالبطولة هي : نظرة حائلة ظافرة - مرفوعة الرأس - مسددة التهدين - مندفعة في مجرى من المطالب لاأفق له - تلتهم في نفسها أجل أسرار الحياة .

إن البطولة هي الإقبال على الحياة :

إننا لا نحمل الأيديولوجيا السائلة معنا فحسب ، بل هي تتأبنا ، وتعترينا ، وتغلغنا ، وتغمرنا ، وتفكر فينا من خلالنا ، وعبرها ننظر الى المحيط والعالم ، إنها محاصرنا ، وتسبنا الى الأماكن التي نهرب اليها ، وتلج أخفى الملاجئ المظلمة وأشدها حلكة . إنها تنخص علينا وجودنا وحريتنا ، وروحنا ، وتكبث رغباتنا ، وممتتنا ، ولذاتنا الطبيعية الانسانية في الوقت الذي يتصل فيه إحساس الرغبة العاطفية بأحاسس ما قبل الرغبة الجنسية . إنها رابعة اثنين اذ هما في الغار اذا اعتبرنا ايديولوجيا الطرف الثاني ثالثة ، إن الموانع الزجرية والنوامي (من البهي المحبى = العقل) الاخلاقية تعاوننا عبر الذائقة التي تصعد اليها من الأنا المؤطع فيشرع في التائب . وهكذا تكبت الذات المؤدجلة ذاتها وتمارس الرقابة على نفسها وهي في عزلة وتسلم .

ما التدم ؟

إنه الشعور الذي يحصل للفرد المؤدج بعد لحظة التحرر من الأنا المؤدج لحظة تحقيق رغبة ما حتى الحضور الى موهب ، في غياب الأنا المؤدج لحظة ما قبل الشروع في الاشباع الجنسي أو اثنائه ، أو بعده حيث يفتى الأنا المؤدج في غيبوبة اللذة المشروعة والتي يعدها هو أتاها ، أو فظا ، أو سيئة ، أو موفقة ، أو جرمية ، أو خطأ .

يقول الأنا للمؤدج من خلال بيومي الذي يحقه الشعور بالتدم : « ٢ سارا صابطين ولكن ثمة إحساس غير مريح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ خطأ ، بأنه ما كان ينبغي أن يستسلم » (ص ٨٨) .

ويجعل بيومي من المرأة مجرد فرج . ولتأدجها ترغض لا لأنه شيئا وصيرها كالقطا فحسب ، بل لأنها تستند الى معايير أخلاقية تصنيفية لا تقبل المرأة سوى بكر أو متزوجة .

هذه هي ايديولوجيا السارد الحياتية والواقعية والتي يؤكدنها بقوله الذي ينبغي كل وهم أو تسويم ميتا فزيقي : « على فرض أنها متقلب حياته رأسا على عقب وستقيم له في عراب الحياة قبلة جديدة أليست هي أقلر على إسماعده من النجم القطبي ؟ » (ص ٩١) . والمرأة جذيرة بأن تحدث تغييرا في حياة بيومي إذا وعث معنى الحياة التي تتنا في والحلم الطوباوي ويأن تحول اتجاهه من المستحيل الى الممكن باستعدادها الذي استعار له السارد هذه الصورة « سرعان ما غنت مفاتن جسدها لحبا المجهني على أوتار فستانها المنقوش بالورد » (ص : ٩١) . إنها تستطيع إذا كانت مزودة بفلسفة الحياة أن تحول نظرتها من العقل الى القلب العاقل ، من الموت الى الحياة ، من الوهم الى الحقيقة التجريبية ، من العدمية الى الوجودية . لكن بيومي المؤدج ، هروبي ، ينكمش ، وينطوي في شرفة التأدج ، وتقلصت نتيجة لذلك كل خلايا كالحزون الذي مسته الحرارة . لا يقصد سوى الا مآكن الحالية ، والبعيدة ، المهجورة والمظلمة والدافئة كالرحم : وذلك عندما يصنى كشاعر رومانسي الى همس القلب ، النادرة هيمناته وخفقات الحياة فيه لحضور العقلانية المؤدجلة المستمر الى حد تنغصص للثقة ، واللذة على بيومي وحرمانه من نصف وجوده الذي امتصه العلم ، ومن معرفة أشياء وأشياء ، ومن اكتساب تجارب وتجارب ، وخوض مغامرات ومغامرات : « ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فافتكرت في حقيقة الا زبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان مكشوف تحديق به الا حين من جميع الجهات . أما حديقته الحيوان فهي بعيدة بما فيه الكفاية ، مهجورة خارج العمران ، محتنة من الرقابة ، يفرغ التزام إليها حقولا وخلاء (. . .) لم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء ، ما يقال وما لا يقال ، ما يفعل وما لا يفعل » (ص ٨٧ - ٨٨) .

« يلزمنا مكان آمن نلتقي فيه .

هفت .

- عثمان أفندي .

فقال بدون مبالاة :

- سيكون مأوى رحيبا لاثنيين في حاجة الى الحب

والمعايشة .

- اما ان تذهب أو اذهب أنا ، (ص ٩٣) .

والناظرة ، تحت مظلة معيار الزواج والطلاق ترغب في الزواج . وهذا دليل على وجود تراتبيه في العلاقات الاجتماعية أوجدتها الايديولوجيا الأخلاقية المهيمنة ، والتي يتولد عنها صنيع الناس فيصنفون تبعاً لذلك المرأة التي تشير اليها هذه الكلمات : متزوجة - طالق - عاهرة - بكر - عانس - ثيب .. الخ في مجتمع مؤدلج ينهي رغبة المرأة بنهاية زواجها بالطلاق فتجرد من إنسانيتها ، وكونيتها رغم براءتها براءة الطالق ، والمطلق (بالكرس والفتش) ، والشاذ ، والخش ، إن لناظرة مؤدلجة ايضاً ، « والدعارة » مآلها الأخير .

إن الجنس كالخبز والماء والهواء والطعام ، والجسد الذي يتناوله الخبز والماء والهواء ، والطعام في أشكالها المتعددة لا بد أن يفرزه وكل هروب من الجنس اهتمام متزايد به . إن الجنس جدير بالتنظيمات التي تلحق باللبسة والأطعمة والأعمال المختلفة .

ان لقاء يومي بالناظرة مستحيل الا عن طريق « الزنا ؟ » والكلمة أخلاقية دالة على التحريم . إنها في وضع مأساوي : الزواج ممنوع لأتانية يومي للمؤدجلة و « الزنا » محرم . إن يومي حرياء لا تستقر على لون ولا حال لحوفه من ضياع حلمه الطوباوي غير المؤسس . انه يحكم على الناظرة بنفس الأحكام القيمية الأخلاقية

والجمالية التي تحكم عليه بها أصيلة : « ففرت رغبته في المرأة لشدة اندفاعها الارعن وجودها بنفسها بلا تحفظ إنها لا بأس بها لو عمل عمل قذرة ولكنه رأى فيها تاراً تقترب مصفرة تود أن تلتهمه هو وأماله المقدسة الموصولة بسر حكمة الله العظيم (. . .) وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى اليها طويلاً لم تقبله فلا يصح أن ينهزم ويستسلم لتسول الأراذل ، والعوانس ، (ص ٩٧) .

تتمظهر الايديولوجيا في الالتجاء الى معايير أخلاقية كالاندفاع والاحجام ، الأرعن أو المهلب ، والجود أو البخل بالنفس ، بجرأة أو تحفظ ، والجميل أو اللئيم ، والنار أو الماء ، الالتزام أو الانصراف ، التمدد أو الاستسلام ، الزواج أو الترميل ، وأصيلة لتأديجها تهرب أيضاً من الرقيب الموضوعي ، وتسى أنها تهرب من الرقيب الذاتي : « صبح عزمي على اللجى ، وقلت لنفسي إذا لمحتني عين قصدت شقة لم حسني كأي جثث أملاً لزيارتها » . (ص ٩٧) . كلا الجنسين يبحث عن الظلمة . لا رغبة تشيع . كل جسد معلول . الوطن مستشفى كبير لا دواء فيه . كل نفس فيه ضالقة الداء / الموت . المرأة في مجتمع التأديج الظلامي هي المرأة المنووعة والمتنوعة حسب الكلام السائر cliché « كل ممنوع مرغوب » . ولكن أصيلة حجازي الناظرة امتسلمت بدافع مركب : رغبة جنسية طيمية وإرادة الزواج فتقع في « المحذور » كما توقعنا ذلك : « وتبدل نظرة طويلة تبدت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من أثر الكبرياء ، محض عاشقة مهذرة الدفاع (. . .)

أفاق تململ من الدهشة ، صدت نفسه عن أي موضوع وتكرزت في الرغبة المتجسدة في صورة امرأة مستسلمة » (ص ٩٧ - ٩٨) . الا أن سارد « حضرة المحترم » يشبه سارد « مدام يوفاري » ، إذ تصببه أحيانا شرارات الايديولوجيا الرسمية فيلزم الضممت الى حد

عن تغريده المتجدد بنشاط وموفر وفرحة كالمعجزة .
وسرعان ما خفت تغريده حتى العلم مترجما الى نوم
أبدي ، خلفا وراءه صمتا مرييا وراحة فائقة مشبعة
بالأسى (. . .) وقد على جنبه فوق القراش على حين
انحطت قوة الكتبة معرضة قميصها وجبت العرق فوق
الجبين وعلى العنق لضوء المصباح العلوي . نظر الى
لا شيء لا يشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه في الحياة
الدنيا . وحانت الضائقة إليها فأنكرها كلية ، كأنها شيء
غريب يخرج من باطن الليل ، غير الكائن السحري
الذي جره الى السمع ، شيء آخر من بلا تاريخ ولا
مستقبل له . وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هي
الا تخمين على اللوت ، والبهت ، والذات مسبق لقبول
المأساة بعظمة تناسب المجهول فيسا يدي من لحاحات
خاطفة عن ذاته اللانهائية ، ودرجة المدير العام آية
أخرى ولكنها تتجلى للزراعة الشائخة لا للاستسلام
المنبأ ! وحملها فقد تحسن بالبرود العاقل والقاتل
أيضا . وما هي للمرأة ترغيب بلا شك في العودة الى
موضوعها الهام ولكن من خلال تردد وخجل . تنمى لو
يبدأ هو . ولما يشت نظرت اليه بابتهاال وأسى
وغضمت :

- نعم ؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على وحلته المقدسة .
ووجد نحوها نفورا ثابتا يوشك أن يصير كرامة . إنها
تريد أن تهدم البناء الذي يشيده حجرا على حجر
(ص ٩٨ - ٩٩) . لقد غدت أصيلة في عين بيومي
المؤدج شيئا لى دوره فطرح بإهمال ولا مبالاة . ومع
تحليق خياله من للحسوس الى المجرد فقد تحولت الى
جنية ، بعد أن كانت ملاكا ، أو شيطانا وغلوقة غريبة
« للوعيه » أو لعودة درجة المدير العام الى خياله

أن كتب جيرو جنتيت مقالا بعنوان : سكوتات فلوير^(١)
يتجلى صمت سارد نجيب كصمت سارد فلوير في الثغرة
التي أحدثها في سرده ، أو في الخلف الذي قام به في
كتابته ، أو في الغياب الذي يستشعره القارىء من خلال
حضور سردي يشكل مظهرا لتلك الكينونة الغائبة .
فحضور قول يخفي في ثناياه أو يشير بين مقاطعه الى
غياب يحدث ثقبا في وحدته . الى اللامعبر عنه ، الى
السكوت عنه ، واللامعبر عنه ، واللامعقول وهو وصف
الفعل الجنسي بكل حرية وصراحة وواقعية طبيعية
وعادية .

الا أن سارد « حضرة المحترم » سكوت خائفا للتأديج
الذي أصابته شظايا الشيء الذي أفضى به الى ممارسة
الرقابة ، كبيومي ، عل نفسه هو أيضا حتى في مجال
التعبير الروائي . أيعود ذلك الى كثرة مصاحبة بيومي أم
هي روايت من الماضي تستمر في الحاضر ؟ بهذا الفعل
جرد النص الأدبي من أبعثه ولذته ، وبما كان بإمكانه أن
يعد عنصرا من العناصر المكونة لمتحته فراح يتحدث
انطلاقا عما بعد الفعل الجنسي ، من لحظة الوعي ليعيدنا
عن المعجزة الحقيقية في حياة الانسان ، ولتتصدى لتناول
مأساة بيومي والناظرة عندما يعاودهما العقل المنفل
والمكبل بسلاسل الايديولوجيا وأغلالها الغالبة الى حد
إهيار الحياة ليسود العدم . وأنه يغلو ما كان « جنة »
« جنيا » بالندم الى مستوى يتصور فيه بيومي أنه من
« أصحاب السمع » إذ يعيله تأديجه الى خياله المؤدج
عندما يستيقظ فيه أنه المؤدج ، الى خيال فيلسف
الرغبة والنفور من الجنس بلعبة الحياة ، والموت ،
والبهت ، والرضى ، ورفض المأساة في سبيل المجهول
الذي يتمرد على المعلوم والمعيش . يقول السارد في
صمت : « وأعلن لمن من الألمان اللانهائية للطبيعة

١- انظر جيرو جنتيت « صور » ، ط ٥ ، سري / بوان . باريس ٤٢٣ ١٩٦٥

يوجد بجانب امرأة . إن صحفا من هذا النوع تلتزم الصمت عن فضائح الاختلاس والتبذير ، والاستغلال البشع : « الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة فكيف إذا دهمته فضيحة عما ترحب الصحف بالحديث عنها ؟ » (ص ١٠٠) .

ووجهة نظر يومي المؤدجلة ترد اقتحام المرأة الشجاعة للمحرمات ، والكلام عن الجنس أو الرغبة فيه دون رقابة أو سلطة عقائدية أو عقلانية أو أخلاقية ، إلى غريزة المرأة التي تترك بها للجھول الذي لا يستطيع الرجل ادراكه . ليست غريزة المرأة هي التي تترك للجھول ، وإنما هو علم نفاذ الخطأ المؤدج إلى ذهنها ويعبر عنه المؤدجون بقولهم « المرأة ناقصة عضلا ودينا » . إنها المرأة التي تجهل الخطأ « الثقافي » المؤدج فيمت أرض فكرها خصبة لخطأ مضاد ، كما بقيت طبيعتها نقية تعمل عندها ملكة القلب والعقل الذي ينشئ تثقيفه حتى يعمل معا . وهذا ما انتزع من يومي هذا التعليق المؤدج غير العلمي : « قال لنفسه إن للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في معرفة شؤونها الصميمية ، وأنه لو كان للإنسان عموما غريزة مثلها لمصرفة الجھول لما نزل مجهولا حتى الآن » . (ص ١٠٤) . وغريزة المرأة لا تختلف في شيء عن غريزة الرجل . ويتميز عنها بيومي بتأجله فقط .

تنكر الأيديولوجيا السائدة كل علم فترج الكلام للبتافيزيقي والإسطوري عبر وكلائها ووسائل الاعلام البصرية والسمعية ، والشائعات ، والدعايات ، والقيل والقال .

« ألم يهلك ما يقال عن الفناء البقاء ! »

- وعدونا بعمل لمن تريد عملا ، أي عمل ؟ عليهم لعنت الدنيا والآخرة ، هل أصلحوا كل شيء فلم يبق إلا نحن ؟

الذاكري . والطموح يجلد الإرادة تحت تأثير معايير الشموع والاسفاف ، والاستسلام أو التمرد ، العذب أو المر ، تشييد أو تحطيم البناء الذي شيده التأدلج في فكره المتحجر المحلق في مهله الوهم بعيدا عن أرض الحقيقة والواقع .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي صمت فيها السارد في هذا العمل الروائي . فلقد سكت في استرجاعه للذكريات بيومي وسيلة التي لا تختلف في تأجلها عن أصيلة التي يدل اسمها على ذلك والذي يحمل معنى الأصالة . وأسلوب السرد في « حضرة المحترم » يذكر بأسلوب السرد في مدام بوفاري الأخير بالخلف والتزام الصمت في لحظات الحديث عن الجنس ، وضحك . ثم شعرها . لم يجرؤ على تجاوز ذلك . ذكرته رائحة شعرها يلاعب الطفولة والصبا ، وبكلمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناه من فونوغراف (ص ١٩) . فالحلف هنا مزهوج .

١ - بعد عبارة « لم يجرؤ على تجاوز ذلك » إذ سكت السارد عما يلي تجاوز ذلك وهو إلى ماذا ؟ فإنه ترك لنا فرصة تصوره . ولكن فرصة التصور تبقى ولو أخبرنا بذلك . واللغة قاصرة فكيف نزيد من قصورها بالصمت .

٢ - كفى عن الجنس بعبارة أخرى عن صمته وأراد أن يملأ الثغرة ولكنه زاد في حفرها بهذه العبارة التي تحول القارئ من موضوع إلى موضوع لا علاقة له بالأول « لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناه من فونوغراف » والصحف المؤدجة لا هم لها سوى التناطح الأخبار الثقافية ، ونشر ما تسميه « فضيحة » وهو حاجة إنسانية طبيعية تنتهي عندها بتبلى حاجة الآخر . وهذا يجعل الإنسان يحجم عن الأقدام على الجنس ، أو أن

في الوسط الجديد « الرائي » الذي يعد الانتقال اليه من « الدرب » وثبة خيالية . « (ص ١٢٤) وتستند التراتبية الى المعيار الذي يفرق بين الدرب والوسط الجليل . وفي حوار مع قدرية يبدو صراع الأيديولوجيات الفوضوية والسائلة :

« بل إنني أأمل أن تصومي وتضلي فتحن في حاجة الى رضى الله عنا .

« إنى مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم . .

« إنك سيئة محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل

ليلة !

« إذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟

« يجب ألا تسكر على الإطلاق . . (ص ١٣١) .

إن السارد في عرضه لملاقة يومي بقدرية يسخر من « السياسيين » الذين يتمتعون بظواهر الأمور ومظاهرها ويطبقون عليها مصطلحات اجتماعيات دون « التحقق في معرفة الواقع وأوليائه ، وتفاعل البنيات التقليدية بالحديثة سواء على مستوى البنيات الفكرية أو التحتية : « وتذكر الآراء التي يعامل بها الزملاء - للوهول بالسياسة والأفكار - هذه الظاهرة^(١) وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات » (ص ١٣١) . تنتج البدانة عن عدم بلذ أي مجهود عضلي وعدم ممارسة قدرية الشغل أو الرياضة بعد العمل في مجتمع بطالي شل نصفه ومات وأخذ الموت تسرب الى النصف الآخر .

إن طموح يومي يجد سلوكه حتى قبل أن يحققه . وهو في القرب من الطموح يمارس التسلسل ولو في درجة دنيا . فنظرت الى الناس ترمي الى ما يسهم من ميز وتفرقة ، وتصنيفية ، وملكية ، واثنية موصومة بالاحتقار ، والاستغلال ، والتشويه الشيء الذي يكشف للفناري حقيقة الخضوع البرجوازي . إن البرجوازية تعبت كظفل كبير يعوض عن حرمانه الطويل

« لعلة كلام ، ما أكثر الكلام في هذا البلد !

(. . .)

« مستتشر الدعاة في كل مكان . .

« والأمراض كذلك .

« وآلاف البنايت سيتعرضن للفساد . .

« ماذا تقول إن لا عمل لهم ؟ (ص ١٢٠)

(١٢١) .

في هذا الحوار تفتزع الأيديولوجيا الشائعة والأيديولوجيا المستقلة الى حد ما ولا سيما في لغة قدرية . ويتج عن هذا التصديق للشائعات فتستبد لحظة الجنون ببومى فيمزج قدرية التي تشبه بسبب الوضع للمادي : « وقال لنفسه لمعلمه تعدد الطرف الرابع في الصفقة بسبب المحسنة جنيته ! » (ص ١٢٣) . ولكن عودة العقلانية لمحظ الجنونية : « وجرت المراسيم وهو يتابعها بهول ، ما هذا الذي جرى ؟ واجتاحه شعور بمزق بالخلق بلغ حد الرعب فتحن لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدد مسحايات الكابوس الذي يعاني منه ، ثم لما أدلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الذهول . إهم سيتهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون . ولعله من الانصاف أن يعترف - بدءاً من الآن . أنه مجنون » (ص ١٢٣) . التأدليج يقلب الحقائق فيما هو عقل يسميه جنوناً وما هو جنون يسميه عقلاً . ثم يجسد يومي في كلامه سيلاً « كهلة نصف سوداء في ضخامة الأغلاني والجمالي : « كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكنتزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش » . (ص ١٢٣) . وتتمظهر الأدلجة في القول المبثذل « ست البيت » ، « الوسط الرائي » ، « وثبة خيالية » وتجلج إيديولوجيا السارد المستقلة في وضع كلمة الرائي بين مزدوجتين ليقول : إنه لا يزال متخلفاً : « ها هي لا تألج جهداً في لعب دور ست البيت

١ - ظاهرة بدانة قدرية .

وتبناها ثم استلورد :

.. سيكون لنا بنين وبنات » (ص ١٤٣) .

والانسانية والعقلانية في نظر المرأة المؤدجة الطموح طموحاً زائفاً وميلتان الى غاية : الزواج والمال وما فيها من استقرار طفيل ، وأمان من عواصف الأيديولوجيا الحزبية المقلوبة : « - إنك تبدو لي » إنساناً » و « عاقلاً » لأول مرة » (ص ١٤١) . والسارد يضع الكلمتين اللتين جاءتا في كلام العجوز بين مزدوجتين للدلالة على أنه ليس كذلك أو لتأكيد كذب العجوز . وقدره على النقيض منه إنساناً . فهي تقول له : « لك العذر ، أنا فاضحة كل شيء » ، إنك تريد ولداً ، ولك الحق وربنا يحقق رغبتك .

.. أنت طيبة وإنساناً يا قلدرة . » (ص ١٥١) قد تكون كذلك أو يقول لها ذلك ليؤدجها .

وإذا كان بيومي يخضع للرأي العام في الانجاب ، فالولد مشياً قبل أن يولد ما دام لم يفكر فيه وفي مستقبله ولا سيما إذا كان مشرفاً على الملك الفارلة هنا جسر للعبر الى الولد : « - في لحظة يأمر ريمت بالدرجة وراء ظهري وتركز أمني في حلم واحد هو الانجاب » (ص ١٥٢) . وهو حلم فلت أوانه ، وهو في ثنائه يبعث بالنساء كما يبعث الطفل بالدمى : « - إذا غيأ لي يوماً أن أنجب فلن أتأخر حتى يتحقق للمبة وجهها الأبيض والأسود (ص ١٥٥) . واليتمية والعانس العجوز تؤسمان رغبها على عبادة صنم المال : « - أنت الجانية على نفسك ، طاملاً قلت لك ذلك .. »

.. ما الفائدة ؟

.. هاهي عفتي الطمع وسوء التصرف !

.. اصرخي حتى يسمع ! » (ص ١٥٤) .

الشخصية وعلاقتها بالمثلين / الأشياء :

يعبر البؤس والتراتبية بالكلمات / الأشياء عن

المكبوت ، في علم النفس الفرويدي البنيوي فالرلد أبو الرجل وهي مقولة مشهورة تشخص النظام الأبوي لكن فرويد ينظر في النتائج وأغفل الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي كانت المم الأساسي في منح ماركس في علم الاجتماع البنيوي الذي مارسه في نقده لملائق الانتاج . أما ينشئه فهو قد أدرك بفلسفته العميقة أن الانحلال إذا بلغ أوجه فينهي للأيدولوجيا المستقلة أن تستغل لأنه معطى يمكن الاعتماد عليه من أجل تحول قريب . : « وعبور الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يتيمة وتعيش مع عمّة عانس » (ص ١٣٥) . إنها عارسة لا تعتبر الآخر إلا كسرير ومن هنا يعبر الاستبداد من نفسه من خلال هذا السلوك المتفجر أنانية وتسلطاً . إن بيومي ينسى سته الذي لا يتلام ومن الفتاة ولا مع الوظيفة أمل عمره . إنه لا يعي ذاته وقلته الجسدية . يتخيل إليه أنه شاب ما يزال ويحاول تقليد الشباب وينكر شيفوخته التي تفرض وجودها عليه وتتطلب منه أن يحيطها بالمانية التي تستحقها ، ولكن عودة للمكبوت تبرز من خلال سلوكه العايت المتأخر زمناً . والفتاة كذلك - تحت دافع الحاجة - لم تول أي اهتمام لشبابها ، وحيوته الأنثوية التي لا تنسجم وبرودة جسم بيومي فنسيت نفسها ونسيت بيومي العجوز فيتبدلان التشبي ، ونتيجة لتنافس النساء على الرجال / المال تقول العجوز : « - طلق امرأتك أولاً » (ص ١٤١) . ولقد مسرح نجيب محفوظ في روايته هذه أعجوبة الأيدولوجيا السائدة بتجسيدها في شخص بيومي الذي قال لراضية (سماها نجيب بهذا الاسم دلالة على رفضها وتبويها لبيومي العجوز) مردداً القول السائر والذي يستحيل على من كان في سن بيومي تحقيقه :

« - معك يا حبيتي سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة . »

Le puits en de vera de la sorte d'une
gueule plus ou moins gloutonne (..) ^(٦)
toujours 2 ffame, de boyaux geants
capables de digerer un peuple"
"Jl songeait violemment (..) a ce dieu
repuet accroupi
auquel dix mille affames don- ^(٧)
naient leur chair sans le sonnaitre."
"Car les riches avaient pris la ^(٨)
place de Dieu"

لا تتج الأيدولوجيا السائدة إلا ذاتها .
إن المدير العام هو المنصب الذي بشرت به إشارة
الخطاب المؤدلج الذي ترسب في وعي بيومي ولا وعيه .
إنه الإله مالك السلطة والقوة والتي يوحى إليه كما
يظهر ذلك من خلال القضاء : « افتتح الباب فترامت
الحجرة مترامية لا نهائية . ترامت دنيا من المعالي
والمشيرات لامكانا علوياً منظوياً في شق التفاصيل ، آمن
بأنها تلتهم القادمين وتليهم . لذلك اشتعل وجداته
وعرق في انهيار سحري . فقد أولا تركيزه . نسي ما
تالت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف .
حتى الإله القابع وراء المكتب الفخم ، وتلقى صلعة
كهريائية موحية خلقة غرست في صميم قلبه حباً جنوياً
ببهجة الحياة في ذرونها المتسلطة عند ذاك دهاء نداء
القوة والسجود ، وحرضه على الفداء ، ولكنه سلك مع
الأخرين سلوك التقوى والايتهال والطاعة والأمان .
كالوليد عليه أن يلفر الدمع الغزير قبل أن يملئ إرادته .
وتلبية لأغراء لا يقاوم خطف نظره من الإله القابع وراء
المكتب ثم خفض البصر متحلياً بكل ما يملك من

الفروق الطبقة وفق الدرجات في الوظيفة حيث يتميز
قضاء عن قضاء ، ومكتب عن مكتب ، ومنصب عن
منصب ، وراتب عن راتب تبعاً لتدور العمل ، وعن
نوعية الاقتصاد الذي تسير عليه البلاد والذي يحدد
وضعية الموظف ، وملاباس / الاشارات الى الحالة
المادية والاجتماعية والنفسية .

« مكتبك تفحص الكرسي بعناية فان أحقر مسمار
قد ينك بذلة جنيلة . . فقال عثمان :

« بلنتي قدمة جداً والحمد لله » (ص ٩ - ١١) .

إن هذا المكتب يختلف عن مكتب المدير العام المتميز
والذي هو امتداد لشخص المدير العام الإله المتسلط ،
التجرب بحيث ينحني له كل من مثل بين يديه . وهو
الأقوى ككل الأله عبر العصور بالمال الذي يتجلى في
الأشياء المحيطة به دون سائر الموظفين . لماذا يمتزج هذا
الإنسان بالإله في تصور بيومي إلى حد تحطيم الثنائية بين
المدير العام والإله ؟ إن بيومي ينظر إلى متجج
الأيدولوجيا السائدة من خلالها . إنه يؤله فتأله ، إنه
يشبه رأس المال الذي ألهته شخصيات جيرماتل لزولا .
إن نجيب محفوظ يؤنس الأيدولوجيا السائدة بالشخصية
المؤدلجة التي ذابت في أختها صاحبة رأس المال وقد تأله
كان عبارتي نجيب « الإله القابع وراء » ، و « آمن بأنها
تلتهم القادمين وتليهم » الداليتين على الأيدولوجيا
التحريرية ترجمة لعبارات زولا :

"Le puits avait des hommes ^(٩)
par bouchees"

"La cage avait reparu (..) pour en-
gloutir une autre charge d'hommes
(..)

• عمل زولا : جيرماتل ، ط ١ ، كتاب الجيب ، 1976 ، ص 29

٦- نفس المرجع : ص 29 - 30

٧- نفس المرجع : ص 72

٨- نفس المرجع : ص 37

خشوع» (ص ٥) . ثم يقول السارد عن الحجرة ذاتها : « ونفحص الحجرة بنعانية بطولها الطويل وعرضها العريض ، سقفها الأبيض الأملس ، ونجفحتها الكرستال ، وجدوانها المورقة ، مدفاتها الموشاة بالقرميد ، بساطها الأزرق الذي لم يتخيل إمكان وجود بساط في طولها وعرضه ، وطاولاة الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر ، والمكتب المصدر بأرجله الغليظة المتلوية وسطحه البالوري ، ونقحه الفضية من ورققات ومخار وأقلام وساعة وموسمان ونافضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلي » (ص ٦٣ - ٦٤) .

وحارة الحسيني التقليدية ، والمحافظة ، والثابتة على القيم البالية والمثالية امتداد لشخصية بيومي . فهي تنحي كما ينحني هو . وهنا لا لملك سوى أن تكرر ما يسبقنا اليه نجيب من أحكام نقدية حول علاقته الشخصية بالفضاء الذي يستخدم كنوع من المرجح للإشارة الى الشخصية المؤدجة وإلى السارد غير المؤدج من خلال النعوت التي يطلقها على الحارة : « من نافذته الصغيرة يرى وطنه - حارة الحسيني - كأنها امتداد لروحه وجسده ، حارة طويلة ذات منحى حاد ، مشهورة بموقف الكاروميقي للحمير . (. . .) ومن خواصها الحميمة أنها لا تعرف الحمس أو النجوى ، أصواتها مرتفعة جداً ، متوترة بين الحكمة والبدائية » (ص ١٢) . وحكم السارد عليها هو حكم إيديولوجيا مندور المستقلة على الشعر القديم الذي يخلو من الحمس الذي يشكل الجزء الأساسية للشعر المهجري . ويشير اللفظ / المنزل أيضاً الى وضعية بيومي الاقتصادية الى التراتبية والتفاوت الطبقي في السكن : « في مسكنه - حجرة وحيدة ومراقب - يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته » (ص ١٢م) .

وعندما يتحول الاقتصاد من المستعمر الى الاقطاعيين أو بورجوازي هذا الوطن ، تتغير الأشياء

بتغير الملاك . وإذا عرف النظام الاقتصادي الثبات ، فبإتي التغيرات قسور ، وأعراض لا تمس الجوهر لعدم شموليتها وتتوقف عند من انتقلت اليهم وسائل الانتاج ، والذين يقومون بتغييرات لصالحهم ويفرضها تضخيم رأس المال واستثماره ، وتبليغه ، فيقع التهجير الاغبرائي أو التعسفي فينتقل « الضعفاء » الذين يصجزون عن بناء مساكن لأنهم متروكون للمصادفة ، فتتكرهم الأرض التي ناضلوا من أجلها حسب تعبيرات السارد التوستلمجية والموضوعية ويصير ظلام الثنائيات ويعم : « ضاعت تماماً عواطفه الطفولة البريئة وخيالها الجماع ، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب ، مثل حارة الحسيني ، التي تغير جلدها ، ربوع كثيرة عهلت وقامت مكانها عمائر صغيرة ، وشيدت زاوية مكان موقف الحمير ، وكثيرون من أهل الحي هاجروا الى لمبح ، كل شيء يتغير ، النور والمياه دخلت البيوت ، والراديو يصخب ليل نهار ، والملاء اللف تتوارى ، حتى الحبر والشر يتجددان ويتوعلان » (ص ١١٢ - ١١٣) .

وبيومي المؤدج لا يطلع من الكتب سوى ما يتصل بالوظيفة وما يساعد على الترقية . إن حضور أنواع من الكتب وغياب أنواع أخرى للدليل على التأدج المسيطر ، كل ما يتوفر عليه هو كتب القانون وسير العظماء - إرادة العظمة ونموذجها المدير العام - ، وقواميس الانجليزية والفرنسية قصد الترجمة ، وكتب الأدب القديمة . وتغيب عنده الكتب العلمية والأدبية الحديثة والفنية . . . : « ها هي كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافذة » (ص ٢٣) .

حتى في بيت قدرية فالأشياء / الكلمات دالة على التراتبية ، وعلى المستوى الاجتماعي والتاريخي المحيط حيث يرقص البؤس رقصة الموت الساخر من حياة كهذه : « وتكرته حجرتها بحجرتها ولكنها أكثر بدائية

أن ضاعته الكينونة في سبيل كينونة أخرى ، والعناية بالمظهر لا تسترد الكينونة الضائعة ، لقد شيئا نفسه هذه المرة .

الكينونة هي جدلية الرغبة والنقص في الإنسان .

لم يرضخ بيومي لتأجله لسنة الطبيعة التي تساعد العلوم على اكتشاف قوانينها للتحكم فيها وإعطائها حريتها ، ومعرفة ، ومعرفة حاجتها ، والطرق المؤدية إلى المحافظة عليها ، وتحقيق رغبتها .

إن الجسد جزء من الطبيعة وهو وحده الكائن الواقعي كجزء منها .

إن الشاب يلمس طقوس الرجال والشيخ أحياناً في فجر عمره وضحاها . والشيخ في خريف عمره يمارس طقوس الشباب .

إن المؤدج يستهلك ما لم يتجه وطنه وإنما ما يستورده عن استعماره أسس واليوم كي يتحول الاستعمار إلى استعمار اقتصادي وهو أخطر من كل استعمار . لأول مرة ينظر في ملابس أنيقة . بلدة رمادية من الصوف الانجليزي ، وحذاء انجليزي كذلك ، أما القميص ورباط الرقبة فمن غنارات واضحة نقشها ، ولأول مرة يتعطر بالروائح الزكية ، ويحلق ذقنه كل يوم . ولولا الحياء لأقدم على صبغ شعره ، ولأول مرة يستعمل الفيتامينات ويحني بصحته ونظافته أكثر من أي وقت مضى . « (ص ١٤٢) . إنه يتجاهل ونسب الزمن المؤدج وأخاذه الذي سطرها على جسده كغصن المحراث أو الماء الغزير بالأرض فتحوّل نيل الأوان وجعل منه جسداً عبطاً ، محطاً ، منهاراً وساقطاً ويشرف على النهاية لأن الأندلسيولوجيا الخداعة ألهته عنه بعدما شغلته بالأرواح والقوى والأجناد الزائفة والبطولات الكاذبة . فحضور الزمن يتكرر في المقطع السردى بصيغة « لأول مرة » ثلاث مرات في وحدة

بأرضها العارية فراشها المرتفع والمرآة وكرومي وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب ، وطقش وإبريق . لذلك لم يكن يستطيع خلق بدلته في ليالي الشتاء (...) ورغم تدنيه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضروري . وكان قلع نبيذ « السلسلة » الجهنمي - بنصف قرش - يكفي لطمس عقله ويعث الجنون في دمه « (ص ٣١ - ٣٩) .

إن الخمرة بالنسبة إلى المؤدج لجنين الخليل يعتقدون أنفسهم عقلاء والأخريين مجرد مجانين ، هي الوسيلة الوحيدة التي تتيح لهم خرق الموضوعات والضوابط الاجتماعية ، وأخرجهم من القنابس السائلة والقاتلة . إنها تتسلل إلى قاعة الذهن والعقل المستبد لتطرده منها بحيلتها الحوارية والتنويمية كي تستريح النفس من بطشه المؤدج وتأجله التسلسل ، فتحقق الذات متمتها ، وتلمس جنوبها الضروري . فإذا خرجت وقل تأثيرها ، عاد العقل بعقلانيته الضاغطة والاضطهادية بأساطيرها ، ومعاييرها ، وقوانينها يخفي الجنون ، ويخفي ، ويقع وينطح وكان كتلة من الرصاص ثقيلة قد وضعت على مادته اللينة فشلت عن الحركة وعن حرية الإبداع في القول والفعل وفي ضروب الجنون . ما أقصر عمر لحظة اللذة ! نتعجب ولا ندرك أن التأدج هو السبب .

إن بيت قدرية لم ولن تصل إليه الكهرباء ، والماء ... كالنسيجين من الاستقلال : « تربعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران ، وأضاء الحجرة شمعاً واحدة » (ص ٣٩) .

ويومي بعدما أدرك أن الجوهر قد ضاع : شبابه ، رجولته ، وخاض الشيب في شعره ، والمعجز في جسده ، فهو يريد أن يسترجع أيام زمان ولكن الزمن خطي وذو اتجاه واحد ، فاتخذ يعني بالشكل والمظهر بعد

سردية صغيرة ثم يؤكد في نهايتها هذا الحضور الذي يشير إلى غياب : « أكثر من أي وقت مضى » .

إن المظهر الواقعي والجدلي هو مظهر كينونة ذاتها لا مظهر كينونة أخرى غالبة في الزمان والمكان .

النقد والأيديولوجيا :

إن تقنية الروائي أو بنية خطابه الروائي تعبر عن فلسفة السارد ورؤيته للعالم . فالبنية السردية تعبر عن فلسفته . وهذه الفلسفة مجموعة من الأفكار والآراء ووجهات النظر المباشرة للشكل ومكوناته . فهي منهجية منه ومن وضعه على الورقة . وما أن الأيديولوجيا هي دراسة الأفكار ، والآراء ، ووجهات النظر ، فإن للفلسفة علاقة بالأيديولوجيا . وهذه العلاقة هي من الثابتة بمكان كالعلاقة الموجودة بين الشكل والمضمون التي تدل على العلاقة الموجودة بين اللغة والأفكار ، وبين البنية والفلسفة ، والتعبير والأيديولوجيا . إن الحديث عن الشكل وبنياته هو حديث عن الأيديولوجيا ، واستجلاء تألفات الأيديولوجيا وظلالها في الخطاب الروائي هو أبرز للبنية السردية .

إن النقد في عملية تفكيكه للعناصر المكونة للشكل ، هو في ذات الوقت استجلاء لفلسفة أو أيديولوجيا العمل الروائي . لقد وقفنا على الأيديولوجيا وقطعنا في الخطاب الروائي كعمارة نقدية تبرز هذه التظاهرات عبر لغة الخطاب قصد استكمال التصور عن مفهوم الأيديولوجيا وعلاقتها بالنص الروائي . وهذه الممارسة تسرخ للمبج البنيوي الجيني الذي يتصل مباشرة بالمضمون ، ويرصد ، بعيدا عن التفسيرات التي قبل فيها الكثير وسومت صفحات الكتب والمجلات حول مفهوم الأيديولوجيا ، تجلياتها في البنيات التعبيرية الدلالية للعمل الروائي . فإذا كانت الأيديولوجيا تعني

فيا تعنيه أفكار وآراء ووجهات نظر الإنسان في محيط اقتصادي ، وثقافي معين ، فإننا عرضنا ، ممارسة ، أفكار ، وآراء ، ووجهات نظر الشخصية ، وأفكار ، وآراء ، ووجهات نظر السارد كما سردنا مدى انفصال واتصال أيديولوجيتها . وهذا المنهج يعد أكثر تطورا من المنهج البنيوي الجيني الانتقائي الذي عرفته الممارسات النقدية عندنا في النقد العربي وذلك إما لغموض البنيات الدالة ، أو لتعددتها ، أو لاسعاش وتشعب علاقات الشخصيات فيها بينها وعلاقتها مع الممثلين / الأشياء في العمل الروائي .

إن عرض وجهات نظر نقدية جمالية بنبوية أو فكرية للعمل الروائي هو نقد أيديولوجي يتخذ السارد كشخصية وعلاقته ببالي الشخصيات ويرصد تقنيته وبنية عمله الروائي لأبرز أيديولوجية الروائي وتأدله . وهذا النقد نقد أيديولوجي مستقل أو أكثر استقلالا من أيديولوجيا الروائي . وأنه ليستظر نقدا أيديولوجيا آخر أكثر استقلالا وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية لطبيعة الأفكار الجدلية .

بنية رواية « حضرة المحترم »

من المصطلحات النقدية المضللة ما كانت تعرف به الرواية وتصنف كجنس أدبي يتميز عن باقي الأجناس الروائية التاريخية ، والتعليمية ، والنفسية ، والسيرادية ما أطلقه النقاد في العصر الحديث كـ « رواية الشخصية » و « رواية الحدث » ، ولم تكن وقتها ندرك لها نحوما لأن جهلنا لمظاهر ، وخصائص ، وبميزات ، ومكونات الشخصية الروائية التي تستلزم معرفة واسعة بالإنسان في طبيعته وحاجياته ، وسلوكياته الثابتة والمتحولة التي تساعدنا العلوم الأخرى على معرفتها ، يجعلنا نزيد العمل الروائي ، في نقدنا له ، غموضا وإبهاما ، كيف كنا نفهم الشخصية الروائية ؟ كنا

هدف نجيب هو رصد موقوت الشخصية وإنجازها ، وموتها ، فإن البنية الروائية بقيت خاضعة للمنهج الدارويني في صعود الشخصية في درجات الترقية . ورغم أن الانحدار والسقوط هو غاية نجيب فهو لم يكن انحدارا قاسيا وأكثر مأساوية وتأثيرا لأنه يشبه الانحدار الطبيعي الذي يدعى له حتى الشخصية غير المؤدجلة والشخصية الثرية . وفضلا عن ذلك فمنهج داروين منهج طبيعي يتبع في داروين مراحل تطور الكائنات في نشوئها ، ونموها ، وتطورها ، وانقراضها ، وأن الطبيعة كفوة لها قوانينها التي تتجلى في الانتخاب كي يبقى العنصر الأفضل ، والأصل والأصلح والأقوى . أيلفتي نيتشه بداروين في إرادة القوة ؟

صحيح أن الكاتب ، تحت هاجس الواقعية ، أراد أن يقدم للشخصية العامل / الموظف المؤدجل كما هو في الواقع رازحا تحت صخرة الترقية الخاضعة للدرجات الانحدارية ٨ . ٧ . ٦ . ٥ . ٤ . ٣ . ٢ . ١ . ودرجة المدير العام التي هي « أي صفر أو لا شيء » إذ تبدو إيديولوجيا السارد المستقلة في اعتبار درجة المدير العام صفرا أو لا شيء ، وحتى لو قدمت بشكل تصاعدي ١ . ٢ . ٣ . ٤ . ٥ . ٦ . ٧ . فإن ذلك لن يغير من الصيرورة الزمنية شيئا .

٣ - عدم تأثر الرواية عندنا بالمحممة بقدر تأثرها بالتراجيديا اليونانية التي خضعت للتفسير الأسطوي الذي كان لكتابه « فن الشعر » ولا يزال تأثير وأي تأثير في المبدعين والنقاد إلى اليوم . والمأساة اليونانية ترتبط بالإنسان ، وتصوره وهو يعمل ، وعبر جميع مراحل حياته . إنها تخضع بلورها لتطور الشخصيات وتنامي الأحداث (الكل ، هو ماله بداية ووسط ونهاية) أو انقلاب السعادة إلى شقاء أو الشقاء إلى سعادة حسب

نفهمها على أنها الصورة للشخص كما هو في الحياة أو دون ذلك ، وكنا ، علاوة على ذلك ، لا نفرق بين الشخصية في علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التاريخ ، وبين الشخصية كمكون بين مكونات الخطاب الروائي . إن الشخصية هي التي تحدد للعمل الأدبي جنسه . ويناء على هذه الرؤية النقدية ، يمكن أن نطلق على رواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ مصطلحا أكثر دقة يحدد جنسها الأدبي وهو مصطلح « السيرة الذاتية للشخصية المؤدجلة » .

في هذا الجنس الأدبي يوظف الكاتب التقنية الكلامية في الإبداع الروائي الذي كان معروفا عند المبدعين الغربيين الكلاسيكيين كسيرافيز ، وبلزاك ، وفلوبير ... وتتمظهر هذه التقنية في التجليات التالية التي تحدد بنية السيرة الذاتية للشخصية المؤدجلة .

- ١ - الرواية بضمير الغالب التي تتبع « الرؤية مع »
- ٢ - تأثر الكاتب بالنظرية الداروينية والتاريخية التطورية التي تتجلى في تعاقبه الأحداث وتسلسلها وفق صيرورة الزمن الخطية حفاظا على التماسك البنية الروائية وتماسك أجزائها وعناصرها في وحدة تربط حلقات سردها ارتباطا منطقيا صارما . ولقد تناول فيها شخصية وتنميتها في نموها الزمني كما عرض مراحل حياتها جميعها منذ دخولها إلى الوظيفة وهي مرحلة الشباب ، مع فلاح - بالك يتم يذكرنا بمرحلة الطفولة وهي يوم دخولها إلى المدرسة الابتدائية ، ثم مرحلة الرجولة التي تضامها في الوظيفة ، ثم مرحلة الشيخوخة ، ثم الموت . والشخصية تخضع في حياتها العملية لتنفيذ القرار الأيديولوجي إلى درجات الترقية الانحدارية وتبعاً لذلك فإن البنية الروائية تخضع للتطور والتدرج وفق نظرية / إيديولوجيا « النشوء والارتقاء » الداروينية . ورغم أن

مجموعة من الأحداث المتسلسلة وفق الممكن/ المحتمل^(٩).

٤ - العقلانية الصارمة التي مارست عليه منطقتها فاختار ثمانى درجات وثمانية بنود في ورقة عمل الشخصية ، وثمانى شخصيات/ النساء وثمانى شخصيات/ الرجال بحيث يمكن أن نستنتج المعادلة التي وضعها نجيب لبناء روايته .

المعادلة التي بنيت عليها الرواية :

المدير العام = ١

حلم بيومي = المدير العام = ١

بيومي = ١

علاقاته بالنساء والرجال والدرجات الذين هم وسيلة لبلوغ منصب المدير العام وتحقيق الحلم : بما أن عدد النساء هو ثمانية وعدد الرجال هو ثمانية وعدد الدرجات هو ثمانية فإن المعادلة الروائية هي :

١ = ١ × ٨ - ١

١ = ١ × ٨ - ٢

١ = ١ × ٨ - ٣

وإذا اختزلنا ذلك كله تصبح المعادلة هي :

$$١ = ١ \times (٣ \times ٨)$$

٥ - عدم ممارسته الجنون في الرواية . لو أراد أن يفعل لبدا مثلاً بسقوط الشخصية ثم يطلعون بالتبادل عن الاسباب التي دفعتها الى الموت والتي ستبقى هي هي رغم اختلاف التقنية التي مستخدم الرواية في شكل أكثر إثارة وتأثيراً ومتممة وإقناعاً . وستتكرر إذاً خطية الزمن ورتابته للقبض على إنتباه القارئ بشكل أكثر فنية ، فحتى حضور أو غياب الشخصيات ثم حضورها يخضع للسيرورة وخيوطها المتعاقبي الواضح .

يتمسك الكاتب في رسم الشخصيات الى معيار تراتبي يقسم الشخصيات الى رئيسية وثانوية ويجعل الشخصية/ الرجل دالة الحضور دون الشخصية/ المرأة وكان ينبغي الاهتمام بجميع الشخصيات وأن تظهر بالتساوي مع الشخصية الرجل على مسرح التمثيل الروائي . فحضور شخصية باستمرار وغياب أخرى باستمرار يضعف الصراع والتوقف من الأحداث . ويسود في الرواية الوعي وينيب فيه اللاوعي بالمفهوم الفرويدى . فغياب أحلام النوم ، والاقتصار على أحلام اليقظة يضعف مأساوية جميع الشخصيات ، فهيمنة الأنا المؤدلج لن يبرز بشكل جلي إلا إذا برز ضده ونقيضه وهو اللاوعي أو الأنا اللا مؤدلج في الأحلام التومية . لقد اكتفى الكاتب برصد الأفكار العقلية التي تنسجم مع الخيال المؤدلج الذكاري ، ورصد العقلانية وأغفل الجنون . إن بيومي يبدو كشخصية سوية مع أن جدى أن يبدو كمجنون يمارس الجنون في أوجه في حمله مع الشخصيات الأخرى وأن يحقق في الحلم التومي ما لم يحققه في اليقظة أو ما يكتبه طول النهار . كما أنه ينبغي أن يبدو كشخصية منهارة الأعصاب ، مضطربة ، كثيرة الأحلام ، قليلة النوم ، ومتعددة الكوابيس . وينبغي لهذا الجنون أن يعكس في البنية الروائية ، في شكلها التعبيري كتقنية مجنونة ترجع بين الجنون والعقلانية وانسجاماً مع الشخصية المكتوبة والتي تقع ذاتها لتدللها ، ومع وجهات نظرها ، وأحلامها في النوم واليقظة ، وهواجسها ، وكوابيسها الى أن تتداخل الأزمنة والامكنة والشخصيات ، وتتداخل البنيات السردية الواعة واللاوعية بلغة تسجل زلات اللسان ، والأخطاء في الآراء وفي التعابير ، والتقليد والتجديد ، والعقل والذاكرة ، والعقل والقلب ،

٩ - أرسطو ه في الشعر - ترجمة روزالين ديوي - روك وجان لافو . ط : سوى باريس ١٩٥٥ ص ٥٩ - ٧١

نوع القبريات والاداة التي تمث بها وإذا أردنا التفاضيل
سألنا الحطاب .

٦- ما قام به السارد من حذف وصمت ، والتزام
السكوت استجابة لمجلس العقلانية ولا سيما في مجال
الحديث عن الجنس كممارسة جنونية .

٧- غياب الحديث عن الأطعمة سوى بعض
الاشارات النادرة .

٨- استبدال السارد بالكلمة دون الشخصيات .
قليلة هي الوحدات السردية التي نجد فيها المونولوج
التلقائي بل تكاد تكون نادرة أو منعدمة بخلاف المقاطع
السردية التي يغلب فيها صيغ المحكي الذاتي المجلوب
والتنافر ويندر التناغم .

والوعي والخيال ، والتصور واللاوعي ، والتغلب ،
والتردد ، والاقبال والاحجام ، وتداخل الشخصيات
بالأشياء ، والشعر بالنثر ، فتعدد الصيغ ، وتنوع
الأساليب وتكثر الأصوات في الذات وفي العالم
الحجازي ، وفي النص الروائي . لا ينبغي للكاتب
المجنون / العاقل أن يؤجل للمأساة كما يؤجل للموت .
ينبغي أن تشرف الشخصية في كل مرة على الهلاك ،
والفلق ، والحيرة ، والحزن المتداخل مع النجاة ،
والفرح ، والاستقرار المؤقت ، والسرور القصير
الأمد . فالحطاب الذي يسقط الشجرة لا ينتظر حتى
تهب الرياح كي تسقطها . إنه يضربها بفأسه كل مرة
ضربة تدع فيها جرحا عميقا لا يلتئم ثم يوالي الضربات
حتى تسقط . من خلال الشجرة الساقطة يمكن أن ندرك



المراجع :

- (١) نجيب محفوظ : حجرة المحرم ، ص : دار العلم بيروت 1977 .
- Philippe Hamon 'texte et idéologie' P.U.F Paris 1984. (١)
- Philippe Hamon 'Pour statut semiologique du (٢)
- Philippe Hamon personnage in "Poétique du récit"
- Philippe Hamon R. Barthes, W. Kayser, W.C. Booth,
- Philippe Hamon Ph. Hamon. Seuil/points, Paris 1977.
- Philippe Hamon "Le personnel du roman" Droz. Genève. 1983. (٣)
- Henri Mitterand "le discours du roman" P.U.F. Paris 1980. (٤)
- Mikhail Bakhtine "Le Marxisme et la Philosophie du Langage" ed. de Minuit. Paris. 1977. (٥)
- Gerard Genette "Figure s I" ed. Seuil/points. Paris. 1977 (٦)
- Jean Decotignies "L'écriture de la Fiction, situation idéologique du roman" P.U.F. Paris. 1979. (٧)
- Aristote "La Poétique" Texte, traduction, notes par Roselyne Du pont-Rac et Jean Lallot. Seuil. Paris. 1980. (٨)
- E. Zola "Germinal" Livre de Poche. (٩)
- (١٠)



لله الحمد والنعمة

شكل رقم ١ : سمة بالحظ الكوي

الفاطمي كتيبا أحمد يوسف

بداية الكتابة العربية

حروف الكتابة العبية تبلغ ثمانية وعشرين حرفا ، ذهب بها المنهج العربي التقليدي أنها إنما جاءت بهذا القدر لتكون مثل « منازل القمر » المقسمة إلى ثمانية وعشرين قسما ، ولما كانت منازل القمر يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلة ويغيب تحت الأرض أربع عشرة ، كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بمصد لتنازل المظاهرة وهي الألف والباء والحاء للمهملة والحاء للمعجمة والعين للمهملة والغين للمعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والياء المثناة تحت ، وما يدغم أربعة عشر حرفا أيضا بعدد المنازل الغائبة ، وهي التاء المشاء من فوق والشاء للثالثة والذال للمهملة والذال للمعجمة والطاء للمهملة والطاء للمعجمة والنون . « (١) وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة « يس الآية ٣٩ » .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

بداية الكتابة العربية

محمود عليم

وارتباط الحروف الأبجدية العربية بمنازل القمر التيأبنة له جلدور ضاربة في تاريخ الشرق الاعتقادى منذ فجر الحضارات ، فعبادة القمر وكان يطلق عليه « الاله سين » « وسين هذا هو سيد الشهر ينظم أيام الشهر والسنة » (٢) وكانت عبادة القمر قائمة في كل مكان نجدها عند السومريين وهم جنس غير عربي عاشوا في منطقة الرافدين الجنوبية منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد

(١) أبو العباس اللخستاني : صبح الأمان في صناعة الأكلأ . الجزء الثالث ص ١٦ - ١٧ . الطبعة المصورة بالقاهرة : ١٩٩٣ .

(٢) إسبينيوس موسكالي : الحطرات السلفية القديمة ترجمة للدكتور / السيد بطوب بكو ص ٢٥٥ القاهرة بدون تاريخ .

وكانت ذات العبادة قسائمة عند « الأكاديين » AKKADIANS (٢٧٠٠ ق. م) وهم السلالات العربية التي سكنت المنطقة. وكانت مدينة «أور» أحد مراكز عبادة القمر وكذلك للمنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية حيث يوجد حتى الآن أطلال معبد في مدينة «الحريصة» بحضرموت — CHATTAM OTTAL، وكذلك كانت أرض «سبته» تعرف باسم «أرض القمر». ويعد إله القمر من أقدم الألهة ويعتبر أباً للألوهة الشمس وكوكب الزهرة. (٣)

وإذا كانت هناك أسماء مختلفة قد أطلقت على الجنس العربي، على مدى من التاريخ العريق السابق فهم وأبنا كانت مواطنهم في أرض «الهلل الحصب» قد احتفظوا في كل مكان حلوا به بلغتهم التي خرجوا بها من موطنهم الأصل بيد أن هؤلاء الذين بقوا في هذا الموطن ولم يهجره في أي هجرة من الهجرات السابقة قد تميزوا بأنهم حافظوا على لسانهم العربي ولغتهم الأم وقد ساعدتهم على ذلك طبيعة البيئة الصحراوية المخلقة المنعزلة الفاصدة عن سكانها وحدهم ومثل هذه الطبيعة الصحراوية دائماً ما تشكل المحافظة المطلقة على الجنس والمادات والمعتقدات وبنيتها المنطوقة.

وحين جرت اللغة العربية مسلة وطنية على لسان سكان شبه الجزيرة العربية، ظهرت ملكات فطرية كفيض متدفق أراد الله تعالى له أن يكون شيئاً مختلفاً غير هذا الذي نجده في الفرع «الارامي» أو «النبطي» أو حتى في الشكل الذي تلقاه في ما سموه «العربية البائدة» التي نجدها في النقوش «الصفوية» أو «الشمودية» و «الحبيانية» أو حتى في هذا الفرع للشاعر من اللغة «الارامية المسيحية» (السريانية) ذات الكتابة «السطرنجية» وذلك لأن رسم الحروف الأبجدية العربية كان له تشكيله الطبيعي الذي له دوافعه في الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطه بالخط

«المسامري السومري» أو «المصري الهيروغليفي» أو «الأكادي المسامري» أو «الفينيقي» وكذلك لم يكن للحروف العربية الأولى أفض علاقة تربطها بهذه الصورة التي نجدها في الخط «المسد الجنوبي» الذي ذهب فيه رأي ابن «خلدون» في قوله: «وكان الخط بالغاً مبالغه من الأحكام والألتان والجودة في دولة للتابعة لما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة المنذر أنسياء التابعة في العصبية والمجددين للملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التابعة لقصور ما بين الدولتين» (٤)

ولم يكن رأي «ابن خلدون» هو وحده الذي ذهب بأصول الكتابة العربية إلى الخط المسند فقد ذهب معه الكثير مثل «الفيروز ابادي» صاحب «القاموس المحيط» الذي قال عن هذا الخط، لقد سمى العرب خطها بالجزم لأنه جزم واقتطع من المسند الحميري، وهذا ما ذهب إليه أيضاً الألوسي في بلوغ الأرب، في قوله وسمى خط العرب بالجزم لأن الخط الكوفي كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الكوفي لأنه جزم أي اقتطع وولد من المسند الحميري ومزمار هو الذي اقتطعه» (٥)

وإذا كانت مثل هذه الآراء القديمة لا تجد لها من يعارضها في الماضي فهي في وقتنا الحاضر قد تغيرت بسبب المكتشفات الأثرية الحديثة التي لاحقتها دراسات موضوعية أثرت المادة العلمية بإضافات وحقائق جديدة سعى بها أصحابها من العلماء أن يلزموا مادة «النقوش العربية» ARABIC INSCRIPTIONS وأصول الكتابة العربية وجلوها وتعايقها في الزمان والمكان مساراً منهجياً مرتبطاً بالموضوعية الأثرية والتاريخية حتى ذهب الرأي العلمي ليقول: «إن الخط العربي لم يقتطع من المسند الحميري كما تقول هذه

(٣) المصدر السابق من ٢٥٤.

(٤) ابن خلدون: المقدمة من ٣٧١ كتاب القصب بحدوث تاريخ.

(٥) القنكر / خليل يحيى تلمي - عمل لخط العربي وتاريخ تطوره قبل الإسلام - مجلة كلية الآداب للجلد الثالث الجزء الأول من ٣ القفلة مايو ١٩٢٥.

وقلم « المسند » هو ذلك القلم الذي عرفه ابن خلطون باسم المسند الحميرى وهو ذلك الخط الجنوبي والذي عرف عند المستشرقين باسم القلم « الحميرى » و « المسند » عند الاسلاميين من كلمة (مسند) ومعناها الكتابة في اللهجات العربية الجنوبية ، وهي أدق معنى من مصطلح المستشرقين فإن « حمير » قوم متناحرون بالنسبة إلى العيينيين « والسبئيين » و « الحضرميين » و « القتبانيين » وقد عرفوا قبل الميلاد ليا بعد ، ولا يجوز إلحاق المتقدم بالتأخر ، والصحيح هو العكس ولصعوبة إثبات أول من استعمل هذا القلم من عرب الجنوب لتسمية إلهه ، لذلك أفضل تسمية الاسلاميين بنسبة المستشرقين (ص) وذلك عند قول الدكتور « جواد علي » .

شكل رقم ٢ : حروف التثنية من الأبجدية الجاهلية والحمرية
(المست) وما يقلها من الحروف الحمرية .

(٩) سیتھو موسکائی : ناس للصدر ص ١٧٦ .

السومرية وقواعد اللغة « البابلية العربية » وهذا ما دلت عليه عالم اللغات القديمة « وليم رايت » W. WRIGHT في كتابه « محاضرات في قواعد المقارنة للغة السامية » قال فيه : ان هناك فوارق رئيسية بين اللغة السومرية واللغة البابلية هي الآتية :

- ١ - اللغة السومرية تعتمد على التركيب المزجي في تكوين ألفاظها على حين أن اللغة البابلية تعتمد على تغيير جميع الكلمات وتصريفها في تغيير معاني ألفاظها .
 - ٢ - جلد أو مادة الفعل السومري غير قابل للتغيير أما جلدو الفعل البابلي فإنه يتغير بتغيير الحركات .
 - ٣ - ليس في السومرية صيغ للتعبير عن المذكر والمؤنث بخلاف البابلية ففيها صيغ للتذكير والتأنيث .
 - ٤ - حروف الجر تأتي بعد الاسم للمجرور في السومرية على حين أنها تأتي قبل الاسم للمجرور في البابلية .
 - ٥ - إذا كان المفعول ضميراً أدمجته السومرية في ثنايا الفعل ، أما البابلية فإنها تلمحه بالفعل في آخره .
- وتتفق البابلية في جميع هذه الاعتبارات مع اللغات السامية ولا سيما العربية . أما السومرية فليس من المحقق بعد معرفة الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها . ولعلها شوائب لسوية من العصور التي قبل التاريخ » (١٠)

ويساند هذا الرأي ويعززه ، « ما ذهبت إليه طائفة من العلماء المحدثين على رأسهم العلامة « أولزهاوزن » OLSHAUSEN إلى أن اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى السامية الأولى » (١١) وكان الأحرى بهذا العلامة إذا أراد أن يكون منصفاً مع مادته العلمية أن يقول أن اللغة العربية للمحدثه هي أقرب ما تكون إلى اللغة العربية الأم وإذا كانت هناك آراء متباينة أزدحم بها حقل أصول اللغة العربية ومكان المواطن الأول للشعب الذي يتكلم بها .

والشعب « الأكادي » هو من هذه السلالة التي يجتمع علينا أن نطلق عليه « الجنس العربي » الذي خرج من الجزيرة العربية وانتقل إلى أرض « الرافدين » عندما حل بالأرض العربية تغيير جيولوجي شامل أحال الأرض الحفراء إلى صحراء قاحلة وفي هذه الأرض الجديدة ويجانب النهر الكبير استقر هذا الشعب العربي الذي أخذ يزمام أموره زعيم قوي هو الملك « سرجون الأول » SARGON (٢٣٠٠ ق . م) وأسس السلالة الأكادية مستعيراً مقوماتها السياسية بما كان لدى الشعب « السومري » (٢٥٠٠ - ٢٣٠٠ ق . م) الذي لا نعرف له جلدوا عرقية ، والذي سكن هذه المنطقة قبل أن يحل بها الأكاديون . وإذا كان هذا الملك الأكادي قد أخذ بأسباب الحياة التي وجدها مزدهرة آنذاك في أرض الرافدين ، فهو لم يغير من لغة القومية التي خرج بها من موطنه الأصلي ، فقد أبقي عليها لأنها كانت لديه حقيقة قومية له ولشعبه ، ولكن ضرورة الحياة حتمت عليه وعلى قومه أن يكتبوا لغتهم العربية بالحروف « المسمارية » CUNEIFORM, SCRIPT التي كانت مستعملة في الكتابة « السومرية » التي كانت تكتب على الرقم « الفخارية » والتي ظلت مستعملة كصحائف مميزة للتسوين حتى إبان عصورى الدولة « الآشورية » (١٠١٥ - ٥٥٠ ق . م) والدولة البابلية (١٠٠٣ - ٣٠٠ ق . م) بل وكتب بها أيضاً شعوب ساحل البحر الأبيض حيث استعملتها مملكة « ببل » EBLA (٢٤٠٠ - ٢١٥٠ ق . م) وكذلك مملكة « أجاريت » UGARIT (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق . م) وكل هؤلاء ينتمى أصلهم إلى العرق العربي .

وإذا كانت الدولة البابلية قد استعملت الحروف المسمارية لكتبت بها لغتها العربية فقد كان ذلك منها اتباعاً لأخلاقه عن السابقين لها رغم ما كان هناك من فروق في الخصائص اللغوية التي تفصل بين قواعد اللغة

(١٠) ج . أ . دوبر - حل ومركز الكلية السومرية والبابلية والعلمية والتكليفية : مجلة الأديب والفن الجزء الأول من ٧٤ العدد الثالث لندن ١٩٩٥ .

والمرجع : رايت وبت :

W. Wright: Lectures on the comparative grammar of the semitic languages

(١١) الدكتور إ. علي عبد الواحد داني : لغة اللغة الطبعة الأولى من ١٥ فبراير ١٩٤٥ .

تبين أثر الساميين « العرب » في جوانب الحضارة السومرية وتأثير فكرهم السديني في الفكر السديني السومري . « (١٣)

وحقاً إذا جاء إلى آخر البحث استخلص فيها استخلص نتائج ذات أهمية بالغة ذهب فيها قوله : استناداً إلى كل ما تقدم يمكننا القول بأن الساميين العرب قد وجدوا في وادي الرافدين منذ أزمنة قديمة جداً سبق العصور التاريخية وأهم قدر تركوا في المناطق الشمالية لبلاد سومر منذ بدايات عصر فجر السلالات ، لذلك فإن ظهور الأكاديين في بلاد الرافدين لا يمثل أول هجرة من الجزيرة العربية أو بلاد الشام إلى العراق كما أنهم لا يمثلون - كما يرى البعض - فتحاً أجنبياً بقدر ما كان تحركاً شعبياً اتجه من جزء من موطنه نحو آخر غنمته فيه وفره الماء وخصوبة الأرض وهي في الوقت نفسه كانت حركة لاحقة لأخرى سبقتها في الاستقرار بفترة لا يمكن تعميمها بالضبط . « (١٤)

وإذا كان علينا أن نضيف شيئاً موضوعياً إلى هذه الحقائق الأثرية واللغوية المتعلقة بالوجود العربي في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية فهناك واقع آخر على جانب كبير من الأهمية الحضارية ، ظهر واضحاً في ذلك التباين الذي يفصل ما بين بنية الفن السومري وبنية الفن الأكادي وهذا ما يمكن التأكيد منه والتعرف عليه بوضوح حين نلقى نظرة فاحصة على القطع الأثرية المختلفة الشكل والحلماة التي بقيت من التراث الفني لكل من الدولة السومرية والدولة الأكادية . والتي نجدتها في متحف بشارد ، ومتحف اللوفر والمتحف البريطاني بلندن . إن هذه القطع الأثرية سوف تعطينا الدليل الموضوعي على أن الفن الأكادي لم يتأثر بالفن السومري السابق له رغم ما كان بينهم من صلات تاريخية ومكاثية . ومن ثمة سوف يمكننا أن نقول أنه بما لا سبيل الشك فيه أن للمروسة السومرية الفنية كانت من خلال خصائصها متباعدة كل البعد ومنفصلة كل الانفصال

وهناك العديد من الدراسات الموضوعية التي أكدت علمياً وأثرياً أن الوجود العربي كان قائماً في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية العربية (٢٣٠٠ ق . م) أي أن وجود العرب في هذه المنطقة الخصبة كان قائماً إبان هيمنة الدولة السومرية (٢٨٠٠ ق . م) التي لا نعرف شيئاً عن شعبها ولا عن موطنهم الأصلي الذي جاءوا منه ، ولا عن تاريخ دخولهم أرض الرافدين وقد تناول العديد من العلماء في أوروبا هذه الدولة بالبحث والاستقصاء الشامل في دراسات معاصرة ألقت الضوء على هذه الحقبة التاريخية . كما تناولها علماءنا في العراق في دراسات علمية وتاريخية وأثرية ، ومن ذلك هذا البحث القيم الذي كتبه الأستاذ « عبد الكريم عبدالله » ومهد له بقوله : « ما تزال إلى الهيكل الحضاري العام لبلاد الرافدين نقاط غامضة إلى جانب معلومات وحقائق أخرى مشتتة تحتاج إلى الجمع والتبويب خاصة بعد كشف التنقيبات الأثرية والدراسات اللغوية الحديثة لجوانب من ذلك الغموض وبقاء تلك المعلومات خارجة عن محور التاريخ الحضاري العام لبلاد وادي الرافدين في الكتب التي تؤلف أو تبحث في ذلك التاريخ . ولعل في تلك الجوانب التي ما يزال الغموض يحيط بها هو الوجود السامي « العربي » في العراق قبل قيام الدولة الأكادية التي غالباً ما يعمدا المؤرخون مثله لأول هجرة سامية (عربية) في العراق (١٢)

ويعد ما أتى الأستاذ عبد الكريم عبدالله بالعديد من آراء العلماء مثل « ف . كريستيان » و « جوردن تشيلد » و « أنطون موركات » و « موسكاتي » و « ساجي » و « كرامر » وغيرهم ممن تناولوا هذه الحقبة من تاريخ الشرق القديم ، قال : « نضيف إلى ما تقدم من الاحتمالات والشواهد الجغرافية واللغوية والإدارية التي تعكس ملامح الوجود السامي (العربي) في العراق قبل قيام الدولة الأكادية مع ملاحظة أخرى قد تكون مهمة بالنسبة لحضارة عصر فجر السلالات ومن ثم فإنها ربما

(١٢) عبد الكريم عبدالله : ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكادية : مجلة سومر ص ٥٩ - ٦٠ الجزء الأول للجلد الثلاثون بشارد ١٩٧٢ .

(١٣) المصدر السابق ص ٧٥ .

(١٤) المصدر السابق ص ٧٦ .

الذين دفعتهم عصبيتهم الضيقة عن ألقوا القول جزافاً وتشدقوا بأن الحلقة المفقودة إنما هي أبجديتهم ، التي سموها أبجدية جبيل وصدقوا ما زعموه لأنفسهم وما دفعه اليهم بعض علماء فرنسا حين قالوا لهم أن أبجديتهم هذه هي أقدم أبجدية ظهرت على وجه الأرض التي تقع بين النيل والفرات وهكذا تطاولت أحلام الصغار على حقائق التاريخ وأصبح مركب النقص الماروني شيئاً ملموساً^(١٦) .

والشعب الآرامي يرجع بأصوله إلى العرق العربي وأنه خرج من موطنه الأصلي من شبه الجزيرة العربية ليظهر في التخوم القريبة من أرض الفرات ، وهو ذلك الشعب الذي عرف عنه أنه كان يحسن عارسة التجارة ونقلها عبر المسالك والدروب الصحراوية ، وقد أتاح لهم هذا الانتقال من مكان إلى مكان حاملين تجاربهم وحاملين أبجديتهم ، ليفرضوا هذه الأبجدية على الأمباطورية الفارسية منذ سنة (٦١٢ ق م) . لقد أخذت الدولة الفارسية الكيانية -ACHAEME- NIDS بهذه الأبجدية للاءمتها في تصريف الشؤون التجارية وجعلوها بجانب الكتابة السامرية التي كانت هي الأخرى معارة لهم . وما برحت هذه الكتابة الآرامية حتى تمكنت من أن تكون هي وحدها لغة (الحلال الخصب) كله وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين . . . وأصبحت لغة التجار الآراميين بعد مضي عدة قرون على اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويود عصره في فلسطين^(١٧) . بل وقضت اللغة الآرامية على اللغة الفينيقية في القرن الأول قبل الميلاد بل ووقفت صامدة أمام أبجدية الأغريق وأبجدية الرومان

عن المدرسة الفنية الأكاديمية ، لا في الأساليب التشكيلية والطابع التبريري وحده بل وفي طبيعة كل منها التي تأتت من أن جلوسها الفنية مختلفة المصادر .

ومعها كان من أمر ومعها تعددت الآراء واختلفت فيما بينها أو تقاربت ، : « فمن المسلم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها وأنه ما تكاد تعدلها في ذلك أي لغة (سامية أخرى) ويرجع السبب في هذا إلى نشأتها في أقدم مواطن (الساميين) ويقائنها في منطقة مستقلة متعزلة . فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ولم تلل لها سبل كثيرة للبعد عن أصلها القديم (٥) » وكان لابد أن يأتى ذلك الحين الذي احتضرت فيه الكتابة السامرية ، وأن تأخذ شعوب الشرق العربي بالحروف والآرامية العربية ، التي من المحتمل أنها قد انبثقت من حروف أبجدية سابقة كانت موجودة من قبل وقائمة عند بطون عربية لم يكشف عنها بعد حتى الآن أو ربما تكون هذه الأبجدية من إبداع (العرب الآراميون أنفسهم) وبلغت ذروتها حين أفسح التاريخ لها مكاناً مرموقاً بين أقرانهم منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإذا كان بعض العلماء قد أبانوا عن أصول الحلقة المفقودة للحروف الأبجدية العربية القديمة وعينوا مكاناً وزماناً معيناً وشعباً بلذاته هو صاحب هذه الحروف فقد ذهب البعض الآخر من العلماء وأتى رأيهم على نحو مختلف . وبين رأي هؤلاء وأولئك ظل الأمر مجهولاً لتبقى جلوس الأبجدية و العربية الآرامية غير معروفة وسيبقى الأمر هكذا حتى يتاح للحقيقة اكتشافات جديدة ومن هنا لا يسعنا إلا أن نتنظر وقد أخذتنا السخرية من نظرية هؤلاء

(١٥) الدكتور / حل عبد الواحد والي : المصدر السابق ص ٦٠ .

(١٦) حاشية .

(١٧) أردت أن نلف على مصدر هذا السخف فهناك كتب الأب ابراهيم الذي ساء جبيل عهد الأبجدية - بيروت ١٩٧٣ .

(١٨) جيس منري برست : تصانيف الحضارة - تاريخ الشرق القديم - ترجمة الدكتور / أحمد كوري ص ٢٠٧ القفلة ١٩٦٩ .

تكتب بها المراسلات الدولية لعالم « الهلال الخصيب » ، وقد عثر على كتابات عربية آرامية مكتوبة على ورق البردي في أماكن متفرقة ومن ذلك ما كشف في مقبرة عن رسالة باللغة الآرامية من أحد ملوك فينيقيا ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تباه شمال الحجاز ولما قضى قورش على بابل سنة (٣٣٩ ق.م) كانت اللغة الآرامية هي اللغة الرسمية لجميع ولايات (أستراييات) الامبراطورية الفارسية التي بلغت شرقاً إلى نهر الأنديس وغرباً إلى نهر النيل . وفي مصر تراسل الموظفين الفرس والمصريون بالآرامية وهي لغة أجنبية لكلا الطرفين ، وما يدل على دولية اللغة العثور على بردي آرامي في جزيرة الفتين بأسوان ، وعثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية وفي آسيا الصغرى عثر على كتابات آرامية من العهد الفارسي^(١٩) .

وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على أن اللغة العربية الآرامية قد أصبحت لها مميزات بين لغات العالم القديم . وذلك بسبب أبجديتها التي كانت من السهولة والوضوح بمكان جعل كل لغات الشرق تنقل عنها حروفها لتستعملها في الشؤون التجارية وذلك لأن « اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية » قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمعاد على أوراق البردي إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئاً فشيئاً^(٢٠) .

وموضع النقل في الأبجدية العربية الآرامية أنها كانت الأبجدية الأم لكثير من الأبجديات التي ظهرت في الشرق فاليهود استبدلوا حروفهم الفينيقية فيها بين القرنين

رغم أن كلاهما كان يفرض على الأرض وجوده الاستيطاني .

لقد ظهر العرب الآراميون في التاريخ القديم منذ ذلك الحين الذي كان فيه الشرق مسرحاً لتقلبات تاريخية جسيمة . كان موطنهم هذه الأرض كلها للترامية العريضة التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية يحدّها من الشرق أرض الرافدين ومن الغرب التخموم السورية ، ومن الشمال الأناضول وكانت في وضعها الجغرافي في هذا المعبر الوحيد لكل غاز خارج من الغرب قاصداً الشرق وكل فاتح خارج من الشرق قاصداً الغرب وبسبب ذلك نزلت بهم كوارث متلاحقة سببت لهم في كثير من الأحيان فقدان حريتهم السياسية ولكن رغم ذلك كله ورغم المتاعلة الذين كانوا يعيشون من حولهم فقد بقي وجودهم قائماً في الزمان والمكان وذلك بسبب أنهم كانوا أصحاب لغة ذات أبجدية سهلة الكتابة وبهذه الأبجدية المتبكرة مضى « العرب الآراميون يفرضون أنفسهم على الفاتحين الذين احتاجوا إليهم لكي يكتبوا لهم شؤون تجارتهم » والآراميون يكونون لشواً وحضارياً الفرع الشرقي من اللغات السامية الشمالية أي الكتلة الواقعة غربي العراق ، فيينا الكنعانيون والفينيقيون يسيطرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط بموانئهم كان الآراميون إلى الخلف في سهول سوريا وبوادي الشام يسيطرون على نوع آخر من المواني هي عطلات القوافل الواقعة على خطوط التجارة البرية القديمة وإن أحد عواصمهم الكبرى وهي مدينة حران كان معنى أسمها الطرق^(٢١) .

وما أن جاءت نهاية القرن السابع قبل الميلاد حتى أصبحت الحروف العربية الآرامية حروف لغة عالية

(١٨) الدكتور / حسن طائف : السبيل والفتح من ١٠٢ : الأسكندرية ١٩٧٦ .

(١٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نظرات عبرية في العلاقات بين لغات الشرق القديم (٢) مجلة عالم الفكر المجلد الثاني العدد الرابع من ١٧٦ : الكويت ١٩٧٢ .

(٢٠) جيمس هنري برستد : نفس المصدر من ٣٦٦ .

النبطي وفي العصر الهليني نرى النبط لأول مرة على مسرح التاريخ في عهد أنتيجونوس ANTI-GONUS في سنة (٣١٢ ق. م) حيث يروي ديودور الصقلي في أخباره أنه أرسل حملتين لتأديب النبطيين كما يجدثنا أيضاً عن مقاومة جيش نبطي مؤلف من عشرة آلاف رجل لجيوش أنتيجونوس^(٢٢).

لقد كان هؤلاء الأنباط مملكة قائمة على أرض الشرق العربي منذ عصر الدولة الآشورية (١٠٠٠ - ٦٠٠ ق. م) « وقد بلغت ذروة ازدهارها في الفترة السابقة لاحتلال الرومان سوريا عام (٦٥ ق. م) »^(٢٣).

وكانت هذه الدولة تربط بين العالم الحضاري المحيط بها وتنقل له تجارته وتقوم بحماية طرق قوافله الحيوية ومن هنا كانت الكتابة من الأمور الملحة لوجودهم . في البداية انحلت الحروف العربية الآرامية ليكتبوا بها وظلوا يستعملونها إلى حين حتى انحلتوا لأنفسهم أبجدية خاصة بهم عثر على نماذج منها في (العلا) بالحجاز وفي بترا PETRA وفي أرض بصرى بالشام وفي واحة تيهاء والحجر ويرجع تاريخ أقدم نقش نبطي لعام (٣٣ ق. م) وأحدثها لعام (١٠٦ ميلادية) نُقشت برسم نبطي متصل الحروف^(٢٤) كما يوجد لدينا من النقوش النبطية المتصلة الحروف ذلك النقش الذي يعرف باسم

السادس والرابع قبل الميلاد بحروف آرامية ولخط العبراني المسمى بالخط المربع مشتق من الخط الآرامي واتخذ العرب الشماليون الحروف الآرامية واتخذ الآمن والفرس والمهتد خطوطهم من أصول آرامية^(٢٥).

وجاء ذلك الحين الذي تحول فيه التاريخ عن أن يأخذ بالكتابة « العربية الآرامية » وذلك لأن كتابة أخرى هي العربية النبطية قد ظهرت على مسرح التاريخ العربي بحروفها المختلفة ، أشقتها الأنباط « من أبجدية أولاد عمومهم » الآراميون وكتبوها على نحو جديد إذ جعلوا حروفها متصلة ، ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية ببعضها قد جعل لها ميزة موضوعية ولغوية جاءت خطوة إلى الارتقاء ، انضمرت إليها الكتابة الآرامية السابقة ، بل أي كتابة أخرى معاصرة أو سابقة لها ، بيد أنه رغم ما حققته المكتشفات الأثرية من جلاء رؤية تاريخية ، فلا يعرف العلماء شيئاً عن تاريخ النبط قبل العصر الهليني (٣ ق. م) ويقول المستشرق الانجليزي (ج. أ. كوك) G.A. COOKE في كتابه « النقوش السامية الشمالية » أنه من المحتمل أن كلمة « الأنباط NA-BA-T-AI التي كانت تطلق على قبائل عربية كما جاء منقوشاً على الحجر الأسطواني لأشوربانيبال The RASSAN CYLINDER OF ASSUR-BANIPAL تعني الشعب

٢٢١ ٢٢٠ ٢١٩ ٢١٨ ٢١٧ ٢١٦ ٢١٥ ٢١٤ ٢١٣ ٢١٢ ٢١١ ٢١٠ ٢٠٩ ٢٠٨ ٢٠٧ ٢٠٦ ٢٠٥ ٢٠٤ ٢٠٣ ٢٠٢ ٢٠١ ٢٠٠ ١٩٩ ١٩٨ ١٩٧ ١٩٦ ١٩٥ ١٩٤ ١٩٣ ١٩٢ ١٩١ ١٩٠ ١٨٩ ١٨٨ ١٨٧ ١٨٦ ١٨٥ ١٨٤ ١٨٣ ١٨٢ ١٨١ ١٨٠ ١٧٩ ١٧٨ ١٧٧ ١٧٦ ١٧٥ ١٧٤ ١٧٣ ١٧٢ ١٧١ ١٧٠ ١٦٩ ١٦٨ ١٦٧ ١٦٦ ١٦٥ ١٦٤ ١٦٣ ١٦٢ ١٦١ ١٦٠ ١٥٩ ١٥٨ ١٥٧ ١٥٦ ١٥٥ ١٥٤ ١٥٣ ١٥٢ ١٥١ ١٥٠ ١٤٩ ١٤٨ ١٤٧ ١٤٦ ١٤٥ ١٤٤ ١٤٣ ١٤٢ ١٤١ ١٤٠ ١٣٩ ١٣٨ ١٣٧ ١٣٦ ١٣٥ ١٣٤ ١٣٣ ١٣٢ ١٣١ ١٣٠ ١٢٩ ١٢٨ ١٢٧ ١٢٦ ١٢٥ ١٢٤ ١٢٣ ١٢٢ ١٢١ ١٢٠ ١١٩ ١١٨ ١١٧ ١١٦ ١١٥ ١١٤ ١١٣ ١١٢ ١١١ ١١٠ ١٠٩ ١٠٨ ١٠٧ ١٠٦ ١٠٥ ١٠٤ ١٠٣ ١٠٢ ١٠١ ١٠٠ ٩٩ ٩٨ ٩٧ ٩٦ ٩٥ ٩٤ ٩٣ ٩٢ ٩١ ٩٠ ٨٩ ٨٨ ٨٧ ٨٦ ٨٥ ٨٤ ٨٣ ٨٢ ٨١ ٨٠ ٧٩ ٧٨ ٧٧ ٧٦ ٧٥ ٧٤ ٧٣ ٧٢ ٧١ ٧٠ ٦٩ ٦٨ ٦٧ ٦٦ ٦٥ ٦٤ ٦٣ ٦٢ ٦١ ٦٠ ٥٩ ٥٨ ٥٧ ٥٦ ٥٥ ٥٤ ٥٣ ٥٢ ٥١ ٥٠ ٤٩ ٤٨ ٤٧ ٤٦ ٤٥ ٤٤ ٤٣ ٤٢ ٤١ ٤٠ ٣٩ ٣٨ ٣٧ ٣٦ ٣٥ ٣٤ ٣٣ ٣٢ ٣١ ٣٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٦ ٢٥ ٢٤ ٢٣ ٢٢ ٢١ ٢٠ ١٩ ١٨ ١٧ ١٦ ١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠

شكل رقم ٣ : حروف آرامية : من زياد

(٢١) الدكتور / نجيب ميخائيل - مصر والشرق الأدنى القديم رقم ٣ (سورية) من ١٨٠ الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٦ . (٢٢) الدكتور / خليل يحيى تلس - نفس المصدر ص ١٠ - ١١

المصدر المذكور :

G.A. Cooke: A text-book of north semitic inscriptions, Oxford, 1903.

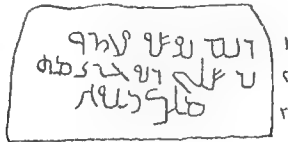
(٢٣) سيجتر موسكلي نفس المصدر ص ٢٠٢ .

(٢٤) الدكتور / جاد الحفيد زاهد نفس المصدر ص ٨٥ .

إن كل ما نقب عنه العلماء ورجال الآثار وكل ما عثر عليه من نقوش « نبطية » أخذ مسيله إلى دراسات متباعدة وأبحاث مختلفة أثرت للمادة العلمية والتاريخية ، قام بها علماء من مختلف الجنسيات مثل « الكونت دي فوجي R. DUSSAUD و « ديسو » DE VOGUE و « وادنسجتون » WADDINGTON و « فيتزششتين » WIETZSTEIN و « مسورتز » MORITZ و « ليمان » LITTMANN الذي

صاحبه « فهورين سلي » عثر عليه في « أم الجمل » وأرخه « أنوليمان » ترجيحاً بعام (٢٧٠ ميلادية) .

ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية بعضها مع البعض في هذا النقش قد جعل لهذا الأثر ميزة موضوعية ولغوية ، وخطوة إلى الارتقاء افترضت إليها الكتابة « الآرامية » السابقة بل وأي كتابة أخرى عثر عليها حتى ذلك التاريخ .



شكل رقم ٤ . نقش قبر دبشلي . عثر عليه في أم الجمل

من : كليب

النص العربي	النص النبطي
هذا قبر فهور	١ - دله نقشو فهورو
ابن سلي مري حلقة	٢ - بن سلي ، ريو حد كت
ملك تنوخ (٢٥)	٣ - ملك تنوخ

ف	س	ر	د	ح	ب	ا
٩	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥

شكل رقم ٥ : مفردات من حروف . نقش فهور . ابن سلي بطمري والمقابل النبطي

(٢٥) حاشية :

أصدر قسم الآثار والمخطوط بكلية الآداب جامعة الملك سعود دراسة مختصرة عن هذه الوثائق الأثرية في كتاب صغير حديثاً باسم « وثائق أثرية وصورة من حضارة العرب (١٩٤٤ - ١٩٤٤) »

وحوران وهي في الغالب كُتُابات قصيرة جداً كتبت للتذكُّار أو لتقريب قرابين للالهة النبطية^(٢٧).

ويمكننا أن نطلق على المرحلة الأولى من الكتابات العربية النبطية « الكتابة العربية الجاهلية » التي ما برحت حتى أن استقامت حروفها وأصبحت أكثر تقدماً وأضبط شكلاً وأدق تعبيراً في نقل حركات الأصوات ، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة المتطورة « الصورة العربية الجاهلية الثانية » وأحسن نماذجها نجده في « نقش النمارة » المؤرخ سنة (٣٢٨ م) . ومن ثمة ظهرت نماذج أخرى تميزت بأن حروفها العربية جاءت أكثر وضوحاً وهذا ما نجده في « نقش زيد » (٥١٢ م) وفي « نقش حران » (٥٣٦ م) .

ويعد نقش النمارة أهم المكتشفات الأثرية في تاريخ الخط العربي وذلك لأنه يمثل الحلقة التي بين الكتابة "نبطية العربية" وبين الكتابة « العربية النبطية » أو حتى آخر الكتابة العربية في صورتها الأولى ونقش النمارة شاهد قبر حجري عثر عليه في بادية الشام وهو من حصة سطور محفورة على حجر من البازلت على قبر الملك أمريء القيس بن عمرو المتوفى سنة ٢٢٣ بتاريخ مدينة بصرى الموافق ٧ ديسمبر سنة ٣٢٨ ميلادية ، وأبعاد هذا الحجر هي ١,٧٣ متراً في الطول و ٤٥,٠ متراً في العرض و ٤٠,٠ متراً في السمك ويوجد الآن في متحف اللوفر بباريس^(٢٨) وقد عثر عليه الأستاذ « رينيه ديسو » R. DUSSAUD ، وقام بمساعدة « كلير مون جايو » CLERMONT GANNEAU بدراسته ونشر الأبحاث المتعلقة به وكان رأيه فيه أنه « نص عربي مكتوب بحروف نبطية »^(٢٩).

نشر دراسة عن مكتشفاته في مجموعة المكتشفات النبطية CORPUS, NABATAEAN INSCRIPTIONS ومنهم أيضاً « جون بوركلوت » J. BURCKHARDT و « جورج مارش » G. MARSH و « موسكاتي » S. MOSCATI وغيرهم . فالخقل قد اتسع بالعديد من الدارسين الذين دفعوا بالدراسات النباهية قدماً واشتهروا بأبحاثهم ومكتشفاتهم . ولا شك أن هذه المادة سوف تثري الكثير في الوقت الحاضر حين تنتهي بعثة كلية الآداب « جامعة الملك سعود » من أعمال التنقيب لمنطقة « العسلا » و « الحجر » (مدائن صالح)^(٣٠).

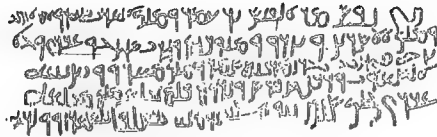
وكان من الطبيعي أن يتحول « العرب الأنباط » عن الكتابة بالحروف « العربية الآرامية » ويتأصلوا أنفسهم بصورة أخرى من الحروف جاءت في أول أمرها متواضعة الأداء ولكنها ما برحت حتى استقام شكلها وقد عثر العلماء على العديد من هذه الكتابات « مكتوبة على ألواح حجرية أو منقوشة على صخور الجبال وقد قسمها العلماء قسمين ، الأول : كتابات مكتوبة بخط متقن ومنقوشة بدقة على الألواح الحجرية أو الصخر ، وأكثرها وجد في مدائن صالح (الحجر) والباقي في سلع وفي بلاد حوران كما أنها في الغالب أنها من القبريات ، يكتب فيها اسم صاحب القبر واسم مشيله وأسماء من يدفنون فيه وفي بعض الأحيان يذكر فيها تاريخ النقش بحسب التاريخ النبطي . والقسم الثاني : كتابات وجدت مكتوبة بخط قبيح وأشباه بالفرشنة من الكتابة ويطلق عليها الباحثون اسم الكتابات المخرشنة وقد وجدت في أودية طور سيناء

(٢٦) الدكتور/ خليل يحيى تلمي نقس لفسدر ص ١٥ ورقم

(٢٧) الدكتور حسن طائف / نقس لفسدر ص ١٦٥ . (٢٨) رينيه ديسو : العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواعلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٨) رينيه ديسو : العرب في سوريا قبل الإسلام الكتاب طبع عام ١٩٥٩ ببلغة الفليب والترجمة والنشر ، ترجمة عبد الحميد الدواعلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٩) الدكتور / حل عبد الواحد والي : نقس لفسدر ص ١٠٤ .



شكل رقم ٥ - نقش النجارة على قبر أمريء القيس (٢٢٨ م)

من : النجدة

النص : « تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله
ذو أسر التج » .

ترجمها الدكتور / علي عبد الواحد وإلي : -

« هذا قبر (نفس) أي قبر في العربية الثالثة أمريء
القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي (ذو معنى
الذي في لهجتهم) حاز (أسر بمعنى أو أستولى وليس
التاج^(٣٠) » .

ونقل الدكتور علي عبد الواحد وإلي هذا السطر
كالآتي : -

« هذا قبر أمريء القيس ابن عمرو ملك العرب كلها
الذي تتوج بالتاج^(٣١) » .

وترجم الدكتور / عبد الحميد الدواخلي هذا السطر
عن « ديسوا » كالآتي : -

« هذا قبر أمريء القيس بن عمرو ملك جميع العرب
الذي كلل بالتاج^(٣٢) » .

أما الدكتور « شوقي » فنفذ نقل لنا هذا السطر
على هذا النحو : -

وقد قرأ الدكتور « شوقي » ضيف « هذا النص على
النحو الآتي : -

١ - تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو
أسر التج » .

٢ - وملك الأسدين ووزو وملوكهم وهرب ملحقو
عكندي وجا » .

٣ - يزجي في حبيج نجران مبنية شمر وملك معلو
ونزل بنيه » .

٤ - الشعوب ووكلمهم فرسوا لروم فلم يبلغ ملك
مبلغه » .

٥ - عكندي هلك سنة ٢٢٣ يوم بابكسول بالسعد
ذولده » .

وهناك قراءات متباينة و لنقش النجارة تفاوت بعضها
عن بعض واختلفت بعض الكلمات من ترجمة إلى
أخرى على سبيل المثال نأخذ السطر الأول وترجمته عند
بعض الأساتذة المحققين لتبين مدى الضارب
والاختلاف الذي بينهم .

(٣٠) الدكتور / خليل يحيى تقي نفس المصدر ٧١

حاشية :

كتب سيادة النص الأصلي بالحروف العبرية بدلاً من الحروف العربية ٢٢

(٣١) رويته ديسو : نفس المصدر من ٣٣ .

حاشية :

كتب سيادة النص الأصلي بالحروف العبرية بدلاً من الحروف العربية ٢٢

(٣٢) الدكتور : شوقي : ضيف : النص الجاهلي الطبعة الثانية ص ٢٥ - ٣٦ القاهرة ١٩٦٥ .

٥ - في القوة . هلك سنة ٢٣٣ يوم ٦ من كسلول ،
ليسعد الذي ولده .

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة في
الأشادية التي للمؤنث وأنها داخلة على نفس ولعلها هنا
بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذي ، وهي لغة
معروفة بين القبائل مثل طيء ، كما استخدم كلمة أسد
بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها في المعاجم
العربية ، وقد حذف الألف من كلمة التاج ولم يكونوا
يشيئونها حيثذ وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر
التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية ، ونراه في
السطر الثاني يضيف واوا إلى نزرور وملحجوا وفقاً لكتابة
النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدي فلعلها
عكديا ، حذف منها الألف ، وفي المعاجم العكد :
القوة . ويريد بالأسدين قيلتين أسد ونراه في السطر
الثالث يستخدم كلمة يزجي من فعل زجا بمعنى دفع أي
بالسلخ ، ومعنى حيج في المعاجم أشرف وكأها
استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ،
وشمر من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنه
الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب وفي السطر الرابع
ووكلمهم بإضافة نون التأكيد إلى الفعل بعد الضمير .
ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم وفي السطر الخامس
بالسعد ذو ولده أي ليسعد الذي ولده » .

ومعني الدكتور شوقي ضيف مستطرداً - وواضح أن
النص يمثل دوراً من أدوار اللغة العربية الذي نزل بها
القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا بر الآرامية
وقد استخدمت فيه آل أداة للتعريف » (٣٦) .

« هذا نفس (قبر) امريء القيس عمرو ملك العرب
كلها الذي عقد التاج » (٣٣) .

أما الدكتور « حسن ظاظا فقد نقله على هذا
النحو : -

« هذا جثمان امريء القيس بن عمرو ملك العرب
جميعاً الذي عقد التاج » (٣٤) .

وجاء هذا السطر عند الدكتور / عبد الحميد زايد
هكذا : -

« هذا قبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم
الذي حاز التاج » (٣٥) .

وأدق ترجمة لنقش التمامة إنما نجلعها عند الدكتور /
حسن ظاظا وكذلك عند الدكتور / شوقي ضيف فاذا
كتنا قد نقلنا بالتفصيل تصور كبل منها ، فلذلك لأن
تناولها لهذا النقش كان موضوعياً وشاملاً لأصول اللغة
العربية مما أعطى لهذا الأثر الحضاري ما يستحقه من
القيمة التاريخية واللغوية والعلمية .

تناول الدكتور / شوقي ضيف هذا الأثر العربي
بقوله : « إذا أردنا أن نكتبه ونقربه إلى لغتنا اليوم كتبناه
على هذا النحو : -

١ - هذا نفس (قبر) امريء القيس بن عمرو ملك
العرب كلها الذي عقد التاج .

٢ - وملك قبيلتي أسد ونزراو وملوكهم وشئت مد
حجا بالقوة وجاء .

٣ - باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة
شمر . وملك معدا وولي بنيه .

٤ - الشعوب ووكله للفرس والروم ، ولم يبلغ ملك
مبلغه .

(٣٣) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٩ .

(٣٤) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ١١٤ .

(٣٥) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣٦) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٩ / ١٢٣ .

وهرب عججو عكدي :

المفهوم من هرب أنه صد بالمجموع وقرى الجمع ،
ومعج مشكلة ، يقول ديسو أن المفهوم أنها قبيلة فإذا كان
هذا الملك قد هزمها وشتتها فليس عججيا أن يبدوا اسمها
عجريا علينا بما أنها قد اندثرت . ومع ذلك رأى بعض
الباحثين أن الكلمة هي (عجج) وأنا وددت في بعض
أسماء للمواضع في شبه جزيرة العرب ، ذكر ابن هشام في
السيرة النبوية موضعا قريبا من مكة اسمه مطبعة عجج ،
ويبدو أن المدجلة كانت موضعا فيه يترى يستقي منها الناس
وحوض تشرب منه الدواب ، فهذا معناه في لغة
العرب ، وهي في هذا الموضع منسوبة إلى عجج وقد ورد
ذكره مع خيلانات ضبيلة أحيانا في كتاب المسالك
والممالك لابن خرداذبة ، وفي معجم البلدان لياقوت
الحموي وفي اللسان لابن منظور أما (عكدي) فقد
اختلفوا في تفسيرها ، فخرجها بعضهم على أنها من
كلمتين من اللغة النبطية « عد . كدي » الأولى بمعنى
حتى . والثانية بمعنى ذاك الوقت . وهو تخرج معقول
مقبول ، خرجها آخرون على أنها من المكة وهي القوة
فيكون المعنى أنه شنت هذه القبيلة قوة منه وهو كذلك
مقبول لا سيما أن أصله عربي ، وأنه يستقيم أيضا مع
السطر الخامس . وهناك من رأى أن تصحح القراءة من
« عكدي » إلى « عكري » بالراء . من العكر بالعربية
وهو الأصل والجذر ، فيكون المعنى أنه شتتهم أصلا أو
كما تقول في التعبير المحدث « بصورة جزئية » والواقع
أن الذين صححوا ليسوا في حاجة إلى تصحيح ففي
اللغة العربية عكد الشيء وسطه ، وعكده اللسان أصله
وكل ذلك عكدة القلب .

٣ - يزجي :

الباء حرف جر ، في اللغة العربية الزجاء في الأمر
تيسيره واستقامته وسهولته وربما كانت القراءة الصحيحة
هنا يزجاء أي بسهولة وتوفيق ، أو بنجاح كما قلنا .

أما تناول الدكتور حسن ظاظنا لنقش النمارة فقد جاء
مختلفاً نصاً وتحليلاً ذهب قوله فيه « وترجته لغة مفهومة
تكون على النحو الآتي :

هذا جثمان امرئ القيس بن عمرو ملك العرب
جميعاً الذي عقد التاج .

وملك قبيلتي الأسد ونزارا ، وملكهم وصد (بني)
عجج ؟ حتى اليوم وجاء ،

٣ - بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمر ، وملك
(قبيلة) معد ، وقسم على أبنائه .

٤ - الشعوب ، وجعلها فرسانا للروم ، فلم يبلغ
ملك مبلغه .

٥ - حتى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ (من شهر)
كسول المساعدة لأولاده .

ومضى يفسر هذا النص ويعلق عليه بقوله :

١ - يهرمرو :

نلاحظ الصيغة الأرامية النبطية بربدا من ابن .

ملك العرب كله :

بدلا من كلها أو كلهم ، مما يدعو إلى التساؤل هل
نسي الكاتب الميم ، أم هل نطق هذه اللفظة كلها بدون
حاجة إلى أن تكون الألف مكتوبة لأنها حرف مد ؟

ذو أسر التاج :

ذو معناها الذي ، وهي لغة طائية ويمنية شائعة ،
قوله :

فإذا الماء ماء أبي وجدي
ويصري ذو حفرت وذو طسوت

٢ - الأسدين :

هما قبيلتان كل منهما اسمها أسد ولعل إحداهما هي
أسد بن ربيعة بن نزار ، والثانية أسد بن شريك وهم
بطن من الأزد . وقد قدر بعض المستشرقين أنه يمكن أن
تقرأ هنا الأسدين على افتراض أن أحد الياطين ناقصة .

حجج :

تقول العرب حبيجه بالعصا وحبيجه وهبيجه أي ضربه ، وحجج نجران أي ضرب نجران ، وإن كان أحد من فسروا هذا النقش قال أنه مثل مادة حجج وحجك ، بمعنى أحاط بالشيء وضيق عليه ويضاف إلى ذلك أن القراءة نفسها في هذا الموضع فيها صعوبة وقد قرأ بعضهم بذلك حجج نجران حرب نجران .

وملك معدو وبين بنيه :

وأضحى أنه سيطر على قبائل معد ، وأنه وزع السلطان على الشعوب أي القبائل بين بنيه والواقع أن الكتابة هنا مستغلفة أيضا ، وقد قرأها المستشرق الألماني هـ لينز بارسكي « وملك معدو وبينان ابنة الشعوب وهويقترض أن امرأ القيس ابن إبن يسمى جمعد ، والثاني بنان وأنه ملكها على الشعوب أما الفرنسي « وينييه ديسو » فإنه جنح في النهاية إلى أن يقرأ « وملك معدو » أي صار ملكا على معد .

ونزل بنيه الشعوب :

بتشديد الزاي ، أي أنه أقرهم وأنزلهم في الشعوب التي أخضعها ، وجعلهم نوابا عنه هناك فيكون قد قرأ (ونزل) بدلا من (وبين) في القراءة الشائعة .

٤ - ووكلهن :

الضمير المؤنث الجمع في هذا الفعل يعين أن عائته هو كلمة الشعوب . وكل الذين قرأوا هذا النقش جعلوا هذا الفعل مبنيا للمعلوم ، مما أوجد صعوبات في شرح مضمونه ، وانطبق هذا المضمون على الصيغة اللفظية ولذلك تحيروا في الكلمتين التاليتين « [فرسو لروم] فظن بعضهم أنها تدلان على الفرس والروم ، وهذا خطأ من الناحية التاريخية ، إذ تعرف أن الفرس والروم كانا في حروب دائمة ، ولم يحدث أن اشتركا معا في مستعمرة من المستعمرات . وينييه ديسو يقرأ الكلمة [فارس] ويرد على هذه القراءة أن السياق يحتاج إلى

الجمع حتى يلتزم مع ألفاظ مثل [بنيه] و [الشعوب] و [ووكلهن] ثم أنه في اعتبار هذا المشتق تكون الواو في [فارسو] من تلك الزيادات النبطية في الأسماء ، ويرد على ذلك أن هذه الواو تأتي في أسماء الأعلام فقط كبا وأيناها في (عمرو) و (نزارو) و (محجو) و (معدو) ، وقد استبعدنا أن تكون فارسو عليا على الفرس . ويبدون أن الحل هو قراءة الفعل (ووكلهن) إما تخفيف للكاف ، وإما بتشديد الباء والبناء للمجهول مع اعتبار فارس جمعا للمذكر السالم توهم الكاتب وهو نبطي أنه مضاف لكلمة الروم والتي بعده فحذف منه النون وفي هذه الحالة تكون الواو في ووكلهن للحال ، ويكون المعنى أن هذا الملك وضع أبنائه أمراء على قبائل العرب وكان قد وكل بهذه القبائل حكام عسكريين من الروم ، فهو يمتزج بالوصول بهذه القبائل العربية إلى نوع من الاستقلال الذاتي عندما كف عن حكمها (فارسو الروم) تاركين مكانهم لأبنائه هذا الملك ونظن أنه بهذا المفهوم نزيد الفكرة وضوحا في قوله (فلم يبلغ ملك ميله) .

٥ - بالسعد ذو ولده :

وأضحى أن الكلمة الأولى تقرأ (بالسعد) والعبارة فيها كلام كثير ، أقربه أن يكون دعاء بأنه بسعد الذين أنجبهم هذا الملك بالمجد الذي بناء لهم أو أن يكون دعاء تحول إلى صيغة هتاف لمن ولد هذا الملك وكأما قيل ما أسعد الذي ولد هذا الملك العظيم . والذين قالوا بذلك قريبه من العبارة القصصية عندما يقال (يا سعاد من ولده) وزعم بعض الشراح أن كلمة (سعاد) هنا اسم علم لصنم معروف في الجاهلية ، وأن الياء معه للجور ومن هؤلاء هاليقي ، وبايز ، ويعترض ديسو على ذلك بوجود أداة التعريف مع الرسم ، وهو اعترض بسهولة التجاوز عنه ويكون المعنى أنه قد أنجبه أبوه بعناية هذا الإله ولكن صياغة الجملة لا تستقيم تماما مع الذوق

الدكتور عبد الحميد زيدان الذي شرحه وذهب في بعض جملة أنها عربية ذات ألفاظ فصيحى وأنها « أقدم ما وصل إلينا مدوناً من أساليب عربية ، وقد دفعت هذه الجمل المصرية المشتق الألساني أنوليمتمان » E. LITTMANN إلى أن يقرر أنه نقش عربي كتب بالخط النبطي ويقسم اللفاظ أرامية^(٣٧) .

كما أن هناك دراسة أخرى لنقش النمارة كتبها الدكتور خليل يحيى نامي جاء في عبارات مختصرة لا تتوازن مع مالها الأثر من أهمية لغوية وتاريخية وحضارية . فعل الرغم من كل العناصر التي تميز هذا الأثر وأنه قد احتوى على حوالي خمسين كلمة عربية تزيد أو تقل كتبت فوق حجر البازلت فقد أجعلها الدكتور خليل يحيى نامي في سطور مدلونات تتلوه فيها المتن وسجله بالخط العربي وهو خط لا صلة تربطه بالأثر العربي ويصاحبه العربي وهو امرى « القيس بن عمرو » وهو حين فعل ذلك لم يفصح لنا عن الأسباب التي دعت به أن ينقله هكذا . ويعد ذلك ترجم لنا هذه السطور العبرية الى العربية ثم استخلص من هذا المتن العبري ما جعله يقول أنه وجد « في هذا النقش كلمات عربية كثيرة مثل جاء ، حرب وركل الشعوب كما وجد أيضاً تراكيب عربية فصيحة مثل « فلم يبلغ ملك مبلغه وأداة التعريف « ال » في كلمة العرب والأسديين والشعوب ثم ختم كلامه بهذه العبارة الغامضة وهذا يدل على أن غالبية النفوذ العربي كما يدل على انتشار الكتابة النبطية بين العرب وملوكهم^(٣٨) .

وإذا كان « نقش النمارة يمثل مرحلة تاريخية من الكتابة العربية الأثرية (٣٢٨ م) فالنقوش التي جاءت بعد ذلك حتى وإن كانت غير متوازنة في الأداء التطبيقي

العربي على هذا التأويل ، ثم أننا لا نعرف عن الآله سعد أنه كان معبوداً « في هذه المنطقة » .

وهذا النقش أقدم وثيقة مكتوبة بالعربية وصلت إلينا وهو يؤكد أن اللغة العربية كانت هي هي ، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة له^(٣٩) .

وهذا الأسهاب مني في نقل معظم ما كتبه الدكتور حسن ظاظا حول كشف النمارة إنما اقتضاه خشيتي أن يكون اختصارى لسياقه الموضوعي وتحليله المسهب ، قد يحل بالربا يا الشاملة التي أريد أن ينقلها لنا والتي قصد منها أن يفسر كل كلمة من كلمات هذا النقش ليبلور كل ما يتعلق به من أبعاد موضوعية وتاريخية ولغوية . وإذا كان هناك موضع خلاف بين كل من الدكتور شوقي ضيف والدكتور حسن ظاظا حول كلمات هذا الأثر فهذا الخلاف ومهما كانت أبعاده قد أفاد المادة العلمية وذلك لأن البنية اللغوية والتاريخية التي تضمنته تسع لتعطي الباحث الحق في أن يختار محور الزاوية اللغوية التي يريد أن ينطلق منها ليوفي معنى كل كلمة من كلمات هذا الأثر . ومن هنا إذا كانت هناك بعض من وجهات نظر مختلفة حول معاني بعض الكلمات فمن حق الباحث أن يأخذ نفسه بوجهة نظره في التفسير الذي يعتقد أنه الأرجح . كما أن له الحق كل الحق أيضاً أن يختار القاعدة التي يريد أن ينطلق منها . ومهما كان من أمر في وجهات النظر المختلفة والتباين الموضوعي بين الأساتذة فقد كان له أكبر الفائدة (على نقش النمارة) وهو ذلك الأثر الذي تناوله العديد من العلماء الأجانب الذين عارضوا رأي ديسو مكتشف الأثر . كما أن هناك العديد من علمائنا تناولوه بالبحث والتفسير نذكر منهم

(٣٧) الدكتور / عبد الحميد زايد : نقس المصدر ص ٢١٦ .

(٣٨) الدكتور / يحيى خليل نامي : نقس المصدر ص ١٧ .

(٣٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نقس المصدر ص ٢١٤ .

الأولى :

١ - (ينصر) الآله شرحو برامت منعووطي برمر القيس .

٢ - وشرحوير سعد وستر وشريجو .

والثانية :

١ - (ينصر) الآله شرحو برامت برامت منغو وهني برمر القيس .

٢ - وشرحوير سعد وتومسترو وسر^(٤١) .

ونأى الى غرض آخر له أهميته في تطور الحروف العربية المبكرة نجده على نقش ، وجد منقوشا على حجر فوق باب كنيسة بحران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل اللوز وهو مكتوب بالعربية واليونانية ، مؤرخ في سنة ٤٦٣ (التاريخ البصري) أي في سنة ٥٦٨ م . أي قبل التاريخ الهجري بحوالي ٤٥ سنة وقد وفق « ليتمان » الى قراءته قراءة صحيحة كاملة بعد أن عجز المشرقون عن ذلك أكثر من نصف قرن^(٤٢) .

فحروفها العربية متطورة الصورة ولدينا من هله الكتابة « نقش » « زيد » الذي « كشفه الأثري » زاخو SACHAU سنة ١٨٧٩ ، « وزيد » اسم خرية تقع شرقي حلب والنقش مؤرخ سنة (٥١٢ م) وهو أقدم وثيقة عربية تحمل خطا عربيا وإلى جانبها خط سرياني وآخر إغريقي وقد كتب على واجهة كنيسة مارسركيس^(٤٣) .

وقد اختلف المشرقون في قراءة هذا النقش ونشروا كل منهم تفسيراً يخالف تفسير الآخر ولكن أهم القراءات هي قراءة « م . ليتسبرسكي » M. LIDZBARSKI وهي :

١ - (ب) الآله شرحوير .. مع قيعو .. برمر القيس .

٢ - وشرحوير سعدو وسترو (سر) يحو .
وهناك قراءتان للأستاذ « أنوليتمان » :

يا لال نسرحو بر ام ميعو فكل دم الفند

٩ سرنه بر سكر ٩ سكر و سد يمي

شكل رقم ٦ : نقش زيد سنة ٥١٢ م

من : نقي

يا سرحل بر صلحو سد د ا المر هو

نس- به كلكبر جد معس

حمد

معد

شكل رقم ٧ : نقش حران سنة ٥٦٨ م

من : نقي

(٤١) الدكتور خليل نقي : نفس المصدر ص ٨٩ - ٩٠ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٤٣) المصدر السابق ص ٩١ .

وهناك نقش آخر له من الأهمية التاريخية والأثرية ما يجعل منه الحلقة الأخيرة من الكتابة العربية الجاهلية الثانية نشره أيضا « ليمان » نقش على قبر « ابن عبيدة » وحروفه مرسومة بعضها مع البعض وهذا يعني أن الكتابة قد استقرت على أن تكون مرتبطة الحروف (نظر شكل رقم ٨) . ولكن متى ظهر هذا التجديد على الكتابة العربية ، هذا ما ليس لنا به علم وبذلك يكون نقش حران (٥٦٨ م) هو أتم أثر مؤرخ لدينا في الحروف العربية متصلة بعضها مع البعض .

ويحتوي النقش هو :

١ - أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا الموطول

٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد .

٣ - خير .

٤ - بعم .

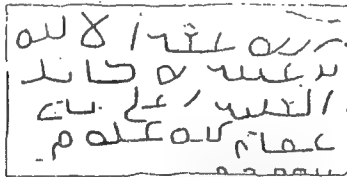
ويقرأ أيضا :

١ - أنا شرحيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة .

٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد (انهار)

٣ - خير .

٤ - بعام (٤٣) .



شكل رقم (٨) : كتابة عربية متصلة الحروف حار عليها في أم الجساسات بعلبك .

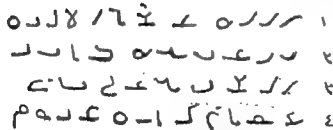
من : المجلد

١ - الله غفر لاه .

٢ - ابن عبيد كاتب .

٣ - العيد أعلى يقى .

٤ - عمري كته عنه م .



شكل رقم (٩) : مفردات حروف نقش ابن عبيدة

عنهم ، فهم عرب لهم خصائص لغوية قريبة من الخصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم وإن اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية^(٤٦) .

ويذكر لنا الدكتور « جواد علي » « لقد بان لنا من دراسة جميع النصوص الجاهلية التي عثر عليها في الجزيرة العربية حتى الآن أنها من حيث استعمال أداة التعريف لا تخرج من حدود مجموعات ثلاث : مجموعة تستعمل (ال) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (الهاء) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (النون) ، أما مجموعة (ال) فتشمل النصوص النبطية وضعة نصوص كتبت بلهجة عربية قريبة من عربية القرآن الكريم ، وهي النص المعروف عند المستشرقين باسم نص « النمار » ويرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨ م الشكل رقم (٥) ويليه نص « زيد » ويعود تاريخه الى سنة ٥١٢ م (الشكل رقم ٦) ونص حران ويرجع الى سنة ٥٦٨ م (شكل رقم ٩) وكتابة أم الجمل الثانية (شكل رقم ١٠) وتشمل هذه المجموعة أيضا عربية القرآن الكريم واللهجات القريبة أو المتفرعة منها المذكورة في كتب اللغة .

أما مجموعة حروف النون فتشمل اللهجات المعنية والسبئية والقبتانية والحضرية والحيمرية ، وهي على اختلافها المذكور تنفق كلها في استعمال هذه الحروف أداة للتعريف . وأما مجموعة حرف (الهاء) فتشمل الصوفية والشمودية . وهذا التقسيم هو عمل ما اظن أجمع وأدق في الزمن الحاضر من تقسيم المستشرقين ويمكن أن يكون أساسا الى دراسات أوسع قد تؤدي بنا الى تقسيم جديد للهجات العرب قبل الاسلام ، على أن نوجه العناية في الوقت نفسه الى البحث في كتابات

وإذا كانت هذه النماذج الأثرية من الكتابات العربية قد عثر عليها في مناطق معينة دون غيرها من الأماكن التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية ، فهذا قد يسهل لنا أن نعرف عن يقين الموطن الأصلي للحروف العربية ومساكنها حين انتقلت من مكان الى آخر وما أدخلته من أسماء وما تشكلت عليه من صور مختلفة . وإذا كان أغلب النماذج من النقوش العربية قد عثر عليها في هذه المنطقة الشمالية من الشرق العربي فهذا يعني أن هذه المادة الحضارية إنما هي نبت هذه المنطقة المتوسطة ، وليس من مكان غيرها ظهرت فيه ، وهذه حقيقة مطلقة علينا أن نأخذ بها ولا نخلف فيها . وحين تكشف نقوش أثرية جديدة موثوقة بصحتها التاريخية والعلمية . فهذا سوف يثري هذه الحقيقة ويثبتها علميا وأثريا .

إن المكتشفات الأثرية التي نقب عنها علماء الآثار على مدى قرن ونصف من الزمان الحاضر قد زودتنا بدراسات متصلة للتأحي العلمية ، كما أعطينا فيها أعطينا الدليل على أن ليس هناك ثمة علاقة بين الحروف العربية الشمالية وبين الحروف « الشمودية » و « اللحيانية » و « الصقوية » وذلك لأن الشعب الشمودي يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد بعدة قرون وكانت منازلهم « بالحجر » (مدائن صالح) أما « اللحيانيون » الذين كانوا يقطنون أرض العلا فتاريخهم يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد وقد تلاشوا في قبيلة « هليل » وعدمهم « الحمداني » من بقايا جرهم^(٤٧) أما الصقويون فهم من سكان « الحفرة » ، وكلمة الصقويين لا تعني شعبا معينا أو قبيلة معينة إنما هو اصطلاح حديث للدلالة على أن تلك الكتابات التي عثر عليها في تلك الجهات^(٤٨) ورغم تباعد شكل الحروف العربية

(٤٦) نص المصدر ص ٣٣ .

(٤٧) نص المصدر ص ٣٧ .

(٤٨) الدكتور / جواد علي - نص المصدر ص ٣١٦ .

	ש	ל	ע	ח
א	א	א	א	א
ב	ב	ב	ב	ב
ג	ג	ג	ג	ג
ד	ד	ד	ד	ד
ה	ה	ה	ה	ה
ו	ו	ו	ו	ו
ז	ז	ז	ז	ז
ח	ח	ח	ח	ח
ט	ט	ט	ט	ט
י	י	י	י	י
כ	כ	כ	כ	כ
ל	ל	ל	ל	ל
מ	מ	מ	מ	מ
נ	נ	נ	נ	נ
ס	ס	ס	ס	ס
ע	ע	ע	ע	ע
פ	פ	פ	פ	פ
צ	צ	צ	צ	צ
ק	ק	ק	ק	ק
ר	ר	ר	ר	ר
ש	ש	ש	ש	ש
ת	ת	ת	ת	ת
י	י	י	י	י

الفتح يجعل الزاي سيناً فإذا أراد أن يقول زورق قال :
سورق ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول مشعمل قال
« مشمثل »^(١٤)

وهذه الأمثلة تدل على أن الصورة النبطية قائمة حتى
بعد أن جاء الإسلام ، نجدها في الكتابة العربية كما
نجدها على لسان المجتمعات العربية وإذا كان بعض
هذه المجتمعات قد توقعت داخل عصبيتها القبلية ،
فهناك العديد الآخر من هذه القبائل قد اعتدل لسانه
واستقام نطقه وعلى رأس هذه القبائل العربية تأتي
« قريش » التي تميزت بدقة ألفاظها وحسن عبارتها
واستواء كلامها ، وأن اللغة العربية كانت لديهم من
الابتكارات الفنية ، ومن هنا وضعوا المعنى المثالي في
الكلمة المنطوقة وروبطوها في أفواههم بحركات عكسة
الأعراب وهو ذلك الشيء الذي كان لديهم وليس عند
أحد غيرهم سليقة فطرية منطقية .

وهذه اللغة المنطوقة التي وصل بها القرآن الكريم إلى
هذا المستوى الرفيع من البيان والأحكام وعلى هذه
القاعدة اللغوية من المستحيل لها أن يأتي مصدرها من
هذا التصور الذي طرحه علينا بعض المؤرخين
العرب ، مثل ما خرج علينا به أبو الحسن البلاذري
المتوفي سنة (٢٧٩هـ - ٨٩٢م) حين تكلم عن الخط
فقال : « حدثني عباس بن هشام بن محمد السائب
الكلبي عن أبيه عن جده وعن الشرحي القطامي ،
قال : اجتمع ثلاثة من طيء بيقه وهم مرابر بن مره
وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدره فوضعوا الخط
وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم
قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل
الأنبار ، وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن
عبد الملك بن عبد الجان الكنكي ، ثم السكوني صاحب

جديدة تكون سنندا لهذه الدراسات وللتوصل إلى أقدم
لهجة عربية تفرعت منها هذه اللهجات أو ما يسمى
بـ PROTO ARABISCH أو UR
ARABISCH عند المستشرقين أو اللهجات القديمة
التي تفرعت منها سائر اللهجات^(١٥) ، وهذه العربية
الأولية أو العربية الأكادية (راجع رأي ولیم ريت في هذا
البحث ص ٥ - ٦) أو العربية التي نقلها العرب من شبه
الجزيرة العربية إبان هجرتهم الأولى إلى أرض
الرافدين .

ومن هنا يمكننا أن نقول أنه مهما كان رسم حروف
النقوش الأثرية ، ومهما كان هناك خلاف في رسمها فهي
إنما تطرح صورة عربية أخذت لها سمات مختلفة حسب
أسماء من كتبوا بها ، وليس هناك من لم يؤكد أن
أصحاب هذه الحروف المختلفة الأشكال والأسماء
لا ينتمون إلى جنس واحد وهو الجنس العربي الذي أخذ
له أسماء متعددة ، وكان آخرها اسم « الأنباط » الذي
ظل بعض العرب يحملون هذا الاسم حتى بعد قيام دولة
الإسلام ، وعن ذلك حدثنا « أبو القاسم عمود
الزعمري » المتوفي سنة (٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م) فقال :
« قال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن بقله « أعرب أنتم
أم نبط » فقال : « عرب استنبط ونبط استعربنا » ،
ومنه قول أبي العلاء المعري :

ابن امرئ السقيس والعملاوي

أو مال من تحت النبط .

استنبط العرب في الرسامي

بصلك واستعرب النبط .^(١٦)

ومن ذلك أيضاً يأتي رأي « الجاحظ » وقد تعرف على
الفروق التي تفصل بين العربي والنبطي والعربي الذي
يتكلم لسان قريش قال : « ومهما كان من أمر فالنبطي

(١٧) الزعمري : أسس البلاغة ص ٩٢٩ طبعة الشعب .

(١٨) الجاحظ بيان واثنين تحقيق السليبي الجزء الأول ص ٦٦ القاهرة ١٣٤٥ - ١٩٦٦

ويضيف « أبو عمر الداني » المتوفى سنة (٤٤٠هـ - ١٠٥٢م) على ذات الصورة رواية أخرى نقلها عن « زياد بن أنعم » قال : قلت لعبد الله بن العباس ، معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع وتفرقون فيه ما افرق هجا بالالف واللام والميم والشكل والقطع وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم ، قلت من علمكم الكتاب ؟ قال : حروب بن أمية ، قلت فمن علم حروب بن أمية ؟ قال : عبد الله بن جعدعان ، قلت : فمن علم عبد الله بن جعدعان ؟ قال : أهل الأنبار ، قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ قال : طاريء طرا عليهم من أرض اليمن من كتبه ، قال : فمن علم الطاريء ؟ قال : الجلجان بن الموهب ، كاتب هود نبي الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل^(٥١).

وقد نقل هذه الرواية أكثر من مؤرخ نجدها عند البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » ، وعند أبو داود السجستان في كتابه « المصنف » ، وعند ابن قتيبة في كتابه « المعارف » وعند ابن دريد في كتابه « الأتقان » وعند ابن فارس في كتابه « الصحاح » ، وعند الجهشيارى في كتابه « الوزراء والكتاب » كما هي أيضا عند غيرهم .

وحين تأتي الرواية العربية على هذا النحو الذي يرويه هؤلاء الكتاب فليس لنا إلا أن نأخذ أنفسنا بأن هؤلاء الذين ذكروهم « الداني » قد تعلموا الكتابة بعضهم عن

دومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه قرأه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسأله أن يعلمها الخط فعلمها الهجاء ، ثم أراها الخط فكتبا . ثم إن بشرا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمى الثقفي فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مصر ، فتعلم الخط منه عمر بن زرارة بن عدس فسمي عمر الكاتب ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك وتعلم الخط الثلاثة الطائين أيضا رجل من طابخة كلب فعلمه رجلا من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فلقم بها زعلم الخط قوما من أهلها^(٥٢).

وإذا كان هذا هو تصور البلاذري في أصل الخط ، فأصل اللغة كان له عند المؤرخ العربي شأن آخر ، مثال ذلك ما نجده عند ابن النديم الذي يمد رواية « عباس بن هشام » ثم يضيف عليها ما ظنه صوابا فقال : « فأما الذي يقارب الحق ويكاد النفس تقبله ، فذكر الثقة أن الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وإرم وحويل ، وهؤلاء هم العرب العاربة ، وأن اسماعيل لما حصل في الجرم ونشأ وكبر وتزوج في جرحم إلى معاوية بن مضايف الجرحمي فهم أحوال ولده فتعلم كلامهم ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضهم من بعض ويصنعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودة وتظهرها^(٥٣) .

(٥١) البلاذري : نفس المصدر ص ٥٥١ - ٥٥٧

حالية :

يُندع هذا الرأي إلى ملكة الدكتور / إبراهيم أنيس في كتابه « دلائل الاقلاط » ١٤ المجلد ١٩٥٦ . أنه حتى وقت قريب كان بعض الباحثين يسمون في نشأة اللغة ملصق تدعى إلى أسخرية والعجب ، ومن تلك أن جلالا سويديا في القرن السابع عشر كان يؤكد لستحيه في صورة جنية أن الرب في جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية وأن آدم كان يتكلم اللغة الدفارية ، وأن أليه تتكلم اللغة الفرنسية ١١ وفي العصر الحديث وقف عالم تركي في مؤلف لغوي سنة ١٩٢٤ يؤكد للمستعدين أن اللغة التركية هي الأساس التي أخذت منه كل اللغات مستندا على هذا بكلمة تركية متماها للشمس هي جنيرش ، لأن الشمس أول ما استمرى نظر الإنسان الأول من بين المخلوقات .

(٥٢) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٥٣) أبو عمرو بن سعيد الداني : للمعجم في تناط المصنف بتحقيق الدكتور / عزت حسن ص ٣٦ دمشق ١٣٦٩ هـ - ١٩٧٠ .

ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن مالك ، وأسود بن خضير ، وممن بن عدي ، وأبو عيسى بن كثير ، والأوس بن خولي ، ويشير بن سعد^(٥٦) .

ومن الطبيعي أن يكون هناك العديد من غير هؤلاء كان لهم معرفة بالقراءة والكتابة مثل هؤلاء الذين كتبوا المعلقات والمذهبات ، التي كانت ترفع على أستار الكعبة مكتوبة على القباطي ، كما كان هناك أيضا هذا النفر من الكتبة الذين كانوا يعملون في القوافل التجارية لرحلة الشتاء التي كانت تذهب إلى اليمن ورحلة الصيف التي كانت تذهب إلى الشام ، وإبان الإسلام كان هناك أسرى موقعة « بدر » الذين فلدوا أنفسهم بما فرض عليهم من أن يعلموا كل واحدا منهم عشرة صبيان من صبية المسلمين الكتابة والقراءة .

وكان من بين العرب آنذاك من يحسن بجانب كتابة العربية لغات أخرى غيرها كالسريانية والعبرية ومن هؤلاء كان « ورقة بن نوفل » ، « وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم كتب اليهود من السريانية والبرانية فتعلمها وكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم ويحسبهم عنه^(٥٧) . وكان هناك أيضا كتاب الوحي ومن بينهم ، « الخلفاء الأربعة » ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وخالد بن الوليد وثابت بن قيس^(٥٨) . ويمكننا أن نضيف على هؤلاء « عبدالله بن مسعود وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وأبو خزيمة الأنصاري » وينقل لنا الدكتور/ صيحي الصالح « إن « المستشرق بلاشير » BLANCHER استطاع أن

بعض يقرأون العربية ويكتبونها ومثلهم في ذلك مثل غيرهم ممن كتبوا النقوش الأثرية ، وكذلك كتبه « الخريشة » GRAFFITI التي وجدت في أنحاء متفرقة من هذه المنطقة العربية المتوسطة وأن هذه الكتابة ومنها كان شكلها فهي وحدها النقوش الأثرية التي لها أهميتها التاريخية ، كما أنها هي وحدها التي أثبتت فيها أنبت أن الحروف العربية ، كان لها مسالكها الطبيعية ، وأنها كانت في مراحلها الجاهلية على هذا الشكل الذي نراه مسجلا على النقوش الأثرية مستقيمة الحروف منطوقة الصورة متميزة الكتابة ، زاد عدد من يقرأوها ويكتبها ، وبعض من هؤلاء يذكروهم البلاذري في قوله : « أنهم كانوا حين دخل الإسلام سبعة عشر رجلا كلهم يكتب منهم عمر بن الخطاب ، وصلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطليحة وزيد بن أبي سفيان ، والعامري ، وأبو سلمى بن عبد الأسد وأخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح العامري ، وسحوط بن عبد العزيز العامري وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت بن غزية بن المطلب بن عبد مناف ومن خلفاء قريش العلاء بن الحضرمي . . ومن النساء حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم كلثوم بنت عقبة والشفاء بنت عبدالله العدوي ، وعائشة بنت سعيد بن عباد ، وكريمة بنت المقداد ، أما عائشة فكانت تقرأ ولا تكتب وكذلك أم سلمى^(٥٩) .

وفي المدينة « كانت الكتابة العربية قليلا في الأوس والخزرج ، فقد جاء الإسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعيد بن زرارة ، والمزدر بن عمر ، وأبي

(٥٦) البلاذري : نفس المصدر ص ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٥٧) الفيلسفي : نفس المصدر ١١٣٣

(٥٨) نفس المصدر ٤/٣ .

(٥٩) الدكتور صيحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٦٩ بيروت ١٩٧٢ .

انظر أيضا تاريخ المهدي ١٣٣٢ .

لمجاورهم نجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة
الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا
ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت
ألسنتهم ، وطبيعي أن الفارابي كان يرمي إلى أن فطاحل
العلماء لعهد ازدهار دراسات اللغة العربية رفضوا الأخذ
بلهجات تغلب ويكر وإياد وثقيف وغيرهما ، كما كانت
عليه لزمانهم ولم يرفضوا الأخذ عن شعرائهم الأولين فإن
طرفة والأخطل وعمرو بن كلثوم مثلا كانوا تغليبين ،
والخوارث بن حنظل كان بكريا ، ولقيط بن معمر كان
إياديا ، وأبو عجم كان ثقفيا ، والأعشى الكبير كان
يمانيا ، وهلم جرا ، وكان شعرهم في نظر اللغويين
معلوبا من الفصح ، إذ كانت لغة الشعر القديم في
الغالب LINGUA FRANCA POETICA واحدة متداولة خاصة بالشعر^(٥٧)
ويعني آخر كما يقول الدكتور / شوقي ضيف كان
الشاعر ، « حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته
المحلية إلى اللهجة الأدبية العامة »^(٥٨) .
وهذا القيفض من الشعر الجاهلي الذي يميز به الشعراء
العرب وأنشدوه في أسواق الشعر المتعددة « عكاظ »
وكنك « الجنة » و « المجار » وكان لديهم ولدى من
جاء من بعدهم ، سلفية طبيعية تحدث عنها ابن رشيق
الغريواني فقال : « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور
أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من
المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة »^(٥٩) .
ولم يكن هناك من أحد غير قرش من بين كل العرب
في استواء ألسنتهم ومنهم أخذت العربية التي نجد فيها
أن الدلالات اللغوية والادراك العقلي هما القاعدة التي
تناولها عنهم علم اللغة لتحديد القيم السوية في النطق

يبلغ بكتابة الوحي أربعين رجلا^(٦٠) دون أن يعين
المراجع التي استند عليها في تحديد هذا الرقم .
لقد عثر علماء الآثار على العديد من الكتابات الأثرية
في أنحاء متفرقة إلا في مدينة « مكة » التي لم يعثر بها حتى
الآن على أي شيء رغم أن هذه المدينة قد تميزت بأنها
البلد الذي فيه البيت العتيق مركز الثقل لكافة القبائل
العربية وموطن قبيلة « قريش » الذين تعالوا على غيرهم
بلغتهم العربية المثالية التي جاء القرآن الكريم ليكون
على هذه اللغة وعلى أصحابها معجزة دين ومعجزة لغة
ومعجزة بلاغة رغم أن الكلمة كانت لديهم صورة
طبيعية لحروف ينطقونها ببطء سليمة لا نجد لها نظيرا
ولا مقابل عند أي قبيلة عربية أخرى ونقل لنا الأستاذ/
فيشر A. FISHER رأي « أبو النصر الفارابي »
(٢٥٩ - ٣٣٩ هـ - ٨٧٠ - ٩٥٠ م) في مقدمة كتابه
« الألفاظ والحروف » عن ثقل الحاسة اللغوية عند
قرش فقال : « لقد كانت قريش أجود العرب انتقاء
للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق
وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة صبا في النفس ، وعندهم
نقلت العربية ، وهم اقتضى وعندهم أخذ اللسان العربي
بين القبائل ، وفي رأي الفارابي بأن اللسان الكامل - لم
يأخذ لا من خم ولا من خزام لمجاورهم أهل مصر
والقطيف ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورهم أهل
الشام وأكثرهم نصاري يقرأون بالسريانية » ولا من
تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة بمجاورين لليونان ولا
من بكر لمجاورهم القطيف والفرس ، ولا من عبد القيس
وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين غاطلين للهند والفرس
ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحشة ، ولا من
بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف

(٥٦) نفس المصدر ص ٦٩ .

(٥٧) أ . فاهر : المعجم اللغوي التاريخي القسم الأول ص ١٢ - ١٣ الفقرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

(٥٨) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٣ .

(٥٩) ابن رشيق الغريواني : الصفة الجزء الثاني النتيجة الثانية ص ٢٠ الفقرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

المثالي ، وذلك لأن الحروف كانت لديهم رمزا للفظ واللفظ رمزا للفكر وتغيير حركة الحرف يشكل تغييرا في المعنى ، الأمر الذي يؤدي إلى خروج الرمز من التجريد إلى التشكيل وبذلك تكونت البنية الموسيقية لحركة حروف اللغة العربية وأصبح أصحاب هذه اللغة يملكون الكلمة ، « هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيها بينهم ويفخرون ببجنتهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة وعمل البلخ والحضارة وكل العلم والصناعة حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التي يتميزون بها في عرف علماء الأجناس البشرية فإذا وجد الفخر باللغة فذلك علامة العربي بين العناصر العامة من أقاربه السياسين ، إلى الغرباء عنهم من الآرين والطورانيين والهاميين ثم يتجلى فيهم دون سائر الأمم تلك الظاهرة القريبة في تاريخ الأجيال والثقافات وهي العلو في البلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا لديويا وتحليا ربانيا من معجزات الآله التي يتسامى قدرة البلاغة في أمة اللسان والبيان »^(١٠).

وهذه اللغة العربية التي تكلمت بها هذه الأمة أراد الله تعالى لما أن تكون فريدة في نطقها وشاملة في تراكيبها ، جامعة الأصول بحكمة البنية لا تملكها العقول إلا بالقدر التي تسفر فيه عن نفسها وتفصح عن أسرارها ، وفي ذات الوقت تملك هي ككل المقول المستتيرة على نحو مطلق ترتبط بها المسلم الرشيد حتى أصبحت بجانب عقليته جزءا من وجوده الحضاري ، يسمى إليها ليدرك مضمونها ويتذوق إيقاع سحرها الظاهري ويتعرف على حقيقتها التي ظلت متدفقة العطاء منذ خمسة عشر قرنا هجرياً ، وستبقى هكذا إلى ما شاء الله تعالى . وصفها أحد عشاق التراث الاسلامي فقال عنها أنها هي هذه اللغة المعجزة الفريدة التي « أنضجها

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا . فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم أو يحس بها الكلمة نفسها فتعطي أو تأخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصيلة لها أقوى الاصوات وهو الضم ، والأخريات لها الفتح والجر ، وما أرى هذا إلا ضربا من الحياة في الألفاظ والتركيب يبين عن ألق الاحساس والطفه .

إذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة فيها مادة ووزن . فخذ المادة أو أخلقها أو استعرها من لغة أخرى ثم صبها في قالب من قوالب الأسماء والأفعال ، وصورها بالقوالب أو الأوزان ما تشاء فلفطنا تدل بالمادة والوزن وبالصيغة والهيئة . فمن سمع

الشاربي ، وذلك لأن الحروف كانت لديهم رمزا للفظ واللفظ رمزا للفكر وتغيير حركة الحرف يشكل تغييرا في المعنى ، الأمر الذي يؤدي إلى خروج الرمز من التجريد إلى التشكيل وبذلك تكونت البنية الموسيقية لحركة حروف اللغة العربية وأصبح أصحاب هذه اللغة يملكون الكلمة ، « هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيها بينهم ويفخرون ببجنتهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة وعمل البلخ والحضارة وكل العلم والصناعة حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التي يتميزون بها في عرف علماء الأجناس البشرية فإذا وجد الفخر باللغة فذلك علامة العربي بين العناصر العامة من أقاربه السياسين ، إلى الغرباء عنهم من الآرين والطورانيين والهاميين ثم يتجلى فيهم دون سائر الأمم تلك الظاهرة القريبة في تاريخ الأجيال والثقافات وهي العلو في البلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا لديويا وتحليا ربانيا من معجزات الآله التي يتسامى قدرة البلاغة في أمة اللسان والبيان »^(١٠).

وهذه اللغة العربية التي تكلمت بها هذه الأمة أراد الله تعالى لما أن تكون فريدة في نطقها وشاملة في تراكيبها ، جامعة الأصول بحكمة البنية لا تملكها العقول إلا بالقدر التي تسفر فيه عن نفسها وتفصح عن أسرارها ، وفي ذات الوقت تملك هي ككل المقول المستتيرة على نحو مطلق ترتبط بها المسلم الرشيد حتى أصبحت بجانب عقليته جزءا من وجوده الحضاري ، يسمى إليها ليدرك مضمونها ويتذوق إيقاع سحرها الظاهري ويتعرف على حقيقتها التي ظلت متدفقة العطاء منذ خمسة عشر قرنا هجرياً ، وستبقى هكذا إلى ما شاء الله تعالى . وصفها أحد عشاق التراث الاسلامي فقال عنها أنها هي هذه اللغة المعجزة الفريدة التي « أنضجها

(١٠) عباس حمود البغدادي : طالع القوم وطرائق البحث النبوية ص ٩٩ القاهرة بدون تاريخ

و « الأديم » هو الجلد .
 وقوله أيضا :
 لم طلل مثل الكتاب المنسحق
 كلا عهده الصليب محطون
 وقول لبيد :
 وحلا السيول عن السطول
 كأنها زير نجد متونها أقلامها
 والوزير « هو الكتب »
 وقول الأحسن بن شهاب الثعلبي :
 لابنة طحان بن عوف منازل
 كما رقت العنوان على الرق كاتب
 والرق هو « الجلد الرقيق » .
 وقول الخليل بن حنيفة البكري :
 لمن الديار حقون بالغس
 آياتها للمهايرف العرس
 والمهايرف هي : الصحف .
 وكان لابد لأصحاب هذه النقوش الأثرية أن يكونوا
 هم أصحاب هذه الأصالة الشعرية ، وأن تمتد بهم
 الواعية اللغوية والحس العلمي ليسير بهم التاريخ إلى
 ذلك الحقل الذي تناوله أستاذ اللغة العربية « الخليل بن
 أحمد الفراهيدي » للتوفى سنة (١٧٥هـ - ٧٩١م)
 ليكتب كتاب « العين » الذي أصبحت مادته العلمية فيما
 بعد قاعدة منهجية للمعجمات الضخمة والقواميس
 الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابلا عند أي أمة من
 الأمم الأخرى قديما أو حديثا ، ويعد الخليل بن أحمد
 « تناول نفس المادة تلميذه « سيويه » المتوفى سنة
 (١٨٠هـ - ٧٩٦م) ومن بعده أصبحت المعاجم أساسا
 للفكر اللغوي الإسلامي حيث تدفق السيل وانصهرت
 السيكة النفيسة في « الجهمرة » لابن دريد ،
 و « التهذيب » للأزهري المتوفى سنة (٣٧٠هـ -

فاعلا أو مفعولا أدرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته
 له معنى يلزمه في المواد كلها وهذا امتياز اللغة
 واستبانت خصائصها حتى نفت عن نفسها كل كلمة
 أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأساء أوزان
 وللأفعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الأوزان فهو أجنبي
 وهذا بقيت على الدهر المتطاوول خالصة نقية صحيحة
 قوية^(٦١) .

وبجانب كل ما يوجد على مائدة البحث من الأدلة
 التاريخية والأثرية واللغوية على أن الكتابة العربية كانت
 قائمة عند العرب في قديم الزمان ، نجد فيما نجد من
 تراث الشعر العربي الذي كان يعرف في العربية الأكاديمية
 باسم « شبرو » ما يضيف لنا أدلة أخرى تثبت أن الكتابة
 العربية كانت قائمة على صورة مختلفة قبل أن ينشأ
 الشعر الجاهلي الذي عرفناه يلقى على الناس في أسواق
 الشعر الموسمية وأن أوائله كانت تختار لتكتب وتعلق على
 أستان البيت العتيق . وفي هذا التراث الشعري نجد
 العديد من الأبيات التي تتضمن كلمات مثل « الرق »
 و « الأديم » و « العصب » وغير ذلك من الحامات التي
 استعملها الكاتب العربي ليكتب عليها وذكرها
 الشعراء . وعلى سبيل المثال نجد قول امرئ القيس
 الذي يقول فيه :

لمن طلل أبصرته فشجاني

كخط الزابور في العصب اليماني

و « العصب » هو جريد التخل .

وقول النابغة الذبياني :

كان بحر الرامسات ذبولا

عليه حصر ثمقته الصواتع

و « الفضيم » هو الجلد الأبيض .

وقول المرحش الأكبر عوف بن سعد :

الدار قفر والرسوم كما

ركش في ظهر الأديم قلم

(٦١) الدكتور / عبد الواحد عبد الوهيد مرام : عهد العرب من ١٧ - ١٨ - سلسلة أقرأ الفطراء ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ .

٩٨٠م) و « المحيط » للمصاحب بن عباد المتوفي سنة (٣٨٥هـ - ٩٩٥م) و « المجمل » لابن فارس المتوفي سنة (٣٩٥هـ - ١٠٠٤م) و « الصحاح » للجوهري المتوفي سنة (٣٩٧هـ - ١٠٠٦م) و « أساس البلاغة » « الزخخشري » للمتوفي سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٣م) و « لسان العرب » لابن المنصور المتوفي سنة (٨١٦هـ - ٤١٣م) و « تلج العروس في جواهر القاموس » للزبيدي المتوفي سنة (١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م) ، وما يبرح الأمر والمعاجم تظهر على هذا النحو عند غير هؤلاء ممن لم أذكر لأن البحر كان محيطا .

كان من طبيعة هذا البحر المحيط أن يفيض على هؤلاء العلماء بهذه المعاجم الموسوعية لأنهم ارتبطوا بالكلمة العربية وسبروا أغوارها كما ارتبطت الكلمة بهم ، وجاء ذلك طبيعيا إذ أننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي تامة في النساظها وصياغتها وحروفها ونحوها وصرفها وأوزانها وفي قوة التعبير بها ، وتلك اللغة لم تنزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزل العرب فكانوا فيه قطانا أو مهاجرين إلى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجة يتكلمها أهله ، فإن أهالي الأصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة إذا تحدثوا ويفهمونها إذا قرئت عليهم ولو كانوا أميين^(٣٦) وهكذا اتسعت اللغة العربية في وإعية أصحاب المعاجم وكذلك في وإعية كل من يتكلم بها . وكان لابد أن يظهر في الفكر الإسلامي نظريات تعالج بنية اللغة العربية وأن يدور حوار بين العلماء عما إذا كانت اللغة « توقيفية » أم هي « اصطلاحية » وكان من بين هؤلاء « ابن فارس الرازي القرويني » الذي توفي سنة (٣٩١هـ - ١٠٠٠م) وكان في طليعة المتكبرين

من اللغويين العرب الذين ظهروا على المسرح في هذا الميدان ، فقد سجل نظريته في أصل اللغة ونشأتها بكتابه « الصحاحي » ويرهن على أن اللغة توقيف اصطلاح بأدلة كانت موضع التأييد حيناً والمعارضة حيناً آخر^(٣٧) ولم يكن هذا الرأي في جملة هوراي « ابن فارس » إنما كان رأي بعض العلماء سبقوه إليه ، وما كان مثل هذا الرأي أن يقبل هكذا دون أن يعارضه بعض علماء اللغة ، فاختلفت الآراء متباعدة المتناهي ، وكان ضمن ما هناك رأي « أبو الحسن الأشعري » المتوفي سنة (٣٢٤هـ - ٩٣٣م) و « أبو هاشم » المعتزلي (٣٢١هـ - ٩٣٣م) و « ابن الحسن بن فسوك الأنصاري » (٤٠٦هـ - ١٠١٥م) و « أبو إسحاق إبراهيم الأسفرايني » (٤١٨هـ - ١٠٢٧م) وغيرهم وجعل الآراء عند هؤلاء تشعبت إلى مذاهب مختلفة :

الأول : أن اللغة توقيف من الله تعالى .

الثاني : أنها مواضعة واصطلاح بين البشر .

الثالث : أن ابتداء اللغة وقع بالتأليم من الله تعالى والباقي بالاصطلاح .

الرابع : أن ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والباقي توقيف .

الخامس : أن نفس الألفاظ دلت على معانيها بذاتها .

السادس : أنه يميز كل واحد من هذه الأحوال من غير جزم بأحدها .

واستج الغائلون بالتوقيف ، بالنقل والعقل .

الأول : قوله تعالى « ولعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة آية ٣١) .

فإن هذه الآية تدل على أن الأسماء توقيفية معلمة من عند الله ، وأن الأفعال والحروف كذلك إذ لا قائل بالفرق . والاسم إنما سمي اسماً لأنه علامة على

(٣٦) الدكتور : عمر فروخ . اللغة العربية معاصرها وألفاظها ومصطلحاتها مجلة الأدب والفن الجزء الرابع من ٢٠ ، السنة الأولى لندن ١٩٤٤ .

(٣٧) الدكتور / محمد مصطفى رضوان : العلامة اللغوي بن فارس الرازي من ٢٠٨ الفاعرة ١٩٧٦

اللغة إلى واقع التواضع عليها بين عباده» (٦٥) ومن هنا فقد كان ابن جني يرى «مذهباً معقولاً ما ذهب إليه من بعضهم في أصل اللغات كلها إنما هو في الأصوات المسموعة كدوي الريح وطين الرعد وخزير الماء وصهيل الثمريس ونحوها ثم ولدت اللغات عن ذلك فيها بعد» (٦٦).

ولم يكن هذا الرأي هو وحده الذي التزم به ابن جني فيظهر أنه كان حائراً متردداً لا يكاد يستمر على أمر وهو يشير إلى الرأي القائل بأن اللغة اصطلاحية ويستدل عليه فيقول ما نصه «أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها الحكمة والدقة والارهاف والرقّة ما يملك على جانب الفكر ، فقوي في نفسه اعتقاد كونها توقيفاً ما لله سبحانه وأما وحي ، ثم يقول وهكذا لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا وأن بعد مداه عتاً ، من كان ألطف منا أذهانا وأروع خواطر وأجراً جناناً ، فأوقف بين تين الخلتين حسيراً ، واكثرها فانكفى مكتوراً وكأنه بذلك قد أخذ بالرأيتين مما ، رأي التوقيف ورأي الاصطلاح» (٦٧).

ومهما كان من أمر فالأراء حول حقيقة اللغة هل هي توقيفية أو هي اصطلاحية لابد أن تطرح على مائدة البحث من خلال البعد الاسلامي الذي يقوم جوهره على أن الله قد أنعم على الانسان بانسانيته وجعله في أحسن تقويم ، ومن هنا كان عليه أن يسلم تسليماً مطلقاً يجدهد كل الأشياء التي نراها والتي لا نراها وكانت اللغات أفضل ما وهبه الله للانسان وجعلها له وحده ليميز بها دون غيره ، وجعله الناطق الكاتب الوحيد على هذه الأرض كما وضع فيه العقل للمدير ليكشف

سماء ، ومثله الأفعال والحروف وتخصيص الاسم ببعض أنواع الكلام اصطلاحية للنحاة .

الثاني : أن الله تعالى ذم قوماً على تسميتهم بعض الأشياء من دون توقيف بقوله : «إن هي إلا أسماء سميتونها أنتم وأبأؤكم ما أنزل الله بها من سلطان [] انتم الآية ٣٣) فلو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم .

الثالث : قوله تعالى : «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» (الروم الآية ٢٢) . والمراد اختلاف اللغات لا اختلاف الألسنة اللحمانية .

وأما العقل فمن وجهين :

الأول : أن الاصطلاح إنما يكون بأن يعرف كل واحد من الخلق صاحبه سماعي ضميره ، وذلك لا يعرف إلا بطريق الألفاظ والكتابة . وكيفما كان ، فإن هذا الطريق إن كان اصطلاحياً لزم عنه الدور أو التسلسل ، وإذا فلا بد من التوقيف ، وهو المطلوب .

الثاني : أن اللغة لو كانت بالمواضعة لجوز العقل اختلافها وأما على غير ما كانت عليه ، لأن اللغات قد تبدلت وحيث لا يوثق بها» (٦٨).

وجاء بعد «ابن فارس الرازي» تلميذه «أبو الفتح عثمان بن جني» المشوف سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠١م) «فمهد للمذهب التوقيفي بجديت عن مذهب المواضعة والاصطلاح حيث قال : «إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف» وأصحاب هذا الرأي لا ينسبون إلى الله تعالى المواضعة على اللغة لأنها تحتاج إلى إلهام وإشارة وهو عز وجل ليس له جراحة توميء ويشير لكتهم جوزوا أن يتقل الله تعالى

(٦٤) نفس المصدر ص ٢٠٨ .

(٦٥) نفس المصدر ص ٢٣٠ .

نفس المذكور بن جني المخصص ٤٣/١ .

(٦٦) نفس المصدر ص ٢٣١ .

نفس المذكور المخصص ٤٤/١ .

(٦٧) نفس المصدر ص ٢٣٣ .

بنفسه الحروف ليجعل منها إشارات لتنتقل أفكاره إلى غيره من الناس وليتلقى بها أفكار غيره ، وليسجل بها عقائده وتاريخه وإبداعه الذهنية والأدبية .

وإذا كانت الكتابة العربية وأشكال حروفها عند بدايتها كان لها شأن متواضع لا يستوي إلى ما كانت عليه الكلمة المنطوقة التي تميزت بالأصالة اللغوية والصورة البلاغية والنبضات الشعرية . فاقدم ما لدينا في هذه الكتابة في غير النقوش الأثرية إنما يأتيها من قصة هذه الصحيفة التي كتبها « منصور بن عكرمة بن حاص » للمشركون من قرش الذين تعاهدوا فيها على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأصحابه وكل من اتبع هديه . وعلقت على أستاذ الكعبة وإذا رجعنا إلى كل الروايات التي ذكرت أنباء هذه الصحيفة فهي في مجملها لا تتطور لنا رواية حقيقية عن شكل الحروف العربية التي كتبت بها إلا إذا نادى رسم حروف « نقش أم الجمل الثانية » (انظر الشكل رقم ٨) في نفوسنا . وكتابة صحيفة المقاطعة هذه تنسحب أيضا على رواية ثانية عن صحيفة أخرى لا نعرف لها تاريخا كتبت قبيل الاسلام ذكرها ابن النديم قال : « كان في خزنة المأمون كتاب بخط عبد اللطيف بن هاشم في جلد أديم فيه ذكر حق عند عبد المطلب بن هاشم على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعاء » (٦٨) .

من هذا المجلد المتقضب يمكننا أن نقول أن فضل العرب على الكتابة في المصور القديمة لأم واقع لا يرفضه إلا كل مكابر . وأن هذه الكتابة كان لها أثرها على أبجديات الأمم الأخرى ومثال ذلك الأبجدية

اليونانية ، « التي تسمى لديهم بآل « الفايينا » ونبدأ بالآلف والباء ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب . وليس لأسماها الحروف معاني مفهومة في اللغة اليونانية ، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العصرية فضلا عن اللهجات العربية الغابرة » (٦٩)

ولكن رغم ذلك الفضل الذي كان يجب أن يذكر بكل احترام فقد أنكرت أوروبا ما قام به العرب والمسلمون من فضل على التراث الانساني ومرجع ذلك الانكار هو الجحود . وكنا على أمل أن يرجع الأوربي المعاصر عن هذا الموقف العدائي ولكننا نراه الآن وقد اندفع سادرا في هذا الخطأ وأخذ نفسه بأحقاد أسلافه وأبقى في ذاته طوية أجدها فهو لا يريد أن يغير موقفه منا لأنه جبل بفطرته على ألا يرجع إلى الحق لأن الرجوع إلى الحق من شيم النفوس المستقيمة وأنى له أن يكون كذلك .

هذه ملاحع عابرة عن قصة الكتابة العربية من بدايتها حتى أخذت الحروف الخاصة بها التي عرفت أول ما عرفت باسم الحروف الأرامية ثم باسم النبطية حتى أن صارت متطورة لتعرف باسم الحروف العربية النبطية التي تحولت إلى ما يمكن أن نطلق عليه الحروف العربية الجماعية ، لتنتهي إلى هذا الشكل للتمييز الذي عرف باسم الحروف العربية التي استعملها المسلمون في كتابة رسائل الدعوة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء سنة ستة من الهجرة (٦٢٧م) ليدعواهم فيها إلى هدي الله .



(٦٨) ابن النديم : فليس المصدر ص ٥ .

(٦٩) جيل عبد اللطيف - ثلاثة العربية ، سبق من ثلاثة اليونان والعبريون ص ٢٩ للكتبة النبطية (١)

تولد أغلب أعمال ميشال بوتور الغنية والشديدة التنوع من الرحلات أو خلافاً أو من الرغبة، في القيام بها . ويعرفنا هذا الأديب المعاصر بمناطق جغرافية ، تاريخية ، أسطورية ، فنية أو أدبية ، حقيقة أو خيالية ، ثم يدعونا لاختيار طريقنا فيها أو في أطراف هذا العالم الذي لا طرف له^(١) ، العالم الذي نعيش فيه ، متمنياً لنا - ومقترحاً علينا - رحلة سعيدة .

لنتنزه أولاً بين عناوين كتب بوتور منطلقين من العدد ٣٩ لمجلة « القوس » L'ARC, No. 39 المخصص لهذا الكاتب والذي صممه بنفسه من خمسة أقسام يشكل كل منها قارة يغمرها محيط للمجلة ، ومتذكرون مشروعه في إيصال كل من سلاسل كتبه إلى خمسة أجزاء . وهكذا نجد أنفسنا على الفور في عوالم مختلفة ولكن متكاملة يستكشف كل منها مهادناً من ميادين الواقع ويتنظر بدوره أن نستكشفه ، نحن القراء ، الرحالة الذين علينا تعلم الغوص في مضائق ومسالك البحار كي نستطيع الوصول إلى الأراضي البعيدة .

من قصصه الأربع إلى « مواد الأحلام Matieres de rêves من مصنفاته Repertoires إلى زخرفاته Illus trations علينا أن نكون حاسمين « لمبقرة المكان » Le Genie du Lieu لكي نستطيع الارتواء من هذه التبايع الغريبة . ولكي ننقل من منطقة لأخرى أو من عالم لآخر علينا إجتياز طرق معالمها « محاورات » Dia-logues وإهداءات^(٢) Envois تسهل « الاستكشاف » Explorations إننا علينا أن نكون حذرين ، فالمسيرة يجب أن تتم على « مراحل » Intervalle ومن خلال التجارب Essais والأحلام Reves لكي نستطيع التنقل بسهولة بين « الشبكات » Reseaux وهذا الامتياز

مصر والولادة الثانية الرحلة في كتابات ميشال بوتور

مصباح أحمد الصمد

(١) السهم المرتد Boomerang 185

(٢) تظهر هنا إلى تمديد المعاني التي يتعمدها للكاتب في عنوان كتيبه حيث أن كل عنوان يحمل معان متعددة بشكل يجعل القارئ، يتردد كثيراً قبل أن يتصد أحدنا .

(Quadruple fond) ، جان بيار ريشار (Repertoire IV) وكثيرين آخرين ، هي أمثلة عن « ساكني الحدود » (Illustrations III) الذين يعيشون على التخموم ويستطيعون بالتالي مساعدتنا على اجتياز عوائق الحاضر ونقلنا نحو « الغد » (Illustrations IV) أو نحو « وطن الأبناء » .

بوصولنا إلى داخل أعمال بوتور نجد أنفسنا مسافرين في ألف رحلة ورحلة ، فنرافق أشخاصاً وهميين أو حقيقيين يعيشون أو يبدؤون أو ينتهون تحوُّلاً أو رحلة بحرية أو استكشافاً أو حجباً أو حتى مجرد سياحة ، أو نعيش معهم حالة من الهجرة أو التغي أو الحنين أو الحرب أو التشرد .

كل ما في هذه الكتب يتحرك أو يتنقل ، حتى المظاهر أو العناصر الأكثر سكونية^(٢) في العالم ، لدرجة أن « البحار تبدأ بالانتقال »^(٣) ، وأن « الجبل يضم غيابه وينطلق طائراً فوق الطرقات المتصدعة »^(٤) في خضم هذا (المتحرك) الهائل ، يدعو الكاتب قارئه لاختيار طريقة وللتمسك جيداً واللبقاء يقظاً كي يستطيع الوصول إلى غاية الرحلة ، إذ أن مناجم الذهب عميقة بالرمال المتحركة ، ووحده من لا يسقط يستطيع الوصول إلى « قدس الأقداس » ، إلى « الدرة الثمينة » ، أي إلى الكلمة ، إلى اللغة ، لأن غاية كل رحلة يجب أن تكون إيجاد وسيلة جديدة للتخاطب .

لنسافر إذن في أعمال ميشار بوتور مفتشين عن هذه اللغة الجديدة .



غرضنا فقط من يتغن اجتياز « المتحرك » Mobile ولن نستطيع أن يقدم عنه تصورات Representation وأن يلتقط اللحظات واللحظات التي تعبر عن الهجرات البشرية ، عن الانتجاع الحيواني ، عن تنقلات الأشياء ، عن التبادل الثقافي وعن الحركة الدائمة للكرة الأرضية .

بعد اجتيازنا المتناوين ، نصل إلى الإهداء .

للولمة الأولى ، نجد إهداءين فقط مرتبطين بالرحلة ، أو بصورة أوضح بنموذجين مختلفين من الرحلة : « إلى الرحلة في الغرب » (٦٨١٠٠٠٠) لير مام في الثانية « و إلى من يقرمون في المتسرو » (إهداءات) بينما يجيء اثنان آخران « كل هنود المكسيك الجديدة » (في كل مكان : Ou) و « بدائيي أستراليا خلال انتفاخهم » (السهم المرتد Boomerang) تحية يوجهها لذين السبعين اللذين يعيش من قبض منهم في حالة من البداية والهجرة الجماعية .

ولكن إذا تفحصنا بعناية إهداءات كتبه ومقالاته نجد كلها جميعاً موجهة إلى نماذج مختلفة للرحالة . فكل هؤلاء الكتاب والنقاد والرسامين والموسيقيين الذين تصدر أسمائهم كتب بوتور اليسوا « جسورا » نقلنا إلى ميادين جديدة من الإبداع الأدبي والفني ؟ اليسوا هم من يفتحون لنا أبواب عدد لا يحصى من « العوالم الأخرى » الجغرافية والفكرية ؟

إن أسماهم (La Rose des vents) جان روجو Es-sais sur Les Essais) (يفور سترافنسكي ، بوفون

(٣) وجدنا من اللام استعمال هذا التعبير المراد به « حافة ما يبدو ساكناً ، وذلك لتسيرة عن السكون أي ما هو ساكن بالفعل ، وقريب من هذا الانطلاق ما أصبح مأخوذاً في التمييز بين « الحركة » و « الحركة » .

Matière de rêves, p. 97

Quadruple fond, p. 24

(٤)

(٥)

سواء للتنشيط عن أرض موعودة أو للقيام بجولات مع ما يستوجبه ذلك من بحث عن معلومات ولوازم وسلع ومعادن ، الخ . . حملها إلى المكان الذي انطلقنا منه . ذلك ما يجعلنا نتصور فترة يكون فيها من الصعب جداً التمييز بين كلمتي « رحلة » و « إقامة » ، ويكون مجرد وجودنا في مكان ما رحلة بحد ذاتها « (١٠) » .

من جهة أخرى فإن مفهوم الذهاب والإياب التقليدي لا ينطبق إلا على شكل واحد في أشكال الرحلات ، وعملية تنبيه كنموذج وحيد للرحلة يضيق ويترتعدي معاني هذه الكلمة :

« إذا أدرنا الارتباط المجازي الأساسي للرحلة بكل ما هو قرابة وكل ما هو بالتالي كتابة ، رأينا من المؤكد أن هذه العلاقة تلعب دوراً كبيراً في إدراكنا للواقع وتأثيرنا فيه ، خاصة وأن كثيراً من التنقلات البشرية هي ذهاب دون عودة « (١١) » .

وانطلاقاً من هذه البديهة الأخيرة نجد بوتور يوسع ويشعب معاني كلمة « رحلة » لدرجة أنه يجعلها تشمل أغلب ميادين الحركة والانتقال والتحول والإبداع والاستكشاف ، وأنها تظهر بدورها بصور مختلفة تراوح بين الذهاب والإياب من جهة والتشرد والبداءة من جهة أخرى . ذلك ما يدفعنا لدراسة الشبكات اللغوية لكلمة رحلة في أدب ميشال بوتور وما يجعلنا نشعها إلى فرعين ندرس في أولها الشبكات المجازية وفي ثانيها الشبكات الارتفاعية .



الشبكات اللغوية لكلمة « رحلة عند بوتور »

إذا قبلنا نظرة على المعنى الذي تعطيه القواميس والمعاجم اللغوية لكلمة « رحلة » نجده شديد الحصر وغير كاف . لأن كل القواميس تشير إلى أن هذه الكلمة تشير إلى « انتقال إنسان إلى مكان بعيد » (١٢) إلى « عملية اجتياز طريق طويل ، غالباً في مركبة ، للذهاب إلى مدينة أخرى أو بلد آخر ، وهي غالباً ما تتطلب استعدادات وتجهيزات مسبقة ، وتفرض غياباً لمدة معينة عن مسكن معمول » (١٣) .

بعض القواميس الأخرى توسع قليلاً معنى هذه الكلمة ولكن مع بعض التحفظات « إذا سمينا رحلات كل التنقلات المملة عند عائلات وقيائل بضرورة التنشيط عن الغذاء في بلد أغزر موارد من البلد الذي تقيم فيه ، لارتبطت الرحلة بالعصور الأولى للبشرية » (١٤) .

تقليدياً ، يفترض معنى « الرحلة » إذن وجود مسكن ثابت يتغيب عنه المسافر رداً من الزمن بهدف الذهاب إلى مكان بعيد . وذلك ما يستتبع بالتالي نية وضرورة العودة إلى المنزل بعد القيام بمسيرة مستقيمة يكون فيها الإياب عكس الذهاب تماماً ، أو مترجعة إذا اختار المسافر طريقاً مختلفة للعودة (١٥) .

أما ميشال بوتور ، فإنه يعتبر من الضروري تجاوز هذا « التناقض بين المكان الذي نحن فيه ، الذي نسكنه ، والرحلات التي نقوم بها من مكان لآخر ،

Le Robert, Dictionnaire alphabétique de la langue française volume VI, Paris, 1970 (١٢)

Le Grand Larousse de la langue française, vol. VII, Paris 1978 (١٣)

Larousse du XXe siècle, volume VI, Paris, 1945 (١٤)

(١٥) تعطي القواميس اللغة العربية معنى لفظ من تلك إذ يرتبط لسان العرب بالانتقال والرحلة بالسفر المجدد. لافي . ص ١٦١٠ - ١٦١١ (ولكن كل ذلك يقع غير كاف كما سنرى في الصفحات التالية .

(١٦) هذا ما صرح لنا به الكاتب في المجلد التي أجريتها معه في منزله في مدينة نيس في ٢٣ يوليو ١٩٨٢ .

(١٧)

أولاً - الشبكات المجازية :

إن عملية ارتحال المعنى التي تنطوي عليها كلمة « استعارة » تشكل بالنسبة لبوتور منطلقاً لسلسلة من « التنقلات » . وكما يؤكد ميشال لوني فإن « الاستعارة هي أولاً انتقال ، ورحال ، حركة »^(١٦) ، وهي « سلسلة من الانقلاطيات في داخل اللغة ، من تجرير نزوات لغوية يكشف فيها الانتقال الداخلي أو الخارجي مناطق جديدة من المقدرات . هي عملية إيجاد معان جديدة »^(١٧) حسب قول بوتور .

اعتماداً على هذه النظرة الأخيرة ، نتوصل لاعتبار أكثر النشاطات الفنية والكتابية وكثير من التحولات اللغوية والتغيرات البيولوجية والعوامل الطبيعية مظاهر لرحلات متنوعة . فمن مجرد قراءة صفحة في كتاب إلى حركة الأرض الدائمة حول الشمس ، مروراً بالكتابة والفنون التشكيلية والأحلام والانفعالات والدورة الدموية ، الخ . . . كل ذلك يصبح رحلات في أعجب مرحل يخطه كاتب رحالة .

أ - رحلة القراءة :

وعند مطالعتنا لصفحة ما نجد أنفسنا منطلقين في أربع رحلات متواكبة :

أ - رحلة عمودية على الصفحة ، ونعني بها انجذاب عين القاريء الذي ما إن يفتح الكتاب حتى يجد نفسه متهيئاً لتبني ما يراه ومستعداً لمرافقة الكاتب في قصته أو براهينه أو خياله .

ب - رحلة اجتياز الصفحة ، وهي تنقل النظر بين الأسطر والصفحات حيث تمر العين من علامة إلى أخرى حسب مسارات متعددة تختارها .

ج - انتقال فكري « من خلال هذه الكوة التي تشكلها الصفحة » إلى أماكن مختلفة البعد قد لا تكون أحياناً سوى منزل الكاتب أو غرفته .

د - وأخيراً المسيرة الفكرية التي ينتقل فيها القاريء « من النقطة التي كان فيها عند بدئه بالقراءة إلى تلك التي يبلغها بعد انتهائه »^(١٨) .

ولكن واجب الكاتب ألا يكتفي بنقل القاريء إلى غرفته ، بل على العكس ، أن يجعله بعيداً ليضعه بين أمواج محيطات كتابته تاركاً له بعض المضائق والممرات التي يجب عليه اكتشافها للوصول إلى بحار أخرى .

ما إن نفتح كتاباً ونبدأ قراءته ، حتى نغادر المكان الذي نحن فيه ونبدأ بزيارة عالم الكاتب . وحتى لو لم يكن هذا العالم سوى قاموس أو دليل هاتف ، فذلك لا يمنع من كونه « مكاناً » مختلفاً ، أو هو يشكل على الأقل « مطلاً » ، مدرجاً للطيران أو منطلقاً « يسمح لنا بالانطلاق في بحثات جديدة نحو مطالعات مجهولة »^(١٩) .

وكل قراءة تشكل منفذاً يلقي شيئاً فشيئاً كل ما يحيط بنا من أثاث وأشخاص وصحيف ووسائل نقل ليوصلنا بعيداً إلى المدينة التي تدور فيها أحداث قصة نقرأها إلى منطقتات حجاج وبراهين فيلسوف ما ، إلى عالم سحري يتلذذه خيال شاعر ، إلى ماضي بلد ما يرويّه أو يملّله

Le C.R.E.U. Cannes, no. 8, trimestre 1978

(١٦)

(١٧) نفس المصدر

Michel Butor, "Je suis moi-même plusieurs voyageurs." Le Matin, 17 avril 1979

(١٨)

Repertoire III, p. 219

(١٩)

فترة الكتابة في مكان آخر ، مكان وهمي ، أدبي ، في ، تاريخي ، تفساني ، الخ . .

والمكان الذي نكتب فيه يتغير بين فترة وأخرى ، وهو ليس بالمكان المقفل ، فليس بالضرورة أن يكتب المؤلف في نفس المكان دائماً . ويوتور يحاول دائماً أن يزيد من تعددية مكان الكتابة ، إذ أنه من النادر جداً أن يكتب عن بلد أو موقع ما وهو فيه . وبهذا الصدد يقول : « إنني في حاجة دائمة لأن أجعل رحلتي ترجميل » (١٨) . إنه في حاجة لأن ينقل مكان الرحلة الجسدية إلى مكان الرحلة الكتابية كي يعيش الرحلة مرة أخرى وهو يكتب عنها .

الكتابة هي رحلة . ولكن الطريق البسيط ، الذهاب والإياب ، لا يكفي يوتور كما أشرنا ، لأن ما يفتش عنه هي الشبكات والمتحركات ، ولتقل الشبكات المتحركة . لذلك يلجأ دائماً لنقل كثير من نصوصه من كتاب لآخر ، وغالباً ما ينتقل النص بعد أن تدخل عليه تعديلات عديدة ، كما أنه يدخل في كتاباته كثيراً من نصوص كتاب آخرين . وهكذا يصبح كل من نصوصه ملتقى لأصوات متباينة وأمكنة مختلفة تتجاوز فيها وتتلقي مناطق متباينة ، جغرافياً ، زمنياً وأدبياً . وفي خضم ذلك كله يجد القاريء نفسه منتقلاً ليس فقط بين نصوص يوتور بل وأيضاً بين كتابات رابليه وشاتوبريان وجول فيرن وبرغافيل وأوديون ويوفون ولافونتين وألف ليلة وليلة وكثير غيرهم .

في عالم كتابات يوتور « يفتح الاستشهاد أبواب عالم آخر ويهره بالواقع » (١٩) ، كما يقول جان رودو . ونزيد

مؤرخ أو حتى إلى عصور مستقبلية تنتقل إليها في مركبات عجيبة بصممها الخيال العلمي .

ولكونه مؤمناً بقدرة النص المقروء على إبراز وتصوير مناطق ومدن ومناظر وشعوب لقاريء مهمته فك رموزها وتمثل عبقريتها ، فإن ميشال يوتور يبني أعماله الأدبية على شكل أرخبيل يشمل نصوصاً « جامدة وسائلة وغازية » بطريقة تسمح لكل قاريء أن يبلغ بوسائله الخاصة النص الذي ينشده وأن ينتزعه فيه على هواه (١٦) .

نشير هنا إلى أن القراءة لا تكفي بما هو موجود في الكتب أو النشرات ، بل إنها تتجاوز النص المكتوب . فتأمل لوحة أو استطلاع نقوش حل جدار أثري أو تتبع خطوط تمثال أو عمل فني آخر ، أو تبنّ طريق نسله على خارطة بلد أو مدينة هي بدورها رحلات تصاحبها حركة الرأس أو تنقل النظر في عملية تتبع وتعميق الاستكشاف .

ب - رحلة الكتابة :

« إذا كانت القراءة عملية عبور ، حتى ولو لم تكن أحياناً سوى عبور خاطف في غيوم بيضاء ، فالكتابة ، التي هي قراءة دائمة التحول ، تمثل بالضرورة رحلة أوضح وأبعد » (١٧) .

الكتابة هي أولاً حركة على صفحة . حركة يد وحركة عين شبيهة بتلك التي تصاحب القراءة . هي إذن تحرك جسدي .

وهي تمنح الكاتب انتقالاً آخر ، فكرياً ، يتعد خلاله بالتدريج عن المكان الموجود فيه لكي يعيش في

Poesie d'Ici, no. 5, 1980

Répertoire IV. p. 28

Jepp Roudant, Michel Butor ou le livre futur, p. 135

(١٦)

(١٧)

(١٨) نفس المصدر ، ص ٢٩

(١٩)

أرضها ينقل معه نظر القاريء وخياله ويجعله يتشيع بالنظر والإيقاع ويسرح في بياض الكون بأسره ما عدا عتبة منزل وناراً تقام حولها الأعياد ، في هذا الجو الرائع يبتعد القاريء عن مكان إقامته ويستطيع المشاركة في احتفال الهنود الحمر ، لابساً قناعهم ومشاركاً في رقصهم .

إن كل نص من نصوص بوتور ، بل كل كلمة ، تبدو كصرح أو كموقع أري علينا تتبع عمراته ودهاليزه ورموزه وتباليه لكي نتوصل إلى متعة اكتشاف الكلمة - الصرح والنص - للموقع وإلى مرافقة هجرة الكلمات والنصوص ومواقبة تداخلها وتناغمها في عالم أعماله الأدبية .

جـ - رحلة الفن :

الرحلة ، كتابي الحاجات الأساسية للجسم ، هي حسب قول بوتور : « أساس كل الفنون » ، ولكن هذه الأخيرة تبسو من جهتها كتابات للرحلة وذلك لأنها تحملنا على تغيير مكاننا ، فكرباً على الأكل ، ألسنا نقوم بما يشبه البعثة أو الاستكشاف عندما نحاول فهم لوحة أو وشي أو زخرفة أو نقش أو قطعة موسيقية ؟ ويتعدى الأمر ذلك بالطبع بالنسبة للفنان ذاته ، فنرى مثلاً في قصة « استعمال الوقت » أحد أبطالها « يملك المارمونيكا ويبدأ بهزف إبحار بعيد على امتداد شواطئ منبسطة مزروعة بأعشاب عالية تتمايل عند مروره »^(٢٢) .

« تحوّل وحج وسباحة » ماثلة يقوم بها ليون دلمون بطل قصة التعديل ، من خلال أعمال فرانكيسكو بوروميني Borromini وجوان لوبونزيريني Bernini الفنية في روما أو من خلال جدرانيات المصور الوسطى وفيسفاه العصور المسيحية الأولى^(٢٣) . أما بوتور نفسه

على ذلك : ليس الاستشهاد فقط بل الاستشهاد الذاتي . أما العالم الآخر « الذي يتكلم عنه رودو فهو قريب جداً بعض الأحيان ، على بعد صفحات قليلة من نفس الكتاب أو في كتاب آخر ليس بعيداً ، وهو أحياناً بعيد جداً ، في أعمال كاتب قديم أو في نص بلغة نجهلها . وفي مطلق الأحوال ، فإن الاستشهاد دعوة موجهة للقاريء ليعمق استطلاع له مناطق أخرى .

وبالإضافة إلى رحلة النص ، هناك رحلة الكلمة ، فهي تنتقل من مكان لآخر في الصفحة الواحدة أو في النص الواحد أو الكتاب أو مجمل الأعمال . كلمات كثيرة نراها تتكرر أو تتشعب واسعة طرقاتاً وشبكات وكأنها فرائشة تتطاير وتدعوننا لتبعتها . « إنني أجبر القاريء على التنقل حول كلمة واحدة »^(٢٤) ذلك ما يقوله بوتور لجورج شاربونيه . نذكر هنا واحداً من مئات الأمثلة لنبين إحدى الدعوات التي توجهها الكلمة للقاريء كي يتبعها :

« ثلج + ثلج

ثلج ثلج ثلج

ثلج + ثلج

عتبة فضة النار أعاد

ثلج + ثلج

ثلج ثلج ثلج

ثلج + ثلج

القناع يلق ، البيت يلق ، العالم يلق »^(٢٥) .

هكذا نرى ثلج الكلمة يهطل على بياض الصفحة بطريقة تجعل مهلول الثلج النازل من سماء الصفحة إلى

George Charbonnier, Entretiens avec Michel Butor, p. 24
Ou. p. 388

L'Emploi du temps, p. 99

La modification, p. 215

(٢٠)

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

نعود قليلاً إلى انتقال الجسد وما بداخله لنسمع الحوار التالي :

« ميشال بوتور : إن انتقال الجسد من مكان لآخر يقابله انتقال شيء ما داخل الجسد ، تحرك قد يكون ميمناً أو متقلداً . . . »

ميشال لوني : . . . لا يتعلق الأمر فقط بما نسميه عادة بالجسد ، فهناك مثلاً تقلبات المزاج بالعنق الأخلاقي وثورة النزوات من وجهة نظر التحليل النفسي» (٢٥) .

إذا توسعنا قليلاً بهذا المفهوم نتوصل لاعتبار الجسم كعالم صغير ونجد الزراعين والبطن والأحشاء والبلبن والأذن وحذقة العين تصبح جميعها عظمات تصل بينها دروب ومسالك ونرى بوتور « بسبح ويطير ونشام فيها » (٢٦) .

ونتساءل هنا : أليست المدن والبلدان والعالم بأجمعه سوى جسد هائل يتحرك وينتقل فيه البشر اللذين هم « نقط دم يضخها دون توقف قلب المدينة » (٢٧) أو قلب الكون ؟

أ - هذا الجسد المحتوي والمحتوى في آن معا والذي ينتقل حاملا ما يتحرك بداخله ، ليس إلا محطة في رحلة طويلة ، ورحلة البشرية التي يدعو الكاتب كلا منا لأن يجيها في الاتجاهين متأملا على التوالي بطن رجل وامرأة ومركزا على ذلك حق . يستطيع أن يأخذ الحجم المناسب ، ثم يدخل في رحم هذه المرأة ، يعيش وعشة أصلها - يجتاز مراحل طفولتها وولادتها . . . وهكذا . . .

فكم من رحلة قام بها وهو يحمل ويفك رموز لوحات كلود مونيه Cloude Monet وجاك هيرولد Jacques Herold وبيكاسو وفيراد أسيلفا Vieira da Silva أو موسيقى هنري بوسور Henri Pousseur وبيتهوفن وكثيرين غيرهم .

والرقص أيضاً يستطيع أن ينقلنا إلى أماكن بعيدة ويلاذ عريية ، فترى الراقصين في قصة « عمر الخطاف » Passage de Milan ينطلقون في شرايين بلاد ما وراء البحار حيث ينتقلون بين غابات وطيور تشغلهم للدرجة أن الأشياء والأشخاص المحيطين بهم يبتعدون في مدى غامض لا يقاس» (٢٨) .



- تنقلات واكتشافات :

ما نود تبينه هنا هو الرحلة - الدورية ، أي الغوص داخل كلمة ما أو الالتفاف حولها لإظهار معانيها المختلفة . فكلمة « رحلة » مثلاً بما تتضمنه من عملية انتقال توجد إمكانيات لا تحصى لإدخال كثير من الظواهر والعوامل والانفعالات ضمن ميدانها . وهكذا يبدو كل انفعال - بما مثله من تحرك شيء ما داخل جسم الإنسان ومن نقل للشخص المتفعل من حالة إلى أخرى - رحلة قائمة بذاتها . انطلاقاً من هذا المفهوم نرى الرحلة - كحركة وتغير وانتقال - تصاحب الإنسان منذ تكوينه كجنين حتى ولادته وبلوغه وانفصال بويضة منه تنشعب منها رحلته الأرضية في أولاده وأحفاده ، قبل أن يموت ، مبتدئاً رحلته الأبديّة ، ثم يتوسع ميدان هله الكلمة لكي يصل إلى حركة الأرض الدائمة ودوراتها المستمر حول نفسها وحول الشمس .

Passage de Milan, p. 108 et 218

(٢٤)

Michel Butor et Michel Laumay, Resistances, p. 110

(٢٥)

Elseigneur, p. 24

(٢٦)

Ou, p. 103

(٢٧)

حتى بداية الكون البعيدة (٢٨) . بعد ذلك يأخذ الاتجاه الآخر للرحلة داخلا هذه المرة في إحدى بويضات الرجل ومتفصلا من جيل إلى جيل « حتى نهاية الزمان اللامحدودة » . (٢٩)

هذه الرحلة اللامتناهية تتواصل من خلال حياة كل إنسان وهي تبدأ حتى قبل الولادة ، في حركة الجنين داخل بطن أمه .

إن استعمال كلمة « رحلة » للدلالة مجازا على حياة الإنسان أو على الموت قديمة جدا ، ولكن بوتور يجددها ويعمقها بإعطائها أبعادا أخرى .

ب - « إذا توسعنا قليلا بنظرتنا هذه نجد أن انعدام الحركة ليس إلا نسبيا على الأرض وبأن الأرض في تنقل دائم بالنسبة إلى الكواكب الأخرى » (٣٠)

حتى الأمكنة الأكثر صلابة والأكثر رسوخا تتحرك بشكل أو بآخر . وجبل فوجي في اليابان « يرتحل نوعا ما على امتداد الأيام والسنين ، ففي لحظة ما هو أجمل ما يكون إذا شوهد من منطقة ما » (٣١) .

وإذا كانت هذه الرحلة تتم « نوعا ما » تحت نظر الزائر أو يسحر ريشة الرسام الياباني هوكوساي Hokusai ، فهناك رحلات أخرى كثيرة يتم فيها الانتقال بطريقة أوضح وأكثر طبيعية كما رأينا سابقا بالنسبة للجبل الطائر أو للبحار المنقلة .

في هذا العالم المتحرك يتلقى مفهوم الرحلة تعديلا أساسيا ، فلا تعود عبارة عن « أماكن ثابتة تصل فيما بينها

تفصلت قليلة الأهمية » (٣٢) ، بل تصبح بالأحرى « أمكنة متحركة » . لتوضح ذلك نقول بأن مشاهدتنا لبلد ما تختلف كثيرا بين زيارتنا له بالطائرة أو القطار أو السيارة ، وتختلف كثيرا بالتالي إذا زورناه ميرا على الأقدام . إن مجموعة هذه المشاهدات تعطي صورة متحركة هي الأخرى لأنها تنتج عن تطبيق رؤية شخصية على أماكن متحركة .

ج - إن الأشياء والأدوات التي نستعملها « والتي لا نرى منها عادة سوى وجه واحد هو الاستعمال الثابت » (٣٣) لها بداية ونهاية تقوم بينهما برحلة مزدوجة : نقلها من مكان لآخر ونقل الأجزاء التي تشكل منها . فكل أدلة منزلية ، كانت خزانة أو مقعدا أو آلة موسيقية لها تاريخ طويل : « لقد صنعت وبيعت ووزعت ونقلت قبل أن تصل منزلنا . » (٣٤) كل هذه الأشياء هي بالنسبة لبوتور « أشياء بدوية لحسن الحظ في مجتمع يحلم ببداوة جليلة . » (٣٥) أما حياتنا فهي مرتبطة بحياتنا وظروفنا : تأثيث ، زواج ، احتفال ، تجميد ، انتقال أو ذكرى .

حياة الأشياء وانتقالها ترتبط أيضا بتوضيها وتغليظها وقيمة كل ذلك في حياتنا الاجتماعية والعاطفية .

كم من بلاد وعمالك تترأى لأعيننا عندما نتابع « انتقال المعاني » الذي يعمل من الجسد « باخرة نباتية » ، من القصة « جسدا » ومن أحداثها « خلايا » وتعمل القارىء « يسبح في أقطار الشعر الفسيحة » .

Michel Butor, Le Miroir ventral. Les Cahiers du chemin, no. 15, avril 1972

Repertoire IV, p. 12

Repertoire III, p. 164

L'Arc, no. 39, p. 22.

Resistances, p. 116

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢)

(٣٣)

(٣٤) نفس المصدر ، ص ١١٦

(٣٥) نفس المصدر ، ص ١١٧

أ - الرحلة كقراءة « ان رواية الرحلة تحقق وتظهر الرحلة المزدوجة التي تطوى عليها كل قراءة ، فهي تحمل معها مسيرة عمودية تنتهي بانتقال القاري ، بجعله يغير مكانه الفكري ويغير في النسابة مكانه » . (٣٨)

هذه الرحلة المزدوجة ، أوالأخرى الرباعية كما يتبين من قراءة معمقة لقول ميشال بوتور يمكن أن يضاف إليها تغلان جسداني : انتقال القاري عندما يطلع في حافلة أو قطار أو طائرة ، أي في مكان متحرك ، وانتقاله داخل وسيلة النقل عندما يغير مقعده أو يتنقل من مقصورة إلى أخرى . يظهر من ذلك أن مكان القراءة مرتبط بقوة بما يحتويه وما يمثل الكتاب . وهذا المكان قد يصبح منطلقا لأمكنة متعددة ، فمعد تنقلنا مثلا بين مقصورات قطار يسير ، ندخل من خلال صفحات كتاب أو مجلة أو دليل سياحي عددا آخر من المدن والمواقع ونجعلها تتفاعل مع ما نرى داخل القطار وما نشاهده من توافده .

والكتب تلعب دورا أساسيا في تعريفنا بالعالم أو تعريفه بنا . « فقراءة كتاب عن اليابان مثلا تحفزني على زيارتها ، ولكن مطالعة كتاب عن اليابان عندما أكون فيها تجعلني أجدد موقعي وتكشف لي أماكن لم أزرها . بينما القراءة عنها بعد العودة تسمح بتصورها من جديد ... إن الكتاب وسيلة للتنقل على الوقت ، وعلى المسافة أيضا » . (٣٩)

وكما نقرأ الكتب والتقوش واللوحات فإن المدن والمناظر والمواقع الأثرية نقرأ أيضا ، وميشال بوتور يجب أن « يقرأ ويتلوق » كل مدينة يزورها حتى ولو بدت له

ولكن هل يعني كل ذلك بأن معنى كلمة « رحلة » قد تبدل ؟ أو أنها تنكرت لمعانها التقليدي ؟ على هذين السؤالين يجيب بوتور قائلا :

« إن معنى هذه قد توسع كثيرا عندي . لقد انطلقت من معنى ضيق أو محدد ولكنه مهم جدا لأننا يجب أن ننتقل منه كي نفهم ما تشعب عنه ، وبعد ذلك ، اعتمادا على هذه التجربة الأساسية وهذا المدلول الأساسي ، نستطيع أن نزيد أشياء عديدة في مياثين دائمة التنوع لكي نلقي عليها أضواء جديدة . ولكن يجب أن نفهم جيدا بأنه معنى تشعب منه مدلولات أخرى (٣٥) .



ثانيا - الشبكات الارتحالية

لنتناقش مع بوتور هذا المفهوم الأساسي للرحلة كعملية ذهاب وإياب ونحن نلقي نظرة عابرة على مظاهرها المختلفة .

نجد على الفور بأن « تنقلات بشرية عديدة هي ذهاب دون عودة » (٣٦) فيتبادر لنا بالتالي أنه علينا القيام بدراسة أعمق . وذلك ما يدعو الكاتب لاقتراح علم جديد يضاف إلى سائر العلوم : « الارتحالية أو علم تنقلات البشر » (٣٧)

ولكن قبل أن ننطلق في مختلف الدروس المفترعة عن المعنى الأساسي للكلمة ، لنعد قليلا إلى العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين الرحلة من جهة والقراءة والكتابة من جهة أخرى . أو كما يعرف بوتور هاتين الأخيرتين : « معرفتنا بالواقع وتأثيرنا فيه » .

(٣٥) هذا ما صرح به الكاتب في مقابلة أجريتها معه في مترو في مدينة نيس ١٣ أبريل أغسطس ١٩٨٢ .

(٣٦)

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٢

(٣٨) نفس المصدر والمقدمة

(٣٩)

والسريرة المنجحة لا تقتصر فقط على « مواد الأحلام » ، بل تنطلق طائرة في أغلب كتب بوتور ، فنرى بطل « التمدل » يقوم « بصيد روشي » ونجد أحمد في « مرور الخطاف » يضع يديه السمراوين على الطاولة ويتوه في بحيرات وصحارى وتضاريس رسمها البخار في سقف غرفته . (٤٧)

ج - الرحلة ككتابتة : إذا كان « النص الضخم والغريب » الذي تشكله مدينة أو موقع آخرى يتطلب من الرحالة نفاذ بصيرة وموهبة في الفهم والتألف معه ، فهو يتسطر بالأحرى أن « يترجم » إلى لغة أخرى ، لغة الكاتب ، وأن تعاد صياغته بلغة الأدب .

هذه الترجمة للمدمن - النصوص يقوم بها بوتور وأبطاله بوسائل متنوعة فهو يكتب عن مكان « في مكان آخر ولأجل أماكن أخرى » .

والكتابة عنده تنطلق من الملموس والمعاش والمقروء لكي تؤدي مهمة التأثير على العالم واللغة والانسان .

« لقد أيقنت ، نعم ، لقد أيقنت بأن مصير العالم يرتبط ، بنسبة زهيدة طبعاً ، ولكنه يرتبط بما أكتب ، وعندما أكون في أعماق منفي كتابتي ، فإنني ، أعتزف بذلك ، ما زلت أوقن بهذا الارتباط » . (٤٨)

إن الكاتب يحكم على نفسه بالنفي ويهاجر في أنظار كتابته للمجهولة لكي يسهم في تحسين مستقبل العالم ، ولكن الكتابة تبدو أحياناً أخرى وكأنها الوسيلة الوحيدة للهروب من وضع مكبل أو من مكان خائق ، وهي

أحياناً « كنص غريب » يجد صعوبة في التعامل والتألف معه . وبالنسبة له فإن الرحلة هي قراءة وتعلم واكتساب أشياء جديدة ينقلها لقرائه ، يعلمها لهم بوساطة الكتابة .

ب - السريرة المنجحة القراءة هي إحدى وسائل معرفة الواقع . ولكن هذا الواقع لا يشمل فقط كائنات وأشياء موجودة أو معروفة في الحاضر أو الماضي ، بل أيضاً ما هو فينا ، في داخل كل منا : مشاعر وأحاسيس ونزوات وانفعالات ... وتخيل وأحلام .

وفي أكثر من مكان نرى بوتور يحدد على أنه « لا يمكن وجود واقعية حقيقية إذا لم نعتبر أن الخيال جزء من الواقع وأننا نرى حيزاً كبيراً من السوايق من خلاله » . (٤٩) وهو يؤكد من جهة أخرى بأن « الحلم هو عنصر أساسي من الواقع للشعوي ، من العالم في إطراره الكامل الذي لا تشكل المشاهد التي تراها أحيثنا سوى جزء ، سوى برعم منه . » (٥٠)

هكذا نرى الكاتب ينقب في سلسلة « مادة الأحلام » وبوساطة تعاقب أو تشابك - من قراءات استكشافية ومن أحلام متقلبة ، عن مظاهر وعناصر وأماكن تتراوح ما بين نقطة دم بشرية وبين « كوينسي أي مدينة السماء » .

إن الحلم يشكل جزءاً لا يتجزأ من وجودنا ، من معرفتنا للواقع وتأثيرنا فيه ، وهو يتيح لنا زيارة بقاع قرية أو بعيدة ، ونبي مع الخيال « رحلة في متناول الجميع : الرحلة الساكنة » (٥١)

Repertoire II, p. 299

Troisième dessous, p. 247

Raymond Christinger. Le Voyage dans l'imaginaire, p. 276

Passage de Milan, p. 70

Intervalle, p. 157.

(٤٧)

(٤٨)

(٤٩)

(٥٠)

(٥١)

« ينشأ معمول الباحثين » الذين يأتي بوتور في طليعتهم .

هذا الكتاب يقدم نفسه أكثر من مرة على أنه « مسوق للثقافة الفرنسية »^(٤٦)، ولكن أعماله تظهر لنا بوضوح أنه يتجول بين ثقافات أخرى ، عديدة ومتنوعة ، ويأخذ بنشد الإخلاص عليها جميعا وقراءة كل منها داخل ، ومع ، ولأجل الأخريات ، ثم التوصل لدمجها جميعا في ثقافة شاملة يستطيع كل الناس قراءتها والتفاعل معها . و « تقديمها بعد ذلك لكل الاخوة السائقين »^(٤٧) سارقي المعرفة ومرؤجي هذه الطريقة الجديدة في القراءة والكتابة ، ولكنه لا ينسى أن يذكر هؤلاء بأن « التعديل الذي يحصل في قراءة نص هو تنقل داخل العالم وتفاعل لأجزائه العالم فيها ينشأ ، وذلك ما يعطي رؤية جديدة عنه ورؤية جديدة عن الكتاب والقارئ ويهيئ بالتالي لفعل جديد . هذا الفعل قد يكون ضعيفا جدا في البداية ، وكثيرون يودون رؤية النتيجة المباشرة لما يقومون به . إنما ليس ذلك بالأمر الأساسي »^(٤٨)

هـ - الرحلة ومفهوم الذهاب والإياب : حركة توجهها صفحات كتاب أو ألوان لوحة أو نقوش جدار ، انطلاق في متاهات حلم أو شروع في كتابة نص ، تبقي الرحلة قبل ذلك كله انتقالا جسديا من مكان لآخر ، ولكنه انتقال عند تقليديا كما سبق وذكرنا بعملية ذهاب وإياب . وهنا يرى بوتور بأن هذا المفهوم قاصر عن تعريف الرحلة ويقترح إيجاد علم جديد - علم الرحلات Iterologie يقوم بدراسة هذا المجال بطريقة أكثر منهجية . وهو يوضح في مقاله « الرحلة والكتابة » الأسس البديئة لهذا العلم .

تشكل في أحيان كثيرة طريق الخلاص التي تتخذ الكاتب - الرحالة من متاهات عديدة .

وامتلاك لغة خاصة للتخاطب هو الوسيلة الضرورية للاستكشاف وللبلد بإعادة تنظيم الواقع . وهذا العمود الفقري ينمو ويصلب خلال عملية الاستكشاف التي تتعمق بدورها كلما اغتنت اللغة وتطورت .

كم من سعادة ومعرفة نبلنها إذا ما توصلنا ذات يوم لامتلاك « كامل امبراطورية اللغة » ، للعودة بالآخرى إلى تلك اللجنة المفقودة ، إلى بائيل حيث كل الناس يتفاهمون بيسر وسهولة ، عندها « يستطيع كل منا أن ينتزه داخل هذه الامبراطورية المضيقية ، وعندما تصبح امبراطورية الكلمات مضيقية فإن الحقيقة كلها تصبح مضيقية ، والتاريخ كله يصبح مضيقيا ، وعندما فقط نعرف ماذا نريد »^(٤٩)

يجب أن يتولد عن كل كتابة تكشف وجهها أو مظهرها للواقع دون أن تنسخ هذا الواقع . والكتابة ، بما هي من فعل واستكشاف ، عليها أن تهتم ليس فقط بالواقع بل بما ينقصه ، بما يرغب به . والفعل هنا هو إعطاء رؤية أو أكثر لعالم شامع ومتحرك ، لا حدود للبحث والتنقيب فيه ، يأتي خلاله كل رحالة ، كل كاتب ، بعناصر جديدة يجمعها من مشاعره وآرائه وثقافته وتنقلاته ويعرضها في لغة هي في نفس الوقت خاصة وعامة ، مفردة وجماعية .

د - مروج الثقافات الرحلة هي قراءة وكتابة ، ولكنها بالإضافة إلى ذلك استكشاف للوضع والمشاكل والقضايا المعاصرة من جهة ، وللكنوز الثقافية والتاريخية التي

Georges Charbonnier, *Entretiens*, p. 27

Jean-Marie le Skaner, Michel Bator, *voyageur a la rose*, p. 59

(٤٥)

(٤٦)

(٤٧) للنسب المصدر ، ص ٦١

(٤٨)

Le Matin, op. cit.

لوميان ، تاه بين يسائين الشمال حيث كان الأغنياء يتسلون بتقليم شجيراتهم ، تاه في حدائق المدينة المزدهجة بجمهور صانخب ، ووصل تائها إلى حديقتي الشمال الملبيتين بالنيام » . (٥٧)

البعض يمين إلى التشرد ، ولكن الآخر يعيشه قسرا ، تلك حال شعوب عديدة تنقل مطاردة أو مفتشة عن الماء والكلا والطرائد ، وتلك مثلا حال بدائيي أستراليا في « السهم المرتد » Boomerang والمهندو الحمر في « أي مكان » و « للتحرك » Mobile . . . وتلك إلى حد ما حال ميشال بوتور ذاته ، الدائم التشرد ، أو كما يعرف نفسه « اللايهودي الثالث » ، أي العابر دائما دون التفتيش عن أرض موعودة ، العابر مفتشا عن عالم أفضل .



١ - تنقلات ذات حد معين واحد

قد يتوقف البدو بسبب عائق طبيعي أو سياسي ، أو « قد يغدو نسيجهم الثقافي متينا وقويا للدرجة تجعل من الضروري الحفاظ على بعض المعالم وصيانة القبور بشكل أفضل . عندها يحصل الاستقرار : بعد التشرد الطويل تتوقف المسيرة في مكان ما » (٥٨) .

هذا المجتمع المستقر والمتمدن يوقف بداوته جغرافيا ويشيد البيوت والأسوار ويرسم حدودا لمطقتة ، ولكن الكثيرين من أفراده يتمنون ويمحاولون أن يعبروا الحدود . ومع علمنا بأن الابتعاد عن الأسوار أو تجاوز الحدود كان خلال أزمان طويلة مغامرة ومخاطرة كبرى ، فذلك لا ينفي أن أو ليس واينياس والسندباد كانوا وما يزالون نماذج نجحوا ونحلم بتقليدها .

انطلاقا من هذا المقال (٥٩) ، منحاول أن نعرض المظاهر المتنوعة للرحلة كالتفتال جسدي في مسافة ما ، وأن نتوسع فيها ونزيد عليها بعض الاقتراحات .

نستطيع تمييز أربعة أنواع من الرحلات :

١ - تنقلات غير محددة الانطلاق والوصول : التشرد والبدوابة .

« لا يأتون من مكان محدد ، ولا يقصدهون مكانا محدد » (٥٩) تلك هي حال الشعوب الدائمة الارتحال بحثا عن حيوانات تصطلداها أو عن مراعى لماشيئها . من الصحيح أن بعض الأمكنة التي تمر بها هذه الشعوب تأخذ نوعا من الألفة أو حتى من القدسية ، ولكن ذلك لا يغير من وضعها العام . وقد يضع الموت حدا لمسيرة بعض الأشخاص الذين يدفنون في المكان الذي قضا فيه ، دون أن يوقف لك بدوابة القبيلة .

والبدوابة مرحلة بها كل الحضارات وكل الشعوب ، وما زالت تشكل إحدى الأساطير التي نحتفظ بها في تفكيرنا ونحاول إحياءها في كثير من تصرفاتنا ، « هذا ما يجعل كلا منا يشمر في فئرة نفسه يحضين إلى التشرد » (٥٩) وما يجعل « مجتمعاتنا تحلم ببداوة جديدة » وأغلب أفرادها يطمحون بحالة عبور متواصلة .

هذا الخنين للتشرد ، هذه الرغبة في الذهاب إلى مكان غير محدد بظهران كما قلنا من خلال بعض تصرفاتنا وخاصة في أوقات القلق والارهاق . يمثل هذه الحالة بطل قصة « استعمال الوقت » L'Emploideu temps الذي « تله محروما حتى من صحبة صديقة

Repertoire IV, p. 9-33

(٥٩)

Resistances, p. 117

(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٤

L'Emploi du temps, p. 128

(٥١)

Repertoire IV, p. 15

(٥٢)

(٥٣)

ترتسم بوضوح من أول قصة كتبها ميشال بوتور ^(٥٧) .

يسترد الوطن السليب ويعود المخرج أو المنفي إلى بيته بعد غياب قسرى عاش خلاله غربة وحسبنا . وهذه العودة قد لا تيسر إلا للأولاد أو الأحفاد ، « للجيل الثالث الذي يعيد يرجوعه إلى وطنه الأصلي وصل تلك الروابط التي قطعت أو وهنت . عندها يرتمل في تاريخ أجداده » ^(٥٨)



تنقلات ذات حدين معينين

هنا تكون نقطتا الانطلاق والوصول محددتين : نترك مكانا محلدا قاصدين مكانا هو الآخر محدد ^(٥٩) . ونقطة الوصول هذه لما في الغالب جاذبية معينة ، فهي مرغوبة وبخاترة بناء لخصائص تمتاز بها .

أ - تغيير السكن الشخص الذي ينتقل من منزل لآخر يكون قد زار المنزل الجديد وتعرف إليه وتفحصه « لقد اختاره وقرر أن ينقل إليه كل أثاثه ، متخلياً بإرادته عن منزله القديم » ^(٦٠) وهذا الانتقال يتم في الغالب داخل مدينة واحدة أو بلد واحد .

وتغير السكن هو انتقال ذو فترة قصيرة . إنما خلال هذه الفترة « مظاهر عديدة للأشياء نائمة ومنسية منذ زمن طويل تستيقظ فجأة : وزنها ، حجمها ، قابليتها للكسر ، تنظيمها الداخلي ، طريقة نقلها » . والمظهر الأكثر إثارة للدهشة في هذه الأشياء هو بداوتها التي تخفيها وجهة الاستعمال الوحيدة التي اعتدنا عليها ، الاستعمال الثابت .

وهي عكس الاستقرار تماما : « فقد يحصل أن يطرد شعب مستقر من أرضه على أثر غزو أو كارثة طبيعية . يجعل أفراد هذا الشعب معهم ما يستطيعون من ممتلكاتهم ويرحلون مع بقية أمل بالعودة إلى ديارهم هنا يبدأ حين قوى بالهم . ولكنهم يفتشون عن استقرار آخر » ^(٦١)

نجد مثالا على ذلك في كتب بوتور بعض قبائل المتود الأحمر التي كانت قد وصلت إلى مرحلة التمدن والتي اقتلعها المهاجرون الأوروبيون من أماكنها وأجبروها على الارتداد غربا . بعد ذلك تجد خروج هذه القبائل ولكن من بقي منها مازال يحتفظ حتى اليوم بنحاسه وبأعياده القديمة .

« طالما إن إمكانية العودة لم تنعدم ، وطالما أن اللغة المفقودة مازالت تعول في مكان ما ، فذلك هو النفي . وهو ، مع كل عذابة وآلامه ، أحد الظروف المثل للابداع الشعري : صيانة تلك اللغة وتجديدها وترطيبها » ^(٦٢) .

النفي الذي يمكن أن يعيشه شعب أو مجموعة أو فرد ، يعني إذن ، بالرغم من كل الحنين الذي يولده في النفس - وقد يكون بسبب هذا الحنين الذي يعذب المنفي - وضعا تكون فيه في مكانين معا وفي زمنين أيضا ، وبمعناها « تنتقل من عمق تاريخي إلى عمق آخر » ^(٦٣) مولدا بالتالي لغة جديدة وإنسانا جديدا .

« إن فكرة المنفي الذي يفتش عن الهته الخاصة

(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٦

(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٧

(٥٦)

(٥٧)

(٥٨)

(٥٩)

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١٩

(٦١)

Repertoire III, p. 64

Jennifer Waltei-Walters, Colloque de Cerisy: Butor, p. 59

Repertoire IV, p. 19

Resistances, p. 116

رحلاته الدائمة بين باريس وروما متصفحاً كتاباً أو غططاً لما يجب أن يقوم به من عمل أو نأثماً ، دون أن يعير أحد اهتماماً للمناطق أو المناظر التي يجتازها القطار . وحتى وجوده في روما كان مقتصرًا على تنقلات رتيبة بين محطة القطار والفندق والشركة التي هو وكيلها في باريس . (٦٤)

ب - السياحة من الممكن أحياناً أن تتحول رحلة العمل إلى نوع من العطلة فقد يستغل المسافر المناسبة لكي « يهرب » من عمله الأصلي ويعيش لحظات هجرة أو تشرّد أو قراءة للطبيعة والأثر .

ولكننا كثيراً ما نترك دارنا بهدف محدد ، هو السياحة ، نكثر من المحطات في طريقنا لكي نستمتع بسحر أكثر من منطقة . وقد نغير الطريق خلال العودة ليتسنى لنا رؤية عدد أكبر من الأماكن . خلال رحلة كهذه الأخيرة - التي نستطيع تسميتها « دائرية » - « نزيد عدد نقاط الانطلاق ونقاط الوصول ونتجول بينها مستمتين ببعض المعالم » . (٦٥)

بعد العودة من سياحة ما ، يبدأ كل مكان قام السائح بزيارته يشغل مكان معين من قلبه ، ويبدأ السائح بالتعلق بكثير من الأماكن للدرجة أن يتولد لديه حينئذ متعدد لمناطق أقام فيها ولو لمدة قصيرة .

إنما ليس كل مكان قادراً على إعطاء المعلومات وتقديم الغذاء النفسي اللذين يحلم بهما السائح . عندما تجد نفسك في غربة مزعجة لا تجني منها سوى بعض المشاهدات والمعلومات عن عادات وتقاليد مختلفة عما في بلدك .

ب - الهجرة : مكان المغادرة محدد ونعرف تماماً إلى أين نذهب ، ولكننا لا نعلم بعد أين سنسكن بالتحديد . « لقد تلالاً أفق بعيد أمام عيني المهاجر ببريق الدورادو » (٦٦) فحزم أمتعته وسلك طريقه .

« ومعنى أن هاجر الإنسان أنه طرد ، بقسوة أو بلطف ، أي أن البلد الذي افترضه وطنه قد تحلّ عنه إلى حد ما ، وبها بلغ الحنين إليه ، فلن يستطيع للمهاجر إيجاده كاملاً . إنه يرغب باكتشاف وطن آخر ، يرغب أن يكون وطنه الأصلي هذا الوطن الآخر » (٦٧)

وطن لا يسترد كالية ، ولا يفقد تماماً ، والمنزل القديم يسكن الفكر والقلب ، يشحذ الشعور بالنفي ويغذي الحنين .



تنقلات ذات حد مزدوج

نسافر ونكون قد قرنا مسبقاً العودة إلى الديار بعد مسيرة عدة تقريباً . « نقطة الوصول تتطابق هنا مع نقطة الانطلاق » . (٦٨)

أ - رحلة العمل وهي النموذج التام للرحلة المستقيمة ، أي « تلك التي يتطابق فيها الإياب مع الذهاب » خلال هذه الرحلة لا يتعمق المسافر بالطريق الذي يسلكه وبما يقع على جانبيه ، لأن المهم هو العمل الذي يسافر من أجله والقضايا التي ينبغي إنجازه . تلك مثلاً كانت حال ليون دلون ، بطل قصة التعليل ، قبل لقائه مع سيسيل التي أعطت لطريقه معنى وجعلته يربط بين حبه لها ، بين صورتها وذكرها ، وبين كثير من المناظر والمعالم . قبل ذلك كان يمضي ساعات

(٦٤) نفس المصدر ، ص ١١٤

(٦٥)

Repertoire IV p. 17

Resistances. p. 123-14

(٦٦)

(٦٧)

Repertoire IV, p. 17

(٦٨)

(٦٩) نفس المصدر ، ص ١٨

و « كلام اللهجة التاريخية » يقودنا الى ما يمكن تسميته باللهجة المكائنة ونعني بها التقلبات أو التمرجات التي نلاحظها في منظر ما خلال مشاهدة واحدة . وهذه اللهجة المكائنة « ليست غالبة عن أعمالابوتور الذي يرى في لوحات هوكوسي جبل فوجي « دعوة لرحلة يعرض الجبل للقدس في كل محطة منها شيئا جليداً وخلفاً »^(٧٠)

أما الأماكن التي نتكلم ، فقد تكون مدناً أو مواقع أثرية ولكنها قد تكون أيضاً مناطق موسيقية أو فنية أو أدبية . ومن هذا المفهوم الأخير أطلق بوترور على نفسه اسم « الحاج الأدبي المشغوف » *Lepelerin litteraire* و *passionné* وينظر الحاج فإن المكان الذي يزوره يجبره عن تاريخه وعن العلاقات التي يقيمها مع باقي العالم ويجعله يعيش حالة من التواصل التاريخي والجغرافي .

« عندما أقول عن منظر بأنه شاعري ، فذلك يعني أنني أجد نفسي عمولاً به . وهذه البيوت التي أراها ، أو هذه الأمواج التي أتجاوزها ، تجبرني على تركها ، تعرض أمامي كل أنواع الشواطيء الأخرى . يجتوي هذا المكان على عدد لا يحصى من الأماكن الأخرى ، ولا يبقى كما هو ، لا يقفل على ذاته ، بل يصبح مركز انطلاق في رحلة . كما أن وصفه يضحي هو الآخر أساساً لرحلة طويلة في التاريخ والفكر »^(٧١)

هـ - الاستكشاف : غرضي لاستكشاف مكان مجهول أو غير معروف جيداً ، متعرضين لمجازفات ومخاطر نذهب الى الجهة الأخرى من الأفق ، الطبيعي أو العقلي . نوسعه^(٧٢) .

جـ - الفسحة : نغادر منزلك دون أن تنوي الابتعاد عنه كثيراً . ما تشده هو التنزه أو التجوال ، أي أن تروح عن نفسك في محيط منزلك أو في شوارع مدينتك . ولكن هذا التطواف قد يتحول أحياناً الى نوع من التشرذم أو الضياع ، كما حصل لجياك ريفيل - بطل قصة « استعمال الوقت » - عندما وجد نفسه تائها في شوارع مدينته التي تحولت الى متاهة لم يستطع إيجاد وجهته فيها ثم التخليص منها إلا بعد جهود مضنية .

د - الحجج : « المعنى الأساسي لهذه الكلمة هو الرحلة الى مكان مقدس أو زيارة قبر مقدس أو مكان ظهور عجائبي . يجلب الحاج معه تسليلاً ويأكل بجواب عليه ، يشاء للروح وللجسد . . . ثم أصبحت تعني زيارة الأماكن التي نتكلم ، التي تحدثنا عن تاريخنا وعن أنفسنا »^(٧٣) .

الحج يقتضي إذن ذهاباً وعودة . وسواء زرنا « وصلة بين السماء والأرض كما هي حال مكة والقدس وروما »^(٧٤) أو بين ماضينا وحاضرنا أو بين حضارات مختلفة ، فإننا ننوي منذ الانطلاق العودة بعد أن نكون قد تشبعنا بتأثير المكان المنشود .

إن المعنى الشائع لهذه الكلمة « رحلة فردانية أو جماعية الى مكان مقدس لأسباب دينية ونية التقوى »^(٧٥) - توسع كثيراً عند بوتور كما رأينا ، وأصبحت تشمل زيارة كل مكان يتكلم ، « كل مكان يأتينا بالقول لحظة تاريخية أساسية تتميز من بين عصور أكثر غموضاً وأشد ظلاماً »^(٧٦) .

(٦٦) ليس المصدر ، ص ١٩

(٦٧)

(٦٨)

(٦٩)

(٧٠)

(٧١)

(٧٢)

Repertoire III, p. 29

Selon le Robert, dictionnaire de la langue française, volume V

Repertoire IV, p. 19

Repertoire III, p. 164

Repertoire II, p. 9

Repertoire IV, p. 28

الرحلات العمودية : الانتقال في المكان ملازم دائماً للانتقال في الزمان ، وكل زيارة لمكان ما نصب في تعرف على ماضيه وتفتح لحاضره واستشف لمستقبله . يضاف الى هذه الأبعاد الثلاثة نسج شبكات عديدة من الاتصال بين هذا المكان وأماكن أخرى قريبة أو بعيدة من الناحيتين ، الجغرافية والتاريخية .

وعملية استكشاف مكان ما تضيف بعداً آخر هو « بعد العمق » ، إذ أن الرحلة يسعى للتغلب عن أكبر عدد من طبقات هذا المكان ، فيهبط فيه أو يصعد واسماً أو متابعاً طرقاً مرجحية أو سلمية أو لولبية .

أ - الرحلات الارتقالية : « يتميز هذا النمط بتوسع تدريجي للأفق أو لأسلوب البحث . من نقطة الوصول تمديد تحديد نقطة الانطلاق » . (٧٧)

وتوسيع الأفق يتأتى عن دراسة كل مكونات المكان المقصود ، أو حسب قول بوتور عن « استنطاق هذه المضارب المختلفة والمسكونة ، استنطاق التضاريس والحيوانات والطيور ، تفصيل المكان ومحيطه » ، (٧٨) ثم إعطاء علة « نظرات » عنه والتوصل أخيراً « لفتحه ثقافياً على كل ما هو غريب عنه ، خارجه أو حتى داخل حلوده » . (٧٩)

ولكن هذا الانجاء الارتقائي يجب أن يرافق باتجاه معاكس : الغوص الى الأسفل .

ب - الرحلات المبطية : وفيها يضيق الأفق تدريجياً وبصورة مؤقتة لكون الرحلة تمر في مهو وكهوف قبل أن

وسواء كانت تهدف لاكتشاف مناطق مجهولة من عالماً أو تاريخياً أو جسدياً أو بعض كواكب الكون الأخرى ، فإن كل أشكال الاستكشاف تسحر بوتور الذي لا يكف عن الكلام عنها في يجعل أعماله أملاً أن تتوصل مدن أخرى مثل روما لاكتشاف بلاد جديدة مثل أميركا وأن يكون هو أحد رواد العصور القادمة .

فالرواد ليسوا بالضرورة من يسعون لاكتشاف مناطق طبيعية فقط ، بل هناك من ينقب في مجالات قريبة ، « من يرى بلداناً مجهولة تظهر من بين غبار العصور الغابرة » (٧٣) ومن يقوم « بعثات نحو مطلعات لم تعرف بعد » (٧٤) و « من يخرون محيطات الأعمار » (٧٥) ومن يتدعون « نيلاً من الحان لا تنضب » (٧٦) .

ولكن هذه الجولات والبعثات التي تتكلم أحياناً عن جيمس كوك أو عن كريستوفر كولومبوس وماجلان ورواد آخرين في مناطق جغرافية أو فكرية ، تصبح أحياناً متواضعة لدرجة أنها لا تهدف الا التفتيش عن غرفة للسكن (استعمال الوقت) ، زيارة حي من مدينة معروفة (التمدل) ، الغوص في عيني حبيب (وصف الفنان كغرد في : l'artiste en jeune singe por- trait de أو تأمل ملامح وجه لاستطلاع تعابيره (استعمال الوقت) .

في كل مكان وداخل كل إنسان هناك مناطق مجهولة لا تحصى . والاستكشاف لا ينتهي .



Repretoire III, p. 22

(٧٣)

Ibidem, p. 219

(٧٤)

Matière de rêves, p. 131

(٧٥)

Second sous-sol, p. 25

(٧٦)

Repretoire IV, p. 24

(٧٧)

On, p. 30

(٧٨)

Andre Heibo, Michel Butor, vers une littérature du signe, p. 14

(٧٩)

تتكلم عنها ، الأفلام التي تعرضها ، الذكريات التي احتفظ بها ، والنقص الذي تجعلني أشعر عليها .^(٨٧)

نعيش إذن في مدتنا نوعاً من تعددية المكان ، ولكن ذلك ما يحدث أيضاً ، ولعل نطلق أخيراً ، في منازلنا وفي غرفتنا الخاصة من خلال التلفزيون والمذياع والمطالعات .

ولكن هذه التعددية ما زالت جزئية وغير كافية . ويبقى علينا اجتياز مسافة طويلة للوصول إلى تلاقٍ أعمق وأشمل . وما نشاهده أمامنا عن الغير يغزنا على الانطلاق والتعرف عن قرب . ما نراه هو أصوات تنادينا وتدعونا إلى الزيارة والاكتشاف والتلاقي .



لقد حاول بوتور ، كما رأينا ، أن يبين « كثرة مظاهر هذه الحركة الأساسية للجنس البشري ، التي يقع بداخلها الاستقر الذي نصره »^(٨٧) حاول ولم يزل لكونه مقتنعا بأن الحركة مسالة للفعل ، للتطور ، للحياة ، فالتوقف عنها يعني الموت ، ود الإنسان رحالة بجوهره ، بطبعه . وقوله بالرحلة هو قول لقدره . . كما امتناعه عن سلوك الطريق فإنه يعني الاستسلام لأن الجمود لا يعمل أي مظهر إيجابي .^(٨٨)

ولقد وضع هذا الكاتب أسساً « للرحلية » كعلم جديد دون أن يخفي رغبته في رؤية كثيرين غيره يمتنون هذه الأسس ويرفعون فوقها البناء .

إننا بلور نتنظر جهد المصلين ومعالو المنقبين وبعثات المستكشفين .



يصعد مرة أخرى ويبلغ الجهة المقابلة من الأفق . « هي إذن عملية ارتقاء معكوسة وعاكسة تحدد فيها نقطة الوصول نقطة الانطلاق بعد أن تحدث فيها انقلاباً ، بعد أن نجبرها على الاعتراف » .^(٨٩)

أما المهاوي والكهوف فهي الشقوق والسرديب التي تفتح أمام أبطال « استعمال الوقت » و « التعميل » و « وصف الفنان كقرد شاب » ، وهي عمليات البحث والتنقيب و « الصيد الروحي » التي يقومون بها ، وهي النباتات والحيوانات والمعادن التي نجدها بكثرة وتنوع في أغلب كتب بوتور .



تعددية المكان : يعبر ميشال بوتور في إحدى مقابلاته عن رغبته الشديدة في « تكاثر المكان ، في تخليص المكان من نواقصه » . ثم يضيف : « لقد تمكنت دائماً أن أكون في مكان آخر ، في مكانين في آن واحد ، أتمنى أن أكون في كل الأماكن في نفس الوقت » .^(٩١)

هذه الرغبة التي تبدو طوباوية للوهلة الأولى تحققت إلى حد ما . فالتقدم العلمي والتقني ووسائل الاعلام والاتصال فتحت نوعاً ما المسافة التي نعيش فيها وأدخلت إليها عدداً كبيراً من أماكن أخرى بعيدة وقريبة . فلقد غدا اليوم كل مكان مركزاً لأماكن عديدة ونقطة تقاطع لكثير من الدروب التي تمر في مناطق أخرى .

« يوجد في مدينتي كثير من المدن الأخرى تدخلها بوسائل متنوعة : لوحات الاعلانات ، كتب الجغرافيا ، الأشياء التي تستورد منها ، الجرائد التي

Repertoire IV, p. 24

J.M. Le Sidaner, op. cit. p. 68

Repertoire II, p. 49

Le Matin, 17 avril 1979

Raymond Christinger, op. cit. p. 93

(٨٠)

(٨١)

(٨٢)

(٨٣)

(٨٤)

من ملتقى الحضارات الى الولاية الثانية

« لقد هربت .

كان عليّ أن أهرب .

في كل لحظة أمضيها هنا .

يقول في المنظر : كان عليك أن تهرب »

« في أي مكان » ص ٣٨٥ .

١ - الهروب : تعرفنا كتب ميشال بوتور على مناطق جغرافية متباعدة ومتنوعة . وبين هذه المناطق الطبيعية يتحرك الكاتب أو أبطاله مدفوعين بعوامل عديدة وآملين الوصول إلى أهداف مختلفة . ولكنهم . في كل رحلة يقومون بها ، يغمضون المكان الذي يزورونه لسلسلة من الأبحاث والدراسات تنتهي بكشف كثير من خواصه ومن علاقاته بالأماكن الأخرى .

هذه الرحلة المتواصلة التي شكلت باريس نقطة انطلاقها الأولى وما زالت تشكل محطتها الأساسية ، تعاضلت وتشعبت لكي تبلغ كولومبيا البريطانية والبرازيل واليابان وسنغافورة والبيرو وإستراليا ، وما فتئت تتوسع وأعدت بلدان ومناطق جديدة .

وإذا ما تتبعنا هذه الرحلة من بدايتها نجد بأن أبطال بوتور هم الذين بدأوها ، بمعنى أن القصص الثلاث الأولى^(٨٥) تدرس شخصيات مختلفة أدركت أنها تعيش في محيط خائف فانطلقت تدرس محيطها وتحاول تبين مشاكله وخلفياته ومعرفة القوانين التي تتحكم بحياتها ، ثم تخرج من هذا الاطار الضيق لكي تتابع البحث في البلدان القريبة منها جغرافيا وتاريخيا وثقافيا .

بدأ بوتور كتابة قصته الأولى في مصر حيث كان يدرس اللغة الفرنسية في مدرسة اللتيا خلال العام

الدراسي ١٩٥١-١٩٥٢ . ولقد تحدث عن ذلك أكثر من مرة فيما بعد فقال :

« عشت بعيدا عن باريس للمرة الأولى في حياتي ، وهناك شعرت بضرورة تشكيل نوع من نموذج مصغر لباريس . كنت بحاجة لإعادة تشكيل ما كانت عليه حياتي في باريس » .^(٨٦)

وأعادة التشكيل هذه تتم من خلال بناء سكنية تؤخذ « كمية من مجمل المدينة » هذه العينة تبلى كمجموعة طبقات يعيش ساكنوها دوما اتصال فيما بينهم ودون أن يعرف بعضهم البعض الآخر الا لاما ، لدرجة أنه عندما يتكلم أفراد عائلة ما عن باقي الجيران يشيرون اليهم برقم الطبة فيقولون مثلا « سكان انتال » أو الخاص ، الخ . وحتى أفراد العائلة الواحدة يعيشون متباعدين يفرق كل منهم في عالمه الخاص ، فساكن الطبة الأولى « الهادئون والبسطاء ، كما يبدو ، والذين يعيشون في تفاهم تام ، كما يبدو ، ليسوا في الحقيقة سوى أربعة مستوحدين يزورون بعضهم أحيانا ويلتقون حول مائدة الطعام فقط »^(٨٧)

في هذا المحيط الراكذ يفقد التخابط دوره ومضمونه ويصبح الحوار الذي يدور من حين لآخر عبارة عن كلمات جوفاء لا تواصل بينها ولا قيمة لها ، مما يجعل ساكن هذا المكان الضيق « يتلاون ، يتبادلون التحية ، يتجنب بعضهم البعض الآخر ، لا يدورون ماذا يقولون ، يدخل كل منهم منزله ، يتناول طعامه وينام بينما كل شيء يتحرك من حوله » .^(٨٨)

هذه العزلة والانطوائية تجعل الحياة رتيبة ومملة ، لا بل انها تحول كل غرفة الى « جحر » وتحمل أغلب

Passage de Milan (1954), L'Emploi du temps (1956), La Modification (1957)

Magazine littéraire, no. 110, mars 1976 (consacre à Butor)

Georges Charbonnier, Entretiens, p. 50

Passage de Milan, p. 44

(٨٥)

(٨٦)

(٨٧)

(٨٨)

عندها نسمع في القصة صوت قطار يمر وكأنه يعلن من جهته بأنه البديل للمترو . على السكان الخروج من تحت الأرض ، عليهم التعرف على العالم .

ونسجل في نفس الوقت مرور طائر الخفاف من فوق المني ليعطي الوجه الآخر للاتحاد : من لا يستجب للنداء مصيره الشلل والموت .^(٩١)

لقد سبق لبعض السكان أن غادروا المني وزاروا بلادا بعيدة حملوا منها لدى عودتهم بعض الصحف أو الأشياء التي تجعلهم مختلفين عن جيرانهم ، فمقد ساكن الطبقة الوسطى « غرفة واسعة فيها خزائن كتب وخزانتان أخريان مليتان بأقمشة قبطية وبورق البردي ، وفوقها لوحتان لرسم من القرن السابع عشر تظهر إحداها قطاعة راقعة من الصوان تبين كيف استطاع فلاح الأقصر رغم فقره البالية أن ينقش التماثيل الملكية في عهد السلالة الثامنة عشرة »^(٩٢) هكذا استطاع أحد السكان أن يفتح في منزله نوافذ على العالم من خلال الكتب واللوحات والمصنوعات المحلية لما وراء حدود المني . بينما تجد شخصيات أخرى تعيش حالة اغترابية داخل هذا البناء ، يشهد حين قوي إلى وطن يحملون بالعودة إليه ، وطن جميل ، مشمس ودافئ .

أهم هذه الشخصيات أحمد ، المصري الذي يعمل غادما في أحد المنازل والذي يسميه بعض السكان « علاء الدين » . أنه ائذ من يحمل القانوس السحري الذي يفتح أبواب الشرق الساحر أمام سجناء المني البايوسي . ولكنه يعيش في عزلة خائفة واغترابا إليها تزيد من حدتها المقارنة المائلة دائما أمام عينيه بين عالين : عالم ضيق ، مظمر ، عاصف ورطب وعالم كان

السكان إلى « حشرات تتململ » ، ويطلق تأثيرها السمي الأشياء أيضا .

« هذا الأزيز الخفيف والذي يشبه صوت الخفافيش هو صوت سيارة كسولة تمر . . ألبا القديسون ، ألبا الملايكة ، من منكم قريب مني ليضع يده على أجناتي ، ليهديء هجوم النظرات التي يعود ثقلها ليحزم فوق جراحي . . اسهروا علينا أنتم يا من تعيشون في النور ، أنتم يا من تسافرون »^(٩٣)

هنا تنطلق الكلمة السحرية من قلب الضياع ، أن ما ينقد من العزلة والملل والرتابة والمذاب ، أن ما يحمل النور المخلص ويفتح الطريق أمام هؤلاء السجناء ، ما هو سوى الرحلة ، السفر بعيدا .

ولكن من الطبيعي ألا تبدأ الرحلة على الفور ، فما زال الوقت مبكرا .

« في هذه القصة ، يقول بورتور ، أداة لأسلوب الحياة في مبنى باريبي في الخمسينات ينبغي أولا أن نشخص المرض . . ينبغي أن ندرس هذا المحيط قبل أن نتعلق للقيام بأعمال أخرى . »^(٩٤)

إذا كان معظم الأشخاص والأشياء يتحركون متتقلين في هذا المني ، فلذلك لا يعني أبدا أنه ثابت ومتماثل ، إذ أن مرور المترو من آن لآخر يجعل كل ما فيه يهتز : المصاييح والصور المعلقة على الجدران والطاولات والثرثبات والمصعد . وكان الكاتب يريد بذلك أن يقول : انهضوا يا سكان هذا المني من سباتكم . غادروا لتطلعوا على غيره والا فانه سينهار عليكم .

Georges Chabonnier, *Entretiens*, p. 80 et 81

(٩٥) نفس المصدر ، ص ١٢

(٩٦)

Passage de Milan, p. 67

(٩٧) طائر الخفاف هو طائر شرمز ورمز للوقت عند المصريين القديمه وعند عدد من الشعوب الأخرى

(٩٨)

وطنه وما زال يسكن قلبه ، عالم الدفء والنور والشمس والقمر والنجوم .

ولكن قصة « عمر الخطاف » تنتهي بسفر مزعوج ، أو بالأحرى بهروب شايفين من سكان المبنى ، هروب يجدان نفسيهما مرغمين عليه بعد أن يشتبه بقية السكان بأن أحدهما ارتكب جريمة قتل انجيل ، أجل فتيات هذه البناية ، وهذه الفتاة كانت تتميز بجمال خاص ، مختلف ، فهي « الوحيدة الحقيقية بين تلك الهياكل العظمية المشحونة باصفرار حي مرعب »^(٩٣) ، و « من المؤكد بأن هذه العلواء لها مظهر طائر عظيم يستطيع الانطلاق كالسيل عندما يريد . كما نشعر بأن جسدا آخر يختبئ خلف بياضها ، جسدا داكنا ، مندفعاً يسوي الرقص البدائي » .^(٩٤)

جمال غريب كهذا لا يمكنه العيش في المبنى الباريسي لأنه يجسد الشباب والاشماع والخسوية والمرح في عالم لا يملك الا مكساتيات ولا الحق للاستمتاع بهذه الصفات . وهذا العالم للحشو بالبياض يحتاج لكثير من الأبحاث والاكتشافات قبل أن يصبح جسدا حقيقيا ، جسدا أسمر ، خلاصا ، تنصهر فيه حضارات وشعوب مختلفة . أما « البلد الأبيض » فهو حسب قول ميشال بوتور « كل بلد يرفض تعاليم الحضارات والشعوب » .^(٩٥)

هنا يظهر الهدف الأساسي للرحلة في أعمال ميشال بوتور : التفتيش عن هوية حضارية مفتحة تتيج لحاملها أن يتعرف أكثر على تاريخه من خلال أضواء جديدة تكشف نقاط ووسائل التلاقي بين الشعوب ، وأن

يساهم ببناء مستقبل تزول فيه حلود التفرقة ويكون صورة لبابل ما بعد الطوفان حيث الكل يتعاونون ويتفهمون .

في قصته الثانية « استعمال الوقت » يصور الكاتب شابا فرنسيا يمضي دورة تدريبية في مدينة بليستون الانكليزية ، التي هي في الواقع مدينة مانشستر . وسرعان ما تكشف بأن هذه السنة تصبح فترة نفي وضياح وحنين ، والأهم من ذلك كله ، فترة استكشاف للمدينة وللذات في نفس الوقت .

خلال اقامته في هذه المدينة يكتشف جاك ويفل Jac-ques Revel أنه يتحرك عشوائيا داخل متاهة ثلاثية : متاهة في المكان والزمان والذاكرة . فهي متاهة مكانية من حيث تشابه شوارعها وساحاتها وحدائقها يشعروا فيها وكأنه « سحق في فخ أغفلت فتحته ، بين أنياب المنازل التي يرى صريرها ويسمع »^(٩٦) وهي متاهة زمانية لا يميز فيها ساعة من ساعة ولا لحظة من أخرى :

« أحسست وكأنني ثابت في مكاني . وكأنني لم أصل إلى هذه الساحة ، كأنني لم أقطع مسافة طويلة ، كأنني أجد نفسي ليس فقط في نفس المكان ، بل وفي نفس اللحظة التي تسودم للأبد والتي لم يكن أي شيء يعلن نهايتها »^(٩٧) .

كل ذلك يجعل الزائر المقيم يضعف في متاهة ذاكرته ، فعندما يحاول أن يستعيد فترة إقامته في هذه المدينة ، يقاسي الأمرين قبل التوصل إلى تبين بعض منها :

« من الصعب جدا على أن أحدد في أية لحظة حصلت

(٩٣) نفس المصدر ، ص ١٩٣

(٩٤) نفس المصدر ، ص ١٧٠

(٩٥)

(٩٦)

(٩٧) نفس المصدر ، ص ٣٥

إذا نظرنا ببساطة إلى هذه القصة نقول : إنها رحلة في القطار بين باريس وروما يقوم بها رجل في الخامسة والأربعين قرر أن يهجر زوجته وأولاده الثلاثة وأن يهضر عشيقته الإيطالية لتعيش معه في باريس كما انفذا على ذلك مسبقا .

ولكن دراسة متفحصة للقصة تبين بأنها أشد تعقيدا وأكثر عمقا ، فهي ليست رحلة بين امرأتين أو محاولة لاستعادة الشباب بقدر ما هي رحلة بين مدينتين وتغفلا بين عهود وحضارات عديدة .

في المسافة بين باريس وروما يكشف ليون دلون - بطل القصة - شيئا فشيئا بأن تعلقه بعشيقته لم يكن إلا مظهرا من مظاهر شغفه بمدينة روما . وهذا الاكتشاف يتم بعد عملية « صيد فكري » تقوم بها « آله العقلية » من خلال رفاق الطريق والأشياء الموجودة في المقصورة والمناظر التي يشاهدها من النوافذ . هذه العملية تتعمق فتجعله يتذكر أو يتخيل أو يعلم ، في اللحظات التي يقبل فيها النوم ، برحلات أخرى تتشابه وتتداخل لتوصله في النهاية إلى اكتشاف شيئا بنفسه ودوافعه الحقيقية .

لقد كان منذ شبابه مشغولا بروما ، « هذه المدينة التي كنت (١٠٠) تحلم بها منذ سني دراستك الثانوية ومن أولى زيارتك للمتاحف » (١٠١) وبعد تلك الفترة ازداد تعلقه بهذه المدينة وأصبح يحيطها بهالة من القدسية حتى أصبحت « المدينة الأزلية » و « مركز الأصالة والحمل والحب » و « مدينة الانحماض والنشاب » .

تلك الحادثة الصغيرة التي كانت مدار أحاديث عديدة بيننا . . . لدرجة أنه ، في ذاكري ، كل تلك الأسابيع التي يصرعني عددها . . . تسدغم في واحد فقط ، طويل ، سميك ، كثيف وغامض » (٩٨) .

تلك المائة الثالثة لم تكن وليدة جهل الزائر للمدينة ، بل هي موجودة في تكوينها وفي جوهرها . فهي « مدينة الدخان والضباب والملل ، مدينة المطر والوحول والرتابة ، مدينة الصدا واللعة » (٩٩) وهي بذلك صورة عن مدن شمال أوروبا التي يفترض الكاتب بأن معرفتها ودراستها يتعمق شرطان أساسيان قبل انطلاقه إلى بلاد أخرى تكون نقيضا لهذا المحيط الخافت .

أما الوسيلة التي يستعملها بطل القصة لقهر هذه المدينة ، قهرها بالمعرفة والاستطلاع فهي الكتابة ، وسيلة الانقاذ ورحلة الفهم والفعل . وهكذا نراه يضي النصف الثاني من ستة السردية في استعادة ورواية حياته هناك . بهذه الطريقة يجد نفسه يغوص في أعماق المدينة الضامضة ، يكشف أسرارها ويتبين طريقة الخلاص والانجاء التالي الذي عليه أن يسلكه لتجابه البحث وتعميق الاستكشاف . هذا الانجاء تشير إليه بعض الأفلام الوثائقية التي كان يداوم على مشاهدتها في إحدى دور السينما والتي كانت تعرض مدنا ومواقع أثرية في بقاع مختلفة من العالم . اللحظة التالية يجب أن تكون روما .

مدينة روما هي البطل الأساسي للقصة الثالثة وهي القصة الأكثر شهرة في أعمال ميشال بوتور - « التحليل La Modification » .

(٩٨) نفس المصدر ، ص ٣٧ - ٣٨

(٩٩) نفس المصدر ، ص ١١٣

(١٠٠) تسجيل هذا بأن أحد مظاهر التجديد في هذه القصة - التي تنتمي هي ونصص بوتور الأخرى إلى تيار « القصة الجديدة » "Le Nouveau roman" هو استعمال الرواية فيها لخصيص المحاطات للتكلم من قسده وبذلك يقوم بمحاكاة تأدية برياني أن يتوصل من خلالها إلى الإحاطة بطريقة مباشرة وأفكاره وتصرفاته .

La Modification, p. 228

(١٠١)

وكثير غيرها . وهكذا استطاع بوتور الرحالة أن يعود إلى مسقط رأسه بعد حيرة مر خلالها في انكلترا وإيطاليا . وهو يتكلم عن هذه العملية فيقول :

في قصة التعديل مدينتان ، ولكن المرور في بلستون هو الذي أتاح لي أن أتكلم عن باريس مجددا ، يضاف إلى ذلك المرور في هذه المدينة الأخرى - روما - الذي سمح لي ، بعملية معقدة جدا ، أن أضاع باريس في جيبي ، وهكذا استطعت تجاوز التناقض بين أن أكون في مكان أو أن لا أكون فيه^(١٠٤).

إذا كانت القصتان الأوليان قد شددتا على ضرورة السفر بعيدا ، فإن قصة التعديل تجمد الطريقة الواجب اعتمادها في المكان المقصود .

هذه الطريقة تقضي بدراسة المكان جسدا ، باستكشافه أفقيا وعموديا ، بإظهار خواصه وخلفياته من خلال كل شارع وأثر وموقع ، وبإيجاد « الممرات الفورية » التي توصل إلى أماكن أخرى ، ثم كتابة كل ذلك ، إدخاله في كتب تجمع حضارات وثقافات مختلفة وتساهم في الحد من تناقضاتنا وبسهولة التقارب بين الشعوب .

٢ - نقاط الالتقاء ، اللامركز بعد دراسته للحجم الذي تمثله أسطورة روما في خلفيات تفكيره ، وبعد دراسته لجغرافية هذه المدينة وتاريخها وارتباطها بما حولها ، يتوصل مسافر ميشال بوتور^(١٠٥) إلى اكتشاف مله حيث يقول :

« وهكذا لتتزع من وجدانكم إحدى أكبر موجات التاريخ ، تلك التي كان للعالم فيها مركز ، ولم يكن ذلك

كل هذه الصفات التي ألصقها بها ، جعلت من روما نوعا من الأسطورة التي سيطرت على تفكيره ونحكمت بمشاعره وتصرفاته وعلاقاته للدرجة أنه ، بوعي أو دون وعي ، أخذ يعتبرها تلك الجنة المفقودة التي لا تتحقق السعادة إلا بالعودة إليها .

بعد تفكير وتركيز طويلين تقوده « آلة التفكير » إلى الخلفية الأساسية لتعلقه هذا . إنها رغبة مكتوبة « بالعودة إلى الشريعة الرومانية القديمة ، إلى تنظيم إمبراطوري للعالم حول مدينة مركزية واحدة »^(١٠٦).

عند اكتشافه لهذه الخلفية التسلطية ، يدهش ليون دلون إذ يجد أن مشروعين كانا قائمين في رأسه قد سقطا معا . فمشيخته فقدت جاذبيتها وروما القديمة فقدت بريقها لأنه لم يعد ممكنا لمدينة أن تتحكم بمصر « العالم الذي أصبح أوسع من ذلك بكثير بالنسبة لكل منا والذي يختلف توزيعه عن الماضي »^(١٠٧).

أهمية روما ليست إذن في انتقالها بل في افتتاحها ، وليست في تعصبها بل في تلاقيها وتفاعلها مع بقية المدن والحضارات . وهذا ما تبيته آثارها ومعالمها التاريخية حيث يدل كثير منها على الحضارة اليونانية أو المصرية أو الآسيوية . فهي ليست إذن « رومانية » صرفة ليست بالتالي المدينة الوحيدة التي تتلاقى فيها عهد وثقافات مختلفة ، فباريس ، على سبيل المثال ، واحدة من تلك المدن الأخرى التي يظهر فيها هذا التلاقي .

هكذا تأخذ مدينة باريس مكانا مشابها لروما التعددية ، وتبدأ معالمها بالظهور تباعا من متحف اللوفر إلى المسلة المصرية إلى قوس النصر الروماني والبنائري

(١٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٧

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

(١٠٤)

Magazine littéraire no. 110, p. 17

(١٠٥) نهي بكلمة « مسافر » هنا كل من يقوم برحلة في أحمال بوتور سواء كان ذلك الشخص الكاتب ذاته أو أية شخصية في كتابه ، إذا نلاحظ استمرارية الرحلة من خلال شخصيات متعددة ومتنوعة .

تجاوز مفهوم المركز ، نجله يتوجه إلى « لا مراكز » ، أي إلى أماكن كانت تلدور في تلك معين ولكنها استطاعت أن تحتفظ باستقلالية معينة وأن تشكل نقاط إشعاع فكري وحضاري :

« مانطوفا Mantova هي إحدى الأماكن ، خارج روما ، حيث يظهر بكل وضوح مدى المساجس الروماني ، أي هذا النوع من اليأس الذي غمك أوروبا في لحظة بدأت تشعر بسقوط التسلطية وكشف اميركا ، بأن صورة الامبراطورية كوحدة للعالم أخذت تهتز نهائيا »^(١٠٨).

عناصر جديدة ، فرضت نفسها إذن ، ومنذ مدة طويلة ، حل الفكر الأوروبي ، فتركت تأثيرها عليه وشقته قبل أن توظفه من سبات طويل كانت تبده فيه أحلام الوحدة واللحمة . وهذه العناصر تدعمه للتغش عن غيرها بين أطلال هذه الامراكز :

يوجد في حضارة وفكر فيراري Ferrare شيء ما لم يكشف بعد واتجاه مختلف ذو تناغم تام مع بعض حاجتنا ، كما لو أن هذا النور الساطع الذي خفت مدة طويلة قبل أن يظهر لنا من جديد ، يدعونا للاستماع به كي نطعمه^(١٠٩).

هذا النور الكامن في آثار فيراري كما في مدن أخرى كثيرة ، يمثل القوة الدافعة والشجعة للمسافر كي يتقدم بخطى ثابتة ليس فقط نحو اكتشاف خبايا الماضي ، بل نحو المستقبل أيضا ، إذن أن معرفة الماضي لا معنى لها إذا لم يكن مصيها في بناء مستقبل أفضل .

هذه النور التي ينشدها المسافر دفقا وصحة ومعرفة إذ يقول : « كنت بحاجة لتغيير الهواء وللاستمتاع

المركز الأرض في وسط دوائر بطليموس فقط ، بل روما في وسط العالم . فأنتم تلاحظون بأن هذا المركز انتقل بعد انهيار روما إلى القسطنطينية ثم إلى أماكن أخرى ... »

ومع كل التأثير الذي مارسه على كل الأعلام الأوروبية ، فإن ذكرى الامبراطورية لكل منا أوسع بكثير وموزعا بشكل مختلف عما عهدناه^(١١٠).

انطلاقا من هذه البقعة الفكرية يحزم المسافر حقائبه ويسيرا موعودا بعقبة مفتوحة تمخلصت إلى حد كبير من وهم الامبراطورية الرومانية المقدسة . ينطلق إلى الجوار الجغرافي والثقافي ليتفحص مناطق تقع في حوض البحر المتوسط ، ويكتب نتائج استكشافاته في الجزء الأول من « عبقرية المكان » :

لقد أيقن خلال رحلته إلى روما أن هذه المدينة المتعددة الوجوه وثيقة الصلة بحضارات مجاورة عليه دراسة آثارها وأطلالها على عجيب منها بعض الأضواء التي تعدد ملامح شخصيته الحقيقية والتي تمكنه من الإجابة على أسئلة تلح على تفكيره : « من أنت ؟ أين أنت ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ عم تبحث ؟ » .

يسافر الكاتب بنفسه في هذا الكتاب محاولا إيجاد بعض الأجوبة . يسافر وهو موقن بأن « المجتمعات لا تبقى معزولة عن بعضها البعض ، فهي تلتقي ، تتحارب أو تتاجر . وليست عناصرها « الراقية » فقط هي التي تتجابه ، أسلحة أو منتجات ، جنودا أو بضائع ، بل الخيالية منها أيضا ، ألقتها^(١١١).

يزور في البداية سلسلة من المدن كانت تشكل ذات يوم جزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة . فلكونه

La Modification, p. 277

Repertoire II, p. 17

Le Génie du lieu, p. 97

(١٠٦)

(١٠٧)

(١٠٨)

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ١٠٤

الظاهري بين أجزاء المدينة ، فإن هناك « ممرات فورية » تجعل المسافرين يشعر وكأنه موجود في أكثر من زمان ومكان . فجسرهما أو نفقها ليسا فقط وسيلة اتصال بين آسيا وأوروبا ، بين العصر العثماني والبيزنطي ، بين الاسلام والمسيحية وبين الحاضر والماضي .

وسالونيك أيضا هي نقطة التقاء بين الشرق والغرب ، فمنذ تأسيسها « لم تتوقف عن كونها مدينة حدودية » وعطلة عبور تتجاوز فيها آثار بيزنطية وروما وأثينا ، بالإضافة إلى « شواهد عديدة على يونان منقولة من انكلترا أو فرنسا أو ألمانيا »^(١١٥) . ثم إن لها علاقات وثيقة مع الاسكتلندية الماصرة أو التي لمع فيها البطالسة ، كما أنها « تشبه كثيرا مدينة ماري التركمانية » كل ذلك يدفع المسافرين لأن يعتبرها « نقطة انطلاق أو ميناء ربط » .

ما نلاحظه إذن أن مدن سانتوفا وفيراري ودفلس واسطنبول وقرطبة وسالونيك وبالرمو (التي يفسد لها الكاتب مقالا منفصلا)^(١١٦) كوّنت بشكل أو بآخر أجزاء من الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية . ولكن زيارتها تظهر بأنها محطات على طريق تقود بالضرورة إلى مصر ، طريق متعرجة تصل الغرب بالشرق تجعل المسافر الأوروبي يتخلص شيئا فشيئا من أساطيره القديمة حول مركزية روما أو غيرها ، ويتزود تدريجيا بما يقفه « هذه الحالة من الأوهام التي تحيط بكلمة الشرق »^(١١٧) .

بالشمس » ، يجدها أحيانا يمزج للعناصر في شراب حقيقي أو خيالي . قصورة بابل التي يتأملها في مدينة سالونيك تشكل « ينبوعا أو على الأقل منبعا يتفجر منه جزئيا بعد ترسب وتقطير ، هذا السائل الذي يروي الظمان »^(١١٨) ظمأ للاكتشاف والمعركة ، للاطلاع على مكونات نقاط العبور أو الالتقاء وأماكن تعايش الثقافات المختلفة .

في قرطبة يلاحظ المسافر أن « كل شيء يعيدنا إلى الخلافة ، إلى تلك الفترة التي كانت فيها المدينة بيزنطية الغرب »^(١١٩) ، وهكذا فإن زيارة الغربي إلى هذه المدينة تجعله « على اتصال مع كل ما تقلمه إفريقيا المتوسطة والاسلام من غنى حضاري »^(١٢٠) .

أما في اسطنبول ، فإنه يتبين وجود مدن ثلاث ذات ميان مختلفة تعود كل منها إلى عصر معين . وأقبح هذه المدن هي « ليفريول الشرق » أي المدينة الصناعية والمصرفية ، المدينة السوداء التي تمتد على الضفة اليسرى للقرن الذهبي ثم « تملدت في الجهة المقابلة في اسطنبول القديمة ، في المدينة العثمانية الكبرى التي نخرها السوس منذ قرون ، عمدة جندورها إلى جوفها ، مدخلة محصاتها في أحشاء نسيجها المهترئ ، والتالف ، سلبية قوتها »^(١٢١) .

والمدينة الثالثة التي رجلت قبل الاثنين معا ، هي القسطنطينية « التي لم تولد من توسع بيزنطة ، بل من الانتقال الإداري إلى هذا المكان لعاصمة الامبراطورية الرومانية المستشرقة »^(١٢٢) . ولكن بالرغم من التنافر

(١١٠) نفس المصدر ، ص ٥٧

(١١١) نفس المصدر ، ص ١٩

(١١٢) نفس المصدر ، ص ١٦

(١١٣) نفس المصدر ، ص ٣٤

(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٧

(١١٥) نفس المصدر ، ص ٤٩

(١١٦)

(١١٧)

وهكذا تدخل تفرعات أفقية وعمودية ، جغرافية وتاريخية لكي يستطيع المسافر الاستمرار في سفره الاستكشافي نحو مصر . هذه التفرعات تمر في مدن تمت إلى حضارات ثلاث : الرومانية واليونانية والشرقية : من هنا تتوضح للحطات التالية : دلف عاليا ، مانتوفا ، فيراري ، بتعمقه في دواية الحضارات القديمة يتخلص من كثير من أولامه ويصل إلى مصر بعجلة مفتحة تجعلك يراها على حقيقتها بعيدا عن تأثير أفكاره السبقة .

٣ - الولادة الثانية قبل أن نتكلم عن وصوله إلى مصر ، نجد من الضروري زيادة محطتين على جولة ميشال بوتور في نقاط الاتصال : الأولى في بالرمو والثانية في ألمانيا .

في معرض حديثه عن بالرمو ، لا يكف عن إظهار إعجابه بموقع جزيرة صقلية :

« لقد شكلت هذه الجزيرة على امتداد الأزمنة القريية مكانا لالتقاء وليس للعبور ، فالإيوناني القديم والبيزنطي والعربي والنورماندي والقوطي يتلاقون فيها ويتفاعلون في لطف مناخها » (١٢٠) .

ومع كل ذلك ، يشكو الكاتب - الرحالة في نفس المقال من ضيق المجال الذي يتحرك فيه :

« لم أستطع بعد تجاوز حدود الامبراطورية الرومانية القديمة ، كم أتمنى الافلات من أسر هذا النطاق » (١٢١)

تشكل رحلته إلى مصر العبور الأول خارج الحدود . ولكن التحضير لها يتم من خلال رحلة « وصف الفنان Portrait de l'artiste en jeune singe : كرفد في :

وإذا ما قارنا بين التسلسل الزمني لزيارات بوتور لهذه المدن (ألمانيا - مصر : ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، سالونيك وقرطبة : ١٩٥٤ ، بالرمو ودلف واسطنبول : ١٩٥٥ ، مانتوفا وفيراري ١٩٥٧) وبين تدرجها في الكتاب (قرطبة ، اسطنبول ، ماليا ، سالونيك ، مانتوفا ، فيراري ، مصر) فلننا نجد اختلالا كبيرا ولكنه معبر . فالباب الذي نلج منه إلى هذا الكتاب هو قرطبة والذي نخرج منه مصر ، وكل باب هو كما نقول إحدى النقائذ (١٢٢) « عائق ومحر ، إغلاق وفتح » ، وهو يختار عن قصد لكي « يؤمن عبورا إلى مستوى آخر » ، إلى حالة فكرية أخرى . وبناء على ذلك فإن الوصول إلى مصر ، أو التوصل لفهم أسطنبول مثلا ، يفترض المرور بملحنة خلاسية تقسم بينها وبين هذين المكنئين علاقة قرابة ، والقرابة هنا هي الحضارة الإسلامية التي أثرت وما تزال في هذا البقاع .

بعد اجتياز « البيزنطيين » ، الغربية والشرقية - قرطبة واسطنبول - نصل إلى سالونيك ، هذه المدينة المحفوظة بآثار بيزنطة الشرق والتي تكمن أهميتها الأخرى في موقعها كنقطة عبور بين عدة عصور وبلاد .

« مع كونها لا تمثل جزءا من اليونان بكل معنى الكلمة ، فإن سالونيك ، الواقعة في منتصف الطريق بين أثينا والقسطنطينية ، هي المكان المثالي للمشهور بهذه الجديبة المجهولة تماما ، إنه بين الحضارة الملمينة وعصرنا الحاضر لا يوجد فقط هذا الطريق الذي يمر بروما ومعصر النهضة الروماني ، بل أيضا ، وبشكل أكثر وضوحا ، طريق آخر يمر عبر الامبراطورية الشرقية والكنيسة الشرقية وحضارات الشرق » (١٢٣) .

Françoise Van Rossum — Guyon, Critique du roman, p. 269

Le Génie du lieu, p. 51-52

L'Arc, no. 6, 1959

(١٢٨)

(١٢٩)

(١٣٠)

(١٣١) نفس المصدر .

التي يزور فيها ألمانيا والتي لا تنشر إلا بعد تسع سنوات (في ١٩٦٧ من «عبقريّة المكان» (١٩٥٨) .

الرحلة إلى ألمانيا ، بلاد «الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة» كانت بمثابة «تمهيد» - حسب تعبير الكاتب - للانطلاق نحو مصر . فلقد أعطته ، عدا «تعلم قليل من الألمانية والاطلاع على قسم من ألمانيا» ، فرصة للقراءة والاطلاع والتعمق في النحت والموسيقى والرسم والفلسفة وعلم المعادن والكيمياء ، بالإضافة إلى طريقة جديدة في البحث والدراسة .

كانت مهمته في ألمانيا أن يساعد أحد الأثرياء على تذكر ما تعلمه سابقا من اللغة الفرنسية وأن يوسع دائرة إلمامه بها . وهكذا أقام في قصر البارون الواقع في مقاطعة بافاريا «على طريق سياحي شهير جدا» الطريق الرومانطيق ، أي الذي سلكه أغلب الرومانطيقين الألمان ، من أمثال ويلهلم هانسن وكارل فيليب موريتز وهوغر فون هوفمانشتال ، في مسيرتهم نحو جنوب أوروبا ، وبمسودة خاصة لإيطاليا ، والذي يوصل في النهاية إلى الشرق مع هرمان هسه Hermann Hesse وكثير غيره^(١٢٢) .

ولكن الشرق كان موجودا في القصر من خلال بلود يجب حفظها والعناية بها لكي تنمو فيها بعد في موطنها الأصلي الذي ينبغي الوصول إليه من طريق يختلف عن الاتجاه الرومانطيق لئلا يبلغ المسافر الشرق الذي تتخيله أوهام الرومانطيقين «وطنا وشبابا للروح» كما سماه هوفمانشتال^(١٢٣) . الطريق الجديد يجب أن يوصله

إلى الشرق الحقيقي الذي يعلم ويغير عن ماضيه وماضي أوروبا ، والذي تتلاقى فيه حضارات شرق : من الفرعونية إلى الهيلينية والرومانية والمسيحية فالإسلامية ، الشرق الذي مازالت كثير من هيروغليفيات تنتظر من يكتشفها ويفك رموزها . وهذا ما يجعل الكاتب يعلم بالقدوم وكأنه شامليون آخر ، مهمته ليس فقط أن يفتح أبوابا على مستقبل مصر أو أوروبا ، بل على مستقبل أفضل للعالم بأسره .

هذا الحلم الطموح يحفز على التنقيش عن أشياء تمهد لرحلته القادمة . ويبدأ البحث في مكتبة القصر الغنية حيث يجد الترجمة الفرنسية لكتاب توماس مان «يوسف في مصر»^(١٢٤) ، وترجمة «ألف ليلة وليلة» التي قام بها إلى الفرنسية انطوان غالان^(١٢٥) . تسيطر قصص الكتاب العربي على تفكير الشاب الفرنسي المقيم في ألمانيا لدرجة أنه يتخيل نفسه مكان الصعلوك الثاني الذي يحوله أحد السحرة إلى قرد يستعبد فيها بعد هيئته البشرية بفضل معرفته بالكتابة التي يفهم بها وضعه للآخرين^(١٢٦) . وتلقي هذه القصة الضوء على عنوان الكتاب : «وصف الفنان كفرد فني» ، أي كإنسان ينشد الخلاص والتغيير من خلال عملية الكتابة ، مشيرين هنا إلى أن الإله الفرعوني «توت» كان كثيرا ما يرمز إليه بشكل قرد .

أما الطريق المختلف الذي سلكه ، فيمر في الحجر ، «هذه البقعة الأسبوعية الباقية بعد أمواج الغزو وراء حاجز جبال الكويكبات الليلية بالنسبة لي ، بين غاباتها

Portrait de l'artiste en jeune singe. p. 95

(١٢٢)

(١٢٣) المزيد من المعلومات من نظرة الرومانطيقين الألمان إلى الشرق ، انظر الجزء الأول والثاني من :

Marcel Brion: L'Allemagne romantique, tomes I et II, Albin, Michel, 1976 et 1978

Thomas Mann, Joseph En Egypte

(١٢٤)

Antoine Galland. Les Mille et une nuits.

(١٢٥)

(١٢٦) ألف ليلة وليلة . الجزء الأول . قصة الصعلوك الثاني تروي بين الجانبين ١٣ و ١٥

شارع سافر ، تسمى سبيل الفلاح ، ذلك ما جعلني
التي الدعوة بسعادة (١٢٩).

وبالرغم من شعوره بالقرية في السنة الدراسية التي
أضياها في ألنيا ، فإن إقامته هناك كانت ذات فائدة
ودروس عظيمة .

لقد وجد في البداية صعوبة كبيرة بالتلازم مع هذا
المحيط السديمي والصحراوي . ولذلك كان يتنظر نهاية
الأسبوع بفارغ الصبر كي يستقل القطار إلى القاهرة
حيث يمضي بمد طهر الحبيس والجمعة بكامله « معاولا
تنشق قليل من هواء الغرب » .

ولم يطل به الأمر على اعتياد الحياة هناك ، فأخذ يجد
لذته كبرى في التعرف على عادات وتقاليد بيئته الجديدة
« في ألنيا ، هذه اللدنية الصنيرة ذات الثمانين ألف
نسمة يومها ، الواقعة في وسط مصر ، على بعد مائتين
وخمسين كيلو مترا جنوبي القاهرة ، على ضفة النيل
الغربية ، وأحد أكبر أسواق القطن ، التي لا تحتوي على
أي أثر مهم وعلى أي بناء لأكثر من قرن مع أنها تعود
لأكثر من خمسة آلاف عام » (١٣٠).

إنخذ يتأمل للدينة والجوار بسعادة وواقعية ويصف
موقعها ومنازلها ذات الأثاث البسيط والمتواضع ،
باستثناء بيوت بعض الأغنياء الذين كانوا يأتون بأناتهم
الفخم والشمين من القاهرة أو مباشرة من بعض عائلات
لندن وباريس « لأنه لم يكن في للدينة في ذلك الوقت
طاولو واحدة للميع » (١٣١).

وقصة الطاولو هذه التي كلفه الحصول عليها جهدا
ووقتا كبيرين في بداية العام الدراسي ، طرحت لديه

وشعائها ، بقصور مسكونة بالأشباح والسحرة ، كالذي
تحكي عنه قصة جول فيرن ، مع أساطير مصاصي
الدماء (١٣٢) ، طريق مدينة بودابست المزدوجة ،
وطريق أحد فلاحيتها ، « الدكتور هـ . » الذي رتب في
البداية رحلة الفرنسي الشاب إلى ألمانيا ، وشخصية
« الدكتور هـ . » مزدوجة من جميع الوجوه ، فهو غربي
وشرقي ، طيب وكيميائي ، واقعي وخيالي في آن
واحد ، وهو بذلك يذكرنا بشخصية « جاتنوس » الإله
الروماني ذي الوجهين الواقف على مدخل روما في أحد
كوابيس قصة « التعديل » ولكنه هنا جاتنوس مختلف ،
بشري ، واقعي ، يمنح المسافر الفرصة لزيارة لألمانيا ،
« أرض الفلاسفة » ، ويعطيه في الوقت ذاته « كلمة
السر » ويأخذه على « الباب الخفي » الذي يدخل منه إلى
« كهف الكنوز الفكرية » . . . إلى مصر .

يشرح جورج غودان ، أحد الذين كتبوا عن ميشال
بوتور ، هروبه إلى مصر بالعبارات التالية :

« بما أن كل كتاب يمكن أن يصبح إنجيلا ، فإن كل
دليل تتملكه الرغبة أن يصبح مع الوقت سيذا . وكل
ثقافة تحمل في داخلها بذرة استبداد يجب إتلافها
بالافتتاح على ثقافات أخرى . ولذلك كان على بوتور أن
يتوب ، أن يتعد ليس فقط عن القصر وعن ألمانيا ، بل
عن كل تلك الثقافة ليجد أخرى ، ثقافة مصر ، وكثير
غيرها فيما بعد » (١٣٣).

أما بوتور فإنه بعيد رغبته في الذهاب إلى مصر إلى
أقدم من رحلته إلى ألمانيا :

« راغباً آنذاك ببعض البعد والمزلة وقليل من
للغامرة ، متحمسا بمصر من سبيل ماء مقابل منزلي في

Portrait de l'artiste en jeune singe, p. 21

Georges Godin. "Portraits de Buier en Jeune étudiant" Metaphores, no. 1. Nice, avril 1980. p. 83-84

Le Genre du lieu, p. 114

(١٢٧)

(١٢٨)

(١٢٩)

(١٣٠) نفس المصدر ، ص ١١٣

(١٣١) نفس المصدر ، ص ١٢٨

وحضارية تجعله يتخلص من عقد وأساطير تربيته الأوروبية .

« لقد كانت مصر وطننا ثانياً لي ، وحدث لي ما يشبه الولادة الثانية في هذا البطن الممدود الذي يمتص بفمه دلتا البحر للمتوسط ومعايير حضارته ، مخزننا هذه الأخيرة ومازجاً لها في عملية تخمير بطيئة » . (١٣٣)

هذا المولد الخلاسي ، الأوروبي - المصري ، يصبح قادراً بحكم هويته الجديدة وانتمائه المزيج على أن يرى الأمور بشكل يختلف عن بقية الأوروبيين . وأن ينظر إلى العالم بطريقة أكثر موضوعية وتجرد . وللدلالة على هذا التطور في شخصيته نورد نصاً مطولاً بعض الشيء ولكنه ضروري ومعبر :

« إن كل فرنسي جاوز مرحلة دراسته الثانوية قادر على تقديم ملخص غير دقيق لتاريخ البشرية يظهر فيه اليونانيون والرومان (والعبريون الذين تنسب لهم التوراة والمذهب الكاثوليكي إلى حد ما ، مع أن هذا البلدان كثيراً ما لا تبدو رغبة لذلك) ثم العصر الوسيط المسيحي ، لعصر النهضة ، وأخيراً أوروبا المعاصرة مع علومها التي تنكسح باقي العالم .

« صورة تدعي أنها كافية وأنها تنطوي على كل التفسيرات دوماً حاجة لإدخال هذه الشعوب الأخرى وتلك الحضارات الأخرى الغربية الأطوار والتأففة والمضحكة ، التي لا تستحق أي اهتمام » .

« لدرجة أن حضارات عظيمة ومجيدة كالفرعونية والإسلام لا تظهر إلا بشكل ملحقات بشكل حواشي في أسفل الصفحات أو بشكل رسوم هزلية . .

مقارنة بين طريقتين مختلفتين في الحياة : الأوروبية والمصرية الريفية . فبينما يعتاد الأوروبي على سلوك وتصرفات ترتبط بمقاعد وكراسي وطاولات وما إلى ذلك ، تتمحور طريقة الريف في مصر من جلوس ووقوف واستلقاء حول البساط أو الوسائد المقروشة على الأرض ، ذلك ما يجعله يقول :

« ألا ترى معي بأن الحديث عن شيء بسيط جداً كالطاولات يطرح على الفور قضية حضارة كاملة ذات أسلوب آخر ويطرح فترة تاريخية بأكملها ؟ إن إدخال أدوات كهذه في محيط غريب عنها ، أو بالأحرى تبنى نمط أوروبي في الحياة ، أي ضمن تربية تقتضي بين أشياء أخرى وجود مثل هذه الأدوات ، يتسبب اختلالاً واضطراباً عميقين حتى في التصرفات العادية » (١٣٤)

ولكن ما يغيه بوتور من إقامته في مصر ليس إيجاد الاختلال ، بل على العكس التركيز على التلاقي وإظهار ما لمصر من أثر في صهر الحضارات ومن تأثير حتى على العقلية الغربية . ذلك ما يفسر اهتمامه الشديد بالقاهرة وما تمثله ، وما يبين الهدف من زيارته المتكررة لها ومغنيته كل أيام العطلة المدرسية فيها .

كان يبحث بين آثار مصر عن معلومات عن « أصله وأصل الديانة التي نشأ عليها » ، عن تحديد أو تحسين لطرح المشاكل التي شغلت خلال مدة طويلة ، عن شعاع يضيء بعض خفايا أوروبا ، « بنت الإمبراطورية الرومانية » ، عن طريقة جديدة لقراءة وتحليل التاريخ ، تاريخ الشرق وأوروبا معاً ، وعن كل ما من شأنه « الدعوة لتوسيع وتحديث المعارف التي ورثها من طفولته » . الهدف من كل ذلك إعادة تكوين ثقافية

(١٣٣) نفس المصدر ، ص ١٤٢

(١٣٤) نفس المصدر ، ص ١١٠

ولكن المنطقة التي يحاول بوتور اكتشافها ليست فقط الإمبراطورية الرومانية أو مصر أو الشرق أو أية منطقة أخرى في العالم ، فظموحه أوسع من ذلك بكثير :

« إن الأرض بكاملها هي التي أحاول أن أكتشفها ، أحاول أن أراها » (١٣٨) . وبناء على ذلك يكون اكتشافه لأحد أجداده في مصر خطوة على طريق طويل سيحاول خلاله اكتشاف أجداد آخرين في بقاع مجهولة . ولكن اكتشاف الماضي ليس هدفا بحد ذاته ، بل هو ، على العكس ، طريق يوصل للمستقبل ، « لوطن الأبناء » . اكتشاف مزدوج إذن ، وهدف عظيم لا يمكن تحقيقه إلا بالانطلاق من أرض صلبة وتحديد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول وهذا ما يجعل من الطبيعي جدا العودة إلى باريس ، إلى المدينة التي ألام التي غادرها المسافر وكل شيء فيها يتر ، ويجعل من الضروري تقوية أساساتها بما حمل عقله ويده من دورته حول التوسط .

تتم العودة إلى باريس هذه المرة من خلال قصة « درجات » Degues حيث يحاول المسافر تعميق معرفته بمسقط رأسه ، ومن خلال مناهج التعليم الثانوي ، بالأحداث والتواريخ التي تؤثر على عقلية سكانه .

بعد أن غادر للمدينة كليميد ، « فكر في » ، يعود إليها أستاذًا غني التجربة ، قادرا على إدخاله ، يصيغ من نور في قلب هذا الظلام الدامس الذي تنتخب فيه (١٣٩) .

الجديد في هذه الفصحة من ناحية الشكل - وكل قصة ليشال بوتور تحمل تجديدا شكليا - هو التوافق في كتابتها

« من الطبيعي أن هذه الصورة قاصرة عن اتعاض أبسط فلاح مصري لأن أول ما يتبادر إليه هو عصر الفراعنة كلغز ، وأول ما يبعه هو الإسلام كقاض وحاضر وتقاليد الدوجة أنه يجد نفسه مضطرا لوضع التاريخ الأوروبي ضمن إطار أوسع منه بكثير » (١٣٦)

هكذا نرى هذا الأوروبي ، ابن المطر والضباب والدخان ، ابن الإمبراطورية الرومانية الهرمة ، ينطلق لينتشر عن أجداده في زواياها وأقطارها ، فيجد أول هؤلاء الأجداد في مصر ولكنه جد خلاصي وليس أبيض ، لذلك يستطيع أن يطلعه على بعض أسرار الرمال والصحراء ، أن يذيقه جسده وروحه (١٣٥) ، أن يقدم له المعدات اللازمة للحفر والتنقيب في العالم وتاريخه ، بعد أن برهن له بأن العالم لا يبنى على مركز واحد وأعلمه بأن عليه ، كي يفهمه جيدا ، أن ينظر إليه من زوايا مختلفة ، وأن يبحث بدل للراكن عن شرايين وأوردة - تستقبل وتضخ دم ثقافات وحضارات متنوعة ليصب في قلب بابل جديدة .



قصة « درجات » أو تجديد (١٣٦) وسائل الاستكشاف : يصل مستكشف منطقة جغرافية أو أدبية إلى نقطة يجد فيها أن المعدات التي يحملها لم تعد كافية ويدرك بأن التقدم ومواصلة البحث أصبحا مستحيلين ، « عندها يبدو من الضروري العودة إلى نقطة الانطلاق للإتيان بمعدات أحدث وأكثر ملاسة لهذه المنطقة التي أصبح الآن يعرفها بشكل أفضل » (١٣٧)

(١٣٤) المصدر السابق ، ص ١٩١ - ١٩٢

(١٣٥) يصرح بوتور في إحدى مقالاته : « عندما ذهبت إلى مصر للمرة الأولى ، كان قسم اكتشافي (بين أخرى كثيرة) أنه من الممكن الآن للفر بالمر ، فالتاسعة بمرين من ذلك ، وإن ذلك لا يشكل جزءا من ألعاب الألفي بطرما من الجأ ، إنه توجد أماكن على الأرض لا تنشر دوما بالمر أبدا ، حتى ولو كنا غرود .

(١٣٦) J.M. Le Sidaner, op. cit. p. 53

(١٣٧) m. Butor, Degues Ed. Gallimard, Paris, 1960

Degues, p. 117

(١٣٨) كما صرح لنا في المقابلة المذكورة أعفا .

(١٣٩)

بعض دروس الجغرافيا تعرف « بمناطق العالم : الاستوائية والمدارية والمتندلة القطبية » أو « بكل المعادن للمخينة في جوف الأرض » ، بينما تدعو دروس اللغة الطلاب إلى اكتساب « معرفة تامة بالعالم الآخر الذي هو الإنسان والقيام برحلات قراءة في أعمال كتاب من بلاد ولغات مختلفة ؛ هوميروس ، رابليه ، مونتاني ، ماركو بولو ، شكسبير ، فولتير وكثيرين فيسرههم . هذه الدروس ترسوم دروسا لبعثات واستكشافات مستقبلية ، لرحلات جماعية إذن ، لأن قصة « درجات » تلعب دورا لانتقال من المفرد الى الجعم ، الأمر الذي يثبت الرحلات السابقة ضروريته وحتميته .

لقد اكتفى المسافر في البداية بـ « أنا » صريحة (استعمال الوقت) ، « وصف الفنان كقرود فتي » ، « عبقرية المكان » أو مضمرة كما في قصة « التبدل » حيث يتكلم بطل القصة عن نفسه مستعملا ضمير المخاطب « أنت » ، الذي يتحول في النهاية الى « أنتم » . (يظهر جمع المخاطب هذا مرة واحدة حين يقول ليون دلون : « وهكذا تنزع من ضمائركم إحدى أكبر موجات التاريخ ») . وفي الصفحات الأخيرة من « عبقرية المكان » ، حين يتذكر المسافر زيارة قام بها إلى الأقصر مع زملائه الفرنسيين في المنيا ، تظهر « نحن » للمرة الأولى شاملة هذه المرة فلاحا مصرية دعاهم لشرب الشاي في منزله بعد أن تعرف على ميشال بوتور الذي كان قد التقاه على الباخرة بين مرسيليا والإسكندرية .

« كنت أدرك جيدا بأن هذا التفاهم السليم والنقي بينما برغم بقائه أخرس ، ^(١٤٢) لكي يستطيع الارتقاء

من شخصيات ثلاثة يستعمل أولهم ضمير المتكلم « أنا » وثانيهم ضمير المخاطب المقرد وثالثهم ضمير الغائب « هو » .

يبدأ الرواية الأول ، وهو أستاذ في إحدى مدارس باريس الثانوية ، كتابة القصة بهدف « تبيان روابط القرى » داخل أحد الصفوف ، ولكنه لا يتأخر في اكتشاف أن هذه الروابط لكونها تتعلق بخارج المدرسة ، تسمح لنا بتجاوز حدود مدونة أو مدينة ويتوصل إلى « فهم تاريخ وواقع البشر لأن علاقات القرى ليست فقط وسيلة لتعريفنا بأشخاص منسيين ، بل هي تتيح لنا أيضا أن نعود للوراء فنبحث الجذود وتعيد تاليف التاريخ » . ^(١٤١)

أما لائحة الدروس التي تعطي في مختلف الصفوف الثانوية فتشمل تواريخ وعصورا وأحداثا ومناطق يركز عليها مناج المرحلة الدراسية وتشكل بالتالي حيزا مهما من تنكير الطلاب والأساتذة .

تبدأ اللائحة بكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، ثم تذكر « الاكتشافات الجغرافية العظيمة في عصر النهضة » من رحلة فاسكودي غاما إلى كوكرد ، إلى اكتشاف كريستوفر كولومبس لجزر الهند الغربية ودوران ماجلان مع طاقمه حول العالم ووصول ماركو بولو إلى الصين ^(١٤٣) بعد ذلك يعمدنا التاريخ إلى بلاد اليونان القديمة وأساطيرها ، وإلى مصر الفرعونية وسلالات ملوكها ، مروراً « بعصر بينزطة الذهبي » ، « بالفتح العربي » ، بالإمبراطوريتين الرومانية والإسبانية اللتين تصدعتا الواحدة تلو الأخرى وبالجلال الحبيب و« امبراطوريات آسيا القديمة » ، الخ . . .

Jean Roudaut, Michel Butor ou le Œuvre futur, p. 85

(١٤٠)

Degres, p. 26

(١٤١)

(١٤٢) بلل هذا الفلاح المصري جهدا كبيرا كي يقيم بوتور ابن حصيل الفلاحا الأول . واستطاع ان يتوصل لذلك من خلال اسم الفلاحه التي اطلقها الى مصر . انظره . ليون .

الأخرى عن « الأمريكيتين اللغيتين إلى ثلاث مناطق » (ص ٢١٦) وعن « حضارات ما قبل كريستوفر كولومبس وحالة أميركا عند اكتشافها » (ص ١٧٦) ، و « الخصائص المناطقيّة للولايات المتحدة » (ص ٣٦٧) ، و « الغرب الأوسط والغرب الأقصى الأمريكيتين » (ص ١٠٩) ، و « تجارة الرقيق من أفريقيا إلى أميركا » (ص ١١١) الخ . . بالإضافة إلى نصوص عديدة أشهرها كلمة مونتاني Montaigne الشهيرة في القرن السادس عشر : « لقد وجد علما أنا جديدا ، ومن يدرى إذا كان هذا آخر إخوته » (ص ٣١٩) ، كل ذلك لم ينبع في تشييد برج ترى منه أميركا بشكل جيد .

هل فشلت المحاولة إذن ؟

على العكس تماما ، فلقد حقق المسافر فتحا جديدا أو بالأحرى أوجد منعطفًا جديدا . ولقد رأينا بأن هروب بطل « استعمال الوقت » من انكسار كان بمثابة انتصار على المدينة ، كما أن تعديل مشروع ليون دليون كان نتيجة غوصه في أعماق أسطورة روما ، بينما كانت إقامة الشاب الفرنسي في اللاتيا خطوة على طريق مر في المجر وأوصله إلى مصر حيث علم بعض الفرنسية لعدد من التلاميذ ولكنه تعلم ما جعل منه إنسانا آخر يعود إلى وطنه بعقلية منفتحة أدركت أنه ما من حضارة يحق لها الادعاء بمركزيتها أو الاكتفاء بذاتها ، وأن الفهم الحقيقي والتطور الحقيقي هو نتاج تفاعل بين الحضارات والشعوب .

والفشل الظاهري في « درجات » ما هو إلا إعلان رفض من طرف الكاتب . للربط التقليدي بين كلمتي « اكتشاف » و « فتح » ، رفض بالتالي للوصول إلى

إلى مستوى الكلام ، لكي ينمو إلى حوار حقيقي ، فيجب أولا أن تنشأ هيكلية تستطيع العودة إليها والاعتماد عليها ، (١٤٣)

في نهاية كل قصة أو كتاب نجد إذن ضمير جمع يطفو ليكون لحظة إدراك ومعرفة توصل إليها الرحلة المزدوجة ، الجسدية والفكرية ، لنقى ، لمهاجر أو مستكشف .

أما في « درجات » ، فإن هذا الجمع يبدأ بالعمل . فالقصة تبدأ كما ذكرنا ، بـ « أنا » ، تتابع بـ « أنت » ثم تنتقل إلى « هو » لكي تنتهي بسؤال : « من يتكلم » هذا السؤال الذي ينطوي على أجوبة لا حصر لها يفترض إذن وجود حشد كبير من المشاركين في رحلة الكتابة . والرحلة الأخرى . ويعطي الكلمة لكل من يجد في نفسه الاستعداد للمشاركة .

توصلنا إذن قصة « درجات » إلى نوعية من الكلام الذي يشترك فيه أكثر من شخص ، وهذه النوعية الجديدة تجسد تركيزها الصارخ والمتنوع في المحطات التالية للرحلة وتبدأ بالظهور من خلال كتاب « المتحرك » (١٤٤) Mobile الذي يحاول إعطاء صورة شاملة عن الولايات المتحدة الأميركية . والرحلة إلى أميركا تظهر هنا منطقية جدا ، لأن الراوية الثالث في « درجات » يتمنى أن تكون هذه القصة « برجا نستطيع أن نظل منه على أميركا » ، بينما ترى أن الدرس الرئيسي الذي يركز عليه الرواة الثلاثة ، مع أنه خارج منهاج الصف الثانوي الأول ، هو « اكتشاف وغزو أميركا » . ولكن كل ما جاء في هذا الكتاب عن العالم الجديد ، من هذا الدرس ، الذي كان عليه أن يلعب دور نقطة الانطلاق والارتكاز (ص ١٧٥) إلى السردوس

« هذا المضارع الوسيط الذي يسمح ينتقل بين وجود ذلك الماضي الذي يعتبه وهذا الحاضر الذي نوجد فيه ، يتفحصه كل منا ويكتبه إذا كان كاتباً ، ويعيد تشكيله وهو يقرؤه إذا كان قارئاً »^(١٤٨) .

والقصة التي نتكلم عنها تلعب نفس دور المضارع المذكور : فهي « تسبح » بين بلدين : مصر التي تحدث عنها في صفحاتها الأولى ، وأميركا الغائبة الحاضرة ، في الأخيرة ، و « تنتقل » بين طريقتين في التعليم : واحدة « تصك المجموعات البشرية كقطع النقد »^(١٤٩) ، وأخرى « تنمي خصائص ومواهب كل فرد »^(١٥٠) تسبح بين « عِلدين » للرواة : المفسر والجمع ، بين نوعين لهديين : القصة والكتابة التصويرية ، بين عقليتين : عقلية اعتاد عليها الغرب ، متكبرة ومتسلطة ، وثانية ينادي بها الكاتب - الرحالة ، تتفاعل مع شعوب وحضارات أخرى ، تتصرف على نتائجهم وتعرف بأماكنهم الجغرافية والثقافية ، وهي تنتقل أخيراً بين أماكن متناثرة في شق بقاع الأرض وبين صنفين من البشر : راكد سجين ضمن حدود ضيقة ومرتحل باحث متطور متجدد .



رفاق ولدلاء : في كل مراحل هذه الرحلة يرافق المسافر شخصيات وهمية ، أدبية ، تاريخية أو أسطورية ، ويستعين بأعمال أدبية وفنية تشكل في مجملها شبكة واسعة ومتكاملة من المعالم التي تساهم في تسهيل وأغناء وتعميق الاستكشاف .

أميركا « كاستعمر يجهد للقضاء على معالم البلد الذي يغزوه »^(١٥١) ورفض لممارسات أسلافه الأوروبيين الذين هاجروا إلى أميركا حيث طردوا الهنود الحمر من أرضهم الأم واستبدلوا السود الذين كانوا يأتون بهم من أوروبا . أما الوجه الآخر للفشل الظاهري فهو الدلالة على رغبة بالوصول كمكتشف يريد أن يتعلم ويعلم ، كإنسان متخلص من كل الأفكار المسبقة ومن كل ثقل ورغب ذكريات « الفاعنين » الأوائل تجار الرقيق ومبيدي القسم الأكبر من السكان الأصليين لقارة أميركا . من هنا تركيزه على شخصي كرسوفر كولومبس وماركو بولو ، وذلك لكون الأول من فتح طريق الاكتشافات البعيدة والثاني أول أوروبي قدم في كتابه « وصف العالم » وثائق جغرافية وعرقية عن بلاد وشعوب الشرق الأقصى . ونستطيع القول بأن هذا الرحالة هدف من جهة إلى « ردم هذه الهوة الرهيبة بيننا وبين غرائزنا ، بيننا وبين باقي العالم »^(١٥٢) وإلى تخليصنا من مصير الغزاة الذين يقفون باب الخلاص أمامهم وأمام الآخرين ، ويعمل من جهة أخرى على « انبثاق نور جديد من ينابيع مازالت مجهولة ، ينابيع تعيد الشباب للحضارة الأوروبية المرمية وتتيح لنا إيجاد شباب ما لا نعرفه في حضارتنا الأهرما »^(١٥٣) . يفتش إذن عن طريق مختلف يوصله إلى العالم الجديد .

باعتبارنا من نهاية هذه المرحلة من رحلة بوتور الطويلة والمستمرة ، نورد ما ذكره أحد الرواة الثلاثة لقصة « درجات » عن المضارع الذي يستعمله لسرد الأحداث :

J.M. Le Sidaner, op. cit. 57
Repertoire II, p. 181

Degres, p. 253
Resistances, p. 28

(١٤٥)
(١٤٦)
(١٤٧) نفس المصدر ، ص ١٨٠
(١٤٨)
(١٤٩)
(١٥٠) نفس المصدر والصفحة

مجاورونهم أو يرافقونهم . كل ذلك يبين التأثير الكبير الذي مارسه اليهودية وما تزال على التفكير الأوروبي .

هذا التيار المزدوج ، اليهودي المسيحي ، يظهر من خلال كتب بتوتور على علاقة وثيقة بتيار آخر أقدم منه ، نعتي به الأساطير اليونانية الرومانية القديمة المرتبطة بدورها بأساطير مصر القديمة . ولقد رأينا كيف أن مدينة روما تجسد التقاء كل هذه التيارات . أما بالنسبة لرفاق الرحلة ، فمن المهم أن نلاحظ أن ظهور زكريا مصحوبا بعرافة وثنية في حلم ليون دلون يفتح الطريق أمام مركب طويل من الباباوات والأباطرة وآلهة الأساطير الذين يلعب ظهورهم دورا أساسيا في تعديل خطة ليون دلون ويجعله يتوقف عن رؤية عشيقةه ويقرر العودة إلى زوجته وأولاده . أما جاك ريفل بطل « استعمال الوقت » ، فإنه يتأمل طويلا زجاجيات الكاتدرائية القديسة التي تمثل قبايل وبابل وسدوم وعمورة ودروما الأباطرة المسيحيين ، ثم يقول : « كان الراسمين القدماء ارادوا ان يبينوا ، من خلال تصويرهم للقراءة الرسمية للتوراة ، بأنهم يكتشفون فيها شيئا آخر »^(١٥٢) . هذا « الشيء الآخر » ليس سوى الانمساكات الأسطورية والثقافية لحضارات أخرى متفاوتة البعد جغرافيا وتاريخيا والتي تساهم بوسائل مختلفة في تشكيل العقلية الأوروبية .

« إن المقارنة مع أساطير الآخرين (هؤلاء الآخرون قد لا يكونون سوى أجداد أو إخوة) هي وحدها التي تتيح لنا فهم أساطيرنا والتعالميش معها . ذلك ما يجعل جغرافيتنا ترتسم أمامنا بديناميا ومتحولاتا وسدودها . وكلما تعمقنا في معرفتها كلما استطعنا تحسينها »^(١٥٣)

وتظهر في القصة الأولى لائحة للمرافقين الرئيسيين الذين يحددون اتجاهات المراحل التالية : تضم اللائحة واهبين شقيقتين ويهوديا وشابا مصريا وكتابا ورساما .

الراهبان اولاهما حسب القصة ابنا اوغسطس - وهو اسم ذو دلالة مزدوجة ، اذ انه يذكر أولا بالامبراطور الروماني الشهير اوكتافيوس اغسطس ويذكر ثانيا بالقدس اوريليوس اوغسطسوس احد اشهر دعاة المسيحية في الغرب - وهما نموذج لرجل الدين للوجود ايضا في القصتين التاليتين . ففي « استعمال الوقت » يعطي أحد الرهبان معلومات مهمة عن بلستون وكنائسها بلجك ريفل الذي يصرح بدوره : « لقد نشأت على تربية كاثوليكية رومانية ولكنني عومت من نفسي منذ مدة طويلة اغلب مبادئ « التاريخ المقدس » التي غرست في ذهني »^(١٥٤) أما في « التمديل » ، فهناك أيضا راهب بين ركاب الدرجة الثالثة التي يسافر فيها ليون دلون ، ويلاحظ هذا الأخير ارتبائه وعصبية فيقول : « من المحتمل أن قرارا ما ينتظره هو الآخر . . . ولربما قرر التخلي عن طوقوسه وعن ثوبه الكهنوتي »^(١٥٥) وفي « عقبة المكان » نرى مظاهر مختلفة للمسيحية في كل المدن التي يزورها المسافر .

والشخصية الرمزية الثانية التي تمثل اليهودية ، اي العهد القديم ، نجدها ايضا في الكتب الثلاثة المذكورة حيث تظهر باستمرار بعض الأساء التوراتية مثل قابيل وزكريا ويوسف وموسى (عليهم السلام) . وهذه الأساء وغيرها تلازم تفكير المسافرين لدرجة أن بعض هؤلاء يتخيلون وجودهم أو يرون في أحلامهم أنهم

L'Emploi du temps, p. 74

(١٥١)

La Modification, p. 90

(١٥٢)

L'Emploi du temps, p. 79

(١٥٣)

J. M. Le Sidaner, op. cit. p. 34

(١٥٤)

قصة بوليسية تروي ضمن القصة الرئيسية ويؤلفها كاتب وهمي يقول عنه جاك ويفل : « لقد كان نصيرا لي ضد المدينة ، كان ساحرا معتادا على المخاطر استطاع أن يزودني بسحر قوي لكي اخرج منتصرا من تلك السنة ، من تلك الإقامة التي لم أكن أدرك قوة سموها ومكانتها ولم أكن أدرك صعوبة دحرها » (١٥٦) .

أما الانتصار على المدينة ، بمعنى خروج المسافر منها عتقها بقدرته على التفكير والتحليل ومعددا اتجاهه التالي ، فلم يتحقق إلا بعد دراسة مستفيضة للأعمال الفنية المميزة فيها ، من رسم ونقش وزخرفة وموسيقى ومسرح وحتى بعض الأفلام السينمائية الوثائقية .

واختيار العمل الفني يتم دائما على أساس أن يكون « متعدد التفسيرات » متحركا ومتموجا ، (١٥٧) وأن يشكل « نقطة تلاقى » و « مركز توليد لا يكف عن الإشعاع » (١٥٨) في اتجاهات وإبعاد متفاوتة يتوجه نحوها المستكشف في المراحل التالية .

في المراحل التالية من الرحلة يبدو المسافرون وكأنهم ينتقلون داخل مكتبة غنية ومتحف سامع . ففي « التعديل » تشكل « أبنية » فرجيل و « رسائل الامبراطور بوليانيوس المرند » و « الدليل الأزرق » لمدينة روما وكتاب « تعليم اللغة الإيطالية » و « دليل السكك الحديدية » بين فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى قصة تشري من مجلة الفطار في باريس ، يشكل كل ذلك العدة اللازمة للليون دلون في محاولته للتعرف على « أساس وحجم أسطورة روما » ، بينما يراه يستنتج من جهة أخرى بأن كثيرا منا يستطيعون بوساطة كتاب « النوصل

الرفيق الثالث للمسافر يتمحور حول شخصية الشاب المصري أحمد ، هذا الشاب الأسمر الذي يظهر في « استعمال الوقت » ، دأكا أكثر ، من خلال ملامح شاب إفريقي يطلع بطل القصة على كثير من أسرار المدينة البريطانية ، ثم يعود للظهور في « وصف الفنان كقرء فني » من خلال الشاب الفرنسي ذاته هذه المرة ولكن كبطل من أبطال « ألف ليلة وليلة » ، هو صورة للغريب ، للمختلف عن الآخرين ، ولكن هذه الشخصية هي الوحيدة التي تتغير كليا وتتطور النظرة إليها تطورا إيجابيا ، فيبدا يبدو في القصة الأولى غريب الأطوار وشبه معزول عن الآخرين ، يصعب شيئا فشيئا المعلم والدليل ، فهو في ألمانيا يطلق كلمة السر التي تفتح طريق الشرق ودرويا أخرى ، وهو في مصر يذكر الفرنسي بمسقط رأسه باريس ، « بالشانزليزيه وخاصة ساحة الكونكورد التي تنوسطها مسلة مصرية » (١٥٩) وهو في باريس من جديد ، يلتفت نظر المسافر إلى أن عليه زيارة أماكن أخرى والتعلم من شعوب كثيرة مازال يجملها .

أما الشخصيتان الأخيرتان في لائحة القصة الأولى فهما الكاتب والرسام ، وهما موجودتان بضرورة في جميع كتب بوتور . فالفلسف يستعين بهما دائما في تحضير وده الرحلة ، ويصطحبها خلاها ثم يعود لمناقشتها معها .

يقوم بوتور ، كما ذكرنا ، برحلات لا حصر لها في أعمال الأدباء والرسامين والنحاتين والموسيقين ، ولكن هذه الأعمال تلعب من جهة أخرى دورا مزدوجا كادلاء و أدوات تفكير « ففي « استعمال الوقت » مثلا نجد

(١٥٥)

Le Genie du lieu, p. 108

(١٥٦)

L'Emploi du temps, p. 57

(١٥٧)

Lucien Dallenbach, Le Livre et ses miroirs chez Bata, p. 13

(١٥٨) نفس المصدر ، ص ١٦

هي منه ، حتى تفقد جاذبيتها ويخفت بريقها ويموت الحب .

أما العلاقة بين المسافر ورفاق دربه فهي متبادلة في كل القصص باستثناء « التعديل » حيث « يجد نفسه أمام نماذج بشرية متنوعة يعطي لكل منها وهو يفكر أو يعلم أسما وسيرة ، مما يشكل رابطا بينه وبينهم ولكن دون مبادلة »^(١٦٢) إنما ذلك لا يمنع من مساهمة هؤلاء الأشخاص في تعديل مشروع المسافر وانعطاف الطريق التي يسلكها .

« تقول لنفسك : « لو لم يكن هنا كل هؤلاء الناس ، لو لم تكن موجودة هذه الأشياء وهذه الصورة التي تعلقت بها أفكارني عما سبب تكوين نوع من الآلة الفكرية يجعل مراحل وجودي تساب الواحدة فوق الأخرى خلال هذه الرحلة للمختلفة عن الأخريات .

« لو لم توجد هذه المجموعة من الظروف ومن توزيع اللعب ، فمن الممكن أن هذا الشرح الواسع في شخصيتي لم يكن ليحدث هذه الليلة وإن أوهامي كانت تستمر لبعض الوقت »^(١٦٣) .

كما أن كل مكان يملك القدرة على أن يكون ملتحق طرق ، فإن كل شخص يشكل « رابطا » بين عدة مجموعات بشرية وعدة تيارات ثقافية تساهم بتكوين عقلية هذه المجموعات .

وإذا كان سكان المبنى الباريسي قد فقدوا الاتصال فيما بينهم وغرق كل منهم في عزلة شبه تامة ، فذلك لم يمنع بعضهم على الأقل أن يتوصلوا في نهاية القصة لتطوير طريقة تفكيرهم وفتح أبواب بانهم ، في محاولة لجعله متينا ، على الخارج الذي زوده فيها بعد بأساسات

الى « السماح لهذه الحرية البعيدة عن متناولنا ، السماح لها ، ولو بمقياس صغير جدا ، أن تتكون وأن تتربص »^(١٦٤) .

ولكن معالم الطريق من الكتاب الدليل الى الكتب المحرور كانت ، بين عوامل أخرى ، مجموعة أعمال فنية منها ماهو معلق على جذران مقصورة القطار أو في منزل ليون ومنها روائع متحف اللوفر وقوسا النصر في باريس أو آثار روما أو بعض مقطوعات مونتيفري للموسيقى . كل ذلك ، بالإضافة الى مكتبة قصر البارون و« المتحف الألماني » وكتب وآثار « عبقريه للكان » ، يشكل شبكة متكاملة هدفها التوضيح والتعريف والتوجيه .

إلى جانب الشخصيات الرمزية التي ذكرناها هناك مجموعة كبيرة من رفاق الدرب تساعد بتوجيه وتعميق الاستكشاف . فافريقي « استعمال الوقت » يلعب - عدا عما ذكرناه سابقا - دور « المرشد الى حقيقة ممنوعة عن المسافرين . وسليته تصبح مثلا ، فهو لا يعلمنا الحرية فقط ، بل يغيرنا أيضا من كل أشكال العبودية التي قد نمارسها »^(١٦٥) . ولكونه يشترك مع الفرنسي في « حقدته الأسود » على مدينة بلستون ، يصبح الاثنان معا « منفيين فقدا الا من الجسلي والروحي الذي يؤمنه الاستقرار في الوطن الأم »^(١٦٦) .

والجبية أيضا تلعب دور الدليل ، ليس ذلك فقط ، بل إن الحب مرتبط في قصص بوتور بهذا الدور ، فإنا نتوقف عن تزويد المسافر بمعلومات من المكان الذي يقصده ، وما إن يفك ارتباطها الترنيني بالمكان الذي

La Modification, p. 274

Georges Rallard, L'emploi du temps, p. 493

(١٥٤)

(١٦١)

(١٦١) ناس للصدر ، ص ٤٨٨

Michel Leiris, Le Realisme mythologique de Michel Butor, postface de La Modification, p. 298

(١٦٢)

La Modification, p. 274

(١٦٣)

كذلك ، فكل من يلتقي المسافر يقدم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ايضاحات عن نفسه وعن المسافرين والمكان ، وكل رفيق يظهر كموجه أو دليل أو شبيه ، مما يجعل مجتمعا مصغرا يتشكل في الطريق ويتحرك مزودا بكتابة ويمتص نحو شعوب أخرى وأماكن أخرى وأزمنة أخرى تحاول رحلات ميشال بوتور أن تجمعها في كتب يكون كل منها مصغرا عن تلاتي الحضارات على طريق مستقبل أفضل .

أصلب بكثير ، ولم يمنع أيضا ركاب قطار باريس - روما ، بالرغم من صمتهم المطبق أغلب الوقت ، أن يكشفوا للمسافر الرئيسي الزوايا المظلمة في شخصيته وذلك بظهورهم الواحد تلو الآخر كأنهم كاسات أو كاجزاء من هذه الشخصية المتصدعة التي ترى أحلامها ورغباتها وقلقها وهمومها ومشاغفها ومختلف نماذج ثقافتها وعواطفها تتوالى أمامها .

ما من أحد يسافر وحيدا عند بوتور ، حتى ولو بدا



المصادر والمراجع :١ - كتب :

• Butor, Michel:

- Passage de Milan, Editions de Minuit, Paris, 1954.
- L'Emploi du temps, Minuit, Paris, 1956.
- La Modification, Minuit, Paris, 1957.
- Le Genie du lieu. Editions Bernard Crasset, Paris, 1958.
- Degres. Editions Callimard, Paris, 1960.
- Repertoire II, Minuit, Paris, 1964.
- Porträt de l'artiste en jeune singe, Callimard, 1967.
- Repertoire III, Minuit, Paris, 1968.
- Ou (Le Genie du lieu 2), Callimard, Paris, 1971.
- Repertoire IV, Minut, Paris, 1974.
- Matière de rêves, Callimard, Paris, 1975.
- Second sous — sol, Callimard, Paris, 1976.
- Troisième dessous, Callimard, Paris, 1977.
- Boomerang (Le Genie du lieu 3), Callimard, 1978.
- Quadruple fond. Gallimard, 1981.
- Butor, Michel et Launay, Michel: Resistances. Presses universitaires de France, Paris, 1983.
- Charbonnier, Georges. Entretiens avec Michel Butor. Gallimard 1967.
- Colloque de Cerisy — in — Salle tenu en été 1973 sous la direction de George Raillard: "Michel Butor". Union generale d'editeurs. Paris. 1974.
- Dilleubach, Lucien. Le livre et ses miroirs dans l'oeuvre de Michel Butor. Archives des lettres modernes, Paris, 1972.
- Rossum — Guyon, Françoise van. Critique du roman. Gallimard, 1970.
- Rudaux, Jean, Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, 1964.
- Sidaner, Jean — Marie le, Michel Butor, voyageur a la rose, Editions Breches, Paris 1979.

٢ - مقالات ، دوريات ، مقابلات :

- L'Arc, No. 39. Numero special consacré a Butor. 1969.
- Butor, Michel, "Palermé". L'Arc No. 6. printemps 1959 theme du voyage. 23 a out 1983.
- Magazine littéraire, no. 118, mars 1976, consacré a Butor.
- Obliques, no. 4-5 1976, numéro special: Michel Butor.
- Romantisme, no. 4, 1972, consacré a Butor.

٣ - معالجيم :

- La Grande Encyclopedie Larousse. 10 volumes, Paris, 1972.
- Larousse du XX^e siecle, 6 volumes, Paris, 1964.
- Le Grand Larousse de la langue française, 7 volumes, Paris, 1978.
- Le Robert, dictionnaire analogique et alphabetique de la langue française. 6 volumes. Paris, 1970.

كتاب (تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم)
 مؤلفه الأستاذ عبد المنعم السيد عشري ، ظهرت طبعته
 الأولى في مصر ، وفاتت بنشره الهيئة المصرية العامة
 للكتاب خلال ١٤١٥هـ (١٩٨٥م) ، وهو يقع في
 (٣٢١) صفحة من القطع الكبير ، ويضم مقدمة
 قصيرة وسبعة فصول (أو مقالات على حد تعبير
 صاحبها) . ثم صفحة واحدة ذكر فيها سبعة مراجع
 فقط ، وانتهى الكتاب بفهرست للموضوعات . كذلك
 فقد احتوى الكتاب على ٣٥ صورة فوتوغرافية وأيضاً
 ١٢ شكلاً توضيحياً . كان أقصر فصل في الكتاب هو
 الأول (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) ، بينما
 نجد أن الفصل السادس (الإنسان) هو أطول الفصول
 وأضخمها . فقد شغل أكثر من ثلث الكتاب كله . أما
 بقية الفصول فمقتضيات الأحكام . كانت الفصول على
 التوالي : عن الآيات الكونية في القرآن الكريم ،
 الأرض ، السحاب والمطر ، النباتات ، الحيوان ،
 الإنسان ، ثم السماء . والمؤلف من الذين مارسوا
 تدريس علم الفيزياء في الكليات والمعاهد العلمية قرابة
 أربعين عاماً ، وله كتاب صدر قبل الذي نحن بصدده
 الآن ، هو (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت
 بنشره نفس الدار . ثم هو قد تفرغ بعد إحالته على
 التقاعد لاختراع الكتاب الحالي ، والذي جاء ثمره
 لتخصسه العلمي ، وحميته الإسلامية ، فذلك واضح
 من مقدمة الكتاب .

مقدمة الكتاب لا تتعدى الصفحتين ، بين فيها
 المؤلف الدوافع التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب
 والمهدف الذي ينشده من وراءه . أما الدوافع فإيمانته تمت
 يوماً بعد يوم خلال عمله التخصصي ، وأما هدفه فهو
 السعي إلى (إظهار أن كل ما في الوجود من أصغره إلى
 أكبره .. من الإلكترون إلى المجرة .. من الفيروس إلى
 الإنسان .. كل هذه المخلوقات من أدقها إلى أعظمها

تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم

تأليف: عبد المنعم السيد عشري
 عرض وتحليل: كرم السيد غنيم

ليست بكثرة عناوين ، بل بوضوح المحتوى وعدم غموض أسلوبه في الوقت الذي يجب ألا يفقد الكلام فيه العمق مع الإيجاز غير المخل .

في قول الله تعالى « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » (البقرة / ٣٠ ، ٣١) . تكلم المؤلف في شرح هاتين الآيتين مستمداً ذلك من تفاسير مشهورة ، ثم استخلص أن الله تعالى علم آدم الأجناس التي خلقها ، وألمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، ثم عرض مجموعة تلك الأشياء على الملائكة ، فلما عجزوا عن أن ينبئوا بأسمائها أصبحوا في موقف التسليم بأن آدم عليه السلام إنما خلق ليخلف الله في الأرض ، ويكون سبباً في عمارتها . وتدل الآيتان أيضاً على فضل العلم ، إذ لو هناك أفضل منه لأظهر الله فضل آدم به لا بالعلم ، فالعلم هو القوة التي تحقق للإنسان الغرض من استخلاف الله له على الأرض ، ولا ينفى على أحد ضرورته في كل مناحي الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وارتقاء وحضارة وغيرها .

وإذا كان الغرض من خلق آدم هو الاستخلاف على الأرض ، فإن الابتلاء هو خير وسيلة لأشرف غاية ، فإن الإنسان لا تكتمل لشخصيته الإنسانية ذاتيتها المستقلة إلا بقدر ما يتصارع في نفسه من نوازع الخير والشر ، ويقدر ما يعانيه من التجارب والمقاساة ، وما يغالبه من مشاق ومتطلبات الحياة . وجاء ناموس الآدمي ، وهو استخلاف الإنسان في الدنيا ، ومعه ناموس إعطاء الجزاء على قدر العمل ، وهو أساساً في الآخرة ، إلا أن الله يظهر أجزائه منه في الدنيا .

أما كون الدين الاسلامي دين الفطرة ، فالفطرة أولاً

دليل على أن خالقها أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ، ومعارف العارفين . بهذا يلتقي العلم والقرآن . . .) . ثم أوضح المؤلف خطته المتبعة في تناول مسائل الكتاب ، حيث تمهد بتبسيط المعلومات والمعارف الكونية ، كي يستطيع القاريء استيعابها ، ثم يتبع ذلك بذكر بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى تلك المسائل ، ويسوق شروح المفسرين لها . الأساس الثالث في هذه الحلقة المتبعة هو الالتزام في التفسير العلمي بمنطق الآيات القرآنية ومعانيها والسياق الذي وردت فيه ، وهذا دفعه إلى ربط الآيات على الدراسة بالآيات التي قبلها مباشرة .

كانت المقالة الأولى (أو الفصل الأول) في هذا الكتاب أقل المقالات حجياً - كما أشرنا آنفاً - فهي لم تعد عشر ورقات ، وتعد مدخلاً لموضوع الكتاب ، فهي (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) . تضمن العرض عناوين جانبية هي : استخلاف الله الإنسان على الأرض - الجزاء على قدر العمل - دين الفطرة - الحقائق الكونية والعلمية في القرآن - القرآن - منزلة العلم في القرآن الكريم - العلم ووسائل تحصيله - الإنسان مستصالح للدارين . قبل أن أبين عن مضمون هذا الفصل ، أود الإشارة إلى أمر أراه من الأهمية بمكان كبير ، ذلك هو اضطراب الفقرات وعدم تسلسلها على النحط المنطقي ، وعليه فأنني أرى أنه كان من اللائق إيراد الفقرات في تسلسل هو : القرآن - منزلة العلم في القرآن - وسائل تحصيله - استخلاف الله الإنسان على الأرض - دين الفطرة - الحقائق الكونية والعلمية في القرآن . وكل من « الجزاء على قدر العمل » ، « الإنسان مستصالح للدارين » ، لا داعي لوجودهما ، فسياق الكلام في الفقرات المختلفة يدل عليها . ثم إن كثرة العناوين الجانبية تفتت الكلام وتضيع رونقه ، وتضعف من الترابط الفكري للموضوع ، فالعبرة

المذكورة في الآية القرآنية « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون » (النحل / ٧٨) . إذا فالسمع والبصر والعقل هي أجهزة العلم والتعلم وتبهر أمور الدنيا وتكشف خباياها . وهذا المنهج القائم على منطق النظر والاستقراء هو المنهج الصحيح في لغة العلم الحديث . ثم أشار المؤلف إلى أدوات المشاهدة الحسية وما استماتت به من أجهزة علمية حديثة .

الفصل الثاني (أو المقالة الثانية) كان عن الأرض ، واستغرق التثنية وثلاثين صفحة ، بدأه المؤلف بإعطاء نبذة عن الأرض ، فلما انتهى منها اتجه إلى إيراد بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع ، وساق شيئاً من تفسيرها مقتبساً إليه من بعض كتب التفسير التي ذكرها في نهاية الكتاب . ما أهمية الأرض بالنسبة للإنسان ؟ أو بمعنى آخر : ما هي أوجه انتفاع الإنسان بالأرض ومكوناتها في حياته الدنيا ؟ كانت الأجوبة عن هذا السؤال هي صدر الفصل ، حيث أكد المؤلف ما هو معلوم بالبدئية في أن الأرض مقرنا الذي نعيش فيه ، والذي ارتبطت به حياتنا . كيف ذلك ؟ لأن من هوانها نتنفس نحن ومائر الأحياء ، ومن مائها الذي يجري في أنهارها وبحيراتها ونابيعها نشرب ونسقي الحيوان والنبات ، ومن زرعها . . . ومن بحارها . . . ومن باطنها . . . وفي دروبها . . . يتجه المؤلف بعد هذه النبذة إلى تفصيل عدد من الأمور هي : شرح ضرورة هواء جو الأرض وبعض العمليات المختلفة التي عمادها غاز الأكسجين . أول هذه العمليات الحيوية التنفس ، ما هو المقصود بالتنفس وما أهميته بالنسبة لأي كائن حي ؟ وكيف يتنفس الحيوان وكيف يتنفس النبات ؟ ؟ ؟ بعد هذه الأجابات انتقل إلى عملية الاحتراق : ما هو المقصود بالاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاشتعال على الأرض ؟ ما هي الأركان الثلاثة

ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضاً ، بل هي مزيج منها ، فلا غلبة لأحد الجانبين على الآخر ، وهنا تكون الفطرة سليمة ، تشدد الله وتعرف سبيلها إليه « فأقم وجهك للدين حنيفاً » فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم / ٣٠) .

عن الحقائق الكونية والعلمية في القرآن ، يوضح المؤلف أن القرآن يحفل بالآيات التي تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون تدليلاً على بواره ومصوره ، وإظهاراً لعظمته وقدرته ، وتبياناً لرحمته بخلائقه . . . وحثاً على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها واستغلال كنوز الكون وثرواته فيما يعود على الإنسان بالخير . ومن الآيات القرآنية الزاخرة بهذه المقاهيم أورد المؤلف الآيات : الأنبياء / ٣٠ - ٣٣ ، السجدة / ٤ - ٩ ، القمر / ٤٩ ، الحجر / ١٩ - ٢٢ ، قصص / ٩ - ١٢ ، البقرة / ١٦٤ ، الزمر / ٢ - ٤ ، فاطر / ٢٧ - ٢٨ ، يس / ٣٧ - ٤٠ ، القصص / ٧٢ ، ٧٣ ، الروم / ١٧ - ٢٧ ، الفرقان / ٥٣ ، ٥٤ ، الأنعام / ٩٩ ، يس / ٧٨ - ٨٠ ، الواقعة / ٥٨ - ٦٠ ، الواقعة / ٦٨ - ٧٠ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، الطارق / ٨ - ٥ .

بعد ذلك يعود المؤلف ليتكلم عن القرآن ، تعريفه وحموه وعظمته ، وهو الأمر الذي كان يجب عليه إيراده قبل تعرضه للكلام عن الآيات الكونية والعلمية في القرآن . وفي معرض حديثه عن أن القرآن لم يفرط في أمر من الأمور كبيرها وصغيرها إلا أحصاها ، ودلل عليها ونبه الأذهان إليها ، واستدل على ذلك بالآيات : النحل / ٨٩ ، الأنعام / ٣٨ ، الروم / ٥٨ ، ٥٩ ، الأعراف / ٥٢ ، العنكبوت / ٤٩ . بعد ذلك عرج صاحب الكتاب على بيان منزلة العلم في القرآن الكريم ، ثم تعرض لبيان وسائل تحصيله ، وهي

من الكلام للتعريف بالموضوع ، لا نجد بدأ من الإشارة إلى أمرين للتعريف فات المؤلف الانتباه إليهما ، والعناية بهما .

الأمر الأول : أنه لم يتناول عرض النصوص القرآنية في هذا الفصل - وكذلك الفصل السابق وبقية الفصول اللاحقة - مرتبة حسب ورودها في المصحف ، فلا السور متوالية ، ولا الآيات المذكورة من سورة واحدة متتالية ، بل نرى نصاً من سورة تقع بعدها في ترتيب المصحف الشريف ، ونرى أيضاً آية تكلم عنها المؤلف ذات رقم معين ، وانتقل إلى الكلام في نفس الفصل عن آية أسبق منها في الموقع داخل السورة ذاتها ، أي لم تأت الآيات مرتبة حسبها توجد في السورة . وقد يلجأ الكاتب أحياناً إلى شيء من هذا الذي أخلته على المؤلف ، ولكن عند الضرورة التي يستدعيها تناول موضوع ما ، وهو ما لا نراه ملحاً في هذا الكتاب الذي نعرض له . وليبان ذلك تشير إلى النصوص القرآنية التي عرضت في هذا الفصل ليتضح ما رأيناه ، وهي : الأعراف / ٥٤ ، فصلت / ٩ ، الحديد / ٤ ، ٥ ، ٦ ، السجدة / ٤ ، ٥ ، النمل / ٦١ ، الرعد / ٣ ، الحجر / ١٩ ، الزمر / ٥ ، الإسراء / ١٢ ، فاطر / ٤١ ، النحل / ١٥ ، النازعات / ٣٠ - ٣٣ .

الأمر الثاني : شيوخ نقل النصوص التفسيرية من هنا وهناك ، وعرضها دون الإشارة إلى مصادرها ، كل في حينه وأيضاً عدم الرجوع إلى مصادر تفسيرية معتمدة ومشهورة خلاف التي ذكرها في نهاية الكتاب ، وهذا أمر خطير إبان المؤلف في مقدمة الكتاب عن عزمه في تفانيه ، ولكنه وقع فيه على امتداد الفصول السبعة التي احتواها الكتاب .

كما هو واضح من إشارتي السابقة إلى النصوص القرآنية التي وِدعت في الفصل الحالي ، فهي اثنا عشر نصاً ، بداه صاحب الكتاب بقول الله عز وجل : إن

التي يجب أن تتوفر لتتم عملية الاحراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاحتراق وكيف نستخرجها من بساتن الأرض ؟ . ثاني الأمور الضرورية على سطح الأرض هو الماء : ما أوجبه ضرورة للماء ؟ ليس فقط الكائنات الحية بل كذلك للعمليات غير الحية المتعددة والتي تتم في كوكبنا الأرضي ؟ . ثالث هذه الأمور هو التربة : ما هو وجه الضرورة في وجود تربة تغطي سطح الأرض ؟ وما أهم مكوناتها ؟ وما دخل ذلك في غو النباتات ؟ ثم توسع قليلاً في مسألة النبات فشرح أهمية الماء والأملاح والطاقة الشمسية في عملية نمو النباتات ، ثم اتجه الإنسان إلى التفكير في استخدام أسمدة مختلفة الأنواع لتحسين خواص التربة لتنتج له إنتاجاً زراعياً أكثر وفرة . الأمر أو المسألة الرابعة التي حاول المؤلف عرضها مؤثراً تبسيط الكلام فيها هي : اتخاذ الأرض مصدراً لبناء دور السكنى ، وفي معرض حديثه تناول الإشارة إلى الطريقة الجيولوجية لتكوين الأحجار الجيرية المستخدمة في بناء الدور . ثم بين أهمية ملح الطعام للإنسان وفي عدد من الصناعات . ويعد قفز إلى حديثه عن بعض الفلزات التي يستخرجها الإنسان من الأرض ، وهي هامة وضرورية في حياته المعيشية والحضارية أيضاً ، ومنها الحديد والنحاس والألومنيوم والذهب والفضة . وفاته أن يتكلم عن أهمية جوف الأرض في نقل الإنسان وخلاله من الكائنات الحية بين الأماكن وبعضها ، (بواسطة الطيران أو ركوب الهواء) ، وكذلك انتقال الموجات الصوتية عبر هذا الوسط ، فتدرك الأمر وأعطي فكرة عنه في نهاية الجزء العملي من هذا الفصل .

نأتي إلى الآيات القرآنية التي أوردها المؤلف ، وهي التي بين فيها المولى عز وجل الحكمة من خلق الأرض ، وما أراده بخلقها على الصورة التي عليها من نعم للعباد ، وإظهار قدرته في هذا الخلق . وقبل التقاط نف

العجيب والفعل البديع بعد ذلك فقال : «^(١) وجعل فيها رواسي من فوقها ،^(٢) وبارك فيها ،^(٣) وقدر فيها أوقاتها » وحاول المؤلف أن يشرح شيئاً عن كل منها . أما النص الثالث ، فيوضح أن المقصود بقول الله فيه « يعلم ما يليج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » هو « ما يليج في الأرض » من معادن وعناصر وعلمت وخلاله وكذلك البذر ، وما يخرج منها كالزروع والكمعادن المختلفة ومختلف المواد الجامعة والسائلة التي يستخرجها الإنسان من باطن الأرض يتنفع بها . « وما ينزل من السماء » من مطر ، « وما يعرج فيها » من أبخرة . أما المعية في قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » فالمقصود بها معية القدرة والايحاء والتكوين والتصرف والتدبير . وفي معالجته للجزء من النص الكريم وهو قوله تعالى « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور » يوضح أن المقصود بالأيلاج هنا هو جعل قصر الليل في طول النهار وطول الليل في قصر النهار ، وهذا حادث في الفصول المختلفة من الشتاء والصيف ، ويختلف حسب خطوط العرض في الفصل الواحد .

في غضون شرح النص الرابع وهو الآيات الكريمة ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة السجدة ، وقع اضطراب في الكلام فورد الجزء « لم يقولوا اقتراب بل هو الحق من ربك لتتلو قوماً ما أتاكم من نذير من قبلك لعلهم يفتنون » ، قبل ورود الآيات الثلاث الأولى من سورة السجدة ، وليس له مكان في سياق الكلام ، وفي السطور السابقة لوقوع هذا الاضطراب مباشرة يقول (...) إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك أنه من عند الله ، فها هو يشعر شاعر ولا صريح كاهن ولا هو بما اختلقه محمد ﷺ (...) ، وكلمة (عما اختلقه محمد) هذه توهم بأن محمداً قد اختلق أشياء أخرى ، إلا أن القرآن ليس من بينها ، فكان الاحوط أن يكون

ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يقضى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف / ٥٤) . أوضح المؤلف - نقلاً عن بعض المفسرين - الحكمة في ذكر « ربكم » في صدر الآية ، ثم قال في معنى خلق السموات والأرض في ستة أيام : أي في ستة أطوار مرت على الخليفة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف - أي نمسك - عن تحديدها ، فلها لم تحدد بأختيار صحيحة ، ولا يعقل أن تكون الأيام الستة في هذه الآية من جنس أيامنا ، فإن هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو . فقد أبان الله عن يوم القيامة في الآية (٤) من سورة المارج بخمسين ألف سنة ، وأبان عنه في الآية (٤٧) من سورة الحج بألف سنة من أيامنا نحن . ثم أبان المؤلف عن الحكمة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وهو القادر على خلقها في لحظة واحدة بالأمر « كُنْ » . بعده فصل معنى الاستواء في قول الله تعالى « ثم استوى على العرش » وإنه عموماً يقصد به استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والتصرف في شئونهما . ثم تكلم في تعاقب الليل والنهار من منطلق القول الإلهي : « يقضى الليل النهار يطلبه حثيثاً » ، وعالج الأمر من الناحية الفلكية . ورجع ليكرر ما ذهب إليه المفسرون الذين نقل عنهم مقصود الاستواء على العرش ، وذلك في ص ٢٩ . النص الثاني . يقول الله فيه : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنبأاً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، وخلال استرساله في شرح هاتين الآيتين يقول : ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر أنه أن ثلاثاً أنواع من المصنع

عند تناوله للجزء من الآية « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ، ولكنه لم يف بالموضوع . في صدر كلامه عن النص السابع (الحجر / ١٩ ، ٢٠) يقول : سبقت هاتين الآيتين آيتان شرح فيها المولى عز وجل دلالات سماوية في تقرير التوحيد ، حيث قال : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للنظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » (الحجر / ١٦ ، ١٧) ثم اتبع الدلائل السماوية بدلائل أرضية فقال « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » (الحجر / ١٩ ، ٢٠) . وفي النص العاشر (قاطر / ٤١) يتكلم عن إمساك السموات والأرض في قول الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ويشرح ناموس الجاذبية ويؤكد معناها وبعضاً من أطراف المسألة . في النص قبل الأخير (النحل / ١٥) بين أن النعم المذكورة هنا ، والتي يمن الله بها على خلقه هي : « وألقى في الأرض رواسي أن تُمسك بهم » ، « وأنهاراً » ، « وسبلاً » . أما في النص الأخير (النزاعات / ٣٠-٣٣) فيكرما سبق أن أشار إليه في عرض النصوص السابقة .

في نهاية هذا الفصل يجب أن نشير إلى أمور هي : تعدد مواقع التكرار والاعادة في جنبات الفصل ، وكذلك وقوع عدد من الأغلاط المطبعية والأخطاء العلمية ، وهذه وتلك سوف نفصل قولنا فيها آخر هذا التحليل . كما أن من أضرار النقل والاقتباس دون عناية بسياق القول هناك في التفاسير ، تكرر لفظ « وقد سبق » للإشارة إلى أمور يظن المؤلف أنه أوردها سابقاً ، ولكن لم يجدل أن أوردها . وكان من الأخرى به أن يخلف هذه الكلمة من موقعها ، ويضع ملخصاً لما تشير إليه (أنظر في هذا الأمر الصفحات ٢٨ ، ٣١ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٤٩) .

التعبير باستخدام كلمة (ولم يخلقته محمد) أو (ولا اخترته محمد) . في النص الخامس عدد المؤلف خمسة عشر مظهراً من مظاهر القدرة والحكمة والعظمة في الخلق والتدبير والتصرف في الكون . مسألة بسط الأرض التي وردت في النص السادس (الرعد / ٣) يقول المؤلف فيها : « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فإن أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطة . أما إذا انتظت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فإن أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطة . أما إذا انتظت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركبة فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي جعلها متسعة عمدة في الطول والعرض لتثبت عليها الأقدام ، وتهدم الطرق ، وقد عليها خطوط السكك الحديدية ، وتقام المباني وتسير المركبات ويعدد أورد كلاماً مكرراً عن الجبال الرواسي ، وفي نهايته يخلص القول : . . . فالجبال إذاً بروز للفترة الأرضية ، فكان الجبال حافظة لما تحتها مانعة له من الاضطراب والزلازل والثوران) . ثم أوضح كيف جعل الله الأنهار في الأرض ، وأشار إشارة لطيفة فقال : « وقد جعلت الآية الأنهار بعد الجبال الرواسي لأنها تنشأ منها ، فالسحاب عند قمم الجبال يسرد وتتجمع القطرات الرقيقة المكونة له مكونة قطرات كبيرة تنزل مطراً ملدراً كما يحدث في أماكن كثيرة مثل جبال الحبيشة التي ينبع عندها النيل الأزرق مكوناً أحد روافد نهر النيل . وحاول أن يعالج عملية الإخصاب في النبات

قطرات الماء حول دقائق صغيرة من الغبار والغيباء ، تكون معلقة في الهواء ، وتعتبر هذه الدقائق نباتات (أو كسويات - حسب ما ذكره المؤلف) لقطرات الماء . ودقائق الغبار هذه توجد في كل مكان ، فهي توجد فوق البحر النائية ، كما توجد فوق سفوح الجبال العالية . ويعدّه يتحدث عن المصادر الطبيعية لبخار الماء ، وتعرض لأهميته ، ووصل إلى طريقة تكون السحاب ، والفرق بينه وبين الضباب ، فالأول في طبقات عالية من الجو ، بينما الأخير يتكون قريباً من سطح الأرض . وفي معرض حديثه عنها أشار إلى أنواع السحب وهي : السحب الطبقيّة ، السحب الركابية ، السحب البيضاء ، والسحب المظطرة ، معطياً فكرة سريعة عن كل نوع . ثم انتقل إلى تعريف للمطر وأشار بالجزء إلى طريقة سقوطه ، وذكر أربعة عوامل تسبب نزوله ، وتكلم في تقدير كمياته ، وتوزيع مناطق غزارته ونسبته في العالم^(٩٩) . وفي نهاية هذا الجزء من الفصل تحدث في فقرتين اثنتين عن الشحن الكهربائي للسحاب ويورده في حدوث البرق والرعد . وقد تحللت الفصل صور فوتوغرافية أغلبها غير عدد التفاصيل ، ومنها ما يمكن تسميته « صور تذكارية » وليس « صوراً علمية » .

سابق صاحب الكتاب في هذا الفصل تصوراً قرآنيّاً تتعلق بالسحب والأمطار ، هي على الترتيب : النور / ٤٣ ، الحجر / ٢٢ ، الواقعة / ٦٨ - ٧٠ ، البقرة / ١٩ ، ٢٠ ، البقرة / ١٦٤ ، الأعراف / ٥٧ ، الروم / ٤٨ ، الرعد / ١٢ ، ١٣ ، فاطر / ٩ .

في النص الأول « الميزان الله يزيجي سبحانه ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً حتى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصبب به من يشاء ويعصره عن من يشاء ، يكاد سنا بركة يذهب بالأبصار »

وفصلاً كهذا يحتاج إلى صور أو أشكال توضح بعض مسأله وتزيد الموضوع بياناً ، فهو زائجر بالجليل ، مليء بالأهوار ، غني بالأزواج ، . . . وهو ما لم نجده ، عدا صورة بتيمة واحدة ، أوضحت أهمية أملاح البوتاسيوم الموجودة في التربة في نمو النبات ، ولو أن موضعها اللائق هناك في الفصل الخاص بالنبات .

ومن الانتصاف أن يحمّد للمؤلف صنيعه الجليل في الاتيان - أحياناً - بالآيات السابقة على كل نص من النصوص الاثني عشر التي حاول معالجتها في الفصل ، وذلك ليربط بينها وبين الآيات عمل المعالجة ، وهذا أمر نوه إليه في خطته العلمية لتناول الموضوعات الكونية ، وبأن أحياناً أخرى بالآيات اللاحقة لآيات النص المراد شرحه ، عساه أن تتم ما يريد أو تحل المشكلة شيئاً ما . ومن حسناته أيضاً إكثار الاستشهاد بآيات قرآنية عديدة في شرح النص الواحد . وهذه أمور نبه عليها الذين ومفكره عند التصدي للحدث عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، أو إن صح تعبيرنا : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن^(١٠٠) .

شغل الفصل الثالث : مساحة أقل قليلاً من تلك التي شغلتها المقالة السابقة . وفي فصله هذا يتناول مؤلفنا موضوع (السحاب والمطر) ، مقدماً له - كما فعل سابقاً - بتيمة علمية ، تناولها معالجة تسعة من النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع .

بدأ المؤلف فصله بحديث عن بخار الماء في الهواء ، محدداً طبيعته ، حيث أنه يوجد مختلطاً بالماء بكميات صغيرة أو كبيرة حسب الظروف . هذا البخار شفاف لا يرى . فإذا رأينا ضباباً في صباح يوم رطب ، فهذا الذي نراه ليس ببخار ماء ، ولكنه بخار تكثف إلى قطرات دقيقة من الماء . وعندما يتكثف البخار إلى ماء تتكون

(٩٩) انظر على سبيل المثال : غنيم (كرام السيد) : الصديق العلمي للآيات الكونية في القرآن . للإمام المصطفى (٣٩) ١٩٨٣ ، ص ٢٢ - ٢٧ .
(١٠٠) للعرض فمثل فخصيصاً للكتاب أكثر وفوراً في كتب منها : حسب النبي (٥) منصور : الكون والإيمان العلمي القرآن . طر الفلك العربي عمر ١٥ . ١٩٨١ ، ص ٣٩٧ .

يوضح المؤلف أن المقصود هو سوق السحب برفق إلى حيث يريد الله سبحانه ، ثم يؤلف بين قطع السحاب ، حيث تتقارب وتتجاذب نظراً لاختلاف شحناتها الكهربائية ، ثم يشارك فوق بعضه ، وهذه الظروف تؤدي إلى حدوث البرق والرعد ونزول المطر . أما عن الجزئية الخاصة بـ « البرد » في الآية ، فقد تكلم فيها عن طريقة تكونه وسقوطه وأتواؤه . في النص الثاني : « وأرسلنا الرياح فأتواهم من السماء ماء فأسقيناهموه وما أنتم به بخازنين » . يصدر المؤلف معالجته العلمية بكلام لطيف هو : سبقت هذه الآية الكريمة آية أخرى يقرر فيها المولى عز وجل أن ما من شيء يتنعم به العباد إلا وعنده خزائنه . فخرائن ملكه مليحة بما يحبه الناس من النقائس والنعيم والمخلوقات التي لا حصر لها . وهو لا يحس ما في خزائنه من عباده ، ولكنه يعطيهم إياها إذا بحثوا عنها ، وسعوا إلى كسبها من وجوهها بحسب السنن التي وضعها ، والنظم التي قدرها . . . ثم فصل بعض ما في خزائنه من النعم فقال : « وأرسلنا الرياح لواقص .. الآية » . ورد في غضون الشرح أقوال بعض المفسرين في معنى اللواقص ، إلا أنه كرر كلاماً عن أسباب حدوث البرق ، وحاول عقد مقارنة بين التلقيح الكهربائي في السحب والتلقيح النباتي . أما الجزئية الخاصة بعدم قدرة الإنسان على اختزان هذا الكم الهائل من الأمطار ومياه السحب فلم يوفقها المؤلف ما تستحقه من بيان^(٥) . في النص الثالث يقول ربنا سبحانه : أنه لو شاء لجعل المطر النازل علينا أجاباً ، ولأيضاح ذلك استعاد المؤلف كلاماً عن توزيع الغازات في جو الأرض ليصل إلى غاز النيتروجين ، وأنه يمثل أربعة أخماس حجم الهواء ، وأن الأكسجين يمثل خمسة . ومن خواص هذين الغازين أنها يتحدان عند

حدوث الشرارة الكهربائية في خطوطها ليكونا غازين هما أكسيدان من أكاسيد النيتروجين ، اللذين عند اتحادهما مع الماء يكونان حمضين ، وهذا يفسد طعم الماء . فلو أن التفريغ الكهربائي الذي يسبق المطر تكرر في الهواء تكراراً كافياً لتتبع عنه اتحاد النيتروجين مع الأكسجين مكونين الأكسجين سابقى الذكر ، ولذاب الحمضان الناتجان عنها في ماء السحب وحوله ماء حمضياً لا يسيغه الناس . وهذا هو موضع المأ الذي ين به الله على الناس من أنه يكيف التفريغ الكهربائي الذي يصاحب المطر بالقدر الذي ينزل به المطر ولا يزعج به الماء . في النص الخامس : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس . . . وعند معالجة الجزئية الخاصة بـ « الفلك » نجده يتوسع شيئاً لبيان عدة وجوه يدل بها جريان الفلك على وجود الصانع الأهل سبحانه وتعالى وهي : خلق الخمامات الأولية ووسائل صناعة السفن - خلق ظاهرة الطوفان - خلق خاصية اطمئنان الإنسان لركوب البحر - خلق ناموس الحاجة المتبادلة بين أفراد الجنس البشري وبعضهم . ثم اتجه لبيان كيف أن نبات الزرع بالمطر الماطل من السماء يعتبر إحياء للأرض . وعند « تصريف الرياح » في نفس الآية ، فقد تعرض لأسباب حركة الرياح في طبقات الجو ، ثم عرج على تسخير السحاب ، وانتهى إلى أن هذه الأمور الكونية الثمانية التي تناولتها الآية الكريمة لتدل دلالة قاطعة على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وعلى كونه قادراً مريداً واحداً . في النص قبل الأخير « هو الذي يرسم البرق خوفاً وطمأنينة » والسحاب الثقيل ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خفيته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد

(٥) يستطع الفيزيائي أن يستزيد في هذه المسائل من كتب مثل : الفلك (د / محمد جمال الدين) : الله والكون ، الحية المعركة الملقاة للكاتب بمصر ، ١ ، ١٩٧٦ ، ص ٤٧٢

تعرض للأمور التالية : كيف أن نزول الماء من السماء هو السبب في إنبات النبات ، كيفية تراكب الحب في سنبلة ، الفروق بين الزروع والشمار وحكمة تقديم الأولى على الأخرى ، وكيف تكون الشمار متشابهة وفي الوقت ذاته غير متشابهة ، وهذه كلها أمور وردت في شرح النص الثالث . أما قول الحق تبارك وتعالى « انظروا إلى ثمره إذا أنمر وينبع » فلم يتعرض له المؤلف بمثل ما تعرض له في كلامه عن النص الرابع ، إلا أن النصين من سورة واحدة أحدهما رقم (٩٩) والآخر رقم (١٤١) ، وعند عرض النصين معاً نجد أن الله أمر في الآية الأولى بالنظر في بليغ صنع الشمار والاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، وفي الآية الأخرى أمر الله تعالى بأكل الشمار « كلوا من ثمره إذا أنمر وآتوا حقه يوم حسابه » والانتفاع بها . وفي هذا تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الأذن في الانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية والحاصلة من الانتفاع بها سعادة جسمانية سريعية الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم .

عند شرح النص الخامس (يس / ٣٥ ، ٣٦) أوضح المؤلف أن « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » المقصود بها ليأكلوا من ثمر الجنات (الحداق والبساتين) وما عملته أيديهم مما غرسوا وزرعوا ، أو مما صنعت أيديهم من شراب وسكر ومرعى وما إليها . هذا وإن كان الكلام هنا لم يف بالتفصيل المناسب لهذه المسألة ، فإنك تجد التفسير أكثر عند شرح « الأرواح » ، فلم يذكر عنها إلا أنها الأصناف والأنواع ١- وفي شرحه للنص الثامن « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون » بينت لكم به الزرع والزيوت والنخيل والأعقاب ، ومن

المحال ، « بين المؤلف أن الله سبحانه ذكر قبل هاتين الآيتين مباشرة قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » ، فلما خوف الله تعالى العباد بانزال ما لا مرد له اتبعه بذكر هاتين الآيتين ، وذكر فيها أموراً أربعة تعتبر دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته هي : البرق ، السحاب الثقيل (وهو ما لم يذكره سابقاً عند تعليل أنواع السحب ! ! أوريا يقصد به « السحب المطيرة » التي ذكرها هناك) ، الرعد ، والصواعق .

موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب هو « النبات » ، وقد بدأه صاحبه بتفصيل حاجة الإنسان ثم الحيوان إلى النبات . وأشار إلى دور النبات في دورة النبتين ، وبعد تفصيل هذه المسألة في الفصول اللاحقة ، ثم شرح دور النبات في دورة الكربون في الطبيعة . وبين كيف تتوقف بعض الصناعات على الخامات النباتية . وعند كلامه عن الفحم الحجري وتطهيره نجد صورة لمجموعة من الأشجار ، فضل إرجاء التعليق عليها إلى نهاية هذا التحليل ، هذا مع العلم بأن كلامه عن الفحم (ص ٨٢ ، ٨٣) وأصله وكيفية تكوينه لم يأخذ حظه من التوضيح اللازم (٥) .

بعد تلك المجالة العلمية (أو العملية) كما يحلو للمؤلف صرأ أن يسميها) ، اتجه صوب الآيات القرآنية فأورد سبعة عشر نصاً هي : المؤمنون / ١٨ - ٢٠ ، الحج / ٦٣ ، الأنعام / ١٤١ ، يس / ٣٥ - ٣٦ ، الواقعة / ٦٣ - ٦٧ ، ق / ٧ - ١١ ، النحل / ١٠ ، ١١ ، طه / ٥٣ ، ٥٤ ، الرعد / ٤ ، السجدة / ٢٧ ، الشعراء / ٧ - ٩ ، الزمر / ٢١ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، يس / ٨٠ ، البقرة / ٦٦ ، عبس / ٢٤ - ٣٢ . ونرى أنه من الملفت لنظر القاريء في معالجة هذه النصوص معالجة تفسيرية أن المؤلف

(٥) انظر في ذلك : إمام (د) عبد الحميد السعد : حديث الإسلام من الأشجار . المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية بمرس ١٥ ، ١٩٨١ ، ص ٢٣١

الانتفاع من الأغنام والماعز (اللحم - الألبان - الصوف - الأشعار - الأنواع المختلفة) ، الانتفاع من الدواجن (اللحم الأبيض - البيض) ، الانتفاع من الأسماك (البروتين - الدهن) ، الانتفاع بالأسفنج ، الانتفاع بالمرجان والشعاب المرجانية ، الانتفاع بأصداف الرخويات وقواقع البحر - الانتفاع باللائحة الطبيعية (وطريقة تكوين اللؤلؤ وأهمية اللؤلؤ وقيمتها) ، انتفاع الانسان من الحشرات خصوصا دودة الحرير ونحل العسل (أسهل المؤلف في شرح فوائد العسل ومنافعه الصحية وفوائده الطبية للانسان ، لكنه أمسك عن شرح طرائق النحل في تعرفها على طريق العودة الى خلاياها ، وهو ما كان من اللائق ابراهه أثناء الحديث عن خلايا النحل وجمع العسل من رحيق الأزهار) .

يتتبع بنا المؤلف بعد ذلك الى النصوص القرآنية التي تتعلق بالموضوع فيتناول منها تسعة هي - حسب ورودها في الفصل : النور : ٤٥ ، النحل : ٨٠ ، النحل / ٦٦ ، النحل / ٦٨ ، ٦٩ ، الأنعام : ٣٨ ، النحل / ١٤ ، العنكبوت : ٤١ - ٤٤ ، النحل / ٧٩ ، ٨٠ ، الرحمن / ١٩ - ٢٣ .

النص الأول « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يشي على بطنه ومنهم من يشي على رجلين ومنهم من يشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » يوضح المؤلف أن هذه الآية الكريمة تتعلق بخلق الحيوان ، وهي دليل من الدلائل على وحدانية الله ، وقد تقدمها جيلان آخران على وحدانية الله تعالى ، أحدهما في الآية (٤٩) الخاصة بتسبيح المخلوقات وصلاتها ، والآخر في الآية (٤٣) الخاصة

بالسحاب والبرد والبرق ، وهما في نفس السورة القرآنية ، وأشير الى أهمية الماء للمخلوقات الحية ، ثم بينت طرائق مشي الحيوانات ، وشرح المؤلف فيها طريقة الحركة في الزواحف . ولا حظ في هذا النص الكريم

كل الثمرات . . . نجد إشارة لطيفة جديرة بالتسجيل هنا ، تلك هي أن الله سبحانه قد بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات ، واتبه بذكر ما يكون غذاء للانسان . وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر ما كور الانسان ، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات ، فقال في سورة طه (الآية ٥٤) « كلوا وارعوا أنعمكم إن في ذلك لآيات لأولي البصيرة » ، والترتيب المذكور في الآية المتقدمة ينبه على مكارم الأخلاق ، وهو أن يكون اهتمام الانسان بما تحت يده من أنعام أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى فالمقصود منه ما هو مذكور في قول الرسول ﷺ : « إبدأ بنفسك ثم بمن تعول » . كذلك فهناك معالجة علمية لموضوع استمداد الانسان الطاقة من الشجر الأخضر ، وهو المنصوص عليه في قول الله « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » (يس / ٨٠) (النص الخامس عشر في هذا الفصل) ، فتعرض المؤلف لبيان أن الطاقة التي يحصل عليها الانسان من الأشجار هي في الأصل طاقة شمسية ، وأشار الى الفهم المستخرج من باطن الأرض ، وهو أشجار طمرت ومرت عليها عصور . أما الصورة التي أراد بها المؤلف إيضاح عملية البناء الضوئي في النبات فسوف نرجيء التعليق عليها الى نهاية التحليل . وفي النص الأخير (البقرة / ٦١) الذي يحكي قصة بني اسرائيل مع سيدنا موسى في التيه ، أعطى المؤلف أفكاراً علمية عن نباتات التيم والصل والدمس وفوائدها الطبية ، ثم تعرض لمثل هذا بالنسبة للعنب عند شرحه للنص الأخير في هذا الفصل .

جاء الفصل الخامس عن « الحيوان » ، وشغل مساحة أكبر مما شغله أي من الفصول السابقة . عُد المؤلف في قسمه الأول من الفصل فوائد الحيوان : الانتفاع بالماشية (اللحم الأحمر - الألبان - الأسباح) ،

الرجوع إليها ، فالتمسدي للكتابة في مثل هذه الأمور الفرائية ليس بالأمر السهل ، ولا هو قاصر على عدد محدود من المصادر . في الفقرة الأولى من شرح النص الثامن في صفحة ١٥٣ ، يقول المؤلف : (وقد سبق أن عرفنا أن جسم الطيور مُحَوَّرٌ للطيران) ، وهذا ما لم يرد في الكتاب من قبل ، بل هو قد ذكر إشارة سريعة إلى هذه التحورات ، بعد العبارة المذكورة ، بينما نجده يشرح بالتفصيل كيفية طيران الطائر ، ثم يقع فيما وقع فيه مرات كثيرة من تكرار وإعادة لبعض المسائل كما حدث في صفحة ١٥٦ عن أصواف وأشعار الأنعام . كما أنه ذكر أحد الآراء في البحرين والبريزخ الواردين في : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » في النص الأخير من هذا الفصل ، فأين الآراء الأخرى في هذه المسألة ، والتي أجلاها بعض العلماء المحدثين^(٥٥) .

نأتي إلى أكبر فصول الكتاب حجياً ، وهو السادس في الترتيب ، وموضوعه « الإنسان » ، واستهله صاحبه بنبذة سريعة عن الإنسان ، ثم فصلها حين تكلم عن تطور الجنس البشري ، فتناول الجوانب التالية : تنازع البقاء الحاصل على الأرض ، وانقراض الحيوانات التي لم تملك قدرات تكيفية لمواجهة صروف الحياة العسيرة عبر الأزمان ، آدم وحواء : السلالات البشرية المختلفة الأشكال والألوان ، العوامل التي أدت إلى وصول الإنسان إلى المستوى الحاضر ، آدم وحواء خلق خاص من خلق الله ، بيان بعض قدرات ومواهب الإنسان ، ما هو العقل ؟ ما هي المدينة ؟ ، هل القوة العاقلة المدركة في الإنسان يمكن تحسينها ؟ ، أوجه الشبه بين الإنسان والحيوانات المحيطة به ، خصائص الجنس

قول الله فيه « يخلق الله ما يشاء » ثم لاحظ قوله تعالى في النص الثاني « ويخلق ما لا تعلمون » (النحل ٥ - ٨) . وهو النص الذي وضح فيه منافع ضرورة للإنسان من الحيوان وأخرى أقل ضرورة . وهنا أشار إلى ابتكار وسائل المواصلات الحديثة في قول الله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » ، فلماذا وردت بعد الخيل والبغال والحمير ، ومن قبلها ذكرت الأنعام من إبل وبقر وغنم ، فهو سبحانه الخالق لحمايتها الأولية من معادن وخلافة ، وهو سبحانه الخالق للعقول المفكرة والمخترة ، وهو سبحانه الذي شاء بانبلاج هذه الأسرار بعد أن كانت حبيسة الغيب . في النص الثالث شرحت كيفية تكوين اللبن من بين الفريث والدم ، وفي الرابع شرح النظام العام في خلايا النحل وذكرت الأشكال الخلقية لأفرادها . ولكن المؤلف غفل عن بيان السبل الذلل !! فلم يوضح فيها شيئاً^(٥٦) . وانتقل بعده إلى شرح كيفية بناء النحل لحليته ، وزود ذلك بصورة فوتوغرافية سماها أشكالاً ، إلا أن هناك فرقاً هاماً بين ما يسمى « صورة » وما يسمى « شكل » ، وهو ما لم يفتن له المؤلف الجليل أثناء عرضه للصورة في الكتاب . ولم ينس المؤلف أن يتكلم عن جمع الرحيق ، وعملية ارتشافه وتحويله إلى عسل ، ثم تعرض إلى تركيب العسل وهو كلام تكرر من قبل في هذا الفصل .

أما النص السادس : وهو الخاص باللحم الطري ، والحلية المستخرجة من البحار ، فلقد تكلم المؤلف فيه عن المرجان ، وأعاد كلامه عن المؤلف ، حيث أنه تعرض له بالتفصيل في صفحات سابقة من نفس الفصل . كما أنه لم يفصل القول في سورة النكبات ، وهو موجود في مراجع متفرقة ، نرى أنه كان يجب عليه

(٥٥) انظر في بيان ذلك بحثاً ثانياً هو : حليمي (د) محمد عبد الحافظ : العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم . مجلة علم الفكر والعلوم ، ١٢ (٤) ١٩٨٢ ، ص ٩١٢ .

(٥٥) لإجلاء هذا الأمر انظر كتاباً من : الطبري (د) محمد رشاد : وجدنا من الله كل شيء حي . مجلة للدراسة العامة للكتاب ، ١٠ ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ .
عشر (د) عبد العظيم عبد الرحمن : الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن . الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٠ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢٢ .

البشري (الخصائص البيولوجية والخصائص المدنية) ، تحديد موقع الإنسان في عالم الأحياء من حوله وبيان قدراته التكيفية مع ظروف البيئة المتغيرة . جاء خلق الإنسان بعد اجراء أحداث وتغيرات جسام في كانتات الطبيعة ، انقراض على اثرها ما انقرض وبقي ما استعلاح الحياة ، ثم خلق الله الانسان ، مذهب الانتشار وأصل مدينة العالم ، الكيفية التي بدأ بها الانسان تعلمه . ومن الجوانب أيضا : خصائص الباحثين والمكتشفين ، معيار نجاح الاكتشاف ، علاقة الانسان بالبيئة والمجتمع في صياغة شخصية وتحديد الشكل الحضاري له ، الحجم التعديدي لأصحاب المواهب والعباقرة في أي مجتمع ، موقع اللغة في موكب المدنية والحضارة ، أثر اللغة في المجتمع ، أهمية الكتاب والكلمات في حياة المجتمعات والناس عموما ، الجوانب الروحية في حضارة الانسان ومدنيته ، أنواع الخلق : الخلق الطبيعي - الخلق الحيوي - خلق النفس البشرية .

يقول المؤلف في صفحة ١٦٠ - الفقرة الثانية ، ما نصه : ولا يحسن أحد أن أول من عمر الأرض من البشرهما آدم وحواء ، بل عمرها قبلها بالعديد من السنين نوع من البشر متوحشون يعيشون في كهوف كالحیوانات ، ويتقاتلون مع الحیوانات ، وربما يصرعون كالحیوانات ، وقد انقرض كل هؤلاء ، ومن الانصاف أن نطلق على كل فرد منهم (الانسان البدائي) ، ولعل سائلا يقول : وماذا نطلق على الانسان المعاصر لنا اليوم ، هذا يطلق عليه (الانسان المعصري) أو (الانسان الحديث) .

يفهم من كلام المؤلف أنه قد سبق ظهور آدم وحواء على الأرض نوع مختلف من البشر ، وإذا كنا نطلق على البشر لفظ (بني الانسان) ، وهو شائع لدى الناس على اختلاف مشاربهم ، إذا فهناك إنسانان ، إنسان قبل آدم وحواء ، وإنسان ظهر مهيط هذين الأيوين . فهل هذا

كلام يرضاه العقل واللبين ، وهل في الاسلام ما يشير إلى هذه الفكرة !! ، نعوذ بالله من هذا ، وأدعو للمؤلف بالمغفرة . كما أننا في نفس الصفحة نجد المؤلف - وهو ذو الخبرة الطويلة في العلم وصاحب المهمة الدينية كما بان لنا من مقدمة الكتاب - لا يتورع عن ايراد قصة خرافية تحكي كيف حصل الفيل على خرطومعه ، ولم يضع فيها رأييه الشخصي ، ولم ينفيها ، بل أثبتها وكأنه من أنصارها ، وأرى من جانبي أن ذلك الصنيع مناف لأصول الكتابة العلمية ، لا سيما الذي يتعرض منها لمسائل عقيدية . ولا يجب أن يكون مكانه كتاب علمي يتعرض لمسائل قرآنية كالذي بين أيدينا الآن ، بل موضعه هناك في القصص الأساطيري .

عرض المؤلف في هذا الفصل ستة وثلاثين نصا قرآنيا لتحدث عن أحد عشر جانباً من الجوانب المتفرقة في الانسان ، فكانت النصوص التسعة الأولى متعلقة بخلق الانسان ، والنصوص الثلاثة التي تليها متعلقة بتعليم الانسان وتعلمه ، ثم تحدثت النصوص الثلاثة التالية عن مسؤولية الانسان عن أعماله ومحاسبته عليها ، والنصين السادس عشر والسابع عشر أوضحا أن الانسان خلق ضعيفا ، والنصان التاليان لما بينا غفلة الانسان عن المنعم سبحانه ، وكذا ظلم الانسان لنفسه . أما النصوص الأربعة (من العشرين الى الثالث والعشرين) فتتعلق بتنازل الانسان ، وبيان أنه سنة لتعمير الكون ، والنصوص الثلاثة التي تليها تحدد علاقة الانسان بولديه . النصوص من السابع والعشرين حتى الثلاثين تعالج مسألة النفس البشرية . ثم تقررت حقيقة الموت في النصوص القرآنية الثلاثة التالية ، وأتمتها المؤلف بتصنيف يؤكدان حقيقة البعث ، وانتهت النصوص كلها بنص يعطينا لقطات من أحوال الحياة الآخرة .

فيا يتعلق بخلق الانسان ، فإن الله سبحانه قد أبان

لللهن وحكاية لما كان متداولاً في الفلسفات المختلفة عند قدماء المصريين والبابليين واليونانيين من تصور للخلق على نسق ما يفعل الإنسان الصانع من مادة سابقة يشكلها ويصوغها في هيئة معينة ؟

في إجابته عن هذا السؤال ، يقول المؤلف في ص ١٨١ : . . . وليس من الواجب - بعد ما أوضحناه - أن نأخذ بحرفية الآيات ، وأن نفهمها على ظاهرها وأن نتصور أن الله تعالى قد خلق الإنسان من طين ، أو حرق الطين فجعله صلصلاً وشكل منه الإنسان ، إنما هذه الآيات تقريب للأذهان ، ومثال لما يفهمه الناس بطريق الحس والخيال . كيف يقول المؤلف لنفسه أن ينتهي إلى هذه النتيجة ، وهو الذي أخذ يشرح عناصر الإنسان وعناصر التربة بغية الوصول إلى أن أصل كليهما واحد ، يعني أن الإنسان خلق من طين ؟ ! إن ذلك ليس نبأ إلى الله منه ، ونودلو اطلع عليه صاحبه ليستعيده أو ليحكيه عن غيره من المفكرين ثم يبرأ هو منه أيضاً .

تكلم المؤلف في هذه الجزئية ذاتها عن مراحل الخلق « فلذا سويته ونفخت فيه من روحي » أي أن التسوية أولاً ، ثم النفخ في آدم . ثم الأمر بسجود الملائكة ، وهذا السجود ليس عبادة وإنما احترام وتوقير . ثم عند تعرضه للآيات ٥ - ٨ من سورة الطارق « فليَنظُر الإنسان صم خلق ، خلق من ماء دافق ، يفرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر » ، أخذ يوضح المؤلف الصلب والترائب ، ويشرح عملية الاخصاب في الإنسان ، ورسمها في شكل إصباحي ، ثم في النص التالي له : « أخذ يشرح خلق الأجنة ذكورا وإناثا . ولم يحذف تكرارات كثيرة وجدناها في صفحات هذه الجزئية التي انتظمت تسعة نصوص قرآنية . وفي النص السابع يشرح كيف أن الرحم في الأنثى قرار مكين ، ثم بعده يبين المقصود بالظلمات الثلاث ، وشرح من أجل ذلك عملية تكوين الأغشية الثلاثة في رحم الأنثى حول

عن أمور عديدة في هذا الموضوع ، نجدها في نصوص قرآنية منها ما أورده المؤلف : ص ٧١ - ٧٤ ، الحجر ٢٦ - ٣١ ، البقرة ٣٠ - ٣٤ ، الطارق ٥ - ٨ ، الشورى ٤٩ - ٥٠ ، الحج ٥ ، المؤمنون ١٢ - ١٦ ، الزمر ٦ ، التين ١ - ٤ . في معالجة هذه النصوص ، تعرض المؤلف للعديد من الأمور الخطيرة ، وهل أخطر من خلق الإنسان ومن قبله خلق السموات والأرضين ؟ ! . بدأ صاحب الكتاب هذه الجزئية من الفصل بشرح (تكوين الإنسان) ، فكانت جوانب حليقة كإي : المادة الحية الأولية (البروتولايم) ، البناء المستلوجي للجسم الانساني ، الخلية : الوحدة البنائية لجسم الإنسان ، الأعمال الفسيولوجية للخلية الحية ، أهمية الغذاء لحياة الخلية ، التركيب الكيميائي لمحتوى الخلية ، عناصر الجسم الأولية ، عناصر تركيب التربة . ومن هنا خلاص المؤلف إلى النتيجة الأتية وهي : أن الإنسان الأول - أي آدم عليه السلام (هناك في الجزء العمل من هذا الفصل وضع في كلامه أن الإنسان الأول لم يكن آدم ، بل هو إنسان قبل مجيء آدم وحواه إلى الكوكب ١١) وكذا سائر البشر . مخلوقون مما يتكون منه الطين . إذ أن العناصر التي يتكون منها الإنسان هي ذات العناصر التي يتكون منها الطين . ولكن لما كان هناك بؤن شامع بين الإنسان والطين ، أظهرها أن الطين جاد لا حياة فيه ، أما الإنسان الحي فهو كائن له كل مظاهر الحياة . وجب علينا التصديق بحدوث هذا الخلق بالقدرة الإلهية دون التفكير في كيفية الخلق ، إذ أنه حدث بطريقة لا نفهمها ، وهي فوق عقولنا ، وهي من الأمور الغيبية التي استأثر بعلمها الله وحده ، حيث يقول عز من قائل : « ما أشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . . . » ثم عرض المؤلف لسؤال خطير هو : هل خلق الإنسان حقاً من صلصال أو صلصال كالفخار أو حماً مسنون أو طين ؟ أم أن هذا الوصف تقريب

عامة يستطيع القارئ الواعي أن يصل إليها ، تلك هي موقع الفصل بين دفتي الكتاب ، فإن موضعه الملائم هناك عند الحديث عن السحب والأمطار والظواهر الجوية والنجوم والأرض وما شابه ذلك ، وأن يكون ختام الكتاب هو فصل « الإنسان » . الأمر الثاني هو أن الفصل الحالي يعد خلاصة لكتاب سابق للمؤلف عنوانه (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت نفس دار النشر بطبعه سنة ١٩٨٣ ، أي قبل نشر الكتاب الذي يراجع الآن بنحو عامين .

يستهل المؤلف الفصل بنبرة عن السحاب يقول :
نفتتح هذه النبرة بالقاء بعض الضوء على جوانب الموضوع بعرض معاني السحاب التي جاءت في نصوص الكتاب الكريم ، لعل في عرضها ما يزيدنا بصيرة بالقرآن ، ويجب على ما يتردد في أذهان كثير من الناس : ما هي السحاب ؟ . وعند الإجابة على هذا السؤال شرح المؤلف أربعة معانٍ للسحاب : ١ - جاءت السحاب بمعنى ما يعلو الإنسان قد نرى قلب وجهك في السحاب فلنوليكَ قبلة ترضاهما » (البقرة ١٤٤) . وهنا أبان كيفية ضيق الصدر حين الصعود في طبقات الجو .
٢ - جاءت بمعنى السحاب » وأنزل من السحاب ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » (البقرة ٢٧) . وهنا أعطى فكرة عن تكوين السحب والأمطار . ٣ - وجاءت بمعنى القبة الزرقاء التي تلو الأرض وتلامسها عند الأفق . وهنا شرح أن هذه القبة ليست حقيقية ، وبين سبب زرقاء السحاب ، فقال : والجو هو السبب في زرقاء السحاب ، فعندما يدخل ضوء الشمس جو الأرض تقابله جزيئات الغازات المكونة للجو ، وكذلك دقائق الغبار والهباء المنتشرة فيه ، وهذه تحدث « تشتتا » في الضوء لا يكون واحداً للأطوال الموجية المختلفة . فالجزيئات والدقائق تشتت الضوء الأزرق ، (أي الأطوال الموجية القصيرة) بدرجة أكبر مما تشتت بها الأطوال الأخرى الأطول

الخنين . أما النص الأخير ، والذي ذكر التين والزيتون وطور سين . . فإنه شرح خواص هذه النباتات ، على الرغم من أن الموضوع هنا ليس موضعها !!
في الجزئية الخاصة بمسؤولية الإنسان أعماله ومجازاته عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، يتعرض المؤلف لنصوص قرآنية منها « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً » ، ويوضح أن حياة الإنسان على الأرض لا تحتل إلا جزءاً يسيراً جداً إذا قيس بعمر الأرض ، وحتى يبين ذلك تكلم في المسائل الجيولوجية عن الكوكب الأرضي . وعندما وصل إلى بيان غفلة الإنسان عن المنعم الأعل ، وأن من صفاته الظلم وأول من يقع عليه الظلم هو نفسه التي بين جنبيه ، يشرح في معنى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » مثاليين : المثال الأول : تركيب الإنسان نفسه ، فهو مكون من أجهزة ولكل جهاز وظيفة ، ثم المثال الثاني : اللقمة التي يتناولها الإنسان في فمه ، منذ الخطوات الأولى لنشأتها على الأرض ثم تناولها ثم هضمها والانتضع بها في جسده .

وفي صفحة ٢٥٧ تحدث عن نوع من أنواع النفس البشرية (النفس المطمئنة ، وصفاتها الأربع ، ثم في الصفحة التي تليها تحدث عن النفس الانسانية كما عرفها علماء النفس . وعند التعرض لمسألة الموت أتى ببعض النصوص القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة ، ثم أوضح أن الموت نوعان : الموت المعادي والموت العلمي والحقيقي ، وهو لا يكون بتوقف الأجهزة والأعضاء عن أعمالها فقط ولكن يكون بموتها .

وعموماً ، فالتفصيل تغلب عليه كثرة النقول من كتب التفسير دون وزن الأقوال أو انتخا ب أفكار منها ومناقشتها ، وهذا مما يؤخذ على صاحب الكتاب .
اختتم الكتاب بفصل عن « السحاب » . وقبل الدخول في الفصول نود الإشارة إلى أمرين : أحدهما يعتبر بدئية

السنة الضوئية ، وأعطى تعريفا لهذه الوحدة وأمثلة ليها . وذكر أن « هالي » (والذي يحمل اسمه أحد المذنبات الشهيرة) هو أول من بين في سنة ١٧١٨ م أن النجوم ليست ثابتة في مواضعها ، فقد لاحظ أن (الشعري اليمانية) وبعض نجوم لامعة أخرى قد تحركت بقدر القطر الظاهري للقمر - وهو بدر - عن المواضع التي عثت لها في كتالوج بطليموس القديم . وترسل المؤلف في شرح الحركات ، ثم انتقل الى تقدير أقطار النجوم لتحديد أحجامها ، وساق أرقاما يترنح الانسان عند رؤيتها وتصورها . وذكر خاصيتين هامتين أخريين هي الحرارة والاضاءة فقال : درجة حرارة النجم تعين كمية الطاقة المنبعثة من وحدة المساحات من سطح النجم ، فلذا وجد نجمان متساويا الحجم فأكبرها سخونة يشع كمية طاقة أكثر ، ولذا وجد نجمان متساويان في درجة الحرارة فأكبرهما يشع طاقة أكثر . ولذا « فاضاءة » النجم (سطوعه الذاتي) تتوقف عل عاملين : درجة حرارته وحجمه . وفي تفصيل الجزئية تفترض المؤلف لمقاييس الاضاءة ، ومنحني $H - R$. يعادلها بالعربية منحني الحرارة - الاضاءة لبيان الارتباط بين درجة الحرارة النجم واطاها .

الفئة الثالثة من الأجرام السماوية (المجرات) ، وهي تظهر في كل جزء من السماء فيها عدا امتداد (الطريق اللبني) ، حيث ينفى الغبار والغاز في مجرتنا المجرات الأخرى خلفه . وترى في الكون مئات الملايين من المجرات ومنها ما نستطيع رؤيته بأصنخم تلسكوباتنا ، ومنها ما لا نحتي التلسكوبات الضخمة في الكشف عنه . . . وقد قام ليديون هويل من مرصد جبل ويلسون بدراسات مستفيضة للمجرات ، وتعرف على ثلاثة تراكيب أساسية للمجرات القريبة هي : البيضاوية والحلزونية وغير المنتظمة . ويمد أن جال وصال في هذا الميدان انتهى الى ما قد تقدم نستطيع أن .

موجة كالأحمر وغيره . وبما أن الضوء الأزرق يشتت بدرجة أكبر فسفلنا ترى زرقاء ، إذ أن ما يصلنا منها يتكون من هذا الضوء المشتت . ٤ - كما أنها جاءت بمعنى السقف المحفوظ والسقف المرفوع وجعلنا السماء سقفا محفوفا وهم عن آياتها معرضون (الانبياء ٣٢) ، « والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع » (الطور ١ - ٥) .

بعده أخذ مؤلفنا في تفصيل القول عن الأجرام السماوية ، وقسمها الى ثلاث فئات : الأولى : الكواكب ، الثانية : النجوم ، الثالثة : المجرات . في الفئة الأولى (الكواكب) ذكر أن الأقلمين كانوا يسمونها (الطوافات) أو (الجولات) ، وأن عددها تسعة تدور حول الشمس ، وأسماءها مرتبة حسب ترتيب بعدها عن الشمس كالآتي : عطارد - الزهرة - الأرض - المريخ - المشتري - زحل - أورانوس - نبتون - بلوتو . هذه الكواكب السيارة هي أقرب الجيران لنا في هذا الفضاء الكوني . ثم تكلم عن دوران الكواكب السيارة في أفلاك حول الشمس ، وأحجام هذه الكواكب بالمقارنة بأبعادها الشاسعة عن بعضها ، ووحدة قياس المسافات الموجودة بين كواكب المجموعة الشمسية فقط . ثم قسم هذه الكواكب حسب قربها من أمها الشمس الى « كواكب داخلية » و « كواكب خارجية » ، وبين النظام العام لدوران الكواكب حول الشمس . الفئة الثانية من الأجرام السماوية هي (النجوم) : يعتبر بعد نجم عن الشمس أحد مميزات الأكثر صعوبة في تعيينها ، ليس هذا لحسب ، ولكنه أيضا من أكثرها أهمية فكل التغيرات التي تتناول النجم أثناء حياته يمكن تنبئها من معرفة كمية الطاقة التي يشعها ، ولكن كمية الطاقة التي يشعها نجم في الفضاء لا يمكن معرفتها الا اذا عرف بعده . ثم تكلم في الأبعاد الشاسعة بين النجوم وبعضها ، وأن الوحدة لقياسها هي

الغاز تتحول طاقة الوضع الناشئة عن التجاذب الى طاقة حرارية وترتفع درجة الحرارة ، وعندما تبلغ هذه الدرجة في مركز النجم خمسة ألف درجة مطلقة يتحول (النجم البله) الى (نجم يافع) ، يمكن تعيين موضعه على المنحنى $H - R$ (الحرارة - الاضاءة) وفق اضاءته ودرجة حرارته .

وفي قول الله تعالى « ألستم أشد خلقا أم الساء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحائها ، والأرض بعد ذلك دحائها . . » (النزاعات ٢٧ - ٣٤) ، يوضح المؤلف أن الله سبحانه بعد أن قرر أنه بنى البساء ، شرح لنا كيفية البناء فقال (رفع سمكها) ، وفي شرح ذلك كرر المؤلف أقوالا وتفصيلا أوردته في الصفحات السابقة عن القبة الزرقاء حولنا ، وساء الكواكب ، ثم ساء النجوم ثم ساء المجرات . إذا كانت الصفة الأولى رفع الساء ، فإن الصفة الثانية هي « فسواها » أي جعلها خالية العيوب ، والصفة الثالثة هي « وأغطش ليلها وأخرج ضحائها » . . وإنما أضاف الليل والنهار الى الساء لأنها إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، ثم غروبها وطلوعها ، إنما يحصلان نتيجة لدوران الأرض حول محورها . وأخذ المؤلف بعد ذلك يشرح صفات وكيفية خلق الأرض في الآيات الكريمة ، وهذا ليس محلّه المناسب وإنما موقعه هناك في الفصل الخاص بـ (الأرض) .

في سورة ق (الآيات ٦ - ١١) يقول الحق تبارك وتعالى « أفلم ينظروا الى الساء كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج هيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . . » ، ومن روايت ما جاء به المؤلف قوله : ومن الملاحظ أن الله تبارك وتعالى ذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في الساء ثلاثة أمور في الأرض : المد والقاء الرواسي والانبثاق فيها . وفي الساء : البناء والتزيين

نقسم المادة في الفضاء النجمي الى ثلاث مجموعات رئيسية : السدائم المضيئة ، السدائم المظلمة ، الغاز والغبار في الفضاء النجمي (وهو الموجود بين السدائم) . وكانت آخر جزئية في هذا القسم من الفصل هي شرح فكرة أكدها اينشتاين بأن « الفضاء محدود ولكن لا حدود له » (المجموعة المحلية هي مجموعة من حوالي سبع عشرة مجرة ، مجرتنا إحداها وتكون المجموعة مجما صغيرا نسبيا) .

انتقل المؤلف الى الآيات القرآنية عن الساء والتي تبين بديع صنع الله سبحانه في خلقها وعظيم قدرته وأحكامه في تدبير أمرها ، وأورد ثلاثة عشر نصا هي على التوالي : لفصل ١١ - ١٢ ، النزاعات ٢٧ - ٣٤ ، ق ٦ - ١١ ، الرعد ٣ ، الواقعة ٧٥ - ٧٦ ، نوح ١٣ - ١٦ ، الذاريات ٤٧ ، يس ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ ، الفرقان ٦١ - ٦٢ ، الجن ٨ ، الأنبياء ٣٠ ، الملك ٣ - ٥ . في شرح قول الله تعالى في الأئين ١١ - ١٢ من سورة الدخان « ثم استوى الى الساء وهي دخان » ، يوضح المؤلف السدائم المضيئة والأخرى المظلمة ، وهو ما سبق أن أوضحه في القسم الأول من هذا الفصل ، إلا أنه عند تصويره ليلاد نجم من النجوم كان رائعا ، فلنلتقط منه لقطات : الغاز والغبار في الفضاء النجمي هو المادة الأولية التي تتكون منها النجوم ، وهو الذي سماه المولى عز وجل « دخان » ، وبما لا شك فيه أن درجة حرارة الدخان وقت أن تكون منه النجوم كانت أعلى بكثير من درجة حرارته الآن . . ولكن المولى - جل شأنه - وضع من السنن الكونية ما ينهم معها تخليق النجوم من الدخان ، كان تتزع كلة من الغاز نفسها من سائر الغاز الذي يكون السليم - مثلا بأن تقوم بحركة دوامية - ثم تبدأ في عملية تقلص ، ومثل هذه الكتلة المتقلصة من الغاز يطلق عليها نجما بدءا ، لأنه ليس ساخنا بدرجة كافية حتى يشع ضوءا مرئيا ، ولكن باستمرار تقلص

بالشمس وحركتها؟ ثم كان اجلاؤه لمعنى قول الله عن الجن «وَأَنَّا كُنَّا السَّاءِ فَوْجَنَاهَا مَلَكْتُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا» ، فأخذ يشرح الشهب والنيازك ، ويعطي أمثلة على ما ذهب إليه . أما بيانه المختص في معنى قول الله : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» ، جاء خلاصته ما أوضحه في أول الكتاب ، وهو ما فصله عليه الفيلسوف في الكائنات الحية .

في نهاية هذا التحليل لهذا الكتاب الجليل يجب علينا أن نبين أمورا هامة هي :

١ - الكتاب تنقصه خاتمة .

٢ - نسيان شرح اشارات مذكورة في بعض الصفحات ، فمثلا في صفحة ٢٩٢ عند الكلام عن النجوم المعالقة الزرقاء والنجوم المعالقة الحمراء ، وضع المؤلف اشارات رقمية ، ومن المفهوم أنها سوف تشرح ، أو يعطى لها معنى في ذيل الصفحة ، وهذا ما لم يحدث !! ونجد أيضا في صفحة ٣١٢ « شكل » ، فلا رقم الشكل ذكر ، ولا الشكل نفسه عرض في الصفحة نفسها أو حتى ما حولها .

٣ - نظرا لعدم مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة وكذلك نظرا لكثرة النقول من كتب التفسير ، فإني أجد تكرارات كثيرة جدا في غير أهمية ، فإني أجد كلاما في موضع أجد في موقع آخر ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : ص ١٦ ، ص ٣٥ - الفقرة الثانية ، ص ٣٨ - الفقرة الأخيرة ، ص ٣٩ - الفقرة الثانية ، ص ٤٠ - الفقرة الأولى ، ص ٤١ - الفقرة الأولى ، ص ٤٤ - الفقرة الرابعة ، ص ٧٠ - الفقرة الثانية ، ص ٧٤ - الفقرة الأولى ، ص ٧٦ ، ص ١٤٥ - الفقرة الأولى ، ص ١٤٩ - الفقرة الثانية ، ص ١٥٦ - الفقرة الأولى ، ص ١٨٧ الفقرة الثالثة ، ص ١٩٠ - الفقرة الثالثة ، ص ١٩٨ - الفقرة الثانية ، ص ٢١٠ الفقرة الثانية ، ص ٢٧١ الفقرة الثالثة ، ص ٢٩٢ - الفقرة

وسد الفروج . وكل واحد في مقابلة واحد ، فلذلك في مقابلة البناء ، لأن الله وضع والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة في أفلاكها ومزينة للساء ، والاثبات في الأرض شقها وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها .

أما في (التمد) التي تحفظ الساء كما هي في مواقعها وبنائها ، وذلك حسبما يقول الله تعالى في سورة الرعد « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، في ذلك يوضح المؤلف أن المقصود بهذه العمود هو قوى الجاذبية التي تتجاذب بها النجوم والكواكب ، وهناك قوة مضادة ناشئة من سرعة الدوران هي قوة الطرد المركزية ، وبتمادل هاتين القوتين يستطيع كل جرم سماوي الاحتفاظ بموقعه وعدم الانفلات في الفضاء الكوني اللانهائي . وعند وصوله إلى النص السابع في هذا الفصل ، نجد أنه يوضح كيف أن الله سبحانه بنى السماء والساء ببنائها بأبد وأنا لموسعون ، فلقد دلت البحوث الفلكية على أن المجرات تنهائى معا في جوع ، كل منها يطلق عليه « جمع جرى » . وكل جمع من المجرات هو مجموعة مفيدة داخل نفسها ومتماسكة بتأثير قوى الجذب المتبادلة بين جميع أفرادها . . وقد اقترح أحد الفلكيين أنه بسبب المسافات الكبيرة التي تفصل بين جموع المجرات يتوقف التجاذب ، ويحل بدلا منه تنافر ، إذ أن جموع المجرات يبدو أن كلا منها يتجنب الآخر . وقد دلت التجربة على أن الجموع المجرية تتبعنا ، وأن سرعة ابتعاد كل جمع تزداد كلما ازداد بعده عنا . والنتيجة الطبيعية لتفسير هذه الحقيقة أن الكون أخذ في الاتساع . وعلى هذا النحو أخذ المؤلف يشرح : « والشمس تجري لمستقر لها » ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار » ، « وتبارك الذي جعل في السماء بروجا - ما هي البروج ؟ وما أحوالها ؟ وما أنواعها ؟ وما أسمائها ؟ وما علاقتها

الأولى ، ص ٢٩٣ - الفقرة الثانية ، ص ٢٩٥ - الفقرة الثانية ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ص ٣١٤ - الفقرة الرابعة ، ص ٣١٥ . ففي هذه المواضع يقول المؤلف كلاما في مكان نجد قد قاله في مكان آخر وهكذا . .

٤ - مراجع الكتاب : ذكر المؤلف سبعة مراجع في نهاية الكتاب (ص ٣١٩) ، بطريقة بدائية لا تتناسب وجلال ثقافته وطول خبرته ، ولتضرب على ذلك مثالا بذكر مرجع منها : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، تأليف الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري ، وفي مرجع آخر يذكر : المصنف المفسر تأليف محمد فريد وجدي . فالأول أستاذ وحكيم وشيخ ، والآخر لم يجد له لعبا يضيفه عليه ١١ . كذلك فالطريقة العلمية لذكر المراجع لم تتوفر ، وقد اتفق أهل العلم والثقافة على نظم في ذكر المراجع أشهرها : اسم المؤلف مبدؤا باسم عائلته ، ثم بقية الاسم بين حاصرتين : عنوان الكتاب أو البحث أو المقال . دار النشر ، رقم الطبعة ، السنة ، الصفحات إجمالا إذا كان كتابا ، ورقم الصفحة المقصودة إذا كانت عملة (دورية أو غير دورية) . وذلك على غرار ما ذكرناه في ذيول بعض صفحات هذا التحليل . .

٥ - لما كان للمؤلف قد عرف عن الرجوع الى المراجع والمصادر العلمية الضرورية فلم يفتش فيها عند التعرض لحل المسائل التي تعرض لها في هذا الكتاب ، لكنه اكتفى بالنقل من قلة من كتب الضمير ، فإني لم أجدها بدا من الإشارة الى مراجع يستطيع القارئ أن يرجع اليها عند طلب الزيادة أو التحقق العلمي أو الوقوف على أمور معينة . سواء ذلك في المجالات الفلكية أو البيولوجية أو الجغرافية أو غيرها .

٦ - الصور والأشكال : هناك فرق بين « الصورة » وبين « الشكل » ، فالأولى تكون مأخوذة بآلة تصوير

(كاميرا) أي أنها فوتوغرافية ، ثم الوسيلة الثانية من وسائل الإيضاح هي « الأشكال » ، أي تخطيط لجسم أو عملية ما ، والمتفقد البعادي - ناهيك عن أصحاب التخصصات العلمية المختلفة - يعلم ذلك ، فلا تطلق على صورة فوتوغرافية لفظ (شكل) ، كما لا تطلق على شكل تخطيطي لفظ (صورة) ، فالدقة في التعبير إحدى عناصر الكتابة الجيدة ، سواء كان القالب الذي يحتويها مقالا أو كتابا . نقطة أخرى ، لكنها خطيرة بشأن الصور ، يجب التنبيه إليها ، تلك هي عدم جدية الصور ، فتجد مثلا في فصل (الحيوان) عند الحديث عن الدواجن وصناعات الدواجن صوراً للمؤلف ، وهيزور بعض المذابيح الآلية أو مصانع الدواجن (أنظر صفحات ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١) . فهذه صور « البوم » ذكريات وليس محله كتاب علمي - وإن كان موجها للمثقفين لا للمتخصصين - لا سيما وهو يتعرض لمسائل في غاية الأهمية ، فليس بعد القرآن الكريم أهمية تعدله .

ولما كان الكتاب اسلاميا فلا داعي إذا لظهر نساء غير محتشعات على صفحاته (أنظر صفحة ٥٢) ، فلا الصورة تعطينا تفصيلا لكفا ، ولا هي تجنبت ظهور امرأة ترتدي سروالا قصيرا (شورتا) . وعدم وضوح تفصيلات الصور أمر شائع في كفة ماجاه منها ، أنظر على سبيل المثال : صفحات ٥٥ ، ٨٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، وغيرها . في صفحة ٨٣ صورة لبعض الأشجار كتب تحتها (الغابات التي طمرت وكبوت الفحم) ، فكيف أنها طمرت ونحن نراها عيانا على صفحات هذا الكتاب ١٩ في صفحة ١٠٥ صورة ملتقطة من كتاب أجنبي عن التركيب النسيجي لورقة نبات (قطاع طولي منها - لم يذكر المؤلف ذلك) ، وحولها كلام باللغة الانجليزية ، فلم يترجم المؤلف هذا الكلام ، ولم يعطنا فكرة في تعليق قصير أسفل الصورة . في صفحة ١٢٤

في بحث سابق^(٥) ، هذا مع اقتناعنا بأن يكون المنهج كما يلي :

أ- عرض مفاهيم من القرآن تشير إلى الظاهرة الكونية أو البيولوجية .

ب- تتبع آراء المفسرين مع وضوح مواضع الاقتباس .

ج- صياغة المفاهيم القرآنية المفسرة في شكل قواعد وقوانين جزئية .

د- التطبيق العلمي (أو العملي) لما ورد في القوانين المصاغة من المفاهيم القرآنية المفسرة .

هـ- استنباط التوافقية بين المنهج العلمي الحديث ، ومنهج القرآن وأسلوبه في معالجة الظواهر الكونية ، مع إيضاح سبق القرآن وشمولية اشارته وصدقها المطلق ، وصلاحيه الانتفاع بها للانسان البدائي ولانسان عصر الفضاء ومن بعده على السواء .

فهل سلك المؤلف في معالجة الظواهر الكونية - التي ساقها من القرآن في هذا الكتاب - هذا المنهج ؟ !
الاجابة بالنفي طبعاً .

٨ - شيوخ كثير من الأخطاء المطبعية والأغلاط العلمية ، وها هي بعض هذه وتلك :

٩ - بناء على ما تقدم ، فإننا نوصي في نهاية هذا التحليل أن يراجع الكتاب مراجعة علمية وطبعية دقيقة من المؤلف ذاته ، أو من غيره من المختصين ذوي الكفايات العلمية الرقيقة ، ولا نظن أن دار النشر المسؤولة عن الكتاب تنفقد هؤلاء ، فهي كبرى الدور في مصر ، حتى يكون الكتاب على المستوى اللائق بجلال موضوعه ، وذلك عند إعادة طباعته .

ولا يفوتنا أن نذكر المؤلف بمجهوده المشكور الذي بذله في مجال الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وندعو الله له بالجزاء الحسن ، وأن يفكر له ما لم يتنبه إليه .
وعلى الله قصد السبيل .

صورة لرجل زنجي ينضخ في قوقعة أظنه يتلدى بذلك على أناس آخرين ، أو ربما يستغفر بعض الحيوانات . في صفحتي ١٤٠ ، ١٤١ صور لأقراص الشمع في خلايا النحل ، وكلها متقاربة ، ولا تعليق مفصل ي صاحب كل صورة من الصور الأربعة ولاحتتها في الصفحة التالية وكان يكتفي صورة واحدة من هذه الخمسة ، مذيلة بتعليق مركزف ومعمق . في صفحات ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ بآتين المؤلف بصور لحيوانات عملاقة يقول أنها من العصور البائدة ، فمن أين أتى بها ؟ في صفحة ١٩٣ شكلاً تخيظلياً لخطوات الأعصاب في أنى الانسان ، ونسي المؤلف أن يكتب تعليقاً على الجزئين السفليين من الشكل ، كما فعل مع الأجزاء الأربعة العلوية في نفس الشكل !!

معنى هذا أن صفحات عديدة قد أهدرت في صور لا أهمية لها ولا طائل من وراءها ، وإذا كانت المجالات والطابع تعطي أهمية قصوى لكل مساحة ورقية ، فالورق باهظ الأسعار ، والطباعة مرتفعة التكاليف ، فكيف بهذه الدار وهي كبرى دور النشر في مصر - تسمح بنشر مثل هذه الصور ، مع علمنا بأن القليل منها يجدي .

٧ - منهج التوفيق العلمي : كونك تنقل فقرات من كتب علمية وتنسجها في نسق متظم ، فهذا ليس بتأليف ولا إبداع ، وكونك تقتبس أو تقتطف سطوراً طويلاً من كتب التفسير ، فهذا أيضاً ليس بتأليف وإبداع ، وإنما التأليف والإبداع هو التخلخل في أعماق المسائل التي تتعرض لها ، موضحاً رأيك فيها ، أو آراء المتخصصين على أعلى مستوياتهم ، وهذا يستدعي الرجوع مراجع حديثة متعددة ، وإذا كان لمعالجة المسائل الكونية في القرآن مناهج أو برامج محددة القسمات فقد فصلناها

(٥) ختم (كلام السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن ، السليم العاصم (١٦١) ١٩٨٣ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

الكلية	موقعها	التصحيح المقترح
فطرت	الآية ٣٠ من سورة الروم ، ص ٩	فطرة
مؤكّد	السطر الرابع من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	مؤكّح ، أي أنه مرتبط ارتباطاً مؤقتاً بالأكسجين وليس بمصاحل تفاعلاً يؤدي إلى تغييره
يؤكد	السطر ١٢ من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	يتأكّج
السداد	السطر الثالث من الفقرة الثالثة ، ص ٣٩	أسدية مع سدة
تلاب لمواغ	السطر الثاني من الفقرة الثالثة ، ص ٣١	ثلاثة أنواع
الغضائل	السطر الأخير من الفقرة الأولى ، ص ٤٩	الشعب
العائلات	السطر الأخير من الفقرة الأولى ص ٤٩	التضائل
التشعّمة	السطر الأخير ، ص ٥٤	الشعّمة
غالبه	السطر ١٤ من الفقرة الثانية ، ص ١٥٢	كلايته
عديرات من		
العدد نسى		
الخويعلات	السطر ١١ ، ص ١٣٧	مجموعات من العدد لمعوي عل حديصلات
يخصي	الآية ٥ من سورة النور ، ص ١٣٢	يشي
الطوائف	السطر السادس ، ص ١٤٣	الأعداد ، لأن الطوائف هي الترجمة الصحيحة لـ Classes
ترشق	في عنوان الفسورة الواقعة في ص ١٢٨	ترشّاب أو ترشّش
ليتمحص	السطر الخامس من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	ليتمحص أو ليتمخض
جماعات -		
جماعه	السطر ١٩ من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	مواكب ، مرتبة
الالكتر،يات	السطر ١٠ من الفقرة الأولى ، ص ١٥٩	الالكترونات
ولكن الإنسان		
العصري هو		
سلفاً	السطر الثني ، ص ١٦٣	ولكن الإنسان المعصري هو حليها
وشاهد الفقرة	السطر السادس من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٣	وشادت الشفرة
قانون التربة		
العكسي	السطر الخامس من الفقرة الثالثة ، ص ٢٧٨	قانون التريع العكسي
حي	السطر الثاني من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٩	في حين
وما لها		
من فروع	السطر قبل الأخير في سورة ق ، ص ٢٩٧	وما لها من فروع

« لقد حصلت القطيعة يوم أظهر لنا لينى
شترلاوس ، بالنسبة للمجتمعات ، ولاكان
بالنسبة لالاولى ، أن « المعنى » لم يكن ، على
وجه الاحتمال ، سوى نتيجة سطحية أولمعان ،
أوزيد ، وأن ما يترقنا في المعنى ، ما يوحد
ثبنا ، وما يستحقنا في الزمان والمكان ، كان هو
النسق .

إن الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون
ويمكنون ويتكلمون (وحتى النقاشات في
الشارع والكتابات اليومية) بل وحتى الطريقة
التي يستعشر بها الناس الأشياء والكيفية التي
تأريها حساسيتهم ، وكل سلوكهم ، تحكمها -
في جميع المصور بنية نظرية ، نسق ، يتغير مع
المصور والمجتمعات ، إلا أنه يظل حاضرا في
كل المصور وكل المجتمعات » (١) .

ميشيل فوكو

الكتاب الذي نحن بصدده يتضمن نصين للفيلسوف
الفرنسي ميشيل فوكو . الأول تحت عنوان (نظام
الخطاب) قام بترجمته أحمد السطاني ، والثاني تحت
عنوان (إرادة المعرفة) ترجمة عبدالسلام بنعبد العالي ،
بالإضافة الى عرض ثالث حول (نيتشة ، فرويد ،
ماركس) منبيل نقاش ساهمت فيه نخبة من المفكرين .
في النص الأول ينطلق فوكو من تصور معين : البحث
عن علاقة الخطاب بالسلطة ، أنه يشعر بمدى خطورة
الخطاب ، لذلك يرغب (وهي رغبة جماعية) في أن
يكون « في الخطاب كصخرة رهيبة أو كعجزة عرضى ،
لا أن يكون ذلك الذي يصدر عنه الخطاب »

إن هذا الاحتراص مرتبط بالرغبة ، رغبة أن لا توجد
بداية ، لكنه أيضا تذكير بخوف وتوجس يصدر عن تفرد
قد يحصل في الخطاب .. لكن السلطة ترد على هذه
الرغبة - الاحتراص ، إذ تعمل على سن مجموعة من

نظام الخطاب وإرادة المعرفة ميشيل فوكو

ترجمة: أحمد السطاني وعبد السلام
بنعبد العالي
عرض وتحليل : علوط محمد

فالمجنون لا يعتد بخطابه ، لأن خطاب العقل لا يوليه العناية والاصغاء ، انه نوع من الصخب ، أعزل ومسلم ، حتى ولو كان يمثل دور الحقيقة ذات القناع لخطاب العقل . فعلاقة الطبيب بالمريض / المجنون تكشف عن هذا البعد ، فدور الطبيب ليس سوى اهداف السمع للكلام الحر ، فكيف يكون هذا الاصغاء قبولاً بخطاب المجنون ، مع علمنا أن الصمت لا يتأتى الا مع التوقف الصامت المعارض بين أجزاء الكلام ، لا سيما اذا كان الاصغاء يتعلق بخطاب يقع تحت استغلال الرغبة .

المبدأ الثالث هو منظومة الصدق والكذب ، انه ايضا طريقة خارجية لممارسة الرقابة . ان مجال تشكيل ارادة الحقيقة (الكيفية التي نوظفها للبحث عن الحقيقة ، ومجموع النوايا التي تهدف منظومة معرفية) ينظر إليها فوكو على أساس أنها منظومة من التبذ ، منظومة تاريخية قابلة للتعديل ، وذات طابع اكرامي قانوني ، خطاب الصدق هو الخطاب الذي نجله ونباهه . الخطاب الذي يجب أن ننصاع له باعتباره يمتلك السيادة . ان طرد السفطائيين من طرف الفلاطون تأسيس لمنظومة الصدق ، حيث انتقلت الحقيقة من طور فعل خاضع ، فتل فتل وصائب ، انتقلت من طور التعبير الى طور العبارة ، والعبارة بالذات . انجهدت الحقيقة صوب معنى العبارة وصورتها وموضوعها وعلاقتها بمصادرنا .

يحدد فوكو في اطار هذه المبادئ الثلاثة (الكلمة المحظورة ، تركة الجنون ، ارادة الحقيقة) مايل : ان المنظومة الثالثة أهم وأشمل ، اذ تشمل إليها المنظومتين الأولى والثانية لتصبأ فيها . خطاب الصدق تنصل من الرغبة والسلطة ، أصبح حديثه عن الحقيقة مقتنعا ، لا يعترف بها . لم يعد خطاب الصدق عند قدماء اليونان ذلك الخطاب الذي يستجيب لرغبة ويمارس سلطة على ارادة الحقيقة ذاتها . هكذا ظلت الحقيقة أماننا خادعة ،

القوانين ، تجرد الخطاب من سلاحه ، وقد تسمح له بنوع من الحرية ، ولكنها تظل تستمد أصولها من السلطة . يطرح فوكو هذا الرد بتهكم ، وهو نوع من التهكم التصعيدي ، ليكشف لنا أن تعارض الرغبة والسلطة مؤثر على قلق واحد ، يتمحور حول ماهية الخطاب في بعده المادي والوجودي ، هذا القلق المحفوف بمجموعة من الممارك والانتصارات . الاستهامية التي قلم الاستعمال الطويل أظافرها . تبقى الاشارة الى أن هذا الطرح الاستهلال لا ينفذ بعيدا عن مجال السلطة وعلاقتها بالخطاب ، خاصة إذا توقمنا عند الثيرة للمحمية التي تطبع هذا الاستهلال ، وفي مناطق أخرى من النص بكامله لصالح سلطته الذاتية .

يضعنا فوكو بعد هذا ، أمام مجموعة من الطرق الاجرائية التي يوساقتها السيطرة على الكلام ، مراقبته وانتقاه ، تنظيمه وإعادة توزيعه ، واسقاط ما فيه من رعب وخوف بأن كل مجتمع له طرقة الخاصة (النموذج الذي يتناوله فوكو هو المجتمع الغربي) ، وذلك حين يوزع مجموع هذه الطرق إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى تمارس اجراءاتها من خارج الخطاب ، في حين تمارس المجموعتين الأخريتين سلطتها من داخل الخطاب . كل مجموعة تتوزع عبر مبادئ فصلها فوكو بنان عبر هذا النص .

في المجموعة الأولى ، هناك ثلاثة مبادئ للحظر وممارسة الرقابة : منطقتان يحظر فيها الكلام (الحياة الجنسية والحياة السياسية) في هذا المجال تظهر أصسرة الخطاب بالرغبة والسلطة . ذلك أن التحليل النفسي يبين لنا أن الخطاب هو موضوع الرغبة ، كما يبين لنا التاريخ أن الخطاب هو السلطة ذاتها « ان الخطاب موضوع الرغبة ويمكن السلطة ، وليس الشكل الذي يعلن أو يشير إليها » .

المبدأ الثاني في الحظر هو ثنائية العقل / الجنون :

وقع عليه التعليق) . يقول فوكو في هذه النقطة بأسلوب شيق « ضرب من لعب النقد الذي يحدث اللاتجاهية عن آثار ليس لها أي حظ من الوجود ، وحلم غثائي لخطاب يولد مرة بعد أخرى في كل نقطة من نقاطه جديدا بريئا ، ليعاود الظهور ، مرارا وتكرارا ، بكل نظارة ، انطلاقا من أشياء وعواطف وأفكار » ، مثال ذلك الأوديسية التي تتكرر في ترجمة Berand ، ونصوص متعددة ، وفي رواية أو ليس . باختصار . ان وظيفة التعليق هي أن يقول في النهاية ما كان قد قيل هناك بصمت . . . وأن يقول للمرة الأولى ما سبق أن قيل (في هذه النقطة بالذات يلاحظ التدفق اللغوي والمجازي في كتابه فوكو حين يسمى إلى تأكيد هذه العادة والتكرار . راجع ص ١٧ ، ١٨) .

ثانيا هناك مبدأ آخر لتظيف الخطاب : (مصطلح يوظفه فوكو قصد الحديث عن طبيعة الخطاب المراقب ، بعد أن تم إخضاعه للمراقبة والحظر = ممارسة السلطة على الخطاب) . هذا المبدأ هو مفهوم المؤلف . ان المؤلف ليس ذلك الذي ينطق أو يكتب نصا . بل هو مبدأ لتجميع الخطابات وتأسيس ووحدة لدلالاتها وبؤرة تماسكها . كان ضروريا أن تستند الخطابات لمؤلف بالنسبة لعصور معينة ، خاصة الخطاب العلمي (اسم المؤلف مقابل نظرية ما) لكن الأمر انخفض منذ القرن السابع عشر . لكن بالنسبة لخطابات أخرى تميز موقف المؤلف ، وأصبح البحث عنه ضروريا (الخطاب الأدبي مثلا . .) يفرق فوكو بين مفهوم المؤلف كـ ما أنتجته النقد ، وبين المؤلف الحقيقي الذي يقطن في الخطاب كـ ضمير مهمته أن يكون شاهدا وحجة على الحقيقة (نموذج الخطاب العلمي) ، وبالمقابل فإن هناك نصوصا تروج بحاجة إلى مؤلف (الحديث اليومي) ، لكنها ليست خطيرة ، لأنها معرضة للنسيان . ان المؤلف يقوم بوظيفة معينة يحددها له عصره ، قد

والذين حاولوا مواجهة ارادة الحقيقة هذه بالحقيقة قلة يجب النظر اليهم باعتبار (نيتشه ، آرتو ، بلتي . . مثلا) .

كما يلاحظ فوكو أيضا أن ثمة إجراءات أخرى تتمثل في سعي ارادة الحقيقة لكي تفرض على الذات العارقة (قبل إجراء أية تجربة) وضعا معينا ، ونظرة معينة ، ووظيفة معينة ، إنه الاستعمال التقني الذي يجعل لانتشار المعرفة هدفا نفعيا حقيقيا (لتذكر المبدأ اليوناني القديم : ليكن الحساب قضية تخص المدن الديمقراطية ، حيث نتعلم منه علائق المساواة . . .)

اذا هنا بصدد سلطة اكراه ترمي إلى ممارسة نوع من الضغط على باقي الخطابات (يطبق فوكو هذا الأمر على مجموعة من الممارسات الاقتصادية والسياسية ليظهر كيف تتحول إلى قواعد وقوانين تعليمية في خطاب محدد) ثم يسمى بعد ذلك إلى تبيان إجراءات للمجموعة الثانية .

في هذه المجموعة هناك أولا مبدأ التعليقات والشرح : في هذا الصدد يقارن فوكو بين مجموعتين من أنواع الخطاب . هناك الخطابات التي تقال يوميا وتتداول وينتهي أمرها بانتهاة الفعل ذاته الذي نطق بها . وهناك الخطابات التي هي أصل لعدد من ضروب الفعل الجندبة للكلام ، حيث يعاد تناولها وتحويلها والحديث عنها . هناك أيضا خطابات قيلت ، وأخرى تقال ، وتستظل جاهزة للقول أبدا بقطع النظر عن صياغتها (النصوص الدينية أو القانونية أو الأدبية والعلمية . . .) النصوص لثانية على العكس من الأولى نصوص أمهات ، تأتي لتسجل السواد على البياض ، ولتلق بعد ذلك بالتعليق والشرح التي قد تحتل مكان الصدارة (مثلا بورخيس : يعتبره فوكو يلعب في اطار محاولة المحر الجذري لهذا التناقض بين الأصل والتعليق ، لكنه يسقط في الحفرة والتكرار لما

تخصيص الخطاب بثقة معينة ، واقصاء ذات أخرى .
تقليل عدد الذوات المتكلمة (مما يسمح بالقول بوجود
خطابات مباحة للجميع لا تفرض فيها هذه السلطة) .
إذا كان فوكويطرح نموذجاً لهذا الاحتكار بـ (شوكون)
امبراطور اليابان وامتلاكه للرياضيات ، والملاح
الانجليزي (ويليام آدمز) فالأمثلة لا تنقص في مختلف
المجتمعات أن عملية انتقاء المتكلمين تفرض نوعاً من
الطقوس المصاحبة للخطاب لتحديد مفعوله في المتلقي
وإعطاء القيمة لإكراهية للخطاب .

يستشهد فوكو في هذا الصدد (جماعات الخطاب)
التي كانت تشكل نوعاً من مصادرة الخطاب عن المتلقي
(وهو أمر يتعلق بصيغة وتقنية إنتاج الخطاب) . إذ لم
تعد لدينا مثل هذه الجماعات ، فإن لدينا ما يؤكد
خطورها بشكل آخر ، ويصورها انطلاقاً من مفهوم
التملك للخطاب عن طريق سبع قواعد معينة (نظام
النشر ، شخصية الكاتب ، الصيغة الرسمية
للكتابة ...) وهكذا نكون بصدد جماعة خطاب
مكشوفة ، ثم يستبدل بذلك الفارقة اللا تماثلية بين ما
نطلق عليه عملية (الخلق) ، واستعمال نظام السبق
وصولا إلى صيغة معينة . وحتى في الخطابات الحرة غير
الخاضعة للطقوس ، فإنه لا يمكن استبعاد هذا
الاقصاء . أبرز مثال يقدمه فوكو في هذه النقطة - حسب
رأيه - هو صوروبث الخطاب الطبي بين الطبيب
ومريضه .

ثانياً : مبدأ انتقاء المتكلمين / اللدب : فخطاب
العقيدة والدين والفلسفة مثلاً يؤكد على طريقة البدء
والبث السالفة الذكر ، ذلك أنه يكفي الالتجاء إلى
استعمال مشترك لمجمل الخطاب الواحد ، وبفضل هذا
الاستعمال تتحدد الانتماءات (حتى ولو كان المتمون
كثرة : ذلك أن خطاب العقيدة واللدب يسمى إلى
الدروع والانتشار) بفضل توفر الشرط الوحيد ، وهو

يعتمد هذا المؤلف ، لصالح ظهور مؤلف مغاير ، لكن
الوظيفة لا تتغير^١ ، والتي هي حصر مباحة الخطاب (هذا
المصطلح ينسجه فوكو في صياغة تلحم بين مبدأ التعليق
ولعبة الهوية التي تلبس التكرار وصورة الذات ، مثلاً
أن لعبة الهوية تلبس صورة الفردية ، وصورة الأنا ص
٢٠) . المبدأ الثالث : يتضح في مجال الفنون
(Discipines) هذا المبدأ يتعارض مع مبدأ
التعليق ومبدأ المؤلف . كل فن يشكل منظومة خاضعة
لمجموعة من القواعد والتعريفات والتقييدات . يستشهد
فوكو في هذا المجال بعلم النبات وعلم الطب) .
يستعين المؤلف في هذا الصدد بمفهوم النمط ، إذ يجب
على أية قضية لكي تنتمي إلى فن من الفنون أن تنخرط
في نمط أفق نظري معين . يقول فوكو : « إن علم النبات
والطب وعلى غرار سائر الفنون كلاماً صنيعاً أخطاء ،
وصنيعاً حقائق ، وليست الأخطاء واسباب أو اجساماً
غريبة . بل هي وظائف إيمائية وفعالية تاريخية » ،
وهكذا يعود ليربط بذاك مبدأ الحصر هذا في مجال الفن
بمنظومة الصدق . فلكي تكون القضية تنتمي إلى جملة
من الفنون ، عليها إضافة إلى ما ذكر ، أن يقال عنها إنها
صادقة . . أي أن تكون في دائرة الصدق (نموذج
ماندبل ، وهو عالم بيولوجي : لقد كان يقول الصدق ،
لكنه لم يكن في (دائرة الصدق) . وهكذا يخلص إلى أن
الفن مبدأ مراقبة الخطاب ولا تناحه . . أنه صورة لترهين
جديد مستمر للقواعد عن طريق لعبة الهوية .

في المجموعة الثالثة التي تسمح بمراقبة الخطاب
نلاحظ أن عملية المراقبة لا تتعلق بحصر مباحة
الخطاب ، أو السيطرة على ما في حوزته من سلطة ،
ولكن بتحديد شروط استعماله :

أولاً : مبدأ انتقاء المتكلمين / الطقوس : هذا المبدأ
يقوم بتحديد شروط استعمال الخطاب ، وفرض جملة
من القوانين على الذين يتناولونه . الهدف بالطبع هو

قراءة في مرحلة ثانية ، ولعبة تبادل في مرحلة ثالثة ، وهذا التبادل ، وهذه القراءة لا تعتمد سوى الرموز ، وهكذا يلقي الخطاب ذاته حللا يضع نفسه ضمن نظام الدال .

ضمن هذا التصور العام الذي طرحه فوكو لحد الآن ، يقرر على أن كل حضارة تنف من الخطاب موقفين : موقف التقديس الظاهر ، الذي يخفى موقفا ناليا وهو الخوف من هذا الخطاب ذاته ، وكتيجة ، فانها تعمل على ممارسة الحظر والرقابة عليه قصد السيطرة عليه .

وصولا الى هذه النقطة بضمتنا للمؤلف امام مشروعه الذي يطرح في هذا العرض والذي قرر الاشتغال به :

١ - اعادة النظر في لرواة الحقيقة

٢ - إرجاع صيغة الحوادث للخطاب .

٣ - تجريد الدال من كل سيادة .

هذا الطرح يقتضي مجموعة من الالتزامات :

١ - مبدأ القلب : ويضرب بالبحث عن الدور السلمي لتطهير الخطاب وتقطيعه للوصول الى مبادئ التطهير التي تحدد مصدر الخطابات ومبدأ وفرعها أو استمرارها ، وعند الوصول الى هذه النقطة يستلزم البحث عن مبادئ منهجية أخرى .

٢ - مبدأ الانفصال : الخطاب يتضمن منظومات من التطهير تشكل سيادة . هذه المنظومات ذات طبيعة قمية . لذلك يجب أن نرفع من شأن الخطاب ، بأن ند إله الكلمة والاعتبار . اذ يجب التعامل مع الخطابات باعتبارها ممارسات قائمة على الانفصال .

٣ - مبدأ النوعية : لكي يتحقق هذا المبدأ يستلزم ادراك أن الخطاب عتف نوقية الأشياء ، وبنارة نقرضها على الأشياء ، إذ ليس العالم في حال تواطؤ مع معرفتنا ، وليس وجها مقروا علينا الا أن نتطلع ونفك رموزه ، هذا التصور الجديد يحقق الاضطراب لحوادث الخطاب .

٤ - قاعدة للمحيط البراني : وذلك بأن تكون مسيرتنا في

الاعتراف بنفس الحقائق ، وتوافق خطابياتهم مع الخطابات الثابتة الصلاحية . ستكون المراقبة هذا على مضمون العبارة وشكلها وليس على الذات التي تتحدث ، البدهة أو السنة نوع من الخروج عن الخطاب سواء بالمبالغة المفرطة والتعصب أو بالخروج التام ، ذلك أن الانتباهات تتراوح داخل مساحة الخطاب والحدود المسموح بها للذوات المتحدثة . هكذا يربط المنهج الأفراد بالتماط من التعبير في حين يمنحهم عن غيرهم ، ويعد الخطاب أنواع الارتباطات بين الأفراد . وهذا تكون مهمة المنهج مزدوجة : إخضاع الذوات المتحدثة الى خطابات وإخضاع الخطابات الى جماعات .

ثالثا : التملك الاجتماعي للخطاب : يرى فوكو أن كلا من التربية والفلسفة تعملان على الحفاظ على تلك الخطاب ، يقول عن التربية : « ان كل نظام تربوي ما هو الا وسيلة للحفاظ على تلك الخطاب ، أو احداث تغيير يضمن ملائمة مع ضروب المعرفة والسلطة التي تفوز جميعها بكل خطاب » ، وهكذا يكون نظام التعليم أيضا نوعا من اصفاء صبهة الطقوس على الكلام ، وتكون الكتابة في نهاية المطاف نظاما وإخضاع عضارعا لما يسبق . ورغم أن فوكو يبدو تجريديا في هذا التوزيع ، فانه لا تفوته الملاحظة الى أن أنواع المراقبة المذكورة لاتعمل منفصلة ، بل تعمل بشكل كلي . الفلسفة بدورها (وهذا ينحو كلام فوكو نحو التقيد قليلا . .) تقوم نوعا من التواطؤ مع العالم . تؤسس به امكانية الحديث عنه ، وامكانية الحديث فيه . يتخذ فوكو الفلسفة في هذا المجال انطلاقا من مفهوم اللوغوس الذي ينهض عليه الفكر الغربي ، ليصل الى أحكام تستند الى التحاليل اللسانية في خلفيتها البنيوية ، ويقرر أن الخطاب ، سواء تعلق بمجال فلسفة الذات ، أو فلسفة التجربة الأصلية . أو فلسفة الوساطة الشمولية ، ليس سوى لعبة : لعبة كتابة في مرحلة أولى ، ولعبة

الخطاب تنطلق من الخطاب ذاته نحو الشروط الخارجية
للامكن ، لا أن ترتد إلى الخطاب بحثاً عن نواة أو
صلب غيوبه .

هذه المفاهيم السابقة تمهد جديداً ضابط لها توطئه
مفاهيم أوسع أخرى :

مفهوم الحادث - مفهوم السلسلة - مفهوم الاطراد -
مفهوم شرط الامكان . ويلاحظ ان هذه المفاهيم
تتعارض في حدودها (الحادث / الخلق والابداع) و
(السلسلة / الوحدة) و (الاطراد / الطرافة) و
(شرط الامكان / الدلالة) . لقد ظلت هذه المفاهيم
(الدلالة ، الطرافة ، الوحدة ، الابداع) عيمن على
تاريخ الفكر التقليدي لمدة طويلة .

يضيف فوكو في النهاية ملاحظتين :

١ - الأولى تتعلق بالتاريخ : ذلك أن مهمة المؤرخين
التقليديين كانت تسعى إلى بناء وحدة من خلال فحص
لمختلف العناصر والظواهر ، لكن الدراسات المعاصرة
اليوم أصبحت ترمي إلى تأسيس وحدات نوعية تشكل
سلاسل متعزلة ومفصلة تتمتع باستقلال ذاتي .

٢ - المشاكل النظرية والابستمولوجية التي تنتج عن
مفهومي السلسلة والحادث ، حيث الحادث ينشأ في
أحضان التشتت المادي مفعولاً له ، ومفعولاً فيه ،
وذلك حين ينحصر بانتهاء نزعة مادية للاجسمي . ثم
مشكل التصور الذي يرى أن العلاقات التي تقوم بين
السلاسل مفصلة ، بحيث ينبغي اعداد نظرية في
المظومات القائمة على الانفصال خارج فلسفات الذات
والزمن .

ان التنظير الذي يقدمه فوكو لا يخلو من شوائك
تتمثل في التالوث (الصلغة ، الانفصال ، الواقعة
المادية) بحيث أن كل نظرية تسعى لإقامة زخخة في
الفكر يجب أن تحترس من مغبة السقوط في آلية هذه
المفاهيم .

يظل سعي فوكو دؤبياً من أجل إقامة نظرية معرفية
متينة على التصورات السابقة . وهذا بالطبع ماطبقه
على تركة الجنون والجنس والمراقبة والعقاب . في هذه
المحاضرة نجد صدى لكتبه التي سبقت والتي ستأتي فيما
بعد . لقد أكد فوكو أنه لا يقول فقط . . بل يمارس
القول من خلال اعماله المتنوعة التي تناولت دراسة
وظائف النبؤاخطر ومنظوميتها . مفسراً كيف تحدث ،
وكيف يتم الحفاظ عليها ، وكيف تختار الحقيقة ، ثم
كيف تأسس خطاب الصدق والكذب ، والاشتغال على
قياس مفعول الخطابات في مجال الممارسة (مثلاً دور
الخطاب الطبي والنفسى في مجال ممارسة العقوبة . .) .
أيضاً يركز هذا المشروع على دراسة إجراءات الحصر
(مبدأ المؤلف ، والتعليق والقرن) وهو ما قام به في
تاريخ الجنون والطب العقلي في القرن السادس عشر .
والثامن عشر وأيضاً في مجال النقد الأدبي ، والتاريخ
الأدبي ، كل هذا سعياً وراء الكشف عن عملية تطهير
الخطابات ، لكن هذا العمل لا يكتمل الا بظنائر كل
من الوصف العينيولوجي ، والوصف النقدي . فوكو في
نهاية المطاف ، يقدم اعتراضاً بالامتنان والفضل لمن
استفاد منهم ، من أساتذته (ديموزيل ، كانكلسهم ،
جان هيوليت) . هذا الأخير الذي ينظر إليه على أنه
هيجلي ، حاولوا أن يثبت كيف تمت هذه الاستفادة في
الوقت المعاصر الذي تسعى فيه الفلسفة إلى انفلات من
كل ما هو هيجلي .



في النص الثاني المعنون (حفریات المعرفة) يقدم لنا
فوكو تصوراً غير متعاد لمجهود علماء التاريخ (المؤرخون
= استعمال مطلق) ، مؤكداً على نوعية الأدوات
المستعملة للبحث في تاريخ المعرفة ، وموضعا مراتب
ومستويات التحليل المختلفة .

انطلاقاً من الدراسة التي تستند إلى حركة التراكم

ان التحليل في شكله القديم كان يسعى الى اقامة (ذاكرة) تقوم على أثريات الماضي عموما اباما الى وثائق . أما اليوم فان التاريخ هو ما يحول الوثائق الى اثريات . أن تصوروا على هذا المستوى يترتب عنه نتائج أربعة :

١ - المفعول السطحي الناتج عن ابراز تعدد المستويات الانفصالية ، دون وعي يخلق تاريخ وزمن خاصين بها .

٢ - الكانة العظمى التي أصبح مفهوم الانفصال يمثلها في الدراسات التاريخية ، حيث انتقل من كونه حاجزا في الدراسة الى مفهوم اجرائي .

٣ - الغاء فكرة التاريخ الشامل ، وبداية تكون التاريخ العام ، ذلك أن الأول يضم جميع الظواهر حول مركز واحد ، بينما الثاني يرسم فضاء تشتت وتبعثر .

٤ - مجموعة المسائل المنهجية التي أخذت تطرح في اطار التاريخ الجديد (تكون الوثائق المسقة والمنسجمة ، وضع مبدأ الاختيار بينها ، تحديد مستوى التحليل والعناصر الهامة فيه ، تعيين منهج التحليل ...) .

ان قراءة هذه المستويات في التحليل الذي يطرحه فوكو تتطلب رؤية يتداخل فيها مجموع من العلوم (المناهج ، التاريخ) ، الانثربولوجيا ، البيئية ...) وان بلورة مثل هذا التوجه تستدعي ليس عملا فرديا ، بقدر ما تستدعي عملا تفرغيا جماعيا . ذلك أننا بصد تأسيس تحول إبستمولوجي لازل لم يكتمل بعد .

ان فوكو من خلال هذه المحاضرة يقدم عرضا مكثفا لمجموع هذه التصورات ملء بالاحالات الى مجموعة من الحقول المعرفية ، ويعمد الى التنظير والملاحظة والتقصي ودراسة الوثائق وأرشيف للماضي . . ان عملا مثل هذا لا يمكن أن نتقدم بالحكم عليه الا بعد « قراءات » بالغة الوعي والدقة والتصور .



والاشباع والكلم ، أسس عليه التاريخ تحليلا متظا ومتواصل ، يقوم على التعاقب الخطي ، وسبر الأغوار ، مما دفع الى نشوء مستويات أخرى من التحليل . هذه المستويات أصبحت تشكل مراتب تصاغ في شكل (سلاسل = ص ٥٠) وظواهر تنحو نحو الانفصال (ص ٥٠) . ونلاحظ هنا انها نفس المفاهيم التي تمت الاشارة اليها سابقا فيما يتعلق بنظام الخطاب .

حول مفهوم السلسلة يوضح فوكو أن الاسئلة التقليدية للتاريخ ، تقوم على الوصل بين الأشياء والقامة علاقات تربط بين الوقائع غير المتصلة ، وفرض تعاقب ضروري عليها . في حين أننا نجد أن الاسئلة المعاصرة تدعو الى الفصل بين الأجزاء وإقامة مراتب للتحليل معزلة .

وحول مفهوم الانفصال . انتقل البحث من رصد الوحدات المسقة التي كانت تنظم عبر عصور وحقب الى دراسة تقوم على تبين عواقب الانفصالات داخل هذه الوحدات ويصطى فوكو أمثلة لأنواع من هذه الانفصالات .

١ - الأفعال والعتبات الإبستمولوجية التي وصفها باشلار (البحث في تشكيل المعرفة ونحوها)

٢ - تحول المفاهيم وانتقالها من ميدان الى آخر (مع تطبيق حول المصطلح)

٣ - المستوى الصغير والمستوى الكبير .

٤ - إعادة التوزيع التراجمي للوقائع

٥ - وحدات المرح البيئي للانساق الفلسفي

المهدف بالطبع من هذا العمل هو الوصف التاريخي لتنين الوقائع قصد بناء تحليل ينطلق من الاتصال الى تأسيس انفصال في رؤيتنا للمعرفة (يستلم فوكو في هذا الصدد مجموعة مفاهيم مساعدة : العتبة ، الفصل ، القطيعة ، التحول) .

داروين ، فرويد ذاته) نيتشه أقام جدلا طويلا ينتقد عبره الاعماق الفكرية ، وأغوار اللاشعورية لكشف الخنوع والتناقض ولباس الأتعة ، ثم أخيرا تعليمة ماركس للسلط كشفها عن الحقائق التاريخية المستمرة .

لقد طرح التأويل مع هؤلاء مبدأ التشابه ، وأصبح تأويلا لا نهائيا على عكس القرن السادس عشر على أن كل تأويل سابق أو لاحق يظل علقا ، قابلا للفحص ، بما ينتج عنه (وهذا ما يرغب فوكو في الوصول إليه) تشكيل وظهور انفصال في المعرفة .

إن التفسير حول الموضوع السذي ينصب عليه التأويل ، يقودنا الى الحديث عن العلامة . . . اذا حدث أن توقف التأويل ، فلأنه لم يبق هناك ما يؤول من جهة ، ذلك أن عناصر الحقيقة في التأويل هي بدورها تأويلا . وهكذا فإن التأويل لا يؤول هؤلاء ينصب على تأويل سابق ، وهنا نجد التأويل ذاته مرضا على أن يؤول ذاته الى مالا نهاية .

لقد سمعنا هنا الى توضيح مجموعة من التصورات التي يقدمها فوكو في هذا الكتاب - رغم الكشافة المعرفية العميقة لهذا المؤلف - ونحن نأمل أن يكون هذا العرض معرض استفادة . . . ذلك أن المؤلف في هذا الكتاب يضع الخطوط العريضة للمشروع المعرفي الذي ظل يشغل عليه طوال حياته ، والذي سيفصح عن نفسه في كتاباته ومصنفاته التي خلفها بعد رحيله . ونذكر أن للنص الأول من الكتاب ترجمتان لكل من صالح هاشم في مجلة الكرمل عدد ١٠ ، ومحمد بسيلا من المغرب في كتاب مستقل بالإضافة الى الترجمة التي نحن بصدها مما يبين أهمية هذا النص وقيمته في الحقل المعرفي الفلسفي والعلمي المعاصر .

في العرض الثالث (نيتشه ، فرويد ، ماركس) ، والذي هو عبارة عن مائدة مستديرة موضوعها : تقنية التأويل عند ماركس ونيتشه وفرويد يقدم لنا فوكو تطورا للتأويل على هذا الشكل :

لدراسة تقنية التأويل ينبغي إقامة نوع من الموسوعات التي تضم تاريخا لتقنيات التأويل منذ الاغريق الى الآن . ان صيغة اللغة تستدعي التأويل ، لا يمكن أن نطمئن الى المعنى المقول . كما لا يمكننا أن نتوقف عند الصياغة اللفظية للكلام . إذ أن ثمة خطابات أخرى ذات طبيعة لا لغوية .

ان كل حضارة ، وكل نمط ثقافي له تقنية خاصة في التأويل ، لهذا نقف على منظومات متعددة للتأويل . في القرن السادس عشر كانت تقنية التأويل تقوم على مبدأ التشابه الذي شكل منظومة مضبوطة تتحكم فيها خمسة مفاهيم : (التلازم Convenientia ، التعاطف Sympatheia التوازي Emulatio ، الأثر Signature ، والتجانس)

منطق التشابه يقتضي داخل نظرية الدلائل (Signe) الالتجاء الى إجرامين : هناك الانتقال الجانبي من تشابه الى آخر (Cognitio) ، والمعرفة المحممة التي تنتقل من تشابه سطحي الى تشابه أكثر عمقا (Divinatio) .

تغيرت تقنيات التأويل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر انطلاقا من النقد الذي وجهه سيكون وديكارت لبدا التشابه ، لكن في القرن التاسع عشر نجد ماركس ونيتشه وفرويد امكانية قيام تأويل جديد ، يمكن رسمه في كتب هؤلاء المفكرين وما أحدثته في الفكر الغربي من صدمات . لقد كشف فرويد على ثلاثة جروح نرجسية في الثقافة الغربية (كوبرنيك ،

العدد التالي من المجلة
 العدد الثالث - المجلد السابع عشر
 أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر
 قسم خاص عن
 «علوم الصحاري»

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

(أ) علوم الصحارى

(ب) الهجرة والهجرة المعاكسة

(ج) الدراسات المستقبلية

(د) المسرح

(هـ) الحاسب الآلى

(و) الأمن الغذائى

(ز) الثقافات فى العالم الثالث

(حـ) الجنون فى الادب

(ط) التجديد فى الشعر

ليرات	٣	مورديا	٥	الخليج العربي	٥
ملينا	٢٥٠	المهاجرة	٥	المسودية	٥
ملينا	٢٥٠	المودان	٤٠٠	البحرين	٤٠٠
قرشا	٢٥	ليبيا	٤٥	اليمن الشمالية	٤٥
بايه	٤٠٠	مستط	٤٠٠	اليمن الجنوبية	٤٠٠
دنانير	٥	الجزائر	٣٠٠	المراة	٣٠٠
مليم	٥٠٠	تونس	٢٥	لبنان	٢٥
دراهم	٥	المغرب	٢٥	الأردن	٢٥

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢٥٠٠ دينار

البلاد الاجنبية ٢٠٠٠ " "

تحويل قيمة الاشتراك بالريال الكويتي لمساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية فخالصة الصاري
على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب. ١٩٣ الكويت

مطبوعة بحكومة الكويت

الشمس
٢٥٠ فلس

